

ستيڤن كينج

STEPHEN KING

مكتبة



اليوم الذي غيّر العالم

11.22.63

ماذا لو استطعت تغييره؟



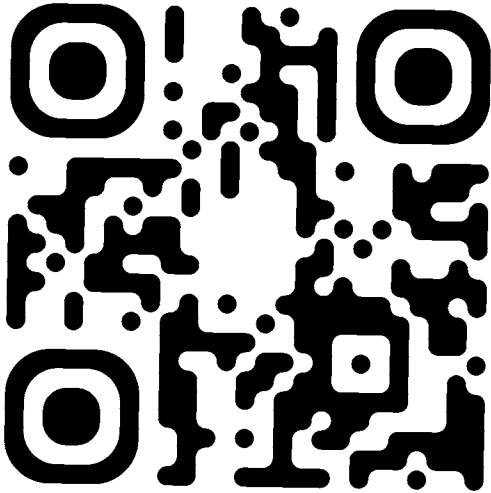
رواية

ترجمة: محمد عبد العاطي

اليوم الذي غيّر العالم

11.22.63

ماذا لو استطعت تغييره؟



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email: P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: 11.22.63
- العنوان العربي: 11.22.63 (المجلد الأول)
- حقوق النشر:
- تأليف: ستيفن كينج
- ترجمة: محمد عبد العاطي
- تحرير: أحمد حسين
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- رقم الإيداع: 2025/19583
- الترقيم الدولي: 978-977-992-563-9
- © 2011 Stephen King.
- Published by agreement with the Lotts Agency, Ltd.
- الطبعة الأولى: أغسطس 2025
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

مكتبة
t.me/soramnqraa

ستيڤن كينج STEPHEN KING

اليوم الذي غيّر العالم

11.22.63

ماذا لو استطعت تغييره؟

رواية

ترجمة: محمد عبد العاطي



إلى زيلدا..

أهلاً عزيزتي.. مرحباً بك في الحفل.

من المستحيل لعقولنا تصديق أنَّ رجلًا مغمورًا
تافهًا استطاع وحده قتل رئيس وسط سياراته الرئاسية،
وجمهوره، وحاشيته، وحراساته الأمنية. إذا كان في
استطاعة هذا الشخص التافه اغتيال زعيم أقوى أمة
على وجه الأرض، فإنَّ عالمًا من اللامنطق يبتلعنا،
ونعيش في كونٍ مختل التوازن.

- نورمان ميلر

في عين المُحِب، حتى ندوب الجذري تبدو جميلة
كالغمازات.

- مَثَل ياباني

الرقص حياة.

11/22/63



لم أكن يوماً رجلاً يمكن وصفه بأنه كثير البكاء.

قالت زوجتي السابقة إنَّ «جمودي العاطفي» هو السبب الرئيسي الذي دفعها لهجري (كما لو أن الرجل الذي التقت في اجتماعات "جمعية مدمني الكحول المجهولين" لا علاقة له بانفصالنا). قالت كرسّتي إن بوسعها مسامحتي على عدم بكائي في جنازة والدها، إذ عرفتُه منذ ست سنوات فقط ولم أعرف عنه أنه كان رجلاً رائعاً معطاءً (أهداها سيارة موستانج ذات سقف متحرك عند تخرُّجها في المدرسة الثانوية، على سبيل المثال). لكن بعدها، عندما لم ألبك في جنازة والديّ، اللذين لم يفصل بين موتهما سوى عامين، أصيب أبي بسرطان المعدة، وتعرضت أُمي لنوبة قلبية مفاجئة وهي تتمشى في أحد شواطئ فلوريدا - بدأت كرسّتي تقتنع بجمودي العاطفي، رأت أنني «غير قادر على الشعور بمشاعري»، حسبما يقولون في اجتماعات جمعية "مدمني الكحول المجهولين".

قالت لي بنبرة من يتحدثون عن الخطوط الحمراء الحاسمة في استمرار علاقة أو انتهائها: «لم أرك تذرف دمعاً قط، حتى عندما خيّرَتنِي بين ذهابي إلى مركز إعادة تأهيل وبين انفصالنا». جرى هذا النقاش قبل نحو ستة أسابيع من حَزْم أغراضها، وقيادتها سيارتها إلى الجانب الآخر من المدينة، لتعيش مع ميل تومبسن. «فتى يقابل فتاة في اجتماع لجمعية مدمني الكحول المجهولين». وهذه مقولة أخرى يرددونها في تلك الاجتماعات.

لم ألبك عندما شَيَّعْتُها إلى خارج البيت مُودِّعاً، كما لم ألبك عندما عُدت إلى داخل البيت الصغير الذي عليه رهن عقاري كبير، البيت الذي لم يأت

إليه طفل، وبعد الآن لن يأتي أبدًا. اضجعت على الفراش، الذي صار لي وحدي، ووضعت ذراعي على عيني، وحزنت.
بلا دموع.

بيد أنني لا أعاني كُبتًا عاطفيًا. كرسّتي كانت مخطئة في هذا الشأن. ذات يوم عندما كنتُ في التاسعة، قابلتني أُمي عند الباب عندما عدت من المدرسة، وأخبرتني بأن كُلي "راغز"، الذي من فصيلة الكُولي، صدمته شاحنة فقتلته، ولم تتوقف. لم أبكِ عندما دفنَّاه، رغم أن أبي قال لي إنَّ لا أحد سيزدريني إذا بكيت، لكنني بكيت عندما أبلغتني أُمي بالخبر، لأن هذه كانت أول تجربة موت لي، والأهم من ذلك لأنني كنت مسؤولًا عن تقييد راغز في باحتنا الخلفية.

وبكيت عندما اتصل طبيب أُمي بي وأخبرني بما حدث في الشاطئ ذلك اليوم: «يُؤسفني ما حدث، لم تكن لدينا فرصة لإنقاذها، أحيانًا يحدث الأمر فجأة، وكثيرًا ما يرى الأطباء في ذلك خيرًا».

لم تكن كرسّتي موجودة في ذلك اليوم، اضطرت إلى البقاء في المدرسة حتى وقت متأخر لمقابلة والدَة أحد التلاميذ لأن لديها أسئلة بشأن آخر درجات ابنها. لكنني بكيت. دخلت إلى غرفة الغسيل الصغيرة وأخرجت من السلة ملاءة متسخة وبكيت فيها. لم أبكِ مدة طويلة، لكنني ذرفت دموعًا. كان بوسعي إخبار كرسّتي عن دموعي لاحقًا، لكنني لم أر فائدة من إخبارها؛ لظنَّتُ أنني أسعى لـ "استدراار الشفقة" منها (وهذا المصطلح لم يكن ضمن مصطلحات جمعية مدمني الكحول، لكن ربما ينبغي أن يكون)، كما لم أخبرها لأنني لم أر أنَّ القدرة على الإجهاش بالبكاء في أي لحظة تنبغي أن تكون من مُتطلَّبات الزواج الناجح.

لم أر أبي يبكي قط. الآن عندما أفكر بذلك، أتذكر أنه في أشد لحظات جَيْشان مشاعره ربما يُطلق تنهيدة ثقيلة أو قهقهة متوترة. وليم إبنغ لا ينتحب أو ينفجر ضاحكًا أبدًا. كان من الرجال الأقوياء الصامتين، وفي

معظم الأحيان كانت أُمِّي مثله. إذن ربما يكون عدم البكاء بسهولة أمرًا جينيًّا. لكن الكبت العاطفي؟ وعدم القدرة على الشعور بمشاعري؟ لا، لم أكن كذلك يومًا.

عدا عن اليوم الذي تلقَّيت فيه خبر أُمِّي، لا أتذكر أنني بكيت وأنا بالغ إلا مرة واحدة عندما قرأت قصة والد عامل النظافة. كنت جالسًا في حجرة الأساتذة في مدرسة ليسبون الثانوية، أعمل على تقييم كومة أوراق مواضيع الإنشاء التي كتبها طلابي البالغون الذين أدرَّسهم اللغة الإنجليزية، ومن الجانب الآخر من الصالة تتناهى إلى مسامعي ضربات كرات سلة، وصافرة وقت مستقطع، وصيحات الجمهور في أثناء مباراة محترمة بين ليسبون غريهاوندز وبين جاي تايجرز.

مَن يدري متى تتأرجح الحياة فوق حافة المجهول، أو لماذا؟

الموضوع الذي كلَّفت طلابي بالكتابة فيه كان ”اليوم الذي تغيرت فيه حياتي“. معظم الكتابات كانت صادقة مفعمة بالعواطف لكنها فظيعة: حكايات مؤثرة عن عمَّة عطوفة آوت مراهقة حبلى، وجندي أظهر المعنى الحقيقي للشجاعة، ولقاء مصادفة مع أحد المشاهير (مقدم برنامج المسابقات جيبِردي! أظنه أليكس تريبيك، أو ربما كارل مالدن). إذا كان أحدكم أستاذًا يكسب ثلاثة أو أربعة آلاف دولار إضافية سنويًّا من تدريس صف للبالغين الذين يسعون لنيل شهادة الثانوية العامة، فسيعرف أن قراءة مثل هذه الموضوعات مهمة تُوقَّع الكأبة في النفس. عملية التقييم ليست لها أهمية كبيرة عندي. أُنحِ الجميع درجة نجاح، لأنني لم أصادف قط طالبًا بالغًا لا يبذل قصارى جهده. إذا سلَّم أحدهم ورقة عليها كتابة، فسيضمن درجة C من جيكَ إِبْنُغ الذي يدرِّس بقسم اللغة الإنجليزية بمدرسة ليسبون الثانوية، وإذا كانت الكتابة منظمّة في فقرات، فسينال درجة B- على الأقل.

ما جعل عملي عسيرًا هو أن القلم الأحمر صار وسيلتي الأساسية في التدريس بدلًا من لساني. أستاذُ جميع ألقامي. وما جعل عملي محببًا هو أن التدريس بالقلم الأحمر لا يستفيد منه الطلاب إلا لِمَامًا، فإذا بلغ المرء سن الخامسة والعشرين أو الثلاثين دون أن يتعلَّم كيفية تهجئة بعض الكلمات أو كتابة جملة تشتمل على اسم وفعل، فعلى الأرجح لن يتعلَّم أبدًا. ومع ذلك أثار، ببسالة أرسم دائرة حول استخدام خاطئ لكلمة في جُمْل مثل: أساء زوجي الظن بي، أو أشطب كلمة سابقًا وأستبدل بها كلمة أسبح في جملة: صرت سابقًا إلى المنصة العائمة كثيرًا بعد ذلك.

بينما كنت مشغولًا بمثل العمل الشاق المحبط في تلك الليلة، كانت تجري على مبعدة مباراة كرة سلة أخرى وسمعت صافرة نهايتها، حمداً للرب. كان هذا قبل وقت ليس بالطويل من خروج تِرْكسي من مصحة إعادة التأهيل، وأفترض أن ما كان يشغل بالي هو أن أعود إلى البيت وأجدها لم تنتكِس إلى الشراب (وقد وجدتُها كذلك فعلاً، تمسَّكت بصفاء ذهنها على نحو أفضل من تمسُّكها بزوجها). أتذكر أنني أحسست بصداع طفيف وكنت أفرك صدغي مثلما يفعل المرء عندما يحاول أن يمنع إزعاجًا بسيطًا من التحول إلى كارثة. أتذكر أنني قلت لنفسِي: ثلاث أوراق إضافية، ثلاث فقط، ثم أغادر المدرسة، سأذهب إلى البيت، وأعدّ لنفسِي كوبًا كبيرًا من الكاكاو سريع التحضير، وأنغمس في رواية جون إرفينغ الجديدة بعيدًا عن هذه الكتابات الصادقة سيئة الصياغة العالقة في ذهني.

لم أتوجَّس أو أستشعر خطبًا عندما التقطتُ ورقة عامل النظافة من أعلى كومة الأوراق ووضعتها أمامي، لم أستشعر أن حياتي البسيطة على وشك التغيُّر. لكننا نكون غافلين دومًا عندما يحدث ذلك، صحيح؟ الحياة تتغير في طَرْفة عين.

كان قد كتب بقلم حبر جاف رخيص لطّخ الصفحات الخمس في عدة أماكن، بخط يد متعرج وسيئ لكن مقروء، ولا بد أنه كان يضغط على القلم بقوة، لأنني وجدت الكلمات محفورة في صفحات أوراق المفكرة الرخيصة، إذا أغمضت عيني ومررت أصابعي على الجزء الخلفي من تلك الأوراق الممزقة، لتمكنتُ من قراءتها كما يقرأ المكفوفون بطريقة برّيل. كما كان يُنهي كل حرف ي بذيل زخرفي، أتذكر ذلك بوضوح على نحو خاص.

أتذكر بداية موضوعه أيضًا، أتذكرها كلمة بكلمة.

ذات ليلة تغيرت حياتي عندما قتل والدي والدتي وشقيقيّ وآزاني بشدة، كما أنى شقيقتي، آذاها بشدة حتى دخلت في غيبوبة، وبعد ثلاثة سنوات ماتت دون أن تستيقظ. كان اسمها إيلين وأحببتها كثيرًا، كانت تحب قطف الزهور ووضعها في مزهريات.

عندما وصلت إلى منتصف الصفحة الأولى بدأت عيناى تلسعاني، فوضعت قلّمي الأحمر الموثوق على سطح المكتب. وعندما وصلت إلى الجزء الذي يزحف فيه هاري إلى أسفل السرير ودماء تسيل على وجهه (سالت إلى حلقي أيضًا ووجدت مذاقها مريعًا) - بكيتُ. لكانت كرسّتي فخورة بي. قرأتُ حتى النهاية دون أن أضع بقلمى أي علامة، وظللت أمسح وجهي حتى لا تتساقط الدموع على الصفحات التي من الواضح أنها كلّفت الرجل مجهودًا كبيرًا. كنت أظنه ذا قدرات عقلية أقل من بقية الناس، أفضل قليلًا ممن كان الناس يسمونهم بالمتخلفين عقليًا لكن يمكن تعليمهم. ثمة سبب لذلك كما هو واضح، أليس كذلك؟ وسبب للعرج في مشيته أيضًا. مجرد بقائه على قيد الحياة يمثل معجزة. إنه رجل لطيف يبتسم دومًا ولا يرفع صوته على الصبية أبدًا، رجل مر بيوم مهول، والآن يعمل، بتواضع وتفاؤل مثل معظم زملائه، لنيل شهادة الثانوية العامة. لكنه سوف يظل عامل نظافة بقية حياته، مرتديًا زيًا

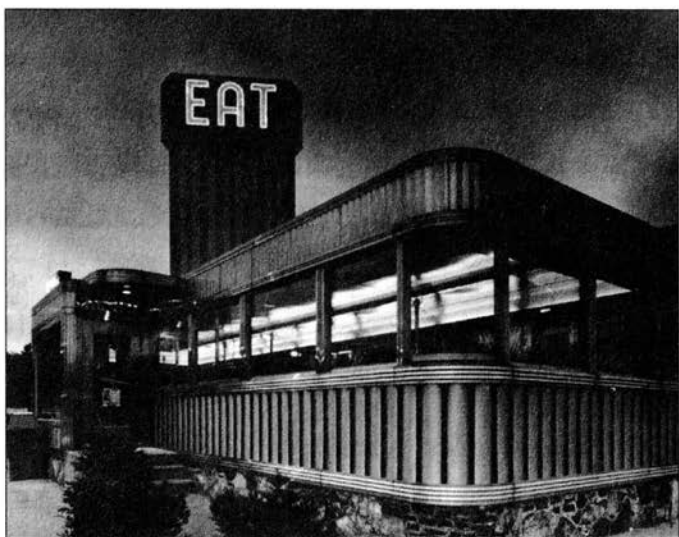
أخضر أو بُنيًّا داكنًا، يكنس أو يكشط علكة من الأرضية بسكين معجون طلاء يحتفظ بها في جيبه الخلفي دومًا. ربما كان بمقدوره أن يزاول مهنة مختلفة، لكن حياته تغيرت في طرفة عين والآن هو رجل بسيط يسمّيه الصبية هاري الضفدع نظرًا إلى مشيته.

لذا بكيت. ذرفت دموعًا حقيقية، من النوع الذي يخرج من أعماق النفس. من الجانب الآخر من الصالة سمعت الفرقة الموسيقية تعزف أغنية النصر. إذن فاز الفريق صاحب الأرض. هنيئًا لهم. لاحقًا سيذهب هاري وزملاؤه لرفع مقاعد المدرجات وكنس النفايات التي أُلقيت تحتها. كتبتُ الحرف A الأحمر الكبير أعلى ورقته، ونظرت إليه هنيهة، ثم أضفت علامة + حمراء كبيرة. لأن مقاله كان جيدًا، ولأن ألمه استثار مشاعري، أنا قارئه، أليس هذا ما يفترض أن تفعله أي كتابة تستحق A+؟ أن تستثير المشاعر؟

أما أنا، فلا يسعني سوى تمنّي أن كرسني إبنغ كانت محقة، أتمنى لو أنني كنت أعاني كبتًا عاطفيًا، لأن كل ما حدث لاحقًا، كل شيء فظيع، تدفق مع تلك الدموع.

الجزء الأول

لحظة فارقة



مكتبة الفصل الأول

t.me/soramnqraa

1

تخرج هاري دِنَنْغ بنجاح باهر. ذهبت إلى حفل تخرج طلاب الشهادة الثانوية العامة في الصالة الرياضية بمدرسة ليسبون الثانوية، بدعوة من هاري، لم يكن لديه أحد آخر، وكنت مسرورًا بتلبية دعوته.

بعد خطاب المباركة (ألقاه الأب باندي، الذي نادرًا ما يغيب عن أي حفل رسمي بالمدرسة)، شققت طريقي بين أصدقاء الطلاب وأقاربهم المتجولين في الصالة إلى حيث كان هاري يقف وحده، مرتديًا عباءته السوداء الفضفاضة، ممسكًا بشهادته بيد، وبقلنسوة عباءة التخرج بيده الأخرى. أخذت منه قبعته حتى أصادفه. ابتسم لي، كاشفًا عن أسنان كثيرة الفجوات وبعضها معوج، لكنها مع ذلك ابتسامة مشرقة وجذابة.

- شكرًا لك على مجيئك يا سيد إبنغ، شكرًا جزيلاً.

- من دواعي سروري. لك أن تخاطبني بـجيك، هذه مجاملة بسيطة مني للطلاب الذين في مثل سن والدي.

بدا حائرًا للحظة، ثم ضحك قائلاً: «أظنني في مثل سن والدك، أليس كذلك؟ رباها!». ضحكت أيضًا. كثيرون كانوا يضحكون حولنا، وكانوا يذرفون دموعًا أيضًا، بالطبع. ما يصعب عليّ يأتي لكثيرين بسهولة.

- منحتني درجة امتياز! يا للهول! لم أنل درجة امتياز في حياتي قط! كما لم أتوقعها قط!

- تستحقها يا هاري. إذن ما أول شيء ستفعله وقد نلت شهادة الثانوية العامة؟

بهتت ابتسامته لوهلة، إذن لم يفكر في هذا الأمر. قال: «أظنني سأعود إلى المنزل، لدي منزل صغير أستأجره في شارع غودارد، كما تعرف». رفع شهادته، ممسكًا بها بعناية كما لو أن حبرها قد يتلطّخ. «سأصنع إطارًا لها وأعلقها على الجدار، ثم أصب لنفسي كأس نبيذ وأجلس على الأريكة وأنظر إلى الشهادة حتى يحين موعد النوم».

قلت: «تبدو لي خطة جيدة، لكن هل تود أن تتناول معي برغر وشرائح بطاطس أولًا؟ يمكننا الذهاب إلى مطعم آل».

توقعت منه أن يجفل من الدعوة إلى مطعم آل، لكنني حكمتُ على هاري بناءً على ردود فعل زملائي، وكذلك معظم الطلاب الذين ندرّسهم، جميعهم يتحاشون مطعم آل كأنه موبوء بالطاعون، ويفضلون الذهاب إلى مطعم ديرري كوين قبالة المدرسة، أو هت-هات في شارع 196، على مقربة من موقع سينما سيارات ليسبون القديم.

- سيكون ذلك عظيمًا يا سيد إينغ، شكرًا!

- جيك. أتتذكر؟

- جيك... بالتأكيد.

اصطحبت هاري إلى مطعم آل، حيث كنت الزبون المنتظم الوحيد من هيئة التدريس، ورغم أن آل كان لديه نادلة في ذلك الصيف، فقد قدم لنا الطعام بنفسه، وكالعادة تتدلى من طرف شفّتيه سيجارة مشتعلة تجعله يضيق عينه. (التدخين محظور في أماكن بيع الطعام العامة، لكن هذا لم يردع آل). وعندما رأى عباءة التخرُّج المطوية وأدرك المناسبة، أصر على استعادة الفاتورة قبل أن ندفع قيمتها (رغم أنها بسيطة، إذ إن الوجبات في مطعم آل زهيدة الثمن إلى درجة لافتة، مما أدى إلى تفشي إشاعات عن مصير بعض الحيوانات الضالة في

(المنطقة). كما التقط صورة لنا، علّقها لاحقًا على ما يسميه "جدار مشاهير البلدة". من المشاهير لديه أيضًا الراحل ألبرت دنتون، مؤسس مجوهرات دنتون، وإيرل هيغنز، مدير سابق لمدرسة ليسبون الثانوية، وجون كرافتس، مؤسس وكالة جون كرافتس للسيارات، وبالطبع الأب باندي من كنيسة سانت سيرل (وُضعت صورة الأب جوار صورة البابا يوحنا الثالث والعشرين، والأخير ليس من البلدة لكن آل تِمبلتون يبجلّه، آل الذي يَصِف نفسه بأنه "كاثوليكي ورع"). الصورة التي التقطها آل في ذلك اليوم أظهرت هاري مبتسمًا ابتسامة واسعة، وأنا أقف جواره، وكلانا يمسك بشهادته، وكانت ربطة عنقه مائلة قليلًا، أتذكر ذلك لأن ربطة عنقه ذكّرني بالذيول الزخرفية التي يُنهي بها الحرف ي. أتذكر كل شيء، بوضوح تام.

2

وبعد عامين، في آخر يوم من العام الدراسي، كنت جالسًا في حجرة الأساتذة نفسها أقرأ مجموعة مقالات نهائية كتبها طلاب مرتبة الشرف الذين يدرسون الشُّعر الأمريكي. الصبية أنفسهم غادروا سلفًا، انطلقوا لقضاء عطلة صيف أخرى، وعما قريب سأفعل مثلهم. لكن عندئذٍ كنت سعيدًا بما يكفي بمكاني، مستمتعًا بالهدوء غير المعتاد. وخطر لي أن أنظف خزانة الوجبات الخفيفة قبل مغادرتي. قلت مع نفسي: لا بد لأحد أن ينظفها.

في وقت سابق من ذلك اليوم، جاءني هاري دننغ وهو يعرج بعد فترة تسجيل الحضور (وقد كانت صاحبة كالعادة، مثلما تكون جميع قاعات الدراسة في آخر أيام الدراسة) وبسط لي يده.

قال: «أود أن أشكرك على كل شيء».

ابتسمتُ قائلاً: «شكرتني سلفًا، حسبما أتذكر».

- أجل، لكن اليوم يومي الأخير، سأتقاعد، لذا أردت الحرص على
شكرك مجددًا.

وأنا أصافح هاري، مر جوارنا صبي، بدا في السنة الثانية وفقًا لبطوره
الحديثة والشعر غير المنتظم على ذقنه الذي يطمح لأن يكون سوالف،
وتتم: «هاري الضفدع، يتقافز في الري-وا-ق».

اندفعت نحوه لأمسك به وأرغمه على الاعتذار، لكن هاري أوقفني،
مبتسمًا ولا يبدو عليه الانزعاج: «لا، لا تزعج نفسك؛ اعتدتُ الأمر، إنهم
مجرد صبية».

- صحيح، وعملنا هو تأديبهم.

- أعرف، إنك بارع في ذلك. لكن ليس عملي أن أكون... ماذا
يسمونها... موضوع درس. لا سيما اليوم. أتمنى أن تعتني بنفسك
يا سيد إبنغ.

ربما يكون في مثل سن والدي، لكن بدا لي أنه لن يستطيع مخاطبتي
بجيك أبدًا.

- وأنت أيضًا يا هاري.

- لن أنسى درجة الامتياز تلك أبدًا. وضعتها في إطار أيضًا، بجانب
شهادتي.

- هنيئًا لك.

كان كل شيء على ما يرام. مقالته كانت فنًا بدائيًا، لكنها مؤثرة
وأصيلة مثل أي لوحة بريشة غراندما موزس. كانت قطعًا أفضل من
الكتابات التي أقرؤها حاليًا. الإملاء في مقالات طلاب مرتبة الشرف
سليم غالبًا، والأسلوب واضح (لكن طلابي الذين سيلتحقون بالجامعات
قريبًا ولا يحبون المخاطرة لديهم ميل لاستخدام صيغة المبني للمجهول

بكثرة)، بيد أن كتاباتهم باهتة، ومملة. رغم الهفوات النحوية والكتابة المتعرجة، كتب هاري دَنَنغ كما يكتب الأبطال، مرة واحدة على الأقل.

في أثناء تأملي الفرق بين الكتابة المتحفظة وبين الكتابة المعبرة الجريئة، تنحنح جهاز الاتصال الداخلي: «هل السيد إبنغ موجود في حجرة الأساتذة بالجنّاح الغربي؟ أما زلت هنا يا جيك؟».

نهضتُ وضغطت الزر وقلت: «ما زلت هنا يا غلوريا، أكفّر عن خطاياي، كيف يمكنني مساعدتك؟».

- لديك مكالمة هاتفية، من رجل اسمه آل تمبلتون. يمكنني إيصالك به، أو إخباره بأنك غادرت.

آل تمبلتون، مالك ومشغلّ مطعم آل، الذي يتحاشاه جميع الأساتذة عداي. حتى رئيس قسمي، الذي يحاول التكلّم كأنه محاضر بجامعة كامبريدج ويقترّب من سن التقاعد، معروف عنه تسميته لتخصص المطعم بـ "كات-برغر آل الشهير"، بدلاً من "فات-برغر آل الشهير". يقول الناس: ليس من القطط بالتأكيد، أو ليس من القطط على الأرجح، لكن لا يمكن أن يكون من لحم البقر، لا يمكن أن يكون من لحم البقر بسعر دولار وتسعة عشر سنتاً.

«جيك؟ هل غفوت وتركتني معلّقة؟».

قلت: «لا، مستيقظ تماماً». كما راودني فضول عن السبب الذي قد يدفع آل إلى الاتصال بي في المدرسة. لماذا يتصل بي أصلاً؟ لطالما كانت علاقتنا علاقة طبّاخ وزبون فحسب، أقدر طعامه، وهو يقدر ارتيادي لمطعمه بانتظام. «صليني به».

- لماذا ما زلت موجوداً على أي حال؟

- أجلد نفسي.

قالت غلوريا: «أوه!»، وتخيلتها ترفرف برموشها الطويلة. «يعجبني عندما تكون لعبوبًا في كلامك. انتظر حتى تسمع الجرس».

أغلقت الخط، ثم رن جرس الهاتف ورفعت السماعة.

- جيك؟ أهذا أنت يا صاح؟

في البداية ظننت أن غلوريا أخطأت الاسم، الصوت الذي سمعته لا يمكن أن يكون صوت آل، حتى أسوأ نزلة برد في العالم لا يمكن أن تجعل صوت المرء نقيًا أجش كذلك.

- من أنت؟

- آل تمبلتون، ألم تخبرك؟ يا للهول، موسيقى الانتظار لديكم مريعة. ماذا حدث لكوني فرانسس؟

بدأ يسعل بصوت عال فأرغمني على إبعاد السماعة عن أذني قليلًا.

- من صوتك يبدو لي أنك مصاب بنزلة برد.

ضحك، وظل يسعل. كان مزيج الصوتين فظيًّا.

- أصبت بمرض بالفعل.

- لا بد أن أعراضه اشتدت عليك سريعًا.

ذهبت إلى مطعمه بالأمس، لأتناول عشاءً مبكرًا، شطيرة فاتبرغر، وشرائح بطاطس، ومخفوق حليب بالفراولة. أعتقد أن من المهم لرجل يعيش وحده أن يتناول وجبة تحتوي على جميع العناصر الغذائية.

- لك أن تقول ذلك. أو لك أن تقول إن المرض استغرق وقتًا طويلًا.

كلا الافتراضين صحيح.

لم أعرف كيف أرد على كلامه. خُضْتُ نقاشات كثيرة مع آل في السنوات الست أو السبع التي ظللت أرتاد فيها مطعمه، وهو يقول كلامًا غريبًا أحيانًا، مثلًا، إصراره على ذكر فريق بوسطن باتريوتس

وهو يقصد نيو إنغلاند باتريوتس، وحديثه عن تيد ويليامز كأنه يعرفه معرفة حميمة، لكن لم أخض معه حديثاً بهذه الغرابة.

- جيك، أريد مقابلتك، لأمر مهم.

- هل لي أن أسأل...

- أتوقع أن تطرح أسئلة كثيرة، وسأجيب عن أسئلتك، لكن ليس عبر الهاتف.

لم أكن متأكداً من قدرته على تقديم جميع الإجابات قبل أن يتلاشى صوته، لكنني وعدته بمقابلته في غضون ساعة أو نحوها.

قال: «شكراً. فلتأت في وقت أبكر إن استطعت. الوقت عنصر جوهري، كما يقولون». وأنهى المكالمة، دون أن يقول وداعاً.

قرأت مقالين آخرين، ولم تبق سوى أربعة على سطح المكتب، لكن لم أشعر برغبة في إنهاء قراءة المقالات كلها، فقدت إيقاعي. لذا وضعت بقية الأوراق في حقيبتي اليدوية وغادرت. خطر لي أن أصعد إلى المكتب لأتمنى لغلوريا عطلة صيفية طيبة، لكنني لم أكلف نفسي العناء، ستظل موجودة طوال الأسبوع التالي، تعمل على إغلاق سجلات السنة الدراسية، وأنا سأعود يوم الاثنين لأنظف خزانة الوجبات الخفيفة، هذا وعد قطعتة على نفسي، وإلا سوف يجد الأساتذة الذين يستخدمون حجرة الجناح الغربي الخزانة تعج بالحشرات.

إذا كنت أعرف ما يخبئه المستقبل لي، لصعدت إلى غلوريا لتوديعها، وربما لمنحتها القبلية التي ظلت تحوم بيننا طوال الشهرين الأخيرين. لكنني لم أكن أعرف بالطبع. الحياة تتغير في طرفة عين.

كان مطعم آل في مقطورة فضية على الجانب المقابل لخط السكة الحديدية المحاذي للشارع الرئيسي، في ظل مصنع وُرمبو القديم. مثل هذه الأماكن عادةً ما تبدو بائسة مُهملة، لكن آل أخفى الكُتل الخرسانية التي شيد عليها مطعمه بأحواض زهور جميلة، علاوة على مرجة مربعة مهذبة، يعتني آل بها بنفسه بألة جز عشب قديمة تُدفع يدويًا، والآلة نفسها بحالة جيدة مثل الزهور والمرجة، شفراتها المطلية بلون مشرق خالية من أي صدأ، بدت كأنما اشتراها آل قبل أسبوع من متجر المعدات الغربي المحلي... إذا ما زال يوجد متجر كهذا في فولز. كان يوجد ذات يوم، لكنه راح ضحية المتاجر الكبيرة الشاملة التي ظهرت في بداية القرن الجديد.

سرت عبر الممر المرصوف، وصعدت السلم القصير، ثم توقفت عابسًا. اللافتة التي كان مكتوبًا عليها: مرحبًا بكم في مطعم آل، موطن الفاتبرغر! اختفت، وحلت محلها لافتة مربعة من الورق المقوى مكتوب عليها: المطعم أُغلق، ولن يعاد فتحه بسبب مرضي. شكرًا لكم على تعاملكم على مر الأعوام. فليبارككم الرب.

لم أكن قد دخلت بعد إلى ضباب اللاواقعية الذي سيبتليني عما قريب، لكن أول خيوط ذلك الضباب بدأت تتسرب حولي ببطء، وقد أحسست بها. بحة صوت آل وسعاله الحاد لم يكن سببهما نزلة برد صيفية، أو أنفلونزا. اللافتة الجديدة تشير إلى مرض أخطر. لكن أيّ مرض خطير هذا الذي يمكن أن يؤثر في المرء تأثيرًا شديدًا في غضون أربع وعشرين ساعة؟ بل أقل من ذلك. عندئذٍ كانت الساعة الثانية والنصف، وكنت قد غادرت مطعم آل مساء الأمس عند الخامسة وخمس وأربعين دقيقة، وقد كان الرجل بخير، بل بدا لي متحمسًا بشدة، أتذكر أنني سألته عما إذا أسرف في شرب القهوة، فنفى ذلك، وقال إنه يفكر في الذهاب في

عطلة. هل من تظهر عليهم أعراض مرض -مرض عضال إلى درجة إغلاق العمل الذي يديرونه وحدهم لأكثر من عشرين عامًا- يتحدثون عن الذهاب في عطلات؟ بعضهم، ربما، لكن على الأرجح ليسوا كثيرين. فُتِحَ الباب وأنا أهم بمد يدي نحو المقبض، وظهر آل واقفًا أمامي، لم يبتسم، نظرتُ إلى الخلف، مستشعرًا ضباب اللاواقع يتكاثر حولي. كان اليوم دافئًا، لكن أحسست بالضباب باردًا، عندئذٍ كان ما زال بوسعي أن أستدير على عَقْبِي وأخرج منه، عائدًا إلى شمس يونيو الدافئة، وجزءٌ مني رغب في ذلك، لكنني تسمّرت في مكاني إذ داهمني إحساس التعجب والرغبة، والرعب أيضًا، يجدر بي الاعتراف. لأن المرض العضال يربع الناس، أليس كذلك؟ وآل بدا مصابًا بمرض عضال، اتضح لي ذلك بنظرة واحدة، مرض مميت على الأرجح.

لم أدرك ذلك من خديه المتوردين عادةً وقد تغصّنا وشحّبا، ولا الغشاء الباهت الذي يكتنف عينيه الزرقاوين، اللتين بدتا الآن مرهقتين وتريّان بصعوبة، كما لم أدرك مرضه من شعره، الذي كان أسود كله تقريبًا، والآن غزا الشيب معظمه. لكن ربما كان يستخدم أحد مستحضرات التجميل وقرر فجأة أن يخرج بمظهره الطبيعي.

الأمر المستحيل هو أن آل تمبلتون -في الساعات الاثنتين وعشرين التي انقضت منذ آخر لقاء بيننا- بدا أن وزنه نقص بمقدار ثلاثين رطلًا على الأقل، أو أربعين، أي ربع وزنه سابقًا. لا أحد ينقص وزنه بمقدار ثلاثين أو أربعين رطلًا خلال أقل من يوم. لا أحد. لكنني كنت أنظر إلى هذا الأمر المستحيل بأمّ عيني. وعندئذٍ، على ما أظن، ابتلعني ضباب العالم اللاواقعي.

ابتسم آل، ورأيت أنه فقد أسنانًا علاوة على وزنه، وبدأت لثته شاحبة وغير سليمة. قال: «هل أعجبك شكلي الجديد يا جيك؟»، وبدأ يسعل بصوت ثقيل متحشرج صادر من أعماق صدره.

فتحت شفتي، لكنني لم أتفوه بكلمة. أطلت فكرة الهروب برأسها مرة أخرى في عقلي، لكن حتى إذا رغبتُ في الهروب لما استطعت، كنت متسمراً في مكاني.

كبح آل سعاله وأخرج منديلاً من جيبه الخلفي، مسح به فمه أولاً، ثم راحة يده. وقبل أن يعيده إلى جيبه رأيته ملطخاً بلون أحمر.

قال: «ادخل، أود الحديث عن أمور كثيرة، وأظنك الوحيد الذي قد يستمع إلي. هل ستستمع؟».

خرج صوتي خافتاً واهناً سمعته بالكاد: «آل، ماذا حدث لك؟».

- هل ستستمع؟

- بالتأكيد.

- ستطرح أسئلة بالطبع، وسأجيب عن أكبر عدد منها بقدر مستطاعي، لكن حاول أن تقلل أسئلتك. ادخل من هنا.

دخلت. كان المطعم معتماً بارداً، وخالياً، ونضد البيع صقيلاً لا تشوبه شائبة، وكذلك المقاعد ووعاء القهوة. واللافتة المكتوب عليها: إذا لم تعجبك بلدتنا، فارحل إلى بلدة أخرى، في مكانها المعتاد جوار آلة تسجيل المدفوعات ماركة سويدا.

لم يكن ينقص المكان شيء سوى الزبائن، والمالك العامل بالطبع. آل تمبلتون حل محله شبح عجوز سقيم. عندما أدار مزلاج الباب أصدر ضجيجاً عالياً.

4

بعدما اقتادني إلى طاولة معزولة عند نهاية المطعم، تكلم كمن يقول حقيقة معروفة مُسلماً بها: «سرطان الرئة»، وربّت جيب قميصه، ورأيته خالياً، لم أر علبة سجاثر كامل التي تلازمه دوماً. تابع: «ليست مفاجأة

كبيرة، بدأت التدخين وأنا في الحادية عشرة، وظللت أدخن حتى يوم تشخيصي بالمرض. أكثر من خمسين سنة لعينة. ثلاث علب في اليوم، إلى أن ارتفع السعر عام 2007، عندئذٍ ضحيت بعلبة في اليوم». ضحك بمشقة.

هممت بإخباره أن حسابه خطأ، لأنني أعرف سنَّه الحقيقية. عندما ذهبت إلى مطعمه في الشتاء السابق وسألته عن سبب وقوفه أمام المشواة معتمرًا قبعة حفل عيد ميلاد للأطفال، قال: لأنني اليوم أكمل عامي السابع والخمسين يا صاح. ما يجعلني هاينز 57 رسميًا. لكن آل طلب مني للتو ألا أطرح أسئلة غير ضرورية، وافترضت أن طلبه يشمل عدم مقاطعته لتصحيح معلوماته.

قال: «لو كنتُ مكانك... أتمنى هذا لكنني لا أتمنى العكس في حالتي الراهنة - لقلتُ لنفسِي: ثمة خطبٌ هنا، لا أحد يبلغ مرحلة متأخرة من سرطان الرئة بين ليلة وضحاها. صحيح؟».

أومأت. كان كلامه صحيحًا تمامًا.

تابع: «الإجابة بسيطة، وهي أنني لم أمرض بين ليلة وضحاها، بدأت أسعل سعالًا حادًا قبل نحو سبعة أشهر، في مايو».

فوجئتُ بكلامه. إذا كان يسعل، فلا بد أنه كان يسعل في غيابي. كما أخطأ الحساب مرة أخرى. قلت له: «آل، استيقظ، نحن في يونيو، قبل سبعة أشهر كنا في ديسمبر».

لَوْح بيده -بأصابعه النحيلة وحول إحداها خاتم جنود المارينز لم يُعد ثابتًا- كأنه يقول لي: تجاهل هذه الهفوة، دعك منها الآن. «في البداية ظننت أنني أُصبت بنزلة برد حادة، لكن ما من حمى، والسعال تفاقم، ثم بدأ وزني ينقص. لستُ غيبًا يا صاح، ولطالما عرفت أن احتمال إصابتي بالمرض الخبيث وارد... رغم أن أبي وأمي كانا مدخنين شرهين وعاشا

حتى بلغا الثمانين. أظننا نجد دومًا الأعذار لمواصلة عاداتنا السيئة، أليس كذلك؟».

استأنف السعال مجددًا، وأخرج المنديل. وبعدما انحسر السعال قال: «ينبغي ألا أنحرف عن موضوع حديثنا، أفعل هذا طوال حياتي ويصعب علي التوقف، أصعب علي حتى من التوقف عن التدخين. إذا انحرفت عن موضوعنا مرة أخرى، فما عليك سوى أن تحرك إصبعك بإشارة قطع العنق لإيقافي، هلَّا فعلت؟».

وافقت: «حسنًا».

خطر لي عندئذٍ أنني أحلم بكل ما يجري، وإذا كنت أحلم، فقد كان حلمًا جليًا، واضح التفاصيل يُظهر حتى الظلال التي تُلقيها مروحة السقف، التي تدور فوق ممسحة أرجل مكتوب عليها: أنتم أهم ما لدينا! قال آل: «إليك ما حدث باختصار، ذهبت إلى طبيب وأجريت فحصًا بالأشعة السينية، فظهر وَرَمَان كبيران، في مرحلة متقدمة من نخر الأنسجة، ويتعذر استئصالهما جراحيًا».

قلت لنفسي: أشعة سينية؟ هل ما تزال تُستخدم لتشخيص السرطان؟ تابع آل: «صمدتُ مدة من الزمن، لكن في النهاية اضطررت إلى العودة».

- العودة من أين؟ لويستون؟ مستشفى سنترال مين؟

حدق إلي بعينيهِ الغائرتين.

- من عطلتي. إلَّا أنها لم تكن عطلة.

- آل، كل ما تقوله لا يبدو لي منطقيًا. بالأمس كنتَ هنا، وكنتَ بخير.

- انظر إلى وجهي نظرة فاحصة، ابدأ من شعري أولًا. حاول أن تتجاهل ما يفعله السرطان بي، لا شك في أنه بالغ الأثر. ثم أخبرني، هل أنا الرجل نفسه الذي رأيته بالأمس؟

- حسنًا، من الواضح أنك غسلت الصبغة...

- لم أضع صبغة في شعري قط. لا داعي للفت انتباهك إلى الأسنان التي فقدتها في أثناء... غيابي، أعرف أنك لاحظتها. أتظن ذلك بسبب جهاز الأشعة السينية؟ أو السترونيوم - 90 في الحليب؟ لا أشرب الحليب أبدًا، عدا القليل الذي أضعه في آخر كوب قهوة أشربه في اليوم.

- السترونيوم ماذا؟

- لا عليك. اتصل ب... جانبك الأنثوي، انظر إلي نظرة امرأة تحاول تخمين سن امرأة أخرى أمامها.

حاولت فعل ما قاله. وما لاحظته لا يمكن أن يُعتمد كشهادة في محكمة، لكنني اقتنعت. رأيت شبكة خطوط رفيعة منبثقة من زاويتي عيني، وعلى جفنيه تجاعيد دقيقة كألتي نراها على جفون كبار السن، ولاحظت أخايد لم تكن موجودة فوق حاجبيه في اليوم السابق، وخطّين أعمق على جانبي فمه، كما بدا ذقنه أكثر حدة، وتهذّل جلد عنقه. الذقن الحاد والحلق المتغضّن ربما يكونان بسبب نقص وزن آل الكارثي، لكن التجاعيد... وإذا لم يكذب بشأن صبغ شعره...

ابتسم لي ابتسامة طفيفة، ابتسامة قاتمة يعوزها المرح فاقمت ضيقي، وقال: «أتذكر عيد ميلادي في مارس السابق؟ قلت لي: لا تقلق يا آل، إذا اشتعلت قبعتك السخيفة وأنت واقف أمام المشواة، فسأخذ طفاية حريق وأخمد النار. أتذكر ذلك؟».

تذكرت: «قلت إنك هاينز رسميًا».

«بالفعل. والآن بلغت الثانية والستين. أعرف أن السرطان يجعلني أبدو أكبر من ذلك، لكن هذه... وهذه...» لامس جبهته، ثم زاوية عينه. «هذه وشوم شيخوخة حقيقية، أوسمة شرف على نحو ما».

- آل... أود أن أتناول كأس ماء.

نظر إلي متعاطفًا وقال: «بالتأكيد. الأمر صادم أليس كذلك؟ لا بد أنك تقول لنفسك: إما إنني مجنون، وإما هو مجنون، أو كلانا مجنون. أعرف، مررت بموقفك».

نهض عن الطاولة بمشقة، واضعًا يده اليمنى تحت إبطه الأيسر، كأنه يحاول أن يتماسك بطريقةٍ ما. ثم اقتادني إلى خلف نضد البيع. وفي تلك الأثناء أدركت أمرًا آخر في هذا اللقاء الغريب: عدا عن المرات التي جلستُ فيها معه على أحد مقاعد كنيسة سانت سيرل (نادرًا، لأنني لست كاثوليكيًا ملتزمًا رغم أنني نشأت في أسرة متدينة)، أو التقيته صدفة في الشارع، لم أر آل وهو لا يرتدي مئزر الطبخ قط.

أخذ كأسًا لامعة وصب لي الماء من صنبور مطلي بالكروم، فشكرته واستدردت لأعود إلى الطاولة، لكنه نقر على كتفي، وليته لم يفعل، إذ أحسست كأنما لامسني البحار العجوز⁽¹⁾ المذكور في قصيدة كولريديج. قال: «أريد منك أن ترى شيئًا قبل جلوسنا، هكذا أسرع، إلا أن ترى ليست الكلمة الصحيحة، أظن أن تجرب أقرب لما أقصده. اشرب يا صاح».

شربت نصف كأس الماء، وجدته باردًا عذبًا، لكنني لم أبعد عيني عن آل للحظة. ذلك الجزء الجبان مني كان يتوقع هجومًا مباغتًا، كأنني ضحية غافلة في الأفلام التي تكون فيها شخصية مختلة ودائمًا ما تتضمن أسماؤها أرقامًا. لكن آل لبث واقفًا في مكانه مستندًا بإحدى يديه إلى النضد، كانت يده مجمدة ومفاصلها كبيرة، لم تبدُ كيد رجل في الخمسينات، أو حتى كيد رجل مصاب بالسرطان، و...

سألته فجأة: «هل تسبب الإشعاع في ذلك؟».

- تسبب في ماذا؟

(1) شخصية خيالية في قصيدة للشاعر كولريديج، تروي قصة بحار عاد من رحلة بحرية طويلة. (المترجم)

- لديك سُمرة، علاوة على هذه البقع الداكنة على ظهر يديك، هذه تظهر نتيجة للتعرض للإشعاع أو للشمس مدة طويلة.
- حسنًا، بما أنني لم أخضع لعلاج بالإشعاع، فلا بد أن السبب هو الشمس، تعرضت للشمس مدة طويلة خلال السنوات الأربع الماضية.

بحسب علمي، أمضى آل السنوات الأربع الماضية وهو يقلّب البرغر ويعد مخفوق الحليب تحت أضواء مصابيح الفلورسنت، لكنني لم أقل له ذلك. شربت بقية كأسّي. وعندما وضعت على النضد المصنوع من الفورمايكا، لاحظت أن يدي ترتعش قليلًا.

- حسنًا، ما الذي تريد مني رؤيته؟ أو تجربته؟
- تعال من هنا.

اقتادني عبر منطقة المطبخ الطويلة الضيقة، متجاوزًا المشواة والمقالي، وحوض غسل الأطباق، والثلاجة التي من طراز فروستكينغ، والفريزر الذي يبلغ ارتفاعه الخصر ويطلق هديرًا خافتًا، ثم توقف أمام غسالة أطباق صامتة وأشار إلى باب عند نهاية المطبخ، كان بابًا منخفضًا، يتعيّن على آل أن يحنى رأسه حتى يدخل عبره، رغم أن طوله نحو خمسة أقدام وسبع بوصات فقط، وطولي ستة أقدام، بعض الصبية يلقبونني بالهيلوكوبتر إبنغ.

قال: «هنا، عبر هذا الباب».

تساءلت: «أليس هذا مستودع المؤن؟». كان سؤالًا مجازيًا فحسب، إذ رأيت منذ سنوات آل يجلب من المكان جوانات بطاطس وأكياس طعام مجفف ومعلب، لذا كنت أعرف المكان تمام المعرفة.

بدا آل كأنه لم يسمع سؤالّي: «هل كنت تعرف أنني افتتحت هذا المطعم في أوبرن في البداية؟».

أوماً، وكانت إيماءته كافية لبدء نوبة سعال أخرى، كبحتها بالمنديل الذي يزداد تَلَطُّحًا، وعندما انحسر السعال أخيرًا، ألقى المنديل في سلة مهملات قريبة، ثم أخذ حفنة مناديل أخرى من صندوق على النضد.

- هذا المطعم شُيد على طراز مبنى ألوميناري، كما كان رائجًا في الثلاثينيات. أردتُ مطعمًا مثله منذ أن اصطحبني أبي إلى مطعم تشات آند تشو في بلومِنغتون عندما كنت طفلًا. اشتريته جاهزًا وافتتحته في شارع باين، وظللت في ذلك الموقع قرابة عام، ورأيت أنني إذا بقيت فسأفلس بعد عام آخر. كانت توجد مطاعم وجبات سريعة كثيرة في الحي، بعضها جيد، وبعضها رديء، وجميعها لديها زبائنهم المنتظمون. كنتُ كطالب تخرج حديثًا في كلية القانون وعلّق لافنته في بلدة بها عشرات المحامين المخضرمين. علاوة على ذلك، في تلك الأيام كان فات-برغر آل الشهير يُباع بدولارين ونصف. حتى في عام 1990 كان هذا المبلغ أفضل ما يمكنني عرضه.

- إذن كيف تباع بأقل من نصف هذا السعر الآن؟ إلّا إذا كان مصنوعًا من لحوم القطط حقًا.

أطلق آل نخرة، بدا صوته بلغميًا يتردد في أعماق صدره، وقال: «يا صاح، ما أبيعُه برغر مصنوع من لحم البقر بنسبة مئة في المئة، الأفضل في العالم. أعرف أقاويل الناس بالطبع، وأتجاهلها. ماذا عساي أن أفعل؟ أمنع الناس من الكلام؟ إيقاف حركة الرياح أسهل من ذلك».

حركت إصبعي أمام حلقي، فابتسم آل قائلاً: «أجل، انحرفت عن موضوعي الرئيسي، أعرف، لكن على الأقل ما قلته جزء من القصة. كان بوسعي أن أكافح يائسًا في شارع باين، لكن إيفون تمبلتون لم تربّ أي مغفلين، كانت تقول لنا نحن أطفالها: يُستحسن أن تهرب وتنجو لتقاتل

في يوم آخر. جمعت ما تبقى من رأسمالي، واستعنت بالخداع والتملق لإقناع المصرف بإقراضي خمسة آلاف دولار -لا تسألني كيف- وانتقلت إلى هنا. لم يكن العمل يدر ربحًا جيدًا نظرًا إلى الوضع الاقتصادي العام والأقاويل بشأن برغر القطط أو الكلاب أو الظربان، أو أيًا كان ما يستثير مخيلة الناس، لكن اتضح لي أنني غير مقيد بالوضع الاقتصادي العام مثل بقية الناس، بسبب ما يوجد خلف باب مستودع المؤن هذا. لم يكن هذا المنفذ موجودًا عندما افتتحت المطعم في أوبرن، أقسم على ذلك بكومة أناجيل يبلغ ارتفاعها عشرة أقدام. لم يظهر إلا هنا».

- ما الذي تحدث عنه؟

نظر إلي مليًا بعينيه الدامعتين اللتين شاختا مؤخرًا، وقال: «اكتفيت من الكلام في الوقت الراهن، عليك أن تكتشف بنفسك، هيا، افتح الباب». نظرت إليه مُرتابًا.

أردف: «اعتبر كلامي طلبًا من رجل يحتضر. هيا يا صاح، إذا كنت صديقي حقًا. افتح الباب».

5

سأكون كاذبًا إذا قلت إن قلبي لم تتسارع دقاته عندما أدت مقبض الباب وجذبتّه، لم تكن لدي فكرة عما قد أواجهه (لكن يبدو لي أنني أتذكر أن صورًا لقطط ميتة خطرت لي، قطط مسلوخة جاهزة لمفرمة اللحم الكهربائية)، لكن عندما مد آل يده متجاوزًا كتفي وأضاء المصباح، رأيت...

مستودع مؤن.

كان صغيرًا، ومرتبًا كبقية المطعم، فيه أرفف مليئة بأوعية مخصصة للمطاعم على الجدارين، وفي الطرف البعيد حيث ينحني السقف إلى الأسفل توجد مواد نظافة، لكن المكنسة والممسحة على الأرض لأن

ارتفاع ذلك الجزء من مساحة التخزين لا يتجاوز ثلاثة أقدام، والأرضية مكسوة بالمشمع الرمادي الداكن نفسه الذي يكسو أرضية المطعم. لكن بدلاً من رائحة اللحم المطهو الخفيفة، شملت رائحة قهوة وخضراوات وبهارات، كما شملت رائحة أخرى، خفيفة لكنها ننتة قليلاً.

قلت: «حسنًا، هذا مستودع مؤن، مرتب ومكتمل، ستنال درجة امتياز في إدارة الإمدادات، إن وُجد شيء كهذا».

- ماذا تشم؟

- رائحة البهارات هي الأبرز، كما أشم رائحة قهوة، وربما مُعطر هواء أيضًا، لست متأكدًا.

- أجل، أستخدم معطر غليد، بسبب الرائحة الأخرى. أتقول إنك لا تشم شيئًا آخر؟

- لا، ثمة رائحة أخرى، كبريتية إلى حد ما، تذكّرني برائحة الثقاب المحروق.

كما ذكّرتني بالغاز السام الذي أطلقه أنا وأسرّتي في الأمسيات التي نتناول فيها عشاء من الفاصوليا، لكنني لم أرغب في قول ذلك. هل تتسبب علاجات السرطان في إطلاق الريح؟

- إنه الكبريت. وروائح أشياء أخرى أيضًا، ليس منها عطر شانيل رقم 5. إنها رائحة المصنع يا صاح.

مزيد من الجنون، لكنني (بنبرة التهذيب الغريبة التي تسود في الحفلات الرسمية) قلت: «حقًا؟».

ابتسم آل مرة أخرى، كاشفًا عن فجوات كانت تشغلها أسنان في اليوم السابق: «ما يمنعك التهذيب من قوله هو أن مصنع ورمبو أُغلق منذ أمد بعيد، بل احترق معظمه في أواخر الثمانينيات، وفي مكانه هناك الآن...». أشار بإبهامه إلى خلف كتفه. «... لا يوجد سوى منفذ

البيع الخاص بالمصنع. الوجهة التي يقصدها السياح في العطلات، مثل شركة كينيك فروت في أيام رواج مشروبات موكسي. كما إنك تفكر في أن الوقت قد حان لتخرج هاتفك الجوال وتتصل بإدارة المصح العقلي، أليس كذلك يا صاح؟».

قلت: «لن أتصل بأي أحد، لأنك لست مجنوناً». لم أكن متأكداً من ذلك. «لكن هذا مجرد مستودع مؤن، وصحيح أن مصنع ورمبو للنسيج لم يُنتِج أي قطعة قماش خلال ربع القرن الماضي».

- لن تتصل بأي أحد، إنك محق، لأنني أريد منك أن تعطيني هاتفك ومحفظتك وكل النقود التي في جيوبك بما فيها النقود المعدنية، هذه ليست سرقة، سأعيد لك كل شيء. هل ستفعل؟

- كم من الوقت سيستغرق هذا يا آل؟ لأن لدي مقالات علي تقييماها قبل إغلاق دفتر درجات السنة الدراسية.

قال: «سيستغرق المدة التي تريدها، لكن في الحقيقة لا يستغرق أكثر من دقيقتين، دقيقتين دوماً. خذ ساعة وألق نظرة متأنية في المكان إذا أردت، لكنني لا أنصحك بهذا في المرة الأولى، لأن الأمر صادم، سترى. هل تثق بي؟». رأى على وجهي تعابير جعلته يقلص شفتيه كاشفاً عن فجوات أسنانه. «أرجوك، أرجوك يا جيك، هذا طلب رجل يحتضر».

كنت متأكداً أنه مجنون، ومتأكداً بالقدر نفسه أنه قال الحقيقة بشأن حالته الصحية، بدت عيناه كأنهما غارتا أكثر في محجريهما خلال الوقت الذي تكلمنا فيه، كما بدا منهكاً. المسافة القصيرة بين الطاولة عند نهاية المطعم وبين مستودع المؤن جعلته يتأرجح في وقفته. ثم ذكّرت نفسي: والمنديل الملطخ بالدماء. لا تنس المنديل الملطخ بالدماء.

علاوة على ذلك... أحياناً من الأسهل مجازاة الأمور، أليس كذلك؟ في الاجتماعات التي تذهب إليها زوجتي السابقة يقولون: تخلّ وتوكل على الرب، لكنني رأيت أن في حالتي سيكون علي أن أتخلى وأتوكل على آل.

إلى حدٍّ ما، على أي حال. ثم قلت لنفسِي: يتعيَّن على المرء تكبُّد مشاق أشد من هذه حتى يصعد على متن طائرة في أيامنا هذه. آل لا يطلب مني وضع حذائي على حزام ناقل.

نزعت هاتفي من حزامي ووضعتَه على صندوق عُلب تونة، ووضعت معه محفظتي، ونقودًا ورقية قليلة، ونحو دولار ونصف من النقود المعدنية، وعلاقة مفاتيحي.

- احتفظ بالمفاتيح، لا تهم.

حسنًا، إنها تهمني. لكنني أمسكت لساني.

أدخل آل يده في جيبه وأخرج رزمة نقود أكبر بكثير من نقودي التي أودعتها فوق صندوق التونة، مد الرزمة إلي قائلًا: «نقود احتياطية، تحسُّبًا لرغبتك في شراء تذكُّار أو ما شابه. هيا خذها».

تساءلت: «لِمَ لا أستخدم نقودي لذلك؟». رأيت أن تساؤلي عقلاني، كما لو أن هذا الحوار الجنوني يتَّسم بأي قدر من العقلانية.

قال: «لا تشغل بالك بذلك الآن، التجربة ستجيب عن معظم أسئلتك إجابات أفضل من التي يمكنني تقديمها لك حتى إذا كنت بكامل عافيتي، والآن أنا أبعد ما أكون عن كامل عافيتي. خذ النقود».

أخذت النقود وقلَّبتها، التي أعلى الرزمة بدت عادية، ثم صادفت ورقة من فئة خمسة دولارات بدت عادية وغير مألوفة في آنٍ واحد. مكتوبًا عليها الشهادة الفضية فوق صورة إبراهيم لِنِكن، وإلى يساره الرقم 5 بخط أزرق كبير. رفعت الورقة ناحية مصدر الضوء.

رغم إنهاكه وجد آل ما أفعله مسليًا: «إنها ليست مزيفة، إذا كنت تظن هذا».

ربما، بدا ملمسها حقيقيًّا مثل مظهرها، لكن ليس عليها صورة تظهر على الجانبين.

قلت: «إذا كانت حقيقية، فهي قديمة».

- ضع النقود في جيبيك فحسب يا جيك.

لزمْتُ الصمت وفعلت.

- هل تحمل معك آلة حاسبة؟ أو أي جهاز إلكتروني آخر؟

- لا.

- إذن أظنك جاهزًا للذهاب. استدير وواجه الجزء الخلفي من

المستودع.

وقبل أن أفعل ذلك، ضربَ آل جبهته براحة يده وقال: «ربّاه، أين

عقلي؟ نسيْتُ رجل البطاقة الصفراء».

- مَنْ؟ ماذا؟

- رجل البطاقة الصفراء. إنه مجرد اسم أطلقه عليه، لا أعرف اسمه

الحقيقي. خذ هذه.

نَقَبَ في جيبه، ثم ناولني قطعة نقدية من فئة خمسين سنتًا، لم أر

مثلها منذ سنوات، ربما منذ طفولتي.

تناولتها منه قائلًا: «يجدر بك أن تحتفظ بها، إنها قيِّمة على الأرجح».

- إنها قيِّمة بالطبع، قيمتها نصف دولار.

بدأ يسعل، وهذه المرة عصف به السعال كأنه ريح عاتية، لكنه لوَّح

لي ليُبعدني عندما تحركتُ نحوه، ثم اتكأ على صف الصناديق التي

عليها مقتنياتي، وبصق في حفنة المناديل، ونظر إليها وارتمى الألم

على وجهه، ثم أطبق عليها بقبضته، ونضح وجهه المهزول بالعرق.

ثم قال: «نوبة حمى، أو شيء من هذا القبيل. السرطان اللعين يعبث

بتنظيم حرارة جسدي وبقية أعضائي. بشأن رجل البطاقة الصفراء، إنه

سكّير، وغير مؤدٍ، لكنه ليس كبقية الناس، يبدو كأنه يعرف أمرًا. أظن

أن وجوده مصادفة، لأنني أجده دومًا ممددًا على الأرض على مقربة من المكان الذي ستخرج إليه، لكنني أردتُ تنبيهك بشأنه».

- حسنًا، تنبيهك لا يفيدني بشيء، لأنني ليست لدي أدنى فكرة عما تتكلم عنه.

- سيقول لك: لدي بطاقة صفراء من الواجهة الخضراء، إذن أعطني دولارًا لأن اليوم يوم مضاعفة الدفع. هل استوعبتَ ما قلتُه؟
ظلت القصة تزداد جنونًا. قلت: «استوعبت».

«وهو معه بطاقة صفراء بالفعل، يضعها أسفل حافة قبعته، على الأرجح مجرد بطاقة شركة سيارات أجرة أو ربما كوبون متاجر ريد آند وايت عثر عليه في مجرى تصريف، لكن دماغ الرجل فاسد من النبيذ الرديء، وهو يبدو أنه يعتقد أن بطاقته مثل تذكرة ويلي ونكا الذهبية. عليك أن تقول له: ليس لدي دولار فائض لكن إليك نصف دولار. وعندئذ تناوله إياه. وبعدها ربما يقول...» رفع آل إحدى أصابعه النحيلة. «ربما يقول كلامًا على شاكلة: ماذا تفعل هنا؟ أو من أين جئت؟ أو ربما يقول ما معناه: لستَ الرجل نفسه. أستبعد ذلك، لكنه وارد. ثمة أشياء كثيرة لا أعرفها. أيًا يكن ما يقوله، أتركه هناك جوار سقيفة التجفيف، حيث ستجده جالسًا، وأخرج عبر البوابة. وعندما تذهب، على الأرجح سيقول لك: أعرف أن لديك دولارًا فائضًا، أيها الوغد البخيل. لكن لا تلق له بالًا، ولا تنظر إلى الخلف. اعبر خط السكة الحديدية وستجد نفسك عند تقاطع شارع ليسبون مع الشارع الرئيسي». ابتسم لي ابتسامة ساخرة وتابع: «وبعد ذلك يا صاح، لك أن تفعل ما تشاء».

- سقيفة التجفيف؟

بدا لي أنني أتذكر شيئًا بالقرب من مكان المطعم الحالي، وافترضت أنه ربما يكون سقيفة تجفيف ورمبو القديمة، لكن أيًا كان، لم يعد موجودًا الآن. إذا كانت توجد نافذة خلف مستودع المؤن الصغير، لما

رأيت عبرها شيئاً سوى فناء بسور قرميدي ومتجر ملابس خارجية اسمه
يور مَين سنَغري. كنت قد اشتريت منه سترة فراء بعد الكريسماس
بوقت قصير، ووجدته بسعر جيد.

- لا تشغل بالك بسقيفة التجفيف، تذكر ما قلته لك فحسب. والآن
استدر، نعم هكذا، وتقدم خطوتين أو ثلاث، خطوات صغيرة
كخطوات طفل يتعلم المشي، تظاهر بأنك تحاول العثور على
أعلى درجة سلم في الظلام وتريد الهبوط، بحذر هكذا.

امتثلتُ لما قيل لي، شاعراً بأنني أكبر مغفل في العالم. تقدمت
خطوة... أحنيت رأسي حتى لا يحتك بالسقف المصنوع من الألومنيوم...
خطوة ثانية... ثم قرفصتُ قليلاً. إذا تقدمت بضع خطوات أخرى
فسأضطر إلى الجثو على ركبتي، وهذا ما كنت لأفعله، حتى لو كان
طلب رجل يحضر.

قلت: «هذا سُخف يا آل. ما لم تكن تريد مني أن أجلب لك صندوق
فواكه أو بعضاً من عُلب الهلام، ما من شيء يمكنني فعله هُـ...».

عندئذٍ انخفضت قدمي، مثلما يحدث عندما يبدأ المرء هبوط درجات
سلم، إلا أن قدمي ما زالت ثابتة على الأرضية الرمادية الداكنة المكسوة
بالمشمع، رأيتها بعيني.

قال آل: «ها أنت ذا، وجدته يا صاح». زالت بحةً صوته، مؤقتاً على
الأقل، وتكلم بنبرة ارتياح.

لكن ما الذي وجدته؟ ما الذي أجربه تحديداً؟ قوة الإيحاء بدت لي
التفسير الأكثر معقولة، فمهما أحسست به، كنت أرى قدمي على
الأرضية. إلا إذا...

أتعرفون، في الأيام المشمسة، عندما يغمض المرء عينيه وتترأى له
بقايا صورة لأي كان ما ينظر إليه للتو؟ هذا ما حدث لي. عندما نظرت
إلى قدمي، رأيتها على الأرضية. لكن عندما رمشت -قبل أو بعد إغماض

عيني بكسر من الثانية، لست متأكدًا- لمحت قدمي على درجة سلم، ولم تكن درجة السلم في مستودع المؤن المعتم، بل تحت شمس ساطعة. تسمرتُ في مكاني.

قال آل: «تقدّم، لن يصيبك مكروه يا صاح، تقدم فحسب». سعل سعالًا عنيفًا، ثم تابع بنبرة يأس: «إنني في أمس الحاجة إلى تعاونك». فتقدمت.

فليعينني الرب، تقدمت.

الفصل الثاني

1

تقدمت وهبطت درجة أخرى، وعيناي ما زالتا تخبرانني بأنني أقف على أرضية مستودع مؤن مطعم آل، لكنني كنت أقف منتصباً ورأسي لم يعد يحتك بسقف المستودع. وهذا مستحيل بالطبع. تقلّصت معدتي استجابةً لتشوُّش حواسِّي، وأحسست بأنني على وشك تقيؤ شطيرة سلطة البيض وقطعة فطيرة التفاح اللتين تناولتهما على الغداء.

من خلفي على مبعدة، أتاني صوت آل كأنه يقف على بُعد خمس عشرة ياردة وليس بضعة أقدام: «أغمض عينيك يا صاح، هكذا أسهل». تلاشى تشوش حواسي حالما أغمضت عيني، كأنما أصبت بحَوْل لوهلة وتعافيت، أو وضعت نظارة خاصة بمشاهدة الأفلام ثلاثية الأبعاد، أجل، هذا التشبيه أقرب. حرّكت قدمي اليمنى وهبطت درجة أخرى. كانت درجات بالفعل، لم يعد جسدي يشك في ذلك إثر إيقاف حاسة بصري.

قال آل: «اخطُ خطوتين إضافيتين ثم افتح عينيك». بدا صوته أبعد من ذي قبل، كأنه يقف عند الطرف الآخر من المطعم وليس عند باب مستودع المؤن.

أنزلت قدمي اليسرى، ثم قدمي اليمنى مرة أخرى، وفجأة سمعت فرقعة طفيفة بداخل رأسي، مثل التي نسمعها عندما نكون على متن طائرة ويتغير ضغط الهواء فجأة. تحول المجال المظلم بداخل جفني

إلى اللون الأحمر، وأحسست بدفع على جلدي، دفع ضوء الشمس، لا شك في هذا. وتلك الرائحة الكبريتية الطفيفة ازدادت حدة، صارت مؤذية بعدما كنت أشمها بالكاد. لا شك في هذا أيضًا. فتحت عيني.

لم أعد في مستودع المؤن. كما لم أعد في مطعم آل. وجدت نفسي بالخارج، رغم عدم وجود باب من مستودع المؤن إلى الخارج. كنت في فناء، لكنه ليس مسورًا بالقرميد، وما من متاجر محيطة به. رأيت نفسي واقفًا على أرضية خرسانية غير مستوية ومتسخة، وثمة حاويات معدنية ضخمة جوار الجدار الأبيض حيث كان ينبغي أن يوجد متجر يور مين سنغري، كانت مليئة بشيء ومغطاة بأغطية قماشية بُنية خشنة بحجم أشرعة سفن.

استدرت لأنظر إلى المقطورة الفضية الضخمة التي تضم مطعم آل، لكنني لم أر المطعم.

2

وحيث ينبغي أن يكون رأيت مصنع ورمبو للنسيج ببنائه الضخم، مشغلاً بطاقته القصوى، سمعت هدير آلات الصباغة والتجفيف، وجلبة شات - هوش، شات - هوش التي تصدرها آلات النسيج التي تشغل الطابق الثاني (رأيت صورًا لهذه الآلات، تشغلها نساء يرتدين ملابس عمل ويغطين رؤوسهن بأوشحة، رأيتها في مبنى جمعية ليسبون التاريخية شمال الشارع الرئيسي). كما رأيت دخانًا رماديًا فاتحًا يتصاعد من المداخل الثلاث التي سقطت إثر هبوب عاصفة في الثمانينيات.

كنت أقف جوار مبنى أخضر ضخم على شكل مكعب. افترضت أنه سقيفة التجفيف. كان يشغل نصف مساحة الفناء ويبلغ ارتفاعه قرابة

عشرين قدمًا. للتو هبطتُ درجات سلم، لكن لم أعد أرى أي سلم. ما من طريق عودة. اعترتني وخزة دُعر.

سمعت صوت آل: «جيك؟»، لكنه أتاني خافتًا، كأنه بلغ أذني بحيلة صوتية ما، مثل صوت ينتقل متعرجًا لأميال عبر أخدود ضيق: «يمكنك العودة من الطريق نفسه الذي خرجت منه، تحسس درجات السلم». رفعت قدمي اليسرى، وأنزلتها، فأحسست بدرجة، وانحسر دُعري. أتاني صوت آل مرة أخرى واهنًا كأنه يستمد طاقته من أصدائه: «اذهب، تجول وتفرّج قليلًا ثم عد».

لم أبارح مكاني في البداية، لبثت واقفًا، ثم رحت أمسح فمي براحة يدي. أحسست بعينيّ تجحطان من محجريهما، واعترتني قشعريرة امتدت من فروة رأسي إلى منتصف ظهري. كنت خائفًا، بل مرعوبًا، لكن راودني فضول شديد ألجم خوفي وجعلني أتمالك نفسي (في الوقت الراهن على الأقل). رأيت ظلّي على الأرضية الخرسانية واضحًا كشيء اقتطع من قطعة قماش أسود، ورأيت ندْف صدأ على سلسلة معدنية تفصل سقيفة التجفيف عن بقية الفناء، وشممت رائحة الدخان القوية القادمة من المداخل الثلاث، كانت قوية إلى درجة لسعت عيني. إذا زار مفتش وكالة حماية البيئة هذا المكان لأمر بإغلاقه فورًا. إلا أنني استبعدت وجود أي مفتش من وكالة حماية البيئة في المنطقة، بل ولم أكن متأكدًا أن وكالة حماية البيئة قد أُسّست. لكنني عرفت المكان الذي وجدت نفسي فيه، ليسبون فولز، بولاية مَين، في وسط مقاطعة أندروسكوغن.

السؤال المهم هو: في أي زمن كنت؟

رأيت لافتة لم أستطع قراءتها متدلية من السلسلة، ثم أدركت أن الكتابة على جانبها الآخر، فمشيت نحوها، ثم استدرت على عِقْبِي، وأغمضت عيني وتقدمت مجرّجاً قدَمِي، مذكّراً نفسي بأن أخطو خطوات صغيرة كأنني طفل يتعلم المشي، وعندما ارتطمت قدمي اليسرى بدرجة السلم السفلى -السلم المؤدي إلى مستودع مؤن مطعم آل (أو هذا ما كنت أمله)- تحسست جيبي الخلفي وأخرجت ورقة مطوية، كانت مذكرة من مدير القسم مكتوباً عليها "أتمنى لك عطلة صيفية سعيدة، ولا تنس اليوم التدريبي في يوليو". لوهلة تساءلت عن رأيه في تقديم جيك إبنغ دروس مكثفة عنوانها السفر عبر الزمن في الأعمال الأدبية العام القادم. ثم مزقت قصاصة من أعلى الورقة، وجعّدتها، وألقيتها على الدرجة الأولى من درجات السلم الخفي، سقطت على الأرض بالطبع، لكنها على أي حال حددت موضع السلم. كان الوقت عصراً، والجو دافئاً، استبعدتُ أن يزيح الهواء الورقة من مكانها، لكنني أخذت قطعة خرسانة صغيرة واستخدمتها لتثبيت الورقة في مكانها تحسُّباً، وقعت قطعة الخرسانة على درجة السلم، وأيضاً على الورقة، لأن ما من درجة سلم. عندئذٍ خطر لي مقطع من أغنية شعبية قديمة: في البداية كان يوجد جبل، ثم لم يعد الجبل موجوداً، ثم ظهر مرة أخرى.

كان آل قد قال لي أن أتجول وأتفرج قليلاً، وقررت أن أفعل ذلك. رأيت أنني إذا لم أفقد صوابي سلفاً، فعلى الأرجح سأكون بخير لمدة أطول قليلاً، إلا إذا رأيت موكب أفيال وردية أو طبقاً طائراً يحوم فوق وكالة جون كرافتس للسيارات. حاولت أن أقول لنفسي إن هذا لا يحدث، لا يمكن أن يحدث، لكنني لم أقتنع. الفلاسفة وعلماء النفس ربما يتجادلون بشأن ما هو حقيقي وما هو مُتخيل، لكن معظمنا، الذين يعيشون حيوات عادية، يعرفون ويتقبلون طبيعة العالم من حولنا. كنت

في واقع. وبصرف النظر عن كل شيء، كانت الرائحة نتنة إلى درجة لا يمكن أن تكون هلوسة.

سرت نحو السلسلة، المعلقة بارتفاع الخصر، وانحنيت أسفلها، على الجانب الآخر من اللافتة كان مكتوبًا بطلاء أسود على ورق استنسل: ممنوع تجاوز هذا الحد قبل صيانة أنبوب المجاري. نظرت إلى الخلف مرة أخرى، فلم أر ما يشير إلى بدء أي عملية صيانة في المستقبل القريب، ثم سرت منعطفًا عند زاوية سقيفة التجفيف، وكدت أن أتعثر فوق رجل جالس يُشمس نفسه. دون أمل في أن يحصل على سُمرة حقيقية. كان يرتدي معطفًا أسود يحيط به كظل دون شكل محدد، وعلى كُمّيه زخارف من المخاط الجاف، والجسد بداخل المعطف بدا أعرج ضاويًا، وشعره الرمادي يتدلى متشابكًا حول خديه اللذين تكسوهما لحية شعناء. بدا الرجل سَكِيرًا كما ينبغي أن يبدو السَكِير.

كما كان يعتمر قبعة فيدورا قذرة مائلة إلى الخلف، بدت كالبعبعات التي يعتمرها الممثلون في أفلام الجريمة في الخمسينيات، الأفلام التي تظهر فيها جميع النساء بأثداء كبيرة ويتكلم فيها الرجال بسرعة وتتدلى سجاثر من أطراف شفاههم. وأجل، من طرف رباط القبعة رأيت بطاقة صفراء شبيهة ببطاقات الصحفيين القديمة، على الأرجح كانت صفراء فاقعة ذات يوم، لكن الأصابع القذرة جعلتها باهتة غير واضحة المعالم. عندما سقط ظلي على جِبره، التفت رجل البطاقة الصفراء نحوي ونظر إلي بعينين غائمتين.

سألني بلكنة غير واضحة: «من أنت بحق الجحيم؟».

لم يقدم آل لي إرشادات مفصلة بشأن كيفية الإجابة عن الأسئلة، لذا أجبت متوخيًا الحذر: «هذا ليس من شأنك».

- سحَقًا لك أنت أيضًا.

- حسنًا.

شرعت في السير نحو البوابة، وكانت مفتوحة ومثبتة على مسار فولاذي، وخارجها إلى اليسار موقف سيارات لم أره قط، مليء بالسيارات، معظمها متهالكة وجميعها قديمة كأنها في متحف، منها سيارات بويك ذات فتحات جانبية وسيارات فورد ذات مقدمات مثل مقدمات الطوربيدات. قلت لنفسي: هذه سيارات عمال المصنع، عمال المصنع الحقيقيين الذين بالداخل الآن، ويعملون مقابل أجور حسب ساعات العمل.

قال السكّير باديًا عليه الشراسة والتشوش: «لديّ بطاقة صفراء من الواجهة الخضراء، إذن أعطني دولارًا لأن اليوم يوم مضاعفة الدفع». مددت له قطعة خمسين سنتًا، شاعرًا بأنني ممثّل لديه جملة واحدة في مسرحية، وقلت: «ليس لدي دولار فائض لكن إليك نصف دولار». كان آل قد قال لي: وعندئذ تناوله إياه. لكنني لم أكن بحاجة إلى ذلك. اختطف رجل البطاقة الصفراء النقود من يدي وقربها من وجهه. لوهلة ظننت أنه سيعض عليها، لكنه أطبق عليها بأصابعه الطويلة فاخفتت في قبضته، ثم حذق إلي مجددًا ووجهه يكاد أن يبدو مضحكًا من الارتياح: «من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟».

قلت: «علي اللعنة إذا عرفت». واستدرت وسرت نحو البوابة. توقعت من الرجل أن يلاحقني بمزيد من الأسئلة، لكنه ظل صامتًا. خرجت عبر البوابة.

4

أحدث سيارة في الموقف كانت بليّماوث فيوري، موديل أواخر الخمسينيات، على ما أظن، بدت لوحتها نسخة عتيقة من لوحة سيارتي

السوبارو، اللوحة التي عليها -بطلب من زوجتي السابقة- شريط وردي يمثلُ سرطان الثدي. لكن اللوحة التي أمامي مكتوب عليها أرض العطلات، لكنها برتقالية وليست بيضاء. كما في معظم الولايات، صارت لوحات ولاية مَين يُكتب عليها حروف، لوحة سيارتي السوبارو مكتوب عليها Y 23383، لكن اللوحة التي في مؤخرة الفيوري ذات اللونين الأبيض والأحمر الجديدة مكتوب عليها 90-811، دون أرقام.

لمستُ صندوقها الخلفي، فوجدته صلبًا ودافئًا من الشمس. كانت سيارة حقيقية.

اعبر خط السكة الحديدية وستجد نفسك عند تقاطع شارع ليسبون والشارع الرئيسي. وبعد ذلك يا صاح، لك أن تفعل ما تشاء.

لم تكن توجد سكة حديدية تمر أمام المصنع القديم، لم تكن موجودة في زمني. لكنها موجودة هنا، وليست مجرد بقايا أثرية، إنما صقيلة ولامعة، ومن مكانٍ ما على مبعدة سمعت صوت قطار حقيقي. متى كانت آخر مرة عبرت فيها القطارات مدينة ليسبون فولز؟ على الأرجح ليس منذ إغلاق المصنع وكانت شركة يو إس جِيسَم تشتغل على مدار الساعة.

قلت لنفسي: لكن الشركة تشتغل الآن على مدار الساعة، أراهن على هذا، وكذلك المصنع. لأنني لم أعد في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين.

كنت قد استأنفت السير دون إدراك مني، سرت كأنني رجل في حلم. ووجدت نفسي واقفًا عند تقاطع الشارع الرئيسي والطريق رقم 196، المعروف أيضًا باسم شارع لويستون القديم، إلا أنه الآن لم يبدُ قديمًا في شيء، ورأيت على الجانب الآخر قُطريًا من التقاطع...

... شركة كنيك فروت، وهذا اسم كبير مقارنة بظروف الشركة التي تتأرجح على حافة النسيان -أو هكذا بدت لي- خلال السنوات العشر

التي ظلت أدرّس فيها بمدرسة ليسبون الثانوية. الشركة التي كان مبرر وجودها واستمرارها الوحيد هو "موكسي"، أغرب المشروبات الغازية. مالك شركة فروت، وهو عجوز لطيف اسمه فرانك أنسيتي، قال لي ذات يوم إن سكان العالم ينقسمون طبيعياً (وعلى الأرجح بالوراثة الجينية) إلى مجموعتين: الأقلية المختارة المباركة التي تفضّل موكسي على جميع المشروبات... وبقية الناس. وسَمّي فرانك بقية الناس «الأغلبية المعاقة المثيرة للشفقة».

شركة كنبك فروت في زمني مجرد مبنى مطلي بألوان صفراء وخضراء باهتة ذو نوافذ عرض خالية من البضائع... إلّا إذا كان القط الذي ينام في النوافذ أحياناً معروضاً للبيع. وسقف المبنى منحنيّاً من كثرة ثلوج الشتاء. لا تُعرض بالداخل أشياء كثيرة عدا عن هدايا موكسي التذكارية: قمصان برتقالية فاقعة مكتوب عليها لديّ موكسي! وقبعات برتقالية فاقعة، ورُزنامات قديمة، ولافتات معدنية تبدو قديمة لكنها على الأرجح صُنعت في الصين السنة الماضية. المكان خال من الزبائن معظم أيام السنة، ومعظم الأرفف خالية من البضائع.... لكن بوسع المرء الحصول على بضعة أطعمة خفيفة مُحلّاة أو كيس رقائق بطاطس (إذا كان من محبي الملح والخل)، وثلاجة المشروبات الغازية ليس فيها شيء سوى موكسي، وثلاجة الجعة خالية.

تستضيف ليسبون فولز مهرجان مين للموكسي في يوليو من كل عام، فرق موسيقية، وألعاب نارية، ومسيرة استعراضية فيها -أقسم إن هذا صحيح- مشروبات موكسي بالآيس كريم، وملكات جمال محليات يرتدين ملابس سباحة بلون موكسي، أي برتقالي فاقع إلى درجة تغشي الأبصار. ودائماً ما يرتدي قائد المسيرة زي "طبيب موكسي"، معطف أبيض وسמاعة طبية ويثبت مرآة غريبة على رأسه. قبل عامين كانت قائدة المسيرة مديرة مدرسة ليسبون الثانوية ستيل لانغلي، لن ينسى الناس موقفها المخرج أبداً.

في أثناء المهرجانات تنتعش شركة كنبك فروت وتزدهر مبيعاتها، غالبًا بسبب السياح المبتهجين الذين في طريقهم إلى منتجات مِين الغربية. وبقيّة شهور السنة يبهت فيها حضور الشركة ورائحتها، التي تذكرني -على الأرجح لأنني أنتمي إلى الأغلبية المعاقة المثيرة للشفقة- برائحة الموستِرول، الدواء النتن الذي كانت أمي تصر على مسحه على حلقي وصدري عندما أصاب بنزلة برد.

لكن ما أنظر إليه الآن من الجانب البعيد من شارع لويستون القديم عمل تجاري مزدهر في ذروة نجاحه. اللافتة المعلقة فوق الباب (انتعش مع سفن أب بالأعلى، مرحبًا بكم في شركة كنبك فروت بالأسفل) باهرة كالشمس، وطلاؤها جديد، وسقف المبنى لم يتأثر بالطقس. والناس يدخلون ويخرجون. وفي نافذة العرض، بدلًا من القط...

ثمة برتقال، أقسم بالرب. شركة كنبك فروت كانت تباع الفواكه ذات يوم! من كان يدري؟

شرعت في عبور الشارع، لكنني تراجعَت إذ اقتربت مني حافلة مزمجرة، اللافتة التي توضح مسارها فوق الزجاج الأمامي المنقسم إلى نصفين مكتوب عليها لويستون إكسبرس. وعندما توقفت الحافلة في محطة عند تقاطع السكك الحديدية، رأيت أن معظم الركاب يدخلون، لا بد أن الجو بالداخل أشبه بجو كوكب زحل.

وحالما واصلت الحافلة طريقها (تاركةً خلفها رائحة ديزل نصف محترق ليمتزج برائحة البيض الفاسد المنبعثة من مداخل مصنع ورمبو)، عبرت الشارع، متسائلًا لوهلة عما قد يحدث إذا صدمتني سيارة. هل سأختفي من الوجود في لمح البصر؟ وأستيقظ متمددًا على أرضية مستودع مؤن آل؟ على الأرجح لا. على الأرجح سأموت هنا فحسب، في ماضٍ يحن إليه كثيرون، يحنون إليه لأنهم ربما نسوا مدى

نتانته، أو ربما لأنهم لم يخطر لهم هذا الجانب من حقبة "الخمسينيات الرائعة".

رأيت فتى يقف خارج شركة فروت مستندًا بإحدى قدميه إلى ألواح الجدار، وياقة قميصه مرفوعة إلى مؤخرة رأسه، وشعره ممشط على طريقة شعر ألفيس بريسلي في شبابه (عرفتها من الأفلام القديمة). وخلافًا للصبية الذين اعتدت رؤيتهم في صفوفي، لم تكن لدى هذا الفتى سواف، أو أي شعر على ذقنه. أدركت أن هذا الفتى، في العالم الذي أزوره الآن (كنت آمل أنني زائر عابر فحسب) لطُرد من مدرسة ليسبون الثانوية إذا جاء إلى المدرسة وعلى وجهه خصلة شعر واحدة، لطُرد فورًا.

أومأت له محيئًا، فرد جيمس دين الإيماءة قائلًا: «هاي-هو، دادى-أو».

دخلت إلى المحل، فرن جرس معلق فوق الباب. وبدلاً من رائحة الغبار والخشب المتحلل، شمنت رائحة البرتقال والتفاح والقهوة والتبغ المعطر. إلى يميني رف يحمل مجلات قصص مصورة أغلفتها ممزقة: آرثشي، وباتمان، وكابتن مارفل، وبلاستك مان، وتيلز فروم ذا كريبت. واللافتة المكتوبة يدويًا، المعلقة فوق هذه المجموعة النفيسة -التي ستفقد أي مهووس بموقع إيباي صوابه من الفرخ- مكتوب عليها: المجلة الواحدة مقابل 5 سنتات، والثلاث مقابل 10، والتسع مقابل ربع دولار. الرجاء عدم اللمس إلا في حال الرغبة في الشراء.

وإلى اليسار رف صحف يومية، ليس بينها نيويورك تايمز، لكن ثمة نسخًا من بورتلاند برس هيرالد، ونسخة واحدة متبقية من بوسطن غلوب. كان عنوان غلوب الرئيسي مكتوبًا بخط صارخ: داليس يُلْمَح إلى تنازلات إذا عدلت الصين الشيوعية عن استخدام القوة في فورموزا. والتاريخ المكتوب على الصحيفتين كان: الثلاثاء 9 سبتمبر 1958.

أخذت صحيفة غلوب، مقابل ثمانية سنتات، وسرت نحو ثلاجة بيع مشروبات غازية غير موجودة في زمني، يقف خلفها فرانك أنسيتي، كان هو بالتأكيد، بشعره الأشيب المميز فوق أذنيه، إلا أن فرانك هذا - فلنطلق عليه اسم فرانك -1.0 نحيل ليس ممتلئاً، ويضع نظارة دون إطار، وأطول نسبياً. جلست على أحد المقاعد شاعراً بأن جسدي استحوذ عليه شخص غريب.

أوماً ناحية الصحيفة: «هل ستكتفي بالصحيفة، أم أجلب لك مشروباً من الثلاجة؟».

سمعت نفسي أقول: «أي مشروب عدا موكسي».

ابتسم فرانك 1.0 لكلامي وقال: «لا تتحامل على نفسك يا بُني. ماذا عن جعة جذور؟».

قلت: «تبدو فكرة جيدة». بدت جيدة بالفعل، كان حلقي جافاً، ورأسي ساخناً، كأني أُصِبت بحمى.

- خمسة أم عشرة؟

- معذرة، ماذا؟

تكلم بلكنة سكان مين: «جعة بخمسة سنتات أم عشرة؟».

- أوه، فلتكن بعشرة.

- أحسنت الاختيار.

فتح ثلاجة آيس كريم وأخرج كوباً زجاجاً بحجم إبريق ليمونادة، وملاء من صنوبر. شممت رائحة جعة الجذور القوية. ثم مسح الرغبة من أعلى الكوب بمقبض ملعقة خشبية، وأكمل ملء الكوب ووضع على النضد، وقال: «تفضل، الجعة والصحيفة ثمنهما ثمانية عشر سنتاً، بالإضافة إلى سنت للحاكم».

ناولته دولارًا من دولارات آل القديمة، وأعاد فرانك 1.0 إلى الباقي. أخذت رشفة عبر الرغوة، وذُهلّت. كانت الجعة... كاملة الأوصاف، لا أعرف تعبيرًا أفضل من هذا. هذا العالم قبل خمسين عامًا رائحته أسوأ مما توقعت، لكن مذاقه أفضل بكثير.

قلت: «رائعة».

- حقًا؟ يسعدني أنها أعجبتك. لست من هذه المدينة، أليس كذلك؟

- بلى.

- من خارج الولاية؟

- وسكونسن.

لم أكذب. عاشت أسرتي في ميلووكي حتى بلغت الحادية عشرة، عندما نال والدي وظيفة تدريس اللغة الإنجليزية في جامعة جنوب مَين. ومنذ ذلك الوقت ظللت أتنقل في أنحاء الولاية.

قال أنسيتي: «حسنًا، اخترت الوقت المناسب للمجيء، معظم محبي الصيف غادروا، وحالما يغادرون، تنخفض الأسعار. ما تشربه الآن، مثلاً. بعد عيد العمال، جعة السنوات العشرة لا تكلف سوى دايم⁽¹⁾».

رن الجرس المعلق فوق الباب، وأصدرت ألواح الأرضية صريرًا. لم يكن صريرًا مزعجًا. في آخر مرة دخلت إلى المحل لأشتري أقراص مضادة للحموضة (خاب أملي)، أصدرت الألواح أنينًا مزعجًا.

انسل فتى يبدو في السابعة عشرة خلف نضد البيع، كان شعره الداكن قصيرًا أقرب إلى قصة شعر البحارة، ولا يمكن لأحد أن يخطئ الشبه بينه وبين الرجل الذي قدم لي الجعة، وأدركت أنه فرانك أنسيتي الذي يعيش في زمني. الرجل الذي قطع رأس الرغوة من كوب الجعة هو والده. لم يعرني فرانك 2.0 التفاتة، رأني مجرد زبون عابر.

(1) Dime من فئات النقود المعدنية الأمريكية، يساوي عشرة سنتات. (المترجم)

قال لوالده: «بدأ تايّتس العمل على الشاحنة، ويقول إنها ستكون جاهزة بحلول الساعة الخامسة».

قال أنسيتي الأب: «حسنًا، هذا جيد». وأشعل سيجارة. لأول مرة لاحظت أن سطح ثلاجة المشروبات الغازية الرخامي مرصوفة عليه منافض سبائير خزفية صغيرة، مكتوب على جوانبها: سبائير ونستون.. مذاق السبائير كما ينبغي أن يكون! التفت أنسيتي إليّ وسألني: «أتود ملعقة فانيليا في جعتك؟ على حسابي، نحب إكرام السياح، لا سيما عندما يأتون متأخرين».

قلت: «شكرًا، جعتي جيدة كما هي». كانت جيدة بالفعل. لانفجر رأسي إذا ازدادت حلاوتها، كما كانت قوية، أحسست كأني أشرب اسبريسو بالمياه الغازية.

ابتسم الفتى لي ابتسامة حلوة كالمشروب الذي بداخل الكوب الزجاجي، مجردة من الازدراء الساخر الذي أحسست به يشع من المتشبهه بألفيس بريسلي بالخارج. قال: «قرأنا قصة في المدرسة، تحكي عن سكان محليين يأكلون السياح الذين يأتون بعد انتهاء الموسم».

قال السيد أنسيتي: «فرانكي، هذا كلام مروع لا يليق قوله لزائر». لكنه تكلم مبتسمًا.

قلت: «لا بأس. درّست تلك القصة بنفسي. مؤلفتها شيرلي جاكسون، صحيح؟ عنوانها "أناس الصيف"».

وافقني فرانك: «نعم. لم أستوعبها، لكنها أعجبتني».

أخذت جرعة أخرى من جعة الجذور، وعندما وضعت الكوب (أصدر صوتًا مريحًا عند ملامسته النضد الرخامي)، لم أفتأجأ بأنه كاد أن يفرغ. قلت لنفسي: ربما أدمن هذه الجعة، إنها أفضل من موكسي بكثير.

نفث أنسيتي الأب عمودًا من الدخان نحو السقف، حيث بدّدته مروحة بين عوارض خشبية زرقاء باهتة، ثم قال: «هل تدرّس في وسكونسن يا سيد...؟».

«إبنغ». أجبته متفاجئًا فلم أفكر في إخباره باسم مزيف. «نعم، لكنني الآن في سنة سبّتيّة».

قال فرانك: «هذا يعني إجازة لمدة سنة».

قال أنسيتي: «أعرف ما يعنيه». حاول أن يبدو منزعجًا لكنه لم يفلح. وجدت نفسي معجبًا بهذين الاثنين بقدر إعجابي بجعة الجذور، كما أعجبني المراهق بالخارج، ولو لأنه لا يدري أن سلوكه مبتذل. ثمة إحساس بالأمان هنا، إحساس بـ... لا أدري بِمَ أسمّيه... بوجود ترتيب سابق. كان إحساسًا خاطئًا بالتأكيد، هذا العالم محفوف بالمخاطر كغيره، لكنني كنت أعرف معلومة لم يكن أحد يعرفها سوى الرب قبل عصر اليوم: كنت أعرف أن الفتى البشوش الذي أعجبته قصة شيرلي جاكسون (رغم أنه لم يستوعبها) سيعيش لبقية ذلك اليوم وأكثر من خمسين عامًا قادمة، لن يموت في حادث سيارة، أو يصاب بأزمة قلبية، أو بالسرطان من تدخين والده. سيكون فرانك أنسيتي على ما يرام.

ألقيت نظرة على الساعة الحائطية، (كان مكتوبًا على وجهها: ابدأ يومك بابتسامة، اشرب القهوة وابتهج) ووجدتها تشير إلى 12:22. هذا الزمن لم يعن لي شيئًا، لكنني تظاهرت بالانزعاج من ضيق الوقت، فشربت بقية الجعة ونهضت قائلاً: «لا بد أن أتحرك حتى ألتقي أصدقائي في كاسل روك قبل فوات الأوان».

قال أنسيتي: «حسنًا، تمهّل في الطريق رقم 117، إنه سيئ». لم أسمع لكنة مين ثقيلة كهذه منذ سنوات. ثم أدركت أن ذلك صحيح حرفيًا، وكدت أنفجر ضاحكًا.

قلت: «سأفعل. ويا فرانك، سأخبرك بأمر بشأن قصة شيلي جاكسون».

قال: «ماذا يا سيدي؟». ما زال يخاطبني بسيدي، ولم يكن متهكمًا. رأيت أن 1958 كان عامًا جيدًا، باستثناء نتانة المصنع ودخان السجائر.

- ما من شيء تستوعبه في القصة.

- حَقًّا؟ هذا ليس ما يقوله الأستاذ مارشانت.

- مع كامل احترامي للسيد مارشانت، أخبره بأن جيك إبنغ يقول إن السجائر تكون مجرد دخان أحيانًا وإن القصة تكون مجرد قصة أحيانًا.

ضحك قائلاً: «سأخبره! حصته الثالثة صباح الغد!».

قلت: «حسنًا». وأومأت للأب، متمنيًا لو أن بإمكانني إخباره أن عمله، بفضل موكسي (الذي لم يحقق النجاح... بعد)، سوف يظل مستمرًا في زاوية الشارع الرئيسي وشارع لويستن القديم لمدة طويلة بعد رحيله. أردفت: «شكرًا على الجعة».

- عُد إلينا في أي وقت يا بُني. أفكر في تخفيض سعر الكوب الكبير.

- تخفضه إلى دايِم؟

ابتسم ابتسامة صادقة كابتسامة ابنه وقال: «الآن صرت تفهمني».

رن الجرس المعلق فوق الباب، ودخلت ثلاث سيدات، لا يرتدين بناطيل، إنما فساتين ذات حواف تمتد إلى منتصف سيقانهن، ويعتمرن قبعات! اثنتين يتدلى منهما غطاء وجه شفاف. ثم بدأن ينقبن في صناديق الفواكه المفتوحة، بحثًا عن الفواكه المثالية. سرت مبتعدًا عن نضد البيع، ثم خطرت لي فكرة وعدت.

سألتهما: «أيمكنكما إخباري ما هي الواجهة الخضراء؟».

تبادل الأب وابنه نظرات توحى بأنهما وجدا سؤالي طريفاً، فتذكرت نكتة قديمة: سائح من شيكاغو يقود سيارة رياضية فخمة، يقف أمام بيت مزرعة في الريف، وثمة مزارع عجوز يجلس في الشرفة ويدخن غليوناً مصنوعاً من كوز ذرة. يُخرج السائح رأسه من سيارته الجاغوار ويسأل: «عذراً، هلا أخبرتني عن كيفية الوصول إلى إيست مَتشَآيس؟». ينفت المزارع العجوز دخان غليونه مرة أو مرتين مستغرقاً في التفكير، ثم يقول: «لا تتحرك شبرًا واحدًا».

سألني فرانك: «إنك من خارج الولاية حقاً، أليس كذلك؟». لكنته لم تكن ثقيلة مثل لكنة والده. قلت لنفسي: ربما يشاهد التلفاز كثيرًا، لا شيء يضاهي التلفاز في القدرة على محو اللكنات المحلية. قلت: «بلى».

- هذا غريب، أكاد أقسم إنني أسمع في كلامك شيئاً من لكنة اليانكي.
- إنها لكنة يُوبر، كما تعرف، لكنة سكان شبه الجزيرة الشمالية. سحَقاً! شبه الجزيرة الشمالية هي ولاية مشيغن.

لكن بدا أن كليهما لم يدرك زَلَّتِي. واستدار فرانك الشاب وبدأ يغسل الأطباق، يدويًا حسبما لاحظت.

قال أنسيتي: «الواجهة الخضراء هي متجر مشروبات كحولية، على الجانب الآخر من الشارع، إذا أردت شراء كمية كبيرة من مشروبٍ ما».
- أظن أن جعة الجذور تكفيني، كنت أتساءل فحسب. طاب يومك.
- طاب يومك أيضًا يا صديقي. عُد لزيارتنا.

مررت جوار السيدات الثلاث اللاتي يتفحصن الفواكه متمتمًا: «سيداتي»، وتمنيت لو كنت أعتمر قبعة حتى ألمس طرفها. قبعة فيدورا ربما.

مثل القبعات التي نراها في الأفلام القديمة.

لم أجد المراهق الصعلوك في مكانه بالخارج، وفكرت بالسير شمالاً عبر الشارع الرئيسي لأرى أي تغيرات أخرى ربما تكون قد طرأت عليه، لكن صرفت الفكرة سريعاً. ما من داع لاستنفاد حظّي. ماذا لو أن أحداً سألني عن ملابسي؟ رأيت أن بنطالي ومعطفي الرياضي لا بأس بهما إلى حدّ ما، لكنني لم أكن متأكّداً. وشعري الذي يلامس ياقاتني، في زمني يُعدّ عادياً، رغم أنني أستاذ مدرسة ثانوية، ومحافظ، لكن ربما يلفت الانتباه في زمن يُعدّ فيه حلق مؤخر العنق أمراً عادياً في صوالين الحلاقة والسوالف تقتصر على المراهيق من أمثال الذي خاطبني بـ *دادي-أو*. بالطبع يمكنني قول إنني سائح، وإن كل الرجال يطيلون شعرهم قليلاً في وسكونسن، وإن إطالة الشعر هي الموضة القادمة. لكن الشعر والملابس معاً، يشعرانني بأنني مختلف، كأنني كائن فضائي متنكر على هيئة بشرية مثالية. لكن هذا مجرد جزء من المشكلة.

الأهم أنني كنت مذعوراً. لم أصل إلى مرحلة الانهيار العقلي، أرى أن العقل البشري السليم بمقدوره استيعاب كثير من الأشياء الغريبة قبل أن ينهار، لكنني كنت مضطرباً مذعوراً. ظللت أفكر بالسيدات اللاتي يرتدين الفساتين الطويلة والقبعات، سيدات يشعرن بالخرج من إظهار حواف حمالات صدورهن في الأماكن العامة، كما ظللت أفكر بمذاق جعة الجذور كاملة الأوصاف.

على الجانب الآخر من الشارع مباشرة رأيت واجهة متجر، مكتوب فوق نافذة عرضه بأحرف بارزة متجر ولاية مين للمشروبات الكحولية، وبالفعل كانت الواجهة مطلية بلون أخضر فاتح. وبالداخل تبَيَّنْتُ صديقي الذي رأيته عند سقيفة التجفيف، معطفه الطويل متدل من كتفيه الشبيهتين بالمشجب، وكان قد نزع قبعته وبدأ شعره حول رأسه كشعر شخصية كرتونية تعرضت للتو لصعقة كهربائية. كان يتكلم مع

البائع بكلتا يديه، ورأيت بطاقته الصفراء الأثيرة لديه في إحدى يديه، وكنت متأكدًا أن نصف الدولار الذي أخذته من آل تمبلتون في اليد الأخرى. أما البائع، الذي كان يرتدي منظرًا أبيض قصيرًا بدا كالمعطف الذي يرتديه طبيب موكسي في المهرجانات السنوية، فقد بدا منزعًا جدًا.

سرت إلى زاوية الشارع، وانتظرت حتى تخف حركة السيارات، ثم عبرت إلى الجانب الآخر من شارع لويستون القديم حيث يوجد مصنع ورمبو. وهناك رأيت رجلين يدفعان عربة محملة ببالات قماش في الفناء، يدخان ويضحكان. تساءلت عما إذا كانت لديهما فكرة عما يفعله مزيج دخان السجائر ومخلفات المصنع بأحشائهما، واستبعدت ذلك. على الأرجح كان جهلها نعمة عليهما. لكن هذا سؤال ينبغي أن يُطرح على أستاذ فلسفة وليس على رجل يكسب لقمة عيشه من تعريف فتية في السادسة عشرة من أعمارهم بأعاجيب شيكسبير وشتاينبك وشيرلي جاكسون.

وحالما دخلا إلى المصنع، وهما يدحرجان عربتهما بين أبواب المصنع الصدئة الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثة طوابق، عبرت الفناء عائدًا إلى السلسلة المعلق فوقها لافتة مكتوب عليها ممنوع تجاوز هذا الحد. قلت لنفسى ألا أسير بسرعة ملحوظة، وألا أكثر التلُفُت، وألا أفعل أي شيء قد يجذب الانتباه إليّ، لكن هذا كان صعبًا. عندئذٍ وقد اقتربت من المكان الذي جئت منه، وجدت صعوبة متزايدة في كبح رغبتى في الإسراع. أحسست بفمى جافًا، وبكوب الجعة الكبير الذي شربته يرتج في معدتي. ماذا لو لم أستطع أن أعود؟ ماذا لو اختفت العلامة التي وضعتها على الأرض؟ ماذا لو لم تزل العلامة في مكانها لكن السلم اختفى؟ قلت لنفسى: مهلاً، هوّن عليك.

لم أستطع منع نفسي من إلقاء نظرة سريعة على ما حولي قبل أن أنحني تحت السلسلة، لكن وجدت نفسي وحدي في الفناء. وسمعت صوتاً من مكانٍ ما بعيد، كصوت في حلم، كان صوت محرك ديزل مكتوم، ذكّرني بمقطع آخر من أغنية أخرى: هذا القطار مصاب باكتئاب اختفاء السكك الحديدية.

سرت على الشريط الأخضر المحيط بسقيفة التجفيف، وقلبي يخفق خفقاناً شديداً، وجدت قطعة الورق الممزقة وكتلة الخرسانة عليها في مكانها. كل شيء على ما يرام حتى الآن. ركلت الورقة بلطف وأنا أقول لنفسي: أعني يا رب، أرجوك ساعدني على العودة يا رب.

ركل طرف حذائي كتلة الخرسانة، فرأيتهما تتدحرج بعيداً، لكنها توقفت إثر ارتطامها بدرجة السلم. وقع الحدثان في وقت واحد. ألقيت نظرة أخرى على ما حولي، رغم أن لا أحد في الفناء بوسعه رؤيتي في مكاني إلا إذا صادف مروره أمامي مباشرة. لم يظهر أحد.

صعدت درجة، أحسّت قدمي بها، لكن عيني أخبرتاني بأنني ما زلت أقف على أرضية الفناء المشققة. ارتجّت جعة الجذور في معدتي مُحذرةً مرة أخرى. أغمضت عيني، فهدأت قليلاً. صعدت درجة ثانية، ثم الثالثة. كانت درجات منخفضة. وعندما صعدت الدرجة الرابعة، تبددت حرارة الصيف من مؤخرة عنقي وازداد الظلام خلف جفني جِلْكَةً. حاولت صعود الدرجة الخامسة، لكن لم تكن ثمة درجة خامسة، إنما ارتطم رأسي بسقف مستودع المؤن المنخفض، وأحسست بيد تمسك بذراعي فكدت أن أصرخ.

قال آل: «اهداً، اهدأ يا جيك، لقد عدت».

عرض آل علي كوب قهوة، لكنني هززت رأسي، ما زالت معدتي مضطربة. صب كوبًا لنفسه، وعدنا إلى الطاولة المعزولة حيث بدأنا هذه الرحلة الجنونية. وجدت محفظتي ونقودي في منتصف الطاولة. جلس آل وندت عنه شهقة ألم وارتياح، بدا أقل شحوبًا وأكثر ارتياحًا قليلًا. قال: «إذن ذهبْتَ وعدت، ما رأيك؟».

- لا أدري يا آل، إنني مضطرب أشد الاضطراب. قلتَ إنك وجدت هذا المنفذ صدفةً؟

- تمامًا، بعد أقل من شهر من تأسيس المكان. لا بد أن غبار شارع باين كان ما يزال عالقًا بنعل حذائي. في المرة الأولى سقطتُ على ذلك السلم، كما سقطت أليس في جُحر الأرنب. ظننت أنني جننت. أمكنني تخيل ذلك. على الأقل كنتُ مستعدًا، رغم أن استعدادي لم يكن كافيًا. لكن هل من طريقة كافية لتهيئة شخص لرحلة إلى الماضي؟ سألته: «ما المدة التي غبتُ خلالها؟».

قال: «دقيقتان. أخبرتكُ سلفًا، تكون المدة دقيقتين دومًا، مهما كانت المدة التي تقضيها هناك». سعل، وبصق في حفنة مناديل جديدة، وطواها ووضعها في جيبه، ثم تابع: «وعندما تهبط السلم، يكون الوقت دومًا 11:58 صباحًا في التاسع من سبتمبر 1958. كل رحلة تكون الرحلة الأولى. أين ذهبْتَ؟».

- شركة كنبك فروت. وتناولت جعة جذور، كانت رائعة.

- أجل، كل شيء مذاقه أفضل هناك. يستخدمون القليل من المواد الحافظة، أو شيء من هذا القبيل.

- هل تعرف فرانك أنسيتي؟ قابلته فتى في السابعة عشرة.

لسببٍ ما، رغم كل شيء، توقعت من آل أن يضحك، لكنه عد كلامي عادياً، فقال: «بالطبع، قابلت فرانك مرات عديدة، لكنه لا يقابلني إلا مرة واحدة. أعني في الماضي. أما فرانك فيقابلني في كل مرة للمرة الأولى. يدخل إلى المحل، صحيح؟ قادماً من شيفرون، ويخبر والده: "بدأ تايّس العمل على الشاحنة، ويقول إنها ستكون جاهزة بحلول الساعة الخامسة". سمعت ذلك خمسين مرة، على الأقل. لا أدخل إلى المحل كل مرة، لكن عندما أدخل أسمع الكلام نفسه. ومن ثم تدخل السيدات وينتقين الفواكه، السيدة سيموندرز وصديقتها. الأمر أشبه بمشاهدة الفيلم نفسه مراراً وتكراراً».

«كل مرة تكون المرة الأولى». تكلمت ببطء شديد، محاولاً حَمْلَ عقلي على استيعاب ما أقوله.

- صحيح.

- وكل شخص تقابله يقابلك أنت للمرة الأولى، مهما كان عدد مرات مقابلاتكما سابقاً.

- صحيح.

- يمكنني أن أعود وأجري المحادثة نفسها مع فرانك ووالده، ولن يعرفا أنني التقيتهما من قبل.

- صحيح مجدداً. أو يمكن أن تغيّر أمراً فعلته - فلنقل أن تطلب تحلية آيس كريم بالموز بدلاً من جعة الجذور - وستمضي بقية المحادثة في اتجاه مختلف. الشخص الوحيد الذي يبدو أنه يشك في حدوث أمر غريب هو رجل البطاقة الصفراء، وهو ثمل إلى درجة تجعله لا يستشعر خطباً، هذا إذا كان يشعر بأي شيء. وإذا كان يشك فعلاً، فبسبب مصادفة جلوسه دوماً جوار جُحر الأرنب، أو أيّاً يكن اسمه، ربما يُشع حَقْلَ طاقة من نوع ما. الرجل...

بدأ يسعل مجددًا فعجز عن مواصلة الكلام. مشاهدته ينحني ويمسك بخاصرته محاولاً ألا يُظهر لي مدى ألمه المبرح كانت أمرًا مؤلمًا في حد ذاتها. قلت لنفسِي: لا يمكنه الاستمرار على هذا النحو، لن ينقضي أكثر من أسبوع قبل دخوله المستشفى، وعلى الأرجح بضعة أيام فقط. أليس هذا هو سبب اتصاله بي؟ لأنه عليه أن يخبر أحدًا بهذا السر المذهل قبل أن يخرس السرطان لسانه إلى الأبد؟

قال آل بعدما تما لك نفسه: «فكرتُ في إطلاعك على المعلومات بكل تفاصيلها عصر اليوم، لكنني لا أستطيع، أحتاج إلى الذهاب إلى المنزل لأتناول شيئًا من مُخدّري وأستريح. لم أتناول أي دواء أقوى من الأسبرين طوال حياتي. وما لديّ من أوكسيكودون يفقدني وعيي سريعًا. سأنام قرابة ست ساعات وبعدها سأكون أفضل حالًا لبعض الوقت، أقوى قليلًا. أيمكنك المجيء إلى منزلي قرابة التاسعة والنصف؟».

- يمكنني إذا عرفت مكان منزلك.

- كوخ صغير في شارع فايننغ، رقم تسعة عشر. ابحث عن تمثال

قزم في الباحة جوار الشرفة الأمامية، لن تخطئه، إنه يلوّح بعَلَم.

- عمّ سنتحدث يا آل؟ أعني... لقد أريّنتني. أصدقك الآن.

صدّقته بالفعل... لكن حتى متى؟ منذ الآن بدأت زيارتي القصيرة

إلى 1958 تبدو كحلم، وبعد بضع ساعات (أو بضعة أيام) على الأرجح سأقنع نفسي بأنني حلمت بما رأيته.

- سنتحدث عن مواضيع كثيرة يا صاح. هل ستأتي؟

لم يكرر عبارة: أمنية رجل يحتضر. لكنني قرأتها في عينيه.

- حسنًا. أتود أن أقلّك إلى منزلك؟

برقت عيناه وقال: «لدي شاحنتي، ومنزلي لا يبعد سوى خمسة

مربعات سكنية، بمقدوري القيادة هذه المسافة».

قلت: «بمقدورك بالطبع»، أملًا أن أبدو مقنعًا رغم أنني غير مقتنع. ثم نهضت وبدأت أضع أشياء في جيوبي، صادفت رزمة النقود التي أعطاني آل إياها، وعندئذ كنت قد فهمت التغيرات التي طرأت على ورقة الدولارات الخمسة، على الأرجح أدخلت تغييرات على الأوراق الأخرى أيضًا.

مددت له النقود لكنه هز رأسه قائلاً: «لا، احتفظ أنت بها، لدي كثير منها».

لكنني وضعتها على الطاولة وقلت له: «إذا كانت كل مرة تصبح المرة الأولى، فكيف يمكنك الاحتفاظ بالنقود التي تجلبها؟ كيف لا تختفي عندما تعود إلى الماضي في المرة التالية؟».

قال: «ليست لدي أي فكرة يا صاح. أخبرتك، ثمة أمور كثيرة لا أعرفها، ثمة قواعد، اكتشفت قليلًا منها، لكنها ليست كثيرة». أشرق وجهه بابتسامة باهتة لكنها صادقة، وتابع: «لقد جلبت معك جعة الجذور التي شربتها، أليس كذلك؟ ما زالت تتخضخض في بطنك، أليس كذلك؟».

كان محقًا.

«حسنًا، ها قد عرفت مدى تعقيد الأمر. أراك الليلة يا جيك، سأرتاح ونتحدث عن بقية التفاصيل».

- هل لي أن أطرح سؤالًا أخيرًا؟

حرك يده فيما معناه: هات ما لديك. لاحظت أن أظفاره، التي يحرص على نظافتها دومًا، صارت صفراء ومتشققة. علامة أخرى. ليست قوية مثل نقصان ثلاثين رطلًا من وزنه، لكنها علامة سيئة. كان والدي يقول إن بمقدور المرء معرفة الكثير عن صحة الناس من حالة أظفارهم فحسب.

سألته: «ماذا عن الفاتبرغر الشهير الذي تبيعه؟».

قال: «ماذا عنه؟»، لكن تراقص شبح ابتسامة على طرفي شفثيه.

- تبيعه بسعر زهيد لأنك تشتريه بسعر زهيد، أهذا صحيح؟

- لحم مفروم من متجر ريد آند وايت، الرطل مقابل أربعة وخمسين سنتًا. أذهب كل أسبوع. كنت أذهب كل أسبوع حتى آخر مغامراتي، التي ذهبت فيها بعيدًا عن فولز. اشتري من السيد وارن، الجزار. إذا طلبت منه عشرة أرطال من اللحم المفروم، يقول: "حالا". وإذا طلبت اثني عشر أو أربعة عشر رطلًا، يقول: "أمهلني دقيقة حتى أفرم لك لحمًا طازجًا. أليك مناسبة عائلية؟".

- المحادثة نفسها كل مرة؟

- نعم.

- لأنها تكون المرة الأولى دومًا.

- صحيح. كما يحدث في قصة الخبز والسمكتين في الإنجيل⁽¹⁾. اشتريت اللحم المفروم نفسه أسبوعًا تلو أسبوع، وأطعمت به مئات أو آلاف الناس، رغم شائعات لحم القطط السخيفة التي لا تنقطع.

حاولت استيعاب كلامه: «تشتري اللحم نفسه، مرارًا وتكرارًا».

- اللحم نفسه، في الوقت نفسه، من الجزار نفسه، الذي دائمًا ما يقول الكلام نفسه، إلا إذا قلت كلامًا مختلفًا. أعترفُ يا صاح، أحيانًا يخطر لي أن أقول للجزار: كيف حالك يا سيد وارن، أيها النغل الأصلع العجوز، هل كنت تعبت مع أي دجاج ميت مؤخرًا؟ ما كان ليتذكر. لكنني لم أفعل ذلك قط، لأنه رجل لطيف. معظم الذين قابلتهم في الماضي لطفاء.

(1) معجزة إطعام الجموع، ورد في الإنجيل أن السيد المسيح أطعم ببضع قطع خبز وسمكتين خمسة آلاف شخص. (المترجم)

بدا على آل شيء من الحزن إثر كلامه الأخير.

- ما زلت لا أفهم كيف يمكنك أن تشتري اللحم هناك... وتقدمه للناس هنا... ثم تعود وتشتريه مجددًا.

- إنني حائر مثلك يا صاح. وممتن لأنك ما زلت هنا أيما امتنان. كان من الوارد أن أفقدك. وفي الحقيقة لم تكن مضطرًا إلى محادثتي عندما اتصلت بالمدرسة.

جزءٌ مني تمنى لو أنني لم ألتق مكالمته، لكنني لم أقل هذا، وعلى الأرجح أدرك آل هذا، فهو مريض، وليس أعمى البصيرة.

تابع آل: «تعال إلى منزلي الليلة، سأخبرك بما أفكر به، وعندئذٍ لك أن تفعل ما تراه مناسبًا. لكن سيتعين عليك أن تتخذ قرارك سريعًا، لأن وقتي قصير. ثمة مفارقة في هذا، أليس كذلك؟ نظرًا إلى المكان الذي يفضي إليه السلم في مستودع المؤن، صحيح؟».

تكلمت ببطء أشد من ذي قبل: «كل... مرة... تكون... المرة... الأولى». ابتسم آل مجددًا قائلاً: «أرى أنك استوعبت هذا الجزء. أراك الليلة، اتفقنا؟ شارع فايننغ، المنزل رقم تسعة عشر. ابحث عن التمثال حامل العلم».

8

غادرت مطعم آل عند الثالثة والنصف. والساعات الست التي بين مغادرتي وبين التاسعة والنصف لم تكن غريبة بقدر غربة زيارتي لليسبون فولز قبل ثلاثة وخمسين عامًا، لكنها كانت غريبة إلى حدٍّ ما. بدا الزمن كأنه يتباطأ ويسرع في آنٍ واحد. قدت سيارتي عائداً إلى المنزل الذي لم أكمل سداد أقساطه في ساباتوس (أنا وكركستي بعنا المنزل الذي كنا نملكه في فولز عندما انفضت شراكتنا الزوجية). فكرت في أخذ قيلولة، لكنني عجزت عن النوم بالطبع. وبعد عشرين دقيقة من الاستلقاء على ظهري، مستقيماً كعصا، ومحددًا إلى السقف، ذهبت إلى الحمام

لأقضي حاجتي. وفي أثناء مشاهدتي البول ينساب في المرحاض، قلت
لنفسي: هذه جعة مصنوعة في عام 1958. لكن في الوقت نفسه خطر
لي أن ذلك هراء، لا بد أن آل نوّمني مغنطيسيًا بطريقةٍ ما.
بدأت الشكوك. رأيتم؟

حاولت إنهاء قراءة آخر مقالات طلابي، ولم أتفاجأ ولو قليلًا عندما
عجزت. أحمل قلم السيد إبنغ الأحمر الرهيب؟ وأصدر أحكامًا نقدية؟ لا
بد أنني كنت أمارح نفسي. لم أستطع استيعاب أي جملة. لذا لجأت إلى
التلفاز، وتنقّلت بين القنوات هنيهة، ثم صادفت على قناة تي إم سي
فيلمًا قديمًا اسمه دراغسترب غيرل، ووجدت نفسي أشاهد السيارات
القديمة والمراهقين الذين ينهشهم القلق، رحت أشاهد بتركيز شديد
حتى أحسست بصداع، وأغلقت التلفاز. أعددت لنفسي طعامًا على
عجالة، ثم لم أستطع أكله رغم جوعي. لبثت جالسًا في مكاني، أنظر
إلى الطعام القابع على الطبق، وأتخيل آل تمبلتون يقدم عشرات أرطال
اللحم نفسها مرارًا، عامًا تلو عام. كان الأمر بالفعل مثل معجزة السمكة
والرغيفين. إذن ماذا لو انتشرت شائعات برغر القطط والكلاب بسبب
أسعارها الزهيدة؟ ونظرًا إلى السعر الذي كان يدفعه مقابل اللحم، لا بد
أنه جنى أرباحًا طائلة من كل شطيرة برغر باعها.

عندما أدركت أنني أذرع المطبخ، عاجزًا عن النوم، وعاجزًا عن
القراءة، وعاجزًا عن مشاهدة التلفاز، وقد ألقيت طعامًا جيدًا في سلة
القمامة - ركبت سيارتي وقُدت عائداً إلى المدينة. عندئذٍ كانت الساعة
السابعة إلا ربعًا، ووجدت وفرة في مساحات الرّكن في الشارع الرئيسي.
توقفت قبالة محل كنبك فروت ولبثت جالسًا خلف عجلة القيادة، ورحت
أحدق إلى المبنى الأثري الذي يتقشر طلاؤه الذي كان عمله مزدهرًا ذات
يوم. أغلق بعد نهاية اليوم، وبدأ مستعدًا لكُرة الهدم. العلامة الوحيدة
على وجود أي نشاط بشري فيه كانت بضع لافتات موكسي على نافذة

العرض المغبرة، أكبرها مكتوب عليه: اشرب موكسي من أجل صحتك.
لافتات قديمة الطراز بدت كأنها من زمن غابر.

استطال ظل المحل إلى الجانب الآخر من الشارع فلامس سيارتي.
إلى يميني، حيث كان يوجد متجر المشروبات الكحولية، رأيت مبنى
أنيقاً من القرميد فيه أحد فروع مصرف كي. من يحتاج إلى واجهة
خضراء وبإمكان أي أحد أن يدخل أي متجر بقالة في الولاية ويخرج
حاملاً عبوات جاك أو ربع جالون من البراندي بنكهة القهوة؟ ليس في
كيس ورقي مهترئ، في زمننا الحديث هذا نستخدم البلاستيك، الذي
يدوم ألف عام. وبمناسبة الحديث عن متاجر البقالة، لم أسمع قط عن
متجر اسمه ريد أند وايت. إذا أراد المرء أن يتسوق في فولز، فعليه أن
يذهب إلى متجر آي جي إيه على بُعد مربع سكني في الشارع رقم 196،
قبالة محطة القطارات القديمة، وقد صار المحل الآن يجمع بين متجر
قمصان وصالون وشم.

عندئذٍ أحسست بالماضي قريباً جداً. لكن ربما يكون إحساسي مرده
إلى ضوء الصيف الذهبي، الذي دائماً ما يبدو لي غرائبياً. بدا لي كأنما
عام 1958 ما زال هنا، لكنه محجوب خلف غلالة واهية من الأعوام
المتداخلة، وهذا قد يكون صحيحاً إذا لم أكن قد تخيلت ما حدث لي
اليوم قبل ساعات.

آل يريد مني أن أفعل شيئاً، شيئاً لفعله بنفسه لكن السرطان أعجزه.
قال إنه قد ذهب ومكث أربع سنوات (أو على الأقل هذا ما ظننت أنه
قاله)، لكن السنوات الأربع لم تكن كافية.

هل أنا مستعد للعودة عبر ذلك السلم والمكوث في الماضي أربع
سنوات وأكثر؟ للإقامة في الماضي؟ ثم أعود بعد دقيقتين... لكنني في
الأربعينات من عمري وقد بدأ الشيب يظهر في شعري؟ لم أستطع تخيل
ذلك، لكنني لم أستطع تخيل الأمر المهم الذي وجده آل هناك أساساً.

الأمر الوحيد الذي أعرفه هو أن أربعة أو ستة أو ثمانية أعوام من حياتي ثمن باهظ، ولو من أجل رجل يحتضر.

ما زالت أمامي أكثر من ساعتين قبل موعد ذهابي إلى منزل آل، فقررت أن أعود إلى منزلي، وأعد لنفسي وجبة أخرى، عازماً على إرغام نفسي على تناولها هذه المرة. وبعدها سأحاول مرة أخرى إنهاء قراءة المقالات. ربما أكون أحد القليلين جداً الذين سافروا عبر الزمن إلى الماضي، أنا وآل ربما نكون الوحيدين اللذين فعلها في تاريخ العالم، لكن طلابي دارسي الشعر لا بد أن ينالوا درجاتهم النهائية.

لم أشغل المذياع عندما قدت السيارة إلى المدينة، لكنني شغلته الآن، ومثل تلفازي، تتحكم في برمجته أجهزة تتحكم فيها حواسيب وتدور حول الأرض على ارتفاع اثنين وعشرين ألف ميل، هذه المعلومة إذا سمعها المراهق فرانك أنسييتي في زمانه، لاتسعت عيناه تعجباً (وليس إنكاراً تاماً). ضببطت المذياع على إذاعة سكستيز أون سكس فصادفت داني آند ذا جونيورز يغنون روك آند رول إز هير تو ستّي، ثلاثة أو أربعة أصوات شغوفة متناغمة تغني برفقة بيانو تقليدي، وبعدهم غنى ليتل ريتشارد صارخاً لوسيل بأعلى صوته، ومن ثم غنى إرني كيه دوي متأوهاً أغنية مَدَرِ إن لو: تظن أن نصيحتها بناءة، لكن مغادرتها ستكون حلاً. جميع الأغاني بدت طازجة وحلوة كالبرتقال الذي انتقته السيدة سيموندز وصديقتها في وقت سابق من عصر اليوم.

بدت الأغاني جديدة.

هل أردت قضاء سنوات في الماضي؟ لا. لكنني أردت أن أعود، ولو لسماع صوت ليتل ريتشارد عندما كان أشهر مغربي البوب، أو للصعود على متن طائرة تابعة لشركة ترانس وورلد إيرلاينز دون أن ألزم بنزع حذائي، أو بالرضوخ لتفتيش جسدي كامل والمرور عبر جهاز كشف المعادن. وأردت تناول كوب جعة جذور آخر.

الفصل الثالث

1

وجدتُ التمثال القزمي يحمل عَلَمًا فعلًا، لكن ليس علم أمريكا، ولا حتى علم ولاية مَين المرسوم عليه موظ. العلم الذي كان التمثال يحمله عليه خط رأسي أزرق، وخطان عريضان أفقيان، الأعلى أبيض والأسفل أحمر، وعليه أيضًا نجمة. ربَّت قبعة التمثال المدببة وأنا أتجاوزه صاعدًا أولى درجات سلم منزل آل في شارع فايننغ، متذكرًا أغنية طريفة لراي وايلي هابارد: سحَقًا لكم، نحن من تكساس.

فُتِح الباب قبل أن أضغط على زر الجرس. كان آل يرتدي رداء حمام فوق منامة، وشعره الذي ابيضَّ حديثًا بدا أشعث متشابكًا، من أثر الفراش. لكن النوم (ومهدئات الألم بالطبع) حسَّن حالته قليلًا. ما زالت تبدو عليه آثار المرض، لكن التجاعيد المحيطة بفمه لم تبدُ عميقة كما في السابق، ومشيته، وهو يقتادني عبر الصالة الصغيرة إلى حجرة المعيشة، بدت أكثر ثباتًا. لم يعد يضع يده اليمنى أسفل إبطه الأيسر كأنه يحاول أن يتمالك نفسه.

«أبدو قليلًا كما كنتُ في الماضي، أليس كذلك؟». سألني بصوته الأجش وهو يجلس على كرسي ضخم وثير أمام التلفاز، إلَّا أنه لم يجلس الجلوس المعروف، إنما موضع نفسه وارتمى فحسب.

- بلى. ماذا قال الأطباء لك؟

- الطبيب الذي قابلته في بورتلاند يقول إن حالتي ميؤوس منها، حتى إذا تعالجت بالإشعاع والعلاج الكيميائي. وهذا كلام الطبيب الذي قابلته في دالاس نفسه، عام 1962. من اللطيف أن بعض الأشياء لا تتغير، أليس كذلك؟

فتحت شفتي، ثم أغلقتهما. أحياناً لا يُحر المرء رداءً، وينعقد لسانه.
- لا داعي للمراوغة والتحفظ يا جيك. أعرف أن الموت موضوع حساس مُحرج لكثير من الناس، لا سيما عندما لا يستطيع المحتضر أن يلوم شيئاً سوى عاداته السيئة. لكنني لا يمكنني إهدار الوقت بالتحفظ. سأدخل المستشفى عما قريب، ولو لعجزي عن التردد على الحمام وحدي فحسب. عليّ اللعنة إذا جلست أسعل غارقاً في فضلاتي.

- ماذا سيحدث للمطعم؟
- انتهى أمر المطعم يا صاح. حتى إذا كنت بصحة سليمة كحصان، فسينتهي أمر المطعم بنهاية الشهر الحالي. تعرف أنني كنت أستاذ ذلك المكان، صحيح؟

لم أكن أعرف، لكن كلامه بدا منطقيّاً. رغم أن مصنع ورمبو ما زال اسمه ورمبو، فقد صار الآن مركز تسوق عادياً، وهذا يعني أن آل ظل يدفع الإيجار لشركة ما.

- انتهى عقد إيجاري وينبغي تجديده، وشركاء المصنع يريدون تلك المساحة ليشيدوا عليها شركة اسمها -ستحب هذا الاسم- إل. إل. بين إكسبرس. علاوة على أنهم يقولون إن طراز مبنى مطعمي يؤذي الأعين.

- هذا سخيف!
عبرتُ عن امتعاضي بصدق جعل آل يقهقه، وحاولت قهقهته أن تتحول إلى نوبة سعال، لكن آل كبجها. هنا في خصوصية منزله لم

يستعمل أي مناديل ورقية أو قماشية للتعامل مع السعال، إنما لديه صندوق من فوط ماكسي النسائية على منضدة جوار كرسيه، ما فتئت عيناى تنجذبان إليها، وظللت أحاول الإشاحة بهما، ناظرًا إلى صورة على الجدار لآل واضعًا ذراعه حول امرأة جميلة، وظلت عيناى تعودان إلى الفوط النسائية. هذه أحد ثوابت البشر: عندما يحتاج المرء إلى فوط صحية نسائية لامتناس البلمم الذى يفرزه جسده، فهو فى حالة مزرية جدًا.

- شكرًا لقولك ذلك يا صاح. لشربنا نخب كلامك، لكن ولت أيام شربى الكحول. لى شاي مثلى فى الثلاجة، هلا شرفتنا؟

2

كان آل يستخدمل أواني زجاجية متينة عادية فى الماطعم، لكن الإبريق الذى يحتوى على الشاي المثلج فى منزله بدا لى فاخرًا من شركة وترفورء، وأعلاه تطفو لىمونة كاملة، قشرتها مقطوعة حتى تتسرب منها نكهتها. وضعت مزيدًا من الثلج فى كأسين، وصببت الشاي، وعُءت إلى حجرة المعيشة. أخذ آل جرعة طويلة من كأسه وأغمض عينيه مستمتعًا ممتنًا.

ثم قال: «رباه، إنه رائح. فى هذه اللحظة كل شيء على ما يرام فى عالم آل. ذلك المخر قوي، يسبب الإءمان بالطبع، لكنه رائح، حتى إنه يخمد السعال قليلًا. سيعوء الألم تدريجيًا بحلول منتصف الليل، لذا أماننا متسع من الوقت لنتكلم عن جميع التفاصيل». أخذ رشفة أخرى ونظر إلى نظرة كئيبة، وتابع: «يبدو لى أن البشر يثيرون العجب حتى فى أحلك لحظاتهم، كنت أستبعد هذا».

- آل، ماذا سيحدث لذلك... ذلك الثقب المفضى إلى الماضى، إذا سحبوا مقطورتك وشيدوا فى مكانها متجرًا؟

- لا أدري ذلك بقدر ما لا أدري كيفية شرائي اللحم نفسه مرارًا. أظن أن الثقب سيختفي، أظنه من عجائب وفلتات الطبيعة، مثل الفؤارة الحارة في أولد فيثفول، وتلك الصخرة الغريبة المتوازنة بأعجوبة في غرب أستراليا، والنهر الذي يجري إلى الوراء عند أوقات بعينها من مراحل اكتمال القمر. مثل هذه الأشياء حساسة يا صاح، قد تختفي إثر أدنى تغيير في قشرة الأرض أو درجة الحرارة أو انفجار بضع أصابع ديناميت.

- إذن فأنت لا تظن أنه قد... لا أدري... كارثة طبيعية من نوع ما؟ في تلك اللحظة كنت أتصور خرقًا في طائرة تحلق على ارتفاع ستة وثلاثين ألف قدم، وكل شيء فيها يُسحب إلى خارجها، حتى الركاب. رأيت ذلك في فيلم ذات يوم.

- أستبعد ذلك، لكن مَنْ يدري؟ كل ما أعرفه هو أن ليس بيدي حيلة على أي حال. إلا إذا أردتَ مني أن أنقل حق إيجار المكان إليك، يمكنني فعل ذلك. وعندئذٍ يمكنك الذهاب إلى الجمعية الوطنية لحماية المواقع التاريخية، وتقول لهم: "مرحبًا يا رفاق، ينبغي ألا تسمحوا لهم بتشديد متجر في فناء مصنع ورمبو القديم، يوجد فيه نفق زمني. أعرف أن من الصعب تصديق هذا، لكن اسمحوا لي بأن أثبت لكم كلامي".

لوهلة فكرت في فعل ذلك حقًا، لأن آل محق على الأرجح، الصَّدْع المُفضي إلى الماضي حساس بلا شك، وحسبما أعرفه (أو يعرفه آل)، قد يتلاشى كفقاعة صابون إذا تعرض المطعم لارتجاج عنيف فحسب. ثم فكرت باكتشاف الحكومة الفدرالية لإمكانية إرسالهم عملاء إلى الماضي لتغيير ما يريدون تغييره أيًا يكن. لم أكن متأكدًا من إمكانية تغيير الماضي، لكن إذا اتضح أنه ممكن، فالذين اخترعوا لنا أشياء ممتعة

كالأسلحة البيولوجية والقنابل الذكية الموجهة بالحواسيب هم آخر من أرغب في أن يحملوا أجندتهم العديدة إلى حقبة زمنية حية وعزلاء. وحالما خطرت لي هذه الفكرة، أدركت ما يدور في رأس آل ويريد مني فعله، لكن لم تتضح لي التفاصيل.

وضعت كأس الشاي المثلج جانباً ونهضت قائلاً: «لا. قطعاً لا. لا». تلقى آل كلامي بهدوء. قد أقول إنه حافظ على هدوئه لأنه تحت تأثير مخدر الأوكسيكودونتين، لكن هذا غير صحيح. أدرك آل أنني لم أقصد الانسحاب نهائياً، مهما قلت، ففضولي (ناهيك بافتتاني بالفكرة) كان واضحاً وضوح الشمس. جزء مني أراد أن يعرف التفاصيل.

قال آل: «أرى أن بوسعي تخطي التفاصيل التمهيدية والدخول في صلب الموضوع. هذا جيد. اجلس يا جيك، سأخبرك بالسبب الوحيد الذي يمنعني من تناول مخزوني الكامل من الأقراص الوردية المخدرة دفعة واحدة». وعندما لبثت واقفاً، تابع: «تعرف أنك تريد سماع ما أود قوله. ماذا سيضريك؟ حتى إذا استطعت إرغامك على فعل شيء هنا في 2011 -ولا أستطيع بالطبع- فلن أستطيع إرغامك على فعل أي شيء هناك في الماضي، فحالما تعود إلى هناك، فلن يكون آل تمبلتون سوى طفل في الرابعة يعيش في بلومينغتون بولاية إنديانا، يركض في باحة منزله الخلفية واضعاً قناع حارس جوال، وما زال يتذمر من استخدام المرحاض. لذا اجلس. كما يقولون في الإعلانات، لست ملزماً بأي شيء». صحيح. لكن من ناحية أخرى، لقاتل أُمي إن الشيطان حلو اللسان. لكنني جلست.

- أتعرف عبارة لحظة فارقة يا صاح؟

أومأت. ليس بالضرورة أن يكون المرء أستاذ لغة إنجليزية حتى يعرف معنى هذه العبارة، ليس بالضرورة أن يعرف القراءة والكتابة أساسًا، إنها أحد الاختصارات اللغوية المزعجة التي تظهر في البرامج التلفزيونية يومًا تلو يوم، ومنها أيضًا وضع النقاط على الحروف، وفي هذه اللحظة من الزمن، وأشدها إزعاجًا (تبرّمتُ منها أمام طلابي مرارًا رغم مللهم من تكرار كلامي) هي العبارات المجردة من أي معنى مثل بعض الناس يقولون، أو كثيرون يعتقدون.

- وهل تعرف من أين أتت؟ أتعرف أصلها؟

- لا.

- من علم رسم الخرائط. المنطقة الفارقة هي مساحة من الأرض، غالبًا ما تكون جبالًا أو غابات، تتجمع فيها مياه الأمطار فتصير نهرًا. التاريخ أيضًا نهر، ألا تتفق معي؟

قلت: «بلى، أفترض أنني يمكنني قول ذلك»، ورشفتُ من الشاي.

- أحيانًا نجد أن الأحداث التي تغير التاريخ تقع على نطاق واسع، مثل أمطار غزيرة تهطل مدة طويلة على منطقة فارقة بأكملها، فتُخرج مياه النهر عن ضفّتيه. لكن الأنهار يمكن أن تفيض في الأيام المشمسة، لا يتطلب فيضانها سوى أمطار غزيرة في رقعة واحدة صغيرة من المنطقة الفارقة. وتقع الفيضانات المفاجئة أيضًا. أتريد بعض الأمثلة؟ ماذا عن أحداث 9/11؟ أو ماذا عن فوز جورج بوش على آل غور عام 2000؟

- لا تجوز مقارنة انتخابات رئاسية بفيضان مفاجئ يا آل.

- ربما ليس معظمها، لكن انتخابات عام 2000 كانت في فئة قائمة بذاتها. فلنفترض أنك استطعت أن تعود إلى فلوريدا في خريف عام ألفين وأنفقت قرابة مئتي ألف دولار نيابةً عن آل غور.

- ثمة مشكلتان في هذا الافتراض. أولاً، لا أملك مئتي ألف دولار، وثانياً، أنا أستاذ مدرسة ثانوية، بمقدوري إخبارك بكل تفاصيل هوس والدته توماس وولف، لكن في مجال السياسة ستجدي عاجزاً كطفل وحده في غابة.

لَوْح بيده بطريقة توحى بنفاد صبره، فكادت أن تطيح بخاتم المارينز من إصبعه النحيلة، وقال: «المال ليس مشكلة، عليك أن تثق بي من هذه الناحية في الوقت الراهن. المعرفة المتقدمة غالباً ما تتغلب على الخبرة. يُقال إن فارق الأصوات في فلوريدا كان أقل من ستمئة صوت، أتظن أن بمقدورك شراء ستمئة صوت في يوم الانتخابات بمئتي ألف دولار إذا كان شراؤها هو الوسيلة المتاحة؟».

قلت: «ربما. على الأرجح. أظنني سأختار بعض المجتمعات المعزولة حيث يكون الإقبال على التصويت فيها ضعيفاً. لن يتطلب هذا بحثاً كثيراً. وعندئذٍ أتدخل بالنقود».

ابتسم آل كاشفاً عن أسنانه المفقودة ولثته الخربة: «لِمَ لا؟ نجح ذلك في شيكاغو لسنوات».

أخرستني فكرة شراء الرئاسة بمبلغ أقل من تكلفة سيارتي مرسيدس. قال آل: «لكن بالحديث عن نهر التاريخ، اللحظات الفارقة الأكثر قابلية للتغيير هي الاغتيالات، التي نجحت والتي فشلت. أرشيدوق النمسا فرانز فيردناند يطلق عليه النار شخصٌ تافه مختل عقلياً اسمه غافريلو برنسيب، فتندلع الحرب العالمية الأولى. ومن ناحية أخرى، بعدما أخفق كلاوس فون شتاوفنبيرغ في قتل هتلر عام 1944، رغم اقترابه من النجاح، استمرت الحرب العالمية الثانية ومات ملايين آخرون».

شاهدتُ ذلك الفيلم أيضًا.

تابع آل: «ما من شيء يمكننا فعله بشأن الأرشيديوق فرديناند أو أدولف هتلر، إنهما بعيدان عن متناولنا».

فكرت بالاحتجاج على استخدامه للضمائر، لكنني أمسكت لساني. أحسست كما لو أنني رجل يقرأ كتابًا سوداويًا، فلنقل رواية لتوماس هاردي مثلًا. يعرف المرء نهاية القصة، لكن معرفته لا تفسد عليه متعته، بل تزيد من شغفه بالقصة. أو كأن يشاهد المرء طفلًا يسير لعبة قطاره الكهربائي بسرعة متزايدة وينتظر خروجه عن مساره عند أحد المنحنيات.

تابع آل: «أما أحداث 9/11، إذا أردت معالجتها، فسيتعين عليك الانتظار ثلاثة وأربعين عامًا. عندئذٍ ستناهز الثمانين من عمرك، إذا بقيت على قيد الحياة».

عندئذٍ فهمت أمر علم النجم الوحيد⁽¹⁾ الذي يحمله التمثال القزمي، كان تذكيرًا من آخر رحلات آل إلى الماضي. سألته: «لم تستطع بلوغ عام 63، أليس كذلك؟».

لم يرد، واكتفى بالنظر إلي. وعيناه اللتان بدتا دامعتين غائمتين عندما دخلت مطعمه سابقًا، بدتا مشرقتين، ومفعمتين بالحيوية.

سألته: «لأنك تتحدث عن دالاس عام 1963، صحيح؟».

قال: «صحيح. اضطررتُ إلى الانسحاب. لكنك لست مريضًا يا صاح، إنك سليم وفي ريعان شبابك، بمستطاعك العودة، بمستطاعك إيقاف الاغتيال». مال للأمام وعيناه تشعّان، وتابع: «يمكنك تغيير التاريخ يا جيك، أتفهم هذا؟ جون كينيدي يمكن أن يعيش».

(1) علم ولاية تكساس، حيث توجد مدينة دالاس التي وقع فيها اغتيال كينيدي. (المترجم)

أعرف أسس روايات التشويق، لا بد أن أعرفها، قرأت ما يكفي من القصص المثيرة طوال حياتي، والقاعدة الأساسية الأهم هي حمل القارئ على التخمين باستمرار. لكن إذا فهمتم شخصيتي ولو فهمًا محدودًا، بناءً على أحداث ذلك اليوم غير العادية، فستعرفون أنني أردت أن أقتنع. كرستي إبنغ أصبحت كرستي تومسون (فتى يقابل فتاة في اجتماع لجمعية مدمني الكحول المجهولين. أتذكرون؟)، وأنا كنت رجلًا وحيدًا. لم ننجب أطفالًا نتشاجر في سبيل حضانتهم. ولدي وظيفة جيدة، لكن إذا قلت لكم إنها مشوقة، فسأكون كاذبًا. التنقل بالتطفل في أنحاء كندا مع صديق لي بعد التخرج في الجامعة كان أقرب شيء إلى مغامرة خضتها، لكنها لم تكن مغامرة حقيقية، نظرًا إلى الطبيعة المرحية المُجبة للمساعدة التي يتَّسم بها معظم الكنديين. والآن، فجأة، تُعرض علي فرصة أن أصبح لاعبًا رئيسيًا في التاريخ الأمريكي بل والعالمي أيضًا. لذا أجل، أجل، أجل، أردتُ أن أقتنع.

لكن كنت خائفًا أيضًا.

قلت: «ماذا لو وقع خطب؟». شربت بقية الشاي المثلج بأربع جرعات طويلة، حتى لامستُ مكعبات الثلج أسناني. «ماذا لو تمكنتُ بطريقةٍ ما من منع الاغتيال فتفاقت الأوضاع بدلًا من أن تتحسن؟ ماذا لو عدتُ إلى هنا واكتشفت أن الحكومة الأمريكية أصبحت فاشية؟ أو أن التلوث صار أسوأ إلى درجة أن الناس صاروا يسIRON في كل مكان وهم يرتدون أقنعة غاز؟».

- عندئذٍ يمكنك أن تعود مجددًا، تعود إلى قبل دقيقتين من الساعة الثانية عشرة في التاسع من سبتمبر عام 1958، فتلغي كل شيء. كل رحلة تكون الرحلة الأولى، أتذكر؟

- حسنًا، لكن ماذا لو كانت التغييرات التي أحدثتها كبيرة وترتب عليها اختفاء مطعمك الصغير؟
ابتسم ابتسامة واسعة.

- عندئذٍ سيتعين عليك أن تعيش حياتك في الماضي. لكن أهذا سيئ؟ بوصفك أستاذ لغة إنجليزية، لديك مهارة يمكنك جني المال عبرها. لكن لا أظنك ستحتاج إليها. عشتُ هناك أربع سنوات يا جيك، وجنيتُ ثروة صغيرة. أتعرف كيف؟

كان بوسعي أن أجيب بتخمين مدروس، لكنني هزرت رأسي، فتابع آل: «المراهنات. كنت حذرًا، لم أرغب في إثارة أي شكوك، حتى لا يلاحقني أتباع وكيل مراهناتٍ ما ويكسروا ساقيَّ. لكن عندما تدرس الفائزين بكل مسابقة رياضية بين صيف 1958 وبين خريف 1963، يمكنك أن تكون حذرًا وتربح أيضًا. لن أقول إنك بوسعك العيش كالملوك، ففي ذلك مجازفة. لكن ما من شيء يمنعك من عيش حياة طيبة. وأظن أن المطعم سوف يظل موجودًا. ظل موجودًا بعدما ذهبتُ، وقد غيرتُ أشياء كثيرة. جميع الناس يفعلون. مجرد السير بضعة شوارع وشراء خبز وعلبة حليب من شأنه تغيير المستقبل. هل سمعتَ بأثر الفراشة؟ إنها نظرية علمية جميلة متكلِّفة تتلخص فكرتها في...».

بدأ يسعل مجددًا، أول نوبة طويلة منذ دخولي منزله. أخذ إحدى فوط ماكسي من الصندوق، ووضعها على فمه ككمامة، ثم انحنى. صدرت أصوات تقيؤٍ شنيعة من صدره، كأنما تفككت نصف أعضائه الداخلية وصارت ترتطم ببعضها مثل سيارات التصادم في مدينة ملاهي. ثم انحسر السعال أخيرًا. ألقى آل نظرة على الفوطة، وأجفل، وطواها وألقاها بعيدًا. «آسف يا صاح، هذا الحيض الفموي سيئ».

- برَبِّكَ يا آل!

هز كتفيه قائلاً: «إذا لم نستطع المزاح، فما المغزى من أي شيء؟
والآن، عمّ كنت أتحدث؟».

- أثر الفراشة.

- أجل، يعني أن الأحداث الصغيرة يمكن أن يكون لها... ما اسمها؟
تداعيات كبيرة. الفكرة كالتالي، إذا قتل رجلُ فراشةً في الصين،
فربما يؤدي ذلك، بعد أربعين أو أربعمئة عام، إلى زلزال في بيرو.
أتبدو لك الفكرة جنونية كما تبدو لي؟

بدت لي جنونية بالفعل. لكنني تذكرت معضلة قديمة عن السفر عبر
الزمن، فذكرتها: «نعم، لكن ماذا لو عدت إلى الماضي وقتلت جدّك؟».
حذق إلي مشدوهاً.

- لِمَ عساك أن تفعل ذلك بحق الجحيم؟

كان سؤاله وجيهاً، فطلبت منه أن يواصل كلامه.

- غيرت الماضي عصر اليوم تغييرات بسيطة، بمجرد دخولك إلى
محل كنبك فروت... لكن السلم المؤدي إلى مستودع المؤن وعام
2011 ظل موجوداً في مكانه، أليس كذلك؟ وفولز ظلت كما كانت
عندما غادرتها.

- على ما يبدو، أجل. لكنك تتحدث عن تغيير كبير، أعني إنقاذ حياة
جون كينيدي.

- بل إنني أتحدث عن أكثر من ذلك، لأن هذا الحدث ليس قتل فراشةٍ
ما في الصين يا صاح. إنني أتحدث عن إنقاذ حياة روبرت كينيدي
أيضاً، فإذا عاش جون في دالاس، فعلى الأرجح لما ترشح روبرت
للرئاسة عام 1968، لما كانت البلاد مستعدة لاستبدال أحد آخر
بالرئيس من العائلة نفسها.

- لا تعرف ذلك على وجه التأكيد.

- لا، لكن اسمع، أظن أنك إذا أنقذت جون كينيدي، فسيكون شقيقه روبرت موجودًا في فندق أمباسادور عند الثانية عشرة والرابع صباح الخامس من يونيو عام 1968؟ وحتى إذا كان موجودًا، هل سيكون سرحان سرحان⁽¹⁾ ما يزال يعمل في المطبخ؟

ربما، لكنه احتمال ضئيل جدًا. إذا أدخل المرء مليون مُتغيّر على معادلة، فستتغير النتيجة بالتأكيد. تابع آل: «وماذا عن مارتن لوثر كينغ؟ هل سيظل في ممفيس في أبريل 1968؟ وحتى إذا ظل هناك، فهل سيكون واقفًا على شرفة فندق لورين في الوقت المناسب ليطلق جيمس إيرل راي النار عليه؟ ما رأيك؟».

- إذا كانت نظرية أثر الفراشة صحيحة، فعلى الأرجح ما كان ذلك يحدث.

- هذا ما أراه أيضًا. إذا عاش مارتن لوثر كينغ، لما وقعت أحداث الشغب التي أعقبت موته. وعلى الأرجح لما أُطلق النار على فريد هامبتون في شيكاغو.

- مَنْ؟

تجاهل سؤالي وتابع: «من ثم، على الأرجح لما وجد جيش التحرير التكافلي، ولما جرى اختطاف باتي هيرست، وإذا لم تُختطف باتي هيرست، لَخَفَّتْ حِدَّةُ تَوَجُّسِ بَيْضِ الطبقة الوسطى من السود، ولو قليلًا».

- أجد صعوبة في متابعة كل هذه التفاصيل. تذكر أنني تخصصت في اللغة الإنجليزية.

- تجد صعوبة في متابعة التفاصيل لأنك تعرف عن الحرب الأهلية في القرن التاسع عشر أكثر مما تعرفه عن الحرب التي مزقت

(1) سرحان بشارة سرحان، أردني من أصل فلسطيني، أُدين باغتيال روبرت كينيدي في لوس أنجلوس عام 1968. (المترجم)

هذه البلاد إربًا بعد اغتيال كينيدي في دالاس. إذا سألتك عن أسماء ممثلي فيلم *ذا غراديويت*، فستخبرني بالتأكيد. لكن إذا سألتك عن الرجل الذي حاول لي أوزوالد اغتياله قبل بضعة أشهر من اغتياله كينيدي، فستقول: *هه؟! لأن كل هذه المعلومات ضاعت بطريقة ما.*

- هل حاول أوزوالد أن يقتل أحدًا آخر قبل كينيدي؟

لم أكن أعرف هذا، لكن معظم ما أعرفه عن اغتيال كينيدي مصدره فيلم أخرجه أوليفر ستون. وعلى أي حال لم يجب آل عن سؤالي، كان مسترسلًا في الكلام.

- أو ماذا عن فيتنام؟ جونسون⁽¹⁾ هو من بدأ التصعيد الجنوني.

كينيدي كان محاربًا قويًا، لكن جونسون صعد الحرب إلى مستوى أعلى، كان مصابًا بجنون العظمة نفسه الذي أظهره بوش عندما وقف أمام الكاميرات وقال متحدّيًا: *هاتوا ما لديكم*. لربما غير كينيدي رأيه، لكن جونسون ونيكسون لم يكونا قادرين على ذلك. وبفضلهما فقدنا قرابة ستين ألف جندي أمريكي في فيتنام، والفيتناميون، الشماليون والجنوبيون، فقدوا الملايين. هل كانت الخسائر فادحة إلى هذا الحد إذا لم يمت كينيدي في دالاس؟

- لا أدري، وأنت أيضًا لا تدري يا آل.

- صحيح، لكنني صرت خبيرًا في التاريخ الأمريكي الحديث، وأرى أن احتمال تحسين الأحوال بإنقاذ كينيدي كبير. ولا ضير من المحاولة في الواقع، إذا ساءت الأوضاع، يمكنك إلغاء كل ما فعلته، بسهولة مسح كلمة بذيئة من سبورة.

(1) ليندون جونسون، كان نائب كينيدي وتولّى الرئاسة بعد اغتياله، ثم انتُخب عام 1964. (المترجم)

- أو ربما لا أستطيع أن أعود، وفي هذه الحالة لن أعرف أبدًا عواقب ما فعلته.
- هراء. إنك شاب، إذا لم تصدمك سيارة أجرة أو تصب بأزمة قلبية، فستعيش مدة كافية لتعرف النتائج.
- لبثت صامتًا ناظرًا إلى ججري، مستغرقًا في التفكير. تركني آل أفكر. ثم رفعت رأسي أخيرًا وقلت له: «لا بد أنك قرأت كل شيء عن الاغتيال وأوزوالد».
- كل ما وجدته متاحًا يا صاح.
- ما مدى يقينك أن أوزوالد هو الفاعل؟ إذ توجد قرابة ألف نظرية مؤامرة، حتى أنا أعرف هذا. ماذا لو عدتُ وأوقفته، لكن شخصًا آخر أطلق النار على كينيدي من غراسي هيل؟ أو أيًا كان اسم المكان.
- غراسي نول. وأنا شبه متيقن أن الفاعل كان أوزوالد. نظريات المؤامرة جميعها جنونية أساسًا، ومعظمها دُحضت خلال السنوات الماضية. منها مثلًا فكرة أن مُطلق النار لم يكن أوزوالد إنما شخص آخر يشبهه. نُبِشتُ جثة أوزوالد عام 1981 وتأكدوا من هوية صاحبها بالحمض النووي، كان هو أوزوالد فعلًا. ذلك الوجد الحقيق.
- صمت آل هنية ثم أردف: «قابلته، أتعرف؟».
- حدقت إليه غير مصدق: «هراء!».
- أؤكد لك. وتكلم معي. قابلته في فورت وورث، هو ومارينا -زوجته الروسية- كانا في زيارة لشقيق أوزوالد في فورت وورث. إذا أحبَّ لي أوزوالد أحدًا فهو شقيقه بوبي. كنت أقف خارج السياج الخشبي المحيط بباحة منزل بوبي أوزوالد، متكئًا على عمود هاتف، أدخن سيجارة متظاهراً بقراءة صحيفة. أحسست

بقلبي ينبض بسرعة مثتي نبضة في الدقيقة. خرج لي ومارينا معاً، كانت تحمل ابنتهما جُون، رضيعة صغيرة لم تبلغ العام من عمرها، نائمة. كان أوزي يرتدي بنطال أخضر داكنًا وقميصًا مفتوح الأزرار حواف ياقته مهترئة، وكان البنطال مكويًا لكنه متسخ، وكان قد تخلّى عن قصّة شعر المارينز، لكن شعره لم يكن طويلًا بما يكفي للإمساك به. أما مارينا، رباه! يا لها من فاتنة! شعر داكن، وعينان زرقاوان، وبشرة لا تشوبها شائبة، بدت كنجمة سينمائية. إذا فعلت هذا فستراها بنفسك. قالت لأوزوالد كلامًا بالروسية وهما يشرعان في السير على الرصيف، ورد عليها، مبتسمًا، ثم دفعها، فكادت أن تسقط، واستيقظت الطفلة باكية. وظل أوزوالد مبتسمًا طوال الوقت.

- رأيتَ هذا! رأيتَه حقًا؟ رأيتَ أوزوالد!

رغم رحلتي إلى الماضي بنفسِي، كنت شبه مقتنع بأن ما قاله آل هلوسة أو كذب محض.

- رأيتَه. خرجت مارينا عبر البوابة وسارت جواري ناظرةً إلى الأرض، حاملةً الطفلة إلى صدرها. كأنني لست موجودًا. لكن أوزوالد سار نحوي قريبًا حتى إنني شممت رائحة مزيل عرق أولد سبايس الذي يضعه محاولًا إخفاء رائحة عرقه، ورأيت رؤوسًا سوداء على أنفه. بالنظر إلى ملابسه وحذائه البالي يمكنك أن تعرف أنه معدم بائس، لكن عندما تنظر إلى وجهه، تعرف أن مظهر ملابسه لا يهم، لا يهمه هو، لأنه يظن نفسه عظيم الشأن.

صمت آل مستغرقًا في التفكير هنيهة، ثم هز رأسه وتابع: «لا. أسحبُ كلامي. كان يعرف يقينًا أنه عظيم الشأن، ومعرفة العالم بعظمة شأنه مسألة وقت ليس إلّا. كان أمام وجهي، مسافة قريبة تمكّني من خنقه. ولا تظن أن الفكرة لم تخطر لي».

- لماذا لم تفعل؟ أو تطلق النار عليه ببساطة؟

- أمام زوجته وطفله؟ أكنت لتفعل ذلك يا جيك؟

لم أفكر مطوَّلاً: «لا على الأرجح».

- أنا أيضًا. كانت لدي أسباب أخرى، أحدها تجنُّب سجن الولاية... أو

الكرسي الكهربائي. تذكَّر أننا كنا في الشارع.

- آه...

- أجل. كان ما زال محتفظًا بابتسامته عندما توقف أمامي، ابتسامة

تشي بعجرفة وتحفُّظ في آنٍ واحد. رأيته بابتسامته تلك في كل

صورة التُّقطت له، حتى الصورة التي التُّقطت له في مركز شرطة

دالاس بعدما اعتقلوه لقتله الرئيس ورجل الشرطة الذي اعترض

طريقه مصادفة وهو يحاول الهروب. سألني: ما الذي تنظر إليه

يا سيدي؟ قلت: لا شيء يا صاح. فقال: إذن اهتم بشؤونك. مارينا

كانت تنتظره على بُعد قرابة عشرين قدمًا، وتحاول تهدئة الطفلة

حتى تعود إلى النوم. كان الجو في ذلك اليوم أشد حرارة من

الجحيم، لكنها كانت تضع وشاحًا على شعرها، كما كانت تفعل

كثير من الأوروبيات عندئذٍ. سار أوزوالد إليها وأمسك بمرفقها،

كأنه شرطي وليس زوجها، وقال: بوخود! بوخود! امشي، امشي.

فقالت له كلامًا، ربما طلبت منه أن يحمل الطفلة قليلًا. هذا

تخميني. لكنه دفعها قائلًا: بوخود، سيكا! امشي أيتها العاهرة.

ففعلت. ذهبا نحو موقف الحافلة. هذا كل ما حدث.

- أتتحدث الروسية؟

- لا، لكنني أجيد الاستماع، ولديَّ حاسوب، هنا.

- هل رأيته مرة أخرى؟

- من بعيد. بحلول ذلك الوقت اشتد المرض علي. ما من مشويات في تكساس أفضل من مشويات فورت وورث، ولم أستطع أكلها. العالم قاس أحياناً. ذهبت إلى طبيب، وأخبرني بتشخيص كان بوسعي معرفته بنفسه بحلول ذلك الوقت، ثم عدت إلى القرن الحادي والعشرين. لم يعد هناك شيء لم أراه على أي حال. لا شيء سوى رجل نحيل يسيء معاملة زوجته وينتظر الشهرة.

مال إلى الأمام ثم تابع: «أتعرف كيف كان الرجل الذي غيّر التاريخ الأمريكي؟ كان مثل الطفل الذي يقذف الأطفال الآخرين بالحجارة ثم يهرب. بحلول الوقت الذي التحق فيه بقوات المارينز -ليصبح مثل شقيقه بوبي، إذ كان يحب بوبي ويبجله- كان قد عاش في قرابة عشرين مدينة، من نيو أورلينز إلى نيويورك. كان صاحب أفكار كبيرة ولم يستطع أن يفهم سبب رفض الناس الاستماع إليه، وكان غاضباً من ذلك، حانقاً، لكنه لم يتخل قط عن ابتسامته المزعجة. أتعرف ماذا قال ويليم مانشستر عنه؟».

- لا.

لم أكن أعرف مانشستر هذا أساساً.

- حقير بائس. كان مانشستر يتحدث عن جميع نظريات المؤامرة التي تفسّدت بعد الاغتيال... وبعدما أُطلق النار على أوزوالد نفسه وقُتل. تعرف هذا، صحيح؟

قلت متضايقاً قليلاً: «نعم بالطبع. رجلٌ اسمه جاك روبي أطلق النار عليه». لكن نظراً إلى الفجوات التي في معرفتي وأثبتتها سلفاً، أفترض أنني لا يحق لي لوم آل على التساؤل.

تابع آل: «قال مانشستر إننا إذا وضعنا الرئيس المقتول في كفة ميزان، وأوزوالد -الحقير البائس- في الكفة الأخرى، فلن يكون ثمة توازن. مُحال. لذا إذا أردنا أن نُضفي على موت كينيدي معنى ما، فلا

بد أن نُدخل عناصر أثقل. وهذا يفسّر كثرة نظريات المؤامرة. مثلاً يقال إن المافيا فعلتها، وإن كارلوس مارسيلو أمر بالقتل. أو إن المخابرات السوفيتية فعلتها. أو كاسترو، ردًا على محاولة وكالة المخابرات المركزية اغتياله بسجائر مسمومة. كما يوجد أناس حتى يومنا هذا يرون أن ليندون جونسون فعلها حتى يصبح رئيسًا. لكن في النهاية...» هز آل رأسه ثم تابع: «على الأرجح الفاعل هو أوزوالد. سمعت بشفرة أوكام، أليس كذلك؟».

سررتُ بمعرفتي شيئًا على وجه التأكيد: «إنها نظرية عن الحقيقة البديهية، تعرف أحيانًا بقانون الجهد الأقل. في حال تساوي كل المعطيات، فإن التفسير الأبسط هو الصحيح غالبًا. إذن لماذا لم تقتله وهو ليس في الشارع مع زوجته وطفلته؟ أنت أيضًا كنت من المارينز. عندما عرفت مدى سوء حالتك الصحية، لماذا لم تقتل الوغد بنفسك؟».

- لأن التيقّن بنسبة خمسة وتسعين في المئة ليس كالتيقّن بنسبة مئة في المئة. ولأنه رجل عائلة، سواء كان وغدًا أم لا. ولأن أوزوالد، بعد اعتقاله، قال إنه كان ساذجًا مغفلًا، فأردتُ أن أتأكد من كذب قوله. لا أظن أن أحدًا بمقدوره أن يكون متأكدًا بنسبة مئة في المئة من أي شيء في هذا العالم المخادع، لكنني أردت أن أبلغ نسبة ثمانية وتسعين. ومع ذلك لم أكن أنوي الانتظار حتى الثاني والعشرين من نوفمبر ثم أوقفه في مبنى مستودع الكتب المدرسية بتكساس، ففي ذلك مخاطرة كبيرة، لسبب مهم عليّ أن أخبرك به. لم تعد عيناه مشرقتين، وبدأت تجاعيد وجهه تتعمق مجددًا. خُفْتُ من سرعة نفاذ طاقته.

قال: «كُتبت معلومات كثيرة، أريد منك قراءتها، بل أريد منك مذاكرتها كأنك ستُمتحن فيها غدًا. انظر إلى أعلى التلفاز يا صاح، هلا فعلت؟». ابتسم لي ابتسامة مرهقة وأردف: «لستُ في عجلة من أمري».

كان دفتر ملاحظات أزرق سميًا، رقعة السعر الملصقة على غلافه الورقي مكتوب عليها خمسة وعشرون سنتًا، وماركته غريبة علي. سألتها: «ما هو كرسغي؟».

- سلسلة متاجر شاملة الآن تعرف باسم كيه مارت. دعك من الغلاف، ركّز على المكتوب بالداخل، إنه التسلسل الزمني لتحركات أوزوالد، بالإضافة إلى كل الأدلة التي تدينه... وهذه ليست مضطرًا إلى قراءتها إذا وافقت على العملية، لأنك ستوقف ذلك الوغد في أبريل عام 1963، قبل أكثر من نصف عام من زهاب كينيدي إلى دالاس.

- لماذا أبريل؟

- في أبريل حاول شخصٌ ما قتل الجنرال إدوين ووكر، لكنه لم يعد جنرالًا عندئذٍ، فُصل من الخدمة عام 1961، فصله جون كينيدي بنفسه. كان الجنرال إدي يوزع كتابات داعية للفرقة العنصرية بين جنوده ويأمرهم بقراءتها.

- وأوزوالد هو من حاول إطلاق النار عليه؟

- هذا ما أريد منك التأكد بشأنه. البندقية نفسها، لا شك في ذلك، تقرير خبراء المقذوفات أثبت ذلك. كنت أنتظر رؤيته وهو يطلق النار، دون أن أتدخل، لأن أوزوالد أخطأ تلك المرة، انحرفت الرصاصة من اللوح القائم في منتصف نافذة مطبخ وولكر، انحرفت بمقدار بسيط، لكنه كان كافيًا. لامست الرصاصة شعره وأصابت شظايا الخشب ذراعه بجرح بسيط فحسب. لا أقول إن الرجل كان يستحق الموت، قليل جدًا من الرجال شريريون إلى درجة استحقاق الموت غدًا، لكن مستعد لاستبدال كينيدي ووكر في أي وقت.

لم أنتبه كثيرًا للجزء الأخير من الكلام، كنت أتصفح كتاب آل عن أوزوالد، صفحات متتالية من ملاحظات مكتوبة في سطور متقاربة، بدت سهلة القراءة في البداية، وصعبت قراءتها نحو النهاية، والصفحات الأخيرة كانت شخبطات رجل مريض جدًا. أغلقت الغلاف وقلت: «إذا استطعت أن تتأكد من أن أوزوالد كان هو من أطلق النار على الجنرال ووكر، فستتبدد شكوكك؟».

- نعم، أحتاج إلى التأكد من أنه قادرٌ على فعلها. أوزي رجل سيئ يا جيك، يسمي الناس أمثاله عام 58 بالقمل، لكن ضرب الزوجة وإبقاءها أسيرة لأنها لا تتحدث الإنجليزية لا يبرر القتل. وثمة أمر آخر. حتى إذا لم أعد بسبب المرض الخبيث، كنت أعرف أنني ربما لا تسنح لي فرصة أخرى لتصحيح الوضع إذا قتلت أوزوالد وأطلق شخص آخر النار على الرئيس على أي حال. عندما يبلغ المرء الستينات من عمره، لا يعود بوسعه المغامرة بسهولة، أظنك تفهم ما أعنيه.

- هل كان لا بد أن توقفه بالقتل؟ ألم يمكنك أن... لا أدري... تلفق له جريمة أو ما شابه؟

- ربما. لكنني مرضتُ بحلول ذلك الوقت. لست متأكدًا من قدرتي على فعلها حتى إذا كنت بصحة جيدة. إجمالًا بدا لي أن الحل الأبسط هو إنهاء حياته، عندما أتأكد. مثل سحق دبُّور قبل أن يلسعك.

لذتُ بالصمت مستغرقًا في التفكير. أشارت الساعة الحائطية إلى العاشرة والنصف. وكان آل قد بدأ حديثه بقوله إنه سيكون على ما يرام حتى منتصف الليل، لكن بمجرد النظر إليه أدركت أنه أفرط في التفاؤل. أخذت كأسه وكأسي إلى المطبخ، وغسلتهما، ووضعتهما في مجففة الأطباق. أحسست باندلاع إعصار خلف جبھتي، لكن بدلًا من الأبقار

وقوائم السياج، كانت تدور في رأسي أسماء: لِي أوزوالد، بوبي أوزوالد، مارينا أوزوالد، إدوين ووكر، فريد هامبتون، باتي هيرست. جون كينيدي، روبرت كينيدي، مارتن لوثر كينغ، جيش التحرير التكافلي. وتتداخل مع صوت الإعصار كلمتان تترددان مرارًا ولكنة جنوبية رتيبة: بوخودا، سیکا.

امشي أيتها العاهرة.

5

سألته: «ما المدة المتاحة أمامي حتى أقرر؟».

- ليست طويلة. سيُهدم المطعم عند نهاية الشهر، تحدثت مع محام لكسب بعض الوقت بالمماطلة، برفع دعوى قضائية أو ما شابه، لكنه لم يبدو متفائلًا. هل رأيت يومًا لافتة أمام متجر أثاث مكتوبًا عليها: خسرنا عقد الإيجار، لا بد من بيع كل شيء؟
- بالطبع.

- في تسع من كل عشر حالات يكون ذلك مجرد حيلة لزيادة المبيعات، لكن هذه هي الحالة العاشرة. وأنا لا أتحدث عن متجر بيع مخفض يسعى إلى توسيع أعماله، بل أتحدث عن بين، وفي مجال البيع بالتجزئة في مَين، إل. إل. بين هي السمكة الأكبر في البحر. بحلول يوليو سيكون المطعم قد أفلس. لكن هذا ليس الأمر المهم. بحلول الأول من يوليو، ربما لا أكون أنا على قيد الحياة، ربما أصاب بنزلة برد وأموت بالتهاب رئوي في غضون ثلاثة أيام، أو ربما أصاب بأزمة قلبية أو سكتة دماغية، أو ربما أقتل نفسي بأقراص أوكسيكونتين اللعينة هذه عن طريق الخطأ. الممرضة التي تزورني تسألني يوميًا عن مدى حرصي على عدم تجاوز الجرعة، وأنا حريص بالفعل، لكنني أرى أنها تخشى أن تدخل

علي ذات صباح وتجدني ميتًا، على الأرجح لأنني انتشيت ولم أحسب عدد الأقراص التي تناولتها. علاوة على أن الأقراص تعوق التنفس، ورئتاي متهاكتان. وفوق كل ذلك نقص وزني كثيرًا.

- حقًا؟ لم ألاحظ ذلك.

- لا أحد يحب المتحذلقين يا صاح، ستدرك هذا عندما تبلغ سنِّي. على أي حال، أريد منك أن تأخذ هذا مع دفتر الملاحظات، إنه مفتاح المطعم. إذا اتصلت بي غدًا وسمعت من الممرضة أنني رحلت في الليل، فعليك أن تتحرك سريعًا، إذا افترضت أنك ستتحرك أساسًا.

- آل، إنك لا تخطط لـ...

- أحاول أن أتوخى الحذر فحسب، لأن هذا الأمر مهم يا جيك. أنا عن نفسي أراه أهم من أي شيء آخر. إذا أردت يومًا أن تغير العالم، فهذه هي فرصتك. أنقذ كينيدي، أنقذ شقيقه، أنقذ مارتن لوثر كينغ. أوقف أعمال الشغب العنصرية. أوقف حرب فيتنام، ربما. مال إلى الأمام وأردف: «تخلص من بائس حقير واحد يا صاح، وستنقذ ملايين الأرواح».

- هذا عرض يصعب رفضه، لكنني لا أحتاج إلى المفتاح، عندما تشرق الشمس غدًا ستكون معنا في عالم الأحياء.

- هذا احتمال نسبة حدوثه خمسة وتسعين في المئة، لكنه ليس كافيًا. خذ المفتاح للعين.

أخذت المفتاح للعين ووضعت في جيبي قائلاً: «سأتركك تأخذ قسطًا من الراحة».

- ثمة أمر آخر قبل أن تذهب، أريد إخبارك بشأن كارولين بولين وأندي كَلَم. اجلس يا جيك، سيستغرق هذا بضع دقائق.

لبثت واقفًا.

- لا، إنك مرهق، وتحتاج إلى النوم.
- سأنام عندما أموت. اجلس.

6

قال آل إنه بعدما اكتشف ما سمَّاه بـجُحر الأرنب، في البداية كان قانعًا باستخدامه لشراء الإمدادات، وعقد بضعة رهانات مع وكيل مراهنات وجده في لويستون، وجمع مبلغًا من نقود الخمسينيات. كما كان أحيانًا يأخذ عطلة منتصف الأسبوع في بحيرة سيبيغو، التي كانت تعج بالسماك الشهي والصالح للأكل. وقال إن الناس قلقوا من آثار اختبارات القنابل النووية، لكن المخاوف من التسمم بالزئبق من السمك الملوث كانت ما تزال بعيدة في المستقبل. كان يسمي هذه الرحلات (غالبًا ما تكون في أيام الثلاثاء والأربعاء، لكنه يمكث أحيانًا حتى يوم الجمعة) بعطلاته الصغيرة. دائمًا ما يكون الطقس جيدًا (لأنه يكون الطقس نفسه دومًا)، وحصيلة صيده رائعة دومًا (لأنه على الأرجح كان يصطاد الأسماك نفسها مرارًا).

- أعرف تحديدًا ما تشعر به إزاء كل هذا يا جيك، لأنني أيضًا كنت مصدومًا في السنوات القليلة الأولى. أتريد أن تعرف ما كان يذهلني بشدة؟ هبوط ذلك السلم في زمهرير شتاء يناير والخروج إلى شمس سبتمبر الدافئة الساطعة، الطقس الذي لا يتطلب سترة أو معطفًا، صحيح؟

أومأت وطلبت منه المتابعة. تلاشى اللون الوردي الطفيف الذي رأيته على خديه عندما جنَّته، وصار يسعل بانتظام مجددًا.

- لكن إذا منحت رجلًا وقتًا كافيًا، فسيعتاد أي شيء، وعندما بدأت صدمتي بالزوال أخيرًا، بدأت أفكر في أن عثوري على جُحر الأرنب

كان لسبب، وعندئذ بدأت أفكر بكينيدي. لكن سؤالك أطلّ برأسه القبيح: هل يمكن تغيير الماضي؟ لم تشغلني العواقب، في البداية على الأقل، لكن شغلتنى إمكانية التغيير أو عدمها. في إحدى رحلاتي إلى سيبينغو، أخرجت مديتي ونحتُ آل ت. من 2007 على شجرة جوار الكوخ الذي كنت أقيم فيه. وعندما عدت إلى هنا، ركبت سيارتي سريعاً وقدتها إلى بحيرة سيبينغو، ووجدت أن الأكواخ التي كنت أقيم فيها قد اختفت، وحل محلها فندق للسياح، لكن الشجرة ما زالت موجودة، وكذلك الكتابة التي نحتُها عليها، بدت قديمة ملساء، لكنها ما زالت موجودة: آل ت. من 2007. فعرفت أن تغيير الماضي ممكن. عندئذ بدأت أفكر في أثر الفراشة. كانت تصدر صحيفة في فولز عندئذ، اسمها ليسبون ويكلي/إنتربرايز، وقد صورت المكتبة جميع أعدادها وأدخلتها في حاسوب عام 2005. وهذا يسرّع الأمور كثيراً. كنت أبحث عن حادثة وقعت في خريف أو بداية شتاء عام 1958، حادثة من نوع بعينه، لبحث حتى بداية عام 1959 إذا اقتضى الأمر، لكنني وجدت ما أبحث عنه في الخامس عشر من نوفمبر عام 58. فتاة في الثانية عشرة اسمها كارولين بولين كانت تصطاد مع والدها على الجانب الآخر من النهر، في جزء من دُرم اسمه بوي هيل، وقربة الثانية بعد الظهر ذلك اليوم، كان يوم سبت، أطلق صياد من دُرم اسمه أندرو كَلَم النار على غزال في ذلك الجزء من الغابة، لكنه أخطأ الغزال وأصاب الفتاة، أصابها رغم أنها على بُعد ربع ميل. أفكر بذلك، كما تعرف. عندما أطلق أوزوالد النار على الجنرال ووكر، كانت المسافة أقل من مئة ياردة، لكن الرصاصة كشطت قائم منتصف النافذة الخشبي وأخطأت هدفها. الرصاصة التي أصابت الفتاة بولين بالشلل قطعت أكثر من أربع مئة ياردة، مسافة أبعد بكثير من مسافة الرصاصة التي قتلت كينيدي، تجاوزت كل

جذوع وفروع الأشجار في طريقها. إذا خدشت غصناً لأخطأت الفتاة بالتأكيد. لذا أفكر بهذه الحادثة كثيرًا.

عندئذٍ خطرت لي عبارة الحياة تتغير في طَرْفة عين لأول مرة، ولم تكن الأخيرة. التقط آل فوطه ماكسي أخرى، وسعل، وبصق، وألقاها في سلة المهملات. ثم أخذ أفضل نفس عميق قدير عليه، وواصل الكلام بمشقة. لم أحاول إيقافه، كنت مأخوذاً بكلامه مجددًا.

- أدخلت اسمها في قاعدة بيانات صحيفة إنتربرايز، ووجدت بضع قصص إضافية عنها، تخرجت في مدرسة ليسبون الثانوية عام 1965، بعد عام من تخرُّج دفعتها، لكنها نجحت، والتحقّت بجامعة مَين، تخصصت في إدارة الأعمال، وأصبحت محاسبة، تعيش في غراي، على بُعد أقل من عشرة أميال من بحيرة سيبينغو، حيث كنت أذهب في عطلاتي الصغيرة، وما زالت تعمل محاسبة حرة. أتريد تخمين من هو أهم عملائها؟ هزّزت رأسي.

- جون كرافتس، هنا في فولز. وسكويغي ويتون، أحد رجال المبيعات، وهو أحد زبائني المنتظمين في المطعم، عندما أخبرني ذات يوم أنهم يجرون جردهم السنوي وأن سيدة الأرقام تراجع دفاتر الحسابات، حرصتُ على الذهاب لأراها بنفسِي. إنها في الخامسة والستين الآن، و... أتعرف أن بعض النساء في مثل هذه السن يَكُنّ جميلات جدًّا؟

قلت: «نعم». وتذكرت والدّة كرسّتي، التي لم تبلغ جمالها الكامل حتى ناهزت الخمسين.

- كارولين بولين منهن، وجهها ذو جمال كلاسيكي، من النوع الذي يحبه رسام عاش قبل مئتين أو ثلاثمئة عام، ولديها شعر أبيض ثلجي طويل ينسدل إلى ظهرها.

- تبدو كأنك واقع في الحب يا آل.

استجمع ما يكفي من القوة ليرفع لي إصبعه الوسطى.

- وهي في حالة بدنية جيدة أيضًا، هذا متوقع، أليس كذلك؟ امرأة عزباء تسحب نفسها لتجلس على كرسي مدولب ولتنهض منه يوميًا، وتصعد على متن السيارة الخاصة التي تقودها، وكذلك الدخول والخروج من الحمام، والسرير، وما إلى ذلك. قال سكويغي إنها تعتمد على نفسها اعتمادًا تامًا. أثارت إعجابي.

- لذا قررت أن تنقذها، على سبيل التجربة.

- أجل، عدت عبر جحر الأرنب، وهذه المرة مكثت في كوخ سيبينغو أكثر من شهرين. قلت للمالك إنني ورثت مالا بعد وفاة عمي. عليك أن تتذكر يا صاح، حيلة العم الميت مُجَرَّبَةٌ وناجحة، جميع الناس يصدقونها لأنهم أيضًا يريدون أن يرثوا عمًا ثريًا. ثم حلَّ اليوم: الخامس عشر من نوفمبر عام 1958. تجنَّبت التدخل في شؤون آل بولين. نظرًا إلى فكرتي بشأن إيقاف أوزوالد، كنت أكثر اهتمامًا بكلم، مُطلق النار. بحثت معلومات عنه أيضًا، وعرفت أنه يعيش على بُعد ميل تقريبًا من بوي هيل، بالقرب من قاعة نقابة مزارعي دُرم. فكرت في الذهاب إلى هناك قبل ذهابه إلى الغابة، لكن لا تسير الأمور على هذا النحو. غادرت كوشي في سيبينغو مبكرًا جدًا، وقد وُفِّقَتْ في قراري، لأنني لم أكَّد أبتعد ميلًا في الطريق بسيارتي الهيرتز التي كنت أقودها، حتى فرغ أحد إطاراتها من الهواء. أخرجت الإطار الاحتياطي، وركبته، ورغم أنه بدا بحالة جيدة، فقد فرغ من الهواء أيضًا قبل أن أبتعد ميلًا آخر. ركبت سيارة أخرى عابرة ووصلت إلى محطة إيسو لخدمة السيارات في نابلس، حيث قال لي الرجل العامل في منطقة

الصيانة إنه مشغول ولا يمكنه الذهاب معي لتكوين إطار جديد لسيارتي. أظنه كان حانقًا لأنه فاته صيد يوم السبت. ثم غيّر رأيه بعدما نفحته عشرين دولارًا، لكنني لم أبلغ دُرْم إلا بعد الظهر. سلكت طريق بحيرة رَنراوند القديم لأنه الطريق الأقصر. واحزر ما حدث؟ وجدت الجسر الذي يمر فوق نُهير تُشُكل قد سقط في المياه اللعينة، وثمة علامات حمراء وبيضاء ضخمة، ولافتة برتقالية كبيرة مكتوب عليها: الطريق مغلق. عندئذٍ خطرت لي فكرة عمّا يجري، وراودني إحساس خانق بأنني لن أستطيع أن أفعل ما عزمْتُ على فعله صباح ذلك اليوم. لا تنسَ أنني غادرت مبكرًا عند الثامنة صباحًا، تحسُّبًا لأي طارئ، ومع ذلك استغرقت أكثر من أربع ساعات لأقطع ثمانية عشر ميلًا. لكنني لم أستسلم. سلكت الطريق الأطول عبر شارع الكنيسة الميثودية، منطلقًا بالسيارة المستأجرة بأقصى سرعتها، صاحبًا خلفي غبارًا على هيئة ذيل الديك، عندئذٍ كانت كل الطرق الطرفية ترابية. حسنًا، بدأت أرى سيارات وشاحنات مركونة على جانبي شوارع الغابة ومداخلها هنا وهناك، كما رأيت صيادين يسرون وأسلحتهم معلقة على أكتافهم، كل واحد منهم رفع لي يده محييًا، الناس لطفاء في عام 58، لا شك في ذلك، ولوحت لهم أيضًا، لكنني كنت أنتظر أن يفرغ هواء إطار آخر، أو ينفجر، على الأرجح لُقِذَت السيارة إلى حفرة على جانب الطريق، لأنني كنت أسير بسرعة ستين ميلًا على الأقل. أتذكر أن أحد الصيادين ربَّت بيديه الهواء مشيرًا إلي أن أهدئ سرعتي، لكنني لم أكرث به. صعدت على الطريق المؤدي إلى بوي هيل، وتجاوزت دار لقاءات الأصدقاء القدامى، وهناك لمحت شاحنة صغيرة جوار المقبرة. على باب الشاحنة مكتوب: بولين للتشييد والنجارة. كانت الشاحنة فارغة. وبولين وابنته في الغابة، على الأرجح يجلسان في منطقة

خالية من الأشجار في مكان ما، يتناولان غداءهما، ويتحدثان كما يتحدث الآباء وبناتهم، أو على الأقل كما أتخيل أنهم يتحدثون، فأنا لم أنجب ابنة...

داهمته نوبة سعال طويلة أخرى، انتهت بأصوات تقيؤ شنيعة.

قال متأوِّهاً: «آه، سحقاً، هذا مؤلم».

- ينبغي أن تتوقف يا آل.

هز رأسه ومسح خيط دماء من شفته السفلى بعقب راحة يده: «بل ينبغي أن أخبرك بما لدي حالاً، لذا اصمت ودعني أتكلم... حدثت إلى الشاحنة ملياً، وطوال الوقت ما أزال أسير بسرعة ستين ميلاً تقريباً، وعندما أعدت نظراتي إلى الطريق، رأيت شجرة عند نهايته، وتوقفت بالكاد قبل الاصطدام بها. لم تكن شجرة كبيرة، وقد كنت قوياً قبل أن يفتك السرطان بي. كما كنت غاضباً غضباً عارماً. خرجت من السيارة ورحت أصارع الشجرة، وفي أثناء ذلك، وكنت أسب وألعن أيضاً، جاءت سيارة من الاتجاه المعاكس، خرج منها رجل، مرتدياً صدرية صيد برتقالية. لم أعرف على وجه التأكيد ما إذا كان الرجل الذي أنشده، صحيفة إنتربرايز لم تطبع صورته، لكنه بدا في السن المناسبة. قال: دعني أساعدك على ذلك يا سيدي. قلت: شكراً جزيلاً. ومددت له يدي قائلاً بيل لايدلو. صافحني وقال: آندي كَلَم. إذن كان هو. نظرًا إلى كل المتاعب التي لاقتني في سبيل الوصول إلى دُرم، كدتُ ألا أصدق أنني عثرت على الرجل. أحسست كأنني فزت باليانصيب. أمسكنا بالشجرة، وحرَّكناها معًا. بعدها جلست على الشارع وأمسكت بصدري. سألني عما إذا كنت بخير، فقلت: لا أدري، لم أتعرض لنوبة قلبية من قبل، لكن أحس بأنني أتعرض لها الآن. وهكذا لم تسنح الفرصة للسيد آندي كلم للذهاب إلى الصيد في عصر ذلك اليوم من نوفمبر يا جيك، وبالتالي

لم يطلق النار على أي فتاة صغيرة، كان مشغولاً بمرافقة بيل لايدلو المسكين إلى مستشفى مين العام في لويستون».

- فعلتها؟ فعلتها حقاً؟

- بالتأكيد. قلت لهم في المستشفى إنني تناولت وجبة غداء ثقيلة، وكان التشخيص عُسر هضم حاداً. دفعت خمسة وعشرين دولاراً نقدًا وسمحوا لي بالخروج. كان كَلَم في انتظاري وعاد معي إلى سيارتي. تأمل هذه اللفتة الودية! عدت إلى 2011 في تلك الليلة نفسها... إلا أنني بالطبع عُدت بعد دقيقتين من مغادرتي. مثل هذا الأمر يسبب لك إرهاق السفر دون أن تصعد على متن طائرة. ذهبت أولاً إلى مكتبة البلدة، وبحثت مجدداً عن قصة تخرُّج طلاب المدرسة الثانوية عام 1965. في السابق كانت ترافق القصة صورة لكارولين بولين. في الصورة كان المدير عندئذٍ -إيرل هيغينز، وقد رحل منذ مدة- منحنيًا ليناولها شهادتها وهي جالسة على كرسيها المدولب، متأنقة بالقبعة والعباءة. وتحت الصورة مكتوب: كارولين بولين تحقق إنجازًا كبيرًا في رحلتها الطويلة في طريق التعافي.

- هل وجدت ما زالت موجودة؟

- قصة التخرج كانت موجودة. يوم التخرج يظهر دومًا على الصفحة الأولى في صحف أي بلدة صغيرة، تعرف هذا يا صاح. لكن عندما عدت من عام 58، الصورة كانت لصبي ذي قصة شعر البيتلز غير متقنة يقف على المنصة، وأسفل الصورة مكتوب: تريفور "بادي" بريغز يلقي كلمة الوداع في حفل التخرج. وكتبوا أسماء جميع الخريجين، كانوا قرابة مئة فقط، وكارولين بولين لم تكن بينهم. فتحققت من قصة تخرج عام 64، العام الذي كانت لتخرج فيه إذا لم تتأخر بسبب تعافيتها من الرصاصة التي أصابتها في

عمودها الفقري، ولم أجد صورة لها ولا أي ذكر خاص لها، لكن اسمها مكتوب بين ديفيد بات وستيفاني روثير.

- صارت مجرد فتاة عادية في مراسم الحفل، صحيح؟
- صحيح. ثم أدخلت اسمها في محرك بحث قاعدة بيانات صحيفة إنتربرايز، ووجدت لها نتائج بعد عام 1964، لم تكن كثيرة، ثلاث أو أربع، عما يتوقعه المرء من امرأة عادية تعيش حياة عادية. التحقت بجامعة مين، وتخصصت في إدارة الأعمال، ثم التحقت بكلية الدراسات العليا في نيو هامشير. ووجدت قصة أخرى، من عام 1979، قبل وقت ليس بالطويل من توقف صحيفة إنتربرايز، عنوانها: طالبة سابقة بمدرسة ليسبون تفوز بالمسابقة الوطنية لزهور زنابق النهار. وثمة صورة لها، تقف على ساقها السليمتين، حاملة الزنبقة الفائزة. وتعيش... أو عاشت... لا أدري أي الكلمتين صحيحًا، ربما الاثنتين... في بلدة على مقربة من ألباني بولاية نيويورك.

- هل تزوجت؟ أنجبت أطفالًا؟

- لا أظن. في الصورة كانت تمسك بالزنبقة الفائزة وما من خاتم على يدها اليسرى. أعرف ما تفكر به، لم تتغير حياتها كثيرًا عدا عن قدرتها على المشي. لكن من يستطيع حقًا أن يعرف مدى التغير الذي طرأ على حياتها؟ كانت تعيش في مكان مختلف وأثرت في حيوات أناس مختلفين لا أحد يدري عددهم، أناس لما تعرفت عليهم أبدًا إذا كان كَلَم قد أطلق عليها النار ومكثت في فولز. أتفهم ما أعنيه؟

ما فهمته هو أن من المستحيل الجزم، بطريقة أو بأخرى، لكنني وافقت آل الرأي، لأنني أردت أن ننتهي من الحديث قبل أن ينهار الرجل. وكنت أنوي اصطحابه إلى سريره بسلام قبل مغادرتي.

- ما أقوله لك يا جيك هو إن تغيير الماضي ممكن، لكنه ليس سهلاً كما قد تظن. صباح ذلك اليوم أحسست كأنني رجل يحاول التملُّص من جورب من النايلون عالق حول رأسه، يرتخي قليلاً ثم يشتد خناقه عليه. لكنني تمكنت من تمزيقه أخيراً.

- لماذا الصعوبة؟ هل لأن الماضي لا يريد أن يُغيَّر؟

- شيءٌ ما لا يريده له أن يتغير، إنني متأكد من هذا. لكن تغييره ممكن. إذا وضعت المقاومة في حسابك، فمن الممكن تغييره.

كان آل ينظر إلي، وعيناه تومضان في وجهه المكدود.

- عموماً، قصة كارولين بولين تنتهي بـ وعاشت حياة سعيدة مديدة، أليس كذلك؟

- بلى.

- انظر إلى الجزء الداخلي من غلاف دفتر الملاحظات الخلفي الذي أعطيتك إياه يا صاح، ربما تغير رأيك. ثمة شيء صغير طبعته اليوم.

فعلت ما طُلب مني ووجدت جيباً من الورق المقوّى، افترضت أن الغرض منه حفظ أشياء كالمذكرات وبطاقات العمل. عثرت على ورقة واحدة مطوية بداخل الجيب، أخرجتها، وفتحتها، ونظرت إليها مدة طويلة. كانت ورقة مطبوعة بالحاسوب للصفحة الأولى من صحيفة إنتربرايز، والتاريخ أسفل الترويسة كان 18 يونيو 1965، والعنوان الرئيسي: طلاب ثانوية ليسبون دفعة عام 65 يتخرجون بالدموع، والابتسامات. وفي الصورة رجل أصلع (يتأبط قلنسوة عباءة التخرج حتى لا تسقط عن رأسه) ينحني نحو فتاة مبتسمة تقتعد كرسيّاً مدولباً، ممسكاً بأحد طرفي شهادتها، وهي تمسك بالطرف الآخر. وأسفل الصورة مكتوب: كارولين بولين تحقق إنجازاً كبيراً في رحلتها الطويلة في طريق التعافي.

رفعت بصري إلى آل مشوشًا: «إذا غيرت المستقبل وأنقذتها، فكيف لديك هذه الصورة؟».

- كل رحلة تعيد الوضع في الماضي إلى ما كان عليه سابقًا، أتذكر؟
- يا إلهي! عندما عدت لإيقاف أوزوالد، مُسح كل ما فعلته لإنقاذ بولين.
- أجل... ولا.

- ماذا تعني بأجل ولا؟

- رحلة عودتي لإنقاذ كينيدي كانت آخر رحلاتي، لكنني لم أستعجل الذهاب إلى تكساس، فيم العجلة؟ في سبتمبر عام 1958 كان أوزي الأرنب -اللقب الذي أطلقه عليه رفاقه في المارينز- غير موجود في أمريكا، كان يبحر مبتهجًا في أنحاء جنوب المحيط الهادئ مع وحدته، للحفاظ على أمن اليابان وفورموزا من أجل الديمقراطية. لذا عدت إلى كوكي في سيبينغو، ومكثت هناك حتى الخامس عشر من نوفمبر. مجددًا. لكن عندما حل اليوم، غادرت في وقت أبكر من المرة السابقة، وهذا كان قرارًا صائبًا من جانبي، لأنني لم أواجه مشكلة إطارين فحسب هذه المرة، بل تعطل محرك السيارة عطلًا كاملاً، فاضطرت إلى دفع ستين دولارًا لعامل محطة الخدمة في نابلس حتى أستخدم سيارته لبقية اليوم، وتركت معه خاتم المارينز كضمانة إضافية. ثم خضت مغامرات لا أود تكرار سردها مرة أخرى...

- هل كان الجسر ما يزال خارج الخدمة في دُرم؟

- لا أدري يا صاح، لم أسلك ذلك الطريق أساسًا. كل من لا يتعلم من ماضيه مغفل، بحسب تقديري. ومن الأشياء التي عرفتُها من ماضي كان الاتجاه الذي سيأتي أندرو كلم منه، فسارعت بالذهاب إليه. وجدت الشجرة التي تعترض الطريق، كما في المرة السابقة.

وعندما وصل أندرو، كنتُ أصرع الشجرة، كما في المرة السابقة. ثم أحسست بألم في صدري، كما في المرة السابقة. أدينا المسرحية الكوميدية بأكملها، وأمضت كارولين بولين يوم السبت في الغابة مع أبيها بسلام. وبعد أسبوعين ودَّعتُ المكان وصعدت على متن قطار متجه إلى تكساس.

- إذن كيف ما تزال لديك هذه الصورة لكارولين وهي تتخرج جالسة على كرسي مدولب؟

- لأن كل رحلة عبر جحر الأرنب تعيد الوضع في الماضي إلى ما كان عليه سابقًا.

ثم اكتفى آل بالنظر إلي، ليرى ما إذا فهمت. وبعد دقيقة، فهمت.
- أنا...؟

- نعم يا صاح. اشتريت لنفسك جعة جذور رائعة عصر اليوم، وأيضًا أعدت كارولين بولين إلى كرسي مدولب.

الفصل الرابع

1

سمح آل لي بمساعدته على الوصول إلى غرفة نومه، حتى إنه تمتم: «شكرًا يا صاح»، عندما جثوث لحل رباط حذائه وخلّعه. لم يمانع إلا عندما عرضت أن أساعده على دخول الحمام.

قال: «جعل العالم مكانًا أفضل أمرٌ مهم، وكذلك قدرة المرء على دخول الحمام بنفسه».

- حسنًا، ما دمت متأكدًا من أنك قادر على تولي أمرك بنفسك.
- متأكد من قدرتي الليلة، وسأقلق بشأن الغد غدًا. اذهب إلى منزلك يا جيك، ابدأ قراءة دفتر الملاحظات، يحتوي على معلومات كثيرة. فكر بالأمر، ثم عد لزيارتي في الصباح وأخبرني بقرارك. سأكون موجودًا.

- باحتمال نسبته خمسة وتسعين في المئة؟
- سبعة وتسعين على الأقل. عمومًا أشعر بالقوة والنشاط. لم أكن متأكدًا من قدرتي على إخبارك بكل ذلك، ومجرد إخبارك، وحملك على تصديق كلامي، عبء ثقيل انزاح عن كاهلي.

لم أكن متأكدًا من أنني أصدقه، حتى بعد مغامرتي عصر ذلك اليوم، لكنني لم أقل له ذلك. قلت له طابت ليلتك، وذغرتة بآلا يخطئ عدد الأقراص التي يتناولها («أجل، أجل»)، وغادرت. ثم وقفت بالخارج

ونظرت إلى التمثال القزمي الذي يحمل علم النجم الوحيد، لبثتُ أنظر إليه قرابة دقيقة، ثم سرت على الرصيف إلى سيارتي.

تذكرت مقولة: لا تعبث مع تكساس... لكن ربما هذا ما كنت أعتمزم فعله. ونظرًا إلى الصعوبات التي واجهت آل في تغيير الماضي -ثقب الإطارات وتعطل المحرك وانهايار الجسر- خطر لي أنني إذا قبلت المهمة، فتكساس ستعيب معي.

2

بعد كل ما سبق، استبعدت قدرتي على النوم قبل الثانية أو الثالثة فجرًا، ورأيت أن ثمة احتمالًا معقولًا أنني لن أتمكن من النوم إطلاقًا. لكن أحيانًا يفرض الجسد احتياجاته الملحة. عندما وصلت إلى المنزل وأعددت لنفسني مشروبًا قليل الكحول (قدرتي على شرب الكحول في المنزل مجددًا كانت إحدى الإيجابيات الصغيرة لعودتي إلى حياة العزوبية)، أحسست بجفني ثقيلين، وبعدها أنهيت كأس الويسكي وقرأت أول تسع أو عشر صفحات من كتاب آل عن أوزوالد، استطعت إبقاء عيني مفتوحتين بالكاد.

غسلت كأسني في حوض المطبخ، وذهبت إلى غرفة النوم (تاركًا خلفي ملابسني على الأرضية. لاستشاطت كرسني غضبًا من هذا الفعل)، وتهالكت على السرير المزدوج الذي صرت أنام عليه وحدي. فكرت بمد يدي لأطفئ مصباح المنضدة المجاورة للسرير، لكنني أحسست بذراعي ثقيلة، ثقيلة جدًا. تصحيح مقالات الطلاب في حجرة الأساتذة الهادئة على غير العادة بدا لي أمرًا قد حدث منذ أمد سحيق. لكن هذا ليس غريبًا، فالزمن، رغم سطوته، شديد المرونة.

تسببت في إعاقه تلك الفتاة، أعدتها إلى الكرسي المدولب.

لم تكن تعرف كارولين بولين عندما هبطت السلم الموجود في مستودع المؤن عصر اليوم، لذا لا تكن سخيًّا. كما إنها ربما ما تزال تمشي في مكانٍ ما. ربما من شأن عبور ذلك الثقب أن يخلق عوالم بديلة، أو مسارات زمنية مختلفة، أو شيئًا لعينًا من هذا القبيل.

كارولين بولين.. تقتعد كرسيها المدولب وتنال شهادتها، في ذلك العام عندما كانت أغنية هانغ أون سلوبي لفرقة ذا مكويز أشهر أغاني البوب.

كارولين بولين.. تمشي بين الزنابق في حديقته عام 1979، عندما كانت أغنية واي إم سي إيه لـ ذا فيلدج بيبل أشهر أغاني البوب، ومن حين لآخر تجثو على إحدى ركبتيها لتقتلع بعض الحشائش الضارة، ثم تنهض وتواصل مشيها.

كارولين بولين في الغابة مع والدها.. وعما قريب ستصاب بالشلل. كارولين بولين في الغابة مع والدها.. وعما قريب ستعيش مراهقة عادية في بلدة صغيرة. تساءلتُ، أين ستكون يا تُرى في هذا المسار الزمني عندما تعلن نشرات الأخبار التلفزيونية والإذاعية أن الرئيس الخامس والثلاثين للولايات المتحدة أُردِي قتيلاً في دالاس؟

جون كينيدي يمكن أن يعيش. يمكنك إنقاذه يا جيك.

وهل سيفيّر إنقاذه الأوضاع إلى الأفضل؟ ما من ضمانات.

أحسست كأنني رجل يحاول التملّص من جورب من النايلون عالق حول رأسه.

أغمضت عيني وتراءت لي صفحات تتطاير من رُزنامة، ذلك التعبير المبتذل عن الانتقال الزمني الذي كان يُستخدم في الأفلام القديمة، رأيتها تطير إلى خارج نافذة غرفة نومي كالعصافير.

خطرت لي ذكرى أخرى قبل تلاشي وعيي: طالب السنة الثانية صاحب السوالف الصغيرة على ذقنه، يبتسم متممًا: هاري الضفدع، يتقافز في الري-وا-ق. وهاري يوقفني عندما هممت بتوبيخ الفتى: لا، لا تزعج نفسك؛ اعتدت الأمر.

ثم استغرقت في نوم عميق.

3

استيقظت فرأيت ضوء الصباح المبكر، وسمعت زقزقة عصافير، وفركت وجهي فتأكدت أنني بكيت قبيل استيقاظي. رأيت حلمًا، ورغم أنني لم أستطع تذكره، لا بد أنه كان حزينًا، لأنني لم أكن يومًا رجلًا يمكن وصفه بأنه كثير البكاء.

خدّان جافّان. ما من دموع.

أدّرت رأسي على الوسادة لأنظر إلى الساعة التي على المنضدة المجاورة للسرير، ورأيتها تشير إلى ما قبل السادسة صباحًا بدقيقتين. ونظرًا إلى طبيعة الضوء بدا لي أنه سيكون صباحًا جميلًا من صباحات يونيو، وما من يوم دراسي. دائمًا ما يسعد الأساتذة بأول أيام العطلة الصيفية بقدر ما يسعد به الطلاب، بيد أنني كنت حزينًا أيما حزن. وليس لأن أمامي قرارًا صعبًا علي اتخاذه فحسب.

في طريقي إلى الحمام انبثقت في ذهني ثلاث كلمات: كوا/بونغا، بوفالو بوب!

توقفت، عاريًا، ونظرت إلى انعكاس عيني المتسعيتين على مرآة منضدة الزينة. عندئذٍ تذكرت الحلم، ولا عجب أنني استيقظت شاعرًا بالحزن. حلمت أنني كنت في حجرة الأساتذة، أقرأ الموضوعات التي كتبها طلابي البالغون، بالتزامن مع إطلاق صافرة نهاية مباراة كرة سلة أخرى في الصالة الرياضية. وقد خرجت زوجتي للتو من مركز إعادة

التأهيل. كنت آمل أن أجدها في المنزل عندما أعود فلا أضطر إلى قضاء ساعة في الحديث عبر الهاتف حتى أعرف مكانها وأنتشلها من حانة ما. في الحلم، كنت قد نقلت مقالة هاري دَنَنغ إلى أعلى كومة الأوراق وبدأت القراءة: *نات ليلة تغيرت حياتي عندما قتل والدي والدتي وشقيقي...*

استرعت البداية انتباهي كاملاً، وبسرعة. من شأنها أن تسترعي انتباه أي أحد، أليس كذلك؟ لكن عيني لم تبدأ لتلسعانني إلا عندما وصلت إلى الجزء الذي يتحدث فيه هاري عما كان يرتديه. وبدا اختياره للزي منطقياً أيضاً. عندما يخرج الأطفال في ليلة الهالوين الخريفية، حاملين أكياس فارغة يأملون أن يعودوا بها ممتلئة بالغنائم، دائماً ما تعكس أزيائهم الثقافة الرائجة في الزمن الذي يعيشون فيه. قبل خمسة أعوام، بدا لي أن نصف الأطفال الذين جاؤوا إلى باب منزلي كانوا يرتدون نظارات هاري بوتر وملصقات تحمل رسم ندبة على شكل برق على جباههم. وفي أول خروج لي مُتسوِّلاً الحلوى، قبل أعوام عديدة، خرجت سائراً على الرصيف (وأمي خلفي بعشرة أقدام، بطلب مُلح مني) مرتدياً زي جندي ثلج من فيلم حرب النجوم الإمبراطورية تعيد الضربة. إذن هل كان مفاجئاً أن هاري دَنَنغ كان يرتدي زياً من جلد أيل؟

قلت لانعكاسي: «كوابونغنا، بوفالو بوب»⁽¹⁾، وعلى الفور ركضت إلى مكتبي. لا أحتفظ بجميع أعمال طلابي، ما من أستاذ يفعل هذا، لَعَرَقْنَا فيها! لكن كان من عاداتي أن أحتفظ بنسخة مصورة من أفضل الأعمال. إذ تُعد أداة تدريس ممتازة. لما استخدمت مقال هاري في صف دراسي أبداً، فموضوعها شخصي جداً، لكن مع ذلك رأيت أن أحتفظ بنسخة منه، لأنه استثار عواطفني بشدة. جذبت الدرج السفلي وبدأت أنقب بين كومة

(1) عبارة شهيرة من برنامج الأطفال هاودي دودي 1947-1960، كان مقدم البرنامج يُلقَّب ببوفالو بوب ويرتدي زياً من جلد اللائِل. (المترجم)

ملفات وأوراق متفرقة. ثم عثرت عليه بعد خمس عشرة دقيقة من البحث المضمني. وجلست على كرسي المكتب وشرعت في القراءة.

4

ذات ليلة تغيرت حياتي عندما قتل والدي والدتي وشقيقتاي وأذاني بشدة، كما آذى شقيقتي، آذاها بشدة حتى دخلت في غيبوبة، وبعد ثلاثة سنوات ماتت دون أن تستيقظ. كان اسمها إيلين وأحببتها كثيرًا، كانت أحببت قطف الزهور ووُضْعها في مزهريات. ما حدث كان يشبه فيلم روعب. لا أذهب أبدًا لمشاهدة أفلام الروعب لأنني عشت أحدها في ليلة الهالوين عام 1958.

أخي تدوي كان أكبر من أن يخرج لطلب الحلوى (15). كان يشاهد التلفاز مع أمي وقال إنه سيساعدنا على أكل حلوانا عندما نعود وإيلين قالت له لا، البس ملابسك وأحصل على الحلوى بنفسك، وضحكنا كلنا لأننا كنا نحب إيلين، كانت تبلغ 7 فقط من العمر لكنها كانت لوسيل بول⁽¹⁾ حقيقية، كانت تستطيع أن تجعلنا كلنا نضحك، حتى أبي (عندما يكون صافي الذهن. عندما يسكر يكون غضبان دومًا). كانت إيلين ترتدي زي الأميرة سمر فول وينترسبيرينغ، وأنا كنت أرتدي زي بوفالو بوب، الاثنان من **برنامج هاودي دودي** الذي نحب مشاهدته. «قولوا يا أطفال، حان وقت ماذا الآن؟». و«فلنسمع تصفيق الكراسي الخلفية». و«كوابونغا،

(1) لوسيل بول، ممثلة كوميدية اشتهرت في الخمسينيات والستينيات. (المترجم)

بوفالو بوب!!!». أنا وإيلين نحب ذلك البرنامج. هي تحب الأميرة وأنا أحب بوفالو بوب وكلنا نحب هاودي! قلنا لأخي توغا (اسمه آرثر لكن كل الناس يقولو له توغا، لا أتذكر لماذا) أن يكون شخصية «العمدة فينيس تي بلستر» لكنه أبى، وقال إن هاودي دودي برنامج عيال، وإنه سيكون شخصية «فرانكنشتاين» رغم أن إيلين قالت إن القناع مخيف أكثر من اللازم. وأيضًا توغا ضايقني بشأن أخذ بندقيتي الهوائية لأنه قال إن بوفالو بوب ليس لديه أي أسلحة في البرنامج التلفزيوني، وقالت أُمي «خذها إذا أردت يا هاري إنه ليس سلاح حقيقي أو حتى يطلق رصاصات مزيفة لذا بوفالو بوب لن يمانع». كان هذا آخر كلام قالت له لي وأنا سعيد أنه كان كلامًا لطيف لأنها تكون صارمة أحيانًا.

هكذا كنا نتجهز للخروج وأنا قلت انتظرو لحظة أريد دخول الحمام لأنني كنت متحمسًا جدًا. كلهم ضحكوا علي، حتى أُمي وتروي القاعد على الأريكة، لكن ذهابي للتبول أنقذ حياتي لأنه في ذلك الوقت دخل أبي البيت وهو يحمل تلك المطرقة. أبي يصبح قاسيًا عندما يشرب وضرب أُمي «مرارًا وتكرارًا». مرة عندما حاول تروي إيقافه بالجدال معه، كسر ذراع تروي. تلك المرة كاد أن يدخل السجن (أقصد أبي). على أي حال أبي وأُمي كانا «منفصلين» في هذه المرة التي أكتب عنها، وهي كانت تفكر في تطليقه، لكن ذلك لم يكن سهلًا عام 1958 كما هو الحال الآن.

على أي حال، دخل عبد الباب وأنا كنت في الحمام
أتبول وسمعت أُمي تقول «اخرج من هنا بهذا الشيء،
غير مسموح لك بالدخول». وبعدها بدأت تصرخ. ثم
صارو كلهم يصرخون.

ثمة المزيد، ثلاث صفحات فظيعة، لكن لم أكن أنا من يجب عليه
قراءتها.

5

كانت الساعة السادسة والنصف إلّا بضع دقائق، لكنني بحثت عن
رقم آل في دليل الهاتف واتصلت به دون تردد. لم أوقظه. أجب بعد
الرنّة الأولى، وكان صوته أقرب إلى نباح الكلاب من صوت البشر.

- مرحبًا يا صاح، تبدو من محبي الاستيقاظ باكراً.

- أريد أن أريك شيئاً. موضوع كتبه أحد الطلاب، تعرفه، ولا بد، إذ
لديك صورته معلقة على جدار المشاهير الخاص بك.

سعل ثم قال: «لدي صور كثيرة على جدار المشاهير يا صاح، ربما
توجد صورة حتى لفرانك أنسييتي، تعود إلى يوم مهرجان موكسي الأول.
ساعدني قليلاً، مَنْ تقصد؟».

- أفضل أن أريك. أتمانع مجيئي إليك؟

- إذا كان بمقدورك ملاقاتي وأنا أرتدي رداء الحمام، فلا مانع لدي.
لكن لا بد لي من أن أسألك مباشرة، بعدما حظيت بليلة كاملة
للتفكير، هل اتخذت قرارك؟

- أظن أن عليّ العودة في رحلة أخرى إلى الماضي أولاً.
أنهيت المكالمة قبل أن يطرح عليّ مزيداً من الأسئلة.

بدا آل في حالة أسوأ تحت ضوء الصباح المبكر المتدفق عبر نافذة صالة معيشته، تدلى رداؤه الأبيض حول جسده كمظلة هبوط ذابلة، وعدم خضوعه للعلاج الكيميائي مكّنه من الاحتفاظ بشعره، لكنه صار خفيفاً ناعماً كشعر الرُّضْع، وبدت عيناه كأنهما غارتا على نحو أعمق في محجريهما. قرأ موضوع هاري دننغ مرتين، وهَمَّ بوضع الأوراق على المنضدة، ثم بدأ القراءة مرة أخرى. وأخيراً نظر إلي وقال: «يا للهول! رباها!».

- عندما قرأته أول مرة بكيت.

- لا ألومك. الجزء الذي يتحدث فيه عن بندقية ديزي الهوائية هو ما أثار فيَّ حقاً. في الخمسينيات، كان يُنشر إعلان لبنادق ديزي الهوائية على ظهر غلاف كل كتاب رسوم هزلية يصدر. كل طفل في الحي الذي عشت فيه، كل صبي تحديداً، لم يكن يريد سوى شيئين: بندقية ديزي الهوائية وقبعة ديفي كروكيت المصنوعة من فرو الراكون. إنه محق، ما من رصاصات مع البندقية، حتى ولو كانت مزيفة، لكننا كنا نضع قليلاً من زيت الأطفال في ماسورة البندقية، ثم عندما نضخ الهواء ونضغط الزناد، ينطلق من الفوهة دخان أزرق.

نظر مجدداً إلى الصفحات المنسوخة وتابع: «ابن العاهرة قتل زوجته وثلاثة من أطفاله بمطرقة؟ رباها!».

كتب هاري: بدأ ينهال ضرباً بالمطرقة، فركضت عائداً إلى صالة المعيشة، ورأيت دماء متناثرة على الجدران، وأشياء بيضاء على الأريكة، كانت قطع من دماغ أُمي. وإيلين، وجدتها ممددة على الأرضية وفوقها الكرسي المتأرجح والدماء تسيل من أذنيها وشعرها. كان التلفاز ما يزال يعمل، ويعرض عليه برنامج عن إليري كوين التي تحل الجرائم.

جريمة تلك الليلة لم تكن تشبه المشكلات اللطيفة الخالية من الدماء التي تحل إليري كوين لغزها، بل كانت مجزرة. الصبي البالغ من عمره عشرة أعوام الذي دخل الحمام ليتبول قبل خروجه في ليلة الهالوين، عاد من الحمام فرأى والده الثمل المهتاج يهشم رأس آرثر "توغا" دننغ بينما كان يحاول الزحف إلى المطبخ. ثم التفت الوالد فرأى هاري، الذي رفع بندقيته الهوائية وقال: «ابتعد عني يا أبي، وإلا أطلقت النار عليك». انقضض دننغ على الصبي رافعاً مطرقة الملوحة بالدماء. أطلق هاري بندقيته الهوائية على والده (خُيِّلَ لي أنني سمعت الصوت كما- تشو الذي صدر من البندقية، رغم أنني لم أستخدمها بنفسي من قبل)، ثم ألقاها وركض إلى حجرة النوم التي يتشاركها مع توغا الذي رحل للتو. كان والده قد نسي إغلاق الباب الخارجي عندما دخل. ومن مكان ما، «بدا على بُعد 1000 ميل»، حسبما كتب عامل النظافة، سمع الجيران يصيحون والأطفال الذين يحتفلون بعيد الهالوين يصرخون.

لقتل دننغ ابنه المتبقي بالتأكيد، إذا لم يتعثر بـ «الكرسي المتأرجح» المقلوب. سقط، ثم نهض وركض إلى غرفة ابنه الصغيرين. وفيها كان هاري يحاول أن يزحف إلى أسفل السرير. رفعه والده وضربه على جانب رأسه، وكانت الضربة قاتلة لو لم تكن يد المطرقة لزجة من الدماء، لكن الضربة أصابت جمجمة هاري وأحدث رأس المطرقة تقعرًا فوق الأذن. لم أفقد وعيي، لكنني كدت. ظلت أزحف أحاول الوصول إلى أسفل السرير، وبالكاد أحسست بضربات على ساقي لكنه ضربني، وأصبت بكسور في 4 مواضع.

ثمة رجل كان يجوب الحي ويجمع الحلوى مع ابنته، دخل راکضاً في تلك اللحظة. ورغم المجزرة التي وقعت في صالة المعيشة، حافظ الجار على ثباته الانفعالي وأخذ مجرفة الرماد من دلو المعدات بجوار مستوقد

المطبخ، وضرب بها دنغ على مؤخر رأسه وهو يحاول أن يقلب السرير ليصل إلى ابنه النازف وشبه فاقد الوعي.

بعدها فقدت وعيي مثل إيلين إلا أنني كنت محظوظًا فاستيقظت. قال الأطباء إنهم ربما يضطروا إلى قطع ساقي لكن في النهاية لم يفعلوا. كلا، احتفظ هاري بساقه، ولاحقًا أصبح عامل نظافة في مدرسة ليسبون الثانوية، وعرفته أجيال من الطلاب بلقب هاري الضفدع. تُرى هل كان الصبية ليعاملوا هاري معاملة ألطف إذا عرفوا قصة عرجه؟ على الأرجح لا. رغم حساسيتهم العاطفية وسهولة تأثرهم بظروفهم، المراهقون غالبًا ما يفتقرون إلى التعاطف، يكتسبون في مرحلة لاحقة من الحياة، إذا قُدِّر لهم اكتسابه.

قال آل بصوته الأجش الشبيه بالنباح: «أكتوبر 1958، هل يُفترض أن أظن هذا التاريخ مصادفة؟».

تذكرت ما قلته لفرانك أنسييتي المراهق عن قصة شيرلي جاكسون وابتسمت: «أحيانًا يكون السيجار مجرد دخان، والصدفة مجرد صدفة. كل ما أعرفه هو أننا نتحدث عن لحظة فارقة أخرى».

- ولماذا لم أعر على هذه القصة في أرشيف صحيفة إنتربرايز؟
- لأنها لم تحدث هنا، بل في ديري، شمال الولاية. عندما تعافى هاري بما يكفي لمغادرة المستشفى، ذهب ليعيش مع خاله وخالته في هيفن، على بُعد قرابة خمسة وعشرين ميلًا جنوب ديري. تبنياه وشغلناه في مزرعة العائلة عندما اتضح أنه لن ينجح في المدرسة.
- تبدو لي كقصة أوليفر تويست.
- لا، أحسنًا معاملته. تذكر أنه لم تكن توجد صفوف تعليمية خاصة في تلك الأيام، وعبارة "أصحاب تحدي الإعاقة العقلية" لم تكن قد اخترعت بعد و...

- أعرف، في تلك الأيام كانت العبارة تعني أبله أو غبيًا أو متخلفًا، ببساطة.
- لكنه لم يكن كذلك، وليس كذلك الآن. أظنه عانى صدمة شديدة، أتعرف؟ استغرق سنوات حتى يتعافى من صدمة تلك الليلة، وعندئذ كان قد تجاوز سن المدرسة.
- على الأقل إلى أن عاد لينال شهادة الثانوية العامة، بعدما بلغ منتصف العمر أو تجاوزه.
- هز آل رأسه وأردف: «يا له من أمر مؤسف!».
- هراء، لم تَضِعْ حياته هدرًا. هل كان من الممكن أن تكون أفضل؟ نعم. أيمكنني تحقيق ذلك؟ بناء على أحداث الأمس، ربما يمكنني. لكن هذه ليست النقطة المهمة.
- ما هي إذن؟ لأن وضعه يبدو لي كوضع كارولين تمامًا، وقد أثبتنا تلك الحالة سلفًا. أجل، يمكنك تغيير الماضي، ولا، العالم لا يتفرقع مثل بالون عندما تغيّره. هَلَّا صببت لي كوب قهوة يا جيك؟ ولنفسك أيضًا، إنها جاهزة وساخنة، وأنت تبدو كأنك تحتاج إليها.
- بحثت عن بعض الكعك وأنا أصب القهوة. وعندما قدمت كعكة لآل هز رأسه قائلاً: «الطعام المتماسك يؤلمني عند بلعه. لكن إذا كنت مصرًا على تناولني سعرات حرارية، فهناك ست علب إنشور، مكملات غذائية، في الثلاجة، مذاقها في رأيي كمذاق المخاط المتجمد، لكن يمكنني ابتلاعها».
- وعندما جلبتها له في كأس نببذ عثرت عليها في خزانته، انفجر ضاحكًا: «أتظن أن الكأس ستحسّن مذاقها؟».
- ربما. إذا تظاهرت بأنك تشرب نببذ بينو نوا الفرنسي الفاخر.

شرب نصف الكأس، ورأيته يعاني مع بلعومه حتى يُبقي ما شربه في جوفه، نجح في معركته، لكنه دفع الكأس بعيدًا وحمل كوب القهوة. لم يشرب منه، بل اكتفى بضم يديه حوله، كأنه يحاول أن يستمد منه شيئًا من الدفء. وفي أثناء مشاهدتي له، أعدتُ تقدير الوقت الذي ربما يكون متاحًا له.

قال: «إذن ما الذي يجعل قصة هاري مختلفة؟».

إذا لم يكن مريضًا لاستوعب الأمر بنفسه، كان رجلًا متقدِّد الذهن. «لأن كارولين بولين لم تكن موضوع اختبار جيد. لم تنقذ حياتها يا آل، أنقذت ساقها فحسب. ثم عاشت حياة طيبة لكنها عادية تمامًا في المسارين الزمنيين، المسار الذي يصيبها كَلَم فيه، والمسار الذي تتدخل لإنقاذها فيه. لم تتزوج في كلا المسارين. لم تنجب أطفالًا في كلا المسارين. الأمر كما لو أن...». تلعثمت مترددًا. «لا أقصد الإهانة يا آل، لكن ما فعلته كان أشبه بأن ينقذ طبيبٌ زائدة دودية ملتهبة. أمر جيد للزائدة الدودية، لكنها لا تؤدي أي دور حيوي حتى وهي سليمة. هل تفهم ما أعنيه؟».

بدا آل متكدِّرًا من كلامي وقال: «نعم. رأيت أن كارولين أفضل حالة يمكنني اختبارها يا صاح. في سَنِي هذه الوقت محدود حتى لو كنت بصحة جيدة. كنتُ أضع نصب عيني هدفًا أكبر».

- لا أنتقدك. لكن أسرة دَنَنغ تمثل حالة اختبار أفضل، لأن مشكلتها لا تقتصر على فتاة صغيرة مشلولة، رغم فظاعة هذه المحنة لها ولأسرتها. إننا نتحدث عن أربعة أشخاص قُتِلوا وخامسهم عانى إعاقة طوال حياته، علاوة على أننا نعرفه. بعدما نال شهادة الثانوية العامة، اصطحبتهُ إلى مطعمك لنتناول البرغر، وعندما رأيت عباءته وقلنسوته استعدتُ الفاتورة، أتذكر؟

- نعم، عندئذٍ التقطت الصورة لأعلقها على جداري.

- إذا استطعتُ فعل هذا، إذا منعتُ والده من ضرب أَسْرته بالمطرقة،

أتظن أن تلك الصورة ستظل معلقة على الجدار؟

- لا أدري. ربما لا. ربما لا أتذكر أنني علقتها على الجدار أساسًا.

كان كلامه نظريًا أكثر من اللازم قليلًا، فلم أعلق عليه. «وفكر بالأطفال الثلاثة الآخرين، تروي وإيلين وتوغا. لا بد أن بعضهم كان ليتزوج إذا عاشوا وكبروا. وربما أصبحت إيلين كوميدية شهيرة. ألا يقول هاري في قصته إنها كانت مضحكة مثل لوسيل بول؟». ملت إلى الأمام وتابعت: «لا أريد شيئًا سوى مثال واحد أفضل لما سيحدث إذا غيّرنا لحظة فارقة، لا بد من هذا قبل أن أذهب لأعبت بحدث ضخم مثل اغتيال كينيدي. ما قولك يا آل؟».

- أقول إنني أفهم وجهة نظرك.

نهض بصعوبة، وآلمتني مشاهدته، لكن عندما هممت بالنهوض لَوَّح لي لأظل جالسًا: «لا، ابق في مكانك، أود أن أريك شيئًا، إنه في الحجرة الأخرى، سأجلبه».

7

كان صندوقًا معدنيًا، ناوله لي وطلب مني حمله إلى المطبخ. قال إن من الأسهل أن نستعرض محتوياته على الطاولة. وعندما جلسنا، فتح الصندوق بمفتاح كان يعلّقه حول عنقه. أولًا أخرج ظرفًا بُنيًا، فتحه وأخرج منه رزمة نقود ورقية غير مرتبة، التقطتُ منها واحدة ونظرت إليها متعجبًا، كانت ورقة من فئة عشرين دولارًا، لكن بدلًا من صورة أندرو جاكسون على وجهها، رأيت غروفر كليفلاند، الذي على الأرجح لن يكون ضمن أفضل عشرة رؤساء أمريكيين لدى أي أحد. وعلى ظهر الورقة صورة قاطرة وسفينة بخارية بدتا كأنهما ستصادمان أسفل الكلمات: ورقة نقدية من الاحتياطي الفيدرالي.

قلت: «هذه تبدو كنقود لعبة مونوبولي».

- ليست كذلك. ولا يوجد منها كثير كما قد يبدو لك، لأن ما من فئات أكبر من عشرين دولارًا. في أيامنا هذه، عندما تملأ خزان وقودك بثلاثين أو خمسة وثلاثين دولارًا، وتدفع ورقة من فئة خمسين دولارًا، فلن يستغرب أي أحد. لكن في الماضي كان الوضع مختلفًا، وآخر ما تريده هو إثارة استغراب أي أحد.

- أهذه حصيلتك من المقامرة؟

- بعضها. معظمها مدخراتي. عملتُ طبّاخًا بين عامي 58 و62، كما عملت هنا. كل رجل يعيش وحده يمكنه ادخار مبالغ كبيرة، لا سيما عندما لا ينفق كثيرًا على النساء، أو حتى قليلًا. حافظتُ على علاقات ودودة مع جميع الناس، لكنني لم أتقرب من أحد. أنصحك بأن تفعل مثلي، في ديري، وفي دالاس، إذا ذهبت إليها.

حرّك النقود بإحدى أصابعه النحيلة: «هذه أكثر قليلًا من تسعة آلاف، حسبما أتذكر. تعادل ستين ألفًا تقريبًا اليوم».

حدقت إلى النقود ثم قلت: «النقود تعود، تظل باقية مهما يكن عدد مرات الذهاب عبر جُحر الأرنب، صحيح؟». تحدثنا عن هذه النقطة كثيرًا، لكنني ما زلت أحاول استيعابها.

- نعم، لكنها تظل موجودة هنا أيضًا. يعود الوضع إلى ما كان عليه سابقًا، أتتذكر؟

- أليست هذه مفارقة؟

نظر إلي والإنهاك بادٍ عليه، وصبره يكاد أن ينفد. «لا أدري. طرح أسئلة لا أعرف إجابتها إهدارًا للوقت، وليس أمامي وقت طويل».

- آسف، آسف. ماذا لديك أيضًا في الصندوق؟

- ليس الكثير. لكن أفضل ما في الوضع أنك لا تحتاج إلى أشياء كثيرة. كان زمنًا مختلفًا تمام الاختلاف يا جيك، قد تقرأ عنه في كتب التاريخ، لكنك لن تستوعبه حتى تعيش فيه مدة.

دفع نحوي بطاقة ضمان اجتماعي، رقمها 0223-52-005، باسم جورج تي أمبرسون. ثم التقط قلمًا من الصندوق وناولني إياه قائلاً: «وَقَّع عليها».

أخذت القلم، بدا كهدية ترويجية، مكتوب عليه: /عهد بسيارتك إلى الرجل المرصع بالنجوم. تَكْسَاكو. وَقَّعْتُ على البطاقة شاعرًا بأنني دانييل وبستر يوقَّع ميثاقه مع الشيطان. وعندما حاولت إعادتها إلى آل، هز رأسه.

ثم أخرج رخصة قيادة باسم جورج تي أمبرسون صادرة من ولاية مين، مذكور فيها أن طولي ستة أقدام وخمس بوصات، أزرق العينين، بُنِّي الشعر، وزني مئة وتسعون رطلاً، ولدت في 22 أبريل 1923، وأعيش في المنزل رقم 19 بشارع بلوويرد في ساباتوس، وهذا هو عنواني في 2011.

سألني آل: «ستة أقدام وخمس بوصات صحيح تقريبًا؟ اضطررتُ إلى التخمين».

قلت: «قريب بما يكفي»، ووقعت على رخصة القيادة، كانت بطاقة عادية من الورق المقوى باللون الكريمي البيروقراطي. وسألته: «ألا توجد صورة؟».

- ولاية مين لن تضيف الصور إلا بعد سنوات يا صاح، وكذلك الولايات الثماني وأربعون الأخرى؟

- ثمان وأربعون؟

- هاواي لن تصبح ولاية مستقلة إلا في العام التالي.

أحسست بضيق في تنفسي، كأنما لكمني شخص على بطني.

- أوه. إذن... إذا أوقفني شرطي للسرعة الزائدة، فسيفترض أن هويتي هي المزعومة في البطاقة؟

- لِمَ لا؟ إذا قلت كلامًا عن هجوم إرهابي في عام 1958، فسيظن الناس أنك تتحدث عن عبث مراقبين. وقّع على هذه أيضًا.

ناولني بطاقة امتيازات من شركة تأجير السيارات هيرتز، وبطاقة محطات وقود سيتيز، وبطاقة داينرز ك्लب، وبطاقة أميركان إكسپرس. أميركان إكسپرس من البلاستيك، وبطاقة داينرز ك्लب من الورق المقوى، واسم جورج أمبرسون مكتوب عليهما آليًا وليس يدويًا.

- يمكنك الحصول على بطاقة أميركان إكسپرس بلاستيكية أصلية في العام التالي، إذا أردت.

ابتسمت قائلاً: «ألن تعطيني دفتر شيكات؟».

- يمكنني ذلك، لكن ما الفائدة؟ أي معاملات ورقية أجريتها باسم جورج أمبرسن ستُفقد عندما تذهب عبر جحر الأرنب المرة التالية، وأيضًا أي مبلغ نقدي أودعته في الحساب.

أحسست بأنني مغفل: «أوه، صحيح».

- لا تقسُ على نفسك، كل هذا جديد عليك. لكن عليك أن تفتح حسابًا مصرفيًا، أقترح ألا تودع فيه أكثر من ألف دولار، احتفظ بمعظم ما لديك نقدًا، وفي متناولك.

- تحسبًا لاضطراري إلى العودة على عجلة.

- أجل. وبطاقات الائتمان مجرد تأكيد لهويتك. الحسابات التي فتحتها سوف تختفي حالما تذهب عبر جحر الأرنب. لكن ربما تساعدك، لست متأكدًا.

- هل تصل رسائل البريد إلى جورج أمبرسن في المنزل رقم 19
بشارع بلوبيرد؟

- في عام 1958 شارع بلوبيرد مجرد عنوان في خريطة مسح
عقاري لساباتوس يا صاح، المبنى الذي تعيش فيه لم يكن قد
شُيد بعد. إذا سُئلت عنه، فقل إنه أمر متعلق بعمل تجاري، سوف
يصدقونك. العمل التجاري أشبه بإله في عام 58، كل الناس
يعبدونه لكن لا أحد يفهمه. خذ هذه.

ألقى لي محفظة رجالية فخيمة. حدقت إليها فاغراً فمي: «أهذا جلد
نعام؟».

- أردتُ أن أبدو ميسور الحال. ضع فيها صوراً لك مع البطاقات.
لدي أشياء أخرى متفرقة، مزيد من أقلام الحبر الجاف، أحدها كان
مبتكراً عندئذٍ في طرفه فتّاحة خطابات ومسطرة، وقلم رصاص
ماركة سكريبتو، وواقي جيب. عام 58 كل هذه الأشياء كانت تعد
ضرورية، لا يُنظر إلى من يستعملها كأنه غريب الأطوار. وهذه
ساعة ماركة بولوفا مزودة برباط سبايدل، كل المهتمين بآخر
التقاليع يحبونها. لك أن تطلّع على بقية الأشياء بنفسك.
سعل سعالاً شديداً وارتسم الألم على وجهه، وعندما توقف رأيت
وجهه ينضح بحبيبات عرق كبيرة.

- متى رتبت كل هذه الأشياء يا آل؟

- عندما أدركت أنني لن أستطيع بلوغ عام 1963 غادرت تكساس
وعدت إلى الديار. كنت أفكر بك سلفاً، فأنت مطلق، وليس لديك
أطفال، وذكي، وفوق كل شيء شاب. أوه، كدت أنسى، هذه هي
البذرة التي نبت منها كل شيء، حصلت على الاسم من شاهد قبر
في مقبرة سان سيرل وللتو قدمتُ طلباً لسكرتير ولاية مين.

ناولني شهادة ميلادي. مررت أصابعي على الدمغة البارزة. بدا عليها الملمس الحريري الرسمي.

رفعت رأسي فرأيتَه قد وضع ورقة أخرى على الطاولة، مكتوب أعلاها: **المسابقات الرياضية 1958 - 1963**. وقال: «لا تُضيعها. ليس لأنها سوف تكون بقرتك الحلوب فحسب، بل ولأنك ستواجه أسئلة كثيرة إذا وقعت في الأيدي الخطأ، لا سيما عندما تبدأ النتائج بالتحقق».

بدأت أعيد كل شيء إلى الصندوق، فهز آل رأسه: «لدي حقيبة يدوية ماركة لورد بكستون في خزانتي، مهترئة الحواف على نحو جميل».

- لا أحتاج إليها، لدي حقيبة ظهر، موجودة الآن في صندوق سيارتي. ابتسم قائلاً: «هناك لا أحد يرتدي حقائب الظهر باستثناء فتيان الكشافة، ولا يرتدونها إلا عندما يخرجون في نزعات أو رحلات تخييم. أمامك تعلم أشياء كثيرة يا صاح، لكن إذا توخيت الحذر وتجنبت المخاطرة، فستحقق غايتك».

أدركت أنني سأمضي قدماً في المهمة، وأنني سأبدأ حالاً، دون استعداد كاف. أحسست كأني مسافر وصل للتو إلى ميناء لندن في القرن السابع عشر وأدرك فجأة أنه على وشك الوقوع في براثن عصابة. سألتَه بصوت أقرب للثغاء: «لكن ما العمل الآن؟».

رفع حاجبيه اللذين صارا كثيفين وأبيضين كشعره الذي يخف تدريجياً: «تنقذ أسرة دنغ. أليس هذا ما تحدثنا عنه للتو؟».

- لا أقصد ذلك. ماذا أفعل عندما يسألني الناس عن كيفية كسب عيشي؟ ماذا أقول؟

- عمُّك الثري مات، أتتذكر؟ قل لهم إنك تقتصد في إنفاق ميراثك الذي هبط عليك من السماء حتى يدوم مدة كافية ريثما تفرغ من

تأليف كتاب. ألا يوجد كاتب محبب بداخل كل أستاذ لغة إنجليزية؟
أم أنني مخطئ في هذا؟
في الحقيقة لم يكن مخطئاً.
لبث جالساً ينظر إلي، منهكاً، هزياً، لكن ليس دون تعاطف، وربما شيء من الشفقة. وأخيراً قال بصوت خفيض: «إنه أمر جلل، أليس كذلك؟».

- بلى. آل... رباه... إنني مجرد رجل عادي.
- وكذلك كان أوزوالد، شخص تافه أطلق النار من مخبئه. ووفقاً لما كتبه هاري دننغ، والده مجرد حقير يحمل مطرقة.
- لم يعد كذلك، مات بتسمم حاد في سجن شاوشانك المُشدد. قال هاري إن السبب كان سكويز فاسد، وهو مشروب كحولي...
- أعرف ما هو سكويز، رأيت كثيراً عندما كنت متمركزاً في الفلبين، حتى إنني شربت قليلاً منه، وندمت. لكن الرجل ليس ميتاً في الزمن الذي ستذهب إليه، وكذلك أوزوالد.
- آل... أعرف أنك مريض، وأعرف أنك تتألم. لكن هلاً أتيت معي إلى المطعم؟ أنا...

لأول وآخر مرة أخاطبه بكلمته المعتادة.

- يا صاح، لا أريد أن أبدأ هذه الرحلة وحدي، إنني خائف.
- قال: «لن أفوت هذه اللحظة»، ووضع يده تحت إبطه ونهض متألماً وتقلصت شفاته حتى بانث لثته. «جهّز الحقيبة. سأرتدي ملابس».

8

كانت الساعة الثامنة إلّا ربعاً عندما فتح آل باب المقطورة الفضية التي اشتهرت بأنها موطن الفاتبرغر. بدت الأدوات المطلية بالكروم

خلف نضد البيع شبحية. وبدت المقاعد كأنها تهمس: لا أحد سيجلس علينا مجددًا. وبدت رشاشات السكر كأنها ترد همسًا: لا أحد سيستخدمنا مجددًا، انتهى الحفل.

قلت: «فليُفسح المكان لـ إل. إل. بين».

قال آل: «أجل. مسيرة التقدم للعين».

كان آل يلهث، لكنه لم يتوقف ليستريح. اقتادني خلف نضد البيع إلى باب مستودع المؤن، وسرت في أعقابه وأنا أنقل الحقيبة التي بداخلها حياتي الجديدة من يد إلى أخرى. كانت حقيبة قديمة الطراز تُغلق بإبزيمات، إذا حملتها إلى الفصل الدراسي الرئيسي بمدرسة ليسبون الثانوية، لضحك معظم الصبية، ولاحتفى بها قلة آخرون، من المهتمين بالتقاليع الغريبة.

فتح آل الباب على روائح الخضراوات والبهارات والقهوة. ومرة أخرى مد يده متجاوزًا كتفي ليضيء المصباح. حدقت إلى الأرضية المكسوة بالمشمع الرمادي كما يحدق المرء إلى حوض سباحة يعج بأسمك قرش جائعة، وعندما نقر آل على كتفي، أجفلت.

قال: «آسف. عليك أن تأخذ هذه». كان يمد إلي عملة معدنية، خمسون سنتًا. «رجل البطاقة الصفراء، أتذكره؟».

«أتذكره بالطبع». في الحقيقة نسيته تمامًا. كان قلبي يخفق بشدة جعلتني أحس بعيني تنبضان في محجريهما، وأحسست بمذاق لسانی كأنه قطعة من سجادة قديمة. عندما ناولني آل القطعة النقدية كدت أن أسقطها.

حدجني بنظرة ناقدة: «لا بأس بالجينز في الوقت الراهن، لكن عليك أن تعرّج على محل ماسون للملابس الرجالية شمال الشارع الرئيسي وتشتري بناطيل قبل التوجه شمالًا، الألوان الرمادية والخضراء الداكنة مناسبة للأيام العادية، وبان-لون للمناسبات الرسمية».

- بان-لون؟

- اسأل فحسب، هم سيعرفون. كما ستحتاج إلى بعض القمصان الرسمية، وبدلة لاحقًا. وأيضًا بضع ربطات عنق ومشبك ربطات عنق. واشتر لنفسك قبعة أيضًا، ليست قبعة بيسبول، إنما قبعة صيفية جميلة من القش.

رأيت دموعًا تفر من جانبي عيني، أخافتني خوفًا أشد من خوفي من أي كلام قاله.

- آل؟ ما الخطب؟

- إنني خائف فحسب، مثلك. لكن لا داعي لمشهد وداع مؤثر. في حال عودتك، فستعود في غضون دقيقتين مهما طال بقاءك في عام 58، وهذا وقت كاف لي لتشغيل آلة تحضير القهوة. إذا نجحت المهمة، فسنتناول كوب قهوة معًا، وتخبرني بتفاصيل رحلتك.

إذا. يا لها من كلمة ثقيلة.

- يمكنك أن تدعو لي بالتوفيق أيضًا، ثمة متسع من الوقت لذلك، صحيح؟

- بالتأكيد. سأدعو أن تسير مهمتك بسلاسة. لا تشغل بما حولك هناك فتنسى أنك تتعامل مع رجل خطير، ربما يكون أشد خطورة من أوزوالد.

- سأكون حذرًا.

- حسنًا. أمسك عليك لسانك بقدر مستطاعك إلى أن تستوعب الكلمات وطريقة الكلام السائدة هناك وتتكيف مع المكان. تحرك ببطء. لا تخلف آثارًا عميقة.

حاولت أن أبتمس، لكن لست متأكدًا أنني استطعت. أحسست بالحقيبة ثقيلة جدًا، كأنها مليئة بصخور وليس نقود وبطاقات مزيفة.

خَيْلٌ لي أَنني سَيُغْمَى علي. ومع ذلك، فليكن الرب في عَوْنِي، جزءٌ مني
أراد المَضي قُدَمًا، ولا يطبق الانتظار. أردت أن أرى الولايات المتحدة
الأمريكية في سيارتي الشيفروليه. أحسست بأن أمريكا تناديني.
مد آل إلي يده النحيلة المرتعشة: «حظًا طيبًا يا جيك. بوركت».

- تعني جورج.

- جورج، صحيح. والآن اذهب. كما يقولون هناك في الماضي، حان
وقت دخولك المشهد.

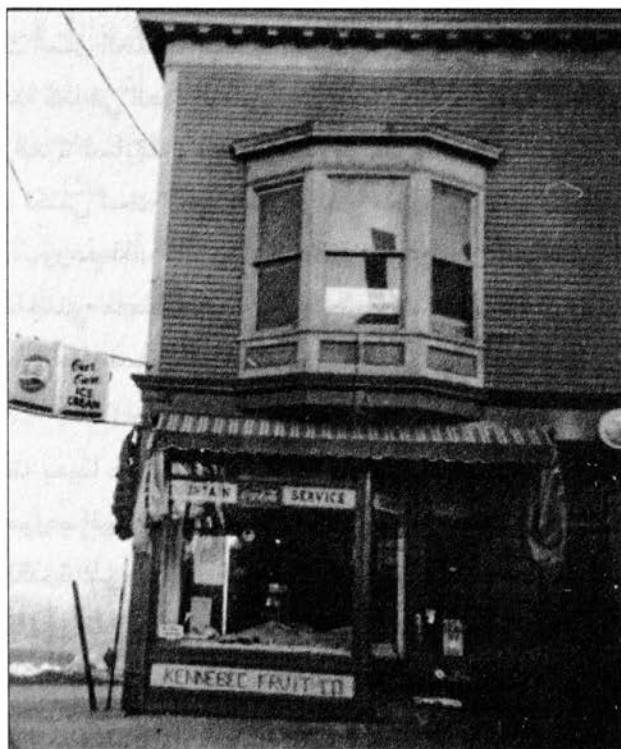
استدرت وسرت ببطء إلى داخل مستودع المؤن، تحركت كرجل
يحاول تحديد موضع درجة السلم الأولى في مكان مظلم.
في الخطوة الثالثة عثرت عليها.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الجزء الثاني

والد عامل النظافة



الفصل الخامس

1

سرت بمحاذاة جانب سقيفة التجفيف، كما في المرة السابقة، وانحنيت أسفل السلسلة المعلق منها لافتة مكتوب عليها: ممنوع تجاوز هذا الحد، كما في المرة السابقة. ثم انعطفت عند زاوية المبنى الأخضر كما في المرة السابقة، وعندئذ ارتطم بي شيء. لست ثقیل الوزن مقارنة بطولي، لكنني لست نحيلاً، كان والدي يقول لي: «لن تحملك أي ریح عاصفة». ورغم ذلك كاد رجل البطاقة الصفراء أن يُسقطني. أحسست كأنما هاجمني معطف مليء بطيور ترفرف. كان الرجل يصيح بكلام ما، لكنني أجفلت من المباغلة (حدث كل شيء بسرعة ولم يداهمني الخوف) فلم تكن لدي فكرة عما قاله.

دفعته بعيداً عني فتقهقر متعثراً وارتطم بسقيفة التجفيف ومعطفه ملتف حول ساقيه، سمعت صوت ارتطام مؤخر رأسه بالحديد، وسقطت قبعته القذرة على الأرض، فتبعها الرجل متهاكاً ببطء. أسفتُ لما فعلته حتى قبل أن تعود ضربات قلبي إلى إيقاعها الطبيعي، واشتد أسفي عندما التقط قبعته وبدأ ينفضها بيده القذرة، قبعته التي لن تعرف النظافة أبداً، وهو كذلك على الأرجح.

سألته: «هل أنت بخير؟». لكن عندما انحنيت لألمس كتفه، ابتعد منكماً مذعوراً بمحاذاة جانب السقيفة، دافعاً جسده بيديه وزاحفاً على مؤخرته. قد أقول إنه بدا كعنكبوت مُعاق، لكنه لم يبد كذلك، بدا كما

كان: سَكِيرًا تتدهور حالته باطراد، رجلًا ربما يكون قريبًا من الموت مثل آل تمبلتون، لأن أمريكا قبل أكثر من خمسين سنة لم يكن فيها مراكز إيواء أو إعادة تأهيل تدعمها المنظمات الخيرية مخصصة لأمثال هذا الرجل. إدارة شؤون المحاربين القدامى ربما تتكفل به إذا ارتدى الزي العسكري يومًا، لكن من عساه أن يأخذه إلى إدارة شؤون المحاربين القدامى؟ لا أحد، على الأرجح، لكن شخصًا ما -أحد رؤساء عمال المصنع على الأرجح- ربما يبلغ عنه الشرطة. وعندئذ سيزججون به في زنزانة احتجاز السكارى أربعًا وعشرين أو ثمانين وأربعين ساعة، وإذا لم يمُت من تشنجات الهذيان الارتعاشي وهو في الزنزانة، فسيطلقون سراحه، ثم يبدأ دورة إدمانه التالية. وجدت نفسي أتمنى وجود زوجتي السابقة معي، لأمكنها اصطحابه إلى إحدى جمعيات مدمني الكحول المجهولين. إلا أن كرستي لن تولد قبل واحد وعشرين عامًا.

وضعت حقيبتني بين قدمي ورفعت يدي لأريه أنهما خاليتان، لكنه انكمش مبتعدًا أكثر إلى جانب سقيفة التجفيف، والتمتع اللعاب على ذقنه الخشن. نظرت إلى ما حولي لأتأكد من أننا لا نجذب انتباه أحد، فرأيت أننا وحدنا في هذا الجزء من فناء المصنع، وحاولت مرة أخرى: «لم أدفعك إلا لأنك أفرغتني».

سألني: «من أنت بحق الجحيم؟»، تكلم بصوت مشروخ يصعب فهمه، وإذا لم أكن قد سمعت سؤاله في زيارتي السابقة، لما كانت لدي فكرة عما قاله... ورغم أن ثقل لسانه هو نفسه كما كان في المرة السابقة، بدت نبذة كلامه مختلفة قليلًا هذه المرة، لم أكن متأكدًا، لكن هذا ما بدا لي. كان آل قد قال لي: إنه غير مؤنث، لكنه ليس كبقية الناس، يبدو كأنه يعرف أمرًا. ظن آل ذلك لأن الرجل يصادف وجوده وهو يتشمس جوار جُحر الأرنب عند 11:58 صباح 9 سبتمبر 1958، ولذلك يكون غُرْضة لتأثير المكان. مثلما يُحدث المرء تشويشًا على شاشة تلفاز إذا شغل

جهازًا آخر جواره. ربما يكون الأمر كذلك. أو ربما يكون تأثير الكحول فحسب.

قلت له بصوت مهدئ: «لستُ شخصًا مهمًا، لست أحدًا عليك أن تشغل نفسك به. اسمي جورج. ما اسمك؟».

زمجر: «داعِرا!»، وزحف مبتعدًا عني أكثر. إذا كان ذلك اسمه، فهو اسم غريب قطعًا. «يُفترض ألا تكون هنا!».

قلت: «لا تقلق، سأغادر»، وحملت حقيبتتي لأبرهن له على صدقي، فرفع كتفيه النحيلتين إلى أذنيه كأنه يتوقع مني أن أقذف عليه الحقيبة. كان مثل كلب تعرض لكثير من الضرب فلم يُعد يتوقع أي معاملة أخرى. «لن أؤذيكَ، لا أريد بك سوءًا، اتفقنا؟».

- اخرج أيها اللقيط! عُد من حيث أتيت واتركني وشأني!
- اتفقنا.

كنت ما أزال متوترًا، وبقايا الأدرينالين امتزجت على نحو سيئ مع إحساسي بالشفقة، وحنقي. الحنق نفسه الذي أحسست به عندما عدت إلى البيت ذات يوم فوجدت كرستي ثملة غاية الثمالة مجددًا رغم وعودها بإصلاح مسلكها والإقلاع عن الكحول إلى الأبد. أحسست بغثيان طفيف بسبب مزيج المشاعر علاوة على حر منتصف النهار. على الأرجح هذه ليست أفضل طريقة لبدء مهمة إنقاذ.

فكرت بمحل كنبك فروت وجودة جعة الجذور التي شربتها، وتذكرت تصاعد بخار الثلج من فريزر الآيس كريم عندما أخرج فرانك أنسيتي الأب الكوب الكبير، وتذكرت برودة المكان هناك. شرعت في السير في ذلك الاتجاه دونما إبطاء، وحقيبتتي اليدوية الجديدة (لكن مهترئة الحواف) ترتطم على جانب رُكبتي.

- مهلاً! مهلاً، أنت، يا هذا!

التفت، فرأيت السكّير ينهض بصعوبة، مستندًا إلى جانب سقيفة التجفيف، وقد انتزع قبعته وأمسك بها مجعدة ضامًا إياها إلى جذعه، وراح يعبث بها: «لدي بطاقة صفراء من الواجهة الخضراء، إذن أعطني دولارًا أيها الداعر، لأن اليوم يوم مضاعفة الدفع».

عدنا إلى الحوار الأصلي، وأراحني ذلك. لكن حرصت على عدم الاقتراب منه، لم أرغب في إخافته مرة أخرى أو استفزازه فيهاجمني مجددًا. توقفت على بعد ستة أقدام وبسطت يدي، واضعًا العملة المعدنية التي منحها لي آل على راحة يدي: «ليس لدي دولار فائض، لكن إليك نصف دولار».

تردد، وعندئذٍ كان يمسك قبعته بيسراه. «أرجو أنك لا ترغب في أي خدمة وضيعة مني».

- عرضك مغرٍ، لكن يمكنني مقاومته.

- هه؟

نقل بصره من السنتات الخمسين إلى وجهي، ثم إلى النقود مجددًا. رفع يميناه ومسح خيط لعاب عن ذقنه، وعندئذٍ رأيت فيه اختلافًا آخر، لم يكن اختلافًا كبيرًا، لكنه جعلني أشك في زعم آل بأن كل دخول عبر جحر الأرنب يعيد الوضع إلى ما كان عليه.

قلت: «لا يهمني إذا أخذت النقود أو تركتها، لكن اتخذ قرارك، لدي شواغل أخرى».

اختطف العملة المعدنية، ثم انكمش متقهقرًا نحو سقيفة التجفيف مجددًا. كانت عيناه كبيرتين مبللتين. وسال خيط لعاب على ذقنه. لا شيء في العالم يضاهي حالة مدمن كحول في مرحلة متأخرة.

- من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟

- إنني في مهمة عمل. اسمع، هل جربت الذهاب إلى جمعية مدمني الكحول المجهولين لحل مشكلتك البسيطة مع الكحول...
- اغرب عن وجهي يا جيمل!

لم تكن لدي فكرة عما قد تكون جيمل، لكنني فهمت اغرب عن وجهي بوضوح. اتجهت نحو البوابة، متوقعًا من الرجل ملاحقتي بمزيد من الأسئلة، لم يفعل هذا في المرة السابقة، لكن هذه المرة مختلفة على نحو لافت.

لأنه لم يكن رجل البطاقة الصفراء، ليس في هذه المرة. عندما رفع يده ليمسح ذقنه، رأيت أن البطاقة في يده لم تعد صفراء.
هذه المرة كانت قدرة لكنها برتقالية صارخة.

2

سرت ببطء وحذر عبر موقف سيارات المصنع، ومرة أخرى نقرت على الصندوق الخلفي لسيارة بليماوث فيوري ذات اللونين الأبيض والأحمر لعلها تمدني بحسن الحظ، قطعًا كنت أحتاج إلى الحظ. عبرت خط السكة الحديدية، ومرة أخرى سمعت صوت قطار، لكن هذه المرة بدا أبعد قليلًا، لأن لقائي رجل البطاقة الصفراء-الذي صار رجل البطاقة البرتقالية- استغرق وقتًا أطول قليلًا. وجدت الهواء نتنًا برائحة دخان المصنع كما كان في المرة السابقة. وحافلة المواصلات الداخلية نفسها زمجرت مبتعدة أمامي، ولأنني تأخرت قليلًا هذه المرة لم أستطع قراءة اللافتة التي تحدد مسارها، لكنني تذكرت ما كان مكتوبًا عليها: لويس تون إكسبرس. تساءلت بلا جدوى عن عدد المرات التي رأى فيها آل تلك الحافلة نفسها وعلى متنها الركاب أنفسهم وهم ينظرون إلى خارج النوافذ.

هرعت إلى الجانب الآخر من الشارع، ملوِّحًا بيدي أمام وجهي لأبعد دخان عادم الحافلة بقدر مستطاعي. وجدت المراهق المتشبه بالفيس

في موضعه خارج الباب، وتساءلت لوهلة عما قد يقوله إذا سرقتُ عبارته، لكن بطريقةٍ ما لكان فعلي أشبه بتعمُّد إخافة سَكَّير سقيفة التجفيف. إذا سرق المرء اللغة السرية لهؤلاء الفتية، فلن يبقى لديهم شيء، وهذا الفتى لن يمكنه حتى العودة إلى منزله ليفرغ إحباطه في ألعاب الفيديو. لذا اكتفيت بإيماءة.

أوماً لي قائلاً: «هاي-هو، دادي-أُو».

دخلت المحل، فرن الجرس المعلق فوق الباب، تجاوزت رف الكتب المصورة وسرت مباشرة إلى ثلاجة البيع حيث يقف فرانك أنسيتي الأب. «بِم يمكنني خدمتك يا صديقي؟».

أُرتج علي لوهلة، لأنه لم يقل لي ذلك في المرة الماضية، ثم أدركت السبب، في المرة الماضية أخذت صحيفة من الرف، وهذه المرة لم أفعل. ربما كل رحلة إلى 1958 تعيد عداد المسافة إلى أصفار (باستثناء رجل البطاقة الصفراء)، لكن حالما يغيّر المرء أحد المتغيرات، يتغير كل شيء تبعاً لذلك. فكرة مخيفة ومُحرّرة في آنٍ واحد.

قلت: «أريد جعة جذور».

- بالطبع. جعة بخمسة أم عشرة سنتات؟

- عشرة، على ما أظن.

- حسناً، أصبّت الظن.

أخرج الكوب الكبير المكسو بالصقيع من الفريزر، واستخدم مقبض ملعقة خشبية ليزيل الرغوة، وأكمل ملء الكوب ووضعه أمامي. كل شيء كما في المرة السابقة.

قال: «دايم. بالإضافة إلى سنت للحاكم».

ناولته أحد دولارات آل القديمة. وبينما كان فرانك 1.0 يجهز لي الباقي، نظرت فوق كتفي ورأيت رجل البطاقة الصفراء السابق واقفاً

خارج متجر المشروبات الكحولية، الواجهة الخضراء، متمائلاً من جانب إلى آخر. ذكّرني بناسك هندوسي رأيته في فيلم قديم، ينفخ في ناي ليُخرج كوبراً من سلة خيزران. كما رأيت أنسييتي الشاب قادماً على الرصيف، في مواعده تماماً.

التفت، ورشفت من الجعة، وتنهدت قائلاً: «يا للروعة!».

- أجل، لا شيء مثل جعة باردة في يوم حار. لست من البلدة، أليس كذلك؟

- بلى، من وسكونسن.

مددت له يدي: «جورج أمبرسون». فصافحني، وعندئذ رن الجرس المعلق فوق الباب: «فرانك أنسييتي. وها هو ابني قد جاء، فرانك الابن. رحّب بالسيد أمبرسون القادم من وسكونسن يا فرانكي».

«مرحباً سيدي». ابتسم لي وأوماً، ثم التفت إلى والده: «بدأ تايّس العمل على الشاحنة، ويقول إنها ستكون جاهزة بحلول الساعة الخامسة». قال أنسييتي الأب: «حسناً، هذا جيد». انتظرت أنسييتي 1.0 حتى يشعل سيجارة، ولم يخيّب ظني. أخذ نفساً، ثم التفت إلي: «هل أنت مسافر من أجل عمل أم للتسلية؟».

لوهلة لم أرد، ليس لأنني لم أدر ما علي قوله، بل لأن هذا المشهد ظل ينحرف عن النص الأصلي ويعود إليه. لكن على أي حال لم يبدو أن أنسييتي قد لاحظ دهشتي.

تابع أنسييتي: «على أي حال، اخترت الوقت المناسب للمجيء. معظم زوار الصيف رحلوا، وعندما يرحلون نسترخي جميعاً هنا. أتود ملعقة فانيلا في جعتك؟ عادةً ما تكون مقابل خمسة سنتات، لكن في أيام الثلاثاء أخفض السعر إلى نِكل⁽¹⁾».

(1) Nickel = خمسة سنتات. (المترجم)

قال فرانك الابن مازحًا: «استهلكَت هذه المزحة قبل عشر سنوات يا أبي».

قلت: «شكرًا، جعتي جيدة كما هي. إنني في رحلة عمل، ثمة صفقة عقار في... ساباتوس؟ أجل أظن هناك. أتعرف تلك البلدة؟».

قال فرانك: «أعرفها طوال حياتي»، ونفث الدخان من منخريه. ثم ألقي علي نظرة ماكرة: «قطعتَ مسافة طويلة من أجل إنهاء صفقة عقار».

رددت له ابتسامة من المفترض أن يكون مغزاها: إذا كنت تعرف ما أعرفه. لا بد أن رسالتي وصلت إليه، لأنه غمز لي.

رن الجرس المعلق فوق الباب ودخلت السيدات اللاتي سيشتريان الفواكه. الساعة الحائطية المكتوب على وجهها: اشرب القهوة وابتهج كانت تشير إلى 12:28. بدا أن ذلك الجزء من النص الذي أتناقش فيه مع فرانك الابن عن قصة شيرلي جاكسون قد حُذِف من هذه المسودة. أنهيت جعتي بثلاث جرعات كبيرة، وفي هذه اللحظة أحسست بتقلص في أمعائي. في الروايات نادرًا ما تذهب الشخصيات إلى المرحاض، لكن في الحياة الواقعية غالبًا ما يؤدي التوتر الذهني إلى ردة فعل جسدية.

- عذرًا، هل لديكم حمام رجال هنا؟

قال فرانك الأب: «آسف، لا. منذ مدة نعتزم إضافة حمام، لكن في الصيف نكون مشغولين وفي الشتاء لا تتوفر لنا نقود كافية للإصلاحات».

قال فرانك الابن: «اذهب إلى تايِتس، انعطف عند نهاية المبنى». كان يضع آيس كريم في أسطوانة معدنية، ليحضر لنفسه مخفوق حليب. لم يفعل هذا في المرة السابقة، فتذكرت بشيء من القلق ما يسمى بأثر الفراشة، خُيِّل لي أنني أشاهد تلك الفراشة تفرد جناحيها أمام عيني. كنا نغيّر العالم، تغييرات صغيرة، متناهية الصغر، لكننا كنا نغيّره بالتأكيد.

- سيدي؟

قلت: «آسف، مررت بلحظة كبار سن».

بدا مشوشًا، ثم ضحك قائلًا: «لم أسمع ذلك قط، لكنها عبارة جيدة». كانت جيدة فعلاً، وربما يستخدمها لاحقاً عندما تشرّد أفكاره، والعبارة التي لن تدخل معجم العامية الأمريكية حتى السبعينيات أو الثمانينيات ستظهر ظهوراً مبكراً. لا يمكن أن نقول ظهور قبل أوانه تحديداً، لأن في هذا المسار الزمني ستكون في موعدها تماماً.

قال أنسييتي الأب: «محل تايتس عند نهاية الشارع إلى يمينك. إذا كان وضعك... امم، مُلِحًا، لك أن تستخدم حمامنا في الطابق الأعلى».

قلت: «لا، لا بأس». ورغم أنني نظرت سلفاً إلى الساعة الحائطية، ألقيت نظرة تفاخر على ساعتَي البولوفا ذات رباط سبايدل الجميل. وكان من الجيد أنهما لا يستطيعان رؤية وجه ساعة معصمي، لأنني نسيت إعادة ضبطها وما زالت تشير إلى الوقت في عام 2011. «علي الذهاب وقضاء بعض شؤوني، ما لم يحالفني الحظ ستشغلني لأكثر من يوم. هلاً أوصيتما لي بنزل جيد في هذه المنطقة؟».

سألني أنسييتي الأب: «أتقصد نزل الطريق؟». سحق سيجارته في إحدى منافض السجائر المرصوفة على امتداد النضد.

قلت: «نعم». هذه المرة أحسست بابتسامتي بلهاء ولا توهي بمعرفتي بأمْرِ ما... وتقلصت أمعائي مرة أخرى. إذا لم أتولّ أمر هذه المشكلة سريعاً، فستتحول إلى حالة طارئة. «نسميه نزلاً في وسكونسن».

قال أنسييتي الأب: «أرشح لك نزل تاماراك، على بُعد خمسة أميال شمال الشارع رقم 196 في طريقك إلى لويستون، جوار سينما السيارات».

نهضت قائلًا: «شكراً على المعلومة».

- على الرحب. وإذا أردت أن تقص شعرك قليلاً قبل لقاءاتك، جَرِّب صالون بومر للحلاقة، إنه يقوم بعمل ممتاز.

- شكرًا. معلومة جيدة أخرى.

- المعلومات مجانية، أكواب جعة الجذور بمقابل. استمتع بوقتك في مَين يا سيد أمبرسون. وأنت يا فرانكي، اشرب مخفوق الحليب وُعِد إلى المدرسة.

«بالطبع يا أبي». وهذه المرة فرانك الابن غمز ناحيتي.

هتفت إحدى السيدات بصوت مرح: «فرانك! هل هذا البرتقال طازج؟».

أجاب: «طازج مثل ابتسامتك يا ليولا». فتضاحكن.

مررت جوارهن متممًا: «سيداتي». رن الجرس المعلق فوق الباب وخرجت إلى العالم الذي كان موجودًا قبل مولدي. لكن هذه المرة بدلًا من عبور الشارع إلى الفناء حيث يوجد جحر الأرنب، توغلت في ذلك العالم. على الجانب الآخر من الشارع رأيت السكير مرتديًا معطفه الأسود الطويل يتكلم بيديه مع بائع يرتدي مئزرًا، والبطاقة التي يلوّح بها صارت برتقالية، لكن عدا عن ذلك كان قد عاد إلى النص الأصلي. رأيت ذلك إشارة جيدة.

3

وجدت محل تايتس شيفرون خلف سوبرماركت ريد أند وايت، حيث اشتري آل الأشياء نفسها اللازمة لمطعمه مرارًا. وفقًا لل لافتة المعلقة على النافذة، يباع رطل الكرنند مقابل تسعة وستين سنتًا. وقبالة السوبرماركت على قطعة أرض كانت خالية في 2011 وجدت مرأب سيارات كبيرًا مفتوح الأبواب وفيه جميع أنواع الأثاث المستعمل، أسِرّة أطفال، وكراسي هزازة مصنوعة من الخيزران، وكراسي وثيرة من النوع الذي «يسترخي عليه الآباء» بدت متوفرة بكثرة. قرأت على اللافتة المعلقة فوق الباب: الفيل الأبيض المبتهج. وثمة لافتة أخرى أرضية مائلة بحيث تلفت انتباه المتجهين إلى لويستون، تزعم: إذا لم تجد شيئًا لدينا، فأنت

لا تحتاج إليه. ثم رأيت رجلاً حَسْبَتْهُ مالك المكان جالساً على كرسي هزاز، يدخل غليوناً وينظر إلي. يرتدي تيشيرت بأربطة وبنطالاً بُنيّاً، ولديه سِوَالف، رأيتها جريئة في هذا المسار الزمني. وشعره، رغم أنه ممشط إلى الخلف ومثبت بدهن من نوع ما، متموج ومنسدل إلى مؤخرة عنقه، ذكرني بفيديو روك آند رول شاهده ذات يوم: جيرى لي لوييس يقفز أمام بيانو وهو يغني غريت بولز أوف فاير. مالك "الفيل الأبيض المبتهج" هذا على الأرجح بيتنك⁽¹⁾.

رفعت إصبعي نحو رأسي محيياً الرجل، فأومأ لي إيماءة طفيفة وواصل نفث دخان غليونه.

وعند محطة شيفرون (حيث يباع جالون الوقود العادي مقابل 19.9 سنتاً، و"السوبر" يكلف سنتاً إضافياً) رأيت رجلاً قصير الشعر يرتدي ملابس عمل زرقاء يعمل على شاحنة على رافعة، افترضت أنها شاحنة أنسييتي.

- السيد تايتس؟

ألقى علي نظرة سريعة فوق كتفه: «نعم».

- السيد أنسييتي قال إن بوسعي استخدام حمامك.

- المفتاح داخل الباب الأمامي.

- شكراً لك.

وجدت المفتاح معلقاً بمجداف خشبي مطبوع عليه: رجال. والمفتاح الآخر مطبوع على مجدافه: فتيات. خطر لي أن زوجتي السابقة لامتعضت من هذا امتعاضاً شديداً.

(1) Beatnik شخص معتنق لثقافة البيت، يرفض القيم والعادات الاجتماعية والثقافية السائدة. (المترجم)

كان الحمام نظيفاً لكن تملؤه رائحة الدخان، وثمة منفضة سجائر على شكل جرة بجوار مقعد المرحاض، من عدد أعقاب السجائر عليها أمكنني تخمين أن كثيراً من زوار هذه الحجرة الصغيرة المرتبة استمتعوا بالتدخين في أثناء قضاء حاجتهم.

وعندما خرجت، رأيت قرابة عشرين سيارة في مساحة صغيرة جوار المحطة، يرفرف فوقها صف من الرايات الصغيرة مع النسيم، سيارات قد يبلغ ثمنها آلاف الدولارات، بوصفها سيارات كلاسيكية بالطبع. سيارة كاديلاك في حالة شبه ممتازة معروضة بثمانمئة دولار. ورأيت لافتة فوق كابينة المبيعات (بداخلها فتاة جميلة تمضغ علكة وشعرها مصفف على شكل ذيل الحصان، منغمسة في قراءة نسخة من مجلة فوتوبلاي) مكتوباً عليها: "كل هذه السيارات تعمل جيداً ومعها فاتورة بضمان من تاييتس. نحن نخدم ما نبيعه!".

علّقت المفتاح في مكانه، وشكرت تاييتس (أطلق نخرة دون أن يلتفت عن الشاحنة التي على الرافعة)، ثم شرعت في السير نحو الشارع الرئيسي، مستحسناً فكرة قص شعري قبل زيارة المصرف. فتذكرت البيتَنك صاحب السكسوكة، ودفعتنني نزوة لأعبر الشارع إلى بازار الأثاث المستعمل.

قلت: «صباح الخير».

قال: «في الحقيقة الوقت بعد الظهر، لكن لا يهم، مهما يكن ما يجعلك سعيداً». نفث دخان غليونه، ونسيم الصيف يومذاك ساق نحوي رائحة مزيج تبغ شيري، من ذكرياتي مع جدي، وقد كان يدخن هذا المزيج في صباه. وأحياناً كان ينفث الدخان في أذني ليبدد آلامها. علاجٌ على الأرجح غير معتمد من الجمعية الطبية الأمريكية.

- هل تبيع حقائب سفر؟

- لدي بضع حقائب في مخزوني، اذهب حتى الخلف وانظر إلى يمينك.

- إذا اشتريت حقيبة، فهل يمكنني أن أتركها هنا لساعتين حتى أتسوق قليلاً؟

قال: «المحل مفتوح حتى الساعة الخامسة»، والتفت ناحية الشمس وأردف: «بعد ذلك لا شأن لي بك».

4

دفعت اثنين من دولارات آل القديمة مقابل حقيبة جلدية، وتركها خلف نضد بيع البيت، ثم سرت في الشارع الرئيسي وحقيبتتي اليدوية ترتطم بساقي. ألقى نظرة نحو الواجهة الخضراء فرأيت البائع جالساً بجانب آلة تسجيل النقود يقرأ صحيفة، ولا أثر لصديقي ذي المعطف الأسود.

لما ضللت طريقي في منطقة التسوق، إذ يبلغ طولها مربعاً سكنياً واحداً. بعدما اجتزت ثلاثاً من أربع واجهات متاجر بعد كنبك فروت، وصلت إلى صالون بومر للحلاقة، ورأيت العمود رمز الحلاقين المخطط بالأحمر والأبيض على النافذة. وجواره ملصق سياسي عن إدموند مَسكي، كنت أتذكره رجلاً عجوزاً مرهقاً متهدل الكتفين، لكن هذه النسخة منه بدت كأنها لم تبلغ سن التصويت، ناهيك بأن يُنتخب لأي منصب. قرأت على الملصق: ابعثوا إد مَسكي إلى مجلس الشيوخ الأمريكي، صوتوا للديمقراطيين! وشخص ما وضع شريطاً أبيض حول أسفل الملصق، وكتب عليه بخط يده: قالوا إننا لن نستطيع أن ننتصر في مَين، لكننا فعلناها! التالي: هَمفري في عام 1960!

بداخل الصالون وجدت عجوزين جالسين متكئين على الجدار، وعجوزاً ثالثاً مثلهما يُقَص شعر أعلى رأسه. كلا الرجلين المنتظرين

يدخن كأنه قطار بخاري، وكذلك الحلاق (افتترض أنه بومر)، مضيّقاً عينه إزاء الدخان المتصاعد من طرف شفّتيه وهو يقص الشعر. جميعهم ألقوا علي نظرة فاحصة مألوفة لدي: نظرة التقويم المشوب بشيء من الشك، أسمّتها كرستي بتحيقة اليانكي. استلطفْتُ عدم تغيُّر بعض الأشياء.

قلت لهم: «أنا من خارج البلدة، لكنني صديق، أصوْتُ للديمقراطيين طوال حياتي». رفعت يدي بإشارة فليعينني الرب.

ضحك بومر ضحكة قصيرة خافتة، وسقط الرماد من سيارته، فنفضه ساهماً من مئزره على الأرضية، حيث توجد عدة أعقاب سجائر مسحوقة بين الشعر المقصوص. «هارولد هذا جمهوري، يجدر بك أن تحذر حتى لا يعضّك».

قال أحد الآخرين: «لم تعد لديه أسنان يعض بها». فقهقهوا جميعاً.

سألني هارولد الجمهوري: «من أين أنت يا سيدي؟».

قلت: «وسكونسن». والتقطت نسخة من مجلة مانز أديفنشر لأتخاشي أي حوارات أخرى. على غلاف المجلة صورة لرجل آسيوي ضئيل الحجم يضع قفازاً ويحمل سوطاً مقترّباً من حسناء شقراء مقيدة إلى عمود، وعنوان القصة المرفقة "الاستعباد الجنسي في منطقة المحيط الهادئ". كانت رائحة صالون الحلاقة جميلة، مزيج رائع من مسحوق التالكوم ودهان الشعر ودخان السجائر. عندما أشار بومر لي لأجلس على الكرسي، كنت منغمساً في قصة المستعبدين جنسياً، لكنها لم تكن مثيرة كالغلاف.

«هل تسافر كثيراً يا سيد وسكونسن؟». سألني بومر وهو يضع قماشاً من الرايون فوق الجزء الأمامي من ملابسِي وياقة ورقية حول عنقي.

أجبتة صادقاً: «كثيراً جداً».

- حسنًا، لقد وصلت إلى مُستقرِّك الآن. كيف تريد قَصَّة شعرك؟
- قلت: «قصيرة بحيث لا أبدو مثل...» كُدت أن أنهي كلامي بـ "هيببي"، لكن لما عرف بومر معنى الكلمة. «مثل بيتنك».
- بدأ يقص شعري قائلًا: «أظنك تريد أن تتركه طويلًا قليلًا، إذا صار أطول كثيرًا فستبدو مثل ذلك المخنث الذي يدير "الفيل الأبيض المبتهج"».
- كلاً وقطعًا.
- بالطبع يا سيدي. ذلك الرجل أضحوكة.
- وبعدما انتهى بومر، وضع على مؤخرة عنقي مسحوقًا، وسألني عما إذا كنت أريد دهان فيتاليس أو بريلكريم أو وايلدروت، وتقاضى أربعين سنتًا.
- صفقة رابحة.

5

مبلغ الدولارات الألف الذي أودعته في مصرف هومتاون ترست لم يثر استغراب أحد، حلاقتي الجديدة ساعدتني على الأرجح، لكن أظن أن السبب الرئيسي كان شيوع التعاملات نقدًا ومحدودية البطاقات الائتمانية... وعلى الأرجح ينظر اليانكي المقتصدون إليها بعين الشك. وجدتُ موظفة فائقة الجمال شعرها معقود للأعلى على شكل لفافات وتضع قلادة على عنقها، حسبتِ النقود، وسجلتِ المبلغ في دفتر حسابات، ثم استدعت المدير المساعد، جاء وحسبِ النقود مرة أخرى، وتحقق من دفتر الحسابات، ثم حرر إيصالًا يوضح المبلغ المودع والمبلغ الكلي في حسابي الجاري الجديد.

قال لي: «أستميحك عذرًا، هذا مبلغ أكبر من أن يودع في حساب جاري يا سيد أمبرسن، أتود أن تفتح حساب توفير؟ حاليًا نقدم أرباحًا بنسبة ثلاثة في المئة، تضاف إلى حسابك كل ثلاثة أشهر». وسَّع عينيه ليوحي لي بروعة العرض. بدا مثل ذلك العجوز خافيير كوغات قائد الفرقة الموسيقية الكوبية.

قلت: «شكرًا، لدي أعمال كثيرة علي إنجازها». خفضت صوتي وأردفت: «صفقة عقار، أو هذا ما أمله».

خفض صوته أيضًا إلى مستوى السرية نفسه: «حظًا موفقًا. لوريان ستجهز لك دفتر الشيكات. هل سيكفيك خمسون شيكًا؟».

- يناسبني ذلك.

قال: «في وقت لاحق يمكننا أن نوفر لك شيكات مطبوع عليها اسمك وعنوانك». ورفع حاجبيه متسائلًا.

- أنوي الذهاب إلى ديري. سأبقى على تواصل.

- حسنًا. يمكنك التواصل معي عبر دي آر إكسل ثمانية أربعة، سبعة، سبعة، سبعة.

لم أستوعب ما قاله إلى أن مرر لي بطاقة عمل عبر النافذة، منقوشًا

عليها: غريغوري دوسن، مدير مساعد. 4777-DRexel 8

جلبت لوريان شيكاتي ومعها دفتر شيكات من جلد تمساح صناعي. شكرتها ووضعته في حقيبتي. وعند الباب توقفت ونظرت إلى الخلف، رأيت موظفين يعملان على آلات حاسبة قديمة، لكن جميع المعاملات تجري يدويًا على نحو مرهق. خطر لي أن شارلز ديكنز، باستثناء بعض نواحي حياته، سيشعر بأنه في دياره هنا. وخطر لي أيضًا أن العيش في الماضي أشبه قليلاً بالعيش تحت الماء والتنفس عبر أنبوب.

اشتريت الملابس التي أوصى بها آل من محل ماسون للملابس الرجالية، وقال لي البائع إنهم سيسعدون بتلقيّ شيك، شريطة إمكانية سحبه من مصرف محليّ. وبفضل لوريان أمكنني تلبية طلبهم.

ثم عدت إلى الفيل الأبيض المبتهج، وشاهدني البيتّنك صامتًا وأنا أنقل محتويات ثلاثة أكياس تسوق إلى حقيبتَي الجديدة، وعندما أغلقتها تكلم أخيرًا: «هذه طريقة تسوق غريبة يا رجل».

قلت: «ربما. لكننا في عالم قديم غريب، أليس كذلك؟».

ابتسم قائلاً: «أرى أنك محق تمامًا. مرر لي بعضًا من جلدك يا جاكسون». ومد يده باسطًا راحتها إلى الأعلى.

لوهلة عُدت إلى لحظة محاولتي فهم ما تعنيه الحروف المتصلة بأرقام هاتف غريغوري دوسن. ثم تذكرت فيلم دراغسترب غيرل، ففهمت أن البيتّنك يعرض علي نسخة الخمسينيات من المصافحة بملامسة القبضات. مررت راحة يدي على يده، شاعرًا بالدفء والعرق، وقلت لنفسني مجددًا: هذا يحدث. إنني في واقع.

قلت: «جلد يا رجل».

عبرت الشارع عائداً إلى تايّتس شيفرون، مؤرجحاً حقيبة سفري الجديدة بيد، وحقيبتَي اليدوية باليد الأخرى. لم يتجاوز الوقت منتصف الصباح في عالم 2011 الذي جئت منه، لكنني أحسست بإرهاق شديد. وجدت كابينة هاتف بين محطة الخدمة وموقف السيارات المجاور، دخلت إليها، وأغلقت الباب، وقرأت لافتة مكتوبة يدوياً فوق الهاتف القديم: تذكروا أن المكالمات الهاتفية الآن مقابل دايّم، هدية من شركة مايبيل.

قلبت الصفحات الصفراء في دليل الهاتف المحلي وعثرت على "تاكسي ليسبون"، إعلانهم مكون من رسم كرتوني لسيارة أُجرة مصابيحها الأمامية على شكل عينيْن وفتحات تهوية المحرك على شكل ابتسامة عريضة، ويعد ب خدمة سريعة ممتازة. بدا لي ذلك جيداً. بحثت عن نقود معدنية في جيبِي، لكن أول ما خرج في يدي شيء كان ينبغي أن أتركه خلفي: هاتف نوكيا جوال. كان عتيقاً بمعايير العام الذي جئت منه (كنت أعتزم تغييره إلى آيفون) لكن ينبغي ألا يكون هنا. إذا رآه شخصٌ ما، فستُطرح علي مئات الأسئلة التي لا يمكنني الإجابة عنها. حشرته في الحقيبة اليدوية. رأيت أن لا بأس في وجوده معي في الوقت الراهن، لكن لا بد من التخلص منه لاحقاً، الاحتفاظ به سيكون مثل التجول بقنبلة لا أحد يعرف موعد انفجارها.

عثرت على دايم وأدخلته في الفتحة، لكنه عاد مباشرة إلى الصندوق الذي تخرج إليه النقود المُعادة. أخرجته، وبمنظرة واحدة أدركت المشكلة. مثل هاتفي النوكيا، جاء الدايم من المستقبل. كانت حوافه نحاسية، ليس أكبر من سنت ذي نقوش بارزة. أخرجت جميع نقودي المعدنية، ونبشت فيها، ووجدت دايم يعود إلى عام 1953 على الأرجح حصلت عليه كباقي مبلغ جعة الجذور التي تناولتها في محل كنبك فروت. هممت بوضعه في الفتحة، ثم خطرت لي فكرة اقشعر لها جسدي. ماذا لو أن الدايم الذي يعود إلى عام 2002 علق في حلق الهاتف بدلاً من السقوط إلى الصندوق الذي تخرج إليه النقود المُعادة؟ وماذا لو عثر عليه فني شركة الاتصالات الذي يتولى الهواتف المدفوعة في ليسبون فولز؟

لظن أنها مزحة فحسب، مجرد مقلب محكم التنفيذ.

استبعدتُ ذلك، لأن الدايم في حالة مثالية. على الأرجح لذهب به الرجل وعرضه على بعض الناس، وربما يُنشر الخبر في الصحيفة لاحقاً. حالفني الحظ هذه المرة، لكن في المرة التالية ربما لا يحالفني. تعيّن

علي أن أكون حذرًا. فكرت بهاتفني الجوال مرة أخرى، بقلق متزايد. ثم وضعت دايم 1953 في الفتحة وكوفئت برنين بدء إدخال الرقم. أدخلت الرقم ببطء وحذر، محاولاً تذكّر ما إذا كنت قد استخدمت هاتفًا ذا قرص دوار من قبل. استبعدت ذلك. كلما أطلقت القرص، أصدر صوتًا غريبًا إثر عودته إلى موضعه الأول.

سمعت صوت امرأة: «تاكسي ليسبون»، لرحلات سعيدة دومًا. كيف يمكننا مساعدتك اليوم؟».

8

في أثناء انتظاري وصول سيارة الأجرة، رحت أتفرج على السيارات المعروضة في محل تايّتس، ولفّنت نظري سيارة فورد حمراء موديل 54 ذات سقف متحرك، من طراز صنلاينر، بحسب المكتوب أسفل مصابيح الكروم في جهة السائق، إطاراتها عليها أشرطة بيضاء وسقف قماشي يُطلق المهتمون بالسيارات في فيلم دراغسترب غيرل عليه اسم راغتوب. سمعت صوت بيل تايّتس من خلفي: «ليست سيارة سيئة يا سيدي، سريعة جدًّا، أضمن لك ذلك شخصيًّا».

استدرت، فرأيتَه يمسح يديه بخرقه حمراء بدت ملطخة مثل يديه تمامًا.

قلت: «ثمة صدأ أسفل الأبواب».

هز كتفيه كأنه يقول ما باليد حيلة. «أجل، حسنًا، هذا المناخ. الأمر الأساسي هو أن المحرك بحالة ممتازة والإطارات شبه جديدة».

- ثماني أسطوانات؟

قال: «واي بلوك⁽¹⁾»، أو مأت كأني فهمت ما قاله. تابع: «اشتريتها من أرلين هادلي في دُرَم بعدما مات زوجها. إذا كان بيل هادلي يعرف شيئاً واحداً، فهو كيفية الاعتناء بالسيارات... لكنك لا تعرفهما لأنك لست من هذه المنطقة، أليس كذلك؟».

مددت له يدي: «بلى. من وسكونسن. جورج أمبرسون». هز رأسه مبتسماً ابتسامة طفيفة: «سررت بلقائك يا سيد أمبرسون، لكن لا أريد تلطيخك بالشحم. اعتبرني صافحتك. هل أنت مشترٍ أم متفرج؟».

قلت: «لا أدري بعد». لكنني قصدت المراوغة، إذ وجدتُ الصنلاينر أروع سيارة رأيته في حياتي. فتحت شفتي لأسأله عن معدل استهلاكها للوقود، ثم أدركت أنه سؤال يكاد أن يكون بلا معنى في عالمٍ يمكن للمرء أن يملأ خزان وقوده مقابل دولارين. سألتها عما إذا كانت ذات ناقل سرعة عادي.

- أوه نعم. عندما تنتقل إلى السرعة الثانية، عليك أن تنتبه لرجال الشرطة. تسير بسرعة جنونية. أتريد تجربة قيادتها؟
- لا أستطيع، طلبت سيارة أجرة للتو.
- ليست طريقة جيدة للتنقل. إذا اشتريت هذه السيارة، فسيمكنك العودة إلى وسكونسن ناعم البال ولن تحفل بالقطار أبداً.
- كم تطلب مقابلها؟ هذه غير مكتوب سعرها على الزجاج الأمامي.
- لا، حصلت عليها من عملية مقايضة قبل يومين.
- أخرج سجائره وتابع: «أعرضها بثلاثمئة وخمسين دولاراً، لكن سأساوم».

(1) Y-block من أنواع المحركات، أسطواناتها على شكل Y. (المترجم)

ضغطت على أسناني معًا لأمنع فكي من التدلّي، وقلت له إنني سأفكر بالعرض وإذا قررت شراءها فسأعود غدًا.

- يستحسن أن تأتي مبكرًا يا سيد أمبرسون، هذه السيارة لن تظل معروضة مدة طويلة.

أحسست بالراحة مجددًا. لدي نقود معدنية لا تقبلها الهواتف العامة، ومعاملات مصرفية يُنَجَزُ معظمها يدويًا، وهواتف تصدر أصواتًا غريبة في الأذن عند إدخال الأرقام، لكن بعض الأشياء لم تتغير.

9

كان سائق سيارة الأجرة رجلًا بدينًا يعتمر قبعة مهترئة عليها شارة مكتوب عليها سائق مُجاز. ما انفك يدخن سيجارة لاكي تلو الأخرى، ويشغل محطة دبليو جيه آيه بي على المذياع. استمعنا إلى أغنية شوغرتايم للأخوات مكغواير، وبيرد دوغ للإخوة إيفرلي، وبربل ببيل/إيتر لمخلوق اسمه شيب وولي. هذا الأخير تمنيت لو لم أسمع. بعد كل أغنيتين تغني ثلاث نساء بصوت غير متناغم: «فور-تيتين فور-تبي، دبليو جيه آيه بيبي... ذا بينغ جاب!». ومن الإعلانات عرفت أن متجر رومانوف يعلن عن موعد التخفيضات السنوية في نهاية الصيف، وسلسلة متاجر إف دبليو وولورث جلبت مجموعة جديدة من أطواق الهُولا، ويبيعونها بدولار و39 سنتًا.

قال السائق: «تلك الأشياء اللعينة لا فائدة منها سوى تعليم الأطفال كيفية تحريك أوراكهم». وفتح نافذة الجناح المثلثة لتمتص الرماد من نهاية سيجارته. كانت محاولته الوحيدة لبدء نقاش منذ تحرُّكنا من محل تايتس شيفرون إلى أن وصلنا إلى نُزل تاماراك.

أنزلت زجاج نافذتي لأهرب من دخان السجائر، وشاهدت عالمًا مختلفًا يمر جوارِي. الامتداد العمراني بين ليسبون فولز ولويستون لم

يكن موجودًا. وعدا عن بضع محطات وقود، ومطعم هاي-هات، وسينما الهواء الطلق (ثمة لوحة إعلانية تعلن عن عرض مزدوج لفيلم فيرتيغو وذا لونغ هوت سَمَر، كلاهما على شاشة عريضة وملونة) - كنا في ريف مين فحسب. رأيت أبقارًا أكثر مما رأيت بشرًا.

كان النُّزُل مشيدًا على مبعدة من الطريق السريع، تحيط به أشجار أرز ودردار ضخمة مهيبة. لم يكن مرآها كمشاهدة قطع ديناصورات، لكن قريبًا من ذلك. بينما حدثت إليها مبهورًا كان السيد مُجاز يشعل سيجارة أخرى: «هل تحتاج إلى مساعدة في حمل حقائبك يا سيدي؟». «لا، سأتدبر أمري». الأجرة على عداد سيارة الأجرة لم تكن ضخمة مهيبة كأشجار الدردار، لكن مع ذلك تحققت منها مرتين. أعطيت الرجل دولارين وطلبت منه أن يعيد إلي خمسين سنتًا. بدا راضيًا بذلك، إذ نال إكرامية كافية لشراء علبة سجائر لافي.

10

سَجَلْتُ وصولي (دون عوائق. النقود على الطاولة وغير مطلوب إثبات هوية)، ثم أخذت غفوة طويلة في غرفة يتمثل مكيف هوائها في مروحة مثبتة على إطار النافذة. استيقظت منتعشًا (أمرٌ جيد)، ثم استحال علي النوم في تلك الليلة (أمرٌ ليس جيدًا). كانت حركة السيارات شبه معدومة على الطريق السريع بعد غروب الشمس، والصمت كثيفًا إلى درجة مزعجة. التلفاز الموجود في الغرفة كان ماركة زينث بدا أن وزنه مئتا رطل، يقبع فوقه أذنأ أرنب، تستند إليها لافتة صغيرة مكتوب عليها: "اضبط هوائي الاستقبال يدويًا. لا تستخدم ورق القصدير. مع تحيات الإدارة".

كانت توجد ثلاث محطات، المحطة التابعة لـ إن بي سي ظلت مشوشة مهما عبثتُ بأذني الأرنب. ومحطة سي بي إس ظلت صورتها

تهتز، حاولت ضبطها بلا جدوى. أما أياه بي سي، فقد ظهرت صورتها واضحة، وكان يعرض عليها مسلسل *ذا لايف آند لجند أوف ويات إيرب*، بطولة هيو أوبراين، أطلق النار على بضعة خارجين على القانون، ثم ظهر إعلان لسجائر فايسروي. أوضح ستيف مكوين أن سجائر فايسروي لديها فلتر رجل مفكر ومذاق رجل مدخن، وبينما كان يشعل سيجارته، نهضت من الفراش وأطفأت التلفاز.

فلم أسمع صوتاً سوى صوت الجدادج.

نزعت ملابسى وأبقيت على سروالي القصير، واضجعت على الفراش، وحاولت أن أنام. استدعى عقلي أبي وأمي، في وقتي الراهن يبلغ أبي السادسة من عمره ويعيش في أوكلير. وأمي في الخامسة وتعيش في آيوا في بيت مزرعة سيحترق بعد ثلاثة أو أربعة أعوام، وعندئذ ستنتقل أسرتها إلى وسكونسن، وتقترب من تقاطع الحياتين اللتين سوف تأتيان بي إلى الوجود.

قلت لنفسى: أنا مجنون، مجنون تراوده هلاوس معقدة في مستشفى أمراض عقلية في مكانٍ ما. ربما سيكتب طبيبٌ ما عني في مجلة طب نفسى. بدلاً من "الرجل الذي حسب زوجته قبة⁽¹⁾"، سأكون "الرجل الذي حسب نفسه في عام 1958".

لكنني مررت يدي على قماش ملاء الفراش الخشن، الذي لم أكلبه بعد، وعرفت يقيناً أن كل شيء حقيقي. فكرت في لي هارفي أوزوالد، لكن أوزوالد ما زال من شواغل المستقبل ولم يكن يشغل بالي في غرفة النزل الشبيهة بمتحف هذا.

جلست على حافة السرير، وفتحت الحقيبة اليدوية، وأخرجت هاتفى الجوال، جهاز مسافر عبر الزمن عديم الفائدة هنا. ومع ذلك لم أستطع

(1) *The Man Who Mistook His Wife for a Hat* كتاب صادر عام 1985 من تأليف أوليفر ساكس.

مقاومة فتحه وضغط زر تشغيله. انبثقت عبارة لا توجد خدمة على الشاشة. بالطبع. ماذا كنت أتوقع؟ خمسة خطوط؟ صوتًا حزينًا يقول: *عد إلى الديار يا جيك*، قبل أن تسبب ضررًا لا يمكنك علاجه؟ فكرة سخيفة غير عقلانية. إذا سببتُ ضررًا، فبمقدوري علاجه، لأن كل رحلة تعيد الوضع إلى ما كان عليه في السابق. يمكن قول إنني وجدت السفر عبر الزمن يتضمن مفتاح أمان.

وجدت عزاءً في ذلك، لكن امتلاكي هاتفًا كهذا في عالمٍ يُعد فيه التلفاز الملون أكبر الابتكارات التقنية في مجال الأجهزة الإلكترونية لم يكن أمرًا مُعزّيًا إطلاقًا. لن أُشْنَق كساحرة إذا وُجد الهاتف معي، لكن ربما يعتقلني رجال الشرطة المحليون ويزجؤون بي في زنزانة إلى أن يصل بعض فتية جيه إدغار هوفر⁽¹⁾ من واشنطن ليستجوبوني.

وضعت الهاتف على السرير، ثم أخرجت جميع نقودي المعدنية من جيبي الأمامي الأيمن. وقسمتها إلى كومتين، القادمة من المستقبل وضعتها في أحد الظروف التي عثرت عليها في دُرج المكتب (مع نسخة من إنجيل جدعون وقائمة طعام هاي-هات). ثم ارتديت ملابسني، وأخذت مفتاحي، وغادرت الغرفة.

وجدت الجداجد أشد صخبًا بالخارج، ورأيت قمرًا غير مكتمل معلقًا في السماء، وبعيدًا عن وهجه بدت النجوم ساطعة وقريبة كما لم أرها قط. مرت شاحنة على الطريق رقم 196، ثم خيم الصمت. كنت في الريف، والريف نائم. ثم من بعيد أطلق قطار شحن صغيرًا فأحدث ثقبًا في الليل.

لم تكن توجد سوى سيارتين في الفناء، والوحدات التابعة لها مظلمة، وكذلك المكتب. شاعرًا بأنني مجرم سرت إلى الحقل الواقع خلف النزل،

(1) مؤسس وأول مدير لمكتب التحقيقات الفدرالي. (المترجم)

خشخت أعشاب طويلة محتكة ببنطالي الجينز، الذي من المفترض أن
أغيره إلى بنطال جديد ماركة بان-لون غداً.

كان يوجد سياج أسلاك شائكة محيط بنزل تاماراك، وخلفه بركة
صغيرة، يسميها القرويون خزّاناً. وعلى مقربة تنام نحو ست بقرات
في الليلة الدافئة، رفعت إحداها رأسها نحوي وأنا أنحني أسفل السياج
وأسير نحو الخزان، بعد ذلك فقدت اهتمامها وخفضت رأسها، ولم
ترفعه عندما أحدث هاتفي النوكيا صوتاً إثر سقوطه في البركة. أغلقت
الظرف وبداخلة نقودي المعدنية وقذفته خلف الهاتف. ثم عدت أدراجي،
وتوقفت خلف النزل لأتأكد من خلو الفناء، ووجدته خالياً.

دلفت إلى غرفتي، ونزعت ملابسني، وغططت في النوم فوراً.

الفصل السادس

1

سائق سيارة الأجرة المدخن الشَّره نفسه أقلَّني في الصباح التالي، وعندما أوصلني إلى تايٲس شيفرون، وجدت السيارة ذات السقف المتحرك رابضة في مكانها. توقعت هذا، ومع ذلك غمرني الارتياح. كنت أرتدي معطفًا رماديًا رياضيًا لا يميزه شيء اشتريته على عجاله من محل ماسون للملابس الرجالية، ومحفظتي الجديدة المصنوعة من جلد النعام قابضة بأمان في جيب المعطف الداخلي، وفيها خمسمئة دولار من نقود آل. جاء تايٲس إلي وأنا أنظر مليًا إلى السيارة الفورد، وكان يمسح يديه بما بدا لي الخرقه نفسها التي استعملها البارحة.

قلت: «فكرت، وقررت شراءها».

قال: «جيد». وبدأت عليه مسحة أسف: «لكنني فكرت أيضًا يا سيد أمبرسون، وأظنني لم أقل لك الحقيقة عندما قلت لك إن ثمة مجالًا للمساومة. أتعرف ما قالته زوجتي صباح اليوم ونحن نتناول فطيرة ولحم الخنزير؟ قالت: "بيل، ستكون مغفلًا إذا بعت تلك الصنلاينر مقابل أقل من ثلاثمئة وخمسين دولارًا". في الحقيقة قالت إنني كنت مغفلًا بتحديد سعر منخفض كذلك ابتداءً».

أومأت كأنني توقعت كل ما قاله، وقلت: «حسنًا».

بدا كأنه فوجئ. تابعت: «إليك ما يمكنني فعله يا سيد تايٲس: أكتب لك شيكًا بقيمة ثلاثمئة وخمسين دولارًا، وتسحبه من مصرف هومتاون

ترست، لك أن تتصل بهم وتتأكد. أو أعطيك ثلاثمئة دولار نقدًا من محفظتي الآن، وهكذا نقلل المعاملات الورقية. ما قولك؟».

ابتسم ابتسامة واسعة، كاشفًا عن أسنان ناصعة البياض. «أقول إنكم في وسكونسن تعرفون كيفية المساومة وعقد الصفقات. إذا جعلت المبلغ ثلاثمئة وعشرين، فسأضع لك ملصق تسجيل ولوحة مؤقتة مدة صلاحيتها أربعة عشر يومًا، ثم تمضي في طريقك».

- ثلاثمئة وعشرة.

قال تايِتس: «أوه لا تجعلني أتململ». لكنه لم يكن يتململ، بل كان مستمتعًا. «أضف خمسة دولارات ونكون قد اتفقنا».

مددت له يدي قائلاً: «ثلاثمئة وخمسة عشر دولارًا تناسبني».

قال: «مرحى!». وهذه المرة صافحني غير مكترث بالشحم، ثم أشار إلى كابينة المبيعات. اليوم كانت الحساء ذات تصفيقة ذيل الحصان تقرأ مجلة كونيڤدنشال. «ادفع للسيدة الشابة، يصادف أنها ابنتي. ستكتب المبايعة. عندما تنتهي عد إلي وسأضع لك الملصق، وسأملأ لك خزان الوقود أيضًا».

وبعد أربعين دقيقة، خلف عجلة قيادة الفورد ذات السقف المتحرك موديل 1954 التي صارت ملكي، كنت أتجه شمالًا نحو ديري. تعلمت القيادة بسيارة ذات ناقل عادي، لذا لم تكن مشكلة. لكن هذه كانت أول سيارة أقودها ذات ناقل حركة مدمج في عمود التوجيه، فكانت غريبة في البداية، لكن حالما اعتدتها (كما سيتعين علي اعتياد مفتاح التحكم في شدة الإضاءة بقدمي اليسرى)، أعجبتني. وقد كان بيل تايِتس محققًا بشأن السرعة الثانية، إذ انطلقت السيارة بسرعة. توقفت في أوغستا مدة كافية لإنزال السقف، وفي ووترفيل تناولت عشاءً مكوّنًا من رغيف لحم ممتاز كلّفني خمسة وتسعين سنتًا، ومعه فطيرة تفاح وآيس كريم. فبدا الفاترغر باهظ الثمن. دندنتُ مع سكايلاینرز وذا كوسترز وديل

فايكنغز، وذا إليفانتس. كانت الشمس دافئة، وتخلل النسيم شعري المقصوص حديثاً. وكان الطريق السريع (الملقب بـ "طريق ميل في الدقيقة السريع" بحسب اللوحات الإعلانة) خالياً لي وحدي تقريباً. بدا لي أنني تركت جميع الشكوك التي ساورتني في الليل تغوص في بركة مياه الأبقار مع هاتفي الجوال ونقودي المعدنية القادمة من المستقبل. راودني إحساس جميل.

إلى أن رأيت ديري.

2

ثمة خطبٌ يكتنف تلك البلدة، وأظنني أدركت هذا منذ البداية. سلكت الطريق رقم 7 عندما انتهى "طريق ميل في الساعة السريع" تدريجياً إلى طريق سيئ ذي مسارين، وبعد نحو ميلين شمال نيوبورت، وصلت إلى مُرتفعٍ فرأيت ديري جاثمة على الضفة الغربية من نهر كيندوسكيغ تحت سحابة من دخان عدد من مصانع النسيج يعلم عددها الرب وحده، كلها تعمل بطاقتها القصوى. يوجد شريان من الخضرة يمتد عبر مركز البلدة، بدا من بعيد كأنه ندبة. بدا أن البلدة المحيطة بذلك الحزام الأخضر المتعرج مكونة من مبان رمادية سخامية وسوداء تحت سماء تلطخت بلون أصفر كالبول بسبب الأشياء المنبعثة من المداخل الكثيرة.

قَدَت متجاوزاً عدة أكشاك بيع حيث بدا الناس القائمون على البيع (أو يقفون على جانب الطريق فاغرين أفواههم في أثناء مروري) أقرب إلى القرويين المتخلفين في فيلم ديليفرنس من كونهم مزارعين في ولاية مين. وعند تجاوزي آخر كشك، اسمه منتجات باورز، اندفع كلب مهجَّن ضخم من خلف عدة سلال طماطم وطاردني، محاولاً نهش إطارات الصنلاينر الخلفية ولعابه يسيل من شذقيه. بدا مثل بولدوغ

ممسوخ. وقبل أن يغيب عن بصري، رأيت امرأة هزيلة ترتدي ملابس عمل تقترب منه وتنهال عليه ضرباً بلوح خشب.

هذه هي البلدة التي ترعرع فيها هاري دنغ. كرهتها منذ البداية. ما من سبب وجيه، كرهتها فحسب. منطقة التسوق في وسط البلدة تقع عند سفح ثلاثة تلال شديدة الانحدار، بدت كحفرة، وتستثير رهاب الأماكن المغلقة. بدت سيّارتي الفورد الحمراء الكرزية أكثر شيء إشراقاً في الشارع، لون لافت للانتباه (ومُستهجّن، بحسب نظرات معظم الذين لفتت انتباههم) بين سيارات بليماوث السوداء والشفروليه البنية وشاحنات التوصيل المكسوة بالسخام. وفي وسط البلدة تمتد قناة مليئة بمياه سوداء حتى أعلى جدرانها الاستنادية الخرسانية المطلخة بالطحالب.

وجدت موقف صف في شارع القناة، وضعت خمسة سنتات في عداد الموقف فأتاح لي ساعة للتسوق. كنت قد نسيت شراء قبعة في ليسبون فولز، وبعدما مررت بواجهات متجرين أو ثلاثة رأيت متجراً اسمه "ديري للملابس والمستلزمات اليومية"، أفضل محل في وسط مين. استبعدت وجود منافسة قوية في هذا المجال.

كنت قد صففت السيارة أمام صيدلية، وتوقفت لأنظر إلى اللافتة المعلقة على نافذتها، بطريقة ما لخصت مشاعري تجاه ديـري -عدم الثقة المرير وإحساس العنف الذي قد ينفجر في أي لحظة- على نحو أفضل من أي شيء آخر، رغم أنني جئت لأمكث قرابة شهرين و(مع إمكانية استثناء بضعة أشخاص التقيتهم صدفة) لم يرُقني أي شيء. قرأت على اللافتة:

السرقة من المحل ليست "طيشاً" أو "عادة سيئة" أو "لهوًا"!

السرقة جريمة، وسوف نلاحقكم قضائياً!

نوربرت كين - المالك والمدير

والرجل النحيل الذي يضع نظارة ويرتدي رداءً أبيض وينظر إلي لا بد أنه السيد كين. تعايرته لم تقل: تفضل بالدخول أيها الغريب، انظر في أنحاء المحل واشتر شيئاً، أو تناول صودا بالآيس كريم. تلكما العينان القاسيتان والشففتان المائلتان إلى الأسفل قالتا: ابتعد، ما من شيء هنا لأمثالك. جزءٌ مني ظن أنني أخلق كل ما سبق، لكنني أدركت أنني محق في هواجسي. على سبيل التجربة رفعت يدي بإشارة تحية.

والرجل ذو الرداء الأبيض لم يرفع يده.

أدركت أن القناة التي رأيتهَا آنفاً تجري مباشرة أسفل وسط البلدة المنخسف الغريب هذا، وأنني أقف فوقها. استشعرت مياهًا خفية بقدميّ تجيش أسفل الرصيف. كان إحساسًا بغيضًا غامضًا، كما لو أن هذا الجزء الصغير من العالم قد صار رخوًا.

رأيت مانيكان لرجل يرتدي بدلة واقفًا في نافذة محل ديري للملابس والمستلزمات اليومية، ويضع نظارة أحادية العدسة على إحدى عينيه، ويحمل بيده راية مدرسية مثلية. قرأت على الـراية: فريق ديري تايفرز سيدبج بانغور رامز! رغم أنني من محبي روح التنافس بين المدارس، وجدت في ذلك شيئاً من المبالغة. سيهزمون بانغور رامز، بالطبع. لكن سيدبجونهم؟

قلت لنفسي: إنه مجرد تعبير مجازي. ودخلت المحل.

اقترب مني بائع يعلق شريط قياس حول عنقه، ملابسه أجمل بكثير من ملابسي، لكن مصابيح السقف المعتمدة جعلت بشرته تبدو صفراء. أحسست برغبة ملحة غريبة في سؤاله: أيمكنك أن تبيع لي قبعة قش صيفية جميلة، أم أغرب عن وجهك؟ وعندئذ ابتسم الرجل وسألني عن كيف يمكنه مساعدتي، فبدأ كل شيء طبيعيًا تقريبًا. كان لديه ما أطلبه، وامتلكته مقابل ثلاثة دولارات وسبعين سنتًا فقط.

قال: «مؤسفٌ أن أملك وقتًا قصيرًا لتعتمرها قبل تغَيُّر الطقس إلى البرودة».

اعتمرت القبعة وعدلتها أمام مرآة جوار نضد البيع. «ربما نحظى بصيف هندي طويل⁽¹⁾».

بلطف وبما يشبه الاعتذار أمال الرجل قبعتي إلى الجانب الآخر، بمقدار بوصتين أو أقل، لكنني لم أعد أبدو مثل قروي أخرق في زيارة إلى مدينة كبيرة، وبدوت مثل... المسافر عبر الزمن الأكثر أناقة في وسط مين. شكرته.

- على الرحب يا سيد...؟

- أمبرسون.

بسطت له يدي. كانت قبضته قصيرة ورخوة وعليها شيء من مسحوقٍ ما. كبحثُ رغبتني في مسح يدي على معطفي الرياضي بعدها.

- هل جئت إلى ديري لعملٍ ما؟

- نعم. هل أنت من البلدة؟

قال: «أقيم فيها طوال حياتي». وتنهَّد كأن ذلك عبء. خمنت ذلك، بناءً على انطباعي الأول. «ما مجال عملك يا سيد أمبرسون؟ إذا لم تمنع سؤالي».

قلت: «العقارات. لكن خطر لي، في أثناء وجودي هنا، أن أبحث عن صديق قديم خدمت معه في الجيش. اسمه دننغ، ولا أتذكر اسمه الأول، كنا نسميه سكيب». اختلقت أمر لقب سكيب، لكن صحيح أنني لم أكن أعرف الاسم الأول لوالد هاري دننغ. ذكر هاري أسماء أشقائه وشقيقته في كتابته، لكن ذا المطرقة ظل دومًا «والدي» و«أبي».

(1) فترة طقس دافئ جاف، تحدث أحيانًا في الخريف في نصف الكرة الشمالي.
(المترجم)

قال: «يؤسفني أنني لا أستطيع مساعدتك في هذا الأمر يا سيدي». عندئذ بدا غير مُبال. انتهى عمله معي، ورغم أن المتجر كان خاليًا من الزبائن الآخرين، فقد أراد رحيلي.

- حسنًا، ربما يمكنك مساعدتي في أمر آخر. ما هو أفضل فندق في البلدة؟

- ديري تاون هاوس. عُد إلى جادة كيندوسكيغ، وانعطف يمينًا، واصعد تل أب مايل إلى الشارع الرئيسي. ابحث عن مصابيح زينة قديمة.

- تل أب مايل؟

- نعم سيدي، هذا هو الاسم الذي نطلقه عليه. إذا لم ترغب في شيء آخر، فلدي أعمال أخرى.

عندما غادرت كان الضوء قد بدأ الانسحاب من السماء، الأمر الوحيد الذي أتذكره بجلاء عن الوقت الذي أمضيته في ديري في سبتمبر وأكتوبر عام 1958 هو أن المساء يبدو دومًا كأنه يحل مبكرًا.

بعد محل ديري للملابس والمستلزمات اليومية وجدت محل ماشن للأدوات الرياضية، وفيه عرض تخفيضات موسم الخريف، بالداخل رأيت رجلين يتفرجان على بنادق صيد، وبائعًا كبير السن يضع ربطة عنق رفيعة (تتماشى مع عنقه الرفيع) يتابعهما مشجعًا. والجانب الآخر من القناة تصطف بمحاذاته حانات معظم روادها من العمال، نوع الحانات الذي ينال فيها المرء جعة وكأسًا صغيرة من مشروب قوي مقابل خمسين سنتًا، وتُشغّل فيه موسيقى الكانتري ورعاة البقر دومًا. من أسمائها: مُعْتَزَل السعادة، وَمَنْهَل الأُماني (عرفت لاحقًا أن مرتاديها يسمونها "دلو الدماء")، والأَخوان، والبرمق الذهبي، والدولار الفضي الناعس.

خارج الحانة الأخيرة كان يقف أربعة من أصحاب الياقات الزرقاء، يستمتعون بهواء العصر ويحدقون إلى سيارتي ذات السقف المتحرك، ومعهم أقداح جعة وسجائر، وجوههم مظلمة أسفل قبعات عريضة من الصوف والقطن، وينتعلون أحذية عمل ضخمة ليست ذات ألوان محددة يسميها طلابي في عام 2011 براكلات الخراء، وثلاثة من الأربعة يرتدون حمالات لتثبيت بناطيلهم. نظروا إلي وجوههم خالية من التعابير، فتذكرت لوهلة الكلب الهجين الذي طارد سيارتي محاولاً نهش إطاراتها واللعب يسيل من شذقيه، ثم عبرت الشارع.

قلت: «سادتي، ماذا يقدمون في هذه الحانة؟».

مرت هنيهة لم يرد فيها أحد. وعندما ظننت أنهم لن يردُّوا أبداً، قال الذي لا يرتدي حمالات: «بَدْ وميك⁽¹⁾. ماذا عساهم أن يقدموا؟ هل أنت من خارج البلدة؟».

قلت: «وسكونسن».

تمتم أحدهم متهكماً: «هنيئاً لك».

وقال آخر: «عادةً ما لا يأتي السياح في هذا الوقت المتأخر من العام». «جئت إلى البلدة بغرض العمل، لكن رأيت أن أبحث عن صديق خدمة قديم في أثناء إقامتي هنا». لم يرد أحد على كلامي، إلّا إذا كان إلقاء أحدهم سيجارته على الرصيف وإطفائها بلعاب مع بلغم بحجم محارة صغيرة يمكن أن يُسمَّى ردّاً. ومع ذلك لم أراجع: «اسمه سكيب دننغ. هل يعرف أحدكم شخصاً اسم عائلته دننغ؟».

قال الذي بلا حمالات: «نجوم السماء أقرب لك».

- أستمحك عذراً، ماذا؟

(1) ماركتا جعة. (المترجم)

قلب عينيه في محجريهما وانعقدت زاويتا شفتيه، تعابير نفاذ الصبر التي تظهر على وجه المرء إزاء غباء شخص ميؤوس منه. وقال: «ديري مليئة بعائلات اسمها دننغ. راجع دليل الهاتف للعين». سار نحو باب الحانة، وتبعته عصابته. فتح عديم الحملات الباب لهم، ثم استدار إلي: «ماذا يوجد تحت غطاء تلك الفوردي؟ محرك بثمانى أسطوانات؟».

قلت: «واي بلوك». أملًا أن نبرة صوتي أوحى بأنني أعرف معنى ما قلته.

- بحالة جيدة؟

- ليست سيئة.

«إذن ربما يجدر بك أن تقودها إلى أعلى التل، لديهم مطاعم جيدة هناك. هذه الحانات لعمال المصانع الكادحين». ألقى "بلا حملات" عليّ نظرة تقييم باردة على نحو صرت أتوقعه في ديري، لكن لم أعتده قط. «سيحدقون إليك، وربما أكثر من ذلك، عندما يخرج عمال المناوبة الصباحية من مصنع ستريار آند بوتلير».

- شكرًا. هذا لطف منك.

استمرت نظرة التقييم الباردة، ثم قال: «إنك لا تعرف الكثير، أليس كذلك؟». ودخل الحانة.

سرت عائداً إلى سيارتي ذات السقف المتحرك. في ذلك الشارع الرمادي، مع رائحة دخان المصانع في الهواء والعصر في الرمق الأخير، بدا وسط ديري أكثر جاذبية قليلاً من موسم ميتة على مقعد كنيسة. ركبت السيارة، وضغطت القابض، وشغلت المحرك، اعترتني رغبة قوية في القيادة بعيداً، لأعود إلى ليسبون فولز، وأصعد عبر جحر الأرنب، وأقول لآل تمبلتون أن يبحث عن فتى آخر. إلا أنه لن يستطيع، أليس كذلك؟ خارت قواه وباتت أيامه معدودة. كنت، كما يقول مَثَل من نيو إنغلاند، آخر رصاصة في بندقية الصيد.

قُدت متجهاً شمالاً في الشارع الرئيسي، ثم رأيت مصابيح الزينة القديمة (أضيئت حالماً لمحتّها)، وتوقفتُ في مساحة الدوران أمام فندق ديرى تاون هاوس. وبعد خمس دقائق، سجلت وصولي، وبدأت إقامتي في ديرى.

3

وبعدما انتهيت من ترتيب مقتنياتي الجديدة (وضعت بعض النقود الورقية المتبقية في محفظتي، ودستت الباقي في بطانة حقيبة ملابسي)، شعرت بالجوع، لكن قبل نزولي لتناول العشاء، تصفحت دليل الهاتف. انقبض صدري لما رأيته. السيد "بلا حمالات" ربما لم يكن ودوداً، لكنه كان محقاً بشأن وفرة العائلات التي تحمل اسم دننغ في ديرى والقرى الثلاث أو الأربع المحيطة بها المُدرجة أيضاً في دليل الهاتف. وجدت صفحة كاملة مليئة تقريباً بأسماء دننغ. وهذا ليس أمراً مفاجئاً، لأن البلدات الصغيرة تنتشر فيها بعض الأسماء انتشار الهندياء البرية على مرجة في يونيو. خلال سنتاتي الخمس الأخيرة مدرّساً في ثانوية ليسبون، لا بد أنني مر علي قرابة عشرين طالباً أسماء عائلاتهم ستاربيرد ولمكي، بعضهم أشقاء، ومعظمهم أقارب تتفاوت درجات قرابتهم. يتزوجون من بعضهم وينجبون المزيد.

قبل ارتحالي إلى الماضي كان يجدر بي أن أستقطع وقتاً لأتصل بهاري دننغ وأسأله عن اسم والده الأول، لكان أمراً بسيطاً. لفعلت ذلك بالتأكيد، لو لم أكن مشدوهاً مذهولاً بما أراني آل إياه، وما طلب مني فعله. قلت لنفسى: لكن ما مدى صعوبة المهمة؟ ليس بالضرورة أن يكون المرء شيرلوك هولمز حتى يجد أسرة أسماء أطفالها تروي وآرثر (لقبه توغا) وإيلين وهاري.

تحسنت معنوياتي إثر الفكرة، ونزلت إلى مطعم الفندق وطلبت عشاءً بحرياً، فجاءني محار وكركند بحجم محرك زورق خارجي تقريباً. تخلّيت عن التحلية مفضلاً عليها كوب جعة في الحانة. في الروايات البوليسية التي قرأتها، غالباً ما يكون السُّقاة مصادر معلومات ممتازين. لكن بالطبع إذا وجدتُ ساقِي فندق تاون هاوس مثل بقية الناس الذين قابلتهم حتى الآن في هذه البلدة الكالحة، فلن أتقدم كثيراً في مساعي.

لم أجده مثلهم. وجدتُ الرجل الذي ترك واجب تلميع الكؤوس ليخدمني شاباً ذا بنية قوية ممتلئة، ووجه بشوش مستدير أسفل قصة شعر أقرب إلى المربع. «ماذا أقدم لك يا صديقي».

راقتني كلمة صديقي، فرددت له الابتسامة مبتهجاً وقلت: «ميلر لايت⁽¹⁾».

بدا التشوش على ملامحه، ثم قال: «لم أسمع بهذا المشروب قط، لكن لدي جعة هاي لايف».

بالطبع لم يسمع بميلر لايت، إذ لم تأتِ إلى الوجود بعد. «حسناً، لا بأس بها. أظنني نسيت للحظة أنني على الساحل الشرقي».

«من أين أنت؟». استخدم فتّاحة قنّان ليفتح قنينة، ووضع كأساً ضبابية من شدة برودتها أمامي.

«وسكونسن، لكنني سأمكث هنا لمدة». خفضت صوتي رغم أننا وحدنا، بدا لي أنني قد أدفعه للثقة بي هكذا: «عمل متعلق بعقارات، أريد أن أبحث قليلاً بتأن».

أوماً باحترام وصب لي الجعة قبل أن أصبها بنفسي. «بالتوفيق. الرب يعلم كثرة العقارات المعروضة للبيع في هذه المنطقة، معظمها

(1) ماركة جعة خفيفة ذات سرعات حرارية أقل ومذاق أخف من الجعة العادية. (المترجم)

بسعر زهيد. أنا عن نفسي سأغادر البلدة، في نهاية الشهر، سأذهب إلى مكان أجواؤه أقل توترًا».

قلت: «بالفعل البلدة لا تبدو مُرحَّبة، لكنني ظننت أنه أمر متعلق باليانكي فحسب. الناس ودودون في وسكونسن. ولأثبت لك هذا، سأشتري لك جعة».

- لا أشرب الكحول أبدًا في أثناء العمل، لكن يمكنني تناول كولا.

- تفضل.

قال: «شكرًا جزيلاً. من اللطيف أن أحظى برجل نبيل مثلك في ليلة قليلة الزبائن». شاهدته وهو يعد الكولا بضخ محلول في كأس، وإضافة مياه غازية، ثم تحريكها. أخذ رشفه ولعق شفتيه. «أحبها حلوة».

نظرًا إلى كَرْشه النامية، لم يفاجئني قوله.

قال: «حديثك عن تحفُّظ اليانكي وفظاظتهم مجرد هراء على أي حال. نشأت في كينت، وسكانها ودودون جدًّا. عندما يأتي السياح من بوسطن ومين إلينا هناك، نكاد أن نرحب بهم بالقبلات. دخلت مدرسة تأهيل الندل هناك، ثم اتجهت جنوبًا بحثًا عن حظي. وهذه البلدة بدت لي مكانًا جيدًا للبدء، والأجر ليس سيئًا، لكن...» تلفَّت، فلم ير أحدًا، ومع ذلك خفض صوته هو أيضًا: «أتريد الحقيقة؟ هذه البلدة نتنة».

- أعرف ما تعنيه. المصانع كثيرة هنا.

- بل أكثر من ذلك بكثير. انظر إلى ما حولك. ماذا ترى؟

نظرت، ورأيت شخصًا بدا كرجل مبيعات جالسًا في الركن، ويشرب ويسكي. ولا أحد غيره. قلت: «ليس الكثير».

قال: «هذا هو الحال طوال الأسبوع. الأجر جيد لأنني لا أنال إكراميات. الحانات في وسط البلدة مزدهرة، ونحن يأتي إلينا بضعة أناس في ليالي الجمعة والسبت فقط. ميسورو الحال يعاقرون خمورهم

في منازلهم، على ما أظن». خفض صوته حتى كاد أن يهمس: «مررنا بصيف سيئ هنا يا صديقي. السكان المحليون يتكتمون على الأمر بقدر مستطاعهم، حتى الصحف لا تنشر عن الموضوع كثيرًا، لكن ثمة أحداثًا شنيعة وقعت. جرائم قتل. ست على الأقل. أطفال. عُثر على أحدهم في البارنز، كان اسمه باتريك هوكستيتير، عُثر على جثته متحللة تمامًا».

- البارنز؟

- الشريط السَّبْخي الممتد عبر وسط البلدة مباشرة، على الأرجح رأيتَه عند هبوط طائرتك.

جئت بالسيارة، لكنني عرفت ما يتحدث عنه.

اتسعت عينا الساقى وتابع: «إنه ليس العقار الذي تسعى خلفه، هل هو؟».

قلت له: «لا يجوز لي التصريح. إذا انتشر الخبر، فسأبحث عن عمل جديد».

قال: «مفهوم، مفهوم». شرب نصف الكولا، ثم كبح تجشؤه بظاهر يده. «لكن آمل أنه هو. يجب أن يرصِّفوا ذلك المكان اللعين. ليس فيه شيء سوى المياه النتنة والبعوض. ستُسدي هذه البلدة معروفًا، وتحسَّن قليلًا».

سألته: «هل عُثر على أطفال آخرين هناك؟». وجود قاتل أطفال متسلسل من شأنه تفسير الانقباض الذي أحس به منذ دخولي البلدة.

- لم أسمع بآخرين عُثر عليهم، لكن الناس يقولون إن ذلك هو المكان الذي ذهب إليه بعض الأطفال الذين اختفوا، لأنه المكان الذي توجد فيه جميع محطات ضخ مياه المجاري الكبيرة. سمعت أناسًا يقولون إنه توجد أنابيب مياه مجارٍ كثيرة جدًّا أسفل ديري، معظمها رُكِّبت في فترة الكساد العظيم، ولا أحد يعرف أماكنها كلها. وأنت تعرف طبائع الأطفال بالطبع.

- يحبُّون المغامرة.

أوماً مشدداً تأكيده: «تماماً. هناك من يقول إن القاتل متشردٌ ما انتقل إلى البلدة، وآخرون يقولون إنه من السكان المحليين متنكر على هيئة مهرج. عُثر على الضحية الأولى، في العام الماضي قبل مجيئي، في تقاطع شارعِي ويتشام وجاكسون، منزوعة الذراع. كان اسمه دينبروه، جورج دينبروه. يا للمسكين». ألقى علي نظرة ذات مغزى. «عُثر عليه جوار إحدى فتحات المجاري تلك، التي تُضخ المياه عبرها إلى البارنز».

- رباه.

- أجل.

- لاحظت أنك تستخدم صيغة الماضي في حديثك عن كل هذه الأحداث.

هممت بشرح ما قصدته بكلامي، لكن هذا الشاب على ما يبدو كان يصغي بانتباه في دروس اللغة الإنجليزية بقدر ما كان يصغي في مدرسة السقاية. قال: «يبدو أن الجرائم توقفت. أمسك الخشب». نقر بمفاصل أصابعه على سطح المشرب، وتابع: «أياً كان الفاعل، ربما حزم حقائبه ورحل. أو ربما انتحر ابن العاهرة، أحياناً ينتحرون. هكذا أفضل. لكن من كان يرتدي زي مهرج وقتل كوركوران الصغير لم يكن انتحارياً معتوهاً. المهرج الذي ارتكب جريمة القتل تلك كان والد الصبي نفسه، إذا أمكنك تصديق هذا».

كان كلامه تفسيراً كافياً لشعوري بأن القدر جلبني إلى هنا وليس الصدفة. أخذتُ رشفة من جعتي ببطء وقلت: «أحقاً؟».

- بالتأكيد. كان الصبي اسمه دورسي كوركوران، لم يتجاوز الرابعة. أتعرف ما فعله والده اللعين به؟ ضربه حتى الموت بمطرقة ضخمة.

مطرقة. فعلها بمطرقة. أبقيت على وجهي تعابير الاهتمام المعتدل، أو على الأقل هذا ما كنت آمله، لكن سرت قشعريرة عنيفة على ذراعي. وقلت: «هذا فضيلع».

«أجل، وليس الـ...» قطع كلامه ونظر فوق كتفي. «أتريد كأساً أخرى يا سيدي؟».

كان يتحدث مع رجل الأعمال. قال: «لقد اكتفيت». وناول الساقى دولارًا وأردف: «سأخذ إلى النوم، وغداً سأغادر هذا المكان القميء. أمل أنهم يعرفون كيفية طلب المعدات في ووترفيل وأوغستا، لأنهم لا يعرفون هنا بالتأكيد. احتفظ بالباقي يا بُني، اشتر لنفسك مشروب ديسوتو» ثم سار إلى الخارج بخطى متثاقلة مطأطئاً رأسه.

شيع الساقى الزبون بنظرات حزينة وقال: «أرأيت؟ هذا أفضل مثال لسير عملنا في هذه الواحة، كأس واحدة، ثم إلى الفراش رأساً، وفي اليوم التالي الوداع. إذا استمر هذا الحال، فسيصبح هذا المكان مدينة أشباح». اعتدل في وقفته وحاول جعل كتفيه مستقيمتين، لكنها كانت مهمة مستحيلة، لأنهما متكورتان كبقية جسده. «لكن من يكثرث؟ بحلول أكتوبر سأكون قد رحلت. رافقتك السلامة، إلى أن نلتقي مرة أخرى».

- والد ذلك الصبي، دورسي... هل قتل أيًا من الصبية الآخرين؟

- لا، تمكن من إثبات وجوده في مكان آخر وقت الجريمة. أظنه زوج أم الصبي. اسمه ديكي ماكلين. جوني كيسون الجالس في مكتب الاستقبال، على الأرجح هو من سجّل دخولك الفندق، أخبرني بأن الرجل كان يأتي إلى هنا ويشرب من حين إلى آخر، إلى أن مُنع من الدخول لأنه حاول التودّد إلى مضيعة طيران وعندما صدّته ثارت ثائرته. بعد ذلك أظنه صار يشرب في حانة البرمق أو الدلو. في تلك الأماكن يسمحون بدخول كل من هب ودب.

مال مقترباً مني حتى شممت رائحة مرطب ما بعد الحلاقة على وجهه، وتابع: «أتريد معرفة ما هو أسوأ؟».

لم أكن أرغب، لكن كان لا بد أن أعرف، فأومأت.

- ثمة أخ أكبر سنًا في تلك الأسرة المنكوبة، اسمه إيدي، اختفى في يونيو الماضي، دون أي أثر أو تواصل. بعض الناس يظنون أنه هرب ليبتعد عن ماكلين، لكن كل من لديه ذرة عقل يعرف أن الصبي كان ليظهر في بورتلاند أو كاسل روك أو بورتسموث في حال هروبه. يستحيل أن يظل صبي في العاشرة متوارياً عن الأنظار لمدة طويلة. خذها مني، إيدي كوركوران قُتل بمطرقة مثل أخيه، لكن ماكلين لن يعترف بمسؤوليته.

ابتسم ابتسامة مشرقة مفاجئة كادت أن تجعل وجهه المستدير وسميًا، وتابع: «هل أقنعتك بالعدول عن شراء عقار في ديري يا سيدي؟». قلت: «هذا ليس قرارى». عندئذ كنت ساهمًا شاردًا بأفكارى. بدا لي، لست متأكدًا، أنني سمعت أو قرأت عن سلسلة جرائم قتل أطفال في هذا الجزء من ولاية مين، أو ربما شاهدت خبرًا عنها على التلفاز بنصف انتباه والنصف الثانى مشغول بأصوات خطوات زوجتي وهي تمشي -أو تترنح- داخلةً إلى المنزل بعد ليلة فتيات. أجل، هذا ما بدا لي. لكن الأمر الوحيد الذى أتذكره على وجه التأكيد عن ديري هو أنها ستعرض لفيضان في منتصف الثمانينيات يدمر نصف البلدة.

- ليس قرارك؟

- أنا مجرد وسيط.

- حسنًا، حظًا موفقًا. هذه البلدة ليست سيئة كما كانت قبل مدة، في يوليو الماضي كان الناس متزمتين للغاية، لكن ما زال أمامها وقت طويل حتى تتعافى. أنا رجل ودود، وأحب الودودين. سأغادر.

قلت: «حظًا موفقًا لك أيضًا». ووضعت دولارين على المَشْرَب.

- رباه! سيدي، هذا كثير جدًّا!
- دائماً ما أدفع مبلغًا إضافيًا مقابل المحادثات الجيدة.
- في الحقيقة كان المبلغ الإضافي مقابل وجهه الودود، المحادثة كانت مُقْلِقَة.
- ابتسم قائلاً: «حسنًا، شكرًا!». ثم مد يده. «لم أعرفك بنفسي. فريد تومي».
- سررت بلقائك يا فريد. أنا جورج أمبرسون.
- كانت قبضته جيدة، خالية من أي مساحيق.
- أتريد سماع نصيحة مني؟
- بالطبع.
- في أثناء وجودك في البلدة احذر الحديث مع الأطفال. بعد أحداث الصيف الماضي كل رجل غريب يتحدث مع الأطفال يعرّض نفسه لمُساءلة من الشرطة، أو للضرب، هذا ليس مستبعدًا.
- حتى دون بدلة المهرجين؟
- قال: «هذا ما يميز التنكرُ بارتداء زيٍّ ما، أليس كذلك؟». تلاشت ابتسامته، وبدا شاحبًا متجهّمًا، أي مثل جميع الناس في ديري. «عندما ترتدي بدلة مهرج وتضع أنفًا مطاطيًا، لا أحد يعرف ما أنت عليه من الداخل».

4

فكرت في ذلك والمصعد قديم الطراز يصعد مصدرًا صريرًا إلى الطابق الثالث. كان صحيحًا. وإذا كان كل ما قاله فريد تومي صحيحًا أيضًا، فهل سيتفاجأ أي أحد إذا انهال والد آخر بمطرقة على أفراد أسرته؟ استبعدت ذلك. توقعت أن الناس سيقولون إن هذا هو المعتاد في ديري. وربما يكونون محقّين.

وفي أثناء دخولي غرفتي خطرت لي فكرة مروعة: فلنفترض أنني أحدثت تغييرًا في الأسابيع السبعة القادمة، وترتبَّ على التغيير مقتل هاري أيضًا على يد والده، بدلًا من أن ينجو بإعاقه جسدية، وعقلية إلى حدٍّ ما.

قلت لنفسِي: ذلك لن يحدث. لن أسمح بحدوثه. مثلما قالت هيلاري كلينتون عام 2008، جئتُ لأفوز. إلا أنها خسرت بالطبع.

5

تناولت إفطار الصباح التالي في مطعم ريفرفيو بالفندق، وقد وجدته خاليًا ليس فيه أحد سوى رجل المبيعات الذي رأيته في الليلة السابقة، كان مستغرقًا في قراءة الصحيفة المحلية، ثم تركها على الطاولة، فأخذتها بسرعة، لم أهتم بالصفحة الأمامية، التي كانت مخصصة للصراع المحتدم في الفلبين (لكنني تساءلت لوهلة عما إذا كان لي أوزوالد هناك). أردت الاطلاع على قسم الأخبار المحلية. في عام 2011 كنت من قراء صحيفة صن جورنال التي تصدر في لويسنتون، القسم الثاني من صفحتها الأخيرة دائمًا ما يكون عنوانه "أحداث مدرسية"، وفيه يرى الآباء الفخورون أسماء أبنائهم مطبوعة إذا فازوا بجائزة، أو ذهبوا في رحلة مدرسية، أو شاركوا في مشروع تنظيف مجتمعي. رأيت أنه إذا اشتملت صحيفة ديربي ديلي نيوز على قسم كذلك، فليس من المستبعد أن أعثر على اسم أحد أبناء دننغ.

لكن الصفحة الأخيرة اقتصرت على أخبار الوفيات.

انتقلت إلى صفحة الرياضة، وقرأت عن مباراة كرة القدم المهمة القادمة: ديربي تايفرز في مواجهة بانغور رامز. تروي دننغ في الخامسة عشرة عندئذٍ، بحسب قصة عامل النظافة، وأي فتى يبلغ الخامسة عشرة

يمكن أن يكون جزءًا من الفريق، لكن على الأرجح لن يشارك في المباراة من بدايتها.

لم أجد اسمه، وقرأت كل كلمة في قصة أقل أهمية عن أشبال فريق كرة القدم (ذا تايفر كَبز)، لكنني لم أعثر على اسم آرثر "توغا" دننغ. دفعت ثمن إفطاري، وعُدت إلى غرفتي متأبطًا الصحيفة، وجال بخاطري أنني أخفقت في دور المحقق. وبعدها أحصيت في دليل الهاتف عدد الأشخاص الذين يحملون اسم دننغ (ستة وتسعون)، خطر لي أمر آخر: صرتُ معاقًا، وربما مشلولًا بسبب مجتمع الإنترنت واسع الانتشار الذي صرتُ أعتمد عليه حتى صار من المُسلِّمات لدي. ما مدى الصعوبة التي كانت لتواجهني عام 2011 في تحديد مكان أسرة دننغ المطلوبة؟ ببساطة كنت سأدخل توغا دننغ وديري في محرك البحث المفضل لدي، وعلى الأرجح لعثرت على مُرادِي، بمجرد أن أضغط على مفتاح الإدخال وأترك غوغل، ذلك الأخ الأكبر في القرن الحادي والعشرين، يتولى باقي المهمة.

في ديري عام 1958، أحدث الحواسيب حجمها أقرب إلى وحدات سكنية صغيرة. ولم تساعدني الصحيفة المحلية، فما الخيارات المتاحة لي؟ تذكرت بروفيسور علم اجتماع دَرَسني في الجامعة، عجوز ساخر، كان يقول: عندما تفشل كل الوسائل، استسلم واذهب إلى المكتبة. فذهبت.

6

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، شاعرًا بخيبة أمل (على الأقل في الوقت الراهن)، سرت ببطء صاعدًا تل أب مايل، وتوقفت هنيهة عند تقاطع شارعي جاكسون وويتشام، لأنظر إلى مصرف مياه الصرف الصحي حيث فقد الصبي الصغير المدعو جورج دنبروه ذراعه وحياته

(بحسب ما قاله فريد تومي). وصلت إلى قمة التل مرهقًا لاهثًا. لم أكن ضعيف البنية، إنما بسبب نتانة دخان المصانع.

كنت محببًا وخائفًا قليلًا. صحيح أنني ما زلت لدي مُتَّسع من الوقت للعثور على أسرة دننغ المطلوبة، وأنني كنت واثقًا من قدرتي، إذا تطلب الأمر مهاتفة كل شخص يحمل اسم دننغ في دليل الهاتف، لفعلت، حتى إذا خاطرت بإثارة شكوك والدة هاري المتقلَّب - لكنني بدأت أستشعر ما أستشعره آل: شيء يضع العوائق في طريقي.

سرت بمحاذاة شارع كانساس، مستغرقًا في أفكارٍ إلى درجة أنني لم أدرك إلا متأخرًا عدم وجود منازل إلى يميني، ووجدت الأرض قد انخفضت عميقًا نحو مساحة الأرض السبخية التي سمّاها تومي بالبارنز، ولا يفصل الرصيف عن الهاوية سوى سياج أبيض متضعع، أمسكت به، وحدقت إلى النباتات العشوائية بالأسفل، رأيت ومضات مياه راكدة معتكرة، وعيدان بوص طويلة كأنها تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، وأجمات عُلِّق متشابكة. ورأيت أيضًا اللبلاب السام، وقمامة، وبقعة يتخذها المشردون مخيمًا من حين إلى آخر. وعلى الأرجح توجد مسارات لا يعرفها سوى بعض الصبية المحليين، مُحبي المغامرات منهم.

ظلمت واقفًا أنظر دون أن أرى شيئًا محددًا، وبالكاد سمعت صوت موسيقى قادمًا من بعيد، ميّزت صوت أبواق فيها. ثم خطر لي أنني لم أنجز شيئًا يُذكر صباح اليوم. كان آل قد قال لي: تغيير الماضي ممكن، لكن التغيير ليس سهلًا كما قد تظن.

ما تلك الموسيقى؟ بدت مَرِحَة، ذات إيقاع راقص. ذكّرني بكرستي، في أيام ارتباطنا المبكرة، عندما كنت ولهانًا بها. عندما كنا ولهانين ببعضنا. باه - داه - داه... باه - داه - داه - داه - داه... مقطوعة لغلين ميلر؟ ربما.

كنت قد ذهبت إلى المكتبة أملًا أن ألقى نظرة على سجلات التعداد السكاني. أُجِري آخر إحصاء قومي قبل ثماني سنوات، عام 1950، وكان لا بد أن يُظهر ثلاثة من أبناء دننغ الأربعة: تروي وأرثر وهارولد. إيلين وحدها، التي ستكون في السابعة عند وقوع جرائم القتل، لم تكن موجودة عند إجراء الإحصاء عام 1950. ولا بد من وجود عنوان. صحيح أن الأسرة ربما تكون قد انتقلت خلال السنوات الثماني، لكن لا بد أن يخبرني أحد الجيران بالمكان الذي ذهبوا إليه. البلدة صغيرة.

إلا أنني لم أجد سجلات التعداد السكاني، أخبرتني أمينة المكتبة، وهي امرأة لطيفة اسمها السيدة ستاريت، بأن السجلات، حسب رأيها، مكانها المكتبة، لكن مجلس المدينة قرر لسبب ما أن توضع في مقر البلدية. قالت إن السجلات نُقلت إلى هناك عام 1954.

قلت لها مبتسمًا: «هذا لا يبدو جيدًا. تعرفين المقولة الشائعة... لا يمكنك مواجهة البلدية».

لم ترد السيدة ستاريت الابتسامة. كانت مُجبة للمساعدة، وظريفة، لكن لديها التحفظ نفسه مثل جميع الذين قابلتهم في هذا المكان الغريب، وفريد تومي هو الاستثناء الذي يثبت القاعدة. قالت: «لا تكن سخيًّا يا سيد أمبرسون. لا خصوصية في سجلات سكان الولايات المتحدة. اذهب مباشرة إلى مقر البلدية وقل للموظفة إن ريجينا ستاريت أرسلتك، اسمها ماريسا غواي، ستساعدك. لكنهم على الأرجح يحتفظون بالسجلات في القبو، حيث ينبغي لهم ألا يفعلوا، لأنه رطب، ولن يفاجئني وجود فئران هناك. إذا واجهتك متاعب، أي متاعب، فعُد وقابلني».

ذهبت إلى مقر البلدية، ورأيت ملصقًا في ردهة المدخل مكتوبًا عليه: أيها الآباء، ذكروا أطفالكم بالآلة يتحدثوا مع الغرباء وأن يلعبوا دومًا مع أصدقائهم. كان عدة أشخاص مصطفىين أمام عدة نوافذ (معظمهم يدخنون، بالطبع). حيّتني ماريسا غواي بابتسامة حَرَج. كانت ستاريت

قد اتصلت بها سلفًا لتخبرها بأمرى، وارتاعت كما ينبغي لها عندما أخبرتها الأنسة غواي بما أخبرتني به الآن: سجلات تعداد 1950 لم يُعد لها وجود، وكذلك معظم الوثائق التي كان مخزنة في قبو مقر البلدية.

قالت: «هطلت أمطار فظيعة العام الماضي، استمرت أسبوعًا كاملاً، فاضت القناة، وكل شيء هناك في مُنخفض البلدة - هذا هو الاسم الذي يطلقه كبار السن على مركز البلدة يا سيد أمبرسون - كل شيء في منخفض البلدة غرق. بدا قبونا كالقناة العظيمة في البندقية لقرابة شهر. ستاريت كانت محقة، تلك السجلات ما كان ينبغي نقلها أبداً، ويبدو أن لا أحد يعرف مَنْ صرَّح بنقلها أو لماذا. إنني آسفة جداً».

كان من المستحيل ألا أحس بما أحس آل به وهو يحاول إنقاذ كارولين بولين: أنه بداخل سجنٍ ما ذي جدران مطاطية. هل يجدر بي أن أتسكع حول المدارس، وأعوّل على احتمال أن ألمح صبيًا يشبه عامل النظافة الذي يناهز الستين وتقاعد للتو؟ أو أبحث عن فتاة في السابعة تُضحك زملاءها حتى تكاد أن تنشق بطونهم أو أنتظر سماع صبي يزعم: مهلاً يا توغا! انتظرنى؟

صحيح. قادمٌ جديد يتسكع حول المدارس في بلدةٍ أول ما يراه المرء في مقر بلديتها هو ملصق يحذر الآباء من خطر الغرباء. سأكون كمن يسعى إلى حثفه بظلفه.

أمرٌ واحد كان مؤكداً، وهو أن علي مغادرة فندق ديري تاون هاوس. بأسعار 1958 بمقدوري تحمّل نفقات الإقامة هناك لأسابيع، لكن هذا ربما يثير الشكوك. قررت أن أبحث في الإعلانات المُبَوَّبة عن غرفة يمكنني استئجارها بمبلغ شهري. استدرت عائدًا نحو منخفض البلدة، ثم توقفت.

باه - داه - داه... باه - داه - دا - دي - دَم...

غلين ميلر. أجل. مقطوعة "إن ذا مود"، لحنٌ لدي سبب يجعلني أعرفه جيداً. سرت نحو مصدر الموسيقى وقد تملكني الفضول.

كانت توجد منطقة نزعات صغيرة عند نهاية السياج المتضعع بين رصيف شارع كانساس وبين حافة البارنز، فيها شؤاية حجرية وطاولتان ينتصب بينهما برميل نفايات صدئ، وعلى إحدى الطاولتين فونوغراف محمول، تدور فيها أسطوانة سوداء كبيرة.

وعلى العشب فتى نحيل طويل يضع نظارة خضعت لصيانة بشريط لاصق، يرقص مع فتاة صهباء حسناء. يشبهان طلاب السنة الأولى المراهقين في ثانوية ليسبون، لكنهما كانا يرقصان برشاقة البالغين، رقصة السوينغ، وليس الجيتربغ. شدني مرآهما، لكنني كنت أيضًا... ماذا؟ خائفًا؟ قليلًا، ربما. كنت خائفًا معظم الوقت الذي قضيته في ديري. لكن اعتراني إحساس آخر أيضًا، إحساس أعمق، رهبة، كأنني لامست طرف إدراك هائل، أو اختلست نظرة (عبر منظار ضبابي) إلى آليات عمل الوجود نفسه.

لأنني قابلت كرستي في صف لتعليم رقصة السوينغ في لويستون، وهذا اللحن كان أحد الألحان التي تدربنا عليها. ولاحقًا، في أفضل أعوام علاقتنا، قبل ستة أشهر من الزواج وبعده ستة أشهر، رقصنا في مسابقات، ونلنا جائزة المركز الرابع (المعروفة أيضًا بجائزة «شرف المشاركة»، بحسب ما قالته كرستي) في مسابقة لرقص السوينغ في نيو إنغلاند. كان لحننا مزيجًا راقصًا بطيئًا قليلًا لأغنية بوغي شوز لفرقة كيه سي آند ذا صنشاين.

قلت لنفسي وأنا أشاهدهما: هذه ليست مصادفة. كان الفتى يرتدي بنطال جينز وقميصًا ذا ياقة مستديرة، والفتاة ترتدي بلوزة بيضاء يتدلى ذيلها فوق بنطال كابري أحمر باهت، مع جوربين قصيرين وتنورة بتصميم قديم على هيئة كلب البودل، وشعرها الرائع مثبت إلى

الخلف على هيئة ذيل الحصان كما كانت كرسيتي تفعل عندما نرقص في المسابقات.

هذه لا يمكن أن تكون مصادفة.

كانا يؤديان إحدى تنويعات الليندي التي أعرفها باسم هِلزابوبِنغ، وهي يفترض أن تكون رقصة سريعة جامحة، إذا كان لدى الراقصين الرشاقة واللياقة البدنية الكافية لتأديتها، لكنهما كانا يرقصانهما ببطء لأنهما ما زالا يتعلمان خطواتها. أمكنني توقُّع كل الخطوات. كنت أعرفها كلها، رغم أنني لم أؤدِّ أيًّا منها منذ خمس سنوات أو أكثر. رأيتهما يقتربان من بعضهما، وأيديهما متشابكة، ينخفض الفتى قليلاً ويركل بقدمه اليسرى وهي تفعل مثله في الوقت نفسه، كلاهما يلوي جذعه من الخصر حتى يبدوا كأنهما يتحركان في الاتجاه المعاكس. ثم يتباعدان، وأيديهما ما تزال متشابكة، ثم تستدير الفتاة، إلى اليسار أولاً ثم إلى اليمين...

لكنهما أخطأ الاستدارة إلى الاتجاه المعاكس، فسقطت الفتاة على العشب، وقالت: «رباه يا ريتشي، تفسد هذا الجزء دومًا! آه، إنك ميؤوس منك!». لكنها كانت تضحك. ثم انقلبت على ظهرها ورنّت ببصرها إلى السماء.

- آسف يا آنسة! لكنني أعتزم تعلم هذه الرقصة ولو قتلتنني!

قالت: «ستقتلني أنا على الأرجح. شغلَّ الأسطوانة مجددًا قبل أن أفقد...» عندئذٍ وقعت أعينهما علي.

كانت لحظة غريبة. ثمة حجاب خفي غريب في ديري، صرت أعرف ذلك الحجاب جيدًا حتى كدت أن أراه. السكان المحليون على أحد جانبيه، والقادمون من خارج البلدة (مثل فريد تومي، ومثلي) على الجانب الآخر. أحيانًا يخرج المحليون من خلف الحجاب، كما فعلت السيدة ستاريت عندما أعربت عن امتعاضها من نقل سجلات التعداد السكاني، لكن إذا طرح أي غريب أسئلة كثيرة عليهم، لا سيما عندما يظهر أمامهم بغتة، ينسحبون إلى خلف الحجاب.

بيد أنني ظهرت أمام هذين الفتیین بغتة وأفزعتهما قليلاً، لكنهما لم ينسحبا إلى خلف الحجاب، بل وظل وجهاهما منبسطين يشعان فضولاً ولم ترتسم عليهما أمارات التحفظ.

قلت: «عُذراً، عُذراً، لم أقصد مباغتكما. سمعت الموسيقى ثم رأيتكما تؤديان رقصة ليندي هوب».

قال الفتى: «نحاول تأدية رقصة ليندي هوب». وساعد الفتاة على النهوض، ثم انحنى لي. «ريتشي توزير، في خدمتك. جميع أصدقائي يقولون: "ريتشي-ريتشي، يعيش في ديتشي"⁽¹⁾. لكن ماذا يعرفون؟». قلت: «سررت بلقائك. جورج أمبرسون». ثم خطر لي أن أردف: «جميع أصدقائي يقولون: "جورجي-جورجي، يغسل ملابسه في نورجي"⁽²⁾، لكنهم لا يعرفون شيئاً أيضاً».

جلست الفتاة ضاحكة على أحد مقاعد طاولتي النزهات. ورفع الفتى يديه في الهواء قائلاً بحماسة: «رجل غريب يلقي مزحة مضحكة!». قالت الفتاة وهي تمسح زاويتي عينيها: «بيب بيب يا ريتشي». سألتها: «من أنت يا آنسة؟».

قالت: «بيفي-بيفي، أعيش على ليفي⁽³⁾»، وبدأت تضحك مجدداً. «آسفة، ريتشي أبله، لكن ليس لدي عذر. أنا بيفرلي مارش⁽⁴⁾. لست من البلدة، صحيح؟».

(1) Ditch تعني خندق أو حفير.

(2) من كلمة Norge ماركة أجهزة كهربائية منزلية.

(3) Leaf ورقة شجر.

(4) بيفرلي مارش وريتشي توزير من شخصيات رواية "الشيء" IT لستيفن كينج. بلدة ديري هي البلدة نفسها التي تدور فيها أحداث رواية "الشيء"، وهي بلدة خيالية. (المترجم)

أمرُ بدا أن جميع الناس يعرفونه فورًا. «نعم، وأنتما أيضًا لا تبدوان من هنا. أنتما أول اثنين من سكان ديري لا يبدوان... نكدين».

قال ريتشي: «مرحى! إنها بلدة نكدة بالفعل». وأبعد ذراع الفونوغراف من الأسطوانة، إذ ظلت تتقافز فوق الأخدود الأخير مرارًا.

قلت: «أفهم أن أهل البلدة قلقون على الأطفال على نحو خاص. لاحظا أنني أقف على مبعدة، أنتما على العشب، وأنا على الرصيف».

دمدم ريتشي: «لم يكونوا قلقين كثيرًا في وقت وقوع الجرائم. هل تعرف أمر الجرائم؟».

أومأت: «أقيم في فندق تاون هاوس. أحد العاملين هناك أخبرني». قال ريتشي: «أجل، الآن بعد انتهاء كل شيء، الناس قلقون على الأطفال». جلس جوار بيبي التي تعيش على ليفي. «لكن في وقت وقوع الجرائم لم ينبس أحد ببنت شفة».

قالت: «ريتشي، بيبي-بيبي».

هذه المرة قلّد ريتشي همفري بوغارت على نحو شنيع: «هذا صحيح يا عزيزتشي! وتعرفين أنه صحيح».

قالت بيبي لي: «كل ذلك انتهى». بدت صادقة جادة على نحو مصطنع كمروّج من غرفة التجارة. «الناس لا يعرفون هذا بعد».

- تقصدين بـ الناس أهل البلدة أم البالغين عمومًا؟

هزت كتفها كأنها تقول: ما الفرق؟

- لكنكما تعرفان.

قال ريتشي: «في الحقيقة نعرف». نظر إليّ متحدّيًا، لكن خلف نظارته التي كُسرت ثم أصلحت ما زال وميض حس دعابته الجنوني في عينيه، وبدا لي أن ذلك الوميض لا يخبو أبدًا.

تقدمت خطوة إلى العشب، فلم يهرب أيُّ منهما صارخًا. بل تحركت بيفرلي جانبًا على المقعد (دفعت ريتشي بمرفقها حتى يتزحزح هو أيضًا) وأفسحت لي مكانًا. إما أنهما شجاعان جدًا وإما غبيان جدًا. لكن لم يبدوا غبيين.

ثم قالت الفتاة كلامًا جعلني مشدوهاً: «هل أعرفك؟ هل نعرفك؟». وقبل أن أُرِدَ قال ريتشي: «لا، لا أظننا نعرفه أو يعرفنا، أظن... لا أدري. هل تريد شيئاً يا سيد أمبرسون؟ أهذا هو الأمر؟».

- في الحقيقة، نعم. أريد بعض المعلومات. لكن كيف عرفتما هذا؟ وكيف تعرفان أنني لست خطرًا عليكما؟

تبادلا النظرات، ومرَّ شيءٌ بينهما، استحال عليَّ معرفة ماهيته تحديداً، لكنني أيقنت أمرين: أنهما استشعرا اختلافاً محيطاً بي يتجاوز مجرد كوني رجلاً غريباً في البلدة... لكنهما، خلافاً لرجل البطاقة الصفراء، لم يخافا من اختلافي، بل العكس، كانا مأخوذين به. بدا لي أن هذين الفتيتين الجذابين الجسورين بمقدورهما إخباري ببعض القصص إذا أرادا. لطالما لازمني الفضول بشأن تلك القصص.

قال ريتشي: «لا تبدو خطيراً فحسب». وعندما نظر إلى الفتاة، أومأت موافقة.

- وهل أنتما متأكدان من أن... الأوقات العصبية... قد ولَّتْ؟

قالت بيفرلي: «غالبًا. ستتحسن الأحوال. في ديري أظن أن الأوقات العصبية قد ولَّتْ يا سيد أمبرسون، إنه مكان قاسٍ من نواحٍ كثيرة».

- ماذا لو قلت لكما، افتراضاً، أن ثمة واقعة سيئة أخرى في الأفق؟ أشبه بما حدث للصبي الصغير دورسي كوركوران.

أجفلا كأنني وخزتهما في مكان شديد الحساسية. ثم التفتت بيفرلي إلى ريتشي وهمست في أذنه. لستُ متأكداً مما قالت، لأنه كان كلاماً

موجزًا خافتًا، لكن ربما قالت: ذلك لم يكن المهرج. ثم نظرت إلي: «أي واقعة سيئة؟ مثل عندما قام والد دورسي ب...».

- لا عليكما. ليس من الضروري أن تعرفا.

رأيت أنني علي أن أجازف عندئذٍ، هذان كانا ضالتي المنشودة. لا أعرف كيف أدركت هذا، لكنني كنت متأكدًا. سألتهما: «أتعرفان أطفالًا أسماؤهم دننغ؟» عدّتهم بأصابعي: «تروي، وآرثر، وهاري، وإيلين. لكن آرثر يُدعى أيضًا ب...».

«توغا». تكلمت بيفرلي كأنها تقول حقيقة مُسلمًا بها: «نعرفه بالطبع، معنا في المدرسة، ونشارك في رقصة الليندي في برنامج المواهب المدرسية، سيقام قبل عيد الشكر بقليل... توغا مشترك في البرنامج أيضًا، سيشترك بالغناء بتحريك الشفاه مع أغنية سيلش سبلاش». قلبت عينيها في محجريهما. كانت بارعة في ذلك.

- أين يعيشان؟ هل تعرفان؟

كانا يعرفان بالطبع، لكنهما لهما الصمت. وعرفت أنني إذا لم أخبرهما بمزيد من المعلومات فلن يتكلما، رأيت ذلك في وجهيهما. «لنفترض أنني قلت لكما إن ثمة احتمالًا كبيرًا ألا يشارك توغا في برنامج المواهب إلا إذا اعتنى به شخص ما، وبشقيقه وشقيقته أيضًا، هل ستصدقان أمرًا كهذا؟».

تبادلنا النظرات مجددًا، وتجاوزا بأعينهما. استمرتا مدة طويلة، ربما لعشر ثوان. كانت نظرات طويلة كنظرات العشاق، لكن هذين المراهقين لا يمكن أن يكونا عاشقين. لكنهما صديقان بالتأكيد، صديقان مقربان مرًا بتجربة ما معًا.

ثم قال ريتشي أخيرًا: «توغا وأسرته يعيشون في شارع كوسوت».

- كوسوت؟

قالت بيفرلي: «هكذا ينطقه الناس هنا».

قلت: «فهمت». عندئذٍ لم يشغل بالي سوى مقدار ما سيثرثران به عن حوارنا الغريب الذي جرى عند حافة البارنز.

نظرت بيفرلي إلي بعينين صادقتين قلقتين: «لكن يا سيد أمبرسون، قابلتُ والد توغا، يعمل في سوق الشارع المركزي، وهو رجل لطيف، مبتسم دومًا، و...».

قاطعها ريتشي: «الرجل اللطيف لم يعد يعيش في البيت. زوجته طردته».

التفتت إليه بعينين متسعيتين: «توغ أخبرك بهذا؟».

- لا. بن هانزكوم أخبرني. توغ أخبره.

قالت بيفرلي بصوت رقيق: «مع ذلك إنه رجل لطيف، يمزح دومًا وما إلى ذلك، لكنه لا يلمس أبدًا».

قلت: «المهرجون أيضًا يمزحون كثيرًا». فأجفلا، كأني وخزت ذلك الموضع الحساس مرة أخرى. «وهذا لا يعني أنهم لطفاء».

كانت بيفرلي تنظر إلى يديها، وهمست: «نعرف». ثم رفعت عينيها إلي: «أتعرف أمر السلحفاة؟». قالت كلمة سلحفاة بطريقة جعلتها تبدو كأنها اسم شخص.

خطر لي أن أقول: أعرف سلاحف النينجا، لكنني لم أقل. سوف تنقضي عقود قبل ظهور ليوناردو ودوناتيلو ورفائيل وميكلانجلو. لذا اكتفيت بهز رأسي.

نظرتُ إلى ريتشي متشككة، ونظر الفتى إلي، ثم إليها، فقالت: «لكنه طيب. متأكدة أنه طيب». لامست معصمي، وكانت أصابعها باردة. «السيد دننغ رجل لطيف. عدم إقامته في بيته لا تعني أنه ليس رجلًا لطيفًا».

وجد كلامها صدقاً بداخلي. كانت زوجتي قد هجرتني، لكن ليس لأنني لم أكن لطيفاً. نهضت قائلاً: «أعرف ذلك. سوف أمكث في ديري مدة طويلة قليلاً، ومن الأفضل لي ألا أجذب انتباه الناس إلي كثيراً. هلاً تكتئمتما على ما دار بيننا؟ أعرف أنني أثقل عليكما، لكن...».

نظرا إلى بعضهما وانفجرا ضاحكين.

وعندما استعادت بيفرلي قدرتها على الكلام قالت: «بمقدورنا حفظ السر».

أومأت قائلاً: «بمقدوركما بالتأكد، أراهن على أنكما احتفظتما ببضعة أسرار في هذا الصيف».

لم يردّا.

أشرت بإبهامي ناحية البارنز: «هل لعبتما هناك بالأسفل يوماً؟».

قال ريتشي: «كنا نلعب ذات يوم». نهض ونفض بنطاله الجينز من الخلف. «سررنا بالحديث معك يا سيد أمبرسون. لا تخاطر، كن حذراً في ديري، إنها أفضل حالاً الآن، لكن لا أظنها ستتعافى تماماً».

- شكراً. شكراً لكما. ربما تشكركما أسرة دننغ أيضاً ذات يوم، لكن إذا سارت الأمور كما آمل أن تسير، ف....

أكملت بيفرلي كلامي: «...فلن يعرفوا شيئاً».

قلت: «بالضبط». ثم تذكرت عبارة قالها لي فريد تومي: «صحيح كل الصحة. اعتنيا بنفسيكما».

قالت بيفرلي: «سنفعل». وبدأت تضحك مجدداً. «استمر في غسل ملابسك في النورجي يا جورج».

ألقيت عليهما تحية عسكرية مقتضبة من حافة قبعة القش الصيفية على رأسي، وشرعت في السير مبتعداً، ثم خطرت لي فكرة فعدت إليهما. «هل يدور ذلك الفونوغراف ثلاثاً وثلاثين دورة في الدقيقة؟».

قال ريتشي: «مثل دورات الأسطوانات الطويلة؟ لا. فونوغرافنا عالي الدقة في البيت يمكنه ذلك، لكن فونوغراف بيقي هذا مجرد جهاز عتيق يشغل بالبطاريات».

قالت بيفرلي: «انتبه لما تقوله عن مشغل أسطواناتي يا توزير. أدخرتُ حتى أشتريه». ثم وجهت كلامها إلي: «يشغل الأسطوانات بسرعة ثماني وسبعين وخمس وأربعين دورة في الدقيقة فحسب. لكنني فقدت القطعة البلاستيكية للتشغيل بسرعة خمس وأربعين».

قلت: «خمس وأربعون ستفي بالغرض. شغلا الأسطوانة مجددًا بهذه السرعة». إبطاء الإيقاع في أثناء التدريب على خطوات رقصة السوينغ أمرٌ تعلمته مع كرستي في دروسنا.

قال ريتشي: «فكرة جنونية»، وغيرَ ذراع التحكم في السرعة على دوار الأسطوانة وشغل الأسطوانة مجددًا. هذه المرة بدا أن جميع أفراد فرقة غلين ميلر قد ابتلعوا للتو أقراصًا منومة.

مددتُ يدي إلى بيفرلي: «حسنًا. شاهد يا ريتشي».

أمسكتُ بيدي بثقة تامة، ورفعت رأسها ناظرةً إلي بعينين دعجاوين زرقاوين مرحتين. تساءلتُ عن مكانها وحالها في 2011، وعما إذا ما زالت على قيد الحياة، إذا افترضتُ ذلك، فهل ستتذكر رجلًا غريبًا طرح عليها أسئلة غريبة ورقص معها على نسخة ممطوطة من مقطوعة "إن ذا مود" في عصرٍ مشمس من أيام سبتمبر؟

قلت: «كنتما تشغلان الأغنية ببطء سابقًا، والآن ستبطنان أكثر، لكن بإمكانكما الحفاظ على الإيقاع. هكذا يتاح لكما مزيدٌ من الوقت لكل خطوة».

الوقت. مزيد من الوقت. شغل الأسطوانة مجددًا لكن أبطنها.

جذبتُ بيفرلي نحوي بأيدينا المتشابكة، وتركتها تعود إلى الخلف. كلانا انحنى كأنه تحت الماء، وركلنا بأقدامنا نحو اليسار بينما أوركسترا

غلين ميلر تعزف: باههه... داههه... داههه... باااههه... داههه...
دااا... ديبى... دممممم. وبهذه السرعة البطيئة نفسها، مثل لعبة
أطفال قد شد زنبركها وكاد أن يرتخي، استدارت بيفرلي إلى اليسار
أسفل يدي الممدودتين.

قلت: «توقفي!». فتسمّرت موليةٌ إياي ظهرها وأيدينا ما تزال
متشابكة. «والآن اضغطي على يدي اليمنى لتذكّريني بالخطوة التالية».
ضغطت، ثم استدارت بسلاسة دورة كاملة إلى اليمين.

قالت: «رائع! الآن يفترض أن أنخفض تحتك ثم ترفعني أنت إلى
الأعلى. وأنقلب رأسًا على عقب. لهذا نتدرب على العشب، حتى لا أكسر
عنقي إذا أخطأت».

- سأترك لكما ذلك الجزء، سنّي لا تسمح لي بقلب أي شيء سوى
البرغر.

مرة أخرى رفع ريتشي يديه إلى جانبي وجهه صائحًا: «واكا - واكا
- واكا الرجل الغريب يلقي...».

قلت: «بيب-بيب ريتشي». فضحك. «الآن حاول أنت. ونسّقا إشارات
الأيدي لأي حركات أخرى عدا عن البسيطة التي يؤديها الناس في متجر
الصودا المحلي. هكذا حتى إذا لم تفوزا بمسابقة برنامج المواهب،
فستبدوان جيدين».

أمسك ريتشي يدي بيفرلي وحاول. تقارب وتباعّد، جانب إلى جانب،
استدارة إلى اليسار، استدارة إلى اليمين. ممتاز. انزلت بقدميها أولاً
بين ساقي ريتشي المتباعدتين، لدنّة كسمكة، ثم رفعها. وختمت بشقلبة
استعراضية عادت بها للوقوف على قدميها. أمسك ريتشي بيديها وكرّرا
الخطوات كلها. كان أداؤهما أفضل في المرة الثانية.

تبرّم ريتشي: «نفقد الإيقاع عند حركة الانخفاض والخروج».

- لن تفقداه عندما تشغل الأستوانة بالسرعة العادية. ثق بي.

قالت بيفرلي: «أعجبني ذلك. تعلّم الحركات هكذا أسهل» دارت حول نفسها على طرفي حذاءها الرياضي. «أشعر بأنني لوريتا يونغ عند بداية برنامجها، عندما تدخل مرتدية فستانًا منقوشًا عليه أشكال حلزونية».

قال ريتشي: «يسمونني آرثر موراي، أنا من ميز-وو-ري». وهو أيضًا بدا مسرورًا.

قلت: «سأسرّع الأستوانة، تذكّر الإشارات، والتوقيت، والتوقيت أهم شيء».

عزف غلين ميلر تلك المقطوعة القديمة الجميلة، ورقص الفتيان، على العشب، ورقص ظلّاهما جوارهما. تباعد... تقارب... انخفاض... ركلة... استدارة إلى اليسار... استدارة إلى اليمين... انزلاق... اعتدال... شقّلبة. لم تكن حركاتهما مثالية هذه المرة، وسيخطئان الخطوات عدة مرات قبل أن يتقناها (إذا كانا سيتقنانها)، لكنهما لم يكونا سيئين.

أوه، سحّقا لذلك. كانا جميلين. لأول مرة منذ أن صعدت على مُرتفع الطريق رقم 7 ورأيت ديري جاثمة على الضفة الغربية من نهر كيندوسكيغ - كنت سعيدًا. كان إحساسًا جميلًا أردت أن أحافظ عليه، لذا سرت مبتعدًا عنهما، مسديًا لنفسي النصيحة القديمة: لا تنظر إلى الخلف، لا تنظر إلى الخلف أبدًا. هل يقول الناس لأنفسهم ذلك بعد تجربة جيدة (أو سيئة) على نحو استثنائي؟ غالبًا على ما أظن. لكن غالبًا ما تجد النصيحة التجاهل. البشر مخلوقون لينظروا إلى الخلف، لذا لدينا مفصل دوّار في أعناقنا.

اجتزت نصف مربع سكني، ثم التفتُ، متوقعًا رؤيتهما يحدقان إلي، لكنهما لم يفعلا. رأيتهما ما يزالان يرقصان. وكان ذلك أمرًا جيدًا.

كانت توجد محطة وقود تابعة لشركة سيتي سيرفيس على بُعد مربعين سكنيين في شارع كانساس، ودخلت مكتب المحطة لأسأل عن كيفية الوصول إلى شارع كوسوث، الذي يُنطق كوسوت. سمعت صوت ضاغط هواء وموسيقى بوب خافتة من الورشة الملحقة بالمحطة، لكن وجدت المكتب خاليًا. لم أنزعج، لأنني رأيت شيئًا مفيدًا جوار آلة تسجيل النقود: حامل صحف سلكي مليء بخرائط، وجدت على الرف الأعلى خريطة واحدة للمدينة بدت متسخة ومنسية، على صفحتها الأمامية صورة تمثال بلاستيكي شديد القبح لبول بونيان يحمل فأسه على كتفه ويبتسم ناظرًا إلى شمس الصيف. قلت لنفسني: ديربي وحدها قد تتخذ من تمثال بلاستيكي لشخصية خطّاب خيالية أيقونة لها.

وجدت حامل صحف آخر خلف مضخات الوقود، أخذت نسخة من ديلي نيوز حتى أتجنب لفت الانتباه، وألقيت خمسة سنتات على كومة الصحف مع عملات معدنية أخرى متناثرة عليها. لا أدري مدى أمانة الناس في 1958، لكن لا شك في أن بعضهم أكثر ثقة بالناس.

وفقًا للخريطة، يقع شارع كوسوث على جانب شارع كانساس من البلدة، واكتشفت أن الوصول إليه يستغرق خمس عشرة دقيقة مشيًا من محطة الوقود. سرت تحت أشجار دردار لم يمسه بعد الخراب الذي سيلحق بمعظمها بحلول السبعينيات، أشجار ما زالت مخضرة كما كانت في يوليو. رأيت أطفالًا يمرون جوارى على دراجاتهم، وآخرين يلعبون لعبة جاكس⁽¹⁾ أمام المنازل. ومررت بمجموعات صغيرة من البالغين يقفون عند محطات حافلات مميزة بخطوط بيضاء على أعمدة الهاتف. كانت ديربي مشغولة بشؤونها، وأنا كنت أسير مشغولًا بشؤوني، مجرد

(1) لعبة أطفال قديمة، يقذفون كرة صغيرة في الهواء ويحاولون التقاط قطع صغيرة على شكل نجوم، اسمها جاكس، قبل الإمساك بالكرة. (المترجم)

رجل يرتدي معطفًا رياضيًا غير لافت ويعتمر قبعة قش صيفية مائلة إلى الخلف قليلًا على رأسه، رجل يحمل صحيفة مطوية، ربما يبحث عن ساحة خرداوات أو بازار بيع مخفض، وربما يبحث عن عقار قيّم في موقع ممتاز. لا شك في أنه بدا كأنه ينتمي إلى البلدة.

هذا ما كنت آمله.

وجدتُ كوسوث شارعًا على جانبيه منازل تقليدية ذات سقف مائل، ورأيت باحات تدور فيها رشاشات، وركض صبيان جوارى وهما يتقاذفان كرة، ثم مررت بامرأة شعرها معقود إلى الأعلى بوشاح (وتتدلى من شفتها السفلى سيجارة، بالطبع) تغسل سيارة العائلة وترش كلب العائلة من حين لآخر، فيتراجع وينبح. بدا شارع كوسوث كمشهد خارجي من مسلسل تلفزيوني قديم.

مررت بفتاتين تديران حبل قفز وثالثتهما تتقافز راقصة برشاقة وهي تهزج: «شارلي تشابلن سافر إلى فرنسا! ليشاهد النساء يؤدين الرقصة! تحية للقبطان! تحية للملكة! أبي يقود غواصة!». وظل الحبل يرتطم بالرصيف. أحسست بعينين مصوبتين إلي. توقفت المرأة ذات الوشاح عن عملها، ممسكة بالخرطوم بيد، وبإسفنجة ضخمة مليئة بالرغوة باليد الأخرى، وراحت تشاهدني وأنا أقترب من الفتيات اللاتي يلعبن بالحبل، فتعمدتُ السير بعيدًا عنهن قليلًا ثم عدت إلى مساري، ورأيت المرأة تعود إلى عملها.

قلت لنفسي: جازفتُ مجازفة كبيرة بالحديث مع هذين الصبيين في شارع كانساس. لكنني لم أعتقد ذلك. السير قريبًا قليلًا من الفتيات اللاتي يلعبن بالحبل لكان مجازفة كبيرة. لكن ريتشي وبيفي كانا الاختيار الصحيح، عرفت ذلك حالما وقعت عيناى عليهما، وهما أيضًا عرفا ذلك، تواردت خواطرنا.

كانت الفتاة، بيفي-الليفي، قد سألتني: هل نعرفك؟

انتهى كوسوث إلى طريق مسدود عند مبنى اسمه "مركز ترفيه ويست سايد"، كان مهجورًا، وفي باحته التي غزتها الأعشاب الضارة لافتة مكتوب عليها: **للبيع من طرف البلدية**. لا شك في أن المبنى يثير اهتمام أي صائد عقارات يعرف عمله. بعد منزلين إلى يمينه رأيت فتاة ذات شعر بلون الجزر ووجه مليء بالنمش تقود دراجة مزودة بعجلات تدريب على مدخل منزل مسفلت، وتغني تنويعات للعبارة نفسها مرارًا وهي تقود دراجتها: «بنغ-بانغ، رأيت العصاة كلها، دنغ-دانغ، رأيت العصاة كلها، رنغ-رانغ، رأيت العصاة كلها...».

سرت نحو المبنى، كأني لا أهتم برؤية شيء في العالم بقدر اهتمامي به، لكن بطرف عيني واصلت متابعة ذات شعر الجزر. كانت تتأرجح من جانب إلى جانب على مقعد الدراجة، وتحاول معرفة مدى نجاحها قبل سقوطها. وفقًا لساقبيها اللتين تغطيهما قشور جروح حديثة، هذه على الأرجح ليست أول مرة تلعب فيها اللعبة. لم أر اسمًا على صندوق البريد أمام منزلها، لم يكن مكتوبًا عليه شيء سوى الرقم 379.

سرت نحو لافتة للبيع وكتبت معلومة سريعًا على الصحيفة التي أحملها، ثم استدرت عائداً أدراجي. وعند مروري بالمنزل رقم 379 بشارع كوسوث (على الجانب الآخر من الشارع، ومتظاهراً بالانغماس في قراءة الصحيفة)، خرجت منه امرأة ووقفت على المنحدر، ومعها صبي، كان يمضغ شيئاً ملفوفاً بمحرمة، وبيده الأخرى يحمل بندقية ديزي هوائية سيحاول، بعد وقت ليس بالطويل، أن يبيع بها والده الهائج.

صاحت المرأة: «إيلين! انزلي من ذلك الشيء قبل أن تسقطي! ادخلي وخذي كعكة».

ترجّلت إيلين دنغ من دراجتها وألقته على جانبها عند المدخل، وركضت إلى المنزل وهي ما زالت تدندن كأنها تنفخ في بوق بأعلى

صوت: «سِنغ-سانغ، رأيت العصاة كلها!». وشعرها، ذو درجة متطرفة
من اللون الأحمر أسوأ من شعر بيفرلي مارش يتموّج على ظهرها.
وتبعها الصبي، الذي سيكبر ويكتب مقالًا مؤلمًا يستدر دموعي،
الصبي الذي سيكون الناجي الوحيد في أسرته.
إلا إذا غيّرُ مصيره. والآن وقد رأيتهم، أناسًا حقيقيين يعيشون
حيوات حقيقية، بدا لي أن ما من خيار آخر.

الفصل السابع

1

كيف أصف لكم الأسابيع السبعة التي قضيتها في ديري؟ كيف أشرح مدى خوفي منها وكراهيتي لها؟

لم يكن السبب هو الأسرار التي تكتنفها (رغم وجودها)، ولم يكن السبب هو الجرائم الفظيعة التي وقعت فيها، وبعضها لم يُحل لغزها (لكنها وقعت). قالت الفتاة المدعوة بيفرلي: كل ذلك انتهى. والفتى المدعو ريتشي وافقها الرأي، وأنا صرت أعتقد ذلك أيضًا... بيد أنني صرت أعتقد أيضًا أن الشبح لم يغادر تمامًا البلدة ذات المركز الغائر.

كرهتها بسبب إحساسٍ بفشل محقق، وإحساس وجودي بداخل سجن ذي جدران مطاطية. إذا أردت مغادرة البلدة، فستسمح لي (طواعية!)، لكن إذا بقيت، فستشدد الخناق علي، حتى أعجز عن التنفس. لكن المغادرة، وهذا هو الجزء السيئ، لم تكن خيارًا مطروحًا، لأنني رأيت هاري قبل عرجه وابتسامته اللطيفة المشوشة قليلًا، رأيته قبل أن يصبح هاري الضفدع، يتقافز في الري-وا-ق.

رأيت شقيقته أيضًا، فلم تُعد مجرد اسم في قصة مكتوبة بصعوبة، لم تعد فتاة صغيرة لا أعرف وجهها تحب قطف الزهور ووضعها في المزهريات. أحيانًا أضجع مستيقظًا وأفكر في تخطيطها للخروج وجمع الحلوى بمناسبة الهالوين مرتدية زي الأميرة سمر فول ووترسبرينغ. وذلك لن يحدث أبدًا إلا إذا فعلتُ شيئًا. ثمة نعش ينتظرها بعد معاناة

طويلة وعقيمة في سبيل التشبث بالحياة. وثمة نعش ينتظر والدتها، التي ما زلت أجهل اسمها الأول. وكذلك تروي. وآرثر، الملقب بتوغا. لم أعرف كيف سأتعاش مع نفسي إذا سمحت بحدوث ذلك. لذا بقيت في البلدة. لكن المهمة لم تكن سهلة. كلما فكرت في أنني سأضع نفسي في هذا الموقف نفسه مرة أخرى، في دالاس، يكاد عقلي أن يتوقف عن العمل. لكنني عزّيت نفسي بأن دالاس لن تكون مثل ديري، ما من مكان على وجه الأرض يمكن أن يكون مثل ديري.

كيف أصف لكم إذن؟

في عملي مُدرِّسًا اعتدت التشديد على فكرة البساطة. ثمة سؤال واحد فقط وإجابة واحدة فقط في النصوص الخيالية وغير الخيالية. يسأل القارئ: ماذا حدث؟ ويجيب الكاتب: هذا ما حدث. هذا... وهذا... وهذا أيضًا. البساطة وسيلة الخلاص المؤكد الوحيدة.

لذا سأجربها، لكن يجب على المرء أن يضع في حسبانهِ دومًا أن الواقع، في ديري، طبقة جليد رقيقة على سطح بحيرة مياه عميقة داكنة. ومع ذلك:

ماذا حدث؟

حدث هذا، وهذا، وهذا أيضًا.

2

وفي يوم الجمعة، ثاني يوم كامل لي في ديري، ذهبت إلى سوق الشارع المركزي، انتظرت حتى الخامسة عصرًا، لأنني توقعت أن المكان سيكون نشيطًا عندئذٍ، فيوم الجمعة يوم الدفع، ولكثير من الناس (أعني الزوجات، لأن إحدى قواعد الحياة في عام 1958 هي أن الرجال لا يشترون حاجيات البقالة) هذا يعني يوم التسوق. كثرة المتسوقين ستسهّل عليّ عدم لفت الأنظار، ولمزيد من الحرص في هذا الشأن،

ذهبت إلى متجر دبليو تي غرانت واستكملت مجموعة ملابس ببنطال تشينو وقمصان عمل زرقاء، ثم تذكرت "بلا حمالات" وأصحابه خارج حانة "الدولار الفضي الناعس"، فاشترت زوجي حذاء عمل من ماركة وولفرين، وفي طريقي إلى السوق ركلتهما مرارًا على حافة الرصيف حتى تخذشت مقدمتهما.

وجدت المكان مزدحمًا كما كنت آمل، رأيت صفًا من الناس عند منافذ الدفع الثلاثة كلها، والممرات مليئة بنساء يدفعن عربات التسوق. الرجال القليلون الذي رأيتهم كانوا يحملون سلاسلًا، فأخذت سلة بدوري. وضعت في سلتي كيس تفاح (رخيصًا كالتراب)، وكيس برتقال (غالبًا كبرتقال 2011 تقريبًا). أصدرت الأرضية الخشبية المدهونة صريرًا تحت قدمي.

ماذا يفعل السيد دننغ تحديدًا في سوق الشارع المركزي؟ بيبي-الليفي لم تذكر هذا. لم يكن المدير، لأنني ألقيت نظرة سريعة على الكابينة الزجاجية خلف قسم الفواكه والخضراوات فرأيت رجلًا مهذبًا أبيض الشعر قد تكون إيلين دننغ حفيده، ربما، لكن لا يمكن أن تكون ابنته. واللافتة الصغيرة على مكتبه مكتوب عليها "السيد كوري".

وفي أثناء سيرني في الجزء الخلفي من المتجر، متجاوزًا رف منتجات الألبان (تسلّيت بقراءة لافتة تقول: هل جرّبتم "الزبادي"؟ إذا لم تجرّبوه فستحبّونه عندما تجرّبونه)، بدأت أسمع ضحكات، ضحكات نسائية يشوبها شيء من الغنج. انعطفتُ إلى الممر البعيد ورأيت سرب نساء، يرتدين ملابس تشبه ملابس السيدات اللاتي رأيتهن في متجر كنك فروت، يتحلّقن حول نضد بيع اللحم، المعلق فوقه بسلاسل زينة لافتة خشبية مكتوبة يدويًا: الجِزارة. تقطيع يناسب البيوت. وبالأسفل: فرانك دِننغ، رئيس الجزارين.

أحيانًا تتقيًا الحياة مصادفات لا يجرؤ أيُّ أديبٍ على تقليدها.

كان فرانك دننغ هو من يضحك السيدات. الشبه بينه وبين عامل النظافة الذي درّسَهُ اللغة الإنجليزية كاد يخيفني. رأيته نسخة من هاري، إلا أن هذه النسخة شعرها أسود كله تقريباً وليس رمادياً كله كشعر هاري 2011، والابتسامة اللطيفة المشوشة قليلاً حلت محلها ابتسامة عربيّ فاسق. لا عجب أن جميع السيدات يرفرفن حوله. حتى بيبي-الليفي رأيته جذاباً لافتاً، لِمَ لا؟ ربما كانت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، لكنها أنثى، وفرانك دننغ ساحر. وهو نفسه عرف هذا. لا بد من وجود أسباب تدفع فراشات ديري لإنفاق أموال أزواجهن في سوق وسط البلدة بدلاً من متاجر "إيه آند بي" وهي أخفض أسعاراً نسبياً. ها هو أحد تلك الأسباب، السيد دننغ، وسيم، يرتدي ملابس بيضاء نظيفة لا تشوبها شائبة (ملطخة قليلاً عند الكُمّين، لكن الرجل جزار)، ويعتمر قبعة بيضاء أنيقة تبدو كمزيج بين قبعة طاهٍ وبيريه فنان، مائلة إلى فوق حاجبه بقليل. قبعة ذات مغزى.

إجمالاً، كان السيد فرانك دننغ، بخديه المتوردين الحليقين وشعره الأسود النظيف، هبة الرب إلى "النساء الصغيرات". عند اقترابي منه متهادياً، رَبَطَ لفافة لحم بخيط ممتد من بكرة جوار ميزانه وكتب عليها السعر بقلم أسود مزخرف، وناولها لسيدة تناهز الخمسين وترتدي فستاناً عليه نقوش ورود كبيرة، ووجهها متورد خجلاً كأنها مراهقة.

«تفضّلي يا سيدة ليفيسك، رطل نقانق ألمانية مقطعة إلى شرائح رقيقة». مال فوق النضد بثقة، وقريباً بحيث تشم السيدة ليفيسك -والسيدات الأخريات- عَبَقَ عطره الأَخَاز. هل كان أكوا فيلفا، الماركة التي يستخدمها فريد تومي؟ استبعدتُ ذلك. رجّحت أن ساحراً مثل فرانك دننغ سيختار عطراً أغلى. «أتعرفين مشكلة النقانق الألمانية؟».

قالت: «لا». مطّأت الكلمة قليلاً فصارت: لا-لا. زقزقت السيدات الأخريات من شدة الترقُّب.

صَوَّبَ دَنَنْغَ عَيْنِيهِ نَاحِيَتِي لَوْهَلَةَ وَجِيْزَةَ فَلَمْ يَرِ مَا يَثِيْرُ اَهْتِمَامِهِ،
وَعِنْدَمَا اَعَادَهُمَا اِلَى السَيِّدَةِ لِيْفِيْسِكْ، اسْتَعَادَتَا بِرِيْقَهُمَا الْمَعْرُوفَ.
- بَعْدَ سَاعَةٍ مِنْ تَنَاوُلِهَا تَتَعَطَّشِيْنَ لِلْغَزْوِ.

لَسْتُ مَتَأَكِّدًا مِنْ فَهْمِ جَمِيْعِ السَيِّدَاتِ لِمَا قَصَدَهُ، لَكِنْ جَمِيْعُهُنَّ
تَضَاحَكْنَ. وَدَّعَ دَنَنْغُ السَيِّدَةَ لِيْفِيْسِكْ سَعِيْدَةً، وَعِنْدَ ابْتِعَادِيْ عَنْ مَرْمَى
السَّمْعِ، حَوَّلَ انْتِبَاهَهُ اِلَى السَيِّدَةِ بُوِيْ، وَكُنْتُ مَتَأَكِّدًا اَنَّهَا سَتُسْعِدُ
بَاهْتِمَامِهِ اَيْضًا.

اِنَّهُ رَجُلٌ لَطِيْفٌ، يَمْزِحُ دَوْمًا وَمَا اِلَى ذَلِكَ.

لَكِنْ الرَّجُلُ اللَّطِيْفُ كَانَ بَارِدَ الْعَيْنِيْنَ، عِنْدَمَا تَحَدَّثُ مَعَ حَرِيْمِهِ
الْمَفْتَتْنِ بَهْنِ، كَانَتَا زَرْقَاوِيْنَ، لَكِنْ عِنْدَمَا حَوَّلَ انْتِبَاهَهُ اِلَيَّ، لَوْهَلَةَ وَجِيْزَةَ،
كَدْتُ اَنْ اَقْسَمَ اِنَّهُمَا صَارَتَا رَمَادِيْتِيْنَ، بِلَوْنِ الْمَاءِ تَحْتَ سَمَاءٍ سَتَتَسَاقُطُ
مِنْهَا الثَّلُوجُ عَمَّا قَرِيْبٍ.

3

كَانَتْ السُّوقُ تُغْلَقُ عِنْدَ السَّادِسَةِ مَسَاءً، وَعِنْدَمَا غَادَرْتُ حَامِلًا
مَشْتَرِيَاتِي الْقَلِيْلَةَ، لَمْ تَكُنِ السَّاعَةُ قَدْ تَجَاوَزَتْ الْخَامِسَةَ وَعِشْرِيْنَ
دَقِيْقَةً. وَجَدْتُ مَطْعَمًا قَرِيْبًا فِي شَارِعٍ وَيْتَشَامُ، فَطَلَبْتُ بَرَّغْرَ وَكُولَا مِنْ
آلَةِ تَحْضِيْرِ فُوْرِيَّةٍ وَقِطْعَةٍ فَطِيْرَةٍ شُوكُوْلَاتَةٍ، كَانَتْ الْفَطِيْرَةُ مِمْتَازَةً،
بِشُوكُوْلَاتَةٍ حَقِيْقِيَّةٍ، وَكَرِيْمَةٍ حَقِيْقِيَّةٍ، مَلَأْتُ فَمِيْ كَمَا فَعَلْتُ جَعَةَ فَرَانِكْ
أَنْسِيْتِي. تَلَكَّأْتُ فِي الْمَكَانِ لِأَطْوَلِ مَدَةٍ مُمْكِنَةٍ، ثُمَّ سَرْتُ مَتَهَادِيًا اِلَى
الْقَنَاةِ، حَيْثُ كَانَتْ تَوْجِدُ بَعْضَ الْمَقَاعِدِ الْمُطَلَّةِ عَلَى شَارِعِ السُّوقِ
الْمَرْكَزِيْ. كَانَتْ مَعْدَتِي مِمْتَلِّئَةً، لَكِنِّي تَنَاوَلْتُ بِرْتَقَالَةٍ مِنْ مَشْتَرِيَاتِي،
وَأَلْقَيْتُ قَشْرَهَا فَوْقَ الْحَاجِزِ الْخَرْسَانِيِّ وَشَاهَدْتُ الْمِيَاهَ تَجْرِفُهَا.

عِنْدَ السَّادِسَةِ تَمَامًا انْطَفَأَتِ الْمَصَابِيْحُ الَّتِي عِنْدَ نَوَافِذِ السُّوقِ الْكَبِيْرَةِ،
وَبَحُلُولِ السَّادِسَةِ وَالرَّبْعِ خَرَجْتُ آخِرَ السَيِّدَاتِ، يَحْمِلُنَ أَكْيَاسَ تَسُوْقِ

كبيرة وصعدن تل أب مايل أو تجمعن عند أحد أعمدة الهاتف المطلية بخطوط بيضاء. ثم جاءت حافلة مكتوب عليها: خط دائري - أجرة موحدة وحملتهن. وعند السابعة إلا ربع بدأ موظفو السوق يغادرون، آخر المغادرين كانا السيد كوري، المدير، ودنغ. تصافحا وافترقا، ذهب كوري عبر زقاق بين السوق ومتجر أحذية مجاور لها، على الأرجح قاصداً سيارته، واتجه دنغ إلى محطة الحافلات.

عندئذٍ لم يكن يقف في المحطة سوى شخصين، ولم أرغب في الانضمام إليهما، لم أكن مضطراً بفضل اتجاه حركة السير الواحد. سرت إلى عمود آخر مطلي بخطوط بيضاء، على مقربة من صالة سينما ذا ستراند (كان يُعرض فيه فيلمان: مَشِين غَن كيلي، وريفورم سكول غيرل. وَعَدَت اللافتة الإعلان بـ أَكْشَن ملتهب)، وانتظرت مع بضعة عمال يتحدثون عن مباريات بطولة العالم المحتملة. لكان بمقدوري إخبارهم الكثير عن البطولة، لكنني أمسكت لساني.

وصلت إحدى حافلات المدينة وتوقفت قبالة سوق الشارع المركزي، فركب دنغ، ثم سارت بقية المسافة هابطة التل وتوقفت عند محطة صالة السينما. تركتُ العمال يركبون قبلي، حتى أعرف مقدار النقود التي سيضعونها في صندوق الدفع المثبت على عمود جوار مقعد السائق. أحسست كأني كائن فضائي في فيلم خيال علمي، ويحاول التنكر كأحد سكان الأرض. كان أمراً غريباً، أردت ركوب حافلة، لا تفجير البيت الأبيض بأشعة موت، لكن هذا لم يغيّر إحساسي.

أحد الذين ركبوا قبلي أبرز بطاقة حافلة بلون الكناري ذكّرني لوهلة برجل البطاقة الصفراء، والآخرين وضعوا خمسة عشر سنتاً في صندوق الدفع، فأصدر رنيناً. فعلتُ مثلهم، لكنني استغرقت وقتاً أطول قليلاً لأنّ الدائم كان عالقاً في يدي المتعرّقة. خُيِّل لي أن جميع الأعين مصوبة

نحوي، لكن عندما رفعت رأسي رأيت جميع الركاب يقرؤون صحفًا أو يحدقون إلى اللاشيء خارج النوافذ، ويسربلهم دخان رمادي مُزَرَق.

ثم رأيت فرانك دننغ جالسًا في المنتصف ناحية اليمين، مرتديًا بنطالًا رماديًا وقميصًا أبيض، وربطة عنق زرقاء داكنة. أنيقًا. ومشغولًا بإشعال سيجارة فلم ينظر إلي وأنا أتجاوزه وأجلس على مقعد قريب من الخلف. أنت الحافلة في الشارع ذي الاتجاه الواحد الدائر المار بوسط البلدة، ثم صعدتُ تل أب مايل في شارع ويتشام. وعندما وصلنا إلى المنطقة السكنية على الجانب الغربي، بدأ الركاب ينزلون، كلهم كانوا رجالًا، أفترض لأن النساء في المنازل يرتبن المشتريات أو يجهّزن العشاء. وبينما الحافلة تفرغ تدريجيًا وفرانك دننغ جالس في مكانه، يدخلن سيجارته، تساءلت عما إذا كنا سنصبح آخر راكبين في النهاية.

لكن لم يكن ثمة داعٍ لقلقي. عندما انحرفت الحافلة نحو محطة عند تقاطع شارع ويتشام وجادة تشاريتي⁽¹⁾ (علّمت لاحقًا أن في ديري جادة فيث⁽²⁾ وجادة هوب⁽³⁾ أيضًا)، ألقى دننغ سيجارته على أرضية الحافلة وسحقها بحذائه، ونهض من مقعده، سار متثدًا عبر الممر، دون أن يستعين بالمقابض لكنه تأرجح قليلًا مع حركة الحافلة وهي تبطئ سرعتها. بعض الرجال لا يفقدون رشاقة مراهقتهم إلا في سن متأخرة من حياتهم. بدا دننغ واحدًا منهم. لصار راقص سوينغ بارعًا.

ربّت كتف السائق وبدأ يحكي له نكتة، كانت قصيرة، لم أستطع سماع معظمها بسبب ضجيج المكابح الهوائية، لكن ميّزت عبارة ثلاثة زنوج عالقون في مصعد، ورأيت أنها ليست نكتة كان ليحكها لحريمه

(1) تعني الإحسان.

(2) الإيمان.

(3) الأمل. (المترجم)

من ربات البيوت. انفجر السائق ضاحكًا، ثم جذب الذراع الكرومية الطويلة التي تفتح الباب الأمامي، وقال: «أراك يوم الاثنين يا فرانك».

رد دننغ: «إذا ظللنا على ما يرام». ثم هبط درجتي السلم وقفز فوق الحافة العشبية إلى الرصيف. رأيت عضلاته تترجرج تحت قميصه. ما احتمال نجاة امرأة وأربعة أطفال من بطشه؟ خطر لي أولًا أنه احتمال ضئيل، لكنني كنت مخطئًا. الإجابة الصحيحة هي أن الاحتمال معدوم.

وفي أثناء ابتعاد الحافلة، رأيت دننغ يصعد سلم أول مبنى من بداية جادة تشاريتي، وثمانية أو تسعة رجال يقتعدون كراسي هزازة على جانبي مدخل المبنى الأمامي، حيًا بعضهم الجزار، وصافحهم كأنه سياسي في زيارة رسمية. كان المنزل من ثلاثة طوابق ومشيدًا على الطراز الفيكتوري، وتتدلى من إفريز المدخل لافتة تمكنت من قراءتها بالكاد قبل ابتعاد الحافلة:

غُرِف إدنا برايس

إيجار أسبوعي أو شهري

تتوفر غرف ملحق بها مطابخ

غير مسموح جلب الحيوانات الأليفة!

وأسفلها تتدلى لافتة أخرى برتقالية أصغر مكتوب عليها: لا توجد غرف شاغرة.

بعد محطتين في الشارع نزلت من الحافلة، وشكرت السائق، فردَّ علي بغمغمة. اكتشفت لاحقًا أن هذا ما يُعد حديثًا لبقًا في ديري. إلا إذا كان المرء يعرف بضع نكات عن زنوج عالقين في مصعد أو عن البحرية البولندية.

سرت ببطء عائداً نحو البلدة، سالكاً مساراً بعيداً حتى أبتعد عن مبنى إدنا برايس، حيث يجتمع قاطنوه عند المدخل بعد العشاء مثل شخصيات قصص راي برادبيري عن بلدة غرينتاون القروية بولاية إلينوي. ألا يشبه فرانك دننغ أولئك الطيبين؟ يشبههم، بالتأكيد. لكن ثمة أحداث رعب خفية في غرينتاون برادبيري أيضاً.

كان ريتشي-الديتشي قد قال: الرجل اللطيف لم يعد يعيش في منزله، وقد كان على صواب. الرجل اللطيف يعيش في منزل به غرف للإيجار، ورفاقه في السكن يظنونهم رجلاً رائعاً.

بحسب تقديري، لا تبعد "غرف برايس" أكثر من خمسة مربعات سكنية غرب المنزل رقم 379 بشارع كوسوث، وربما أقرب. هل يجلس فرانك دننغ في غرفته المستأجرة، بعدما ينام المستأجرون الآخرون، ويتوجه شرقاً كما يتوجه أحد المسلمين نحو القبلة؟ استبعدتُ هذا. وإذا كان يفعل، هل تظل عيناه زرقاوين أم تتحولان إلى ذلك اللون الرمادي البارد؟ كيف يفسّر تركه كَنَفَ أسرته لرفاقه الذين يستنشقون هواء المساء عند مدخل مبنى إدنا برايس؟ هل يروي لهم قصة تكون فيها زوجته معتوهة قليلاً أو شريرة تماماً؟ إجابة هذا السؤال سهلة. لا يهم إذا كنا في 1958 أو 1985 أو 2011، في أمريكا حيث يُحكّم دوماً بمظهر الأشياء لا جوهرها، يصدّق الناس أمثالَ فرانك دننغ دوماً.

4

في يوم الثلاثاء التالي استأجرت شقة قرأت إعلاناً عنها في صحيفة ديري نيوز يقول «شبه مؤنثة، وفي حي جيد»، وفي يوم الأربعاء السابع عشر من سبتمبر انتقل السيد جورج أمبرسون ليعيش في الشقة. وداعاً فندق ديري تاون هاوس. مرحباً جادة هاريس. عشت في عام 1958

أكثر من أسبوع، وبدأت أحس بالارتياح، حتى لو لم أصبح من سكان الزمن الأصليين.

تمثل التأثيث الجزئي في سرير (مع فراش ملطخ قليلاً لكن دون ملاءة)، وأريكة، وطاولة مطبخ إحدى سيقانها تحتاج إلى حشوة حتى لا تتأرجح، وكرسي واحد أصفر ذي مقعد بلاستيكي يصدر صوتاً عندما يطلق سراح بنطال الجالس عليه، وموقد، وثلاجة مزعجة. وفي مستودع المطبخ اكتشفت وحدة تكييف الشقة: مروحة ماركة جنرال إلكتريك ذات قابس مهترئ بدا مُميّناً.

رأيت أن سعر إيجار الشقة، الواقعة مباشرة أسفل مسار هبوط الطائرات في مطار ديربي، مرتفع، خمسة وستون دولارًا شهريًا، لكنني وافقت عليه لأن السيدة جويلن، المالكة، وافقت على التفاوضي عن نقص معلومات ومرجعيات السيد أمبرسون، وقد ساعده أيضًا عرضه دفع إيجار ثلاثة أشهر نقدًا. لكنها أصرّت على الاحتفاظ بنسخة من معلومات رخصة قيادتي. ربما استغربت أن وسيط عقارات حُرًا من ويسكونسن يحمل رخصة قيادة صادرة في مَين، لكنها لم تعبر عن استغرابها.

سُررت لأن آل أعطاني مبلغًا كبيرًا نقدًا. النقد يهدئ الغرباء.

وأثره أكبر في عام 58 أيضًا. مقابل ثلاثمئة دولار فقط تمكنت من تحويل شقتي شبه المؤثثة إلى شقة مؤثثة بالكامل، تسعون منها ذهبت مقابل تلفاز ماركة آر سي آيه، وفي تلك الليلة شاهدت برنامج ستيف آلن باللونين الأبيض والأسود، ثم أطفأت التلفاز وجلست إلى طاولة المطبخ، مستمعًا إلى طائرة تهبط في خضم هدير محركاتها. أخرجت من جيبي الخلفي دفتر الملاحظات الذي اشتريته من محل في وسط البلدة (حيث السرقة من المحل ليست "طَيِّشًا" أو "عادة سيئة" أو "لهوًا!") وفتحت الصفحة الأولى، وضغطت رأس قلم باركر الجديد أيضًا. لبثت جالسًا

قاربة خمس عشرة دقيقة، كانت مدة كافية لهبوط طائرة أخرى، بدت قريبة إلى درجة أنني خشيت أن تلامس إطاراتها السقف.

ظلت الصفحة خالية. وكذلك عقلي، كلما حاولت دفعه للدوران، لم يكون فكرة سوى أن الماضي لا يريد أن يُغيّر.

فكرة مثبتة.

أخيرًا نهضت، وأخذت المروحة من مكانها في المستودع، ووضعتها على طاولة المطبخ، لم أكن متأكدًا من أنها ستشتغل، لكنها اشتغلت، ووجدت هدير محركها الخافت مهدئًا على نحو غريب، كما حجت ضجيج الثلاجة المزعج.

وعندما جلست مرة أخرى، وجدت عقلي أكثر صفاءً، وهذه المرة تمكنت من كتابة بضع كلمات.

الخيارات:

- 1 - إبلاغ الشرطة.
- 2 - مكالمة مجهولة المصدر إلى الجزار (أقول له مثلًا: «إنني أراقبك أيها الوغد، إذا اقتربت أي فعلة فسأبلغ عنك»).
- 3 - تلفيق تهمة للجزار.
- 4 - إصابة الجزار بإعاقة ما.
- توقفت عندها. وتوقف محرك الثلاجة مؤقتًا. كما انقطعت أصوات الطائرات والسيارات في جادة هاريس. عندئذ كنت وحدي مع مروحتي وقائمتي غير المكتملة. وأخيرًا كتبت الخيار الأخير:
- 5 - قتل الجزار.

ثم جعدت الورقة، وفتحت صندوقًا فيه علب الثقاب بالمطبخ جوار الموقد، وأشعلت عود ثقاب، لكن أطفأته المروحة فورًا، فخطر لي مرة

أخرى مدى صعوبة تغيير بعض الأشياء. أوقفت المروحة، وأشعلت عود ثقاب آخر، وقربته من كرة الورق، وعندما اشتعلت ألقيتها في حوض غسل الأطباق، وانتظرت حتى انطفأت، ثم غسلت الرماد.

بعد ذلك أوى السيد جورج أمبرسون إلى فراشه.

لكنه ظل ساهراً مدة طويلة.

5

عندما مرت آخر طائرة فوق السقف في تلك الليلة عند الثانية عشرة والنصف، كنت ما أزال مستيقظاً أفكر بقائمتي. إبلاغ الشرطة كان خياراً مستبعداً. ربما ينجح مع أوزوالد، الذي سيعلن حبه الأبدي لفيدل كاسترو في دالاس ونيو أورلينز، لكن دنغ أمره مختلف، لأنه ذو صلات جيدة في مجتمعه ويحظى بالاحترام. ومن أنا؟ رجل غريب في بلدة لا تحب الغرباء. عصر ذلك اليوم بعدما خرجت من الصيدلية، رأيت "بلا حملات" ورفاقه مرة أخرى خارج حانة الدولار الفضي الناعس، كنت أرتمي ملابس عمل عادية، لكنهم رمقوني بالنظرة نفسها التي تقول: من أنت بحق الجحيم؟

حتى إذا كنت أعيش في ديري ثماني سنوات بدلاً من ثمانية أيام، فما الذي كنت لأقوله للشرطة؟ إنني رأيت فرانك دنغ في رؤيا يقتل أسرته ليلة الهالوين؟ لا أظن.

راقتني أكثر فكرة الاتصال بفرانك دنغ نفسه دون إخباره بهويتي، لكنه خيار مخيف. حالما أتصل بفرانك دنغ -سواء كان في العمل أو عند إدنا برايس، حيث سيُستدعى لتلقي المكالمة- سأكون قد غيرت الأحداث. مثل هذه المكالمة ربما توقفه عن قتل أسرته، لكن خطر لي أيضاً أنها ربما تُحدث أثراً عكسياً، بأن تدفعه فوق حافة الجنون التي يخفيها بابتسامة جورج كلوني. بدلاً من منع جريمته، ربما أتسبب في

وقوعها مبكرًا. في الوقت الراهن أعرف مكانها وزمنها، لكن إذا حذرت، فكل الاحتمالات واردة.

ألفق له تهمة ما؟ ربما ينجح هذا الخيار في رواية جاسوسية، لكنني لست عميل سي أي أيه، بل أستاذ لغة إنجليزية لعين.

إصابة الجزار بإعاقة ما كان الخيار الأخير في القائمة. حسنًا، لكن كيف؟ أصدمه بسيارتي، ربما في أثناء سيره من جادة تشاريتي إلى شارع كوسوث وهو يحمل مطرقة عازمًا على ارتكاب جريمة؟ سيُقبض علي وأُسجن ما لم أكن محظوظًا جدًا. كما إن من يتعرضون لإعاقات مؤقتة يتعافون غالبًا، وعندئذٍ ربما يحاول مرة أخرى. في أثناء اضجاعي في الظلام، رأيت أن هذا السيناريو واقعي جدًا، لأن الماضي لا يحب أن يُغيّر، عنيد.

الطريقة المؤكدة الوحيدة هي متابعته، والانتظار حتى يكون وحده، ثم قتله. أبقِ الأمر بسيطًا أيها الغبي.

لكن ثمة مشكلات أخرى في هذا الخيار، أهمها عدم ثقتي بقدرتي على تنفيذه. رأيت أنني ربما أقدر على قتل أحد في خضم دفاعي عن نفسي أو عن شخص آخر، لكن قتل شخص بدم بارد؟ حتى إذا عرفت أنه سيقتل زوجته وأطفاله إذا لم يوقفه أحد؟

و... ماذا لو فعلتها ثم أُلقي القبض علي قبل أن أتمكن من الهروب إلى المستقبل حيث أكون جيك إبنغ وليس جورج أمبرسون؟ سأحاكم، ويُزج بي في سجن شاوشانك، وأظل قابعًا فيه في يوم مقتل جون كينيدي في دالاس.

لكن هذه ليست نهاية الأمر. نهضت ورحت أذرع المطبخ وغرفة نومي الضيقة كأنها كابينة هاتف، ثم ذهبت إلى الحمام، وجلست على المقعد مسندًا جبهتي إلى راحتي يدي. كنت قد افترضت أن مقال هاري

حقيقي، آل أيضًا افترض هذا، وعلى الأرجح حقيقي، لأن هاري محدود القدرات العقلية، وأمثاله لا يختلفون مقتل أسرههم بأكملها. ومع هذا... كان آل قد قال: *التيقن بنسبة خمسة وتسعين في المئة ليس كالتيقن بنسبة مئة في المئة*. عندئذ كان يتحدث عن أوزوالد، القاتل الأكبر، إذا نحنًا جانبًا لغط نظريات المؤامرة. ومع هذا ظلت الشكوك تراود آل.

لكان من السهل التحقق من قصة هاري في عالم 2011 حيث الحواسيب متاحة، لكنني لم أفعل. وحتى إذا كانت قصته صحيحة تمامًا، فربما يكون قد أخطأ في بعض التفاصيل المهمة أو لم يذكرها إطلاقًا، تفاصيل قد تتسبب في تعثري. ماذا لو، بدلًا من لعب دور المنقذ مثل السير غالاهاذ، أحد فرسان المائدة المستديرة، عرّضت نفسي للقتل مع أبناء دننغ؟ لتغيّر المستقبل تغيرات كبيرة، لكنني لن أكون موجودًا فأعرفها.

انبثقت فكرة جديدة في رأسي، فكرة جذابة على نحو جنوني. أن أتموضع قبالة المنزل رقم 379 بشارع كوسوث في ليلة الهالوين... وأشاهد فحسب. لأؤكد من وقوع الجريمة حقًا، أجل، لكن أيضًا لأرى جميع التفاصيل التي ربما يكون الشاهد الحي الوحيد -الطفل المصدوم- قد أغفلها. ثم أقود سيارتي عائداً إلى ليسبون فولز، وأصعد عبر جحر الأرنب، ثم أعود فوراً إلى 9 سبتمبر عند الساعة 11:58. وأشتري الصنلاينر مرة أخرى وأذهب إلى ديري مرة أخرى، هذه المرة مُتسلِّحًا بمعلومات مؤكدة. صحيح أنني أنفقت مبلغًا كبيرًا من نقود آل، لكن لدي ما يكفي لتدبر أمري.

سارت الفكرة في مخيلتي على ما يرام، لكنها تعثرت قبل وصولها إلى أول منعطف. الغرض الأساسي من هذه الرحلة هو اكتشاف أثر إنقاذ أسرة عامل النظافة في المستقبل. وإذا تركت فرانك دننغ يرتكب جريمته، فلن أعرف. كما أنني أواجه سلفًا احتمال تنفيذ هذه المهمة

مجددًا، بسبب عودة الوضع إلى ما كان عليه عندما أعود -إِذا عدت- عبر جحر الأرنب لإيقاف أوزوالد. العودة مرة واحدة أمر سيئ. ومرتين أسوأ. وثلاث مرات أفضح.

وثمة أمر آخر. أسرة هاري دننغ ماتت مرة سلفًا، فهل أحكم عليهم بالموت مرة ثانية؟ حتى إذا كانت كل عودة تعيد الوضع إلى ما كان عليه ولن يعرفوا ما حل بهم؟ ومن يمكنه أن يقول إنهم -على مستوى أعمق ما- لن يعرفوا؟

الآلام. والدماء. والفتاة الصغيرة ذات شعر الجزر ممددة على الأرضية أسفل الكرسي الهزاز. وهاري يحاول صد والده المعتوه ببندقية ديزي هوائية: «ابتعد عني يا أبي، وإلا أطلقت عليك النار».

جرجرت قدمي في المطبخ، ثم توقفت ناظرًا إلى الكرسي ذي المقعد البلاستيكي الأصفر، وقلت له: «أأمقتك أيها الكرسي»، ثم ذهبت إلى الفراش مجددًا.

هذه المرة غططت في النوم فورًا. وعندما استيقظت في الصباح التالي، وجدت شمس الساعة التاسعة ترسل أشعتها عبر نافذة غرفة نومي الخالية من الستائر، وسمعت زقزقة العصافير، وأظنني عرفت ما علي فعله. أبقِ الأمر بسيطًا أيها الغبي.

6

عند الظهر ارتديت ربطة عنقي، واعتمرت قبعتي المصنوعة من القش بالزاوية الصحيحة التي تقتضيها أناقة ذلك الزمن، وذهبت إلى محل ماشن للمستلزمات الرياضية، حيث ما زال عرض تخفيضات الخريف ساريًا. قلت للبائع إنني مهتم بشراء مسدس صغير، لأنني أعمل في مجال العقارات وأحيانًا أضطر إلى حمل مبالغ نقدية كبيرة. فعرض علي عدة مسدسات، منها كولت 38، مسدس تقليدي مخصص لرجال

الشرطة، وقال لي إن سعره 9,99 دولارًا. بدا السعر منخفضًا إلى درجة سخيفة، إلى أن تذكرت، بحسب مفكرة آل، أن البندقية التي طُلبت عبر البريد التي استخدمها أوزوالد لتغيير التاريخ كان ثمنها أقل من عشرين دولارًا.

قال البائع: «هذه وسيلة حماية رائعة». أدار الأسطوانة فأصدرت صوت تكّات متتابة. «دقيق دقة مميتة من مسافة خمس عشرة ياردة، ومضمون، وكل من يدفعه غباؤه لمحاولة سرقة نقودك سيكون أقرب من ذلك».

- اشتريت.

توقعت قلقًا أن يطلب البائع معاينة بطاقات إثبات هويتي، لكنني كنت قد نسيت مجددًا أجواء أمريكا التي يغلب عليها الاسترخاء عندئذ. هكذا سارت الصفقة: دفعت النقود وخرجت حاملًا المسدس. لا معاملات ورقية ولا فترة انتظار. لم أضطر حتى إلى ذكر عنوان إقامتي الحالي. كان أوزوالد قد لف سلاحه ببطانية وأخفاه في مرأب المنزل حيث كانت زوجته تقيم مع امرأة اسمها روث باين. لكن عندما خرجتُ من محل ماشن حاملًا سلاحي في حقيبتَي اليدوية، بدا لي أنني أعرف كيف كان إحساس أوزوالد عندئذ: أَحَسَّ بأنه رجل يحمل سرًّا فتناكًا، رجل يملك إعصارًا طَوَّعَ بَنانه.

رأيت رجلًا ينبغي أن يكون في أحد المصانع واقفًا عند مدخل حانة الدولار الفضي الناعس، يدخن سيجارة ويقرأ صحيفة، أو على الأقل بدا كأنه يقرأ صحيفة. لم أستطع أن أجزم بأنه كان يراقبني، كما لم أستطع أن أجزم بأنه لم يكن يراقبني.

كان "بلا حمالات".

في ذلك المساء، مرة أخرى اتخذت موضعًا جوار صالة سينما ذا ستراند، وكانت لافتتها تعلن: العرض الافتتاحي غدًا! فيلم ثندر رود (بطولة روبرت ميتشوم) وفيلم ذا فايكينغز (بطولة كيرك دوغلاس)! مزيد من الأكشن الملتهب لمرتادي السينما في ديري.

ومجددًا عبر دننغ الطريق إلى المحطة، وصعد على متن حافلة، هذه المرة لم أتبعه، لم أر داعيًا، لأنني كنت أعرف وجهته. سرت عائدًا إلى شقتي الجديدة، وأنا أتلقت باحثًا عن "بلا حملات" بين الفينة والأخرى، لم أر له أثرًا، وقلت لنفسي إن رؤيته قبالة محل المستلزمات الرياضية كانت مجرد صدفة، وليست صدفة مدهشة، فالدولار الفضي الناعس حانته المعتادة. ولأن مصانع ديري تعمل ستة أيام في الأسبوع، ينال العمال أيام راحة بنظام المُداوَرَة. وقد يكون الخميس يوم راحة هذا الرجل. الأسبوع التالي ربما أجده يتسكع في الحانة يوم الجمعة، أو الثلاثاء.

وفي المساء التالي ذهبت مجددًا إلى صالة ذا ستراند، وتظاهرت بقراءة ملصق فيلم ثندر رود (روبرت ميتشوم يزأر على أسخن طريق سريع على وجه الأرض!)، غالبًا لأنني لم أجد مكانًا آخر أذهب إليه، عيد الهالوين بعد ستة أسابيع، وبدا لي أنني دخلت مرحلة قتل الوقت في برنامجنا. لكن هذه المرة لم يعبر فرانك دننغ الشارع إلى المحطة، بل سار إلى تقاطع شوارع كانساس والشارع المركزي وشارع ويتشام وتوقف كأنه لم يقرر وجهته، وكان كدأبه دومًا أنيقًا يرتدي بنطالًا داكنًا وقميصًا أبيض وربطة عنق زرقاء، ومعطفًا رياضيًا رماديًا فاتحًا عليه نقش مربعات، وقبعته مائلة إلى الخلف. لوهلة ظننت أنه سيتجه إلى صالة السينما ليرى أسخن طريق سريع على وجه الأرض، وفي هذه

الحالة لتهاديتُ مبتعدًا نحو شارع القناة. لكنه انعطف يسارًا، سالِّغًا شارع ويتشام. ثم سمعته يصفرُّ، كان مُصفرًّا بارعًا.

لم أر داعيًا لمتابعته، فهو لن يرتكب أي جريمة بمطرقة في التاسع عشر من سبتمبر. لكن راودني الفضول، ولم يكن لدي ما أفعله. دخل إلى حانة ومطعم مشويات اسمها "مُشعل المصابيح"، لم تبدُ راقية مثل حانة فندق تاون هاوس، كما لم تكن رديئة قذرة مثل حانات شارع القناة. في كل مدينة صغيرة حانات حدودية متوسطة يلتقي فيها أصحاب الياقات الزرقاء والبيضاء بوصفهم أُنْدَادًا، وهذه الحانة بدت إحداها. عادةً ما تشتمل قائمة الطعام على أطعمة محلية تثير حيرة الغرباء، وبدا أن تخصص "المُشعل" طبق اسمه "قطع الكركند المقلية".

مررت أمام النوافذ الأمامية العريضة، متلَكِّئًا في سيري، ورأيت دننغ يشق طريقه بالداخل مُحِيًّا الناس، يصافح، ويربّت الخدود، وأخذ قبعة رجل وقذفها إلى رجل آخر يقف جوار آلة البولينغ، فالتقطها بمهارة وضحك الجميع. رجل لطيف. يمزح دومًا. اضحك تضحك الدنيا معك، أو شيء من هذا القبيل.

ثم رأيته جالسًا إلى طاولة قريبة من آلة البولينغ، وهممت بمواصلة سيري، لكنني كنت عطشان، وراقتني فكرة تناول كوب جعة، ومَشَرَب الحانة على الجانب الآخر خلف الصالة المكتظة بعيدًا عن الطاولة التي يجلس دننغ إليها مع مجموعة الرجال التي انضم إليها، لذا لن يراني، لكن بمقدوري متابعته عبر المرأة، رغم أنني لم أتوقع رؤية أمر غريب.

وعلاوة على ذلك، ما دمت سأملك في البلدة ستة أسابيع، فقد حان الوقت لأنتمي إلى المكان. لذا استدرت ودخلت إلى المكان الذي يضج بأصوات مبتهجة وضحكات رجال ثملين قليلًا وغناء دين مارتن لأغنية "ذات إز أمور". وجدت نادلات يطفن بأقداح الجعة وأطباق مليئة بقطع الكركند المقلية، ورأيت أعمدة دخان سجائر زرقاء، بالطبع.

8

«أراك تنظر من حين لآخر إلى تلك الطاولة بالخلف». سمعت صوتًا من جانبي. عندئذ كنت قد بقيت في الحانة مدة كافية لطلب كوب جعة ثانٍ وطبق صغير من قطع الكركند، رأيت أنني إذا لم أجربها على الأقل، فسأظل أتساءل دومًا.

التفت فرأيت رجلًا صغير الحجم ذا شعر مصفف للوراء، ووجه مستدير، وعينين سوداوين مفعمتين بالحيوية. بدا كسنجاب مبتهج. ابتسم ومد لي يده الشبيهة بأيدي الأطفال. رأيت على ذراعه وشم حورية عارية الصدر تلوي ذيلها المرن وتغمز بإحدى عينيها. قال: «شارلز فراتي. لكن لك أن تخاطبني بشاز، مثل كل الناس».

صافحته قائلاً: «جورج أمبرسون، لكن لك أن تخاطبني بجورج، مثل جميع الناس أيضًا».

ضحك، فضحكت أيضًا. ليس من اللائق أن يضحك المرء من مُزحه (لا سيما عندما تكون مزحًا صبيانية)، لكن بعض الناس ضحكاتهم مُعدية فلا يضحكون وحدهم أبدًا، وشاز فراتي كان أحدهم. جلبت نادلة له كأس جعة، فرفعها قائلاً: «نخبك يا جورج».

قلت: «سأشرب نخبي»، ولامستُ كأسه بطرف كأسِي.

نظر إلى الطاولة الخلفية الكبيرة في المرأة التي خلف المشرب وسألني: «هل تعرف أحدهم؟».

مسحت رغوة عن شفتي العليا وقلت: «لا. كل ما في الأمر أنهم يبدون مستمتعين أكثر من بقية الناس هنا».

ابتسم شاز قائلاً: «تلك طاولة توني تراكر، يجدر باسمه أن يُنقش عليها. توني وشقيقه فيل يملكان شركة شحن، ويملكان أيضاً معظم الأراضي في هذه البلدة، والبلدات المجاورة. فيل لا يظهر هنا كثيراً، مسافر معظم الأوقات، لكن توني لا يغيب كثيراً في ليالي الجمعة أو السبت، ولديه أصدقاء كثيرون أيضاً، يستمتعون بأوقاتهم دوماً، لكن فرانكي دنغ هو روح الحفل وبهجته، إنه صاحب النكات. كل الناس معجبون بتوني العجوز، لكنهم يحبُّون فرانكي».

- تبدو كأنك تعرفهم جميعاً.

- منذ سنوات. أعرف معظم سكان ديربي، لكنني لا أعرفك.

- لأنني لست من البلدة. أعمل في مجال العقارات.

جلبت النادلة إلى قطع الكركند وذهبت مسرعة. بدت القطع على الطبق كحيوان صغير دهسته سيارة للتو، لكن وجدت رائحتها رائعة ومذاقها أروع. على الأرجح كل لقمة منها فيها مليار جرام من الكولسترول، لكن في عام 1958 لا أحد يقلق بشأنه. قلت لشاز: «ساعدني على هذا الطبق».

- لا، هنيئاً لك. قادم من بوسطن؟ نيويورك؟

هزرت كتفي، فضحك قائلاً: «متكّم، هه؟ لا ألومك يا بن عمّي. اللسان الغاليت يُورد المَهالك. لكن لدي فكرة جيدة عما تعتزم فعله».

تسمّرتُ وشوكة مليئة بقطع الكركند في نصف طريقها إلى فمي. كان الجو دافئاً في الحانة، لكن اعتراني برد مفاجئ. سألته: «أحقاً؟».

مال شاز مقترباً مني، حتى شممت رائحة مرطب فيتاليس على شعره الممشط إلى الخلف ورائحة أقراص سن سن المنعشة لرائحة الفم في أنفاسه، وقال: «إذا قلتُ "موقع مركز تسوق محتمل"، فهل تخميني صحيح؟».

غمرني الارتياح. فكرة مجيئي إلى ديري بحثًا عن موقع مركز تسوق لم تخطر لي قط، لكنها فكرة جيدة. غمرت لشاز فراتي قائلاً: «لا يجوز لي التصريح بذلك».

- لا، لا يجوز لك بالطبع. العمل عمل، كما أقول دومًا. فلنصرف النظر عن الموضوع. لكن إذا رغبتَ يومًا في التفكير بشأن استشارة أحد سكان البلدة البسطاء، فسأود الاستماع. ولأريك حُسن نِيَّاتي، سأخبرك بمعلومة صغيرة. إذا لم تتفقد "مصنع كِتشنر للحديد والصلب" القديم بعد، فعليك بذلك. موقع مثالي. أما مراكز التسوق. أتعرف ما هي مراكز التسوق يا بُني؟

- موجة المستقبل.

أشار إلي بإصبعه كأنه مسدس وغمز. ضحكت مجددًا، لم أستطع منع نفسي، غالبًا بسبب ارتياحي لاكتشافي أن ليس جميع البالغين في ديري نسوا كيفية التعامل بود مع شخص غريب. قال: «أصبت».

- ومن يملك قطعة الأرض التي شُيِّدَ عليها مصنع كِتشنر للحديد والصلب يا شاز؟ الأخوان تراكر؟

- قلتُ إنهما يملكان معظم الأراضي هنا، وليس جميعها.

نظر إلى الحورية على ذراعه وخاطبها: «ميلي، هل أخبر جورج بمالك ذلك العقار الممتاز الواقع على بعد ميلين فقط من مركز هذه البلدة؟».

لوحث ميلي بذيلها المكسو بالحراشف وهزَّت نهديها الصغيرين. لم يشد شاز فراتي قبضته حتى يُحدِث هذا، بل بدا لي أن عضلات ذراعه تتحرك من تلقاء نفسها. حيلة جيدة. تساءلت عما إذا كان بمقدوره أيضًا إخراج الأرانب من القبعات.

قال: «حسنًا يا عزيزتي»، ونظر إلي: «في الحقيقة لك أن تنال ذلك العقار إذا شئت. أنا أشترى أفضل العقارات وأترك الباقي للأخوين تراكر. العمل عمل. هل لي أن أعطيك بطاقة عملي يا جورج؟».

- بالتأكيد.

أعطاني بطاقته، وقرأت المكتوب عليها ببساطة: شارلز "شاز" فراتي. أبيع. أشتري. أقايض. ووضعتها في جيب قميصي.

سألته: «بما أنك تعرف كل أولئك الناس ويعرفونك، فلماذا لست معهم هناك بدلاً من الجلوس عند المشرب مع الرجل الجديد في البلدة؟».

بدت عليه الدهشة، ثم استعاد طبيعته المرحية: «ما هذا السؤال الوقح يا بن عمي؟».

- إنني جديد في البلدة، لم أتعلم عنها الكثير. لا تؤاخذني.

- لا عليك. إنهم يتعاملون معي تجارياً لأنني أملك نصف أنزال البلدة، وصالتي السينما والفندق في وسط البلدة، وأحد المصارف، وجميع مكاتب الرهن في شرق ووسط مين. لكنهم لا يأكلون أو يشربون معي ولا يدعونني إلى منازلهم أو أنديتهم الخاصة لأنني عضو في القبيلة.

- لم أفهمك.

- أنا يهودي يا بن عمي.

رأى تعابير وجهي فابتسم قائلاً: «لم تكن تعرف؟ حتى عندما امتنعتُ عن أكل الكركند، لم تعرف. لقد تأثرتُ».

قلت: «كل ما في الأمر أنني أحاول استيعاب ما يجعل ذلك مانعاً».

ضحك كأني ألقيت عليه أفضل نكتة سمعها طوال العام: «إذن فأنت بريء ولست وقحاً».

رأيت في المرأة فرانك دننغ يتكلم، وتوني تراكر وأصدقاؤه يستمعون وعلى وجوههم ابتسامات عريضة، ثم انفجروا ضاحكين ضحكات هادرة، فتساءلت عما إذا ألقى دننغ عليهم إحدى النكات عن ثلاثة زنوج

عالقين في مصعد، أو نكتة أخرى أكثر طرافة وسخرية. ثلاثة يهود في ملعب غولف، ربما.

رآني شاز أنظر إليهم، فقال: «فرانك يعرف كيفية إشاعة جو المرح، كما قلت لك. هل تعرف مكان عمله؟ لا، نسيتُ أنك جديد في البلدة. يعمل في سوق الشارع المركزي، رئيس الجزارين. كما إنه يملك نصف المكان، لكنه لا يعلن هذه الحقيقة. أتعرف؟ فرانك له نصف الفضل في ازدهار السوق وأرباحه، السيدات ينجذبن إليه كما ينجذب النحل إلى العسل».

- أحمقًا؟!

- نعم، والرجال أيضًا يستلطفونه، لكن ليس دومًا، الرجال لا يحبون زير النساء دومًا.

ذكرني كلامه بهوس زوجتي السابقة الشديد بجوني ديب.

تابع: «لكنه لم يعد كما في السابق عندما كان يعاقر الشراب حتى موعد إغلاق الحانة، ثم يلعب البوكر مع رفاقه في مستودع البضائع حتى بزوغ الفجر. في هذه الأيام يتناول كوب جعة واحدًا، أو ربما اثنين، ثم يغادر. سترى بنفسك».

هذا سلوك أعرفه من مجهودات كرستي المتقطعة في التحكم بمقدار ما تشرب من الكحول بدلًا من الإقلاع عنه نهائيًا. كانت تنجح بعض الوقت، لكن إن عاجلاً أم آجلاً تنتكس. سألته: «هل لديه مشكلة إدمان؟».

قال: «لا أدري، لكن بالتأكيد لديه مشكلة في السيطرة على غضبه». نظر إلى الوشم على ذراعه: «ميلي، هل لاحظت أن كثيرًا من الرجال الطريفيين لديهم خصال سيئة؟».

قلبت ميلي ذيلها، ونظر شاز إلي متجهماً: «أرأيت؟ النساء يعرفن دومًا». التقط قطعة كركند، وحرّك عينيه من جانب إلى آخر على نحو

هزلي. كان رجلًا مُسلّيًا جدًّا، ولم يخطر لي قط أنه ربما يخفي شخصيته الحقيقية. لكن كما ألمح شان نفسه آنفًا، كنت ساذجًا قليلًا، لا سيما نظرًا إلى وجودي في ديري. قال: «لا تخبر الحاخام سنوريسالوت».

- سِرُّك بأمان معي.

من طريقة ميلان الجالسين إلى طاولة تراكر نحو فرانك، عرفت أنه بدأ يلقي نكتة أخرى. كان من الرجال الذين يتحدثون بأيديهم كثيرًا. رأيت يديه كبيرتين، وسهل علي تخيل إحداهما تحمل مطرقة حِرْفِيٍّ ما. قال شان: «كان صاحبًا مشاغبًا في المدرسة الثانوية. أعرف لأنني ارتدت معه مدرسة المقاطعة الموحّدة. لكنني كنت أتحاشاه غالبًا. تعرض للفصل المؤقت كثيرًا، دومًا بسبب الشجار. وكان من المفترض أن يلتحق بجامعة مين، لكنه جعل فتاة حُبلى وتزوجها. لكن بعد عام أو عامين من الزواج، أخذت زوجته رضيعها وهجرته، وهذا على الأرجح كان تصرفًا ذكيًا منها، نظرًا إلى سلوك فرانك عندئذ. فرانكي كان من نوع الذين يناسبهم قتال الألمان أو اليابانيين، حتى يُنْفَس عن جنونه، كما تعرف. لكن اتضح أنه غير لائق للخدمة العسكرية. لم أعرف السبب قط. ربما لديه قدمان مسطحتان، أو مرض في القلب، أو ضغط دم عال. لا أدري... لا أظنك ترغب في سماع هذه النميمة القديمة».

قلت: «بل أرغب، أجدها مشوقة». كانت مشوقة بالتأكيد. كنت قد دخلت إلى حانة "مُشعل المصابيح" لأتناول مشروبًا، لكنني عثرت على منجم ذهب. «تناول قطعة كركند أخرى».

قال: «لا أحتاج إلى دعوة»، وقذف قطعة في فمه، ثم أشار بإبهامه ناحية المرأة وهو يمضغ: «ولماذا لا أكل الكركند؟ انظر إلى أولئك الذين بالخلف، نصفهم كاثوليك، ومع هذا يلتهمون البرغر وشطائر اللحم والنقانق، في يوم الجمعة! من يستوعب الدين يا بن عمي؟».

قلت: «معك حق، أنا عن نفسي ميثودي عاصٍ. لا أظن السيد دننغ نال تعليمه الجامعي قط، أليس كذلك؟».

«بلى، بحلول وقت هروب زوجته الأولى في منتصف الليل، كان قد نال درجة الماجستير في تقطيع اللحم، كان بارعًا. ثم تورط في مزيد من المتاعب. وأجل، لإسرافه في الشرب علاقة بمتاعبه حسبما سمعت. الناس يحبون نقل الأقاويل، كما تعرف، وأصحاب مكاتب الرهن يسمعون كل شيء. لذا قرر السيد فولاندر -مالك السوق حينذاك- أن يجلس مع فرانكي ويحدثه بصراحة». هز شاز رأسه والتقط قطعة كركند أخرى، وتابع: «إذا عرف بيني فولاندر أن فرانكي دننغ سوف يملك نصف المكان بنهاية الحرب الكورية، لأصيب بنزيف دماغي على الأرجح. من الجيد أننا لا نستطيع رؤية المستقبل، أليس كذلك؟».

- لتعقّدت الأمور بالطبع.

كان شاز مستغرقًا في سرد قصته، وعندما طلبتُ من النادلة جلب كأسٍ جعة، لم يُمانع.

- قال بيني فولاندر إن فرانكي أفضل تلميذ عمل معه على الإطلاق، لكن إذا تورط في أي متاعب أخرى مع الشرطة، أي الشجار إثر أدنى استفزاز، فسيضطر إلى طرده. الكلمة تكفي للبيب، كما يقولون. بعدها اعتدل فرانكي، طلق زوجته الأولى بذريعة هجره بعدما اختفت عامًا أو عامين، ثم تزوج بعد وقت ليس بالطويل. عندئذٍ كانت الحرب مستعرة، وكان بإمكانه الانتقاء من السيدات كما يشاء. إنه جذاب، كما تعرف، ومعظم منافسيه كانوا وراء البحار على أي حال، لكنه استقر على دورس مكيني. كانت فتاة جميلة.

- لا بد أنها ما زالت جميلة.

«بالتأكيد يا بن عمي. جميلة كصورة. لديهما ثلاثة أو أربعة أطفال. أسرة جميلة». مال شاز مقتربًا مني مجددًا. «لكن فرانكي ما زال يثور

غضبًا من حين لآخر، ولا بد أنه صب جام غضبه على زوجته في الربيع الماضي، لأنها ظهرت في الكنيسة بكدمات على وجهها وبعد أسبوع طرده من المنزل، والآن يعيش في غرفة مستأجرة قريبًا من منزله، أملًا في مسامحتها له، على ما أظن. إن عاجلاً أم آجلاً ستفعل. إنه يعرف طريقة... أوه، انظر، ماذا قلت لك؟ إنه مختل».

رأيت دننغ يهيم بالنهوض، وبقية الرجال يخورون طالبين منه البقاء، لكنه هز رأسه وأشار إلى ساعته. ازدرد آخر جرعة من جعته، ثم انحنى وقبّل رأس رجل أصلع، فاندلعت ضحكات مجلجلة لاحقت دننغ وهو يسير نحو الباب.

وفي أثناء مروره جوارنا ربّت ظهر شاز وقال: «أبقى أنفك نظيفًا يا شازي، إنه طويل لا تليق به القذارة».

ثم غادر. نظر شاز إليّ، مبتسمًا ابتسامة السنجاب المبتهج، لكن عينيه لم تبتسما. وقال: «أليس ظريفًا؟».

- بالتأكيد.

9

أنا أحد الذين لا يعرفون ما يفكرون به إلى أن يكتبوه، لذا قضيت معظم أوقات عطلة نهاية الأسبوع في كتابة ملاحظات عما رأيته في ديري، وما فعلته، وما أعترزم فعله. اتّسعت ملاحظاتي لتشمل تفسيرًا لكيفية مجيئي إلى ديري أولاً، وبحلول يوم الأحد أدركت أنني بدأت مهمة كبيرة على دفتر ملاحظات بحجم الجيب وقلم حبر جاف. فخرجت يوم الأحد واشترت آلة كاتبة محمولة. نويت في البداية الذهاب إلى متجر الأدوات المكتبية المحلي، لكنني رأيت بطاقة شاز فراتي على طاولة المطبخ، فذهبت إليه. وجدت محله بشارع إيست سايد، مكتب رهن ضخّم كأنه مركز تسوق شامل، فوق بابه ثلاث كُرات ذهبية، كما يقتضي

التقليد، وشيء آخر أيضًا: حورية من الجص تلوح بذيلها وتغمز بإحدى عينيها، وبما أن هذه في مكان عام، فقد كانت ترتدي قميصًا على شكل حمالة صدر. فراتي نفسه لم يكن موجودًا، لكنني حصلت على آلة كاتبة ماركة سميث كورونا رائعة مقابل اثني عشر دولارًا. طلبت من البائع إخبار السيد فراتي بأن جورج رجل العقارات جاء إلى المحل.

- من دواعي سروري يا سيدي. أتود أن تترك له بطاقتك؟

سحقًا. لا بد لي من طباعة بضع بطاقات... أي سأذهب إلى متجر الأدوات المكتبية في نهاية المطاف. قلت: «نسيت بطاقتي في جيب السترة الأخرى. لكن أظن شاز سيتذكرني، تناولنا شرابًا معًا في حانة "المُشعل"».

عصر ذلك اليوم بدأتُ الإسهاب في تدوين ملاحظاتي.

10

اعتدت هبوط الطائرات فوق رأسي مباشرة. رُتبتُ توصيل الصحيفة والحليب إلى شقتي: قنان زجاجية سميكة تُجلب إلى عتبة الباب. ومثل جعة الجذور التي قدمها فرانك أنسيتي لي في رحلتي الأولى إلى 1958، وجدت الحليب غنيًا رائع المذاق. والكريمة كانت أفضل. لم أكن أعرف ما إذا اخترعت الكريمة الصناعية بعد، وعزمت على ألا أعرف، ما دامت لدي هذه.

انقضت الأيام سريعًا. قرأت ملاحظات آل تمبلتون عن أوزوالد حتى حفظت بعض فقراتها عن ظهر قلب. زرت المكتبة العامة وقرأت عن جرائم القتل وحوادث الاختفاء التي أرقت ديري عامي 1957 و1958، بحثت عن قصص عن فرانك دننغ وجدة مزاجه الشهيرة، لكنني لم أعثر على شيء، إذا ألقى القبض عليه يومًا، فلا بد أن قصته لم تصل إلى قسم الجرائم في الصحف المحلية، التي تفرد لها مساحة كبيرة في معظم

الأيام وصفحة كاملة في أيام الاثنين، عندما تشتمل على ملخص كامل لحماقات عطلة نهاية الأسبوع (معظمها تحدث بعد إغلاق الحانات). عثرت على قصة وحيدة عن والد عامل النظافة، وقعت أحداثها في أثناء حملة تبرعات عام 1955. ساهم سوق الشارع المركزي بعشرة في المئة من أرباحه للصليب الأحمر، للمساعدة بعدما ضرب الإعصاران كوني ودايان الساحل الشرقي، وقتلا مئتي شخص وسببًا فيضانًا مدمرًا في نيو إنغلاند. رأيت صورة لوالد هاري مبتسمًا ابتسامة نجوم السينما وهو يناول شيكًا كبيرًا للمدير الإقليمي للصليب الأحمر.

لم أذهب للتسوق في سوق الشارع المركزي، لكن في عطلتي نهاية أسبوع، الأخيرة في سبتمبر والأولى في أكتوبر، تعقبتُ جزار ديري المفضل بعدما أنهى عمله الذي استمر نصف يوم السبت خلف نضد بيع اللحم. استأجرت سيارة شيفروليه من المطار لأجل هذه المهمة، رأيت أن الصنلاينز لافته ولا تصلح للتعقب.

في عصر يوم السبت الأول ذهب دننغ إلى سوق سلع مستعملة في بروير بسيارة بوتنيك، يركنها في مرأب بوسط البلدة تُدفع رسومه شهريًا، نادرًا ما يقودها في أيام العمل. وفي يوم الأحد التالي، قاد سيارته إلى منزله بشارع كوسوث، واصطحب أطفاله لمشاهدة فيلمي ديزني في صالة علاء الدين. رغم المسافة بدا لي تروي، الابن الأكبر، شاعرًا بملل شديد عند دخوله صالة السينما وخروجه.

لم يدخل دننغ المنزل عندما اصطحب الأطفال وعندما أعادهم. أطلق بوق السيارة لينبّه الأطفال عند وصوله، وأنزلهم على الرصيف عند عودتهم، وشاهدهم حتى دخلوا المنزل. حتى عندئذٍ لم ينطلق بسيارته فورًا، لبث جالسًا يدخل سيجارة خلف عجلة قيادة السيارة ومحركها دائر، ربما كان يأمل أن تخرج الجميلة دورس إليه وتحادثه. وعندما

تأكد أنها لن تخرج، استخدم مدخل منزل جاره ليستدير بالسيارة وابتعد مسرعًا، فأصدرت إطاراتها صريرًا ودخانًا أزرق.

انكملت في مقعد سيارتي المستأجرة، لكنني لم أكن بحاجة إلى ذلك، لأن دننغ لم ينظر ناحيتي عند مروره جوارى. وبعدما ابتعد مسافة آمنة في شارع ويتشام، واصلت تعقبه. أعاد سيارته إلى المرأب، وذهب إلى "المُشعل" وتناول كأس جعة واحدة عند المشرب الخالي من الزبائن تقريبًا، ثم سار بخطى متثاقلة مطأطئًا رأسه إلى غرف إدنا برايس في جادة تشاريتي.

وفي يوم السبت التالي، الرابع من أكتوبر، اصطحب أطفاله إلى مباراة كرة قدم بجامعة مين في أورونو، على بُعد قرابة ثلاثين ميلًا. ركنت سيارتي في جادة ستيلووتر وانتظرت نهاية المباراة. وفي طريق عودتهم توقفوا عند مطعم ناينتي-فايفر لتناول العشاء. ركنت سيارتي عند الطرف البعيد في موقف السيارات وانتظرت خروجهم، وخطر لي أن حياة المحقق الخاص مملة، مهما جعلتنا الأفلام نظنه.

كان الغسق قد بدأ يزحف على شارع كوسوث عندما عاد دننغ وأطفاله إلى المنزل، بدا واضحًا أن تروي استمتع بكرة القدم أكثر من استمتاعه بمغامرات سيندريللا، خرج من سيارة والده مبتسمًا ملوِّحًا براية فريق بلاك بيرز، توغا وهاري أيضًا كانا متحمسين ويحملان رايتين، لكن إيلين لم تبدُ متحمسة، كانت مستغرقة في نوم عميق، حملها دننغ إلى باب المنزل، وهذه المرة ظهرت السيدة دننغ لوهلة وجيزة، مدة كافية لحمل الفتاة الصغيرة.

قال دننغ كلامًا لدورس، وبدا لي أن ردّها لم يكن مُرضيًا له. كنت أقف على بُعد مسافة لم تمكّنني من قراءة تعابير وجه دننغ، لكن رأيت يلوّح بإصبعه نحوها في أثناء كلامه. استمعتُ إليه، وهزت رأسها، واستدارت ودخلت. لبث واقفًا هنيهة، ثم نزع قبعته وضرب بها ساقه.

كل ذلك كان مثيرًا للاهتمام، وتعلمت منه طبيعة علاقتهم، لكن لن يفيدني بشيء، ليس ما كنت أبحث عنه.

أدركت ذلك في اليوم التالي. كنت قد قررت الخروج في طلعتين استكشافيتين فقط في يوم الأحد ذلك، ورأيت أن الإكثار من تعقب الرجل، ولو من سيارة بُنية مستأجرة غير لافتة، ينطوي على مخاطرة. لم أر شيئًا في الطلعة الأولى وظننت أنه لن يخرج مرة أخرى على الأرجح، إذ صارت السماء رمادية وتساقط رذاذ أمطار خفيف، خمنت أنه يشاهد مباراة على التلفاز مع بقية رفاقه في السكن، وكلهم يدخلون. بيد أنني كنت مخطئًا. حالما انعطفت إلى شارع ويتشام في طلعتي الثانية، رأيته يسير نحو وسط البلدة، مرتديًا بنطال جينز أزرق ومعطفًا واقيًا وقبعة ذات حواف عريضة مقاومة للماء. تجاوزته بسيارتي وركنتها في الشارع الرئيسي على بعد مربع سكني من المرأب الذي يوقف فيه سيارته. وبعد عشرين دقيقة كنت أتعبه إلى خارج البلدة ناحية الغرب، وكانت السيارات قليلة على الطريق، فتبعته من مسافة بعيدة.

اتضح لي أن وجهته هي مقبرة لونغفيو، بعد ميلين من سينما سيارات ديربي، توقف عند كشك زهور قبالة المقبرة، وعند مروري جواره رأيته يشتري سلّتين من زهور الخريف من سيدة عجوز تحمل مظلة سوداء كبيرة فوقهما في أثناء البيع. شاهدته عبر مرآتي الخلفية وهو يضع الزهور في سيارته على مقعد الراكب، ويعود خلف عجلة القيادة، ويقود في طريق الدخول إلى المقبرة.

استدرت وقدت عائدًا إلى مقبرة لونغفيو. كنت أخاطر، لكن لا بد، لأن هذا التطور في الأحداث بدا لي جيدًا. وجدت موقف السيارات خاليًا عدا عن شاحنتين صغيرتين محملتين بمعدات تعهد الأراضي والحدائق ورافعة صغيرة عليها انبعاجات بدت كأنها من مخلفات الحرب. لم أجد

أثرًا لبوتنيك دننغ. قدت عبر الموقف نحو مسار مغطى بالحصى يفضي إلى المقبرة نفسها، وهي ضخمة، تمتد على مساحة عشرة هكتارات تقريبًا تتخللها تلال.

رأيت على أرضية المقبرة مسارات أصغر تتفرع من المسار الرئيسي، وكان الضباب الأرضي يرتفع من المنخفضات والأودية، وبدأ الرذاذ يتحول إلى مطر. هذا ليس يومًا مناسبًا لزيارة عزيز راحل، ودننغ وحده في المكان. كانت سيارته البوتنيك مركونة في منتصف تل على أحد المسارات الفرعية، من السهل ملاحظتها. رأيته يضع سلّتي الزهور أمام قبرين متجاورين، افترضت أنهما قبرا والديه، لكنني لم أكثرث، عدت إلى سيارتي وتركت الرجل وشأنه.

عند عودتي إلى شقتي بجادة هاريس، وجدت المطر منهمرًا على البلدة بغزارة، لا بد أن المياه غمرت وسط البلدة والقناة، وذلك الهدير الغريب المنبعث من الأرضيات الخرسانية في وسط البلدة المنخفض سيكون ملحوظًا بوضوح أكثر من أي وقت مضى. لم أكثرث بذلك أيضًا. فتحت دفتر ملاحظاتي، وقلبت معظم صفحاته ثم وجدت صفحة خالية عند نهايته، وكتبت: 5 أكتوبر، 3:45 مساء. ذهب دننغ إلى مقبرة لونغفيو. وضع زهورًا على قبري والديه (?). أمطار. وجدت ما أبحث عنه.

الفصل الثامن

1

في الأسابيع السابقة للهاوين، تفقّد السيد جورج أمبرسون العقارات المخصصة للاستغلال التجاري في ديري والبلدات المحيطة بها، كلها تقريبًا.

كنت أدرك أنني لن أقبل في وقت قصير بوصفي أحد أهل البلدة، لكنني أردت أن يعتاد السكان المحليون مرأى سيارتي الحمراء الرياضية ذات السقف المتحرك، وأكون مجرد جزء من المشهد المعتاد في البلدة. ها هو رجل العقارات، ظهر منذ قرابة شهر، إذا كان بارعًا في مهنته، فربما يكسب شخصٌ ما منه مالا.

كنت عندما يسألني الناس عما أبحث عنه أغمز وأبتسم، وعندما يسألونني عن مدة بقائي في البلدة، أقول لهم إنني لا أستطيع الجزم. تعلمت جغرافيا البلدة وبدأت تعلّم المصطلحات الجغرافية السائدة في عام 1958. تعلمت، مثلًا، أن الحرب تعني الحرب العالمية الثانية، وأن النزاع يعني الحرب الكورية. وكلتاها وضعت أوزارها. كان الناس قلقين بشأن روسيا وما يسمى بـ "فارق الصواريخ"، لكن لم يكن قلقًا شديدًا. وكانوا قلقين بشأن جنوح الأحداث، لكن لم يكن قلقًا شديدًا. وكانت البلاد تمر بركود اقتصادي، لكن الناس عاشوا من قبل ركودًا أسوأ. عندما يساوم المرء في صفقة ما، من المقبول تمامًا أن يقول إنه تعرض لاستغلال اليهود (أو خداع الغجر). لم يكن الناس شديدي

الحساسية إزاء الإهانات العنصرية. في الجنوب، كان جيم كرو يحكم. وفي موسكو، كان نيكيتا خروشيف يخور مهدداً. وفي واشنطن، كان الرئيس أيزنهاور يهذر مبتهجاً.

حرصت على تفقُّد "مصنع كتشنر للحديد والصلب" المهجور بعد وقت ليس بالطويل من حديثي مع شاز فراتي، وجدته في أرض جرداء شاسعة شمال البلدة، وصحيح أنه سيكون موقعاً مثاليًا لمركز تسوق حالما يصل إليه امتداد "طريق ميل في الدقيقة السريع". لكن في يوم زيارتي، بعدما تركت سيارتي ومشيت عندما صار الطريق وعراً، بدا لي المكان كأنه أطلال حضارة سادت ثم بادت: أكوام من القرميد وكتل الحديد الصدئ من مخلفات الآلات القديمة متناثرة وسط أعشاب طويلة، وفي المنتصف مدخنة منهارة، جانبها مسودّان بالسخام، وتجويفها الضخم مشبع بالظلام، لأمكنني السير بداخلها إذا انحنيت قليلاً، رغم أنني لست رجلاً قصير القامة.

رأيت أماكن كثيرة في ديري في تلك الأسابيع السابقة للهاووين، وأحسست بكثير مما يجيش في البلدة. المقيمون القدامى تعاملوا معي بتهذيب، لكن -باستثناء واحد- لم يكونوا ودودين قط. شاز فراتي كان الاستثناء، وعندما أعيد التفكير أرى أن ما أفضى به إلي دون طلب مني كان ينبغي أن يثير استغرابي، لكن عقلي كان مشغولاً بأمر كثيرة، وفراتي لم يبدُ لي شديد الأهمية. قلت لنفسني: أحياناً يقابل المرء شخصاً ودوداً، هذا كل ما في الأمر، وصرفت تفكيري عنه. قطعاً لم تكن لدي فكرة أن رجلاً اسمه بيل تيركوت قد أوعز لفراتي بالتقرب مني.

بيل تيركوت، الذي أسميه "بلا حمالات".

بيفي-الليفي كانت قد قالت إنها ترى أن الأوقات السيئة في ديربي قد ولّت، لكن بعدما رأيت الكثير (وأحسست بالكثير على نحو أخص)، صرت أعتقد أن ديربي ليست مثل الأماكن الأخرى. ثمة خطبٌ يكتنف ديربي. في البداية حاولت أن أقول لنفسي إن الخطب فيّ أنا، لا البلدة. أنا الغريب، أنا المسافر العابر، والطبيعي هو أن أحس بغربة أي مكان أذهب إليه، وأحس بخللٍ ما فيه، مثل المدن التي تبدو كأحلام غرائبية سيئة في روايات بول باولز. اقتنعت بهذا في البداية، لكن مع مرور الأيام ومواصليتي استكشاف بيئتي الجديدة، بدأت قناعاتي تهتز. حتى إنني بدأت أشكك في جزم بيفرلي مارش بأن الأوقات السيئة قد ولّت، وتخيّلت (في ليالي الأرق، وهي كثيرة) أنها هي نفسها كانت متشككة. ألم ألمح بذرة شك في عينيها؟ نعم، كانت نظرة شخص لا يصدّق أمرًا تمامًا لكنه يريد أن يصدقه، بل ربما يحتاج أن يصدقه.

ثمة خطبٌ ما، خطبٌ جلل.

مررت ببعض المنازل الخالية بدت لي كأنها تحدّق كما يحدّق مَنْ يعانون مرضًا عقليًا مستعصيًا. رأيت حظيرة مهجورة في ضواحي البلدة، كان باب عليّة تخزين القش يتأرجح ببطء، يُفتح ويغلق متحركًا على مفاصل صدئة، يكشف عن ظلام، ثم يخفيه، ثم يكشف عنه مجددًا. وهناك سياج متداعٍ في شارع كوسوث، على بعد مربع سكني واحد من المنزل الذي تعيش فيه السيدة دنغ وأطفالها، بدا لي ذلك السياج كأنما قُذف من خلاله شيءٌ -أو شخص- إلى البارنز بالأسفل. وفي ساحة لعب أطفال، رأيت لعبة دوارة تدور ببطء، رغم عدم وجود أطفال يدفعونها أو رياح ملحوظة، وتصدر صريرًا مزعجًا. وذات يوم رأيت تمثالًا خشبيًا ليسوع طافيًا في القناة منجرّفًا إلى النفق الممتد أسفل شارع القناة، كان بطول ثلاثة أقدام، وأسنانه البادية خلف شفثيه بدت كمزيج من

تكشيرة وابتسامه، وحول جبهته تاج ملتوٍ من الأشواك، وأسفل عيني الشيء الغريب رُسمت دموع دامية. بدت كتميمة سحرية. وعلى ما يسمى بـ "جسر التقبيل" في متنزه باسي، بين كتابات عن الروح المدرسية والحب الأبدي، نقش شخصُ الكلمات: سأقتل أُمي قريبًا، وأسفلها أضاف آخر: ربما تتأخر، إنها مليئة بالأمراض. ثم في عصر أحد الأيام، في أثناء سيرِي على الجانب الشرقي من البارنز، سمعت صراخًا فظيئًا، فرفعت بصري ورأيت على مبعدة هيئة رجل نحيل يقف على جسر السكة الحديدية جي إس آند ديليو إم، وفي يده ترتفع عصا وتهبط، كان ينهال ضربًا على شيء ما. ثم توقف الصراخ، وقلت لنفسِي: كان كلبًا، وقد قضى الرجل عليه. جلبه إلى هنا بقيد وضربه حتى قتله. لم تكن لدي وسيلة لمعرفة هذا، بالطبع... لكنني عرفت. كنت متأكدًا عندئذٍ، ومتأكد الآن.

مكتبة

t.me/soramnqraa

ثمة خطب.

أمرٌ سيئ.

هل لأي من هذه الأشياء تأثير مهم في القصة التي أرويها؟ قصة والد عامل النظافة، وقصة لي هارفي أوزوالد (صاحب الابتسامة التي تشي بمعرفته سرًا والعينين الرماديتين الماكرتين)؟ لا أدري على وجه التأكيد، لكن يمكنني إخباركم بأمر آخر: كان يوجد شيء بداخل تلك المدخنة المنهارة في مصنع كتشنر للحديد والصلب. لا أعرف ما هو ولا أريد أن أعرف، لكن في مدخلها رأيت كومة عظام منهوشة وطوقًا صغيرًا ممضوغًا معلقٌ منه جرس، طوقِ قِط أحبّه طفلٌ ما. وفي أعماق المدخنة تحرك شيء ما.

بدًا لي أن ذلك "الشيء" يهمس بداخل رأسي: ادخل وانظر، لا تشغل بالك بما يوجد حولك يا جيكي، تعال وانظر، تفضل بالزيارة، الزمن لا

يهم هنا، هنا الزمن ينجرّف بعيدًا، تعرف أنك تريد أن تدخل، تعرف أن الفضول يراودك، ربما يكون جُحر أرنب آخر، منفذًا زمنيًا آخر.

ربما يكون جحر أرنب، لكنني استبعدت ذلك. أظن أن ديري هناك بالداخل، ومعها كل خطب يكتنفها، كل شيء منحرف بداخل تلك المدخنة، في سُبَات، جاعلاً الناس يظنون أن الأوقات السيئة قد ولّت، منتظرًا غفلتهم ونسيانهم للأوقات السيئة التي مروا بها. غادرت مسرعًا، ولم أعد قط إلى ذلك الجزء من ديري.

3

ذات يوم في الأسبوع الثاني من أكتوبر، وبحلول ذلك الوقت صارت أشجار البلوط والدردار في شارع كوسوث ملونة بالأحمر والذهبي، زُرت مركز ترفيه وست سايد مرة أخرى. ما من صياد عقارات يحترم نفسه قد يهمل التحقق الكامل من قيمة عقار في موقع ممتاز كذلك، وسألت عدة أشخاص في الشارع عما كان المبنى يبدو عليه بالداخل (وجدت الباب موصدًا بقفل، بالطبع) وعن الوقت الذي أُغلق فيه.

أحد الأشخاص الذين تحدثت معهم كانت دورس دنغ. كان شاز فراتي قد قال عنها: جميلة كصورة. عبارة مبتذلة لا معنى لها، لكنها صحيحة في هذه الحالة. رسمت السنوات خطوطًا رفيعة على جانبي عينيها وتجاعيد أعمق قليلًا على جانبي فمها، لكن لديها بشرة رائعة وقوام ناهد بديعًا (في 1958، أيام ذروة شهرة جاين مانسفيلد، كان النهدان الممثلتان يُعدّان جذابين وليسا مُحَرَجِينَ). تحدثنا واقفين على درجات سلم مدخل منزلها. لم يكن من اللائق أن تدعوني إلى الداخل والأطفال في المدرسة، لأصبحثُ موضوع نميّة بين الجيران، لا سيما أن زوجها «يعيش بالخارج». كانت تحمل منفضة غبار بيد وسيجارة

باليد الأخرى، وتضع قنينة سائل لتلميع الأثاث في جيب مئزرها. ومثل معظم أهل ديري، كانت مهذبة لكنها متحفظة.

قالت إن مركز ترفيه ويست سايد كان مكاناً رائعاً للأطفال، وأفضل ما فيه أنه قريب يمكن للأطفال الذهاب إليه بعد المدرسة والتراكم فيه كما يحلو لهم، وكان بوسعها رؤية ساحة اللعب وملعب كرة السلة من نافذة مطبخها، وقد أحزنتها رؤية المكان خالياً. وقالت إن المكان أغلق إثر تخفيض ميزانيته، لكن طريقة تذبذب عينيها وزم شفيتها أوجت لي بأمر آخر: أنه أغلق في وقت وقوع حوادث قتل الأطفال واختفائهم، وأن خفض الميزانية كان أمراً ثانوياً.

شكرتها وناولتها إحدى بطاقات عملي المطبوعة حديثاً، فأخذتها وابتمت لي ساهمة، وأغلقت الباب. أغلقته برفق، لم تصفعه، لكنني سمعت من خلفه صوت السلسلة التي تؤمّن إغلاقه.

رأيت أن المركز الترفيهي ربما يؤدي غرضي عندما يأتي الهالوين، لكنني لم أحب المكان. لم أتوقع صعوبات في الدخول إليه، وإحدى النوافذ الأمامية ستتيح لي رؤية جيدة للشارع. ربما يأتي دننغ بسيارته وليس ماشياً، لكنني عرفت سيارته، وسيأتي بعد هبوط الظلام، بحسب قصة هاري. لكن توجد مصابيح في الشارع.

وبالطبع قدرتي على رؤية الشارع قد تعني أن دننغ أيضاً ربما يراني، وما لم يكن شديد التركيز على ما جاء لفعله، فبالتأكيد سيراني عندما أركض نحوه. لدي مسدس، لكنه لا يصيب الهدف بدقة إلا على بُعد خمس عشرة ياردة، لذا لا بد أن أقرب أكثر قبل أن أتجاسر على إطلاق النار، لأن شارع كوسوث في ليلة الهالوين يعج بصغار الأشباح والعفاريت. مع ذلك ينبغي ألا أنتظر حتى يدخل دننغ المنزل قبل أن أندخل، فبحسب قصة هاري شرع زوج دورس دننغ المعتوه في العمل

فورًا، وعندما خرج هاري من الحمام رآهم صرعى جميعًا عدا إيلين. إذا انتظرتُ، فربما أرى ما رآه هاري: دماغ والدته متناثرًا على الأريكة. لم أسافر أكثر من نصف قرن لأنقذ واحدًا منهم فقط. إذن ماذا لو رأي دننغ قادمًا؟ أنا أحمل مسدسًا، وهو يحمل مطرقة، ربما يأخذها من درج الأدوات في المنزل الذي يسكن فيه. إذا اندفع نحوي مهاجمًا، فسيكون ذلك جيدًا، سأكون مثل مهرّجي مسابقات رعاية البقر الذين يشتتون انتباه الثور الهائج، سأتقافز وأصبح حتى يقترب مني، ثم أرديه برصاصتين في صدره.

إذا افترضت أنني سأقدر على ضغط الزناد.

وإذا افترضت أن المسدس سيعمل. كنت قد جربته في حفرة حصى في ضواحي البلدة، وبدا لي أنه يعمل جيدًا... لكن الماضي عنيد. لا يريد أن يُغيّر.

4

إثر مزيد من التفكير، رأيت أنه ربما يوجد موقع أفضل للمراقبة في ليلة الهالوين، سأحتاج إلى قليل من الحظ، ليس كثيرًا. الرب يعلم أن هناك كثيرًا من العقارات للبيع في هذه المنطقة. هذا ما قاله الساقى فريد تومي في أول ليلة لي في ديري. واستكشافاتي أكدت لي ذلك. في أعقاب جرائم القتل (وفىضان عام 57 المدمر، لا تنسوا ذلك)، بدا أن نصف البلدة عُرضت للبيع. في بلدة أكثر ترحيبًا بالغرباء على الأرجح لمُنح مشتري عقارات مثلي مفاتيح البلدة وحظي بليلة مع ملكة جمالها بحلول هذا الوقت.

في شارع لم أستكشفه كانت توجد جادة ويمور، على بعد مربع سكني جنوب شارع كوسوث، إذن ستكون باحات ويمور الخلفية متاخمة لباحات كوسوث الخلفية. لن يضيرني التحقق.

وجدت المنزل رقم 206 في جادة ويمور مأهولاً، لكن المنزل الذي إلى يساره، رقم 202، بدا لي كدعوة مستجابة. رأيت طلاءه الرمادي جديداً وألواح سقفه جديدة، لكن مصاريع نوافذه مغلقة بإحكام، وفي مرجته المشدبة حديثاً لافتة رأيتها في جميع أنحاء البلدة: للبيع، من خبراء عقارات ديري. وتضمنت هذه اللافتة دعوة للاتصال بالخبير كيث هيني لمناقشة التفاصيل المالية. لم تكن لدي نية في الاتصال به، لكنني ركنت سيارتي الصنلاينر في المدخل المسفلت حديثاً (أحدهم كان يبذل كل ما بوسعه في سبيل بيع هذا العقار)، وسرت إلى الباحة الخلفية، مرفوع الرأس معتدّاً بنفسي. كنت قد اكتشفت عدة أشياء وأنا أستكشف بيتتي الجديدة، أحدها أنه إذا تظاهر المرء بأنه ينتمي إلى مكان بعينه، فسيصدق الناس. مكتبة سُر من قرأ

وجدت عشب الباحة الخلفية مقصوفاً على نحو جميل، حتى يبدو أخضر يانعاً، ورأيت جزاة عشب تُدفع يدوياً مخزنة تحت مظلة وشفراتها مغطاة بمشمع أخضر، وإلى جانب الباب المفضي إلى القبو وجار عليه لافتة تُظهر اهتمام كيث هيني الشديد بالتفاصيل: ها هو وجار كلبك. وبالداخل كومة أكياس أوراق شجر وعليها مجرفة ومقص لتثبيتها. في عام 2011 تُحفظ الأدوات في مكان مغلق آمن، لكن هنا في 1958 حرص شخصٌ ما على إبعادها عن المطر ورأى أنه أحسن صنعاً. كنت متأكداً أن المنزل موصد، لكن لا بأس، لم أكن أعتزم ارتكاب جريمة اقتحامه.

وعند نهاية الباحة الخلفية للمنزل رقم 202 بجادة ويمور وجدت سياجاً من أجمات يبلغ ارتفاعه ستة أقدام، أي أقل من طولي بقليل، ورغم أنه كثيف، بمقدور رجل أن يخترقه بسهولة إذا لم يمانع بضعة خدوش. والأفضل من كل ذلك، عندما سرت إلى الركن الأيمن البعيد، خلف المرأب، وجدت نفسي قادراً على النظر عبر زاوية مائلة إلى باحة منزل دننغ. رأيت دراجتين هوائيتين، إحداهما دراجة صبيان ماركة

شوين، مائلة على مسند، والأخرى، ملقاة على جانبها كحصان قزم نافق، كانت دراجة إيلين دننغ، تأكدت من هذا عندما رأيت عجلات التدريب على جانبيها.

كما رأيت عدة ألعاب أطفال ملقاة هنا وهناك، إحداها بندقية هاري دننغ الهوائية.

5

إذا سبق أن شارك أحدكم في مسرحية للهواة، أو أخرج مسرحية طلاب، وهذا ما فعلته عدة مرات في ثانوية ليسبون، فسيعرف أن الأيام السابقة للعرض الأول مثل هذه الأيام السابقة للهالوين في نظري. في البداية، يسود التراخي أجواء البروفات، إضافة إلى الارتجالات، وتبادل النكات، والمزاح الخشن، والمغازلات بين الجنسين. إذا أخطأ أحد عبارة أو أغفل إشارة بدء في البروفات الأولى، يجدها زملاؤه مناسبة للضحك، وإذا جاء ممثل متأخرًا خمس عشرة دقيقة، فربما يتلقى توبيخًا خفيفًا فحسب.

بعد ذلك تبدو ليلة العرض الأول واقعًا حقيقيًا وليست هزلًا، فتختفي الارتجالات، ورغم أن المزاح يستمر، فإن الضحكات تبدو مشبعة بتوتر لم يكن موجودًا من قبل. العبارات الخاطئة وحوادث السهو تصبح مثيرة للحنق بعدما كانت مسلية. وأي ممثل يأتي متأخرًا بعد الانتهاء من تجهيز المسرح واقتراب يوم العرض الأول يعرض نفسه للسُّحْل على يد المخرج.

ثم تأتي ليلة العرض. يرتدي الممثلون أزياءهم ويضعون مكياجهم. بعضهم مرتعبون، وجميعهم يشعرون بأنهم غير مستعدين. عما قريب سيواجهون صالة مليئة بالناس جاؤوا ليشاهدوا عرضهم. ما بدا بعيدًا في أيام خشبة المسرح الخالية من أي ديكور قد جاء في النهاية. وقبل

رفع الستار، يهرع هاملت أو ويلي لومان أو بلانش دوبوا إلى أقرب
مرحاض ليتقيأ. يحدث هذا دومًا.
ثقوا بي، يتقيؤون دومًا.

6

في ساعات الصباح المبكرة يوم الهالوين، لم أجد نفسي في ديري،
بل في المحيط، محيط عاصف، متشبثًا بحاجز سفينة ضخمة، يخت
على ما أظن، على وشك الغرق. انهمرت على وجهي أمطار غزيرة تدفعها
عاصفة عاتية، واندفعت نحوِي أمواج هائلة مسودة من الأسفل وقممها
مكللة برغوة خضراء متخثرة، ارتفع اليخت ودار حول نفسه، ثم هوى
بعنف في دوامة.

استيقظت من الحلم وقلبي يخفق بشدة ويدي ما تزالان منقبضتين
من محاولتي التشبث بالحاجز الذي اختلقه دماغي. إلا أن الأمر لم يكن
من تأثير دماغي فحسب، لأن السرير ما زال يعلو ويهبط. بدا أن حبال
معدتي انحلت من العضلات التي من المفترض أن تثبتها في مكانها.

في مثل هذه اللحظات، يكاد الجسد أن يكون أكثر حكمة من الدماغ.
أبعدت عني الأغطية وهرولت إلى الحمام، وارتطمت بالكرسي الأصفر
المقيد عند عبوري المطبخ. ستؤلمني أصابع قدمي لاحقًا، لكن عندئذٍ
لم أشعر بشيء. حاولت إغلاق حلقي، لكن لم أنجح إلا جزئيًا، سمعت
صوتًا غريبًا يتسرب منه إلى فمي. صوت تحشرج حلقي بالقيء.
معدتي كانت اليخت، تعلو ثم تهبط بعنف. تهالكتُ على ركبتي أمام
المرحاض وتقيأت عشائي. وبعده خرج الغداء، ثم إفطار اليوم السابق:
رباه، لحم خنزير وبيض. وإثر تفكيري بكل تلك الدهون اللامعة، بدأت
أتقيأ مجددًا. هدأت معدتي قليلًا. ثم أحسست بأن كل طعام أكلته خلال
الأسبوع الماضي يتهاى للخروج.

وحالما بدأ الأمل يراودني في أن وعكتي انتهت، ارتجّت أمعائي
ارتجاجًا فظيعًا، فنهضتُ وجِلًا، واقتعدتُ المرحاض قبل تدفق كل شيء
في أرجاء الحمام.

لا. ليس كل شيء. ليس بعد. انقبضت معدتي بشدة مجددًا في وقت
تقلّص أمعائي نفسه. لم يكن بوسعي فعل شيء سوى الانحناء للأمام
والتقيؤ في الحوض.

استمر هذا الحال حتى ظهر يوم الهالوين. وبحلول ذلك الوقت لم
تعد فتحتا إخراجي تفرزان شيئًا سوى سائل مائي. كلما تقيأت، وكلما
تقلّصت أمعائي، تخطر لي الفكرة نفسها: الماضي لا يريد أن يُغيّر.
الماضي عنيد.

لكنني كنت عازمًا أشد العزم على التصدي لفرانك دننغ الليلة، حتى
إذا ما زلت أتقيأ وأتغوط مياهاً رمادية، كنت عازمًا، حتى إذا مت. كنت
عازمًا.

7

السيد نوربرت كين، مالك صيدلية الشارع المركزي، كان خلف نضد
البيع عندما دخلت عصر يوم الجمعة ذاك. رفعت المروحة ذات الأطراف
الخشبية فوق رأسه ما تبقى من شعره في رقصة متموجة، كأنها شبّاك
عناكب هبّت عليها نسمة صيف. مجرد النظر إلى شعره جعل معدتي
ترتج ارتجاجًا تحذيريًا. كان نحيلًا بداخل ردائه الأبيض القطني، كأنه
يعاني سوء التغذية، وعندما رأيته قادمًا، انعقفت شفّته الشاحبتان
بابتسامة: «تبدو متوعكًا قليلًا يا صديقي».

تكلّمت بصوت مبحوح لم يبد كصوتي: «هل لديك كاوبكتيت؟»،
وتساءلت عما إذا لم يكن قد اخترع بعد.

«هل تعاني إسهالاً؟». انعكس ضوء مصباح فوق رأسه على عدستي نظارته الصغيرة ثم انزلق عنهما عندما أدار رأسه. قلت لنفسى: كما تنزلق الزبدة على مقلاة. وإثر الفكرة ارتجت معدتي مرة أخرى. «إنه شائع في البلدة. يؤسفني أنك مقبل على أربع وعشرين ساعة فظيعة. السبب جرثومة على الأرجح، ربما التقطتها عند استخدامك حماماً عاماً ونسيت غسل يديك. كثير من الناس يتكاسلون عن...».

- هل لديك كاوبكتيت أم لا؟

- بالتأكيد. في الممر الثاني.

- وهل لديك سراويل حَصْر؟

انفجرت الشفتان النحيلتان. ذكر سراويل الحصر يضحك الناس، بالطبع. إلا عندما يحتاجون إليها هم أنفسهم. قال: «الممر الخامس، لكن لن تحتاج إليها إذا بقيت قريباً من المنزل. ونظراً إلى شحوبك يا سيدي... وغزارة تعرُّقك... من الحكمة أن تبقى قريباً من المنزل».

قلت: «شكراً». وتخيَّلت لكمه على فمه حتى يبتلع طقم أسنانه. كيف هو مذاقها يا صاح؟

تسوَّقتُ ببطء، غير راغب في رج أحشائي المائعة أكثر مما هو ضروري. حصلت على الكاوبكتيت (بحجم اقتصادي كبير)، ثم سراويل الحصر (أكبر حجم متوفر)، وجدتها ضمن مستلزمات الجراحة، بين أكياس الحقن الشرجية ولفافات أنابيب بلاستيكية صفراء لم أرغب في معرفة الغرض منها. وجدت أيضاً حفاضات بالغين، لكنني وقفت متردداً أمامها. إذا دعت الضرورة سأحشو سراويل الحصر بمناشف الأطباق. وجدتُ الفكرة مضحكة، ورغم بؤسى جاهدت حتى لا أضحك، الضحك في حالتي الحرجة ربما يتسبَّب في كارثة.

أحصى الصيدلي مشترياتى بالحركة البطيئة، كما لو أنه استشعر شدة ضيقي. ثم ناولته ورقة من فئة خمسة دولارات بيد ترتعش بوضوح.

- هل من شيء آخر؟

- أمر واحد فقط. إنني أعاني، وأنت ترى أنني أعاني، فلماذا تبتسم بحق الجحيم؟

تقهقر السيد كين خطوة وتلاشت الابتسامة من شفتيه: «أؤكد لك أنني لم أبتسم. أمل حقًا أن تتحسن حالتك».

تقلصت أمعائي، فترنحت قليلًا، ممسكًا بالكيس الورقي الذي يحتوي على أشياءي ومتشبثًا بالنضد بيدي الأخرى: «هل يوجد حمام هنا؟».

عاودت الابتسامة الظهور. «ليس للزبائن، للأسف. لِمَ لا تجرب إحدى... الحانات على الجانب الآخر من الشارع؟».

- إنك نغل، ألسنت كذلك؟ تجسّد لمواطن ديري المثالي!

تصلّبت ملامحه، ثم استدار وسار إلى تجويف صيدليته حيث يحتفظ بأقراصه ومساحيقه ومحاليله.

سرت ببطء متجاوزًا ثلاجة البيع وخرجت عبر الباب. أحسست كأنني رجل مصنوع من زجاج. كان الطقس باردًا معتدلًا، لكن أحسست بالشمس ساخنة على جلدي. تقلصت أمعائي مجددًا، فوقفت ساكنًا هنيهة ناظرًا إلى الأسفل، إحدى قدمي على الرصيف والأخرى في مجرى تصريف مياه الأمطار. زال التقلّص، فعبرت الشارع غير مكترث بالسيارات، وأطلقت سيارة بوقها. منعت نفسي من إبراز إصبعي الوسطى للسائق، لا شيء سوى أنني لدي ما يكفي من المتاعب. ما كان ينبغي أن أخاطر بخوض معركة أخرى، كنت في خضم معركة سلفًا.

داهمني التقلّص مجددًا، أحسست به طعنة أسفل أحشائي بمدينة ذات شفرة مزدوجة، فركضت. ووجدت حانة الدولار الفضي الناعس الأقرب إلي، فجذبت بابها، واندفعت إلى العتمة ورائحة الجعة المشبعة بالخميرة. وسمعت من صندوق الموسيقى كونواي تويتي يتأوه مغنيًا ما معناه أن الأمر كان متوهّمًا فحسب. تمنيت أنه محق.

كانت الحانة خالية عدا عن زبون واحد يجلس إلى طاولة خالية،
ناظرًا إلي بعينين وجَلَتين، والساقى متكئ عند نهاية نضد البيع، يحل
الكلمات المتقاطعة في الصحيفة اليومية. رفع بصره إلي.

قلت: «الحمام. بسرعة».

أشار إلى الخلف، فهرولت نحو بابين مكتوب عليهما فتيان وفتيات.
اندفعت نحو باب الفتیان باسطًا ذراعي. وجدت المكان نثنًا بروائح برار
ودخان السجائر وكلور يُدمع العينين، والمرحاض الوحيد بلا باب، وكان
هذا أمرًا جيدًا على الأرجح، فتحت زر بنطالي بسرعة كأني سوبر مان
وصل متأخرًا إلى مصرف يتعرض للسطو، واستدرت، وجلست.

في آخر لحظة.

وعندما انحسرت آخر التقلصات، أخرجت قنينة الكاويكتيت الضخمة
من الكيس الورقي وأخذت ثلاث جرعات طويلة. ارتجّت معدتي، لكنني
أبقيت على الدواء بداخلها بالقوة. وعندما تأكدت أن الجرعة الأولى
ستبقى، ازدردت جرعة أخرى، وتجشأت، وببطء أغلقت القنينة بغطائها.
على الجدار إلى يساري رأيت أن شخصًا قد رسم قضيبًا وخصيتين،
والخصيتان مشقوقتان والدماء تنبجس منهما. وتحت هذا الرسم الجميل
كتب الرسام: "إذا ضاجعت زوجتي مرة أخرى فهذا ما سيحدث لك يا
هنري كاستونغاى".

أغمضت عيني، وعندئذ استحضرت صورة الزبون الوجل الذي كان
يشاهدني عندما هرولت إلى الحمام، كان جالسًا لا يفعل شيئًا. وعيناي
مغمضتان رأيت ذلك الوجه بوضوح. كان شخصًا أعرفه.

عندما عدت إلى الحانة، وجدت أن فيرلن هسكي قد حل محل كونواي
تويتى، و"بلا حمالات" اختفى. ذهبت إلى الساقى وقلت له: «رأيتُ رجلًا
جالسًا هناك عندما دخلت. مَن كان؟».

رفع بصره من كلماته المتقاطعة وقال: «لم أرَ أحدًا».

أخرجت محفظتي وأخذت منها خمسة دولارات، ووضعتها على المشرب جوار قاعدة أكواب مكتوب عليها ماركة الجعة ناراجانيسيت. وقلت: «ما اسمه؟».

أجرى مع نفسه حوارًا صامتًا وجيزًا، وألقى نظرة سريعة على برطمان الإكراميات جوار برطمان آخر يحتوي على بيض مخلل، لم ير بداخله سوى دايم وحيد، فدرسّ الدولارات الخمسة في مكانٍ ما، وقال: «بيل تيركوت».

لم يعنِ لي الاسم شيئًا، والطاولة الخالية ربما لا تعني شيئًا أيضًا، لكن ناحية أخرى...

وضعتُ شقيق إبراهيم لنكن التوأم على المشرب، وسألت الساقى: «هل جاء إلى هنا لمراقبتي؟». إذا أجاب بنعم، فهذا يعني أنه كان يتبعني، ربما ليس اليوم فحسب. لكن لماذا؟

دفع الساقى الدولارات الخمسة نحوي وقال: «كل ما أعرفه هو أنه يأتي إلى هنا غالبًا من أجل الجعة، ويسرف في شربها».

- إذن لماذا غادر دون أن يشرب كأسًا؟

- ربما نظر إلى محفظته فلم ير شيئًا سوى بطاقة اشتراك في مكتبة. هل أبدو لك مستبصرًا لعينًا يعلم الغيب؟ والآن بعدما أنتنت مرحاضى، لم لا تطلب مشروبًا أو تغادر؟

- كان نِتْنًا سلفًا يا صديقي.

لم تكن عبارة وداع لازعة كما ينبغي، لكنها أفضل ما قدرت عليه في حالتي تلك. خرجت من الحانة ووقفت على الرصيف، باحثًا عن تيركوت، لم أر له أثرًا، لكن رأيت نوربرت كين واقفًا عند نافذة صيدليته، مشبكًا يديه خلف ظهره، يشاهدني وقد تلاشت ابتسامته.

عند الخامسة وعشرين دقيقة عصر ذلك اليوم، ركنت سيارتي في موقف سيارات مُلاصق للكنيسة المعمدانية بشارع ويتشام. وجدت سيارات كثيرة، فوقًا للوحة الإعلان، سيُعقد لقاء عند تمام الخامسة مساء لجمعية مدمني الكحول المجهولين في هذه الكنيسة بعينها. كنت قد وضعت في صندوق سيارتي الفورد كل مقتنياتي التي جمعتها خلال إقامتي التي امتدت سبعة أسابيع فيما أسمىها "المدينة العجيبة". الأشياء التي لم يمكنني الاستغناء عنها كانت موجودة بداخل الحقيبة اليدوية التي أعطاها آل لي: دفتر ملاحظاته، ودفتر ملاحظاتي، والنقود المتبقية. حمدًا للرب أنني احتفظت بكل شيء جاهزًا بداخل الحقيبة.

وإلى جانبي على المقعد كيس ورقي يحتوي على قنينة الكاوبكتيت، وقد فرغ ثلاثة أرباعها، وسروال الحصر، الذي استبعدت حاجتي إليه، من حسن الحظ. بدا لي أن معدتي وأمعائي قد تعافتا، وتوقفت يداي عن الارتعاش. وفي صندوق القفازات ستة ألواح شوكولاتة باي داي فوق مسدسي، أخرجتها ووضعتها بداخل الحقيبة. لاحقًا، عندما أكمُن بين المرأب وسياج الأجمات في المنزل رقم 202 بجادة ويمور، سألقم المسدس وأضعه في حزامي، مثل مجرم مسلح وضيع في الأفلام المبتذلة التي تعرض في صالة سينما ذا ستراند.

وفي صندوق القفازات كان يوجد أيضًا دليل برامج تلفزيونية على غلافه صورة لفريد آستايير وباري تشايس، وللمرة العاشرة تقريبًا منذ أن اشتريت المجلة من رف الصحف في الشارع الرئيسي، فتحت صفحة برامج يوم الجمعة.

8:00 مساء. القناة الثانية: مغامرات إليري كوين الجديدة، بطولة جورج نادر، وليس تريماين. «حافلة، جميلة، مثيرة». سمسار بورصة

مخادع (ويت ببسيل) يترصّد وريثة ثرية (إيفا غابور). وإليري ووالده يحققان في القضية.

وضعت في الحقيبة مع الأشياء الأخرى، لجلب الحظ فحسب، ثم ترجلت، وأوصدت السيارة، واتجهت إلى جادة ويمور. مررت ببضعة أمهات وآباء يحتفلون بالهالوين ويطلبون الحلوى مع أطفال صغار لا يستطيعون الخروج وحدهم. ورأيت عدة يقطينات مبتسمة عند مداخل منازل، ودميتين قماشيتين تعتمران قبعتي قش تحدقان إلي.

سرت في جادة ويمور في منتصف الرصيف كأنني أملك المكان. وعندما اقترب مني أب ممسكاً بيد فتاة صغيرة ترتدي أقراط غجر طويلة وتضع أحمر شفاه أمها وأذنين بلاستيكيتين كبيرتين مثبتتين على باروكة شعر مجعد - لامستُ قبعتي محبباً الأب وانحنيت للطفلة، وكانت تحمل كيساً ورقياً خاصاً بها. سألتها: «من أنت يا عزيزتي؟».

- أنيت فونجيلو، إنها الأجمل في برنامج ميكى ماوس.

- وأنت جميلة مثلها. والآن ماذا ينبغي أن تقولي؟

احتارت، ومال أبوها نحوها وهمس في أذنها، فأشرق وجهها بابتسامة: «حلوى أم خدعة!».

قلت: «صحيح. لكن لا خدع الليلة». عدا عن الخدعة التي آمل تنفيذها على صاحب المطرقة.

أخذت لوح شوكولاتة من حقيبتي (تعيّن علي تجاوز المسدس حتى أصل إليه)، وناولته لها، فتحتُ كيسها، وألقيته فيه. كنت مجرد رجل عابر في الشارع، غريب تماماً في بلدة اجتاحتها موجة جرائم فظيعة قبل وقت ليس بالطويل، لكنني رأيت الثقة الطفولية نفسها على وجهي الأب وابنته. أيام الحلوى التي تحتوي على عقاقير الهلوسة ما زالت في المستقبل البعيد، وكذلك كل شيء مكتوب عليه: "لا تستخدم في حالة كسر الغطاء".

همس الأب مرة أخرى.

وقالت أنيت فونجيلو: «شكرًا لك سيدي».

غمزت للأب قائلاً: «عفوًا. طابت ليلتكما».

قال الأب مبتسمًا: «ستصاب الفتاة بمغص غذا على الأرجح. هيا يا يقطينتي».

قالت: «أنا أنيت!».

«آسف، آسف. هيا يا أنيت». ابتسم لي، ولامس طرف قبعته، ومضيا في طريقهما، بحثًا عن غنيمة أخرى.

واصلت سيرتي إلى المنزل رقم 202، لكنني تمهّلت، ولصّفت لو لم تكن شفتاي جافّتين. وعند المدخل تجاسرت على إلقاء نظرة سريعة إلى ما حولي، فرأيت بضعة محتفلين بالهالوين على الجانب الآخر من الشارع، لكن لا أحد كان يوليني أدنى انتباه. ممتاز. سرت صاعدًا المدخل بخفة، وحالما تواريت خلف المنزل تنفست الصعداء. اتخذت موقعي في الركن الأيمن البعيد من الباحة الخلفية، مختبئًا بين المرأب وسياج الشجيرات بأمان، أو هذا ما ظننته.

اختلست نظرة إلى باحة منزل دننغ الخلفية، فلم أر الدراجتين، لكن معظم الألعاب ما زالت موجودة. قوس وبضعة سهام ذات رؤوس لاصقة، ومضرب بيسبول مقبضه ملفوف بشريط مانع للانزلاق، وطوق هُولا أخضر، لكن بندقية ديزي الهوائية لم تعد موجودة. أخذها هاري إلى الداخل. كان ينوي جلبها معه عندما يخرج لجمع الحلوى متنكرًا بزي بوفالو بوب.

هل بدأ توغا يضايقه ممازحًا بشأن ذلك أم ليس بعد؟ هل قالت له والدته خذها إذا أردت، إنها ليست سلاحًا حقيقيًا؟ سيفعلان. نص السيناريو كُتب سلفًا. تقلصت معدتي، هذه المرة ليس بسبب الجرثومة المنتشرة التي تدوم أربعًا وعشرين ساعة، بل لأنني أدركت، ذلك الإدراك

الذي يحس به المرء في أحشائه، أن الوقت قد حان فعلاً، وأن هذا سيحدث، بل بدأ يحدث. العرض بدأ.

نظرت إلى ساعتني. بدا لي أنني تركت سيارتي في موقف الكنيسة قبل ساعة، لكن الساعة لم تتجاوز السادسة إلا ربع. في منزل دننغ لا بد أن الأسرة تجلس الآن لتناول العشاء... لكن حسبما أعرفه عن الأطفال، سيكون الصغار متحمسين إلى درجة تمنعهم من الأكل كثيراً، وإيلين ستكون قد ارتدت زي الأميرة سمر فول وينترسبرنغ، على الأرجح ارتدته حالما عادت من المدرسة، ولا بد أنها تثير حنق والدتها بطلبها مساعدتها على وضع مساحيق التمويه.

جلست مستنداً بظهري إلى جدار المرأب، ونقبت في حقيبتي وأخرجت لوح شوكولاتة باي داي، رفعتة وفكرت بالتعس جيه ألفريد بروفروك⁽¹⁾. لم أكن مختلفاً عنه. رغم أنها مجرد حلوى لم أكن متأكداً أن لدي الجرأة على أكلها. لكن أمامي أحداثاً كثيرة في الساعات الثلاث القادمة أو نحوها، وكانت معدتي تزمجر مطالبةً بملء فراغها.

قلت لنفسني: سحقاً. وأزلت غلاف الحلوى. وجدتها رائعة، حلوة، مالحة، تتطلب كثيراً من المضغ. التهمت معظمها في قضمتين. وهممت بقذف بقيتها في فمي (متسائلاً عما منعني من إحضار شطيرة وقنينة كولا)، لكن عندئذٍ لمحت حركة بطرف عيني اليسرى، فبدأت أدير رأسي، وفي الوقت نفسه مددت يدي داخل الحقيبة لأخرج منها المسدس، لكن فات الأوان. وَخَزَ شيءٌ بارداً حاد صدغي الأيسر.

- اسحب يدك من الحقيبة.

(1) شخصية خيالية من قصيدة للشاعر تي إس إليوت، القصيدة مونولوج داخلي لرجل من العصر الحديث متوسط العمر يعاني مشاعر الوحدة وعاجز عن اتخاذ قرارات حاسمة. (المترجم)

عرفت الصوت فورًا. نجوم السماء أقرب لك. هذا ما قاله لي صاحب الصوت عندما سألته عن شخص اسمه دننغ، وقال إن ديري مليئة بعائلات اسمها دننغ -وتحققت من ذلك بنفسى بعد وقت ليس بالطويل- لكن أظنه خَمَّن أي دننغ كنت أسعى خلفه، أليس كذلك؟ وهذا هو الدليل. انغرزت شفرة المديّة أعمق قليلًا، وأحسست بخيط دماء يسيل على جانب وجهى، دافئًا على جلدي البارد، بل يكاد أن يكون ساخنًا.

- اسحبها الآن يا صديقي. أظننى أعرف ما بداخل الحقيبة، وإذا لم تخرج يدك خالية، فستكون هديتك للهاولين ثمانى عشرة بوصة من الفولاذ اليابانى. هذا الشيء حاد جدًّا، سينبثق من الجانب الآخر لرأسك.

سحبت يدي من الحقيبة، خالية، والتفت لأنظر إلى "بلا حمالات"، فرأيت شعره متدليًا فوق أذنيه وجبهته على شكل خصلات دهنية، وعينيه الداكنتين بارزتين على وجهه الشاحب غير الحليق. أحسست بارتياح شديد، كدت أن أفقد على إثره أي أمل في نجاح مهمتى. كدت... لكننى لم أفقده. قلت لنفسى مجددًا: حتى إذا مت. حتى إذا مت.

قلت بهدوء: «لا شيء فى الحقيبة سوى الحلوى، إذا أردت واحدة، يا سيد تيركوت، فما عليك سوى أن تطلب، سأعطيك».

اختطف الحقيبة قبل أن أتمكن من إيقافه، استخدم يده التى لا تمسك بالسلاح، الذى اتضح أنه سونكى. لا أعرف ما إذا كان مصنوعًا من فولاذ يابانى أم لا، لكن نظرًا إلى وميضه فى ضوء الغسق المتلاشى، لم أجد بُدًّا من الإقرار بأنه حاد جدًّا.

نَقَب فى الحقيبة وأخرج مسدسى الصغير قائلاً: «لا شيء سوى الحلوى، هه؟ هذا لا يبدو لي كحلوى يا سيد أمبرسون».

- أحتاج إليه.

- أجل، والناس فى الجحيم يحتاجون إلى ماء مثلّج، لكن هيهات.

- اخفض صوتك.

وضع مسدسي في حزامه، تمامًا حيث تخيلت أنني سأضعه بعدما انسل عبر سياج الشجيرات إلى باحة دننغ. ثم وجّه السونكي نحو عيني بحركة مباغتة، استجمعت كل قوة إرادتي حتى لا أجفل. قال: «لا تُملي عليّ ما...». نهض مترنحًا، ومسح على معدته أولًا، ثم عنقه الخشن بلحية قصيرة، كأنما علق فيه شيء. سمعت صوتًا من حلقه وهو يزدرد ريقه.

- هل أنت بخير يا سيد تيركوت؟

سألني: «كيف تعرف اسمي؟»، ودون أن ينتظر إجابة تابع: «بيت هو من أخبرك، أليس كذلك؟ الساقى في حانة الناعس. هو من أخبرك».

- أجل. والآن لدي سؤال واحد لك. منذ متى تتبعني؟ ولماذا؟

ابتسم ابتسامة يعوزها المرح، كاشفًا عن سنّين مفقودتين: «هذان سؤالان».

- أجب عنهما فحسب.

قال: «تتصرف كأنك...» ارتسم الألم على وجهه مرة أخرى، وازدرد ريقه مجددًا، ثم اتكأ على جدار المرأب. «... كأنك المسيطر على الموقف».

دققت النظر إلى شحوب تيركوت وإجهاده. ربما كان السيد كين نغلًا ويتّسم بشيء من السادية، لكن بدا لي أن مهاراته التشخيصية ليست سيئة. من أكثر معرفة من الصيدلي المحلي بالأمراض المتفشية في المنطقة؟ استبعدت احتياجي إلى بقية الكاوبكتيت، لكن بيل تيركوت ربما يحتاج إليه، وإلى سروال الحصر أيضًا، حالما تبدأ الجرثومة مفعولها البغيض.

قلت لنفسي: هذا قد يكون أمرًا جيدًا جدًا أو سيئًا جدًا. لكنني كنت أهذي، ما من شيء يبشّر بخير.

لا عليك. اجعله يستمر في الكلام فحسب. وحالما يبدأ التقيؤ، إذا افترضت أنه سيبدأ قبل أن يقطع حلقي أو يُرديني بمسدسي - هاجمه. قلت: «أخبرني فحسب، أرى أن من حقي أن أعرف بما أنني لم أعتد عليك بأي طريقة».

«أظنك تعتزم الاعتداء عليه هو. كل أحاديثك عن العقارات في أنحاء البلدة ليست سوى هراء. جنّت إلى هنا من أجله هو». وأوماً ناحية المنزل الذي على الجانب الآخر من السياج. «عرفتُ هذا حالما خرج اسمه من شفطيك».

- كيف عرفت؟ هذه البلدة مليئة بعائلات تحمل الاسم دننغ، قلتُ هذا بنفسك.

- أجل، لكن ثمة دننغ واحدًا أهتم بأمره.

رَفَعَ اليد التي تحمل السونكي ومسح بكمّهِ العرقَ عن جبينه. عندئذٍ كان بوسعي الانقضاض والتغلّب عليه، لكنني خشيت أن تلفت أصوات العراك الانتباه إلينا، وإذا ضُغَطَ الزناد دون قصد في خضم العراك، لأصابتني الرصاصة على الأرجح. كما تملّكني الفضول.

قلت: «لا بد أنه أسداك معروفًا كبيرًا، لذا جعلك ملاكَه الحارس».

ند عنه صوت قهقهة قصير يعوزه المرح وقال: «تخمين رائع، لكنه صحيح على نحوٍ ما، أظنني بالفعل ملاكه الحارس على نحوٍ ما، على الأقل في الوقت الراهن».

- ماذا تعني؟

- أعني أن فرانك طريدتي أنا يا أمبرسون، ذلك الوجد قتل شقيقتي الصغرى، وإذا كان لا بد أن يصيبه أحد برصاصة... أو يغرز فيه نصلاً...

لَوْح بالسونكي أمام وجهه الشاحب المكفهر، وتابع: «فلا بد أن تكون رصاصتي أو نصلي أنا».

9

حدّقت إليه فاعراً فمي. تناهت إلى مسامعي أصوات خشخشة وفرقعات ألعاب نارية، وكان الأطفال يصيحون متراكضين في شارع ويتشام. لكن هنا كنا نحن الاثنين فقط. كرستي ورفاقها المدمنون يسمّون أنفسهم "أصدقاء بيل"⁽¹⁾، ونحن هنا كنا "أعداء فرانك"، فريق مثالي... إلا أن بيل "بلا حمالات" تيركوت لم يبد أنه يتحلّى بروح الفريق. هزرت رأسي وقلت: «أنت... أخبرني».

- إذا كنتَ ذكياً كما تظن نفسك، فينبغي أن تستنتج بنفسك. أم أن شازي لم يخبرك بما يكفي؟

في البداية لم أستوعب ما قاله. ثم أدركت أنه قصد الرجل ضئيل الحجم صاحب وشم الحورية على ذراعه ووجه السنجاب المبتهج، إلا أن ذلك الوجه لم يبد مبتهجاً عندما ربّت فرانك دننغ ظهره وقال له أن يبقى أنفه نظيفاً، لأنه كبير فلا ينبغي أن يتسخ. وقبل ذلك، عندما كان فرانك يلقي النكات عند طاولة الأخوين تراكر في الجزء الخلفي من حانة المُشعل، أخبرني شاز فراتي عن نوبات غضب دننغ... وهذا أمرٌ كنت أعرفه سلفاً من قصة عامل النظافة. لكنه جعل فتاة حُبلَى وتزوجها. لكن بعد عام أو عامين من الزواج، أخذت زوجته رضيعها وهجرته.

(1) بيل ويلسون، مشارك في تأسيس جمعية مدمني الكحول المجهولين. (المترجم)

- هل استجمعت الخيوط في عقلك يا سيد أمبرسون؟

- زوجة فرانك دننغ الأولى كانت شقيقتك.

- ها أنت ذا. أحسنت.

- فراتي قال إنها أخذت الرضيع وهجرت دننغ، إذ فاض بها الكيل من غضبه عندما يثمل.

- أجل، هذا ما أخبرك به، وما يظنه معظم الناس في البلدة، وما يظنه شازي حسبما أعرف، لكنني أعرف الحقيقة. أنا وكلارا كنا مقربين في صِباننا، على الأرجح لن تفهم أمرًا كهذا، لأنك تبدو لي بارد المشاعر، لكن كانت تجمعنا صلة قوية.

تذكرت العام السعيد الوحيد الذي عشته مع كرسطي، ستة أشهر قبل الزواج وستة بعده. قلت: «لست باردًا إلى هذه الدرجة. أعرف ما تحدث عنه».

كان يفرك نفسه مجددًا، لكن لا أظنه كان مدرِّكًا لما يفعله: ظل يمرر يده من بطنه إلى صدره، ومن صدره إلى حلقه، ويعود إلى صدره مرة أخرى. بدا وجهه أشد شحوبًا. تساءلت عما تناوله على العشاء، لكن توقعت ألا أتساءل مدة طويلة، عما قريب سأرى عشاءه بنفسه.

- حقًا؟ إذن ربما تستغرب أنها لم تراسلني قط منذ أن استقرت هي ومايكي الصغير في مكانٍ ما، لم ترسل لي مجرد بطاقة بريدية. لكنني أظن أن ذلك يثير ما هو أكثر من الاستغراب، لراسلَتنِي إذا استطاعت، كانت تعرف تمامًا مكانتها عندي، وتعرف مدى حُبِّي لذلك الطفل. كانت في العشرين من عمرها ومايكي لم يكمل عامًا ونصف عندما أبلغ ذلك الخسيس مُحِبِّ إلقاء النكات عن اختفائهما. حدث ذلك في صيف عام 38. لبلغتِ الأربعين الآن، وبلغ ابن أختي الحادية والعشرين، سن التصويت. وأنت تريد أن تقول لي إنها لم تكتب سطرًا واحدًا إلى شقيقتها الذي كان يحميها

عندما كنا أطفالاً؟ أو إنها لم تطلب مني مآلاً لمساعدتها على بدء حياتها الجديدة في بوسطن أو نيو هيفن أو أينما كانت؟ يا سيدي
لـ...

ارتسم الألم على وجهه، وصدر من حلقه صوت حشرجة مألوف لدي،
ثم ترنح واستند إلى جدار المرأب.

قلت له: «ينبغي أن تجلس، إنك مريض».

- لا أمرض أبداً. لم تصبني أبسط نزلة برد منذ أن كنتُ في الصف
السادس.

إذا صدق، فستعصف به الجرثومة كما اجتاح الألمان وارسو.

- إنها نزلة معوية يا تيركوت، أنا نفسي ظللت بسببها ساهراً طوال
الليل. السيد كين صاحب الصيدلية يقول إنها متفشية في البلدة.

- ذلك العجوز النحيل لا يعرف شيئاً. أنا بخير.

حرَّك خصلات شعره الدهنية إلى جانب ليريني مدى عافيته. رأيت
وجهه أشد شحوباً من ذي قبل، ويده الممسكة بالسونكي الياباني
ترتعش كما كانت يدي ترتعش حتى ظهر اليوم. «أتريد سماع قصة
شقيقتي أم لا؟».

- بالتأكيد.

اختلست نظرة سريعة إلى ساعتِي، فوجدتها تشير إلى السادسة
وعشر دقائق. بدأ الوقت يتسارع بعدما كان يزحف ببطء. أين فرانك
دنغ الآن؟ هل ما زال في السوق؟ استبعدت ذلك. خمنت أنه غادر مبكراً
اليوم، ربما متحججاً باصطحاب أطفاله للخروج والاحتفال بالهالوين.
لكن هذه لم تكن خطته. لا بد أنه ذهب إلى حانةٍ في مكانٍ ما، ليست
حانة المُشعل، يذهب إليها لتناول كأس جعة واحدة، أو اثنتين على

الأكثر، فلا تذهب عقله، لكنه -إذا جاز لي التخمين استنادًا إلى سلوك زوجتي- يغادر متعطشًا دومًا.

كلا، أظنه عندما يحس برغبة قوية في شراب قوي، يقصد حانات ديري الرديئة القذرة، مثل الذهبي، والناعس، والدلو، أو ربما يقصد الحانات الأشد وضاعة المظلة على نهر كندوسكيغ، حانة والي أو بؤرة المجون المسماة باراماونت لاونج، حيث ما تزال عاهرات شمطاوات ذوات وجوه خربة يشغلن معظم المقاعد عند المشرب. وهناك هل يلقي نكاتًا تجعل المكان يضج بالضحك؟ وهل يقترب الناس منه وهو يصب الكحول على جمرات الغضب بداخله؟ لا أظن، إلا إذا كانوا في غنى عن أسنانهم.

- قبل اختفاء شقيقتي وابنها، كانا يعيشان مع دننغ في منزل مستأجر صغير على تخوم بلدة كاشمان. كان يفرط في الشراب، وعندما يفرط في الشراب يمرن قبضتيه اللعينتين. رأيت آثار الضرب على شقيقتي، ومرة رأيت كدمات على ذراع مايكي الصغير اليمنى. قلت لها: هل يضربك أنت والرضيع؟ إذا ضربك فسأوسعه ضربًا. قالت لا، لكنها لم تنظر إلي عندما تكلمت. وقالت: لا تقترب منه يا بيلي، إنه قوي. وأنت قوي أيضًا، أعرف، لكنك نحيل، إذا هبَّت رياح قوية فستحملك معها. سيؤذيك. واختفت بعد ذلك بأقل من ستة أشهر. هجرته، حسبما قاله هو. لكن هناك غابات كثيرة خارج البلدة، بل ما من شيء في المناطق المحيطة بكاشمان سوى الغابات والمستنقعات. أظنك تعرف ما حدث في الواقع، أليس كذلك؟

عرفت. ربما لا يصدق آخرون الحقيقة لأن دننغ صار مواطنًا محترمًا وبدأ أنه استطاع السيطرة على شرابه منذ مدة طويلة، وأيضًا لأنه ساحر جذاب. لكنني اطلعت على معلومات لا يعرفها غيري، صحيح؟

- أظنه انفجر غضبًا. أظنه عاد إلى المنزل وقالت كلامًا ما كان ينبغي أن تقوله، كلامًا لا يضر...
- لا ماذا؟

نظرت من خلال السياج إلى الباحة الخلفية، فرأيت خلفها امرأة تظهر عند نافذة المطبخ ثم تختفي. جُهِزَ العشاء في منزل دننغ. هل سيتناولون تحلية؟ جيلي مع كريمة مخفوقة؟ فطيرة مكسرات؟ استبعدت ذلك. مَنْ يحتاج إلى تحلية في ليلة الهالوين؟
- أقول إنه قتلها. أليس هذا ما تظنه؟

قال: «بلى...» وبدأ متفاجئًا ومرتبًا في آن واحد. أظن أن معظم المهووسين يبدوون كذلك عندما يسمعون الأفكار التي أبقتهم ساهرين ليالي طويلة تُنطق على لسان شخص آخر، وتؤكد أيضًا. يقولون لأنفسهم: لا بد أن هذه خدعة. لكنها لم تكن.

قلت: «كم كان دننغ يبلغ من العمر؟ اثنين وعشرين عامًا؟ أمامه حياة بأكملها. لا بد أنه قال لنفسه: حسنًا، اقترفت فعلًا شنيعًا هنا، لكن بوسعي إخفاءه. نحن بعيدون في الغابة، أقرب جيران إلينا على بُعد ميل... هل كان أقرب جيران إليهم على بُعد ميل يا تيركوت؟».

قال بنبرة حق: «على الأقل». كان يدلك عنقه بيد، ورأيت السونكي متدليًا في يده الأخرى. لكان بوسعي الإمساك بالسونكي بسهولة، ولما صُعب علي انتزاع المسدس من حزامه، لكنني لم أرغب في هذا. رأيت أن الجرثومة ستتولى أمر السيد بيل تيركوت. توقعت أن يكون خلاصي بهذه البساطة حقًا. هل ترون مدى سهولة نسيان مدى عناد الماضي؟

- إذن أخذ الجثتين إلى الغابة ودفنهما ثم قال إنهما هربا، لا أتوقع أن الشرطة أجرت تحقيقًا جادًا.

أدار تيركوت رأسه وبصق، ثم قال: «إنه من عائلة حسنة السمعة ومعروفة في ديري، وعائلتي جاءت من وادي سانت جون على متن

شاحنة صغيرة صدئة عندما كنت في العاشرة وكانت كلارا في الثامنة. ماذا تظن أنت؟».

رأيت أن هذا هو ما صرت أتوقعه من ديري. هذا ما ظننته أنا. كنت أتفهم حب تيركوت لشقيقته وابنها وتعاطفت مع فقده، لكنه كان يتحدث عن جريمة قديمة. وكنت مشغول البال بالجريمة التي ستقع بعد أقل من ساعتين.

سألته: «أنت دبّرت لقائي مع فراتي، صحيح؟». عندئذٍ كان هذا بديهياً، ومع ذلك أحسست بخيبة أمل. حسبْتُ الرجل ودوداً، ويريد الثروة قليلاً في أثناء تناول جعة وقطع كركند. كنت مخطئاً. «أهو صديقك؟».

ابتسم تيركوت، لكن ابتسامته بدت كتكشيرة ألم: «أنا أصادق مراهناً يهودياً ثرياً؟ لا بد أنك تمازحني. أتود سماع قصة قصيرة؟».

ألقيت نظرة سريعة أخرى على ساعتني، فرأيت أن أمامي بعض الوقت. وفي أثناء كلام تيركوت سيواصل ذلك الفيروس القديم عمله. عقدت عزمي على الانقضاء حالما ينحني بيل ليتقيأ أول مرة.

- لِمَ لا؟

- أنا ودنغ وفراتي جميعنا في السن نفسها، الثانية والأربعين، أتصدق هذا؟

قلت: «بالطبع». لكن تيركوت، وقد عاش حياة قاسية (والآن مريض رغم عدم اعترافه) بدا أكبر منهما بعشر سنوات.

- عندما كنا في السنة الأخيرة في الثانوية الموحدة القديمة، كنت مساعد مدير فريق كرة القدم. لُقِّبْتُ بـ "النمر بيل"، أليس هذا ظريفاً؟ حاولت الانضمام إلى الفريق عندما كنت في السنة الأولى ومرة أخرى في السنة الثانية، واستبُعدت في المرتين. كنت نحيلًا لا أصلح للهجوم، وبطيئًا لا أصلح للدفاع. هذه هي قصة حياتي

اللعيبة يا سيدي. لكنني أحببت اللعبة، ولم يكن بوسعي تدبُّر دايم
لشراء تذكرة. عائلتي كانت معدمة. لذا أصبحت مساعد مدير. اسم
منصب جيد، لكن أتعرف ما يعنيه؟

كنت أعرف بالطبع. في حياتي بوصفي جيك إبنغ، لم أكن خبير
عقارات، بل أستاذ مدرسة ثانوية، وبعض الأشياء لا تتغير.

- يعني أنك كنت الصبي الذي يجلب لهم ماء الشرب.

- أجل، كنت أجلب لهم الماء، وأمسك بدلو التقيؤ عندما يتقيأ أحدهم
بعدما يركض في يوم حار أو يتلقى ضربة عنيفة في مُنْفَرَجِه.
وأيضاً كنت أتأخر بعد مغادرة الجميع وأجمع أشياءهم من الميدان
وأرضية الحمامات.

ارتسمت ملامح الألم على وجهه. فتخيلت معدته تتحول إلى يخت في
بحر هائج، يرتفع، ثم يهبط بعنف في دوامة. تابع:

- ذات يوم في سبتمبر أو أكتوبر من عام 34، كنت في الملعب
بعد التدريب وحدي، أجمع معداتهم وأربطتهم البلاستيكية وكل
الأشياء التي يتركونها خلفهم، وأضعها في سلة مزودة بعجلات،
وعندئذٍ رأيت شاز فراتي يركض بسرعة في الملعب بعدما ألقى
كتبه خلفه، ومجموعة من الفتية يطاردونه و... ربا، ما هذا
الصوت؟

تلفت محدّقاً، وجحظت عيناه من وجهه الشاحب. مرة أخرى لربما
كان بمقدوري انتزاع المسدس منه، والسونكي أيضاً، لكنني لم أفعل.
رأيته يفرك صدره مجدداً. صدره، وليس معدته، فكان ينبغي أن أفطن
إلى شيء، لكن عقلي كان مشغولاً بأشياء كثيرة، القصة ليست أقلّها
أهمية. هذه هي لعنة حصص القراءة، يمكن أن تغوينا قصة مشوقة
حتى في أصعب اللحظات.

- استرخِ يا تيركوت. على الأرجح أصوات الألعاب النارية التي

يطلقها الأطفال، نحن في ليلة الهالوين، أتتذكر؟

- أشعر بأنني لست على ما يرام. ربما كنت محققاً بشأن الجرثومة التي ذكرتها قبل قليل.

إذا رأى أن حالته ستسوء إلى درجة تفقده السيطرة على الموقف، فربما يُقدِّم على فعل متهور. قلت له: «انس الجرثومة الآن، أخبرني عما حدث لفراتي».

ابتسم ابتسامة واسعة، فبدت ملامحه مزعجة على وجهه الشاحب المتعرق ذي اللحية النابتة.

- ركض شازي كأن شياطين الجحيم تطارده، لكنهم لحقوا به. كان هناك مجرى تصريف خلف قائمي المرمى على بُعد عشرين ياردة في الناحية الجنوبية من الملعب، ودفعوه إلى المجرى. هل ستفاجئك معرفة أن فرانكي دننغ كان أحد أولئك المطاردين؟ هززت رأسي، فتابع.

- ألقوه في المجرى وأنزلوا بنطاله، ثم تناوبوا على دفعه وصفعه. صحت بهم مطالباً إياهم بالتوقف، فرفع أحدهم رأسه إلي وصاح: انزل إلى هنا وأرغمنا أيها الحقيير، سنضربك ضرباً مضاعفاً. فركضت إلى حجرة تغيير الملابس وأخبرت بعض لاعبي فريق كرة القدم بأن مجموعة من الأوغاد يتنمرون على صبي، وطلبت منهم إيقافهم. لم يكن اللاعبون يكثرثون بمن يتعرض للتنمر ومن يتنمر، لكنهم مستعدون للشجار دوماً. ركضوا إلى الخارج، وبعضهم لا يرتدي شيئاً سوى ملابس داخلية. أتريد أن تسمع أمراً طريفاً يا أمبرسون؟

- بالتأكيد.

ألقيت نظرة سريعة أخرى على ساعتني، فوجدتها تشير إلى السابعة
إلا رُبْع. في منزل دننغ لا بد أن دورس تغسل الأطباق، وربما تستمع إلى
هَنْتلي-برنكلي على التلفاز.

- هل تستعجل الذهاب إلى مكانٍ ما؟ أتخشى أن يفوتك قطارٌ لعين؟
- كنتَ على وشك إخباري بأمر طريف.
- أوه، أجل. كانوا يغنون أغنية المدرسة! أتصدق ذلك؟

رأيت بعين عقلي ثمانية أو عشرة فتية مفتولي العضلات وشبه عراة
يركضون عبر الملعب، متحمسين لشجار إضافي بعد التدريب، ويغنون:
عاش ديري تايفرز، نرفع رايتكم عاليًا. كان أمرًا طريفًا فعلًا.

رأى تيركوت ابتسامتي فابتسم أيضًا، كانت ابتسامته تنم عن
إرهاقه لكنها صادقة. تابع: «أوسع اللاعبين أولئك المتنمرين ضربًا،
لكن فرانكي دننغ لم يمسه سوء، ذلك الجبان رأى أن اللاعبين يفوقونه
عدداً فهرب إلى الغابة. ثم وجدت شازي ممدداً على الأرض ممسكاً
بذراعه المكسورة، لكنه نجا مما هو أسوأ، كان من الممكن أن يدخلوه
المستشفى. نظر أحد اللاعبين إليه وركله بطرف قدمه ركلة طفيفة، كما
يفعل المرء مع روث بقرة كاد أن يطئه، وقال: ركضنا كل تلك المسافة
من أجل إنقاذ يهودي؟ فضحك بعضهم». نظر إلي من خلال خصلات
شعره الدهني، ثم تابع: «وقال آخر: من يكثرث؟ وجدتُ فرصة لضرب
بعض الحثالة، وهذا يكفيني. وعادوا إلى حجرة تغيير الملابس. ساعدت
شاز على الخروج من المجرى، وسرت معه إلى منزله، لأنني خشيت أن
يغمر عليه أو يصيبه مكروه ما. وخفت أن يعود فرانكي وأصدقائه،
شازي أيضاً كان خائفاً، لكنني بقيت معه. علي اللعنة إذا كنت أعرف
لماذا. أتمنى لو رأيت المنزل الذي كان يعيش فيه. قصر. لا بد أن متاجر
الرهن تدر دخلاً طائلاً. شكرني عندما وصلنا، شكرني بصدق، حتى كاد
أن يبكي. قلت له: لا عليك، لم تعجبني رؤية ستة يجتمعون على واحد.

وكنّت صادقًا. لكنك تعرف ما يقوله الناس عن اليهود: إنهم لا ينسون دينًا أو معروفًا أبدًا».

- فطلبتَ منه رد المعروف بأن يكتشف ما أعترزمُ فعله.

- كانت لدي فكرة عما تعترزم فعله، أردتُ التأكد فحسب. قال شاز لي أن أدعك وشأنك، وقال إنه وجدك رجلًا لطيفًا، لكنني لا أدع أحدًا وشأنه إذا عرفت أن شأنه هو فرانكي دننغ. لا أحد يعبت مع فرانكي دننغ سواي. إنه طريديتي أنا.

بدا الألم عليه مجددًا فعاد إلى فُرك صدره. وهذه المرة أقر بوعكته.

- تيركوت... هل المشكلة في معدتك؟

- لا، صدري، أحس بأنه يضيق.

لم يبد ذلك أمرًا جيدًا، والفكرة التي خطرت لي: والآن هو أيضًا صار بداخل الجورب المطاطي.

- اجلس قبل أن تسقط.

تحركت نحوه. لكنه سحب المسدس، فأحسست بجلدي بين حلمتي صدري -حيث ستصيبني الرصاصة إذا انطلقت- يقشعر بشدة. وقلت لنفسي: بمقدوري انتزاع المسدس منه، بمقدوري حقًا. لكن لا، لا بد أن أسمع القصة. لا بد أن أعرف.

- أنت اجلس يا أخي. اهدأ.

- في حال تعرضك لأزمة قلبية...

- لا أتعرض لأي أزمة قلبية لعينة. والآن اجلس.

جلست ونظرت إليه وهو يتكئ على جدار المرأب، فرأيت شفتيه تصطبغان بزرقة لم أحسبها من علامات الصحة الجيدة.

سألني: «ما شأنك معه؟ هذا ما أريد معرفته، هذا ما يجب أن أعرفه، قبل أن أقرر ما أفعله بك».

فكرت ملياً بالإجابة، كأن حياتي تتوقف عليها. ربما كانت تتوقف عليها فعلاً. استبعدتُ احتمال أن يكون تيركوت قاتلاً بلا رحمة، مهما يظنه عن نفسه، وإلا لرقد فرانك دننغ جوار والديه منذ أمد بعيد. لكن تيركوت لديه مسدسي، وهو رجل مريض. ربما يضغط الزناد دون قصد. ربما تساعدته القوى، أيًا كانت، التي تريد أن تُبقي الأمور على حالها. إذا أخبرته بمساعي بطريقة صحيحة، أي دون ذكر الأمور الجنونية، فربما يصدقني، نظرًا إلى ما يعتقدده سلفًا، وما يعرفه في قرارة نفسه.

- سيفعلها مرة أخرى.

هَمَّ بسؤالي عما قصدته، لكنه أدرك وحده. اتسعت عيناه وقال: «هل تعني... زوجته؟». نظر نحو سياج الشجيرات، حتى هذه اللحظة لم يكن متأكدًا مما يوجد خلفها.

- ليست هي فحسب.

- وأحد الأطفال أيضًا؟

- ليس أحدهم، بل كلهم. فرانك خرج يعاقر الشراب الآن يا تيركوت، ساعيًا إلى الدخول في إحدى نوبات غضبه الأعمى. تعرف نوبات غضبه، أليس كذلك؟ لكن هذه المرة ما من طريقة للتستّر على جريمته، وهو لا يكثرث. رغبته تتراكم منذ آخر نوبات غضبه، عندما فاض الكيل أخيرًا بدورس من المعاملة السيئة فطرده من المنزل. هل تعرف ذلك؟

- كل الناس يعرفون. إنه يعيش في غرفة مستأجرة بجادة تشاريتي.

- ظل يحاول نيل رضا زوجته، لكن سحره فقد مفعوله. دورس الآن تريد الطلاق، وبعدها يئس من قدرته على إقناعها بالعدول عن الطلاق، قرر أن يطلقها بمطرقة، ثم يطلق أطفاله بالوسيلة نفسها.

نظر إلي عابسًا. السونكي في يد، والمسدس في اليد الأخرى. قبل سنوات عديدة قالت شقيقته له: إذا هبَّت رياح قوية فستحملك معها. لكنني رأيت أن نسمة خفيفة ستتكفل به الليلة. سألني: «كيف تعرف هذا؟».

قلت: «ليس لدي وقت للشرح، لكنني أعرف، ومتأكد. وقد جئتُ لإيقافه. لذا أعد إليّ مسدسي ودعني أفعل ما جئتُ لفعله. من أجل شقيقتك، ومن أجل ابن شقيقتك. ولأنني أظنك في قرارة نفسك رجلًا صالحًا». هذا كان هراءً بالطبع. لكن إذا كان لا بد للمرء من الكذب فليُحسن كذبه، كما كان يقول أبي. «وإلا لماذا منعتُ دننغ وأصدقاءه من ضرب شاز فراتي حتى الموت؟».

رأيته يفكر، وكدت أسمع دوران تروس عقله. ثم برقت عيناه. وبدأت لي كالشموع التي تتذبذب بداخل الفوانيس في كل أنحاء البلدة. ابتسم، وما قاله كان كلامًا لا يمكن أن يقوله إلا رجل مريض عقليًا... أو عاش مدة طويلة في ديري... أو الاثنين معًا.

- سيحاول قتلهم، أليس كذلك؟ حسنًا، فلندعه.

- ماذا؟

صوب المسدس نحوي قائلاً: «اجلس يا أمبرسون، واهدأ».

جلست على مضض. عندئذٍ كانت الساعة قد تجاوزت 7:00 مساءً وقد بدأ تيركوت يبدو كشيخ. قلت له: «سيد تيركوت، بيل، أعرف أنك لا تشعر بأنك على ما يرام، لذا ربما لا تستوعب مدى فداحة الوضع. بالداخل امرأة وأربعة أطفال، أصغرهم فتاة لم تتجاوز السابعة، برك!».

تكلم تيركوت برصانة، كرجل يعبر عن حقيقة عظيمة تفسر كل شيء، وتبرره أيضًا: «ابن شقيقتي كان أصغر منها بكثير. مرضي يُعجزني عن مواجهة فرانك، وأنت ليست لديك الجرأة، أرى هذا بمجرد النظر إليك».

كان مخطئاً في ذلك، ربما كان محقاً بشأن جيك إبنغ الذي جاء من ليسبون فولز، لكن ذلك الرجل تغيّر. سألته: «لم لا تدعني أحاول؟ بم ستضيرك محاولتي؟».

قال: «إذا قتلتَه، فلن يكون موته كافياً. أدركتُ هذا للتو. خطرت لي الفكرة...» فرقع أصابعه. «... من حيث لا أدري».

- كلامك لا يبدو منطقياً.

- لأنك لم تعيش عشرين عاماً وأنت تشاهد رجالاً مثل توني وفيل تراكر يعاملون فرانك دننغ كأنه ملك، عشرين عاماً وأنت تشاهد أعين النساء ترفرف حوله كأنه فرانك سيناترا. إنه يقود سيارة بوتنيك، وأنا أكبح في قرابة ستة مصانع مقابل الحد الأدنى للأجور، وأستنشق غبار الأقمشة حتى أكاد أعجز عن الاستيقاظ في الصباح.

كان يضع يده على صدره، ويفرك ويفرك. وبدا وجهه كلطخة شاحبة في عتمة باحة المنزل رقم 202 بجادة ويمور. تابع: «القتل عقاب هيئ لذلك الخسيس، يجب أن يُعاقب بالحبس أربعين عاماً في سجن شاوشانك، حيث إذا سقطت منه صابونة في الحمام لن يجرؤ على الانحناء لالتقاطها. وحيث لن يجد مشروباً كحولياً سوى سكويـز الرديء». خفض صوته: «وأندري ماذا أيضاً؟».

اعتراني برد مفاجئ: «ماذا؟».

قال: «سيفتقدهم عندما يفيق من سُكره. سيندم على فعلته، أشد الندم». كاد أن يهمس، بصوت أجش وكأن في حنجرته شيئاً من البلغم. لا بد أنه الصوت الذي يتكلم به المجانين مع أنفسهم في وقت متأخر من الليل في أماكن مثل مستشفى جونبر هيل للأمراض العقلية، عندما يزول مفعول أدويتهم. «ربما لن يأسف على زوجته كثيراً، لكنه سيأسف على أطفاله بالتأكيد». ضحك، ثم تقلص وجهه، كأنما ألمه ضحكه. «ما

قلته عما يعتزم فعله هراء على الأرجح، لكنني أتمنى أن تكون محققاً.
سننتظر ونرى».

- تيركوت... أولئك الأطفال بريئون.

هز كتفيه الشبحيّتين. «كلارا ومايكي الصغير كانا بريئين أيضاً». ثم
أردف: «لا أكثرث بأطفاله».

- إنك لا تعني أ...

- اصمت. سننتظر.

10

كانت عقارب الساعة التي أعطاها آل لي مضيئة، وشاهدت مرتاعاً
يائساً عقرب الدقائق يهبط ثم يصعد. تبقت خمس وعشرون دقيقة حتى
بدء برنامج مغامرات إليري كوين الجديدة. ثم تبقت عشرون، ثم خمس
عشرة. حاولت التكلّم مع تيركت فأمرني بالصمت. وظل يفرك صدره،
ولم يتوقف إلا ليخرج سجائره من جيب صدره.

قلت له: «أوه، هذه فكرة جيدة، ستساعد قلبك كثيراً».

- اصمت.

غرز السونكي على الحصى أسفل جدار المرأب وأشعل سيجارته
بقداحة قديمة ماركة زبو. وفي لحظة تذبذب الشعلة الصغيرة رأيت
العرق يسيل على خديه، رغم برودة الليلة، وبدت عيناه كأنهما غارتا في
محجريهما، فجعلتا وجهه يبدو كجمجمة. أخذ نفساً، وزفره بسعال.
ارتعش جسده النحيل، لكن المسدس ظل ثابتاً، مصوباً إلى صدري.
ظهرت النجوم في السماء. وعندئذ كانت الساعة الثامنة إلا عشر دقائق.
كم كان قد انقضى من برنامج إليري كوين عندما وصل دننغ؟ لم يذكر
هاري هذا في قصته، لكنني خمنت أنه لم ينقض منه الكثير. اليوم

التالي لم يكن يومًا دراسيًا، ومع ذلك لن تسمح دورس دننغ لإيلين ذات السنوات السبع بالبقاء خارج المنزل إلى ما بعد الساعة العاشرة، حتى إذا خرجت مع توغا وهاري.

الثامنة إلا خمس دقائق.

فجأة خطرت لي فكرة، وأيقنتُ رجاحتها، فتكلمت فورًا.

- أيها الجبان!

اعتدل تيركوت في وقفته وجَلّا كأنه لُدغ: «ماذا؟».

قلت: «سمعتني». وقلّدتَه: «"لا أحد يعبث مع فرانكي دننغ سواي، إنه طريديتي أنا". ظللت تقول لنفسك هذا الكلام منذ عشرين عامًا، أليس كذلك؟ ومع ذلك لم تواجهه بعد».

- قلت لك أن تصمت.

- بل اثنين وعشرين عامًا! لم تواجهه عندما اعتدى على شاز فراتي، أليس كذلك؟ ركضت كفتاة صغيرة واستنجدتَ بلاعبي كرة القدم.

- كانوا ستة معتدين!

- صحيح، لكن دننغ يتجول وحده كثيرًا، وأنت لم تضع حتى قشرة موز في طريقه وتأمل أن ينزلق عليها. إنك جبان رعديد يا تيركوت. وتختبئ هنا كأرنب في جُحر.

- اصمت!

- وتقول لنفسك ترهات عن أن دخوله السجن سيكون أفضل انتقام، حتى لا تواجه حقيقة أنك...

- اصمت!

- ... حقيقة أنك خَصِيّ يسمح لقاتل شقيقته بالتجول حُرًا أكثر من عشرين عامًا...

هيأ المسدس وشدّد إصبعه على الزناد: «إنني أحذرك!».

ضربتُ على صدري قائلاً: «هيا، افعلها. كل الناس سيسمعون الطلقة، ثم ستأتي الشرطة، وسيرى دنغ الجلبة ويبتعد. وأنت ستدخل سجن شاوشانك. أراهن أن لديهم مصنعاً في السجن أيضاً، حيث ستعمل فيه مقابل خمسة سنتات في الساعة بدلاً من دولار وعشرين سنتاً. لكنك ستحب ذلك، لأنك لن تضطر إلى تبرير وقوفك مكتوف اليدين طوال سنوات. إذا كانت شقيقتك حية، لبصقتُ عل...».

دفع المسدس إلى الأمام، ليضغط فوهته على صدري، لكنه تعثر على السونكي. ضربت المسدس جانباً بظاهر يدي فانطلقت منه رصاصة، لا بد أنها أصابت الأرض على بُعد بوصة من قدمي، لأنني أحسست بشظايا حجارة صغيرة تضرب بنطالي. أمسكت بالمسدس وصوّبته إليه، متأهباً لإطلاق النار إذا تحرك أبسط حركة لالتقاط السونكي من الأرض.

لكنه تهالك مستنداً إلى جدار المرأب، واضعاً كلتا يديه على الجهة اليسرى من صدره، وبدت أنفاسه مختنقة متحشجة.

في مكانٍ ما ليس بعيداً، في شارع كوسوث وليس جادة ويمور، صاح رجل: «لكم أن تمرحوا يا أطفال، لكن إذا أطلقتم أي مفرقات أخرى فسأتصل بالشرطة! حذرتكم!».

تنهَّدتُ. وكان تيركوت يتنهد أيضاً، لكن بشهقات متقطعة. واستمرت حشجة حلقه وهو ينزلق على جانب جدار المرأب ويتمدد على الحصى. أخذت السونكي، وفكرت في وضعه داخل حزامي، لكن توقعت أن يجرح ساقي عندما أفتح سياج الشجيرات: الماضي يبذل كل ما بوسعه في سبيل إيقافني. ألقيته على الباحة المظلمة، وسمعت رنيناً خافتاً إثر ارتطامه بشيء، ربما كان جانب الوِجار المعلق عليه لافتة ها هو وِجار كلبك.

قال تيركوت بصوت كالنقيق: «إسعاف. أرجوك يا أمبرسون، أتألم بشدة». ولمعت عيناه، بدموعه حسبما بدا لي.

الإسعاف. فكرة جيدة. إليكم أمر مضحك: عشت في ديري عام 1958 قرابة شهرين، لكنني مع ذلك أقحمت يدي سريعاً في جيبي بنطالي الأماميين، حيث أضع هاتفي الجوال دومًا عندما لا أكون مرتديًا معطفًا رياضيًا. لم تجد أصابعي شيئًا سوى نقود معدنية ومفاتيح السيارة.

- آسف يا تيركوت، لم تولد في زمن الإسعاف الفوري.

- ماذا؟

وفقًا لساعتي، بدأ بث مغامرات إليري كوين الجديدة للجمهور الأمريكي المنتظر. قلت: «تجلّد يا تيركوت». وولجتُ سياج الشجيرات، رافعًا يدي التي لا تحمل المسدس لتحمي عيني من الأغصان الكثيفة المتشابكة.

11

تعثرت على صندوق الرمل في منتصف الباحة الخلفية بمنزل أسرة دننغ، وسقطت سقوطًا عنيفًا وتمددت على الأرض، فوجدت نفسي وجهًا لوجه مع دمى ذات عينيّن خاويتين تضع عصا رأس مزينة بزهور ولا ترتدي شيئًا. انفلت المسدس من يدي، فرحت أبحث عنه حبّوًا، قائلاً لنفسي إنني لن أجده أبدًا، وإن هذه هي الحيلة الأخيرة في جُعبة الماضي العنيد، حيلة صغيرة مقارنةً بالنزلة المعوية العنيفة وبيل تيركوت، لكنها جيدة. ومن ثم، حالما لمحت المسدس عند طرف بقعة ضوء ساقط عبر نافذة المطبخ، سمعت صوت سيارة قادمة في شارع كوسوث، بسرعة لن يجرؤ أي سائق عقلاني على القيادة بها في شارع يعج بأطفال يضعون أقنعة ويحملون أكياس حلوى. عرفتُ القادم حتى قبل أن يوقف السيارة بصريّر مكابح مزعج.

بداخل المنزل رقم 379، كانت دورس دننغ جالسة على الأريكة مع تروي، وإيلين تتبختر بزي الأميرة الهندية، متحمّسة للخروج، وللتو قال

تروي لها إنه سيساعد على أكل الحلوى عندما تعود هي وتوغا وهاري، فردّت إيلين: «لا، لن تأكل، ارتد زيك واجلب الحلوى لنفسك». فضحكوا جميعاً، حتى هاري، الذي كان في الحمام ليتبول للمرة الأخيرة قبل الخروج. لأن إيلين كانت مثل لوسيل بول تُضحك كل الناس.

التقطت المسدس سريعاً، فانزلق من أصابعي الدبقة بالعرق وسقط على العشب مرة أخرى. كانت ساقي تنبض بالألم حيث ارتطمت بصندوق الرمل. من الجانب الآخر من المنزل سمعت صوت إغلاق باب سيارة بعنف ووقع أقدام سريعة عند المدخل. أتذكر أنني قلت مع نفسي: أغلقي الباب بالمزلاج أيتها الأم، هذا ليس زوجك العصبي فحسب، بل ديري نفسها قادمة إلى منزلك.

أمسكت بالمسدس، واعتدلت واقفاً مترنحاً لاعناً ساقي المصابة، وكدت أن أسقط مرة أخرى، لكنني استعدت توازني وركضت نحو الباب الخلفي. ثم رأيت في طريقي الباب الأرضي الأفقي المؤدي إلى القبو، فاستدرت حوله، متوقفاً أنني لو وضعت قدمي عليه فسينهار بي. الهواء نفسه بدا أشد كثافة، كأنه هو أيضاً يحاول إبطائي.

قلت لنفسني: حتى إذا مت. حتى إذا مت ونفذ أوزوالد مهمته ومات الملايين، حتى إذا حدث ذلك. لأن هذا هو الحاضر، هذه أسرة بكاملها.

كنت موقناً أنني سأجد الباب الخلفي موصداً، لذا كدت أن أسقط إلى الخلف عندما دار مقبض الباب وفُتح إلى الخارج. دخلت إلى المطبخ الذي ما زال يعبق برائحة اللحم المشوي الذي طهته السيدة دننغ، ورأيت الحوض مليئاً بالأطباق، وعاء المرق على الطاولة، وبجانبه طبق معكرونة بارد. ثم سمعت من التلفاز عزف كمان مرتعش، ما كانت كرسيتي تسميه بـ "موسيقى القتل". ملائم جداً. ورأيت على الأريكة قناع فرانكنشتاين المطاطي الذي يعتزم توغا ارتدائه عندما يخرج لجمع الحلوى، وبجانبه

كيس الغنائم المرتقبة مكتوب على جانبه بقلم تلوين أسود: حلوى توغا. ممنوع اللمس.

في قصته كان هاري قد أورد اقتباسًا لوالدته: «أخرج من هنا بهذا الشيء، غير مسموح لك بالدخول». لكن وأنا أركض نحو القوس الفاصل بين المطبخ وصالة المعيشة سمعتها تقول: «فرانك؟ ماذا تفعل هنا؟». وارتفع صوتها: «ما هذا الذي تحمله؟ لماذا تح... أخرج من هنا!». ثم صرخت.

12

عند عبوري القوس سمعت أحد الأطفال: «من أنت؟ لماذا تصرخ أمي؟ هل جاء أبي؟».

التفت فرأيت هاري دنغ ذا الأعوام العشرة واقفًا عند باب دورة مياه في الركن البعيد من المطبخ، كان يرتدي ملابس جلدية، ويحمل بندقيته الهوائية بيد، وبالأخرى يرفع سحَّاب بنطاله. ثم صرخت دورس دنغ مرة أخرى. وصرخ الصبيان الآخرون أيضًا. ثم سمعت صوت ارتطام شيء ثقيل، صوت مكتوم يثير الغثيان، فانقطع الصراخ. صاحت إيلين: «لا يا أبي، لا، أنت تؤذيها!».

ركضت إلى صالة المعيشة ووقفت فاغرا فمي. كنت أفترض، بناءً على قصة هاري، أن مهمتي ستكون إيقاف رجل يحمل مطرقة من النوع الذي يحتفظ به الرجال في صندوق أدواتهم، لكنني وجدت الرجل يحمل مطرقة ثقيلة ذات رأس يزن قرابة عشرين رطلاً، ملوِّحًا بها كأنها لعبة. كان مُشمِّرًا عن ساعديه، ورأيت عضلاته المفتولة التي تضخمت من تقطيع اللحم لعشرين عامًا. ثم رأيت دورس على سجادة صالة المعيشة، وقد كسر فرانك ذراعها للتو، وعظمة ذراعها المكسورة ناتئة من تمزُّق في كُم فستانها، وخُلعت كتفها أيضًا حسبما بدا لي. بدا

وجهاها شاحبًا مذهولًا. زحفت على السجادة أمام التلفاز وشعرها متدلّ على وجهها. رفع دننغ المطرقة، وهذه المرة هوى بها على جانب رأس دورس فتناثرت دماؤها على وسائد الأريكة.

إيلين كانت ساذجة وحاولت دفعه نحو الباب صارخة: «توقف يا أبي، توقف!».

أمسك بها من شعرها وقذفها بعيدًا، فتطاير الريش من زينة رأسها، وارتطمت بالكرسي الهزاز فقلّبتة.

صحت: «دننغ! توقف!».

نظر إليّ بعينين محمرتين دامعتين. كان ثملًا، ويبكي. وتدلى المخاط من منخريه واللعباب من شفثيه. بدا وجهه متشنجًا بالغضب المستعر والكرب والذهول.

قال: «من أنت بحق الجحيم؟». واندفع نحوي دون أن ينتظر إجابة. ضغطت زنادة المسدس، قائلاً لنفسه: لن يطلق النار هذه المرة، إنه مسدس ينتمي إلى ديري ولن يطلق النار.

لكنه أطلق النار. وأصاب الرصاصة كتف فرانك، فتفتّحت وردة حمراء على قميصه الأبيض. ترنح جانبيًا، ثم واصل تقدمه نحوي، رافعًا مطرقة الثقيلة. اتسعت دائرة الدماء على قميصه، لكنه بدا كأنه لم يحس بها.

ضغطت الزناد مرة أخرى، لكن أحدًا ارتطم بي عندئذٍ فطاشت الرصاصة. كان هاري. زعق: «توقف يا أبي! توقف وإلا أطلقت عليك النار!».

رأيت آرثر "توغا" دننغ يزحف نحوي، نحو المطبخ. وفي أثناء إطلاق هاري هواء بندقيته، هوى دننغ بالمطرقة الثقيلة على رأس توغا، فانمحي وجه الفتى في لطحّة من الدماء، وتطايرت شظايا عظام وكُتِل

شعر في الهواء عاليًا، وتناثر رذاذ دماء على مصباح السقف. ظلت إيلين ودورس تصرخان بلا انقطاع.

استعدت توازني وأطلقت النار مرة ثالثة، فمزقت الرصاصة وجه دننغ من خده الأيمن إلى أذنه، لكنها لم توقفه. عندئذٍ خطر لي أنه ليس بشراً، وما زلت الآن أظنه ليس بشراً. لم أر في عينيه الدامعتين وفمه المكشّر -بدا كأنه يمزغ الهواء بدلاً من تنفّسه- سوى خواء ضاحٍ.

كرر سؤاله: «من أنت بحق الجحيم؟». ثم أردف: «إنك تتعدى على منزلي».

رفع المطرقة وهوى بها راسماً قوساً أفقيّاً، فانحنيت، ورغم أن رأس المطرقة البالغ وزنه عشرين رطلاً بدا أنه أخطأني تماماً، أحسست بموجة حرارة أعلى رأسي، انفلت المسدس من يدي وارتد من الجدار واستقر في ركن. ثم شعرت بشيء دافئ يسيل على جانب وجهي. لست متأكداً من أن المطرقة أحدثت جرحاً طوله ست بوصات على فروة رأسي، وبدا لي أنها اقتربت بشدة من إفقادي الوعي أو قتلي في الحال. كل هذا حدث في أقل من دقيقة. ربما ثلاثين ثانية. الحياة تتغير في طرفة عين.

صحت على تروي: «اخرج! خذ أختك واخرج! اصرخ طالباً النجدة! اصرخ بأعلى...».

عاود دننغ التلويح بالمطرقة، فقفزت متراجعاً، وانغرز رأس المطرقة في الجدار، فتهشم اللوح الخشبي وتطاير غبار الجص في الهواء مع دخان البارود. كان التلفاز ما يزال يصدر بموسيقى القتل.

وفي أثناء محاولة دننغ انتزاع مطرquete من الجدار، طار شيء بجواري، كانت بندقية ديزي الهوائية. قذفها هاري. ارتطمت ماسورتها بجرح فرانك المفتوح على خده، فصرخ متألماً.

- أيها اللقيط! سأقتلك!

رأيت تروي يحمل إيلين إلى الباب. قلت لنفسى: هذا جيد. نجحت في تغيير الواقع بهذا القدر على الأقل...

لكن قبل أن يتمكننا من الخروج، ظهر شخص آخر عند الباب ثم دخل مترنحًا فأسقط تروي والفتاة الصغيرة على الأرض. رأيت ذلك بالكاد بلمحة خاطفة لأن فرانك انتزع المطرقة وهاجمني مجددًا. تراجعت، ودفعت هاري إلى المطبخ.

- اخرج عبر الباب الخلفي يا بُنى، سريعًا. سأصده إلى أن... زعق فرانك دننغ وتشنَّج، وفجأة انبثق شيء من صدره. خُيل لي أنني رأيت خدعة سحرية. كان الشيء ملطخًا بالدماء فاستغرقت وهلة حتى أدرك ماهيته: السونكي.

قال بيل تيركوت بصوت مبحوح: «هذه من أجل شقيقتي أيها الداعر، من أجل كلارا».

13

سقط دننغ، سقط على وجهه وقدميه في صالة المعيشة ورأسه أسفل القوس الفاصل بين المطبخ وصالة المعيشة. لكنه لم يلامس الأرضية بكامل جسده، ظل جذعه مرفوعًا قليلًا بعدما انغرز طرف النصل في الأرضية. ارتعشت إحدى قدميه، ثم هَمَد. بدا كأنه مات وهو يؤدي تمرين ضغط.

كل من في المنزل كانوا يصرخون. وتشبع الهواء برائحة البارود والجص والدماء. كانت دورس تتحرك مرتجفة نحو ابنها الميت وشعرها ما زال متدليًا على وجهها. لم أرغب في رؤيتها رأس توغا مهشمًا حتى فُكَّه، لكن لم أستطع إيقافها.

قلت بصوت متحشرج: «سأحاول على نحو أفضل في المرة القادمة يا سيدة دننغ. أعدك بهذا».

تلتخ وجهي بأكمله بالدماء، فاضطرت إلى مسحها عن عيني اليسرى حتى أرى بها. ظننت أنني لم أتعرض لإصابة بالغة بما أنني ما زلت واعياً، وكنت أعرف أن جروح فروة الرأس تنزف بغزارة. لكنني كنت في حالة يرثى لها، وعرفت أنني إذا أردت المحاولة مرة ثانية، فعلي مغادرة المكان هذه المرة أولاً، سريعاً ودون أن يراني أحد.

لكن كان لا بد أن أتحدث مع تيركوت قبل مغادرتي، أو أحاول على الأقل. كان قد تهالك مستنداً إلى الجدار جوار قدمي دننغ الممددتين، ورأيته ممسكاً ب صدره ويلهث، وبدا وجهه شاحباً كوجه جثة، عدا شفثيه اللتين صارتا بنفسجيتين كشفثي طفل التهم للتو حفنة توت أزرق. مددت يدي نحو يده، فأمسك بها وجلاً بقوة، لكن لاحت في عينيه ومضة ابتسامة خافتة.

- مَن الجبان الآن يا أمبرسون؟

- ليس أنت. إنك بطل.

قال بصوت مرتعش: «أجل. ألقِ الميدالية اللعينة في نعشي».

رأيت دورس تحتضن رأس ابنها الميت، وخلفها تروي يذرع المكان ويدور حول نفسه ضاماً رأس إيلين إلى صدره، لم ينظر نحونا، ولم يبد أنه يدرك وجودنا. ولم ينقطع عويل الفتاة.

قلت لتيركوت رغم أنني غير متأكد: «ستكون بخير. والآن اسمعني جيداً، لأن هذا أمر مهم: انس اسمي».

- أي اسم؟ لم تخبرني باسمك قط.

- صحيح. و... هل تعرف سيارتي؟

بدأ صوته يتلاشى، لكن عينيه ظللتا مرگزتين على عيني: «فورد. جميلة. سقف متحرك. محرك واي بلوك. موديل أربعة أو خمسة وخمسين».

- لم ترها قط. هذا هو الأمر الأهم يا تيركوت. أحتاج إليها لأصل إلى جنوب الولاية الليلة وسأضطر إلى الالتزام بالطرق الرئيسية لأنني لا أعرف أي طرق أخرى. إذا تمكنت من الوصول إلى وسط مين، فسأكون حُرًا دون مشكلات. هل تفهم ما أقوله لك؟

- لم أرها قط.

انقبض وجهه من الألم ثم قال: «آه، سحقًا. صدري يؤلمني ألمًا مبرحًا».

وضعت أصابعي على حلقه المكسو بلحية نابثة شائكة وتحسست نبضه، فوجدته متسارعًا وغير منتظم. ومن بعيد تناهت إلى مسامعي صافرات سيارات شرطة.

- تصرفت التصرف الصحيح.

دارت عيناه في محجريهما، وقال: «كِدْتُ ألا أفعل. لا أدري فيم كنت أفكر. لا بد أنني جننت في تلك اللحظة. اسمع يا صاح، إذا عثروا عليك، لا تقل لهم ما... ما أخبرت».

- لن أخبر أحدًا أبدًا. توليت أمره يا تيركوت، كان وحشًا جامحًا وأنت أزلت خطره. لا فتخرت شقيقتك بك.

ابتسم وأغمض عينيه.

14

ذهبت إلى الحمام، وأخذت منشفة وبللتها في الحوض، مسحت بها الدماء عن وجهي، وألقيتها في حوض الاستحمام. ثم أخذت منشفتين أخريين، وخرجت إلى المطبخ.

وجدت الصبي الذي جاء بي إلى هذا الماضي واقفًا جوار الموقد ينظر إلي، ويمص إبهامه، رغم أنه على الأرجح ترك هذه العادة قبل

ست سنوات، وعيناه متسعتان، وحزینتان، ومغرورقتان بالدموع، وعلى خديه وحاجبيه رذاذ دماء. ما رآه سيسبب له صدمة نفسية بلا شك، لكنه لن يُلقَّب بهاري الضفدع عندما يكبر، ولن يكتب قصة تُبكيهني. سألني: «من أنت يا سيدي؟».

قلت: «لا أحد». وسرت جواره نحو الباب. لكن كان يستحق مني تجاوزًا أفضل. اقتربت صافرات سيارات الشرطة، لكنني استدرت عائداً إليه وقلت: «أنا ملاكك الطيب». ثم تسلفت سريعاً عبر الباب الخلفي إلى ليلة هاولين عام 1958.

15

سرت عبر جادة ويمور إلى شارع ويتشام، ورأيت أضواء زرقاء متذبذبة متجهة نحو شارع كوسوث، وواصلت السير. وبعد مربعين سكنيين انعطفت يميناً عند جادة جيرارد، فوجدت أناساً واقفين على الأرصفة وينظرون إلى اتجاه أصوات صافرات سيارات الشرطة.

سألني رجل: «سيدي، هل تعرف ما حدث؟». وكان ممسكاً بيد طفل يرتدي زي سنو وايت وحذاء رياضياً.

قلت: «سمعت الأطفال يطلقون ألعاباً نارية، ربما أشعلوا حريقاً». واصلت السير وحرصت على إبقاء جانب وجهي الأيسر بعيداً عن الناس، لأنني اقتربت من أحد مصابيح الشوارع وفروة رأسي ما زالت تنز دماءً. وبعد أربعة مربعات سكنية، استدرت عائداً نحو شارع ويتشام، وعند هذه النقطة جنوباً، بعيداً عن شارع كوسوث، وكان شارع ويتشام مظلماً وهادئاً. جميع سيارات الشرطة في المنطقة ذهبت إلى مسرح الجريمة. جيد. كدت أن أبلغ تقاطع شارعي غروف وويتشام، لكن أحسست بركبتي تخوران، نظرت إلى ما حولي، فلم أر أي محتفلين بالهالوين، وجلست على الرصيف. ما كان ينبغي أن أتوقف، لكنني اضطررت. استفرغت كل

ما في معدتي، لم أتناول شيئاً طوال اليوم سوى لوح شوكولاتة واحد (ولا أتذكر إذا ما أكملته قبل أن يباغتني تيركوت)، وللتو شاركت في مشهد عنيف فتعرضت لإصابة، لم أعرف مدى سوئها بعد. إما أن أتوقف وأستجمع طاقتي وإما أن يُغمر علي على الرصيف.

وضعت رأسي بين ركبتي، وتنفست بعمق كما تعلمت في دورة تدريبية للصليب الأحمر لنيل شهادة عامل إنقاذ عندما كنت في الجامعة. في البداية لم أستطع أن أبعد من عقلي صورة تهشم رأس توغا بالمطرقة، فتفاقم إحساسي بالدوار. ثم فكرت بهاري، الذي تلتخ بدماء شقيقه لكن لم يلحقه أذى. وإيلين، التي لم تدخل في غيبوبة لن تستيقظ منها أبداً. وتروي. ودورس، ربما تؤلمها ذراعها المكسورة لبقية حياتها، لكن ستعيش على الأقل.

همست: «فعلتها يا آل».

لكن ماذا فعلتُ في 2011؟ ماذا فعلت بـ 2011؟ هذه كانت الأسئلة التي لا أعرف إجابتها بعد. إذا وقع أمر فظيع بسبب تأثير الفراشة، يمكنني دوماً العودة ومحو ما فعلته... إلا إذا تسببتُ، وأنا أغير مسار حيوات أسرة دنغ، في تغيير مسار حياة آل تمبلتون أيضاً. ماذا لو لم يعد المطعم في مكانه؟ ماذا لو لم ينتقل إليه من أوبرن أساساً؟ أو لم يفتح مطعمًا؟ استبعدتُ ذلك... لكن هأنذا، جالس على رصيف في عام 1958 والدماء تنز من شعري الذي قصصته في 1958. إذا أخبرت أحداً آخر بهذا، ألن يستبعده؟

نهضت مترنحاً، واستأنفت السير. إلى يميني في شارع ويتشام رأيت الأضواء الزرقاء، وحشداً تجمّع عند تقاطع كوسوث، لكنهم كانوا يولونني ظهورهم. والكنيسة التي تركت سيارتي جوارها كانت على الجانب الآخر من الشارع، وجدتها وحدها في موقف السيارات، لكنها بدت بخير، لم يثقب إطاراتها محببُ مقالب الهالوين. ثم رأيت مربعاً

أصفر تحت أحد مسّاحتي الزجاج الأمامي، فتذكرت فوراً رجل البطاقة الصفراء، وانقبضت أحشائي. التقطت الورقة وأطلقت تنهيدة ارتياح عندما قرأت المكتوب عليها: انضم إلى أصدقائك وجيرانك للصلاة يوم الأحد القادم عند التاسعة صباحاً. القادمون الجدد مُرحَّب بهم دومًا! وتذكّر: "الحياة هي السؤال، ويسوع هو الإجابة".

تمتعت: «ظننت أن المخدرات هي الإجابة، ولا أرى غضاضة في تعاطي قليل منها الآن». وفتحت باب السائق. تذكرت الكيس الورقي الذي تركته خلف مرآب المنزل بجادة ويمور، سيعثر عليه رجال الشرطة عندما يبحثون في المنطقة، لا محالة، وبداخله سيجدون بضعة ألواح شوكولاتة، وقنينة كاوبكتيت كادت أن تفرغ... وما يبدو كحفاضات بالغين.

تساءلت عما قد يستنتجونه من تلك الأشياء.

لكن ليس لمدة طويلة.

16

عندما وصلت إلى الطريق الرئيسي ألمني رأسي أَلَمًا مبرحًا، لكن حتى إذا لم أكن في حقبة سابقة لظهور المتاجر التي تعمل على مدار الساعة، لا أظن أنني كنت لأجرؤ على التوقف، كان قميصي مغطى بدماء جافة على الجانب الأيسر. على الأقل تذكرت ملء خزان الوقود.

حاولت مرة أن أتحمس جرح رأسي بأطراف أصابعي، فعوقبت بوخزة ألم حادة أقنعتني بعدم المحاولة مرة ثانية.

لكنني توقفت عند استراحة خارج أوغستا. عندئذ كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ووجدت المكان مهجورًا. أضأت المصباح الداخلي ونظرت إلى بؤبؤي عيني في المرأة الخلفية، رأيتهما طبيعيين، فأحسست بالارتياح. كانت توجد آلة بيع وجبات خفيفة خارج مرحاض الرجال،

اشترت منها فطيرة شوكولاتة محشوة بالكريمة بعشرة سنتات،
والتهمتها في أثناء القيادة، وخف صداعي قليلاً.

وصلت إلى ليسبون فولز بعد منتصف الليل، وجدت الشارع الرئيسي
مظلمًا، لكن مصنعي ورمبو ويو إس جيبسم كانا يعملان بطاقتهما
القصوى، ينفثان مخلفاتهما الغازية النتنة في الهواء، ويدفقان السائلة
منها في النهر. جعلتهما صفوف مصابيحهما اللامعة يبدوان كسفينتين
فضائيتين. ركنت سيارتي أمام شركة كنبك فروت، حيث ستظل في
مكانها إلى أن يلقي شخص نظرة بداخلها فيرى بقع الدماء على المقعد
وباب السائق وعجلة القيادة، عندئذ ستستدعى الشرطة. افترضت أنهم
سيرفعون منها البصمات، ومن الوارد أن تطابق البصمات التي ستؤخذ
من مسدس في مسرح جريمة بديري. وربما يظهر اسم جورج أمبرسون
في ديري ثم هنا في ليسبون. لكن إذا وجدتُ جحر الأرنب ما زال في
مكانه حيث تركته، فلن يترك جورج خلفه أثرًا يمكن تتبعه، وستكون
البصمات بصمات رجل سوف يولد بعد ثمانية عشر عامًا.

فتحت صندوق السيارة الخلفي، وأخرجت الحقيبة اليدوية، وقررت
أن أترك بقية الأشياء. ربما ينتهي المطاف ببيعها في الفيل الأبيض
المبتهج، محل الأشياء المستعملة على مقربة من تايئس شيفرون. عبرت
الشارع نحو مداخل المصنع وضجيج شات - هوش، شات - هوش
الذي سيستمر على مدار الساعة حتى حقة ريغان عندما تقضي التجارة
الحرة على المنسوجات الأمريكية الغالية.

وجدت سقيفة التجفيف مضاءة بوهج فلورسنت أبيض قادم من
نوافذ قسم الصباغة، ولمحت السلسلة التي تفصل السقيفة عن بقية
الفناء. وحال الظلام دون قراءتي اللافتة المعلقة منها، وقد انقضى
شهران تقريبًا منذ أن رأيته، لكنني تذكرت ما كان مكتوبًا عليها: ممنوع

تجاوز هذا الحد قبل صيانة أنبوب المجاري. لم أر أثرًا لرجل البطاقة الصفراء، أو رجل البطاقة البرتقالية، إذا صار كذلك.

فجأة غمر ضوءُ الفناء، فجعلني ظاهرًا كنملة على طبق، وانبتق ظلي أمامي طويلًا نحيلًا. تسمرت ورأيت شاحنة نقل تتدحرج نحوي. وتوقعت أن يتوقف السائق ويخرج رأسه ويسألني مستغربًا عما أفعله هنا. أبطأ سرعته لكنه لم يتوقف، ورفع لي يده، فرفعت له يدي بدوري، وواصل السير نحو أرصفة الشحن وعشرات البراميل الفارغة تصدر ضجيجًا بالخلف. اتجهت نحو السلسلة، وألقيت نظرة سريعة إلى ما حولي، وتجاوزتها منحنيًا أسفلها.

سرت إلى جانب سقيفة التجفيف وقلبي ينبض بشدة، ونبض جرح رأسي معه بتناغم. وهذه المرة لم أجد كتلة الخرسانة التي حددت بها موضع السلم. قلت لنفسِي: رويدًا رويدًا. درجة السلم... هنا. إلا أنني لم أعثر عليها. لم أجد شيء سوى الأرضية المرصوفة أسفل حذائي الذي يتحسس الموضع.

تقدمت قليلًا، ولم أجد شيئًا. كان الطقس باردًا إلى درجة رؤية بخار زفيري، لكنني أحسست بعنقي وذراعي تنضح عرقًا دهنيًا. تقدمت أكثر قليلًا، لكن عندئذٍ تأكدت أنني تجاوزت الموضع. إما أن جُحر الأرنب اختفى، وإما أنه لم يوجد هنا أساسًا، مما يعني أن حياتي كلها بوصفي جيك إبنغ -كلها من حديقتي الفائزة بجائزة "مزارعي أمريكا المستقبلين" عندما كنت طالبًا في المدرسة الثانوية، وروايتي التي لم أكمل كتابتها في الجامعة، إلى زواجي بامرأة جميلة أغرقت حبي لها في الكحول- لم تكن سوى هלוسة جنونية، وأنني عشت بوصفي جورج أمبرسون طوال حياتي.

تقدمت قليلاً، ثم توقفت لاهثاً. في مكان ما، ربما في قسم الصباغة أو إحدى حجرات الخياطة - صاح شخصٌ: «تبّاً لي!». فأجفلت، ثم أجفلت مرة أخرى إثر اندلاع هدير الضحكات.

جحر الأرنب ليس هنا.

اختفى.

أو ربما لم يوجد أساساً.

وهل شعرت بخيبة أمل؟ رعب؟ دُعر محض؟ لم أشعر بأيٍّ من ذلك. شعرت بارتياح يتسلل إليّ رويداً رويداً. وقلت لنفسي: بمستطاعي العيش هنا، بسهولة، بل وبسعادة أيضاً.

هل كان ذلك صحيحاً؟ نعم. نعم.

الهواء نتن جوار المصانع وفي وسائل المواصلات العامة حيث يدخن كل الناس بشراهة، لكن معظم الأماكن هواؤها منعش. الطعام طيب المذاق، والحليب يوصل مباشرة إلى عتبة الباب. بعد مدة من الإحساس بأعراض الانسحاب إثر انقطاعي عن حاسوبي، أدركت مدى إدماني على الشيء اللعين، تذكرت الساعات الطويلة التي أنفقتها في قراءة رسائل البريد الإلكتروني وزيارة مواقع إلكترونية للسبب نفسه الذي يجعل متسلقي الجبال يرغبون في تسلُّق جبل إفريست: لأنه موجود. كما لم يرن هاتفي الجوال قط، لأنني ليس لدي هاتف جوال. أمرٌ مريح. وخارج المدن الكبيرة معظم الناس ما زالوا محافظين. وهل يوصد غالبيتهم أبوابهم في الليل؟ قطعاً لا. الناس قلقون من حرب نووية، لكنني مطمئن بمعرفتي أن من يعيشون في 1958 سوف يشيخون ويموتون دون أن يسمعو عن انفجار قنبلة نووية لأي غرض سوى الاختبارات. ولا أحد يقلق بشأن الاحتباس الحراري أو المفجّرين الانتحاريين الذين يختطفون الطائرات ويحطمونها على ناطحات السحاب.

وإذا لم تكن حياتي في 2011 هלוسة (كنت أعرف هذا في قرارة نفسي)، فما زلت بمقدوري إيقاف أوزوالد، لكن لن أعرف النتيجة النهائية، يمكنني التعايش مع هذا.

حسنًا. أول ما علي فعله هو أن أعود إلى السيارة وأغادر ليسبون فولز، ثم أذهب إلى لويستون، وأقصد موقف حافلات، وأشتري تذكرة وأسافر إلى نيويورك، ومن هناك أركب القطار إلى دالاس... أو لِمَ لا أسافر بالطائرة؟ ما زلت لدي كثير من النقود، وما من موظف شركة طيران سيطلب مني إثبات هوية عليه صورة. ما علي سوى دفع سعر تذكرة وسترحب ترانس إيرلاين بي على متن طائرة.

إثر توصلّي إلى هذا القرار غمرني ارتياح بالغ جعل ركبتّي تخوران، لم أحس بضعف شديد كالذي أحسست به في ديري، لكنني استندت إلى سقيفة التجفيف، وارتطم مرفقي بها، فأصدرت صوتًا رنانًا مكتومًا. عندئذٍ سمعت صوت شخص من حيث لا أدري، صوت مبجوح، أقرب للدمدمة. صوت من المستقبل: «جيك؟ أهذا أنت؟». وتبعه وابل من السعال الخشن.

كدت أن ألوذ بالصمت. كان بمقدوري أن ألوذ بالصمت. ثم فكرت بتضحيات آل من أجل هذا المشروع، وتذكرت أنني آخر أمل بقي لديه في حياته.

استدرت ناحية مصدر أصوات السعال وقلت بصوت خافت: «آل؟ تحدث إليّ. اذكر الأرقام بالترتيب». كان بإمكانني أن أردف: أو واصل السعال فحسب.

بدأ آل العد. وتحركت نحو صوت الأرقام، متحسّسًا طريقي بقدمي. وبعد عشر خطوات، أبعد كثيرًا من المكان الذي استسلمت فيه، أحسست بقدمي تتقدم خطوة وترتطم بشيء في آنٍ واحد. ألقيت نظرة أخرى على ما حولي، وأخذت نفسًا أخيرًا من الهواء الملوّث بالكيماويات، وأغمضت

عيني وصعدت درجات سلّم لا أراه. عند الدرجة الرابعة، أحسست بأن هواء الليل البارد حلّ محله دفء وروائح القهوة والبهارات. على الأقل كان هذا هو التغيّر الذي أحس به نصفي العلوي، أسفل خصري كنت ما أزال أحس بهواء الليل.

لبثت واقفًا ثلاث ثوانٍ تقريبًا. نصفي في الحاضر، ونصفي الآخر في الماضي. ثم فتحت عيني، فرأيت وجه آل المُنْهَك القَلِق النحيل، وتقدمت عائداً إلى 2011.

الجزء الثالث

العيش في الماضي



الفصل التاسع

1

لَقُلْتُ إِنْ مَا مِنْ شَيْءٍ قَدْ يَفَاجِئُنِي بِحُلُولِ ذَلِكَ الْوَقْتِ بَعْدَ كُلِّ مَا مَرَرْتُ بِهِ، لَكِنْ مَا رَأَيْتُهُ بِجَوَارِ آلِ جَعْلٍ فَكِّى يَتَدَلَّى: سِيَجَارَةُ مُشْتَعِلَةٍ فِي مَنْفُضَةٍ. تَجَاوَزْتُ آلَ وَسَحَقْتُ السِّيَجَارَةَ قَائِلًا: «هَلْ تَرِيدُ أَنْ تَلْفِظَ بِالسَّعَالِ مَا بَقِيَ مِنْ أَنْسَجَةٍ رُئَةٍ سَلِيمَةٍ لَدَيْكَ؟».

لَمْ يَرِدْ عَلَى ذَلِكَ، وَلَسْتُ مُتَّكِدًا أَنَّهُ سَمِعَنِي، حَذَقَ إِلَيَّ بَعِينَيْنِ مُتَسَعِّتَيْنِ ثُمَّ قَالَ: «رَبَاهُ يَا جِيكَ! مَنْ كَشَطَ فِرْوَةَ رَأْسِكَ؟».

قُلْتُ: «لَا أَحَدٌ. فَلَنُخْرِجَ مِنْ هُنَا قَبْلَ أَنْ أُخْتَنَّقَ بِدُخَانِ سِيَجَارَتِكَ». لَكِنْ ذَلِكَ كَانَ تَوْبِيخًا أَجُوفًا. اعْتَدْتُ رَائِحَةَ دُخَانِ السَّجَائِرِ فِي أَسَابِيْعِ إِقَامَتِي فِي دِيرِي، وَعَمَّا قَرِيبٍ رُبَّمَا أَبْدَأُ التَّدْخِينَ، إِذَا لَمْ أَتَوَخَّ الْحَذَرَ.

قَالَ: «فِرْوَةُ رَأْسِكَ كُشِطَتْ، لَكِنَّكَ لَا تَعْرِفُ. ثَمَّةُ قِطْعَةٍ مِنْ جِلْدِكَ وَشَعْرَكَ مَعْلُوقَةٌ خَلْفَ أُذُنِكَ، وَ... مَا مَقْدَارُ مَا نَزَفْتَ؟ رُبْعُ جَالُونَ؟ وَمَنْ فَعَلَ بِكَ هَذَا؟».

- أَوَّلًا، أَقَلُّ مِنْ رُبْعِ جَالُونَ. وَثَانِيًا، فَرَانِكَ دَنَنْغٌ. إِذَا جَاوَبْتُ عَنْ أَسْئَلَتِكَ، لَدَيَّ سَوَالٌ، قُلْتَ إِنَّكَ سَتُبْتَهِلُ لِي، فَلِمَاذَا كُنْتَ تَدَخَّنُ؟
- لِأَنَّنِي كُنْتُ مَتَوَتِّرًا، وَلَأَنْ تَدَخِّنِي لَمْ يَعْذِرْهُمْ. شَرِدَ الْحَصَانُ! لَمْ أُسْتَطِعْ مُجَادَلَتَهُ فِي ذَلِكَ.

سار آل ببطء خلف نضد البيع، وأخرج صندوقًا بلاستيكيًا عليه صليب أحمر. جلست على أحد المقاعد ونظرت إلى الساعة الحائطية. كانت الساعة الثامنة إلا ربع عندما فتح آل باب المطعم ودخلنا، والثامنة إلا خمس دقائق على الأرجح عندما دخلت عبر جحر الأرنب وخرجت إلى أرض عجائب 1958. زعم آل أن كل رحلة تستغرق دقيقتين تحديدًا، وبدا أن الساعة الحائطية تؤكد كلامه. قضيت اثنتين وخمسين يومًا في 1958، لكن هنا كانت الساعة 7:59 صباحًا.

أخذ آل شاشًا وشريطًا لاصقًا ومطهر جروح، وقال: «انحن هنا حتى أرى الجرح. ضع ذقنك على النضد».

- لا داعي لبروكسيد الهيدروجين، أُصبت قبل أربع ساعات، وقد تخنّر الجرح. أترى؟

قال: «الاحتياط أفضل من الندم لاحقًا». وأشعل قمة رأسي.

- آآه!

- يؤلمك، أليس كذلك؟ لأن الجرح ما زال مفتوحًا. هل تريد أن يعالج جراح في 1958 فروة رأسك الملوثة قبل ذهابك إلى دالاس؟ صدقني يا صاح، هذا أفضل لك. لا تتحرك. علي أن أقص قليلًا من الشعر حتى يثبت الشريط في مكانه. حمداً للرب على أنك أبقيته قصيرًا.

قص الشعر، ثم فاقم ألمي بضغط الشاش على الجرح وتثبيته بالشريط اللاصق. «يمكنك نزع الشاش بعد يوم أو يومين، لكن عليك أن تبقي قبعتك على رأسك حثذاك، ستبدو كالأجرب لبعض الوقت، لكن إذا لم يعاود شعرك النمو، يمكنك دومًا تمشيط شعرك فوق موضع الجرح. أتريد أسبرين؟».

قلت: «نعم. وكوب قهوة، أيمكنك تحضيرها كيفما اتفق؟». رغم أن القهوة لن تساعدني إلا لوقت قصير. كنت في أمس الحاجة إلى النوم. قال: «يمكنني». وشغل آلة صنع القهوة ماركة بان أو ماتيك، ثم عاد للتنقيب في صندوق الإسعافات الأولية، وتابع: «يبدو لي أن وزنك نقص قليلاً».

سألته مع نفسي: وأنت من يتحدث عن نقصان الوزن؟! وقلت: «مرضتُ. أصبت بجرثوم...» عندئذٍ انعقد لساني.

- جيك، ما الخطب؟

كنت أنظر إلى صور آل المؤطرة. عندما دخلت جحر الأرنب كانت توجد صورة لي مع هاري دننغ معلقة على الجدار مع الصور الأخرى، كنا مبتسمين ونمسك بشهادة هاري أمام الكاميرا. اختفت تلك الصورة.

3

- جيك؟ ما الخطب يا صاح؟

التقطت قرص الأسبرين الذي وضعه آل على النضد، وقذفته في فمي وابتلعه دون ماء، ثم نهضت وسرت ببطء نحو "جدار المشاهير". أحسست بأنني رجل من زجاج. حيث كانت صورتني مع هاري معلقة، رأيت صورة لآل وهو يصافح مايك ميشود، ممثل مقاطعة مَين الثانية، ولا بد أن ميشود كان يسعى لإعادة انتخابه، لأن آل كان يضع زرازين على منزره، أحدهما مكتوب عليه: ميشود للكونغرس، والآخر مكتوب عليه: ليسبون تحب مايك. وكان الممثل الموقر يرتدي تيشيرت موكسي برتقالياً فاقعاً ويحمل شطيرة برغر دسمة أمام الكاميرا.

أخذت الصورة من الجدار وسألت آل: «منذ متى هذه الصورة هنا؟».

نظر إليها وعبس قائلًا: «لم أر هذه الصورة في حياتي قط. الرب يعلم أنني دعمت ميشود في حملتي الانتخابيتين الأخيرتين - بل دعمت أي ديمقراطي لم يُشتبه في اختلاسه تمويلات حملاته الانتخابية- وقابلته في تجمع انتخابي عام 2008، لكن ذلك كان في كاسل روك. لم يأت إلى هذا المطعم قط».

- يبدو أنه أتى. هذا نضدك الذي في الصورة، أليس كذلك؟

أخذ الصورة بيديه النحيلتين كمخالب، وقربها من وجهه.

- بلى. إنه نضدي بالتأكيد.

- إذن أثر الفراشة حقيقي. وهذه الصورة تُثبت.

أمعن النظر إلى الصورة وعلى شفثيه ابتسامة طفيفة، متعجبًا، أو مبهورًا. ثم أعادها إلي وسار إلى خلف النضد ليصب القهوة.

- آل، ما زلتَ تتذكر هاري دنغ، صحيح؟

- أتذكره بالتأكيد. ألم تذهب من أجله إلى ديري وكاد أن يتسبب في الإطاحة برأسك؟

- من أجله وبقيّة أسرته، نعم.

- وهل أنقذتهم؟

- كلهم عدا واحد. والده قتل توغا قبل أن نتمكن من إيقافه.

- ألم تكن وحدك؟

- سأخبرك بكل شيء، لكن أولاً سأذهب إلى المنزل لأنام.

- يا صاح، ليس أمامنا متسع من الوقت.

قلت: «أعرف ذلك». وأردفت مع نفسي: أعرف بمجرد النظر إليك. «لكنني مرهق جدًا. بالنسبة لي الساعة الواحدة والنصف صباحًا، وقد كانت...» انفرجت شفثاي بتثاؤب طويل. «... ليلتي حافلة».

- جلب القهوة. كوب مملئ لي، دون كريمة، ونصف كوب له بكثير من الكريمة، وقال: «حسنًا، أخبرني بما تستطيع في أثناء شرب كوبك».
- أولًا فسّر لي تذكُّرك هاري وهو لم يشتغل عامل نظافة في ثانوية ليسبون ولم يشتر منك شطيرة برغر طوال حياته. وثانيًا، فسّر لي عدم تذكُّرك زيارة مايك ميشود للمطعم في حين أن تلك الصورة تثبت زيارته.
- لا تعرف يقينًا أن هاري دننغ غير موجود في هذه المدينة، بل ولا تعرف يقينًا أنه لا يشتغل عامل نظافة في ثانوية ليسبون.
- ستكون مصادفة مذهلة إذا كان ما زال يشتغل عامل نظافة في ثانوية ليسبون. غيَّرتُ الماضي تغييرًا كبيرًا يا آل، بمساعدة من رجل يُدعى بيل تيركوت. وبالتالي ما كان هاري ليذهب ويعيش مع خالته وخاله في هيفن، لأن والدته لم تُمِت، ولم يمت شقيقه تروي ولا شقيقته إيلين. ودننغ لم يقترب بمطرقته من هاري نفسه. إذا كان ما زال هاري يعيش في ليسبون بعد كل تلك التغيرات، فسأكون الرجل الأشد دهشة في العالم.
- قال آل: «ثمة طريقة للتحقُّق. لدي حاسوب محمول في مكتبي، تعال إلى الخلف». سار أمامي وهو يسعل ويستند إلى الأشياء. حملت كوبي معي، وهو ترك كوبه خلفه.
- وجدت أن مكتب كلمة فخمة لا تليق بالحُجيرة الأشبه بدولاب قبالة المطبخ، بالكاد اتسع لكلينا، جدرانه مغطاة بأوراق ملاحظات، وتصاريح عمل، وتوجيهات صحية من سلطات مَين والحكومة الفدرالية. إذا جاء الذين ينشرون أقاويل وشائعات برغر القطط ورأوا كل تلك الأوراق الرسمية -التي تشمل شهادة نظافة من الدرجة الأولى بعد آخر تفتيش أجرته سلطات ولاية مين- فربما يتراجعون عن أقاويلهم.

كان حاسوب آل على مكتب صغير أتذكر أنني كنت أستخدم مثله في الصف الثالث. تهالك على كرسي بالحجم نفسه متأوهاً من الألم والارتياح، وقال: «لدى المدرسة موقع إلكتروني، صحيح؟».

- بالتأكيد.

وفي أثناء انتظار بدء تشغيل الحاسوب، تساءلت عن عدد رسائل البريد الإلكتروني التي تراكمت عندي خلال غيابي اثنين وخمسين يوماً، ثم تذكرت أنني غبت دقيقتين فقط. يا لسُخفي. قلت: «أظنني أفقد صوابي يا آل».

- أعرف شعورك. اصمد قليلاً يا صاح، وسوف... مهلاً، ها نحن ذان. فلنر. المواد الدراسية... الجدول الصيفي... هيئة التدريس... الإدارة... موظفو الرعاية.

- اضغط عليه.

حرك إصبعه على لوحة اللمس، وتمتم، وأوماً، ونقر على شيء، ثم حلق إلى شاشة الحاسوب كأنه ناسك هندوسي ينظر إلى كرة بلورية. قلت: «حسناً ماذا وجدت؟ لا تدعني مُعلّقاً».

أدار الحاسوب نحوي حتى أرى بوضوح، فقرأت على الشاشة: موظفو الرعاية بمدرسة ليسبون الثانوية، الأفضل في مين! ورأيت صورة لرجلين وامرأة يقفون في منتصف الصالة الرياضية، كلهم مبتسمون، ويرتدون قمصان فريق ليسبون غرايهاوندز. ليس بينهم هاري دنغ.

4

عدنا إلى المطعم وجلسنا إلى إحدى الطاولات المعزولة. قال آل: «تذكره بوصفه عامل نظافة وأحد طلابك لأنك من دخل عبر جحر الأرنب. وأنا أتذكره لأنني استخدمت جحر الأرنب بنفسني أو لأنني قريب منه. هذا

هو السبب على الأرجح. إشعاع من نوع ما. رجل البطاقة الصفراء أيضًا قريب من جحر الأرنب، لكن على الجانب الآخر، وهو يستشعر خطبًا. رأيته بنفسك، لذا تعرف ما أعنيه».

- صار رجل البطاقة البرتقالية.

- ما الذي تتحدث عنه؟

تثاءبت، وقلت: «سأخلط القصة إذا حاولت إخبارك الآن. أريد اصطحابك إلى منزلك، ثم الذهاب إلى منزلي. وسأتناول شيئًا، لأنني جائع كدب استيقظ من سُ...».

قال: «سأحضر لك بيضًا». وهمم بالنهوض، لكنه جلس متهالكًا وبدأ يسعل. كل شهيق بدا ثقيلًا يهز جسده بأكمله، وسمعت خشخشة في حلقه كصوت ورقة لعب مثبتة في عجلة دراجة هوائية.

وضعت يدي على ذراعه قائلاً: «عليك أن تعود إلى المنزل، وتأخذ شيئًا من المخدر، وتنال قسطًا من الراحة، والنوم إن استطعت. أعرف أنني أستطيع. ثماني ساعات. سأضبط المنبه».

توقف عن السعال، لكن ما زلت أسمع حشرجة حلقه، وقال: «النوم الهائئ. أتذكر ذلك. أحسبك يا صاح».

- سأعود إلى منزلك الليلة عند السابعة، لا، فلنقل الثامنة، حتى أجد وقتًا للتحقق من بعض الأشياء على الإنترنت.

- وإذا وجدت كل شيء على ما يرام؟

- فسأعود غدًا مجددًا وأستعد لتنفيذ المهمة.

قال: «لا، ستلغي تنفيذ المهمة». اعتصر يدي. كانت أصابعه نحيلة، لكن قبضته ما زالت محتفظة بشيء من قوتها. «هذه هي الغاية من كل شيء. العثور على أوزوالد، وإلغاء فعلته الشنيعة، ومحو ابتسامة العجرفة من وجهه».

عندما شغلت محرك سيارتي، مددت يدي إلى ناقل الحركة المدمج في عمود التوجيه وضغطت القابض بقدمي اليسرى، لكن لم تقبض أصابعي على شيء سوى الهواء ولم تضغط قدمي على شيء سوى أرضية السيارة، فضحكت، لم يسعني فعل شيء سوى الضحك. سألني آل من المقعد المجاور: «ماذا؟».

افتقدت سيارتي الفورد الصنلاينر، لكن لا بأس، عما قريب سأشتريها مجددًا. لكن بما أنني في المرة التالية ستكون معي نقود أقل، على الأقل في البداية (ستختفي وديعتي في مصرف هومتاون، ستُفقد عندما يعود الوضع إلى ما كان عليه عند عبوري جحر الأرنب)، فربما يتعين علي المساومة أكثر مع بيل تايتس.

رأيت أن بوسعي فعل ذلك.

صرت شخصًا مختلفًا.

- جيك، ما المضحك؟

- لا شيء.

بحثت عن تغيرات في شارع مين، لكن جميع المباني التي اعتدت رؤيتها موجودة وتجد العناية، بما فيها شركة كنبك فروت، التي بدت، كالمعتاد، على وشك الإفلاس. وما زال تمثال الزعيم ورمبو منتصبًا في متنزه البلدة، ولافتة محل كابيل للأثاث ما زالت تطمئن العالم بأن: لن تجدوا أسعارًا أقل من أسعارنا.

- آل، هل تتذكر السلسلة التي تضطر إلى الانحناء أسفلها لتعود إلى جحر الأرنب؟

- بالتأكيد.

- واللافتة المعلقة منها؟

- نعم، المكتوب عليها ممنوع تجاوز هذا الحد قبل صيانة أنبوب المجاري.

كان آل جالسًا كجندي يظن أن الطريق أمامه حقل ألغام، وظل يجفل كلما ارتطمنا بمطب.

- عندما عدتَ من دالاس، بعدما أدركت أن مرضك سيُعجزك عن إكمال المهمة، هل وجدتَ تلك اللافتة في مكانها؟

قال بعدما فكر هنيهة: «نعم. وجدتُها في مكانها. هذا أمر غريب، أليس كذلك؟ مَنْ يستغرق أربع سنوات لإصلاح أنبوب مجاري مكسور؟».

- لا أحد، لا سيما في فناء المصنع حيث تغدو الشاحنات وتروح طيلة الليل والنهار. إذن لماذا لا تلفت انتباه أحد؟
هز رأسه.

- لا أدري.

- ربما وُضعت اللافتة هناك لمنع الناس من دخول جحر الأرنب دون قصد. لكن في هذه الحالة، فمن وضعها؟

- لا أدري، ولا أدري إذا كان ما تقوله صحيحًا.

انعطفت إلى شارع منزله، أملًا أن أتمكن من إدخاله بسلام، ثم أقطع الأميال السبعة أو الثمانية إلى ساباتوس دون أن أغفو خلف عجلة القيادة. لكن ثمة أمرًا آخر كان يشغل بالي، رأيت أن من الضروري قوله لآل، على الأقل حتى لا يرفع سقف توقعاته.

- الماضي عنيد يا آل، لا يريد أن يُغيّر.

- أعرف. أخبرتك.

- أجل أخبرتني، لكنني الآن أرى أن مقاومة التغيير تتناسب طرديًا مع مدى التغيّر المُحتمَل الذي سيطرأ على المستقبل.

نظر إلي، وبدت لي الهالات السوداء أسفل عينيه أشد كثافة من أي وقت مضى، والتمعت عيناه من الألم، وقال: «هلاً تكلمت بوضوح؟».

- تغيير مستقبل أسرة دننغ كان أصعب من تغيير مستقبل كارولين بولين، لأن عدد أفراد أسرة دننغ أكبر، والأهم لأن ابنة بولين كانت لتعيش على أي حال. لماتت دورس دننغ وأطفالها... وأحدهم مات رغم محاولتي، لكنني أنوي معالجة ذلك.

لاح شبح ابتسامة على شفتيه: «حسنًا. في المرة التالية احرص على الانحناء لتتفادى الضربة. وفرّ على نفسك حرج الندبة في مكان لن ينمو فيه شعرك مجددًا».

كانت لدي أفكار بهذا الشأن، لكنني أثرت عدم الإفصاح عنها. انحرفت بالسيارة إلى مدخل منزل آل، وقلت له: «ما أعنيه هو أنني ربما لن أستطيع إيقاف أوزوالد، على الأقل ليس من المرة الأولى». ضحكت ثم تابعت: «لكن فيم يهم هذا، أخفقت في اختبار القيادة في المرة الأولى أيضًا».

- وأنا أيضًا. لكنني لم أرغم على الانتظار خمس سنوات قبل المحاولة مرة أخرى.

كانت وجهة نظر سديدة.

سألني: «كم تبلغ من العمر يا جيك؟ ثلاثين؟ اثنين وثلاثين؟».

- خمسة وثلاثين.

وشهرين أقرب إلى الستة وثلاثين مما كنت صباح اليوم، لكن ما قيمة شهرين بين الأصدقاء؟

- إذا أخفقت في المهمة وتعيّن عليك البدء من جديد، فستكون في الخامسة والأربعين عندما يحين موعد المحاولة التالية. يمكن أن تقع أحداث كثيرة في عشر سنوات، لا سيما والماضي يعاندك.

- أعرف. انظر إلى ما حدث لك.

- أُصِبتُ بسرطان الرئة بسبب التدخين، هذا كل ما في الأمر.

سعل كأنه يريد إثبات كلامه، لكنني رأيت في عينيه الألم والشك أيضًا.

- على الأرجح هذا كل ما في الأمر. أمل ذلك. لكن هذا أمر آخر لا

نعـ...

فُتِحَ باب منزله بصوت عالٍ. وخرجت امرأة ضخمة ترتدي رداء أخضر مصفرًا وحذاء ممرضات أبيض، وهولت إلى السيارة. رأت آل قابعًا بإعياء في مقعد سيارتي التويوتا، وفتحت الباب سريعًا قائلة: «سيد تمبلتون، أين كنت؟ جئت لأعطيك أدويةك، وعندما وجدت المنزل خاليًا ظننت...».

ابتسم آل لها بصعوبة وقال: «أعرف ما ظننته، لكنني بخير، لست في أحسن حال، لكنني بخير».

نظرت إلي.

- وأنت. لماذا تتجول به بالسيارة؟ ألا ترى مدى هشاشته؟!

كنت أراها بالطبع. لكن نظرًا إلى استحالة إخبار الممرضة بما كنا نفعله، أمسكت لساني وتجلدت لتلقي التوبيخ كرجل.

قال آل: «كنا نناقش أمرًا مهمًا. حسنًا؟ فهمت؟».

- نفس الـ...

فتح آل باب السيارة وقال: «ساعديني على الدخول يا دورس. جيك يريد الذهاب إلى منزله».

دورس.

كاسم زوجة دننغ.

لم يلاحظ آل المصادفة، كانت مصادفة بالتأكيد، فالاسم شائع، لكن صداه تردد في رأسي كثيرًا.

وصلت إلى المنزل، وهذه المرة وجدت نفسي أمد يدي إلى مكابح طوارئ الصنلاينر. أوقفت المحرك وخطر لي أن سيارتي التويوتا مزحومة وباهتة المعالم أشبه بصندوق رديء من البلاستيك والألياف الزجاجية مقارنة بالسيارة التي اعتدت قيادتها في ديري. دخلت المنزل، ثم شرعت في إطعام قطّي، ورأيت أن الطعام في طبقه ما زال رطبًا بحالة جيدة. لم لا؟ في 2011 لم يمضِ على وجوده في الوعاء أكثر من ساعة ونصف.

قلت: «كُل ذلك يا إلمور، هناك قطط تتضور جوعًا في الصين وتتمنى هذا الطعام».

حدجني إلمور بنظرة أستحقها وانسل إلى الخارج عبر الفتحة المخصصة له في الباب. وضعت في الميكرويف اثنين من وجبات ستاوفر المجمدة. (متحدثًا مع نفسي كأنني وحش فرانكنشتاين وهو يحاول تعلُّم الكلام: ميكرويف، جيد. سيارات حديثة، سيئة). تناولت الوجبتين كاملتين، وتخلصت من القمامة، ثم ذهبت إلى غرفة النوم. نزعت قميص 1958 الأبيض (شاكرًا الرب على أن دورس آل كانت غاضبة فلم تلاحظ بقع الدماء)، وجلست على طرف السرير لأحل رباط حذائي القادم من 1958، ثم اضجعت بظهري. ومتأكد أنني نمت قبل أن يلامس ظهري الفراش.

نسيت ضبط المنبه، ولنمت إلى ما بعد الخامسة مساءً، لكن إلمور قفز على صدري عند الرابعة والربع وراح يتشمم وجهي، وهذا كان يعني أنه أنهى طبقه ويطالب بإعادة ملئه. قدمت مزيدًا من الطعام

للقط، ورششت على وجهي ماء بارد، ثم تناولت وعاء من حبوب إفطار سبيشَل كيه، وتوقعت أن تمر أيام قبل أن أستعيد نظام وجباتي.

ببطن ممتلئة ذهبت إلى مكتبي وشغلت حاسوبي، وكان مكتبة البلدة أولى محطاتي السيبرانية. كان آل محقًا، لديهم جميع أعداد صحيفة ليسبون ويكلي إنتربرايز في قاعدة بياناتهم. تعيّن علي أن أصبح "صديقًا للمكتبة" قبل أن يتاح لي الاطلاع على البيانات، وكلفّفتني الصداقة عشرة دولارات، لكن نظرًا إلى الظروف بدا المبلغ زهيدًا.

عدد إنتربرايز الذي كنت أبحث عنه كان بتاريخ 7 نوفمبر. وفي صفحته الثانية، بين خبر عن حادث سيارة مميت وبين آخر عن قضية جريمة حرق متعمد، وجدت قصة عنوانها الشرطة المحلية تبحث عن رجل غامض. الرجل الغامض كان أنا... أو بالأحرى ذاتي الثانية في حقبة أينزهاور. عُثِر على الصنلاينر ذات السقف المتحرك، ولوحظت بقع الدماء فيها. أكّد بيل تايّتس أنه باع السيارة لرجل اسمه جورج أمبرسون. نبرة المقال لامست قلبي: قلق على رجل مفقود (ومصاب على الأرجح). ووصفني جورج دوسن، موظف مصرف هومتاون، بأنني «لبق الحديث ومهذب». وإدي بومر، مالك صالون بومر للحلاقة، قال عني الأمر نفسه تقريبًا. لم تحم أي شبّهات حول اسم أمبرسون. لكان الوضع مختلفًا إذا ارتبط اسمي بقضية جريمة وقعت في ديري، لكن هذا لم يحدث.

كما لم أذكر بسوء في عدد الأسبوع التالي، حيث ذُكر في قسم الجرائم: البحث عن رجل وسكونسن المفقود يستمر. وفي العدد التالي انشغلت ويكلي إنتربرايز بموسم العطلات، واختفى اسم جورج أمبرسون من الصحيفة تمامًا. لكنني كنت هناك. نَحَت آل اسمه على شجرة، وأنا وجدت اسمي في صفحات صحيفة قديمة. توقعت هذا، لكن رغم هذا كانت رؤية الدليل الملموس مثيرة للرّهبة.

بعدها زُرت موقع ديربي ديلي نيوز. ووجدت تكلفة الاطلاع على أرشيفهم أعلى بكثير، 34.50 دولارًا، لكن في غضون دقائق كنت أنظر إلى الصفحة الأولى من عدد الأول من نوفمبر 1958.

قد يتوقع المرء أن تنصدر أي جريمة مروعة عناوين الصفحة الأولى في أي صحيفة محلية، لكن في ديربي، تلك البلدة الغريبة، كان الناس يتكتمون على فضاعاتهم بقدر مستطاعهم. القصة المهمة في ذلك اليوم كانت عن اجتماع لروسيا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة في جنيف لنقاش معاهدة مُحتملة لحظر اختبارات الأسلحة النووية. وأسفلها قصة عن عبقرى شطرنج في الرابعة عشرة اسمه بوبي فيشر. وفي نهاية الصفحة الأولى، إلى اليسار (الموضع الذي يخبرنا خبراء الإعلام أنه آخر موضع ينظر الناس إليه، إنا نظروا إليه)، قصة عنوانها هياج عاصف ينتهي بقتيلين. ووفقًا للقصة، فإن فرانك دننغ، «أحد أبرز مجتمع رجال الأعمال وعضو نشط في العديد من الفعاليات الخيرية»، ذهب إلى منزل زوجته المنفصلة عنه «وهو في حالة سُكر» بعد الثامنة مساء يوم الجمعة، وإثر شجار مع زوجته (لم أسمعه قطعًا... وقد كنتُ حاضراً) ضربها بمطرقة، فكسر ذراعها، ثم قتل ابنه البالغ من العمر اثني عشر عامًا، آرثر دننغ، عندما حاول آرثر الدفاع عن والدته.

وبقية القصة في صفحة 12، وعندما قلبت الصفحة، رأيت صورة لصديقي اللدود بيل تيركوت. وبحسب القصة، «مر تيركوت مصادفة جوار منزل دننغ فسمع صيحات وصرخات»، فهرع إلى المدخل، ورأى ما يجري عبر الباب المفتوح، وقال لفرانك دننغ أن «يتوقف عن الضرب بمطرقته»، ورفض دننغ. ثم لمح تيركوت سكين صيد مغمدة في حزام دننغ فسحبها، واستدار دننغ إلى تيركوت، وتصارعا، وعندئذ مات دننغ إثر طعنة. لكن بعد لحظات تعرض السيد تيركوت البطل لأزمة قلبية.

نظرت إلى الصورة القديمة هنيهة. تيركوت يقف واضعًا إحدى قدميه بفخر على مصد سيارة يعود موديلها إلى أواخر الأربعينيات، ومن طرف شفتيه تتدلى سيجارة. نظرت إلى الصورة وأنا أنقر بأصابعي على فخذي. دننغ لم يُطعن من الأمام، بل من الخلف، ولم يُطعن بسكين صيد، بل بسونكي. لم يكن دننغ يحمل سكينًا. والمطرقة الثقيلة التي تستخدم في أعمال البناء، لم توصف هكذا تحديدًا في القصة، كانت سلاحه الوحيد. هل من الممكن أن تفوت هذه التفاصيل الواضحة على الشرطة؟ لا أدري كيف، إلا إذا كانوا عميانًا مثل راي شارلز. لكن في ديري، كما شهدت بنفسي، كل هذا يبدو عاديًا.

أظنني كنت أبتسم. بدت القصة جنونية إلى درجة مثيرة للإعجاب. كل الخيوط التي يمكن أن تتشعب منها القضية قُطعت. لدينا الزوج السكير المجنون، والأسرة المرعوبة قليلة الحيلة، والرجل العابر البطل (دون اشتباه في أنه كان مجرد عابر). ماذا نريد غير هذا؟ وما من ذكر لرجل غريب غامض في مسرح الجريمة. قصة تليق بديري.

بحثت في الثلاجة، وعثرت على بقايا بودنغ شوكلاتة والتهمتها واقفًا عند الطاولة ناظرًا إلى باحتي الخلفية. رفعتُ الأمور وربّته إلى أن تلوّى راغبًا في النزول إلى الأرض. ثم عدت إلى حاسوبِي، ونقرت على مفتاح لتختفي شاشة التوقف، وعادوت النظر إلى صورة بيل تيركوت. البطل الذي أنقذ الأسرة وأصيب بأزمة قلبية إثر مجهوده.

وأخيرًا ذهبت إلى الهاتف وأدخلت رقم خدمة الاستعلامات.

8

لم أجد أسماء دورس وتروي وهاري ضمن الأسماء المُدرّجة في ديري، وحاولت البحث عن إيلين، بوصفها ملاذًا أخيرًا، لم أتوقع النجاح، حتى إذا كانت ما زالت في البلدة، فعلى الأرجح اتخذت اسم زوجها.

لكن أحيانًا الاحتمالات المستبعدة هي التي يحالفنا الحظ فيها (لي هارفي أوزوالد كمثال). فوجئت بشدة عندما قال لي المجيب الآلي رقمًا، حتى إنني لم أكن أحمل قلمًا لتدوينه. وبدلاً من معاودة الاتصال بخدمة الاستعلامات، ضغطت الرقم 1 للاتصال بالرقم الذي طلبته. إذا أتحت لنفسني التفكير بالأمر، لما فعلت هذا على الأرجح. أحيانًا لا نرغب في المعرفة، أليس كذلك؟ أحيانًا نخشى أن نعرف. نقطع شوطًا طويلًا، ثم ننكص على أعقابنا. لكنني بشجاعة تمسكت بسماعة الهاتف واستمعت إلى رنين هاتف في ديري مرة، ومرتين، وثلاث مرات. توقعت سماع المجيب الآلي بعد الرنة التالية، وقررت ألا أترك رسالة، لم تكن لدي فكرة عما يمكن أن أقوله.

لكن في منتصف الرنة الرابعة، قالت امرأة: «مرحبًا».

- إيلين دننغ؟

- حسنًا، أظن أن ذلك يتوقف على المُتصل.

بدت طريفة على نحوٍ ما، وصوتها فيه بحةٌ مثيرة. إذا لم أكن أعرفها، لتخيلتها امرأة في الثلاثينات وليست تناهز الستينات. قلت لنفسني: إنه صوت شخص يمثل صوته جزءًا من مهنته. مغنية؟ ممثلة؟ أو ربما أصبحت كوميدية في نهاية المطاف؟ كل ذلك بدا مستبعدًا في ديري.

- اسمي جورج أمبرسون. عرفت شقيقك هاري قبل زمن طويل. عدت إلى مَين، وفكرت في محاولة التواصل معه.

شاب صوتها الجزع: «هاري؟ يا إلهي! هل تعرفت عليه في الجيش؟». هل التقيته في الجيش؟ فكرت بسرعة ورأيت ألا تكون هذه قصتي، ستكون لدي فجوات وزلات كثيرة. ووجدت الإلهام: «لا، لا، عرفته عندما كنت في ديري. عندما كنا أطفالًا. كنا نلعب في المركز الترفيهي».

- حسنًا، يؤسفني إخبارك بهذا يا سيد أمبرسون. هاري مات.

شُدهت لوهلة، لكن الانشده لا يظهر عبر الهاتف، أليس كذلك؟ قلت بصعوبة: «رباه! يؤسفني جدًّا سماع هذا».

- مر وقت طويل. مات في فيتنام. في وقت هجوم تيت⁽¹⁾.

جلست شاعرًا بغثيان. أنقذته من عرج وتشوش عقلي طفيف وقصّرت عمره بمقدار قرابة أربعين عامًا؟ عظيم.

نجحت العملية الجراحية، لكن المريض مات.

لكن لا بد أن يستمر العرض.

قلت: «ماذا عن تروي؟ وأنت، كيف حالك؟ كنت طفلة صغيرة عندئذ، تركبين دراجة ذات عجلات تدريب، وتغنّين، كنت تغنين دومًا». افتعلت ضحكة واهنة. «كنت تثيرين جنوننا».

- لم أعد أغني إلا في ليالي الكارايوكي في حانة بينغان، لكنني لم أمل الثروة قط. حاليًا أعمل مذيعة في إذاعة دبليو كيه آي تي في بانغور. أقدم البرامج الموسيقية، أتعرف ذلك؟

- نعم. ماذا عن تروي؟

- يعيش حياةً جامحة في بالم سبرنغز. إنه الثري في العائلة. جنى ثروة من العمل في مجال الحواسيب. بدأ أولى خطوات نجاحه في السبعينيات، والآن يتناول الغداء مع ستيف جوبز، وما إلى ذلك.

ضحكت. وكانت ضحكتها رائعة. أراهن أن الناس في جميع أنحاء شرق ولاية مين يشغلون المحطة الإذاعية لسماعها. لكن عندما استأنفت الكلام، خفضت نبرة صوتها وتكلمت بجدية. كأنها انتقلت من الشمس إلى الظل، بهذه البساطة: «مَن أنت حقًا يا سيد أمبرسون؟».

- ماذا تقصدين؟

(1) هجوم مفاجئ شنه الفيت كونغ والجيش الشعبي الفيتنامي الشمالي ضد الجيش الفيتنامي الجنوبي والولايات المتحدة. كان تصعيدًا كبيرًا في حرب فيتنام. (المترجم)

- أقدم برامج متنوعة، في الموسيقى والسياسة وكل شيء، وأحاور الناس عبر الهاتف وفي الواقع كثيرًا بحكم عملي. لذا أعرف الأصوات. إذا كنت صديقًا لهاري في أيام المركز الترفيهي، فلا بد أنك في الستينات من عمرك، لكنك لست كذلك. من صوتك تبدو كأنك لم تتجاوز الخامسة والثلاثين.

رباه! تخمين صائب تمامًا. قلت: «يقول لي الناس إن صوتي يبدو أصغر من سنِّي. أراهن أنك تسمعين هذا أيضًا».

قالت بنبرة جافة: «محاولة جيدة». وعلى الفور تغير صوتها فبدت أكبر سنًا: «تدربت سنوات طويلة على إضفاء الحيوية والشباب على صوتي. هل فعلت أنت؟».

لم أحر ردًا مناسبًا، فلزمتُ الصمت.

- وأيضًا لا أحد يتصل ليتفقد شخصًا صادقه في الصبا. ليس بعد خمسين عامًا.

قلت لنفسي: يجدر بي أن أنهي المكالمة. عرفتُ ما اتصلت من أجل معرفته، وأكثر مما توقعت. علي أن أنهي المكالمة. لكن بدا لي أن سماعة الهاتف التصقت بأذني. لست متأكدًا أنني كنت لأتركها إذا رأيت حريقًا قد نشب في ستائر صالة المعيشة.

وعندما تكلمت مجددًا شابت صوتها نبذة إدراك أمرٍ ما: «هل أنت هو؟».

- لا أعرف ما تـ...

- كان يوجد شخص آخر في تلك الليلة، رآه هاري وأنا أيضًا رأيته. أهو أنت؟

سألته متلعثمًا: «أي ليلة؟». تخدّرت شفّتي، كما لو أن شخصًا وضع على وجهي قناعًا محشوًا بالثلج.

- هاري قال إنه كان ملاكه الطيب. أظنه أنت. أهو أنت؟

عندئذٍ بدا كلامها هي غير واضح، لأنها بدأت تبكي.

- سيدتي... إيلين... كلامك لا يبدو منطق...-

- اصطحبتهُ إلى المطار بعدما انتهت إجازته وجاءته الأوامر، كان

مسافرًا إلى فيتنام، قلت له اعتن بنفسك، فقال: "لا تقلقي يا

أختي، لدي ملاك حارس يعتني بي، أتذكرين؟" إذن أين كنت

في السادس من فبراير عام 1968 يا سيد ملاك؟ أين كنت عندما

مات شقيقي في معركة كيه سان؟ أين كنت عندئذٍ يا بن العاهرة؟

قالت كلامًا آخر لكنني لم أفهمه، إذ اشتد نשיجها. أنهيت المكالمة. ثم

ذهبت إلى غرفة النوم، ومنها إلى الحمام، ودخلت إلى حوض الاستحمام

وأغلقت الستارة، وضعت رأسي بين ركبتي. ثم صرخت. مرة، مرتين،

وثلاث. وهذا هو الأسوأ: لم أتمنَّ لو أن آل لم يحدثني عن جحر الأرنب

اللعين فحسب، بل تماديت وتمنَّيت موته.

9

داهمني إحساسٌ مرير عندما توقفت أمام منزله ورأيتَه غارقًا في

الظلام، وتفاقم إحساسي عندما حاولت فتح الباب ووجدته غير موصل.

- آل؟

ما من رد.

عثرت على مفتاح مصباح وأضأته. وجدت صالة المعيشة الرئيسية

في غاية الترتيب كالأماكن التي تُنظَّف بانتظام لكنها لم تُعد تستخدم

كثيرًا، وجدرانها مغطاة بصور فوتوغرافية مؤطرة، معظمها صور أناس

لم أعرفهم، افترضت أنهم أقارب آل، لكنني عرفت الزوجين في الصورة

المعلقة فوق الأريكة: جون وجاكلين كينيدي. كانا على الشاطئ، في

هايانس بورت على الأرجح، ويحيطان بعضهما بذراعيهما. وشممت في الهواء رائحة معطر الجو غليد، لكنها لم تحجب رائحة حجرة التمريض القادمة من مكان أبعد داخل المنزل. ومن مكان ما تغني فرقة ذا تميتشنز بصوت منخفض أغنية ماي غيرل، أشعة شمس في يوم غائم، وما إلى ذلك.

- آل؟ هل أنت هنا؟

أين عساه أن يذهب؟ إلى ستوديو ناين في بورتلاند يرقص في صالة ديسكو ويغازل فتيات الجامعة؟ مُحال. في وقت سابق تمنيتُ أمنية، وأحياناً تتحقق الأمنيات.

تحسست جدار المطبخ بحثاً عن مفاتيح الإضاءة، وعثرت عليها، فغُمر المكان بإضاءة ساطعة تكفي لإجراء عملية استئصال زائدة دودية. رأيت على الطاولة علبة أدوية، من النوع الذي يتسع لأقراص تكفي لمدة أسبوع، معظم هذه العلب صغيرة يمكن وضعها في جيب أو حقيبة يدوية صغيرة، لكن هذه العلبة كبيرة بحجم موسوعة تقريباً. وجوارها رسالة كُتبت على عجل: إذا نسيت أقراص الساعة الثامنة، فسأقتلك! دورس.

انتهت أغنية ماي غيرل، وبدأت أغنية جَست ماي إماجنيشن. تبعث الموسيقى حتى وصلت إلى مصدر رائحة حجرة التمريض. وجدت آل على الفراش. بدا هادئاً نسبياً. ثم رأيت دَمعتين تسيلان من زاويتي عينيه المغمضتين. ومشغل الأسطوانات على منضدة إلى يساره. وثمة رسالة على المنضدة أيضاً، فوقها قنينة أقراص لتثبيتها، لكنها ما كانت لتؤدي مهمة ثقل تثبيت الأوراق حتى إذا هبت نسمة خفيفة، لأنها كانت فارغة. نظرت إلى الرقعة الملصقة عليها: أوكسيكونتين، عشرون ميليغراماً. ثم التقطت الرسالة.

آسف يا صاح، لم أستطع الانتظار. الألم شديد.
لديك مفتاح المطعم وتعرف ما عليك فعله. لا تخدع
نفسك بأنك تستطيع المحاولة مرة أخرى، لأن أشياء
كثيرة يمكن أن تحدث. نَقِّذ العملية على نحو صحيح
من المرة الأولى. ربما تكون غاضبًا مني لتوريطك في
هذا الأمر. لغضبتُ إذا كنتُ في مكانك. لكن لا تتراجع.
أرجوك لا تتراجع. ثمة علبة معدنية أسفل الفراش،
ستجد فيها 500 دولار إضافية ادخرتها.

الأمر بيدك يا صاح. بعد ساعتين من عثور دورس
علي في الصباح، سيوصد مالك المطعم أبوابه على
الأرجح، لذا لا بد أن تتحرك الليلة. أنقذه، اتفقنا؟ أنقذ
كينيدي وسيتغير كل شيء.
أرجوك.

آل.

قلت له مع نفسي: أيها الوغد، عرفتُ أنني ربما أعيد التفكير في
المهمة، وهكذا حسمتُ تردُّدي، صحيح؟

أعدت التفكير بالطبع. لكن إعادة التفكير لا تعني اتخاذ قرار. إذا
ظن آل أنني ربما أترجع، فقد كان مخطئًا. سأوقف أوزوالد بالطبع. لكن
أوزوالد مهمة ثانوية في الوقت الراهن، جزء من مستقبل ضبابي. وهذه
طريقة تعبير غريبة عندما يتحدث المرء عن 1963، لكنها دقيقة. كنت
مشغولًا بأسرة دننغ.

ما زلت بمقدوري إنقاذ آرثر، الملقب بتوغا. وهاري أيضًا.

قال آل لي في وقت سابق: لربما غير كينيدي رأيه. عندما كان يتحدث عن فيتنام.

إذا لم يغير كينيدي رأيه وينسحب من فيتنام، فهل كان هاري ليذهب إلى المكان نفسه في 6 فبراير 1968؟ استبعدت ذلك.

قلت: «حسنًا، حسنًا». وانحنيت فوق آل وقبّلت خده، تذوقت ملحوة طفيفة من آخر دموعه، وتمتمت: «نومًا هنيئًا يا صاح».

10

عدت إلى منزلي، وجردتُ محتويات حقيبتي اليدوية ومحفظتي الفاخرة المصنوعة من جلد النعام. كانت لدي ملاحظات آل المسهبة عن تحركات أوزوالد بعد تسريحه من المارينز في 11 سبتمبر 1959، ووجدت بطاقة إثبات هويتي على ما يرام، ووضعني المالي أفضل مما توقعت، مع النقود الإضافية التي ادخرها آل، إضافة إلى ما لديّ سلفًا، وصار إجمالي ثروتي أكثر من خمسة آلاف دولار.

وجدت همبرغر في ثلاجتي، فطهوت قليلًا منه ووضعت في طبق المور، وربّته وهو يأكل، وقلت له: «إذا لم أعد فاذهب إلى أسرة ريتز في المنزل المجاور، سوف يعتنون بك».

لم يُلّقِ المور بالآل لكلامي، بالطبع، لكنني كنت أعرف أن ذلك ما سيفعله إذا لم يجد أحدًا يطعمه. بفطرتها تعرف القطط كيفية النجاة. حملت الحقيبة واتجهت نحو الباب، وقاومت رغبة لحظية قوية في الركض إلى حجرة نومي والاختباء تحت أغشية الفراش. هل سأجد قطي ومنزلي عندما أعود إذا نجحت في مسعاي؟ وإذا وجدتهما، فهل سيكونان ملكي؟ ما من وسيلة لأعرف. أتودون سماع أمر طريف؟ حتى القادرون على الانتقال للعيش في الماضي لا يعرفون ما يخبئه المستقبل لهم.

تمت بصوت خافت: «أوزوالد.. إنني قادم إليك أيها الوغد».
أغلقت الباب وخرجت.

11

كان المطعم غريبًا دون آل، لأنني أحسست أن آل ما زال موجودًا فيه. أعني شبحه. بدت الوجوه المعلقة على "جدار مشاهير البلدة" كأنها تحدّق إلي، وتساألني عما أفعله في المطعم، وتقول لي إنني لا أنتمي إلى المكان، وتحضّني على المغادرة قبل أن أخرب إيقاع الكون المنضبط. وكان ثمة أمر مقلق على نحو خاص بشأن صورة آل مع مايك ميشود، المعلقة في مكان صورتي مع هاري.

ذهبت إلى مستودع المؤن، وخطوت خطوات صغيرة مترددة إلى الأمام. كان آل قد قال لي: تظاهر بأنك تحاول العثور على أعلى درجة سلم في الظلام. أغمض عينيك يا صاح، هكذا أسهل.

فعلت. هبطت درجتين، وسمعت في رأسي فرقعة تغيّر الضغط الجوي، ثم أحسست بدفع، وبأشعة الشمس تتخلل جفني المغمضين، وسمعت صوت آلات النسيج، شات - هوش، شات - هوش. 9 سبتمبر 1958، قبل دقيقتين من منتصف الظهر. توغا دننغ على قيد الحياة مجددًا، والسيدة دننغ لم تُكسر ذراعها بعد. وعلى مقربة، في محل تايّس شيفرون، تنتظرني سيارة فورد صنلاينر حمراء ذات سقف متحرك وبحالة ممتازة.

لكن أولاً علي التعامل مع "رجل البطاقة الصفراء" السابق. هذه المرة سيحصل على الدولار الذي طلبه، لأنني نسيت وضع نصف دولار في جيبِي. انحنيت أسفل السلسلة، وتوقفت مدة حتى أضع دولارًا في جيب بنطالي الأمامي الأيمن.

لبث الدولار في مكانه، لأنني عندما انعطفت عند ركن سقيفة
التجفيف، وجدت رجل البطاقة الصفراء ممدداً على الأرضية الخرسانية
وعينيه شاخصتين وحول رأسه بركة دماء. حلقه مقطوع من الأذن
إلى الأذن. في إحدى يديه شظية كبيرة من زجاج قنينة نبيذ خضراء
استخدمها لأداء المهمة، وباليـد الأخرى يمسك بطاقته، التي من المفترض
أن لها علاقة بيوم مضاعفة الدفع في الواجهة الخضراء، البطاقة التي
كانت صفراء ذات يوم، ثم برتقالية، والآن صارت سوداء.

الفصل العاشر

1

عبرت موقف سيارات الموظفين للمرة الثالثة، مهرولاً. ومرة أخرى ربّت الصندوق الخلفي لسيارة بليّماوث فيوري ذات اللونين الأبيض والأحمر، استجلاًّباً للحظ الحسن، على ما أظن. في الأسابيع، والأشهر، والسنوات القادمة سوف أحتاج إلى الحظ بالتأكيد.

هذه المرة لم أزر محل كنك فروت، ولم تكن لدي نية في شراء ملابس أو سيارة، يمكنني التسوق غداً أو بعد غد، لأن اليوم ربما يكون يوم نحس لأي غريب في المدينة. قريباً سيعثر شخصٌ ما على الجثة في فناء المصنع، وأي غريب سيُخضع لاستجواب. بطاقة هوية جورج أمبرسون لن تصمد أمام أي تحقيق دقيق، لا سيما وأن العنوان المكتوب في رخصة قيادته يتضمن رقم منزل في جادة بلوويرد لم يُشيد بعد.

وصلت إلى محطة الحافلات الخاصة بعمال المصنع خارج موقف السيارات، وعلى الفور اقتربت حافلة مزمجرة مكتوب على نافذة وجهتها: **لويستون إكسبرس**. صعدت على متنها وناولت السائق الدولار الذي كنت أنوي إعطائه لرجل البطاقة الصفراء. أخرج السائق حفنة نقود فضية من جراب في حزامه. ألقيت خمسة عشر سنّاً في صندوق الأجرة، وسرت متأرجحاً في الممر إلى مقعد قريب من المؤخرة، خلف بحّارين تغطي وجهيهما بثور كثيفة، على الأرجح قادمين من قاعدة برونسويك الجوية البحرية، كانا يتحدثان عن فتاتين يأملان مقابلتهما

في نادي تعرّ اسمهُ هولي، وتخلل حديثهما تبادل ضربات مزاح عنيفة على الأكتاف وضحكات مجلجلة.

شاهدت الطريق رقم 196 يمر خارج النافذة دون أن أرى منه شيئاً تقريباً. ظللت أفكر بالرجل الميت، والبطاقة، التي صارت سوداء. أردت الابتعاد عن الجثة المُقلقة سريعاً بقدر مستطاعي. لكنني توقفت لألمس البطاقة، لم تكن من الورق المقوّى، كما افترضت سابقاً، ولم تكن من البلاستيك. من السليولويد، ربما... لكن ملمسها كان مختلفاً قليلاً، كملمس جلد ميت، أو ندبة. ولم تكن عليها كتابة، أو على الأقل لم تكن عليها كتابة يمكنني رؤيتها.

كان آل قد افترض أن رجل البطاقة الصفراء ليس سوى سَكِّير أصيب بالجنون بسبب الكحول وقُربه من جحر الأرنب، لم أشك في كلامه إلى أن تحول لون البطاقة إلى البرتقالي، لكن الآن استبعدت افتراضه تماماً. ما حكاية الرجل إذن؟ إنه ميت الآن. رجل ميت فحسب. لذا اصرف تفكيرك عنه، أمامك مهام كثيرة.

عندما وصلنا إلى سينما سيارات ليسبون جذبت حبل إيقاف الحافلة، فتوقف السائق عند أول عمود هاتف ذي خطوط بيضاء أمامه.

قلت له وهو يجذب الذراع التي تفتح باب الحافلة: «طاب يومك». قال: «لن يطيب يومي إلا بجعة باردة عند انتهاء ساعات العمل». وأشعل سيجارة.

وبعد بضع ثوان كنت أقف عند حافة الطريق السريع المرصوفة بالحصى وحقيبتَي اليدوية متدلية من يدي اليسرى، وأشاهد الحافلة تبتعد بتثاقل نحو لويستون وخلفها سحابة من دخان العادم. رأيت على ظهرها بطاقة إعلانية عليها صورة ربة منزل تحمل وعاءً لامعاً بيد وبالأخرى ليف جلي ماركة إس أو إس، بدت من عينيها الزرقاوين الكبيرتين وابتسامتها الواسعة كأنها على حافة انهيار عصبي حاد.

رأيت السماء صافية، وسمعت صرير جداد في الأعشاب الطويلة،
وخوار بقرة في مكانٍ ما. وبعدما تلاشت رائحة ديزل الحافلة إثر نسمة
خفيفة، وجدت الهواء نظيفاً منعشاً. سرت نحو نزل تامارك الذي يبعد
قاربة ربع ميل، مسافة قصيرة، لكن قبل أن أصل إلى وجهتي، توقفت
سيارة على متنها شخصان وعرضا علي الركوب. شكرتهما وقلت إنني
على ما يرام، صدقاً. وجدت نفسي أصفر عندما وصلت إلى نزل تامارك.
سبتمبر 1958، الولايات المتحدة الأمريكية.

بصرف النظر عن رجل البطاقة الصفراء، كنت سعيداً بالعودة.

2

أمضيت بقية ذلك اليوم في غرفتي، وراجعت ملاحظات آل للمرة
الألف، هذه المرة أوليت اهتماماً خاصاً لآخر صفحتين عنوانهما خلاصات
بشأن كيفية التصرف. محاولة مشاهدة التلفاز، الذي لم يكن يعرض
سوى قناة واحدة، كانت عبثية، فنزلت إلى صالة السينما ودفعت ثلاثين
سنتاً، سعر خاص للمقيمين في النزل دون حجز سابق. كانت توجد
كراسي قابلة للطي أمام الكافيتريا. اشتريت كيس فشار ومشروباً غازياً
طيب المذاق بنكهة القرفة اسمه بيبسول، وشاهدت فيلم ذا لونغ هوت
سمر مع عدة نزلاء آخرين، معظمهم كبار سن يعرف بعضهم بعضاً
ويتحدثون بأريحية. صار الجو بارداً عندما بدأ فيلم فيرتيغو، ولم أكن
أرتدي سترة، فعدت إلى النزل ونمت نوماً هائلاً.

في الصباح التالي ركبت الحافلة عائداً إلى ليسبون فولز (تجنبت
سيارات الأجرة، إذ رأيت أن ميزانيتي محدودة، على الأقل في الوقت
الراهن)، وكان الفيل الأبيض المبتهج محطتي الأولى. كان الوقت مبكراً،
والجو ما يزال بارداً، لذا وجدت البيتنيك بالداخل، جالساً على أريكة بالية
ويقرأ مجلة أرغوسي.

قال: «مرحبًا أخي».

- مرحبًا. أظنك تبيع حقائب السفر، صحيح؟

- لدي قليل منها، ليست أكثر من مئتين أو ثلاثمئة. اذهب إلى الخلف...

- وانظر إلى يمينك.

- صحيح. هل أتيت إلى هنا من قبل؟

- من لم يأت؟ هذا المكان أكبر من ملعب كرة قدم للمحترفين. ضحك قائلاً: «اذهب واختر لنفسك حقيبة رائعة».

اخترت الحقيبة الجلدية نفسها التي اشتريتها المرة الماضية. ثم عبرت الشارع واشترت الصنلايز مرة أخرى، هذه المرة أكثر من المساومة، وحصلت عليها مقابل ثلاثمئة دولار. بعد انتهاء الشد والجذب أرسلني بيل تايتس إلى ابنته.

قالت: «لا تبدو من أهل البلدة».

- من وسكونسن، لكنني أقيم في مَين منذ مدة، لدواعي عمل.

- أظنك لم تكن قريبًا من ليسبون فولز بالأمس، هه؟

وعندما قلت إنني لم أكن، فرقعت علكتها وقالت: «فاتتك أحداث مثيرة. عُثِر على عجوز ميت خارج سقيفة التجفيف في المصنع». خفضت صوتها وتابعت: «انتحار. قطع الرجل حلقه بشظية زجاج. أيمكنك تخيل ذلك؟».

قلت: «أمر فظيع». وضعت فاتورة شراء السيارة في محفظتي، وحرّكت المفاتيح في راحة يدي، وأردفت: «هل الرجل من السكان المحليين؟».

- لا، لم يُعثر على بطاقة هويته. على الأرجح جاء من مقاطعة أروستوك على متن عربة شحن، هذا ما يقوله أبي. ربما من أجل

قطف التفاح في كاسل روك. السيد كادي، البائع في الواجهة الخضراء، أخبر أبي أن الرجل ذهب إليه في المحل صباح أمس وحاول شراء كمية من مشروب كحولي، لكنه كان ثملًا ونتاجًا، فطرده كادي. بعدها لا بد أنه ذهب إلى فناء المصنع وشرب ما بقي لديه، وعندما نفذ مشروبه، كسر القنينة وقطع حلقه بشظية. أيمكنك تخيل ذلك؟

صرفت النظر عن قصة الشعر، وعن الذهاب إلى المصرف أيضًا، لكنني ذهبت لشراء الملابس من محل ماسون للملابس الرجالية مرة أخرى.

علق البائع: «لا بد أنك تحب درجة اللون الأزرق هذه». رفع قميصًا من كومة الملابس التي اخترتها، وأردف: «لون القميص نفسه الذي ترتديه».

في الحقيقة كان القميص نفسه الذي أرتديه، لكنني لم أقل هذا، لتسببتُ في تشوش كلينا.

3

قدت سيارتي سالكا طريق ميل في الساعة السريع في عصر يوم الخميس، وهذه المرة لم أكن أحتاج إلى شراء قبعة عندما أصل إلى ديري، لأنني تذكرت إضافة قبعة صيفية جميلة مصنوعة من القش إلى مشترياتني من محل ماسون. سجلت وصولي إلى فندق ديري تاون هاوس، وتناولت وجبة في صالة الطعام، ثم ذهبت إلى الحانة وطلبت جعة من فريد تومي، وهذه المرة لم أبذل جهدًا لمحادثته كثيرًا.

في اليوم التالي استأجرت شقتي القديمة في جادة هاريس، وأصوات الطائرات لم تزعجني هذه المرة، بل هدهدتنني فتمتُ سريعًا. وفي اليوم الذي يليه ذهبت إلى محل ماشن للمستلزمات الرياضية وقلت للبائع إنني

مهتم بشراء مسدس صغير لأنني أعمل في مجال العقارات وكذا وكذا. فجلب لي مسدسي السابق مرة أخرى وقال لي إنه وسيلة حماية رائعة. اشتريته ووضعته في حقيبتي اليدوية. فكرت في السير عبر شارع كانساس إلى المتنزه الصغير لأشاهد ريتشي-الديتشي وبيفي-الليفي يتدربان على أداء حركات الرقصة بجدية، ثم أدركت أنني لن ألقى بهما. تمنيت لو أنني تذكرت تفقد أعداد أواخر نوفمبر من صحيفة ديلي نيوز خلال عودتي الجائزة إلى 2011، لعرفت ما إذا فازا بمسابقتهما.

قررت أن أجعل ذهابي إلى حانة مُشعل المصابيح عادة ثابتة، صرت أتناول كوب جعة في المساء المبكر قبل أن يعج المكان بالزبائن، وأحياناً أطلب طبق قطع الكركند. لم أر فرانك دنغ هناك قط، ولم أرغب في رؤيته، كان لدي سبب آخر دفعني للذهاب إلى المُشعل بانتظام. إذا سار كل شيء على ما يرام، فسأتجه إلى تكساس قريباً، وأردت أن يكون حضوري الشخصي هنا معروفاً قبل مغادرتي. صادقت جيف الساقى، وذات مساء قريباً من نهاية سبتمبر، فتح موضوعاً كنت أخطط لفتحه.

سألني: «أي فريق تشجع في نهائيات بطولة العالم للبيسبول يا جورج؟».

- اليانكيز بالطبع.

- أحقاً؟ رغم أنك من وسكونسن؟

- الفخر بفريق ولايتي لا علاقة له بالأمر. اليانكيز هم الأبطال هذا العام.

- لن يفوزوا أبداً. رُماتهم عواجيز، ودفاعهم ضعيف. أيام مجد برونكس بومبروز ولّت. ربما يفوز فريق ميلووكي.

ضحكت.

- ذكرتَ نقاطاً وجيهة يا جيف، أرى أنك مُلم بخبايا اللعبة. لكن أرجو أن تعترف، إنك تكره اليانكيز كما يكرههم أي شخص في

نيو إنغلاند، وهذا يشوّش على موضوعيتك وتقييمك لقوة الفرق المتنافسة.

- أتود الرهان على ما تقوله؟

- بالتأكيد. خمسة دولارات. أحرص دومًا على ألا أسلب من الكادحين أكثر من هذا المبلغ. هل تراهنًا؟
- تراهنًا.

تصافحنا، ثم قلت: «حسنًا، بعدما سوّينا ذلك، وبما أننا نتحدث عن البيسبول والرهانات، أعظم أنشطة تزجية الوقت في أمريكا، أتساءل عما إذا كان بمقدورك إخباري بمكان مراهنات كبير في البلدة، أريد المراهنة بمبلغ كبير. اجلب لي كوب جعة آخر وكوبًا لنفسك أيضًا». قلت المراهنة بمبلغ كبير بلكنة سكان مين، فضحك وهو يصب جعة نارغانسيت (عرفت أنهم يسمونها ناستي غانسيت. عندما يكون المرء في روما، فعليه أن يتحدث مثل الرومان بقدر استطاعه).

لامسنا كوبينا، وسألني جيف عما قصدته بالمبلغ الكبير، فتظاهرت بالتفكير، ثم أخبرته.

قال: «خمسمة دولار؟ على اليانكيز؟ وفريق بريفز لديهم سباهن وبرديت؟ ناهيك بهانك آرون وستيدي إيدي ماثيوز؟ لا بد أنك معتوه!».

- ربما. سوف نرى في بداية أكتوبر، أليس كذلك؟ هل يوجد أحد في ديربي قد يقبل الموافقة على مراهنتي بمبلغ كبير كهذا على طرف يُرجّح خسارته؟

هل كنت أعرف ما سيقوله جيف؟ لا، لا أعلم الغيب. وهل فوجئت؟ لا، مجددًا. لأن الماضي ليس عنيذًا فحسب، بل ومتناغم مع نفسه ومع المستقبل. رأيت ذلك التناغم مرارًا.

- شاز فراتي. على الأرجح رأيته هنا في الحانة. يملك عددًا من مكاتب الرهن. لا أظنه وكيل مراهنات رسميًا، لكنه يكون مشغولاً في مواسم بطولة العالم ومنافسات كرة القدم لفرق المدارس الثانوية وموسم كرة السلة.

- أظنه سيقبل رهاني؟

- بالتأكيد. سيخبرك باحتمالات الفوز وكل شيء. لكن...

نظر إلى ما حوله، ورأى أننا وحدنا في الحانة، ورغم هذا تابع همساً: «... لا تبخل عليه يا جورج، إنه يعرف أناساً نافذين».

قلت: «فهمت. شكرًا على المعلومة، بل سوف أسديك معروفًا بعدم مطالبتك بالدولارات الخمسة عندما يفوز اليانكيز بالبطولة».

4

في اليوم التالي دخلت محل شاز فراتي، "مريميد للرهن والقروض"، فاستقبلتني امرأة ضخمة متحجرة الوجه يبلغ وزنها قرابة ثلاثمئة رطل، وترتدي فستانًا بنفسيجيًا، وتضع خرز هنود، وتنتعل خفًا بقدميها المتورمتين. قلت لها إنني أعترم مناقشة عرض عمل له علاقة بالرياضة مع السيد فراتي.

سألتنى: «بالكلام العادي الصريح، هل تتحدث عن رهان؟».

وسألتها: «هل أنت شرطية؟».

أخرجت سيجارة تيبارييلو من جيب فستانها وأشعلتها بقداحة ماركة زبو، وقالت: «نعم. أنا جيه إدغار هوفر يا بُني».

- حسنًا يا سيد هوفر، كشفت أمري. إنني أتحدث عن رهان.

- بطولة العالم أم فريق تايجرز لكرة القدم.

- لستُ من البلدة، ولا أعرف الفرق بين ديري تايجرز وبين بانغور بابونز. مهتم بالبيسبول.

أدخلت المرأة رأسها في رواق محجوب بستائر بالخلف، فأولتني عجيذة أظنها من بين الأضخم في وسط ولاية مين، وصاحت: «شازي، اخرج إلى هنا، لديك ضحية سهلة».

خرج فراتي وقبّل السيدة الضخمة على خدّها قائلاً: «شكرًا لك يا حُبِّي». كان مشمّرًا عن ذراعيه فرأيت وشم الحورية. التفت إلي: «هل يمكنني مساعدتك؟».

مددت له يدي قائلاً: «آمل ذلك. اسمي جورج أمبرسون، من وسكونسن، قلبي يميل إلى فتیان بلدتي الأم، لكن في بطولة العالم تميل محفظتي إلى اليانكيز».

استدار إلى رف خلفه، لكن السيدة الضخمة كانت تحمل سلفًا ما يريده: دفتر حسابات أخضر مهترئ مكتوب على غلافه الأمامي قروض شخصية. فتحه وقلّب حتى وجد صفحة خالية. ظل يرطبّ طرف إصبعه باستمرار.

- أي مبلغ في محفظتك نتحدث عنه؟

- ما النسبة التي سأحصل عليها إذا راهنت بخمسمئة دولار وفزت؟ ضحكت المرأة البدينة ونفثت الدخان.

قال فراتي: «على بومبرز؟ واحد إلى واحد، إذا راهنت بخمسمئة ستفوز بخمسمئة».

- ما النسبة التي سأحصل عليها إذا راهنت بخمسمئة دولار على فوز اليانكيز في الجولة السابعة؟

فكّر قليلًا، ثم التفت إلى السيدة الضخمة، فهزت رأسها وهي ما تزال مبتسمة وقالت: «لن يوافقوا، إذا لم تصدقني، أرسل برقية إلى نيويورك».

تنهَّدْتُ ونقرت بأصابعي على نضد عرض زجاجي مليء بساعات وخواتم، ثم قلت: «حسنًا، ماذا عن هذا العرض؟ خمسمئة دولار على فوز اليانكيز بثلاث مباريات متتالية رغم خسارتهم في البداية ثلاث مباريات من أصل أربع».

ضحك قائلاً: «يا لحس دعابتك يا بن عمِّي. دعني أشاور المدير».

تشاورا همسًا (وبدا فراتي جوارها كأحد أقزام تولكين)، ثم عادا إلى النضد: «إذ كنتَ تعني ما أظنك تعنيه، فسأقبل برهانك بنسبة أربعة إلى واحد. إذا لم يتأخَّر اليانكيز بثلاث هزائم وفوز ثم يفوزون بثلاث مباريات متتالية، فستخسر نقودك. لا أريد سوى الحرص على إيضاح شروط الرهان».

قلت: «واضحة تمامًا. ولا أقصد إهانتك أو إهانة صديقك...».

قالت السيدة الضخمة: «نحن متزوجان، فلا تقل صديقين». وضحكت مجددًا.

- لا أقصد إهانتك أو إهانة زوجتك، لكن نسبة أربعة إلى واحد غير معقولة. فلنجعلها ثمانية إلى واحد، هذه صفقة رابحة لكلينا.
- سأعطيك خمسة إلى واحد. هذه أقصى حدودي، إذا أردتَ نسب فيغاس، فاذهب إلى فيغاس.
- سبعة. بربك يا فراتي، كن مرناً معي.

تشاور مع السيدة الضخمة، ثم عاد وعرض علي ستة، فقبلت. كانت ما تزال نسبة منخفضة مقارنة بمبلغ الرهان الجنوني، لكنني لم أرغب في إيذاء فراتي بشدة. صحيح أنه تأمر علي مع بيل تيركوت، لكن كانت لديه أسبابه.

كما إن ذلك حدث في حياة أخرى.

في ذلك الماضي كانت مباريات البيسبول تُلعب كما ينبغي، في ضوء شمس العصر الساطع، وفي أيام بداية الخريف والجو ما يزال صيفياً قليلاً. تجمع الناس أمام متجر بنتون للأجهزة الكهربائية في وسط البلدة لمشاهدة المباريات على تلفاز ماركة زينث حجم شاشته إحدى وعشرين بوصة موضوع على حامل خلف نافذة العرض، وفوقهم لافتة مكتوب عليها: لماذا تشاهد في الشارع بينما يمكنك المشاهدة في المنزل؟ أقساط مريحة!

آه، أجل، الأقساط المريحة. تلك كانت أمريكا التي ترعرعتُ فيها. في الأول من أكتوبر، فاز ميلووكي على اليانكيز 1-0 بقيادة وارن سباهن. وفي الثاني من أكتوبر، سحق ميلووكي بومبرز 13 - 5. وفي الرابع من أكتوبر، عادت البطولة إلى البرونكس، وأنهى دون لارسن المباراة أمام ملووكي 4 - 0، بمساعدة من راين دورين، الذي لم تكن لديه أدنى فكرة عن اتجاه الكرة عندما تغادر يده، فكان يرعب الضاربين الذين يواجهونه أيما رعب.

استمعت إلى الجزء الأول من تلك المباراة عبر المذياع في شقتي، ثم شاهدت الجولتين الأخيرتين مع الحشد أمام محل بنتون. وعندما انتهت المباراة، ذهبت إلى الصيدلية واشتريت دواء كاوبكتيت (على الأرجح القنينة الكبيرة نفسها التي اشتريتها في رحلتي السابقة). سألني السيد كين مرة أخرى عما إذا أصبت بالجراثومة، وعندما قلت له إنني بخير، بدا النغل العجوز محبطاً. كنت بخير حقاً، لم أتوقع أن الماضي قد يقذف نحوي كرات راين دورين السريعة نفسها، لكنني رأيت أن من الأفضل أن أكون مستعداً.

وفي أثناء خروجي من الصيدلية، لفتت انتباهي منصدة عرض عليها لافتة: خذ إلى ديارك قطعة من مِئْن. وفيها بطاقات بريديّة، وألعاب بلاستيكية، وأكياس من أوراق ولحاء الصنوبر، ونسخ مصغرة من تمثال

بول بونيان، ووسائل صغيرة مزينة بصورة لخزان المياه في ديرى.
اشترت وسادة منها.

قلت للسيد كين: «من أجل ابن أخى فى أوكلاهوما».

وجدت أن اليانكيز قد فازوا بالمباراة الثالثة فى البطولة عندما توقفت بالسيارة عند محطة تكساكو للوقود بجادة هاريس، ورأيت لافتة على مضخات الوقود الأمامية مكتوبًا عليها: ميكانيكى يعمل طوال أيام الأسبوع.. اعهد بسيارتك إلى الرجل القادم من تكساس!

وبينما كان عامل المحطة يملأ خزان الوقود ويغسل زجاج الصنلاينر الأمامى، سرت إلى مركز الصيانة ووجدت ميكانيكيًا اسمه راندى بيكر، وساوخته قليلًا. احتار بيكر من طلبى لكنه وافق على عرضى. انتقلت عشرون دولارًا من يد إلى أخرى. وأعطاني رقم هاتف المحطة ورقم منزله. ثم غادرت بخزان ممتلئ، وزجاج أمامى نظيف، ونفس مطمئنة... أو مطمئنة نسبيًا، إذ من المستحيل الحيطة لجميع الحالات الطارئة.

وبسبب استعداداتى لليوم التالى، وصلت إلى حانة المُشعل لشرب كوب الجعة المسائية فى وقت متأخر عن المعتاد، لكننى لم أقلق من احتمال مصادفة فرانك دننغ، فقد كان هذا يوم اصطحابه أطفاله إلى مباراة كرة القدم فى أورنو، وفى طريق عودتهم سيتوقفون عند مطعم ناينتى فايفر ويتناولون البطلينوس المقلي ومخفوق الحليب.

وجدت شاز فراتى عند المشرب يحتسى ويسكى جاودار وماء. قال لى: «فلتأمل أن يفوز بريفز غدًا، وإلا فستخسر خمسمئة دولار».

كنت أعرف أنهم سيفوزون بالتأكيد، لكن عقلى كان مشغولاً بشؤون أهم. قررت البقاء فى ديرى إلى أن أقبض ثلاثة آلاف دولار من السيد فراتى، لكننى اعتزمت إنهاء مهمتى الحقيقية فى اليوم التالى. إذا سارت الأمور كما أرجو، فستنتهى مهمتى فى ديرى قبل أن يسجل ميلووكي النقطة الوحيدة التى يحتاجون إليها فى الجولة السادسة.

طلبت جعة وقطع كركند وقلت: «حسنًا، سننتظر ونرى».

- أجل. الانتظار متعة المراهن. أتمانع إذا سألتك سؤالاً؟

- لا، ما دمت لن تشعر بالإهانة إذا لم أجب.

- هذا ما يعجبني فيك يا بن عمي، حس دعابتك. لا بد أن كل سكان

وسكونسن مثلك. يساورني الفضول بشأن ما تفعله في مدينتنا

الجميلة.

- أعمل في مجال العقارات. أظنني أخبرتك.

مال مقترّباً مني، حتى شممت رائحة مرطب فيتاليس على شعره الممشط

إلى الخلف ورائحة أقراص سن سن المنعشة لرائحة الفم في أنفاسه، وقال:

«إذا قلتُ "موقع مركز تسوق محتمل"، فهل تخميني صحيح؟».

تحدثنا لبعض الوقت، لكنكم تعرفون هذا الجزء.

6

ذكرتُ سابقاً أنني لم أقترّب من حانة المُشعل في الأوقات التي يُحتمل

وجود فرانك دننغ فيها لأنني كنت أعرف عنه كل ما أحتاج إلى معرفته،

وهذه حقيقة، لكنها ليست كل الحقيقة. لا بد أن أوضح هذه النقطة،

لأنني إذا لم أفعل، فلن تفهموا أبداً سبب ما فعلته في تكساس.

تخيّلوا الدخول إلى حجرة ورؤية بيت من ورق لعب، مُعقّد ومتعدد

الطوابق، ومهمتكم هي إسقاطه. إذا كان هذا كل شيء، فالمهمة سهلة،

أليس كذلك؟ ركلة قوية، أو نفخة هواء مثلما يفعل المرء عندما يحين

موعد إطفاء شموع عيد ميلاد - ستؤدي المهمة. لكن هذا ليس كل شيء.

مَكْمَن الصعوبة هو أن عليكم إسقاط بيت الورق في لحظة محددة بدقة،

وإلى أن تحين تلك اللحظة لا بد أن يظل البيت قائماً.

كنت أعرف المكان الذي سيكون فيه دننغ يوم الأحد، 5 أكتوبر 1958، ولم أرغب في تغيير مسار يومه أدنى تغيير. مجرد التقاء أعيننا في الحانة كفيلٌ بإحداث تغييرٍ ما. لَكُمْ أن تتأففوا وتقولوا إنني مفرط الحذر، لكم أن تقولوا إن أمرًا بسيطًا كهذا ليس من المرجح أن يغير مسار الأحداث. لكن الماضي هش كجناح فراشة، أو كبيت من ورق. عدت إلى ديري من جل إسقاط بيت ورق فرائك دننغ، لكن توجَّب علي حمايته إلى أن يحين موعد إسقاطه.

7

تمنيت لشاز فراتي ليلة طيبة وعدت إلى شقتي. كانت قنينة الكاوبكتيت في خزانة الأدوية بالحمام، والوسادة التذكارية المطرزة على طاولة المطبخ. أخذت سكينًا من دُرج الأدوات الفضية وبعناية مزقت الوسادة، وأقحمت مسدسي بداخلها.

لم أكن متأكدًا من قدرتي على النوم، لكنني نمت نومًا عميقًا. ابذل كل ما بوسعك ودع الباقي للرب، هذه مقولة أخرى من المقولات الكثيرة التي جلبتها كرستي من اجتماعات جمعية المدمنين المجهولين. لست متأكدًا من وجود الرب، ما زال جيك إبنغ لا أدريًا، لكن عندما أويت إلى الفراش في تلك الليلة، كنت متأكدًا أنني بذلت كل ما بوسعي. لم يعد بمقدوري فعل شيء سوى أن أنال قسطًا من النوم وآمل أن يكون كل ما بوسعي كافيًا.

8

لم تصبني نزلة معوية. هذه المرة استيقظت مبكرًا شاعرًا بصداع حاد لم أعرفه طوال حياتي. صداع نصفي، على ما أظن. لم أعرف على وجه التأكيد، لأنه لم يُصبني قط. مجرد النظر إلى الضوء المعتم تسبب

في ارتجاج ممض في مؤخرة رأسي وتجاويف جمجمتي. وانهمرت الدموع من عيني.

نهضت، حتى النهوض الآلمني، وارتديت نظارة شمسية رخيصة اشتريتها في طريقي شمالاً إلى ديري، وتناولت خمسة أقراص أسبرين. ساعدتني بما يكفي لارتداء ملابسني، ومعطفي، الذي سأحتاج إليه لأن الصباح كان باردًا والسماء ملبدة بغيوم تنذر بمطر، وبطريقة ما كان هذا أمرًا إيجابيًا، إذ ما كنت لأتحمل الخروج إلى ضوء الشمس الساطعة.

كان ينبغي أن أخلق ذقني، لكنني ألغيت الفكرة، رأيت أن الوقوف تحت ضوء ساطع -يتضاعف عند انعكاسه من مرآة الحمام- ربما يتسبب في تفسُّخ دماغي. لم أستطع تخيل بقية هذا اليوم، لذا لم أحاول تخيله. قلت لنفسني وأنا أهبط السلم ببطء: خطوة تلو الأخرى. كنت أمسك بالحاجز بيد وبالوسادة باليد الأخرى. لا بد أنني بدوت مثل طفل مفرط النمو يحمل دمية دب. خطوة تلو الأخرى...

انكسر الحاجز.

لوهلة ملت إلى الأمام، وأحسست بنبض في رأسي، ورأيت يدي تلوحان في الهواء. أسقطت الوسادة (سمعت صوت المسدس بداخلها) وتشبثت بالجدار فوق رأسي. في اللحظة الأخيرة، قبل أن أسقط وتتهشم عظامي، أمسكت أصابعي بشمعدان قديم الطراز مثبت في الجدار ببراغ، انخلع الشمعدان، لكن السلك الكهربائي صمد بالكاد إلى أن استعدت توازني.

اقتعدت درجات السلم واضعًا رأسي النابض على ركبتني، شاعرًا بنبض الألم متناغمًا مع نبضات قلبي الجامحة، وأحسست بعيني الدامعتين أكبر من محجريهما. يمكنني أن أقول لكم إنني أردت أن أزحف عائداً إلى شقتي مستسلمًا، لكن هذه ليست الحقيقة، الحقيقة هي أنني أردت أن أموت هناك على السلم فينتهي كل شيء. هل يوجد أناس يصابون بنوبات صداد كهذا على نحو متكرر؟ فليكن الرب في عونهم.

رأيت أن أمرًا واحدًا فقط قادر على حملي على الوقوف على قدمي، فأرغمت دماغي على التفكير به، ورؤيته أيضًا: وجه توغا وهو يُطَمَس فجأة في أثناء زحفه نحوي، وخصلات شعره ومُزَع دماغه تتطاير في الهواء.

قلت: «حسنًا، حسنًا، أجل، حسنًا».

التقطت الوسادة التذكارية وترنحت هابطًا السلم، خرجت إلى جو غائم بدا لي ساطعًا كسماء الصحراء الكبرى في الظُّهر. تحسست المفاتيح في جيبِي، ولم أجدها. وجدت في جيب بنطالي الأيمن ثقبًا كبيرًا. لم يكن موجودًا في الليلة السابقة، كنت متأكدًا من هذا. استدرت بخطوات قصيرة متشنجة، ورأيت المفاتيح على أرضية المدخل بين نقود معدنية متناثرة. انحنيت، وداهمني ألم مبرح إثر انزلاق ثقل رصاصي بداخل رأسي. التقطت المفاتيح وسرت إلى سيارتي. وعندما حاولت تشغيلها، رفض المحرك. لم يحدث هذا قط.

كنت مستعدًا لهذا الاحتمال. لكنني لم أستعد لاحتمال صعود السلم مجددًا برأسي الذي يوشك على الانفجار. لم أتمن في حياتي أن يكون معي هاتف النوكيا كما تمنيت في هذه اللحظة. لأمكنني إجراء مكالمة وأنا جالس خلف عجلة القيادة، ثم الانتظار بهدوء مغمضًا عيني حتى يأتي راندي بيكر.

بطريقة ما صعدت السلم، وتجاوزت الحاجز المحطم والشمعدان المكسور المتدلي ك رأس شخص ميت. لم يُجب أحد في محطة الخدمة، كان يوم الأحد والوقت مبكرًا، فحاولت الاتصال برقم منزل بيكر.

قلت لنفسِي: إنه ميت على الأرجح، أصيب بأزمة قلبية في منتصف الليل، قتله الماضي العنيد، واشترك في قتله جيك إبنغ الذي لا يمكن توجيه الاتهام له.

لكن الميكانيكي لم يُمِت. أجاب عند الرنة الثانية، بصوت ناعس، وعندما قلت له إن سيارتي تعطلت، طرح علي السؤال المنطقي: «كيف عرفت بالأمس أن هذا سيحدث؟».

قلت: «أجيد التخمين. هَلَّا أتيت في أقرب وقت ممكن؟ لك عشرون دولارًا إضافية، إذا أصلحت السيارة».

9

عندما أعاد بيكر توصيل سلك البطارية الذي انحل على نحو غامض في الليل (ربما في نفس لحظة ظهور الثقب في جيب بنطالي) ولم يشتغل المحرك، تفقّد القوابس ووجد اثنين متآكلين. كان يحمل معه قوابس إضافية في صندوق معداته الأخضر الضخم، وبعدما ركبها، دبّت الحياة في المحرك.

- هذا ليس من شأني، لكن المكان الوحيد الذي ينبغي أن تذهب إليه هو فراشك، أو المستشفى. تبدو شاحبًا كشبح.

- صداع نصفي بسيط. سأكون بخير. فلنلق نظرة على الصندوق الخلفي، أريد التحقق من سلامة الإطار الاحتياطي.

وجدناه فارغًا من الهواء.

تبعته بسيارتي إلى تكساكو وقد بدأ رذاذ خفيف يتساقط بانتظام. كانت السيارات التي مررنا بها تشغل مصابيحها الأمامية، ورغم أنني أرtdي نظارة شمسية، فقد بدا لي أن كل زوجي مصابيح يمرّان أمامي يُحدّثان ثقبين في دماغي. فتح بيكر باب مركز الصيانة وحاول نفخ إطاري الاحتياطي. بلا جدوى. أصدر هسيسًا من نحو ستة شقوق دقيقة كمسامات الجلد البشري.

قال: «امم، لم أر هذا من قبل. لا بد أن الأنبوب فيه عيب».

- رُكِبَ أُنْبُوبًا آخِر.

لم أطق صوت ضاغط الهواء، فسرت إلى خلف المحطة في أثناء عمله، واتكأت على جدار أسمنتي ورفعت وجهي للأعلى لينزل الرذاذ البارد على جلدي الساخن، وقلت لنفسي: خطوة تلو الأخرى. خطوة تلو الأخرى.

أردت أن أدفع لراندي بيكر ثمن الإطار، لكنه هز رأسه قائلاً: «دفعت لي أجر نصف أسبوع سلفاً، لا يليق أن آخذ منك المزيد. لكنني قلق من انحراف السيارة بك، أو شيء من هذا القبيل. هل الأمر مهم حقاً؟».

- أحد أقربائي مريض.

- أنت نفسك مريض يا رجل.

لم أستطع إنكار ذلك.

10

قادت إلى خارج البلدة سالكاً الطريق رقم 7، وظللت أبطئ سرعتي عند كل تقاطع سواء كان الطريق لي أم لا، ثم اتضح لي أن حذري كان فكرة ممتازة، لأن شاحنة ضخمة محملة بحصى تجاوزت إشارة حمراء عند تقاطع 7 وشارع ديري القديم، إذا لم أبطئ سرعتي حتى كدت أتوقف رغم الإشارة الخضراء، لحطمت سيارتي، ولصرتُ بداخلها لحماً مفروماً. ضغطتُ بوق السيارة مدة طويلة رغم الألم في رأسي، لكن سائق الشاحنة لم يكثرث، بدا كزومبي خلف عجلة القيادة.

قلت لنفسي: لن أتمكن من تنفيذ مهمتي أبداً. لكن إذا عجزت عن إيقاف فرانك دننغ، فكيف سأقدر على إيقاف أوزوالد؟ لماذا أكلّف نفسي عناء الذهاب إلى تكساس؟

لكن ذلك لم يكن ما جعلني أثابر على مواصلة مسعائي، إنما توغا، والأطفال الثلاثة الآخرون. أنقذتهم مرة، وإذا لم أنقذهم مرة أخرى،

فكيف سأتصالح مع معرفتي الأكيدة بأنني شاركت في جريمة قتلهم بدخولي عبر جحر الأرنب وإعادة الوضع إلى ما كان عليه سابقاً؟

اقتربت من سينما سيارات ديربي وانعطفت إلى الطريق الفرعي المفضي إلى شباك التذاكر المغلق. كان على جانبي الطريق الفرعي أشجار تنوب للزينة، ركنت سيارتي خلفها، وأوقفت المحرك، وحاولت الخروج من السيارة. لم أستطع. علق الباب. دفعته بكتفي مرتين بقوة، وعندما لم يتزحزح، رأيت القفل مضغوطاً إلى الأسفل رغم أنني في زمن بعيد عن عصر السيارات التي توصل أبوابها ذاتياً، وأنا لم أضغطه بنفسي. حاولت جذبه للأعلى، لكنني لم أستطع، ثم هززته وحركته من جانب إلى آخر، فلم يتزحزح أيضاً. أنزلت زجاج النافذة، ومِلت إلى الخارج وتمكنت من إدخال مفتاحي في قفل الباب أسفل الزر المعدني الذي يُضغَط بالإبهام جوار المقبض. وأخيراً تمكنت من فتح القفل، وخرجت من السيارة، ثم تناولت الوسادة التذكارية.

مقاومة التغيير تتناسب طردياً مع مدى التغير المُحتمَل الذي سيطرأ على المستقبل. هذا ما قلته لآل بنبرة حديث مُحاضر جامعي، وقد كان صحيحاً، لكن لم تكن لدي فكرة عن الثمن الشخصي الذي لا بد من دفعه. والآن عرفت.

سرت ببطء في الطريق رقم 7، رفعت ياقتي لتقيني المطر، وجذبت قبعتي فوق أذني. وكنت كلما ظهرت سيارات -لم تكن كثيرة- أتواري بين الأشجار المصطفة على جانب الطريق الذي أسير فيه. وأظنني وضعت يدي على جانبي رأسي مرة أو مرتين لأتأكد أنه لا يتورم. أحسست بأنه يتورم.

وأخيراً وصلت إلى نهاية الأشجار، ووجدت جداراً صخرياً، خلفه تلال معشوشبة تتخللها شواهد حجرية ونُصُب تذكارية. وصلت إلى مقبرة لونغفيو. صعدت تلاً، فرأيت كشك الزهور على الجانب الآخر من

الطريق. كان مغلقًا ومظلمًا. عادةً ما تكون أيام عطلات نهاية الأسبوع أيام زيارة الناس لموتاهم، لكن نظرًا إلى الطقس لم يأت زوار كثيرون، وافترضت أن السيدة العجوز التي تدير المحل نائمة في مكانٍ ما، لكنها ستفتح الكشك لاحقًا، رأيت ذلك بنفسي.

تسلقت الجدار، متوقِّعًا انهياره تحتي، لكنه صمد. وحالما صرت داخل المقبرة، حدث أمر رائع: بدأ صداعي ينحسر. اقتعدتُ شاهدًا حجريًا أسفل شجرة دردار كبيرة، وأغمضت عيني، وحاولت قياس مستوى الألم. سابقًا كان 10، وربما وصل إلى 11، والآن انخفض إلى 8. قلت: «أظنني اخترقت الحاجز يا آل، أظنني صرت على الجانب الآخر».

ومع ذلك تحركت بحذر، محترسًا لئلا يضع الماضي عراقيل أخرى أمامي، مثل سقوط شجرة، أو لصوص قبور، وربما نيزك ملتهب. لكن لم يحدث شيء. وعندما وصلت إلى القبرين المتجاورين المكتوب على شاهديهما أليثا بيرس دننغ وجيمس ألان دننغ، انخفض مستوى الألم في رأسي إلى 5.

نظرت إلى ما حولي فرأيت ضريحًا فخماً يحمل اسمًا مألوفًا منقوشًا على جرانيت وردي: تراكر. ذهبت إليه وحاولت فتح بوابته الحديدية. لوجدته موصدًا في 2011، لكنني في 1958، فانفتحت بسهولة... لكن مفاصلها الصدئة أصدرت صريرًا أشبه بالمؤثرات الصوتية في أفلام الرعب.

دخلت إلى الضريح، وتناثرت أوراق أشجار جافة على الأرض. ثم وجدت مقعدًا حجريًا مريحًا في منتصف المكان، ورأيت على جانبيه مدافن حجرية لعائلة تراكر تعود إلى 1831. وعرفت أن رُفات المسيو جان بول تراكيه بداخل المدفن الأقدم، بحسب لوحة نحاسية أمامه. أغمضت عيني.

وتمددت على المقعد وغفوت.

نمت.

وعندما استيقظت وجدت أن الوقت اقترب من الظهر. وذهبت إلى الباب الأمامي لمدفن عائلة تراكر لأنتظر دننغ... كما سينتظر أوزوالد، بعد خمس سنوات، موكب كينيدي خلف متراس في الطابق السادس بمبنى مستودع الكتب المدرسية بتكساس. عندئذ كان صداعي قد تلاشى.

11

ظهرت سيارة دننغ البوتنيك تقريبًا في نفس وقت تسجيل ريد شيندينست نقطة الفوز لفريق ميلووكي بريفز. ركن دننغ سيارته عند أقرب ممر، وترجّل، ورفع ياقته، ثم انحنى ليحمل سلّتي الزهور، وسار هابطًا التل نحو قبري والديه حاملًا سلّة في كل يد.

عندئذٍ وقد حان الوقت، أحسست بنفسني قد تعافيت، وتجاوزت ما كان يعيقني، أيًا كان. دسست الوسادة تحت معطفي ويدي بداخلها، وكتم العشب الرطب صوت وقع قدمي، ولم يمتد أمامي ظلي لأن الشمس كانت محجوبة بالغيوم. لم يعرف دننغ أنني خلفه حتى قلت اسمه. وعندئذٍ استدار نحوي.

قال: «لا أحب رفقة أحد عندما أزور والدَي. من أنت بحق الجحيم على أي حال؟ وما هذا الذي تحمله؟». كان ينظر إلى الوسادة التي أخرجتها من معطفي ويدي بداخلها كأنها قفاز.

اخترت الإجابة عن السؤال الأول فقط: «اسمي جيك إبنغ. أتيت لأسألك سؤالًا».

- اسأل إذن ثم دعني وشأني.

كان المطر يتقاطر من حافة قبعته، وقبعتي أيضًا.

- ما أهم شيء في الحياة يا دننغ؟

- ماذا؟

- أعني بالنسبة إلى الرجل.

- هل أنت أبله؟ ما أمر هذه الوسادة؟

- سايرني من فضلك، أجب عن السؤال.

هز كتفيه قائلاً: «عائلته، على ما أظن».

قلت: «هذا رأيي أيضًا». وضغطت الزناد مرتين. خرجت الطلقة الأولى مكتومة، كصوت ضرب سجادة ثقيلة بعصا غليظة. والثانية كانت أعلى قليلًا. ظننت أن الوسادة ستشتعل، رأيت هذا في فيلم العراب 2، لكن انبعث منها دخان قليل فحسب. سقط دننغ فهشم سلة الزهور التي وضعها على قبر والده. جثوث بجانبه فابتلت ركبتي بالتراب الرطب، ووضعت طرف الوسادة الممزق على صدغه، وأطلقت النار مجددًا، للتأكد فحسب.

12

سحبت جثته إلى ضريح عائلة تراكر وألقيت الوسادة على وجهه. وعندما غادرت، رأيت سيارتين تسيران ببطء في ممرات المقبرة، وبضعة أشخاص يقفون عند مقابر حاملين مظلات، لكن لم يولني أحد أي اهتمام. سرت متمهلاً نحو الجدار الصخري، متوقفًا من حين لآخر لأنظر إلى قبر أو نصب تذكاري. ثم اتجهت إلى سيارتي، راكضًا عندما تحجبني الأشجار، ودفنت المسدس تحت كومة تراب وأوراق أشجار. وجدت الصنلاينر في انتظاري حيث تركتها، واشتغل محركها فورًا. قدت عائداً إلى شقتي وأنا أستمع إلى نهاية مباراة البيسبول. أظنني

بكيت قليلاً. كانت دموع ارتياح، ليس ندمًا. صارت أسرة دننغ بأمان، بصرف النظر عما قد يحدث لي.

غططتُ في النوم كرضيع في تلك الليلة.

13

كُتبت أخبار كثيرة عن بطولة العالم في عدد يوم الاثنين من صحيفة ديري ديلي نيوز، مع صورة لشيندينست وهو ينزلق مسجلًا نقطة الفوز إثر خطأ ارتكبه توني كوبيك. انتهى أمر برونكس بومبرز، وفقًا لعمود ريد باربر: «اليانكيز يمرضون ولا يموتون».

لم يُكْتَبَ شيء عن فرانك دننغ في عدد بداية الأسبوع، لكن قصته تصدرت الصفحة الأمامية في عدد يوم الثلاثاء، أُرفِقت معها صورة له مبتسمًا مغتبطًا بحب النساء له، ابتسامة جورج كلوني تلك.

العثور على رجل أعمال قتيلاً في مقبرة محلية.

دننغ كان صاحب مساهمات بارزة في العديد من الأنشطة الخيرية نُقل عن مدير شرطة ديري أن القسم يتتبع جميع خيوط الأدلة، وأنه يتوقع اعتقال الجاني عما قريب. وعبر اتصال هاتفي قالت دورس دننغ إنها «مصدومة ومفجوعة». لم يُذكر أنها والراحل كانا منفصلين. وعدد من الأصدقاء والزلاء في سوق الشارع المركزي أعربوا عن صدمة مماثلة. بدا لي أن كل الناس أجمعوا على أن فرانك دننغ كان رجلًا رائعًا بحق، ولم يستطع أحد أن يخمن سببًا قد يدفع شخصًا لإطلاق النار عليه. وبدا توني تراكر ساخطًا على نحو خاص (على الأرجح لأن الجثة عُثِرَ عليها في مدفن عائلته الخاص). قال: «يجب أن تعود عقوبة الإعدام من أجل هذا الرجل».

في يوم الأربعاء، الثامن من أكتوبر، فاز اليانكيز 2-1 بصعوبة على بريفز في ملعب ميلووكي بريفز. وفي المباراة التالية، يوم الخميس، كسر اليانكيز التعادل 2-2 في الجولة الثامنة، مسجلين أربع نقاط، وفازوا ببطولة العالم. وفي يوم الجمعة ذهبت إلى "مريميد للرهن والقروض"، متوقعًا مقابلة السيدة كآبة والسيد كَدَر. وجدت المرأة الضخمة كما توقعتها، انعقدت شفتها إلى الأسفل عندما رأته، وصاحت: «شازي! لقد جاء السيد ثري!». ثم انسلت عبر المدخل المحجوب بستارة، خارجة من حياتي.

خرج فراتي وعلى وجهه ابتسامة السنجاب نفسها التي رأيته عندما قابلته أول مرة في حانة المُشْعِل، في رحلتي السابقة إلى ماضي ديري الوردی. وكان يحمل ظرفًا منتفخًا مطبوعًا عليه ج. أمبرسون قال: «ها أنت ذا يا بن عمي، ارتفع شأنك وازددت وسامة. إليك غنيمتك. لك أن تحصيها».

وضعت الظرف في جيبتي وقلت: «أثق بك. تبدو مبتهجًا إلى درجة لا تناسب شخصًا دفع أكثر من ثلاثة آلاف دولار للتو».

- لن أنكر أنك اقتطعت حصة كبيرة، لكن مع ذلك ربحت بضعة دولارات. أربح دومًا. لكنني أعمل في هذا المجال لأنه... خدمة عامة. الناس يراهنون، يراهنون دومًا، وأنا أمنحهم مستحقاتهم فورًا عندما يحين موعدهما. علاوة على أنني أحب ترتيب المراهنات. أتحذها هواية. وأتعرف أكثر ما أحبه؟

- لا

- عندما يأتي شخص مثلك، مغامر متحمس، ويفوز برهان احتمال الفوز به ضئيل. هذا يجدد إيماني بطبيعة الكون العشوائية.

تساءلت عن مدى تغير نظرتي إلى عشوائية الكون إذا رأى ورقة غش آل تمبلتون.

- يبدو لي أن زوجتك لا تشاطرك... التسامح وسعة الأفق.

ضحك، والتمعت عيناه الصغيرتان السوداوان. كان الرجل ضئيل الحجم صاحب الحورية على ذراعه يستمتع بالحياة سواء فاز أو خسر أو تعادل. أعجبني ذلك.

- أوه، مارجوري، تكاد تذوب من شدة التعاطف عندما يأتي شخص كئيب يريد رهن خاتم خطوبة زوجته ويروي لها قصة حزينة، لكن عندما تتعامل مع رهانات المسابقات الرياضية، تصبح امرأة مختلفة، ترى الخسارة أمراً شخصياً.

- تحبها كثيراً، أليس كذلك يا سيد فراتي؟

- حُباً جماً يا بن عمي، حُباً جماً.

قبل وصولي كانت مارجوري تقرأ صحيفة ذلك اليوم، رأيتها ما زالت على سطح النضد الزجاجي الذي يحتوي على خواتم وأشياء أخرى. كان عنوانها الرئيسي: البحث عن القاتل الغامض يستمر وفرانك دننغ يُؤازر الثرى.

سألته: «ما سبب الجريمة في رأيك؟».

قال: «لا أدري، لكن سأخبرك بأمر». مال للأمام وتلاشت ابتسامته، وتابع: «لم يكن فرانك قديساً كما يقول أهل البلدة التافهون. يمكنني إخبارك بقصص كثيرة عنه يا أخي».

- هيا، ليس لدي ما يشغلني طوال اليوم.

عاودت ابتسامته الظهور، وقال: «لا. نحن في ديري نحتفظ بأسرارنا لأنفسنا».

قلت: «هذا ما لاحظته».

أردت العودة إلى شارع كوسوث. كنت أعرف أن رجال الشرطة ربما يراقبون منزل دننغ تحسُّبًا لإظهار أي شخص اهتمامًا غير معتاد بالأسرة، لكن رغبتني كانت قوية. لم أرغب في رؤية هاري، بل شقيقته الصغرى، أردت إخبارها ببضعة أشياء.

أردت إخبارها بأن عليها الخروج للاحتفال بالهالوين مهما بلغ حزنها على أبيها.

وبأنها ستكون أجمل أميرة هندية ساحرة يراها الناس، وبأنها ستعود إلى المنزل بجبل من الحلوى.

وبأنها أمامها ثلاثة وخمسون عامًا حافلاً على الأقل، وربما أكثر.

والأهم من كل ذلك أن شقيقها هاري سوف يرغب في ارتداء زي الجنود والذهاب إلى جبهات القتال وأن عليها ألا تدّخر وسعاً في سبيل إقناعه بالعدول عن ذلك.

إلا أن الأطفال ينسون. كل أستاذ يعرف هذا.

ويظنون أنهم سوف يعيشون إلى الأبد.

حان وقت مغادرة ديري، لكن بقيت لي مهمة صغيرة رأيت أن أنجزها قبل ذهابي. انتظرت حتى يوم الاثنين، وفي عصر الثالث عشر من أكتوبر، ألقيت حقيبتني في صندوق الصنلاينز، ثم جلست خلف عجلة القيادة وكتبت رسالة وجيزة، ووضعتها بداخل ظرف وأغلقتها، وكتبت عليه اسم المرسل إليه.

قادت إلى وسط البلدة وركنت السيارة، ثم دخلت حانة الدولار الفضي الناعس، وجدها خالية عدا عن بيت الساقى، كما توقعت. كان بيت

يغسل أكوأبًا ويشاهد مسلسل لوف أوف لايف على وسيلة إلهاء محدودية التفكير، التفت إليّ على مضض وعينه على جون ومارشا، أو أيًا كان اسمهما.

قال: «ماذا أقدم لك؟».

- لا شيء، لكن أريد منك معروفًا، وسأعوضك بخمسة دولارات.

بدا محبطًا، وسألني: «حقًا؟ ماذا تريد؟».

وضعت الظرف على المشرب وقلت: «عندما يأتي الشخص المقصود أعطه هذا».

نظر إلى الاسم المكتوب على الظرف وسألني: «ماذا تريد من بيلي تيركوت؟ ولماذا لا تعطيه الظرف بنفسك؟».

- مهمتك بسيطة يا بيت. هل تريد الدولارات الخمسة أم لا؟

- بالطبع. ما دام لن يتضرر أحد. بيلي رجل طيب.

- لن يتضرر، بل أريد مصلحته.

وضعت خمسة دولارات على الظرف، فالتقطها بيت واستأنف مشاهدة مسلسله. غادرت. سيتلقّى بيل تيركوت الظرف على الأرجح، وسواء فعل شيئًا بعد قراءة الرسالة أم لم يفعل، فهذا سؤال آخر، من أسئلة عديدة لن أعرف إجابتها أبدًا. هذا ما كتبته:

عزيزي بيل..

إنك تعاني مشكلة في قلبك، وعليك أن تذهب إلى طبيب في أقرب وقت، قبل فوات الأوان. ربما تظن أن هذه مزحة، لكنها ليست كذلك. وربما تظن أنني لا يمكن أن أعرف أمرًا كهذا، لكنني أعرف. أعرف يقينًا

كما تعرف أن فرانك دننغ قتل شقيقتك كلارا وابنها
مايكي. أرجوك صدقني واذهب إلى طبيب!

صديق

16

ركبت سيارتي، وعند رجوعي بها إلى خارج الموقف المنحدر، رأيت
السيد كين بوجهه النحيل المتشكك ينظر إلي من الصيدلية، فأنزلت
زجاج نافذتي وأخرجت ذراعي، ورفعت له إصبعي الوسطى. ثم قدت
عبر شارع أب مايل مغادرًا ديري للمرة الأخيرة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الحادي عشر

في أثناء قيادتي جنوباً عبر طريق "ميل في الدقيقة" السريع، حاولت إقناع نفسي بالألا أنشغل بكارولين بولين، قلت لنفسي إنها كانت تجربة آل تمبلتون، وليست تجربتي، وإنها انتهت، مثل حياته. ذكّرت نفسي بأن حالة ابنة بولين مختلفة عن حالة دورس وتروي وتوغا وإيلين. صحيح أن كارولين ستصاب بشلل نصفي، وصحيح أن هذا أمر فظيع، لكن الشلل إثر الإصابة برصاصة ليس مثل التعرض للضرب بمطرقة حتى الموت. سواء عاشت كارولين في كرسي مدولب أو ظلت تمشي على قدميها، فسوف تعيش حياة كاملة ومثمرة. قلت لنفسي إن من الجنون أن أجازف بمهمتي الأساسية بالتجاسر على استفزاز الماضي العنيد ودفعه إلى التنكيل بي.

بيد أنني لم أقتنع.

كنت أنوي قضاء ليلتي الأولى في الطريق إلى بوسطن، لكن صورة دننغ على قبر والده، وتحتة سلة الزهور المهشمة، لم تبارح ذهني. استحق الموت، بل كان يجب أن يموت، لكن في 5 أكتوبر لم يكن قد مس أسرته بسوء. ليس أسرته الثانية على أي حال. قلت لنفسي إنه أجرم في حق أسرته الأولى، وإنه بحلول 13 أكتوبر 1958 قد ارتكب جريمة قتل مرتين سلفاً، وإحدى ضحاياه رضيع، لكن لا أعرف دليلاً على ذلك سوى ما قاله بيل تيركوت.

في نهاية المطاف أظنني أردت أن أوازن شيئاً يؤنبني ضميري بشأنه، مهما كان ضرورياً، بشيء يريح ضميري. لذا بدلاً من مواصلة القيادة إلى بوسطن، تركت الطريق السريع عند أوبرن واتجهت غرباً إلى منطقة بحيرات مَين. نزلت قُبيل هبوط الظلام في مجمع الأكواخ الذي مكث آل فيه. اخترت أكبر المساكن جوار شواطئ البحيرات مقابل ثمن زهيد إلى درجة سخيفة نظراً إلى انتهاء موسم السياحة.

تلك الأسابيع الخمسة كانت أفضل أيام حياتي. لم أر أحداً سوى الزوجين اللذين يديران المتجر المحلي، حيث كنت أشتري احتياجاتي البسيطة مرتين أسبوعياً، والسيد وينشل الذي يملك الأكواخ، كان يعرّج عليّ في أيام الأحد ليتفقدني ويحرص على أنني أحظى بوقت طيب، كلما سألني كنت أقول له إنني في أفضل حال، صدقاً. أعطاني مفتاح سقيفة المعدات، وكنت أُخرج زورقاً صغيراً كل صباح عندما تكون الأمواج هادئة. أتذكر مشاهدة البدر يصعد بصمت فوق الأشجار في إحدى تلك الأمسيات، أتذكر رسمه خطأً عريضاً على سطح الماء وانعكاس زورقي تحتي كنسخة غارقة منه.

صاح طائر غواص في مكان ما، وتجاوب معه رفيق له، وسرعان ما انضم إليهما آخرون. وضعت مجذافِي ولبثت جالساً هناك على بُعد ثلاثمئة ياردة من الشاطئ، أشاهد القمر وأصغي إلى الطيور. أتذكر أنني خطر لي أنه إذا وُجدت جنة في مكانٍ ما ولم تكن كهذه فلن أرغب في الذهاب إليها.

بدأت تظهر ألوان الخريف، ظهر الأصفر الشاحب أولاً، ثم البرتقالي، ثم الأحمر القاني إثر وضع الخريف حدّاً للصيف. وجدت في السوق صناديق من الورق المقوّى مليئة بكتب بلا أغلفة، ولا بد أنني قرأت منها ثلاثين كتاباً أو أكثر: روايات غموض من تأليف إد مكبين، وجون دي مكدونالد، وشستر هايمز، ورتشارد إس براثر. وقصص درامية

مفرطة العواطف مثل منزل بيتون وحجر لداني فيشر، وروايات رعاة بقر لا تُحصى، ورواية خيال علمي عنوانها صيادو لنكن، تحكي قصة مسافرين عبر الزمن يحاولون تسجيل خطاب «منسي» لإبراهام لنكن.

وعندما لم أكن أقرأ أو أجدّف، كنت أسير في الغابة في أوقات العصر الخريفية الطويلة والأجواء الضبابية الدافئة، متأملاً أشعة الشمس الذهبية المتدفقة من خلال فرجات الأشجار. وكانت الليالي مشبعة بصمت مطبق يكاد أن يكون له صدى. سيارات قليلة كانت تمر بالطريق رقم 114، وتنقطع بعد الساعة العاشرة. بعد العاشرة يصبح ذلك الجزء من العالم ملكاً لطيور الغواص والرياح التي تهدد أشجار التنوب. شيئاً فشيئاً بدأت تتلاشى من ذهني صورة فرانك دننغ ممدداً على قبر والده، ووجدتني نادراً ما أسترجع لحظة إلقائي الوسادة التذكارية التي يتصاعد منها الدخان على عيني دننغ في مدفن عائلة تراكر.

وبحلول نهاية أكتوبر، عندما تساقطت آخر أوراق الأشجار متهادية وبدأت حرارة الليالي تنخفض، بدأت أتردد بسيارتي على دُرم، لأتعرف على المنطقة المحيطة ببوي هيل، حيث سيجري إطلاق النار بعد أسبوعين. وجدتُ دار لقاءات الأصدقاء القدامى الذي ذكره آل بوصفه معلماً بارزاً مناسباً، وعلى مقربة منه رأيت شجرة ميتة مائلة نحو الطريق، على الأرجح الشجرة التي اصطدم آل بها عندما وصل إليه أندرو كَلَم، مرتدياً سُترة الصيد البرتقالية. وحرصت أيضاً على تحديد موقع منزل مُطلق النار خطأً، وتعقّب مساره المحتمل من منزله إلى بوي هيل.

لم تكن لدي خطة في الحقيقة، رأيت أن أكتفي بالسير في الطريق الذي طرّقه آل سلفاً. سأقود السيارة إلى دُرم في وقت مبكر من اليوم، وأركنها جوار الشجرة الساقطة، وأحاول تحريكها، ثم أتناظر بتعريض لأزمة قلبية عندما يقترب كَلَم ويحاول مساعدتي. لكن بعد تحديد موقع

منزل كلم، صادف أن توقفت لأشتري مشروبًا باردًا من متجر براوني على بُعد نصف ميل، ورأيت ملصقًا على النافذة أمدني بفكرة. فكرة جنونية، لكن مشوقة قليلًا.

كان عنوان الملصق: نتائج مسابقة الكريبيج بمقاطعة أندروسكوغن وأسطفه قائمة بقرابة خمسين اسمًا. الفائز بالمسابقة، من مينوت، أحرز عشرة آلاف «رمية». لا أدري ما يعنيه ذلك. وصاحب المركز الثاني أحرز تسعمئة وخمسين، والثالث أحرز 8722 رمية ورُسمت حول اسمه دائرة حمراء، لفتت انتباهي بدايةً، كان آندي كَلَم.

المصادفات تحدث، لكنني صرت أعتقد أنها نادرة في الواقع. ثمة مُدبِّر ما، في مكانٍ ما من الكون (أو وراءه). آلة ضخمة تدور تروسها بانتظام.

في اليوم التالي قُدت عائداً إلى منزل كلم قبيل الخامسة عصرًا، وأوقفت سيارتي خلف سيارة آندي العائلية وسرت إلى الباب.

استجابت لطرقاتي امرأة لطيفة الوجه ترتدي مئزرًا مجعدًا وتحمل رضیعة بمرفقها على خاصرتها، وبمجرد النظر إليها عرفت أنني أقوم بالتصرف الصحيح، لأن كارولين بولين لن تكون الضحية الوحيدة في الخامس من نوفمبر، بل ستكون الضحية التي تقتعد كرسيًا مدولبًا فحسب.

- نعم؟

«اسمي جورج أمبرسون يا سيدتي». لامست طرف قبعتي. «هل لي أن أتحدث مع زوجك؟».

بالطبع. ظهر زوجها خلفها وأحاط كتفها بذراعه، بدا شابًا، لم يبلغ الثلاثين بعد، وارتسم على وجهه تساؤل لطيف. مدت طفلة يدها نحو وجهه، وعندما قَبَّل كلم أصابعها ضحكت. مد كلم يده إلي، وصافحته.

- بِمِ يمكنني مساعدتك يا سيد أمبرسون؟

رفعت لوح الكريبيج قائلاً: «لاحظت في متجر براوني أنك لاعب بارع، لذا جئت إليك بعرض».

توترت السيدة كلم: «أنا وزوجي ميثوديان يا سيد أمبرسون. المسابقات للتسلية فحسب. فاز بجائزة، ويسعدني تلميعها له حتى تبدو رائعة فوق إطار المدفأة، لكن إذا أردت أن تلعب الورق مقابل المال، فقد أتيت إلى المنزل الخطأ». ابتسمت، ورأيت أنها تكلفت الابتسامة بمشقة، ومع هذا كانت ابتسامة جميلة. استلطفتها. استلطفْتُ كليهما.

تكلم كَلَم بنبرة أسف لكنها حازمة: «إنها محقة. كنت أَلْعِبُ مقابل سنت لكل رمية عندما كنت أعمل في الغابة، لكن ذلك كان قبل لقائي مارني».

- لستُ أحمق حتى أَلْعِبُ معك مقابل مال، لأنني لا أعرف اللعبة، لكنني أريد تعلُّمها.

- في هذه الحالة، تفضَّل بالدخول، سيسعدني تعليمك. لن تستغرق أكثر من خمس عشرة دقيقة. وأمامنا ساعة حتى يحين موعد عشائنا. إذا كان بمقدورك أن تجمع أرقامًا حتى خمسة عشر وتعد إلى واحد وثلاثين، فستقدر على لعب الكريبيج.

- أنا متأكد أن اللعبة تتطلب أكثر من العد والجمع، وإلا لما حلت في المركز الثالث في مسابقة أندروسكوغن. كما لا أريد تعلم أساسيات اللعبة فحسب، أريد أن أشتري يومًا من وقتك. الخامس عشر من نوفمبر، تحديدًا. فلنقل من العاشرة صباحًا حتى الرابعة عصرًا.

بدا الخوف على زوجته، وضمت الطفلة إلى صدرها.

أردفت: «مقابل ست ساعات من وقتك سأدفع لك مئتي دولار».

عبس كلم قائلاً: «ما هدفك يا سيدي؟».

قلت: «أمل أن أنجح في مسابقات الكريبيج». من وجهيهما عرفت أن ذلك ليس سبباً مقنعاً، فتابعت: «اسمعا، لن أحاول مراوغتكما وأقول إنني ليس لدي هدف آخر، لكن إذا حاولت أن أشرح لكما، فستظنان أنني مجنون».

قالت مارني كلم: «أراك مجنوناً فعلاً. ودّعه يا آندي».

التفتُ إليها: «غايتي ليست سيئة، ولا غير قانونية، ولا خطيرة، ولا أنوي الاحتيال. أقسم على هذا». بدأت أظن أنني لن أنجح في إقناعهما، سواء أقسمت أم لم أقسم. كانت فكرة سيئة. ستتضاعف شكوك كلم عندما يقابلني جوار دار لقاءات الأصدقاء عصر يوم 15 نوفمبر.

لكنني واصلت الإلحاح. وهذا أمر تعلّمته في ديري.

قلت: «إنها مجرد لعبة. تعلّمني، ولنلعب بضع ساعات، ثم أعطيك مئتي دولار، ونفترق أصدقاء. ما رأيك؟».

- من أين أنت يا أمبرسون؟

قلت: «من شمال الولاية، ديري، جئت إلى هنا مؤخراً. أعمل في مجال العقارات التجارية. وحالياً أقضي إجازة عند بحيرة سيببيغو قبل أن أتجه جنوباً. هل تريد أسماء؟ أشخاص تستوثق منهم؟». ابتسمت وأردفت: «أناس يخبرونك أنني لست مجنوناً؟».

قالت: «إنه يخرج إلى الغابة أيام السبت في موسم الصيد، ولا يجد وقتاً آخر، لأنه يعمل طوال أيام الأسبوع ويعود إلى المنزل قبيل الظلام فلا يستطيع حتى أن يلقّم بندقيته».

لم يبارح الارتياح وجهها، لكنني رأيت شيئاً آخر أيضاً في وجهها أمدّني بالأمل. أي امرأة شابة ولديها طفل، وزوجها يزاوّل عملاً يدوياً (عرفت هذا من يديه الغليظتين المشققتين) - سيعني مبلغ مئتي دولار لها تلبية كثير من الاحتياجات، أو، في عام 1958، جزء من أقساط شراء المنزل.

قال كلم: «بوسعي إلغاء الذهاب إلى الغابة عصر يوم. البلدة لم تعد فيها طرائد كثيرة على أي حال، المكان الوحيد الذي يمكن أن نجد فيه غزالاً لعيناً هو بوي هيل».

قالت: «انتبه لألفاظك أمام الطفلة يا سيد كلم». تكلمتُ بحدة مع زوجها، لكنها ابتسمت عندما قبلَ خدها.

قال كلم: «أود أن أتحدث مع زوجتي يا سيد أمبرسون. هل تمانع الوقوف عند المدخل دقيقة أو دقيقتين؟».

قلت: «لدي اقتراح أفضل. سأذهب إلى متجر براوني وأشتري لنفسني مشروباً غازياً. هل تسمحان لي بأن أجلب لكما مشروباً بارداً؟».

رفضاً شاكرين، ثم أغلقت مارني كلم الباب في وجهي. قُدت السيارة إلى متجر براوني، واشتريت عصير برتقال لنفسني وحلوى رأيت أن الطفلة ربما تحبها، إذا كان بمقدورها تناول مثل هذه الأشياء. توقعت أن يرفض الزوجان عرضي، سيسكرانني لكن سيفرضان بحزم، فأنا رجل غريب جاء بعرض غريب. كنت أمل أن يصبح تغيير الماضي أسهل هذه المرة، لأن آل غيرِه سلفاً مرتين. لكن الأمر ليس كذلك على ما يبدو.

بيد أنني فوجئت. وافق كلم، وسمحت زوجته لي بمنح الحلوى للفتاة الصغيرة، فتلقَّتها بمناغاة غبطة، وراحت تمتصها، ثم مرَّرتها على شعرها كأنها مُشط. حتى إنهما دعياني للبقاء وتناول وجبة المساء، لكنني اعتذرت. ثم عرضتُ على آندي كلم خمسين دولاراً مقدماً، فرفض... إلى أن أصرَّت زوجته عليه أن يأخذها.

عدت إلى سيببغو جذاً. لكن في أثناء قيادتي عائداً إلى دُرم في صباح الخامس عشر من نوفمبر (كانت الحقول بيضاء بصقيع سميك ظهرت عليه آثار أقدام الصيادين الذين يرددون سترات برتقالية)، تغيرَ مزاجي. قلت لنفسني: سيتصل كلم بشرطة الولاية أو المأمور المحلي، وفي أثناء

استجابي في أقرب قسم شرطة، ليعرفوا أي نوع من المعتوهين أنا، سيخرج كلم للصيد في غابة بوي هيل.

لكن لم أر سيارة شرطة أمام المنزل، وجدت سيارة أندي كلم وحدها. أخذت لوح الكريبيج الجديد وذهبت إلى الباب. وفتحه أندي لي وقال: «مستعد للدرس يا سيد أمبرسون؟».

ابتسمت قائلاً: «نعم سيدي، مستعد».

اصطحبني إلى الشرفة الخلفية. ظننت أن سيدة المنزل لم ترغب في وجودي بداخل المنزل مع طفلتها. وجدت قواعد اللعبة بسيطة، الرميات هي النقاط، وتتمثل اللعبة في دورتين حول اللوح. تعلمت مسميات اللعبة ونقلاتها ومازقها. ثم لعبنا. تابعت النقاط المسجلة في البداية، لكن تخليت عن المتابعة حالما تقدّم كلم عليّ بأربعمئة نقطة. وكنت أسمع دوي بندقية صيد بين الفينة والأخرى، فينظر كلم نحو الغابة خلف باحة الخلفية الصغيرة.

قلت له في إحدى تلك اللحظات: «السبت القادم. ستكون معهم هناك يوم السبت القادم بالتأكيد».

قال: «على الأرجح ستمطر». ضحك وتابع: «لماذا أتذمر؟ صحيح؟ أستمتع بوقتي وأكسب مالا. وأنت تتحسن يا جورج».

قدمت مارني لنا الغداء عند الظهر. شطائر تونة كبيرة ووعائي حساء طماطم. أكلنا في المطبخ، وبعدها انتهينا اقترحنا علينا أن نلعب بالداخل، رأيت أنني لست خطرًا. أسعدني ذلك. كانا لطيفين. زوجان لطيفان وطفلة لطيفة. لاحقًا كنت أتذكرهما أحيانًا عندما أسمع أوزوالد ومارينا يصرخان على بعضهما في شقتهما المتواضعة... أو عندما أسمعهما، مرة على الأقل، يخرجان بمشاحنتهما إلى الشارع. الماضي يحقق التناغم، وأيضًا يحاول إحداث التوازن، وينجح في معظم الأحيان. كان كلم وزوجته في كفة، وأوزوالد وزوجته في الكفة الأخرى.

أما جيك إبنغ، المعروف أيضًا باسم جورج أمبرسون، فقد كان رُمانة الميزان.

قريبًا من نهاية جلستنا الماراثونية، حققت الفوز الأول لي. وبعد ثلاث مواجهات أخرى، هزمت هزيمة ساحقة، وضحكت مغتبطًا. ضحكت جينا الصغيرة معي، ثم مالت للأمام من كرسيها لتشد شعري بود. صحت ضاحكًا: «ها نحن أولاء!». وضحك ثلاثتهم معي. «سأتوقف الآن!». أخرجت محفظتي ووضعت ثلاث ورقات من فئة خمسين دولارًا على قماش مائدة المطبخ ذي المربعات الحمراء والبيضاء. «ما تعلمته يستحق كل سنت!».

دفع آندي النقود إلى جانبي وقال: «أعدها إلى محفظتك يا جورج. استمتعت كثيرًا فلا يجوز لي أخذ نقودك».

أومأت كأني موافق، ثم دفعت النقود نحو مارني، فالتقطتها سريعًا قائلة: «شكرًا لك يا سيد أمبرسون». حدثت زوجها بنظرة توبيخ، ثم نظرت إلي وأردفت: «هذه ستساعدنا كثيرًا».

قلت: «جيد». نهضت وتمطّيت، فسمعت قرقعة من عمودي الفقري. في مكانٍ ما على بُعد خمسة أميال، أو سبعة، كارولين بولين ووالدها يستقلان شاحنة صغيرة مكتوبًا على بابها بولين للتشييد والنجارة. ربما اصطادا غزالًا، وربما لم ينجحًا. على أي حال، كنت متأكدًا أنهما أمضيا عصرًا جميلًا في الغابة، وتحدثا عما يتحدث عنه الآباء وبناتهم، أيًا كان. هنيئًا لهما.

قالت مارني: «تناول معنا العشاء يا جورج، لدي بازلًا ونقانق». تناولت معهما العشاء، وبعدها شاهدنا الأخبار على تلفازهما قديم الطراز. وقع حادث صيد في نيو هامبشير، لكن لم يحدث شيء في مين. رضختُ لتناول طبق ثانٍ من فطيرة تفاح مارني، رغم أن معدتي

أوشكت على الانفجار، ثم نهضت وشكرتهما شكرًا جزيلاً على حُسن ضيافتهما.

مد آندي كلم لي يده مصافحاً وقال: «في المرة القادمة سنلعب مجاناً، اتفقنا؟».

«بالتأكيد». لن تكون ثمة مرة قادمة، وأظنه عرف هذا. وزوجته أيضاً عرفت، كما اتضح لي، لحقتُ بي قبل أن أركب سيارتي، وكانت قد قمّطت الطفلة ببطانية ووضعت على رأسها قبعة صغيرة، لكن مارني نفسها خرجت بلا معطف، وكانت ترتجف ورأيت أنفاسها.

- سيدتي، ينبغي أن تعودي إلى الداخل قبل أن تصيبك نـ...

- ما الذي أنقذته منه؟

- أستمحك عذراً، ماذا؟

- أعرف أنك جئتُ لإنقاذه من أمرٍ ما. ابتهلْتُ عندما كنتما في الشرفة الخلفية، والرب أرسل إليّ إجابة، لكنها ليست إجابة كاملة. ما الذي أنقذته منه؟

وضعت يديّ على كتفيها المرتجفتين، ونظرت إلى عينيها وقلت: «مارني... إذا كان الرب يريد لك أن تعرفي هذا الجزء، لأخبرك به».

فجأة أحاطتني بذراعها وعانقتني. متفاجئاً وضعت ذراعي حولها أيضاً، فعلقت جينا الصغيرة بيننا وحملتُ مستغربة.

همست مارني في أذني: «أياً كان، شكرًا لك». فبعثت أنفاسها الدافئة القشعريرة في جلدي.

- عودي إلى الداخل، قبل أن تتجمدي.

فُتح الباب الأمامي، وظهر آندي، حاملاً علبة جعة. «مارني؟ ما الأمر؟».

ابتعدتُ عني، فرأيتُ عينيها متسعيتين داكنتين. قالت: «الرب أرسل إلينا ملاكًا حارسًا. لن أكلّم أحدًا بهذا، لكن لن أنساه، وسأفكر به مليًا في قلبي». ثم هرعت إلى المدخل حيث ينتظرها زوجها.

ملاك. كانت المرة الثانية التي أسمع فيها الكلمة، وتأملتها مليًا في قلبي أيضًا، في تلك الليلة مضجعًا في كوشي قبل أن أنام، وفي اليوم التالي وأنا على زورقي الصغير وسط المياه الهادئة تحت سماء زرقاء تتحول تدريجيًا إلى سماء شتاء.

ملاك حارس.

وفي يوم الاثنين، في السابع عشر من نوفمبر، رأيت أولى ندف الثلج المتساقطة، وحسبتها إشارة. حزمت أغراضي، وقدت سيارتي إلى قرية سيبيغو، ووجدت السيد وينشل يشرب قهوة ويأكل كعكًا محليًا في مطعم ليكسايد (في عام 1958 كان الناس يأكلون الكعك المحلي كثيرًا). أعطيته مفاتيحي وقلت له إنني حظيت بوقت رائع شافٍ، فتهللت أساريره.

- يسرني ذلك يا سيد أمبرسون، هكذا ينبغي أن تكون الإقامة معنا. دفعت مبلغ إيجار حتى نهاية الشهر، أعطني عنوانك حتى أرسل إليك باقي مبلغ الأسبوعين الآخرين، سأضع شيكًا في البريد.

- لن أتأكد من وجهتي إلى أن يقرر رؤسائي التافهون. لكن سأحرص على مراسلتك.

المسافرون عبر الزمن يكذبون كثيرًا.

مد يده قائلًا: «سررت بإقامتك معنا».

صافحته. «أنا أكثر سرورًا».

ركبت سيارتي واتجهت جنوبًا. في تلك الليلة نزلت بفندق باركر هاوس في بوسطن، وتفقدتُ كومبات زون، منطقة الرذيلة سيئة السمعة.

بعد أسابيع السكينة في سيبينغو، أزعجت أضواء النيون عيني، وحشود مُتَصَيِّدي الليل، معظمهم شباب، كثيرٌ منهم يرتدون أزياء خاصة - جعلتني أحس برُهاب الأماكن العامة والحنين إلى الليالي الهادئة التي قضيتها في غرب مين، حيث تُغلق المتاجر القليلة عند الساعة السادسة وتنقطع حركة السيارات عند العاشرة.

ثم قضيت الليلة التالية بفندق هارينغتون، في واشنطن العاصمة. وبعد ثلاثة أيام كنت على ساحل فلوريدا الغربي.

الفصل الثاني عشر

1

سلكت طريق يو إس 1 جنوبًا. تناولت الطعام في كثير من المطاعم المطلة على الشوارع، حيث تقدم كثير من الوجبات المنزلية. لم أر أي مطعم وجبات سريعة، إلا إذا حسبنا مطعم هاوارد جونسون ضمنها، بشعار "سايمون البسيط" على لافتته. رأيت مجموعة من فتیان الكشافة يشعلون نار مخيم من أغصان وأوراق الخريف مع مرشدهم، ورأيت نساء يرتدين معاطف طويلة وأحذية مطر يجمعن الملابس المغسولة في عصر يوم غائم ينذر بالمطر، ورأيت قطارات ركاب طويلة بأسماء مثل الطائر الجنوبي ونجم تامبا، منطلقة نحو مناخات أمريكية لا تعرف الشتاء. رأيت مليون كنيسة، ومقبرة فيها مئة مُشيع على الأقل يقفون حول قبر مفتوح وينشدون ترنيمه "الصليب القديم". رأيت رجالًا يشيدون حظائر. وأناسًا يساعدون آخرين. اثنان منهم على متن شاحنة صغيرة توقفًا ليساعداني عندما نُزِع غطاء مشعاع الصنلاينر فتعطلت وتوقفتُ على جانب الطريق. عندئذ كنت في فرجينيا، والساعة الرابعة عصرًا تقريبًا، سألني أحدهما عما إذا كنت أحتاج إلى مكان للمبيت. أظنني بوسعي تخيلُ حدوث هذا في 2011، لكنه احتمال ضعيف.

رأيت أمرًا آخر. في نورث كارولينا توقفت للتزود بالوقود عند محطة همبل أويل، ثم سرت إلى الخلف لأستخدم المرحاض. وجدت بابين وثلاث لافتات. لافتة للرجال مطبوعة بخط أنيق على باب، ولل سيدات على الباب

الآخر. والثالثة سهم مثبت على عصا طويلة، يشير إلى منحدر مغطى بأجمات خلف محطة الوقود. ومكتوب على السهم للملوثين. بدافع الفصول سرت في الدرب المنحدر، متوخيًا الحذر عند منعطفين فيهما أجمات لبلاب سام، تمنيت أن يكون الآباء والأمهات الذين يصطحبون أطفالهم إلى المرفق الموجود بالأسفل، أيًا يكن، مدركين لسميّة تلك الأجمات، لأن معظم الأطفال في الخمسينيات يرتدون سراويل قصيرة.

لم أجد أي مرفق. وجدت عند نهاية الدرب مجرى مائيًا ضيقًا وُضع فوقه لوح مستند إلى كتل خرسانية متآكلة. أي رجل يريد أن يتبول يمكنه الوقوف وإنزال سحّابه وقضاء حاجته، وأي امرأة ستضطر إلى الإمساك بأجمة (إذا افترضنا أنها ليس لبلابًا سامًا أو أي نبات سام آخر) وتقرّص. اللوح كان ما يضطرون إلى الجلوس فوقه إذا أرادوا التغوط. ربما حتى تحت المطر المنهمر.

إذا أوحيت لكم بأن الخمسينيات كانت حقبة رائعة ينبغي أن نحزن إليها، فتذكروا الدرب، اتفقنا؟ الدرب الذي تحفه أجمات اللبلاب السام وعند نهايته اللوح الموضوع فوق المجرى المائي.

2

قررت الاستقرار في بلدة سَنَسِت بوينت، على بُعد ستين ميلًا جنوب تامبا. مقابل ثمانين دولارًا شهريًا استأجرت كوخًا على أجمل شاطئ رأيته في حياتي (وجدته مهجورًا تقريبًا). وجواري أربعة أكواخ مشابهة، كلها بسيطة مثل كوشي. لم أر أيًا من القصور القبيحة الحديثة التي ستنتشر في هذا الجزء من الولاية. وكان يوجد سوبرماركت على بُعد عشرة أميال جنوبًا، في نوكوميس، ومنطقة تسوق فاترة الحركة في فينيس. وكان الطريق رقم 41، طريق تاميامي، أقرب إلى طريق ريفي، يضطر السائقون إلى إبطاء سرعتهم، لا سيما عند الغسق، لأنه

الوقت الذي تفضّل فيه التماسيح وحيوانات أخرى عبور الطريق. وبين ساراسوتا وفينيس، رأيت أكشاك فواكه، وأسواقًا صغيرة على جانب الطريق، وحائتين، وقاعة رقص اسمها بلاكي، أما بعد فينيس، أيها الأخ، فستجد نفسك وحدك، على الأقل إلى أن تصل إلى فورت ميرز.

تركت خلفي شخصية جورج أمبرسون سمسار العقارات، لأن الكساد أصاب أمريكا بحلول ربيع عام 1959، في ساحل خليج فلوريدا كان كل الناس يرغبون في البيع ولا أحد يشتري، لذا أصبح جورج أمبرسون ما اقترحه آل تحديدًا: كاتب مبتدئ طموح ترك له عمه الثري ثروة كافية يعتاش عليها، على الأقل لبعض الوقت.

كُتبتُ كثيرًا، وليس مشروعًا واحدًا بل اثنين. في أوقات الصباح، عندما أكون في أفضل حالاتي الذهنية، كنت أعمل على مسودة الكتاب الذي تقرأونه الآن (إذا قُدِّرَ للكتاب أن يرى النور ويقرأه أحد). وفي الأمسيات كنت أعمل على رواية أسميتها مؤقتًا بـ مكان القتل. المكان المقصود هو ديري، بالطبع، لكنني أطلقت عليه اسم داوسن في كتابي. بدأت كتابته بوصفه تمويهًا، حتى يكون لدي ما أعرضه إذا صادقتُ أناسًا وطلب أحدهم رؤية ما أعمل عليه (وأبقيت "مسودة الصباح" في صندوق فولاذي تحت سريري). ولاحقًا أصبح مكان القتل أكثر من مجرد تمويه، بدأت أراه جيدًا، وأحلم بطباعته ونشره ذات يوم.

ساعة لكتابة المذكرات في الصباح، وساعة لكتابة الرواية في الليل، ومع ذلك وجدت لدي متسعًا من الوقت. حاولت صيد الأسماك، وكانت الأسماك متوفرة، لكن الصيد لم يرُقني فتركته. وكانت رياضة المشي ممتعة عند الفجر وعند الغروب، وشاقة في حرارة النهار. صرت زبونًا دائمًا لدى متجر الكتب الوحيد في ساراسوتا، وأمضيت ساعات طويلة (سعيدة في معظم الأحيان) في المكتبات العامة في نوكونيس وأوسبري.

وأيضًا قرأت وأعدت قراءة ما كتبه آل عن أوزوالد، ثم أدركت أن هذا سلوك هوسي، فوضعت دفتر ملاحظات آل في الصندوق مع "مسودة الصباح". كنت أرى الملاحظات شاملة ووافية، هكذا بدت لي، لكن بمرور الوقت، الحتمي، واقترابي من نقطة تقاطع مسار حياتي بمسار حياة الشاب الذي سيصبح قاتلًا، اكتشفت أن المذكرات ليست وافية وفيها ثغرات.

أحيانًا ألعن آل لأنه أقحمني في هذه المهمة على عجلة، لكن في لحظات الصفاء الذهني أدرك أنه حتى إذا أتيح لي مزيد من الوقت، فالأمر سيان، لزدت الوضع سوءًا، وعلى الأرجح عرف آل هذا. حتى إذا لم ينتحر، لأتاح لي أسبوعًا أو أسبوعين، وكم عدد الكتب التي كُتبت عن سلسلة الأحداث المفضية إلى ذلك اليوم في دالاس؟ مئة؟ ثلاثمئة؟ على الأرجح أقرب إلى ألف، بعضها يوافق رأي آل أن أوزوالد تصرف وحده من تلقاء نفسه، وبعضها يزعم أن أوزوالد كان جزءًا من مؤامرة معقدة، وبعضها يجزم جزمًا قاطعًا أن أوزوالد لم يضغط الزناد وأنه كما قال عن نفسه بعد اعتقاله، مجرد ساذج. بانتحاره قضى آل على أشد نقاط الضعف لدى أي باحث: البحث بدافع عدم اليقين.

كنت أذهب إلى تامبا من حين لآخر، وتوصلت إثر استقصاء سري إلى وكيل مراهنات اسمه إدواردو غوتيريز، وحالما تأكد أنني لست شرطياً، وافق على قبول رهاني بسرور. في البداية راهنت على فوز مينيابوليس ليكرز على سيلتكس في بطولة عام 59، حتى أرسخ سذاجتي، إذ لم يفز ليكرز بأي مباراة. كما راهنت بأربعمئة دولار على فوز الكنديين على مابل ليفس في بطولة كأس ستانلي، وفزت... لكن لم أخسر كثيرًا. لقال لي صديقي شاز فرااتي: الحظ يتغير يا بن عمي.

جاءت ضربتي الكبرى في ربيع 1960، عندما راهنت على فوز فينشيان واي على بالي إيك، المرشح الأقوى في ديربي كنتاكي. قال

غوتيريز إنه سيعطيني نسبة أربعة إلى واحد إذا راهنتُ بألف دولار، وخمسة إلى واحد إذا راهنتُ بألفين. راهنتُ بألفين بعدما أبدت شيئاً من التذمر، وازدادت ثروتي بمقدار عشرة آلاف دولار. دفع غوتيريز لي مبتهجاً مثل فراتي، لكنني لاحظت في عينيه وميضاً فولاذياً، ولم أكرث به.

كان غوتيريز كوبيّاً، على الأرجح يزن مئة وأربعين رطلاً بالكاد، لكنه ينتمي إلى مافيا نيو أورلينز، التي كان يديرها عندئذٍ رجل سيئ السمعة اسمه كارلوس مارسيلو. سمعت هذه المعلومة من ثرثرة في صالة بلياردو مجاورة لصالون الحلاقة الذي يدير فيه غوتيريز مراهناته (وفي حجرة خلفية يدير طاولة بوكر أسفل صورة شبه عارية للممثلة دايانا دورس). الرجل الذي كنت ألعب معه البلياردو مال نحوي وتلفت ليتأكد أن لا أحد قريب منا، ثم تمتم هامساً: «تعرف ما يقولونه عن المافيا يا جورج، حالما تنضم إليها، لن تخرج أبداً».

وددت لو أتحدث مع غوتيريز عن سنواته التي عاشها في نيو أورلينز، لكن رأيت أن إشباع فضولي ليس من الحكمة، لا سيما بعدما قبضت مبلغ رهان الديرابي الكبير. إذا تجاسرت، وإذا وجدت ذريعة معقولة لفتح الموضوع، لسألت غوتيريز عما إذا كان يعرف عضواً شهيراً آخر في عصابة مارسيلو، ملاكم سابق اسمه شارلز "دوتز" موريت. أظنه لأجاب بنعم، لأن الماضي متناغم مع نفسه. زوجة دوتز موريت كانت شقيقة مارغريت أوزوالد، أي إنه كان خال لي هارفي أوزوالد.

4

ذات يوم في ربيع 1959 (يوجد ربيع في فلوريدا، سكانها أخبروني أنه يدوم أسبوعاً أحياناً)، فتحت صندوق بريدي فوجدت بطاقة إشعار من مكتبة نوكوميس العامة. كنت قد حجزت نسخة من كتاب *الموهومون*

الذين استيقظوا، رواية بد شولبيرغ الجديدة، وقد وصلت للتو. ركبت الصنلاينر سريعًا وقُدت لأجلب الكتاب.

عند خروجي من المبنى لاحظت ملصقًا جديدًا على لوحة الإعلانات في الردهة، بدا لافتًا بلون أزرق زاهٍ، عليه رسم كرتوني لرجل يرتجف ناظرًا إلى ثرمومتر ضخم يشير مستوى الزئبق فيه إلى عشر درجات تحت الصفر. وكُتب على الملصق: هل لديك مشكلة درجة علمية؟ ربما تكون مؤهلًا لنيل شهادة عبر البريد من كلية أو كلاهوما المتحدة! راسلنا لمزيد من التفاصيل!

بدا لي اسم كلية أو كلاهوما المتحدة مُريبًا، لكنه أمدني بفكرة. غالبًا بدافع الملل. عندئذٍ كان أوزوالد ما يزال ضمن قوات المارينز، ولن يُسَرَّح من الخدمة حتى سبتمبر، ثم يذهب إلى روسيا، وسيحاول أولًا التخلي عن جنسيته الأمريكية، سيفشل، لكن بعد محاولة انتحار درامية -وزائفة على الأرجح- في فندق بموسكو، سيسمح الروس له بالإقامة في بلدهم. إقامة مشروطة، إن جاز التعبير. سيبقى هناك قرابة ثلاثين شهرًا، ويعمل في مصنع أجهزة لا سلكية في منسك. وفي حفل سيتعرف إلى فتاة اسمها مارينا بروساكوفا. كتب عنها آل في ملاحظاته: فستان أحمر. حذاء أبيض. جميلة. جاءت مستعدة للرقص.

هنيئًا له. لكن ماذا سأفعل في الوقت الراهن؟ كلية أو كلاهوما أحد الخيارات. راسلتهم لمزيد من التفاصيل، وتلقيت ردًا سريعًا. وجدتهم يقدمون عددًا كبيرًا من الدرجات العلمية. ودهشت عندما اكتشفت أن بمقدوري، مقابل ثلاثمئة دولار (نقدًا أو عبر حوالة بريدية)، نيل شهادة بكالوريوس في اللغة الإنجليزية، وما عليّ سوى اجتياز اختبار مكون من خمسين سؤال اختيار من إجابات متعددة.

أرسلت النقود عبر البريد، ومعه طلب تقديم. وبعد أسبوعين تلقيت ظرفاً بُنيّاً من كلية أوكلاهوما، وبداخله ورقتان ملطختان مطبوعتان بآلة ناسخة. كانت الأسئلة رائعة، إليكم اثنتين من المفضلة لدي:

22. ما هو اسم "موبي" الأخير؟

A. توم

B. ديك

C. هاري

D. جون

37. من هو مؤلف رواية المنزل ذو الطاولات⁽¹⁾ السبع؟

A. شارلز دكنز

B. هنري جيمس

C. آن برادستريت

D. ناثانيل هوثورن

E. كل ما ذكر خطأ

وبعدما استمتعت بقراءة هذا الاختبار الرائع، كتبت الإجابات (قائلاً مع نفسي من حين لآخر: لا بد أنكم تمازحونني!)، وأرسلتها إلى إينيد، أوكلاهوما. ثم تلقيت بطاقة بريدية تهنئني باجتياز الاختبار. وبعدما دفعت خمسين دولارًا إضافية، «رسوم إدارية»، أخطرت بأن شهادتي ستُرسل إلي. هذا ما قيل لي، ويا للعجب! هذا ما حدث فعلاً. وجدت الشهادة أفضل مظهرًا من أوراق الاختبار، وعليها ختم ذهبي مثير

(1) الكتاب الحقيقي اسمه "المنزل ذو الجملونات السبعة" The House of The Seven Gables لنathan Hawthorne، وليس الطاولات Tables. على الأرجح تعمّد كينج الخطأ لتأكيد جهل واضعي أسئلة الاختبار. (المترجم)

للإعجاب. عندما قدمتها إلى مجلس تعليم مقاطعة ساراسوتا، قبلها أولئك الأكفاء دون أسئلة وأدرجوا اسمي في قائمة الأساتذة البدلاء.

هكذا عدت إلى التدريس ليوم أو يومين أسبوعياً في العام الدراسي 1959-1960، وقد سررت بالعودة، استمتعت بتدريس الطلاب. فتية ذوو قصّات شعر قصيرة وفتيات بتسريحات شعر على شكل ذيل الحصان ويرتدين تنورات تبلغ منتصف سيقانهن. لكن لم يسعني سوى ملاحظة أن الوجوه التي أراها في الصفوف العديدة التي زرتها جميعها بيضاء متشابهة. تلك الأيام ذكّرتني بتفضيلاتي الشخصية: أن الكتابة تروقني، واكتشفت أنني بارع فيها، لكن حُبي هو التدريس، يُشبعني على نحو لا يمكنني تفسيره، ولا أريد تفسيره، التفسيرات كالشعر الرديء.

أفضل أيامي بوصفي أستاذًا بديلاً جاءت في ثانوية غرب ساراسوتا، بعدما أخبرت أحد صفوف الأدب الأمريكي عن قصة رواية الحارس في حقل الشوفان (كان الكتاب ممنوعاً في مكتبة المدرسة، ولصُودِر إذا جلبه طالب إلى قاعات المدرسة المقدسة)، ثم شجعتهم على الحديث عن موضع سخط هولدن كوفيلد: زيف المدرسة والأشخاص البالغون والحياة الأمريكية كلها. بدأ الصبية الحديث ببطء، لكن بحلول نهاية الحصة ورنين الجرس، كلهم كانوا يحاولون الحديث في الوقت نفسه، وخاطر ستة منهم بتأخر حصتهم التالية ليعبّروا عن رأيهم في مشكلات المجتمع التي يرونها حولهم والحياة التي يريد آباؤهم لهم أن يعيشوها. برقت أعينهم واحمرت وجوههم من الحماسة. تأكدت أن كتاباً بعينه ذا غلاف أحمر داكن سينفذ من متاجر الكتب في المنطقة. كان آخر الطلاب المغادرين فتي مفتول العضلات يرتدي سترة كرة قدم، بدا لي مثل "الموظ ماسون" في كتب آرثشي المصورة.

قال لي بلكنة سكان الجنوب: «أتمنى لو أنك معنا طوال الوقت يا سيد أمبرسون، أنت الأستاذ المفضل لدي».

تأثرت بكلامه. لا شيء يماثل سماع كلام كهذا من فتى في السابعة عشرة يبدو كأنه انتبه لأول مرة في مسيرته الدراسية لما يقوله أستاذه في الصف.

في وقت لاحق من ذلك الشهر، استدعاني المدير إلى مكتبه، قال لي عبارات المجاملة المعهودة وقدم لي كو-كولا، ثم سألني: «هل أنت مُخَرَّب يا بُني؟». طمأننته أنني لست كذلك، وأخبرته أنني صوّت لأيزنهاور. بدا راضياً، لكنه اقترح علي الالتزام بـ «قائمة كتب القراءة المقبولة عمومًا» مستقبلاً. قصات الشعر وأطوال التنانير والعبارات العامة يمكن أن تتغير، لكن إدارات المدارس الثانوية لا تتغير أبداً.

5

في إحدى محاضرات الجامعة (هنا أتحدث عن جامعة مَين، جامعة حقيقية نلت منها درجة بكالوريوس حقيقية)، سمعت بروفيسور علم نفس يقول إن البشر يملكون فعلاً حاسة سادسة، أسماها التفكير الحدسي، وقال إنها أكثر تطوراً عند الروحانيين والخارجين عن القانون. لم أكن رجلاً روحانياً، لكنني كنت منفيّاً من زمني وقاتلاً (ربما أرى أن إطلاق النار على فرانك دننغ كان مُبرّراً، لكن الشرطة لن توافقني الرأي بالطبع)، وإذا لم يجعلني ذلك خارجاً عن القانون، فلا شيء سيجعلني. قال البروفيسور في ذلك اليوم من عام 1995: «نصيحتي لكم في المواقف التي تُنذِر بخطر هي العمل بما يُمليه عليكم حدسكم».

قررت اتباع ما يُمليه علي حدسي في يوليو 1960. عندئذٍ بدأت أقلق بشأن إدواردو غوتيريز، لم يكن رجلاً ذا شأن، لكن كان لا بد لي أن أضع في اعتباري صلاته بالمافيا... وذلك الوميض في عينيه عندما

دفع لي مبلغ رهان الديربي، الذي أدركت أنه كان ضخماً إلى درجة غير حكيمة. لماذا راهنت ووضعني المالي ما زال جيداً جداً؟ لم يكن رهاني بدافع الجشع، إنما ذلك الإحساس، إحساس ضارب الكرة في البيسبول عندما تسنح له فرصة ضربة جيدة ترسل الكرة إلى المدرجات. ضربتُ ضربتي، لكنني ندمت.

تعمدت خسارة آخر رهانين رتبتهما مع غوتيريز، باذلاً كل ما بوسعي لأبدو مغفلاً، لأبدو مجرد قروي ساذج حالفه الحظ مرة وسيخسر كل ما كسبه. لكن حدسي أخبرني بأنني لم أفلح. وقد استشعرت هذا من طريقة كلام غوتيريز معي.

ماذا لو أنه كلّف أحد أصدقائه الذين يلعبون البوكر بتعقُّبي من تامبا إلى سنست بوينت؟ هل من المحتمل أن يرسل بعض أصدقائه الآخرين من لاعبي البوكر -أو اثنين من مفتولي العضلات المدينين له- ليستعيدوا ما بقي لدي من الدولارات العشرة آلاف؟ رأى عقلي الواعي أن هذه قصة مبتذلة من القصص البوليسية، لكن حدسي أخبرني بأمر مختلف. أخبرني حدسي بأن الرجل ضئيل الحجم ذا الشعر الخفيف قادرٌ تماماً على أن يأمر باقتحام منزلي وضربي ضرباً مبرحاً إذا حاولت الاعتراض. لم أرغب في التعرض للضرب والنهب، والأهم من هذا لم أرغب في المخاطرة بوقوع مقتنياتِي في يدي وكيل مراهنات ذي صلات بالماфия. لم تُرُقني فكرة الهروب كالجبان، لكن سحَقاً، سوف أذهب إلى تكساس إن عاجلاً أم آجلاً، فلمَ لا أستعجل إذن؟ كما إن التكتُّم والحذر من أهم متطلبات الشجاعة. تعلمت هذا من أمي في طفولتي.

لذا بعدما لبثت ساهراً معظم ساعات ليلة في يوليو إثر اشتداد وخزات حدسي، حُزمت أغراضي (كنت قد خبأت الصندوق الذي يحتوي على مذكراتي ونقودي أسفل إطار الصنلاير الاحتياطي)، وتركت رسالة وشيكاً بمبلغ الإيجار الأخير لصاحب الشقة، واتجهت جنوباً عبر طريق

يو إس 19. أمضيت ليلتي الأولى في نُزلٍ متداعٍ في ديفونياك سبرينغز. كان على نافذة الغرفة شريط منخلي مليء بثقوب، وإلى أن أطفأت المصباح الوحيد (مصباح متدل من سلك كهربائي)، أزعجني بعوض بحجم طائرات مقاتلة.

ومع ذلك نمت كرضيع. لم أر كوابيس، وتوقفت وخزات حدسي. رأيت هذا تطورًا جيدًا بما يكفي.

أمضيت اليوم الأول من أغسطس في غَلقبورت، لكن أول نُزل توقفت عنده، في ضواحي البلدة، رفض استقبالي، وأوضح موظف نُزل ريد توب لي أن النزل للزواج فقط، ووجهني إلى نُزل سَدَرْن هوسبتاليتي، واصفًا إياه بالأفضل في غَلقبورت. ربما كان الأفضل، لكن إجمالاً، أظنني لفضلتُ ريد توب، لأن صوت عزف الجيتار القادم من الحانة المجاورة بدا رائعًا.

6

لم تكن نيو أورلينز في طريقي إلى دالاس، لكن بعدما انقطعت وخزات حدسي، وجدت نفسي في مزاج لرؤية المعالم السياحية... لكن لم أرغب في زيارة الحي الفرنسي ولا مرفأ الزوارق البخارية بشارع بينفيل.

اشتريت خريطة من بائع في الشارع وذهبت إلى الوجهة الوحيدة التي تثير اهتمامي. ركنت السيارة، وبعدها تمشيت خمس دقائق، وجدت نفسي واقفًا أمام المنزل رقم 4906 بشارع مَغَزِين، حيث سيعيش لي ومارينا أوزوالد وابنتهما جُون خلال آخر ربيع وصيف من حياة جون كينيدي، كان مبنى خربًا قليلًا حوله سياج حديدي محيط بباحة أعشابها طويلة مهملة، طلاء الطابق السفلي بدا مصفرًا بعدما كان أبيض ذات يوم، والطابق العلوي رمادي غير مطلي، رأيت قطعة من الورق المقوى

على نافذة مكسورة مكتوبًا عليها: للإيجار اتصل بـ 4192-MU3. ورأيت حواجز صدئة تحيط بالشرفة، التي سيجلس فيها لي أوزوالد في سبتمبر 1963 مرتديًا ملابسه الداخلية بعد هبوط الظلام، ويهمس: «بوم! بوم! بوم!» مُحَرِّكًا أصابعه ويديه كأنه يطلق النار على المشاة العابرين من البندقية التي ستصبح أشهر بندقية في التاريخ الأمريكي. كنت أتخيل ذلك عندما نقر شخص على كتفي، فكدت أن أصرخ، وأظنني أجفلت، لأن الشاب الأسود الذي كان يحاول لفت انتباهي تراجع خطوة رافعًا يديه.

- آسف سيدي، آسف. لم أقصد أن أفزعك.

- لا بأس. اللوم عليّ وحدي.

بدا أن كلامي لم يطمئنه، لكن الشاب كان ينوي مفاتحتي في أمر عمل، ولم يتراجع... واقترب مني مجددًا، لأن عمله يتطلب نبرة صوت أخفض من المعتاد، أراد أن يعرف ما إذا كنت مهتمًا بشراء بضع أصابع بهجة. أظنني عرفت ما يتحدث عنه، لكنني لم أتأكد إلى أن أردف: «مارجوانا مستنقعات عالية الجودة يا سيدي».

قلت له إنني لا أريد، لكن إذا أرشدني إلى فندق جيد في باريس الجنوب، فسينال نصف دولار. وعندما تكلم بدا جازمًا: «الآراء تختلف، لكن أوصيك بفندق مونتليون». ووجهني إليه. قلت له: «شكرًا». وناولته العملة المعدنية. واختفت في أحد جيوبه الكثيرة.

أومأ ناحية المنزل المتداعي قائلاً: «لماذا تنظر إلى ذلك المنزل على أي حال؟ هل تفكر بشرائه؟».

لوهلة استعدت شخصية جورج أمبرسون، وقلت: «لا بد أنك تعيش في هذه المنطقة، هل ترى أن شراءه سيكون صفقة جيدة؟».

- بعض المنازل في هذا الشارع ربما تكون صفقة جيدة، لكن ليس هذا، يبدو لي مسكوناً بالأشباح.

قلت: «ليس بعد». واتجهت إلى سيارتي، تاركاً الشاب يتابعني بنظراته حائراً.

7

أخرجت الصندوق المقفّل من صندوق السيارة الخلفي ووضعت على مقعد الراكب، لأحمّله بيدي إلى غرفتي بفندق مونتليون. وهذا ما فعلته. لكن في أثناء حمل البواب بقية حقائبي، لاحظت شيئاً أسفل المقعد الخلفي أشعّرنى بتأنيب الضمير على نحو مبالغ فيه مقارنة بماهية الشيء الذي رأيته، بيد أن ما نتعلمه في الطفولة أشد رسوخاً. مما تعلمته أيضاً من أمي في طفولتي وجوب إعادة كتب المكتبة في الموعد المحدد.

قلت للبواب: «هلاً ناولتني ذلك الكتاب من فضلك؟».

- نعم سيدي! من دواعي سروري!

كان كتاب تقرير تشابمان، لإرفينغ والاس، استعرفته من مكتبة نوكوميس العامة قبل أسبوع تقريباً من قراري حمل عصا الترحال مجدداً. وبّخني الملصق الذي على زاوية الغلاف: 7 أيام فقط. كن مُراعياً للمستعير التالي.

عندما وصلت إلى غرفتي، نظرت إلى ساعتَي ورأيت أن الوقت لم يتجاوز السادسة مساءً. في الصيف لا تفتح المكتبة قبل الظهر، لكنها تظل مفتوحة حتى الثامنة. مكالمات المسافات البعيدة إحدى الأشياء القليلة في عام 1960 الأكثر تكلفة مقارنةً بعام 2011، لكن ذلك الإحساس الطفولي بالذنب لم يبارحني. اتصلت بعاملة هاتف الفندق وأعطيتها رقم هاتف مكتبة نوكوميس، قرأته من البطاقة الملصقة بظهر

الكتاب، وأسفله ملاحظة بخط صغير: نرجو الاتصال في حال التأخر أكثر من ثلاثة أيام، فاقمتُ إحساسي بالذنب.

تحدثت عاملة الهاتف مع عامل هاتف آخر، وسمعت في خلفية حديثهما مهمة أصوات خافتة. أدركت أن معظم أولئك المتحدثين البعيدين ميتون في الزمن الذي جئتُ منه. ثم بدأ الهاتف يرن على الطرف الآخر.

«مرحبًا، معك مكتبة نوكوميس العامة». كان صوت هاتي ويلكرسن، لكن تلك السيدة العجوز اللطيفة بدت كأنها عالقة بداخل برميل فولاذي ضخم.

- مرحبًا، السيدة ويلكرسن...

- مرحبًا، مرحبًا؟ هل تسمعنني؟ اللعنة على مكالمات المسافات البعيدة!

عندئذٍ ارتفع صوتي إلى حد الصياح: «هاتي؟ أنا جورج أمبرسون!».

- جورج أمبرسون؟ رباها! من أين تكلمني يا جورج؟

كدت أن أخبرها بالحقيقة، لكن وخزني حدسي وخزة حادة، فقلت: «باتون روج!».

- في لويزيانا؟

- نعم! لدي أحد كتبكم! أدركتُ هذا للتو! سأرسله إليك...

- لا داعي للصياح يا جورج، الاتصال أفضل الآن، لا بد أن عاملة الهاتف أحكمت تثبيت قابس مكالمتنا. إنني سعيدة جدًا باتصالك، أنقذتك العناية الإلهية، كنا قلقين عليك رغم أن رئيس قسم الإطفاء قال إن المنزل كان خاليًا.

- عن ماذا تتحدثين يا هاتي؟ منزلي على الشاطئ؟

لكن بالطبع كانت تقصده.

- نعم! ألقى شخصٌ فيه قنينة جازولين عبر النافذة، واشتعل المنزل بأكمله في غضون دقائق. يظن رئيس قسم الإطفاء ديوراند أن الفاعلين فتية كانوا سكارى ويحتفلون بصخب. ثمة فتية جامحون كثيرون في أيامنا هذه. يقول زوجي إن السبب هو خوفهم من القنبلة.

- ...

- جورج؟ هل ما زلت معي؟

- نعم.

- أيُّ كتاب لديك؟

- ماذا؟

- أيُّ كتاب لديك؟ لا تضطرنني إلى مراجعة فهرس البطاقات.

- أوه. تقرير تشابمان.

- حسنًا، أرسله في أقرب وقت ممكن، كثيرون ينتظرون هذا الكتاب، إرفينغ والاس ذو شعبية كبيرة.

- أجل. سأحرص على إرساله في أقرب وقت.

- يؤسفني ما حلَّ بمنزلك. هل فقدت مقتنياتك؟

- أخذت معي كل الأشياء المهمة.

- حمدًا للرب. هل ستعود عما ق...

سمعت نقرة حادة عالية لسعت أذني، ثم طنين الخط المفتوح. وضعت السماعة في مكانها. هل سأعود عما قريب؟ لم أر داعيًا لمعاودة الاتصال حتى أجيب عن هذا السؤال. لكن قررت توخي الحذر الشديد من الماضي، لأنه يستشعر عوامل التغيير، وأسنانه حادة.

في صباح اليوم التالي أرسلت تقرير تشابمان إلى مكتبة نوكوميس. ثم غادرت إلى دالاس.

بعد ثلاثة أيام كنت جالسًا على مقعد في ساحة ديالي، وأنظر إلى مبنى مستودع الكتب المدرسية بتكساس المكعب المشيد بالقرميد. كان الوقت عصرًا والجو ساخنًا، وقد أرخيت ربطة عنقي (إذا لم يضع المرء ربطة عنق في عام 1960، حتى في الأيام الساخنة، فقد يثير استهجان بعض الناس)، وفتحت الزر العلوي من قميصي الأبيض، لكن ذلك لم يخفف عني كثيرًا، وكذلك ظل شجرة الدردار الباهت خلف مقعدي.

عندما سجلت وصولي إلى فندق أدولفس في شارع كوميرس، عُرض علي خياران: غرفة بمكيف هواء أو من غير مكيف هواء. دفعت خمسة دولارات إضافية مقابل غرفة يخفض مكيفها المثبت على النافذة درجة الحرارة إلى ثماني وسبعين درجة فهرنهايت. وإذا كنت عاقلًا لُعدت إليها الآن قبل أن يغمى عليّ بضربة شمس. ربما يبرد الجو، ولو قليلًا، عندما يحل الليل.

لكن المبنى القرميدي المكعب ظل مستحوذًا على انتباهي، وبدا لي أن النوافذ، لا سيما التي عند الركن الأيمن في الطابق السادس، تمنع النظر إلي. استشعرت خطبًا ملموسًا في المبنى. ربما تضحكون هازئين، إذا قرأتم ما أكتبه يومًا، وتقولون إنني متأثر بمعرفتي الفريدة، لكن هذا لا يفسر تسمُّري على المقعد رغم الحر اللاهب، ما يفسره هو إحساسي بأنني رأيت المبنى من قبل.

ذكَرني بمصنع كتشنر للحديد والصلب، في ديري.

مستودع الكتب لم يكن أطلاقًا، لكنه يبعث الإحساس نفسه الذي يبعثه كائنٌ شرير واع. تذكرت اقترابي من المدخنة المسودة بالسخام المستلقية مُهدِّمةً بين الأعشاب كأنها أفعى مما قبل التاريخ تغفو تحت الشمس. وتذكرت نظري إلى تجويفها الداكن، الضخم إلى درجة تمكنني

من السير إلى داخله. وتذكرت إحساسي بوجود شيء بالداخل، شيء حي، شيء أراد مني أن أدخل إليه، في زيارة عابرة، أو لمدة طويلة جدًا. همست نافذة الطابق السادس: تفضل بالدخول، ألقِ نظرة على المكان، لا أحد فيه الآن، طاقم الموظفين الصغير الذي يعمل هنا في الصيف ذهبوا إلى منازلهم، لكن إذا ذهبت إلى رصيف التحميل المجاور للسكة الحديدية، فستجد بابًا مفتوحًا، إنني متأكد من هذا. ماذا يوجد هنا ويستحق الحماية؟ لا شيء سوى كتب مدرسية، حتى الطلاب الذين وُضعت الكتب من أجلهم لا يريدونها. أظنك تعرف هذا تمام المعرفة يا جيك. لذا تفضل بالدخول، اصعد إلى الطابق السادس. في زمنك يوجد متحف هنا، يأتي إليه الناس من جميع أنحاء العالم وبعضهم ما يزالون ينتحبون على الرجل الذي قُتل ويتحسرون على كل ما كان يمكن أن يفعل، لكننا في 1960 الآن، كينيدي ما يزال سينتاور، وجيك إبنغ لم يأت إلى الوجود بعد. لكن جورج أمبرسون موجود، رجل ذو قصة شعر قصيرة وقميص مبلل بالعرق وربطة عنق مرتخية، رجل زمانه، إن جاز التعبير. هيا اصعد. هل تخشى الأشباح؟ كيف تخشاها والجريمة لم تقع بعد؟

بيد أن الأشباح موجودة هناك بالأعلى. ربما لا توجد في شارع مَغْزِين في نيو أورلينز، لكن هناك؟ نعم بالتأكيد. إلّا أنني لن أضطر إلى مواجهتها أبدًا، لأنني لن أدخل مستودع الكتب كما لم أجرؤ على الدخول إلى المدخنة الساقطة في ديري. سوف يبدأ أوزوالد مزاوله وظيفته ترتيب الكتب المدرسية قبل شهر تقريبًا من يوم الاغتيال، والانتظار كل تلك المدة سيكون مجازفة محفوفة بمخاطر جمّة. كلاً، عقدت عزمي على اتباع الخطة التي وضع آل خطوطها العريضة في القسم الأخير من دفتر ملاحظاته، القسم الذي عنوانه: خلاصة خيارات إنجاز المهمة.

رغم ثقة آل في رأيه بأن مُطلق النار كان شخصًا واحدًا، لم يستبعد احتمال أنه ربما يكون مخطئًا، وقد سمى في ملاحظاته هذا الاحتمال الضئيل لكن مهم إحصائيًا بـ «نافذة عدم اليقين».

مثل نافذة الطابق السادس.

كان آل يعتزم إغلاق تلك النافذة إغلاقًا تامًا في 10 أبريل 1963، قبل نصف عام من رحلة كينيدي إلى دالاس. ورأيت أن فكرته منطقية. يمكن إغلاقها في وقت لاحق من أبريل، أو على الأرجح في ليلة اليوم العاشر منه. لِمَ الانتظار؟ سوف أقتل زوج مارينا ووالد جون كما قتلت فرانك دننغ، دون أي تردد أو تأنيب ضمير. إذا رأى المرء عنكبوتًا يمشي على الأرضية نحو مهد رضيعه، ربما يتردد، ربما يفكر في احتجازه بداخل قنينة وإطلاق سراحه في الباحة حتى يمضي في سبيله ويعيش حياته القصيرة. لكن ماذا لو كان متأكدًا أن العنكبوت سام؟ أرملة سوداء؟ في هذه الحالة لن يتردد. كل ذي عقل لن يتردد.

سيدوس عليه بقدمه ويسحقه.

9

خطت للأعوام الممتدة بين أغسطس 1960 وأبريل 1963، قررت أن أراقب أوزوالد عندما يعود من روسيا، لكن دون الاقتراب منه، تحاشيًا لتداعيات أثر الفراشة. إذا وُجد في اللغة الإنجليزية مجاز أغبى من عبارة سلسلة أحداث، فلا أدري ما هو. السلاسل قوية (عدا عن التي تعلّمنا صنعها من قصاصات الورق الملون في حضانة الأطفال)، نستخدمها لرفع المحركات من الشاحنات، وتقييد أذرع وسيقان السجناء الخطرين. لكن هذا لم يعد الواقع حسبما أفهمه، الأحداث واهية، وأكد لكم، إنها بيوت من ورق، وبالاقتراب من أوزوالد، ناهيك بمحاولة تحذيره من جريمة لم

يفكر في ارتكابها بعد، سأضيق على نفسي أفضليتي الوحيدة، ستفرد الفراشة جناحيها، ويتغير مسار أوزوالد.

ربما تغيرات بسيطة في البداية، لكن كما تخبرنا أغنية بروس سبرنغستين، من الأشياء الصغيرة تأتي الأشياء الكبيرة ذات يوم. ربما تكون تغيرات جيدة، من شأنها إنقاذ الرجل الذي يتولى الآن منصب سيناتور من ماساتشوستس. لكنني استبعدت هذا. لأن الماضي عنيد. بحسب ملاحظات آل الهامشية، من المقرر أن يذهب كينيدي عام 1962 إلى جامعة رايس في هيوستن، ليلقي خطابًا عن الصعود إلى القمر. كتب آل: قاعة مفتوحة، ما من منصة واقية من الرصاص. وهيوستن تبعد عن دالاس أقل من ثلاثمائة ميل. ماذا لو قرر أوزوالد أن يردي الرئيس قتيلاً هناك؟

أو لنفترض أن أوزوالد، كما زعم عن نفسه، مجرد ساذج، فماذا لو أخفّته فدفعته إلى مغادرة دالاس وعاد إلى نيو أورلينز، ورغم هذا مات كينيدي، ضحية لعصابة مافيا جنونية أو مؤامرة من وكالة الاستخبارات المركزية؟ هل سأتحلّى بالشجاعة الكافية للعودة عبر جحر الأرنب والبدء من جديد؟ أنقذ أسرة دننغ مجددًا؟ وأنقذ كارولين بولين مجددًا؟ أنفقت عامين سلفًا في سبيل هذه المهمة. هل سأنفق خمسة أعوام إضافية والنتائج غير مضمونة كعهدي بها؟

يُستحسن ألا أضطر إلى الإجابة عن هذه الأسئلة.

يُستحسن أن أكون حاسمًا.

في طريقي إلى تكساس من نيو أورلينز، كنت قد رأيت أن أفضل طريقة لمراقبة أوزوالد دون اعتراض طريقه هي أن أقيم في دالاس بينما هو في فورت وورث، المدينة الشقيقة لدالاس، ثم أنتقل إلى فورت وورث عندما ينقل أوزوالد أسرته إلى دالاس. اتّسمت الفكرة بفضيلة البساطة، لكن ما كانت لتنجح. أدركت هذا في الأسابيع التي تلت جلوسي

أمام مستودع الكتب المدرسية بتكساس أول مرة، وإحساسي القوي بأن المبنى نفسه، مثل هوة نيتشه، يبادلني التحديق.

أمضيت أغسطس وسبتمبر من عام الانتخابات الرئاسية متجولاً بالصنلاينر في أنحاء دالاس، باحثاً عن شقة (بعد كل هذا الوقت كنت ما زلت أفتقد نظام الملاحة العالمي، وظللت أتوقف من حين لآخر لأسأل عن الاتجاهات). لم أجد شقة مناسبة. في البداية ظننت أن المشكلة في الشقق، ومن ثم، عندما بدأت أستوعب المدينة على نحو أفضل، أدركت أن المشكلة فيّ أنا.

الحقيقة البسيطة هي أن دالاس لم ترُقني، وثمانية أسابيع من الدراسة الجادة كانت كافية لتُثبت لي أن ثمة كثيراً مما لا يروقني في المدينة. وجدتُ صحيفة تايمز هيرالد (يسمونها كثير من سكان دالاس بـ سلايمز دالاس، أي وحل دالاس) منصة مؤثرة مملّة ترُوج للتفاهات. ومورننغ نيوز تُكثّر من الحديث عن أن دالاس وهيوستن «في سباق إلى السماوات»، لكن ناطحات السحاب المذكورة في المقالة الافتتاحية كانت معزولة باهتة المعالم المعمارية تحيط بها حلقات من المناطق المتخلفة. تجاهلت الصحف الأحياء الفقيرة حيث بدأت الانقسامات العرقية تذوب شيئاً فشيئاً. وبعيداً قليلاً شيدت مجمعات سكنية كثيرة للطبقة الوسطى، يملك معظمها الجنود السابقون الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية، وزوجاتهم اللاتي يقضين أيامهن في تنظيف الأثاث وغسل الملابس، ومعظمهم لديهم طفلان أو ثلاثة. المراهقون يقصون أعشاب الباحات، ويوصلون سلايمز هيرالد راكبين دراجاتهم، يلّمعون السيارات العائلية، ويستمعون -خلسة- إلى تشاك بيرري عبر مذياع الترانزستور. وربما يقولون لأبائهم إنه أبيض.

وخلف منازل الضواحي برشاشات مرجاتها الدوّارة كانت تمتد مساحات شاسعة خالية، وآلات الري ما زالت تخدم محصول القطن، لكن

القطن أفل نجمه، وحل محله فول الصويا والذرة بمساحات شاسعة. كانت محاصيل مقاطعة دالاس الحقيقية هي الأجهزة الإلكترونية، والمنسوجات، والترهات، والبترو دولار المشبوه. لم أر في المنطقة الهياكل التي تقام فوق آبار النفط، لكن عندما تهب الرياح من الغرب، حيث يوجد حوض برميان، تتشبع المدينتان التوأمتان برائحة النفط والغاز الطبيعي.

رأيت منطقة الأعمال التجارية بوسط المدينة تعج بنبهاء يغدون ويروحون وهم يرتدون ما صرت أراه ملابس دالاس المعتادة: معاطف رياضية ذات نقوش مربعات، وربطات عنق رفيعة مثبتة بمشابك منتفخة (عادةً ما تكون مرصعة بقطع متلائة في منتصفها)، وبناطيل بيضاء بلا أحزمة، وأحذية مبهرجة ذات نقوش معقدة. يعملون في المصارف وشركات الاستثمار، يبيعون فول الصويا وعقود استخراج النفط والعقارات في غرب المدينة، أراض لا ينمو فيها شيء سوى نباتات الطاطورة والحشائش الضخمة التي تدرجها الرياح. يرتّبون أكتاف بعضهم بعضاً بأيدي مكسوة بالخواتم، ويخاطب بعضهم بعضاً بـ "يا بُني". وفي أحزمتهم، حيث يضع رجال الأعمال في 2011 هواتفهم المحمولة، رأيت كثيرين يضعون مسدسات في جرابات مطرزة يدويًا.

رأيت لوحات إعلانية تطالب بمحاكمة رئيس المحكمة العليا إيرل وارن، ولوحات إعلانية أخرى عليها صورة لنيكيثا خروشيف مكشّراً، ومكتوباً عليها: (كلّاً أيها الرفيق خروشيف. نحن سوف ندفنك!) وأخرى في غرب شارع كوميرس مكتوباً عليها: الحزب الشيوعي الأمريكي يفضل دمج الأقليات العرقية في المجتمع. فكّروا بذلك! وهذه دفع مقابلهام مؤسسة اسمها "حزب الشاي". ومرتين، على لافتات الأعمال التجارية التي تبدو من أسمائها أن أصحابها يهود، رأيت الصليب المعقوف.

لم ترقني دالاس. كلاً يا سيدي، كلاً يا سيدتي، لم ترقني البتّة. لم ترقني منذ لحظة دخولي إلى فندق أدولفس ورؤيتي رئيس النُّدْل يمسك بذراع نادلة منكمشة ويصرخ في وجهها. لكن مهمتي في دالاس، ولا بد لي من المكوث فيها. هذا ما رأيته عندئذٍ.

10

في الثاني والعشرين من سبتمبر وجدت أخيراً مكاناً يصلح للسكن، كان في شارع بلاكويل، شمال دالاس، مرأب منفصل حوّل إلى شقة جميلة من طابقين، أفضل مزاياها أنها مزودة بمكيف هواء، أسوأ عيوبها أن مالك الشقة، راي ماك جونسون، رجلٌ عنصري قال لي إنني إذا أقمتُ في شقته، فيجدر بي أن أتحاشى جادة غرينفيل، حيث يختلط فيها أناسٌ من شتى الأعراق ويجول فيها زنوج لا يخلو جيب أحدهم من مطواة.

قال لي: «لا أعادي الزنوج، لا يا سيدي. الرب هو الذي لعنهم فصاروا إلى ما صاروا إليه، ليس أنا. تعرف هذا، أليس كذلك؟».

- أظن أن هذا الجزء من الإنجيل فاتني.

ضيّق عينيه مرتاباً: «ما طائفتك؟ هل أنت ميثودي؟».

قلت: «نعم». بدا لي أن موافقته آمن من قول إنني لا أنتمي إلى أي طائفة.

- ينبغي أن تنضم إلى الكنيسة المعمدانية يا بُني. كنيسةنا ترحب بالقادمين الجدد. إذا أقمت في شقتي ربما يمكنك أن تأتي معي وزوجتي يوم أحدٍ ما.

- حسناً، ربما.

وافقته متمنياً أن أكون يوم الأحد في غيبوبة، أو ميتاً.

ثم عاد السيد جونسون إلى كتابه المقدس، تابع حديثه مبرراً التمييز العنصري بقصص من الإنجيل، وجاريته في هذره، قائلاً لنفسه إنني لا بد أن أختار شقة ما، لا يمكنني المكوث في فندق أدولفس مدة طويلة، وحاولت إقناع نفسي أن بوسعي تحمّل عنصرية صاحب الشقة، وأن هذه الآراء هي الشائعة في هذا الزمن، وعلى الأرجح سأجد العنصريين في كل مكان، لكنني لم أقتنع. قلت له: «سأفكر وأخبرك بقراري بعد يوم أو يومين يا سيد جونسون».

- يجدر بك ألا تتأخر يا بُني، هذه الشقة لن تظل متاحة لمدة طويلة. بورك يومك.

11

اليوم المبارك كان يوماً لاهباً آخر، والبحث عن شقة مجهود يسبّب العطش. بعدما انسحبت من محادثة راي ماك جونسون التثقيفية، أحسست برغبة في تناول جعة، وقررت تناول كوب في جادة غرينفيل. بما أن السيد جونسون حاول إثنائي عن الذهاب إلى ذلك الحي، فقد عقدت عزمي على تفقّده.

كان محقّقاً في أمرين: وجدت الشارع يجمع بين البيض والسود، واستشعرت غُناً كامناً فيه. لكنه نابض بالحياة. ركنت السيارة وتمشّيت، مررت بقراية عشرين حانة، وصالة سينما تعرض الأفلام متأخرة (جوار لوحتها الإعلانية علّقت راية مكتوب عليها: "تفضل بالدخول، المكان بارد بالداخل" ترفرف مع هواء تكساس الساخن المشبع برائحة النفط)، ونادي تعرّ يزعق مروّج له «فتيات، فتيات، فتيات، أفضل راقصات تعرّ في العالم! أفضل راقصات تعرّ ترونهن. هؤلاء السيدات ملساوات، أتعرفون ما أعنيه؟!». ومررت أيضاً بثلاثة أو أربعة محلات صرّف شيكات وقروض سريعة، أحدها اسمه فيث فاينانشل، أمامه لافتة

أرضية بارزة مكتوب عليها الثقة شعارنا، وسبورة مكتوب عليها بالأعلى
نسب الربح واحتمالات الفائزين، وبالأسفل للتسلية فقط. وحول المحل
رجال يعتمرون قبعات قش ويرتدون بناطيل بحمالات (مظهر لا يقدر
عليه سوى المقامرین المخضرمين)، يناقشون نسب الربح واحتمالات
الفائزين، بعضهم يحمل أوراق تفاصيل سباقات الخيل، وبعضهم يطلع
على قسم الرياضة بصحيفة مورننغ نيوز.

قلت مع نفسي: للتسلية فقط. أجل، صحيح. ولوهلة تخيلت كوشي
الشاطئي مشتعلًا في الليل، وألسنة اللهب تتصاعد نحو السماء المرصعة
بالنجوم فوق الخليج. للتسلية مثالبها، لا سيما تسلية المراهنات.

تدفقت الموسيقى وروائح الجعة من الأبواب المفتوحة، سمعتُ جيري
ليّ لويس يغني "هول لوتا شيكينغ غوين أون" من صندوق موسيقى،
وفيرلين هسكي يغني "ونغر أوف دوف" من المحل المجاور. عرضتُ
علي أربع مومسات رفقتهن، وعرض علي بائع متجول يبيع أغطية
إطارات سيارات وشفرات حلاقة ذات مقابض مبهرجة وأعلام ولاية
تكساس مكتوبًا عليها لا تعبت مع تكساس. شيء لا يُوصف.

اشتد إحساس الديجا فو المزعج بداخلي، إحساس وجود خطب
هنا كما كان الحال في السابق، وهذا أمر جنوني، لأنني لم يسبق لي
المجيء إلى جادة غرينفيل قط. لكنه كان إحساسًا، لا أملك له مبررات
عقلانية. وفجأة قررت صرف النظر عن الجعة، وعن استئجار شقة
السيد جونسون، مهما كانت جودة مكيف هوائه.

عندئذٍ كنت قد تجاوزت للتو حانة رديئة اسمها "وردة الصحراء"،
حيث يصدح مغني البلوز مدي ووترز من مشغل موسيقى. وعندما
استدرت لأعود إلى سيارتي، اندفع رجل خارجًا من الحانة، وتعثّر وسقط
على الرصيف، اندلعت ضحكات من داخل الحانة المعتمة، وزعقت امرأة:
«ولا تعد أبدًا، أيها الخصي التافه!». فتصاعدت ضحكات أكثر جدلاً.

رأيت الزبون المطرود ينزف من أنفه المائل إلى جانب على نحو ملحوظ، وأيضًا من كشط على جانب وجهه ممتد من صدغه إلى فكه، بدت عيناه جاحظتين مصدومتين، وقميصه خارج بنطاله متدليًا قريبًا من ركبتيه. تشبث بعمود إنارة ونهض بصعوبة، ثم حلق إلى كل ما حوله دون أن ينظر إلى شيء محدد.

تحركت نحوه خطوة أو خطوتين، لكن قبل أن أصل إليه، ظهرت امرأة من اللاتي عرضن علي رفقتهن، واقتربت متمائلة وهي تنتعل حذاء ذا كعب عال مستدق الطرف. إلا أنها لم تكن امرأة بالغة، بدا لي أن سنّها لم تتجاوز السادسة عشرة، عيناها نجلاوان وبشرتها ناعمة بلون القهوة. كانت مبتسمة، لكن ليس بلؤم، وعندما ترنح الرجل ذو الأنف الدامي أمسكت بذراعه قائلة: «مهلاً يا عزيزي، عليك أن تستريح قبل أن...».

رفع الرجل ذيل قميصه المتدلي، فرأيت عند طرف بنطاله الخشن مسدسًا ذا مقبض لؤلؤي، أصغر من مسدسي الذي اشتريته من محل ماشن للمستلزمات الرياضية، أقرب إلى لعبة. وكان سحّاب بنطاله نصف مفتوح، فلمحت سروالًا داخليًا قصيرًا عليه رسوم سيارات سباق حمراء. أتذكر هذا. سحب المسدس، وألصق فوهته بجذع المومس، وضغط الزناد. لكن لم يصدر سوى صوت خافت مكتوم، كصوت انفجار إصبع ألعاب نارية بداخل علبة معدنية. صرخت المرأة وجلست على الرصيف ويداها متشابكتان على بطنها.

«أطلقت النار علي!». بدا غضبها أشد من ألمها، لكن الدماء بدأت تتدفق من خلال أصابعها. «أطلقت النار علي أيها الحقيير، لماذا أطلقت النار علي؟».

لم يعبأ الرجل بها، بل سار وفتح باب وردة الصحراء. كنتُ ما أزال واقفًا عندما أطلق النار على المومس الجميلة اليافعة، لأنني تسمّرت من

الصدمة، والأهم لأن كل هذا حدث في غضون ثوان، ربما أطول من المدة التي استغرقها أوزوالد لقتل رئيس الولايات المتحدة، لكن ليس أطول كثيرًا.

زعم الرجل: «أهذا ما تريدينه يا ليندا؟ إذا كان هذا ما تريدينه، فسأمنحك ما تريدينه!».

وضع فوهة المسدس في أذنه وضغط الزناد.

12

طويت منديلي وضغطته بلطف على ثقب فستان الفتاة الأحمر. لم أعرف مدى سوء إصابتها، لكنها بدت معافاة إلى درجة تمكّنها من إطلاق سيل من ألفاظ لم تتعلمها من أمها على الأرجح (لكن مَنْ يدري؟). وعندما اقترب منها أحد الرجال المحتشدين إلى درجة أزعتها، زمجرت به: «لا تنظر إلى ما تحت فستاني أيها الفضولي اللقيط، عليك أن تدفع مقابل هذا».

سمعتُ شخصًا آخر: «هذا الوغد البائس مات وشبع موتًا». كان جاثيًا جوار الرجل الذي طُرد من وردة الصحراء. ثم سمعت عويل امرأة. وعويل صافرات سيارات الشرطة أيضًا. لاحظتُ إحدى السيدات اللاتي عرضن خدماتهن علي وأنا أتمشى في جادة غرينفيل، صهباء ترتدي بنطالًا قصيرًا، أشارت إليها لتتقرب، فلمست صدرها بحركة: مَنْ؟ أنا؟ وأومأت: نعم، أنت. قلت لها: «ثبّتي هذا المنديل على الجرح، حاولي إيقاف النزيف، علي أن أغادر».

ابتسمت لي ابتسامة باهتة ماكّرة وقالت: «ألا تريد الانتظار حتى مجيء الشرطة؟».

- لا. لا أعرف أيًا من هؤلاء الناس. إنني مجرد عابر.

جثت الصهباء على الرصيف بجوار الفتاة المصابة التي ما تزال تكيل السباب، وضغطت على المنديل المشبع بالدماء، وقالت لي: «يا عزيزي.. ألسنا كلنا مجرد عابرين؟».

13

جفاني النوم في تلك الليلة. كلما غشيني النعاس، أرى وجه راي ماك جونسون الصفيق المتعرق وهو يبرر ألقى عام من العبودية بمعتقدات سخيفة، فأجفل مستيقظًا، ثم أهدأ، وأكاد أنام... فأرى الرجل ذا السحاب المفتوح يقحم فوهة مسدسه في أذنه. أهذا ما تريدينه يا ليندا؟ ويتلاشى النوم مجددًا. ثم رأيت رجالًا راكبين سيارة سوداء يقذفون قنابل جازولين عبر نافذة منزلي في سنستد بوينت: إدواردو غوتيريز محاولًا التخلص مني. لماذا؟ لأنه لم يتقبل خسارة مبلغ كبير، وهذا كل شيء. سبب كافٍ له.

استسلمت أخيرًا ونهضت وجلست جوار النافذة، حيث يعمل مكيف هواء الفندق كادحًا. لا بد أن الليلة في مين باردة إلى درجة ظهور الصقيع على الأشجار، لكن هنا في دالاس ما زال الجو رطبًا وتبلغ درجة الحرارة خمسًا وسبعين درجة فهرنهايت في الثانية والنصف صباحًا.

قلت: «دالاس. ديرى». ناظرًا إلى الأسفل حيث شارع كوميرس الصامت، لم أر مبنى مستودع الكتب من مكاني، لكنه على مقربة، مسافة يمكن قطعها مشيًا.

«ديرى. دالاس».

أدركت أنني لا يمكنني المكوث. سأفقد صوابي إذا أمضيت ثلاثين شهرًا في دالاس. كم سينقضي من وقت قبل أن أبدأ رؤية كتابات غرافيتي على شاكلة سأقتل أمي عما قريب؟ أو ألمح تمثالًا ليسوع طافيًا في نهر ترينيتي؟ ربما تكون فورت وورث أفضل، لكنها قريبة من دالاس.

لماذا علي البقاء في أيّ منهما؟

خطرت لي الفكرة بُعيد الثالثة فجراً، خطرت لي واضحة قوية كأنها وحي. لدي سيارة رائعة، أصدّقكم القول إنني وقعت في حبها، وثمة وفرة في الطرق الجيدة السريعة في وسط تكساس، كثير منها بُنيت حديثاً. بحلول القرن الحادي والعشرين على الأرجح ستكون مخترقة بالزحام، لكن في 1960 تكاد أن تكون مهجورة. ثمة قوانين للحد من السرعة، لكنها لا تُطبّق. في تكساس حتى رجال شرطة الولاية يؤمنون بحرية إطلاق العنان لمحركات السيارات.

بمقدوري الخروج من الظل الخانق الذي أشعر به في هذه المدينة، بمقدوري أن أجد مكاناً أصغر وأقل إثارة للرغبة، مكاناً هواؤه غير مشبّع بالكراهية والعنف. في ضوء النهار قد أقول لنفسي إنني أتخيل هذه الأشياء، لكن في ظلام الفجر أجزم أنها حقيقية. لا ريب أنه يوجد أناس صالحوون كثيرون في دالاس، ألوف مؤلفة، الغالبية العظمى. لكن ثمة عنفاً كامناً في المدينة، يندلع أحياناً، كما حدث خارج ورده الصحراء.

بيفي-الليفي قالت عن ديري إن الأوقات السيئة قد ولّت. لم أكن متأكداً من ديري، وساورتني الشكوك نفسها بشأن دالاس، رغم أن أسوأ أيامها ما زال يبعد أكثر من ثلاث سنوات.

قلت مع نفسي: سأتنقل. جورج يريد مكاناً لطيفاً هادئاً ليعمل على كتابه، لكن بما أن الكتاب عن مدينة، مسكونة بأشباح، فعليه أن يتنقل، ليس كذلك؟ حتى يستلهم ما يكتبه.

لا عجب أنني استغرقت قرابة شهرين حتى أتخذ هذا القرار، كثيراً ما تكون أبسط إجابات الحياة هي التي يسهل إغفالها. عدت إلى الفراش واستغرقت في النوم فوراً.

في اليوم التالي قدت سيارتي جنوبًا مغادرًا دالاس عبر الطريق السريع رقم 77، وبعد ساعة ونصف وصلت إلى مقاطعة دِنهولم. ثم اتجهت غربًا عبر الطريق الولائي رقم 109، إذ أعجبتني اللوحة الإعلانية عند مفترق الطرق، كانت عليها صورة لاعب كرة قدم بطولي يعتمر خوذة ذهبية ويرتدي قميصًا رياضيًا أسود وسروالًا ذهبيًا ضيقًا، مكتوبًا عليها: دِنهولم ليونز، أبطال المقاطعة ثلاث مرات! والمتوقع فوزهم ببطولة الولاية عام 1960! لدينا قوة جيم!

لم أفهم معنى الجملة الأخيرة، لكن بالطبع كل مدرسة ثانوية لديها إشارات وعبارات سرية خاصة بها، فهذا ما يُشعر الفتية بالانتماء. وبعدما قطعت خمسة أميال في الطريق السريع رقم 109، وصلت إلى بلدة جودي. رأيت لافتة مكتوبًا عليها: جودي.. سُكانها 1280، مرحبًا أيها الغريب! سرت في شارعها الرئيسي الذي تحفُّه الأشجار، ورأيت مطعمًا صغيرًا على نافذته لافتة تقول: أفضل مخفوق حليب وشرائح بطاطس وبرغر في تكساس كلها! اسمه "مطعم آل". لا عجب.

ركنت السيارة في إحدى المساحات المائلة أمام المطعم، ودخلت، وطلبت طبق "برونغهورن الخاص"، اتضح لي أنه شطيرتي برغر بالجبن مع صلصة شواء، ويرافقه شرائح بطاطس ومخفوق حليب روديو، للزبون أن يختار الفانيلا أو الشوكولاتة أو الفراولة. لم تكن شطيرة البرونغهورن جيدة مثل شطيرة الفاتبرغر، لكن لا بأس بها، ووجدت شرائح البطاطس كما أحبها تمامًا، هشّة، ومالحة، ومقلية أكثر من اللازم قليلًا.

ثم اتضح لي أن صاحب المطعم اسمه آل ستيفنز، رجل نحيل متوسط العمر لا يشبه آل تمبلتون في شيء. لديه قصة شعر روكابيلي، وشارب يتخلله الشيب، ويعتمر قبعة ورقية مائلة فوق إحدى عينيه، ويتكلم بلكنة جنوبية ثقيلة. عندما سألته عن منازل للإيجار في بلدة جودي، ضحك وقال: «متوفرة. لكن إذا أردت عملاً، فالبلدة ليست مركزاً تجارياً. معظم الأعمال المتاحة ذات صلة بمزارع تربية الماشية. اعذرني، لكنك لا تبدو مثل رعاة البقر».

- كلاً. أشتغل في مجال الكتابة.
- حقاً؟! هل كتبت شيئاً يُحتمل أنني قرأته؟
- ليس بعد، ما زلت أحاول، كتبت نحو نصف رواية، وأبدى ناشران شيئاً من الاهتمام بما كتبت. أبحث عن مكان هادئ لأكمل كتابي.
- حسناً، جودي هادئة، بل أظننا سننال براءة اختراع الهدوء. إلا أنها تصير صاخبة في ليالي الجمعة.
- مباريات كرة القدم؟
- نعم سيدي. البلدة كلها تذهب لمشاهدتها. عند استراحة منتصف المباراة يزأرون جميعاً كالأسود، ثم يطلقون "صيحة جيم". يمكن سماعهم على بُعد ميلين. أمرٌ مُسل.
- من هو جيم؟
- جيم لادو، الظهير الرباعي. كانت لدينا فرق جيدة في الماضي، لكن لم يمر ظهير ربعي مثل لادو على أي فريق في دِنهولم. وهو ما يزال في السنة الأولى. الناس يتحدثون عن بطولة الولاية، لكنني أرى ذلك تفاؤلاً مفرطاً قليلاً، نظراً إلى المدارس الكبيرة في دالاس. لكن التمسك بشيء من الأمل لا يضير أحداً.
- عدا عن كرة القدم، كيف حال المدرسة؟

- جيدة جدًا. كثيرون كانوا متشككين إزاء نظام المدارس الموحدة في البداية، وكنتُ أحدهم، لكن اتضح لنا أنها فكرة جيدة. لديهم أكثر من سبعمئة طالب في هذا العام، بعضهم يركب الحافلة ساعة، لكن يبدو أنهم لا يمانعون، هكذا يتجنبون بعض الأعمال المنزلية على الأرجح. هل كتابك عن فتية المدارس الثانوية؟ مثل رواية غابة السُّبُورة؟ لأن ما من عصابات أو أي شيء من هذا القبيل هنا، هنا الفتية ما يزالون مؤدبين.

- لا، موضوعي مختلف. لديّ مدخرات، لكن أفكر في الحفاظ عليها مدة أطول قليلاً بالعمل مدرساً بديلاً، لا يمكنني التدريس بدوام كامل والكتابة أيضاً.

قال بنبرة احترام: «بالطبع لا يمكنك».

- شهادتي الجامعية من أوكلاهوما، لكن...

هزرت كتفي لأبَيِّن أن أوكلاهوما ليست في مستوى تكساس لكن لا يسعني فعل شيء سوى الأمل.

- عليك أن تتحدث مع ديكي سيمونز، إنه المدير، يأتي إلى هنا ليتناول العشاء في معظم الأمسيات، زوجته ماتت قبل عامين.

- يؤسفني سماع هذا.

- كلنا أسفنا له، إنه رجل لطيف، معظم الناس لطيفون في هذه الأنحاء يا سيد...؟

- أمبرسون. جورج أمبرسون.

- حسناً يا جورج، بلدتنا هادئة، باستثناء ليالي الجمعة، ومع هذا نحن أفضل من بلدات كثيرة. ربما تتعلم منا الزئير كأسد في أثناء المباريات.

- ربما.

- عُد عند السادسة تقريبًا، هذا هو موعد مجيء سيمونز عادةً.
- وضع ذراعيه على نضد البيع ومال فوقهما، وسألني: «أتود سماع معلومة سرية؟».
- بالطبع.
- على الأرجح سيأتي المدير مصطحبًا صديقته، السيدة كوركُران، أمينة مكتبة المدرسة. ظل يتودد إليها منذ الكريسماس الماضي تقريبًا، وسمعتُ أن ميمي كوركُران هي المديرة الفعلية في مدرسة دِنهولم الموحدة، لأنها تديره هو. أتوقع لك طريقًا ممهّدًا إذا أثرت إعجابها.
- سأخذ ذلك بعين الاعتبار.

15

أمضيت أسابيع في البحث عن شقة في دالاس، ثم انتهى بي المطاف إلى شقة محتملة واحدة، واكتشفت أن مالكة رجل لا أرغب في الاستئجار منه. ثم لم يمض على وصولي إلى جودي أكثر من ثلاث ساعات ووجدت مسكنًا بدا لي جيدًا، ليس شقة، بل منزلًا صغيرًا. أخبرني وكيل العقارات أنه كان معروضًا للبيع، لكن الزوجين اللذين يملكانه مستعدان لتأجيريه للشخص المناسب. كانت توجد به باحة خلفية مظلة بأشجار الدردار، ومرأب للصنلاينر... ومكيف هواء مركزي. ورأيت أن مبلغ الإيجار معقول نظرًا إلى المزايا.

كان وكيل العقارات، فريدي كوينلان، فضوليًا بشأنني، أظنه تعجب من لوحة سيارتي التي تعود إلى ولاية مين وأعجب بها، بالطبع. أفضل ما في عثوري على المنزل أخيرًا كان إحساسي بأنني خرجت من الظل الذي جثم علي في دالاس، وديري، وسنست بوينت حيث استحال منزلٌ استأجرته رمادًا.

سألني كوينلان: «ما رأيك؟».

- مبدئيًا أريده. لكن لا يمكنني حسم أمري اليوم، لا بد أن أقابل شخصًا أولًا. لا أظنني سأجد مكتبك مفتوحًا غدًا، أليس كذلك؟

- في أيام السبت أعمل حتى الظهر، ثم أذهب إلى المنزل وأشاهد مباراة الأسبوع على التلفاز. يبدو أن بطولة كرة البيسبول ستكون عظيمة هذا العام.

- أجل، قطعًا.

مد كوينلان يده: «سررت بلقائك يا سيد أمبرسون. أراهن على أنك ستحب جودي، الناس طيبون هنا، آمل أن تطيب إقامتك».

صافحته قائلاً: «وأنا أيضًا».

كما قال آل سابقًا، التمسك بشيء من الأمل لا يضير أحدًا.

16

مساء ذلك اليوم عدت إلى مطعم آل وقدمت نفسي لمدير مدرسة دنهولم الموحدة وصديقه أمينة المكتبة، ودعياني للجلوس معهما.

كان ديكي سيمونز طويلًا أصلع في الستينات من عمره، وكانت ميمي كوركران تضع نظارة ولديها سُمرة، بدت عيناها الزرقاوان خلف عدستي نظارتها حادّتين، وظللتا تنظران إلي من أعلى إلى أسفل بحثًا عما يمكن أن يشي بي. كانت تمشي بمساعدة عصا، تحملها وتؤرجحها بحذق أقرب إلى اللامبالاة والازدراء. واستطرفت أن كليهما يحمل راية دنهولم المثلثية، ويضع زر زينة مكتوبًا عليه لدينا قوة جيم! كانت ليلة جمعة في تكساس.

سألني سيمونز عما إذا أعجبتني جودي (أعجبتني جدًّا)، ومنذ متى أقيم في دالاس (منذ أغسطس)، وعما إذا كنت أستمع بكرة قدم المدارس

الثانوية (نعم بالطبع). أقرب سؤال إلى موضوعنا الجوهري كان سؤاله عن مدى ثقتي في قدرتي على «ضبط» الطلاب، لأن كثيرًا من الأساتذة البدلاء تواجههم هذه المشكلة.

قال: «أولئك الأساتذة الشبان يرسلون الطلاب المشاغبين إلى مكتبي كأني ليس لدي أي عمل مهم». ثم أخذ قضمة من شطيرة البرونغهورن برغر.

قالت ميمي: «الصلصة يا ديكي». ومذعنًا مسح ديكي طرف فمه بمنديل ورقي التقطه من صندوق المناديل على الطاولة.

وفي تلك الأثناء واصلت ميمي جَرْد مكوناتي: معطفي الرياضي، وربطة عنقي، وقصة شعري، وحذائي الذي أَلقت عليه نظرة سريعة عندما اقتربتُ من طاولتهما. ثم سألتني: «هل لديك أي رسالة توصية يا سيد أمبرسون؟».

- نعم سيدتي، عملت أستاذًا بديلًا في مقاطعة ساراسوتا.

- وماذا عن مين؟

- لم أعمل هناك كثيرًا، لكن درّست ثلاثة أعوام بانتظام في وسكونسن قبل تقديم استقالتني حتى أتفرغ للعمل على كتابي، أو بقدر ما تسمح به أحوالي المادية.

كانت لدي رسالة توصية من مدرسة سانت فنسنت في ماديسون. رسالة جيدة، لأنني كتبتها بنفسني. وبالطبع إذا تحقق منها أحد فسينتهي أمري، ديكي سيمونز لن يفعلها، لكن ربما تفعلها ميمي حادة العينين كثيرة التعرض للشمس.

- وما هو موضوع روايتك؟

هذا أيضًا قد يُنهي أمري. لكنني قررت أن أكون صادقًا، بقدر مستطاعي نظرًا إلى ظروفني المعقدة الغريبة.

- سلسلة جرائم قتل وأثرها في المجتمع الذي تقع فيه.

قال ديكي: «يا إلهي!».

ربت ميمي معصمه قائلة: «اسكت. تابع يا سيد أمبرسون».

- في البداية كان موقع الأحداث مدينة خيالية بولاية مين، أسميتها داوسن، لكن لاحقاً رأيت أن القصة ستكون أكثر واقعية إذا وقعت أحداثها في مدينة حقيقية، مدينة أكبر، فكرت في تامبا، لكن لم أرها مناسبة، بطريقةٍ ما...

حرَّكتُ يدها كأنها تذُب تامبا بعيداً وقالت: «باهتة، والسياح فيها كثيرون. أظنك كنتَ تبحث عن مكان معزول قليلاً».

سيدة ذكية. عرفتُ عن كتابي ما لم أكن أعرفه.

- صحيح. لذا قررت أن أجرب دالاس، أظنها المدينة المناسبة، لكن...

- لكنك لم ترغب في العيش فيها؟

- بالضبط.

قالت: «فهمت». وراحت تحرِّك السمك المقلي على طبقها. وكان ديكي ينظر إليها وعلى وجهه تعابير صدمة طفيفة، أيّاً كان ما يريده في خريف عمره، بدت ميمي قادرة على تقديمه له. وهذا ليس غريباً، أحياناً كل شخص يحب شخصاً في وقتٍ ما، كما سيقول دين مارتن بحكمة بعد بضع سنوات. «وفي أوقات فراغك ماذا تحب أن تقرأ يا سيد أمبرسون؟».

- كل شيء تقريباً.

- هل قرأت الحارس في حقل الشوفان؟

قلت مع نفسي: أـأوه.. سؤال مفخخ.

- نعم سيدتي.

لم تحبّذ مخاطبتها بسيدتي: «خاطبني بميمي، حتى فتية المدرسة يخاطبونني بميمي، لكنني أصر على "السيدة ميمي" للالتزام بالأدب. ما رأيك في صيحة سالينجر؟».

ترددت. أكذب أم أقول الحقيقة؟ لكنه لم يكن سؤالاً خطيراً. رأيت أن هذه المرأة قادرة على كشف الكذب بسهولة.

- أرى أن الرواية تسهّب في الحديث عن مدى سوء عقد الخمسينيات، وأن الستينيات يمكن أن تكون أفضل كثيرًا، إذا لم يفقد رفاق هولدن كوفيلد في أمريكا سخطهم وشجاعتهم.

تمتمت: «اممم». وواصلت تحريك قطع السمك، لكنها لم تأكل منه شيئاً حسبما لاحظت. لا عجب أنها بدت كأنما يُمكن ربط خيط من ظهر فستانها وإطلاقها في الهواء كطائرة ورقية. «هل ترى أنها ينبغي أن تكون ضمن كتب مكتبة المدرسة؟».

تنهّدت، وخطر لي أن فرصة العيش والتدريس في بلدة جودي بولاية تكساس قد ذهبت أدراج الرياح.

- في الحقيقة يا سيدتي - أقصد ميمي - نعم، أرى ذلك. لكن أرى أيضًا ألا يُسمح بقراءته إلا لتلاميذ بعينهم، تحت إشراف أمناء المكتبات.

- أمناء المكتبات؟ ليس الآباء؟

- لا يا سيدتي، ذلك منحدر زلق.

افتتر ثغر ميمي كوركران عن ابتسامة عريضة، والتفتت إلى عشيقها: «ديكي، هذا الرجل لا تليق به قائمة الأساتذة البدلاء، ينبغي أن يكون أستاذًا لدينا بدوام كامل».

- ميمي...

- أعرف، قسم اللغة الإنجليزية مكتمل، لكن إذا بقي معنا مدة، فربما يمكنه أن يحل محل ذلك الأبله فيل بيتمان بعدما يتقاعد.
- ميمز! ليس من اللباقة قول هذا.

قالت: «أجل، لكنها الحقيقة». وغمزت لي. «أرسل إلى ديكي توصياتك من مدرسة فلوريدا يا سيد أمبرسون، ستفي بالغرض. أو يستحسن أن تجلبها بنفسك، الأسبوع القادم. بدأ العام الدراسي، ولا داعي لإهدار الوقت».

قلت: «خاطبيني بجورج».

قالت: «أجل، حسنًا». دفعت طبقها بعيدًا عنها، والتفتت إلى ديكي: «هذا الطعام فظيع، لماذا نأكل هنا؟».

- لأنني أحب البرغر الذي يقدمونه وأنت تحبين مخفوق الفراولة.
- أوه، أجل، مخفوق الفراولة، إليّ به. سيد أمبرسون، يمكنك البقاء لمشاهدة مباراة كرة القدم؟

قلت: «ليس الليلة، علي أن أعود إلى دالاس. ربما أحضر مباراة الأسبوع القادم، إذا شئتما».

قال ديكي سيمونز: «ما دامت ميمي معجبة بك، فأنا أيضًا معجب بك. لا أستطيع أن أضمن لك العمل يومًا كل أسبوع، لكن أحيانًا قد نحتاج إليك في يومين أو ثلاثة كل أسبوع. ستترتب الأمور».

- بالتأكيد.

- يؤسفني أن راتب الأساتذة البلاء ليس كثيرًا...

- أعرف ذلك يا سيدي. أبحثُ عن وسيلة تكمل دخلي فحسب.

قال: «رواية الحارس التي تحدثت عنها لن تدخل مكتبتنا أبدًا». تكلم ديكي وهو يلقي نظرة جانبية على عشيقته مزمومة الشفتين: «مجلس

إدارة المدرسة لن يسمح بذلك. وميمي تعرف هذا». أخذ قفزة أخرى كبيرة من شطيرة البرغر.

قالت ميكى كوركران: «الزمن يتغير». وأشارت إلى صندوق المناديل ثم إلى جانب فم ديكى: «ديكى. الصلصة».

17

اقترفت خطأ في الأسبوع التالي، ما كان ينبغي لي اقتترافه. ترتيب رهان كبير آخر كان ينبغي أن يكون آخر ما يمكن أن أفكر به بعد كل ما حدث لي. ستقولون إنني كان يجدر بي توخي مزيد من الحذر.

كنت مدرِّكًا المخاطرة، لكنني قلقْتُ بشأن المال. أتيت إلى تكساس ومعى مبلغ أقل من ستة عشر ألف دولار، جزء منه كان باقى مدخرات آل، لكن معظمه حصيلة رهانين كبيرين جدًّا، أحدهما ربَّته فى ديرى، والآخر فى تامبا. لكن إقامتى فى فندق أدولفس قرابة سبعة أسابيع كلَّفَتْنِي أكثر من ألف دولار، الاستقرار فى بلدة جديدة سيكلفنى أربعمئة أو خمسمئة دولار على الأقل، وعدا عن تكاليف الطعام والإيجار واللوازم الأخرى، سأحتاج إلى مزيد من الملابس، ملابس أفضل، حتى أبدو جديرًا بالاحترام فى الصفوف الدراسية. سوف أقيم فى جودى عامين ونصف قبل أن يحين موعد تسوية أمر لى هارفى أوزوالد. لن تكفينى أربعة عشر ألف دولار. وإذا تساءلتم عن أجر الأستاذ البديل، فهو خمسة عشر دولارًا وخمسون سننًا فى اليوم. مَرَحَى!

حسنًا، ربما بمستطاعى تدبُّر أمرى بأربعة عشر ألفًا، إضافة إلى ثلاثين وأحيانًا خمسين دولارًا أسبوعياً من التدريس. لكن سيتعيَّن علىى الحفاظ على صحتى وتجنُّب أى حوادث، وهذه أولوية قصوى لا تحتمل المجازفة. لأن الماضى ماكر علاوة على عناده، يقاوم بكل ما أوتى من قوة. وصحيح ربما أثَّر الجشع أيضًا فى قرارى، وإذا أثَّر فعلاً، فالسبب

ليس حب المال نفسه بقدر ما هو معرفتي التي تبعث النشوة بقدرتي على هزيمة مكاتب الرهانات التي لا يمكن هزيمتها غالبًا، متى ما أردت. أفكر الآن: إذا كان آل قد جمع معلومات وافية عن الفائزين بكل مباريات البيسبول، ومباريات كرة القدم، وسباقات الخيول...

لكنه لم يفعل.

أفكر الآن: إذا لم يذكر فريدي كوينلان لي أن بطولة البيسبول ستكون عظيمة هذا العام...

لكنه فعل.

وذهبتُ إلى جادة غرينفيل.

قلت لنفسي إن كل أولئك المقامرِين الذين يعتمرون قبعات قش الذين رأيتهم واقفين أمام محل فيث فاينانشال (حيث "الثقة شعارنا") يراهنون في البطولة، وبعضهم يراهن بمبالغ ضخمة. قلت لنفسي إنني سأكون واحدًا من بين كثيرين، وإن رهانًا بمبلغ متوسط من جورج أمبرسون -الذي سيزعم أنه يعيش في شقة جميلة من طابقين كانت مرأب في شارع بلاكويل هنا في دالاس، في حال تقصَّى شخص عني- لن يلفت انتباه أحد. قلت لنفسي، سحَقًا، حتى الذين يديرون فيث فاينانشال على الأرجح لا يعرفون سنيور إدواردو غوتيريز.

سُفْتُ لنفسي كثيرًا من المبررات، وكلها تتلخَّص في أمرين: أن المراهنة آمنة تمامًا، وأن من المعقول أن أرغب في مزيد من المال رغم أنني لدي ما يكفي لمعيشتي في الوقت الراهن. تفكير غبي. إلا أن الغباء أحد أمرين نراهما بوضوح عندما نعيد التفكير في قراراتنا السابقة. الأمر الآخر هو الفرص الضائعة.

في الثامن عشر من سبتمبر، قبل أسبوع من بداية بطولة العالم، ذهبت إلى فيث فاينانشل، وبعد مساومات راهنت بستمئة دولار على فوز بيتسبرغ بايرتس على اليانكيز في المباراة السابعة. وقبلت بنسبة اثنين إلى واحد، نظرًا إلى مدى ترجيح فوز اليانكيز. في اليوم التالي لتسجيل بيل مازيروسكي نقطة الفوز غير المتوقعة ليفوز بيتسبرغ بايرتس بالبطولة، قُدت سيارتي عائداً إلى دالاس وجادة غرينفيل. أظنني إذا وجدت فيث فاينانشل خالياً، لُعدت أدراجي إلى جودي... أو ربما هذا ما أقوله لنفسي الآن، لست متأكداً.

وجدت صفًا من المراهنين ينتظرون قبض أموالهم، وانضمت إليهم، كانوا حُلُم مارتن لوثر كينغ وقد تحقَّق: خمسون في المئة سود، وخمسون في المئة بيض، سعادتهم مئة في المئة. معظمهم خرجوا حاملين بضع أوراق من فئة الدولارات الخمسة أو ورقتين من فئة العشرة، لكن رأيت بعضهم يحسب أوراقًا من فئة الدولارات المئة. إذا قرر لصٌ مسلح السطو على فيث فاينانشل في ذلك اليوم، لَغَنِمَ مغنمًا كبيرًا.

كان المسؤول عن توزيع النقود قصيرًا قويًا ممتلئ الجسم، ويضع نظارة خضراء، سألني السؤال الأول المعهود («هل أنت شرطي؟ إذا كنت شرطيًا، عليك إبراز إثبات هويتك»)، وعندما أجبته بالنفي، سألني عن اسمي وطلب إلقاء نظرة على رخصة قيادتي، كانت جديدة، تلقيتها عبر البريد قبل أسبوع، أخيرًا أضفت إثبات هوية من تكساس إلى مجموعتي. وحرصت على وضع إبهامي فوق عنواني الذي يشير إلى جودي.

دفع لي ألفًا ومئتي دولار، فأقحمتها في جيبي وسرت سريعًا إلى سيارتي، لم أسترخِ إلا عندما وصلت إلى الطريق السريع رقم 77 وبدأت دالاس تتلاشى خلفي وجودي تقترب إثر كل دورة من عجلات سيارتي.

19

سنقفز في الزمن قفزة أخرى. (إذا فكرتم قليلاً فستدركون أن الحكايات أيضاً فيها جحور أرانب). لكن أولاً ينبغي أن أروي حدثاً آخر وقع عام 1960.

فورت وورث. السادس عشر من نوفمبر 1960. كينيدي رئيس مُنتخب منذ نحو أسبوع. تقاطع شارعي بالينغر وويست سيفنث. الجو بارد وغائم. السيارات تنفث دخاناً أبيض. مذيع نشرة الأحوال الجوية في محطة إذاعة كيه إل آي إف («كل الأغاني الرائجة، طوال الوقت!») تنبأ بأمطار ربما تصحبها ثلوج خفيفة بحلول منتصف الليل، ومحذراً السائقين على الطرق السريعة الذين يطربون بأغاني الروك أند رول.

كنت أرتدي معطفاً من جلد غير مدبوغ، وأعتمر قبعة ذات لبدتين يغطيان أذني، وأجلس على مقعد أمام مبنى اتحاد مُربي الماشية في تكساس، ناظراً إلى شارع ويست سيفنث. كنت جالساً هناك منذ ساعة تقريباً، لم أتوقع أن زيارة الشاب لوالدته ستستغرق مدة أطول من هذه، بحسب ملاحظات آل تمبلتون، جميع أبنائها الثلاثة انصرفوا عنها في أقرب وقت ممكن. كنت آمل أن تخرج والدته معي من المبنى الذي فيه شقتها، التي عادت إليها مؤخراً بعدما أمضت بضعة أشهر في واكو، حيث كانت تعمل "رفيقة سيدات" في المنازل.

كوفئتُ على صبري. فُتح باب مبنى الشقق المتواضعة وخرج رجل نحيل يحمل شَبْهاً شديداً بليّ هارفي أوزوالد، أمسك الباب لامرأة ترتدي معطفاً من قماش صوفي مُقلَّم وتنتعل حذاء ممرضات أبيض سميكاً، كانت أقصر منه يبلغ رأسها كتفیه، لكن قوية البنية، وشعرها الرمادي معقود بالخلف، كاشفاً عن وجهها الذي غزته التجاعيد مبكراً،

وتضع حول عنقها منديلًا أحمر يتماشى مع لون أحمر الشفاه الذي يُبرز شفَتين صغيرتين بدتا ممتعضتين مولعتين بالخصام، شفَتَي امرأة تعتقد أن العالم بأسره ضدها ولديها أدلة تثبت هذا جمعتها من سنوات حياتها الطويلة. سار شقيق لي هارفي أوزوالد سريعًا عبر الممر الخرساني، وهرولت المرأة إليه وأمسكت بمعطفه الخفيف، فاستدار إليها على الرصيف، بدا لي أنهما يتجادلان، لكن المرأة تكلمت معظم الوقت، وهزّت إصبعها أمام وجهه. لم أستطع معرفة موضوع التوبيخ، إذ كنت على بعد مربعين سكنيين تقريبًا. ثم استأنف الشاب السير نحو تقاطع شارع ويست سفنث وجادة سَمِت، كما كنتُ أتوقع. كان الشاب قد جاء راكبًا حافلة، وهناك كانت أقرب محطة.

لبثت المرأة واقفة في مكانها هنيهة، كأنها غير قادرة على اتخاذ قرار. قلت مع نفسي: هيا أيتها الأم، لن تتركه يفلت منك بهذه السهولة، أليس كذلك؟ إنه أمامك على بعد أقل من مربع سكني، لي اضطر إلى السفر إلى روسيا ليبعد عن تلك الإصبع المهتزة.

لاحقته، وعند اقترابهما من ركن الشارع رفعتُ صوتها فسمعتها بوضوح: «توقف يا روبرت، لا تسرع هكذا، لم أكمل كلامي معك!».

نظر فوق كتفه لكنه واصل السير، لحقتُ به عند محطة الحافلة، وراحت تجذب كُم معطفه حتى التفت إليها. فاستأنفت الإصبع اهتزازها. سمعتُ عبارات متقطعة: وعدتني، وأعطيتك كل شيء، و-أظن- من أنت حتى تحكُم علي.

لم أر وجه أوزوالد لأنه كان يوليني ظهره، لكن كتفيه المتهذلتين أفصحتا عن الكثير. استبعدتُ أن تكون هذه أول مرة تلاحقه فيها والدته في الشارع وهي تهذر موبّخة، غير مكترثة بالمتفرجين. وضعتُ يدها على صدرها بحركة استعطاف درامية.

أقحم أوزوالد يده في جيبه الخلفي وأخرج محفظته، وأعطاهها ورقة نقدية، حشرتها في محفظتها دون أن تنظر إليها وشرعت في السير عائدة إلى مبنى الشقق، وعندئذٍ تذكرتُ أمرًا آخر واستدارت إلى ابنها مجددًا. سمعتها بوضوح. وصلني صراخها وأنا على بعد خمس عشرة أو عشرين ياردة منهما، صوت حاد مثل كشط أظفار على سبورة من حجر الأردواز.

- واتصل بي إذا سمعت خبرًا عن ليٍّ مجددًا، هل تسمعني؟ ما زال لدي الهاتف المشترك، جارتي بالطابق الأسفل تتحدث عبره طوال الوقت، تكلمتُ معها، وقلت لها ما يجول في رأسي، قلت لها...
مر رجل جوارها، وضع إصبعه في إحدى أذنيه على نحو مسرحي، مبتسمًا. لست متأكدًا مما إذا رأيته، لكنها لم تعبأ به، وقطعًا لم تعبأ بآلم الإحراج البادي على وجه ابنها.

- قلت لها: "أيتها السيدة سايكس، لست الوحيدة التي تحتاج إلى الهاتف، لذا سأشرك إذا اختصرت مكالماتك. وإذا لم تفعلني هذا طواعية، فربما أضطر إلى الاتصال بممثل شركة الهاتف ليُرغمك".
هذا ما قلته. اتصل بي إذن يا روب. تعرف مدى رغبتني في سماع خبر عن ليٍّ.

عندئذٍ وصلت الحافلة، وعند إبطاء سرعتها قريبًا من المحطة، رفع روبرت صوته حتى يُسمع في خضم ضجيج المكابح الهوائية: «إنه شيوعي لعين يا أمي، ولن يعود إلى الديار. تصالحي مع هذه الحقيقة». زعقت: «اتصل بي!». تصلب وجهها الصغير المكفهر، ووقفت مباعدة ما بين ساقيها، كملاكمتأهب لتلقي لكمة، أي لكمة، وكل لكمة. وبرقت عيناها خلف نظارتها ذات الإطار الأسود المرقط. كان منديلها معقودًا مرتين أسفل ذقنها. عندئذٍ بدأ المطر يتساقط، لكنها لم تكثرث،

أخذت نفسًا وارتفع صوتها قريبًا من الصراخ: «يجب أن أسمع من ابني العزيز، هل سمعتني؟».

اندفع روبرت أوزوالد صاعدًا سلم الحافلة دون أن يرد عليها، ثم تحركت الحافلة مبتعدة وسط ضجيج ودخان أزرق، وحالما ابتعدت أشرق وجه المرأة بابتسامة، لكن أثر الابتسامة على وجهها لم أتوقعه: جعلتها تبدو أصغر سنًا وأقبح في آنٍ واحد.

مر جوارها رجل، لم يرتطم بها أو حتى يلمسها، حسبما رأيتُ، لكنها انتهزته بحدة: «انتبه لطريقك! هذا الرصيف ليس ملكك!».

سارت مارغريت أوزوالد عائدة نحو شقتها. وعندما استدارت بعيدًا عني كانت ما تزال مبتسمة.

قدت سيارتي عائداً إلى جودي عصر ذلك اليوم، مضطرباً ومستغرقاً في التفكير. لن أرى أوزوالد إلا بعد سنة ونصف، وقد ظللت عازماً على إيقافه، لكن بدأت منذ الآن أحس بتعاطف معه أقوى من تعاطفي مع فرانك دننغ.

الفصل الثالث عشر

1

الساعة السابعة وخمس وأربعون دقيقة مساء يوم 18 مايو 1961، وضوء غسق تكساس الطويل يسقط على باحتي الخلفية. النافذة مفتوحة، والستائر ترفرف مع نسيم خفيف. وعلى المذيع تروي شونديل يغني نِس تايم. كنتُ جالسًا فيما كانت غرفة نوم المنزل الثانية والآن صارت مكتب عملي، والمكتب الذي أجلس إليه جلبته من المدرسة الثانوية عندما وجدته مهملاً، كانت إحدى سيقانه قصيرة، وسويتها بقطعة خشب. وألتي الكاتبة كانت ماركة ويبستر محمولة. كنتُ أراجع أول مئة وخمسين صفحة من روايتي، مكان القتل، لأن ميمي كوركوران ما فتئت تزعجني بإلحاحها على قراءتها، أدركتُ أن ميمي من نوع الأشخاص الذين لا يمكن التملُّص منهم بالأعذار مدة طويلة. كان العمل يسير على ما يرام. لم تواجهني مشكلة في تحويل ديري إلى بلدة داوسن الخيالية في مسودتي الأولى، وتحويل داوسن إلى دالاس كان أسهل. كنت قد بدأت إدخال التغييرات لا لشيء سوى أن تدعم قصتي عندما أسمح لميمي بقراءتها أخيرًا، لكن الآن بدت التغييرات مهمة جدًا وحتمية أيضًا. بدا لي أن الكتاب أراد أن يكون عن دالاس منذ بداية عملي عليه.

رن جرس الباب. وضعت ثقلاً لتثبيت الأوراق على صفحات مخطوطتي حتى لا تتطاير، وخرجت لأرى من هو زائري. أتذكر كل هذا

بوضوح: الستائر المتراقصة، والحجر النهري الأملس الذي أستعمله ثقلاً لتثبيت الأوراق، وأغنية "نِس تايم" على المذياع، وضوء مساء تكساس، الذي صرت أحبه. ينبغي أن أتذكر. عندئذ كنت قد توقفت عن العيش في الماضي وبدأت العيش فحسب.

فتحت الباب فوجدت مايكل كوسلو، قال لي منتحبًا: «لا أستطيع يا سيد أمبرسون، لا أستطيع فحسب».

قلت: «حسنًا، تفضل بالدخول يا مايك، فلنتحدث بروية».

2

لم تفاجئني زيارته. كنتُ مسؤولًا عن قسم الدراما الصغير بثانوية ليسبون لخمس سنوات قبل ارتحالي إلى حقبة التدخين الكُوني، وقد رأيت كثيرًا من مواقف رهبة المسرح في تلك السنوات. إخراج المسرحيات التي يؤديها ممثلون مراهقون كاللعب بثلاثة برطمانات مليئة بالنتيروغليسرين بقذفها في الهواء والتقاطها تباعًا، أمر مُبهج وخطير. رأيت فتيات سريعات التعلُّم ورائعات الأداء في التدريبات يتسمرن تمامًا على خشبة المسرح، ورأيت فتية صغارًا خجولين يتألقون ويقفون شامخين حالما يقولون عبارة تُضحك الجمهور. أشرفت على ممثلين متوسطي الموهبة وآخرين لامعين. لكن لم أر أحدًا مثل مايك كوسلو. يبدو لي أن كثيرًا من مشرفي أقسام الدراما والمسرح في الجامعات والمدارس الثانوية لم يمر عليهم فتى مثله.

كانت ميمي كوركران فعلاً تدير مدرسة دنهولم الثانوية الموحدة، وهي التي استدرجتني إلى تولي الإشراف على مسرحية الطلاب عندما انتقل ألفي نورتن، أستاذ الرياضيات الذي كان يشرف على المسرحيات سابقًا، إلى هيوستن لتقلي العلاج إثر تشخيص مرضه باللوكميما النخاعية الحادة. حاولت أن أرفض متعللاً بعملتي على كتابي الذي

يتطلب الذهاب إلى دالاس كثيرًا، لكنني لم أذهب كثيرًا في شتاء وبداية ربيع عام 1961، وقد عرفت ميمي هذا، لأنها كلما احتاج ديكي إلى أستاذ لغة إنجليزية بديل في ذلك النصف الأول من العام الدراسي، كانت تجدني متاحًا دومًا. أما بشأن غرضي الحقيقي من الذهاب إلى دالاس، كنت أزجي الوقت فحسب. لي كان ما يزال في منسك، وقريبًا سيتزوج مارينا بروساكوفا، الفتاة ذات الفستان الأحمر والحذاء الأبيض.

قالت ميمي لي: «لديك متسع من الوقت». أسندت قبضتي يديها إلى وركيها غير الموجودين، كانت صارمة في ذلك اليوم. وأردفت: «وستنال أجرًا مقابل وقتك».

قلت: «أوه، أجل، استعلمت عن الأجر من ديكي. خمسون دولارًا».

- وماذا إذن؟

- لا عليك يا ميمي. وضعي المادي جيد في الوقت الراهن، هَلَّا تركتني أكتفي بهذا القدر؟

لا، كان ذلك متعذرًا. السيدة ميمي كانت بلدوزر بشريًا، وعندما تواجه شيئًا يأبى الترحُّح، تخفض شفرتها وتضاعف قوتها. قالت إن مسرحية الطلاب ستُلغى من دوني، لأول مرة في تاريخ المدرسة. سيكون الآباء محبطين، وسيكون مجلس إدارة المدرسة محبطًا. وأردفت عاقدةً حاجبها: «وأنا سأكون مفجوعة».

قلت: «لا سمح الرب يا ميمي. أقول لك، إذا سمحت لي باختيار المسرحية، فسأوافق على إخراجها، أعدك بأنها لن تكون مثيرة للجدل إلى درجة مفرطة».

تلاشى عبوسها وحلَّت محلّه ابتسامة ميمي كوركران المشرقة التي تذيب ديكي سيمونز دومًا، وقالت: «ممتاز! مَنْ يدري؟ ربما تعثر على ممثل مسرحي عبقري في أروقة مدرستنا».

قلت: «أجل، وربما تتعلم الخنازير الصَّفير».

لكن الحياة تكون هزلية أحيانًا، فعلاً عثرت على ممثل مسرحي عبقرى، ذي موهبة فطرية، والآن جالس في صالة معيشتي قبل ليلة من العرض الأول من بين أربعة عروض، شاغلًا مساحة الأريكة كلها تقريبًا (انحنتُ بتواضع تحت وزنه البالغ مئتين وسبعين رطلًا)، منتحبًا بلا انقطاع. مايك كوسلو. واسمه لينى سمول فى مسرحية جورج أمبرسون المقتبسة من رواية عن الفئران والرجال لجون ستاينبك والمعدلة لتناسب طلاب المدارس الثانوية.

إذا نجحت فى إقناعه بالمجيء غدًا.

3

فكرت فى مناولته مناديل ورقية لكن رأيت أنها لن تفي بالغرض، فجلبت له بدلًا منها ماسحة أطباق من المطبخ. فرك وجهه بها، وتمالك نفسه قليلًا، ثم نظر إليّ مفجوعًا. رأيت عينيه محتقنتين بالدماء. لم يبدأ البكاء عند اقترابه من باب منزلي، بل بدا كأنه ظل يبكي طوال العصر.

- حسنًا يا مايك، فهمني.

- كل أفراد الفريق يسخرون منى يا سيد أمبرسون، المدرب بدأ يلقيّني بكلاك غابل، والآن جميعهم يطلقون عليّ هذا اللقب، حتى جيمي.

قصّد جيم لادو، الظهير الربيعي اللامع فى الفريق وصديق مايك الحميم.

لم يفاجئني المدرب بورمان، فهو عدواني فظ لا يروقه انشغال لاعبه بأي أستاذ آخر سواء فى أثناء موسم كرة القدم أو قبله. ومايك نُعت بأوصاف أسوأ. فى أثناء مراقبتي الصالة سمعت أنه يقال له مايك البربري، وجورج الغابة، وغودزيلا. كان مايك يتجاهل الألقاب ضاحكًا. وردة الفعل اللامبالية هذه إزاء السخرية والإساءات ربما تكون أعظم

هبات الفتية ضخام الحجم. بطوله البالغ ستة أقدام وسبع بوصات ووزنه البالغ مئتين وسبعين، جعلني مايك أبدو مثل ميكى روني.

كان يوجد نجم واحد فقط في فريق ليونز لكرة القدم، وهو جيم لادو. أليس لديه لوحة إعلانية خاصة به عند تقاطع الطريق السريع رقم 77 والطريق رقم 109؟ لكن إذا كان ثمة لاعب واحد له الفضل في نجومية جيم، فهو مايك كولسو، الذي يعتزم التوقيع لفريق تكساس أيه آند إم حالما ينهي عامه الأخير بالمدرسة الثانوية. سيصبح لادو لاعبًا لفريق ألاباما كرمسون تايد (هو ووالده سيؤكدان لكم ذلك). لكن إذا طُلب مني اختيار اللاعب الوحيد الذي يمكنه أن يصبح محترفًا، فسأراهن على مايك. أعجبني جيم، لكنه بدا لي كأنه سيتعرض لإصابة في ركبته أو خلع في كتفه في أي لحظة. أما مايك فبنيته الجسدية تؤهله للذهاب بعيدًا.

سألته: «ما رأيي بوبي جيل؟». مايك وبوبي جيل ألنوت لا يفترقان أبدًا. فتاة حسناء، وشقراء، وقائدة فرقة التشجيع بالطبع. ابتسم قائلاً: «بوبي جيل تدعمني دعمًا تامًا. تقول لي تجلّد ولا تدع أولئك الفتية يزعجونك».

- تبدو لي شابة عقلانية.
- أجل، إنها الأفضل على الإطلاق.
- على أي حال، لا أظن أن الألقاب التي أطلقت عليك هي ما يشغل بالك حقًا، أليس كذلك؟

لم يرد، فحاولت حتّه: «مايك، حدثني بما يشغلك».

- سأصعد على المسرح وأقف أمام كل أولئك الناس وأجعل من نفسي أضحوكة. هذا ما قاله جيم لي.

- جيمي ظهير ربعي عظيم، وأعرف أنكما صديقان، لكنه لا يعرف أي خراء عن التمثيل.

حدق مايك إلي مشدوهاً. في عام 1961 لا يسمع الطلاب كلمة خراء من أساتذتهم مهما كانوا سيئي الخلق، لكنني كنت أستاذًا بديلاً، وهذا أتاح لي شيئاً من الحرية. تابعت: «أظنك تعرف هذا. كما يقولون في هذه الأنحاء، ربما تبدو مضطرباً، لكنك لست غيباً».

قال بصوت منخفض: «يظنني الناس غيباً فعلاً. درجاتي متوسطة في أحسن الأحوال. ربما لا تعرف هذا، ربما لا يُسمح للأساتذة البدلاء برؤية السجلات، لكنني متوسط المستوى في الدراسة».

- حرصتُ على رؤية درجاتك بعد الأسبوع الثاني من التدريبات، عندما رأيتُ ما يمكنك فعله على المسرح. إنك متوسط المستوى لأنك، بوصفك لاعب كرة قدم، يُفترض أن تكون متوسط المستوى. هذا جزء من المعتقدات النمطية.

- المعتقدات الـ ماذا؟

- استنتج المعنى من السياق ودع التظاهر بالغباء لأصدقائك، وبخاصة المدرب بورمان، الذي على الأرجح يستعين بخيط يربط به صفارته حتى يتذكر الطرف الذي ينبغي أن ينفخ فيه.

ضحك مايك رغم عينية الحماوين وكل شيء.

تابعت: «اسمعني، الناس يعتقدون تلقائياً أن كل شخص ضخم مثلك غبي، غالطني إذا أردت، إنك تتجول بجسدك الضخم هذا منذ أن كنت في الثانية عشرة حسبما سمعتُ. لذا ينبغي أن تعرف».

لم يغالطني. قال: «جميع أفراد الفريق قاموا بتجربة أداء دور ليني، كانوا يرونها مزحة، وسذاجة». وأردف بسرعة: «لم يقصدوا التقليل من شأنك يا سيد أمبرسون، كل أفراد الفريق يستلطفونك، حتى المدرب».

حدث فعلاً أن مجموعة من اللاعبين اقتحموا تجارب الأداء، فأرهبوا بقية الطلاب الجادين، زاعمين أنهم يريدون قراءة دور صديق جورج ميلتون الأبله الضخم. كانوا يرونها مهزلة بالطبع، لكن قراءة مايك لدور ليني لم تكن مضحكة في شيء، كان أدائه عظيمًا. لفعلت كل ما بوسعي من أجل إبقائه في الغرفة. أتريدون معرفة أفضل شيء في التدريس؟ رؤية لحظة اكتشاف طالب لموهبته، ما من إحساس يضاهي متعة تلك اللحظة. عرف مايك أن زملاءه في الفريق سيسخرون منه، لكنه قبل الدور رغم ذلك.

وبالطبع لم يعجب هذا المدرب بورمان، ما كان ليعجب أي مدرب من أمثال بورمان في العالم. لكن لم يكن بوسعه فعل شيء، لا سيما أن ميمي كوركران إلى جانبي. لم يكن بوسعه أن يزعم أنه يحتاج إلى مايك لتدريب كرة قدم في أبريل ومايو، لذا أقصى ما استطاع فعله هو إطلاق اسم كلارك غابل على أفضل لاعب هجوم لديه. ثمة أناس لا يستطيعون التخلص من فكرة أن التمثيل يليق بالفتيات، والمخنثين الذين يتمنون لو أنهم فتيات. غافن بورمان كان رجلًا من هذا النوع، في حفل أول أبريل السنوي أبدى لي تبرُّمه من «غرس الأفكار الغريبة في رأس ذلك الفتى الضخم».

قلت له إن من حقه أن يكون له رأيه، مثل أي وغد وضيع. ثم سرت مبتعدًا عنه، تاركًا إياه بكوب ورقي في يده وتعايير حيرة ودهشة على وجهه. المدربون من أمثال بورمان أيضًا معتادون تحقيق ما يبتغونه عبر الترهيب المغلّف بالمزاح، ولم يستطع أن يستوعب سبب عدم نجاحه مع هذا الأستاذ البديل النكرة الذي حل محل ألفي نورتن في آخر لحظة. لم أستطع إخبار بورمان بأن المرء يتغير بعدما يُردي رجلًا قتيلاً لمنعه من قتل زوجته وأطفاله.

لم أترك للمدرب أي فرصة. اخترت بعض اللاعبين الآخرين ليؤدوا دور سكان البلدة، لكنني اعتزمت أن أسند دور ليني لمايك منذ اللحظة التي فتح فيها شفتيه وقال: «أتذكر الأرانب يا جورج!».

تقمّص دور ليني ببراعة. كان أدائه أسرًا، يُنسى المرء كل ما حوله، مثلما ينسى الناس شواغلهم اليومية عندما يتراجع جيم لادو متأهّبًا لتمرير الكرة. مايك لديه البنية الجسمانية القادرة على اختراق خط دفاع الفريق الخصم، لكنه خُلِق ليقف على المسرح ويتلاشي في شخصية شخص آخر.

قلت: «جميعهم كانوا يرونها مهزلة إلا أنت».

- أنا أيضًا، في البداية.

- لأنك لم تكن تعرف في البداية.

تكلم بصوت أجش، أقرب إلى الهمس: «لم أكن أعرف». خفض رأسه لأن عينيه اغرورقتا بالدموع ولم يردني أن أراها. سمّاه المدرب كلارك غابل، وإذا واجهته لزعم أنه كان يمزح فحسب، كأنه لم يكن يعرف أن بقية أفراد الفريق سيتلقّفون اللقب ولا يتركونه أبدًا، كأنه لم يكن يعرف أن ذلك سيؤلم مايك ألمًا أشد مما سيؤلمه نعته بمايك البربري. لماذا يفعل الناس هذا بالموهوبين؟ هل هي الغيرة؟ أم الخوف؟ ربما الاثنين. لكن هذا الفتى كان لديه ميزة معرفته بمدى براعته. وكلانا كان يعرف أن المدرب بورمان لم يكن المشكلة الحقيقية. الشخص القادر على منع مايك من الصعود على خشبة المسرح في اليوم التالي كان مايك نفسه.

- لعبت كرة القدم أمام حشود عددها تسعة أضعاف الجمهور الذي سيكون في القاعة. بل عندما ذهب فريقكم إلى دالاس لخوض المنافسات الإقليمية في نوفمبر الماضي، لعبت أمام عشر أو اثني عشر ألف متفرج، ولم يكونوا ودودين معكم.

- كرة القدم مختلفة. عندما ندخل الملعب، نرتدي الملابس والخوذ
نفسها، لا يستطيع الناس تمييزنا إلا بأرقامنا، وجميعنا في الفريق
نفسه...

- معك تسعة أشخاص آخرين في هذا العرض يا مايك، دون حساب
سكان البلدة الذين كتبتُ دورهم حتى أُمْنَح زملاءك في الفريق
شيئاً يفعلونه. إنهم فريق أيضاً.
- ليس الأمر نفسه.

- ربما لا يتشابهان تمامًا. لكن ثمة أمرًا واحدًا هو نفسه.. إذا خذلتهم،
فستنهار المسرحية ويخسر الجميع، الممثلون، وفريق العمل،
وفتيات "نادي بيب" اللاتي تولّين الإعلان عن العرض، وكل الناس
الذين يعتزمون حضور العرض، منهم من سيأتي من مزارع تبعد
خمسین ميلاً. ناهيك بي، أنا سأخسر أيضاً.

قال: «أظن الأمر كذلك فعلاً». كان ينظر إلى قدميه. يا لضخامتهما!
- يمكنني تحمّل فقدان شخصية سليم أو كيرلي، سأرسل شخصاً
حاملاً الكتاب ليقرأ عباراتهما. وأظنني يمكنني تحمّل فقدان
زوجة كيرلي...

- أتمنى لو كانت ساندي أفضل قليلاً، إنها جميلة جداً، لكن إذا كانت
لا تقول عباراتها في التوقيت الصحيح إلا مصادفة.

سمحت لنفسني بابتسامة متحفظة. وبدأت أتوقع أن هذه المشكلة
ستُحل. تابعتُ: «ما لا أستطيع تحمّله، أو بالأحرى ما لا يستطيع العرض
تحمله، هو فقدانك أنت أو فينس نولز».

كان فينس هو من سيؤدي دور جورج، رفيق طريق ليني، وفي
الحقيقة كان بوسعنا تحمّل غيابه إذا أصيب بنزلة برد أو كسر عنقه في
حادث سير (كان هذا احتمالاً وارداً دوماً نظرًا إلى الطريقة التي يقود
بها شاحنة مزرعة والده). لأدّيتُ دون فينس، إذا دعت الضرورة، رغم أن

حجمي كبير لا يناسب الدور، ولن أضطر إلى القراءة فحسب، فبعد ستة أسابيع من التدريبات، حفظت الأدوار مثل بقية الممثلين، بل أفضل من بعضهم. لكن لم يكن بوسعي أن أحل محل مايك. لا أحد كان يستطيع أن يحل محله، نظرًا إلى حجمه وموهبته. لا غنى عنه.

تساءل: «ماذا لو أخفقت؟».

جلست جواره على الأريكة. لم تكن ثمة مساحة كافية، لكنني تدبرت أمري. عندئذٍ لم أكن أفكر بجون كينيدي، ولا آل تمبلتون، ولا فرانك دننغ، ولا العالم الذي جئت منه. عندئذٍ لم أكن أفكر بشيء سوى هذا الفتى الضخم، وبمسرحتي، لأنها صارت مسرحيتي، كما صار هذا الزمن القديم -بهواتفه المشتركة ووقوده الرخيص- زمني. عندئذٍ كان اهتمامي بأمر عن الفئران والرجال أشد من اهتمامي بلي هارفي أوزوالد. لكنني اهتممت بمايك أكثر.

وضعت يدي على كتفيه، ونظرت إلى عينيه وقلت له: «اسمعني، هل تسمعني؟».

- نعم سيدي.

- لن تخفق. قلها.

- ل...

- قلها.

- لن أخفق.

- بل ستُذهل الحاضرين. أعدك بهذا يا مايك.

شدت قبضتي على كتفيه، فأحسست كأنني أحاول غرز أصابعي في صخرة. كان بمقدوره رفعي وكسر ظهري على ركبته، لكنه لبث جالسًا ناظرًا إلي بعينين متواضعتين مفعمتين بالأمل، وما زالت رموشهما مبللتين بالدموع.

4

كانت خشبة المسرح مغمورة بالضوء، وأمامه بحيرة من الظلام حيث يجلس الجمهور. وقف جورج وليني على ضفة نهر مُتَخِيل. والرجال الآخرون أُرسلوا بعيدًا، لكن لن يغيبوا مدة طويلة. إذا قُدِّر للرجل الضخم المبتسم الذي يرتدي ملابس عمال أن يموت بكرامة، فسيحرص جورج على ذلك بنفسه.

- جورج؟ إلى أين يذهب أولئك الرجال؟

كانت ميمي كوركران جالسة إلى يميني. في لحظةٍ ما أمسكت بيدي، وكانت تضغط عليها بشدة. كنا جالسين في الصف الأول، وإلى جانبها من الناحية الأخرى كان ديكي سيمونز يحدق إلى المسرح فاغراً فمه قليلاً، كانت تعابير وجه مزارع يرى ديناصورًا يأكل العشب في مزرعته. - الصيد. إنهم ذاهبون إلى الصيد. اجلس يا ليني.

ما كان فينس نولز ليصبح ممثلًا أبدًا، على الأرجح سيصبح رجل مبيعات في "جودي كرايسلر-دودج"، مثل والده. لكن أداءً عظيمًا من فرد واحد من شأنه رفع مستويات جميع الممثلين، وهذا ما حدث الليلة. لم يحقق فينس في التدريبات درجة معقولة من الإقناع إلا مرة أو مرتين (غالبًا لأن وجهه الذكي الصغير الشبيه بوجه الجرذ كان أقرب إلى وجه جورج ميلتون الذي تخيَّله ستاينبك نفسه) لكنه التقط شيئًا من موهبة مايك. ودون مقدمات، عند منتصف الفصل الأول تقريبًا، بدا أنه أدرك ما يعنيه أن يخوض المرء غمار الحياة وليني هو صديقه الوحيد، فتمكَّن من تقمُّص الدور. عندئذٍ، وأنا أشاهده يعدل قبعته القديمة على رأسه، خطر لي أن فينس يشبه هنري فوندا من رواية عناقيد الغضب.

- جورج!

- نعم؟

- ألن تديقني الويل؟

- ماذا تعني؟

قال ليني: «تعرف ما أعنيه». وابتسم ابتسامة من النوع الذي يقول
أجل أجل أعرف أنني مغفل، لكن علينا يعرف أن ما بيدي حيلة. كان
جالسًا جوار جورج على ضفة نهر متخيل، نزع قبعته وألقاها جانبًا،
وشعث شعره الأشقر القصير. وقلّد صوت جورج. ألقن مايك هذا الجزء
بسهولة مذهشة في أول تدريب له، دون مساعدة مني. «إذا كنتُ
وحدي، لعشتُ بسهولة. لأمكنني إيجاد عمل وحسم فوضى حياتي». «
ثم استعاد صوته... أو بالأحرى صوت ليني: «يمكنني الذهاب بعيدًا،
يمكنني الصعود إلى التلال والعثور على كهف، إذا لم ترغب في وجودي
معك».

طأطأ فينس نولز رأسه، وعندما رفعه وقال عبارته التالية، تكلم
بصوت ثقيل متحشرج، استطاع أن يعبر عن الحزن تعبيرًا لم يقترب
منه في أفضل محاولاته في التدريبات: «لا يا ليني، أريدك أن تبقى هنا
معي».

- إذن قل لي كما فعلت من قبل! عن الرجال الآخرين، وعنا نحن!
عندئذٍ سمعت أول نشيج من الجمهور، وتبعه آخر، ثم ثالث. لم أتوقع
هذا قط. سرتُ قشعريرة باردة في ظهري، واختلستُ نظرة إلى ميمي،
فرأيتها لم تبك بعد، لكن عرفت من لمعان عينيها أنها على وشك البكاء،
أجل، حتى هي، الطفلة العجوز صعبة المراس.

تردد جورج، ثم أمسك بيد ليني، وهذه حركة ما كان فينس ليفعلها
أبدًا في التدريبات، لقال: هذه حركات مخنثين.

قال جورج: «الرجال من أمثالنا... يا ليني، الرجال من أمثالنا ليس
لديهم عائلات، ليس لديهم من يكثر بهم أدنى اكتراث». لمس المسدس

المخبوء تحت معطفه بيده الأخرى، أخرجه جزئياً، وأعادته إلى مكانه، ثم تجلّد وأخرجه ووضعه على فخذه.

- لكن ليس نحن يا جورج! ليس نحن! أليس كذلك؟

لم يكن لمايك ولا للمسرح حضور في هذه اللحظة. لم يعد هناك أحد سوى جورج وليني. وبحلول الوقت الذي طلب فيه ليني من جورج أن يخبره عن المزرعة الصغيرة، وعن الأرانب، والعيش من خيرات الأرض، نصف الجمهور كان يبكي بصوت مسموع. بكى فينس بكاءً شديداً كاد يعجزه عن قول عباراته الأخيرة، قال لليني الغبي المسكين أن ينظر إلى الأفق هناك، إلى المزرعة التي سيعيشان فيها. سيراهما إذا أمعن النظر.

ببطء سربل المسرح ظلاماً تام، لأول مرة أتقنت سيندي مكوماس التحكم في الإضاءة. ثم أطلق بيردي جيميسون، عامل النظافة بالمدرسة، عياراً نارياً فارغاً، فنذت صرخة قصيرة عن امرأة بين الجمهور، مثل ردادات الفعل هذه عادةً ما تعقبها ضحكات متوترة، لكن الليلة، عدا عن أصوات بكاء الناس في مقاعدهم، ساد صمتٌ مطبق، استمر عشر ثوان، أو ربما خمس، أيّاً كان عددها فقد بدت لي دهرًا. ثم اندلعت عاصفة من التصفيق، وأضيئت المصابيح. ووقف الجمهور بأكمله. كان الصفان الأماميان محجوزين للأساتذة والإداريين، وصادف أن لمحتُ المدرب بورمان. علي اللعنة إذا لم يكن يبكي هو أيضاً.

وبالخلف حيث كان يجلس جميع رياضيي المدرسة معاً، هبّ جيم لادو واقفاً، وصاح: «أنت رائع يا كوسلو!». فتصاعدت الهتافات والضحكات.

خرج الممثلون لينحنوا للجمهور: أولاً لاعبي كرة القدم الذين أدوا دور سكان البلدة، ثم كيرلي وزوجة كيرلي، ثم كاندي وسليم وبقية عمال المزرعة. بدأ التصفيق يخفت قليلاً، وعندئذ خرج فينس، متورّداً مغتبطاً، وخدّاه ما يزالان رطبين. وخرج مايك كوسلو أخيراً، مجرّجاً قدميه كأنه

مُحَرَج، ثم نظر إلى الجمهور وعلى وجهه ذهول هزلي عندما صاحت ميمي: «برافو!».

ردد آخرون صيحتها، وسرعان ما ضجت القاعة بها: برافو، برافو، برافو. انحنى مايك انحناء عميقة حاملاً قبعته بيده، فلامست أرضية خشبة المسرح، واعتدل واقفاً مبتسماً، لكنها لم تكن مجرد ابتسامة، ارتسمت على وجهه السعادة التي لا يحققها إلا الذين بلغوا القمة بعد عناء.

ثم صاح: «سيد أمبرسون! اصعد إلى هنا يا سيد أمبرسون!».

فهتف الممثلون: «ال-مُخ-رج! ال-مُخ-رج!».

دمدمت ميمي: «لا تقتل التصفيق، هيا اصعد أيها الأبله!».

صعدت، فانتعش التصفيق مجدداً. أمسك مايك بي، وعانقني، ورفعني في الهواء، ثم أنزلني وربّت خدي بحرارة. ضحك الجميع، حتى أنا. ثم أمسكنا بأيدي بعضنا، ورفعناها للجمهور، وانحنينا. وفي أثناء استماعي إلى التصفيق، خطر لي أمرٌ انقبض له صدري: ثمة زوجان تزوجا حديثاً في منسك، ليّ أوزوالد ومارينا صارا زوجاً وزوجة منذ تسعة عشر يوماً تحديداً.

5

بعد ثلاثة أسابيع، قبيل انتهاء العام الدراسي وبدء العطلة الصيفية، ذهبت إلى دالاس لألتقط بعض الصور للشقق الثلاث التي سيعيش فيها ليّ ومارينا معاً. استخدمت كاميرا صغيرة ماركة مينوكس، أمسكت بها في راحة يدي بحيث تبرز عدستها بين اثنتين من أصابعي. أحسست بأن ما أفعله سخيف، كأنني شخصية كاريكاتورية في مجلة رسوم مصورة، لكنني تعلمت توخي الحذر بشأن أشياء كهذه.

وعندما عدت إلى منزلي، رأيت سيارة ميمي كوركران الزرقاء السماوية واقفة جوار الرصيف وميمي جلست للتو خلف عجلة القيادة، وترجلت عندما رأته. تقلص وجهها لوهلة من المجهود أو الألم، لكن عندما صعدت إلى المدخل كانت تبتسم ابتسامتها المعهودة. كأن رؤيتي مُسليّة لها، لكن على نحو حميد. كانت تحمل بيديها ظرفًا بُنيًا منتفخًا، بداخله مئة وخمسون صفحة من رواية مكان القتل. كنت قد رضخت أخيرًا لإلحاحها... لكن ذلك حدث في اليوم السابق ليس قبل مدة طويلة. قلت متناولًا الظرف منها: «إما أنها أعجبتك إعجابًا شديدًا، وإما أنك لم تتجاوزي الصفحة العاشرة. أيهما؟».

بدت ابتسامتها ملغزة وقالت: «إنني سريعة القراءة، كمعظم أمماء المكتبات. هلاً دخلنا وتحدثنا عن الكتاب؟ الجو حار رغم أننا لم نصل إلى منتصف يونيو بعد».

أجل، كانت تتعرق. لم أرها تتعرق قط. كما بدت كأنما نقص وزنها، وهذا أمر ليس جيدًا لسيدة ليس لديها وزن إضافي يمكنها الاستغناء عنه.

جلسنا في صالة معيشتي ومعنا كوبا قهوة مثلّجة كبيران، أنا جلست على كرسي وهي على الأريكة، وقالت ميمي رأيها: «استمتعت بتفاصيل القاتل المتنكّر بزي مهرج. لك أن تنعّتي بالمُختلّة، لكنني وجدت القصة غريبة على نحو ممتع».

- إذا كنت أنت مختلة، فأنا أيضًا مختل.

ابتسمتُ.

- إنني متأكدة أنك ستجد ناشرًا لها. عمومًا، أعجبتني كثيرًا.

أحسست بوخزة ألم. ربما بدأت كتابة مكان القتل بوصفها تمويهًا، لكنها اكتسبت عندي أهمية إثر تعمّقي فيها. كانت مثل مذكّرات سرية. تعلقت بها.

- كلمة "عمومًا" هذه تذكّرني بالكساندر بوب، تعرفين، هل تقصدين
الذم بالمدح الفاتر؟
- لم أقصدها على هذا النحو. كل ما في الأمر... اللعنة يا جورج،
الكتابة ليست ما خلقتَ لفعله، خلقتَ لتدرّس. وإذا نشرتَ كتابًا
كهذا، فما من مدرسة في الولايات المتحدة كلها قد تقبل توظيفك...
ربما باستثناء ولاية ماساتشوستس.
- لم أحرر ردًا. انعقد لساني.
- ما فعلته مع مايك كوسلو - ما فعلته من أجل مايك كوسلو - كان
أروع شيء رأيته في حياتي.
- لم أفعل له شيئًا يُذكر يا ميمي، إنه صاحب موهبة فط...
- أعرف أنه صاحب موهبة فطرية، بدا هذا بديهياً منذ اللحظة التي
سار فيها على المسرح وفتح شفّتيه. لكن دعني أقول لك أمرًا يا
صديقي، أمرًا تعلّمته جيدًا من أربعين عامًا في المدارس الثانوية
وستين عامًا من الحياة. الموهبة الفنية أمر أكثر شيوعًا بكثير من
موهبة رعاية الموهبة الفنية، أي والد صارم بمقدوره سحقها،
لكن رعايتها أمر أصعب بكثير. هذه موهبة تمتلكها أنت، وتفوق
الموهبة التي أنتجت هذه.
- نقرتُ على الصفحات القابضة على طاولة القهوة أمامها.
- لا أدري ما ينبغي أن أقوله.
- قل شكرًا لك، وأطرنني على رأيي السديد.
- شكرًا لك. ورأيك لا يضاهيه شيء سوى جمالك.
- أعاد كلامي ابتسامتها المتحفظة.
- لا تتجاوز حدود تعليماتك يا جورج.
- كما تأمرين.

تلاشت ابتسامتها، ومالت إلى الأمام. بدت عيناها الزرقاوان كبيرتين خلف نظارتها، كأنهما تسبحان على وجهها، وبدا جلدها المسمر مصفرًا، وخذاها المشدودان صارا غائرَيْن. متى حدث هذا؟ وهل لاحظ ديكي؟ هذا سؤال سخي، ديكي لا يلاحظ أن جوربيه غير متطابقين إلى أن ينزعهما في الليل، حتى عندئذٍ ربما لا يلاحظ.

قالت: «فيل بيتمان لم يعد يواجه احتمال التقاعد، حسم أمره، سحب الإبرة وألقى القنبلة اليدوية، كما قد يقول مدربنا المرح بورمان. مما يعني وجود وظيفة شاغرة في قسم اللغة الإنجليزية. تعال ودرّس بدوام كامل في ثانوية دنهولم الموحدة يا جورج. الفتية يحبُّونك، وبعد المسرحية، يرى مجتمع البلدة أنك ألفريد هيتشكوك التالي. ديكي ينتظر أوراق تقديمك، هذا ما قاله لي البارحة. أرجوك. انشر روايتك هذه تحت اسم مستعار، إذا لا بد لك من نشرها. لكن تعال ودرّس. هذا ما خلّقت لفعله».

أردتُ بشدة أن أوافق، لأنها كانت محقة. عملي لم يكن تأليف الكتب، وقطعًا لم يكن قتل الناس، مهما كانوا يستحقون القتل. وفكرت بجودي أيضًا. جئتُ إليها غريبًا أرغم على النزوح من زمنه ومدينته، وأول كلمات قيلت لي هنا، على لسان آل ستيفنز في المطعم، كانت كلمات لطيفة. إذا أحسستم يومًا بالحنين إلى الديار، أو بأنكم منفيون من كل ما ألفتُم من أشياء وأناس، فستعرفون مدى طيب أثر الكلمات الترحيبية والابتسامات الودودة. جودي كانت نقيض دالاس. والآن إحدى أبرز مواطنيها تطلب مني أن أكون مقيمًا بدلًا من زائر. لكن اللحظة الفارقة تقترب، إلّا أنها لم تصل بعد. ربما...

- جورج، على وجهك تعابير غريبة.

- اسمها أمارات التفكير. هلّا سمحت لي بالتفكير من فضلك؟

وضعت يديها على خديها وحركت شفتيها على نحو هزلي كأنها تقول آسفة.

- عجباً! كما تشاء.

لم أنتبه لما قالت، لأنني كنت مشغولاً بتقليب صفحات دفتر ملاحظات آل، لم أعد أحتاج إلى النظر إليها لفعل ذلك. عندما يبدأ العام الدراسي الجديد في سبتمبر، سيكون أوزوالد ما يزال في روسيا، لكنه بدأ سلفاً معركة إجراءات رسمية طويلة حتى يعود إلى أمريكا مع زوجته وابنته، جون، التي ستكون مارينا حُبلى بها الآن على الأرجح. معركة سيفوز أوزوالد بها في النهاية، واضحاً بذكاء فطري (ولو كان بدائياً) قوَّتين بيروقراطيتين عظميين في مواجهة بعضهما. لكن أوزوالد وأسرته الصغيرة لن يصلوا عبر سفينة إس إس ماسدام إلى الأراضي الأمريكية حتى منتصف السنة القادمة. أما تكساس...

- ميمز، العام الدراسي عادةً ينتهي في الأسبوع الأول من يونيو، أليس كذلك؟

- دوماً. الفتية الذين يحتاجون إلى العمل في العطلة الصيفية نضطر إلى تقييدهم.

... أما تكساس، فسوف يصل إليها أوزوالد وأسرته في الرابع عشر من يونيو 1962.

- وأي عقد تدريس أوقعه سيكون تجريبياً، صحيح؟ لمدة عام؟

- نعم، مع خيار تجديده في حال رضا الطرفين.

- إذن لقد حصلتِ على أستاذ لغة إنجليزية لفترة تجريبية.

ضحكتُ وشفقتُ، ثم نهضت وبسطت ذراعيها قائلة: «عظيم! عناق للسيدة ميمي!».

عانقتها، وأفلتها سريعًا عندما سمعتُ شهقة، وقلت لها: «ما بكِ بحق الجحيم يا سيدتي؟».

عادت إلى الأريكة، وحملت كوب القهوة المثلجة ورشفت منه، وقالت: «اسمح لي بإسدائك نصيحتين يا جورج. الأولى، لا تخاطب امرأة من تكساس بـ "سيدتي" إذا جئتَ من الولايات الشمالية. تبدو تهكُّمية. والثانية، لا تسأل أي امرأة "ما بكِ بحق الجحيم". جرَّب تعبيرًا أكثر لباقة، مثل "هل تشعرين بأنك على ما يرام؟"».

- هل تشعرين بأنك على ما يرام؟

- لِمَ لا؟ سأتزوج قريبًا.

في البداية لم أعرف كيف أرد على مُزحتها بمزحة مني، لكن أدركت من عينيها الكاسفتين أنها لم تكن تمزح، كانت تقلِّب أمرًا في ذهنها، ليس جيدًا، وتبحث عن طريقة لتخبرني به.

- قل "تهانينا يا ميمي".

- تهانينا يا ميمي.

- طلب ديكي مني الزواج أول مرة قبل عام تقريبًا، لكن طلبتُ منه تأجيله، قلت له إن وفاة زوجته ما زالت قريبة، وأننا قد نجرُ على أنفسنا الأقاويل. ومع مرور الوقت، لم تعد تلك حججًا مقنعة. أستبعد أن يقال عنا الكثير على أي حال، نظرًا إلى سنيَّ وسنَّه. سكان البلدات الصغيرة يدركون أن أمثال ديكي وأمثالي لا يمكنهم الالتزام بما تقتضيه اللباقة التزامًا تامًّا حالما نبلغ طورًا بعينه من أطوار النضج. الحقيقة هي أنني وددت أن تبقى علاقتنا كما كانت. ذلك العجز يحبني أكثر مما أحبه، لكنه يروقني كثيرًا. أجازف باحتمال إحراجك بقولي هذا... حتى السيدات اللاتي يبلغن طورًا بعينه من النضج لا يُعرِضن عن علاقة حميمية لطيفة عابرة في أمسية سبت. هل أخرجك؟

- لا، بل تبهجيني.

ابتسمت ابتسامتها المتحفظة.

- جميل. لأنني عندما أنزلت قدمي من الفراش صباح اليوم، أول ما فكرت فيه حالما لامستُ قدمي الأرضية كانت "هل من طريقة يمكنني أن أبهج بها جورج أمبرسون اليوم؟ وكيف أطرح له الفكرة؟".

- لا تتجاوزي حدود تعليماتك أيتها السيدة ميمي.

قالت: «أحسننت قولاً». وأخذت رشفة من القهوة المثلجة. «كان لدي هدفان عندما جئت إليك اليوم، حققتُ الأول، والآن فلننتقل إلى الثاني حتى أتركك لتتابع يومك. أنا وديكي سنتزوج في الحادي والعشرين من يوليو، يوم جمعة، وستكون المراسم مناسبة صغيرة في منزله، نحن الاثنان والقس وبضعة أفراد من عائلتنا، والداه، وهما قويَّان رغم أنهما ديناصوران، سيأتيان من ألاباما، وشقيقتي ستأتي من سان دييغو. وفي اليوم التالي سنقيم حفل استقبال في باحة منزلي، من الثانية ظهراً حتى الساعة التي يشمل فيها الجميع. سندعو كل سكان البلدة تقريباً. سنوفر بينياتا⁽¹⁾ وليمونادة للصبية الصغار، وشواء وبراميل جعة للصبية الكبار، وفرقة موسيقية من سان أنتونيو، خلافاً لمعظم فرق سان أنتونيو، أظنهم قادرين على أداء أغنية "لوي لوي" و"لا بالوما". إذا لم تُشرِّقنا بحضورك...».

- فستكونين مفجوعة؟

- نعم، بالتأكيد. هل ستحفظ التاريخ؟

- بالتأكيد.

(1) وعاء من القماش أو الورق أو الفخار، يُزَيَّن ويُمَلَأ بالحلوى، يُعلَّق ويضربه الأطفال بأعين معصوبة حتى يأخذوا الحلوى. (المترجم)

- جيد. أنا وديكي سنغادر إلى المكسيك يوم الأحد، عندئذٍ سيكون قد تخلص من آثار الشراب. إننا مُسننان لا يناسبنا شهر عسل، لكن ثمة موارد بعينها جنوب الحدود غير متوفرة في ولايتنا التي تقدّس الأسلحة، علاجات تجريبية بعينها، أستبعد نجاحها، لكن ديكى متفائل. الأمر يستحق المحاولة. الحياة...
- أطلقت تنهيدة كئيبة وتابعت: «الحياة جميلة لا ينبغي التخلي عنها دون مقاومة، ألا تتفق معي؟».
- بلى.
- بلى. لذا يتمسك المرء بها.
- أمعنت النظر إلي وقالت: «جورج، هل ستبكي؟».
- لا.
- جيد. لأخرجني بكاؤك، ربما أبكي أنا أيضًا، ولا أبكي على نحو جميل، لا أحد قد يكتب قصيدة عن دموعي. أصدر صوتًا كالنقيق.
- ما مدى سوء المرض؟ إذا سمحت لي بالسؤال.
- أجابت بلا مبالاة: «سيئ جدًا. ربما أعيش ثمانية أشهر، أو عامًا، إذا افترضت أن علاجات الأعشاب أو حُفَر الشاطئ أو أيًا مما سنجده في المكسيك لن يكون ذا مفعول علاجي سحري».
- يؤسفني جدًا سماع هذا.
- شكرًا لك يا جورج. أحسنت التعبير. أي كلام أكثر من هذا لكان مفرطًا على نحو صبياني.
- ابتسمتُ.
- لديّ سبب آخر لدعوتك إلى حفل الاستقبال، رغم أن من البديهي أن رفقتك الساحرة وبديهتك المتّقدة سببان كافيان. فيل بيتمان لن يتقاعد وحده.

- ميمي، لا تفعلي هذا. خذي إجازة إذا كان لا بد لك، لكن...

هزت رأسها بحزم.

- بصرف النظر عن المرض، أربعون عامًا كافية. حان الوقت لإفساح المجال لـيدين شابتين، وعينين شابتين، وعقل شاب. بناءً على توصيتي وظَّف ديكي شابة من جورجيا، اسمها سَيدي كلايتون، ستحضر الحفل، وهي لا تعرف أحدًا هنا، لذا أتوقع منك أن تعاملها بلطف خاص.

- السيدة كلايتون؟ متزوجة؟

- متزوجة، لكن... أظنها تعزم استعادة اسم عائلتها قبل الزواج عما قريب، بعد إجراءات قانونية بعينها.

- ميمي، هل تؤيد دور الخاطبة؟

قالت ضاحكة: «لا، إطلاقًا... تقريبًا. لكنك ستكون الأستاذ الوحيد غير المرتبط في قسم اللغة الإنجليزية، وهذا يجعلك مرشدها تلقائيًا». رأيت أن ما قالت له لم يبد منطقياً، لا سيما وأنها راجحة العقل عادةً، لكن رافقتها إلى الباب دون أن أقول لها هذا. وقلت: «ما دام مرضك خطيرًا هكذا، ينبغي أن تسعى للعلاج الآن، لا أن تذهبي إلى طبيبٍ دجالٍ ما في خواريـز. ينبغي أن تذهبي إلى عيادة كليفلاند». لم أكن متأكدًا من وجود عيادة كليفلاند عندئذٍ، لكن لم أكرث.

قالت: «لا أظنني أرغب في ذلك. إذا خُيرت بين الموت في غرفة مستشفى في مكانٍ ما مليئةً بأنابيب وأسلاك، وبين الموت في بيت مزرعة شاطئي في المكسيك... فالخيار بديهي. وثمة أمر آخر». نظرت إلي بهدوء وتابعت: «الألم ليس شديدًا بعد، لكن قيل لي إنه سوف يشتد. وفي المكسيك لا يتشددون في القيود الأخلاقية على الجرعات الكبيرة من المورفين، أو نيمبوتال، إذا اضطررتُ إليه. ثِق بي، إنني أعرف ما أفعله».

بناءً على ما حدث لآل تمبلتون، أظنها كانت محقة. أحطتُها بذراعي، وهذه المرة احتضنتها برفق شديد، وقبَّلْتُها على خَدَّها المتغضن. تقبَّلَتِ القُبلة بابتسامة، ثم انسلَّت مبتعدة. تفرَّست عيناها وجهي، وقالت: «أود أن أعرف قصتك يا صديقي».

هزرت كتفي قائلاً: «إنني كتاب مفتوح يا ميمي».

ضحكتُ وقالت: «يا له من هراء! تقول إنك من وسكونسن، لكنك أتيت إلى جودي بلكنة نيو إنغلاند على لسانك ولوحات فلوريدا على سيارتك. تقول إنك تتردد على دالاس لأغراض البحث، ومسودة روايتك توحى ظاهرياً بأنها عن دالاس، لكن شخصياتها يتحدثون بلهجة سكان بعض الولايات الشمالية. يجدر بك تدارك ذلك».

وأنا ظننت أن إعادة كتابتي كانت ذكية.

- في الحقيقة سكان نيو إنغلاند يتحدثون كذلك يا ميمي.

قالت: «عُلم». واصلت تفرُّس وجهي، وصعُب عليّ ألا أخفض بصري، لكنني صمدت. تابعتُ: «أحياناً أجد نفسي أتساءل عما إذا كنتُ كائنًا فضائيًا، مثل مايكل ريني في فيلم يوم توقفت الأرض عن الدوران، وقد جئتُ لتحليل السكان الأرضيين وإرسال تقريرك إلى ألفا سنتوري بشأن وجود أمل لنا بوصفنا كائنات جديدة بالحياة أو وجوب تفجيرنا بأشعة بلازما قبل أن ننشر جراثيمنا إلى بقية كواكب المجرة».

قلت مبتسمًا: «هذا خيال جامح».

- جيد. لكرهتُ أن يُحكَم على كوكبنا كله بناءً على تكساس.

- إذا استُخدمت جودي مثالاً، فأنا متأكد أن الأرض ستحرز درجة نجاح.

- تحب بلدتنا، أليس كذلك؟

- بلى.

- هل جورج أمبرسون اسمك الحقيقي؟

- لا. غيرته لأسباب أراها مهمة لكن لا تهم أحدًا غيري. أفضل أن تحتفظي بهذه المعلومة لنفسك. لأسباب بديهية. أومأت.

- يمكنني فعل ذلك. أراك لاحقًا يا جورج، في المطعم، والمكتبة... وفي الحفل، بالطبع. عليك أن تكون لطيفًا مع سيدي، اتفقنا؟
- غاية اللطف.

قلتُ اللطف بلكنة تكساس، فضحكتُ.

وبعدما غادرتُ، جلستُ في صالة معيشتي مدة طويلة، دون قراءة، ولا مشاهدة تلفاز، والكتابة كانت آخر ما يمكن أن يخطر لي. فكرت بالوظيفة التي قبلتُ بها للتو: عام من التدريس بدوام كامل في مدرسة دنهولم الثانوية الموحدة، موطن الأسود. رأيت أن ما من شيء أسف عليه. يمكنني الزئير معهم في المباريات.

في الحقيقة أسفت على أمر واحد، لكنه ليس متعلقًا بي. عندما فكرت بميمي وحالتها الراهنة. تأسفت أسفًا شديدًا.

6

في موضوع الحب من النظرة الأولى، أتفق مع فرقة البيتلز: أعتقد أنه يحدث كثيرًا. لكنه لم يحدث على ذلك النحو معي أنا وسيدي، رغم أنني أمسكت بها عند أول لقاء لنا، ولامستُ يدي اليمنى نهدها الأيسر. لذا أظنني أتفق أيضًا مع ميكي وسيلفيا اللذين قالوا إن الحب غريب.

أحيانًا يكون جنوب وسط تكساس حارًا لا يُطاق في منتصف يوليو، لكن طقس يوم السبت في اليوم التالي للزفاف كان أقرب للكمال، كان غائمًا ودرجة حرارته معتدلة. ارتسمت خطوط طويلة من الظل والشمس

على باحة منزل ميمي الخلفية، التي كانت على منحدر طفيف ينتهي عند مجرى مائي موحل أسمته ميمي "الغدير الذي بلا اسم".

عُلقت من الأشجار رايات صفراء وفضية، ألوان ثانوية دنهولم، وبالفعل رأيت بينياتا، معلقة على ارتفاع منخفض مُغرٍ من غصن صنوبر سكر، لم يمر طفل جوارها دون أن يلقي عليها نظرة توق.

قال شخص من خلف كتفي اليسرى: «بعد العشاء سنعطي الأطفال عصيًا ليضربوها، حلوى وألعابًا لكل الأطفال».

التفتُ فرأيت مايك كوسلو، متألقًا (وسرياليًا قليلًا)، مرتديًا بنطال جينز أسود ضيق وقميص أبيض مفتوح العنق، وحزام ملون حول خصره، وعلى ظهره قبعة عريضة الحواف معلقة بخيط. رأيت عددًا من لاعبي كرة القدم الآخرين، منهم جيم لادو، يرتدون ملابس سخيفة كملابس مايك تقريبًا، ويطوفون على الحضور بصواني مقبّلات. مد مايك صينيته مبتسمًا ابتسامة مائلة قليلًا: «أتريد كانابه يا سنيور أمبرسون؟».

التقطتُ روبيانًا صغيرًا مثبتًا على عود أسنان، وغمسته في الصلصة. وقلت: «ملابسك جميلة. تبدو كالشخصية الكرتونية "سبيدي غونزالس"».

قال: «لا تبدأ. إذا أردت رؤية ملابس غريبة حقًا، فانظر إلى فينس نولز». وأشار إلى ما وراء شبكة حيث تلعب مجموعة من الأساتذة مباراة كرة طائرة فوضوية لكنها حماسية، كان محاطًا بأطفال مبهورين يشاهدونه وهو يؤدي خدعًا سحرية، يبدو كأنه يلتقط مناديل من العدم، كان ناجحًا في نظر الأطفال الذين لا ينتبهون إلى المناديل الظاهرة بداخل كُم قميصه. والتمع شاربه الأسود الفاحم تحت الشمس.

قال مايك: «عمومًا، أفضل مظهر شخصية "سيسكو كيد"».

- أنا متأكد أنكم قد تصبحون نُدلاً رائعين إذا أردتم، لكن بحق الرب من أقنعكم بارتداء هذه الملابس؟ هل يعرف المدرب بهذا؟
- لا بد. إنه هنا.
- حقاً؟ لم أره.
- إنه هناك جوار مكان الشواء، يثمل مع أعضاء "نادي الداعمين".
أما ملابسنا... السيدة ميمي قادرة على الإقناع.
تذكرت العقد الذي وقَّعته، وقلت: «أعرف».
- خفض مايك صوته: «كلنا نعرف أنها مريضة. كما إنني... أعد هذه المناسبة تمثيلاً». أتى بوقفه مصارع ثيران، لم تكن سهلة عليه وهو يحمل صينية المقبلات. وصاح: «أُريّا!».
- لا بأس، لكن...
- أعرف، لم أتممّص الدور بعد. لا بد أن أتشرَّب الشخصية، صحيح؟
- نجح ذلك مع براندو. كيف حال فريقكم في هذا الخريف يا مايك؟
- إنه عامنا الأخير، ومعنا جيم، وأنا وهانك ألفاريز وشيب ويغيز وكارل كروكيت في خط الهجوم، لذا سنذهب إلى بطولة الولاية وستكون الكرة الذهبية في خزانة جوائزنا.
- تعجبني ثقتك.
- هل سنقدم مسرحية في هذا الخريف يا سيد أمبرسون؟
- نخطط لها.
- جيد. عظيم. احجز لي دوراً... لكن نظراً إلى انشغالي بمباريات كرة القدم، لا بد أن يكون دوراً صغيراً. انظر إلى الفرقة الموسيقية، ليسوا سيئين.
- كانت الفرقة أفضل بكثير من "ليسوا سيئين". عرفت من الشعار المطبوع على الطبل الجانبي أن اسمهم ذا نايتس. بدأ المغني الرئيسي

المراهق العَد، وبدأ العازفون نسخة صاخبة من أغنية "أوه ماي هيد"، أغنية ريتشي فالنز القديمة، إلا أنها لم تكن قديمة في صيف 1961، رغم أن فالنز مات قبل عامين تقريبًا.

حملت جعتي في كوب ورقي وسرت مقتربًا من المنصة التي تعزف عليها الفرقة، بدا لي صوت المغني الفتى مألوفًا، وكذلك صوت الأرغن، الشبيه بصوت الأكورديون. وفجأة أدركت. الفتى كان دوغ سام، وبعد سنوات قليلة سوف يصدر أغنيات شهيرة، منها "شي إز أباوت أ موفر"، و"مندوسينو". كان ذلك في أثناء "الغزو البريطاني"⁽¹⁾، لذا ستتخذ الفرقة، التي يغلب على موسيقاها روك تيخانو، اسمًا بريطانيًا زائفًا: فرقة السير دوغلاس الخماسية.

- جورج! اقترب وقابل من حدّثكَ عنها.

التفتُ، فرأيت ميمي تهبط منحدر الباحة وامرأة في أعقابها. كان أول ما لاحظته في سيدي، أول ما يلاحظه أي أحد بلا شك، هو طولها. كانت تنتعل حذاء دون كعبين، وكذلك معظم النساء في الحفل، مدركات أنهن سيمضين فترة العصر والمساء في التجول كثيرًا بالخارج، لكن هذه المرأة انتعلت كعبًا آخر مرة في يوم زفافها، حتى في تلك المناسبة ربما تكون قد اختارت فستانًا يغطي حذاءها منخفض الكعبين، حتى لا تبدو شامخة فوق العريس وهما يقفان عند المذبح. يبلغ طولها ستة أقدام على الأقل، وربما أكثر قليلًا. ما زلتُ أطول منها بثلاث بوصات على الأقل. لكن عدا عن المدرب بورمان وغريغ أندروود الأستاذ بقسم التاريخ، على الأرجح كنت الوحيد الذي يفوقها طولًا. وغريغ نحيل فارع الطول. وكانت سيدي ذات بنية جسمانية جيدة أيضًا، ومُحرّجة منها بدلًا من أن تكون فخورة، أدركت هذا من طريقة مشيها.

(1) ظاهرة ثقافية في منتصف الستينيات ميّزها رواج الفرق الموسيقية البريطانية في الولايات المتحدة، أبرزها فرق البيتلز ورولنغ ستونز وبيك فلويد، وفرق أخرى كثيرة. (المترجم)

قالت مشيتها: أعرف أنني أضخم قليلاً من المعتاد. وكثفاها قالتا المزيد: هذا ليس نبي، كبرت هكذا فحسب. كانت ترتدي فستاناً بلا كُمّين مطبوعاً عليه رسم ورود، وذراعاها عليهما سُمرة، ولم تضع مكياجاً سوى أحمر شفاه خفيف.

لم يكن حُبّاً من النظرة الأولى، إنني متأكد من هذا، لكنني أتذكر تلك النظرة الأولى بوضوح مدهش. إذا قلت لكم إنني أتذكر لقائي الأول مع زوجتي السابقة بوضوح مشابه، فسأكون كاذباً. التقينا في نادي رقص وكنا ثملين، لذا ربما يشفع لي ذلك.

كانت سيّدي جميلة جمالاً طبيعياً بسيطاً، وتتسم بسمة أخرى أيضاً، في يوم الحفل ظننت تلك السمة مجرد حركات خرقاء كالتي نراها من طوال القامة أحياناً، لكن لاحقاً أدركت أنها ليست خرقاء إطلاقاً، بل العكس تماماً.

بدت ميمي حسنة المظهر، أو على الأقل لم يبدو مظهرها أسوأ مما كان يوم جاءتني إلى المنزل وأقنعتني بالعمل بدوام كامل، لكنها كانت تضع مكياجاً، على غير عاداتها، لم يُخفِ التجاعيد أسفل عينيها، التي سبّبها الأرق والألم على الأرجح، كما لم يخفف الخطوط الجديدة حول فمها. لكنها كانت مبتسمة. ولم لا؟ تزوجت رجلها، وأقامت حفلاً ناجحاً جداً، وقد جلبت فتاة جميلة ترتدي فستاناً صيفياً لتقابل أستاذ اللغة الإنجليزية الوحيد الجدير بالاختيار في المدرسة.

قلت: «مرحباً ميمي». وسرت نحوها صاعداً المنحدر الطفيف، متحرّكاً حول طاولات الورق (استُعيرت من قاعة أمفيتس) حيث سيجلس إليها الناس لاحقاً ليتناولوا الشواء ويشاهدوا الغروب. «تهانينا. أظنني الآن عليّ أن أعتاد مخاطبتك بالسيدة سيمونز».

ابتسمت ابتسامتها الجافة وقالت: «من فضلك التزم بميمي، إنه الاسم الذي اعتدته. معي عضو جديد في هيئة التدريس أود أن أعرفها بك، هذه...».

أهمل شخصٌ ما دفع أحد الكراسي القابلة للطي إلى أسفل طاولة، فاقتربت الفتاة الضخمة منه باسطةً يدها وعلى وجهها ابتسامة ترحيب، وتعثرت على الكرسي وفقدت توازنها مندفعة إلى الأمام، انقلب الكرسي معها، ورأيت أنها ستتعرض لحادث بشع إذا سقطت على إحدى سيقان الكرسي.

ألقيت كوب الجعة على العشب، وتقدمت خطوة كبيرة، وأمسكت بها قبل سقوطها، أحاطت ذراعي اليسرى بخصرها، واليمنى كانت أعلى قليلاً... فلامست شيئاً دافئاً. كان تعارفاً حميمياً، لكن الكرسي بيننا أدّى دور الناظورة.⁽¹⁾ ترنّحت قليلاً متأثراً بوزنها البالغ مئة وأربعين رطلاً تقريباً، لكنني ظللت واقفاً وهي أيضاً.

أبعدت يدي عن جزء جسدها الذي نادراً ما يلمس عند تعارف الغرباء، ثم قلت: «مرحباً، أنا...» جيك. كدت أن أخبرها باسمي في القرن الحادي والعشرين، لكنني تداركت نفسي في آخر لحظة: «جورج، سررت بمقابلتك».

كانت متوردة خجلاً، وأنا أيضاً على الأرجح، لكنها تمالكت نفسها ضاحكة: «سررت بمقابلتك. أظنك أنقذتني للتو من حادث بشع».

على الأرجح أنقذتها. هذا كل ما في الأمر، أرايتم؟ سيدي لم تكن خرقاء، بل أكثر عرضة للحوادث. وهذا أمر يبدو طريفاً إلى أن يدرك المرء أنه أمر مُضِن في الواقع. أخبرتني لاحقاً أن طرف فستانها علق في باب سيارة عندما وصلت مع رفيقها إلى حفل التخرج وتمزّق قبل

(1) في الماضي، امرأة ترافق فتاة إلى الحفلات والأماكن العامة للعناية بها أو حمايتها أو الحرص على حسن سلوكها. (المترجم)

وصولهما إلى الصالة الرياضية، وكثيراً ما تتعطل النوافير في حضورها، وتستهلك علبة ثقاب كاملة عندما تشعل سيجارة، فتحرق أصابعها أو تسفع شعرها، وينقطع رباط حمالة صدرها في أثناء اجتماعات الآباء، وتكتشف تمرّقات في جواربها الطويلة في الفعاليات المدرسية التي يُفترض أن تتكلم فيها.

كانت تنتبه لرأسها عندما تعبر الأبواب (مثلما يتعلم جميع طوال القامة العقلانيون)، لكن الناس يفتحونها بلا مبالاة في وجهها عند اقترابها منها. وقد علقت في مصاعد ثلاث مرات، ظلت عالقة ساعتين في إحدى المرات. وفي العام السابق بمركز تجاري في سافنا، التهم سُلّم كهربائي حذاءها. بالطبع لم أكن أعرف أيّاً من هذا عندئذٍ، كل ما عرفته في ذلك العصر من يوليو أن امرأة جميلة شقراء وزرقاء العينين سقطت بين ذراعي.

قالت ميمي: «أرى أنك والآنسة دَنِهْل تنسجمان على نحو ممتاز. سأترككما لتتعرفا إلى بعضكما».

قلت لنفسي: إذن تغيير الاسم من السيدة كلايتون إلى الآنسة دَنِهْل وُضع موضع التنفيذ سلفاً، سواء أُكِمِلت الإجراءات الرسمية أم لم تُكْمَل. في تلك الأثناء كانت إحدى سيقان الكرسي مغروزة في الطين، حاولت سيّدي نزعه، لم يتحرك في البداية، وعندما تحرك لامس طرف فخذه ورفع فستانها كاشفاً عن جوب طويل حتى أعلى رباطه، الذي كان وردياً كلون الورود على فستانها. أطلقت صيحة سُخط قصيرة، وتحول وجهها المتورد إلى لون أشد قتامة.

أخذت الكرسي منها ووضعتُه جانباً بحزم وقلت لها: «الآنسة دَنِهْل... سيّدي... أظنك في حاجة مُلحّة إلى جعة باردة الآن، تعالي معي».

قالت: «شكراً لك. آسفة، أُمي قالت لي ألا أُلقي بنفسي على الرجال، لكنني لا أتعلم أبداً».

وفي أثناء اقتيادها نحو صف براميل الجعة، مشيرًا إلى بضعة أساتذة في طريقنا (ممسكًا بذراعها لأبعدها عن لاعب كرة طائرة بدا على وشك الارتطام بها وهو يتراجع ليعيد كرة عالية)، أيقنتُ من أمرٍ واحد، وهو أننا يمكن أن نكون صديقين، صديقين مقربين ربما، لكن لا أكثر من ذلك أبدًا، مهما كانت ميمي تأمله. في فيلم كوميدي من بطولة روك هُدسون ودورس داي، لُعد تعارفنا «لقاءً ظريفًا طريفًا»، لكن في الحياة الواقعية، أمام جمهور ما يزال يبتسم، كان لقاؤنا أخرقَ مُحرجًا. صحيح أنها جميلة، وصحيح أنه من اللطيف السير مع فتاة طويلة لكنني أطول منها، وبالتأكيد استمتعت بلمس جسدها اللِّدِن بداخل طبقتين من القطن والنايلون المثير، لكن ما لم يكن المرء مراهقًا في الخامسة عشرة، فإن ملامسة غير مقصودة في حفل لا تُعد حُبًّا من النظرة الأولى. قدمت للآنسة دنهل، التي استعادت لقب آنسة مؤخرًا، كوب جعة، ووقفنا نتحدث جوار مَشرب أُعد مؤقتًا للمناسبة. ضحكنا عندما رأينا الحمامة التي استأجرها فينس نولز للمناسبة تطل برأسها من قبعته وتنقر إصبعه. ثم أشرت لها إلى مزيد من أساتذة دنهولم (كثيرون منهم غادروا عالم الرزانة على متن قطار الكحول السريع). قالت إنها لن تستطيع أن تعرفهم كلهم، وطمأنتها بأنها تستطيع. طلبت منها الاتصال بي إذا احتاجت إلى أي شيء. طرائق بدء المحادثات والعادات الاجتماعية المقبولة وما إلى ذلك. ثم شكرتني مجددًا على إنقاذها من السقوط البشع، وذهبت لتساعد على جمع عصابة الأطفال حول البينيئاتا. شاهدتها تبتعد، ليس مُغرماً لكن بشيء من الشهوة، أعترف أنني استحضرت في عقلي لوهلة صورة جوربها الطويل ورباطه الوردي.

عادت أفكارِي إليها في تلك الليلة وأنا أستعد للنوم. رأيت أن سيدي تشغل حيزًا كبيرًا على نحو جميل، وعينيَّ لم تكونا الوحيدتين اللتين تابعتا تثنيَّ قوامها بداخل فستانها الجميل. لكن هذا كل شيء. ماذا غير ذلك؟ كنتُ قد قرأت رواية اسمها زوجة يُعتمد عليها قبل وقت ليس

بالطويل من بدء رحلتي إلى الماضي، والآن وأنا آوي إلى الفراش خطرت لي عبارة من تلك الرواية: «فقد الرجل عادة العلاقات الرومانسية». قلت لنفسي وأنا أطفئ المصباح: هذا أنا، فقدتُ العادة تمامًا. ومن ثم، بينما الجدادج تهددني لأنام: لكن نهدها لم يكن جميلًا وحده، بل وزنها أيضًا، وإحساسي بوزنها على ذراعي. اتضح لي لاحقًا أنني لم أفقد عادة العلاقات الرومانسية إطلاقًا.

7

كان أغسطس في جودي ساخناً كُفرن، تصل درجات الحرارة إلى تسعين درجة فهرنهايت يوميًا، وأحيانًا تتجاوز المئة. مكيف الهواء بمنزلي المستأجر في جادة ميسا كان جيدًا، لكن ليس بما يكفي لتحمل الإجهاد الشديد. لكن أحيانًا، عندما تهطل أمطار خفيفة، تكون الليالي أفضل قليلًا، بمقدار بسيط.

كنت جالسًا إلى مكتبي في صباح 27 أغسطس، أعمل على رواية مكان القتل مرتديًا سروال كرة سلة قصير ولا شيء آخر، عندما رن جرس الباب. قطبتُ حاجبي، إذ كان يوم أحد، سمعتُ للتو أجراس الكنائس، ومعظم الذين أعرفهم يذهبون إلى أحد أماكن العبادة الخمسة أو الأربعة في البلدة.

ارتديت تيشيرت سريعًا وذهبت إلى الباب، وجدتُ المدرب بورمان مع إيلين دوكرتي، الرئيسة السابقة لقسم الاقتصاد المنزلي ومديرة المدرسة مؤقتًا خلال العام القادم، لم يُفاجأ أحد عندما قدم ديكي استقالته في يوم تقديم ميمي استقالتها نفسه. كان المدرب محشورًا بداخل بدلة زرقاء ويضع ربطة عنق مبهرجة بدت خانقة حول عنقه السميك. وكانت إيلين ترتدي ملابس رمادية رسمية أنيقة، مع وشاح صغير حول عنقها. كلاهما بدا متجهماً. وأول ما خطر لي كان أمرًا

مُقْنَعًا وَجَامِحًا: إِنَهُمَا يَعْرِفَانِ بِطَرِيقَةٍ مَا، يَعْرِفَانِ مِنْ أَنَا وَمِنْ أَيْنِ جِئْتُ، وَقَدْ جَاءَ الْإِخْبَارِي.

رَأَيْتُ شَفْتِي الْمَدْرَبَ بَورْمَانَ تَرْتَعْشَانِ، وَرَغْمَ أَنَّ إِيْلِينَ لَمْ تَنْشَجْ، فَقَدْ تَرَقَّرَتْ عَيْنَاهَا بِالْدمُوعِ. عِنْدَئِذٍ عَرَفْتُ: «مِيمي..؟».

أَوَّمَا الْمَدْرَبَ وَقَالَ: «دِيكِي أَتَصِلُ بِي. ثُمَّ اصْطَحَبْتُ إِيْلِينَ، عَادَةً مَا أُرَافِقُهَا إِلَى الْكَنِيسَةِ، وَالْآنَ نَخْبِرُ النَّاسَ، نَخْبِرُ الَّذِينَ أَحْبَبْتَهُمْ مِيمي أَوَّلًا».

قُلْتُ: «يُؤَسِّفُنِي سَمَاعُ هَذَا. كَيْفَ حَالُ دِيكِي؟».

قَالَتْ إِيْلِينَ: «مَتَمَاسِكَ عَلَى مَا يَبْدُو». ثُمَّ أَلْقَتْ عَلَى الْمَدْرَبِ نَظْرَةً بَشِيءٍ مِنَ الْحَدَّةِ وَأَرْدَفْتُ: «بِحَسَبِ مَا قَالَهُ».

قَالَ الْمَدْرَبُ: «أَجَلْ، إِنَّهُ بَخِيرٌ. مُضْطَرَبٌ قَلِيلًا بِالطَّبْعِ».

قُلْتُ: «بِالطَّبْعِ».

قَالَتْ إِيْلِينَ: «سَيَحْرِقُ جَنْتَهَا. قَالَ إِنَّ هَذَا مَا أَرَادَتْهُ». زَمَّتْ شَفْتَيْهَا اِمْتِعَاضًا.

فَكَّرْتُ بِذَلِكَ، وَقُلْتُ: «يَنْبَغِي أَنْ نَقِيمَ لَهَا فَعَالِيَةً خَاصَّةً عِنْدَمَا يَبْدَأُ الْعَامُ الدِّرَاسِي. أَيْمَكُنَّا فَعَلَ ذَلِكَ؟ يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ، أَوْ نَرْتَبِ مَعْرُضَ صُورٍ لَهَا، لَا بَدَّ مِنْ وَجُودِ صُورٍ كَثِيرَةٍ لَهَا».

قَالَتْ إِيْلِينَ: «هَذِهِ فِكْرَةٌ رَاضِيَةٌ، أَيْمَكُنْكَ تَنْظِيمُ الْفَعَالِيَةِ يَا جُورْج؟».

- سَأُسَعِدُ بِالْمَحَاوَلَةِ.

- اطْلُبْ مِنَ الْآنَسَةِ دَنَهْلَ مَسَاعِدَتِكَ.

وَقَبْلَ أَنْ تَدُورَ فِي عَقْلِي شُكُوكُ مَحَاوَلَاتِ تَعَمُّدٍ تَقْرِيبِي مِنَ الْآنَسَةِ، أَرْدَفْتُ: «أُظَنَّ أَنَّ الْفَتْيَةَ وَالْفَتَيَاتِ الَّذِينَ أَحَبُّوا مِيمي سَيَسْعَدُونَ بِمَعْرِفَةِ أَنَّ بَدِيلَتَهَا الَّتِي اخْتَارَتْهَا بِنَفْسِهَا سَاعَدَتْ عَلَى تَنْظِيمِ الْفَعَالِيَةِ التِّذْكَارِيَّةِ، سَتَكُونُ سَيِّدِي أَيْضًا سَعِيدَةً».

ستسعد بالطبع. بوصفها قادمة جديدة سيساعدها بدء العام الدراسي بالمشاركة في تأسيس أمانة المكتبة المحبوبة.

قلت: «حسنًا، سأحدث معها. شكرًا لكما. هل ستكونان بخير؟».

قال المدرب بنبرة ثابتة: «بالطبع». لكن رأيت شفثيه ما تزالان ترتعشان. استلطفته لذلك. سارا ببطء إلى سيارته المركونة عند الرصيف، وكان المدرب ممسكًا بمرفق إيلين. استلطفته لذلك أيضًا.

أغلقت الباب، وجلست على مقعد في الصالة الأمامية، تذكرت قول ميمي إنها ستفجع إذا لم أتولَّ الإشراف على المسرحية، وإذا لم أوافق على التدريس بدوام كامل لمدة عام على الأقل، وأيضًا إذا لم أحضر حفل زواجها. ميمي، التي رأت أن كتاب الحارس في حقل الشوفان ينبغي أن يكون في مكتبة المدرسة، التي لم تكن لتعرض عن علاقة حميمية لطيفة عابرة في أمسية سبت. كانت من الأساتذة الذين يظل الفتية يتذكرونهم بعد وقت طويل من تخرُّجهم، وأحيانًا يعودون للزيارة بعدما لا يعودون فتية. كانت من الأساتذة الذين يظهرون في لحظة حرجة من حياة طالب مضطرب ويحدثون فيها تغييرًا إيجابيًا.

ورد في سفر الأمثال: امرأة فاضلة من يجدها؟ لأن ثمنها يفوق اللآلئ. بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة. تصنع له خيرًا لا شرًا كل أيام حياتها. تطلب صوفًا وكتانًا وتشتغل بيدي راضيتين. هي كسفن التاجر. تجلب طعامها من بعيد⁽¹⁾.

ثمة ملابس غير التي يرتديها المرء على جسده، كل أستاذ يعرف هذا، والطعام ليس ما يضعه المرء في فمه فحسب، وقد أطعمت ميمي كثيرين وكستهم، بمن فيهم أنا. لبثت جالسًا على المقعد، الذي اشتريته من سوق للسلع المستعملة في فورت وورث، واضعًا رأسي على يدي. فكرت بميمي، وكنت حزينًا جدًا، لكن عيني بقيتا جافتين.

(1) الفقرة من إنجيل الملك جيمس، سفر الأمثال 31: 10 - 31. (المترجم)

لم أكن يوماً رجلاً يمكن وصفه بأنه كثير البكاء.

8

وافقت سَيِّدي فوراً على مساعدتي في تنظيم الفعالية التذكارية، وعملنا عليها طوال آخر أسبوعين من أغسطس الحار، تجولنا بالسيارة في البلدة لنبلغ الذين سيتحدثون في الفعالية. كَلَّفْتُ مايك كوسلو بقراءة فقرات سفر الأمثال التي تصف المرأة الفاضلة. وتطوع آل ستيفنز برواية قصة -لم أسمعها بنفسي من ميمي قط- عن تسمية ميمي للبرونغر، طبق مطعمه الخاص. وجمعنا أكثر من مئتي صورة فوتوغرافية، المفضلة لديّ تُظهر ميمي وديكي يرقصان التويست في حفل بالمدرسة، بدت ميمي مستمتعة، وبدا ديكي كأنه يعاني ألماً في بطنه. انتقينا الصور في مكتبة المدرسة، حيث صارت لوحة الاسم الصغيرة على المكتب مكتوباً عليها الآنسة دَنِّهْل بدلاً من السيدة ميمي. خلال ذلك الوقت أنا وسَيِّدي لم نتبادل قُبلة، ولم نشابك يدينا، أو حتى ننظر إلى بعضنا أكثر من وهلة وجيزة. لم نتحدث عن زواجها المنهار ولا عن أسباب مجيئها إلى تكساس من جورجيا. لم أتحدث عن روايتي ولم أخبرها عن ماضيّ المُخْتَلَق. تحدثنا عن الكتب. وتحدثنا عن كينيدي، وقد رأْتُ أن سياسته الخارجية شوفونية. ناقشنا حركة الحقوق المدنية، الوليدة عندئذٍ، وأخبرتها عن اللوح الموضوع على المجرى المائي عند نهاية درب منحدر خلف محطة وقود هَمْبِل أويل في نورث كارولينا، فقالت إنها رأت مراحيض مثل ذاك للملونين في جورجيا، لكنها توقعت أن أيامها صارت معدودة. توقعتُ دمج مدارس البيض والسود، لكنه على الأرجح سيتأخر إلى منتصف السبعينيات، وقلت لها إنني أتوقعه في وقت أقرب، بتأييد من الرئيس الجديد وشقيقه الأصغر النائب العام.

ضحكت هازئة: «تُكن احترامًا كبيرًا لذلك الأيرلندي المبتسم. أخبرني، هل سيقص شعره يومًا؟».

لم نصبح عاشقين، لكننا أصبحنا صديقين. أحيانًا كانت تتعثر بالأشياء (بما فيها قدمها هي نفسها، اللتان كانتا كبيرتين)، وقد أمسكت بها مرتين، لكنهما لم تكونا جديرتين بالتذكُّر كالمرة الأولى. وأحيانًا كانت تقول فجأة إنها لا بد أن تدخن سيجارة، فأرافقها إلى منطقة تدخين الطلاب خلف ورشة الحِداة.

ذات يوم قالت: «سوف يؤسفني عدم قدرتي على المجيء إلى هنا والتمدد على المقعد مرتدية بنطال الجينز القديم. صالات استراحة الأساتذة سيئة التهوية دومًا». كانت هذه المحادثة قبل أقل من أسبوع من بداية الدراسة.

قلت لها: «ذات يوم سيتغير كل هذا، سيُحظر التدخين في المدارس، سيُحظر على الأساتذة وعلى الطلاب أيضًا».

ابتسمت. وكانت ابتسامة جميلة، لأن شفثيها ممتلئتان رشيقتان. ولا بد لي من قول إن بنطال الجينز كان يبدو جيدًا عليها، إذ لديها ساقان طويلتان، وردفان بحجم يناسبهما. قالت: «مجتمع خال من السجائر... أطفال الزنوج وأطفال البيض يعيشون في وئام تام... لا عجب أنك تكتب رواية، لديك مخيلة جامحة. ماذا ترى أيضًا في كُرتك البلورية يا جورج؟ صواريخ تنطلق إلى القمر؟».

- بالتأكيد، لكن بعد مدة أطول قليلًا من الدمج. مَنْ أخبرك بأنني أكتب رواية؟

قالت: «ميمي...» سحقت سيجارتها في واحدة من منافض السجائر الست. «قالت إنها رواية جيدة. وبمناسبة الحديث عن ميمي، أظن أن علينا العودة إلى العمل، كدنا أن ننتهي من فرز الصور، أليس كذلك؟».

- بلى.

- وهل أنت متأكد أن تشغيل أغنية ويست سايد ستوري تلك في أثناء عرض الصور ليست أمرًا مبتذلًا؟
- رأيت أنها أشد ابتذالًا من ولايتي آيوا ونبراسكا معًا، لكنها كانت أغنية ميمي المفضلة، حسبما قالته إيلين دوكرتي.
- قلت ذلك لسَيدي، فضحكت متشككة: «لم أعرفها معرفة وثيقة، لكنني متأكدة أن تلك الأغنية لا تشبهها. ربما تكون أغنية إيلين المفضلة».
- الآن عندما أفكر بذلك، لا يبدو لي مُستبعدًا. اسمعي يا سَيدي، أتودين الذهاب معي إلى مباراة كرة القدم يوم الجمعة؟
- قالت: «من دواعي سروري». صمتت وبدأت قلقًا قليلًا، وأردفت: «بشرط أن... كما تعرف، لا تخطر لك أي أفكار، لست مستعدة للمواعدة بعد، ربما لا أفكر بالمواعدة إلا بعد وقت طويل».
- قلت: «وأنا أيضًا». على الأرجح كانت تفكر بزوجها السابق، لكنني كنت أفكر بأوزوالد. عما قريب سيستعيد جواز سفره الأمريكي، وبعدها ما عليه سوى تدبُّر تأشيرة خروج سوفيتية لزوجته. «لكن الأصدقاء يذهبون إلى المباريات معًا أحيانًا».
- صحيح، وأحب قضاء الوقت معك يا جورج.
- لأنني أطول منك.
- لكمtnي على ذراعي مازحة، لكمة شقيقة كبرى: «صحيح يا صديقي، أنت من القليلين الذين أرفع رأسي عند النظر إليهم».

9

في المباراة كل الجمهور تقريبًا رفع رأسه لينظر إلينا، وبشيء من الانبهار، كأننا ممثلان لجنس بشري مختلف قليلًا. وجدتُ ذلك لطيفًا نوعًا ما، وللمرة الأولى لم تضطر سَيدي إلى الانكماش حتى تبدو طبيعية.

كانت ترتدي سترة وبنطالها الجينز الباهت، وشعرها معقود إلى الخلف على شكل ذيل الحصان، بدت كأنها هي نفسها طالبة مدرسة ثانوية في السنة الأخيرة، طالبة طويلة، على الأرجح ضمن فريق الكرة الطائرة.

جلسنا في صف مقاعد أعضاء هيئة التدريس، وهتفنا مع الجمهور عندما حير جيم لادو دفاع فريق أرنيث بيرز ببضع تمريرات قصيرة، ثم عند تمريرة من مسافة ستين ياردة جعلت الجمهور يهب واقفاً. بعد انتهاء نصف الوقت كانت النتيجة 31 لِدِنهولم، و6 لأرنيث. وفي أثناء خروج اللاعبين من الملعب ودخول فرقة دنهولم الموسيقية بآلاتهم، اقترحتُ على سيدي شطيرة نقانق وكولا.

- بالتأكيد، لكن الآن سيكون الصف طويلاً ممتداً إلى موقف السيارات. انتظر حتى يُعلن عن وقت مستقطع في الربع الثالث أو نحوه. لا بد أن نزار كالأسود ونصيح بهتاف جيم.

- أظنك بمقدورك فعل ذلك وحدك.

ابتسمت لي وأمسكت بذراعي قائلة: «لا، أحتاج إلى مساعدتك، إنني جديدة هنا، أتذكر؟».

إثر لمستها أحسستُ بقشعريرة طفيفة دافئة، استبعدت أن تكون نابعة عن صداقة. لِمَ لا؟ كان خدّاهما متوردين من الحماس، وعيناها متلائيّتين، بدت فائقة الجمال تحت ضوء الكشافات وسماء تكساس اللازوردية عند الغسق. لربما تطورت الأمور بيننا على نحو أسرع لولا ما حدث بعد انتهاء النصف الأول من المباراة في تلك الليلة.

سارت الفرقة في أنحاء الملعب كما تفعل الفرق الموسيقية المدرسية عادةً، بخطوات منتظمة، لكنها ليست متناغمة تماماً، وظلوا يعزفون لحناً لا يستطيع المرء تبيّنه. وعندما انتهوا ركض فريق قائدات التشجيع إلى خط الياردات الخمسين، وألقين بكُريات التشجيع أمام أقدامهن، ووضعن أيديهن على أوراكنهن: «أسمِعونا لام!».

أسمعناهن ما أردن سماعه، وامتلئنا أيضًا عندما طلبن ياء، وواو، ونون، وزاي.

«حروف أي كلمة هذه؟».

«ليونز!». نهض جميع مشجعي الفريق المُضيف وصفقوا.

«مَن سيفوز؟».

«ليونز!». لم يكن ثمة شك في هذا، نظرًا إلى نتيجة النصف الأول.

«إذن أسمعونا زئيركم!».

زأرنا بالطريقة التقليدية، بالالتفات إلى اليسار أولاً ثم إلى اليمين. أطلقت سيدي العنان لنفسها، واضعة كفيها حول فمها، وتأرجح ذيل الحصان خلف رأسها من كتف إلى أخرى.

وبعد الزئير كان "هتاف جيم". في الأعوام الثلاثة الماضية (نعم، نجمنا السيد لادو بدأ يلعب ظهيرًا ربعيًا بالفريق منذ أن كان في السنة الأولى) ظل هذا تقليدًا بسيطًا: قائدات التشجيع يصرخن بكلام على شاكلة: «فلنسمع فخر الأسود! فلنسمع اسم قائد فريقنا!»، فيهدر الجمهور: «جيم! جيم! جيم!». بعدها تؤدي قائدات التشجيع حركات بهلوانية، ثم يركضن إلى خارج الملعب حتى تدخل الفرقة الموسيقية للفريق الآخر وتعزف بضعة ألحان. لكن في هذا العام، ربما احتفاء بموسم جيم الوداعي، تغير الهتاف.

كلما هتف الجمهور: «جيم»، ردت قائدات التشجيع بالمقطع الأول من اسمه الأخير: «لا»، بصياح ممطوط كأنه نغمة موسيقية طويلة. هذا كان جديدًا، لكنه غير معقد. استمر الجمهور مرددًا الهتاف، وظلت سيدي تهتف معهم، إلى أن لاحظت صمّتي. كنت واقفًا ساكنًا فاغرا فمي.

- جورج؟ هل أنت بخير؟

لم أستطع الرد. بل سمعتها بالكاد. لأن معظم عقلي عاد إلى ليسبون فولز، خرجت للتو عبر جحر الأرنب، وسرت بمحاذاة جانب سقيفة التجفيف وانحنيت أسفل السلسلة، كنت مستعدًا لملاقاة رجل البطاقة الصفراء، لا للتعرض لهجوم منه، وهذا ما حدث، إلا أنه لم يعد رجل البطاقة الصفراء، صار رجل البطاقة البرتقالية. كان قد قال لي: يُفترض ألا تكون هنا. من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟ وعندما بدأت أسأله عما إذا جَرَّب الانضمام إلى جمعية مدمني الكحول المجهولين، قال...

«جورج؟ ماذا بك؟ ما الخطب؟». بدت قلقة.

استمر الجمهور وقائدات التشجيع في ترديد الهتاف، ظلت قائدات التشجيع يهتفن: «جيم»، وظل الجمهور يرد: «لا».

اغرب عن وجهي يا جيملا! هذا ما قاله مزمرًا لي رجل البطاقة الصفراء الذي صار رجل البطاقة البرتقالية (لم يكن قد صار بعد رجل البطاقة السوداء إثر موته بيديه)، كان الهتاف نفسه الذي أسمعته الآن، يتردد بين قائدات المشجعات والجمهور البالغ عدده ألفين وخمسمئة: «جيملا، جيملا، جيملا!».

أمسكت سيدي بذراعي وهزّنتني: «تحدث معي يا هذا! تحدث معي لأنني بدأت أخاف!».

التفت إليها مبتسمًا بصعوبة، وقلت: «أعاني إرهابًا مفاجئًا فحسب. سأذهب لجلب الكولا».

- هل سيُغْمى عليك؟ يمكنني مرافقتك إذا...

- إنني بخير.

ودون أن أفكر فيما أفعله، قَبَلْتُ طرف أنفها. وصاح فتى ما: «أحسنَت يا أستاذ أمبرسون!».

لم تبدُ سيدي منزعة، حرَّكتُ أنفها كأنها أرنب، ثم ابتسمت قائلة: «اذهب إذن، قبل أن تدمر سمعتي. واجلب لي شطيرة نقانق بالفلفل الحار وكثير من الجبن».

- كما تأمرين يا سيدتي.

الماضي يتناغم مع نفسه، وهذا أمرٌ استوعبته سلفاً. لكن ماذا يجري الآن؟ لم أعرف، وتملكني القلق. في الممر الخرساني المفضي إلى كشك بيع المشروبات المرطبة ارتفع صوت الهاتف، فجعلني أرغب في وضع يدي على أذني لأحجبه.

«جيملًا، جيملًا، جيملًا!».

الجزء الرابع

سَيِّدِي والجنرال



الفصل الرابع عشر

1

أُقيم التجمُّع التذكاري عند نهاية اليوم الأول من العام الدراسي، وإذا كان لأحد أن يقيس النجاح بالمناديل المبللة، فقد نجح العرض الذي نظمته مع سيدي نجاحًا باهرًا. إنني متأكد أن المناسبة حرَّكت عواطف الفتية، وأظن أن السيدة ميمي نفسها كانت لتستمتع بها. قالت لي ذات يوم: الساخرون عادةً ما يكونون مُرهِّفين خلف أقنعتهم الصلبة، وأنا لست مختلفة.

ظل الأساتذة متماسكين خلال معظم خطابات التآبين، لكنهم انهاروا عندما بدأ مايك إلقاء فقرة سفر الأمثال إلقاءً هادئًا نابعًا من القلب، ثم في أثناء عرض الصور، مع موسيقى فيلم ويست سايد ستوري الجياشة. وجدت المدرب بورمان مُسليًا، انهمرت الدموع على خديه المحمرين، وراح ينشج بأصوات كالنقيق، ذكّرني مدرب فريق كرة القدم بمدرسة دنهولم بشخصية البطة الكرتونية الثانية تفضيلًا لدى جميع الناس: بيبي هيوي.

همستُ بهذه الملاحظة لسَيدي ونحن واقفان بجوار الشاشة الضخمة التي تستعرض صور الأنسة ميمي. كانت سَيدي أيضًا تبكي، لكنها انسحبت من المسرح إلى الأجنحة الخلفية وهي تحاول مقاومة الضحك الذي تغلب على دموعها، ثم عادت إلى الظلال، ونظرت إلي موبَّخة... ثم مدَّت لي إصبعها الوسطى. رأيت أنني أستحق ذلك. وتساءلت عما إذا

كانت ميمي لتظل على رأيها في أنني وسيُدي نتعرف إلى بعضنا على نحو ممتاز.

على الأرجح لظَلَّت على رأيها.

اخترتُ اثنا عشر رجلًا غاضبًا لتكون مسرحية الخريف، وتعمّدت عدم إخطار شركة سامويل فرنش بأنني أعتزم تغيير اسم المسرحية إلى هيئة المُحَلِّفين، حتى أُسند بعض الأدوار إلى فتيات. قررت إجراء اختبارات الممثلين في أواخر أكتوبر، وبدء التدريبات في 13 نوفمبر، بعد آخر مباراة موسم لليونز. نويت اختيار فينس نولز ليؤدي دور المُحَلِّف رقم 8، المُمَانِج الذي أدى دوره هنري فوندا في الفيلم، ومايك كوسلو للدور الذي أراه الأفضل في العرض، دور المُحَلِّف رقم 3 المُتَنَمَّر المثير للحنق.

لكنني كنت قد بدأت التركيز على مسرحية أكثر أهمية، مقارنةً بها سيبدو ما فعلته مع فرانك دننغ كمسرحية هزلية، فلنُسمَّها جيك ولي في دالاس. إذا سار كل شيء على ما يرام، فستكون مسرحية مأسوية من فصل واحد. لا بد لي من الاستعداد لدخول المسرح عندما يحين الوقت، والاستعداد يعني البدء مبكرًا.

2

في السادس من أكتوبر حقق دنهولوم ليونز فوزهم الخامس، في طريقهم إلى موسم بلا هزيمة سيُهدى إلى فينس نولز، الفتى الذي أدى دور جورج في مسرحية عن الفئران والرجال ولن تسنح له فرصة التمثيل في نسخة جورج أمبرسون من مسرحية اثنا عشر رجلًا غاضبًا، لكن سأحدث عن هذا الأمر بمزيد من التفصيل لاحقًا. كان اليوم بداية عطلة نهاية أسبوع ستمتد ثلاثة أيام، لأن يوم الاثنين التالي كان يوم كولومبس.

قدت سيارتي إلى دالاس في العطلة. وجدت معظم المحلات التجارية مفتوحة، وتوقفت أولاً عند أحد مكاتب الرهن في جادة غرينفيل. قلت للرجل صغير الحجم الواقف خلف نضد البيع إنني أريد شراء أرخص خاتم زواج لديه، وخرجت بحلقة ذهبية سعرها ثمانية دولارات (على الأقل بدت ذهبية) حول إصبع يدي اليسرى. ثم قُدت إلى وسط المدينة إلى محل جنوب الشارع الرئيسي بحثت عنه في صفحات دليل عناوين دالاس: "مايك الصامت للإلكترونيات"، استقبلني فيه رجل أنيق ضئيل الحجم يضع نظارة إطارها مصنوع من قرون حيوان وِزرًا غريبًا على صدريته، مكتوبًا عليه: لا تثق بأحد.

سألته: «هل أنت مايك الصامت؟».

- نعم.

- وهل أنت صامت حقًا؟

ابتسم قائلاً: «هذا يتوقف على المستمع».

قلت له: «فلنفترض أن لا أحد يستمع». وأخبرته بما أريد. اتضح لي أنني كان بوسعي توفير الدولارات الثمانية، لأن الرجل لم يُبد أدنى اكتراث بزواجتي الخائنة المزعومة. بل اهتم بالجهاز الذي أردت شراءه، في هذا الموضوع صار مايك الثرثار.

- يا سيدي، ربما يوجد جهاز كالذي تريده في الكوكب الذي جئت منه، أيًا كان، لكن ليس لدينا هنا بالتأكيد.

ذُكرني كلامه بمقارنة ميمي لي بكائن فضائي زائر في رواية يوم توقفت الأرض عن الدوران.

- لا أعرف ما تعنيه.

- تريد جهاز استماع لا سلكي صغيراً؟ لا بأس، لدي كثير منه في ذلك الصندوق الزجاجي إلى يسارك، اسمه راديو ترانزستور. لدي ماركات موتورولا وجي إي، لكن الصناعة اليابانية هي الأفضل.

مطّ شفته السفلى ونفخ خصلة شعر متدلية فوق جبينه، وتابع: «أليست هذه لطمة على الوجه؟ هزمناهم قبل خمسة عشر عاماً بتفجير اثنين من مدنهم حتى صارتا غباراً إشعاعياً، لكن هل ماتوا؟ لا! اختبئوا في جحورهم حتى انقشع الغبار، ثم خرجوا مسلحين بالأجهزة الإلكترونية وشتى أنواع الآلات بدلاً من الأسلحة الرشاشة. بحلول عام 1985 سوف يمتلكون العالم، أو الجزء الذي أعيش فيه أنا على الأقل».

- إذن لا تستطيع مساعدتي؟

- ماذا؟ هل تمزح؟ أستطيع بالطبع. مايك مكيشن الصامت يسعد دومًا بتلبية احتياجات الزبائن من الأجهزة الإلكترونية، لكنها ستكلفك.

- إنني مستعد لتحمل التكلفة. وربما أوفر على نفسي أكثر عندما أذهب مع تلك الخائنة العاهرة إلى المحكمة للطلاق.

- أجل. انتظر هنا دقيقة ريثما أجلب شيئاً من الخلف. وأدر تلك اللافتة على الباب إلى مُغلق، هلاً فعلت؟ سأريك شيئاً على الأرجح ليس... ربما يكون قانونياً، لكن من يدري؟ هل مايك مكيشن الصامت محام؟

- لا أظن.

غاب دليلي إلى إلكترونيات حقبة الستينيات وعاد حاملاً جهازاً غريباً بيد، وصندوقاً صغيراً من الورق المقوى باليد الأخرى، وعلى الصندوق كتابة باللغة اليابانية. بدا الجهاز كشيء أسطواني، مثبت على قرص بلاستيكي أسود سُمكه ثلاث بوصات وقطره رُبع بوصة، وتنبثق منه عدة أسلاك. وضعه مايك على النضد.

قال: «هذا جهاز إيكو. صُنِعَ هنا في البلدة يا بُني. إذا كان بمقدور أحد هزيمة أبناء اليابان في لعبتهم، فهو نحن. سوف تسود الأجهزة الإلكترونية في دالاس بحلول 1970، تذكّر كلامي». ارتسمَ بشارة الصليب وأشار إلى السماء، وأردف: «بارك الرب في تكساس».

حملتُ الجهاز وقلت: «ماذا يفعل تحديدًا عندما يكون في المنزل؟».

- إنه أقرب شيء لجهاز التنصّت الذي وصفته لي. وهو صغير لأنه لا يحتوي على أنابيب مفرغة ولا يعمل على البطاريات، بل يعمل بالتيار الكهربائي المنزلي العادي.

- هل يمكن تثبيته في قابس على الجدار؟

- بالتأكيد! لم لا؟ يمكن لزوجتك وعشيقها أن ينظرا إليه ويقولوا: "كم هذا جميل، زرع شخصٌ ما جهاز تنصت بينما نحن بالخارج، فلنتضاجع بصوت عال ثم نتحدث عن جميع شؤوننا الخاصة".

كان الرجل متهمكًا غريب الأطوار بالتأكيد، لكن كان لا بد لي من التحلّي بالصبر، وقد كنت في أمس الحاجة إلى الجهاز.

- ماذا أفعل به إذن؟

نقر الرجل على القرص قائلًا: «هذا الجزء يُنَبِّت بداخل مصباح، ليس مصباحًا أرضيًا، إلّا إذا كنت مهتمًا بتسجيل أصوات تراكض الفئران بداخل ألواح الأرضية، فاهتم؟ مصباح منصّدة، حتى يكون قريبًا من حديث الناس». مرر يده على الأسلاك وتابع: «الأحمر والأصفر يتصلان بسلك المصباح، وسلك المصباح متصل بالقابس. يظل الجهاز هامدًا إلى أن يضيء شخصٌ المصباح، وعندئذٍ يبدأ التسجيل».

- وذلك الشيء الآخر هو الميكروفون؟

- نعم، وهو جيد رغم أنه أمريكي الصنع. والآن... أترى السّلكين الآخرين؟ الأزرق والأخضر.

- نعم.

فتح صندوق الورق المقوى الذي عليه كتابة باليابانية، وأخرج جهاز تسجيل ذا شريط حول بكرتين. بدا أكبر قليلاً من علبة سجائر ونستون التي تدخنها سيدي.

- هذان السلكان يتصلان بهذا. الوحدة الرئيسية تُثَبَّت في المصباح، وجهاز التسجيل يوضع في دُرج مكتب أو تحت ملابس زوجتك الداخلية، أو يمكنك حفر حفرة صغيرة في الجدار خلف خزانة الملابس.

- جهاز التسجيل أيضًا يستمد الكهرباء من سلك المصباح؟
- بالطبع.

- أيمكنني الحصول على جهازين كاملين؟

- يمكنني أن أجلب لك أربعة، إذا أردت. لكن سأستغرق قرابة أسبوع.

- الاثنان كافيان. كم ثمّنهما؟

- أشياء كهذه ليست زهيدة. سيكلفك الاثنان مئة وأربعين دولارًا. هذا

أفضل عرض يمكنني تقديمه لك. ولا بد من الحساب نقدًا.

تكلم بنبرة أسف توحى بأننا نتحدث في موضوع مُحَبَّب إليه لكنه أوشك على الانتهاء.

قلت: «كم ستطلب مني إذا طلبتُ منك تركيب الجهازين؟». رأيت ذعره، فسارعتُ إلى تبديده: «لا أقصد الذهاب إلى المنزل وتركيب الجهاز هناك، كلاً، لا أريد منك سوى تركيب جهازي التنصت في مصباحين وتوصيل شريطي التسجيل. أيمكنك فعل هذا؟».

- بالطبع يا سيد...؟

- فلان، فلان، فلان الفلاني.

برقت عيناه كما أتخيل بريق عيني هاوارد هنت⁽¹⁾ وهو بصدد خوض مغامرة فندق ووترغيت، وقال: «اسم جيد».

- شكرًا. ويُستحسن أن توفر لي خيارين فيما يتعلق بالأسلاك، سلك قصير إذا استطعتُ وضع جهاز التسجيل في مكان قريب، وآخر أطول إذا احتجت إلى إخفاء جهاز التسجيل في خزانة ملابس أو على الجانب الآخر من جدار.

- يمكنني ذلك، لكن ينبغي ألا تستخدم سلكًا أطول من عشرة أقدام حتى لا تفسد جودة الصوت، وأيضًا كلما زاد طول السلك الذي تستخدمه، زاد احتمال عثور شخص ما عليه.

حتى أساتذة اللغة الإنجليزية يمكنهم فهم ذلك.

- كم المبلغ الإجمالي؟

- اممم... مئة وثمانون.

بدا مستعدًا للمساومة، لكن لم يكن لدي وقت ولا رغبة، فوضعت خمس ورقات من فئة عشرين دولارًا على النضد وقلت: «ستحصل على باقي المبلغ عندما آتي لأخذ الجهازين، لكن أولاً سنختبرهما لنتأكد أنهما يعملان، اتفقنا؟».

- نعم، حسنًا.

- أمرٌ آخر، اجلب مصباحين مستعملين، باليين بعض الشيء.

- باليين؟

- يبدو أن كَأَنَّك اشتريتهما من سوق للسلع المستعملة مقابل ربع دولار.

(1) ضابط مخابرات أمريكي، من المتورطين في فضيحة ووترغيت التي أدت إلى استقالة الرئيس نيكسون. أُدين بالتآمر والسطو والتنصُّت. (المترجم)

بعدما أخرجتُ بضع مسرحيات، بما فيها التي أشرفت عليها في ثانوية ليسبون، وقد كانت عن الفئران والرجال مسرحيتي الخامسة -تعلمتُ بضعة أشياء عن ديكور خشبة المسرح، آخر ما كنتُ أريده هو أن يسرق شخصٌ ما مصباحًا من شقة غير مكتملة التأثيث.

لوهلة بدا الرجل حائزًا، ثم تدريجيًا ارتسمت على وجهه ابتسامة تأمرية، وقال: «فهمتُ. الواقعية».

قلت: «هذه هي الخطة». وهممت بالسير نحو الباب، لكن عُدت واستندتُ بذراعي على نضد عرض راديوات الترانزستور، ونظرت إلى عينيه. لا يمكنني الجزم بأنه رأى في عيني الرجل الذي قتل فرانك دننغ، لكن ربما. قلت: «لن نتحدث عن هذا الأمر مع أي أحد، أليس كذلك؟».

قال: «بلى! بالتأكيد!». وحرك إصبعيه أمام شفتيه كأنه يغلّق سحّابًا.

- هكذا تسير الأمور. متى أعود إليك؟

- أمهلني بضعة أيام.

- سأعود يوم الاثنين القادم. في أي ساعة تغلق المحل؟

- الخامسة.

حسبتُ المسافة من جودي إلى دالاس وقلت: «سأعطيك عشرين دولارًا إضافية إذا انتظرتَ حتى السابعة، لا يمكنني الوصول في وقت أبكر. هل يناسبك هذا؟».

- نعم.

- حسنًا. جهّز كل شيء.

- سأفعل. هل من شيء آخر؟

- نعم، لماذا يسمّونك بمايك الصامت بحق الجحيم؟

كنت آمل أن يقول: لأنني أكتُم الأسرار، لكنه لم يقل.

- عندما كنت طفلاً، كنت أظن أن ترنيمة عيد الميلاد تتحدث عني.
والتصق اللقب بي منذئذٍ.

لم أستوضحه، لكن قبل وصولي إلى السيارة أدركت مقصده،
وضحكت.

مايك الصامت، مايك المقدس⁽¹⁾.

أحياناً يكون العالم الذي نعيش فيه غريباً حقاً.

3

عندما عاد لي ومارينا إلى الولايات المتحدة، أقاما في عدد من الشقق
المتواضعة رخيصة الإيجار، إحداها التي زُرْتُها سلفاً في نيو أورلينز،
لكن بحسب ملاحظات آل، رأيت أنني علي التركيز على شقتين فقط.
شقة في المبنى رقم 214 بشارع وست نيلي في دالاس، والأخرى في
فورت وورث، ذهبت إليها بعد زيارتي إلى محل مايك الصامت.

كانت لدي خريطة للمدينة، لكن اضطررت إلى السؤال عن الاتجاهات
ثلاث مرات، وفي النهاية أرشدتني امرأة سوداء عجوز تعمل في مطعم
عائلي، لم أفاجأ بصعوبة إيجاد المكان. وجدت نهاية شارع مرسيدس
ترابية غير ممهدة وعلى جانبيه منازل متداعية حالتها أفضل قليلاً من
أكواخ المزارعين، بجوار ساحة لركن السيارات خالية تقريباً تتناثر
فيها الحشائش، وخلف الساحة مستودع مكتوب على جداره الخلفي
على ارتفاع عشرة أقدام: ملكية "مونتغمري وارْد"، كل من يتعدى على
المكان سيُحاكَم. فلتشهد الشرطة على هذا التحذير.

كان الهواء نتناً برائحة النفط القادمة من اتجاه أوديسا ميدلاند ومياه
الصرف الصحي غير المُعالَجة على مقربة. سمعت أغاني روك آند رول

(1) من ترنيمة: ليلة صامته، ليلة مقدسة Silent night, holy night! (المترجم).

من نوافذ مفتوحة، ميّزت دوفيلز، وجوني برنيت، ولي دورسي، وتشبي تشيكر... كل هؤلاء قبل أن أتجاوز أربعين ياردة فحسب. رأيت نساء يعلقن الملابس على دُومِيَّات أطفال صدئة، جميعهن يرتدين مآزر على الأرجح اشترينها من متجر زايري أو مركز ماموث للتسوق، وجميعهن بدا أنهن حوامل. ثم رأيت صبيًا قذرًا وفتاة صغيرة قذرة مثله يقفان عند مدخل منزل ذي أرضية ترابية مشققة، راحا يشاهدانني في أثناء مروري، كانا يمسكان بيدي بعضهما وبدوا متشابهين إلى درجة أنني ظننتهما توأمين، الصبي عارٍ عدا عن جوب واحد، ويحمل لعبة مسدس، والفتاة ترتدي حفاضًا رثًا أسفل تيشيرت مرسوم عليه ميكى ماوس، وتحمل دُمية بلاستيكية قذرة مثلها. ومررت برجلين عاريي الصدر يتقاذفان كرة قدم وكلُّ منهما في باحة منزله، وكلاهما تتدلى من طرف شفتيه سيجارة. وبعدهما رأيت ديكا ودجاجتين ممرغتين بالوحل تنبشان التراب بجوار كلب هزيل بدا لي نائمًا أو ميتًا.

أوقفت السيارة أمام المنزل رقم 2703، حيث سيجلب لي أوزوالد زوجته وابنته عندما لا يعود قادرًا على تحمُّل حُب مارغريت أوزوالد الخانق. توقفت على شريطين خرسانيين يقودان إلى مساحة ملطخة بالزيت حيث ينبغي أن يوجد مرأب لو كان المنزل في مكان أفضل بالبلدة، ورأيت ألعابًا بلاستيكية رخيصة متناثرة على الأرض الخربة التي من المفترض أن تكون مرجة خضراء، وفتاة صغيرة ترتدي سروالًا قصيرًا رثًا تركز كرة قدم مرارًا على جانب المنزل، كلما ارتطمت الكرة بالجدار الخشبي قالت: «تشومباه!».

أطلت امرأة تلف شعرها ببكرات زرقاء وتتدلى من شفتيها سيجارة برأسها من إحدى النوافذ وصاحت: «إذا واصلتِ ركل الكرة هكذا يا روزيت فسأخرج وأوسعك ضربًا!». وعندئذٍ رأيتني، فسألتني: «ماذا تريد؟ إذا جئت من أجل فاتورة، فلا يمكنني مساعدتك، زوجي يتولى أمر الفواتير، وهو في العمل».

قلت: «لم آت من أجل أي فاتورة». ركلت روزيت الكرة نحوي مزمجرة، لكن زمجرتها تحولت إلى ابتسامة باهتة عندما أوقفتُ الكرة بجانب قدمي وركلتها نحوها بلطف. وتابعتُ حديثي مع المرأة: «أريد التحدث معك للحظة فحسب».

- عليك أن تنتظر إذن، لا أرتدي ملابس محتشمة.

اختفى رأسها. وانتظرتُ. ركلت روزيت الكرة عاليًا هذه المرة («تشومباه!»)، لكنني تمكنت من التقاطها بيدي قبل أن ترتطم بجدار المنزل، فقالت: «يُفترض ألا تستخدم يديك أيها العجوز القذر ابن العاهرة، هذه مخالفة».

خرجت الأم قائلة: «روزيت! ماذا قلت لك عن لسانك السليط هذا؟». رأيْتُها عند المدخل المنحدر وهي تعدّل وشاحًا شفافًا أصفر فوق بكرات شعرها، فبدت البكرات كحشرات بداخل شرانقها، حشرات من النوع الذي يمكن أن يكون سامًا.

زعقت روزيت: «العجوز القذر ابن العاهرة اللعين!». وركضت لاهية في شارع مرسيدس باتجاه مستودع "مونتغمري وارْد"، وظلت تركل كرتها وتضحك ضحكًا هستيريًا.

«ماذا تريد؟». بدت الأم كأنها يمكن أن تكون في الثانية والعشرين أو الخمسين، تساقط عددٌ من أسنانها، ولمحتُ بقايا كدمة باهتة حول إحدى عينيها.

قلت: «أود أن أسألكِ بضعة أسئلة».

- وما الذي يجعل شأنك شأني؟

أخرجتُ محفظتي وعرضت عليها ورقة من فئة خمسة دولارات، وقلت: «لا تسأليني أي سؤال حتى لا أكذب عليك».

- لستَ من هنا، من طريقة كلامك تبدو كأنك من الشمال.

- أتريدين هذه النقود أم لا يا سيدتي؟
- هذا يتوقف على أسئلتك. لن أخبرك بمقاس حمالة صدري اللعينة.
- أولاً أريد أن أعرف منذ متى تعيشين هنا.
- في هذا المنزل؟ ستة أسابيع، على ما أظن. حسب هاري أنه ربما يجد عملاً في مستودع مونتغمري، لكنهم لا يحتاجون إلى عمال الآن، لذا ذهب إلى "مانباور"، أتعرف ما هذا؟
- عمل بأجر يومي؟
- نعم، وهو يعمل مع مجموعة من الزوج. تسعة دولارات في اليوم مقابل العمل مع زوج لعينين. يقول إنه يشعر كأنه عاد إلى إصلاحية وست تكساس.
- كم الإيجار الذي تدفعونه؟
- خمسون دولارًا شهريًا.
- هل المنزل مؤثث؟
- ليس بالكامل. سرير لعين، وموقد غاز لعين سيقتلنا كلنا على الأرجح. لن أسمح لك بالدخول، لذا لا تسألني. لا أعرفك.
- عندما انتقلتم إلى المنزل هل وجدتم مصابيح وأشياء كهذه؟
- أنت مجنون يا سيدي.
- هل وجدتم مصابيح؟
- نعم، اثنين. أحدهما يعمل. لن أبقى في هذا المنزل طويلاً، علي اللعنة إذا بقيت. يقول زوجي إنه لا يريد العودة للعيش مع أُمِّي في موزيل، لكن سيعود رغم أنفه. لن أعيش هنا. هل تشم رائحة هذا المكان؟
- نعم سيدتي.

- إنها رائحة براز يا بُني، ليس براز قطط، ولا كلاب، إنما براز بشري. العمل مع الزنوج أمر هين قليلاً، لكن العيش مثلهم؟ لا، أبداً. هل انتهيت؟

لم أنته، لكنني تمنيت لو أمكنني الانصراف عندئذٍ. أحسست بالاشمئزاز من المرأة، ومن نفسي لأنني حكمتُ عليها. كانت سجيئة زمانها والخيارات المتاحة لها، وهذا الشارع النتن. لكنني ظلت أنظر إلى بكرات الشعر أسفل الوشاح الأصفر، والحشرات الزرقاء الضخمة التي على وشك الخروج من شرانقها.

- إذن لا أحد يبقى هنا مدة طويلة، أليس كذلك؟

قالت: «في شارع مرسيدس؟». ولوحت بسيجارتها ناحية الشارع الترابي الصلب المفضي إلى ساحة ركن السيارات المهجورة والمستودع الضخم المليء بأشياء جميلة لن تمتلكها أبداً، وناحية الأكواخ المتلاصقة وسلالمها المتداعية ونوافذها المهشمة المغلقة بألواح خشبية، وناحية الأطفال المشاغبين، والسيارات القديمة الصدئة، وسماء تكساس القاسية. ثم ندت عنها ضحكة شنيعة مشبعة بالتسلية واليأس، وتابعت: «يا سيّدي، نعيش هنا مؤقتاً، أنا وتلك المشاغبة سنعود إلى موزيل، وإذا رفض هاري الذهاب معنا فسنتركه».

أخرجت الخريطة من جيبتي، ومزقت منها قصاصة كتبت عليها رقم هاتف في جودي، ثم أضفت خمسة دولارات أخرى، ومددت القصاصة والنقود إلى المرأة. نظرت إليهما لكنها لم تأخذهما.

- لماذا أحتاج إلى رقم هاتفك؟ ليس لدي هاتف. وهذا الرقم سيكلفني لأن المسافة بعيدة.

- اتصلي بي عندما يقترب يوم انتقالكم من المنزل. هذا كل ما أريده. اتصلي بي وقولي: "سيّدي، أنا أم روزيت، سننتقل من المنزل". هذا كل ما في الأمر.

رأيتها تقلّب الصفقة في رأسها. لم تستغرق وقتًا طويلًا. عشرة دولارات أكثر مما يجنيه زوجها من العمل يومًا كاملًا تحت شمس تكساس الساخنة. لأن شركة مانباور لا تعرف شيئًا عن دفع أجر إضافي مقابل العمل في أيام العطلات. وهذه ستكون عشرة دولارات لا يعرف هاري عنها شيئًا.

- أعطني خمسة وسبعين سنتًا، تكلفة المكالمات.

- إليك، خذي دولارًا. ولا تنسي.

- لن أنسى.

- يجدر بك ألا تنسي، إذا نسيت فسأجد طريقة للوصول إلى زوجك وأخبره. هذا أمر مهم يا سيدتي. مهم لي. ما اسمك على أي حال؟

- آيفي تمبلتون.

لبثت واقفًا في التراب بين الحشائش، وسط رائحة البراز والزيت شبه المحروق والغاز الطبيعي النتن.

- ما خطبك يا سيدي؟ تغيرت ملامحك.

قلت: «لا شيء». ربما لم يكن أمرًا مهمًا فعلًا. اسم تمبلتون شائع. بوسع المرء إقناع نفسه بأي شيء إذا حاول جاهدًا. وأنا دليل حي على ذلك.

- ما اسمك؟

- بدنتين إذا سألتني مرة أخرى فسأقول لك الاسم نفسه.

ابتسمت أخيرًا.

- اتصلي بي يا سيدتي.

- أجل، حسنًا. اذهب الآن. إذا دهست تلك المشاغبة ابنتي في طريقك، فستكون قد أسديتني معروفًا.

قُدْتُ عائداً إلى جودي، ووجدتُ على باب منزلي ورقة مثبتة بمسمار صغير:

جورج..

هَلَّا اتصلتَ بي؟ أريد منك معروفاً.

سَيِّدي. (وهذه هي المشكلة!)

ما الذي يعنيه هذا؟ دخلت إلى المنزل واتصلت بها لأعرف.

4

والدة المدرب بورمان، التي تعيش في دار عجزة في أبيلين، تعرضت لكسر في وركها. ويوم السبت التالي سيُقام حفل سَيِّدي هوكنز الراقص⁽¹⁾، بمدرسة دنهولم الثانوية الموحدة.

قالت سَيِّدي: «أقنعني المدرب بالإشراف على الحفل الراقص معه! قال: "كيف تقاومين الذهاب إلى حفل يحمل اسمك؟". حدث هذا الأسبوع الماضي. وأنا وافقت كالحمقاء. والآن سيذهب بورمان إلى أبيلين، وهكذا تقع على عاتقي مهمة الإشراف على رقص مئتي مراهق جامح! لا أظن! ماذا لو جلب أحد الفتيات جعة؟».

خطر لي أنني سأتعجب إذا لم يجلب أحد الفتيات جعة، لكنني لم أقل هذا.

تابعت: «أو ماذا لو نشب شجار في موقف السيارات؟ إيلي دوكرتي قالت إن مجموعة فتية من هندرسون اقتحموا الحفل السنة الماضية ونُقل اثنان منهم واثنان من طلابنا إلى المستشفى! هَلَّا ساعدتني يا جورج؟ أرجوك!».

(1) تقليد في المدارس الثانوية والجامعات الأمريكية، تدعو فيه الفتيات الرجال، على غير العادة. سَيِّدي هوكنز شخصية كرتونية في سلسلة قصص رسوم مصورة تدور أحداثها في بلدة خيالية اسمها دوغباتش. (المترجم)

قلت مبتسمًا: «هل تدعوني سيدي دنهل لمرافقتها إلى حفل سيدي هوكنز؟». فكرة الذهاب معها إلى الحفل الراقص لم توقع الكآبة في نفسي.

- لا تمزح! هذا ليس طريفًا!

- سأكون سعيدًا بمرافقتك يا سيدي. هل ستجلبين لي ملابس رقص؟

- سأجلب لك قنينة شمبانيا، إذا كان لا بد منها.

فكرتُ بما قالته، وقالت: «لا، راتبي لا يتحمل ذلك، لكن يمكنني أن أجلب لك قنينة نبيذ "كولد داك"».

- هل ستُفتَح الأبواب عند الساعة والنصف؟

كنت أعرف هذا من الملصقات المعلقة في جميع أنحاء المدرسة.

- صحيح.

- الموسيقى مسجلة، أليس كذلك؟ ما من فرقة موسيقية. وهذا جيد.

- لماذا؟

- الفرق الموسيقية قد تسبب مشكلات. نظمتُ حفلًا ذات يوم، وكان

عازف الطبل يبيع جعة مصنوعة منزليًا في أوقات الاستراحات. لم

تكن تجربة جميلة.

- هل نشبت شجارات؟

بدت مرتاعة، ومبهورة أيضًا.

- لا، لكن تقيًا كثيرون. الجعة كانت قوية.

- هل حدث هذا في فلوريدا؟

حدث في ثانوية ليسبون عام 2009، لكن قلت لها نعم في فلوريدا.

وقلت لها أيضًا إنني سأكون سعيدًا بالإشراف على الحفل معها.

- شكراً جزيلاً يا جورج.

- من دواعي سروري يا سيدتي.

كان من دواعي سروري حقاً.

5

تولى نادي بيب تنظيم حفل سيدي هوكنز، وأدّوا عملاً عظيمًا: كثير من الرايات ترفرف متدلّية من عوارض السقف (باللونين الفضي والذهبي بالطبع). وكثير من جعة الزنجبيل وكعك الليمون والكعك المخملي الأحمر من "مُدبرات منازل أمريكا المستقبلية". وساهم قسم الفنون، وهو قسم صغير لكن أعضائه متفانون في عملهم، بجدارية كرتونية تصور الأنسة هوكنز الخالدة نفسها، تطارد عزّاب دوغباتش. قام ماتي شو وخليّة مايك، بوبي جيل، بمعظم العمل، وكانا فخورين بطبيعة الحال. تساءلتُ عما إذا ستظلان فخورتين بعملهما بعد سبعة أو ثمانية أعوام، عندما تبدأ الموجة الأولى من حركة مناصري المرأة بحرق حمالات الصدور والخروج في مظاهرات في سبيل الحقوق الإنجابية الكاملة، وهن يرتدين قمصاناً مكتوباً عليها عبارات على شاكلة: لستُ سِلعة والمرأة تحتاج إلى الرجل كما تحتاج السمكة إلى دراجة هوائية.

كان منسق الموسيقى ومدير المراسم دونالد بيلنغهام، طالباً في السنة الثانية، وصل ومعه مجموعة أسطوانات رائعة في حقيبتين. بعدما استأذن مني (بدت سيدي حائرة)، أوصل فونوغراف ماركة ويبيكور ومكبر الصوت الأوّلي، الذي استعاره من والده، بنظام الإذاعة الداخلية بالمدرسة. كانت الصالة الرياضية واسعة بما يكفي لإحداث صدى طبيعي. وبعدها أصدرت السماعات صريراً مزعجاً، نجح دونالد في ضبط الصوت. وُلد دونالد في جودي، لكنه مقيم إقامة دائمة في عالم الموسيقى. كان يرتدي نظارة ذات إطار وردي وعدستين سميكتين، وبنطالاً ذا حزام خلفي قصير، وحذاءً مربع الشكل إلى درجة غريبة.

كان وجهه مليئاً بحبّ الشباب أسفل شعره المشبع بدهن "بريلكريم"، بتسريحة تشبه ذيل بطة، محاولاً التشبّه ببوبي رايدل. بدا كأنه ربما يقبل فتاة حقيقية لأول مرة في حياته عندما يقترب من الثانية والأربعين من عمره، لكنه كان سريعاً وطريفاً في كلامه، ومجموعة أسطواناته (التي أسماها ينبوع ألحان دوني بي) كانت الأروع.

«فلنبداً هذا الحفل بأغنية تثير الحنين إلى الماضي، أغنية روك أند رول قديمة من منبع الألحان الرائعة، حرّكوا أقدامكم على إيقاع داني... وذا جووونيرز!».

ضجّت الصالة باسم الأغنية: «آت ذا هوب». بدأ الحفل كما تبدأ معظم الحفلات الراقصة في بداية الستينيات، تبدأ الفتيات رقصة جِترَبِج، تتطاير الأقدام، وتدور التنانير الداخلية، وبعد مدة قصيرة تمتلئ ساحة الرقص بأزواج من فتيان وفتيات... وللرقصات الأخيرة على الأقل تُشغل أغنيات حديثة نسبياً مثل "هت ذا رود جاك"، و"كورتير تو ثري".

لَمَّا نجح كثير من الفتية في اجتياز اختبارات مسابقة الرقص مع النجوم، لكنهم كانوا يافعين ومتحمسين، وبدا واضحاً أنهم يستمتعون بوقتهم. سعدتُ بمشاهدتهم. ولاحقاً، قررت أن أخفض الإضاءة قليلاً إذا لم ينتبه دوني بيلنغهام ويفعلها بنفسه. بدت سيّدي متوترة في البداية، متأهبةً لمجابهة المتاعب، لكن الفتية جاؤوا للاستمتاع فحسب، ولم يظهر مقتحمون مخربون من مدرسة هندرسون أو غيرها. رأت سيّدي هذا واسترخت قليلاً.

وبعد قرابة أربعين دقيقة من الموسيقى المتواصلة (وأربع كعكات مخملية حمراء)، ملّت نحو سيّدي وقلت: «حان الوقت للمراقب أمبرسون ليقوم بجولته الأولى حول المبنى ويتأكد أن لا أحد في ساحة التدريبات الرياضية منهمك في سلوك غير لائق».

- أتريد مني الذهاب معك؟

- أريد منك مراقبة وعاء الشراب. إذا اقترب منه أي شاب حاملاً قنينة أي شيء، حتى قنينة دواء سعال، فعليك أن تهدديه بالصعق بالكهرباء أو الخصى، أو أي عقاب ترينه أكثر فاعلية.

اتكأْتُ على الجدار وضحكت حتى التمعت الدموع في عينيها.

- اغرب عن وجهي يا جورج، أنت فظيع.

ذهبتُ، وكنت سعيداً بأنني أضحكتها. لكن حتى بعد ثلاث سنوات، كان من السهل نسيان مدى فاعلية المزاح ذي الإيحاءات الجنسية في عالم الماضي.

ضبطتُ اثنين يتبادلان القُبْل في أحد الأركان المظلمة بالجانب الشرقي من الصالة الرياضية، الفتى يتحسس سُترة الفتاة، وهي تحاول التهام شفتيه على ما يبدو. عندما نقرتُ على كتف الفتى أجفلا مبتعدين عن بعضهما. وقلت لهما: «أجلاً هذه الأمور لما بعد الحفل، الآن عودا إلى الصالة الرياضية، سيرا ببطء، استرخيا، وتناولوا مشروباً».

ذهبا، الفتاة تغلق أزرار سترتها، والفتى يسير منحنيًا قليلاً لذلك السبب المعروف.

رأيت قرابة عشرين يراعة حمراء تومض من خلف ورشة الحدادة، لَوَحَتْ وَلَوَحَ لي صبيّان في منطقة التدخين. ثم نظرت من الزاوية الشرقية لورشة النجارة فرأيت شيئاً لم يعجبني. مايك كوسلو، وجيم لادو، وفينس نولز واقفين قريباً من بعضهم بعضاً، ويتبادلون شيئاً فيما بينهم، أمسكت به ورفعته فوق سياج السلسلة الحديدية قبل أن أعرف ماهيته.

أجفل جيم لوهلة، ثم ابتسم لي ابتسامة نجم كرة القدم الفاترة وقال: «مرحباً أستاذ أمبرسون».

- لا داعي للتظارُف يا جيم، لست فتاة تحاول إغواءها، وبالتأكيد لستُ مدربك.

بدا مصدومًا وخائفًا قليلًا، لكنني لم أر على وجهه العجرفة والاستنكار، أظنني لرأيت ردة الفعل هذه إذا كنت في إحدى مدارس دالاس الكبيرة. تراجع فينس خطوة، ولبث مايك واقفًا في مكانه، لكنه بدا مغتمًا مُحَرَجًا، بل أكثر من ذلك، بدا كأنه يحس بخزي شديد.

قلت: «قنينة كحول في حفل راقص. لا أتوقع منكم الالتزام بكل القوانين، لكن لماذا تتصرفون بغباء عندما تخالفونها؟ جيمي، إذا ضُبطت وأنت تشرب وأُبعدت من فريق كرة القدم، فماذا سيحدث لمنحة جامعة ألاباما؟».

- على الأرجح ستُعلّق مشاركتي في المباريات. هذا كل شيء.
- صحيح، وتضيع على نفسك عامًا كاملاً، ويتعيّن عليك تحسين درجاتك. الأمر نفسه ينطبق عليك يا مايك، ستُستبعد من نادي الدراما والمسرح. هل تريد ذلك؟
همس بالكاد: «لا سيّدي».

- وأنت يا جيم؟
- لا، لا يا سيد أمبرسون، قطعًا. هل ما زلنا سنؤدي مسرحية المُحلفين؟ لأننا إذا...
- ألا تعرف من الأدب ما يكفي لتصمت عندما يوبّخك أستاذك؟
- نعم سيدي.

- لن أتسامح معكم المرة التالية، إنكم محظوظون الليلة، لذا ستسمعون نصيحة ثمينة: لا تفسدوا مستقبلكم. لا تفسدوه من أجل شراب في حفل مدرسي لن تتذكروه بعد عام من الآن. هل تفهمون ذلك؟

قال مايك: «نعم سيدي. آسف».

قال فينس: «وأنا أيضًا، قطعًا»، وارتسم بشارة الصليب، مبتسمًا. بعض الفتية طبعهم هكذا، ربما يحتاج العالم إلى أمثاله من المشاغبين، مَنْ يدري؟

- ماذا عنك يا جيم؟

- نعم سيدي. أرجوك لا تخبر أبي.

قلت له: «لن أخبره، سيبقى هذا الأمر بيننا». نظرت إليهم مليًا وتابعت: «سوف تجدون أماكن ومناسبات كثيرة للشراب في الجامعة العام القادم، لكن ليس في مدرستنا، هل فهمتهم؟».

هذه المرة جميعهم قالوا نعم سيدي. «والآن عودوا إلى الداخل، اشربوا عصيرًا حتى تزول رائحة الويسكي من أنفاسكم».

ذهبوا، وأمهلتهم بعض الوقت، ثم تبعتهم على مبعدة، خافضًا رأسي، ويداي في جيبي، مستغرقًا في التفكير. قلتُ لهم آنفًا: ليس في مدرستنا. مدرستنا.

وكانت ميمي قد قالت لي: تعال درّس معنا، هذا ما خلّقت لفعله.

عندئذٍ بدا عام 2011 لي بعيدًا غاية البعد، بل حتى جيك إينغ بدا لي بعيدًا. سمعتُ صوت ساكسفون هابر يدوي في صالة رياضية بحفل في قلب تكساس، حمّلتَه نسمة علية إلى شتى الاتجاهات، وسمعت عازف الطبل يعزف على نحو يشجع على الرقص.

أظنني عندئذٍ قررت عدم العودة أبدًا.

6

الساكسفون الهابر والطبل ذو الإيقاع الراقص كانا يرافقان فرقة موسيقية اسمها ذا دايموندز، والأغنية كان اسمها ذا ستروول. لكن الفتية لم يؤدوا الرقصة المطلوبة.

كانت ذا ستروول أول خطوة رقص تعلمتها مع كرستي عندما بدأنا الذهاب إلى دروس الرقص في أمسيات الثلاثاء، وهي رقصة يؤديها شخصان، بسيطة من أجل إزالة الحرج يتحرك خلالها الراقصان بين صفيين من الرجال والفتيات وهم يصفقون. ما رأيته عندما عدت إلى الصالة الرياضية كان مختلفاً. هنا اقترب الفتية والفتيات، وداروا ممسكين بأذرع بعضهم كأنهم يرقصون الفالس، ثم انفصلوا، وعادوا إلى حيث كانوا يقفون قبالة بعضهم. عندما كانوا منفصلين تصالبت سيقانهم وتأرجحت أوراكنهم إلى الأمام. حركة ساحرة ومثيرة.

وفي أثناء مشاهدتي واقفاً جوار طاولة المأكولات الخفيفة، جاء مايك وجيم وفينس وانضموا إلى جانب الشباب، لم يبد فینس ماهراً، وقول إنه رقص كفتى أبيض سيكون إهانة للفتيان البيض في كل مكان، لكن جيم ومايك كانت حركاتهما أكثر تناسقاً بما أنهما رياضيان، وسرعان ما راحت الفتيات على الجانب الآخر يشاهدنهما.

صاحت سيدي في خضم الموسيقى: «كنت قد بدأت أقلق عليك! هل كل شيء على ما يرام بالخارج؟».

- لا بأس! ما هذه الرقصة؟

- ماديسون! يرقصونها على المنصة طوال شهر! أترید مني أن أعلمك؟

قلت وأنا أمسك بذراعها: «بل أنا سأعلمك يا سيديتي».

رأنا الفتية قادمين نحوهم فأفسحوا لنا مجالاً، وراحوا يصفقون ويصيحون: «هيا يا أستاذ أمبرسون!». «أريه مهاراتك يا آنسة دنهل!». ضحكت سيدي وشدت الرباط المطاطي الذي يضم شعرها المعقود على شكل ذيل الحصان، واصطبغت وجنتاها بحمرة، فبدت أكثر جمالاً. تراجعْتُ بضع خطوات، وبدأت تصفق وتهز كتفيها مع الفتيات الأخريات، ثم تقدمتُ إلى ذراعي وعيناها تتطلعان إلى عيني. سررتُ بأنني أطول

منها بحيث ترفع عيناها عندما تنظر إلي. استدرنا كأننا تمثالا عروس وعريس مُصغَّران فوق كعكة حفل زفاف، ثم افترقنا. قرفصتُ واستدرت على أصابع قدمي ويدي ممدودتان مثل آل جوسلون وهو يغني "مامي"، فصفقت الفتيات وصرخن. لم أكن أستعرض متباهياً (كنت أتباهي قليلاً)، لكنني كنت سعيداً بالرقص فحسب. انقضى وقت طويل منذ أن رقصت.

انتهت الأغنية، وتلاشى صوت الساكسفون الهادر، وتحولت الموسيقى إلى روك أند رول وصفها منسق الأغاني الشاب بأنها من الكلاسيكيات، وابتعدنا عن ساحة الرقص.

قالت سيدي: «رباه! كان ذلك ممتعاً». أمسكت بيدي واعتصرتها: «أنتِ مرح».

وقبل أن أرد، دَوَّى صوت دونالد عبر مكبر الصوت: «تكريماً لمشرفينا اللذين يبرعان في الرقص، على غير العادة -وهذه سابقة في تاريخ مدرستنا- إليكم أغنية من الزمن الغابر الجميل، أغنية ما زالت تحتل مكانة في قلوبنا رغم تقادم الأعوام، من مجموعة أسطوانات أبي، الذي لا يعرف أنني جلبتها وإذا أخبره أحكمك فسأقع في ورطة. استمتعوا بالأغنية أيها الراقصون، كما كان السيد أمبرسون والآنسة دنهل يستمتعون بها عندما كانا طالبين في المدرسة الثانوية!».

التفتوا جميعهم إلينا، و...

أتعرفون؟ عندما يكون المرء خارج المنزل في الليل ويرى حافة غيمة تضيء بضوء ذهبي ساطع، فيعرف أن القمر سيظهر في غضون لحظة؟ هذا هو الإحساس الذي اعتراني عندئذٍ، واقفاً بين الرايات المتموجة المعلقة في صالة دنهولم الرياضية. عرفتُ الأغنية التي سيشغلها دونالد، عرفت أننا سنرقص على أنغامها، وعرفت الرقصة التي سنؤديها. ثم اشتغلت، بمقدمتها الموسيقية بآلات النفخ:

باه - داه - داه... باه - داه - دا - دي - دم...

مقطوعة "إن ذا مُود" لغلين ميلر.

نزعت سيدي رباط شعرها المطاطي فأطلقت ذيل الحصان. كانت ما تزال تضحك، وبدأت تؤرجح وركيها قليلاً، وانزلق شعرها بسلاسة من كتف إلى أخرى.

«أيمكنكِ رقص السوينغ؟». سألتها رافعاً صوتي، مدرّكاً أنها قادرة، ومدرّكاً أنها مستعدة للرقص.

سألتني: «أتقصد الشبيهة برقصة ليندي هوب؟».

- نعم.

- حسناً...

قالت إحدى الفتيات: «هيا يا أنسة دنهل، نريد أن نرى الرقصة». ودفعت اثنتان من صديقاتها سيدي نحوي.

ترددت سيدي، ودُرت حول نفسي مرة أخرى ومددت يدي. هتف الفتية ونحن نتحرك نحو ساحة الرقص، وأفسحوا لنا مجاًلاً. جذبت سيدي نحوي، وبعد تردد بسيط دارت إلى اليسار أولاً، ثم إلى اليمين، بالكاد أتاحت فتحة تنورتها لها مُصالبة ساقها وهي تتحرك. كانت الحركة التي يتعلمها ريتشي-الديتشي وببفي-الليفي في ذلك اليوم الخريفي عام 1958. بالطبع. لأن الماضي يتناغم مع نفسه.

جذبتهُ نحوي وشابكنا أيدينا، ثم تركتها تبتعد، انفصلنا، ومن ثم، مثل شخصين تدربا على هذه الحركات لمدة أشهر (على الأرجح في متنزه مهجور على إيقاع أسطوانة تشتغل بسرعة بطيئة)، انحنينا وركلنا، أولاً إلى اليسار ثم إلى اليمين. ضحك الفتية وهتفوا، وكانوا قد شكّلوا دائرة تصفيق حولنا في منتصف الأرضية اللامعة.

تقاربنا ودارتُ حول نفسها كراقصة باليه تحت يدينا المتشابكتين.

الآن اضغط لأعرف ما إذا كان عليّ أن أتجه يسارًا أم يمينًا.

أحسستُ بالضغط الطفيفة على يدي اليمنى، كأنما استدعتها الفكرة التي خطرت لي، فاستدارتُ سيدي عائدة وشعرها منبسط كمروحة وامض بلون أحمر أولاً ثم أزرق بتأثير الإضاءة. سمعتُ شهقات عدة فتيات. أمسكتُ بها وجثوت على إحدى ركبتَي وهي منحنية فوق ذراعي، أملًا ألا تصاب رُكبتَي. لم تُصَب.

نهضتُ، واعتدلتُ واقفةً معي، وابتعدت ممسكة بيدي، ثم عادت بين ذراعي. رقصنا تحت الأضواء.

الرقص حياة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

7

انتهى الحفل عند الحادية عشرة، لكنني لم أوقف سيارتي الصنلاينر عند مدخل منزل سيدي إلا عند الثانية عشرة والربع فجر يوم الأحد. أحد الأشياء التي لا يقولها الناس عن مهمة الإشراف على حفلات المراهقين الراقصة هو أن المشرفين مكلفون بترتيب المكان حالما تتوقف الموسيقى.

لم نتكلم كثيرًا في طريق عودتنا. كان دونالد قد شغل عدة أغاني شهيرة تغري بالرقص، وألحّ الفتية علينا لرقص مرة أخرى، لكننا رفضنا. رقصتنا مرة واحدة لافته، وإذا رقصنا مرتين لصارت ذكرى لا تُمحي أبدًا. وهذا أمر غير مُحبَّذ في البلدات الصغيرة. لكن على أي حال ستبقى رقصتنا في ذاكرتي إلى الأبد. لم أستطع نسيان إحساسي بها بين ذراعي وأنفاسها المتلاحقة على وجهي.

أوقفتُ محرك السيارة والتفت إلى سيدي. قلت لنفسي: الآن ستقول "شكرًا على مساعدتي على الإشراف" أو "شكرًا على الأمسية الجميلة" فحسب.

لكنها لم تقل أيًا من ذلك، لاذت بالصمت، نازرةً إلي، وشعرها منسدل على كتفها، والزران العلويان من قميصها تحت سترتها مفتوحان، وقرطاهما يلمعان. ثم صرنا معًا، تحسسنا بعضنا أولًا، ثم تعانقنا بقوة. كنا نتبادل القُبْل، بل أكثر من مجرد قُبْل، كما عندما يلتهم المرء طعامًا بعد جوع شديد أو يشرب بعد ظمأ. شممت عطرها وعَرَقتها النظيف، وتذوقت طعم تبغ خفيف لكنه ما زال لاذعًا قليلًا في شفتيها ولسانها. تخللت أصابعها شعري (دغدغت إصبعها الصغيرة أذني لوهلة فبعثت في جسدي رعدة)، ثم تشابكت خلف عنقي، وتحرك إبهامها بلا توقف، لامست الجلد العاري في مؤخرة رأسي، الذي كان مغطى بالشعر في حياة أخرى. أدخلت يدي تحتها أولًا ثم حول نهدها المتكور، فتمتمت: «أوه، شكرًا لك كدت أسقط».

قلت: «من دواعي سروري». وضغطتُ برفق.

تبادلنا القبل والعناق قرابة خمس دقائق، لاهئين وملامساتنا تزداد جرأة، وغطى البخار زجاج السيارة الأمامي. ثم دفعته عنها، فرأيت خديها مبللين. متى بدأت تبكي بحق الرب؟

قالت: «جورج، إنني آسفة. لا أستطيع، خائفة». كان طرف تنورتها على حجرها، كاشفًا عن رباط جوربيها وحاشية قميصها التحتي. جذبتُ التنورة إلى ركبتيها.

خَمَنْتُ أن السبب هو كونها متزوجة، حتى إذا انهار الزواج، فهو ما يزال أمرًا مهمًّا. كنتُ في منتصف القرن العشرين، وليس بداية القرن الحادي والعشرين. أو ربما قَلِقْتُ من الجيران، بدت المنازل مظلمة وقاطنوها غارقين في النوم، لكن لا يمكن الجزم، وفي البلدات الصغيرة دائمًا ما يكون القساوسة الجدد والأساتذة الجدد مواضيع نيمية شائقة. اتَّضح أن كلا التخمينين خطأ، لكن كان من المستحيل أن أتوصل إلى تخمين صحيح.

- سَيِّدِي، لستِ مُرغمة على فعل أي شيء لا تريدين فعله. لستُ...
- لم تفهمني. ليس السبب هو أنني لا أريد أو أنني خائفة، إنما لأنني لم أفعل ذلك قط.
- وقبل أن أتمكن من الرد عليها بأي كلام، خرجتُ من السيارة راكضة نحو المنزل، وراحت تنقّب في حقيبتها اليدوية بحثًا عن المفتاح. لم تلتفت إلي.

8

- وصلتُ إلى منزلي عند الواحدة إلاّ عشرين دقيقة، وسرت من المرأب إلى المنزل متمايلًا من الإرهاق والإحباط. وما كدتُ أضيء مصباح المطبخ حتى بدأ الهاتف يرن. عام 1961 سابق لعصر معرفة هوية المتصل بأربعين عامًا، لكن ثمة شخصًا واحدًا فقط يمكن أن يتصل بي في مثل هذه الساعة، وبعد مثل هذه الليلة.
- «جورج؟ هذه أنا». بدت كلماتها متماسكة، لكن صوتها كان ثقيلًا. كانت تبكي، وبشدة، حسبما بدا لي من صوتها.
- مرحبًا سيدي. لم تمنحيني الفرصة لشكرك على الوقت الجميل، في أثناء الحفل، وبعده.
- حظيتُ بوقت طيب أيضًا. انقضى وقت طويل منذ أن رقصت. أخشى إخبارك بمن تعلمتُ تلك الرقصة معه.
- حسنًا، أنا تعلمتها مع زوجتي السابقة. وأخمن أنك تعلمتها مع زوجك الذي انفصلت عنه.
- إلاّ أنني لم أكن أخمن. هكذا كانت تمضي مثل هذه الأمور، لم تعد تفاجئني، لكن إذا قلت لكم أنني اعتدتُ تناغم الأحداث الغريب هذا، فسأكون كاذبًا.

تكلّمت بنبرة رتيبة: «أجل، معه، جون كلايتون من سافنا كلايتونز. كان رجلاً غريباً جداً».

- كم امتد زواجكما؟

- مدة طويلة. هذا إذا حسبنا ما كان بيننا زواجاً.

ضحكت، فكانت ضحكة آيفي تمبلتون، مليئة بحس الدعابة والياس. وتابعت: «على أي حال، أقصد بالمدة الطويلة أكثر من أربع سنوات قليلاً. بعد نهاية الدراسة في يونيو سأذهب في رحلة سرية إلى رينو، وأعمل عملاً صيفياً، نادلّة أو ما شابه. وفي نهاية يوليو أو بداية أغسطس سوف أتمكن من إطلاق النار على هذه... هذه المزحة التي ورطت نفسي فيها... كما تُطلق النار على حصان ذي ساق مكسورة».

قلت: «يمكنني الانتظار». لكن حالما غادرت الكلمات شفّتي، تساءلت عما إذا كانت صحيحة. لأن الممثلين يتجمعون في الأجنحة وسيبدأ العرض عمّا قريب. بحلول يونيو عام 62 سيكون ليّ أوزوالد قد عاد إلى الولايات المتحدة، سيعيش أولاً مع روبرت وأسرة روبرت، ثم مع والدته. وفي أغسطس سيكون في شارع مرسيدس في فورت وورث ويعمل في "شركة ليزلي للّحام" المجاورة، يصنع من الألومنيوم نوافذ وأبواباً من النوع الذي تُنقش عليها الأحرف الأولى.

تكلّمت بصوت خفيض سمعته بالكاد: «لست متأكدة أنني يمكنني الانتظار. كنتُ عروساً عذراء في سن الثالثة والعشرين، والآن عذراء منفصلة عن زوجها في الثامنة والعشرين. بقيت الفاكهة معلقة على الشجرة مدة أطول من اللازم، كما يقولون في بلدي، لا سيما عندما يفترض الناس -ومنهم أمك- أنك بدأت الممارسة. لم أخبر بهذا أحداً قط، وإذا أفشيت السر أظنني سأموت».

- سيبقى هذا الكلام بيننا يا سيّدي، إلى الأبد. هل كان عاجزاً جنسياً؟

- ليس تماماً...

انقطع صوتها، وامتد الصمت لحظة، وعندما عاودت الكلام حمل صوتها رُعبًا: «جورج... هل هذا خط هاتف مشترك؟».

- لا. هذا الخط لي وحدي، مقابل خمسة وثلاثين دولارًا إضافية في الشهر.

- حمدًا للرب. مع ذلك ينبغي ألا نتكلم في هذا الموضوع عبر الهاتف، وقطعًا ليس في مطعم آل ونحن نتناول شطائر البرغر. يمكنك المجيء للعشاء؟ ساعد طعام نزهة في باحتي الخلفية. هل تناسبك الساعة الخامسة؟

- حسنًا. سأجلب كعكة أو شيئًا من هذا القبيل.

- هذا ليس ما أريد منك جلبه.

- ماذا تريد إذن؟

- لا أستطيع أن أقول عبر الهاتف، حتى إذا لم يكن خط الهاتف مشتركًا. إنه شيء يُشترى من صيدلية، لكن ليست صيدلية في جودي.

- سيدي...

- لا تقل شيئًا، أرجوك. سأنهاي المكالمة وأبذل وجهي بماء بارد، أحس به مشتعلًا.

سمعتُ نقرة، وانقطعت المكالمة. نزعْتُ ملابسِي وذهبتُ إلى الفراش، واضجعت مستيقظًا مدة طويلة، مستغرقًا في أفكار مسهبة، عن الزمن والحب والموت.

الفصل الخامس عشر

1

عند العاشرة في صباح يوم الأحد، ركبت الصنلاير وقُدت عشرين ميلًا إلى راوند هيل، إلى صيدلية في الشارع الرئيسي، ووجدتها مفتوحة، لكن رأيت على بابها ملصقًا مكتوبًا عليه: نحن نزار لدنهولم ليونز، فتذكرت أن راوند هيل جزء من البلدات التي تتبع لها مدرسة دنهولم. واصلت القيادة إلى كيلين، وهناك وجدت صيدليًا عجوزًا يحمل شبهًا مريبًا بالسيد كين في ديري، غمز لي وهو يناولني كيسًا بُنيًا وباقي نقودي قائلاً: «لا تفعل أمرًا مخالفًا للقانون يا بُني».

غمزت له على النحو المتوقع، وقُدت عائداً أدراجي إلى جودي. كنت قد سهرت الليلة السابقة، لكن عندما اضجعت وحاولت أن أغفو قليلاً، لم أقترّب من النوم مجرد اقتراب. فذهبت إلى محل وينغراتن واشترت كعكة، لم تبد أفضل كعكة، لكنني لم أكرث، واستبعدت أن تكثرث سيدي. أيًا يكن ما سنتناوله، كنت متأكدًا أن الطعام ليس أهم شيء في أجندة اليوم. عندما طرقت باب منزل سيدي اعترتني إحساسات متلاطمة.

رأيت وجه سيدي خاليًا من أي زينة، لم تضع حتى أحمر شفاه، وبدت عيناها كبيرتين داكنتين، وخائفتين. لوهلة أيقنت أنها ستصفع الباب في وجهي ثم أسمعها تركض مبتعدة بأقصى سرعة، هكذا فحسب.

لكنها لم تركض. قالت: «تفضل بالدخول. أعددتُ سلطة دجاج». بدأت شفتها ترتعشان وتابعت: «أمل أنك تحب المايونـ...».

خارت رُكبتها وترنحت، فألقيت صندوق الكعكة على الأرضية وأمسكت بها، ظننت أنها سيُغمى عليها، لكنها ظلت يقظة، أحاطت عنقي بذراعيها وتشبثت بي بشدة، كما تشبث امرأة على وشك الغرق بجذع شجرة طاف. أحسستُ بارتعاش جسدها. ودُست دون قصد على الكعكة اللعينة، وداست عليها هي أيضًا.

قالت: «أنا خائفة. ماذا لو لم تجدني بارعة في الأمر؟».

- وماذا لو لم تجديني بارعًا؟

هذه لم تكن مزحة. انقضت مدة طويلة، أربع سنوات على الأقل.

بدأت كأنها لم تسمعني: «لم يرغب زوجي فيَّ قط. لم يرغب فيَّ بالطريقة التي توقعتها، وطريقته هي الوحيدة التي أعرفها. اللمسات، ثم المكنسة».

- اهدهني يا سيدي، خذي نفسًا عميقًا.

- هل ذهبت إلى الصيدلية؟

- نعم، في كيلين لكن ليس علينا أن...

- بل علينا. أرغب بشدة، قبل أن أفقد ما بقي لدي من شجاعة. هيا.

كانت غرفة نومها عند نهاية الصالة، غرفة بسيطة: سرير، ومنضدة، وصورتان على الجدران، وستائر بسيطة تتراقص أمام مكيف الهواء الهادئ المثبت في النافذة. بدأت ركبها تضعفان مجددًا وأمسكتُ بها مرة أخرى. كانت رقصة سوينغ غريبة. ارتسمت على الأرضية أشكال من الكعكة. قبَّلتها وانطبقت شفتها على شفتي، وأحسست بشفتيها جافتين محمومتين.

دفعتها بعيداً برفق وأسندت ظهرها إلى باب خزانة الملابس، نظرت
إليّ بحزن وشعرها فوق عينيها، أبعدت شعرها، وبرفق شديد بدأت
ألعق شففتيها الجافتين بطرف لساني، ببطء، وحرصت على الوصول
إلى زاويتي شففتيها.

سألتها: «هكذا أفضل؟».

لم ترد بصوتها بل بلسانها. ودون أن أضغط جسدي على جسدها
بدأت ببطء أمرر يدي أعلى وأسفل جسدها، فأحسست بنبضات
متسارعة على جانبي عنقها، وتحسست صدرها، ونهديها، وبطنها،
وعظام حوضها المنحنية، وأحد رديها، ثم فخذها. كانت ترتدي بنطال
جينز، وهمس القماش تحت راحة يدي. مالت إلى الخلف فارتطم رأسها
بالباب.

قلت: «أوه! هل أنت بخير؟».

أغمضت عينيها قائلة: «نعم. لا تتوقف، قبّلني أكثر». ثم هزت رأسها:
«لا، لا تقبّلني. داعب شفتيّ مجدداً، العقني، يعجبني ذلك».

فعلتُ. تنهدتُ ومررت أصابعها تحت حزامي من الخلف، ثم من
الأمام، حيث أبزيم الحزام.

2

عند انحدار الشمس المحمرة في الضباب الدخاني الناتج عن الغاز
والنفط ناحية الغرب، جلستُ مع سيدي في باحتها الخلفية الصغيرة
تحت شجرة جوز البقان، وتناولنا سلطة دجاج وشطائر وشربنا شايًا
مثلجًا. ما من كعكة بالطبع، أفسدتُ تمامًا.

سألتني: «هل يزعجك اضطرابك إلى وضع ذلك... تعرف، ذلك الشيء
الذي جلبته من الصيدلية؟».

قلت: «لا، لا»، كنت صادقًا. سوف تُحسِّن كثير من المنتجات الأمريكية بين عامي 1961 و2011، لكن خذوها من جيک، سوف تظل الواقيات الذكرية كما هي تقريبًا. ربما تُمنح أسماء أكثر رقيًا أو حتى عنصر تذوق (لأصحاب الأذواق الشاذة)، لكن جوهريًا تظل لجامًا.

لم تكن هناك طاولة حديقة، لذا بسطنا ملاءة على العشب. التقطت سيدي وعاء لحفظ حرارة الطعام وفيه بقايا سلطة من البصل والخيار، وراحت تفتح غطاء الوعاء وتغلقه مرارًا، مثل هذا التملُّل يعده بعض الناس فرويديًا، وأنا منهم.

قالت: «كان لدي واقٍ أنثوي لمنع الحمل، أعطتني أمي إياه قبل أسبوع من زواجي بجوني، حتى إنها طلبت مني وضعه، رغم أنها لم تقوَ على النظر إلى عيني، وعندئذٍ إذا سقطت قطرة ماء على خدها لتبخَّرَتْ. قالت: لا تحاولي إنجاب طفل خلال الأشهر الثمانية عشر الأولى، أو عامين، إذا استطعتِ إقناع زوجك بالانتظار. هكذا يمكنك العيش على راتبه وأدخار راتبك».

قلت: «نصيحة لا بأس بها». توخيتُ الحذر في كلامي، إذ كنا في حقل الغام، وهي أيضًا كانت مدركة لهذا.

- جوني أستاذ علوم، وطويل، لكنه ليس طويلًا مثلك. كنتُ قد سئمت مرافقة الرجال الأقصر مني، أظن أن هذا هو سبب موافقتي عندما طلب مني الخروج في موعد أول مرة، وفي النهاية صار الخروج معه عادة. ظننت أنه لطيف، وعند نهاية الليلة لم يحاول ملامستي بأي طريقة. عندئذٍ ظننتُ أن تلك الأشياء هي الحب. كنت ساذجة، أليس كذلك؟

لوحث يدي غير متيقن.

- تعارفنا في جامعة جورجيا الجنوبية ثم عملنا في المدرسة الثانوية نفسها في سافنا، مختلطة لكنها خاصة. إنني متأكدة أن

والده استغل بعض صلاته لتحقيق ذلك. لم تعد عائلة كلايتون ثرية، لكنهم ما زالوا يتمتعون بمكانة مرموقة في مجتمع سافنا. فقراء لكن لهم مكانتهم، أتعرف؟

لم أكن أعرف. معرفة أصحاب الشأن في المجتمع وما يميزهم لم تكن ضمن اهتماماتي في صباي، لكنني غمغتُ موافقًا إياها. كانت تريد الحديث عن هذا الأمر منذ مدة طويلة، وبدأت كأنها منومة مغنطيسيًا.

- كان لدي واقٍ أنثوي، أجل، كان بداخل صندوق بلاستيكي صغير على غلافه وردة. إلا أنني لم أستخدمه قط، لم يتعيّن علي استخدامه قط، وفي النهاية ألقيته في سلة القمامة بعد إحدى عمليات التفريغ تلك، هذا ما كان زوجي يسميه، تفريغًا. كان يقول: "علي أن أفرغه". ثم يجلب المكنسة.

ضحكتُ، ومجددًا تذكرتُ آيفي تمبلتون. تابعت سيدي: «قالت أُمي لي أن أنتظر عامين! كان بمقدورنا الانتظار عشرين عامًا، ودون حاجة إلى واقٍ أنثوي!».

أمسكتُ بذراعها برفق وسألتها: «ماذا حدث؟ هل ضربك؟ ضربك بمقبض المكنسة؟». ثمة طرائق أخرى لاستخدام مقبض المكنسة (قرأتُ المَخرج الأخير إلى بروكلين⁽¹⁾)، لكن يبدو أنه لم يلجأ إليها، إذ وجدتُ سيدي عذراء، والدليل على ملء الفراش.

قالت: «لا، المكنسة لم تكن للضرب. جورج، لا أظنني قادرة على مواصلة الكلام في هذا الموضوع، ليس الآن. أحس... لا أدري... كأني قنينة مشروب غازي رُجّت للتو. أتعرف ما أريده؟».

ظننتُ أنني أعرف، لكنني تصرفت بتهذيب وسألتها، فأجابت: «أريد منك أن تأخذني إلى الداخل، وتنزع الغطاء». رفعت يديها فوق رأسها وتمطّت، ولم تكن قد كلفت نفسها عناء ارتداء حمالة الصدر، فرأيت

(1) Last Exit to Brooklyn رواية من تأليف هوبرت سيلبي. (المترجم)

نهديها يرتفعان تحت بلوزتها، في ضوء العصر المتأخر. أردفت: «لا أريد اجتراح الماضي اليوم، اليوم أريد التنفيس عن نفسي».

3

وبعد ساعة رأيت أنها بدأت تغفو، فقبلتها على جبينها أولاً ثم على أنفها لأوقظها، وقلت: «علي الذهاب، ولو لإبعاد سيارتي عن مدخل منزلك قبل أن يبدأ جيرانك الاتصال بأصدقائهم».

- أجل، يجدر بنا الحذر من أسرة سانفورد المجاورين لي، وليلا سانفورد هي الطالبة أمينة المكتبة في هذا الشهر.

وكنت شبه متأكد أن والد ليلا عضو في مجلس إدارة المدرسة، لكنني لم أقل هذا. سيدي كانت منتشية ومسترخية، ولم أرغب في إفساد لحظتها. ما تعرفه أسرة سانفورد هو أننا نجلس على الأريكة بتهذيب، في انتظار انتهاء برنامج دنيس ذا منيس وبدء برنامج إد سوليفان، وإذا ظلت سيارتي عند مدخل منزل سيدي حتى الحادية عشرة، فربما يغيرون ظنونهم بشأن ما نفعله.

شاهدتني أرتدي ملابسني وسألتني: «ماذا سيحدث الآن يا جورج؟ بشأن علاقتنا؟».

- أريد أن أكون معك إذا أردت أن تكوني معي. أهذا ما تريدينه؟ اعتدلت جالسة فتجمعت الملاءة حول خصرها، وتناولت سجائرها: «أريده بشدة، لكنني متزوجة، وهذا لن يتغير حتى الصيف القادم في رينو. إذا حاولت فسخ عقد الزواج، فسيقاومني جوني، بل حتى والداه سيقاومانني».

- إذا تكتّمنا فسيكون كل شيء على ما يرام. علينا توخي الحذر، تعرفين هذا، أليس كذلك؟

ضحكتُ وأشعلت سيجارتها.

- بالطبع، أعرف هذا.

- سيدي، هل واجهتك مشكلة انضباط طلاب في المكتبة؟

«هه؟ قليلًا، بالطبع، المواقف المعتادة». هزت كتفيها، واهتز نهداها، فتمنيت لو أنني لم أرتدِ ملابسِي بسرعة، ومن ناحية أخرى، مَنْ كنت أُمَازح؟ لربما استطاع جيمس بوند خوض جولة ثالثة، لكن جيك / جورج استنزفت طاقته. «أنا الفتاة الجديدة في المدرسة، لذا يختبرونني. إنه أمر مزعج، لكن ما من شيء لم أتوقعه. لماذا تسأل؟».

- أظن أن مشكلاتك على وشك التلاشي. الطلاب يحبون وقوع الأساتذة في الحب، حتى الفتيان، يجدون الأمر مسليًا كأنه مسلسل تلفزيوني.

- هل سيعرفون أننا...؟

فكرتُ وقلت: «بعض الفتيات سيعرفن، من لديهن خبرة في العلاقات».

نفثتِ الدخان وقالت: «عظيم». لكنها لم تبدُ ممتعة تمامًا.

- ما رأيك بتناول الغداء بالخارج في مطعم ذا سادل في راوند هيل؟ حتى يعتاد الناس رؤيتنا معًا.

- حسنًا، غدًا؟

- لا، لدي أمر علي قضاؤه في دالاس غدًا.

- أهو بحث ذو صلة بكتابك؟

قلت: «نعم». ها نحن زان، بدأتُ الكذب وقد بدأتُ علاقتنا للتو. لم يعجبني هذا، لكن لم أرَ مخرجًا آخر. أما المستقبل... رأيت أن أصرف تفكيري عنه الآن، أنا أيضًا منتش ومستمع باللحظة. اقترحتُ: «الثلاثاء؟».

- حسنًا. جورج...

- ماذا؟

- علينا أن نجد طريقة لمواصلة فعل هذا.

ابتسمتُ قائلاً: «الحب سيجد طريقة».

- أظن أن هذا الجزء متعلق بالشهوة أكثر من الحب.

- ربما الاثنان.

- إنك رجل لطيف يا جورج أمبرسون.

رباه، حتى الاسم كذبة.

تابعتُ: «سأخبرك بقصتي مع جوني، عندما أستطيع، إذا أردت سماعها».

قلت: «أريد سماعها». رأيت أنني لا بد لي. إذا أردت إنجاح علاقتنا فلا بد أن أعرف كل شيء عنها وعن زوجها، وعن المكينة. «عندما تستطيعين».

- مثلما تحب مديرتنا المؤقّرة أن تقول: "أيها الطلاب، سيكون هذا تحدياً صعباً، لكنه يستحق العناء".

ضحكتُ.

أطفأتُ عقب سيجارتها وقالت: «أتساءل عن أمر واحد. هل كانت ميمي لتوافق على علاقتنا؟».

- لوافقتُ بالتأكيد.

- هذا ما أظنه أيضاً. قد السيارة إلى منزلك بأمان يا عزيزي. ويجدر بك أن تأخذ تلك.

أشارت إلى الكيس الورقي الذي جلبته من صيدلية كيلين، كان قابلاً على منضدة زينتها. وأردفتُ: «إذا زارني شخص فضولي من الذين ينظرون إلى محتويات خزانة الأدوية بعدما يتبولون، فسأضطر إلى تقديم تفسير».

- فكرة جيدة.

- لكن احتفظ بها في متناولك يا عزيزي.

وغمزتُ.

4

في طريقي إلى منزلي وجدت نفسي أفكر بتلك الواقيات الذكرية. ماركة تروجان... مُحَزَّزة من أجل متعتها، حسبما هو مكتوب على العلبة. لم يعد لدى السيِّدة واق أنثوي (لكن أظنها سوف ترتَّب للحصول عليه في رحلتها التالية إلى دالاس)، وأقراص منع الحمل لن تكون منتشرة انتشارًا واسعًا إلا بعد عام أو عامين، وحتى عندئذٍ سيكون الأطباء حذرين في التوصية بها، إن لم تخني ذاكرتي عن دروس "علم الاجتماع الحديث". إذن لا خيار لي في الوقت الراهن سوى واقيات تروجان، وكنت أضعها لا من أجل متعتها بل حتى لا تحمل بطفل. وهذا أمر مُسلِّ عندما أتذكر أنني نفسي لن أولد طفلًا قبل خمسة عشر عامًا.

التفكير بالمستقبل مُربك من شتى النواحي.

5

في اليوم التالي عدت لزيارة محل مايك الصامت، وجدت لافتة مغلق على الباب، وبدا المحل خاليًا، لكن عندما طرقت على الباب، سمح لي رجل الإلكترونيات بالدخول.

قال: «في الوقت تمامًا يا سيد دو، في الوقت تمامًا. فلنرَ إذا ما كان سيعجبك الجهاز، رأيي أنني تفوقتُ على نفسي».

وقفت جوار نضد البيع الزجاجي المليء براديوهات الترانزستور وبينما انتظرت اختفى مايك في الحجرة الخلفية. عاد حاملاً مصباحًا في

كل يد، بدا زجاجها الخارجي داكنًا، كأنما لمستّه أصابع متسخة كثيرة. كانت قاعدة أحدهما غير مستوية فظل مائلًا عندما وضعه مايك على النضد: مصباح بيزا المائل. كانا مثاليين، وعبرت للرجل عن إعجابي، فابتسم ووضع جهازَي تسجيل جوار المصباحين، وكيّسًا قماشيًا برباط فيه أسلاك رفيعة جدًّا تُرى بالكاد.

سألني: «أتريد شرحًا لطريقة عمل الجهاز؟».

قلت: «أظنني فهمتها». ووضعت خمس ورقات من فئة عشرين دولارًا على النضد. تأثرت قليلًا عندما حاول الرجل إعادة إحداها إليّ.

- اتفقنا على مئة وثمانين دولارًا.

- العشرين الإضافية حتى تنسى أنني أتيت إلى هنا.

فكّر بهذا لحظة، ثم أعاد ورقة الدولارات العشرين إلى المجموعة مع أصدقائها الخضر.

- نسيْتُ سلفًا. لِمَ لا أعدّها إكرامية؟

وفي أثناء وضعه الأشياء في كيس ورقي بُني، داهمني فضولٌ بسيط فطرحْتُ عليه سؤالًا.

أجاب: «كينيدي؟ لم أصوّت له، لكن ما دام لن يتلقَى أوامره من البابا، أظنه لا بأس به. البلاد تحتاج إلى قائد أصغر سنًّا، إننا في عصر جديد، أتعرف؟».

- أظن أنه سيكون بخير إذا جاء إلى دالاس؟

- على الأرجح. لا يمكنني الجزم. لو كنت في مكانه لبقيتُ شمال خط ماسون-ديكسون⁽¹⁾.

(1) خط كان يفصل بين الولايات الشمالية والجنوبية.

ابتسمت قائلاً: «حيث كل شيء هادئ، وكل شيء مشرق؟»⁽¹⁾.
قال مايك الصامت (مايك المقدس): «لا تبدأ».

6

كان يوجد صف من الصناديق المخصصة للرسائل البريدية وإعلانات المدرسة في حجرة الأساتذة بالطابق الأول. في صباح الثلاثاء، في فترة لم أكن مشغولاً فيها، وجدت ظرفاً مختوماً في الصندوق الخاص بي.

عذيري جورج..

إذا كنت ما زلتَ راغبًا في اصطحابي للعشاء الليلة، فلا بد أن يكون ذلك قرابة الساعة الخامسة، عليّ بدء العمل في ساعة مبكرة طوال هذا الأسبوع والأسبوع القادم، استعدادًا لمعرض الخريف لبيع الكتب. ربما يمكننا أن نعود إلى منزلي لتناول التحلية.

لدي كعكة، إذا رغبتَ في قطعة.

سَيدي

«ماذا يضحك يا أمبرسون؟ أخبرني، أحتاج إلى تسلية». سألني داني لافيرتي وقد كان يقيم موضوعات كتابة بتركيز وعينين غائرتين توحيان بأنه يعاني آثار ما بعد الثمالة.

قلت: «لا، إنها مزحة خاصة، لن تفهمها».

(1) إحالة أخرى إلى ترنيمة عيد الميلاد، فيها أبيات: كل شيء هادئ، كل شيء مشرق.
(المترجم)

لكننا -أنا وسيدي- فهمناها. الكعكة صارت الاسم الذي نطلقه على الفعل، وقد أكلنا كثيرًا في ذلك الخريف.

توخيّنا التكتّم والحذر، لكن بالطبع كان يوجد من يعرفون بما يجري، وعلى الأرجح تناقل بعضهم أحاديث النميّة، لكن الأمر لم يصل إلى درجة الفضيحة. سكان البلدات الصغيرة نادرًا ما يتّصفون بالخبث. كانوا يعرفون وضع سيدي، وضعها العام على الأقل، ويفهمون أننا لا يمكننا أن نعلن ارتباطنا للملأ في الوقت الراهن. لم تأت سيدي إلى منزلي، لتسبّب هذا في أقاويل غير مرغوبة. ولم أمكث في منزلها إلى ما بعد العاشرة قط، لأن هذا أيضًا قد يتسبّب في أقاويل غير مرغوبة. لم تكن ثمة طريقة لإدخال الصنلاينز في مرأب منزل سيدي وقضاء الليلة معها، لأن سيارتها الفلوكسواغن، رغم صغرها، تشغل المرأب من الجدار إلى الجدار. لما فعلت هذا على أي حال، لعرف شخصٌ ما. في البلدات الصغيرة يعرفون دومًا.

ظلمت أزورها بعد المدرسة. وأتناول معها وجبة تسميها عشاء متأخرًا، أحيانًا نذهب إلى مطعم آل وبتناول البرونغبرغر أو السمك وأحيانًا نذهب إلى مطعم ذا سادل. ومرتين اصطحبتهما إلى حفل راقص في مقر للجمعية التعاونية المحلية من حفلات يوم السبت. شاهدنا أفلامًا في صالة جيم بالبلدة، وميسا في راوند هيل، وسينما سيارات ستارلايت في كيلين (يكثر فيها الفتية اللعوبون). في مطعم جميل مثل ذا سادل، أحيانًا تتناول سيدي كأس نبيذ قبل العشاء، وأتناول جعة. لكننا تحاشينا أن يرانا الناس في حانات البلدة، لا سيما حانة الديك الأحمر، الحانة الوحيدة في جودي التي فيها فونوغراف آلي، يتحدث طلابنا عنها بتوق وانبهار. كان العام 1961، وقد بدأت قوانين الفصل العنصري تلين قليلًا (ظفر الزنوج بالحق في الجلوس بالمطاعم الصغيرة في دالاس

وفورت وورث وهيوستن)، لكن لم يُسمَح لأساتذة المدارس بالشرب في "الديك الأحمر"، وكان كل من يفعل يعرض نفسه لخطر فقدان وظيفته. عندما كنا نمارس الحب في غرفة نوم سيدي، لاحظتُ أنها دومًا تضع بنطالًا وسترة وحذاءً بسيطًا جوار سريرها. كانت تسميها ملابس الطوارئ. المرة الوحيدة التي رن فيها جرس الباب ونحن عاريان (الحالة التي تصفنا فيها سيدي بأننا متلبسان بالجريمة)، ارتدت تلك الملابس في عشر ثوانٍ فقط. عادت ضاحكة مُلوَّحة بنسخة من مجلة ذا وتشتاور، وقالت: «شهود يهوه. قلت لهم إنني أُنقِذت فذهبوا».

ذات يوم ونحن نتناول وجبة من اللحم والبامية في مطبخها، قالت إن علاقتنا ذكَّرتها بفيلم من بطولة أودري هيبيرن وغاري كوبر، الحب في المساء. قالت بشيء من الحسرة: «أحيانًا أتساءل عما إذا كان من الأفضل أن نفعلها في الليل، كما يفعل الناس العاديون».

قلت: «سوف تسنح لك فرصة لمعرفة الإجابة، اصبري يا بيبي».

ابتسمتُ وقبَّلت طرف شفتي.

- تقول بعض الكلمات الرائعة يا جورج.

- آه، أجل، لا أحب أن أكون تقليديًا.

دفعْتُ طبقها جانبًا.

- مستعدة للتحية الآن، ماذا عنك؟

8

بعد وقت ليس بالطويل من مجيء شهود يهوه إلى منزل سيدي (لا بد أن هذا كان في بداية نوفمبر، لأنني كنت قد أنهيت اختيار ممثلي نسختي من اثنا عشر رجلًا غاضبًا)، كنت بالخارج أنظف مُرجتي من أوراق الأشجار عندما سمعتُ شخصًا: «مرحبًا جورج، كيف الحال؟».

التفتُ فرأيتُ ديكي سيمونز، وقد ترملَ للمرة الثانية، كان قد مكث في المكسيك مدة أطول مما توقعها أي أحد، وما إن بدأ الناس يظنون أنه سوف يظل هناك، عاد، وهذه كانت أول مرة أراه منذ عودته. أصبح شديد السُمرّة، ونحيلًا جدًّا حتى صارت ملابسه فضفاضة عليه، وشعره، الذي كان رماديًّا في يوم حفل الزواج، صار أبيض كله تقريبًا وبدأ يخف أعلى رأسه.

ألقيت المجرفة وهرعت إليه، كنت أنوي مصافحته لكنني عانقته، أجفل، ففي 1961 الرجال الحقيقيون لا يتعانقون، لكن ديكي ضحك. ظللت ممسكًا بذراعه وقلت: «تبدو بحالة رائعة».

- محاولة جيدة يا جورج، لكن أشعر بأنني أفضل مما كنت. موت ميمز... كنت أعرف أن موتها محتوم، ومع ذلك عصف بي. العقل لا يقدر على إقناع القلب في هذا الأمر، على ما أظن.

- تفضل بالدخول وتناول كوب قهوة.

- أودُّ ذلك.

تحدثنا عن الوقت الذي أمضاه في المكسيك، وتحدثنا عن المدرسة، وعن المباراة القادمة لفريق كرة القدم الذي لم يُهزم. ثم وضع ديكي كوبه وقال: «طلبت إيلين دوكرتي أن أوصل إليك كلمتين عنك وعن سيدي كلايتون».

رباه. وقد ظننتُ أننا كنا نبلي بلاءً حسنًا.

- تُدعى دَنِهْل الآن، إنه اسم عائلتها قبل زواجها.

- أعرف كل شيء عن وضعها، عرفتُ عندما وظَّفناها، إنها فتاة ممتازة وأنت رجل ممتاز يا جورج. وفقًا لما أخبرتني به إيلين، فأنتما تتعاملان كما ينبغي مع وضع معقّد.

استرخيتُ قليلًا.

تابع: «إيلين قالت إنها شبه متأكدة أن كليكما لم يسمع عن بيت ضيافة كاندلود، على مقربة من كيلين. تحرّجت من إخبارك بنفسها، لذا طلبتُ مني إخبارك».

- بيت ضيافة كاندلود؟

- كنت أصطحب ميمز إلى هناك في كثير من ليالي السبت.

كان ساهمًا يحرك كوب القهوة بيديه، اللتين بدتا الآن كبيرتين مقارنة بجسده. تابع: «يديره زوجان، أستاذان متقاعدان من أركنساس، أو ألاباما، إحدى الولايات التي تبدأ بحرف الألف، لا أدري. إنهما أستاذان رجُلان متقاعدان، إذا فهمتَ ما أعنيه».

- أظنني فهمتك. أجل.

- إنهما رجلان لطيفان، ويحرصان على التكتُّم على علاقتهما وعلاقات بعض ضيوفهما.

رفع بصره عن الكوب، بدا وجهه محمّرًا خَجَلًا، لكنه ابتسم وتابع: «إنه ليس فندقًا رخيصًا، في حال خطرت لك هذه الفكرة. أبعد ما يكون عن ذلك. الغرف جميلة، والأسعار معقولة، والمطعم الصغير عند نهاية الشارع يقدم أطباقًا ريفية رائعة. أحيانًا تحتاج الفتيات إلى مكان كذلك، وربما الرجال أيضًا، حتى لا يضطُّروا إلى الاستعجال، وحتى لا يشعروا بأنهم أقل قدرًا».

قلت: «شكرًا لك».

«على الرحب والسعة. أنا وميمي حظينا بكثير من الأمسيات الطيبة في كاندلود، أحيانًا كنا نكتفي بمشاهدة التلفاز مرتدين مناماتنا ثم نخلد إلى النوم، لكن هذا أمر جيد بقدر أي فعل آخر نفسه عندما يبلغ المرء سنًا بعينها». ابتسم ابتسامة حزينة وأردف: «أو يكاد أن يكون أمرًا جيدًا بالقدر نفسه. كنا ننام على أصوات الجادج، وأحيانًا يتناهى إلى مسامعنا من بعيد عواء قيوط، على القمر، كما تعرف، يفعلون ذلك حقًا، يعوون على القمر».

أخرج منديلاً من جيبه الخلفي ببطء رجل عجوز ومسح به خديّه.
مددت إليه يدي مواسياً فأمسكها، ثم تابعت: «كنتَ تروقها، لكنها لم
تستطع فهمك فهمًا كاملاً، قالت إنك ذكّرتها بالطريقة التي تُظهِر بها
الأشباح في الأفلام القديمة من الثلاثينيات. قالت عنك: "إنه لامع، لكنه
ليس حاضراً هنا بكامله"».

قلت: «لستُ شبحاً، أوّكد لك».

ابتسم قائلاً: «حقاً؟ أخيراً تحقّقتُ من مراجعك، تحققت بعدما
ظللتُ تدرّس معنا بديلاً لمدة وحققتُ مسرحيتك نجاحاً مدوّياً. مراجع
مقاطعة ساراسوتا سليمة، لكن الأخرى...» هز رأسه وهو ما يزال
مبتسماً، وأردف: «وشهادتك من جهة زائفة في أوكلاهوما».

تنحنحتُ، لكن هذا لم يُجِدني نفعا. عجزتُ عن الكلام عجزاً تاماً.

تابع ديكي: «هل تتساءل عما يعنيه هذا لي؟ ليس كثيراً. في زمنٍ ما
في هذا الجزء من العالم إذا جاء رجل راكباً حصاناً إلى بلدة ومعه بضعة
كتب في خرجه ويضع نظارة على أنفه وربطة عنق حول عنقه، يُعيّن
مدير مدرسة ويظل في وظيفته عشرين عاماً. هذا كان يحدث منذ زمن
ليس بالبعيد جداً. أنت أستاذ ممتاز، الطلاب يعرفون هذا، وأنا أعرف،
وميمز كانت تعرف أيضاً. وهذا ما يعنيني كثيراً».

- هل تعرف إيلين أنني زوّرتُ مراجعي؟

لأن إيلين دوكرتي هي المديرية المُكلّفة، وحالما يجتمع مجلس إدارة
المدرسة في يناير ستكون وظيفتها دائمة، ما من مرشحين آخرين.

قال: «لا، ولن تعرف. لن تعرف مني. أشعر بأنها لا تحتاج إلى معرفة
هذا». نهض وتابع: «لكن ثمة شخصاً آخر يحتاج إلى معرفة حقيقة
ماضيك وما فعلته، أعني أمينة مكتبة بعينها. وهذا في حال جدّية علاقتك
بها، هل أنت جاد؟».

قلت: «نعم». فأوماً ديكي كأن إجابتي بدّدت كل مخاوفه.

تمنيت ذلك.

بفضل ديكي سيمونز عرفت سيدي أخيراً كيف تكون ممارسة الحب بعد الغروب. عندما سألتها كيف وجدتها قالت إنها كانت رائعة: «لكنني أكثر توقاً إلى الاستيقاظ بجانبك في الصباح. هل تسمع الرياح؟».

سمعتها، كانت تصفرّ حول أفاريز المبنى.

- ألا تُشعرك بالاسترخاء؟

- بلى.

- سأقول لك أمراً الآن، أمل ألا يضايقك.

- أخبريني.

- أظنني وقعت في حبك. ربما أحببتُ الجنس فحسب، سمعتُ أن هذا خطأ يرتكبه الناس، لكنني لا أظنني مخطئة.

- سيدي...

- نعم؟

حاولت أن تبسم، لكنها بدت خائفة.

- أحبك أيضاً، ما من خطأ أو شك في هذا.

قالت: «حمداً للرب». واستكنتُ قريباً مني.

10

في زيارتنا الثانية إلى بيت ضيافة كاندلود، كانت مستعدة للحديث عن جوني كلايتون. «لكن أطفئ المصابيح، هلاً فعلت؟».

امتثلتُ لما طلبته. دخنتُ ثلاث سيجارات في أثناء سرد القصة، وقريباً من النهاية بكّ بكاءً مريئاً، على الأرجح لم يكن بكاءً من تذكُّر الألم بقدر ما كان من إحساسها بالحرّج. أرى أن معظم الناس يجدون

الاعتراف بالخطأ أسهل من الاعتراف بالغباء. لا يعني هذا أنها كانت غبية. ثمة فرق شاسع بين الغباء والسذاجة، ومثل معظم فتيات الطبقة الوسطى اللاتي بلغن النضج في الأربعينات والخمسينات، لم تكن سيدي تعرف عن الجنس أي شيء تقريبًا. وكان جوني يعنفها إذا بدر منها أي فعل يُعد عاديًا بين أي زوجين.

نشأ جوني كلايتون في أسرة متدينة تدينًا تقليديًا، دون أي تطرّف أو جنون. كان لطيفًا ومُجَامِلًا وجذّابًا إلى درجة معقولة. لم يتَّسم بأعلى حس دعابة في العالم (انعدام حس الدعابة لديه ربما يكون التعبير الأقرب إلى الواقع)، لكن بدا أنه كان يحب سيدي حبًا جمًّا، ووالداها أحبّاه. كليلر دنهل كانت مولعة بجوني كلايتون. وكان أطول من سيدي، بالطبع، حتى عندما تنتعل كعبًا عاليًا، وهذا كان أمرًا مهمًّا بعد سنوات من النكات التي تسخر من طولها.

قالت سيدي: «السمة المزعجة الوحيدة التي عرفتُها عنه قبل الزواج كانت اهتمامه الهَوْسِي بالنظافة والترتيب. كان يرتب جميع كتبه ترتيبًا أبجديًا، وينزعج بشدة إذا حرَّكتُ كتابًا من مكانه، ويتوتر إذا أخذت كتابًا من الرف فحسب، توترًا يكاد أن يكون محسوسًا. كان يحلق ذقنه ثلاث مرات يوميًا، ويغسل يديه طوال الوقت. وإذا صافح شخصًا، يخلتق ذريعة ليذهب إلى الحمام ويغسل يده في أقرب وقت ممكن».

قلت: «كما يحرص على تنسيق ملابسه بحسب ألوانها، سواء التي يرتديها أو التي في الخزانة. والويل لكل من يُخل بتنسيقها. هل يرتب الأشياء الموجودة في مستودع المؤن ترتيبًا أبجديًا أيضًا؟ أو يستيقظ أحيانًا في الليل ليتأكد من أن الموقد مطفأ والأبواب موصدة؟».

التفتت إلي وعيناها متسعتان ومتسائلتان في الظلام. أصدر السرير صريرًا خافتًا، وهبّت ريح فجأة، فخشخت أحد ألواح النافذة.

- كيف تعرف ذلك؟

- إنها متلازمة، اسمها الوسواس القهري. هاورد...

أمسكتُ لساني. أردتُ قول: هاورد هيوز مصاب بالوسواس القهري بدرجة شديدة، لكن ربما لم يكن هذا صحيحًا بعد. حتى إذا كان صحيحًا، فعلى الأرجح لا يعرف الناس هذه المعلومة.

- ...صديقٌ قديمٌ لي كان مصابًا بالوسواس القهري. هاورد تمبل. لا عليك. هل أذاك يا سيدي؟

- لم يسبب لي أذى جسديًا شديدًا، لم يضربني أو يلكمني، لطمني مرة واحدة فحسب. لكن الناس يؤذون بطرائق أخرى، أليس كذلك؟

- بلى.

- لم أستطع التحدث عن هذا مع أي أحد، قطعًا ما كنت لأتحدث مع أمي. أتعرف ما قالته لي يوم زفافي؟ قالت إنني إذا رددتُ نصف دعاء قبلها ونصف دعاء في أثنائها، فسيكون كل شيء على ما يرام. في أثنائها كانت أقرب كلمة استطاعت استخدامها للإشارة إلى الاتصال الجنسي. حاولتُ التحدث مع صديقتي روثي، لكن مرة واحدة. كان هذا بعد يوم دراسي، وكانت تساعدني على ترتيب المكتبة. قالت: "ما يجري خلف باب غرفة النوم ليس من شأني". فتوقفتُ، لأنني لم أرغب حقًا في الحديث عن الأمر، كنت أحس بخزي شديد.

ثم تدفقت تفاصيل ما حدث معها. لم أتبيّن بعضًا مما قالته بسبب بكائها، لكنني فهمت الخلاصة. في ليالٍ بعينها، مرة أو مرتين أسبوعيًا، كان زوجها يقول لها إنه يحتاج إلى «تفريغه». يضجعان جنبًا إلى جنب على السرير، هي ترتدي ملابس نومها (كان زوجها يصر على أن ترتدي ألوانًا داكنة)، وهو يرتدي سروالًا قصيرًا. لم يتعرَّ أمامها أكثر من هذا القدر.

- ذات مرة وهو مضطجع جوارى، مرة واحدة أتذكرها. أتعرف ما
قاله لي؟
- لا.

- "يا لنا من مقرّزين! فلننته من الأمر حتى أنال قسطًا من النوم".
وبعد الانتهاء يدخل إلى الحمام، ويغتسل، ويعود مرتديًا منامته. لديه
سبع منامات، كلها زرقاء.

ثم يحين دورها في دخول الحمام، وغسل يديها. كان يصر على أن
تغسل يديها لمدة ثلاث دقائق على الأقل، تحت ماء ساخن إلى درجة
تجعل جلدها يحمر. وإذا لم يجد رائحة صابون "لايفبوي" قوية بما
يكفي لإرضائه، يأمرها بغسل يديها مجددًا.
- وعندما أعود أجد المكنسة.

كان يضع المكنسة فوق الملاءة في الصيف، وفوق البطانية في
الشتاء، يضعها في منتصف السرير، هو في جانب وسيدي في جانب.
- إذا تلملمت قليلًا فحرّكتُ المكنسة دون قصد، يستيقظ فورًا، حتى
إذا كان يغط في نوم عميق، ويدفعني إلى جانبي بعنف. سمّي
حركتي غير المقصودة هذه "انتهاك حدود المكنسة".

المرة التي لطمها فيها كانت عندما سألتُه كيف يمكنهما إنجاب
أطفال إذا لم يحدث إيلاج.

- استشاط غضبًا. لهذا لطمني. اعتذر لاحقًا، لكن عندئذ قال: "أتظنين
أنني قد أعرض نفسي للجراثيم وأجلب أطفالًا إلى هذا العالم
القدر؟ سينفجر العالم كله على أي حال، كل من يقرأ الصحف
يعرف هذا المصير، والإشعاع سيقتلنا، سنموت والجروح تغطي
أجسادنا ونحن نسعل حتى نلفظ رئاتنا. يُتوقَّع وقوع الكارثة في
أي يوم".

- رباها! لا عجب أنك هجرته يا سيدي.

- لكن بعدما أهدرتُ أربع سنوات، استغرقت تلك المدة الطويلة لأقنع نفسي بأنني أستحق حياة لا تقتصر على ترتيب دُرج جوارب زوجي بحسب ألوانها، و"تفريغه" يدويًا مرتين أسبوعيًا، والنوم مع مكنسة لعينة. هذا الجزء كان أشد ما أشعُرني بالإذلال، الجزء الذي كنت متأكدة أنني لن أحدث عنه أحدًا أبدًا... لأنه كان مضحكًا. لم أره مضحكًا، رأيته في منطقة بين العُصاب والدُهان التام. كما رأيته أنني استمعت إلى حكاية نمطية مثالية تعود إلى حقبة الخمسينيات. كان من السهل تخيل روك هدرسون ودورس داي ينامان وبينهما مكنسة.

- ولم يأت للبحث عنك؟

- لا لم يأت. قدّمتُ طلبات للعمل في عدة مدارس وطلبت منهم إرسال الردود إلى صندوق مكتب بريد. شعرت كأني امرأة في علاقة غير شرعية، تتسلل وتراوغ، وهكذا عاملني والدادي عندما علما بانفصالي. اقتنع أبي قليلًا، أظنه تراوده شكوك في مدى سوء الوضع، إلّا أنه لا يريد معرفة التفاصيل بالطبع. لكن أُمي؟ مُحال. إنها غاضبة مني أشد الغضب. اضطرت إلى تغيير الكنيسة التي تذهب إليها والانسحاب من مسابقة الحياكة، لأنها لم تستطع رفع رأسها أمام الناس، حسبما قالت.

على نحو ما بدا لي ذلك قاسيًا وجنونيًا كأمر المكنسة، لكنني لم أقل هذا. أثار اهتمامي جانب آخر من الموضوع أكثر من والذي سيدي التقليديين: «ألم يخبرهما كلايتون أنك اختفيت؟ هل ما فهمته صحيح؟ لم يذهب لمقابلتهما؟».

لكنة سيدي الجنوبية الطفيفة عادةً ازدادت وضوحًا: «لم يذهب. لكن أُمي فهمت بالطبع. ألحقتُ بذلك الصبي المسكين عارًا شديدًا إلى درجة أنه لم يرغب في إخبار أي أحد». عادت إلى لكنتها المعتادة: «لا أقصد

التهكم. أمي تفهم العار، وتفهم محاولة مُداراته. في هذين الأمرين أمي وجوني متناغمان تمامًا. كان ينبغي أن يتزوجها هي». أطلقت ضحكة هستيرية قليلًا. «على الأرجح لأحبت أمي تلك المكنسة القديمة».

- ألم يتواصل معك إطلاقًا؟ لم يرسل إليك حتى بطاقة بريدية يقول فيها "مرحبًا سيدي، فلننه المسائل العالقة حتى يواصل كلُّ منا حياته"؟

- كيف يتواصل معي؟ لا يعرف مكاني، ومتأكدة أنه لا يكثرث.

- هل يوجد أي شيء تريدينه منه؟ لأنني متأكد أن محامياً...

قبلتني وقالت: «الشيء الوحيد الذي أريده موجود هنا معي».

11

غفوت قليلًا بعدها، لم أستغرق في النوم، كنت ما أزال أسمع الرياح واهتزاز لوح تلك النافذة، لكن الغفوة استمرت مدة كافية لأحلم. أنا وسيدي في منزل خالٍ، عاريان. ثمة شيء يتحرك في الطابق الأعلى، ويُحدث أصواتًا مكتومة مزعجة، ربما كان صوت خطوات شخص يذرع المكان جيئةً وذهابًا، لكن بدا لي أن الأقدام كثيرة جدًا. لم أحس بالذنب لأن أمرنا سيفتضح ونحن عاريان. أحسست بالخوف. رأيت كتابة بالفحم على أحد الجدران ذات الطلاء المتقشر: سأقتل الرئيس قريبًا. وأسفلها أضاف شخص: ربما تتأخر، إنه مليء بالأمراض. وهذه كُتبت بأحمر شفاف داكن، أو ربما كان دمًا.

استمر الضجيج المكتوم المزعج من الأعلى.

همستُ لسيدي: «أظنه فرانك دِنغ». أمسكتُ بذراعها، فوجدتها باردة جدًا، كأنني أمسكت بذراع شخص ميت، ربما جثة امرأة ماتت ضربًا بمطرقة ثقيلة.

هزت سيدي رأسها، كانت تنظر إلى السقف، وفمها يرتعش.

استمر الضجيج المكتوم المزعج.

وبدأ غبار جص السقف يتهادى إلى الأسفل.

همستُ: «إذن فهو جون كلايتون».

قالت: «لا، أظنه رجل البطاقة الصفراء. جلب الجيمل».

فوقنا انقطع الضجيج فجأة.

أمسكتُ سيدي بذراعي وهزتها، وبدت عيناها مرتاعتين. «إنه الجيمل! وقد سمعنا! الجيمل يعرف أننا هنا!».

12

- استيقظ يا جورج! استيقظ!

فتحتُ عيني، فرأيت سيدي بجانبى متكئة على أحد مرفقيها، وبدا لي وجهها غير واضح المعالم. قلت: «ماذا؟ كم الساعة؟ هل علينا أن نذهب؟». لكن الظلام ما زال مخيمًا والرياح ما زالت شديدة.

قالت: «لا. لم يحن منتصف الليل بعد. كنتَ في كابوس». ضحكتُ ضحكة متوترة: «هل كان حلمًا عن كرة القدم؟ لأنك كنت تقول "جيمل، جيمل"».

- حقًا؟

اعتدلت جالسًا. سمعتُ صوت كشط عود ثقاب وأضيء وجهها لوهلة وهي تشعل سيجارة.

- نعم. كنتَ تقول ذلك. قلتُ كلامًا كثيرًا.

هذا لم يكن جيدًا.

- مثل ماذا؟

- لم أستطع تبين معظم الكلام، لكن جملة واحدة كانت واضحة جدًا، قلت: "ديري هي دالاس"، ثم عكستها: "دالاس هي ديري".
ما الحكاية؟ هل تتذكر؟

- لا.

لكن يصعب الكذب على نحو مقنع عندما يكون المرء قد استيقظ للتو، حتى إذا لم يكن نومه عميقًا، لذا رأيت الشك على وجه سيدي، وقبل أن يتعمق إلى عدم تصديق، سمعنا طرْقًا على الباب. طرّق عند الثانية عشر إلا ربع.

حدقنا إلى بعضنا.

تصاعد الطرّق مجددًا.

إنه الجيملا. هذه الفكرة كانت واضحة جدًا، وراسخة التأكيد.

وضعت سيدي سيجارتها في المنفضة، وجمعت الملاءة حول جسدها وركضت إلى الحمام دون كلمة، أغلقت الباب خلفها.
سألت: «من الطارق؟».

- أنا يورتي يا سيدي، بد يورتي.

أحد الأستاذين المتقاعدین اللذين يديران المكان.

نهضت من السرير وارتديت بنطالي.

- ما الأمر يا يورتي؟

- لدي رسالة لك يا سيدي. السيدة تقول إنه أمر طارئ.

فتحت الباب. كان رجلًا صغير الحجم يرتدي رداء حمام رثًا، بدا شعره كسحابة حول رأسه، وفي يده قصاصة ورق.

- أيّ سيدة؟

- إيلين دوكرتي.

شكرته على تكليف نفسه العناية وأغلقت الباب، ثم فتحت الورقة وقرأت الرسالة.

خرجت سيدي من الحمام وهي ما تزال متشبثة بالملاءة، وعيناها متسعيتن مرتعأتين: «ما الخطب؟».

- وقع حادث، قاد فينس نولز شاحنته الصغيرة إلى خارج البلدة، مايك كوسلو وبوبي جيل كانا معه. سقط مايك بعيداً ولم يُصب بأذى كبير، كُسرت ذراعه. وأصيبت بوبي جيل بجرح بالغ على وجهها، لكن إيلين تقول إنها ستكون بخير.

- ماذا عن فينس؟

تذكرتُ كلام الناس عن قيادة فينس كأنما ليس هناك غد. والآن لم يعد هناك غد له.

- مات يا سيدي.

فغرثُ فمها.

- مُحال! إنه في الثامنة عشرة فحسب!

- أعرف.

سقطت الملاءة من ذراعيها اللتين ارتختا فجأة وتجمّعت حول قدميها. وضعت يديها على وجهها.

13

مسرحيتي المقتبسة من اثنا عشر رجلاً غاضباً أُلغيت، وحلت محلها موت طالب، مسرحية من ثلاثة فصول: رؤية الجثمان في قاعة الجنازات، ومراسم الجنازة في كنيسة غريس الميثودية، ومراسم الدفن في مقبرة ويست هيل. وقد حضر هذا العرض المفعم بالحزن جميع سكان البلدة، أو غالبيتهم العظمى على الأقل.

والدا فينس وشقيقته الصغرى المشدوهة كانوا نجوم فصل عرض
الجثمان، جلسوا على مقاعد قابلة للطي جوار النعش. عندما ذهبْتُ إليهم
وسَيدي بجانبِي، نهضت السيدة نولز وأحاطتني بذراعيها، كِدت أختنق
بروائح عطر وايت شولدرز ومزيل عرق يودورا.

همستُ في أذني: «غيرتَ حياتِه. هذا ما قاله لي. ولأول مرة نجح في
تحسين درجاته، لأنه أراد أن يمثّل».

قلت: «يؤسفني فقدكِ أشد الأسف». وعندئذٍ خطرت لي فكرة فضيحة،
فشددتُ عناقِي للمرأة، كأنما العناق قادر على محو الفكرة التي خطرت
لي: ربما يكون هذا أثر الفراشة. ربما مات فينس لأنني جئتُ إلى جودي.
كان النعش محاطًا بمجموعة صور من حياة فينس القصيرة، وعلى
حامل ثلاثي الأرجل على مقربة وُضعت صورة لفينس بزيّه وقبعته
المهترئة في مسرحية عن الفئران والرجال، وتحت القبعة أشرق وجهه
الذكي الشبيه بوجه الجرذ. لم يكن فينس ممثلًا ذا موهبة كبيرة، لكن
تلك الصورة التَّقَطت له في التوقيت المناسب لإظهار ابتسامة ساخرة
مثالية. بدأت سيدي تنشج، وعرفتُ السبب. الحياة تتغير في طرفة عين،
تُقبِل حينًا وتُدبِر في أحيين كثيرة، وتراوغنا دومًا: وداعًا يا عزيزي،
حظينا بوقت طيب، أليس كذلك؟

وجودي كانت طيبة، طيبة معي. في ديري كنت دخيلاً، لكن جودي
كانت ديارِي. إليكم ما تعنيه ديارِي: رائحة زهور المريمية. واكتساء
التلال بزهور عنبر كشمير البرتقالية في الصيف. ورائحة التبغ الطفيفة
في أنفاس سيدي. وصرير خشب أرضية صَفِي الدراسي. واهتمام إيلين
دوكرتي إلى درجة إرسال رسالة إلينا في منتصف الليل، ربما حتى نعود
إلى البلدة دون انكشاف سرِّنا، أو على الأرجح حتى نعرف فحسب.
مزيج رائحة العطر ومزيل العرق عندما عانقتني السيدة نولز. وُضع
مايك ذراعه -غير المكسورة- حول كتفي عندما كنا في المقبرة، ثم

دُفنه وجهه في كتفي إلى أن تمالك نفسه. والجرح الدَّامي القبيح على وجه بوبي جيل يمثلُّ ديارى أيضًا، وانشغال خاطري بأنها إذا لم تخضع لجراحة تجميلية (لن تستطيع أسرتها تحمُّل تكلفتها) فسيخلف الجرح ندبة تذكُّرها بمشهد جثة الفتى المتعضضة الملقاة على جانب الطريق. ديارى هي رباط الذراع الأسود الذي ارتداه جميع الأساتذة جدًّا لمدة أسبوع. ووضع آل ستيفنز صورة فينس على نافذة مطعمه. ودموع جيمي لادو عندما وقف أمام المدرسة بأكملها وأهدى موسم اللاهزيمة لفينس نولز.

ثمة أشياء أخرى أيضًا. عبارات التحايا في الشوارع، وتلويح الناس لي من سياراتهم، اصطحاب آل ستيفنز لي مع سيدي إلى طاولة بالخلف بدأ يسميها «طاولتنا». ولعب الكريبيج في أمسيات الجمعة في حجرة الأساتذة مع داني لافيرتي، بنس مقابل كل نقطة. والجدال مع الأنسة ماير العجوز بشأن الأفضل في تقديم نشرة الأخبار، تشيت هنتلي وديفد برنكلي، أم والتر كرونكايت. منزلي والشارع المؤدي إليه. واعتيادي استعمال الآلة الكاتبة مجددًا. وارتباطي بأفضل فتاة. وحصولي على هدايا مع مشترياتي من البقالة وزبدة حقيقية في الفشار الذي أتناوله في أثناء مشاهدة الأفلام.

ومشاهدة صعود القمر في سماء مفتوحة ومعى رفيق أُناده إلى جوار النافذة لنشاهد معًا. ديارى حيث الرقص مع آخرين، والرقص حياة.

14

اقترب عام 1961 من نهايته. ذات يوم تساقط فيه رذاذ المطر قبل أسبوعين من الكريسماس، عُدت إلى منزلي بعد المدرسة، متدثرًا مرة أخرى بمعطفي الجلدي الثقيل، وسمعت الهاتف يرن.

قالت امرأة: «أنا آيفي تمبلتون، على الأرجح لا تتذكرني».

- أتذكر جيداً.

- لا أدري لماذا كلفت نفسي عناء الاتصال بك، تلك الدولارات العشرة

أنفقتها ونسيتها منذ مدة طويلة. ثمة شيء فيك عالق في رأسي.

وروزيت تتذكرك أيضاً، تسمّيك "الرجل الذي التقط كُرتي".

- هل ستنقلون من المنزل؟

- صحيح تماماً. أُمي قادمة من موزيل غداً على متن شاحنة.

- أليس لديكم سيارة؟ أم إنها تعطلت؟

- السيارة تعمل رغم أنها خردة، لكن هاري لن يركبها، أو يقودها

مجدداً أبداً. كان يعمل في إحدى وظائف شركة مانباور اللعينة

في الشهر الماضي، سقط في حفرة ودهسته شاحنة في أثناء

رجوعها، فكسرت عموده الفقري.

أغمضت عيني ورأيت حطام سيارة فينس في أثناء سحبها من

الشارع، والدماء تغطي الجزء الداخلي من الزجاج الأمامي المشقق.

- يؤسفني سماع هذا.

- سيعيش لكنه لن يمشي أبداً، سيجلس على كرسي مدولب ويتبول

في كيس، هذا ما سيفعله. لكن أولاً سيذهب إلى موزيل على ظهر

شاحنة أُمي. سنسرق الفراش من سرير غرفة النوم حتى يضجع

عليها. سيكون هذا مثل اصطحاب كلبك في عطلة، أليس كذلك؟

بدأت تبكي، وتابعت: «تأخرتُ في سداد إيجار شهرين، لكن هذا ليس

التحدّي الذي يواجهني. أتعرف ما هو التحدي الذي يواجهني يا سيد

بَدْنَتين؟ لديّ خمسة وثلاثون دولاراً لعيناً فقط. اللعنة على هاري الوغد،

إذا انتبه وحافظ على توازنه لما كنتُ في هذه المحنة. كنت أظنني في

محنة من قبل، لكن الآن انظر إلى هذا!». سمعتُ صوت شخير مخاطي

طويل، ثم تابعت: «أتعرف أمراً؟ منذ مدة يرمقني ساعي البريد بنظرات ذات مغزى، وأظنني مقابل عشرين دولاراً سأضاجعه على أرضية صالة المعيشة اللعينة، إذا لم يكن بمقدور جيراننا اللعينين على الجانب الآخر من الشارع رؤيتنا ونحن نفعلها. لا يمكنني إدخال الرجل إلى غرفة النوم، أليس كذلك؟ فهناك يرقد زوجي مكسور الظهر». أطلقت ضحكة مبحوحة. «سأخبرك بأمر، لمَ لا تأتي إليّ بسيارتك الفخمة ذات السقف المتحرك؟ خذني إلى نُزلٍ ما. ادفع مبلغاً إضافياً لنحصل على غرفة معها صالة جلوس، حتى تشاهد روزيت التلفاز. بدوت لي ميسور الحال».

لزمت الصمت. خطرت لي فكرة برقت في ذهني كمصباح.

إذا لم يكن بمقدور جيراننا اللعينين على الجانب الآخر من الشارع رؤيتنا ونحن نفعلها.

ثمة رجل من المفترض أن أراقبه أنا. أقصد رجلاً آخر غير أوزوالد. رجل يصادف أن اسمه أيضاً جورج، سوف يصبح صديق أوزوالد الوحيد. كان آل قد كتب عنه في ملاحظاته: لا تثق به.

- هل ما زلتَ معي يا سيد بدنتين؟ لا؟ إذن تبّاً لك ووداع...

- لا تُنهي المكالمة. فلنفترض أنني سأدفع مبلغ إيجارك المتأخر وعلاوة على ذلك أعطيك مئة دولار.

المبلغ أكثر بكثير مما ينبغي دفعه مقابل ما أردتُه، لكن كان لدي المبلغ، وهي في حاجة إليه.

- يا سيّدي، مقابل مئتي دولار سأفعلها معك الآن وليشاهدنا مَنْ كان!

- ليس عليك أن تفعلني معي ذلك إطلاقاً. كل ما عليك فعله هو أن تقابليني في موقف السيارات ذاك عند نهاية الشارع، وأن تجلبي لي شيئاً.

كان الظلام قد حل عندما وصلتُ إلى مستودع مونتنغري، وقد بدأ المطر يشتد قليلاً مثلما يحدث قبيل نزول البَرَد. وهذا لا يحدث كثيراً في تلال الريف جنوب دالاس، بل أحياناً. كنت أأمل أن أتمكن من العودة إلى جودي دون أن تنزلق سيارتي من الطريق.

وجدتُ آيفي جالسة خلف عجلة قيادة سيدان قديمة بئسة ذات دعامة ركوب صدئة وزجاج خلفي مشقوق، ركبتُ سيارتي وعلى الفور مالت نحو فتحة التدفئة التي كانت تعمل بطاقتها القصوى. كانت ترتدي قميصين بدلاً من معطف، وترتجف.

- إحساس رائع. سيارتي أكثر برودة من ثدي ساحرة، نظام تدفئتها معطل. هل جلبتِ النقود يا سيد بادنتين؟

أعطيتها ظرفاً، فتحته وقلّبتُ بعض فئات الدولارات العشرين التي ظلت قابعة على الرف العلوي في خزانتي منذ أن قبضتُ مبلغ رهان بطولة العالم قبل أكثر من عام. رفعت آيفي عجزتها الهائلة عن المقعد، وأقحمت الظرف في جيب بنطالها الجينز الخلفي، ثم نقّبت في جيب قميصها وأخرجت مفتاحاً ووضعتَه في يدي.

- هل يكفيك هذا؟

كان يكفيني تماماً.

- إنه منسوخ، صحيح؟

- كما قلتُ لي بالضبط. طلبتُ صنعه من متجر معدّات ثقيلة بشارع مكلارن. لماذا تريد مفتاحاً لذلك المنزل القذر؟ مقابل مئتي دولار يمكنك استئجاره أربعة أشهر.

- لديّ أسبابي. أخبريني عن الجيران الذين يعيشون على الجانب الآخر من الشارع، الذين يمكن أن يشاهدوك مع ساعي البريد على أرضية صالة المعيشة.

تململت متضايقاً وشدّت قميصيها حول صدرها الهائل بالقدر نفسه، وقالت: «كنت أمزح فحسب».

قلت: «أعرف هذا». لم أكن أعرف، ولم أكثرث. «أريد أن أعرف ما إذا كان الجيران بمقدورهم حقاً رؤية ما يجري في صالة معيشتك».

قالت: «بالتأكيد. وبمقدوري رؤية ما يجري داخل صالة معيشتهم، إذا لم يكن لديهم ستائر. لاشتريت ستائر لمنزلنا إذا استطعت توفير ثمنها. خصوصيتنا منتهكة كأننا نعيش في الشارع. أظن أنه كان بإمكانني تعليق أقمشة من الخيش، يمكنني جلبه من هناك». أشارت إلى حاويات قمامة مرصوفة جوار الجانب الشرقي من المستودع. «لكن مظهرها قبيح».

- ما رقم المنزل الذي يعيش فيه الجيران الذين يمكنهم رؤيتكم؟ سبعة وعشرين صفر أربعة؟

- سبعة وعشرين صفر ستة. كان يعيش فيه سلايدر برنيت وأسرته، لكنهم رحلوا بعد الهالوين بوقت قصير. كان يعمل مهرّج روديو، مهرج مسابقات رعاة البقر، أتصدّق هذا؟ مَنْ يدري بوجود وظيفة كهذه؟ والآن يعيش فيه شخصٌ ما اسمه هازارد وطفلاه وأمه على ما أظن. روزيت لا تلعب مع الطفلين، تقول إنهما قذران، لك أن تتخيّل! والجدة العجوز تحاول أن تتكلم فيخرج كلامها همهمة، وأحد جانبي وجهها لا يتحرك، لا أدري أي مساعدة يمكن أن تقدمها لابنها، تجرّج نفسها في أنحاء المكان. إذا صرّت مثلها أتمنى أن يُردينني شخصٌ ما برصاصة. رباه! (هزت رأسها وتابعت) سأخبرك بأمر، لن يبقوا في ذلك المنزل طويلاً، لا أحد

يبقى في شارع مرسيدس. هل لديك سيجارة؟ اضطرت إلى
التخلي عن السجائر. عندما تعجز عن توفير ربع دولار للسجائر
تدرك أنك صرتَ فقيرًا معدماً.

- لا أدخن.

هزّت كتفيها.

- سحقاً، لا يهم. يمكنني دفع ثمنها الآن، أليس كذلك؟ صرتُ ثرية.
لستَ متزوجاً، أليس كذلك؟

- بلى.

- لكن لديك خلية، أشم عطراً نسائياً على هذا الجانب من السيارة،
من العطور الراقية.

ابتسمتُ.

- أجل، لديّ خلية.

- هنيئاً لك. هل تعرف خليلتك أنك تتسلل في أنحاء جنوب فورت
وورث بعد هبوط الظلام وتمارس أعمالاً مشبوهة؟

لذتُ بالصمت، لكن أحياناً يكون الصمت ردّاً كافياً. فقالت آيفي:
«لا عليك. هذا أمر بينك وبينها. أشعر بالدفء الآن، لذا سأعود. إذا ظل
الطقس ماطرًا وباردًا هكذا غدًا، فلا أدري ما سنفعله بشأن هاري على
ظهر شاحنة أمي». نظرتُ إليّ مبتسمة وتابعتُ: «في طفولتي كنت أظن
أنني سأكبر وأكون كيم نوفاك⁽¹⁾. والآن روزيت تظن أنها ستحل محل
دارلين في برنامج ميكى ماوس كلب».

هَمَّمتُ بفتح الباب، فقلتُ: «انتظري».

(1) مارلين "بولين" نوفاك، معروفة باسم كيم نوفاك، ممثلة من أشهر أفلامها "فيرتيغو".
(المترجم)

أفرغتُ كل جيوبي. أقراص لايفر سيفرز المنعشة لرائحة الفم،
ومناديل ورقية، وورقة ملاحظات خاصة باختبار لغة إنجليزية يُفترض
أن يكون قبل عطلة الكريسماس. ثم أعطيتها المعطف: «خذي هذا».
بدت مصدومة: «لن آخذ معطفك اللعين!».

- لديّ معطف آخر في البيت.

لم يكن لدي معطف آخر، لكن كان بمستطاعي شراؤه، وهي لا
تستطيع.

- ماذا سأقول لهاري؟ هل أقول له إنه سقط عليّ من السماء؟
ابتسمتُ.

- قللي له إنك ضاجعت ساعي البريد واشتريت المعطف بحصيلتك.

ماذا عساه أن يفعل؟ يطاردك إلى خارج البيت ويضربك؟

ضحكتُ ضحكة حادة بدت جذابة على نحوٍ غريب. وأخذتِ المعطف.

قلت: «تحياتي إلى روزيت. قللي لها إنني سأراها في أحلامها».

تلاشت ابتسامتها قائلة: «أمل ألا يحدث هذا يا سيّدي. رأتك في
كابوس، كادت أن تهدم المنزل بصراخها، أيقظتني عند الثانية صباحًا
من نوم عميق كالموت. قالت إن الرجل الذي التقط كُرّتها كان معه وحش
في مقعد سيارته الخلفي، وإنها كانت تخشى أن يلتهمها. خفتُ أن أفقد
صوابي من صراخها».

- هل كان للوحش اسم؟

بالطبع كان له اسم.

- قالت إنه كان جيملا. على الأرجح قصدت جنيًا، مثلما في تلك

القصص عن علاء الدين. على أي حال، علي الذهاب. اعتنِ بنفسك.

- اعتني بنفسك أيضًا يا آيفي. كريسماس مجيد.

أطلقت ضحكاتها الحادة ثم قالت: «كدتُ أن أنساه. كريسماس مجيد لك أيضًا. لا تنس تقديم هدية لفتاتك».

سارت إلى سيارتها القديمة ومعطفي -معطفها الآن- مُلقى على كتفها. لم أرها مرة أخرى قط.

16

تجمدت الأمطار على الجسور فقط، وقد تعلمت من حياتي الأخرى، في نيو إنغلاند، أن أتوخى الحذر على الجسور، لكن رحلة العودة إلى جودي ما زالت طويلة. ثم لم أكد أضع الماء على النار لأعد كوب شاي حتى رن الهاتف. وهذه المرة كانت سيدي.

- أحاول الاتصال بك منذ وقت العشاء لأسألك عن حفل عشية الكريسماس الذي يقيمه المدرب بورمان، سيبدأ عند الثالثة. سأذهب إذا أردت اصطحابي، حتى نستطيع المغادرة مبكرًا، ونقول إننا لدينا حجز عشاء في مطعم ذا سادل، أو شيئًا من هذا القبيل. أريد منك تأكيدًا.

رأيت بطاقة دعوتي جوار آلتى الكاتبة، وأحسست بوخزة تأنيب ضمير طفيفة. ظلت البطاقة موجودة عندي ثلاثة أيام ولم أفتحها.

- هل تريدان الذهاب؟

- لا أمانع الظهور.

صمتت قليلًا ثم سألتني: «أين كنت طوال هذا الوقت؟».

- فورت وورث.

كدت أن أضيف: تسوّقت للكريسماس. لكنني لم أفعل، إذ لم أشتري في فورت وورث شيئًا سوى معلومات ومفتاح منزل.

- هل ذهبتَ للتسوّق؟

مجددًا قاومتُ رغبتِي في الكذب: «أنا... سيدي، لا يمكنني الإفصاح». صمتتُ مدة طويلة. ووجدت نفسي أتمنى لو كنت أدخن. على الأرجح أدمنتُ التدخين السلبي، الرب يعلم أنني كنت أدخن سلبياً طوال اليوم وكل يوم، وحجرة الأساتذة يكتنفها ضباب أزرق دوماً.

- هل قابلت امرأة يا جورج؟ امرأة أخرى؟ أم ترى سؤالي هذا تطفلاً؟ قابلتُ آيفي، لكن سيدي لم تقصد امرأة مثلها.

- لا تربطني علاقة خاصة بامرأة سواك.

صمتتُ مدة طويلة مرة أخرى. أحياناً تتحرك سيدي بإهمال، لكن عندما تفكر تتوخى الحذر دوماً. أخيراً قالت: «تعرف الكثير عني، تعرف أموراً لم أتخيل أن أخبر بها أحداً أبداً، لكنني أكاد لا أعرف عنك شيئاً. أظنني أدركت هذا للتو. سيدي غبية أحياناً، أليس كذلك؟».

- لست غبية. ثمة أمر واحد تعرفينه على وجه التأكيد، وهو أنني أحبك.

- أجل...

سمعتُ نبرة الشك في صوتها. تذكرتُ الكابوس الذي رأيته في تلك الليلة التي أمضيناها في بيت ضيافة كاندلوود، والحذر الذي رأيته على وجهها عندما قلت لها إنني لا أتذكر الحلم. هل ارتسمت تلك التعبيرات نفسها على وجهها الآن؟ أم ربما تعابير أشد من مجرد الحذر؟

- سيدي، هل نحن على ما يرام؟

- نعم، بالتأكيد.

بدت أكثر ثقة قليلاً، وتابعت: «إلا فيما يخص حفل المدرب بورمان، ماذا تريد أن تفعل بشأنه؟ تذكر أن جميع موظفي المدرسة سيحضرون الحفل، ومعظمهم سيكونون ثملين جداً بحلول الوقت الذي تجهّز فيه السيدة بورمان البوفيه».

قلت متحمسًا: «فلنذهب، فلنحتفل ونستمتع بوقتنا. نمكث ساعة، أو ربما ساعة ونصف، ثم نغادر. ونتناول العشاء في ذا سادل. هل يناسبك هذا؟».

كنا كاثنين يتفاوضان بشأن موعد ثان بعدما لم يكن الأول حاسمًا.
- حسنًا، سنستمتع.

تذكرتُ حديث آيفي تمبلتون عن أنها شمت رائحة عطر سيدي الطفيفة، وسؤالها عما إذا كانت سيدي تعرف أنني أتسلل في أنحاء فورت وورث بعد هبوط الظلام وأمارس أعمالاً مشبوهة. تذكرت قول ديكي سيمونز أن ثمة شخصًا واحدًا يستحق أن يعرف المكان الذي جئت منه وما فعلته. لكن هل كنت لأخبر سيدي أنني قتلت فرانك دننغ بدم بارد حتى لا يقتل زوجته وثلاثة من أطفاله الأربعة؟ وأني جئت إلى تكساس لمنع عملية اغتيال ستغير مجرى التاريخ؟ وأني أعرف أن بوسعي فعل ذلك لأنني جئت من مستقبل يمكن للناس فيه التواصل عبر الرسائل الفورية والحواسيب؟

- سيدي... سنكون على ما يرام، أعدك.

مجددًا قالت: «حسنًا». ثم تابعت: «أراك غدًا يا جورج، في المدرسة». وأنها المكالمة، بلطف وتهذيب شديدين.

لبثتُ ممسكًا بالهاتف عدة ثوانٍ، محدقًا إلى اللاشيء. وسمعت ضجيجًا من النوافذ المقابلة لباحتي الخلفية إثر تحول المطر إلى برد.

الفصل السادس عشر

1

كان حفل عشية يوم الكريسماس الذي أقامه المدرب بورمان فاترًا، وشبح فينس نولز لم يكن سبب الكآبة الوحيد. يوم الحادي والعشرين، سئمتُ بوبي جيل من النظر إلى جرحها الممتد على جانب وجهها الأيمن إلى فكّها، فتناولت حفنة من أقراص والدتها المنومة. لم تُمِت، لكنها أمضت ليلتين في مستشفى باركلاند التذكاري، المستشفى الذي سيشهد إعلان موت الرئيس وقاتله، إلا إذا غيّرُ هذا الواقع. على الأرجح توجد مستشفيات أقرب في 2011، قطعًا ستوجد في كيلين وربما راوند هيل، لكن ليس خلال فترة عملي بمدرسة دنهولم الثانوية أستاذًا بدوام كامل. العشاء في مطعم ذا سادل أيضًا لم يكن ممتعًا. وجدنا المكان مكتظًا ومشبعًا ببهجة الأيام السابقة للكريسماس، لكن سيّدي رفضت التحلية وطلبت العودة إلى المنزل مبكرًا، قالت إنها تعاني صداعًا. لم أصدقها. حفل ليلة السنة الجديدة في مقر للجمعية التعاونية كان أفضل قليلًا، جاءت فرقة موسيقية من أوستن اسمها ذا جوكرز، كانوا رائعين حقًا، رقصتُ مع سيّدي تحت خيام شبكات متدلية مليئة بالبالونات حتى ألمتنا أقدامنا. وفي منتصف الليل أدى ذا جوكرز نسخة حديثة من أولد لانج ساين، نشيد الوداع، وصاح مغني الفرقة الرئيسي: «أتمنى أن تتحقق أحلامنا جميعًا في 1962!».

تساقطت البالونات ببطء حولنا. قَبَلْتُ سَيِّدِي وتمنيت لها سنة جديدة سعيدة ونحن نرقص الفالس، لكن رغم أنها كانت مبتهجة وضاحكة طوال الأمسية، لم أحس بابتسامة على شفثيها.

- سنة جديدة سعيدة لك أيضًا يا جورج، هل لي أن أتناول كأس عصير؟ أحس بعطش شديد.

وجدتُ صَفًّا طويلاً عند وعاء العصير الممزوج بالكحول، وصفًا أقصر عند الوعاء غير الممزوج بالكحول. صببتُ مزيج الليمونادة الزهرية وصودا الزنجبيل في كوب ماركة ديكسي، لكن عندما عُدت إلى حيث كانت سيدي تقف، لم أجد لها.

قال لي كارل جاكوبي: «أظنها خرجت لتستنشق هواء يا رجل». كان كارل أحد الأساتذة الحرفيين الأربعة في المدرسة، والأفضل على الأرجح، لكن لما سمحتُ له بالاقتراب مسافة مثني ياردة من أي آلة كهربائية في تلك الليلة.

تفقدتُ المدخنين المصطفين أسفل سلم طوارئ الحريق، ولم أجد سيدي بينهم، فذهبت إلى الصنلاينر، ووجدتها جالسة على مقعد الراكب وذيل فستانها ظاهر يرفرف. الرب وحده يعلم عدد التنانير الداخلية التي ترتديها. ووجدتها تدخن وتبكي.

ركبتُ السيارة وحاولتُ ضمَّها بين ذراعي قائلاً: «سيدي، ما الخطب؟ ما الأمر يا عزيزتي؟». كأنني لم أكن أعرف. كأنني لم أكن أعرف منذ مدة.

قالت وقد اشتد بكاءها: «لا شيء. جاءني دورتي الشهرية فحسب. أوصلني إلى المنزل».

كانت المسافة ثلاثة أميال فقط، لكنها بدت كرحلة طويلة. لم نتكلم. توقفتُ عند مدخل منزلها وأوقفتُ محرك السيارة. كانت قد توقفت عن

البكاء، لكن ظلت صامته، وأنا أيضًا. بعض لحظات الصمت مريحة، وبعضها يحس بها المرء مميتة.

أخرجتُ علبة سجائرهما من حقيبتها اليدوية، ونظرت إليها، ثم أعادتها إلى الحقيبة. بدا صوت مشبك الحقيبة عاليًا. نظرت إلي، بدا شعرها كسحابة داكنة محيطة بوجهها البضاوي الأبيض.

- هل من أمر تريد إخباري به يا جورج؟

أردت إخبارها، قبل أي شيء، بأن اسمي ليس جورج. لم يعد يروني هذا الاسم، بل كدتُ أمقته.

- أمران. أولهما أنني أحبك، وثانيهما أنني لا أفعل شيئًا أشعر بالخزي منه... وأيضًا لا شيء تشعرين بالخزي منه.

- جيد، هذا جيد، وأحبك أيضًا يا جورج. لكن أود إخبارك بأمر، إذا رغبت في الاستماع.

- سأستمع دومًا.

لكنها أخافتني عندئذ.

- كل شيء يمكن أن يظل كما هو... في الوقت الراهن. بما أنني ما زلت متزوجة بجون كلايتون -رغم أنه مجرد زواج على الورق ولم يكتمل كما ينبغي- فثمة أمور لا أحس بأن لدي الحق في طلبها منك... أو معرفتها عنك.

- سيدي...

وضعتُ أصابعها على شفتي.

- في الوقت الراهن. لكنني لن أسمح أبدًا لأي رجل بوضع مكنسة على الفراش. هل تفهمني؟

طبعَتْ قبلة سريعة حيث كانت أصابعها، ثم هرولتْ عبر الممشى إلى باب منزلها وهي تبحث عن مفتاحها في حقيبتها.
هكذا بدأ عام 1962 للرجل الذي سَمَّى نفسه جورج أمبرسون.

2

كان فجر أول يوم في السنة الجديدة باردًا وسماؤه صافية، لكن مذيع نشرة الأحوال الجوية حذَّر من ضباب بارد جدًّا في الأراضي المنخفضة. كنت قد خبأت المصباحين المزودين بأجهزة تنصت في مرأبي، وضعت أحدهما في سيارتي وقُدت إلى فورت وورث. ظننت أنه إذا كان ثمة يوم يهدأ فيه شارع مرسيدس، فهو هذا اليوم. وقد كنت محقًّا. وجدته صامتًا صمت... صمت المقبرة الخاصة بآل تراكر، عندما سحبْتُ جثة فرانك دننغ إلى داخلها. رأيت بضع دراجات ثلاثية العجلات ملقاة في باحات أمامية شحيحة العشب، وأحد المحتفلين قد ترك لعبة أكبر، سيارة ميركوري، مركونة بجانب شرفته، وما زالت أبواب السيارة مفتوحة. ورأيت بضع رايات مثلثية على أرضية الشارع الترابية، وكثيرًا من علب الجعة، معظمها ماركة لون ستار، في مجاري تصريف الأمطار. أَلقيت نظرة على المنزل رقم 2706 ولم أر أحدًا ينظر من النافذة الأمامية الضخمة، لكن آيفي كانت محقة: كل من يقف هناك بمقدوره النظر مباشرة إلى داخل صالة المنزل رقم 2703.

ركنت السيارة عند المدخل كأنما لدي كل حق في الوقوف أمام المنزل الذي كانت تقطنه أسرة تمبلتون التعيسة. ثم حملت مصباحي وصندوق أدواتي الجديد وذهبت إلى الباب الأمامي. داهمني إحساس مريع لوهلة عندما لم يعمل المفتاح، لكنه كان جديدًا فحسب، عندما رطَّبته بشيء من اللعاب وهزته قليلًا، دار ففتح الباب، ودخلت.

كان في المنزل غرفتان، مع الحمام، الذي كان مرئيًا عبر باب مفتوح معلق بمفصل واحد. والأكبر مساحة كانت صالة المعيشة والمطبخ معًا. والغرفتان الأخريان كانتا غرفتي نوم. في الغرفة الكبيرة لم أجد فراشًا على السرير. تذكرت قول آيفي: ستكون مثل اصطحاب كلبك في عطلة، أليس كذلك؟ وفي الغرفة الأصغر رسمت روزيت فتيات بأقلام تلوين "كريولا" على الجدران حيث تأكل الجص وتساقط، جميعهن يرتدين كنزات خضراء وأحذية سوداء كبيرة، وشعرهن بطول سيقانهن، وكثيرات منهن يركن كرات قدم. إحداهن تضع تاج ملكة جمال أمريكا على شعرها مبتسمة ابتسامة عريضة مُشعة بأحمر الشفاه. ما زالت في المنزل رائحة لحم مقلي طهته آيفي من أجل وجبتهم الأخيرة قبل عودتهم إلى موزيل لتعيش مع أمها ومشاغبتها الصغيرة وزوجها مكسور الظهر.

هنا سوف يبدأ أوزوالد ومارينا المرحلة الأمريكية من زواجهما، سوف يمارسان الحب في غرفة النوم الكبيرة، وسوف يضربها فيها أيضًا، وهنا سيضجع أوزوالد ساهرًا بعد يوم عمل مرهق ويتساءل، متعجبًا مستنكرًا، لماذا لم يشتهر بعد؟ ألم يحاول؟ ألم يحاول باذلاً كل ما بوسعه؟

وفي صالة المعيشة، بأرضيتها غير المستوية وسجادتها الخضراء المهترئة، سيقابل أوزوالد لأول مرة الرجل الذي يجدر بي ألا أثق به، الرجل المتسبب في معظم، إن لم تكن جميع، شكوك آل بشأن دور أوزوالد بوصفه مُطلق النار الوحيد. كان اسم الرجل جورج دي موهرنشيoldt، وأردتُ بشدة أن أسمع أحاديثه مع أوزوالد.

رأيت مكتبًا قديمًا في جانب الغرفة الكبيرة الأقرب إلى المطبخ، وجدتُ أدراجة فوضوية فيها أدوات مائدة فضية متفرقة وأوعية طبخ رديئة. سحبْتُ المكتب بعيدًا عن الجدار فرأيت مقبسًا كهربائيًا. ممتاز.

وضعت المصباح على المكتب وأوصلته بالمقبس. كنت أعرف أن أحدًا آخر ربما يعيش هنا لمدة قبل أن تأتي أسرة أوزوالد، لكن استبعدت أن يأخذ أي أحد "مصباح بيذا المائل" عندما يرحل. وإذا أخذه، فلدي مصباح احتياطي في مرأب منزلي.

أحدثت ثقبًا في الجدار إلى الخارج بأصغر مثقاب لدي، ثم دفعت المكتب إلى مكانه، وجربت تشغيل المصباح. اشتغل كما ينبغي. جمعت أغراضي وغادرت المنزل، وحرصت على أن أوصد الباب خلفي. ثم قُدت عائداً إلى جودي.

اتصلت سيدي بي وعرضت علي الذهاب إليها وتناول العشاء، قالت إنها لديها قطع لحم فحسب، لكن ثمة مجالاً للتحلية بكعكة، إذا رغبت. ذهبت إليها. وكانت التحلية رائعة كالعادة، لكن الأمور لم تكن كما كانت. لأن سيدي كانت محقة، ثمة مكنسة في الفراش، خفيّة، مثل الجيملات التي رأتها روزيت في المقعد الخلفي بسيارتي... لكنها موجودة، وسواء كانت خفية أم لا، فقد أَلقت بظلالها.

3

أحياناً يصل الرجل والمرأة إلى مفترق طرق ويقفان عنده، حائرين بشأن الطريق الذي ينبغي أن يسلكاه، مدركين أن الخيار الخطأ سيعني النهاية... ومدركين أن هناك الكثير مما يستحق إنقاذه. هكذا كان حالي مع سيدي خلال شتاء 1962 القاسي. ظللنا نخرج لتناول العشاء مرة أو مرتين أسبوعياً، وظللنا نذهب إلى بيت ضيافة كاندلوود في أمسيات السبت من حين لآخر. استمتعت سيدي بالجنس، وقد كان أحد الأشياء التي أبقتنا معاً.

في ثلاث مناسبات نظّمنا حفلات راقصة معًا، مستعينين دومًا بمنسق الموسيقى دونالد بلنغهام، وفي كل مرة كان يُطلَب منا تكرار رقصتنا الأولى، وكان الفتية يصفّقون ويصفّرون عندما نرقص، ليس من باب التهذيب، إنما كانوا ينبهرون حقًا، وبدأ بعضهم يتعلمون حركاتنا.

كنا مسرورين بالطبع، لأن المحاكاة أصدق أشكال الإطراء. لكننا لم نكن قط رائعين كما كنا في رقصتنا الأولى، لم نعد سلسين حدسيًا، تذبذب ثبات سيدي ورشاقتها، في إحدى المرات انفلتت قبضتها في حركة قفز ولسقطت سقوطًا شنيعًا إذا لم يكن اثنان من لاعبي كرة القدم ذوي الاستجابات السريعة يقفان على مقربة. ضحكتُ، لكنني رأيت الإحراج على وجهها، والتوبيخ، كأني المخطئ. على نحو ما كنتُ المخطئ.

كان الانفجار حتميًا. لوقع في وقت أبكر من وقوعه، لولا مهرجان جودي، الذي جاء فرصة لنا لننظر معًا قليلًا ونفكر في الأمور مليًا قبل أن نرغم على قرارٍ كلانا لا يريد اتخاذه.

4

جاءت إيلين دوكرتي إليّ في فبراير وطلبت مني أمرين: الأول، التفكير في توقيع عقد للعام الدراسي 1962-63. والثاني، إخراج مسرحية الطلاب مرة أخرى، إذ نجحت مسرحية العام الماضي نجاحًا ساحقًا. رفضتُ الطالبين، متألمًا.

حاولت إقناعي بلطف: «إذا كان السبب هو كتابك، فلديك الصيف كله للعمل عليه».

قلت: «لن يكون طويلًا بما يكفي». رغم أنني عندئذٍ لم أكثرث البتة بـ مكان القتل.

- سَيِّدِي دنهل تقول إنك لا تكثر كثيرًا بتلك الرواية.

لم تقل سَيِّدِي لي ملاحظتها هذه. ارتبكتُ، لكن حاولت إخفاء ارتبائي.

- سَيِّدِي لا تعرف كل شيء.

- المسرحية إذن. على الأقل أخرج المسرحية. سأدعم أي مسرحية تختارها ما دامت لا تتضمن عُريًا. وهذا وعد كبير نظرًا إلى أن عقدي كمديرة مدته عامان فقط. لك أن تهديها إلى فينس نولز إذا أردت.

- فينس أهدي إليه موسم كرة قدم يا إيلين، أرى هذا كافيًا. ذهبتُ خائبة.

الطلب الثاني جاء من مايك كوسلو، كان موعد تخرجه في يونيو، وقال إنه يعتزم اختيار تخصص المسرح في الجامعة: «لكن أود أداء مسرحية أخرى هنا، معك يا أستاذ أمبرسون، لأنك أرشدتني».

خلافًا لإيلين دوكرتي، تقبَّل مايك عذر روايتي المخلوق دون سؤال، فاعتصرني ضيق مريع. رغم أنني رجل لا يحب الكذب، وشهد انهيار زواجه بسبب الأكاذيب التي سمعها من زوجته بشأن قدرتها على الإقلاع متى ما شاءت، فقد كذبتُ وأسرفتُ في الكذب.

سرت مع مايك إلى موقف سيارات الطلاب حيث ركن سيارته الفخمة (سيدان بيويك قديمة ذات رفارف)، وسألته عن حال ذراعه بعد نزع الجبيرة، قال إنها بخير، وإنه متأكد من قدرته على بدء تدريبات كرة القدم في الصيف القادم. قال: «لكن إذا استُبعدتُ فلن ينفطر قلبي، عندئذٍ ربما أستطيع التمثيل في المسرح المجتمعي علاوة على

مسرحيات المدرسة. أريد تعلُّم كل شيء: تصميم المسرح، والإضاءة، وحتى الأزياء». ضحك وأردف: «سيبدأ الناس تسميتي بالشاذ».

قلت: «ركّز على كرة القدم وتحسين درجاتك، وألا يغمرك الحنين إلى الديار في الفصل الدراسي الأول. أرجوك كُن جادًا».

قلّد صوت فرانكنشتاين زومبي: «حاضر... سيدي...».

- كيف حال بوبي جيل؟

- أفضل. ها هي ذي.

كانت بوبي جيل تنتظر جوار سيارة مايك، لوَحَتْ له، ثم رأته فأشاحت بوجهها فورًا، كأنها مهتمة بملعب كرة القدم الخالي والمراعي التي وراءه، حركتها هذه اعتادها كل مَنْ في المدرسة. ندبة الحادث التأمّت فصارت خيطًا سميكًَا أحمر، حاولت بوبي إخفاءها بمساحيق التجميل، لكنها جعلتها أكثر بروزًا.

قال مايك: «أقول لها أن تتخلّى عن المساحيق، إذ تجعلها تبدو شاحبة كالموتى، لكنها لا تعبأ بي، وظللت أقول لها أيضًا إنني لست متمسكًا بها بدافع الشفقة حتى لا تبتلع أي أقراص مرة أخرى. تقول إنها تصدّقني، وربما تصدّقني فعلاً، في اللحظات السعيدة».

شاهدته يهرع نحو بوبي جيل، ويمسك بها من خصرها ويديرها في الهواء. تنهَّدتُ، شاعرًا بأنني غبي قليلًا وعنيد جدًّا. جزءٌ مني أراد إخراج المسرحية اللعينة، على الأقلّ حتى تملأ وقتي في أثناء انتظاري بدء مسرحيتي التي جئتُ إلى الماضي من أجلها. لكنني لم أرغب في زيادة ارتباطي بالحياة في جودي أكثر من ارتباطي بها سلفًا، ومثل أي مستقبل بعيد المدى مع سيدي، رأيت أنني ينبغي أن أوقف علاقتي بالبلدة مؤقتًا.

إذا سار كل شيء على ما يرام، كان من الممكن أن ينتهي بي المطاف مع فتاتي وكل شيء. لكن رأيت ألا أطفءل مهما توخيت الحذر في التخطيط. حتى إذا نجحتُ ربما أضطر إلى الهروب، وإذا لم أستطع الهروب، فسيكون جزاء عملي الصالح هو السجن مدى الحياة، أو الكرسي الكهربائي في هنتسفيل.

5

كان ديكي سيمونز هو مَنْ نجح في التحايل عليّ لأوافق، فعلها بإخباري بأنني سأكون مجنوناً إذا فكرت مجرد تفكير في الموافقة. كان ينبغي أن أظن لاستخدامه علم النفس العكسي، لكنه كان مأكراً جداً.

كنا في صالة معيشتي نشرب القهوة في عصر يوم سبت، وعلى تلفازي المشوش يُعرض فيلم قديم، رعاة بقر في فورت هوليوود يتصدون لهجوم نحو ألفين من الهنود الحمر. وبالخارج تتساقط مزيد من الأمطار. لا بد أنه مرت على الأقل بضعة أيام مشمسة في شتاء 1962، لكنني لا أتذكر أيّاً منها، لا أتذكر سوى أن الرذاذ البارد كان يجد طريقه دوماً إلى مؤخر رأسي الحليق رغم أنني أرفع ياقة سترتي الجلدية التي اشتريتها بدلاً عن المعطف.

قال ديكي: «يجدر بك ألا تكلف نفسك عناء المسرحية اللعينة لأن إيلين دوكرتي متحمسة لها. أكمل كتابك، وليدخل قائمة الأكثر مبيعاً، ولا تلتفت إلى الخلف أبداً. عش الحياة الجيدة في نيويورك. تناول شراباً مع كبار الكتاب أمثال نورمان ميلر وإروين شو في حانة وايت هورس». كان جون واين في الفيلم ينفخ في بوق. قلت: «اممم. لا أظن أن نورمان ميلر سيهتم بي كثيراً، وكذلك إروين شو».

- كما إنك حققت نجاحًا كبيرًا في مسرحية عن الفئران والرجال،
لذا فإن أي مسرحية تخرجها بعدها ستبدو على الأرجح مخيبة
للآمال... رباه! انظر إلى ذلك! اخترق سهم قبعة جون واين للتو!
إنه محظوظ بقبعته الضخمة!

كنت ممتعًا أكثر مما ينبغي من فكرة أن عملي الثاني ربما يكون
أقل مستوى. فتذكرت كيف أنني وسيدي لم نستطع مضاهاة أدائنا الأول
على أرضية الرقص، رغم بذل كل مجهوداتنا.

بدا ديكي مستغرقًا في مشاهدة التلفاز وهو يقول: «إضافة إلى ذلك،
راتي سلفستر عبّر عن اهتمامه بالإشراف على المسرحية، يتحدث عن
مسرحية الزرنوخ والدانتيل القديم، ويقول إنه شاهدها مع زوجته في
دالاس قبل عامين وإنها كانت مضحكة جدًا».

رباه، تلك المسرحية القديمة المبتذلة؟ وفريد سلفستر من قسم
العلوم سيكون المخرج؟ لم أكن متأكدًا من أنني قد أعهد لراتي بإخراج
تدريب طوارئ حريق في مدرسة. إذا مثل مبتدئ موهوب مثل مايك
كوسلو عملاً تحت إشراف راتي، فسيعود خمسة أعوام إلى الوراء. راتي
والزرنوخ والدانتيل القديم؟ يا إلهي!

تابع ديكي: «لن نجد وقتًا للإعداد لأي مسرحية جيدة على أي حال،
لذا أرى أن ندع راتي يتحمل اللوم. لم يرُقني ذلك الوغد المهرول يومًا،
على أي حال».

لم يرُق أحدًا، حسبما أعرف، ربما باستثناء زوجته، التي تهول
بجانبه إلى أي مدرسة أو فعالية، مرتدية ملابس واسعة من قماش
الأورغندي. لكن اللوم لن يقع عليه، بل على الفتية.

- يمكنهم تنظيم عرض منوعات، سيجدون وقتًا كافيًا لذلك.

- رباه يا جورج! والاس بيرى أصيب للتو بسهم في كتفه! أظنه...

- ديكي؟

- لا، جون واين يسحبه إلى مكان آمن. هذا القتال القديم لا يبدو منطقياً مقنعاً إطلاقاً، لكنني أحبه، ألا تحبه؟

- هل سمعتَ ما قلته؟

بدأ فاصل إعلاني. ترَجَّل كينان وِين من بلدوزر، ونزع قبعته، وقال للعالم إنه مستعد للمشّي مسافة ميل من أجل سيجارة كامل. التفت ديكي إلي وقال: «لا، لا بد أنني لم أنتبه».

يا له من ثعلب عجوز ماكر! مُحال أن يكون غير منتبه.

- قلتُ إنهم سيجدون وقتاً لتنظيم عرض منوعات، برنامج تسلية.

أغانٍ، ورقصات، ونكات، وكثير من المشاهد المسرحية الهزلية.

- كل شيء عدا عن جموح الفتيات؟ أم إنك كنت تفكر في هذا أيضاً؟

- لا تكن مغفلاً.

- إذن ستكون فودفيل، مسرحية هزلية خفيفة، لطالما أحببت

الفودفيل.

أخرج ديكي غليونه من جيب سترته الصوفية، وملأه بتبغ برنس ألبرت، وأشعله. ثم تابع: «أتعرف؟ في الواقع كنا ننظم فعاليات مماثلة في مقر الجمعية التعاونية، كنا نسميها جَمبوري جودي. لكن توقفنا منذ نهاية الأربعينيات. صار الناس يشعرون بالحرَج منها، رغم أن لا أحد قال هذا صراحة. ولم نكن نسميها فودفيل».

- ما الذي تتحدث عنه؟

- كان عرضاً موسيقياً ومسرحياً هزلياً يا جورج، يشارك فيه جميع رعاة البقر وعمال المزارع، يضعون أقنعة سوداء، ويغنون ويرقصون، ويلقون النكات بلهجة الزوج كما يتخيلونها،

معتمدين بدرجة أو بأخرى على ما سمعوه في المسلسل الإذاعي
آموس آند آندي.

ضحكت.

- هل يعزف أي أحد على البانجو؟

- في الواقع مديرتنا الحالية عزفت، في مناسبتين.

- إيلين عزفت البانجو في عرض موسيقي ومسرحي هزلي؟

- حذار، لا تتعال، هذا قد يقود إلى أوهام العظمة يا صديقي.

ملت إلى الأمام.

- قل لي إحدى النكات.

تنحني ديكي، وبدأ يتكلم بصوتين عميقين.

«قل لي أيها الأخ تامبو، لماذا اشتريت برطمان الفازلين هذا؟».

«حسنًا، وجدته بتسعة وأربعين سنتًا!».

نظر إليّ مترقبًا، وأدركت أن النكتة انتهت، فسألته: «هل ضحكوا؟».

وخشيت رده.

قال: «كادت أحشاؤهم أن تنفجر، وطالبوا بالمزيد. وظللت أسمع هذه النكتة وأمثالها في أنحاء البلدة لأسابيع». نظر إليّ بحزن، لكن عينيه كانتا تتلألآن كشجرة كريسماس. «نعيش في بلدة صغيرة، واحتياجاتنا من حس الدعابة بسيطة. فكرتنا عن الفكاهة البذيئة هي انزلاق رجل أعمى على قشرة موز».

لبثتُ جالسًا أفكر. استؤنف فيلم رعاة البقر، لكن ديكي بدا أنه فقد اهتمامه بالفيلم، كان ينظر إليّ.

- مثل هذه الفعالية يمكن أن تنجح الآن.

- مثل هذه الفعالية تنجح دومًا يا جورج.

- وما من داعٍ للتقليد الهزلي للسود.

- لم يعد يمكننا فعل ذلك على أي حال. ربما يمكنهم في لويزيانا أو ألاباما، لكن ليس في أنحاء أوستن، التي تسميها صحيفة سلايمز هيرالد "مدينة متعددة الثقافات والأعراق". وأنت أيضًا لا تريد ذلك، صحيح؟

- لا أريد. لك أن تنعتني بمفرط الحساسية، لكنني أجد الفكرة منفرة بغیضة. ولماذا نخاطر؟ نكات مبتذلة... فتیان وفتیات يرتدون ملابس أشبه بملابس المهرجين... أود رؤية ما سيفعله مايك كوسلو في دور كوميدى...

قال ديكي كأنه يذكر أمرًا مفروغًا منه: «أوه، سيُبدع». ثم أردف: «فكرة جيدة، لكن للأسف ليس لديك وقت لتجريبها».

هممتُ بالكلام، لكن عندئذٍ خطرت لي فكرة أحسست بها كمصباح يضيء في رأسي، مصباح باهر الضوء كما حدث لي عندما قالت آيفي تمبلتون إن جيرانها على الجانب الآخر من الشارع بمقدورهم رؤية ما يجري داخل صالة معيشتها.

- جورج... ماذا بك؟ فمك مفتوح. منظرِكَ جميل لكنه لا يفتح الشهية.

- يمكنني استقطاع وقت، إذا استطعتُ إقناع إيلين دوكرتي بشرط واحد.

نهض وأغلق التلفاز دون أن ينظر إليه، رغم أن القتال بين دوك واين والهنود الحمر قد حمي وطيسه، إذ تحترق فورت هوليوود في الخلفية. وقال: «اشترط».

أخبرته بشرطي، ثم قلت: «عليَّ أن أتحدث مع سيدي. الآن».

6

حزنتُ في البداية، ثم بدأتُ تتبَّسَّم، واتَّسَّعت ابتسامتها. وعندما أخبرتها بالفكرة التي خطرت لي عند نهاية نقاشي مع ديكي، أحاطتني بذراعيها، ولم تكتفِ بهذا، بل تسَلَّقَتني حتى طَوَّقَتني بساقيها أيضًا. لم توجد مكنسة بيننا في ذلك اليوم.

- فكرة رائعة! إنك عبقرى! هل ستكتب السيناريو؟

- بالتأكيد. ولن يستغرق وقتًا طويلًا.

النكات المبتذلة القديمة كانت تتلاطم في رأسي سلفًا: حدِّق المدرب بورمان إلى عصير البرتقال عشرين دقيقة لأن اللعبة مكتوب عليها تركيز. كلبنا كان لديه ذيل ضامر تحت جلده، فكنا نضطر إلى تصويره بالأشعة حتى نعرف ما إذا كان سعيدًا. ركبْتُ طائرة قديمة إلى درجة أن أحد حمَّاميها مكتوب عليه أورفيل والآخر ويلبر⁽¹⁾. تابعتُ قائلاً لسيدي: «لكن أحتاج إلى مساعدة كبيرة في جوانب أخرى. الأهم هو أنني أحتاج إلى مُنتج، أمل أن تقبلي الوظيفة».

قالت: «بال تأكيد». وانزلتُ إلى الأرض وجسدها ما يزال ملتصقًا بجسدي، فظهرت ساقها العارية لوهلة مثيرة إثر ارتفاع فستانها. ثم راحت تذرع صالة معيشتها جيئةً وذهابًا وهي تدخُن تدخينًا محمومًا، تعثرت بكرسي (على الأرجح للمرة السادسة أو الثامنة منذ أن صارت علاقتنا حميمية) واستعادت توازنها دون أن تلاحظ على ما يبدو، لكن ستظهر الكدمات على ساقها بحلول الليل.

(1) الأخوان أورفيل وويلبر رايت، يُنسب إليهما فضل اختراع أول طائرة ناجحة. (المترجم)

- إذا كنتَ تفكر بملابس حقبة العشرينيات، فسأطلب من جو بيت تجهيز الأزياء.

كان جو الرئيس الجديد لقسم الاقتصاد المنزلي، خلفاً لإيلين دوكرتي عندما عُيِّنَتْ مديرة.

- هذا عظيم.

- معظم فتيات قسم الاقتصاد المنزلي يحبن الحياكة... والطبخ.

ينبغي أن نقدّم وجبات مسائية يا جورج، أليس كذلك؟ ماذا لو

استمرت التدريبات إلى وقت متأخر؟ هذا سيحدث بالتأكيد، لأننا

سنبدأ متأخرين جدًا.

- نعم، لكن شطائر فحسب...

قالت: «يمكننا تقديم ما هو أفضل. والموسيقى! سنحتاج إلى

موسيقى! لا بد أن تكون مسجلة، لأن الفرقة لن تستطيع الاستعداد

لفعالية كهذه في الوقت المناسب». ثم قلنا معاً: «دونالد بلنغهام!»،

بتناغم تام.

سألتها: «ماذا عن الإعلان؟». صرنا نتكلم بحماس.

قالت: «كارل جاكوبي وفتيانه محبو التصميم الجرافيكي. سننشر

ملصقات في جميع أنحاء البلدة، لأننا نريد حضور جميع البلدة، وليس

أقارب الفتية المشاركين في العرض فحسب. نريد أن يمتلئ المكان

بسعته القصوى، حتى لا يجد الناس طريقة للمشاهدة سوى الوقوف».

قلت: «أصبّت». وقبّلت أنفها. أحببتُ حماستها، وبدأت أحمّس أيضاً.

- ماذا سنقول عن الجهة المستفيدة من الإيرادات؟

- لن نفصح عنها إلى أن نتأكد أننا سنحصل على أموال كافية، لا نريد رفع الآمال بلا طائل. ما رأيك في الذهاب معي إلى دالاس غدًا للاستفسار عن بعض الأشياء؟
- غدًا الأحد يا عزيزي. فلنذهب يوم الاثنين بعد المدرسة، أو ربما قبل نهاية اليوم الدراسي، إذا استطعتَ التفرُّغ من الحصة السابعة.
- سأطلب من ديكي العودة من التقاعد ليغطي درس تقوية اللغة الإنجليزية بدلًا مني، إنه مدين لي.

7

ذهبت مع سيدي إلى دالاس يوم الاثنين، قُدت بسرعة حتى نصل قبل إغلاق المحلات. المكتب الذي كنا نبحث عنه وجدناه في جادة هاري هاينز، على مقربة من مستشفى باركلاند. وهناك طرحنا أسئلة كثيرة، وقدّمت سيدي إيضاحًا وجيزًا عما نسعى إليه. تلقينا ردودًا مُرضية، وبعد يومين بدأت مشروعني قبل الأخير في مجال العروض الترفيهية، بوصفي مُخرج جمبوري جودي. كوميديا ورقص وغناء، من أجل قضية نبيلة. لم نفصح عن ماهية القضية النبيلة، ولم يسألنا أحد.

أمران عن عالم الماضي: فيه قليلٌ من المعاملات الورقية، وكثير من الثقة.

8

حضر جميع سكان البلدة بالفعل، وقد كان ديكي سيمونز محققًا بشأن أمر واحد: تلك النكات السمجة لا تصبح قديمة أبدًا، على الأقل ليس على بُعد خمسمئة ميل من برودواي.

في شخوص جيم لادو (لم يكن سيئًا، واستطاع أن يغني قليلًا)، ومايك كوسلو (كان مضحكًا جدًا)، كان عرضنا أقرب إلى دين مارتين وجيري لويس من ميتر بونز ومستر تامبو. كانت المشاهد الهزلية الحوارية رائعة، أداها اثنان من الرياضيين، نجحت نجاحًا أكبر مما ينبغي على الأرجح. وبين الجمهور، ضربت الرُكْب وتقطعت الأزرار وبضعة أحزمة أيضًا على الأرجح.

أعادت إيلين دوكرتي البانجو الخاص بها من تقاعده، ظهرتُ بشعر أزرق، وعزفت عزفًا رائعًا. وظهرت فتيات جامحات، رغم كل شيء. مايك وجيم أقنعا بقية فريق كرة القدم بأداء رقصة كان-كان حماسية وهم يرتدون سراويل نسائية في نصفهم الأسفل ولا شيء في الأعلى. أوجد جو بيت باروكات لهم. سيدات البلدة بدون شغوفات على نحو خاص بأولئك الشبان عراة الصدر، بباروكاتهم وكل شيء.

وفي ختام العرض ملأ طاقم الممثلين خشبة مسرح الصالة الرياضية برقصات سوينغ محمومة ومقطوعة إن ذا مود تدوي من السماعات، رفرفت التنانير، وتطايرت الأقدام، وراقص لاعبو كرة القدم (الآن يرتدون بدلات ذات بنطال واسع ومعطف طويل) فتيات رشيقات، معظمهن كن قائدات التشجيع اللاتي يعرفن سلفًا بضعة أشياء عن الرقص.

انتهت الموسيقى، وتقدم الممثلون ضاحكين إلى الأمام لينحنوا، وبينما نهض الجمهور للمرة الثالثة (أو ربما كانت الرابعة) منذ ارتفاع الستار، شغل دونالد إن ذا مود مجددًا. وهذه المرة اصطف الفتيان في مواجهة الفتيات على المسرح، وأخذوا عشرات الفطائر من طاولات في الأجنحة، وبدأ يقذف بعضهم بعضًا. زار الجمهور مستحسنًا.

هذا الجزء من العرض كان طاقم ممثلينا يعرفونه ومتحمسين له، لكن بما أننا لم نتقاذف أي فطائر كريمة حقيقية في التدريبات، لم

أكن متأكدًا من كيفية سير الأمور. نجحت بالطبع، كما تنجح شجارات الفطائر دومًا. وكان الفتية يحسبون أن هذه هي ذروة العرض، لكن لم أكن قد أفرغتُ جعبتي بعد.

وعند تقدّمهم لينحنوا للمرة الثانية، ووجوههم تتقطر كريمة وأزياؤهم ملطخة، اشتغلتُ إن ذا مود للمرة الثالثة. تَلَفْتُ معظم الفتية، حائرين، فلم يروا أعضاء هيئة التدريس ينهضون ممسكين بفطائر خبأتها مع سيّدي أسفل المقاعد. تطايرت الفطائر، وتلطخ الممثلون مرة ثانية. كان لدى المدرب بورمان فطيرتان، وصوّب تصويبًا مميتًا: نالَ من ظهيره الرباعي ونجم خط دفاعه.

بدأ مايك كوسلو، ووجهه يقطر كريمة، يهتف باسمي واسم سيّدي. فانضم إليه بقية الممثلين، ثم الجمهور، مصفيين بإيقاع واحد. صعدتُ مع سيّدي إلى خشبة المسرح، ممسكًا بيدها، وشغل بلنغهام تلك الأسطوانة اللعينة مجددًا. اصطف الفتية على جانبينا هاتفين: «ارقصا! ارقصا! ارقصا!».

لم نجد بُدًا. ورغم أنني كنت متأكدًا أن فتاتي ستنزلق على كل تلك الكريمة فينكسر عنقها، فقد كنا مثاليين للمرة الأولى منذ رقصتنا الأولى. وعند نهاية الرقصة ضغطتُ على يدي سيّدي، ورأيت إيماءتها الطفيفة: هُلم، افعليها، أثق بك، فجذبتها بين ساقي، وطار حذاؤها إلى صف المقاعد الأول، وارتفعت تنورتها إلى فخذيها... واستقرتُ على قدميها بأعجوبة، باسطة يديها للجمهور أولًا، الذي فقد صوابه، ثم ضمتهما إلى جانبي تنورتها الملطخة بالكريمة، كما يليق بسيّدة.

اتضح أن الفتية أيضًا لديهم شيء في جعبتهم، أغلب ظني أن صاحب الفكرة كان مايك كوسلو، لكنه لن يعترف أبدًا. كانوا قد احتفظوا ببعض

الفتائر، وفي أثناء وقوفنا على المسرح، مستمتعين بالتصفيق، قُذِفنا بقرابة عشر فتائر على الأقل، من كل الاتجاهات. وجُن جنون الجمهور. جذبت سيدي أذني قريباً من فمها، ومسحت الكريمة المخفوقة منها بإصبعها الصغيرة، وهمست: «كيف تقدر على ترك كل هذا؟».

9

لم ينته العرض بعد.

سار ديكي وإيلين إلى وسط المسرح، بأعجوبة وجدا طريقاً سالِكاً بين خيوط ولطخات وكُتَل الكريمة. ما كان أحد ليجرؤ على رمي فطيرة على أيٍّ منهما.

رفع ديكي يديه طالباً الصمت، وعندما تقدمت إيلين دوكرتي، تكلمت بصوت واضح كأنها في صف دراسي، صوت طغى بسهولة على الهمهمات وبقايا الضحكات.

«سيداتي وسادتي، عرض جمبوري جودي اليوم ستعقبه ثلاثة عروض أخرى». أثار كلامها موجة تصفيق أخرى.

تابعت إيلين عندما خَفَت التصفيق: «هذه عروض خيرية ويسرُني، أجل، يسرُني جداً إخباركم بمن ستؤول إليه الفائدة. في الخريف الماضي فقدنا أحد أفضل طلابنا، جميعنا حزناً على رحيل فينسنت نولز، المبكر جداً جداً».

عندئذٍ ران على الجمهور صمت مطبق.

- ثمة فتاة تعرفونها جميعكم، إحدى منارات هيئة طلابنا، تعرضت لندبة كبيرة في ذلك الحادث. السيد أمبرسون والآنسة دنهل رتباً لروبرت جيل ألنوت إجراء جراحة تجميلية في يونيو القادم، في

دالاس. مع عدم تحميل أسرة ألنوت تكاليف الجراحة. وقد قال لي السيد سلفستر، محاسب جمبوري جودي، إن زملاء جيل، وأهل البلدة، كفيلون بتغطية تكاليف الجراحة كاملة.

مرت لحظة صمت والناس يستوعبون ما سمعوه، ثم هبوا واقفين، واندلع تصفيق كرعد الصيف. رأيت بوبي جيل نفسها في المدرج المكشوف، تبكي ويداها على وجهها، ووالداها يحيطانها بأذرعهما.

هذه كانت ليلة في بلدة صغيرة، من البلدات البعيدة عن الشوارع الرئيسية ولا يهتم بها كثيرًا أحد سوى من يعيشون فيها، ولا بأس بهذا، لأنهم يهتمون بأنفسهم. نظرتُ إلى بوبي جيل، وهي ما تزال تنشج في يديها، ونظرتُ إلى سيدي، بشعرها الملطخ بالكريمة، ابتسمتُ، وابتسمت أنا أيضًا. حرَّكتُ شفتيها قائلة دون صوت: أحبك يا جورج. فرددتُ عليها بالمثل: أحبك أيضًا. في تلك الليلة أحببتهم جميعًا، وأحببت نفسي لأنني معهم. لم يسبق لي قط أن أحسست بأنني حي أو سعيد بأنني حي. حقًا كيف أقدر على ترك كل هذا؟

وقعت الكارثة بعد أسبوعين.

10

كان يوم سبت، يوم شراء حاجيات البقالة. اعتدتُ مع سيدي التسوق معًا في مركز تسوق وينغارتن الواقع على الطريق السريع رقم 77. بينما ندفع عربتينا جنبًا إلى جنب تنساب مقطوعة مانتوفاني من سماعات السقف، ننتقي الفواكه ونبحث عن أفضل صنوف اللحم وأسعاره. يُتاح للزبائن الحصول على أي قطعة لحم يريدونها، ما دامت لحم بقر أو دجاج. كان هذا يناسبني، فحتى بعد قرابة ثلاثة أعوام كنت أتعجب من الأسعار المنخفضة.

في ذلك اليوم كان عقلي مشغولاً بأمر آخر غير البقالة: أسرة هازارد التي تعيش في المنزل رقم 2706 بشارع مرسيدس، منزل ضيق على الجانب الآخر من الشارع وإلى اليسار قليلاً من الشقة التي ستكون مَسكن أوزوالد عما قريب. انشغلتُ كثيراً بجمبوري جودي، لكنني تدبّرت ثلاث رحلات إلى شارع مرسيدس في ذلك الربيع. ركنْتُ سيارتي في موقف سيارات وسط فورت وورث وركبت حافلة ونسكوت رود، التي تتوقف على بُعد أقل من نصف ميل. في تلك الرحلات كنت أرتدي بنطال جينز وحذاء مهترئاً قليلاً وسترة باهتة اشتريتها من ساحة لبيع الأشياء المستعملة. وكانت قصتي، إذا سألتُ أحدُ عنها، هي أنني أبحث عن إيجار زهيد لأنني وجدت للتو وظيفة مراقب ليلي في مصنع تكساس للصفائح المعدنية في غرب فورت وورث. هذا جعلني شخصاً جديراً بالثقة (إذا لم يتحقق أحد)، وأتاح لي مبرراً لهدوء منزلي وإغلاق ستائره في ساعات النهار.

في أثناء سيرتي في شارع مرسيدس إلى مستودع مونتغمري (دوماً أحمل صحيفة مفتوحة على قسم الإعلانات المبوبة الخاصة بإيجار المنازل)، لمحت السيد هازارد، رجل ضخم في أواسط الثلاثينات، وطفليه اللذين كانت روزيت تتحاشى اللعب معهما، والمرأة العجوز ذات الوجه المتجمد التي تجر إحدى قدميها في مشيها. رمقتني أم هازارد بنظرة ارتياب وهي تقف جوار صندوق البريد ذات يوم وأنا أتمشى ببطء على الرصيف، لكنها لم تتكلم.

في زيارتي الثالثة رأيت مقطورة قديمة صدئة خلف سيارة هازارد، وهو وطفلاه كانوا يحملونها بصناديق، والعجوز تقف على الحشائش التي اخضرت قريباً، متكئة على عصا وعلى وجهها قناع تكشيرة مرضها وقد حجبت أي مشاعر قد تبدو عليها. راهنتُ على اللامبالاة التامة. أنا

من جانبي كنت سعيدًا. إذ رأيت أسرة هازرد تنتقل من المنزل. وحالما يرحلون، سيستأجر عاملٌ اسمه جورج أمبرسون المنزل رقم 2706. الأمر المهم كان أن أحرص على أن أكون أول طالبي استئجاره.

كنت أحاول معرفة طريقة آمنة لفعل ذلك وأنا أتسوق مع سيدي، بجزء من انتباهي كنت أتناوب معها، أعلق التعليقات المناسبة، وأمازحها عندما تقف مدة طويلة عند قسم منتجات الحليب، وأدفع العربة المحملة بالمشتريات إلى موقف السيارات، وأضع الأكياس في صندوق سيارتي. لكنني كنت أفعل كل ذلك آلياً دون تفكير تقريباً، معظم تركيزي كان منصباً على لوجستيات فورت وورث. هذا ما سيورديني المهالك. لم أكن منتبهاً لما يلفظه لساني، وهذا إهمال جسيم عندما يعيش المرء حياة مزدوجة.

في أثناء قيادتي عائدين إلى منزل سيدي وهي جالسة بجانبني بصمت (صمت تام)، كنت أغني لأن مذياع السيارة كان معطلاً، كما كانت صمامات المحرك تصدر صوتاً غريباً. رغم هذا ما زالت الصنلاينر سريعة وبحالة جيدة، وقد تعلقتُ بها لأسباب كثيرة، لكن انقضت سبعة أعوام منذ خروجها من خط التجميع، وسارت أكثر من تسعين ألف ميل. حملتُ مشتريات سيدي إلى المطبخ دفعة واحدة، لاهثاً متأوهاً متأرجحاً من أجل التأثير الدرامي محاولاً ممازحتها، لم ألاحظ أنها لم تبتسم، وكنت غافلاً عن واقع أن فترة تأجيل الانفجار القصيرة قد انتهت. كنت ما زلت أفكر في شارع مرسيدس، متسائلاً عن نوع المسرحية التي سوف أؤديها هناك، أو بالأحرى جودة أدائي فيها. أردتُ أن أكون وجهاً مألوفاً، لأن الإلفة تُفضي إلى اللامبالاة، والازدراء أيضاً، لكنني لم أرغب في لفت انتباه الناس إلي. وفكرت بأسرة أوزوالد، زوجته لا تتحدث الإنجليزية، وهو متحفّظ بطبيعته، كل هذا يناسبني تماماً، لكن المنزل

رقم 2706 قريب جدًا. الماضي عنيد لكن المستقبل حساس، بيت من ورق، وقد تعيّن عليّ توخي أقصى درجات الحذر حتى لا أغيّره قبل أن أستعد. لذا س...

عندئذٍ تكلمت سيدي معي، وبعدها بوقت قصير، وجدتُ أن حياتي التي عرفتُها (وأحببتها) في جودي قد صارت إلى زوال.

11

- جورج... هلّا أتيتَ إلى صالة المعيشة؟ أريد التكلّم معك.
- أليس من الأفضل لك أن تضعي لحومك في الثلاجة؟ وأظنني رأيت آيسك...

صاحت: «دعه يذوب!». فانتشلتني صيحتها من شرودي فورًا. التفتُ إليها، لكن رأيتها ذهبت إلى الصالة، التقطتُ علبة سجائرها من طاولة جوار الأريكة وأشعلت واحدة. بضغط لطيف مني كانت تحاول تقليل التدخين (في وجودي على الأقل). وتدخينها الآن أنذرني بالخطر أكثر من علو صوتها.

- ذهبتُ إلى الصالة متسائلًا: «ما الأمر يا عزيزتي؟ ما الخطب؟».
- كل شيء. ماذا كانت تلك الأغنية؟
- رأيت وجهها شاحبًا جامدًا. أمسكتُ سيجارتها أمام فمها كدرع. بدأت أدرك أنني زلت، لكن لم أعرف متى أو إلى أي مدى، وجهلي هذا كان مخيفًا.

- لا أعرف ما تقصدين...
- الأغنية التي كنتَ تغنيها في السيارة عند عودتنا، بأعلى صوتك.

حاولتُ أن أتذكر ولم أستطع. لم أتذكر سوى تفكيري في أنني علي أن أرتدي ملابس كالتي يرتديها العمال الكادحون في شارع مرسيدس، حتى أندمج. بالتأكيد كنت أغني، لكن كثيرًا ما أغني عندما أستغرق في التفكير، ألا يفعل كل الناس هذا؟

- مجرد أغنية بوب سمعتها من إذاعة كيه إل آي إف، على ما أظن، وعلقتُ في رأسي، تعرفين أن بعض الأغاني تعلق في الذاكرة دون إرادتنا. لا أفهم سبب انزعاجك.

- أغنية سمعتها في كيه إل آي إف، بكلمات مثل "قابلت ملكة ثملة لعوبًا في حانة بمفيس، حاولت اصطحابي إلى غرفة بالطابق الأعلى"؟ هل يُسمح بهذه البذاءة في الإذاعة؟

انقبض قلبي، بل كل أحشائي. كنت أغني "هونكي تونك وومن"، أغنية لن تُسجَل قبل سبع أو ثماني سنوات، تغنيها فرقة لن يعرفها كثيرون قبل ثلاث سنوات. كان عقلي مشغولًا بأشياء أخرى، لكن رغم هذا، كيف تصرفْتُ بمثل هذا الغباء؟

أردفتُ سيدي: «ومزيد من البذاءات الأخرى. لأغلق هِيئة الاتصالات الفدرالية أي محطة إذاعية تشغل أغنية كهذه».

عندئذٍ بدأ يعتريني الغضب، على نفسي أكثر من أي أحد... لكن ليس على نفسي وحدي. كنت أسير على حبل مشدود لعين، وسيدي تصيح بي بسبب أغنية لفرقة رولنغ ستونز.

- اهدهني يا سيدي، إنها مجرد أغنية، لا أدري أين سمعتها.

- هذه كذبة، وكلانا يعرف أنها كذبة.

- إنكِ تُقلِّقينني. ربما يجدر بي أخذ مشترياتتي والذهاب إلى المنزل.

حاولتُ إبقاء نبرة صوتي هادئة. أحسست بصوتي مألوفًا جدًا، كانت نبرة صوتي وأنا أحاول الحديث مع كرستي عندما تعود إلى المنزل زريّة الهیئة، ملابسها غير مهندمة وشعرها أشعث. ناهيكم بأحمر الشفاه الملطخ، من حافة كأس أو شفتي سّكّير آخر، مَنْ يدري؟

مجرد التفكير في ذلك أّجّج غضبي. قلت لنفسي: أخطأت مجددًا. لم أكن أعرف ما إذا قصدتُ سيّدي أم كرستي أم نفسي، وفي تلك اللحظة لم أكثرث. لا نغضب أبدًا بقدر ما نغضب عندما نُضبطُ بجُرْم ما، أليس كذلك؟

- أرى أن من المستحسن أن تخبرني أين سمعتَ تلك الأغنية، إذا أردتَ العودة إلى منزلي مرة أخرى. وأين سمعتَ ما قلته لذلك الفتى عند خروجنا؟ لماذا تقول عبارات وكلمات ولا يقولها غيرك؟ وأريد أن أعرف سبب فزعك من هتاف جيمل السخيف إلى درجة كلامك عنه في أثناء نومك. أريد أن أعرف أين "ديري" ولماذا هي مثل دالاس. أريد أن أعرف متى كنتَ متزوجًا، ومَنْ كانت زوجتك، ومدة زواجك. أريد أن أعرف أين كنت قبل انتقالك إلى فلوريدا، لأن إيلين دوكرتي تقول إنها لا تعرف، وإن بعض أوراقك مزيفة. "تبدو لي وهمية"، هذه كلماتها.

كنت متأكدًا أن إيلين لم تعرف هذا من ديكي... لكنها عرفت. في الواقع لم أّفاجأ بمعرفتها، لكن استشطتُ غضبًا لأنها ثرثرت لسيّدي.

- لم يكن يحق لها إخبارك بهذا!

سحقتُ سيجارتها، ثم هزت رأسها إثر تطاير الشرر إلى شعرها.

- أحيانًا تبدو لي كأنك من... لا أدري... كُون آخر! كُون يغنُون فيه عن مضاجعة نساء ثملات من م ممفيس! حاولتُ إقناع نفسي

بأن هذا لا يهم، وأن الحُب يتغلب على كل شيء، إلا أن هذا غير صحيح، لا يتغلب على الأكاذيب.

تهدّج صوته، لكنها لم تبك، وظلت عيناها مُسلّطتين على عيني. لو رأيتُ في عينيها غضبًا فحسب لسهُل الأمر عليّ، لكن رأيت فيهما استعطافًا أيضًا.

- سيّدي... أريد منك...

- لن أفعل. اكتفي، فلا تبدأ أحاديثك عن عدم فعلك أي شيء يخزيك أو يخزيني. هذا أمر ينبغي أن أقرره بنفسِي. أمامك خياران: إما أن تختفي المكنسة من بيننا وإما أن تختفي أنت من حياتي.

- إذا عرفتِ فلن تـ....

- إذن أخبرني!

- لا أستطيع.

تلاشى غضبي فجأة، تاركًا خلفه تبلدًا عاطفيًا. خفضتُ عيني عن وجهها الصارم، وصادف أن وقعتا على طاولتها، وما رأيته عليها حبس أنفاسي.

كانت أوراق طلب توظيف، استعدادًا لذهابها إلى رينو في الصيف القادم. الورقة الأولى كانت من "فندق وكازينو هاراه"، في السطر الأول كتبت اسمها بأحرف كبيرة منتظمة، اسمها الكامل، بما فيه اسمها الأوسط الذي لم يخطر لي قط أن أسألها عنه.

مددتُ يدي، ببطء شديد، ووضعت إبهاميّ على اسمها الأول والمقطع الثاني من اسم عائلتها. ما بقي ظاهرًا كان دورس دن.

تذكرتُ اليوم الذي تحدثت فيه مع زوجة فرانك دنغ، متظاهرًا بأنني وكيل عقارات مهتم بمركز وست سايد ترفيهي. كانت أكبر بعشرين

عامًا من سيدي دورس كلايتون، سيدي دورس دَنهَل قبل الزواج، لكن
كلتا المرأتين لديها عيانان زرقاوان، وبشرة رائعة، وقوام ناهد. وكلتاها
تدخنان. كل هذا من الممكن أن يكون مصادفة، لكنه ليس مصادفة، وقد
عرفتُ هذا يقينًا.

- ما الذي تفعله؟

النبرة الاتهامية في صوتها معناها أن سؤالها الحقيقي هو لماذا
تواصل التهرُّب والمرَاوغة؟ لكنني لم أعد غاضبًا. تبدد غضبي تمامًا.

- هل أنت متأكدة أنه لا يعرف مكانك؟

- مَنْ؟ جوني؟ هل تقصد جوني؟ لماذا...؟

عندئذٍ رأت أن ما من جدوى من الكلام. بدا لي هذا واضحًا على
وجهها.

- ينبغي أن تغادر يا جورج.

- لكن بإمكانه أن يعرف، لأن والديك يعرفان، ووالداك يظنان أنه
رجل رائع. قلتُ لي هذا بنفسك.

اقتربتُ منها خطوة، فتراجعتُ خطوة، مثلما يتراجع المرء أمام
شخص كشف عن عدم سلامة عقله. رأيتُ الخوف في عينيها، وعدم
الاستيعاب، ورغم هذا عجزت عن التوقُّف. تذكُّروا أنني نفسي كنت
خائفًا.

- حتى إذا طلبتِ منهما ألا يخبراه بمكانك، فسيستطيع انتزاع
المعلومة منهما، لأنه لبق ساحر، أليس كذلك يا سيدي؟ عندما لا
يكون مشغولًا بالإفراط في غسل يديه أو ترتيب كتبه أبجدياً أو
الحديث عن مدى تقزُّزه من كل جوانب الاتصال الجسدي - يكون
ساحرًا جدًا. لقد سَحَرَكِ أَنْتِ بلا شك.

- أرجوك اذهب يا جورج.

تقدمت نحوها خطوة أخرى، فتراجعتُ خطوةً أيضًا، وارتطمت بالجدار... وانكمشتُ. رؤيتها تنكمش كانت كصفعة على وجه مصاب بنوبة هستريا أو ككأس ماء بارد قُذف على وجه مسرّوم. انسحبتُ إلى القوس الفاصل بين الصالة والمطبخ، رافعًا يدي على جانبي رأسي، كرجل يستسلم. استسلمتُ فعلًا.

- سأذهب. لكن يا سيدي...

- لا أفهم كيف يمكنك فعل هذا...

انثالت الدموع ببطء على خديها، وأردفتُ: «أو لماذا لا تريد معالجة الوضع. علاقتنا كانت جميلة».

- ما زالت.

هزت رأسها، ببطء لكن بحزم.

عبرتُ المطبخ شاعرًا بأنني ساحب في الهواء لا أمشي، ونزعت علبة آيس كريم بالفانيليا من أحد الأكياس المنتصبة على الطاولة، ووضعتها في الفريزر. جزء مني كان يفكر أن كل هذا مجرد حلم عصيب، وأنني سأستيقظ قريبًا. لكنني كنت مدرّكًا للواقع.

وقفت سيدي عند القوس، تنظر إلي، تحمل بإحدى يديها سيجارة جديدة، وبالأخرى أوراق طلب التوظيف. وعندئذٍ وقد رأيته، بدا لي شبه سيدي بدورس دنغ غريبًا مُريبًا. وهذا جعلني أتساءل عن سبب عدم ملاحظتي الشبه من قبل. هل لأنني كنت مستغرقًا في شواغل أخرى؟ أم لأنني ما زلت لم أستوعب جسامه ما أنا بصده استيعابًا تامًا؟

خرجتُ عبر الباب ووقفت على المنحدر، ناظرًا إلى سيدي.

- احترسي منه يا سيدي.

- جوني مضطرب في جوانب كثيرة، لكنه ليس خطيرًا. ووالداي لن يخبراه بمكاني أبدًا. وَعَدَانِي.
- الناس يحنثون بوعودهم، ويتغير سلوكهم فجأة، لا سيما الذين يتعرضون لضغوط شديدة والمضطربين عقليًا سلفًا.
- يجدر بك الذهاب يا جورج.
- عِدِينِي بِأَنَّكَ سَوْفَ تَحْتَرِسِينَ مِنْهُ وَسَأُذْهِبُ.
- صاحت: «أعدك، أعدك، أعدك!». ارتعاش سيجارتها بين أصابعها كان سيئًا، ومزيج الصدمة والفقد والحزن والغضب في عينيها كان أسوأ، أحسست بهما يتبعانني حتى سيارتي.
- اللعنة على رولنغ ستونز.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع عشر

1

قبل بضعة أيام من بدء دورة اختبارات نهاية العام، استدعتني إيلين دوكرتي إلى مكتبها، وبعدها أغلقت الباب قالت: «أسفة على المتاعب التي سببْتُها يا جورج، لكن إذا تعيَّن عليَّ اتخاذ القرار مجددًا، لست متأكدة أنني قد أتصرف تصرفًا مختلفًا».

لزمْتُ الصمت. لم أعد غاضبًا عندئذٍ، لكن ما زلت مصعوقًا. لم أُنم إلا قليلًا منذ الانفجار، وتراءى لي أنني والساعة الرابعة فجرًا سنصبح صديقين حميمين في المستقبل القريب.

قالت: «المادة الخامسة والعشرون من القانون الإداري لمدارس ولاية تكساس». كأنما هذا كفيل بشرح كل شيء.

قلت: «أستمحك عذرًا، ماذا؟».

قالت: «نينا والنغفورد هي التي نبَّهتني إلى الأمر». كانت نينا ممرضة المقاطعة، تقطع عشرات آلاف الأميال بسيارتها طراز فورد رانش كل عام متجولة بين مدارس مقاطعة دنهولم الثماني، ثلاث منها ما زالت صغيرة. «المادة الخامسة والعشرون تتضمن قوانين الولاية الخاصة بالتحصين من الأمراض في المدارس، تشمل الأساتذة علاوة على الطلاب. اكتشفت نينا أنها ليست لديها أي سجلات تحصين لك، ولا حتى أي سجلات طبية».

ها هو ذا، الأستاذ الزائف افْتُضِح أمره لعدم تلقيه حقنة الحصبة. حسنًا، على الأقل لم يكن السبب هو معرفتي المتقدمة بفرقة رولنغ ستونز، أو استعمالي غير اللائق لألفاظ الديسكو.

«نظرًا إلى انشغالك بالجمبوري وما إلى ذلك، رأيتُ أن أرسل المدارس التي درّستَ فيها سابقًا وأوفّر عليك العناء. تلقيت من فلوريدا رسالة تقول إنهم لا يطالبون الأساتذة البدلاء بسجلات تحصين. وتلقيت من مَين ووسكونسون نصًّا: "لم نسمع به قط"».

مالت إلى الأمام خلف مكتبها، ناظرةً إليّ، عجزت عن مبادلتها النظرات مدة طويلة، وما رأيته على وجهها قبل أن أخفض بصري إلى ظاهر يديّ كان تعاطفًا لا يُطاق.

- هل سيهتم مجلس تعليم الولاية بتوظيفنا محتالًا؟ بشدة. ربما يتخذون إجراءً قانونيًا لاستعادة رواتب العام التي تسلمتها. هل أكثر؟ قطعًا لا. عملك بمدرسة دنهولم الثانوية الموحدة كان وما يزال مثاليًا. ما فعلته أنت وسيدي من أجل بوبي جيل ألنوت كان رائعًا أيما روعة، هكذا ينال الأساتذة الترشيح لجائزة أستاذ العام بالولاية.

تمتّت: «شكرًا لك....».

- سألت نفسي عما كانت ميمي كوركران لتفعله. ما قالته ميمز لي كان: "إذا كان قد وقّع عقدًا للتدريس في العام القادم والذي يليه، لاضطرتّ إلى اتخاذ إجراء. لكن بما أنه سيغادر في غضون شهر، فمن مصلحتك، ومصلحة المدرسة، ألا تقولي شيئًا. ثم أردفت: "لكن ثمة شخصًا واحدًا يجب أن يعرف بأمر إخفاء هويته".

صمتت إيلين، ثم تابعت: «قلتُ لسَيدي إنني متأكدة أنك لديك تفسير معقول، لكن يبدو لي أنك ليس لديك».

ألقيت نظرة سريعة على ساعتني وقلت: «إذا كنت لن تطردينني، علي العودة إلى حصتي الخامسة. أدّرّسهم قاعدة نحوية، أفكر في ضرب مثال بجملة: "إنني بريء، لكن لا يمكنني الإفصاح بما يثبت براءتي". هل ترينها جملة صعبة؟».

قالت مبتسمة: «صعبة عليّ قطعًا».

قلت: «أمرٌ واحد. زواج سيّدي كان صعبًا، زوجها كان غريب الأطوار على نحو لا أود الخوض في تفاصيله. اسمه جون كلايتون. أظنه ربما يكون خطيرًا. ينبغي أن تطلبي من سيّدي صورة له، حتى تعرفوه إذا جاء هنا طارحًا أسئلة».

- ولماذا تظن هذا؟

- لأنني رأيت موقفًا مشابهًا من قبل. أيكيفيك هذا؟

- أظنني لا أملك خيارًا سوى قبول ما تقوله، أليس كذلك؟

هذه لم تكن إجابة جيدة بما يكفي. «هل ستسألينها؟».

قالت: «نعم يا جورج». ربما كانت صادقة، وربما سايرتني فحسب. لم أعرف.

كنت قد بلغت باب مكتبها عندما قالت عَرَضًا: «إنك تفطر قلب تلك الشابة».

قلت: «أعرف». وغادرت.

2

شارع مرسيدس. أواخر مايو.

«هل أنت لحام؟».

كنت أقف على الشرفة الأمامية بالمنزل رقم 2706 مع صاحبه، أمريكي رائع اسمه جاي بيكر، قصير قوي البنية، وذو بطن ضخم

يسميه "البيت الذي شيدته جعة شاينر". كنا قد أنهينا للتو جولة سريعة في المنطقة المحيطة بالمنزل، أوضح بيكر لي أن «موقعها مثالي من محطة الحافلات»، كأنما هذا يعوّض الأسقف المقوسة والجدران المبقة بالمياه وخزان المرحاض المشقوق وبتانة الهواء في المنطقة عمومًا.

قلت: «مراقب ليلي».

- لا زوجة ولا أطفال؟

- مُطلّق. عادوا إلى الشرق.

- تدفع نفقة، أليس كذلك؟

هزرت كتفي.

تغاضى عن ذلك. «إذن هل تريد المنزل يا أمبرسون؟».

قلت: «أظنني أريده». وتنهدتُ.

أخرج من جيبه الخلفي دفتر إيجارات ذا غلاف جلدي، وقال: «الشهر الأول، الشهر الأخير، وديعة أضرار مُحتملة».

- وديعة أضرار محتملة؟ لا بد أنك تمزح.

تابع بيكر كلامه كأنه لم يسمعني: «يحين موعد دفع الإيجار في آخر يوم جمعة من الشهر. إذا تأخرتَ أو لم تكمل المبلغ فستجد نفسك في الشارع، بمباركة قسم شرطة فورت وورث، تربطني بهم علاقة طيبة».

أخذ من جيب صدره سيجارًا ووضع الجزء الممضوغ منه في فمه، وأشعل عود ثقاب بظفر إبهامه. كان الجو ساخناً على الشرفة. خطر لي أنه سيكون صيفًا طويلًا حارًا.

تنهدت مرة أخرى، ومن ثم، متظاهرًا بالموافقة على مضض، أخرجت محفظتي وعددت فئات عشرين دولارًا. قلت: «كل الآخرين يدفعون نقدًا».

ضحك، نافثًا غيمة دخان أزرق نتن، وقال: «هذا جيد، سأذكره، وبخاصة في يوم الجمعة الأخير في الشهر».

مكتبة
t.me/soramnqraa

لم أصدق أنني سأعيش في هذا المنزل البائس وفي هذا الشارع البائس، بعد منزلي الجميل الواقع جنوبًا، حيث أفتخر بمُرجتي ذات العشب المشدَّب دومًا. أحسست بموجة حنين إلى الديار، رغم أنني لم أغادر جودي بعد.

قلت: «أعطني إيصالًا من فضلك».

هذا على الأقل حصلت عليه مجانًا.

3

كان آخر أيام العام الدراسي. الصفوف والأروقة خالية، والمراوح تحرَّك هواءً ساخنًا، رغم أننا ما زلنا في الثامن من يونيو. غادرت أسرة أوزوالد روسيا، وبعد خمسة أيام، بحسب ملاحظات آل تمبلتون، سوف ترسو سفينة إس إس ماسدام في هوبوكن، ويجتازون معبر السفينة إلى تراب الولايات المتحدة.

كانت حجرة الأساتذة خالية باستثناء داني لافرتي: «يا هذا، سمعتُ أنك ذاهب إلى دالاس لتكمل كتابك».

- هذا ما أعتزم فعله.

وجهتي كانت فورت وورث في الحقيقة، على الأقل في البداية. بدأتُ أنظف صندوق رسائلي، الذي كان مليئًا بمراسلات نهاية العام الدراسي. قال داني: «لو لم أكن مقيدًا بزوجة وثلاثة أطفال ورهن منزلي، لربما حاولت تأليف كتاب أنا أيضًا. كنتُ في الحرب، أتعرف؟».

كنت أعرف. كل شخص يعرف، غالبًا في غضون عشر دقائق من مقابلته.

سألني: «ألديك ما يكفي معيشتك؟».

- سأكون بخير.

كان لدي ما يكفي وأكثر لتدبّر أمري حتى أبريل القادم، وقد توقعت إنهاء أمري مع لي أوزوالد عندئذٍ. لن أحتاج إلى المغامرة بالذهاب إلى فيث فاينانشال بجادة غرينفيل، الذهاب إلى هناك مرة واحدة كان قرارًا غريبًا جدًا. إذا أردتُ، بإمكانني أن أحاول إقناع نفسي بأن ما حلّ بمنزلي في فلوريدا كان نتيجة مقلب عبثي خرج عن السيطرة، لكنني حاولت أيضًا إقناع نفسي بأن علاقتي بسيدي على ما يرام، وانظروا إلى نهايتها. ألقيت حزمة معاملات ورقية من صندوق رسائلي في سلة المهملات... ورأيت ظرفًا صغيرًا مختومًا لا أدري كيف لم أراه من قبل. عرفت مَنْ يستخدم ظروفًا كهذه. لم تُكتب تحية على الورقة بالداخل، ولا توقيع عدا عن رائحة عطرها الطفيفة (ربما تكون مُتخيلة). كانت الرسالة موجزة.

شكرًا لك لأنك أريتني مدى الروعة التي يمكن أن تتسم بها العلاقات. أرجوك لا تودّعني.

ظلت ممسكًا بالرسالة لدقيقة، مستغرقًا في التفكير، ثم وضعتها في جيبِي الخلفي وسرت سريعًا إلى المكتبة. لم أعرف ما أخطط لفعله أو ما أريد قوله لها، لكن هذا لم يهم لأنني وجدت المكتبة مظلمة والكراسي مقلوبة على الطاولات. رغم هذا حاولت إدارة المقبض، لكن الباب كان موصدًا.

4

لم أجد في موقف السيارات المخصص للأساتذة سوى سيارة داني لافرتي، بليّماوث سيدان، وسيارتي الفورد، وعندئذٍ صار سقفها القماشى المتحرك مهترئًا. أمكنني التعاطف معها، فأنا أيضًا أحسست بأنني مهترئ.

- أستاذ أمبرسون! انتظر، أستاذ أمبرسون!

مايك وبوبي جيل، رأيتهما يهرولان عبر موقف السيارات الساخن نحوي، مايك يحمل هدية صغيرة مغلفة، ناولني إياها قائلاً: «أنا وبوبي جلبنا لك شيئاً».

- لم يكن هذا ضرورياً يا مايك.

- لا بد لنا يا رجل.

تأثرت برؤية بكاء بوبي جيل، وسررت باختفاء طبقة المساحيق السمكية من وجهها. بعدما عرفت أن أيام النذبة باتت معدودة توقفت عن محاولة إخفائها. قبلتني على خدي.

قالت: «شكراً جزيلاً جزيلاً لك يا أستاذ أمبرسون، لن أنساك أبداً». نظرت إلى مايك. «لن ننساك أبداً».

لن ينسياني على الأرجح. أمرٌ جيد. لم يعوّض المكتبة الموصدة المظلمة، لكنه جيد جداً.

قال مايك: «افتحها. نأمل أن تعجبك الهدية، إنها من أجل كتابك». فتحت اللقافة، ووجدت بداخلها صندوقاً خشبياً طوله قرابة ثمانى بوصات وعرضه بوصتان، وبداخل الصندوق، في مهد من الحرير، قلم حبر سائل منقوش على مشبكته ج.أ. قلت: «مايك، هذا كثير جداً».

قال: «لن يكفي حتى إذا كان من الذهب الخالص. غيرت حياتي». نظر إلى بوبي. «حياتنا نحن الاثنين».

- هذا من دواعي سروري يا مايك.

عانقني، وفي عام 1962 العناق ليس لفطة بسيطة بين الرجال. سررت بمعانقته.

قالت بوبي جيل: «لا تنقطع عنا، دالاس ليست بعيدة». صمتت ثم تساءلت: «أهي بعيدة؟».

قلت: «سأظل على تواصل». لكنني لن أفعل، وهما أيضًا. سوف يعيشان حياتهما وينشغلان بها، وإذا كانا محظوظين ستشرق حياتهما. همًا بالذهاب، لكن بوبي التفتت وقالت لي: «يؤسفني انفصالكما، أحزنني جدًا».

قلت: «يؤسفني أنا أيضًا. لكنه أفضل لكيينا على الأرجح».

ذهبت إلى المنزل لأحزم آلتِي الكاتبة وأغراضي الأخرى، التي أدركت أنها ما تزال قليلة ولا تحتاج إلى أكثر من حقيبة سفر واحدة وبضعة صناديق من الورق المقوى. عند إحدى الإشارات الضوئية في الشارع الرئيسي، فتحت الصندوق الصغير ونظرت إلى القلم، كان جميلًا، تأثرت بهديتهما، وتأثرت أكثر لأنهما انتظرا ليودّعاني. تحولت الإشارة إلى الأخضر، فأغلقت الصندوق وواصلت القيادة. شعرتُ بغصة في حلقي، لكن عيني ظلتا جافّتين.

5

العيش في شارع مرسيدس لم يكن مُبهجًا.

ساعات النهار لم تكن سيئة جدًا، تضج بصيحات الأطفال الخارجين من المدارس، مرتدين ملابس إخوتهم الأكبر سنًا، وربات منازل يتذمرن عند صناديق البريد أو حبال الملابس في الباحات الخلفية، ومراهقين يقودون سيارات صدئة ذات عوادم مزعجة. والساعات بين الثانية صباحًا والسادسة لم تكن سيئة جدًا أيضًا، عندئذٍ يخيم على الشارع صمتٌ كثيف إثر نوم الرضع المصابين بالمغص في المهدود (أو أدراج مناضد الزينة) وآباؤهم يشخرون استعدادًا ليوم آخر في سبيل الأجور في المتاجر والمصانع والمزارع الممتدة.

لكن بين الرابعة والسادسة عصرًا، تندلع جلبة أمهات يزعنن بأطفالهن ليدخلوا إلى البيوت ويؤدوا واجباتهم، وآباء يصلون إلى

بيوتهم ويصيحون بزوجاتهم، على الأرجح لأنهم لا يجدون من يصيحون بهم. كثير من الزوجات لا يسكُتن. الآباء السكارى يبدؤون الوصول قرابة الثامنة، ويبلغ الإزعاج أشده قرابة الساعة الحادية عشرة، عندما تُغلق حاناتهم أو تنفذ نقودهم، عندئذٍ أسمع صفق الأبواب، وتهشم الزجاج، وصرخات الألم إثر انهيار الآباء السكارى ضربًا على الزوجات أو الأطفال، أو كليهما. وكثيرًا ما أرى وميض الأضواء الحمراء من خلال ستائري المغلقة عند وصول رجال الشرطة. مرتان سمعت طلقات نارية، ربما أطلقت نحو السماء، ربما. وذات يوم في الصباح المبكر، عندما خرجت لأجلب الصحيفة، رأيت امرأة نصف وجهها الأسفل مغطى بدماء جافة، كانت جالسة على الرصيف أمام منزل تفصل بينه وبين منزلي أربعة منازل، وتشرب من علبة جعة لون ستار، كِدْتُ أذهب إليها لأتفقد حالها، رغم معرفتي بعدم حكمة التدخل في شؤون سكان حي العمال الكادحين هذا، ثم رأيتني أنظر إليها فرفعت لي إصبعها الوسطى. عدت إلى داخل منزلي.

ما من جوقة ترحيب، ولا نساء أسماؤهن مَفي أو بَفي يتبخترن في طريقهن إلى اجتماعات جمعياتهن التطوعية. ما كان متوفرًا لي هناك في شارع مرسيدس كان الوقت للتفكير، والوقت لافتقاد أصدقائي في جودي، والوقت لافتقاد العمل الذي كان يريح عقلي من الانشغال بما جئت إلى الماضي لفعله، والوقت لأدرك أن التدريس أفادني بأكثر من مجرد تزجية الوقت، أراح بالي مثلما يحدث للمرء عندما يؤدي عملًا يحبه، عندما يحس بأنه يُحدث فرقًا.

كما وجدتُ متسعًا من الوقت للتحسُّر على حال سيارتي ذات السقف المتحرك. إلى جانب تعطل المذياع وصفير صمامات المحرك، صارت تصدر فرقعات عبر أنبوب العادم الصدئ، وظهر شق على الزجاج الأمامي سبَّبه حجر مندفع من ظهر شاحنة ثقيلة. توقفت عن غسلها،

والآن، يحزنني قول هذا، صارت تشبه المركبات البائسة الأخرى في شارع مرسيدس.

الأهم هو أنني وجدت متسعاً من الوقت للتفكير بسَيدي.

قالت إيلين دوكرتي: *إنك تفطر قلب تلك الشابة*. وقلبي أيضاً لم يكن بأفضل حال. فكرة الإفصاح لسَيدي عن كل شيء خطرت لي ذات ليلة وأنا مضجع أستمع إلى مشادة سكارى في المنزل المجاور: *أنت فعلت، لم أفعل، فعلت، لم أفعل، تباً لك*. استبعدتُ الفكرة، لكنها عادت في الليلة التالية، أشد قوةً. تخيلتُ نفسي جالساً مع سَيدي إلى طاولة مطبخها، نحتسي القهوة في ضوء العصر القوي الذي يدخل بزواوية مائلة عبر النافذة فوق حوض الغسل، تخيلت نفسي أتحدث بهدوء، أقول لها إن اسمي هو جيكوب إبنغ، وإنني في الواقع سأولد بعد أربعة عشر عاماً، وإنني جئت من عام 2011 عبر صدع في الزمن سمّاه صديقي الراحل جُحر الأرنب.

كيف عساي أن أقنعها بهذا كلام؟ بإخبارها أن أمريكياً منشقاً غير رأيه بشأن روسيا، وعما قريب سينتقل إلى المنزل المقابل للمنزل الذي أعيش فيه الآن، مع زوجته الروسية وطفلتهم؟ بإخبارها أن فريق دالاس تكسانز -ليس الكابويز، ليس "فريق أمريكا" بعد- سيهزمون هيوستن أويلرز 20 - 17 في الخريف القادم، بعد وقتين إضافيين؟ يا للسُخف! لكن ماذا أعرف أيضاً عن المستقبل القريب؟ ليس كثيراً، لأنني لم أجد وقتاً للدراسة والبحث. أعرف الكثير عن أوزوالد، لكن هذا كل شيء.

لظننتُ أنني مجنون. حتى إذا غنيت لها كلمات عشر أغاني بوب لم تُسجَل بعد، فستراني مجنوناً. ستتهمني بأنني أخلق الأغاني. ألسْتُ كاتباً؟ ولفنفترض أنها صدقتني، فهل أريد أن أجربها معي إلى فك القرش؟ ألا يكفي سوءاً أنها ستعود إلى جودي في أغسطس، وإذا اتضح أن جون كلايتون صدى لفرانك دننغ فربما يأتي باحثاً عنها؟

صاحت امرأة من الشارع: «حسنًا، اخرج إذن!». ثم سمعتُ سيارة تنطلق مسرعة في اتجاه شارع ونسكوت، فومض على السقف شريط ضوء لوهلة عبر فُرجة في ستائري المغلقة.

شَيَّعتِ المرأةُ السيارةَ بشتائم بذيئة، فرد عليها صوت رجل بسباب أشد بذاءة.

هكذا كانت الحياة في شارع مرسيدس في صيف عام 1962.

خاطبني صوت العقل: اترك سَيِّدي خارج هذه المغامرة، إنها شديدة الخطورة. في مرحلةٍ ما ربما تتصالحان وتصبح جزءًا من حياتك مرة أخرى، ربما حياة في جودي، لكن ليس الآن.

إلا أنني لن أعيش أي حياة في جودي أبدًا. صار التدريس بالمدرسة الثانوية حلمًا بعيد المنال، نظرًا إلى معرفة إيلين بماضيي. وأي مهنة أخرى سأمارسها؟ صب الخرسانة؟

ذات صباح وضعت وعاء القهوة على النار وذهبت لأجلب الصحيفة من أمام الباب، وعندما فتحت الباب، رأيت إطاري الصنلاينر الخلفيين فارغين من الهواء، مزقهما فتى ما عاد متأخرًا شاعرًا بالملل. هذا أيضًا جزء من الحياة في شارع مرسيدس في صيف عام 1962.

6

يوم الخميس، الرابع عشر من يونيو، ارتديت بنطال جينز وقميص عمل أزرق، وصدرية جلدية قديمة اشتريتها من متجر سلع مستعملة في شارع كامب بوي. ثم رحت أذرع أنحاء المنزل طوال الصباح. لم يكن لدي تلفاز، لكن استمعت إلى المذياع، وبحسب نشرة الأخبار، اعتزم الرئيس كينيدي زيارة رسمية إلى المكسيك في وقت لاحق من الشهر. وتوقعت نشرة الأحوال الجوية سماء صافية وأجواء دافئة. وراح منسق

الأغاني يهذر لمدة، ثم شغل أغنية بالسيدز بارك. تخذش رأسي من الصرخات والمؤثرات الصوتية.

أخيرًا لم أعد أطيق الانتظار. عرفت أنني سأذهب قبل الموعد، لكنني لم أكرث. ركبت الصنلاينز، التي صارت بإطارين خلفيين بشريطين أسودين مع إطارين أماميين بشريطين أبيضين، وقُدت مسافة قرابة أربعين ميلًا إلى مطار لوف فيلد شمال غرب دالاس. لا يوجد ركن سيارات لمدة قصيرة أو طويلة. ركن فحسب. يكلف خمسة وسبعين سنتًا في اليوم. ثبتت قبعتي الصيفية القديمة المصنوعة من القش على رأسي وسرت قرابة نصف ميل إلى مبنى المطار. رأيت اثنين من رجال شرطة دالاس يقفان عند الرصيف ويشربان القهوة، لكن لم أجد رجال أمن بالداخل ولا جهاز كاشف معادن عليّ المرور عبره. ببساطة يُبرز الركاب تذاكرهم لرجل يقف جوار الباب، ثم يسرون عبر الأسفلت الساخن إلى طائرات تنتمي إلى إحدى خمس شركات خطوط جوية: أميركان، دلتا، وتي دبليو إيه، وفرونثير، وتكساس إيرويس.

تفقدت السبورة المثبتة على الجدار خلف نضد شركة دلتا. كان مكتوبًا عليها أن الرحلة رقم 194 ستصل في موعدها، وعندما طلبت من الموظفة التأكد، ابتسمت وقالت لي إن الطائرة غادرت أتلانتا للتو: «لكنك وصلت مبكرًا جدًا».

قلت: «ما باليد حيلة، على الأرجح سأستعجل يوم جنازتي». ضحكتم وتمنّ لي يومًا طيبًا. اشتريت مجلة تايم وسرت إلى المطعم، حيث طلبت طبق سلطة بالببيض واللحم، كانت الكمية كبيرة وتوتري بدد شهيتي (ليس كل يوم تسنح للمرء فرصة رؤية الشخص الذي سيغير التاريخ)، لكن الوجبة أتاحت لي التظاهر بالانشغال بشيء في أثناء انتظاري وصول الطائرة التي تحمل أسرة أوزوالد.

كنت أجلس إلى طاولة معزولة تتيح رؤية جيدة لصالة الوصول الرئيسية، لم تكن مزدحمة جداً، ولفتت انتباهي امرأة شابة ترتدي بدلة سفر زرقاء داكنة، شعرها معقود على شكل كعكة أنيقة، ومعها حقيبتا سفر بيديها، اقترب منها حمّال زنّجي، فهزّت رأسها مبتسمة، ثم ارتطمت ذراعها بجانب مكتب مساعدة الركاب في أثناء مرورها جواره، فألقت إحدى حقيبتيهما، ومسحت مرفقها، ثم التقطت الحقيبة وواصلت سيرها.

كانت سيّدي مغادرة لتبدأ عملها الذي سيستمر ستة أسابيع في رينو. هل فوجئتُ؟ لا، إطلاقاً. كان التوافق والتناغم، وقد اعتدته. هل كادت تغلبني الرغبة في الركض إلى خارج المطعم واللاحاق بها قبل فوات الأوان؟ نعم، بالتأكيد.

للحظة بدا لي ذلك ممكناً، بل ضرورياً. أخبرها بأن القَدَر (بدلاً من تناغم غريب ذي صلة بالسفر عبر الزمن) جَمَعنا معاً في المطار. مثل هذه الأمور تنجح في الأفلام، أليس كذلك؟ ثم أطلب منها الانتظار حتى أشتري تذكرتي إلى رينو، وأقول لها إنني سأخبرها بكل شيء حالما نصل إلى وجهتنا. وبعد الأسابيع الستة الإلزامية، ندعو القاضي الذي منحها الطلاق على كأس شراب قبل أن يزوّجنا.

في الواقع هممتُ بالنهوض، وعندئذ وقعتُ عيني مصادفة على غلاف مجلة تايم التي اشتريتها من رف الصحف. كانت صورة جاكين كينيدي على الغلاف، مبتسمة، متألقة، ترتدي فستاناً بلا كُمين وفتحة عنق مثلثة. كُتِب وصف الصورة: زوجة الرئيس ترتدي ملابس الصيف. وفي أثناء نظري إلى الصورة تلاشت ألوانها وصارت بالأسود والأبيض، وتغيرت تعابير جاكين من ابتسامة سعيدة إلى تحديقة خاوية. الآن صارت واقفة جوار ليندون جونسون على متن الطائرة الرئاسية، ولم تعد ترتدي الفستان الصيفي الجميل (والمثير قليلاً)، حلت محله بدلة

صوفية ملطخة بالدماء. أتذكر أنني قرأت، ليس في دفتر آل بل مكان آخر، أنه بعد وقت ليس بالطويل من إعلان موت زوج السيدة كينيدي، ذهبت ليدي بيرد جونسون لمعانقتها في رواق المستشفى ورأت مزعة من دماغ الرئيس الميت على تلك البدلة.

رئيس أصيب برصاصة في الرأس. وجميع الموتى بعده، يقف في صف يمتد إلى ما لا نهاية.

لم أنهض، وشاهدت سيدي تحمل حقيبتها نحو نضد شركة فرونتير، بدا لي واضحًا أن الحقيبتين ثقيلتان، لكنها حملتهما بنشاط وحيوية، بظهر مستقيم وخطوات سريعة ثابتة. تحقق الموظف من الحقيبتين ووضعهما في عربة أمتعة، ثم تكلم مع سيدي، ناولته التذكرة التي اشترتها عبر وكالة سفر قبل شهرين، وكتب الموظف شيئًا عليها، أخذتها واستدارت متجهة إلى البوابة. خفضت رأسي لأحرص على ألا تراني. وعندما رفعت رأسي لم أراها.

7

وبعد أربعين دقيقة بدت دهرًا، مر بالمطعم رجل وامرأة وطفلان صغيران، صبي وفتاة، كان الصبي ممسكًا بيد والده ويتكلم بلا انقطاع، والوالد ينظر إليه، ويومئ ويبتسم. الوالد كان روبرت أوزوالد.

دوّى مكبر الصوت: «رحلة دلتا رقم 194 ستصل الآن من نيوآرك ومطار أتلانتا المحلي. يمكنكم مقابلة الركاب عند البوابة رقم 4. رحلة دلتا رقم 194 ستصل الآن».

حملت زوجة روبرت، فادا -بحسب ملاحظات آل- الفتاة الصغيرة وهرعت جوار زوجها وابنها. لم أر أثرًا لمارغريت.

حركت طعامي شاردًا، ومضغته دون أن أتذوق شيئًا. كان قلبي يخفق بشدة.

سمعت هدير المحركات المقتربة، ورأيت الأنف الأبيض في مقدمة الطائرة من طراز دي سي-8 وهي تتوقف عند البوابة. واحتشد المستقبلون حول الباب. نقرت نادلة على كتفي فكدتُ أصرخ.
قالت بلكنة تكساس ثقيلة: «آسفة يا سيدي، أردت أن أسألك عما إذا كنت تريد شيئاً».

- لا، لا أحتاج إلى شيء.

- حسناً.

بدأ أول الركاب الواصلين يسرون عبر صالة الوصول، جميعهم رجال يرتدون بدلات وقصات شعرهم أنيقة. بالطبع. أول من ينزل من الطائرة يكونون دومًا ركاب الدرجة الأولى.

- هل أجلب لك قطعة فطيرة خوخ؟ طازجة اليوم.

- لا، شكرًا.

- متأكد يا عزيزي؟

عندئذٍ دخل ركاب الدرجة الاقتصادية متدفقين كفيضان، جميعهم مثقلون بأمثلة كانوا يحملونها معهم بداخل الطائرة. سمعتُ امرأة تصيح من الحماسة. هل كانت فادا وهي تحيي أخا زوجها؟
قلت: «متأكد». والتقطتُ مجلتي.

فهمت التلميح. لبثتُ جالسًا أراقب وأحرك بقايا طعامي حتى صارت حساءً برتقاليًا. ظهر رجل وامرأة، ومعهما طفلة، لكنها أكبر من أن تكون جُون. مر الركاب أمام المطعم وهم يحادثون أصدقاءهم وأقاربهم الذين جاؤوا لاستقبالهم. رأيت شابًا يرتدي زيًا عسكريًا يرتب أرداف خليلته، فضحكت وضربت يده، ثم وقفت على أمشاط قدميها لتقبّله.

لخمس دقائق أو نحوها كانت صالة الوصول ممتلئة تقريبًا، ثم بدأ الحشد يتفرق. لم يظهر أوزوالد. وداهمتني فكرة جامحة: لم يكونوا

على متن الطائرة، وأنا لم أسافر عائداً عبر الزمن فحسب، بل قفزتُ إلى كونٍ مواز. ربما كانت الغاية من وجود رجل البطاقة الصفراء هي إيقاف حدوث شيء كهذا، لكن رجل البطاقة الصفراء مات، وقد تحررتُ. لا وجود لأوزوالد؟ حسناً، إذن لا توجد مهمة. سيموت كينيدي في نسخة أخرى من أمريكا، ليس هذه النسخة. بمستطاعي اللحاق بسَيدي والعيش معها بسعادة إلى الأبد.

لم تكد الفكرة تخطر لي حتى رأيت هدفي لأول مرة. رأيت روبرت وليّ يقفان جنباً إلى جنب، ويتحدثان بسرور ومودة. كان ليّ يحمل ما بدا كحقيبة أوراق صغيرة أو حقيبة مدرسية، وحمل روبرت حقيبة سفر زهرية ذات حواف دائرية بدت كشيء خارج من خزانة ملابس باربي. ثم ظهرت فادا ومارينا خلف الأخوين، وقد حملت فادا أحد كيسي الملابس المرقّعين، وعلّقت مارينا الآخر على كتفها، وكانت تحمل جُون أيضاً، البالغة من العمر أربعة أشهر عندئذٍ. سار طفلا روبرت وفادا إلى جانبيها وهما ينظران إليها بفضول.

نادت فادا الرجلين فتوقفا أمام المطعم تقريباً. ابتسم روبرت وأخذ كيس مارينا. كانت تعابير لي... مرحة ربما، ظهر شبح ابتسامة على طرف شفتيه، وبدأ شعره ممشطاً بعناية. في الحقيقة كان أنيقاً بقميصه الأبيض وحذائه اللامع. لم يبد كرجل أكمل للتو رحلة من الجانب الآخر من العالم، لم تظهر عليه تجعيدة واحدة، ولا أثراً لظل لحية نابئة على خديه. كان مجرد شاب في الثانية والعشرين، وبدأ أصغر، كأحد المراهقين في آخر صف أدب أمريكي درّسته.

وكذلك مارينا، التي لن تسمح لها سنّها بشراء مشروب كحولي قانوني إلا بعد شهر، كانت مرهقة ومشوشة، وتحقق إلى كل شيء. وكانت جميلة أيضاً، ذات شعر داكن وعينين زرقاوين فيهما حُزنٌ ما.

وكانت أطراف الرضيعة جُون مقمطة بقماش، حتى عنقها مغطى بشيء ما، ورغم أنها لم تكن تبكي، فقد بدا وجهها محمراً ومتعرقاً. أخذ لي الرضيعة، فابتسمت مارينا ممتنة، وعندما انفرجت شفتها رأيت أن إحدى أسنانها مكسورة وبعضها شائه اللون، وأحدها أقرب إلى السواد. التنافر مع بشرتها الكريمة وعينيها البديعتين كان حاداً.

مال أوزوالد نحوها وقال لها كلاماً محا الابتسامة من وجهها، نظرت إليه بحذر، وقال لها كلاماً آخر، ناكزاً كتفها بإصبعه. تذكرت قصة آل، وتساءلت عما إذا قال أوزوالد لزوجته الكلام نفسه الذي ذكره آل: بوخودا، سيكا - امشي أيتها العاهرة.

لكن لا. كان قماط الرضيعة هو ما أزعجه، انتزعها، من الذراعين والساقين أولاً، وألقاه على مارينا، فالتقطته مرتبكة. ثم نظرت إلى ما حولها لترى ما إذا كان أحد يشاهدهم.

عادت فادا ولمست ذراع لي، لم يكثر لها، حلّ الوشاح القطني من حول عنق الرضيعة وألقاه أيضاً نحو مارينا، سقط على الأرضية، فانحنت مارينا والتقطته دون كلام.

انضم روبرت إليهما وداعب شقيقه بلكمه على كتفه. عندئذٍ كادت أن تخلو صالة الوصول من الناس تماماً، آخر الركاب تجاوزوا عائلة أوزوالد، لذا سمعتُ بوضوح ما قاله روبرت: «رفقاً بها قليلاً، وصلتُ إلى هنا للتو، حتى إنها لا تعرف مكانها بعد».

قال لي: «انظر إلى هذه الطفلة». ورفع جُون ليتفحصها شقيقه، وعندئذٍ بدأت تبكي أخيراً. «مارينا جعلتها كمومياء مصرية لعينة، لأن هذا ما يفعلونه في ديارها. لا أدرك هل أضحك أم أبكي. ستاريج بابا! المرأة العجوز». التفت إلى مارينا والرضيعة الباكية بين ذراعيه. نظرت إليه خائفة. «ستاريج بابا!».

حاولتُ أن تبتم، كما يفعل الناس عندما يعرفون أنهم موضع السخرية لكن لا يعرفون لماذا. لوهلة تذكرتُ ليني، من مسرحية عن الفئران والرجال. ثم أشرق وجه أوزوالد بابتسامة عجرفة مائلة قليلاً، جعلته يبدو وسيماً إلى حدٍّ ما. قبلَ زوجته بلطف على خديها.

قال: «الولايات المتحدة!». قبلها مجدداً. «الولايات المتحدة يا رينا! أرض الأحرار وديار الأوغاد!».

اتسعت ابتسامتها، وبدأ لي يتكلم معها بالروسية وهو يعيد الرضیعة إليها. أحاط خصرها بذراعه وهي تهدئ جُون. كانت ما تزال مبتسمة وهم يخرجون من مجال رؤيتي، وحرّكت الرضیعة إلى كتفها حتى تمسك بيد لي.

8

عدت إلى المنزل، إن جاز لي أن أسمى شارع مرسيديس منزلي، وحاولت أن أنام قليلاً، لكن لم أستطع، فلبثت مضجعاً ويدي خلف رأسي، مستمعاً إلى ضجيج الشارع، ومتحدثاً مع آل تمبلتون. وجدت نفسي أفعل هذا كثيراً بعد عزلتي. ورغم أن آل ميت فقد كان كثير الكلام. قلت له: «مجيئي إلى فورت وورث قرار غبي. إذا حاولت توصيل جهاز التنصت بجهاز التسجيل، فربما يراني أحد، أوزوالد نفسه ربما يراني، وهذا سيغير كل شيء». إنه شديد الارتياح سلفاً، قلتُ هذا في ملاحظاتي. كان يعرف أن المخابرات السوفييتية ووزارة داخليتها يراقبونه في منسك، وسيخشى أن تراقبه وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالي هنا. في الحقيقة مكتب التحقيقات الفيدرالي سيراقبه فعلاً، على الأقل لبعض الوقت».

وافقني آل: «أجل، عليك بالحذر. المهمة ليست سهلة، لكنني أثق بك يا صاح. لهذا اخترتك من البداية».

- لا أريد الاقتراب منه. اعتراني توتر شديد من مجرد رؤيته في المطار.
- أعرف أنك لا تريد، لكن لا بد لك. بوصفي رجلًا أمضى حياته كلها تقريبًا في الطهي،ؤكد لك أنه لا يمكن إعداد عجة بيض دون كسر البيض. وسيكون من الخطأ المبالغة في تقدير قدرات هذا الرجل، إنه ليس مجرمًا خارقًا، كما سيكون مشتت الانتباه، غالبًا بسبب والدته صعبة المراس، لفترة لن يفلح في شيء سوى الصياح بزوجته، وضربها عندما لا يكفي الصياح لتبديد حنقه.
- أظنه يحبها يا آل، ولو قليلًا، وربما كثيرًا، رغم صياحه.
- أجل، وأمثاله هم من يدمرون زوجاتهم غالبًا. انظر إلى فرانك دنغ. اهتم بمهمتك فحسب يا صاح.
- وماذا سأسمع إذا تمكنتُ من توصيل جهاز التنصت؟ تسجيلات شجارات؟ شجارات بالروسية؟ ستساعدني كثيرًا!
- ليس عليك الاهتمام بتحليل حياة الرجل العائلية. عليك معرفة ما وراء جورج دي موهرنشيلدت، تأكد أنه غير متورط في محاولة قتل الجنرال ووكر، وحالما تتأكد ستُغلق نافذة عدم اليقين. انظر إلى الجانب المشرق. إذا ضبكت أوزوالد وأنت تتجسس عليه، فربما تتغير أفعاله المستقبلية تغيرًا إيجابيًا، ربما لا يحاول قتل كينيدي.
- هل تتوقع هذا حقًا؟
- لا. في الحقيقة لا.
- أنا أيضًا. الماضي عنيد، لا يريد أن يُغيّر.
- يا صاح، الآن أنت من...
- سمعت نفسي أتمتم: «يُبلي بلاءً حسنًا».

فتحت عيني، كنت قد استغرقت في النوم. رأيت ضوءًا باهتًا يتسلل عبر الستائر المغلقة. في مكانٍ ما ليس بعيدًا، بشارع دافنبورت في فورت وورث، الأخوان أوزوالد وزوجتهما يتناولون العشاء، وجبة لي الأولى منذ عودته إلى دياره القديمة.

ومن خارج مسكني الحقيق في فورت وورث، سمعت أهزوجة قفز على الحبل، بدت لي مألوفة جدًا. نهضت وسرت عبر صالة معيشتي المعتمدة (مؤنثة بكرسيين رخيصين ولا شيء آخر)، وسحبت إحدى الستائر بمقدار بوصة تقريبًا. تلك الستائر كانت أولى إضافاتي في الشقة. أردت أن أرى، دون أن يراني أحد.

رأيت المنزل رقم 2703 ما زال مهجورًا، ولافتة للإيجار مثبتة على حاجز الشرفة الأمامية المتضعضة، لكن المرجة لم تكن مهجورة، رأيت فتاتين تديران حبل قفز وثالثة تتقافز. بالطبع لم يكن الفتيات اللاتي رأيتهن في شارع كوسوث في ديري. هؤلاء الثلاثة هنا يرتدين بناطيل جينز باهتة ومرقعة وليس سراويل قصيرة جديدة، وبائسات هزيلات، الأهزوجة هي نفسها، لكنها هنا بلكنة تكساس.

«شارلي تشابلن سافر إلى فرنسا! ليشاهد النساء يؤدين الرقصة! تحية للقبطان! تحية للملكة! أبي يقود غواصة!».

علقت قدم الفتاة القافزة بالحبل فسقطت على الحشائش، التي من المفترض أن تكون مرجة الباحة الأمامية الخاصة بالمنزل رقم 2703، وتكوّمت الفتاتان الأخريان فوقها وتدحرجن على الأرض. ثم نهضن وركضن مبتعدات.

شاهدتهن يبتعدن، قائلاً لنفسه: رأيتهن لكنهن لم يرينني. أمر جيد. بداية جيدة. لكن كيف ستكون النهاية يا آل؟

كان دي موهرنشيoldt هو مفتاح الأمر كله، والسبب الوحيد الذي يمنعني من قتل أوزوالد حالما ينتقل إلى المنزل المقابل لمنزلي. جورج

دي موهرنشيلدت، جيولوجي نفط يضارب في امتيازات التنقيب عن النفط، ورجل يعيش حياة ترف ولهو، معتمدًا على أموال زوجته. وهو روسي مثل مارينا، لكن خلافًا لها، ينحدر من عائلة نبيلة. في الواقع كان البارون دي موهرنشيلدت. وسيصبح صديق لي أوزوالد الوحيد خلال الشهور القليلة المتبقية من حياة أوزوالد. وهو من سيقول لأوزوالد إن العالم سيكون أفضل حالًا دون جنرال سابق بعينه، عنصري يميني. إذا اتضح لي أن دي موهرنشيلدت جزء من محاولة أوزوالد قتل إدوين ووكر، فسيتعقد وضعي تعقيدًا شديدًا، إذ سيتعين علي التعامل مع تفاصيل كل نظريات المؤامرة الجنونية. بيد أن آل كان يرى أن كل ما فعله الجيولوجي الروسي (أو ما سوف يفعله. كما قلتُ سابقًا، العيش في الماضي مُربك) هو تحريض رجل مهووس بالشهرة ومضطرب عقليًا.

كتب آل في ملاحظاته: إذا كان أوزوالد وحده في ليلة 10 أبريل 1963، فاحتمال وجود مُطلق نار آخر مشارك في اغتيال كينيدي بعد سبعة أشهر شبه معدوم.

وتحت هذه النقطة أضاف آل حُكمه النهائي بأحرف كبيرة: وهذا دليل كاف للتخلص من الوغد.

9

رؤية الفتيات الصغيرات اللاتي لم يرينني ذُكرتني بفيلم التشويق رير ويندو من بطولة جيمي ستيوارت. بمستطاع المرء رؤية أشياء كثيرة دون أن يغادر منزله، لا سيما إذا امتلك الأدوات المناسبة.

في اليوم التالي ذهبت إلى متجر مستلزمات رياضية واشترت منظارًا مقرَّبًا ماركة بوش آند لام، مذكّرًا نفسي بالحذر من انعكاس ضوء الشمس على العدسات، لكن رأيت أنني في مأمن إلى حدٍّ ما من

هذه الناحية في أي وقت بعد الظهر، لأن المنزل رقم 2703 كان على الجانب الشرقي من شارع مرسيدس. أدخلت طرف المنظار في فرجة الستائر، وعندما ضبطت تركيز العدسات أصبحت صالة المعيشة على الجانب الآخر من الشارع واضحة التفاصيل كأنني أقف بداخلها.

رأيت مصباح بيضا المائل ما زال على المكتب القديم الذي خُزنت فيه أدوات المطبخ، في انتظار شخص لتشغيله وتفعيل جهاز التنصت. لكنه لن يجديني نفعا إذا لم يوصل بالمسجل الياباني الصغير، الذي يستطيع تسجيل اثنتي عشرة ساعة عند تشغيله بأبطأ سرعة. كنت قد جربته، تكلمت جوار المصباح الاحتياطي (أشعرتني هذا بأنني شخصية في فيلم من إخراج وودي آلن)، ووجدت أن التسجيل يكون بطيئا، لكن الكلمات مفهومة. كل هذا كان يعني أنني صرت مستعدا للبدء.

إذا امتلكت الجرأة.

10

الرابع من يوليو في شارع مرسيدس كان يوما حافلا. خرج الرجال لسقي مُرجات يتعذر إنعاشها (عدا عن بضع عواصف رعدية في المساء، ظل الطقس حارًا جافًا)، ثم استرخوا جالسين على الكراسي، وراحوا يستمعون إلى مباريات البيسبول عبر المذياع ويشربون الجعة. ورأيت جمهرة صبيان يلقون المفرقات النارية على كلاب ضالة وبضع دجاجات هائمة، إحدى الدجاجات أصابتها مفرقة فانفجرت واستحالت دماءً وريشًا. الطفل الذي ألقاها جُرَّ صارخًا إلى أحد المنازل على مبعدة في الشارع على يد امرأة لا ترتدي سوى قميص تحتي وقبعة بيسبول، خَمَنْتُ من مشيتها المترنحة أنها هي نفسها تحت تأثير الجعة. أقرب شيء إلى الألعاب النارية رأيته بعد الساعة العاشرة، عندما أضرم صبي ما -على الأرجح الصبي نفسه الذي مزق إطاري سيارتي- النار في

سيارة ستودبيكر قديمة مهجورة في موقف سيارات مستودع مونتغمري منذ قرابة أسبوع، وجاء رجال قسم إطفاء فورت وورث لإطفائها، وظهر جميع الناس للمشاهدة.

تحية لكولومبس.

في الصباح التالي ذهبت لأتفقد السيارة الضخمة المحترقة، فوجدتها جاثمة على بقايا إطاراتها الذائبة. لمحت كابينة هاتف بالقرب من أحد أرصفة التحميل الخاصة بالمستودع، وإثر رغبة مفاجئة اتصلت بإيلين دوكرتي، طلبت من عامل الهاتف إيجاد الرقم وإيصالي. اتصلتُ لأنني أحسست بالوحدة والحنين لجودي، لكن السبب الأهم كان رغبتني في سماع خبر عن سيدي.

ردّت إيلين عند الرنة الثانية، وبدأت مبتهجة بسماع صوتي. لاحظتُ وقوفي هناك بداخل كابينة هاتف ساخنة، وشارع مرسيدس نائم خلفي بعد عيد كولومبس مجيد حافل ورائحة السيارة المتفحمة في منخري - ابتسمتُ لذلك.

قالت: «سيدي بخير. تلقيت منها بطاقتين بريديتين ورسالة. تعمل نادلة في فندق هاراه». خفضت صوتها: «أظنها تعمل نادلة كوكتيل لكن مجلس إدارة المدرسة لن يسمع مني هذا أبدًا».

تخيّلْتُ ساقِي سيدي الطويلتين وهي ترتدي تنورة نادلة كوكتيل، وتخيّلت رجال الأعمال يحاولون النظر إلى أعلى جواربها الطويلة أو صدرها وهي تنحني لتضع المشروبات على طاولة.

قالت إيلين: «سألتُ عنك». وابتسمتُ لذلك أيضًا. «لم أرغب في إخبارها بأنك أبحرتَ إلى نهاية الأرض، بحسب ما يعرفه جميع الناس في جودي، لذا قلتُ لها إنك بخير ومشغول بكتابك».

لم أضف كلمة إلى مكان القتل منذ شهر أو أكثر، حاولت مرتين قراءة ما كتبته، وبدأ لي كل شيء كأنه مكتوب بلغة قرطاجة في القرن الثالث.

- يسعدني أن أحوالها على ما يرام.

- سوف تستوفي متطلبات عملها بنهاية الشهر، لكنها قررت المكوث هناك حتى نهاية العطلة الصيفية. تقول إن الإكramيات جيدة جدًا.

- هل طلبت منها صورة الرجل الذي سيصبح زوجها السابق قريبًا؟

- قُبيل مغادرتها. قالت إنها ليست لديها صورة له. وتظن أن والديها

ربما لديهما عدة صور، لكنها رفضت مراسلتها بهذا الشأن. قالت

إنهما لن يسلمًا أبدًا بحتمية انتهاء الزواج، وإنها بطلبها الصورة

ستمنحهما أملًا زائفًا. وقالت أيضًا إنها ترى أنك بالغت في ردة

فعلك. "بالغ بجموح" كانت العبارة التي استخدمتها.

بدا لي ذلك مثل كلام حبيبتي سَيدي فعلًا. إلا أنها لم تعد حبيبتي.

صارت مجرد أيتها النادلة، اجلبي لي كأسًا أخرى... وانحني أكثر هذه

المرة. كل رجل يغار، واشتدت غيرتي في ذلك اليوم الرابع من يوليو.

- جورج... لا شك لدي في أنها ما زالت مهتمة بك، وربما لم يفت

الأوان على تسوية الأمور بينكما.

فكرت بليّ أوزوالد، وتذكرت أنه لن يحاول قتل الجنرال إدوين ووكر

قبل تسعة أشهر. وقلت: «ما زال الوقت مبكرًا».

- أستمحك عذرًا، ماذا؟

- لا شيء. سررت بالحديث معك يا إيلين، لكن في أي لحظة الآن

سيدخل عامل الهاتف في الخط ويطالبني بمزيد من النقود، ولم

تعد معي أي نقود معدنية.

- لا أظنك ستستطيع المجيء لتناول برغر ومخفوق حليب، هل

تستطيع؟ سنلتقي في المطعم. إذا كان بإمكانك المجيء سأدعو

ديكي سيمونز للانضمام إلينا، يسأل عنك كل يوم تقريبًا.

فكرة العودة إلى جودي ومقابلة أصدقائي من المدرسة الثانوية كانت على الأرجح الأمر الوحيد الذي يمكن أن يبهجني في ذلك الصباح.

- بالتأكيد. هل يناسبك مساء اليوم؟ ألن يكون مبكرًا؟ فلنقل عند الخامسة.

- ممتاز. نحن الريفيين نتناول طعامنا مبكرًا.

- حسنًا، سأتي. وسأدفع أنا الحساب.

- سأقتسمه معك.

11

كان آل ستيفنز قد شغل معه فتاة أعرفها من صف اللغة الإنجليزية في مجال التجارة والأعمال، تأثرتُ بهلُّل أساريها عندما رأت الجالس مع إيلين وديكي: «أستاذ أمبرسون! عجبًا! سررتُ برؤيتك! كيف حالك؟». قلت: «بخير يا دوري».

- حسنًا، اطلب وجبة كبيرة، نقص وزنك.

قالت إيلين: «صحيح. تحتاج إلى رعاية جيدة».

لاحظتُ أن سُمرة ديكي المكسيكية قد تلاشت، فاستنتجتُ أنه يمضي معظم أيام تقاعده داخل منزله، وأن مقدار الوزن الذي فقدته كسبه هو. صافحني بقبضة قوية وعبر لي عن مدى سعادته برؤيتي، لم ألاحظ تصنعًا منه، ولا من إيلين دوكرتي. قرار مغادرة هذا المكان والذهاب إلى شارع مرسيدس، حيث يحتفلون بالرابع من يوليو بتفجير الدجاج، بدأ يبدو لي جنونيًا، بصرف النظر عما كنت أعرفه عن المستقبل. تمنيت حقًا أن يستحق كينيدي العناء.

تناولنا همبرغر وشرائح بطاطس تغلي بالدهون، وفطيرة تفاح مع الآيس كريم. تحدثنا عن معارفنا وأحوالهم، وضحكنا من داني لافرتي،

الذي بدأ أخيرًا كتابة كتابه الذي سمعنا جعجعته كثيرًا. قالت إيلين إن الفصل الأول من كتابه، بحسب زوجته، عنوانه «هأنذا أدخل المعمة».

قريبًا من نهاية الوجة، وبينما يحشو ديكي غليونه بتبغ برنس ألبرت، رفعت إيلين جرابًا كانت قد وضعت تحت الطاولة وأخرجت منه كتابًا ضخماً. مرَّته نحوي فوق بقايا وجبتنا الدهنية قائلة: «صفحة تسعة وثمانين. احترس من بركة الكاتشب البشعة هذه من فضلك، هذا الكتاب مستعار بشروط مشددة، وأريد إعادته بحالته نفسها».

كان كتاب إحصاء سنوي اسمه تايفر تيلز، خاصًا بمدرسة أكثر رقيًا من ثانوية دنهولم الموحدة، غلافه مجلّد، وصفحاته سميكة ولامعة، وقسم الإعلانات بالخلف لا يقل عن مئة صفحة. المؤسسة التي يحتفي الكتاب بذكرها -أو بالأحرى يمجّدها- اسمها مدرسة لونغريس بسافنا. تصفحتُ قسم طلاب السنة الأخيرة البيض جميعًا وفكرت أنه ربما يوجد بينهم وجه أسود أو وجهان بحلول عام 1990. ربما.

قلت: «رباه، لا بد أن سيدي أنفقت كثيرًا عندما جاءت إلى جودي من هنا».

قال ديكي بهدوء: «أظنها كانت تستعجل المغادرة، ومتأكد أنها لديها أسبابها».

فتحت الصفحة رقم تسعة وثمانين. كانت بعنوان قسم العلوم بمدرسة لونغريس. وفيها صورة جماعية لأربعة أساتذة يرتدون معاطف معمل ويحملون دوارق تبدو فيها فقاعات. ترقَّبْتُ. رأيت بالأسفل أربع لقطات ستوديو. لم يبدُ على جون كلايتون أي شبه بليّ أوزوالد، لكن لديه الوجه نفسه الذي يسهل نسيانه، وشفتاه على طرفيهما غمازتان صغيرتان توحيان بابتسامة. هل كانت ابتسامة مرح طفيفة أم ازدراء مخفي بالكاد؟ كلا، ربما كانت أفضل تعابير استطاع الوغد المصاب بالوسواس القهري رسمها على وجهه عندما طالبه المصوّر بالابتسام.

الملاح المميّزة الوحيدة كانت تجويف الصدغين، اللذين يكادان يطابقان غمازتي طرفي شفتيه. لم تكن الصورة ملونة، لكن عينيه بدتا فاتحتين إلى درجة جعلتني أتأكد أنهما زرقاوان أو رماديتان.

أدرتُ الكتاب نحو صديقيّ وسألتهما: «أترى هذين التجويفين على جانبيّ رأسه؟ هل هما مجرد سمة طبيعية مثل الأنف المعقوف أو غمازة الذقن؟».

قالا: «لا» في الوقت نفسه تمامًا. كانا طريفيين.

قال ديكي: «من آثار الملقط، أُحدثُ عندما سئم طبيبٌ ما الانتظار وسحبه من بطن أمه. عادةً ما تختفي هذه الآثار، لكن ليس دائمًا. إذا لم يكن شعره خفيفًا على الجانبين لما لاحظتها إطلاقًا، أليس كذلك؟».

سألتُ: «ألم يأت إلى هنا ويسأل عن سيدي؟».

«لا». قالها بصوت واحد مرة أخرى. وأضافت إيلين: «لم يسأل أحد عنها باستثناءك يا جورج، أيها الأبله اللعين». ابتسمتُ كما يفعل الناس عندما يمزحون، ليس جدّيًا.

نظرتُ إلى ساعتِي وقلت: «أبقيتكما معي مدة طويلة بما يكفي يا رفاق، سأعود إلى منزلي».

قال ديكي: «أتود التمشي إلى ملعب كرة القدم قبل ذهابك؟ المدرب بورمان طلب إحضارك، إذا أمكنك. بدأ تدريب الفريق منذ الآن».

نهضت إيلين قائلة: «على الأقل يتدربون في جو المساء البارد. حمدًا للرب على ذلك. أتذكر إصابة فتى عائلة هاستنغ بضربة شمس قبل ثلاث سنوات يا ديكي؟ واعتقاد الناس في البداية أنه أصيب بأزمة قلبية؟».

قلت: «لا أستطيع تخيل سبب رغبته في رؤيتي، فأنا حوّلت أفضل مدافعيه إلى الجانب المظلم من الكون». خفضت صوتي هامسًا بصوت مبجوح: «الفنون المسرحية!».

ابتسم ديكي: «أجل، لكنك أنقذت آخر من احتمال استبعاده من اللعب في جامعة ألاباما. أو على الأقل هذا ما يظنه بورمان، لأن هذا ما قاله له جيم لادو يا بُني».

لوهلة لم تكن لدي فكرة عما يتحدث عنه، ثم تذكرت حفل سَيدي هوكِنز، وابتسمت. «كل ما فعلته هو أنني ضببطُ ثلاثة منهم يتبادلون قنينة خمر رديء، وقذفتها فوق السياج».

تلاشت ابتسامة ديكي وقال: «أحد أولئك الفتية كان فينس نولز. هل كنت تعرف أنه كان ثملًا عندما قاد شاحنته تلك؟».

قلت: «لا». لكن هذا لم يفاجئني. لطالما كانت السيارات والكحول كوكيتيلًا ذا شعبية في المدارس الثانوية، ومميًا أحيانًا.

- ألق لادو عن الشرب بسبب ذلك الحادث، وأيًا كان ما قلته لأولئك الفتية في الحفل.

سألتنِي إيلين: «ماذا قلت لهم؟». كانت تهتم بإخراج محفظتها من حقيبتها اليدوية، لكنني كنت مستغرقًا في ذكريات تلك الليلة فلم أجادلها بشأن الفاتورة. قلت: لا تفسدوا مستقبلكم. وجيم لادو، رغم عجرفته، عمل بنصيحتي. لا نعرف أبدًا أي حياة تؤثر فيها، أو متى، أو لماذا. لا نعرف إلى أن يطوي المستقبل الحاضر. نعرف عندما يفوت الأوان.

قلت: «لا أتذكر».

ذهبت إيلين لتدفع الفاتورة.

قلت لديكي: «قل للآنسة دوكرتي أن تحترس من ذلك الرجل في الصورة. أنت أيضًا. ربما لا يأتي، بدأت أظن أنني قد أكون مخطئًا، لكن ربما يأتي، وهو ليس شخصًا مُتزنًا».

وعدني ديكي بأنه سيفعل.

كدت ألا أذهب إلى ملعب كرة القدم. كانت جودي جميلة في ضوء ذلك المساء المبكر في يوليو، وأظن أن جزءاً مني أراد العودة إلى فورت وورث قبل أن أفقد إرادة العودة. أتساءل عن مدى ما كان ليتغير إذا صرفت النظر عن تلك الرحلة الجانبية؟ ربما لا شيء. وربما الكثير.

كان المدرب يُجري مناورتين أخيرتين أو ثلاثاً مع لاعبين مختارين من الفريق، بينما يجلس بقية اللاعبين على المقعد وقد نزعوا خوذاتهم والعرق يسيل على وجوههم. صاح المدرب: «أحمر اثنان، أحمر اثنان!». ثم رأى ديكي ورآني فرفع يده باسماً أصابعه: خمس دقائق. ثم استدار إلى الفريق الصغير المرهق في الملعب: «مرة أخرى! أريد رؤيتكم تتحسنون قليلاً أيها الكسيحون ما رأيكم؟».

نظرت إلى الجانب الآخر من الملعب، فرأيت رجلاً يرتدي معطفاً رياضياً يمشي رائحاً وغادياً بمحاذاة خط الملعب الجانبي، واضعاً سماعات على رأسه، ويحمل ما بدا كوعاء سَلْطَة. ذكّرني نظارته بشخص ما. في البداية لم أدرك القاسم المشترك، ثم أدركته: كان يشبه مايك مكيتشران الصامت. ساحري.

سألت ديكي: «مَن ذاك؟».

ضيّق ديكي عينيه وقال: «علي اللعنة إذا عرفته».

صفق المدرب بيديه وقال لهم أن يذهبوا للاستحمام، ثم جاء إلى المدرج وربّت ظهره: «كيف حالك يا شكسبير؟».

قلت مبتسماً بود: «خير حال».

قال: «شكسبير شكسبير، شبيه الخنزير. كنا نردها في صباننا». وضحك بجذل.

- ونحن كنا نقول: المدرب الثرثار، داس على صرصار.

بدا التشوش على المدرب بورمان: «حقاً؟».

قلت: «لا، أعابك فحسب». وتمنيت لو أنني استجبت لرغبتى الأولى وغادرت البلدة بعد العشاء. «كيف يبدو حال الفريق؟».

- أوه، إنهم فتية صالحون، سيبدلون قصارى جهدهم، لكن مستوانا لن يكون نفسه دون جيمي. هل رأيت اللوحة الإعلانة الجديدة هناك حيث يتفرّع الطريق رقم 109 من الطريق السريع رقم 77؟
- أظنني اعتدت رؤيتها إلى درجة عدم ملاحظة أي تغيير فيها.

- حسناً، ألقِ عليها نظرة في طريقك يا صديقي، فريق الدعاية أدى عملاً رائعاً، كادت أم جيمي أن تبكي عندما رأتها. سمعتُ أنني مدين لك بشكر لحثك ذلك الشاب على الإقلاع عن الشراب.

نزع قبعته المكتوب عليها الحرف م ومسح العرق عن جبينه بذراعه، واعتمر القبعة مرة أخرى وأطلق تنهيدة ثقيلة، وأردف: «على الأرجح أدين لذلك الشاب الرائع فينس نولز بشكر أيضاً، لكن وضعه في قائمة دعواتي أفضل ما أستطيع فعله».

تذكرتُ أن المدرب كان معمدانياً شديد الالتزام.

قلت: «لا داعي للشكر، أديتُ واجبي فحسب».

أحدّ النظر إلي وقال: «يجب أن تستمر في تأديته، لا أن تهدر وقتك على كتابٍ ما. آسف إذا وجدت في كلامي وقاحة، لكن هذا ما أراه».

قلت: «لا بأس». لم أر غضاضة في قوله حقاً. استلطفته أكثر لصراحته، وفي عالم آخر لربما كان محقاً. أشرتُ إلى الجانب الآخر من الملعب، حيث كان شبيه مايك الصامت يضع وعاء السلطة في صندوق فولاذي، وسماعته ما زالت حول عنقه. «مَن ذلك الشاب أيها المدرب؟».

شخر المدرب: «أظن اسمه هيل دَف، أو ربما كَيْل. إنه المراسل الرياضي في المحطة الإذاعية». كان يتحدث عن محطة إذاعة مقاطعة

دنهولم الوحيدة، إذاعة صغيرة تبث تقارير المزارع في الصباح، وتشغل الموسيقى الريفية في العصر، وموسيقى الروك بعد نهاية اليوم الدراسي. كان الفتية يستمتعون بالبرامج والفواصل الإعلانية بالقدر نفسه.

سأل ديكي: «ما هو جهازه الغريب ذلك أيها المدرب؟ هل تعرفه؟». قال المدرب: «أعرفه بالطبع. وإذا ظن أنني سأسمح له باستخدامه في أثناء بث مباراة، فلا بد أنه مخبول. أظن أنني أريد لكل من لديه مذياع أن يسمعني أصف فتياي بالمخنثين عندما يتراخون قليلًا؟». التفتُ إليه ببطء شديد وسألته: «ما الذي تتحدث عنه؟».

قال: «لم أصدقه في البداية، لذا جربتُ الجهاز بنفسي». ثم تابع بامتعاض شديد: «سمعتُ بوف ردفورديقول لأحد طلاب السنة الأولى إن خصيتَيَّ أكبر من دماغي!».

قلت: «حقًا؟». ازدادت ضربات قلبي ازديادًا ملحوظًا.

تذمر المدرب: «دَف قال إنه صنع الجهاز في مرأب منزله، وقال إنه عندما يعمل بطاقته القصوى يمكنك سماع ضربة قَط على بُعد مربع سكني. هذا هراء ومبالغة بالطبع، لكن ردفوردي كان على الجانب الآخر من الملعب عندما سمعتُ تعليقه المتحذلق».

رأيت المراسل الرياضي، الذي بدا لي في الرابعة والعشرين، يرفع صندوق أدواته الفولاذي ويلوِّح لنا بيده الأخرى. لوَّح المدرب له ثم تمتم: «يوم المباراة الذي أسمح بوجود ذلك الشاب في الملعب بذلك الشيء سيكون اليوم الذي أضع فيه ملصقًا داعمًا لكينيدي على سيارتي».

13

عندما وصلت إلى تقاطع شارعي 77 و 109 كان الظلام قد حلَّ تقريبًا، لكن القمر بدا كبيرًا برتقاليًا صاعدًا من الشرق، أتاح لي رؤية

اللوحة الإعلانة، كانت صورة جيم لادو، مبتسمًا حاملاً خوذته بيد وكرة قدم بالأخرى، وخصلات من شعره الأسود منسدلة فوق جبينه. وفوق الصورة كُتِب بحروف متألئة بالنجوم: تهانينا لجيم لادو، أفضل ظهير ربعي في الولاية في عامي 1960 و1961! حظًا موفقًا في ألاباما! لن ننساك أبدًا!

وبالأسفل كُتِب بحروف حمراء بدت كأنها تصرخ:

«جيملا!».

14

بعد يومين ذهبت إلى محل ساتلايت للإلكترونيات، وانتظرت ريثما باع مُضيفي ترانزستور بحجم آي باد لفتى يمضغ علكة، وعندما خرج (وهو يثبت سماعة الراديو الصغير في مكانها)، التفت مايك الصامت إليّ وقال: «ها هو السيد دو صديقي القديم، بماذا أخدمك اليوم؟». ثم خفض صوته إلى همس تأمري: «مزيدٌ من المصابيح المزودة بأجهزة تنصُّت؟».

قلت: «ليس اليوم. أخبرني، هل سمعتَ عن شيء اسمه ميكروفون متعدد الاتجاهات؟».

انفرجت شفتاه عن أسنانه راسمةً ابتسامة وقال: «يا صديقي، جئتُ مرة أخرى إلى المكان الصحيح».

الفصل الثامن عشر

1

أدخلت خط هاتف في منزلي، واتصلت أولاً بإيلين دوكرتي، وكان من دواعي سرورها إخباري بعنوان سيدي في رينو. قالت: «لدي رقم هاتف المسكن الجماعي الذي تعيش فيه، إذا أردته».

أردته بالطبع، لكن إذا حصلت عليه فسأستسلم للإغراء وأتصل. شيء ما أوحى لي بأن ذلك سيكون خطأ.

قلت: «العنوان فقط يكفي».

حالما أنهيتُ المكالمة كتبتُ لسيدي رسالة، ممتعضاً من نبرتها المتكلفة دون أن أعرف طريقة لتجاوز المشكلة. المكنسة اللعينة ما زالت بيننا. وماذا لو تعرفت سيدي هناك إلى ثري ذي مكانة ونسيتُ أمري تماماً؟ هل هذا ممكن؟ لعرفتُ قطعاً كيفية إبهاجه في الفراش، إذ كانت سريعة التعلم معي ورشيقة كما تكون على أرضية الرقص. هذه كانت الغيرة مجدداً، وأنهيتُ الرسالة مستعجلاً، مدرّكاً أنني على الأرجح بدوت كئيلاً لا مراعيًا. بذلت كل شيء لأتجاوز التصنع وأقول كلاماً صادقاً.

أفتقدك، ويغمرنني الأسف الشديد على الطريقة التي انتهت بها الأمور بيننا. لا أعرف كيف أعالج هذا الوضع الآن، لديّ مهمة عليّ تأديتها، ولن تنتهي إلا في

الربيع القادم. حتى عندئذٍ ربما لا تنتهي، لكن أظنها ستنتهي. آمل ذلك. أرجوك لا تنسيني. أحبك يا سيدي.

وَقَعْتُهَا.. جورج، وهذا بدا لي كأنه يمحو كل صدق أضفَيْتُهُ على الرسالة. وأسفل التوقيع أضفت: في حال أردتِ الاتصال بي، ورقم هاتفي الجديد. ثم سرت إلى مكتبة بنبروك ووضعت الرسالة في صندوق البريد الأزرق الكبير أمامها. هذا كان أفضل ما يمكنني فعله في الوقت الراهن.

2

كانت توجد ثلاث صور مثبتة في دفتر ملاحظات آل، مطبوعة من عدة مواقع إلكترونية. إحداها صورة لجورج دي موهرنشيلدت ببدلة رمادية مع منديل أبيض في جيب الصدر، كان شعره ممشطاً فوق حاجبه على النحو المقبول في ذلك الزمن. الابتسامة المرتسمة على شفثيه الغليظتين بدت رصينة. لم أر أثراً للجنون الذي سأراه عما قريب في شرفة المنزل رقم 2703 بشارع مرسيدس. أو ربما كان يوجد أثر، شيء في العينين الداكنتين، مسحة عجرفة، أو عدم اكتراث.

الصورة الثانية كانت لمخبأ مُطلق النار، المكوّن من صناديق الورق المقوى المخصصة للكتب، في الطابق السادس من مستودع الكتب المدرسية بتكساس.

والثالثة كانت لأوزوالد، مرتدياً ملابس سوداء، وممسكاً ببندقيته التي طلبها عبر البريد بيد ومجلّتين يساريتين باليد الأخرى، وفي حزامه المسدس الذي سيقتل به عند هروبه، إلّا إذا أوقفته، شرطي دالاس جيه دي تيبِت. هذه الصورة ستلتقطها مارينا قبل أقل من أسبوعين من محاولته قتل الجنرال ووكر. وموقع التقاط الصورة باحة مسوّرة لمبنى شقق بالرقم 214 في ويست نيلي بدالاس.

كنت أزور ويست نيلي 214 كثيرًا في أثناء انتظار انتقال أوزوالد إلى المنزل المقابل لمنزلي في شارع أوزوالد. دالاس كلها كانت مريعة بالتأكيد، لكن حي ويست نيلي أفضل قليلًا من شارع مرسيدس، كان هواؤه ننتًا بالطبع (ففي 1962 معظم وسط ولاية تكساس رائحتها كرائحة مصفاة نفط غير سليمة)، لكن ما من روائح براز وصرف صحي، والشارع سيئ لكنه مرصوف. وما من دجاج.

كان زوجان شابان يعيشان في الطابق الأعلى من المنزل رقم 214 عندئذٍ، وبعد رحيلهما ستنتقل إليه أسرة أوزوالد. لكنني كنت مهتمًا بالشقة التي في الطابق الأسفل، أردت أن أكون فيها عندما يسكن لي ومارينا وجون الطابق الأعلى.

في يوليو 1962 كانت شقة الطابق الأرضي يسكن فيها رجل وامرأتان، المرأتان بدينتان وبطيئتا الحركة وتفضّلان الفساتين المجددة بلا أكمام. إحداهن في الستينات من عمرها وتمشي بعرج ظاهر، والأخرى في أواخر الثلاثينات أو بداية الأربعينات، والشبه بين وجهيهما يوحي بأنهما أم وابنتها. أما الرجل فقد كان نحيلًا ومقعّدًا على كرسي مدولب، شعره أبيض خفيف، وفي حجره كيس بول معتكر متصل بأنبوب قسطرة سميك. يدخن دومًا، ولديه منفضة سجاير مثبتة على إحدى ذراعي الكرسي المدولب. في ذلك الصيف كنت أراه مرتديًا الملابس نفسها دومًا: سروال كرة سلة قصير يُظهر فخذه الضامرين حتى منفرجه تقريبًا، وتيشيرت بلا كُمّين أصفر كالبول في أنبوب القسطرة، وحذاء رياضي متماسك بالكاد بشريط لاصق، وقبعة رعاة بقر سوداء ضخمة برباط بدا كأنه من جلد الثعابين، وعلى الجزء الأمامي من القبعة سيفًا خيالة متقاطعان. تدفعه زوجته أو ابنته إلى المرجة بالخارج، حيث يقبع جالسًا تحت شجرة، ساكنًا كتمثال. بدأت أرفع يدي له محييًا في أثناء مروري به، لكنه لم يرفع يده قط، رغم أنه صار يعرف سيارتي. ربما كان يخشى الرد على تلويحي. ربما ظن أنه تحت رقابة

من ملك الموت، الذي يتجول في دالاس خلف عجلة قيادة فوردي ذات سقف متحرك بدلاً من حصان أسود. على نحوٍ ما أظن أن هذا الوصف ينطبق عليّ.

بدا لي أن أولئك الثلاثة يعيشون في منزلهم هذا منذ مدة طويلة. هل سيظلون فيه العام القادم عندما أحتاجُ إليه؟ لم أعرف. لم يذكر آل عنهم شيئاً في دفتر ملاحظاته. لم يكن بوسعي فعل شيء سوى المراقبة والانتظار.

أخذت جهازِي الجديد، الذي صنعه مايك الصامت بنفسه، وانتظرت رنين هاتفي. رن ثلاث مرات، وقفزت كل مرة لألتقط السماعة، مدفوعاً بالأمل. في مرتين كان المتصل إيلين، لتدردش فحسب، ومرة اتصل ديكي، ليدعوني للعشاء، وقبِلْتُ ممتناً. سيدي لم تتصل.

3

في الثالث من أغسطس، توقفت سيارة سيدان بيل إير موديل 58 أمام مدخل المنزل رقم 2703، وتبعَتْها كرايسلر لامعة. ترجَّل الأخوان أوزوالد من السيارة الأولى ووقفوا جنباً إلى جنب، دون كلام.

مددت يدي خلال الستار وفتحت نافذتي الأمامية قليلاً، فدخلت جلبة الشارع ونفحة هواء ساخن رطب، ثم ركضْتُ إلى غرفة النوم وجلبت جهازِي الجديد من تحت السرير. كان مايك الصامت قد أحدث فجوة أسفل وعاء لحفظ حرارة الطعام وألصق بداخله الميكروفون متعدد الاتجاهات، وأكد لي أنه أحدث طراز، لذا بدا بارزاً كإصبع. أوصلْتُ سِلْكي الميكروفون بمنفذ التوصيل خلف جهاز التسجيل. وكان يوجد منفذ أيضاً لسماعة أذن، زعم صديقي خبير الإلكترونيات أنها أيضاً من أحدث طراز.

اختلست النظر إلى الخارج فرأيت الأخوين أوزوالد يتحدثان مع الرجل الذي جاء راكبًا الكرايسلر، كان يعتمر قبعة ستيتسون، ويرتدي ربطة عنق رعاة بقر، وينتعل حذاء مبهرجًا. أفضل هندامًا من صاحب المنزل الذي استأجرته، لكن من الطينة نفسها. لم أحتج إلى سماع الحوار، فحركات الرجل وإيماءاته كانت تقليدية تسهل قراءتها. أعرف أن المنزل ليس رائعًا، لكنك لا تستطيع دفع مبلغ جيد، أليس كذلك يا صديقي؟ لا بد أنه صعب سماع ذلك على رجل كثير التّسفار مثل لي، يعتقد أنه على موعد مع الشهرة، حتى إذا لم ترافقها الثروة بالضرورة. كان يوجد مقبس كهربائي في لوح القاعدة جوار الجدار، أوصلت به جهاز التسجيل، أملًا ألا أعرض نفسي لصعقة أو أتلّف صمامًا كهربائيًا. أضاء زر جهاز التسجيل الصغير. وضعت السماعة في أذني وأدخلت الوعاء في الفرجة بين الستائر. إذا رفع الرجال بالخارج أبصارهم إلى الأعلى فسيضيّقون أعينهم بسبب الشمس، وبفضل الظل الذي يلقيه أفريز فوق النافذة فلن يروا شيئًا أو سيرون شيئًا أبيض ضبابيًا لن يستطيعوا تمييزه. ورغم هذا ذكّرت نفسي بتغطية الوعاء بشريط عازل. الاحتراز خيرٌ من الندم.

وبعد كل ذلك لم أستطع سماع شيء.

حتى جلبلة الشارع صارت مكتومة.

قلت مع نفسي: عظيم! اللعنة! هذا عظيم! شكرًا جزيلاً يا مايك

الص...

عندئذٍ لاحظت أن مفتاح التحكم بصوت يشير إلى صفر، وأدرته إلى نهاية الجانب الآخر عند علامة + فدوّت الأصوات في رأسي. نزعت السماعة من أذني لاعتنا، وأدرت مفتاح التحكم بالصوت إلى المنتصف، وحاولت مرة أخرى، فوجدت النتيجة رائعة، كأنني استعنت بمنظار مقرّب لأذني.

سمعتُ لي أوزوالد يقول: «ستون دولارًا في الشهر تبدو لي كثيرة يا سيّدي». (ونظرًا إلى أن أسرة تمبلتون كانت تدفع مبلغًا أقل بعشرة دولارات في الشهر، فقد بدا لي المبلغ كبيرًا فعلًا). تكلم أوزوالد بنبرة احترام مع مسحة لكنة جنوبية: «إذا كان بالإمكان الاتفاق على خمسة وخمسين...».

قال صاحب حذاء جلد الثعبان: «أحترم مَنْ يرغب في المساومة، لكن لا تكلف نفسك عناء المحاولة». كان يتأرجح للأمام والخلف بكعبيّ حذائه الكبيرين كأنه متوتر يستعجل المغادرة. «لا بد أن أحصل على المبلغ الذي أريده، سواء منك أم من غيرك».

تبادل لي وروبرت نظرة.

وقال لي: «يجدر بنا الدخول وإلقاء نظرة».

قال صاحب حذاء جلد الثعبان: «هذا منزل جيد في شارع عائلي. لكن ينبغي أن تتوخوا الحذر عند صعود الدرجة الأولى على سلم الشرفة، تحتاج إلى صيانة بسيطة. لدي منازل كثيرة، والناس يقسّون عليها. آخر أسرة استأجرت هذا المنزل كانت وضيعة».

قلت مع نفسي: حذار أيها الوغد، لا تتحدث بسوء عن أسرة آيفي.

ذهبوا إلى الداخل. انقطعت الأصوات، ثم عادت، خافتة، عندما مر صاحب حذاء جلد الثعبان أمام نافذة الصالة الأمامية، الصالة التي قالت آيفي إن الجيران على الجانب الآخر من الشارع يمكنهم رؤية ما يجري فيها، وقد كانت محقة بنسبة مئة في المئة.

سأل لي عما ينوي صاحب المنزل فعله بشأن ثقب الجدران. سأله دون نبرة استهزاء أو تهكّم في السؤال، ودون نبرة خضوع أيضًا، رغم كلمة سيّدي التي ينهي بها كل جملة، كانت تنم عن احترام وفي الوقت نفسه عن الصرامة التي تعلمها عندما كان في المارينز. أفضل عبارة لوصفه هي عديم اللون. لديه وجه وصوت رجل بارع في عدم لفت

الانتباه إليه. في الأماكن العامة على الأقل. مارينا هي التي رأت الوجه الآخر وسمعت الصوت الآخر.

قطع صاحب حذاء جلد الثعبان وعودًا فضفاضة، وجزم بأنه سيجلب فراشًا جديدًا لسرير غرفة النوم الكبيرة، بدلًا من الفراش الذي «سرقه المستأجرون الأخيرون عند رحيلهم». وأكّد بالفاظ واضحة أنه إذا لم يرغب لي في المنزل فسيستأجره شخص آخر (كأنما لم يكن المنزل خاليًا طوال سنة)، ثم دعا الأخوين لتفقّد غرفتي النوم. تساءلتُ عن مدى تقديرهم لجهود روزيت الفنية.

انقطعت أصواتهم، ثم سمعتها عندما وصلوا إلى منطقة المطبخ، وسررتُ برؤيتهم يمرون جوار مصباح بيزا المائل دون إعارته التفاتة. «...قبو؟». سأل روبرت.

أجاب حذاء جلد الثعبان: «لا يوجد قبو!». تكلم كأن عدم وجود القبو ميزة للمنزل. هذا ما ظنه على ما يبدو: «تندفق مياه كثيرة في مثل هذه الأحياء». فقدتُ الصوت مجددًا عندما فتح الباب الخلفي ليُريهما الباحة الخلفية، التي لم تكن باحة إطلاقًا بل مساحة خالية.

بعد خمس دقائق عادوا أمام المنزل، وهذه المرة حاول روبرت، الشقيق الأكبر، أن يساوم، لكن لم يحالفه النجاح. سأل روبرت: «هلّا أمهلتنا دقيقة؟».

نظر حذاء جلد الثعبان إلى ساعته المُطعّمة بالكروم، وسمحَ لهما: «لكن لدي موعدًا في شارع الكنيسة، لذا عليكما اتخاذ قراركما سريعًا». سار روبرت وليّ إلى مؤخرة سيارة روبرت. ورغم أنهما خفضا صوتهما حتى لا يسمعهما حذاء جلد الثعبان، سمعت معظم كلامهما عندما حرّكتُ الوعاء نحوهما. فضّل روبرت البحث عن منزل آخر، وقال لي إنه يريد هذا المنزل، لا بأس به كبداية.

قال روبرت: «هذا المنزل خَرِب، إنك تهدر...». أمواليك، على الأرجح.
وقال لي كلاً ما لم أتبيّنه، فتنهّد روبرت ورفع يديه مستسلماً. عادا إلى
حذاء جلد الثعبان، فصافح لي لوهلة وجيزة وامتدح حكمة اختياره، ثم
تلا نص أصحاب المنازل الروتيني: الشهر الأول، الشهر الأخير، وديعة
أضرار مُحتملة. عندئذٍ تدخل روبرت، رافضاً دفع وديعة أضرار إلى أن
تُصلح الجدران ويُجلب فراش جديد.

قال حذاء جلد الثعبان: «سأجلب الفراش بالتأكيد، وسأندبر إصلاح
درجة السلم حتى لا تلوي السيدة كاحلها. لكن إذا أصلحتُ الجدران، فلا
بد أن أرفع مبلغ الإيجار بمقدار خمسة دولارات».

كنت أعرف من دفتر ملاحظات آل أن لي سيستأجر المنزل، ورغم
هذا توقعتُ أن يرفض ويغادر، لكنه أخرج محفظة هزيلة من جيبه
الخلفي وأخذ منها بضع أوراق نقدية، حسَبها ووضع معظمها في يد
صاحب المنزل الممدودة، في حين عاد روبرت إلى سيارته وهو يهز
رأسه ممتعضاً. وقعت عيناه لوهلة وجيزة على منزلي بالجانب الآخر من
الشارع، لكنه لم ير ما يثير اهتمامه.

صافح حذاء جلد الثعبان لي مرة أخرى، ثم قفز في زيارته الكرايسلر
وانطلق بها مسرعاً، مُخلِّفاً غيمة من الغبار.

جاءت إحدى فتيات القفز على الحبل مندفعة على دراجة تزلج
صدئة، وسألت روبرت: «هل ستنتقل إلى منزل روزيت يا سيدي؟».

قال روبرت: «لا، هو من سينتقل». وأشار بإبهامه إلى شقيقه.
دفعْتُ دراجتها نحو لي وسألت الرجل الذي سوف يفجر جانب رأس
كينيدي الأيمن عما إذا كان لديه أي أطفال.

قال لي: «لدي فتاة صغيرة». وضع يديه على ركبتيه حتى ينخفض
إلى مستواها.

- هل هي جميلة؟
- ليست أجمل منك، وليست كبيرة مثلك.
- هل يمكنها القفز على الحبل؟
- لا يمكنها حتى المشي يا عزيزتي.
- قالت: «لا شأن لنا بها إذن». وانطلقت في اتجاه شارعٍ ونسكوت.
- استدار الأخوان نحو المنزل، فحَفَّتْ صوتهما قليلاً، لكنني رفعت الصوت على الجهاز، فاستطعتُ تبيُّن معظم ما قاله.
- قال روبرت: «هذا... حظيرة خنازير. عندما تراه مارينا لن تكف عن إزعاجك».
- قال لي: «سوف... رينا، لكن يا أخي، إذا لم... عن أُمي وتلك الشقة الصغيرة، فربما أقتلها».
- إنها... أحياناً. لكن... تحبك يا لي.
- سار روبرت بضع خطوات نحو الشارع، وانضم لي إليه، فأتتني أصواتهما واضحة كصوت جرس.
- أعرف، لكن هذا طبعها ولا تستطيع تغييره. قبل بضع ليال بينما أنا ورينا نفعلها، صاحت بنا من الأريكة، إنها تنام في صالة المعيشة، كما تعرف. صاحت: "تمهلاً أنتما الاثنان، ينبغي أن توجَّلا إنجاب آخر، انتظرا حتى تستطيعا تحمُّل تكاليف ما لديكم".
- أعرف. إنها صعبة أحياناً.
- وتشتري لنا أشياء باستمرار يا أخي، تقول إنها تشتريها لرينا، لكنها تقحمها في وجهي أنا.
- ضحك لي وسار عائداً إلى السيارة. وهذه المرة وقعت عيناه هو على المنزل رقم 2706، فبذلتُ كل ما بوسعي للوقوف ساكناً خلف الستائر، وإبقاء الوعاء ساكناً أيضاً.

انضم روبرت إليه، واستندا إلى المصد الخلفي. رجلان يرتديان قميصين أزرقين نظيفين وبنطالَي عمال. كان ليّ يضع ربطة عنق، وجذبها إلى الأسفل، وقال: «اسمع، ذهبت أُمي إلى محل لينارد بَرْدَرز وعادت بملابس كثيرة اشترتها لرينا، التقطت سروالًا قصيرًا واسعًا وكبيرًا جدًّا وقالت: "انظري يا ريني، أليس جميلًا؟"». كانت محاكاة ليّ للكنة والدته دقيقة إلى درجة قاسية.

سأله روبرت مبتسمًا: «وماذا قالت رينا؟».

قال ليّ: «قالت: "لا، يا ماموشكا، لا، أشكر، لكن لا أعجب، يعجب هكذا" ووضعتُ يدها على فخذها هكذا». وضع يده على منتصف فخذها. اتسعت ابتسامة روبرت وقال: «أراهن أن أُمي أعجبها ذلك».

- قالت: "يا مارينا، السراويل القصيرة تلك للفتيات اللاتي يستعرضن أنفسهن في الشوارع بحثًا عن الرجال، ليست للنساء المتزوجات". لا تخبرها عن مكان هذا المنزل يا أخي، لا تخبرها أبدًا. هل فهمت؟

لم يرد روبرت لبضع ثوان. ربما كان يتذكر يومًا باردًا في نوفمبر عام 1960: أمه تسير خلفه بمحاذاة شارع ويست سِفِنْث صائحة: "توقف يا روبرت، لا تسرع هكذا، لم أكمل كلامي معك!" ورغم أن آل لم يذكر في دفتره شيئًا عن الموضوع، لا أظنها ستترك ليّ وشأنه. لأن ليّ كان الابن الذي تهتم به حقًّا، طفل الأسرة المدلل، الذي كان ينام جوارها في السرير حتى بلغ الحادية عشرة، الذي احتاج إلى التفقّد مرارًا لرؤية ما إذا نما له شعر حول خصيتيه. هذه الأمور نُكِرَتْ في دفتر آل. وإلى جوارها، على الهامش، كتب كلمتين لا يتوقعهما المرء من طاهٍ: وَلَع هسْتيري.

- فهمتُ يا ليّ، لكن هذه ليست بلدة كبيرة. ستجدك.

- سأطردها إذا وجدتني. أوكد لك.

ركبا السيارة وانطلقا مبتعدَيْن. اختفت لافتة: للإيجار من حاجز الشرفة، أخذها معه صاحب منزل لي ومارينا الجديد عند مغادرته. سرْتُ إلى متجر الأدوات، واشترت شريطًا عازلاً وغطيت به الوعاء، من الداخل والخارج. عمومًا كان يومًا جيدًا، لكنني أدركتُ أنني دخلت منطقة الخطر.

4

في العاشر من أغسطس، قرابة الخامسة عصرًا، عاودتُ سيارة روبرت الظهور، وهذه المرة جاءت ساحبةً خلفها مقطورة خشبية. استغرق لي وروبرت أقل من عشر دقائق لحمل جميع ممتلكات لي إلى داخل المنزل الجديد. (توخّيا الحذر من لوح سلم الشرفة غير الثابت، إذ لم يُصلَح بعد). وفي أثناء عملية النقل وقفت مارينا في مرجة الحشائش حاملة جُون بذراعيها، ناظرةً إلى منزلها الجديد بتعابير ارتياح لا تحتاج إلى ترجمة. وهذه المرة ظهرت جميع فتيات القفز على الحبل، اثنتان جاءتا مشيًا، والأخرى جاءت وهي تدفع دراجتها. طالبن برؤية الرضیعة، واستجابت مارينا لهن مبتسمة.

سألت إحدى الفتيات: «ما اسمها؟».

قالت مارينا: «جُون».

ثم انهالت الأسئلة منهن جميعًا: «كم عمرها؟ هل تتكلم؟ لماذا لا تضحك؟ هل لديها دمية؟».

هزت مارينا رأسها، وهي ما تزال مبتسمة، وقالت: «آسفة، ما أعرف أتكلم».

انطلقت الفتيات راكضات وهن يصحن: «ما أعرف أتكلم، ما أعرف أتكلم!». إحدى الدجاجات الناجيات الصامدات في شارع مرسيديس

طارت زاعقة مبتعدة عن طريق الفتيات. وشاهدتهن مارينا يبتعدن وابتسامتها تتلاشى.

خرج لي إلى المرحلة ليقف معها. كان عاري الصدر، ويتعرق عرقاً غزيراً. بدت بشرته بيضاء كبطن سمكة، وذراعاها نحيلتين، أحاط بهما خصر زوجته، ثم انحنى وقبّل جون. توقعتُ من مارينا أن تشير إلى المنزل وتقول: لا أعجب، أنا لا أعجب، إذ تعرف هذه الكلمات الإنجليزية، لكنها ناولتُ لي الرضیعة وصعدت إلى الشرفة، فتعثرت لوهلة على درجة السلم المتقلقلة، ثم استعادت توازنها. خطرَ لي أن سيّدي كانت لتسقط على الأرجح، ثم تعرج طوال عشرة أيام إثر تورّم كاحلها.

وخطر لي أيضاً أن مارينا كانت تستعجل الابتعاد عن مارغريت بقدر استعجال زوجها.

5

العاشر من أغسطس كان يوم الجمعة، وفي يوم الاثنين، بعد نحو ساعتين من مغادرة لي لبدء يوم عمل آخر في تركيب أبواب الألمونيوم، توقفت سيارة بلون الوحل أمام المنزل رقم 2703، ترجلت مارغريت أوزوالد من مقعد الراكب قبل توقف السيارة تماماً. واليوم حل محل المنديل الأحمر آخرُ أبيض مرقط، لكن حذاء الممرضات كان نفسه، وكذلك تعابير الامتعاض والميل للشجار على وجهها. وجدّتهم، كما قال روبرت.

قلت مع نفسي: لطفك يا رب، لطفك يا رب.

كنت أنظر إلى الخارج عبر فرجة الستائر، لكن لم أر داعياً لتشغيل الميكروفون، فهذه قصة لا تحتاج إلى موسيقى تصويرية.

الصديقة التي أوصلتها بالسيارة كانت امرأةً بدينة، خرجت بصعوبة من خلف عجلة القيادة وحاولت تهوية عنق فستانها. كان اليوم لاهباً

من الصباح، لكن مارغريت لم تكثر، استعجلت سائقها إلى صندوق السيارة الخلفي، وبداخله كان يوجد كرسي عالٍ للرضيعة وكيس حاجيات بقالة، أخذت مارغريت الكرسي، وحملت صديقتها الكيس.

جاءت فتاة القفز على الحبل صاحبة دراجة التزلج، لكن مارغريت صدّتها بفضاظة. سمعت: «اغربي عن وجهي!». فركبت فتاة القفز على الحبل دراجتها مبتعدة وشفتها السفلى بارزة.

سارت مارغريت عبر المدخل الترابي الصلب، وبينما كانت تنظر شزراً إلى درجة السلم غير الثابتة، خرجت مارينا مرتدية بلوزة فضفاضة وسروالاً قصيراً من النوع الذي تراه السيدة أوزوالد غير لائق بالنساء المتزوجات. لم أفاجأ بتفضيل مارينا تلك السراويل القصيرة. كانت لديها ساقان رائعتان. ارتسم على وجهها الذعر، ولم أكن أحتاج إلى مكبر الصوت البدائي لسماعها.

قالت: «لا... يا ماموشكا، أمي، ماموشكا لا! لي يقول لا! لي يقول لا! لي يقول...». ثم تحولت إلى الروسية وهي تحاول التعبير عما قاله زوجها بالطريقة الوحيدة التي تعرفها.

مارغريت أوزوالد كانت إحدى الأمريكيين الذين يظنون أن الأجانب يمكنهم فهم الكلام إذا تكلم المرء معهم ببطء... وبصوت عالٍ جداً: «أجل... لي... ذو... كبرياء!». صعدت إلى الشرفة (متفادياً درجة السلم المتقلقلة بمهارة) وتكلّمت مباشرة في وجه زوجة ابنها المذعورة: «لا... بأس... بذلك... لكن لا... يجوز له... أن يجعل... حفيدتي... تدفع... الثمن!».

كانت لحيمة، ومارينا رشيقة غضة القوام. دخلت «ماموشكا» دون تردد، فأعقب دخولها صمت وجيز، ثم صياح بحّارة.

- أين حفيدتي الحلوة؟

في مكانٍ ما بداخل المنزل، على الأرجح في غرفة روزيت القديمة، بدأت جُون العويل.

ابتسمت المرأة التي أوصلت مارغريت بالسيارة لمارينا ابتسامة يشوبها التردد، ثم دخلت بكيس البقالة.

6

جاء ليّ ماشياً عبر شارع مرسيدس من محطة الحافلات عند الخامسة والنصف، ووعاء غداء أسود يرتطم بفخذه. صعد السلم، ناسياً الدرجة المتقلقة، فتحرّكت وأفقده توازنه وسقط منه الوعاء، ثم انحنى ليلتقطه.

قلت مع نفسي: هذا سيحسّن مزاجه.

دخل إلى المنزل. شاهدته يعبر صالة المعيشة ويضع الوعاء على طاولة المطبخ، التفت فرأى الكرسي الجديد. كان من الواضح أنه يعرف طريقة عمَل أمّه، لأن خطواته التالية كانت فتح الثلاجة الصدئة. وكان ما يزال ينظر إلى محتويات الثلاجة عندما خرجت مارينا من غرفة الرضیعة، وعلى كتفها حفاض أتاح لي منظاري رؤية تلتطّخه.

تكلّمت معه، مبتسمة، والتفت إليها. كانت بشرته فاتحة تتلوّن بسهولة، وعندئذٍ بدا وجهه العابس أحمر قانيًا حتى أطراف شعره الخفيف. بدأ يصيح بها وهو يشير بإصبعه إلى الثلاجة (بابها ما زال مفتوحًا ينفث بخارًا). استدارت مارينا لتعود إلى غرفة الرضیعة، فأمسك بها من كتفها وأدارها لتواجهه، وراح يهزها، فارتج رأسها للأمام وللخلف.

لم أرغب في مشاهدة هذا، ولم يكن ثمة سبب يدفعني لمشاهدته، إذ لا يضيف إليّ شيئاً أحتاج إلى معرفته. كان ليّ عنيفاً يلجأ للضرب، لكن مارينا ستنجو منه، وهذا ما لا ينطبق على جون كينيدي... والشرطي

تبيّت. لذا ما كان ينبغي أن أشاهد، لكن أحياناً يعجز المرء عن الإشاحة بعينه.

تجادلا، وبلا شك حاولت مارينا شرح أنها لا تعرف كيف وجدتهم مارغريت وأنها لم تستطع منع ماموشكا من دخول المنزل. وبالطبع في النهاية ضربها لي على وجهها، لأنه لا يستطيع ضرب أمه. حتى إذا كانت موجودة لما استطاع أن يرفع يده عليها.

بكت مارينا بصوت عالٍ، فتركها. تكلمت معه بانفعال، ويداها ممدودتان. حاول الإمساك بإحداها لكنها صدّته بعنف. ثم رفعت يديها نحو السقف، وأنزلتهما، وسارت إلى الخارج عبر الباب الأمامي. همّ لي باللاحاق بها، لكنه غير رأيه. كان الأخوان قد وضعوا كرسيين قديمين على الشرفة، ارتمت مارينا على أحدهما. لاحظتُ خدشاً أسفل عينها اليسرى، وبدأ خدّها يتورّم، حدقتُ إلى الشارع، وإلى المنازل على الجانب الآخر، جانب منزلي، فأحسست بوخزة خوف وتأنيب ضمير رغم أن مصابيح صالة معيشتي مطفأة ومعرفتي أنها لا تستطيع رؤيتي. ومع هذا توخيت الحذر بالوقوف ساكناً، ومنظاري ملتصق بوجهي.

جلس لي إلى طاولة المطبخ وأسند جبينه إلى عِقبِي راحتي يديه، ولبث هكذا مدة، ثم سمع صوتاً وذهب إلى غرفة النوم الصغيرة، وخرج حاملاً جُون بين ذراعيه وهو يمسح ظهرها ويهدّئها. عادت مارينا إلى الداخل، فرأتها جُون ومدت يديها المكتنزتين. ذهبت مارينا إليهما وأعطاهما لي الرضیعة، وقبل أن تسير مبتعدة عانقها، وقفت ساكنة بين ذراعيه لحظة، ثم حرّكت الرضیعة حتى تعانقه بذراع واحدة. كان فمه محجوباً بشعرها، لكنني كنت شبه متأكد مما قاله: آسف بالروسية. لم يداخلني شك في أنه كان آسفاً حقاً. وسيكون آسفاً المرة التالية أيضاً، والمرة التي تليها.

ذهبت مارينا بجُون إلى غرف نوم روزيت السابقة، ووقف لي حيث كان للحظة، ثم ذهب إلى الثلاجة، وأخذ منها شيئاً وبدأ يأكله.

7

في وقت متأخر من اليوم التالي، حالما جلس لي ومارينا لتناول العشاء (وجُون مضجعة على أرضية الصالة وتركل بطانية)، جاءت مارغريت لاهثة من محطة حافلات شارع وينسكوت. وفي هذا المساء كانت ترتدي بنطالاً أزرق مؤسفاً، نظراً إلى عجيزتها الضخمة، وكانت تحمل كيساً قماشياً كبيراً، ظهر في أعلاه سقف بلاستيكي أحمر لبيت لعب للأطفال. سارت صاعدة سلم الشرفة (متفادياً الدرجة المتقلقلة بمهارة مرة أخرى)، ودخلت المنزل دون طرق الباب.

قاومتُ رغبتني في جلب ميكروفوني متعدد الاتجاهات، فهذا أيضاً مشهد لا حاجة لي بالاطلاع عليه، لكن مقاومتي انهارت. ما من شيء يثير الفضول كشجار عائلي. أظن ليو تولستوي قال هذا، أو ربما جوناثان فرانزن. بحلول الوقت الذي أوصلتُ فيه الجهاز بالكهرباء وصوّبته من خلال نافذتي المفتوحة نحو الجانب الآخر من الشارع، كانت المشادة على أشدها.

«...أن تعرفي مكاننا، لطلبتُ منهم إخبارك!».

قالت مارغريت بهدوء: «فادا أخبرتني، إنها فتاة طيبة». لم تكثرث بغضب لي المستعر أدنى اكتراث، وكانت تُخرج من كيسها أطباقاً متباينة الأشكال والأحجام على طاولة المطبخ بسرعة موزّع ورق في كازينو، ومارينا تحديق إليها ذاهلة تماماً. رأيت بيت اللعب على الأرضية، جوار بطانية الرضیعة، التي راحت جُون تركلها بساقيها وتجاهلته، بالطبع، فماذا ستفعل رضية عمرها أربعة أشهر ببيت لعب؟

قال لي: «أمي، عليك أن تدعينا وشأننا! عليك التوقف عن جلب الأشياء! أستطيع رعاية أسرتي!».

وأضافت مارينا كلامها الذي لا يسوى شيئاً: «ماموشكا، لي يقول لا». ضحكت مارغريت جذلة: «لي يقول لا، لي يقول لا». يا عزيزتي، لي يقول لا دومًا. هذا الصغير يقولها طوال حياته ولا تعني شيئاً. أمه تعتني به». قرصتُ خد لي، كما تفعل الأمهات مع أطفالهن المشاغبين الظرفيين. إذا حاولت مارينا فعل ذلك مع لي لقطع رأسها بلا شك.

في وقتٍ ما جاءت فتيات القفز على الحبل إلى المساحة القاحلة التي تسمى مرجة، وشاهدن الشجار بانتباه شديد كجمهور يشاهد مسرحية لشكسبير في عصره، وقوفًا بجانب خشبة المسرح. لكن في هي هذه المسرحية التي نشاهدها نحن ستخرج النمرة منتصرة.

- ماذا أعدت لك على العشاء يا عزيزي؟ هل كان شهياً؟

قال لي: «تناولنا يخنة. زاركوي. ذلك الرجل غريغوري أرسل كوبونات متجر شوب-رايت». تردد، وانتظرت مارغريت. «هل تريدان قليلاً يا أمي؟».

قالت مارينا بابتسامة أمل: «زاركوي حسناً جداً يا ماموشكا».

قالت مارغريت: «لا، لا أستطيع أكل أي شيء كذلك».

- أمي! إنك لا تعرفين حتى مكوناتها!

كأنها لم تسمعه قالت: «ستضطرب معدتي. كما لا أريد ركوب الحافلة العامة بعد الساعة الثامنة. هناك كثير من الرجال السكارى بعد الثامنة. لي، يا عزيزي، عليك بإصلاح درجة السلم تلك قبل أن تكسر ساقاً».

تمتم لي بكلام لم أتبينه، لكن مارغريت حوّلت انتباهها إلى أمر آخر، انحنت كما ينقضُّ عقابٌ على فأر حقول وحملتْ جُون. بمنظاري بدا لي الذعر واضحاً على وجه الرضيعة.

- كيف حال حلوتي الصغيرة الليلة؟ كيف حال عزيزتي؟ كيف حال ديفوشكتي الصغيرة؟

ارتعبت ديفوشكاها الصغيرة أيما رعب، وكادت أن تشق حلقها بالصراخ.

تحرك لي لأخذ الرضیعة، فتباعدت شفتا مارغريت كاشفة عن أسنانها، لم تكن ابتسامة بقدر ما كانت تكشيرة حيوان مفترس، ولا بد أن هذا ما بدا لابنها أيضاً، لأنه تراجع. وكانت مارينا تعض شفتها وعيناها متسعان ارتياحاً.

- أووو، جوني! جوني-موني-سبوني!

راحت مارغريت تذرع السجادة الخضراء المهترئة، متجاهلة نحيب جُون المتزايد كما تجاهلت غضب لي. هل كانت تقف على ذلك النحيب؟ هذا ما بدا لي. بعد برهة لم تعد مارينا قادرة على التحمل، فنهضت وذهبت إلى مارغريت، لكن الجدة ابتعدت محتضنة الرضیعة إلى صدرها. حتى من الجانب الآخر من الشارع أمكنني تخيل صوت حذائها الأبيض الضخم: كَلَد - كَلَمْب - كَلَد. تبعتها مارينا. وعندئذ سلّمت مارغريت الرضیعة، ربما شعرت بأنها أوضحت وجهة نظرها بما يكفي. أشارت إلى لي، ثم تكلمت مع مارينا بصوتها العالي: «زاد وزنه... عندما كنت تعيش معي... لأنني أصلحته... كل الأشياء التي يحبها... لكنه ما زال... نحيلًا... جدًّا!».

كانت مارينا تنظر إليها من فوق رأس الرضیعة، وعيناها ما زالتا متسعيتين. قلبت مارغريت عينيها في محجريهما، من نفاد صبرها أو اشمئزازها، وحدقت إلى مارينا مقتربة منها. كان مصباح بيذا المائل مضاءً، وانعكس الضوء على عدستي نظارة مارغريت الصغيرتين.

- أصلحي حاله... ما سيأكله!... لا... الزبادي! إنه... نحيل... جدًّا!

قالت مارينا متشككة: «نحيل». هداً نحيب جُون إلى شهقات تشوبها
غرغرة بعدما استكنتُ أمانة بين ذراعي أمها.

قالت مارغريت: «أجل!». والتفتت إلى لي: «أصلح درجة السلم!».
غادرتُ بعدها، لكنها توقفت لحظة لتطبع قُبلة مُدوية على رأس
حفيدتها. وعندما سارت عائدة إلى موقف الحافلات كانت مبتسمة،
وبدت أكثر حيوية.

8

في الصباح التالي لليوم الذي جلبت فيه مارغريت بيت اللعب،
استيقظتُ عند السادسة، وذهبتُ إلى الستائر واختلست النظر عبر
الفرجة دون أن أفكر. التجسس على المنزل المقابل صار عادة. رأيت
مارينا جالسة على أحد الكرسيين في الشرفة، تدخن سيجارة، وكانت
ترتدي بيجامة زهرية من قماش الرايون أكبر منها، وعلى عينها كدمة
جديدة، وقميص بجامتها ملطخ ببقع دماء. كانت تدخن ببطء، وعمق،
وتحديق إلى اللاشيء.

وبعد برهة عادت إلى الداخل وأعدت الإفطار، وسريعاً خرج لي
وأكله. لم ينظر إليها. كان يقرأ كتاباً.

9

كان لي قد قال لوالدته: *ذلك الرجل غريغوري أرسل كوبونات متجر*
شوب-رايت. ربما ليفسر لها وجود اللحم في اليخنة، أو لتعرف أن مارينا
ليست وحيدة بلا أصدقاء في فورت وورث، وهذا ربما فانت ملاحظته
على ماموشكا، لكنه لم يفت عليّ. بيتر غريغوري هو الحلقة الأولى في
السلسلة التي ستقود جورج دي موهرنشيلدت إلى شارع مرسيدس.

مثل دي موهرنشيلدت كان غريغوري مغترباً روسياً يعمل في مجال النفط، قادم من سيبيريا، وكان يدرّس اللغة الروسية مرة كل أسبوع في مكتبة فورت وورث. عرف لي بهذا وطلب موعداً ليستفسر عن إمكانية عمله مترجماً. أعطاه غريغوري اختباراً ووجد أن مستواه في اللغة الروسية «مقبول». لكن غريغوري في الحقيقة -مثل جميع المغتربين الروس- ولا بد أن لي نفسه أحس بهذا - كان مهتماً بمارينا بروساكوفا، الفتاة القادمة من منسك وبطريقة ما تمكنت من الإفلات من براثن الدب الروسي لتقع في براثن الفظ الأمريكي.

لم يُعيّن لي في الوظيفة. عيّن غريغوري مارينا، لتعطي ابنه بول دروس لغة روسية. كانت أسرة أوزوالد في أمس الحاجة إلى المال، وهذا أمر آخر أيضاً أثار امتعاض لي. كانت مارينا تعطي دروساً خاصة لفتى ثري مرتين في الأسبوع، ولي يكبح في تركيب أبواب الألمونيوم.

صباح اليوم الذي شاهدت فيه مارينا تدخن في الشرفة، جاء بول غريغوري بسيارته البيويك الجديدة، وقد بدا لي وسيماً وقريباً من مارينا في السن. طرق الباب، وفتحته مارينا، وعلى وجهها مكياج كثيف ذكّرني ببوبي جيل. أعطته مارينا الدرس في الشرفة، إما لإدراكها تسلّط لي، وإما لأن هذه هي قواعد اللياقة التي تعلّمتها في ديارها. استمر الدرس ساعة ونصف. وكانت جُون مستلقية بينهما على بطانيتهما، وعندما تبكي كانا يتبادلان حملها وتهدئتها. مشهد جميل وبسيط، لكن على الأرجح لما رآه السيد أوزوالد على هذا النحو.

قراءة الظهر توقف والد بول بسيارته خلف البيويك، ومعه رجلان وامرأة. جلبوا معهم مشتريات البقالة. عانق غريغوري الكبير ابنه، ثم قبّل مارينا على خدها (الخد غير المتورم). تحدثوا بالروسية كثيراً. خبا غريغوري الصغير، لكن مارينا تألّقت، أضاءت كلافته نيون، دعّتهم إلى الداخل، وجلسوا في الصالة يحتسون الشاي المثلج ويتحدثون. تطايرت

يدا مارينا كعصافير متحمسة، وانتقلتُ جون من يد إلى يد ومن حجر إلى حجر.

تملّكني العجب. لقد وجد مجتمعُ المهاجرين الروس الفتاة-المرأة التي ستصبح محبوبتهم الأثيرة. كيف عساها ألا تكون؟ شابة، وغريبة في بلاد غريبة، وجميلة. بالطبع صادم أن الجميلة متزوجة بالوحش، شاب أمريكي معتد بنفسه يضربها (أمر سيئ)، ولديه إيمان راسخ بنظام اقتصادي اجتماعي يرفضه هؤلاء المنتمون إلى الطبقة الوسطى رفضًا باتًا (أمر أسوأ).

ومع هذا كان لي يقبل، بغضب أحيانًا، حاجيات البقالة التي يجلبونها، وعندما جاؤوا بقطع أثاث، سرير جديد ومهد وردي زاهٍ للرضيعة، قبلها أيضًا. كان يأمل أن ينتشله الروس من الوهدة التي هو فيها، لكنه لم يستلطفهم، وبحلول وقت انتقاله مع أسرته إلى دالاس في نوفمبر 1962، لا بد أنه عرف أن الروس لا يستلطفونه بالقدر نفسه. ولا بد أنه لم يستغرب نفورهم منه. فهو نقي أيديولوجيًا، وهم جبناء تخلّوا عن "روسيا الأم" عند ضعفها عام 1943، ولعقوا أحذية الألمان ثم فروا إلى الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب، وسرعان ما تبنّوا أسلوب الحياة الأمريكية... التي يراها لي تتمثل في استعراض القوة العسكرية واضطهاد الأقليات واستغلال العمّال والفاشية المستترة.

كنت أعرف بعضًا من هذا من دفتر ملاحظات آل، ومعظمه رأيته يحدث في خشبة المسرح على الجانب الآخر من الشارع، أو استنتجتُه من النقاش المهم الوحيد الذي التقطه جهاز تنصتي وسجّله.

10

مساء يوم سبت الخامس والعشرين من أغسطس، ارتدت مارينا فستانًا أزرق جميلًا، وألبستُ جون ثوبًا فضفاضًا من قماش قطني عليه

زهور مطرزة بالأمام. وخرج ليّ، والمرارة بادية على وجهه، من غرفة النوم مرتديًا ما بدا لي أنها بدلته الوحيدة، بدلة صوفية مضحكة قليلًا لا بد أنه جلبها من روسيا. كانت ليلة حارة، وتخيلتُ أن ليّ سيبتل بالعرق قبل نهايتها. سارا بحذر هابطين سلم الشرفة (الدرجة المتقلقلة لم تُصلَح بعد)، واتجهوا نحو موقف الحافلات. ركبْتُ سيارتي وقُدْتُ إلى تقاطع شارعي مرسيدس وونسكوت، رأيتهم واقفين جوار عمود الهاتف المخطط بالأبيض، ويتجادلان، بالطبع. ثم جاءت الحافلة، وركبتُ أسرة أوزوالد. تبعْتُهم، تمامًا كما تبعْتُ فرانك دنغ في ديري.

التاريخ يعيد نفسه، طريقة أخرى لقول إن الماضي يتناغم مع نفسه. نزلوا من الحافلة في حي سكني في الجانب الجنوبي من دالاس. ركنتُ السيارة وشاهدتهم يسIRON إلى منزل عمارة تيودورية مشيدة من الحجر والخشب، صغيرة لكنها جميلة. وبدأت المصابيح التقليدية عند نهاية الممشى متوهجة توهجًا طفيفًا في ضوء الغسق. ما من حشائش غير مرغوبة في هذه المرجة. كل ما في المنزل بدا أنه يصيح: أمريكا مُجزية. تقدمتُ مارينا إلى المنزل والرضيعة بين ذراعيها، وتأخر ليّ خلفها قليلًا، ظاهرًا عليه عدم تناسُب جسده مع بدلته التي تتدلى سترتها إلى خلف ركبتيه تقريبًا.

دفعت مارينا ليّ أمامها وأشارت إلى الجرس. ضغط ليّ الجرس. وخرج بيتر غريغوري وابنه، وعندما مدت جُون يديها لبول، ضحك الشاب وأخذها. ارتعشت شفتا ليّ وانعقفتا إلى الأسفل عندما رأى هذا.

ثم خرج رجل آخر. رأيتُه مع المجموعة التي جاءت في اليوم الأول لدرس بول غريغوري عند مارينا، وقد جاء إلى منزل أوزوالد بعدها ثلاث أو أربع مرات، كان يجلب حاجيات البقالة أو ألعاب لجون، أو كليهما. وأظن اسمه جورجي بوهي (أجل، جورج آخر. الماضي متناغم من كل النواحي)، ورغم أنه ناهز الستين من عمره، فقد بدا مولعًا بمارينا.

وبحسب الطباخ الذي جرّني إلى هذا العالم، كان بوهي هو من أقنع بيتر غريغوري بإقامة حفل التعارف. لم يحضر جورج دي موهرنشيلدت، لكنه سيسمع بالحفل بعد وقت قصير. سيخبر بوهي دي موهرنشيلدت عن علاقة أوزوالد ومارينا الزوجية الغريبة، وسيخبره أيضًا بأن لي أوزوالد أثار الجدل في الحفل، بامتداحه الاشتراكية والمجتمعات الروسية. سيقول بوهي: ذلك الشاب يبدو لي مجنونًا. فيقرر دي موهرنشيلدت، وهو مولع بكل ما هو جنوني طوال حياته، أن يقابل بنفسه هذين الزوجين الغريبين.

لماذا انفجر أوزوالد في حفل بيتر غريغوري وأهان مهاجرين ذوي نوايا طيبة ولربما ساعدوه؟ لم أعرف على وجه التأكيد، لكن كوّنتُ فكرة جيدة. هناك مارينا، تسحر جميع الحضور (لا سيما الرجال) بفستانها الأزرق. وهناك جُون، جميلة بملابس الزهور المطرزة. ثم هناك لي، متعرقًا بداخل بدلته القبيحة. قدرته على مجارة المتحدثين بالروسية كانت أفضل من قدرة بول غريغوري الشاب، لكن رغم هذا كان يتخلف عنهم. أظنه كان حانقًا من اضطراره إلى أن يتملّق أولئك الناس ويكون مدينًا لهم. أملُ أنه أحس بالإذلال. أملُ أنه تألّم.

لم أمكث جوار المنزل طويلًا. كنت مهتمًا بدي موهرنشيلدت، الحلقة التالية في السلسلة. عما قريب سيظهر على المسرح. عندئذٍ كان أفراد أسرة أوزوالد الثلاثة خارج المنزل رقم 2703 أخيرًا، وسيظلون بالخارج حتى العاشرة على الأقل، وربما حتى ساعة متأخرة، نظرًا إلى أن اليوم التالي يوم أحد.

قُدْتُ سيارتي عائداً لأشغل جهاز التنصت في صالة معيشتهم.

كان شارع مرسيدس يضج باحتفال في مساء يوم السبت ذاك، لكن وجدتُ الساحة التي خلف منزل أوزوالد صامتة ومهجورة. ظننتُ أن مفتاحي سيفتح الباب الخلفي كما فتح الأمامي، لكن لم أضطر إلى التأكد من ظني، لأن الباب الخلفي لم يكن موصدًا. في أثناء إقامتي في فورت وورث لم أستخدم قَط المفتاح الذي اشتريته من آيفي تمبلتون. الحياة مليئة بالمفارقات.

وجدتُ المنزل مرتبًا غاية الترتيب. الكرسي العالي بين مقعدي والوالدين عند الطاولة الصغيرة في المطبخ حيث يتناولون وجباتهم، والصينية نظيفة لامعة، وكذلك سطح الطاولة الأخرى وحوض الغسل بأطرافه الصدئة. راهنت مع نفسي أن مارينا تركت رسوم فتيات روزيت كما كانت ودخلتُ إلى الغرفة التي صارت غرفة جُون. أجل، وجدتُ فتيات روزيت كما كن، لكن في الظلام بدت لي الرسوم شبحية مخيفة. على الأرجح تنظر جُون إليها وهي مستلقية في مهدها وتمص دُميتها. تساءلتُ عما إذا كانت ستتذكرها لاحقًا إثر استحضارها من أعماق ذاكرتها. فتيات كريولا الشبحيّات.

جيملا. خطرت لي الكلمة دون أي سبب، فارتعدتُ.

حرّكتُ المكتب، وأوصلت سلك التسجيل بمقبس المصباح، وأدخلته عبر فجوة أحدثتها في الجدار. بدا كل شيء على ما يرام. لكن عندئذٍ مررت بلحظة سيئة. سيئة جدًا. عندما حرّكتُ المكتب لأعيده إلى مكانه، ارتطم بالجدار فهوى مصباح بيذا المائل من حافة المكتب. إذا أتيح لي الوقت لأفكر، لتسمّرتُ في مكاني ولتشطّى المصباح اللعين على الأرضية. وماذا بعد؟ أنزع جهاز التنصت وأترك قطع المصباح المكسرة؟ آمل أن أصحاب المنزل سيتقبّلون فكرة أن المصباح، المائل بدايةً، سقط وحده؟ معظم الناس قد يصدقون هذا، لكن معظم الناس ليس لديهم

سبب للارتياح من مكتب التحقيقات الفدرالي. ربما يعثر لي على الثقب الذي أحدثته في الجدار. وإذا عثر عليه، فستفرد الفراشة جناحيها. لكن لم أفكر. التقت المصباح قبل وصوله إلى الأرضية. ثم لبثت واقفاً، أرتجف ممسكاً به، كان ساخناً كفرن في المنزل الصغير، وشممت نتانة عرقي. هل سيشمونها عندما يعودون إلى المنزل؟ كيف لا يشمونها؟

تساءلت عما إذا أصبت بالجنون. بالتأكيد كان التصرف الذكي هو نزع جهاز التنصت... ومغادرتي أنا نفسي. ثم أستأنف مراقبة أوزوالد في العاشر من أبريل في العام التالي، وأتابعه وهو يحاول اغتيال الجنرال إدوين ووكر، وإذا وجدته وحده، أقتله كما قتلت فرانك دننغ. هكذا ببساطة. لماذا بحق السماء كنت أعبت بمصباح مزود بجهاز تنصت بينما مستقبل العالم في خطر؟

أجابني آل تمبلتون: أنت هنا لأن نافذة عدم اليقين ما زالت مفتوحة. أنت هنا لأنه إذا اتضح أن جورج دي موهرنشايلت ليس ما يبدو عليه، فإن أوزوالد لم يكن الفاعل. أنت هنا لإنقاذ كينيدي، والحرص على إنقاذه يبدأ الآن. لذا أعد المصباح اللعين إلى مكانه.

أعدت المصباح اللعين إلى مكانه، لكن عدم ثباته أقلقني، ماذا لو ارتطم لي نفسه بالمكتب ورأى جهاز التنصت عندما ينكسر المصباح؟ أو ماذا لو تحدث لي ودي موهرنشايلت في هذه الصالة لكن المصباح مطفاً وتحدثا بصوت خفيض لا يلتقطه ميكروفوني بعيد المدى؟ عندئذ سيكون كل ما فعلته بلا جدوى.

لن تنجح في إعداد عجة بالتفكير بهذه الطريقة يا صاح.

اقتنعت إثر تفكيري بسَيدي. أحبها وتحبني، أو على الأقل كانت تحبني، وأنا تخلّيت عن حبنا لآتي إلى هذا الشارع القذر. لن أغادر ما لم أسمع ما سيقوله جورج دي موهرنشايلت.

خرجتُ عبر الباب الخلفي، وبمصباح صغير مثبت بين أسناني
أوصلتُ السلك بجهاز التسجيل. ثم وضعت جهاز التسجيل في علبة
طعام صدئة ماركة كرسكو لحمايته من عوامل الطقس، وأخفيت العلبة
في فجوة بين قرميد وألواح أعدتها سلفاً.

ثم عدتُ إلى منزلي القذر في ذلك الشارع القذر وبدأت الانتظار.

12

لم يكن أوزوالد وزوجته يستخدمان المصباح إلا بعد هبوط الظلام
تماماً. أفترض لتقليل فاتورة الكهرباء. كما كان لي رجلاً عاملاً، يخلد إلى
الفراش مبكراً، وترافقه زوجته بالطبع. عندما تفقّدتُ شريط التسجيل
أول مرة، سمعتُ كلاماً معظمه بالروسية، وبطيء نظراً إلى بطء سرعة
جهاز التسجيل. كان لي يوبخ مارينا عندما تحاول التكلم بالمفردات
الإنجليزية التي تتعلمها، لكنه أحياناً يتحدث إلى جون بالإنجليزية عندما
تكون نزقة، بنبرات بطيئة مهدئة، وأحياناً يغني لها. التسجيلات البطيئة
جداً جعلته يبدو مثل غول يحاول غناء "روكاباي بيبي".

سمعته يضرب مارينا مرتين، وفي المرة الثانية لم تكن الروسية
كافية للتعبير عن غضبه. «أيتها العاهرة عديمة القيمة! أظن أُمي كانت
محقة بشأنك». وأعقب هذا الكلام صفع باب، وصوت بكاء مارينا،
وانقطع فوراً حالما أطفأت المصباح.

مساء الرابع من سبتمبر رأيت صبيّاً، في الثالثة عشرة تقريباً، جاء إلى
باب أوزوالد حاملاً كيساً قماشياً على كتفه. فتح لي الباب حافياً ومرتبداً
تيشيرت وبنطال جينز. تحدثا، ودعاه لي للدخول، ثم تحدثا مجدداً، وفي
مرحلة ما التقط لي كتاباً وعرضه على الصبي، فأخذه متشككاً. تعذر
عليّ استخدام ميكروفوني، لأن الطقس صار بارداً وأغلقت النوافذ هناك.
لكن مصباح بيزا المائل كان مضاءً، وعندما استعدتُ الشريط الثاني

في وقت متأخر من الليلة التالية، حظيتُ بحوار مُسلٍّ. عندما شغلت التسجيل المرة الثالثة سمعت الأصوات البطيئة الممطوطة.

كان الصبي يبيع اشتراكات صحيفة، أو ربما كانت مجلة، اسمها غرت. قال لأوزوالد وزوجته إن الصحيفة تحتوي على مواضيع مشوقة لا تهتم بها صحف نيويورك (أسماءها «أخبار الريف»)، بالإضافة إلى الرياضة ونصائح البستنة، وأيضًا ما سمّاه بـ «القصص الخيالية» وقصص الرسوم المصورة. قال لهما: «لن تجدوا ديكسي دوغان في صحيفة تايمز هيرالد. أمي تحب ديكسي».

قال لي: «حسنًا يا بُني، جميل، إنك رجل أعمال صغير بارع، ألسنت كذلك؟».

- امم... بلى سيّدي.

- أخبرني كم تكسب من المال.

- أربعة سنتات من كل دايم، لكن هذا ليس ما يهمني يا سيّدي، بل أحب الجوائز، إنها أفضل بكثير من الجوائز التي يحصل عليها آخرون من بيع مجلة كلوفرين سليف. سحقًا لذلك، سأشتري بندقية 22! أبي سمح لي بشرائها.

- هل تعرف أنك تتعرض للاستغلال يا بُني؟

- هه؟

- هم يأخذون النصيب الأكبر، ويلقون لك الفتات ووعداً ببندقية.

قالت مارينا: «لي، هو صبي لطيف. كُن لطيفًا. دع شأنه».

تجاهلها: «ينبغي أن تعرف فحوى هذا الكتاب يا بُني. هل يمكنك قراءة الغلاف؟».

- أوه نعم سيّدي. مكتوب "حالة الطبقة العاملة"، تأليف فريد-

ريك... إنج-جالز؟

- إنجلز. الكتاب يتناول ما يحدث للصبيان الذين يظنون أنهم سيصبحون مليونيرات ببيع الأشياء بالتنقل من باب إلى باب.
- لا أريد أن أصبح مليونيرًا، أريد بندقية 22 فحسب حتى أقنص الجرذان في مكب النفايات مثل صديقي هانك.
- إنك تكسب سنتات قليلة من بيع صحيفتهم، وهم يكسبون دولارات من بيع عَرَقك، وعرق مليون طفل مثلك. السوق الحرة ليست حرة، يجدر بك أن تتقّف نفسك يا بُني. أنا ثقفت نفسي، وبدأت عندما كنت في مثل سنك.
- ألقي لي على صبي غرت محاضرة مدتها عشر دقائق عن شرور الرأسمالية، مُدعّمة باقتباسات مختارة من كارل ماركس. استمع الصبي إليه بصبر، ثم سأله: «إذن هل ستشتري الاشتراك؟».
- يا بُني، هل استمعت إلى كلمة واحدة مما قلته لك؟
- نعم سيدي!
- إذن ينبغي أن تعرف أن هذا النظام سرق ويسرق مني كما يسرق منك ومن أسرتك.
- هل أنت مفلس؟ لماذا لم تقل هذا فحسب؟
- ما أحاول فعله هو أن أفسر لك سبب إفلاسي.
- رباها! لأمكنني محاولة البيع في ثلاثة منازل أخرى. الآن عليّ العودة إلى منزلي لأن وقت الحظر اقترب!
- قالت مارينا: «حظًا طيبًا».
- فُتِح الباب بصريير من مفاصله القديمة، ثم خشخش عند إغلاقه (أعجزه الإرهاق عن إصدار صوت خبط). ساد صمت طويل. ثم قال لي بنبرة رتيبة: «هل ترين؟ هذا ما نواجهه».
- وبعدها بوقت قصير أطفئ المصباح.

13

ظل هاتفي الجديد صامتًا معظم الأيام. اتصل ديكي مرة، وكانت إحدى المكالمات القصيرة للاستعلام عن الأحوال العامة، بدافع الواجب فحسب. قلت لنفسي إنني ينبغي ألا أتوقع أكثر من هذا، فقد استؤنفت الدراسة، والأسابيع الأولى دائمًا ما تكون فوضوية. كان ديكي مشغولاً لأن إيلين أعادته من التقاعد. أخبرني بأنه، بعدما تدمر قليلاً، سمح لها بإدراج اسمه في قائمة الأساتذة البدلاء. ولم تتصل إيلين لأنها مشغولة بخمسة آلاف شيء وعلى الأرجح خمسمئة مشكلة عليها تسويتها.

لم أدرك إلا بعدما أنهى ديكي المكالمة أنه لم يأت على ذكر سيدي... وبعد ليلتين من محاضرة لي التي ألقاها على صبي بيع الصحف، رأيت أنني لا بد أن أتحدث معها، لا بد أن أسمع صوتها، حتى إذا لم تقل لي سوى: أرجوك لا تتصل بي يا جورج، انتهت علاقتنا.

وحالما مددت يدي إلى الهاتف، رن. فرفعت السماعة وقلت بثقة تامة: «مرحباً سيدي، مرحباً عزيزتي».

14

مرت لحظة صمت طويلة جعلتني أظن أنني أخطأت، وأن شخصاً ما سيقول: لست سيدي، إنني مجرد أخرق أدخل الرقم الخطأ. ثم قالت: «كيف عرفت أنني المتصلة؟».

كدت أقول: التناغم، ولربما فهمت. لكن ربما لم تكن كافية. هذه كانت مكالمة مهمة، ولم أرغب في إفسادها. لم أرغب في إفسادها إطلاقاً. وفي أثناء معظم المحادثة أحسست بأنني شخصان يتحدثان عبر الهاتف، جورج يتحدث بصوت عالٍ، وجيك يتحدث بالداخل، يقول كل الكلام

الذي لا يستطيع جورج قوله. ربما دائماً ما يوجد اثنان عند كل طرف عندما تكون علاقة حب رائعة على شفا الانهيار.
قلت: «لأنني كنت أفكر بك طوال اليوم». (كنت أفكر بك طوال الصيف).

- كيف حالك؟

- بخير (أحس بالوحدة) ماذا عنك؟ كيف أمضيت الصيف؟ هل أنجزت المهمة؟ (هل قطعت صلتك القانونية بزوجك غريب الأطوار؟).

- نعم، أبرمت صفقة. أليست هذه من العبارات التي تقولها يا جورج؟ أبرمت صفقة؟

- أظن ذلك. كيف حالك مع المدرسة، والمكتبة؟

- جورج؟ هل سنتكلم هكذا أم سنتكلم؟

قلت: «حسنًا». وجلست على أريكتي المتكتلة التي اشتريتها مستعملة. «فلنتكلم. هل أنت بخير؟».

قالت: «نعم، لكن لست سعيدة، ومشوشة جدًا». ترددت ثم تابعت: «كنت أعمل في فندق وكازينو هاراه، على الأرجح تعرف هذا. نادلة كوكيتيل. وتعرفت إلى شخص».

- أوه، حقًا؟ (أوه، تبًا).

- نعم. رجل لطيف جدًا، ساحر، شهم. يناهز الأربعين. اسمه روجر بيتون. مساعد للسيئاتور الجمهوري من كاليفورنيا توم توشيل. يعمل مشرّعًا لشؤون الأقليات في مجلس الشيوخ. أقصد توخيل، ليس روجر.

ضحكت، لكن ليس كما يضحك المرء عند سماعه أمرًا طريفًا.

- هل ينبغي أن أكون سعيدًا بتعرفك إلى شخص لطيف؟

- لا أدري يا جورج... هل أنت سعيد؟

- لا. (أود أن أقتله).

قالت بنبرة تقريرية رتيبة: «روجر وسيم، وحلو المعشر. درس في جامعة ييل. ويعرف كيف يقضي مع الفتيات وقتًا طيبًا. وطويل».

لم يعد الشخص الثاني بداخلي قادرًا على الصمت: «أود أن أقتله».

ضحكت، وأراحتني ضحكتها. قالت: «لا أخبرك بهذا لأجرح مشاعرك».

- حقًا؟ لماذا تخبريني إذن؟

- خرجنا معًا ثلاث أو أربع مرات. قبَّلني... تبادلنا العناق والقبلات

فحسب، كالصبيبة...

(لا أود أن أقتله فحسب، أود أن أقتله بالتعذيب).

- ...لكن إحساسي معه لم يكن كما كان معك. ربما سيكون، بمرور

الوقت، وربما لن يكون. أعطاني رقم هاتفه في واشنطن، وطلب

مني الاتصال به إذا... كيف كان تعبيره؟ "إذا سئمت ترتيب

الكتب في الرفوف والبحث عن الضائعة منها". أظن هذه هي

خلاصة كلامه. يقول إنه سيصبح ذا شأن، وإنه يحتاج إلى امرأة

صالحة ترافقه. رأى أنني ربما أكون المرأة التي ينشدها. بالطبع

يقول أي رجل كلامًا كهذا. لستُ ساذجة كما كنتُ ذات يوم. لكن

أحيانًا يصدّق الرجال فيما يقولونه.

- سيدي...

قالت: «ومع ذلك، إحساسي معه لم يكن كما كان معك». بدت ساهمة،

ولأول مرة تساءلت عما إذا كانت تعاني مشكلة أخرى عدا عن حياتها

الشخصية، عما إذا كانت مريضة. «من ناحية الإيجابيات، لا توجد مكنسة

بيننا. بالطبع يخفي الرجال المكنسة أحيانًا، أليس كذلك؟ جوني كان

يخفيها. وأنت أيضًا يا جورج».

- سَيِّدِي...

- نعم.

- هل أنت نفسك تُخفين مكنسة؟

ساد صمتٌ طويل بيننا. أطول بكثير من لحظة الصمت عندما أجبتُ الهاتف قائلاً اسمها. أطول بكثير مما توقعتُ. وأخيراً قالت: «لا أعرف ما تقصده».

- لا تبدين سَيِّدِي التي أعرفها، هذا كل شيء.

- قلتُ لك، إنني مشوشة جداً، وحزينة، لأنك ما زلت غير مستعد لإخباري بالحقيقة، أليس كذلك؟

- لأخبرتك إذا استطعت.

- أتعرف؟ لديك أصدقاء مُخلصون في جودي، لست وحدي، وكلهم لا يعرفون أين تعيش الآن.

- سَيِّدِي...

- تقول إنك في دالاس، لكن رقم هاتفك ضمن مركز إلمهيرست، وإلمهيرست في فورت وورث.

فات عليّ وضع ذلك في حساباني. تُرى ماذا فات عليّ أيضاً؟

- سَيِّدِي، كل ما أستطيع قوله لك هو إن ما أفعله مهم جداً...

- بالتأكيد. وما يفعله السيناتور توشيل مهمٌ جداً أيضاً. لا يمل روجر إخباري بهذا دوماً، ويخبرني بأنني إذا... إذا انضمت إليه في واشنطن، فسأقترب من الجلوس عند قدمي العظمة... أو بوابة التاريخ، أو شيء من هذا القبيل. إنه متحمس للسلطة. وهذه من صفاته القليلة التي صُعب عليّ استلطافها. ما رأيته، وما زلت على رأيي، هو سؤال من أنا حتى أجلس عند قدمي العظمة؟ إنني مجرد أمينة مكتبة مطلقة.

- من أنا حتى أقف عند بوابة التاريخ؟
- ماذا؟ ماذا قلت يا جورج؟
- لا شيء يا عزيزتي.
- يجدر بك ألا تقول لي عزيزتي.
- آسف. (لست آسفًا). ما الذي نتحدث عنه تحديدًا؟
- أنت وأنا، وما إذا كانت توجد علاقة تربطنا. ستساعدني إذا أخبرتني بسبب وجودك في تكساس. لأنني أعرف أنك لم تأتِ لتأليف كتاب أو التدريس في مدرسة.
- إخبارك ينطوي على خطورة.
- جميعنا قد نكون في خطر. جوني محق في هذا الشأن. هل أُخبرك بأمر قاله لي روجر؟
- حسنًا. (أين قاله لك يا سيدي؟ وهل كنتما في وضعية رأسية أم أفقية عندما جرى النقاش؟).
- كان قد شرب كأسًا أو كأسين وصار ثرثارًا قليلًا. كنا في غرفته بفندق، لكن لا تقلق، أبقيتُ قدميَّ على الأرضية وكل ملابسني على جسدي.
- لم أقلق.
- إذا لم تقلق، فقد خيبتُ أُملي.
- حسنًا، قَلِقْتُ. ماذا قال؟
- قال إن ثمة إشاعة عن وقوع خطب جلل في البحر الكاريبي في الخريف أو الشتاء القادم. نقطة اشتعال، حسبما قاله. أظنه قصد كوبا. قال: "نلك الأبله جون كينيدي سينسفنا لا شيء سوى إثبات جسارته".

تذكرتُ كل ترَّهات نهاية العالم التي حشاها زوج سيدي السابق في رأسها. كل من يقرأ الصحف يعرف هذا المصير، والإشعاع سيقتلنا، سنموت والجروح تغطي أجسادنا ونحن نسعل حتى نلفظ رثائنا. مثل هذه الأحاديث تترك انطباعاً قوياً لدى المستمع، لا سيما عندما تُقال بنبرة يقين علمي بحت. تترك انطباعاً؟ ندبة بالأحرى.

- هذه ترَّهات يا سيدي.

بدا الضيق في صوتها: «حقاً؟ إذن فأنت تعرف من خبايا الأمور ما لا يعرفه السيناتور توشيل؟».

- فلنقل إنني أعرف.

- لا. أريد منك إيضاح كل ما تخبئه عني، سأنتظر مدة أطول قليلاً، ليس كثيراً، ربما لأنك راقص بارع فحسب.

قلت مندفعاً متحمساً قليلاً: «إذن فلنذهب للرقص!».

- طابت ليلتك يا جورج.

أنهت المكالمة دون أن تمهلني لحظة لقول أي كلمة.

15

هممتُ بمعاودة الاتصال بها، لكن عندما قالت عاملة الهاتف: «الرقم من فضلك؟»، استعدتُ صوابي، وأعدت سماعة الهاتف إلى مكانها. قالت سيدي ما أرادت قوله، ومحاولة حملها على قول المزيد لن تزيد الأمور إلا تعقيداً.

حاولت أن أقول لنفسي إن مكالمتها لم تكن سوى أحبولة لحتي على حسم أمري، لن تنجح لأن تلك لم تكن سيدي التي أعرفها. بدا لي أن مكالمتها كانت نداء استغاثة.

رفعتُ سماعة الهاتف مرة أخرى، وهذه المرة عندما طلبت عاملة الهاتف رقمًا، أُمليتهُ. رن الهاتف مرتين على الطرف الآخر، ثم قالت إيلين دوكرتي: «نعم؟ مَنْ المتصل من فضلك؟».

- مرحبًا إيلين، أنا جورج.

ربما صارت لحظة الصمت تلك أمرًا شائعًا. انتظرتُ. ثم قالت: «مرحبًا جورج. أهملتُك في الآونة الأخيرة، أليس كذلك؟ كل ما في الأمر هو أنني في غاية...».

- الانشغال، بالتأكيد، أعرف طبيعة الأسبوعين الأولين يا إيلين.

اتصلتُ بك لأن سيدي اتصلت بي للتو.

بدا الحذر في نبرة صوتها: «حقًا؟».

- إذا أخبرتها أنتِ بأن رقمي تابع لمركز فورت وورث وليس دالاس، فلا بأس.

- لم أكن أثّر بلا هدف. آمل أن تتفهم هذا. رأيتُ أن من حق سيدي

أن تعرف، يهمني أمرها، ويهمني أمرُك أيضًا بالطبع يا جورج...

لكنك رحلت، وهي ما زالت معنا.

تفهمتُ ما فعلتهُ، لكنه ألمني. عاودني الإحساس بوجودي بداخل كبسولة فضائية هائمة في أعماق الفضاء إلى الأبد.

- لا أرى غضاضة فيما فعلتهُ يا إيلين. وعلى أي حال لم يكن ما قلتهُ

لك كذبًا تمامًا، سأنتقل إلى دالاس عما قريب.

لم ترد. وماذا عساها أن تقول؟ ربما لم يكن كذبًا تمامًا، لكن كلينا يعرف أنك كذاب قليلًا؟

- لم يعجبني حال سيدي حسبما بدا لي من صوتها. هل تبدو لك

أنها بخير؟

- لست متأكدة مما إذا كان ينبغي أن أجيب عن هذا السؤال. إذا قلتُ لا، فربما تأتي متلهفًا لرؤيتها، وهي لا تريد رؤيتك وأنتما في وضعكما الراهن.

في الواقع أجابت عن سؤالي.

- هل كانت بخير عندما عادت؟

- كانت بخير، ومسرورة برؤيتنا جميعًا.

- لكنها الآن تبدو مشغولة البال وتقول إنها حزينة.

تكلمت إيلين بنبرة جافة: «هل يفاجئك هذا؟ سيدي لديها ذكريات كثيرة هنا، معظمها مرتبطة برجلٍ ما زالت تُكِنُّ له مشاعر، رجل لطيف وأستاذ رائع، لكنه وصل إلينا مُموَّهاً جلده الحقيقي».

ألمني سماع هذا ألماً ممضاً. قلت: «بدا لي أنها مشغولة بأمر آخر، تحدثتُ عن أزمة قادمة سمعتُ عنها من...» من خريج جامعة ييل الجالس عند بوابة التاريخ؟ «...من شخص قابلته في نيفادا. زوجها حشا رأسها بكثير من الترهات...».

قالت: «رأسها؟ رأسها الصغير الجميل؟». لم تعد تتكلم بنبرة جافة فحسب، بل بغضب عارم، أشعرتني بأنني ضئيل تافه: «جورج، ألامي الآن كومة ملفات يبلغ ارتفاعها ميلاً، عليَّ إنجازها. لا يمكنك إجراء تحليل نفسي على سيدي دنهل عن بُعد، ولا يمكنني مساعدتك في حياتك العاطفية. لا يمكنني فعل شيء سوى نصحك بالإفصاح عن كل شيء لها. عاجلاً خيرٌ من آجل».

- لا أظنك رأيتَ زوجها في أنحاء جودي، صحيح؟

- لا! طابت ليلتك يا جورج!

للمرة الثانية في تلك الليلة، أغلقتِ امرأة أهتم بأمرها الخط في وجهي. وهذا رقم قياسي شخصي جديد.

ذهبتُ إلى غرفة النوم وبدأت خلع ملابسِي. بخير عندما وصلتُ. مسرورة بعودتها إلى أصدقائها في جودي. ليستُ بخير الآن، هل لأن نفسها مُتنازعة بين الرجل الجديد النجم الصاعد الوسيم وبين غريب طويل داكن الشعر ذي ماضٍ خفي؟ على الأرجح كان هذا الموقف معقولاً في رواية رومانسية، لكن إذا كان هذا هو الموقف هنا، فلماذا لم تكن سيدي مُغتمة عندما عادتُ؟

خطرت لي فكرة مقيئة: ربما أدمنتِ الكحول، سرّاً. هل هذا ممكن؟ زوجتي السابقة ظلت تعافر الشراب بإسراف لسنوات، قبل أن أتزوجها. والماضي يتناغم مع نفسه. من السهل صرف النظر عن احتمال الإدمان، وقول إن إيلين كانت لتلاحظ العلامات، لكن السُّكَّيرين يكونون أذكاء أحياناً. أحياناً تنقضي سنوات قبل أن يبدأ الناس الملاحظة. إذا كانت سيدي تذهب إلى العمل في الموعد دون تأخير، لربما لم تلاحظ إلين أنها تأتي بعينين حمراوين وفم برائحة النعناع.

على الأرجح كانت الفكرة سخيفة. جميع افتراضاتي كانت شكوكاً كلها نابعة من شدة اهتمامي بسيدي.

اضجعتُ على فراشي ناظراً إلى السقف. كانت ليلة باردة أخرى. قال آل: انس الأمر يا صاح، لا بد لك. تذكّر، لستَ هنا للوقوع في الحب والاستمتاع بالحياة...
أجل يا آل، فهمتُ.

كما إنها بخير على الأرجح. أنتَ من لديه مشكلة.
بل أكثر من مشكلة واحدة. وانقضى وقت طويل قبل أن أنام.

وفي يوم الاثنين التالي، عندما خرجت في إحدى جولاتي المنتظمة مرورًا بالمنزل رقم 214 بشارع ويست نيلي في دالاس، لاحظتُ سيارة جنازٍ رمادية طويلة مركونة عند المدخل، ورأيت السيدتين البدينتين واقفتين على الشرفة، تشاهدان رجلين يرتديان بدلتين داكنتين وهما يرفعان نقالة إلى مؤخرة السيارة، وعلى النقالة هيئة مُسجأة. وعلى بلكونة تبدو متقلقلة فوق الشرفة، كان الزوجان الشابان اللذان يعيشان بالطابق الأعلى يشاهدان أيضًا، وطفلهما الأصغر نائم بين ذراعي والدته. ثم رأيت الكرسي المدولب، ذا الذراع المثبت عليها منفضة سجائر، يتيمًا تحت الشجرة حيث كان يقضي الرجل العجوز معظم أيامه في الصيف الماضي.

أوقفت السيارة ووقفت جوارها حتى غادرتُ عربة نقل الموتى، ثم (رغم إدراكي أن التوقيت غير مناسب) عبرتُ الشارع وسرت صاعدًا الممر المفضي إلى الشرفة، وعند أسفل السلم لامستُ طرف قبعتي وقلت: «سيدتاي، يؤسفني جدًّا فقدكما».

المرأة الأكبر سنًا، الزوجة التي صارت أرملة، على ما أظن، قالت: «جئتُ إلى هنا من قبل».

خطر لي قول: جئتُ فعلًا. هذا الأمر أكبر من كرة قدم المحترفين. تابعتُ: «لقد رآك». لم تتكلم بنبرة اتهام، بل مجرد ذكر لحقيقة. قلت: «كنت أبحث عن شقة في هذا الحي. هل ستحتفظان بهذه الشقة؟».

قالت الصغرى: «لا، كان لديه تأمين ما، عدا عن بضع ميداليات في صندوق». وند عنها نشيج. أوكد لكم، انفطر قلبي لرؤية مدى تفجع تلكما السيدتين.

قالت الأرملة لي: «قال إنك شبح، وإنه كان يراك شفافاً. بالطبع كان مجنوناً كجرذ مرحاض، طوال السنوات الثلاث الماضية، منذ أن أصيب بسكتة دماغية وأوصلوا له كيس البول ذاك. أنا وأيدا سنعود إلى أوكلاهوما».

قلت مع نفسي: جرّباً الذهاب إلى موزيل، ينبغي أن تذهباً إليها عندما تتخلّيا عن شقتكما.

سألتني الصغرى: «ماذا تريد؟ علينا شراء بدلة له في دار الجنائز».

قلت: «أريد رقم هاتف صاحب شقتكما».

ومضت عينا الأرملة: «ما قيمته عندك يا سيدي؟».

قالت المرأة الشابة الواقفة على بلكونة الطابق الثاني: «سأعطيك الرقم مجاناً».

رفعت الابنة المفجوعة رأسها وأمرتها بإغلاق فمها اللعين. هذا ما كان يميّز دالاس. وديري أيضاً.

سكانها ودودون.

الفصل التاسع عشر

1

ظهر جورج دي موهرنشيلدت على المسرح عصر يوم غائم ماطر، الخامس عشر من سبتمبر، كان خلف عجلة قيادة كاديلاك بلون القهوة بدت كأنها خارجة للتو من أغنية لتشاك بيرى. ومعه رجل عرفته، جورج بوهي، وآخر لم أعرفه، نحيل كسوط وشعره أبيض كثيف وظهره مستقيم كسارية، كظهر رجل قضى وقتًا طويلاً في الخدمة العسكرية وما زال سعيدًا بها. ذهب دي موهرنشيلدت إلى خلف السيارة وفتح الصندوق. هرعْتُ لأجلب ميكروفوني بعيد المدى.

وعندما عدْتُ بمعدَّاتي، رأيت بوهي يحمل قفص لعب أطفال مطويًا تحت ذراعه، وحمل الشبيه بالعساكر كمًّا كبيرًا من الألعاب الصغيرة، وصعد دي موهرنشيلدت خالي اليدين السلم أمام الرجلين برأس شامخ وصدر بارز، كان طويلًا قوي البنية، وشعره الرمادي ممشط إلى الخلف مائل من جبهته العريضة على نحو بدا أنه يقول، لي أنا على الأقل، انظروا إلي وتعجبوا، أنا جورج.

أوصلتُ جهاز التسجيل بالكهرباء، ووضعت سماعتي في أذني، وجهت الوعاء المثبت بداخله الميكروفون إلى الجانب الآخر من الشارع. لم أر مارينا، وكان لي جالسًا على الأريكة يقرأ كتابًا سميكًا ذا غلاف ورقي بضوء المصباح على المكتب، وعندما سمع وقع أقدام من الشرفة،

رفع رأسه عابسًا وألقى كتابه على طاولة القهوة. لا بد أنه قال مع نفسه:
مزيد من المهاجرين اللعينين.

لكنه ذهب ليفتح الباب. مد يده للغريب ذي الشعر الفضي الواقف
عند بابه، لكن دي موهرنشيلدت فاجأه، وفاجأني، بأن جذب لي وعانقه
وقبله على خديه، ثم أبعدَه وظل ممسكًا به من كتفيه. كان صوته عميقًا
تشوبه لكنة بدت لي أقرب إلى الألمانية من الروسية: «دعني أنظر إلى
الشاب الذي جاب الآفاق وعاد بقيم وأفكار سليمة!». ثم عانق لي مرة
أخرى. ظهر رأس أوزوالد بالكاد فوق كتف الرجل الضخم، ورأيت ما
فاجأني مفاجأة أشد: لي هارفي أوزوالد مبتسم.

2

خرجت مارينا من غرفة الرضیعة حاملةً إياها، صاحت مبتهجة
عندما رأت بوهي، وشكرته على قفص اللعب وما أسمته، بإنجليزيتها
الضعيفة «الأعيب الأطفال». عرّف بوهي بالرجل النحيل، لورنس
أورلوف، الكولونيل لورنس أورلوف، وعرّف بدي موهرنشيلدت بوصفه
«صديقًا للمجتمع الروسي».

شرع بوهي وأورلوف في نصب قفص اللعب في منتصف أرضية
صالة المعيشة، ووقفت مارينا معهما وتجاذبا أطراف الحديث
بالروسية. ومثل بوهي بدا أورلوف عاجزًا عن إبعاد عينيه عن الأم
الروسية الشابة. كانت مارينا ترتدي بلوزة فضفاضة وسروالًا قصيرًا
يظهر ساقين طويلتين. تلاشت ابتسامة لي، واستعاد تجهّمه المعتاد.

إلا أن دي موهرنشيلدت لم يدع لي وشأنه، لمح كتاب لي على طاولة
القهوة، والتقطه، وقال موجّهًا حديثه إلى لي وحده، متجاهلاً الآخرين
تجاهلاً تامًا: «هل تقرأ أطلس متململاً؟ إيان راند؟ ماذا يفعل شابُّ
ثوري مثلك بهذا الكتاب؟».

قال لي: «أعرف عدوك». وعندما انفجر دي موهرنشيلدت بضحكة مجلجلة، عاودت ابتسامة لي الظهور.

سأله موهرينشيلدت: «وما رأيك في صيحة الأنسة راند؟». لامس هذا الحوار وترًا حساسًا بداخلي عندما أعدت تشغيل الشريط لاحقًا. استمعت إلى التعليق مرتين قبل أن أستوعب: كانت صيحة الكلمة نفسها التي استخدمتها ميمي كوركران عندما سألتني عن رواية الحارس في حقل الشوفان.

قال أوزوالد: «أظنها ابتلعت طعم السم. الآن تجني المال ببيعه للناس الآخرين».

- بالضبط يا صديقي. لم أسمع تعبيرًا أفضل قط. سوف يأتي يومٌ تُحاسب فيه راند وأمثالها في العالم على جرائمهم. هل تؤمن بهذا؟

قال لي بنبرة يقين: «أعرف ذلك».

ربّت دي موهرنشيلدت الأريكة قائلاً: «اجلس بجانبى، أود سماع مغامراتك في وطننا الأم».

لكن أولاً اقترب بوهي وأورلوف من لي ودي موهرنشيلدت، وتحدثوا كثيرًا بالروسية. بدا لي مترددًا، لكن عندما قال موهرنشيلدت له كلامًا، بالروسية أيضًا، أومأ لي وتحدث بإيجاز مع مارينا. الطريقة التي حرّك بها يده ناحية الباب أوضحت مقصده: انهبي، هيا، انهبي.

ألقي دي موهرنشيلدت مفاتيح سيارته إلى بوهي، فلم يفلح في التقاطها. تبادل دي موهرنشيلدت ولي نظرة تسلية بينما بوهي يلتقطها من السجادة الخضراء القذرة. ثم غادر مع مارينا وهي تحمل الرضیعة، وانطلقا بكاديلاك دي موهرنشيلدت الشبيهة بالقارب.

قال موهرنشيلدت: «الآن سنحظى بالهدوء يا صديقي. الرجلان سيفتحان محفظتيهما، وهذا أمر جيد، صحيح؟».

قال لي: «سئمتُ فتحهما محفظتهما دومًا. بدأت رينا تنسى أننا لم نعد إلى أمريكا لشراء ثلاجة لعينة ومجموعة فساتين».

حرّك دي موهرنشيلدت يده كأنه يذب بها كلام لي: «إنه عرق من ظهر الخنزير الرأسمالي. يا رجل، أليس كافيًا أنك تعيش في هذا المنزل الباعث على الكآبة؟».

قال لي: «إنه متواضع بالتأكيد، أليس كذلك؟».

ربّت دي موهرنشيلدت ظهر لي بقوة كادت أن تسقطه من الأريكة، وقال له: «ابتهج! ما تأخذه الآن تعيده ألف ضعف. أليس هذا ما تؤمن به». وعندما أومأ لي، تابع: «الآن أخبرني كيف الأحوال في روسيا أيها الرفيق... هل لي بمخاطبتك بالرفيق أم أنك تتبرأ من الكلمة؟».

قال أوزوالد: «لا، لم أتبرأ». وضحك. رأيته ينشرح لدي موهرنشيلدت كما تتفتح زهرة للشمس بعد أيام ماطرة.

تحدث لي عن روسيا، وأسهب وتعجرف في كلامه. لم أهتم بهذره عن اختطاف البيروقراطية الشيوعية للقيم الاشتراكية (تغاضى عن حملة تطهير ستالين في الثلاثينيات). كما لم أهتم بحُكمه على نيكيتا خروشيف بالبلاهة، إذ يسمع المرء هذه الترهات الفارغة نفسها عن الزعماء الأمريكيين هنا في أي صالون حلاقة أو مكان تلميع أحذية. ربما كان أوزوالد سيغير مسار التاريخ في غضون أربعة عشر شهرًا، لكنه كان مملًا.

ما أثار اهتمامي كانت الطريقة التي استمع بها دي موهرنشيلدت إلى لي، استمع كما ينبغي الاستماع، ظل دومًا يطرح الأسئلة المناسبة في الوقت المناسب، ولا يتململ قط أو يُبعد عينيه عن وجه المتحدث، ويُشعر الشخص الآخر بأنه أكثر الناس حصافةً وأوسعهم اطلاعًا. هذه المحادثة ربما كانت أول مرة في حياة لي يجد فيها من يستمع إليه على هذا النحو.

أنهى لي ما كان يقوله: «أرى للاشتراكية أملاً واحداً فقط، وهو كوبا. الثورة هناك ما تزال نقية. أمل أن أزورها ذات يوم. وربما أصبح من مواطنيها».

أوما دي موهرنشيلدت بوقار: «طموح جيد. زرتها، مرات عديدة، قبل أن تضع الحكومة الحالية قيوداً كثيرة على السفر إليها. بلد جميل... والآن، بفضل فيدل، صار بلدًا جميلًا يملكه الشعب الذي يعيش فيه».

تهللت أسارير لي: «أعرف ذلك».

«لكن!». رفع دي موهرنشيلدت إصبع مُحاضِر. «إذا ظننت أن الأمريكيين الرأسماليين سيسمحون لفيدل وراؤول وتشى بإكمال حلمهم دون تدخل، فأنت وإهم. وقد بدأت الدسائس سلفًا. هل تعرف رجلًا يدعى ووكر؟».

انتصبت أذناي.

قال لي: «إدوين ووكر؟ الجنرال الذي سُرِّح من الخدمة؟».

- هو بعينه.

- أعرفه. يعيش في دالاس. ترشح لمنصب الحاكم وخسر، ثم ذهب إلى ولاية مسيسيبي ليساند حاكمها روس بارنيت عندما التحق جيمس ميرديث⁽¹⁾ بجامعة مسيسيبي. إنه مجرد هتلر صغير آخر مؤيد للتفرقة العنصرية.

- إنه عنصري بالتأكيد، لكن يتخذ من قضية التفرقة العنصرية والعنصريين المتطرفين مجرد تمويه. يرى المطالبة بحقوق الزوج رمحًا موجَّهًا إلى المبادئ الاشتراكية التي تؤرقه هو وأمثاله. جيمس ميرديث؟ شيوعي! الجمعية الوطنية للنهوض

(1) أول طالب أسود يلتحق بجامعة مسيسيبي، عام 1962. وهذا كان حدثًا مهمًا في حركة الحقوق المدنية. (المترجم)

بالمولونين؟ واجهة للشيوخين! لجنة التنسيق الطلابية اللاعنفية؟
ظاهرهم أسود وباطنهم أحمر!
قال لي: «بالطبع، هكذا يعملون».

لم أستطع الجزم بما إذا كان دي موهرنشيلدت مهتمًا حقًا بما يقوله أم يحاول تهيج لي فحسب: «وما الذي يراه أمثال ووكر وبارنيت والوعاظ أمثال بيلي غراهام وبيلي جيمس هارغس بوصفه القلب النابض لهذا الوحش الشيوعي المُحب للزواج؟ روسيا!».

- أعرف ذلك.

- وأين يرون أيادي الشيوعية الطامعة على بُعد تسعين ميلًا فقط من شواطئ الولايات المتحدة؟ يرونها في كوبا! لم يعد ووكر يرتدي الزي العسكري، لكن صديقه المقرب ما زال. أتعرف من أحدث عنه؟

هز لي رأسه، ولم تبتعد عيناه قط عن وجه دي موهرنشيلدت.

تابع دي موهرنشيلدت: «كيرتس لوماي، عنصر ي آخر يرى الشيوعية خلف كل أجمة. وما الذي يريده ووكر ولوماي من كينيدي بإصرار؟ أن يقصف كوبا، ويغزوها، ثم يجعلها الولاية الحادية والخمسين! الإذلال الذي تعرضوا له في خليج الخنازير شدد عزمهم على مخططهم!». أبدى انفعاله بضرب فخذيه بقبضته. «أمثال ووكر ولوماي أشد خطرًا من تلك العاهرة راند، ليس لأنهم لديهم أسلحة، بل لأن لديهم أتباعًا».

قال لي: «أعرف الخطر. بدأت تنظيم جماعة "ارفعوا أيديكم عن كوبا" هنا في فورت وورث، لدي قرابة عشرة أشخاص مهتمون».

كان ذلك جريئًا منه. حسبما أعرفه، لم يكن لي ينظم شيئًا سوى أبواب الألمونيوم، بالإضافة إلى حبل الغسيل في باحته الخلفية عندما تقنعه مارينا أحيانًا بنشر حفازات الرضيعة.

قال دي موهرنشيلدت متجهماً: «يجدر بك أن تسرع وتيرة عملك. كوبا تمثل لوحة إعلانية للثورة، عندما تنظر شعوب نيكاراغوا وهاتي وجمهورية الدومينيكان، التي تعاني، إلى كوبا، يرون مجتمعاً اشتراكياً زراعياً مسالماً بلا ديكتاتور، وقد أرسل فيه رجال الشرطة السرية إلى منازلهم وهراواتهم محشورة في مؤخراتهم السمينة!». ضحك لي.

أردف دي موهرنشيلدت: «ويرون مزارع قصب السكر الضخمة التي يعمل فيها العمال بالسُّخرة في الولايات المتحدة وقد آلت إلى المزارعين، ويرون شركة ستاندرد أويل تُطرد، ويرون الكازينوهات التي تديرها عصابة لانكي...».

قال لي: «أعرف ذلك».

- ...قد أغلقت. يا صديقي. والنساء اللاتي كن يبعن أجسادهن، وأجساد بناتهن، قد وجدن عملاً شريفاً. وأي عامل كادح كان ليموت في الشوارع في ظل حكم الخنزير باتيستا، يمكنه الآن أن يذهب إلى مستشفى ويُعامل معاملة البشر. لماذا؟ لأن الطبيب والعامل الكادح متساويان في ظل حكم فيدل!

قال لي: «أعرف ذلك». كان موقفه الأساسي من كل ما يسمعه.

هَبَّ دي موهرنشيلدت واقفاً وراح يذرع المكان حول قفص اللعب الجديد، وتابع: «أتظن أن كينيدي وعُصبته من الأيرلنديين سيتركون تلك اللوحة الإعلانية منتصبة؟ أتظنهم سيتركون تلك المنارة تُشع برسالة الأمل؟».

«إنني معجب بكينيدي إلى حدٍّ ما». تكلم لي كأنه مُحرج من اعترافه. «رغم ما حدث في خليج الخنازير. تلك كانت خطة أيزنهاور، كما تعرف».

- الغالبية الغبية معجبون بكينيدي. مواطنو الولايات المتحدة الأمريكية سيعيشون سعداء ويموتون راضين إذا كانت لديهم ثلاجة

تصنع الثلج وسيارتان في المرأب ومسلسل 77 سَنَسِت سَتَرِب في تلفازاتهم. غالبية مواطني أمريكا الأغبياء يحبون ابتسامة كينيدي. أجل، بالطبع، ابتسامته رائعة، أقر بهذا. لكن ألم يقل شكسبير إن الرجل قد يبتسم، ويبتسم، ويظل شريرًا؟ هل تعرف أن كينيدي وافق على خطة وكالة الاستخبارات المركزية التي كانت تهدف لاغتيال كاسترو؟ نعم! حاولوا سلفًا، وفشلوا، حمداً للرب، ثلاث أو أربع مرات. أعرف هذا من معارفي بمجال النفط في هايتي وجمهورية الدومينيكان يا لي، وهذه معلومة موثوقة. عبّر لي عن ارتياحه.

تابع دي موهرنشيلدت وهو ما يزال يزرع المكان: «لكن فيدل لديه صديق قوي في روسيا، ليست روسيا أحلام لينين، ولا أحلامك أو أحلامي، لكن ربما لديهم أسبابهم للوقوف مع فيدل إذا حاولت أمريكا غزو كوبا مرة أخرى. تذكر كلماتي: كينيدي سيحاول مرة أخرى، عما قريب. سيعمل بكلام لوماي، وسيعمل بكلام دولس وأنغلتن مسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية. لا يحتاج إلى سوى الذريعة المناسبة حتى يبدأ الغزو، لا شيء سوى أن يثبت للعالم جسارته».

واصل الحديث عن كوبا. ثم عندما عادت الكاديلاك، كان مقعدها الخلفي مليئاً بحاجيات البقالة، بدت كأنها كافية لشهر. قال لي: «تبّاً، لقد عادوا».

قال دي موهرنشيلدت بدمائة: «ونحن سعدون برؤيتهم».

- انتظر حتى نتناول العشاء. رينا ليست طاهية ماهرة جداً، لكن...
- لا بد لي من الذهاب. زوجتي تنتظر تقريرتي بقلق، وسأقدم لها تقريراً جيداً! سوف أصطحبها معي في زيارتي التالية، هل تسمح لي؟

- نعم، بالطبع.

ذهبا إلى الباب. وكانت مارينا تتحدث مع بوهي وأورلوف وهما يحملان صناديق الأطعمة المعلبة من السيارة، لكن مارينا لم تتكلم فحسب، كانت تغازل أيضًا، وبدا بوهي على وشك الجثو على ركبتيه.

في الشرفة قال لي كلاً ما عن مكتب التحقيقات الفدرالي. سأله دي موهرنشيلدت كم مرة، فرفع لي ثلاث أصابع قائلاً: «أحد العملاء اسمه فين، جاء مرتين، وآخر اسمه هوستي».

قال دي موهرنشيلدت: «أجب عن أسئلتهم محدقاً إلى أعينهم! ما من شيء تخشاه يا لي، ليس لأنك بريء فحسب، بل لأنك في جانب الحق!». عندئذ كان الآخرون ينظرون إليهما... وليس الآخرون فحسب، ظهرت فتيات القفز على الحبل، ووقفن عند الرصيف الترابي الصلب في مربعنا السكني بشارع مرسيدس. وجد دي موهرنشيلدت لنفسه جمهوراً، فتكلم مع لي كمن يلقي خطبة: «إنك راسخٌ أيدلوجياً يا أوزوالد، لذا لا عجب أن عصابة إدغار هوفر تضايقك! لا ندري، ربما يراقبونك الآن، ربما من مكان قريب في الشارع، وربما من ذلك المنزل على الجانب الآخر من الشارع!».

أشار دي موهرنشيلدت إلى ستائري المغلقة، والتفت لي لينظر. وقفتُ ساكناً في الظلال، سعيداً لأنني أنزلت وعاء تكبير الصوت رغم أنني غلّفته بشريط لاصق أسود. تابع: «أعرفهم. ألم يزوروني مع أبناء عموماتهم في وكالة الاستخبارات المركزية لترهيبني حتى أشي بأصدقائي الروس واللاتينيين؟ بعد الحرب ألم ينعثوني بالنازي المتخفي؟ ألم يزعموا أنني استعنت بمليشيا تونتون مأكوتي لضرب وتعذيب منافسي على عقود التنقيب على النفط في هايتي؟ ألم يتهمني برشو بابا دوك⁽¹⁾ ودفع تكاليف اغتيال تروجيلو؟ نعم، نعم، كل ذلك وأكثر!».

(1) بابا دوك هو لقب لـ فرانسوا دوفالبييه، الذي كان رئيساً (ثم دكتاتوراً) لهايتي من عام 1957 حتى وفاته في عام 1971. (المترجم)

كانت فتيات القفز على الحبل يحدقن إليه فاغرات أفواههن، وكذلك مارينا. حالما استرسل دي موهرنشيلدت في كلامه، عجز عن منع نفسه عن جرّف كل شيء أمامه: «تحلّ بالشجاعة يا لي! عندما يأتون إليك، قف شامخًا! وأظهر لهم هذا!». أمسك بقميصه ومزقه كاشفًا صدره، تطايرت الأزرار وتناثرت على الشرفة. شهقت فتيات القفز على الحبل، إذ منعتهن الصدمة من الضحك. خلافًا لمعظم الرجال الأمريكيين في ذلك الزمن، لم يكن دي موهرنشيلدت يرتدي قميصًا داخليًا، وبدا جلده بلون المهوغني المزيّت، وأنسجة دهنية معلقة بعضلات عجوز. ضرب بقبضته على حلمة صدره اليسرى. «قل لهم "ها هو قلبي، وقلبي نقي، قلبي ملكٌ لقضيتي!" قل لهم "حتى إذا اقتلع هوفر قلبي من صدري، فسيظل خافقًا، وألف قلب آخر سوف يخفق معه! ثم عشرة آلاف! ثم مئة ألف! ثم مليون!"».

أنزل أورلوف صندوق الأشياء المعلقة الذي كان يحمله حتى يقدّم جولة تصفيق خفيفة ساخرة. احمرّ خدًا مارينا. وبدا وجه ليّ الأشد إثارة للاهتمام. بدا مثل بولس الطرسوسي⁽¹⁾ في الطريق إلى دمشق، عندما أتاه الإلهام. زالت الغشاوة عن عينيه.

3

خطبة دي موهرنشيلدت ونزعه قميصه -وهذا لا يختلف كثيرًا عن حيل اليمينيين السخيفة- أقلقاني بشدة. كنت آمل أنني إذا تمكنت من الاستماع إلى حديث من القلب إلى القلب بين الرجلين، فربما أستبعد دي موهرنشيلدت بوصفه عاملاً مؤثرًا في محاولة اغتيال ووكر، وبالتالي

(1) يعرف باسم بولس الرسول أو القديس بولس، من أبرز المبشرين المسيحيين.
(المترجم)

أستبعد تورطه في اغتيال كينيدي. استمعتُ إلى حديث القلب إلى القلب، لكنه زاد الأمر تعقيدًا.

أمرٌ واحد بدا لي واضحًا: حان الوقت لأودّع شارع مرسيدس. كنت قد استأجرت شقة الطابق الأرضي بالمنزل رقم 214 في شارع ويست نيلي. في الرابع والعشرين من سبتمبر حملت سيارتي الصنلاينر، التي بدأت تشيخ، بملابسي القليلة وكتبي وألتي الكاتبة وانتقلت إلى دالاس.

السيداتان البدينتان تركتا خلفهما حظيرة خنازير نتنة. توليتُ مهمة التنظيف بنفسني، شاكرًا الرب على أن جُحر أرنب آل يفضي إلى زمن يتوفر فيه معطر هواء إيروسول. اشتريت تلفازًا محمولًا من ساحة لبيع الأشياء المستعملة ووضعتُه على نضد المطبخ جوار الموقد. وفي أثناء الكنس والغسل والكشط والمسح، كنت أشاهد برامج جريمة مثل *نا أنتتشبلز* ومسلسلات مثل *كار 54* و*ير آر يو؟* وعندما تهدأ أصوات وقع أقدام وصرخات الأطفال بالطابق الأعلى، أخلد إلى الفراش وأناام كالموتى، دون أي أحلام.

لم أهرج منزلي بشارع مرسيدس، لكن لم أر الكثير في المنزل رقم 2703. أحيانًا كانت مارينا تضع جُون في عربة أطفال (هدية أخرى من أحد المعجبين بها، السيد بوهي)، وتمشي بها حتى موقف السيارات الخاص بالمستودع ثم تعود، وفي ساعات العصر، عند انتهاء اليوم الدراسي، كثيرًا ما ترافقهما فتيات القفز على الحبل. حتى مارينا لعبت معهن مرتين، وهي تهزج بالروسية. ومنظر الأم المتقافزة وشعرها الداكن يتطاير حول رأسها أضحك الرضيعة، وأضحك فتيات القفز على الحبل أيضًا. تحدثتُ معهن كثيرًا، ولم تبدُ قط منزوعة عندما يتضاحكن ويصحّحن حركاتها. بل بدت مسرورة. لم يرغب لي في تعلّمها الإنجليزية، لكنها تعلمتها على أي حال. هنيئًا لها.

في الثاني من أكتوبر 1962، استيقظتُ على صمت مريب في شقتي بشارع نيلي، ما من وقع أقدام من الطابق الأعلى، ولا زعيق الأم الشابة بطفليها حتى يستعدا للذهاب إلى المدرسة. كانوا قد انتقلوا في منتصف الليل.

ذهبت إلى الطابق الأعلى وجربت فتح الباب بمفتاحي، لم يفتحه، لكن وجدت القفل من النوع المزود بنابض، وفتحته بسهولة مستعيناً بمشجب. وجدت رف كتب في صالة المعيشة. أحدثتُ ثقباً صغيراً في الأرضية، وأوصلت مصباحي الثاني المزود بجهاز تنصت، وأدخلت السلك عبر الثقب إلى شقتي في الطابق الأسفل. ثم حرّكتُ رف الكتب فوقه.

عمل جهاز التنصت كما ينبغي، لكن بكرات جهاز التسجيل الياباني لم تكن تدور إلا عندما يأتي مستأجر محتمل ليرى الشقة ويصادف أن يجرب تشغيل المصباح. جاء كثيرون ليروا الشقة، لكن لم يستأجرها أحد. ظل عنوان المنزل بشارع نيلي لي وحدي إلى أن انتقل أوزوالد مع أسرته إلى الطابق الأعلى. وقد وجدت في منزلي الجديد راحة نسبية مقارنة بصخب شارع مرسيدس، لكنني افتقدت فتيات القفز على الحبل. كُنَّ جوقتي الإغريقية.

4

كنت أنام في شقتي بدالاس ليلاً، أشاهد مارينا تتمشى مع الرضیعة في فورت وورث نهاراً. وبينما كنت منشغلاً هكذا، اقتربت لحظة فارقة أخرى من لحظات الستينيات، لكنني تجاهلتها. كنت مشغولاً بأسرة أوزوالد، التي كانت تتعرض لنوبة أخرى من التشنجات الأسرية.

عاد لي من العمل مبكراً ذات يوم في الأسبوع الثاني من أكتوبر، وكانت مارينا بالخارج تتمشى مع جون. تحدثا عند مدخل منزل على الجانب الآخر من الشارع. وعند نهاية نقاشهما تحدثت مارينا بالإنجليزية: «ماذا يعني تس-ريخ؟».

شرح لها بالروسية، فبسطت ماريينا ذراعيها بحركة تعني ماذا عساك أن تفعل، وعانقته. قَبَّلَ لِيْ خَدَّهَا، ثم أخذ الرضيعة من العربية. ضحكت جُون وهو يرفعها عاليًا فوق رأسه، ومدت يديها للأسفل لتجذب شعره. دخلوا إلى المنزل معًا. أسرة صغيرة سعيدة، صامدة أمام مصاعب مؤقتة.

دام ذلك حتى الخامسة عصرًا. كنت أستعد للعودة بسيارتي إلى شارع نيلي عندما لمحتُ مارغريت أوزوالد مقتربة من موقف الحافلات بشارع وينسكوت.

قلت مع نفسي: ها قد أتت المتاعب. وكم كنتُ محقًا!

مجددًا تجنَّبت مارغريت درجة السلم المتقلقلة التي ما زالت مهمة، ومجددًا دخلت بلا استئذان، فأعقب دخولها اشتعال النيران. كانت أمسية دافئة والنوافذ مفتوحة لديهم، لذا لم أكلِّف نفسي عناء استخدام ميكروفوني. تشاجر لِيْ ووالدته بأعلى صوت.

اتضح أن لِيْ لم يُسرَّح من مصنع ليزلي، بل ترك العمل ببساطة. اتصل مديره بفادا أوزوالد، بحثًا عنه لأنهم يعانون نقصًا في العمال، وعندما لم يجد عونًا من زوجة روبرت، اتصل بمارغريت.

صاحت مارغريت: «كذبتُ من أجلك يا لِيْ قلتُ إنك أصبت بنزلة برد! لماذا ترغمني على الكذب دومًا؟».

وصاح بها: «لا أرغمك على فعل أي شيء! لا أرغمك على فعل أي شيء، تفعلين ما تشائين!». كانا يقفان أنفًا لأنف في صالة المعيشة.

- لِيْ! كيف ستعمل أسرتك؟ تحتاج إلى عمل!

- سأجد عملًا! لا تقلقي بشأن العمل يا أمي!

- أين؟

- لا أدري...

مكتبة

t.me/soramnqraa

- أوه، لي! كيف ستدفع الإيجار؟

لم أتبيّن جزءًا من كلام لي، وسمعتة يقول: «... لكن لديها أصدقاء كثيرين». أشار بإبهامه نحو مارينا، فأجفلت. «إنهم عديمو الفائدة، لكن سيساعدونني على إيجاد عمل. عليك أن تغادري يا أمي، عودي إلى المنزل، دعيني ألتقط أنفاسي».

صوبت مارغريت إصبعها كسهم نحو قفص اللعب: «من أين جاء هذا؟».

زمجر لي: «من الأصدقاء الذين أخبرتك عنهم، نصفهم أثرياء وبقيتهم يحاولون، يحبون التحدث مع رينا، والأكبر سنًا منهم يحبون التحديق إلى نهديها».

قالت مارغريت بنبرة صدمة: «لي!» لكن بدا... السرور على وجهها؟ هل كانت ماموشكا مسرورة من الغضب الذي سمعته في صوت ابنها؟
- اذهبي يا أمي، اتركيها بسلام قليلًا.

- هل تفهم مارينا أن الرجال الذين يمنحون أشياء دائمًا ما يريدون أشياء بعينها بالمقابل؟ هل تفهم يا لي؟
صاح وهو يهز قبضتيه: «اخرجي بحق الجحيم!». وكاد يرقص من غضبه العقيم.

ابتسمت مارغريت قائلة: «إنك منزعج، بالطبع، سأعود عندما تكون مسيطرًا على نفسك. وسأساعدك. أريد مساعدتك دومًا».

ومن ثم، هرعت بغتة نحو مارينا والرضيعة، كأنها تريد مهاجمتهما، غمرت وجه جون بالقبلات، ثم سارت بخطوات واسعة نحو الباب، وعنده استدارت وأشارت إلى قفص اللعب: «مرها بتنظيف ذلك تنظيفًا جيدًا يا لي، الأشياء التي يلقيها الناس دائمًا ما تكون مليئة بالجراثيم، وإذا مرضت الرضيعة فلن تستطيع تحمل تكاليف الطبيب أبدًا».

- امي! انذهبي!

- سأذهب الآن.

بهدهوء شديد، أنت بحركة وداعاً بيدها كالفتيات الصغيرات، وغادرت. اقتربت مارينا من لي، ممسكةً بالرضيعة كدرع. تحدثا. ثم صاحا. ذهب التضامن الأسري مع الريح. وقد حرصت مارغريت على ذلك. أخذ لي الرضيعة، وهدهدها بإحدى ذراعيه، وفجأة لكم زوجته على وجهها. سقطت مارينا، نازفة من فمها وأنفها، وبكت بصوت عال. نظر لي إليها. وكانت الرضيعة أيضاً تبكي. مسح لي على شعر جُون الناعم، وقبل خدّها، وواصل هدهدتها قليلاً. عادت مارينا إلى مجال رؤيتي وهي تجد صعوبة في الوقوف، وركلها لي في خاصرتها فسقطت مجدداً. لم أر شيئاً سوى غيمة شعرها.

قلت مع نفسي: اهجريه، رغم علمي أنها لن تفعل. خذي الرضيعة واهجريه. انذهبي إلى جورج بوهي، دفّئي فراشه إذا اضطرت، ابتعدي عن هذا النحيل الوضع.

لكن لي هو من هجرها، مؤقتاً على الأقل. لم أره في شارع مرسيديس مرة أخرى قط.

5

كان أول انفصال بينهما. ذهب لي إلى دالاس ل يبحث عن عمل. لا أعرف مكان إقامته تحديداً. بحسب ملاحظات آل أقام في أحد مساكن جمعية الشبان المسيحيين، لكن اتضح أن هذا غير صحيح. ربما وجد مسكناً في منزل سكن جماعي في وسط المدينة. لم يهمني هذا كثيراً. كنت أعرف أنهما سيأتیان معاً ليستأجرا الشقة التي فوقي، وقد اكتفيت منهما في الوقت الراهن. ارتحت لعدم اضطراري إلى سماع تسجيل صوت لي البطيء وهو يقول أعرف ذلك عشر مرات في كل حوار.

وقفت مارينا على قدميها بفضل جورج بوهي. بعد وقت ليس بالطويل من زيارة مارغريت ورحيل لي، جاء بوهي ورجل آخر على متن شاحنة شيفروليه صغيرة ونقلنا أمتعتنا من المنزل. عندما غادرت الشاحنة المنزل رقم 2703 بشارع مرسيدس، كانت الأم وابنتها بالخلف، وضعت بطانيات بداخل حقيبة السفر الوردية التي جلبتها مارينا من روسيا، واستغرقت جُون في نوم عميق في هذا العُش. وضعت مارينا يدها على صدر الفتاة الصغيرة لتسندها عندما بدأت الشاحنة تتحرك. فتيات القفز على الحبل كن يشاهدن، لوحت مارينا لهن، ولوحن لها.

6

وجدتُ عنوان جورج دي موهرنشيلدت في دليل هواتف دالاس، وتعمَّبتُ الرجل عدة مرات، راودني الفضول بشأن الذين قد يقابلهم، لكن إذا كنت من رجال وكالة الاستخبارات المركزية، أو من عصابة لانكي، أو أي متآمر مُحتمَل آخر - لا أظنني كنت لأعرف. كل ما يمكنني قوله هو أنه لم يقابل شخصًا بدا لي مريبًا. كان يذهب إلى العمل، ويذهب إلى نادي دالاس الريفي، حيث يلعب التنس أو يسبح مع زوجته. وخرجا إلى بضعة أندية تعرَّ. لم يكن يكثرث بالراقصات، لكن كان لديه ولع بمداعبة نهدي زوجته وردفيها في الأماكن العامة. لم تبدُ أنها تمانع.

قابل لي مرتين. مرة كانت في نادي التعرِّي المفضل لدى دي موهرنشيلدت، لم يبدُ لي مرتاحًا في المكان، ولم يمكثا مدة طويلة. وفي المرة الثانية تناولا العشاء في مقهى بشارع براودر، هناك مكثا حتى الثانية ظهرًا تقريبًا، وظلا يتحدثان وهما يشربان أكواب قهوة لا حصر لها. همَّ لي بالنهوض، لكنه غيَّر رأيه، وطلب شيئًا آخر. جلبت النادلة له قطعة فطيرة، وناولها شيئًا، وضعتُه في جيب مئزرها بعدما أُلقت

عليه نظرة خاطفة. وبدلاً من متابعتهما عندما خرجا، ذهبت إلى النادلة وسألتها عما إذا بإمكانني رؤية ما أعطاه الشاب لها.

قالت: «لك أن تأخذه». وأعطتني ورقة صفراء في أعلاها كتابة بحروف صارخة سوداء: ارفعوا أيديكم عن كوبا وتحت «الأشخاص المهتمين» بالانضمام إلى فرع هذه المنظمة الرفيعة في دالاس-فورت وورث. لا يخدعنكم العم سام! راسلوا صندوق البريد 1919 لمعرفة تفاصيل الاجتماعات المستقبلية.

سألتها: «ما الذي تحدثا عنه؟».

- هل أنت شرطي؟

قلت: «لا. لكن أمنح إكراميات أفضل مما يمنح رجال الشرطة». وناولتها خمسة دولارات.

قالت: «ذلك الموضوع. كوبا. كأنتني أكثرث». وأشارت إلى منشور، لا بد أن أوزوالد طبعه في مكان عمله الجديد.

لكن في ليلة الثاني والعشرين من أكتوبر، بعد أقل من أسبوع، تحدث الرئيس كينيدي أيضاً عن كوبا، وعندئذٍ أكثرث جميع الناس.

7

من الحقائق البديهية أن المرء لا يفتقد الماء إلا عندما تجف بئرُه، لكن حتى خريف عام 1962، لم أدرك أن ذلك ينطبق أيضاً على وقع الأقدام الصغيرة التي تهز سقفي. إثر رحيل الأسرة التي كانت تقطن الطابق الأعلى صار المنزل رقم 214 بشارع ويست نيلي كأنما تسكنه الأشباح. افتقدتُ سيدي، وبدأتُ أقلق عليها بشدة تتاخم الهوس. في الحقيقة كنت مهووساً بالقلق فعلاً. إيلين دوكرتي وديكي سيمونز لم يأخذا قلقي من زوجها على محمل الجد، سيدي نفسها لم تأخذه على محمل الجد، ظنت أنني أحاول إخافتها من جون كلايتون حتى لا

تبعِدني عن حياتها نهائيًا. كلهم لا يعرفون أنهم إذا استبعدوا اسمها الأول من اسمها الكامل فسيكون اسمها شبيهًا باسم دورس دنغ، كلهم لا يعرفون التأثير التناغمي، الذي يبدو لي أنني أحدثه بمجرد وجودي في عالم الماضي. وبما أنهم لا يعرفون، فعلى من سيقع اللوم إذا أصاب مكروهٌ سيدي؟

عاودتني الكوابيس مجددًا. كوابيس جيملًا.

تخلّيت عن مراقبة جورج دي موهرنشيلدت وبدأت أتمشى كثيرًا، صرت أخرج عصرًا ولا أعود إلى ويست نيلي إلا عند التاسعة أو العاشرة ليلاً. أمضيت تلك الساعات مفكرًا في لي، الذي بدأ يعمل متدرب طباعة بالتصوير في شركة فنون تصويرية بدالاس اسمها جاغرز تشايلز ستوفال. وفي مارينا، التي أقامت مؤقتًا مع امرأة مطلقة مؤخرًا اسمها إلينا هول، تعمل مع طبيب أسنان يعرفه جورج بوهي، وكان طبيب الأسنان هذا هو سائق السيارة يوم رحيل مارينا وجُون من مكب النفایات بشارع مرسيدس.

لكن في معظم الأوقات كنت أفكر في سيدي، وسيدي، وسيدي.

ذات يوم وأنا أتمشى، شاعرًا بالعطش علاوة على الاكتئاب، توقفت عند حانة في الحي اسمها آيفي روم وطلبت جعة. كان صندوق الموسيقى متوقفًا والزبائن هادئين على غير العادة، وعندما وضعت النادلة جعتي أمامي واستدارت فورًا لتواجه التلفاز فوق المشرب، أدركتُ أن جميع الحاضرين يشاهدون الرجل الذي جئتُ لإتقائه، بدا شاحبًا متجهّمًا، وتحت عينيه هالات سوداء.

«من أجل وضع حد لهذا التحشيد العدائي، فرضنا حظرًا صارمًا على جميع المعدات الهجومية التي تُشحن إلى كوبا. أي سفينة من أي نوع متجهة إلى كوبا، إذا وُجدت على متنها شحنات أسلحة هجومية، فستُعاد من حيث أتت.»

قال رجل يعتمر قبعة رعاة بقر: «يا يسوع المسيح! ماذا يظن أن الروس سيفعلون بشأن ذلك؟».

قال الساقى: «اصمت يا بيل، ينبغي أن نسمع هذا».

تابع كينيدي: «ستكون سياسة هذه البلاد أن نعد أي صاروخ نووي يُطلق من كوبا نحو أي بلد في نصف الكرة الغربي هجومًا من الاتحاد السوفييتي على الولايات المتحدة، يتطلب ردًا انتقاميًا شاملًا على الاتحاد السوفييتي».

تأوهت امرأة عند نهاية المشرب وأمسكت بطنها، وضع الرجل الجالس جوارها يده حولها، وأسندت رأسها إلى كتفه.

رأيت على وجه كينيدي الخوف والعزيمة بالقدر نفسه. ورأيت أيضًا الحياة، تركيز تام على المهمة التي بين يديه. كانت تفصله ثلاثة عشر شهرًا تحديدًا عن مواعده مع رصاصة قاتله.

«لدواعي الاستعدادات العسكرية، أمرت بتعزيز قاعدتنا في غوانتانامو وإجلاء رعايانا من الموظفين هناك».

قال بيل راعي البقر فجأة: «كؤوس لكل الحاضرين على حسابي، لأن هذا الذي يجري يبدو لي كنهاية الرحلة يا أصدقائي». وضع ورقتين نقديتين من فئة عشرين دولارًا جوار كأسه، لكن الساقى لم يعبأ بها، كان يشاهد كينيدي، الذي كان عندئذ يدعو الرئيس خروشيف إلى إنهاء «هذا التهديد السري المتهور والاستفزازي الذي سينسف السلام العالمي».

النادلة التي قدمت لي الجعة، شقراء أضنتها الحياة تناهز الخمسين تقريبًا، انفجرت بالبكاء فجأة. فحسمتُ أمري. نهضت من مقعدي، وسرت بين الطاولات حيث يجلس رجال ونساء يشاهدون التلفاز كأطفال حزينين، ودخلت إحدى كابينات الهواتف جوار آلة لعبة "سكي بول".

طلبت عاملة الهاتف مني وضع أربعين سنتًا للدقائق الثلاث الأولى، فأدخلت قطعتين نقديتين من فئة خمسة وعشرين سنتًا. أصدر صندوق

النقود رنيناً رخيماً. تناهى إلى مسامعي خافتاً صوتُ كينيدي وهو يتكلم بخنة نيو إنغلاند، وعندئذٍ كان يتهم وزير الخارجية السوفيتي أندريه غروميكو بالكذب، بلا مواربة.

قالت عاملة الهاتف: «أوصلك بالخط الآخر الآن يا سيدي». ثم سألت: «هل تستمع إلى الرئيس؟ إذا لم تكن تستمع ينبغي أن تشغل المذياع أو التلفاز».

قلت: «أستمع». لا بد أن سيدي أيضاً كانت تستمع. سيدي، التي حدّثها زوجها كثيراً عن ترهات نهاية العالم المغلفة بمسحة علمية طفيفة. سيدي التي قال لها صديقها السياسي خريج بيل إن خطباً عظيماً سيقع في البحر الكاريبي. ستكون نقطة اشتعال، في كوبا على الأرجح.

لم تكن لدي فكرة عما سأقوله لها لطمأنتها، لكن هذه لم تكن المشكلة. ظل الهاتف يرن ويرن. لم يرُقني هذا. أين هي الثامنة والنصف مساء يوم اثنين في جودي؟ في السينما؟ استبعدتُ هذا.

- الطرف الآخر لا يرد يا سيدي.

قلت: «أعرف ذلك». وتضايقت عندما سمعت عبارة لي المفضلة تخرج من شفّتي.

سقطت نقودي المعدنية في صندوق استعادة النقود عندما وضعت السماعة. وهممتُ بإدخالها مجدداً، لكن أعدت التفكير. ما جدوى الاتصال بإيلين؟ لستُ على وفاق مع إيلين، ولا مع ديكي أيضاً على الأرجح. لن يتعاملا معي بجدية.

عندما سرت عائداً إلى المشرب، رأيت والتر كرونكايت يستعرض صوراً جوية التقطتها طائرة تجسس لقواعد صواريخ سوفيتية تحت التشييد، قال إن كثيراً من أعضاء الكونغرس يحثون كينيدي على إطلاق عمليات قصف أو شن غزو شامل فوراً. وإن قواعد الصواريخ الأمريكية

والقيادة الجوية الاستراتيجية في وضع الاستعداد الدفاعي من الدرجة الرابعة لأول مرة في التاريخ.

كان كرونكايت يقول بصوته العميق الادعائي: «عما قريب ستجوب قاذفات B-52 الأمريكية جوار حدود الاتحاد السوفييتي. ومن الواضح، لكل الذين تابعوا أحداث السنوات السبع الأخيرة من هذه الحرب الباردة المرعبة، أن احتمال وقوع خطأ كارثي يتزايد مع كل تصعيد جديد ل...». صاح رجل واقف جوار طاولة البلياردو: «لا تنتظروا! اقصفوا أولئك الشيوعيين الملاعين فوراً!».

تعالت بضعة هتافات احتجاج على هذا التعطُّش للدماء، لكن طغت عليها موجة تصفيق. غادرتُ آيفي روم وركضت عائداً إلى شارع نييلي، وحالما وصلت ركبتُ سيارتي وانطلقت إلى جودي.

8

لم يبت مذياع سيارتي، وقد أصلحته، شيئاً سوى نذر الهلاك وأنا ألاحق ضوء مصابحي الأمامية على الطريق السريع رقم 77. حتى منسَّقو الأغاني أصابتهم العدوى النووية، فصاروا يقولون عبارات على شكلة «بارك الرب أمريكا»، و«استعدوا للحرب». وعندما شغل منسق موسيقى محطة إذاعة كيه إل آي إف جوني هورتون "أنشودة المعركة للجمهورية". أطفأت المذياع. كان يوماً شديداً الشبه باليوم التالي للتاسع من سبتمبر.

واصلت القيادة بأقصى سرعة رغم عويل المحرك المتزايد من ارتفاع حرارته. وجدت جميع الطرق تقريباً مهجورة، وتوقفت عند مدخل منزل سيدي بُعيد الثانية عشرة والنصف فجر يوم الثالث والعشرين. رأيت سيارتها الفلوكسواغن الصفراء مركونة أمام باب المرأب المغلق، والمصابيح مضاءة في الطابق الأرضي، لكن لم يرد أحد عندما ضغطتُ

زر الجرس. ذهبت إلى الخلف وطرقت باب المطبخ طرْقًا عنيْفًا، بلا جدوى. لم يَرُقني هذا مطلقًا.

كانت سيدي تحتفظ بمفتاح احتياطي تحت درجة السلم الخلفية، أخرجته ودخلت المنزل، فداهمتني رائحة الويسكي التي لا يخطئها أنفي، والهواء الراكد المشبع بالسجائر.

- سيدي؟

ما من رد. سرْتُ من المطبخ إلى صالة المعيشة، ورأيت منفضة سجائر طافحة على منضدة منخفضة أمام الأريكة، وسوائل تبلل مجلات لايف ولوك الملقاة عليها، وضعتُ إصبعي عليها وقربتها من أنفي. ويسكي. سحقًا.

- سيدي؟

ثم شممت رائحة أخرى تذكرتها من أيام إدمان كرستي: رائحة القيء اللاذعة.

هرولت إلى الجانب الآخر من صالة المعيشة، حيث يوجد بابان يواجهان بعضهما، أحدهما يؤدي إلى غرفة النوم، والآخر إلى المكتب. وجدت البابين مغلقين، لكن باب الحمام عند نهاية الصالة كان مفتوحًا. أظهر ضوء مصباح الفلورسنت الساطع قيثًا متناثرًا على أطراف المرحاض، وأيضًا على أرضية البلاط الوردية وحافة حوض الاستحمام، ورأيت قنينة أقراص بجانب طبق الصابون على حوض الغسل، وغطاؤها منزوع. ركضتُ إلى غرفة النوم.

وجدتها مستلقية بالعرض على غطاء الفراش المجعد، مرتدية قميصًا تحتيًا وفردة حذاء، والآخر ملقى على الأرضية. بدا جلدها بلون شمعة قديمة، ولم تبد أنها تتنفس. وعندئذٍ أخذتُ شهقة عالية مزعجة وزفرْتُ بصعوبة. ظل صدرها ساكنًا لأربع ثوانٍ مرعبة، ثم تشنجتُ بأنفاس متحشجة. رأيت منفضة سجائر طافحة أخرى على المنضدة المجاورة

للفراش، وعلبة ونستون طرفها متفحّم من سيجارة لم تُطفأ جيداً أُلقيت فوق رفاقها الخامدين. وإلى جانب منفضة السجائر كأس ممتلئ نصفها وقنينة ويسكي غلينفليت. لم تشرب معظم الويسكي، حمداً للرب على الخدمات البسيطة، لكن الويسكي لم يكن أشد ما يقلقني، إنما الأقراص. ورأيت أيضاً ظرفاً ورقياً بُنيّاً بدت لي في طرفه صور فوتوغرافية، لكنني لم أنظر إليها عندئذٍ.

وضعت ذراعي حول سيّدي وحاولت تحريكها إلى وضعية الجلوس، وكان قميصها التحتي حريراً فانزلقت يداي عليه، ارتمت سيدي على الفراش وعاودتها أنفاسها الثقيلة المتحشّجة، وتهدّل شعرها على إحدى عينيها المغمضتين.

- سيّدي، استيقظي!

لم تبدِ ردة فعل. أمسكت بكتفيها وأسندتها إلى رأس السرير، فاهتز وأصدر ضجيجاً.

قالت بصوت واهن ثقيل: «دعني وشأني». لكنه أفضل من لا شيء.

- استيقظي يا سيّدي! عليك أن تستيقظي!

ربّتُ خديها. وظلت عيناها مغمضتين، لكن يديها ارتفعتا وحاولتا، بوهن، إبعادي.

- استيقظي! استيقظي! اللعنة!

فُتِحَتْ عيناها، ونظرنا إلي دون أن نعرفني، وأُغْمِضتا. لكن تنفّسها تحسّناً قليلاً، اختفت تلك الحشرة المربعة بعدما جلست.

عدت إلى الحمام، وألقيت فرشاة الأسنان من الكوب البلاستيكي الوردي، وفتحت صنبور الماء البارد. وفي أثناء امتلاء الكوب نظرت إلى ديباجة قنينة الأقراص. نيمبوتال. بقيت فيها قرابة عشرة أقراص. إذن لم تكن محاولة انتحار، لم تكن محاولة صريحة على الأقل. أُلقيتُ

الأقراص في المرحاض، وركضت عائداً إلى غرفة النوم. وجدت سيدي قد انزلقت من وضعية الجلوس التي تركتها عليها، ورأسها متدلّ إلى الأمام وذقنها مستند إلى صدرها، وعادت حشجة تنفّسها.

وضعتُ كوب الماء على المنضدة، وتسمّرت لحظة إثر وقوع عيني على إحدى الصور الفوتوغرافية البارزة من الظرف. بدت لي صورة امرأة، فما بقي من الشعر كان طويلاً، لكن صُعب عليّ الجزم، وحيث ينبغي أن يكون الوجه لم أر سوى لحم أحمر وأسفله فجوة. بدت الفجوة كأنها تصرخ.

رفعتُ سيدي، ثم أمسكت بحفنة من شعرها وجذبت رأسها إلى الخلف. تأوّهتُ قائلةً كلاماً ربما كان لا، هذا يؤلم. سكبتُ كوب الماء على وجهها، فأجفلتُ وفتحت عينيها.

قالت: «جور؟ ماذا تفعل هنا يا جور؟ لماذا أنا مبتلة؟».

- استيقظي، استيقظي يا سيدي.

عاودتُ تربيت وجهها، بلطف هذه المرة، لكن بلا جدوى، بدأت عيناها تغمضان مجدداً.

- اب...تعد

- إلّا إذا أردتُ مني طلب سيارة إسعاف، وهكذا سترين اسمك في الصحيفة. مجلس إدارة المدرسة سيحب ذلك.

تمكنتُ من إحاطتها بيدي ورفعها من السرير، فارتفع قميصها التحتي، ثم عاد إلى مكانه إثر تهالكها على ركبتها على السجادة. فتحتُ عينيها وصاحت متألّمة، لكنني أوقفتها على قدميها، فترنحتُ ولطمتني بقوة أشد قليلاً.

- اخ...رج! اخ...ج يا جور!

- لا يا سيدي.

وضعت ذراعي حول خصرها وأرغمتها على التحرك نحو الباب، أكاد أحملها. انعطفنا نحو الحمام، وعندئذٍ خارت ركبتاها، فحملتها، ولم يكن حملها مهمة سهلة نظرًا إلى طولها وحجمها. حمدًا للرب على الأدرينالين. أنزلتُ حلقة المرحاض وأجلستُها بالكاد قبل أن أفقد توازني. كنت ألهث، من المجهود، ومن الخوف أكثر. مالتُ إلى اليمين، وشفعتُ ذراعها العارية.

صحت في وجهها: «اعتدلي جالسة! اعتدلي يا كرستي! اللعنة!». فتحتُ عينيها بصعوبة، فرأيتهما محتقنتين بالدماء. سألتني: «مَن كرستي؟».

قلت: «المغنية الرئيسية بفرقة رولنغ ستونز اللعينة. منذ متى تأخذين أقراص نمبوتال؟ وكم قرصًا أخذت الليلة؟».

- لدي وصفة طبية. هذا ليس من شأنك يا جور.

- كم؟ وكم شربت؟

- اب...تعد

أدرت صنوبر الماء البارد حتى آخره، ثم جذبت المقبض الذي يشغل الدش. رأت ما أريد فعله، فعاودتُ ضربتي.

- لا يا جور! لا!

تجاهلتها. هذه لم تكن أول مرة أضع فيها امرأة ليست بكامل ملابسها في حمام بارد. وبعض الأشياء نألفها مثل ركوب الدراجة. رفعتها فوق حافة حوض الاستحمام بحركة سأشعر بألمها أسفل ظهري في اليوم التالي، ثم بينما تمسكتُ جيدًا كان الماء البارد ينهمر عليها وبدأتُ تتخبط، مدت يدها زاعقة لتمسك بحامل المنشفة. كانت عيناها مفتوحتين عندئذٍ. وتجمعت قطرات الماء على شعرها، وصار قميصها

شفافاً. حتى في تلك الظروف كان من المستحيل ألا تراودني لحظة شهوة إثر ظهور انحناءات جسدها بالكامل.

حاولت الخروج، ودفعتها إلى الداخل.

- قفي هناك يا سيدي، قفي هناك واصبري.

- ح حتى متى؟ الماء بارد!

- حتى أرى تورّد خديك.

تكلّمت وأسنانها تصطك: «ل لماذا تـ تفعل هذا؟».

صحت: «لأنك كدّت تقتلين نفسك!».

أجفّلت، فانزلقت قدماها، لكنها أمسكت بحامل المنشفة وظلت واقفة. عادت إليها الاستجابات التلقائية. جيد.

قالت: «ال أقـ راص لم يؤثّر فيّ مفعولها، فاضطرت إلى تناول كأس. هذا كل شيء. دعني أخرج، أشعر بالبرد الشديد. أرجوك يا جـ جورج، أرجوك دعني أخرج». التصق شعرها بخديها، فبدت كجُرذ غارق، لكن وجهها بدأ يستعيد شيئاً من لونه، حُمرة طفيفة، لكنها بداية جيدة. أوقفت الماء، وأحطتها بذراعي معانقا، وأمسكت بها عند ترنُّحها على حافة حوض الاستحمام. تقاطر الماء من قميصها المبلل على ممسحة الأرجل الوردية. همستُ في أذنها: «ظننتكِ مت. عندما دخلت ورأيتكِ ممددة على الفراش ظننتكِ مت بحق الجحيم. لن تعرفي أبداً هذا الإحساس».

أفلتُها، وحدقتُ إليّ بعينين متسعيتين متعجّبتين، ثم قالت: «جون كان محقاً، وروجر أيضاً، اتصل بي الليلة قبل خطاب كينيدي، من واشنطن. إذن فيمَ يهم هذا؟ بعد أسبوع سنكون كلنا أمواتاً، أو نتمنى لو أننا أموات».

في البداية لم تكن لدي أدنى فكرة عما تتحدث عنه. رأيت كرستي ماثلة أمامي، مبلة زرية الهيئة وتقول ترهات، واستبد بي الغضب. قلت

مع نفسي: أيتها العاهرة الجبانة. ولا بد أنها رأت غضبي في عيني، إذ انكمشت متراجعة.

وعندئذ صفا ذهني. هل يحق لي نعتها بالجبن لأنني أعرف المشهد القادم خلف الأفق؟

أخذتُ منشفة الحمام من رف فوق المرحاض وناولتها إياها قائلاً: «انزعي ملابسك، ثم جففي نفسك».

- اخرج إذن، أريد خصوصيتي.

- سأخرج إذا قلت لي إنك مستيقظة.

قالت: «إنني مستيقظة». ونظرت إليّ بجفاء وربما بشيء من الدعابة، وأردفت: «قطعاً تعرف كيف تجعل ظهورك درامياً يا جورج».

استدرتُ إلى خزانة الأدوية.

قالت: «لا يوجد مزيد من الأقراص، ما لم أبتلعه موجود في درج منضدة الزينة».

حسبما أعرفه من زواجي بكرستي لأربع سنوات، أشحتُ بوجهي. ثم شطفت المرحاض. وبعدها سرت نحو باب الحمام، وقلت: «سأمهلك ثلاث دقائق».

9

كان عنوان المرسل المكتوب على الظرف البُنِّي جون كلايتون، 79 جادة إيست أوغلثورب، سافنا، جورجيا. قطعاً لا يستطيع المرء اتهام ذلك الوجد بمحاولة التخفي أو المراوغة. وتاريخ الإرسال كان الثامن والعشرين من أغسطس، إذن على الأرجح كان الظرف هنا في انتظار سيدي عندما عادت من رينو، وقد ظلت قرابة شهرين تطالع محتويات الظرف وتفكر فيها. هل أحسستُ بحزنها واكتئابها عندما تحدثت معها

في ليلة السادس من سبتمبر؟ لا عجب، نظرًا إلى الصور التي أرسلها إليها زوجها السابق.

عندما تحدثت معها عبر الهاتف آخر مرة كانت قد قالت: جميعنا في خطر، جوني محق في هذا الشأن.

الصور كانت لرجال ونساء وأطفال يابانيين، ضحايا انفجار القنبلة النووية في هيروشيما أو ناغاساكي، أو كليهما، بعضهم عميان، وكثيرون صُلع، ومعظمهم يعانون حروق الإشعاع. وقلة منهم، مثل المرأة عديمة الوجه، تفحّموا. إحدى الصور أظهرت أربعة تماثيل سوداء لأشخاص في وضعيات انكماش. أربعة أشخاص كانوا واقفين أمام جدار عندما انفجرت القنبلة، تبخروا، ومعظم الجدار تبخر أيضًا، والأجزاء التي بقيت منه كانت الأجزاء التي حُجِبَتْ بالأربعة الواقفين أمامها. كانت الأشكال سوداء لأنها غُلِفت باللحم المحروق المتفحم.

على ظهر كل صورة كتب جون كلايتون الرسالة نفسها بخط يده الواضح المرتَّب: المصير القادم إلى أمريكا قريبًا. التحليل الإحصائي لا يكذب.

- صور جميلة، أليس كذلك؟

سمعتُ صوتها رتيبًا جامدًا. كانت تقف عند المدخل متدثرة بمنشفة، وشعرها منسدل على كتفيها العاريتين راسمًا حلقات رطبة.

- كم شربتِ يا سيدي؟

- كأسين صغيرتين فقط عندما لم تؤتِ الأقراص مفعولها. أظنني حاولت إخبارك بهذا عندما كنت تهزّني وتلطمني.

- إذا كنت تتوقعين مني اعتذارًا، فستنتظرين مدة طويلة. الأقراص المهدئة والكحول مزيجٌ سيئ.

- لا يهم. تعرضتُ للطم من قبل.

ذُكِّرَني كلامها بمارينا، فأجفَلْتُ. لم يكن ما فعلته مثل ما فعله لي، لكن اللطم لطم. وقد كنت خائفاً وغاضباً أيضاً.

ذهبت سيدي إلى الكرسي في الزاوية، وجلست، وشدَّت المنشفة حول جسدها. بدت كطفل حردان. قالت: «صديقي روجر بيتون اتصل بي. هل أخبرتك بهذا؟».

- نعم.

- صديقي العزيز روجر.

تحدَّثَني عيناها أن أُرِدَ على ذلك. لم أفعل. كانت حياتها الخاصة. أردتُ أن أحرص على أن تكون حية فحسب.

- حسناً، صديقك العزيز روجر.

- قال لي أن أتأكد بمشاهدة خطاب الوغد الإيرلندي الليلة. هكذا

سمَّاه. ثم سألني عن المسافة بين جودي ودالاس، وعندما أخبرته

قال: "ينبغي أن تكون بعيدة بما يكفي، وفقاً لاتجاه الرياح".

وهو نفسه سيغادر واشنطن، كثيرون سيغادرون، لكن لا أظن

أن مغادرتهم ستجديهم نفعاً. يستحيل الهروب من حرب نووية.

بدأت البكاء، بنشيج خشن هز جسدها بأكمله، وتابعت: «أولئك الحمقى

سيدمرون عالماً جميلاً! سيقتلون الأطفال! أكرههم! أكرههم جميعاً!

كينيدي، وخروشيف، وكاسترو، آمل أن يتعفَّنوا كلهم في الجحيم!».

غطت وجهها بيديها. وجثوث مثل رجل تقليدي نبيل يتأهب لعرض

الزواج، وعانقتها، فوضعت ذراعيها حول عنقي وتشبثت بي بقبضة

شخص على وشك الغرق. كان جسدها ما يزال بارداً من الحمام، لكن

خدَّها الذي أسندته إلى ذراعي كان محمومًا.

في تلك اللحظة أنا أيضًا كرهتهم كلهم، لا سيما جون كلايتون لغرسه هذه البذرة في امرأة شابة تعاني انعدام الأمان وهشة نفسيًا. غرسها، وسقاها، واعتنى بها، وشاهدها تنمو.

وهل كانت سيدي الوحيدة المرعوبة الليلة؟ الوحيدة التي لجأت إلى الأقراص المهدئة والكحول؟ ترى ما عدد الكؤوس التي تُشرب في حانة آيفي روم الآن؟ كنت قد افترضت، افتراضًا غبيًا، أن الناس سينظرون إلى أزمة الصواريخ الكوبية كما ينظرون إلى أي هُوْشة دولية مؤقتة، لأن هذه الأزمة، بحلول الوقت الذي التحقت فيه بالجامعة، كانت مجرد موضوع أسماء وتواريخ علي حفظها استعدادًا لامتحاناتي التمهيدية التالية. هكذا بدت لي الأمور من المستقبل. لكنها بدت مختلفة من منظور الناس في الحاضر القاتم.

نظرت إلي بعينيها الملتاعيتين المحققنتين بالدماء، وقالت: «وجدتُ الصور هنا عندما عدت من رينو، أردتُ التخلص منها لكن لم أستطع، ظللت أنظر إليها طوال ذلك الوقت».

- هذا ما أراده الوغد، لهذا أرسلها لك.

بدت كأنها لم تسمعني: «التحليل الإحصائي هوايته. يقول إن الحواسيب عندما تتحسن جودتها بالقدر الكافي ذات يوم، ستصبح دراستها أهم العلوم، لأن التحليل الإحصائي لا يخطئ أبدًا».

رأيت بعين عقلي جورج دي موهرنشيلدت، الذي سيصبح صديق لي الوحيد. وقلت: «غير صحيح. هناك دومًا نافذة لعدم اليقين».

- أظن أن يوم حواسيب جوني الخارقة لن يأتي أبدًا، فالناس المتبقون، إذا بقي أيُّ منهم، سيعيشون في الكهوف. والسماء... لن تعود زرقاء. سوف يُعم الظلام النووي، بحسب تسمية جوني.

- إنه كثير الترهات يا سيدي، وصديقك روجر أيضًا.

هزت رأسها، ونظرت إلي بعينيها الحمراءوين بحزن.

- كان جوني يعرف أن الروس سيطلقون قمرًا صناعيًا، كنا قد تخرجنا في الجامعة للتو عندئذٍ. أخبرني في الصيف، وأطلقوا سبوتنك في أكتوبر. قال: "خطوتهم التالية هي إرسال كلب أو قرد، وبعدها سوف يرسلون رجلًا، ثم سوف يرسلون رجلين وقنبلة".

- وهل فعلوا ذلك؟ هل فعلوا يا سيدي؟

- أرسلوا كلبة، وأرسلوا رجلًا. الكلبة كان اسمها لايكا، أتتذكر؟ ماتت هناك بالأعلى، للأسف. لن يضطروا إلى إرسال الرجلين والقنبلة، أليس كذلك؟ سوف يطلقون صواريخهم، وسوف نطلق صواريخنا، على جميع أنحاء جزيرة قذرة يصنعون فيها السيجار.

- هل تعرفين ما يقوله السحرة؟

- الـ...؟ ما الذي تحدث عنه؟

- يقولون إن بمقدور الساحر أن يخدع عالمًا، لكن ليس بمقدوره أن يخدع ساحرًا آخر. زوجك السابق يدرّس العلوم، لكنه قطعًا ليس بساحر. أما الروس، فسحرة بالتأكيد.

- كلامك مبهم. جوني يقول إن الروس يتعيّن عليهم القتال، قريبًا، لأنهم متفوقون في مجال الصواريخ، لكن تفوقهم لن يدوم طويلًا، ولهذا لن يتراجعوا في كوبا. إنها ذريعة.

- رأى جوني كثيرًا من صور الصواريخ وهي تُنقل عبر الساحة الحمراء في موسكو. ما لا يعرفه، وما لا يعرفه السيناتور توشيل أيضًا على الأرجح، هو أن أكثر من نصف تلك الصواريخ ليست فيها محركات.

- كيف لك أن... لا يمكنك...

- جوني لا يعرف عدد صواريخهم الباليستية العابرة للقارات التي انفجرت في منصات إقلاعها في سيبيريا بسبب عدم كفاءة علماء

صواريخهم، ولا يعرف أن أكثر من نصف الصواريخ التي صوّرتها طائراتنا الاستطلاعية في الحقيقة جذوع أشجار مطلية وبعض أجزائها من الورق المقوى. ما يجري ليس سوى ألعاب خفة يد يا سيدي. ينخدع بها علماء مثل جوني وسياسيون من السيناتور توشيل، لكنها لن تخدع ساحرًا آخر أبدًا.

قالت حائرة: «هذا... إنه لي». صمتت لحظة وهي تعض شفتيها، ثم قالت: «كيف تعرف أمرًا كهذا؟».

- لا يمكنني إخبارك.

- إذن لا يمكنني تصديقك. جوني قال إن كينيدي سيكون مرشح الحزب الديمقراطي، رغم أن كل الآخرين توقعوا ترشيح همفري لأن كينيدي كاثوليكي. حلل الولايات التي تُجرى فيها انتخابات تمهيدية، وحلل الأرقام، واتضح أنه كان محقًا. قال إن جونسون سيكون نائب كينيدي لأن جونسون هو الجنوبي الوحيد الذي قد يجد قبولًا شمال خط ماسون-ديكسون. وكان محقًا في هذا أيضًا. فاز كينيدي، والآن سيقتلنا جميعًا. التحليل الإحصائي لا يكذب.

أخذت نفسًا عميقًا وقلت: «أريد منك أن تصغي إليّ جيدًا. هل أنت مستيقظة بما يكفي لهذا؟».

ظلت صامته ساكنة لحظة، ثم أحسست بإيماءتها على ذراعي. فقلت: «نحن الآن في الساعات المبكرة من صباح الثلاثاء. هذه المواجهة ستستمر ثلاثة أيام، أو ربما أربعة، لا أتذكر».

- ماذا تعني بأنك لا تتذكر؟

أعني أن أيًا من هذا لم يُذكر في دفتر ملاحظات آل، وأن محاضرات التاريخ الأمريكي التي حضرتها في الجامعة كانت قبل قرابة عشرين عامًا. يدهشني أنني أتذكر ما أتذكره.

قلت: «سنحاصر كوبا، لكن السفينة الروسية الوحيدة التي سنوقفها لن نجدها محملة بشيء سوى أطعمة و سلع تجارية. الروس سيغضبون ويتوعدون، لكن بحلول يوم الخميس أو الجمعة سيخافون أيما خوف ويبحثون عن مَخْرَج. أحد كبار الدبلوماسيين الروس سيلتقي عبر قنوات خلفية أحد الإعلاميين». فجأة بدأت تتضح لي قطع الأحجية، تذكرت الاسم، أو كِدْتُ أتذكره. «اسمه جون سكولاري، أو اسم من هذا القبيل...».

- سكالي؟ هل تتحدث عن جون سكالي الذي يعمل في إيه بي سي نيوز؟

- نعم، هو بعينه. سيحدث هذا يوم الجمعة أو السبت، بينما بقية العالم -بمن فيهم زوجك السابق وصديقك خريج ييل- ينتظرون فناءهم مذعورين كالجرذان. أثلجت صدري بضحكة قصيرة.

تابعت: «سيقول الروس كلامًا على شاكلة...» هنا تكلمتُ بلكنة روسية جيدة، تعلّمتُها من زوجة لي، وأيضًا من بوريس وناتاشا من مسلسل روكي آند بلوينكل الكرتوني: «"أخبر رئيّصكم أننا نُرِيض الطرّاجع بشرّف. طوافقون على إبعاد صوارّيخكم النووية من طُركيا، وطّعدون بعدم غزو كوبا أبدًا. ونحن نوافق على طفكيك صوارّيخنا في كوبا". وهذا تحديدًا ما سيحدث يا سيدي».

لم تُعد تضحك. حدثتُ إلي بعينين متسعيتين، وقالت: «إنك تخلق هذا لتطمئنني».

لم أرد عليها.

همست: «لم تخلقته، تظن أن هذا ما سيحدث حقًا».

- لا. أعرف أن هذا ما سيحدث. فرق كبير.

- جورج... لا أحد يعرف المستقبل.

- جون كلايتون يزعم أنه يعرف، وتصدقينه. روجر خريج ييل يزعم أنه يعرف، وتصدقينه أيضًا.
- تغار منه، أليس كذلك؟
- بالتأكيد.

قالت بحزن: «لم أنم معه قط، ولم أرغب قط». ثم أردفت: «لما استطعتُ أبدًا أن أنام مع رجل يسرف في التعطر».

- تسرني معرفة ذلك. ما زلت أغار.

- هل لي أن أسألك عن كيف...

قلت: «لا. لن أجيبك». على الأرجح ما كان ينبغي لي إخبارها بما أخبرتها به، لكن لم أستطع منع نفسي. بل وسأفعلها مجددًا: «لكن سأخبرك بأمر آخر، وهذا يمكنك التحقق منه بنفسك بعد يومين. أدلاي ستيفنسون وممثل روسيا في الأمم المتحدة ستحدث بينهما مواجهة في "الجمعية العمومية". سيستعرض ستيفنسون صورًا ضخمة للقواعد الصاروخية التي يشيدها الروس في كوبا، ويطلب من الرجل الروسي تفسير ما يقول الروس إنه ليس موجودًا. وسيقول الروسي كلامًا من قبيل: "عليك أن تنتظر، لا يمكنني الرد دون ترجمة كاملة". وستيفنسون، الذي يعرف أن الروسي يتحدث الإنجليزية بطلاقة، سيقول كلامًا سيدخل كتب التاريخ مع عبارة "لا تطلقوا النار حتى تروا بياض أعينهم"، سيقول للروسي إن بوسعه الانتظار حتى تتجمد الجحيم».

نظرتُ إليّ متشككة، والتفتت إلى منضدة القهوة، فرأت علبة سجائر ونستون المحترقة فوق جبل من أعقاب السجائر، وقالت: «أظن أن سجائري نفدت».

قلت بنبرة جافة: «ستكونين بخير، يبدو لي أنك دَخَنت من السجائر ما يكفيك أسبوعًا».

قالت بصوت خافت رقيق: «جورج... هلاً بقيتَ معي الليلة؟».

- سيارتي مركونة أمام...

- إذا تساءل عنها أحد المتطفلين في الحي، فسأقول إنك جئتَ لزيارتي بعد خطاب الرئيس ثم لم يشتغل المحرك.

بدا لي تفسيراً مقبولاً نظراً إلى حالة الصنلاينز في تلك الأيام.

- هل يعني اهتمامك المفاجئ بسمعتك في الحي أنك لم تعودتي قلقاً من الكارثة النووية؟

- لا أدري. لا أعرف سوى أنني لا أريد أن أكون وحدي. سأمارس معك الحب إذا رأيتَ أنه سيدفعك للبقاء، لكن أظنه سيكون باهتاً لكليناً. أعاني صداً فظيلاً.

- لست مضطرة إلى ممارسة الحب معي يا عزيزتي. إنه ليس صفقة عمل.

- لم أقصد...

- لا عليك. سأجلب الأسبرين.

- وهلاً نظرت فوق خزانة الأدوية؟ أحياناً أترك علبة سجائر هناك.

وجدتُ السجائر، لكن بعدما أخذتُ ثلاثة أنفاس من السيارة التي أشعلتها لها، ارتخى جفناها وغَفَت. أخذتُ السيارة من أصابعها وسحقتها عند سفح جبل السرطان. ثم احتضنتها بين ذراعي واتكأتُ على الوسائد. استغرقنا في النوم على هذا النحو.

10

استيقظتُ في الصباح المبكر على مداعبات يدٍ ماهرة. التفتُ إلى سيدي، ورأيتها تنظر إليّ بهدوء. قالت: «العالم ما يزال موجوداً يا جورج، ونحن أيضاً. هيّا. لكن كن لطيفاً. رأسي ما يزال يؤلمني».

في ذروة نشوتنا همستُ، فارتعشتُ من أنفاسها في أذني: «أي شيء لك أن تكون أي شيء، وتفعل أي شيء، قل لي إنك ستبقى فحسب. وإنك ما زلت تحبني».

- سيدي... لم أتوقف عن حبك قط.

11

تناولنا الإفطار في مطبخها قبل عودتي إلى دالاس. قلت لها إنني ذاهب إلى دالاس حقًا الآن، وإنني ليس لدي هاتف بعد، وسأعطيها الرقم حالما أملكه.

أومأت وحرّكت البيض في طبقها، وقالت: «أنا جادة فيما قلته. لن أطرح عليك مزيدًا من الأسئلة عن عملك».

- هكذا أفضل. لا تسأل، لا تُخبر.

- هه؟

- لا عليك.

- قل لي مجددًا إنك تسعى إلى خير.

- أجل، إنني أحد الأخيار.

- هل ستكون قادرًا على إخباري ذات يوم؟

- أمل هذا. سيدي... تلك الصور التي أرسلها...

- مزقتها في الصباح. لا أريد التحدث عنها.

- ليس عليك التحدث عنها. لكن أريد منك إخباري عما إذا اقتصر

تواصل زوجك معك على إرسال تلك الصور فحسب، وعما إذا جاء إليك.

- لم يأت. وخاتم البريد على الظرف كان من سافنا.

لاحظتُ ذلك، ولاحظتُ أيضًا أن تاريخ خاتم البريد يعود إلى شهرين

تقريبًا.

قالت: «إنه لا يحبذ المواجهات الشخصية. شجاع في عقله، لكن أظنه جباناً جسدياً».

بدا لي ذلك تقييماً جيداً. إرسال الصور كان سلوكاً عدوانياً سلبياً. ورغم هذا، كانت سيدي متأكدة أن كلايتون لن يعرف مكان إقامتها وعملها الحالي، وقد أخطأت.

- سلوك الأشخاص المضطربين عقلياً يصعب التنبؤ به يا عزيزتي. إذا رأيته فستصلين بالشرطة، صحيح؟

قالت: «نعم يا جورج»، بشيء من ضيقها القديم. وتابعت: «أود أن أطرح عليك سؤالاً واحداً، وبعده لن نتحدث في هذا الموضوع إلى أن ترغب أنت، إذا رغبت يوماً».

قلت: «حسنًا». وحاولت ترتيب إجابة عن السؤال الذي كنت متأكداً من سماعه: هل أنت من المستقبل يا جورج؟

- سيبدو السؤال جنونياً.

- كانت ليلة جنونية. اسألي.

قالت: «هل أنت...» وضحكت، ثم بدأت تجمع الأطباق، وحملتها إلى الحوض، وسألتنني وهي توليني ظهرها: «هل أنت بشري؟ أعني هل أنت من كوكب الأرض؟».

ذهبتُ إليها، ومددت يدي من خلفها واحتضنتها، وقبّلت عنقها.

- بشري خالص.

استدارتُ وبدت عيناها كالحيّتين: «هل تسمح لي بسؤال آخر؟».

تنهّدتُ وقلت: «اسألي».

- بقيت أمامي خمس وأربعون دقيقة على الأقل قبل أن أبدأ الاستعداد للذهاب إلى المدرسة. هل لديك واقٍ آخر؟ أظنني اكتشفت علاج صداعي.

الفصل العشرون

1

إذن في النهاية كان لا بد من تهديد حرب نووية حتى نعود إلى بعضنا. ألم يكن ذلك رومانسيًا؟
حسنًا، ربما لم يكن.

ديكي سيمونز، وهو من الرجال الذين يأخذون منديلًا إضافيًا عندما يذهبون لمشاهدة فيلم حزين، رَحَّبَ مغتبطًا بعودة علاقتي بسَيدي. أما إيلين دوكرتي فلم ترحَّب. إليكم أمرًا غريبًا لاحظته: النساء أفضل في حفظ الأسرار، لكن الرجال أقدر على التعايش معها. بعد نحو أسبوع من انجلاء أزمة الصواريخ الكوبية، استدعت إيلين سَيدي إلى مكتبها وأغلقت الباب. إشارة ليست جيدة. بشيء من الجفاء سألت سَيدي عما إذا عرفتُ عني أي معلومة لم تكن تعرفها من قبل.
قالت سَيدي: «لا».

- لكنكما استأنفتما علاقتهما.

- أجل.

- على الأقل هل تعرفين أين يعيش؟

- لا، لكن لدي رقم هاتف.

قَلَبْتُ إيلين عينيها في محجريهما. ومن عساه أن يلومها؟

- هل أخبركِ بأي شيء عن ماضيه؟ هل سبق له الزواج؟ لأُنني أظنه كان متزوجًا.

لِزِمْتُ سَيِّدِي الصمت.

- هل صادفَ أن ذكر لك أنه ترك أطفالًا خلفه في مكانٍ ما؟ الرجال يفعلون ذلك أحيانًا، وكل رجل فعلها مرة لن يتردد في...

- السيدة إيلين، هل لي أن أعود إلى المكتبة الآن؟ تركت الإشراف للطالبة هيلين، وهي تعي المسؤولية جيدًا، لكن لا أحب ترك الطلاب وحدهم مدة ط....

أَلَقْتُ إيلين بيدها نحو الباب وقالت: «اذهبي، اذهبي».

نهضت سَيِّدِي قائلة: «ظننتُ أن جورج يروقك».

ردت إيلين: «يروقني»، بنبرة أخبرتني سَيِّدِي لاحقًا أنها توحى بأنها قصدت "كان يروقني". «وسوف يروقني أكثر، من أجلك، إذا عرفتُ اسمه الحقيقي، وما يخطط لفعله».

قالت سَيِّدِي في طريقها إلى الباب: «لا تسأل، لا تخبر».

- ما الذي يفترض أن يعنيه هذا؟

- يعني أنني أحبه. وأنه أنقذ حياتي. وبالمقابل كل ما يمكنني منحه إياه هو ثقتي، وأعتزم أن أثق به.

إيلين دوكرتي من النساء اللاتي اعتدن أن تكون كلمتهن الأخيرة في معظم المواقف، لكنها لم تُحرر ردًا هذه المرة.

2

رَسَوْنَا على روتين ثابت في خريف وشتاء ذلك العام. كنت أقود سيارتي إلى جودي في عصر أيام الجمعة، وأحيانًا في طريقي أشتري زهورًا من بائعة الزهور في راوند هيل، وأحيانًا أقص شعري في صالون

جودي للحلاقة، الذي وجدته مكانًا عظيمًا لمتابعة الأخبار والشائعات المحلية. اعتدتُ قص شعري قصيرًا. أتذكر أنني كنت أتركه طويلًا حتى يغطي عيني أحيانًا، لكن لم أتذكر سبب تحملي ذلك الإزعاج. واعتياد السراويل القصيرة كان أصعب، لكن بعد مدة لم تعد خصيتاي تشكوان الاختناق.

عادةً ما كنا نتناول الطعام في مطعم آل في تلك الأمسيات، ثم نذهب إلى مباراة كرة القدم. وعندما انتهى موسم كرة القدم، كنا نشاهد كرة السلة. وكان ديكي ينضم إلينا أحيانًا، مرتديًا سترة المدرسة المرسوم عليها الأسد برايتون دنتون، تميمة حظ فريق المدرسة.

لكن الآنسة إيلين لم ترافقنا قط.

عدم موافقتها على علاقتنا لم تمنعنا من الذهاب إلى بيت ضيافة كاندلوود بعد مباريات أيام الجمعة. وعادةً ما كنت أمكث هناك وحدي في ليالي السبت، وفي صباحات الأحد أنضم إلى سيدي للذهاب إلى الكنيسة الميثودية الأولى بجودي. تشاركنا كتاب ترانيم وغنيًا «نجمع الحُزم، ونزرع في الصباح، نزرع بذور اللطف...» ما زالت تلك المعاني الطيبة وألحانها عالقة في ذهني.

وبعد مغادرة الكنيسة نتناول وجبة الظهر في منزلها، ثم أعود إلى دالاس. كل رحلة بالسيارة صارت تبدو لي أطول وأكثر إزعاجًا. وأخيرًا، في يوم بارد في منتصف ديسمبر، تعطل محرك سيارتي، كأنه يعبر عن رأيه قائلًا إننا نتحرك في الاتجاه الخطأ. أردتُ إصلاح المحرك، فتلكت الصنلاينر ذات السقف المتحرك كانت السيارة الوحيدة التي أحببتها بحق، لكن العامل في محل كيلين لصيانة السيارات قال لي إن السيارة تتطلب محركًا جديدًا كاملاً، وإنه لا يعرف أين يمكنه أن يعثر عليه.

لجأت إلى مخزوني النقدي الذي ما يزال جيداً، نسبياً، واشترت سيارة شيفروليه موديل 1959، ذات زعانف خلفية لافتة. كانت سيارة جيدة، وأحببتها سيدي حباً جماً، لكنني لم أحبها كما أحببت الصنلاينر. قضينا عطلة الكريسماس في كاندلود. وضعتُ غصناً من نبتة البهشية على منضدة الزينة وأعطيتها كنزة، وأعطتني حذاء خفيفاً أنتعله الآن. بعض الأشياء لا يليق بها سوى احتفاظنا بها.

تناولنا العشاء بمنزلها في يوم الصناديق⁽¹⁾، وبينما كنت أجهز الطاولة، توقفت سيارة ديكي عند المدخل. فوجئتُ بمجيئه، لأن سيدي لم تذكر لي أنها دعت أي أحد، وكانت مفاجأتي أشد برؤية إيلين دوكرتي في مقعد الراكب. عرفتُ من وقفها عاقدةً ذراعيها وهي تنظر إلى سيارتي الجديدة أنني لست الوحيد الذي لم يكن على علم بقائمة الضيوف، لكنها، من باب الاعتراف بفضل الآخرين، حيّتني بدرجة معقولة من الدفء وقبلتني على خدي. كانت تعتمر قبعة تزلج جعلتها تبدو كطفلة عجوز، نزعْتُها من رأسها فابتسمت لي ابتسامة طفيفة. قلت: «أنا أيضاً لم يُخطرنِي أحد».

صافحني ديكي قائلاً: «كريسماس مجيد يا جورج، سررتُ برؤيتك. رباه! أشم شيئاً شهياً».

سار إلى المطبخ. وبعد لحظات سمعت سيدي تضحك وتقول: «أبعد أصابعك عن هذا يا ديكي، ألم تعلّمك أمك الأدب؟».

حلّت إيلين أضرار معطفها دون أن تشيح بعينيها عن وجهي لحظة. سألتني: «هل هذا من الحكمة يا جورج؟ ما تفعله أنت وسيدي، هل من الحكمة؟».

(1) Boxing Day، 26 ديسمبر، يوم عطلة كان الناس يتبادلون فيه الهدايا ثم صار جزءاً من احتفالات الكريسماس. (المترجم)

وقبل أن أرد، دخلت سيدي بالديك الرومي الذي ظلت مشغولة به إلى درجة تتأخم الهوس منذ عودتنا من بيت ضيافة كاندلوود. جلسنا وأمسك بعضنا بأيدي بعض. وقالت سيدي: «يا رب، بارك هذا الطعام في أجسادنا، وبارك رفقتنا معًا، وبارك عقولنا وأرواحنا».

أردتُ إفلت يدي، لكنها ظلت قابضة على يدي بيُسراها ويد إيلين بيُمناها، وتابعتُ: «وبارك جورج وإيلين بالصدقة. أعن جورج على تذكر عطفها، وأعن إيلين على تذكر أنه لولا جورج لظلت إحدى فتيات هذه البلدة بندبة بشعة على وجهها. أحبهما الاثنين، وتحزنني رؤية انعدام الثقة في أعينهما. من أجل يسوع. آمين».

قال ديكي مغتبطًا: «آمين! دعاء طيب!». وغمز لإيلين.

أظن أن جزءًا من إيلين أراد أن ينهض ويغادر. ربما امتنعتُ بسبب الإشارة إلى بوبي جيل، أو بدافع الاحترام الذي صارت تكنه لأميّة المكتبة الجديدة لديها، أو لسبب ما ذي صلة بي. أود أن أظن هذا.

كانت سيدي تنظر بكل قلقها القديم إلى الآنسة إيلين.

قالت إيلين: «ذلك الديك الرومي يبدو رائعًا». وناولتني طبقها. «هلاً قطعت لي فخذًا يا جورج؟ وقليل من الحشوة». مكتبة سر من قرأ أحيانًا تكون سيدي ضعيفة، وأحيانًا تكون خرقاء، لكن أحيانًا تكون شجاعة جدًا جدًا.

كم أحببتُها!

3

ذهب لي ومارينا وجون إلى منزل دي موهرنشيلدت ليحتفلوا بقدوم العام الجديد. تركتُ وحدي وشأني، لكن عندما اتصلت بي سيدي وطلبتُ

مني اصطحابها إلى حفل عشية رأس السنة الجديدة في مقر جمعية جودي التعاونية، ترددتُ.

قالت: «أعرف ما تفكر به، لكن هذا سيكون أفضل من حفل العام الماضي. سنجعله أفضل يا جورج».

كنا هناك عند الثامنة، ومرة أخرى رقصنا تحت شبّاك متدلية مليئة بالبالونات. فرقة هذا العام كان اسمها دومينوز، مكونة أساسًا من أربعة عازفي أبواق بدلًا من الجيتارات التي كانت الأبرز في حفل العام السابق، لكنهم كانوا بارعين. ووجدنا أيضًا وعائي الليمونادة الوردية وجعة الزنجبيل نفسهما، أحدهما غازي والآخر ممزوج بالكحول. والمدخنين المتجمعين أسفل سلم طوارئ الحريق أنفسهم في الهواء البارد. لكن الحفل كان بالفعل أفضل من حفل العام السابق. لمسنا لدى المحتفلين إحساسًا أقوى بالارتياح والسعادة. جثم شبح الحرب النووية على العالم في أكتوبر.... لكنه انجلى. سمعت عدة تعليقات تستحسن إرغام كينيدي الدب الروسي الشرير على التراجع.

قراءة الساعة التاسعة، في أثناء رقصة بطيئة، صاحت سيدي مبتعدة عني فجأة. أيقنتُ عندئذٍ أنها رأت جون كلايتون، وبلغ قلبي حنجرتي. لكنها كانت صيحة سعادة خالصة، لأن القادمين الجديدين اللذين رأتهما كانا مايك كوسلو، وقد بدا وسيماً على نحو غريب وهو يرتدي معطفًا صوفياً خفيفاً، وبوبي جيل ألنوت. ركضت سيدي إليهما... وتعثرت على قدم شخص ما، لكن مايك أمسك بها. لوّحت ببوبي جيل لي بشيء من الخجل.

صافحتُ مايك، وقبّلتُ ببوبي جيل على خدها. لاحظتُ أن الندبة صارت خطأً وردياً باهتاً. قالت: «يقول الطبيب إن الندبة ستختفي تمامًا بحلول الصيف القادم، وإنني الأسرع شفاءً بين كل مرضاه. والفضل يعود لك».

قال مايك: «أُسند إليّ دور في مسرحية موت بائع متجول يا أستاذ أمبرسون. سأؤدي دور بيف».

قلت: «شبيه بدورك السابق. احذر الفطائر المتطايرة».

رأيته يتحدث مع مغني الفرقة الرئيسي في أثناء إحدى الاستراحات، وعرفتُ يقيناً ما سيحدث لاحقاً. عندما عادوا إلى المنصة قال المغني: «لدي طلب خاص. هل لدينا هنا جورج أمبرسون وسَيدي دَنِهْل؟ جورج وسَيدي؟ تعالاً إلى هنا يا جورج وسَيدي، تحرّكا».

سرنا نحو منصة الفرقة وسط عاصفة تصفيق. ضحكت سَيدي واحمرت خجلاً، وهزّت قبضتها لمايك. ابتسم. بدتُ ملامح الفتية تغادر وجهه تدريجياً لتحل محلها ملامح الرجال. أعطى المغني إشارة البدء، فبدأ لحن آلات النفخ الذي ما زلت أسمعه في أحلامي.

باه - داه - داه... باه - داه - داه - داه - داه... دَم...

مددتُ يدي إلى سَيدي، فهزت رأسها، لكنها بدأت تؤرجح وركيها قليلاً.

صاحت بوبي جيل: «أرقصي معه يا آنسة سَيدي! افعلي ما تبرعين فيه!».

وانضم الحشد إليها: «هيا! هيا! هيا!».

استسلمت سَيدي وأمسكتُ يدي. رقصنا.

4

عند منتصف الليل عزفت الفرقة "نشيد الوداع"، على نحو مختلف عن العام الماضي، لكنه الأغنية الجميلة نفسها، وتساقطت البالونات ببطء. في كل مكان حولنا كان الأزواج يتعانقون ويتبادلون القبلات. فعلنا مثلهم.

قالت: «سنة جديدة سعيدة يا ج...». ابتعدت عني عابسة وسألتني: «ما الخطب؟».

فجأة تراءت لي صورة لمستودع الكتب المدرسية بتكساس، مبنى قبيح من القرميد ذو نوافذ كالأعين. هذا هو العام الذي سيصبح فيه أيقونة أمريكية.

لن يصبح أيقونة. لن أدعك تقترب إلى هذا الحد يا لي. لن تكون أبدًا عند نافذة ذلك الطابق السادس. هذا هو وعدي.

- جورج؟

- انشغل بالي فجأة، لا بأس. سنة جديدة سعيدة.

هممتُ بتقبلها، لكنها أمسكت بي بعيدًا للحظة.

- كاد أن يحين وقته، أليس كذلك؟ أقصد ما جئتُ لفعله.

- بلى، لكن ليس الليلة. الليلة لا شيء يشغل أحدنا عن الآخر. قبّليني يا عزيزتي. وارقصي معي.

5

عشتُ حياتين في نهاية 1962 وبداية 1963، الحياة الطيبة في جودي وكاندلوود-كيلين، والحياة الأخرى في دالاس.

لي ومارينا تصالحا. انتقلا أولاً إلى منزل خرب قريب من ويست نيلي، ساعدهما دي موهرنشيلدت، ولم يظهر جورج بوهي، ولا أي من المهاجرين الروس الآخرين. أبعدهم لي. كتب آل في ملاحظاته: كرهه الروس. وأضاف في السطر التالي: أراد أن يكرهوه.

المبنى المتداعي المشيد بالقرميد الأحمر رقم 604 بشارع إلزبيث مقسم إلى أربع أو خمس شقق تعج بسكان فقراء يكدحون في عملهم، ويسرفون في شربهم، وينجبون حشودًا من أطفال زاعقين ذوي أنوف

سائلة. مقارنةً بهذا المكان بدا لي منزل أوزوالد بشارع فورت وورث منزلاً جيداً.

لم أكن في حاجة إلى مساعدة جهاز إلكتروني لأراقب حالة زواجهما المتدهورة، استمرت مارينا في ارتداء السراويل القصيرة حتى بعد برودة الطقس، كأنها تريد مضايقة لي بكدماتها، وجاذبيتها الجنسية، بالطبع. وعادةً ما كنت أرى جُون تجلس بينهما في عربة الأطفال، لم تعد تبكي كثيرًا في أثناء صياحهما، بل تكتفي بالمشاهدة وهي تمص لَهَّايةً أو إبهامها.

ذات يوم في نوفمبر 1962، عدت من المكتبة وراقبت لي ومارينا وهما يصيحان ببعضهما عند تقاطع شارعي ويست نيلي وإلزيث. خرج عدة أشخاص (معظمهم نساء في تلك الساعة من اليوم) أمام منازلهم ليتفرجوا. وكانت جُون جالسة في العربة مقمطة ببطانية وردية مكسوة بالزغب، صامتة ومنسية.

كانا يتجادلان بالروسية، لكن موضوع مشادتهما بدا واضحًا من إصبع لي التي تشير إلى تنورة سوداء قصيرة ترتديها مارينا، والسحاب نصف المفتوح على وركها الأيسر، على الأرجح كان عالقًا فحسب، لكن من الاستماع إلى صياحه وهياجه قد يظن المرء أن مارينا كانت تتصيد الرجال في الشارع.

دفعْتُ شعرها إلى الخلف، وأشارت إلى جُون، ثم إلى المنزل الذي يسكنون فيه، مصرف الأمطار الذي تتقاطر منه مياه سوداء والقمامة وعلب الجعة المتناثرة على المرجة الأمامية الجرداء، وصاحت به بالإنجليزية: «تقول حياة سعيدة، ثم تجلب الزوجة والرضيعة إلى حظيرة الخنازير هذه!».

احمر وجه لي بكامله، وعقد ذراعيه أمام صدره النحيل، كأنه يريد لجمهما. لنجح في السيطرة على نفسه، في هذه المرة على الأقل، إذا لم

تضحك مارينا وتحرك إصبعها حول أذنها حركة دائرية بإشارة لا بد أنها شائعة في كل الثقافات. استدارت مبتعدة، لكن لي أمسكها مرتطمًا بعربة الأطفال حتى كاد يقلبها. لَكم مارينا فأسقطها على الرصيف المشقق، وغطت وجهها عندما انحنى لي فوقها، وصاحت: «لا، لي، لا! لا تضرب ثانية!».

لم يضربها ثانية. جذبها فأوقفها بعنف وهزها حتى تأرجح رأسها. «أنت!» . بوغتُ بصوت مشروخ من يساري، فأجفلتُ. «أنت يا فتى!» . التفتُ فرأيت امرأة عجوزًا مستندة إلى مشاية، كانت واقفة في شرفتها مرتدية رداء نوم وردي وفوقه سترة مبطنه، وشعرها الشائب منتصب ذكّرني بالسلا لانشستر عندما تعرضت لصعقة كهربائية قوية في فيلم برايد أوف فرانكنشتاين.

تابعتُ: «ذلك الرجل يضرب تلك المرأة! اذهب وأوقفه!» . قلت: «لا يا سيّدي». بدا صوتي مرتعشًا. وفكرتُ في إضافة: لا أتدخل بين رجل وزوجته. لكن لكانت كذبة، الحقيقة هي أنني لم أرغب في فعل أي شيء ربما يغيّر المستقبل. قالت: «أيها الجبان».

كدت أقول: اتصلي بالشرطة، لكن أمسكت لساني في آخر لحظة. إذا لم تخطر فكرة الاتصال بالشرطة للمرأة العجوز سلفًا، وأقنعتها بها، فربما يسبب هذا أيضًا تغييرًا في مسار أحداث المستقبل. هل تدخلت الشرطة يومًا؟ لم يُذكر هذا في دفتر ملاحظات آل. كل ما كنت أعرفه هو أن أوزوالد لم يقع في ورطة بسبب تعنيفه زوجته، مثل معظم الرجال في ذلك الزمان والمكان.

ثم رأيته يسحب مارينا في الرصيف بيد وبالأخرى يجر عربة الرضیعة. حدتني المرأة بنظرة عتاب أخيرة، ثم عادت إلى منزلها. وانسحب بقية المتفرجين أيضًا إلى منازلهم. انتهى العرض.

من صالة معيشتي صوّبْتُ منظاري نحو المبنى القرميدي. وبعد ساعتين، ما إن أوشكت على التخلي عن المراقبة، خرجت مارينا حاملةً حقيبة السفر الوردية الصغيرة بيد والرضيعة المقمطة بالبطانية باليد الأخرى، وكانت قد خلعت التنورة المغضوب عليها وارتدت بنطالاً وما بدا لي كُسترتين، إذ ازدادت برودة الجو، وهرعت في الشارع وهي تلتفت بين الفينة والأخرى متوقعة ظهور لي خلفها. وبعدما تأكدتُ أن لي لن يتبعها، تبعْتُها.

ذهبتُ حتى محل "مستر كار ووش" على بعد أربعة مربعات سكنية في شارع ويست ديفيز، واستخدمت الهاتف العمومي هناك. جلستُ عند موقف الحافلات وأمامي صحيفة مفتوحة. وبعد عشرين دقيقة ظهر العجوز جورج بوهي، تكلم معها بجدية، ثم اقتادها إلى سيارتها وفتح لها الباب. ابتسمتُ وقبلته سريعاً على طرف شفتيه. لا بد أنه كان يهتم لأمرهما الاثنين. ثم ركب خلف عجلة القيادة وانطلق مبتعداً.

6

في تلك الليلة نشبت مشادة أخرى أمام المنزل الكائن بشارع إلزبيث، ومرة أخرى خرج معظم الجيران ليتفرجوا. انضمتُ إليهم شاعراً بالأمان وسط الناس.

أرسل شخصٌ ما، لا بد أنه بوهي، جورج وجين دي موهرنشيلدت ليجلب بقية أشياء مارينا، على الأرجح أدرك بوهي أنهما الوحيدان اللذان يمكنهما دخول المنزل دون أن يمنعهما لي بالقوة.

صاح لي: «علي اللعنة إذا سمحتُ لكما بأخذ أي شيء». غافلاً عن الجيران المُنتشين الذين يسمعون كل كلماته. انتفخت عروق عنقه، ومجدداً اصطبغ وجهه بلون أحمر ملتهب. لا بد أنه كره احمرار وجهه كفتاة صغيرة ضُبطت وهي تمرر رسالة حب.

رأى دي موهرنشيلت أن ينتهج نهجاً عقلانياً: «فكر يا صديقي. بهذه الطريقة ما زالت لديك فرصة لإصلاح زواجك. لكن إذا أرسلت الشرطة....». هز كتفيه ورفع كفيه نحو السماء.

قال لي: «أمهلني ساعة إذن». بدت أسنانه، لكن تعابيره كانت أبعد ما تكون عن ابتسامة: «حتى أمزق بسكيني أحد فساتينها، وأكسر إحدى الألعاب التي أرسلها أولئك الأوغاد لشراء ابنتي».

«ماذا يجري؟». سألني شاب، بدا في العشرين من عمره، توقف بدراجته الهوائية ماركة شوين.

- شجار منزلي على ما يبدو.

- أوزمونت، أو أيًا يكن اسمه، صحيح؟ السيدة الروسية هجرته؟ أرى أنها تأخرت. ذلك الرجل مجنون. إنه شيوعي، أتعرف؟

- أظنني سمعتُ شيئاً من هذا القبيل.

صعد لي سلم الشرفة بخطوات ثابتة رافعاً رأسه، كأنه نابليون منسحباً من موسكو، وعندئذٍ صاحت به جين دي موهرنشيلت بحدة: «كف عن هذا أيها الأحمق».

استدار لي إليها، متسع العينين، غير مصدق... ومتألماً. ونظر إلى دي موهرنشيلت ولسان وجهه يقول: ألا تستطيع السيطرة على زوجتك؟ لكن دي موهرنشيلت ظل صامتاً. وبدأ أنه يجد الموقف مُسلياً، كشخص في مسرح يشاهد مسرحية لا بأس بها، ليست عظيمة، ليست لشكسبير، لكن لا بأس بها بوصفها وسيلة لتزجية الوقت.

قالت جين: «إذا كنت تحب زوجتك يا لي، فبحق الرب كف عن أفعال الأطفال المشاغبيين المدللين. اضبط سلوكك».

- لا أسمح لك بالتكلم معي هكذا.

عند التوتر صارت لكنة لي الجنوبية ثقيلة على نحو واضح.

قالت: «سأتكلم. دعنا نأخذ أشياءها، وإلا فسأتصل بالشرطة بنفسي».

- قل لها أن تصمت وتهتم بشأنها يا جورج.

أطلق دي موهرنشيoldt ضحكة جذلة وقال: «اليوم أنت شأننا يا لي». ثم تابع بجدية: «بدأت أفقد احترامي لك أيها الرفيق. دعنا ندخل الآن. إذا كنت تقدر صداقتي كما أقدر صداقتك، فدعنا ندخل الآن».

تهذلت كتفا لي وانتحي جانباً. صعدت جين السلم دون أن تلقي على الرجل نظرة، لكن دي موهرنشيoldt توقف وأحاط بذراعيه لي، الذي صار نحيلًا إلى درجة مؤلمة، وعانقه بقوة. وبعد لحظة بادله أوزوالد العناق. أدركتُ (بمزيج من الشفقة والنفور) أن الصبي لي -وقد كان صبيًا في الحقيقة- بدأ يبكي.

سألني الشاب صاحب الدراجة: «ما هذان؟ هل هما شاذان؟».

قلت: «إنهما شاذان بالفعل، لكن ليس كما تظن».

7

في يوم لاحق من ذلك الشهر، عُدت من إحدى عطلات نهاية الأسبوع التي أقضيها مع سيدي، ووجدت أن مارينا وجون عادتا لتعيشا في تلك الحفرة القذرة بشارع إلزبيث. لمدة قصيرة عاشت الأسرة في سلام، كان لي يذهب إلى عمله (صناعة الصور الفوتوغرافية المكبرة بدلاً من أبواب الألومنيوم) ويعود إلى المنزل، وأحياناً يجلب معه زهوراً، وكانت مارينا تستقبله بالقبلات، وذات يوم أرته المرجة الأمامية بعدما نظفتها من القمامة المتناثرة فيها، صفق لها، فضحكت. وعندئذ رأيت أن أسنانها قد عولجت. لا أعرف مدى مساهمة جورج بوهي في ذلك، لكن أظنها كبيرة. شاهدت هذا المشهد من زاوية الشارع، ومرة أخرى أجفلت إثر سماعي الصوت المشروخ، صوت السيدة العجوز التي تستعين بمشاية: «لن يدوم هذا الحال، كما تعرف».

قلت: «قد تكونين محقة».

قالت: «على الأرجح سيقتلها. رأيت هذا من قبل». أسفل شعرها المكهرب رمقتني عيناها بازدراء بارد، وأردفت: «وأنت لن تتدخل، أليس كذلك يا عزيزي؟».

- سأتدخل. إذا ساء الوضع كثيرًا، فسأتدخل.

كان وعدًا اعتزمتُ الوفاء به، لكن ليس من أجل مارينا.

8

في اليوم التالي ليوم عشاء سيدي بمناسبة يوم الصناديق، وجدت رسالة من أوزوالد في صندوق بريدي، لكنها كانت موقعة باسم أ. هيدل. وهذا الاسم المستعار مذكور في دفتر آل. أ. اختصار لـ "ألك"، لقب التدليل الذي كانت مارينا تطلقه عليه أيام إقامتهما في منسك.

هذا التواصل لم يزعجني، إذ بدا أن الرسالة نفسها أرسلت إلى كل قاطني الشارع. طُبعت المنشورات على ورق وردي (على الأرجح مسروق من مكان عمل أوزوالد الحالي)، ورأيت قرابة عشر منها متناثرة في مجاري تصريف الأمطار. سكان حي أوك كلف بدالاس ليسوا معروفين باهتمامهم بوضع القمامة في مكانها.

تظاهروا ضد القناة التاسعة الفاشية!

وكر داعية الفصل العنصري بيلي جيمس هارغس!

تظاهروا ضد الجنرال السابق الفاشي إدوين ووكر!

قرر القائمين على البرنامج التلفزيوني في القناة 9، الذي أسماه بيلي جيمس هارغس "التبشير المسيحي"، استضافة الجنرال إدوين

ووكر، وهو فاشي يميني شَجَّع جون كينيدي على غزو شعب كوبا المسالم وأذكى «حديث الكراهية» ضد السود والدمج، في جميع أنحاء الولايات الجنوبية. (من يشك في دقة هذه المعلومة عليه مراجعة دليل برامج التلفاز). هذان الرجلين يدعمان كل ما قاتلنا ضده في الحرب العالمية الثانية، وأحاديثهما الفاشيه المتعصبة لا مكان لها في برامجنا التلفزيونية. إدوين ووكر كان أحد المؤمنين بتفوق العرق الأبيض الذين حاولوا منع جيمس مرديث من الالتحاق بجامعة مسيسيبي. اذا كنتم تحبون أمريكا، احتجّوا على بث البرنامج الذي يقدم رجلين يحضّان على الكراهية والعنف. اكتبوا رسائل! أو يستحسن أن تأتوا إلى مقر القناة 9 في 27 ديسمبر وتظاهروا!

أ.هيدل

رئيس جمعية "ارفعوا أيديكم عن كوبا"

فرع دالاس - فورت وورث

تأملت لوهلة وجيزة الأخطاء الإملائية، ثم طويت الورقة ووضعتها في الصندوق الذي أحتفظ فيه بمخطوطتي كتابي.

إذا حدثت المظاهرة الاحتجاجية في المحطة، لم يُكتب تقرير عنها في سلايمز دالاس في اليوم التالي لبرنامج هارغس-ووكر، لا أظن أن أحدًا قد ذهب إلى مكان المظاهرة، حتى لي نفسه. لم أذهب بالطبع، لكنني فتحت القناة التاسعة مساء الخميس، مستعجلًا رؤية الرجل الذي سيحاول لي -على الأرجح لي- أن يقتله عما قريب.

في البداية ظهر هارغس وحده، جالسًا خلف مكتب، متظاهرًا بكتابة ملاحظات مهمة بينما تغني جوقة "أنشودة المعركة". كان رجلًا يميل للبدانة وذا شعر أسود كثيف. ومع تلاشي صوت الجوقة، وضع قلمه ونظر إلى الكاميرا، وقال: «مرحبًا بكم في برنامج التبشير المسيحي.

أَتَيْتَكُمْ بخبر طيب. يسوع يحبكم. أجل، يحبكم جميعًا. هلَّا انضممتُم إليَّ في دعاء؟».

استمر هارغس عشر دقائق على الأقل. الدعوات المعتادة، شاكرًا الرب على فرصة نشر الإنجيل وتسخيرِه هو ليبارك الذين أرسلوا إليه هدايا الحب، ثم تطرق لموضوعه المهم، سائلًا الرب تسليح قومه المختارين بسيف ودرع حتى يتمكن من هزيمة الشيوعية، التي أطلَّت برأسها القبيح على بُعد تسعين ميلًا من سواحل فلوريدا. وسأل الرب أن يُنعم على الرئيس كينيدي بالحكمة (التي يَنعم هارغس بها سلفًا لأنه أقرب إلى الرب) حتى يتدخل في كوبا ويستأصل شأفة الشر. كما طلب من الرب أن يضع حدًا للتهديد الشيوعي المتنامي في الجامعات الأمريكية. بدا لي أن للموسيقى الفولكلورية علاقة بالأمر، لكن هارغس التبس عليه الكلام. واختتم بشكر الرب على وجود ضيفه معه الليلة، بطل معركتي أنسيو وخزان شانجين، الجنرال إدوين ووكر.

لم يظهر ووكر ببزة عسكرية، لكن ببدة بلون الخاكي تشبه البزة. وبدأت خطوط ثنيات البنطال حادة إلى درجة يمكن الحلاقة بها. ذكّرني وجهه المتحجر بممثل أفلام رعاة البقر راندولف سكوت. صافح هارغس، وتحدثا عن الشيوعية، التي لم يقتصر تفشيها على الجامعات فحسب، بل أيضًا في أروقة الكونغرس والمجتمع العلمي. وتحدثا قليلًا عن جدل معالجة الماء بالفلوريد. ثم ثرثرا عن كوبا، التي أسماها ووكر «سرطان الكاريبي».

رأيت بنفسي سبب فشل ووكر الذريع عندما ترشح لمنصب حاكم ولاية تكساس في العام السابق. إذا وقف أمام صف مدرسة ثانوية لنام الفتية حتى إذا كانت الحصاة الأولى في الصباح. لكن هارغس ظل يسانده في الكلام بسلاسة، ويصيح: «مجدّوا يسوع!» أو «الرب على ما نقول شهيد يا أخي!» كلما تعثر الحوار. ناقشا مستجدات التبشير

في الجنوب. ثم دعا هارغس ووكر لتنقية الأجواء فيما يتعلق باتهامات الفصل العنصري التي طُفّت إلى السطح في صحف نيويورك وأماكن أخرى.

وأخيرًا نسي ووكر أنه على التلفاز ودبّت فيه الحياة: «تعرف أن كل ذلك ليس سوى دعاية شيوعية».

قال هارغس متحمسًا: «أعرف ذلك! والرب يريد منك قول ما لديك يا أخي».

قال ووكر: «قضيتُ حياتي في الجيش الأمريكي، وسأكون جنديًا في صميم قلبي حتى يوم مماتي». (سيكون يوم مماته بعد قرابة ثلاثة أشهر إذا نال لي مُرادُه). «وقد ظلت دومًا أؤدي واجبات الجندية. عندما أمرني الرئيس أيزنهاور بالذهاب إلى ليتل روك في أثناء الاضطرابات المدنية عام 1957 -التي كانت متعلقة بقضية الدمج القسري لمدرسة سنترال الثانوية، كما تعرف- أدّيتُ واجبي. لكن يا بيلي، أنا أيضًا أحد جنود الرب...».

- جندي مسيحي ملتزم! مَجِدُوا يسوع!

- وبوصفي مسيحيًا، أعرف أن الدمج القسري خطأ سافر. خطأ يتعارض مع الدستور، وحقوق الولايات، ويتعارض مع الإنجيل.

قال هارغس: «قُل ما لديك!». ومسح دمعة على خده، أو ربما كانت قطرة عرق تسرّبت عبر مكياجه.

تابع ووكر: «هل أكره العرق الزنجي؟ مَنْ يقولون هذا -والذين سعوا إلى إبعادي من الخدمة العسكرية- كاذبون وشيوعيون. أنت تعرف هذا، والرجال الذين خدمتُ معهم يعرفون، والرب يعرف». مال إلى الأمام وأردف: «أتظن أن الأساتذة الزوج في ألاباما وأركنساس ولويسيانا وولاية تكساس العظيمة يريدون الدمج؟ لا يريدونه، يرونه إهانة لمهاراتهم واجتهادهم. أتظن أن الطلاب الزوج يريدون الذهاب

إلى مدرسة طلابها البيض أفضل استعدادًا للقراءة والكتابة والحساب؟
أتظن أن الأمريكيين الحقيقيين يريدون التمازج العرقي الذي سيتمخض
عنه هذا الاختلاط؟».

- بالطبع لا يريدون! مجّدوا يسوع!

تذكّرتُ اللافتة التي رأيتها في نورث كارولينا، اللافتة التي تشير إلى
درب على جانبيه أجمات اللبلاب السام. مكتوبًا عليها: للملّونين. لم يكن
ووكر يستحق القتل، لكن لم أر بأسًا في تأديبه قليلًا.

تشتت انتباهي لحظات، ثم استعدّته فورًا إثر سماعي كلامًا كان يقوله
ووكر: «كان الرب، وليس الجنرال ووكر، هو الذي جعل مكانة الزوج
كما هي عليها، وهو الذي أعطاهم لون جلد مختلفًا ومجموعة مهارات
مختلفة. مهارات رياضية. ماذا يقول الإنجيل لنا عن هذه الاختلافات؟
ولماذا ابتلي العرق الزنجي بالألم والمعاناة المريرة؟ ما علينا سوى
الاطلاع على الفصل التاسع من سفر التكوين يا بيلي».

- مجّدوا الرب وكلماته المقدسة!

أطفأت التلفاز.

9

ما رأيته من لي ومارينا في يناير وفبراير من عام 1963 ذكّرني
بتيشيرت كانت كرستي ترتديه أحيانًا في السنة الأخيرة من زواجنا،
بالأمام رسم قرصان مبتسم ابتسامة شرسة، وأسفله مكتوب: الضرب
سيستمر حتى تتحسن المعنويات. شهد المنزل رقم 604 بشارع
إلزيث كثيرًا من الضرب في ذلك الشتاء. سمع سكان الحي زعيق لي
وصراخ مارينا من الألم أحيانًا ومن الغضب أحيانًا أخرى، ولم يحرك
أحد ساكنًا، بمن فيهم أنا.

لم تكن مارينا الزوجة الوحيدة التي تتعرض للضرب باستمرار في أوك كليف، بل بدت الشجارات الليلية في أيام الجمعة والسبت كأنها تقليد محلي. أتذكر أن كل ما أردته في تلك الشهور الكئيبة هو انتهاء هذا المسلسل الدرامي حتى تتسنى لي مرافقة سيدي بدوام كامل. رأيت أن أتحقق من أن لي كان وحده عندما حاول قتل الجنرال ووكر، ثم أنجز مهمتي. تصرف أوزوالد وحده مرة واحدة لم يكن يعني بالضرورة أنه تصرف وحده في المرتين، لكن لم يكن بوسعي التأكد أكثر من هذا. بعدما أهتم بكل التفاصيل، سأختار الوقت والمكان المناسبين وأردي لي أوزوالد قتيلاً بدم بارد كما أردتُ فرانك دننغ.

مر الوقت. ببطء، لكنه مر. ثم ذات يوم، بعد وقت ليس بالطويل من انتقال أسرة أوزوالد إلى شقة شارع نيلي الواقعة فوق شقتي، رأيت مارينا تتكلم مع السيدة العجوز صاحبة المشاية وشعر إلسا لانشستر. رأيتهما مبتسمتين. سألت السيدة العجوز سؤالاً، فضحكت مارينا، وأومات، ومدت يديها أمام بطنها.

كنت أقف عند نافذتي والستائر مفتوحة قليلاً، ممسكاً المنظار بيد وفمي متدلاً مفتوح. لم يذكر آل في دفتر ملاحظاته شيئاً عن هذا التطور، إما لأنه لم يعرف وإما لأنه لم يكثرث. لكنني اكثرث.

زوجة الرجل الذي انتظرتُ أكثر من أربعة أعوام حتى أقتله كانت حبلى مرة أخرى.

الفصل الحادي والعشرون

1

صار أوزوالد وزوجته جيراني الذين يقطنون الطابق الأعلى في 2 مارس 1963. جاءا حاملين أمتعتهما بأيديهما، معظمها في صناديق متجر مشروبات كحولية من الورق المقوى، من المبنى القرميدي المتداعي في شارع إلزبيث. وسرعان ما دارت عجلات جهاز التسجيل الياباني الصغير بانتظام، لكن في معظم الأحيان كنت أسمع بسماعات أذني، هكذا صرت أستمع لحوارات الطابق الأعلى بسرعتها الطبيعية بدلاً من سرعة التسجيل البطيئة، لكن بالطبع لم أفهم كثيرًا مما سمعته على أي حال.

بعد أسبوع من انتقال أسرة أوزوالد إلى مسكنهم الجديد، زرتُ أحد محلات الرهن في جادة غرينفيل لأشتري مسدسًا، وأول مسدس يعرضه علي صاحب المحل كان كولت 38. نفسه الذي اشتريته في ديري.

قال صاحب المحل: «هذه وسيلة حماية ممتازة ضد لصوص الشوارع ومقتحمي المنازل. دقته مميتة حتى مسافة عشرين ياردة».

قلت: «خمس عشرة. سمعتُ خمس عشرة ياردة».

رفع المسترهن حاجبيه قائلاً: «حسنًا، فلنقل خمس عشرة. أي شخص غبي بما يكفي لـ...».

...لمحاولة سرقة نقودي سيكون أقرب من ذلك بكثير.

- ...لمحاولة الاعتداء عليك سيكون قريبًا منك. ماذا تقول إذن؟

خطر لي أولاً، لا لشيء سوى كسر التناغم الحاضر دومًا بدرجةٍ ما، أن أقول له إنني أريد مسدسًا آخر، ربما 45.، لكن رأيتُ أن كسر التناغم ربما يكون فكرة سيئة. مَنْ يعرف؟ ما كنت أعرفه هو أن الـ 38. الذي اشتريته في ديري أنجز المهمة.

- كم الثمن؟

- سأدعك تأخذه باثني عشر.

أكثر بدولارين من المبلغ الذي دفعته في ديري، لكن بالطبع كان ذلك قبل أربع سنوات ونصف. بدت اثنا عشر دولارًا معقولة نظرًا إلى تضخم الأسعار. طلبت منه إضافة صندوق رصاص واتفقنا.

ثم عندما رأيَ المسترهن أضع المسدس والرصاصات في الحقيبة اليدوية التي جلبتها معي لهذا الغرض، قال: «لِمَ لا تدعني أبيع لك جرابًا يا بُني؟ من كلامك لا تبدو من ولاية قريبة، وعلى الأرجح لا تعرف أن حمل السلاح مسموح به قانونيًا في تكساس، ولا تحتاج إلى تصريح إذا لم يكن لديك سجل جنائي. هل لديك سجل جنائي؟».

- لا، لكنني لا أتوقع التعرض لاعتداء في وضح النهار.

ابتسم ابتسامة قاتمة وقال: «في جادة غرينفيل لا يمكنك توقع ما سيحدث أبدًا. قبل بضعة أعوام فجّر رجلُ رأسه بنفسه في مكان قريب من هنا».

- حقًا؟

- نعم سيّدي، خارج حانة اسمها وردة الصحراء. انتحر الرجل بسبب امرأة، بالطبع.

- أظن ذلك. لكن أحيانًا تكون السياسة هي السبب.

- لا، لا، إذا نبشتَ عميقًا ستجد أن السبب امرأة دومًا يا بُني.

كنت قد وجدت موقف سيارات على بعد أربعة مربعات سكنية غرب متجر الرهن، وحتى أعود إلى سيارتي الجديدة (الجديدة عندي)، كان لا بد أن أمر بمحل فيث فاينانشال، حيث راهنتُ على فريق بايرتس في خريف عام 1960. الرجل اللافت الذي دفع لي مبلغ ألف ومئتي دولار كان واقفاً أمام المحل، يدخن مرتدياً نظارته الخضراء، وقعتُ عيناه علي، لكن لم يعرفني أو يهتم حسبما بدا لي.

كان ذلك في عصر يوم جمعة، وقدت سيارتي من جادة غرينفيل مباشرة إلى كيلين، حيث التقنتي سيدي في بيت ضيافة كاندلوود، وأمضينا الليلة معاً كما جرت عادتنا في ذلك الشتاء. في اليوم التالي قادت سيارتها عائدة إلى جودي، حيث ذهبنا إلى الكنيسة معاً يوم الأحد، وبعد المباركة، في أثناء مصافحتنا جميع من حولنا، قائلين «فليصحبكم السلام»، شردتُ بأفكاري، منزعجاً، إلى المسدس الذي خبأته في صندوق سيارتي الخلفي.

وفي أثناء تناولنا وجبة الظهر يوم الأحد نفسه، سألتني سيدي: «كم تبقى من الوقت حتى تفعل ما عليك فعله؟».

- إذا سار كل شيء كما آمل، فسأنتهي في غضون شهر.

- وإذا لم تسر الأمور كما تشاء؟

مررتُ يدي على شعري وذهبت إلى النافذة. «لا أدري. هل يشغل بالك أمر آخر؟».

قالت بهدوء: «نعم، ثمة فطيرة كرز، أتود كريمة مخفوقة في فطيرتك؟».

- بالتأكيد. أحبك يا عزيزتي.

قالت: «يجدر بك». ونهضت لتجلب التحلية. «لأنني أجازف».

ظلت واقفاً عند النافذة. ومرّت سيارة في الشارع ببطء، قديمة لكنها بحالة جيدة، فأحسستُ بذلك الإيقاع التناغمي مجدداً. لكن في ذلك الوقت كنت أحس به دوماً، وأحياناً لم يكن يعني شيئاً. إشارة خاطئة تبدو حقيقية. وهذه أيضاً من عبارات "جمعية مدمني الكحول المجهولين" التي كانت ترددها كرستي.

لكن هذه المرة أدركتُ الصلة الخفية. كانت السيارة بليموث فيوري باللونين الأبيض والأحمر، مثل التي رأيته في موقف سيارات مصنع ورَمبو، على مقربة من سقيفة التجفيف حيث يوجد جحر الأرنب الذي يفضي إلى عام 1958. تذكرتُ أنني عندئذٍ لمست صندوق السيارة الخلفي لأتأكد أنها حقيقية. هذه السيارة التي مرت أمامي لوحتها تعود إلى ولاية أركنساس، ليس مَين، ورغم هذا، إنه ذلك الإيقاع... ذلك الإيقاع التناغمي. أحياناً كنت أحس أنني إذا عرفت ما يعنيه الإيقاع فسأعرف كل شيء. فكرة غبية على الأرجح، لكن هذا ما أحسست به.

قلت مع نفسي: رجل البطاقة الصفراء كان يعرف. كان يعرف وقتلته معرفته.

غادرتُ آخر إشاراتي التناغمية، انعطفتُ عند الإشارة الضوئية واختفت ناحية الشارع الرئيسي.

قالت سيّدي من خلفي: «تعال وكُل التحلية». فأجفلتُ.

أعضاء "جمعية مدمني الكحول المجهولين" يقولون أيضاً إن على المرء أحياناً أن يقول سحراً لكل شيء ويهرب.

3

عندما عدت إلى شارع نيلي في تلك الليلة، وضعت سماعات أذني واستمعت إلى آخر تسجيل. توقعت أنني لن أسمع سوى الروسية، لكن هذه المرة سمعت الإنجليزية أيضاً، وأصوات رش مياه.

مارينا: (تتكلم بالروسية).

لِي: «لا أستطيع يا ماما، أنا في حوض الاستحمام مع جوني!».»

(مزيد من الرش، والضحكات، ضحكات لِي والرضيعة الجذلة).

لِي: «ماما، رششنا الماء على الأرضية! جوني رسته! فتاة سيئة!».»

مارينا: «امسحوها! أنا مشغولة! مشغولة!».» (لكن ضاحكة أيضاً).

لِي: «لا أستطيع، أتريدين للرضيعة أن...».» (بالروسية).

مارينا: (تتكلم بالروسية. توبخ وتضحك في آن واحد).

(مزيد من رش الماء. مارينا تدندن أغنية بوب من إذاعة كيه إل آي إف. صوتها حلو).

لِي: «ماما، اجلبي لنا ألعابنا».

(صوت نثر الماء، عال. لا بد أن باب الحمام فُتح حتى آخره).

مارينا: (تتكلم بالروسية).

لِي: (بصوت صبي صغير متذمر) «ماما، نسيتِ كُرتنا المطاطية».

(رش عال. الرضيعة تصرخ مبتهجة).

مارينا: «ها هي، كل الألعاب للأمير والأميرة».

(ثلاثتهم يضحكون. تعتريني برودة من بهجتهم).

لِي: «ماما، اجلبي لنا...» (كلمة روسية) دخل الماء في آذاننا».

مارينا: (ضاحكة) «يا إلهي، وماذا بعد؟».

اضجعت مستيقظاً مدة طويلة في تلك الليلة، مشغولاً بالتفكير في ثلاثتهم. كانوا سعداء، ولمَ لا؟ المنزل رقم 214 بشارع ويست نيلي لم يكن رائعاً، لكنه خطوة للأمام. ربما كانوا ينامون على السرير نفسه، وجون تشعر بالسعادة لمرة بدلاً من الخوف.

والآن معهم رابع في السرير، الجنين الذي ينمو في بطن مارينا.

4

بدأت الأحداث تتسارع، كما حدث في ديري، لكن الآن سهم الزمن منطلق نحو 10 أبريل بدلاً من عيد الهالوين. ولم أعد أجد عوناً كبيراً في دفتر ملاحظات آل رغم أنني اعتمدت عليها كثيراً حتى أصل إلى هذه المرحلة. فيما يلي الأحداث المؤدية إلى محاولة اغتيال ووكر، ركّز آل على أفعال لي وتحركاته، وفي ذلك الشتاء حدثت تطورات كثيرة في حياتهما، مارينا تحديداً.

إحداها أنها اكتسبت صديقة أخيراً، ليس من الرجال الأثرياء كبار السن المعجبين من أمثال بوهي، اسمها روث باين، تتحدث الروسية. كتب آل بأسلوب مقتضب مغاير لأسلوب ملاحظاته السابقة: التقتا في حفل؟ 63/2. كانت مارينا منفصلة عن لي وتعيش مع باين في وقت وقوع اغتيال كينيدي. ومن ثم، كأنما خطر له الملاحظة لاحقاً ولم يستشعر أهميتها، أضاف: خبأ لي م.ك. في مرأب منزل باين، ملفوفة ببطانية.

كان يقصد ب م.ك. بندقية "مانليكر-كاركانو" التي خطط لي لقتل الجنرال ووكر بها.

لا أعرف من الذي أقام الحفل عندما التقى لي ومارينا باين وزوجها. لا أعرف من عرفهم إلى بعضهم. دي موهرنشايلدت؟ بوهي؟ أحدهما على

الأرجح، فبحلول ذلك الوقت صار بقية المهاجرين يتحاشون أوزوالد وزوجته. رأوا لي متعجرفاً يدّعي معرفة كل شيء، ومارينا خاضعة أتاحت لها فرص، لا يعلم عددها سوى الرب، لهجر زوجها إلى الأبد.

ما أعرفه هو أن فرصة هروب محتملة جاءت إلى مارينا خلف عجلة قيادة شيفروليه -باللونين الأبيض والأحمر- في يوم ماطر في منتصف مارس. ركنت السيارة عند الرصيف ونظرت إلى ما حولها متشككة، كأنها غير متأكدة من مجيئها إلى العنوان الصحيح. كانت روث باين طويلة (لكن ليست كسَيدي) ونحيلة جداً، وشعرها الضارب للبنى يغطي جزءاً كبيراً من جبينها ومنسدل بالخلف، على نحو لا يبرز جمالها، وكانت تضع نظارة بلا إطار على أنف يتخلله النمش. بدت لي، وأنا أختلس النظر عبر فرجة في الستائر، من نوع النساء النباتيات ويشاركن في التظاهرات المناهضة للأسلحة النووية... وهذا ما كانت عليه روث باين تقريباً، على ما أظن، امرأة عصرية قبل أن تصبح العصرية موضة رائجة مرغوبة.

لا بد أن مارينا كانت تترقب وصولها، إذ خرجت مهرولة إلى الخارج حاملة الرضیعة وعلى رأسها بطانية لحمايتها من رذاذ مطر خفيف. ابتسمت روث باين ابتسامة مترددة وتكلمت بحذر، بكلمات متقطعة: «مرحباً، السيدة أوزوالد. أنا روث باين. هل تتذكريني؟».

قالت مارينا: «بالطبع، نعم». ثم أردفت بكلمات روسية. وردّت روث باللغة نفسها... لكن بتردد.

دعتها مارينا للدخول. انتظرتُ حتى سمعت وقع أقدامهما فوقی، ثم وضعت سماعة أذني المتصلة بجهاز التنصت في المصباح. سمعتُ حوارًا بمزيج من الإنجليزية والروسية. صححتُ مارينا روث عدة مرات، ضاحكة أحياناً. فهمتُ ما يكفي لمعرفة سبب مجيء روث باين. مثل

بول غريغوري أرادت دروسًا في اللغة الروسية. وفهمتُ أمرًا آخر من ضحكاتها المتكررة وسلاسة حديثهما: استلطفْتُ كلتاهما الأخرى.

كنت سعيدًا من أجل مارينا. إذا قتلتُ أوزوالد بعد محاولته اغتيال الجنرال ووكر، فربما تساعدنا وتؤويها روث باين العصرية. استطعت أن أمل.

لم تأت روث سوى مرتين إلى شارع نيلي من أجل دروسها، وبعدها ركبْتُ مارينا وجون مع روث في سيارتها وذهبوا، على الأرجح إلى منزلها في حي إرفينغ الراقي (بمعايير أوك كليف على الأقل). وعنوان منزل روث لم يُذكر في دفتر ملاحظات آل -إذ بدا أنه قليل الاهتمام بعلاقة مارينا بروث، على الأرجح لأنه توقع أن يتخلص من لي قبل مدة طويلة من وصول تلك البندقية إلى مرأب باين- لكنني وجدته في دليل الهاتف: المنزل رقم 2515 بشارع ويست فيفث.

ذات عصر يوم غائم في مارس، بعد قرابة ساعتين من مغادرة مارينا وروث، جاء لي وجورج دي موهرنشيلدت بسيارة الأخير، ترجَّل لي حاملًا كيسًا ورقيًا بُنيًا مطبوعًا على جانبه ببينو.. أفضل طعام مكسيكي، وحمل دي موهرنشيلدت ست علب جعة "دوس إكيس". صعدا عبر السلم الخارجي وهما يتحدثان ويضحكان. وضعت سماعات أذني وقلبي يخفق بشدة. في البداية لم أسمع شيئًا، ثم أضاء أحدهما المصباح، فصرتُ كأَنني ثالثهما غير المرئي.

قلت مع نفسي: أرجوكم لا تتآمرا لقتل ووكر، أرجوكم لا تصعبا مهمتي أكثر مما هي صعبة سلفًا.

قال لي: «عُذْرًا على الفوضى، هارينا لا تفعل شيئًا هذه الأيام سوى النوم ومشاهدة التلفاز والحديث عن تلك المرأة التي تدرّسها».

تحدث دي موهرنشيلدت مدة عن عقود تنقيب عن النفط يحاول الحصول عليها في هايتي، وتحدث بقسوة عن نظام دوفالييه القمعي:

«وفي النهاية، تسير الشاحنات وسط السوق وتحمل الموتى، كثير منهم أطفال ماتوا جوعاً».

قال لي مغموماً: «كاسترو والجبهة سيضعون حداً لذلك».

تخلل كلام دي موهنشيoldt رنين قنّان: «فلتسرّع العناية الإلهية مجيء ذلك اليوم». على الأرجح كانا يشربان نخب فكرة تسريع العناية الإلهية لمجيء ذلك اليوم. «كيف حالك مع العمل يا رفيق؟ ولماذا لست هناك الآن؟».

قال لي إنه ليس هناك لأنه أراد أن يكون هنا. هكذا ببساطة. ترك العمل فجأة وغادر. «ماذا سيفعلون؟ أنا أفضل تقني تصوير لدى العجوز بوبي ستوفال، وهو يعرف ذلك. رئيس العمل، اسمه (لم أستطع سماعه جيداً، ربما قال غراف أو غريف) يقول لي "كُف عن محاولة لعب دور منظم عمال يا لي". أتعرف ما أفعله عندئذٍ؟ أضحك وأقول "حسنًا يا سفينويب⁽¹⁾" وأسير مبتعداً. إنه وغد حقير، وكل الناس يعرفون ذلك».

ومع هذا بدا واضحاً أن لي كان يحب عمله، رغم تدمره من سلوك مديره الأبوي، وإعطاء الأقدمية الأولية على المهارة. وفي لحظة ما قال: «أتعرف؟ في منسك، إذا أُتيح مبدأ تساوي الفرص، لصرت أدير المكان في غضون عام».

- أعرف ذلك يا بُني، هذا واضح تماماً.

كنت متأكداً أن دي موهنشيoldt يسايره، ويضخم غروره. لم يعجبني ذلك.

سأله لي: «هل قرأت الصحيفة صباح اليوم؟».

- لم أقرأ شيئاً سوى برقيات ومذكرات عمل صباح اليوم. لماذا تظنني هنا إذا لم أرغب في الابتعاد عن مكتبي؟

(1) كلمة روسية شديدة البذاءة. (المترجم)

قال لي: «فعلها ووكر. انضم إلى حملة هارغس الصليبية، أو ربما تكون حملة ووكر وهارغس انضم إليه. لست متأكدًا. هذان المغفلان سوف يجوبان الولايات الجنوبية كلها، ويقولون للناس إن الجمعية الوطنية للنهوض بالملونين واجهة شيوعية. سوف يعيدان قضايا الدمج وحقوق التصويت إلى ما كانت عليه قبل عشرين عامًا».

- بالتأكيد! ويؤججون الكراهية. كم من الوقت سينقضي قبل أن تبدأ المجازر؟

- أو قبل أن يطلق شخص النار على رالف أبرناثي ود. لوثر كينغ! قال دي موهرنشيoldt بنبرة يشوبها الضحك: «بالأكيد سوف تُطلق النار على كينغ، إنها مسألة وقت ليس إلا».

كنت واقفًا، ضاغطًا السماعات على جانبي رأسي بشدة، ووجهي يتصبب عرقًا. كنت أستمع إلى خطب جلل، بدايات المؤامرة.

فتح أحدهما قنينة جعة مكسيكية أخرى، وقال لي: «ينبغي أن يوقف شخص ما هذين الوغدين».

قال دي موهرنشيoldt بنبرة مُحاضر: «أخطأت بوصفك جنرالنا ووكر بالمغفل. هارغس، أجل، حسنًا، إنه أضحوكة. سمعت أنه، مثل كثير ممن على شاكلته، رجل ذو ميول جنسية منحرفة».

تهدج صوت لي كأنه مراهق: «رباه، إنه مريض!». ثم ضحك.

- أما ووكر... فمن طينة مختلفة، إنه ذو مكانة عالية في جمعية جون بيرش اليمينية المتطرفة...

- فاشيون كارهون لليهود!

- ...وأتوقع مجيء يوم، ليس بعيدًا، يدير فيه الجمعية. وحالما ينال ثقة وموافقة الجماعات اليمينية الأخرى، فربما يترشح للمنصب مرة أخرى... لكن هذه المرة لن يترشح لمنصب حاكم تكساس.

أظنه يضع نصب عينيه هدفًا أعلى. ربما مجلس الشيوخ، أو حتى البيت الأبيض.

قال لي بنبرة تخلو من الثقة: «هذا لن يحدث أبدًا».

صحَّح دي موهرنشيلدت: «لن يحدث على الأرجح. لكن عليك ألا تستخف أبدًا بقدره البرجوازية الأمريكية على تقبُّل الفاشية تحت مُسمَّى الشعبوية، ولا بقوة تأثير التلفاز. دون التلفاز لما تغلب كينيدي على نيكسون قط».

قال لي: «كينيدي وقبضته الحديدية». بدا أن إعجابه بالرئيس الحالي يتلاشى أكثر فأكثر «لن يهدأ له بال ما دام فيدل يتغوط في مرحاض باتيستا».

- ولا تستخف أبدًا بالرعب الذي تشعر به أمريكا البيضاء من فكرة المجتمع الذي تصبح فيه المساواة العرقية قانونًا للبلاد.

انفجر لي بغضب مستعر: «زنجي، زنجي، زنجي. بينر⁽¹⁾، بينر، بينر! هذا كل ما أسمع في العمل!».

- لا شك لدي. عندما تقول صحيفة مورننغ نيوز "ولاية تكساس العظيمة"، يقصدون "ولاية تكساس الكراهية". والناس يصدّقون! أي مهرج مثل هارغس ليس سوى وسيلة تقدّم في نظر رجل مثل ووكر، بطل حرب مثل ووكر. مثلما كان فون هندنبرغ وسيلة تقدم لهتلر. إذا وجد ووكر حملة علاقات عامة مناسبة تُحسّن صورته، فسيصعد نجمه. أتعرف ما أظنه؟ أن الرجل الذي سيخلّص أمريكا من إدوين ووكر العنصري سيُسدي المجتمع معروفًا.

ارتميْتُ على كرسي بجانب الطاولة، حيث يقبع جهاز التسجيل الصغير وشريطه يدور.

(1) لفظ ازدرائي يُطلق على المكسيكيين. (المترجم)

بدأ لي يقول: «إذا كنت حقًا ترى أن...». وسمعت طنينًا عاليًا أرغمني على نزع سماعة أذني بسرعة. لم أسمع صيحات دهشة أو غضب من الطابق الأعلى، ولا حركة أقدام سريعة. لذا - ما لم يكونا بارعين جدًا في التكتّم اللحظي - رأيتُ أن بوسعي افتراض أنهما لم يكتشفا جهاز التنصت في المصباح. أعدت السماعة إلى أذني. لا شيء. ثم جرّبت الميكروفون بعيد المدى، واقفًا على كرسي وممسكًا بالوعاء قريبًا من السقف، فسمعتُ لي يتكلم ودي موهرنشيلدت يرد بين الفينة والأخرى، لكن لم أستطع تبين ما يقولانه.

أذني في شقة أوزوالد أصابها الصمم.

الماضي عنيد.

وبعد عشر دقائق أخرى من الحوار، ربما عن السياسة، أو ربما عن طبيعة الزوجات المزعجة، أو ربما عن الخطط التي بدأت توضع للتو لقتل الجنرال إدوين ووكر - هبط دي موهرنشيلدت عبر السلم الخارجي وانطلق بسيارته.

سمعتُ وقع أقدام لي فوق رأسي. كَلَمْب - كَلَد - كَلَمْب. تبعتها إلى غرفة نومي ووجهت ميكروفوني بعيد المدى إلى حيث توقف لي. لا شيء... لا شيء... ثم سمعت صوت شخير خافت. وعندما أوصلتُ روث مارينا وجون بعد ساعتين، كان لي ما يزال نائمًا نوم العمالقة. لم توقظه مارينا. أنا أيضًا ما كنتُ لأوقظ الوغد سريع الغضب.

6

بدأ أوزوالد يتغيّب عن العمل كثيرًا بعد ذلك اليوم. إذا عرفت مارينا بهذا لم يبدُ أنها تكثرث. وربما لم تلاحظ. كانت مشغولة بصديقتها الجديدة روث. انحسر الضرب قليلًا، ليس لأن أخلاق لي تحسنت، إنما

لأنه صار يخرج من المنزل كثيرًا مثلها. وكان يأخذ كاميرته معه غالبًا. وقد عرفت الأماكن التي يذهب إليها وما يفعله من دفتر ملاحظات آل.

ذات يوم بعدما غادر المنزل واتجه إلى محطة الحافلات، ركبْتُ سيارتي وقُدْتُ إلى جادة أوك لون. أردت أن أسبق الحافلة التي تقل لي عبر البلدة، ونجحت بسهولة. وجدتُ كثيرًا من أماكن الرِّكن الجانبية على جانبي أوك لون، لكن سيارتي الشيفروليه ذات الجناحين الخلفيين كانت مميزة، ولم أرغب في المخاطرة بوقوع عينيَّ لي عليها. أوقفتها قريبًا من جادة واكيليف في موقف سيارات خاص بمتجر ألفا بيتا. ثم سرت في جادة تيرتل كريك. رأيت منازل ذات تصاميم معمارية حديثة، ومداخل تحفُّها أشجار النخيل، ومرجات كبيرة، ونافورة أو اثنتين.

أمام المنزل رقم 4011، رأيت رجلًا أنيقًا (يحمل شبهًا لافتًا بممثل أفلام رعاة البقر راندولف سكوت) يعمل بآلة جز عشب. رأني إدوين ووكر أنظر إليه وألقى عليَّ تحية عسكرية مقتضبة من جانب حاجبه. رددتُ عليه بالحركة نفسها. واستأنف هدفُ لي أوزوالد جز العشب ومضيتُ في طريقي.

مكتبة

t.me/soramnqraa

7

الشوارع التي تكوّن مساحة دالاس التي تهمني كانت جادة تيرتل كريك (حيث يعيش الجنرال)، وجادة واينكليف (حيث ركنْتُ سيارتي)، وجادة أفونديل (حيث ذهبتُ بعدما رددت تحية ووكر)، وأوك لون، شارع محلات تجارية يمر مباشرة خلف منزل الجنرال. أوك لون كان الأهم، لأنه سيكون طريق مجيء لي وهروبه في ليلة 10 أبريل.

وقفتُ أمام محل "تكساس للأحذية" رافعًا ياقة سترة الجينز ومُحمَّمًا يدي في جيبي. وبعد نحو ثلاث دقائق من وقوفي، توقفت الحافلة عند تقاطع شارعي أوك لون وواينكليف. وحالما فتحت بابها ترجّلت امرأتان

تحملان أكياس تسوق قماشية، ثم نزل لي إلى الرصيف، حاملاً كيساً ورقياً بُنيًا، كأكياس وجبات الغداء التي يحملها العمال.

كانت هناك كنيسة حجرية ضخمة عند الزاوية، سار لي على مهل نحو الحاجز الحديدي المحيط بالكنيسة، وقرأ لوحة الإعلانات، وأخرج دفتر ملاحظات صغيراً من جيبه وكتب شيئاً. ثم اتجه ناحيتي، ووضع دفتر الملاحظات في جيبه. لم أتوقع هذا. كان آل يظن أن لي سيخبيئ بندقيته جوار السكة الحديدية على الجانب الآخر من جادة أوك لون، على بُعد نصف ميل. لكن ربما أخطأ آل في ملاحظاته، لأن لي لم يلق أي نظرة على ذلك الاتجاه. كان على بُعد سبعين أو ثمانين ياردة، ويقرب سريعاً من مكاني.

قلت مع نفسي: سلاحظني ويتكلم معي، سيقول "ألست الرجل الذي يعيش أسفل شقتي؟ ماذا تفعل هنا؟" إذا لاحظني فسوف ينحرف المستقبل إلى اتجاه جديد. ليس أمراً جيداً.

حدقت إلى الأحذية المعروضة في نافذة العرض والعرق ينضح على مؤخري عنقي ويسيل على ظهري. وعندما تجاسرتُ أخيراً وحرَّكتُ عيني يساراً، لم أر لي، اختفى بما يشبه خدعة سحرية.

سرت في الشارع بخطى متئدة، وتمنيت لو أنني اعتمدت قبعة، أو وضعت نظارة شمسية. لماذا لم أفعل؟ أي عميل سري مغفل كنت؟

وصلت إلى مقهى عند منتصف المربع السكني، على نافذته لافتة تعلن عن وجبات إفطار طوال اليوم. لم يكن لي بالداخل. وخلف المقهى رأيت مدخل زقاق، سرت متمهلاً أمامه، وألقيت نظرة سريعة إلى يميني، فرأيت. كان يوليني ظهره، وقد أخرج كاميرته من الكيس الورقي لكن لم يكن يصور بها، ليس بعد. كان يتفحص سلال القمامة. رفع الأغذية، ونظر بالداخل، ثم أعادها.

كل عظمة في جسدي، أعني كل غريزة في دماغي، كانت تحثني على مواصلة السير قبل أن يستدير لي ويراني، لكن افتتاناً قوياً شدني وسمرني في مكاني مدة أطول قليلاً، أظنه لشدة معظم الناس. كم فرصة تسنح لنا لمشاهدة رجل يخطط لجريمة قتل بدم بارد؟

ابتعد لي قليلاً في الزقاق، ثم توقف عند قرص حديدي بدا كغطاء لفتحة خرسانية، وحاول رفعه، لكنه لم يتزحزح. لم يكن الزقاق ممهداً، وتكثر فيه أعمال الحفر السيئة، وطوله قرابة مئتي ياردة. ثمة سلسلة تفصل الباحات الخلفية التي تغطيها الحشائش ومساحات الأرض الخالية، تنتهي السلسلة في منتصف الزقاق وتحل محلها سياجات عالية من ألواح يكسوها لبلاب بدا ذابلاً بعد شتاء بارد موحش. أزاح لي بضعة أغصان جانباً، وجرب تحريك أحد الألواح، تحرك إلى الخارج، ونظر لي إلى الفجوة التي خلفه.

لا بأس بالمُسلّمات التي على شاكلة ضرورة كسر البيض من أجل إعداد عجة، لكن شعرت بأنني جربت حظي بما يكفي، فواصلت السير، وعندما بلغت نهاية المربع السكني توقفت عند الكنيسة التي جذبت انتباه لي. "كنيسة أوك لون لقديسي الأيام الأخيرة". كُتب على لوحة الإعلانات عن إقامة الصلوات المنتظمة كل يوم أحد، وللقادمين الجدد صلاة كل مساء أربعاء عند السابعة، تعقبها ساعة أنشطة اجتماعية. وستُقدّم مشروبات مرطبة.

10 أبريل كان يوم أربعاء، ورأيتُ أن خطة لي (مفترضاً أنها لم تكن خطة دي موهرنشيلدت) قد صارت واضحة لي بما يكفي: يخبئ السلاح في الزقاق قبل حلول الوقت، ثم ينتظر انتهاء صلاة القادمين الجدد، وساعة الأنشطة الاجتماعية بالطبع. سيكون بمقدوره سماع المصلين عند خروجهم وهم يضحكون ويتكلمون في طريقهم إلى محطة الحافلات. والحافلات تأتي إلى المحطة كل ربع ساعة. إذن سيطلق لي

النار، ويخفي السلاح خلف اللوح حيث كان. (ليس قرب خط السكة الحديدية)، ثم يختلط بالخارجين من الكنيسة. وعندما تأتي الحافلة التالية، يغادر على متنها ويختفي.

ألقيت نظرة سريعة إلى يميني وصادف أن رأيته خارجًا من الزقاق، وقد أعاد الكاميرا إلى الكيس الورقي. ذهب إلى محطة الحافلات واتكأ على العمود. ثم جاء رجل وسأله عن أمر ما، واستمر حوارهما. هل كان هذا مجرد تجاذب أطراف حديث مع شخص غريب؟ أم كان الرجل أحد أصدقاء دي موهرنشيلدت؟ مجرد غريب في الشارع أم متآمر؟ ربما كان "مُطلق النار المجهول" الشهير الذي -وفقًا لأصحاب نظريات المؤامرة- كان يجوس في غراسي نول قرب ساحة ديالي عندما اقترب موكب كينيدي. قلت لنفسني إن هذا جنوني، لكن كان من المستحيل التأكد. وعدم اليقين هذا كان جحيم مهمتي.

ما من طريقة لمعرفة أي شيء معرفة مؤكدة، وسيظل الحال هكذا حتى أرى بأمّ عيني أن أوزوالد كان وحده في 10 أبريل. حتى هذا لن يكون كافيًا لتبديد جميع شكوكي، لكن سيكون كافيًا لي حتى أوصل المهمة.

كافيًا لأقتل والد جون.

وصلت الحافلة مزمجرة إلى المحطة، وركب العميل السري X-19، المعروف باسم لي هارفي أوزوالد، الماركسي الشهير وضارب زوجته. وبعدما غابت الحافلة عن بصري، عدت إلى الزقاق وسرت حتى نهايته، وعندها اتسع إلى باحة خلفية بلا سياج. ورأيت سيارة شيفروليه بِسْكِين موديل 57 أو 58 مركونة جوار محطة ضخ غاز طبيعي. ورأيت هناك وعاء شواء على حامل ثلاثي الأرجل، وخلفها الجزء الخلفي لمنزل بُني داكن ضخم. منزل الجنرال.

نظرت إلى الأسفل فرأيت أثر سَحَب على التراب، عند نهاية الأثر كانت توجد إحدى سلال القمامة. لم أر لي يحرّكها، لكن عرفت أنه فعل. واعتزَم وضع البندقية في هذا الموضع في ليلة العاشر من أبريل.

8

يوم الاثنين 25 مارس، جاء لي ماشيًا في شارع نيلي، حاملًا طرْدًا طويلًا مغلفًا بورق بني. كنت أختلس النظر عبر فرجة صغيرة في الستائر، ورأيت الكلمتين **مسجلة** و**عليها تأمين** مطبوعتين على الطرد بأحرف حمراء كبيرة. لأول مرة رأيت لي يبدو متوترًا، وبتلفت ناظرًا إلى ما حوله بدلًا من التركيز على ما يدور في رأسه. عرفتُ ما يوجد بداخل الطرد: بندقية كاركانو، معروفة أيضًا باسم مانلكر-كاركانو، عيار 6.5 ملمتر، جاهزة بمنظار مقرب، اشتريت من محل "كلين للمعدات الرياضية"، في شيكاغو. وبعد خمس دقائق صعد لي السلم الخارجي إلى الطابق الأعلى. البندقية التي سيستخدمها لي لتغيير التاريخ كانت في خزانة فوق رأسي. التقطت مارينا صور لي الشهيرة وهو يحمل البندقية خارج نافذة صالة معيشتي بعد ستة أيام، لكنني لم أر ذلك، كان يوم سبت، وأنا كنت في جودي. عند اقتراب اليوم العاشر صارت عطلات نهاية الأسبوع مع سيدي أهم وأعز ما في حياتي.

9

استيقظتُ مجفلاً، وقد سمعت شخصًا يتمم بصوت خافت: «لم يفت الأوان بعد». أدركتُ أنني المتكلم وصمتُ.

غمغمتُ سيدي باحتجاج وانقلبت إلى الجهة الأخرى من الفراش. أعاد صرير نوابض السرير إليّ الوعي بمكاني وزماني: بيت ضيافة كاندلوود، 5 أبريل 1963. أخذت ساعتَي اليدوية عن المنضدة الجانبية

ونظرت إلى الأرقام المضيئة. الثانية والرابع فجرًا، أي اليوم كان السادس من أبريل في الواقع.

لم يفت الأوان بعد.

لم يفت الأوان على ماذا؟ التراجع؟ الرب يعلم كم كانت فكرة التراجع جذابة لي! إذا واصلت المهمة وساءت الأمور، فقد تكون هذه ليلتي الأخيرة مع سيدي، قد لا أراها أبدًا.

حتى إذا تعيّن عليك قتله، فليس عليك أن تقتله فورًا.

صحيح. أوزوالد سينتقل إلى نيو أورلينز لمدة بعد محاولته قتل الجنرال، إلى شقة قذرة متواضعة أخرى، التي زرتها سلفًا، لكنه لن ينتقل إلا بعد أسبوعين. وهذا سيتيح لي متسعًا من الوقت لوضع حد لحياته. لكن استشعرت أن من الخطأ الانتظار مدة طويلة. ربما أجد أسبابًا لمواصلة الانتظار، أهمها المرأة التي بجانبني في الفراش، طويلة جميلة وجلدها الناعم عار. ربما كانت مجرد فخ آخر نصبه لي الماضي العنيد، لكن هذا الاحتمال لم يهمني، لأنني أحببتها. وتخيّلُ سيناريو، واضحًا، أجد نفسي فيه مضطرًا إلى الهروب بعد قتل أوزوالد. أهرب إلى أين؟ أعود إلى مَين بالطبع، أملًا أن أتمكن من مراوغة الشرطة مدة كافية للوصول إلى جُحر الأرنب والهروب إلى المستقبل، حيث ستكون سيدي... قد ناهزت الثمانين من عمرها، إذا بقيت على قيد الحياة، وتدخينها يجعل هذا الاحتمال مستبعدًا.

نهضت وذهبت إلى النافذة. قليل من أجنحة بيت الضيافة كانت مشغولة في عطلة نهاية الأسبوع في هذا الوقت المبكر من الربيع. رأيت من النافذة شاحنة صغيرة ملطخة بطين أو سماء عضوي وخلفها مقطورة مليئة بما بدا كمعدات مزرعة، ودراجة نارية هندية مع عربة جانبية، وسيارة بليُمواوث فيوري ذات لونين. كان القمر يلُوح ويختفي

خلف غيوم متفرقة فلم أستطع تبين لون نصف السيارة السفلي، لكن لا يهم، كنت متأكدًا من لونه.

ارتديت بنطالي، وحذائي، ثم خرجت وسرتُ عابرًا الفناء. لسع الهواء البارد جلدي الدافئ من الفراش، لكنني أحسست به بالكاد. أجل، وجدت السيارة فيوري، وأجل، كانت بالأبيض والأحمر، لكنها لم تكن من مِين أو أركنساس، كانت لوحة أوكلاهوما، وعلى زجاجه الخلفي ملصق: إلى الأمام أوكلاهوما سونرز. نظرت إلى داخلها فرأيت دفاتر متناثرة. ربما يكون صاحب السيارة طالبًا متجهًا جنوبًا لزيارة والديه في عطلة الربيع. أو أستاذين يستغلان سياسة بيت الضيافة المتحررة مع النزلاء. كان مجرد إيقاع غير مضبوط تمامًا بينما الماضي يتناغم مع نفسه. لمستُ صندوق السيارة الخلفي، كما فعلت في ليسبون فولز، ثم عدت إلى الداخل. كانت سيدي قد دفعت الملاءة إلى خصرها، وعندما دخلتُ أيقظتها نفحة هواء باردة، فجلست ممسكة بالملاءة فوق نهديها، ثم تركتها تنزلق عندما رأت أنني الداخل.

- هل تجد صعوبة في النوم يا عزيزي؟

- رأيت حلمًا مزعجًا وخرجت لاستنشاق هواء منعش.

- ماذا كان الحلم؟

نزعت بنطالي وركلت حذائي.

- لا أتذكر.

- حاول. كانت أُمي تقول دومًا إنك إذا أخبرت أحدًا بحلمك، فلن يتحقق.

اضجعت معها على الفراش وأنا لا أرتدي سوى قميصي التحتي.

- أُمي كانت تقول إنك إذا قبَّلت حبيبك، فلن تتحقق.

- هل قالت هذا حقًا؟

- لا.

قالت ساهمة: «حسنًا، يبدو ذلك ممكنًا. فلنجرّب».

جرّبنا.

وأفضت التجربة إلى أشياء أخرى.

10

وبعدها أشعلت سيجارة. لبثت مضجعًا أشاهد الدخان يتصاعد ويتحول إلى اللون الأزرق كلما دخل ضوء القمر بين الفينة والأخرى عبر الستائر نصف المفتوحة. قلت مع نفسي: ما كنت لأترك الستائر هكذا في شارع نيلي. في شارع نيلي، في حياتي الأخرى، دائمًا ما أكون وحدي ورغم هذا أحرص على إغلاق الستائر إغلاقًا تامًا. إلّا عندما أختلس النظر، متلصّصًا.

عندئذٍ فقط لا يعجبني ما أفعله.

- جورج...

تنهّدت وقلت: «هذا ليس اسمي».

- أعرف.

نظرت إليها. أخذت نفسًا عميقًا، مستمتعة بسيجارتها دون إحساس بالذنب، كما يفعل الناس في عالم الماضي. قالت: «ليست لدي معلومة من مصدر آخر، إذا كان هذا من قد تظنه. لكن من المنطقي ألا يكون هذا اسمك الحقيقي ما دام ماضيك كله مزيفًا. وإنني سعيدة، لا يروقني اسم جورج كثيرًا، إنه... ما الكلمة التي تستخدمها أحيانًا؟... مبتذل؟».

- ما رأيك بـ "جيك"؟

- مختصر من جيكون؟

- نعم.

التفتت إلي وقالت: «يعجبني. في الإنجيل صارع يعقوب ملاكًا، وأنت تصارع أيضًا، صحيح؟».

قلت: «نعم، على ما أظن. لكنني لا أصارع ملاكًا». لكن لي أوزوالد لا يرتقي لأن يكون شيطانًا. بدا لي جورج دي موهرنشيلدت الأنسب لدور الشيطان. في الإنجيل الشيطان يوسوس ويغري وينتحي جانبًا. تمنيتُ أن يكون دي موهرنشيدت مثله.

سحقت سيدي سيجارتها، وكان صوتها هادئًا لكن عينيها داكنتان: «هل ستتأذى؟».

- لا أدري.

قالت: «هل ستذهب وتختفي؟ لأنني لا أظنني قادرة على تحمل اختفائك. رينو كانت كابوسًا. فقدانك إلى الأبد...». هزت رأسها ببطء. «كلاً، لا أظنني سأقدر على التحمل».

قلت: «أريد أن أتزوجك».

- رباه، حالما صرت مقتنعة أن زواجنا لن يحدث أبدًا، يقول جيك -جورج- إنه سيتزوجني الآن.

- ليس الآن، لكن إذا سارت أحداث الأسبوع القادم كما آمل... فهل ستتزوجيني؟

- بالتأكيد. لكن لدي سؤالًا بسيطًا.

- هل أنا أعزب؟ أعزب قانونيًا؟ أهذا ما تريدين معرفته؟
أومأت.

- أنا أعزب.

أطلقت تنهيدة مرحة وابتسمت كطفلة. ثم استعادت جدّيتها: «هل يمكنني مساعدتك؟ دعني أساعدك».

سَرَت قشعريرة باردة في جسدي إثر سماعي اقتراحها، ولا بد أنها
رأت ما اعتراني. انسحبت شفتها السفلى إلى داخل فمها، وعضت عليها،
ثم قالت ساهمة: «إذن الأمر سيئ إلى هذه الدرجة».

- فلنستعرض الأمر على هذا النحو: أنا حاليًا قريب من آلة ضخمة
مليئة بأسنان حادة، وهي تدور بسرعتها القصوى. لن أسمح لك
بالاقتراب مني وأنا أصارعها.

- متى سيكون؟ أعني... لا أدري... موعذك مع القدر.

قلت: «لم يُحدّد بعد». شعرت بأنني قلت أكثر مما ينبغي لي قوله،
لكن رأيت، بما أنني أفصحت عن هذا القدر، أن أفصح عن المزيد قليلًا:
«سيحدث أمرٌ مساء يوم الأربعاء القادم. علي أن أشهد ما سيحدث، ثم
أقرر».

- هل من طريقة أساعدك بها؟

- لا أظن يا عزيزتي.

- إذا اتضح أنني يمكنني مس...

- شكرًا. أقدر لك هذا. وهل حقًا ستتزوجيني؟

- الآن وقد عرفت اسمك؟ بالتأكيد.

11

في صباح الاثنين قرابة الساعة العاشرة، توقفت سيارة عند الرصيف
وذهبت مارينا إلى إرفينغ مع روث باين. كان لدي شأن خاص بي، وعلى
وشك مغادرة الشقة عندما سمعت وقع أقدام تهبط السلم الخارجي. كان
لي، شاحبًا متجهّمًا، وشعره أشعث ووجهه يغطيه حب شباب متأخر،
يرتدي بنطال جينز ومعطف مطر يرفرف حول ساقيه، وكان يمشي
واضعًا إحدى ذراعيه على صدره كأنه يحس بألم في ضلوعه.

أو كأنه يحمل شيئاً تحت معطفه. كتب آل: قبل محاولة الاغتيال، ضبط ليّ بندقيته الجديدة في مكانٍ ما جوار لوف فيلد. لم أهتم بمكان ضبط البندقية، بل كنت مشغولاً بمدى اقترابي من مقابلته وجهًا لوجه. كنت قد افترضت بإهمال أنه خرج إلى العمل دون أن أنتبه لخروجه، و...

لماذا لم يذهب إلى عمله في صباح يوم اثنين؟

صرفت النظر عن السؤال وخرجت، حاملاً حقيبتتي اليدوية التي كنت أذهب بها إلى المدرسة، وبدخلها الرواية التي لن أكمل كتابتها أبدًا، ودفتر ملاحظات آل، والكتاب الحالي الذي يروي مغامراتي في عالم الماضي.

إذا لم يكن ليّ وحده في ليلة 10 أبريل، فربما يراني أحد شركائه في التآمر ويقتلني، ربما دي موهرنшилدت نفسه. كنت ما أزال أستبعد هذا الاحتمال، لكن احتمال اضطراري إلى الهروب بعد قتل أوزوالد كان الأرجح، وكذلك احتمال اعتقالني بتهمة القتل. لم أرغب في أن يعثر أحد، الشرطة مثلاً، على دفتر ملاحظات آل أو مذكراتي إذا تحققت أيّ من تلك الاحتمالات.

كان أكثر ما يهمني يوم الثامن من أبريل هو إخراج كل أوراقني من الشقة، وإبعادها عن الشاب العدواني المضطرب الذي يعيش بالطابق الأعلى. قدت سيارتي إلى مصرف "فيرست كورن" بدالاس، ولم تفاجئني رؤية أن موظف المصرف الذي ساعدني يحمل شبهًا لافتًا بموظف مصرف هوم تاون ترست الذي ساعدني في ليسبون فولز. ذاك كان اسمه دوسن، وهذا اسمه لينك، لكنه يشبه قائد الفرقة الكوبية، اكزافير كوغات.

استعلمتُ عن صناديق الودائع الآمنة. وسرعان ما وُضعت مخطوطاتي في الصندوق رقم 775. عدت إلى شارع نيلي ومرت بلحظة ذعر شديد عندما لم أجد مفتاح الصندوق.

قلت لنفسى: استرخ، إنه موجود في مكان ما في جيبك. وحتى إذا لم تجده، فيكون صديقك ريتشارد لينك مسرورًا بمنحك نسخة من المفتاح، ربما تكلفك دولارًا لا أكثر.

وكانما تأثر الوضع بما جال في رأسي، وجدت المفتاح في ركن جيبي تحت نقودي المعدنية. وضعته في حلقة مفاتيحي، حيث سيكون بأمان. إذا اضطررت فعلاً إلى الهروب والعودة إلى جحر الأرنب، ورجعت إلى الماضي مجددًا بعد عودة إلى الحاضر، فسيظل المفتاح معي... لكن كل ما حدث في السنوات الأربع الماضية سُمحى، ويعود الوضع إلى ما كان عليه. المخطوطات التي هي الآن في صندوق الودائع ستُفقد بمرور الزمن. وهذا على الأرجح أمر جيد.

الأمر السيئ هو أنني سأفقد سيدي أيضًا.

الفصل الثاني والعشرون

1

كان عصر يوم العاشر من أبريل دافئاً وسماؤه صافية، إيداناً باقتراب الصيف. ارتديت بنطالاً وأحد المعاطف الرياضية التي اشتريتها في فترة تدريسي بمدرسة دنهولم الثانوية. ووضعت المسدس 38. ملقماً بداخل حقيبتني اليدوية. لا أتذكر أنني كنت متوتراً في الأيام السابقة، الآن وقد جاء اليوم، أحسست بأنني محاط بغلاف بارد. تحققت من ساعتني فرأيتها تشير إلى الثالثة والنصف.

خطتي كانت أن أركن سيارتي مرة أخرى في موقف ألفا بيتا بجادة واكيليف، ورأيت أن بمستطاعي الوصول إلى هناك بحلول الرابعة والربع على أبعد تقدير، حتى إذا وجدت الشوارع مزدحمة. ثم أستطلع الزقاق، وإذا وجدته خالياً، كما توقعت أن أجده في تلك الساعة، أتفقد الفجوة التي خلف اللوح. إذا كان آل محقاً بشأن تخبئة لي بندقيته في الفجوة مقدماً (رغم أنه أخطأ بشأن المكان)، فسأجدها هناك.

ثم أعود إلى سيارتي وأجلس فيها لبعض الوقت، وأراقب محطة الحافلة تحسباً لظهور لي مبكراً، وعندما تبدأ صلاة الساعة السابعة للقادمين الجدد، أذهب إلى المقهى الذي يقدم وجبات الإفطار طوال اليوم وأجلس جوار النافذة، وأتناول طعاماً لا أشتهيه، متماطلاً، وأراقب وصول الحافلات آملاً أن يكون لي وحده عندما يترجل من حافلة أخيراً، وآملاً أيضاً ألا أرى سيارة جورج دي موهرنшилدت الشبيهة بالقارب.

هذه كانت خطتي.

حملت حقيبتتي اليدوية، ناظرًا إلى ساعتني مجددًا. 3:33. كان خزان وقود الشيفروليه مليئًا. إذا كنت قد خرجت وركبتها عندئذٍ، لرن هاتفي دون أن يجيبه أحد، لكنني لم أخرج، لأن شخصًا طرق الباب حالما مددت يدي إلى مقبضه.

فتحت الباب فوجدت مارينا أوزوالد واقفة أمامي.

لوهلة وقفتُ متسمّرًا فاغرا فمي، لظهور مارينا المفاجئ، ولسبب آخر أهم. حتى لحظة وقوفها أمامي لم أدرك مدى شبه عينيها الزرقاوين الواسعتين بعيني سيدي.

إما أن مارينا تجاهلت الدهشة البادية على وجهي، وإما أنها لم تلاحظها، إذ لديها شواغلها هي أيضًا: «رجاء، أعذر، هل رأيت الزو-ج؟» عضت شفتها وهزت رأسها قليلًا. «زو-جي». حاولت أن تبتسم، وكانت أسنانها قد خضعت لعملية تجميلية جيدة، لكنها لم تفلح. «أسفة سيدي، ما أتكلم إنجليزي جيد. أنا روسيا».

سمعتُ شخصًا -أظنه أنا- يسألها عما إذا قصدت الرجل الذي يعيش بالطابق الأعلى.

قالت: «نعم، رجاء. زو-جي، لي. نعيش بالطابق أعلى. هذه مالميشكا، طفلتنا». أشارت إلى جُون، التي كانت جالسة أسفل السلم في مشايتها، راضية بمص لهاية. «هو يخرج الآن كثيرًا منذ أن يترك عمله». حاولت أن تبتسم مرة أخرى، وعندما تجعد طرفا عينيها، طفرت دمعة من عينيها اليسرى وسالت على خدّها.

إذن استطاع بوبي ستوفال تسيير عمله دون أفضل تقني تصوير لديه، على ما يبدو.

قلت: «لم أره يا سيدة...» كادت كلمة أوزوالد أن تفلت من لساني، لكن حبستُها، وخيرًا فعلت، فكيف لي أن أعرف الاسم؟ ليس لديهما عنوان

توصيل خاص، وكان يوجد صندوق بريد في شرفتهم، لكن اسمهما لم يكن مكتوبًا على أيٍّ من الصندوقين. وكذلك اسمي.

قالت: «أوز-وال». ومدت إلي يدها، فصافحتها وأنا أكثر اقتناعًا من ذي قبل بأنني في حلم. لكن راحة يدها الصغيرة الجافة كانت حقيقية. «مارينا أوز-وال. أنا سرور بمقابلتك سيّدي».

قلت: «آسف يا سيدة أوزوالد، لم أراه اليوم». ولم يكن كلامي صحيحًا، رأيته خارجًا عصر اليوم، بُعيد مجيء روث باين بسيارتها واصطحابها مارينا وجُون إلى إرفينغ.

قالت: «أنا أقلق عليه. إنه... لا أعرف... آسفة. لا أقصد إزعاج لك». ابتسمت مجددًا، ابتسامة حلوة وشديدة الحزن، ومسحت الدمعة ببطء من وجهها.

- إذا رأيته...

بدا الذعر عليها: «لا، لا، قل لا شيء». إنه لا يحبني أتحدث مع الغرباء. سيأتي منزل للعشاء، ربما بالتأكيد». هبطت السلم وتكلمت بالروسية مع الرضيعة، فضحكت ومدت يديها المكتنزتين نحو أمها. «وداعًا سيّدي. جزيلًا شكرًا. تقول لا شيء؟».

قلت: «حسنًا. لن أنبس ببنت شفة». لم تفهم ما قلته، لكنها أومأت وبدأ عليها الاطمئنان عندما وضعت إصبعي على شفّتي.

أغلقت الباب، متعرقًا عرقًا غزيرًا. وفي مكانٍ ما لم أسمع خفقات جناحي فراشة واحدة فقط، بل غيمة من الفراشات.

ربما لن يحدث شيء.

شاهدتُ مارينا وهي تدفع عربة جُون على الرصيف نحو محطة الحافلات، حيث تعتزم على الأرجح انتظار زوجها... الذي يخطط لفعل

شيء. كانت تعرف أنه يخطط لشيء، وبدأت معرفتها واضحة على وجهها.

وبعدما غابت عن أنظارني مددتُ يدي نحو مقبض الباب، وعندئذٍ رن الهاتف. كدت أن أقرر تجاهله، لكن أشخاصًا قليلين يعرفون رقمي، منهم امرأة يهمني أمرها كثيرًا.

- مرحبًا.

قال رجل: «مرحبًا سيد أمبرسون». تكلم بلكنة جنوبية طفيفة. لست متأكدًا من أنني عرفتُ صاحب الصوت فورًا، لا أتذكر. أظنني عرفته. «معي شخص هنا يود أن يتكلم معك».

كنت أعيش حياتين منفصلتين في نهاية 1962 وبداية 1963، واحدة في دالاس والأخرى في جودي، التقتا يوم 10 أبريل عند الساعة 3:39. سمعتُ صراخ سيدي عبر سماعة الهاتف.

3

كانت تعيش في منزل من طابق واحد في جادة بي تري، وهو جزء من مشروع تطوير عقاري مكون من أربعة أو خمسة مربعات سكنية مشابه له على الجانب الغربي من جودي. إذا التُقطت للحي صورة جوية ووضعت في كتاب تاريخ في عام 2011، لربما كان عنوانها "منازل صغيرة من منتصف القرن". وصلتُ عند الساعة الثالثة تقريبًا عصر ذلك اليوم، بعد اجتماع عقب اليوم الدراسي مع مساعديها في المكتبة من الطلاب. لا أظنها لاحظتِ البليماوث فيوري باللونين الأحمر والأبيض المركونة عند الرصيف على مبعدة في المربع السكني.

وعلى الجانب الآخر من الشارع، على بعد أربعة أو خمسة منازل، كانت السيدة هولواي تغسل سيارتها (رينو دوفين ينظر إليها الجيران بريبة). لوَّحت سيدي لها عندما نزلت من سيارتها الفلوكسواغن. وردَّت

السيدة هولواي التلوiche. المالكتان الوحيدتان لسيارات أجنبية (وكأنها من عالم آخر على نحوٍ ما) في المربع السكني. صارتا زميلتين عرضًا. صعدتُ سيدي المدخل إلى باب منزلها الأمامي ولبثت واقفة برهة، عابسة، إذ رأت الباب مواربًا. هل تركته هكذا؟ دخلتُ وأغلقت خلفها، لم يُغلق الباب لأن القفل فُتح عنوة. لكن سيدي لم تلاحظ. عندئذٍ كان انتباهها كله مركّزًا على الجدار فوق الأريكة، حيث كُتبت، بأحمر شفاهها، كلمتان على ارتفاع ثلاثة أقدام: ساقطة قدرة.

كان ينبغي لها أن تهرب عندئذٍ، لكن استياءها وغضبها لم يتركها لها مجالًا للخوف. عرفتِ الفاعل، لكن جوني لم يعد هناك بالطبع. زوجها السابق لم يكن يحبُّ المواجهة الجسدية. سمعتُ منه كثيرًا من الكلمات القاسية ولطمها مرة واحدة، وهذا كل شيء.

وأيضًا وجدت جميع ملابسها الداخلية ملقاة في جميع أنحاء أرضية الشقة.

ممتدة من صالة المعيشة إلى غرفة النوم. جميعها، قمصان تحتية، وحملات صدر، وسراويل داخلية، والمشد الذي لا تحتاج إليه لكن ترتديه أحيانًا - كلها مُزقت. وعند نهاية الصالة رأت باب الحمام مفتوحًا. وحامل المناشف منزوعًا من مكانه، وحيث كان كُتبت، بأحمر شفاهها أيضًا، رسالة أخرى: عاهرة قدرة.

وباب غرفة نومها أيضًا كان مفتوحًا، دخلت ووقفت فيها، غير مدركة تمامًا أن جوني كلايتون يقف خلف الباب حاملاً مدية بيد وبالآخرى مسدس سميث آند ويسون 38. وهو المسدس نفسه الذي استعمله لي أوزوالد لقتل شرطي دالاس جيه دي تيبِت.

رأت حقيبة زينتها ملقاة مفتوحة على فراشها، ومحتوياتها، معظمها أدوات مكياج، متناثرة على الأغطية، وبابا خزانة ملابسها أيضًا كانا

مفتوحين، بعض ملابسها ما زالت متدلية من مشاجبها، ومعظمها على الأرضية. كلها مُزقت.

«جونى، أيها الوغد!». أرادت أن تصيح بهذه الكلمات، لكن صدمتها كانت قوية، فخرجت الكلمات همساً.

تحركت نحو خزانة الملابس، لكنها لم تقترب منها، التفت ذراع حول عنقها وضغطت دائرة فولاذية صغيرة على صدغها. «لا تتحركى، لا تقاومى. إذا فعلتِ فسأقتلك».

حاولت أن تفلت منه فأصاب جانب رأسها بماسورة المسدس القصيرة. وفي الوقت نفسه شد ذراعه حول عنقها. رأت المدية في قبضة اليد التي تخنقها فتوقفت عن المقاومة. كان جونى، عرفته من صوته، لكنه لم يكن جونى نفسه. لقد تغير.

قالت مع نفسها: ليتنى عملتُ بتحذير جورج. لماذا لم أعمل بتحذيره؟ دفعها إلى صالة المعيشة، وذراعه ما تزال حول عنقها، ثم أدارها ودفعها إلى الأريكة، فارتمت وساقاها متباعدتان.

- أنزلى فستانك. أرى أربطة ملابسك الداخلية أيتها العاهرة.
كان يرتدي مشملاً، أفرول، (وملابسه وحدها أشعرتها بأنها تحلم)،
وقد صبغ شعره بلون برتقالي-أشقر غريب. كادت أن تضحك.
اقتعد مسند القدم أمامها، مصوباً مسدسه إلى جذعها، وقال لها:
«سننتصل بعشيقك الداعر».

- لا أعرف مَنْ...
- أمبرسون. الرجل الذي تمارسين الفسق معه هناك في كيلين.
أعرف كل ذلك. أراقبك منذ مدة طويلة.
- جونى، إذا غادرت الآن فلن أتصل بالشرطة. أعدك. رغم أنك أفسدت
ملابسي.

قال بلا مبالاة: «ملابس عاهرة».

- لا أ... لا أعرف رقم هاتفه.

كان دفتر عناوينها، الذي عادةً ما تضعه في مكتبها الصغير جوار الآلة الكاتبة، مفتوحًا جوار الهاتف.

- أعرفه. في الصفحة الأولى. بحثت أولاً في الأسماء التي تبدأ بحرف د، د/عر، لكن لم أجده. سأتصل أنا، حتى لا تقولي شيئاً لعاملة الهاتف، ثم تتكلمين معه.

- لن أتكلم يا جوني، لن أتكلم إذا أردت أن تؤذيه.

مال إلى الأمام، وتدلّت خصلات من شعره البرتقالي-الأشقر فوق عينيه، فأزاحها باليد التي تحمل المسدس، ثم التقط سماعة الهاتف باليد الممسكة بالمديّة، وظل المسدس مصوبًا إلى جذعها. قال محاولاً أن يبدو عقلانيًا: «إليك الأمر يا سيّدي، سأقتل أحكما، وسيعيش الآخر. قرري من سيموت منكما».

كان جادًا في كل كلمة قالها. رأت هذا في وجهه. سألته: «ماذا... ماذا إذا خرج من المنزل؟».

ضحك من غبائها: «إذن ستموتين يا سيّدي».

لا بد أنها قالت مع نفسها: يمكنني المماطلة وكسب بعض الوقت. الرحلة من دالاس إلى جودي تستغرق ثلاث ساعات على الأقل، وأكثر في حال ازدحام الشوارع. وربما يكون هذا وقتًا كافيًا ليستعيد جوني رشده، أو ربما يتشتت انتباهه لمدة كافية لقذفه بشيء والركض إلى خارج المنزل.

أدخل الرقم 0 دون أن ينظر إلى دفتر العناوين (لديه ذاكرة حفظ الأرقام قوية) وطلب ويستبروك 75430، واستمع، ثم شكر عاملة الهاتف.

ساد الصمت. وعلى بُعد أكثر من مئة ميل شمالاً كان هاتف يرن. لا بد أن سيدي تساءلت عن عدد الرنات التي سيسمح جوني بها قبل أن يضع السماعة ويطلق النار عليها في بطنها.

ثم تغيرت تعابير استماعه، أشرق وجهه، حتى إنه ابتسم قليلاً. لاحظت سيدي أن أسنانه بيضاء كعهدها بها. ولم لا؟ فهو ينظفها ست مرات على الأقل يومياً. «مرحباً سيد أمبرسون، معي شخص هنا يود أن يتكلم معك».

نهض من المسند وناول سيدي سماعة الهاتف، وحالما قرَّبَتْها من أذنها، هوى عليها بمديته بسرعة أفعى، فجرح جانب وجهها.

4

صَحَّتْ: «ماذا فعلتَ بها؟ ماذا فعلتَ أيها الوغد؟».

بدا في صوته شيء من المرح: «صمتاً يا سيد أمبرسون». لم تعد سيدي تصرخ، لكن ظللت أسمع نشيجها. «إنها بخير، تنزف نزفاً غزيراً، لكنه سيتوقف». صمت، ثم تكلم بنبرة تفكير رصين: «بالطبع لن تعود جميلة بعد اليوم، بمظهرها هذا صارت تبدو كأى عاهرة رخيصة. قالت أُمِّي عنها إنها عاهرة، وكانت محقة».

قلت: «أطلق سراحها يا كلايتون، أرجوك».

قال: «أريد أن أطلق سراحها. الآن بعدما تركتُ أثري عليها، أريد أن أتركها وشأنها. لكن إليك ما قلته لها سلفاً يا أمبرسون: سأقتل أحكما. كلَّفْتُني وظيفتي، أتعرف؟ اضطررت إلى الاستقالة ودخول مستشفى للعلاج بالصدمات الكهربائية، حتى لا يعتقلوني». صمت، ثم تابع: «دفعْتُ فتاة من أعلى سلم، حاولتُ أن تلمسني. كل هذا خطأ هذه العاهرة القذرة التي تنزف هنا. تلطخت يدي بدمائها أيضاً. سأحتاج إلى معقم». وضحك.

- كلايتون...

- سأمهلك ثلاث ساعات ونصف، حتى السابعة والنصف. ثم سأطلق عليها رصاصتين، واحدة في رأسها وواحدة في بطنها القذر.

في الخلفية سمعتُ سيدي تصرخ: «لا تأتِ يا جيكوب!».

زعم كلايتون بها: «اصمتي! أغلقي فمك!». ثم وجّه حديثه إلي بنبرة حوار هادئة: «من هو جيكوب؟».

- أنا. إنه اسمي الأوسط.

- هل تخاطبك به وهي تداعبك أيها الداعر؟

- كلايتون... جوني، فكّر بما تفعله.

- أفكر به منذ أكثر من سنة. عالجوني بالصدمات الكهربائية، أتعرف؟ قالوا إنها ستوقف كوابيسي، لكن لم توقفها، بل جعلتها أسوأ.

- ما مدى سوء جرح سيدي؟ دعني أتكلم معها.

- لا.

- إذا سمحت لي بالكلام معها، فربما أفعل ما تطلبه. وإذا لم تسمح لي، فلن أفعل لك شيئاً بالتأكيد. هل عقلك مشوش من الصدمات الكهربائية إلى درجة تمنعك من فهم كلامي؟

بدا أنه لم يكن مشوشاً. سمعتُ جرجرة أقدام، ثم صوت سيدي واهناً مرتعشاً: «الجرح بالغ، لكنه لن يقتلني. لكن كاد أن يصيب عيني...».

ثم عاد كلايتون: «أرأيت؟ عاهرتك بخير. الآن ما عليك سوى القفز في سيارتك الشيفروليه المعدلة والانطلاق بها بأقصى سرعة. ماذا تقول؟ لكن استمع إلي جيداً يا سيد جورج جيكوب أمبرسون الداعر: إذا اتصلت بالشرطة، إذا لمحتُ ضوءاً أزرق أو أحمر، فسأقتل هذه العاهرة ثم أقتل نفسي. هل تصدقني؟».

- نعم.

- جيد. أرى معادلةً هنا تتساوى فيها القيم: الداعر، والمومس، وأنا في المنتصف. أنا علامة "يساوي" يا أمبرسون، لكن أنت ستحدد أي القيمتين تُحذف. لك القرار.

صرخت: «لا! لا تأت! إذا أتيت فسيقتلنا نحن الاث...».

قُطع الاتصال.

5

ظللت أروي الحقيقة حتى الآن، وسأرويها هنا حتى إذا أظهرتني بأسوأ مظهر: أول ما خطر لي بينما يدي الخدرة تضع السماعة في مكانها هو أن كلايتون كان مخطئًا، القيم ليست متساوية، في إحدى كَفَّتِي الميزان أمينة مكتبة جميلة تعمل بمدرسة ثانوية، وفي الأخرى رجل يعرف المستقبل ولديه -نظرًا على الأقل- القدرة على تغييره. لوهلة، جزءٌ مني فُكّر في التضحية بسيدي والذهاب إلى الجانب الآخر من البلدة لمراقبة الزقاق الممتد بين جادة أوك لون وبين جادة تيرتل كريك ليعرف ما إذا كان الرجل الذي غيّر التاريخ الأمريكي هناك وحده. ثم ركبت سيارتي الشيفروليه واتجهت إلى جودي. حالما وصلت إلى الطريق السريع رقم 77، أوصلت مؤشر عداد السرعة إلى سرعة سبعين ميلًا في الساعة وأبقيته هكذا. وفي أثناء القيادة فتحت حقيبتَي اليدوية وأخرجت مسدسي، ووضعتَه في جيب معطفي الرياضي الداخلي. أدركتُ أن عليَّ إشراك ديكي في هذا الأمر. كان عجوزًا ولم يعد بكامل قوته البدنية، لكن ببساطة لم أعرف أحدًا آخر يمكنني الاستعانة به. قلت لنفسِي إنه سيرغب في التدخل. كان يحب سيدي، كنت أرى حبها في وجهه كلما نظر إليها.

قال عقلي القاسي: لقد عاش حياته، أما سيدي فحياتها ما زالت أمامها. وعلى أي حال لديه الفرصة نفسها التي أتاحها لك ذلك المعتقد. وديكي له خيار أن يأتي أو لا يأتي.

لكنه سيأتي. أحياناً نجد أن الأشياء التي تُعرض علينا بوصفها خيارات ليست خيارات إطلاقاً.

لم أفقد هاتفي الجوال كما افتقدته في رحلتي هذه من دالاس إلى جودي. ورأيت أن أفضل خيار هو التوقف عند هاتف عمومي بمحطة وقود في الطريق رقم 109، بعد قرابة نصف ميل من اللوحة الإعلانية الخاصة بكرة القدم. رن الهاتف على الطرف الآخر ثلاث مرات... أربع... خمس...

وما إن هممت بوضع السماعة، قال ديكي: «مرحباً، مرحباً؟». بدا منزعجاً ولاهثاً.

- ديكي؟ أنا جورج.

«مرحباً يا فتى!». عندئذٍ بدت نسخة الليلة من بيل تيركوت (الشخصية التي ظهرت في مسرحية الزوج القاتل) مبتهجة وتلاشى انزعاجها. «كنت بالخارج في حديقتي الصغيرة. كِدْتُ أن أتجاهل الهاتف، لكن...». - اصمت واسمعني فحسب. حدث أمر سيئ جداً. ما زال يحدث. تعرضت سيدي لأذى، ربما يكون شديداً.

صمتَ ديكي لوهلة وجيزة، وعندما تكلم بدا أكثر شباباً، كأنه استعاد ما كان لديه من عنفوان قبل أربعين عاماً وزوجتين. أو ربما أوحى لي الأمل بهذا. الليلة كان الأمل ورجل في أواخر الستينات من عمره هما كل ما لدي. «تحدث عن زوجها، صحيح؟ هذا خطئي. أظنني رأيته، لكن قبل أسابيع. وشعره كان أطول بكثير مما رأيناه في صورة كتاب الإحصاء السنوي، وبلون مختلف، أقرب إلى البرتقالي». صمت لحظة، ثم تلفظ بكلمات لم أتوقع سماعها منه قط.

أخبرته بما يريده كلايتون، وبما اقترحته عليه. الخطة كانت بسيطة بما يكفي. هل يتناغم الماضي مع نفسه؟ لا بأس، سأدعه يتناغم. كنت أعرف أن ديكي ربما يصاب بأزمة قلبية (أصابته تيركوت)، لكن ما كنت لأدع ذلك يوقفني. ما كنت لأدع أي شيء يوقفني. إنها سيدي.

انتظرتُ أن يسألني عما إذا كان من المستحسن إبلاغ الشرطة بما يجري، لكنه كان أدرى، إذ يعاني دوغ ريمز، شرطي جودي، ضعف النظر، ويرتدي دعامة حول إحدى ساقيه، وأكبر سنًا من ديكي نفسه. كما لم يسألني ديكي عن سبب عدم اتصالي بشرطة الولاية من دالاس. إذا كان قد سألني لقلتُ له إنني أصدّق جدية كلايتون بشأن قتل سيدي إذا لمح وميض سيارات الشرطة. وهذا صحيح، لكنه ليس السبب الحقيقي. أردت أن أتولى أمر ابن الساقطة بنفسني.

كنت غاضبًا جدًا.

- متى يتوقع وصولك يا جورج؟

- قبل السابعة والنصف.

- والساعة الآن... السابعة إلا رُبع، بحسب ساعتني. إذن أمامنا وقت قصير. الشارع الذي خلف بي تري اسمه أبل... نسيت اسمه الكامل، هل ستكون هناك؟

- نعم، المنزل الذي خلف منزلها.

- يمكنني مقابلتك هناك في غضون خمس دقائق.

- بالتأكيد، إذا قُدت سيارتك كالمعتوه. فلتكن عشر دقائق. واجلب معك وسيلة إلهاء، شيء يمكنه رؤيته من نافذة صالة المعيشة إذا نظر إلى الخارج. لا أدري، ربما...

- هل سيفي طبق كسرولة بالغرض؟

- حسنًا. أراك هناك بعد عشر دقائق.

وقبل أن أنهي المكالمة قال: «هل لديك مسدس؟».

- نعم.

رد بصوت أقرب إلى زمجرة كلب: «جيد».

6

الشارع الذي خلف منزل دورس دَنِنغ كان جادة ويمور. والشارع الذي خلف منزل سيدي اسمه أبل بوسوم. المنزل رقم 202 بجادة ويمور كان معروضًا للبيع. والمنزل رقم 140 بشارع أبل بوسوم لم تُعلّق في مرجته لافتة للبيع، لكنه مظلّم ومرجته مهملة تتخللها الهندباء، أوقفتُ سيارتي أمامه ونظرت إلى ساعتِي. السادسة وخمسون دقيقة.

وبعد دقيقتين أوقف ديكي سيارته خلف الشيفروليه وترجل، كان يرتدي بنطال جينز وقميصًا مقلّمًا ويضع ربطة عنق رفيعة، ويحمل طبق كسرولة على جانبه زهرة، فيه طعام صيني من خضراوات ولحم وبيض. - ديكي، أعجز عن شكرك بما يـ...

- لا أستحق الشكر، أستحق ركلة في منفرجي. يوم رأيته كان خارجًا من محل ويسترن أوتو في أثناء دخولي إليه. لا بد أنه كان كلايتون. كان يومًا تهب فيه رياح قوية، حرّكتُ شعره فرأيت لوهلة التجويفين في صدغيه. لكن شعره... كان طويلًا وليس باللون نفسه... وكان يرتدي ملابس رعاة بقر... (هز رأسه وتابع) إنني أشيخ. إذا تعرضت سيدي لأذى، فلن أسامح نفسي أبدًا.

- هل تشعر بأنك على ما يرام؟ ألا تشعر بألم في صدرك أو شيء من هذا القبيل؟

نظر إلي كأنني مجنون.

- هل سنقف هنا ونناقش حالتي الصحية أم سندخل ونحاول إخراج سيدي من محنتها؟

قلت: «سنفعل أكثر من مجرد المحاولة. أنت اذهب حول المربع السكني إلى منزلها، وأنا سأدخل عبر هذه الباحة الخلفية ثم أخترق سياج الشجيرات إلى باحة سيدي الخلفية». كنت أفكر بمنزل دَنَنغ في شارع كوسوث، بالطبع، لكن حتى في أثناء كلامي تذكَّرت وجود سياج شجيرات في باحة سيدي الصغيرة. رأيته عدة مرات. «اطرق الباب وقُل كلامًا مبهِجًا، بصوتٍ عالٍ يمكنكني سماعه، عندئذٍ سأكون في المطبخ».

- ماذا لو وجدتَ الباب الخلفي موصدًا؟

- سيدي تحتفظ بمفتاح تحت درجة السلم.

قال ديكي: «حسنًا». وأطرق مفكرًا، مقطبًا جبينه، ثم رفع رأسه وتابع: «سأقول "زيارة من أيفون، جئنا لتوصيل طبق كسرولة" وأرفع الطبق حتى يراني عبر نافذة صالة المعيشة إذا نظر إلى الخارج. هل سيفي هذا بالغرض؟».

- نعم. كل ما أريده منك هو تشتيت انتباهه لبضع ثوانٍ.

- إياك أن تطلق النار في حال احتمال أن تصيب سيدي. هاجم الوغد وأسقطه أرضًا. ستتغلب عليه، الرجل الذي رأيته نحيل كسلك.

تبادلنا نظرات متجهمة، مثل هذه الخطة قد تنجح في مسلسلات مثل غَنَسْموك ومافريك، لكن نحن في الحياة الواقعية. وفي الحياة الواقعية يتعرض الأخيار من الرجال والفتيات للضرب، أو القتل.

7

الباحة التي خلف منزل شارع أبل بلوسوم لم تكن مثل باحة منزل دَنَنغ، لكن ثمة أوجه شبه. أولها بيت الكلب، لكن ما من لافتة مكتوب عليها ها هو وجار كلبك. هنا رأيت بَيْت بوتش.

لكن سياج الشجيرات بدا مطابقًا تمامًا.

سرت خلاله، وبالكاد أحسست بخدوش بعض الأغصان الجافة على ذراعي. عبرتُ باحة سيدي الخلفية منحنيًا مهرولًا، وحاولت فتح الباب. موصد. تحسستُ تحت درجة السلم، موقنًا أنني لن أجد المفتاح لأن الماضي متناغم وعنيد.

وجدته. أخرجه وأدخلته في القفل ببطء، سمعت صوتًا خافتًا من الداخل إثر فتح القفل، فتسمّرت، منتظرًا ردة فعل، لكن لم يحدث شيء. رأيت مصابيح مضاءة في صالة المعيشة، لكن لم أسمع صوتًا. ربما ماتت سيدي سلفًا وغادر كلايتون. رباه، أرجوك لا.

لكن حالما دفعت الباب قليلًا، سمعته. كان يتكلم بصوت عال رتيب، كصوت بيلي جيمس هارغس وهو تحت تأثير مخدر، يحدثها عن مدى عُهرها، وإفسادها حياته. أو ربما كان يتحدث عن الفتاة التي حاولت لمسها. كل الفتيات سيان في نظر جوني كلايتون: شهوانيات وحاملات أمراض، وعليه أن يعاملهن بالحزم، والمكنسة بالطبع.

نزعت حذائي ووضعته على مشمع الأرضية كان المصباح مضاء فوق حوض الغسل. تحققتُ من ظلي لأتأكد أنه لن يسبقني إلى الصالة، ثم أخرجت مسدسي من جيب معطفي الرياضي وسرت إلى الجانب الآخر من المطبخ، لأقف بجانب الرواق المفضي إلى صالة المعيشة حتى أسمع: "زيارة من أيفون"، وعندئذ أندفع إلى الداخل.

إلا أن ذلك لم يحدث. عندما هتف ديكي، لم تكن في صوته أي نبرة مرح، بل كانت صيحة صدمة وغضب. كما لم أسمع هتافه من خارج الباب، بل من داخل المنزل.

- يا إلهي! سيدي!

بعدها توالى الأحداث سريعًا جدًا.

كان كلايتون قد فتح قفل الباب الأمامي عنوة لذا لم يُعد يُغلق. وسيدي لم تلاحظ هذا، لكن ديكي لاحظته. وبدلاً من أن يطرق الباب، دفعه ودخل حاملاً طبق الكسرولة. كان كلايتون ما يزال جالساً على مسند الأقدام، ومسدسه مصوباً نحو سيدي، لكنه كان قد وضع المديّة جواره على الأرضية. قال ديكي لاحقاً إنه لم يعرف أن كلايتون كان معه مديّة. وأشك فيما إذا لاحظ المسدس نفسه. كان انتباهه مركّزاً على سيدي وحدها. عندئذٍ كان الجزء العلوي من فستانها الأزرق مخضباً بدماء داكنة، وذراعها وجانب الأريكة الذي تتدلى عليها كانا ملطخين بالدماء أيضاً، لكن الأسوأ من كل شيء كان وجهها، الذي كان في مواجهة ديكي. تدلى خدها الأيسر منشطراً، كستارة ممزقة.

- يا إلهي! سيدي!

كانت صيحة صدمة عفوية.

استدار كلايتون، مكشّراً عن أسنانه، ورفع مسدسه. رأيت هذا وأنا مندفع عبر الرواق الفاصل بين المطبخ وصالة المعيشة، ورأيت سيدي تركل المسند بقدمها فجأة. أطلق كلايتون النار، لكن الرصاصة أصابت السقف. وفي أثناء محاولته النهوض، قذف ديكي طبق الكسرولة، طار الغطاء، وتناثر الطعام على مروحة السقف، وأصاب الطبق، وهو ما يزال نصف ممتلئ، ذراع كلايتون اليمنى. تدفق باقي الطعام عليه. وطار المسدس.

رأيت الدماء. رأيت وجه سيدي الخرب. رأيت كلايتون مقرفصاً على السجادة الملطخة بالدماء، وصوّبتُ مسدسي نحوه. صرخت سيدي: «لا! لا لا تفعل. أرجوك لا تفعل!».

أعاد صراخها إليَّ رُشدي فورًا. إذا قتلته، فستستجوبني الشرطة مهما كان قتلي مبررًا، وستداعى هويتي بوصفي جورج أمبرسون، وتتلاشى أي فرصة كانت متاحة لدي لإيقاف عملية الاغتيال في نوفمبر. وحقًا إلى أي مدى سيكون قتلي له مبررًا؟ الرجل كان أعزل.

أو هذا ما ظننته، لأنني أيضًا لم أر المدية، كانت مخفية أسفل المسند المقلوب. وحتى إذا كانت في موضع ظاهر لما رأيته.

أعدتُ المسدس إلى جيبي وجذبتُ كلايتون حتى أوقفته على قدميه. قال: «لا يجوز لك ضربتي!». تناثر رذاذ لعابه من شفثتي، ورمش بعينه كأنه يمر بنوبة صرع. ثم انسرب بوله، سمعته يتقاطر على السجادة. «إنني مريض عقلي. لستُ مسؤولًا، لا يمكن تحميلي أي مسؤولية، لدي شهادة، موجودة بصندوق القفازات في سيارتي، سأريها لكم...».

النحيب في صوته، والرعب في وجهه بعدما جُرد من سلاحه، وشعره البرتقالي-الأشقر الأشعث حول وجهه، وحتى رائحة الطعام... كل هذه الأشياء أجّجت غضبي. لكن الأهم كانت سيدي، المنكმشة على الأريكة مبللة بالدماء، انحل شعرها، وعلى جانبه الأيسر تدلى وقد التصقت به كتلة دماء متخثرة بجانب وجهها الجريح. ستكون ندبتها في مكان أثر ندبة بوبي جيل نفسه، بالطبع، لأن الماضي يتناغم، لكن جرح سيدي بدا أسوأ بكثير.

لطمته على جانب وجهه الأيمن بقوة جعلت اللعاب يتطاير من جانب فمه الأيسر. «أيها الداعر المجنون، هذه من أجل المكنسة!».

أعدتُ اللطمة من الجانب الآخر، وهذه المرة تطاير اللعاب من جانب فمه الأيمن. استحق ما ناله جراء فعلته التي لا تغتفر. «هذه من أجل سيدي!».

كُورْتُ يدي. في عالمٍ آخر كان ديكي يزعم في الهاتف. وهل كان يفرك صدره كما فعل تيركوت؟ لا. على الأقل ليس بعد. وفي ذلك العالم الآخر نفسه كانت سيدي تتأوه. «وهذه من أجلي!».

أطلقت قبضتي إلى الأمام، و -قلت إنني سأروي الحقيقة، كل الحقيقة- عندما تهشَّم أنفه، طَرِبْتُ أذناي لسماع صرخة ألمه. أفلتته فتهالك على الأرضية.
ثم التفتُ إلى سيدي.

حاولت النهوض من الأريكة، وعجزتُ، ثم حاولت رفع ذراعيها نحوي، ولم تستطع أيضًا، سقطتا على فستانها المشبع بالدماء. وبدأت عيناها تشخصان فتأكدت أنها سيُغْمى عليها، لكنها تماكنت وعيها وهمست: «جئت. أوه، جيكَ، جئت من أجلي. كلاكما جئتما».

صاح ديكي في الهاتف: «جادة بي تري! لا، لا أعرف الرقم، لا أتذكره، لكنكم سترون رجلًا عجوزًا قدماه ملطختان بطعام يقف بالخارج ويلوِّح بذراعيه! أسرعوا! نزفت كثيرًا من الدماء!».

قلت: «اجلسي ساكنة، لا تحاولي...».

اتسعت عيناها. كانت تنظر فوق كتفي. «انتبه يا جيكَ، انتبه!».

استدرت ويدي في جيبي محاولًا إخراج المسدس. واستدار ديكي أيضًا، ممسكًا بسماعة الهاتف بكلتا يديه المعروقتين. لكن رغم أن كلايتون كان قد التقط المديّة التي شوه بها سيدي، فإنه لم يعد قادرًا على مهاجمة أحد، سوى نفسه.

هذا كان مشهدًا آخر شاركتُ في أدائه من قبل، عندما ذهبت إلى جادة غرينفيل، بعد وقت ليس بالطويل من مجيئي إلى تكساس. لم نسمع موسيقى عالية لمادي ووترز تنبعث من حانة وردة الصحراء، لكن هنا امرأة أخرى تعرضت لإصابة بالغة ورجلاً آخر ينزف من أنف

مكسور آخر، قميصه خارج بنطاله ويرفرف قريباً من ركبتيه. كلايتون هنا يمسك بمدية بدلاً من مسدس، وعدا هذا الاختلاف فالمشهد هو نفسه. صحت: «لا يا كلايتون، أبعد المدية!».

رأيتُ عينيه، الباديتين من خلال خصلات شعر برتقالية متكتلة، قد جحظتا وهو يحدق إلى المرأة شبه فاقدة الوعي على الأريكة. صاح: «أهذا ما تريدينه يا سيدي؟ إذا كان هذا ما تريدينه، فسأمنحك ما تريدينه!». ابتسم جاهداً، ورفع المدية إلى حلقه... وقطعه.

الجزء الخامس

63/22/11



الفصل الثالث والعشرون

1

من صحيفة مورننغ نيوز، دالاس، 11 أبريل 1963 (صفحة 1):

مُسَلِّح يطلق النار على ووكر

بقلم إدي هيوز

حاول مُسلِّح ببندقية قوية قتل الجنرال السابق إدوين إيه ووكر بمنزله مساء الأربعاء، بحسب بيان الشرطة، أخطأت الرصاصة المباشرة المثير للجدل بأقل من بوصة.

كان ووكر يعمل على ضرائب دخله عند التاسعة مساء عندما اخترقت الرصاصة نافذة خلفية وأصابته جدارًا بجواره.

قالت الشرطة إن حركة طفيفة من ووكر أنقذت حياته على ما يبدو. قال المحقق إيرا فان كليف: «شخص ما سنحت له فرصة مثالية للتصويب. أيًا كان فقد أراد قتله بالتأكيد».

استخرج ووكر عدة شظايا من الرصاصة من كُمه الأيمن وكان ما يزال ينفذ شظايا الزجاج من شعره عندما وصل المراسلون.

قال ووكر إنه ذهب إلى منزله بدالاس بعد أول توقف لجولة محاضرات اسمها «جولة عملية منتصف الليل»، وقال للمراسلين أيضًا....

من صحيفة مورننغ نيوز، دالاس، 12 أبريل 1963 (صفحة 7):

مريض عقلي يشوه وجه زوجته السابقة ثم ينتحر

بقلم ماك دوغاس

(جودي) وصل ذو الأعوام السبعة والسبعين ليكون "ديكي" سيمونز متأخرًا فلم يستطع إنقاذ سيدي دنهل من الإصابة، لكن كان من المحتمل أن يكون مصير دنهل ذات الأعوام الثمانية والعشرين أسوأ بكثير، وهي أمانة مكتبة تحظى بشعبية في مدرسة دنهولم الثانوية الموحدة.

وفقًا لدوغلاس ريمز، شرطي بلدة جودي: «لولا وصول ديكي وقت وصوله لَقُتِلَت الآنسة دنهل بالتأكيد». وعندما اقترب المراسلون من سيمونز اكتفى بقول: «انتهت الحادثة، لا أريد الحديث عنها».

وبحسب الشرطي ريمز، تغلب سيمونز على الشاب جون كلايتون وانتزع منه مسدسًا صغيرًا. ثم أخرج كلايتون المدية التي جرح بها زوجته ثم استخدمها لقطع حلقه. حاول سيمونز ورجل آخر، جورج أمبرسون القادم من دالاس، إيقاف النزيف، لكن بلا جدوى. أُعلن موت كلايتون في مسرح الحادثة.

أما السيد أمبرسون، وهو أستاذ سابق بمدرسة دنهولم الثانوية، وقد وصل إلى مسرح الحادثة بُعيد تجريد كلايتون من سلاحه - فقد تعذّر الوصول إليه للإدلاء بتعليق، لكنه قال للشرطي ريمز في مسرح الحادثة إن كلايتون، وهو مريض عقلي، ربما كان يترصد زوجته السابقة منذ شهور. وقد حُذّرت إدارة المدرسة وأساتذتها وحصلت المديرة إيلين دوكرتي على صورة للجاني، لكن قيل إن كلايتون كان يأتي متنكرًا.

نُقلت الآنسة دنهل بسيارة إسعاف إلى مستشفى باركلاند التذكاري في دالاس، حيث قيل إن حالتها مستقرة.

2

لم يُسمح لي برؤيتها حتى يوم السبت. أمضيت معظم ساعات تلك الفترة في صالة الانتظار ومعني كتاب لم أستطع قراءته، ولا بأس، حظيت برفقة كثيرين، معظم أساتذة مدرسة دنهولم الثانوية جاؤوا ليطمئنوا

على حالة سَيدي، وأيضًا قرابة مئة طالب، كل من ليس لديه رخصة قيادة اصطحبه والداه إلى دالاس. كثيرون بقوا ليتبرعوا بالدم لسَيدي. وسرعان ما ضاقت حقيبتَي اليدوية ببطاقات تمنِّي الشفاء ورسائل لتعبير عن القلق. ومن كثرة الزهور التي جُلِبْتُ بدا مكتب الممرضات كحديقة.

كنت أظنني اعتدت العيش في الماضي، لكن صُدمت من غرفة سَيدي بمستشفى باركلاند عندما سُمح لي أخيرًا بالدخول إليها. كانت غرفة ساخنة بسرير واحد ليست أكبر كثيرًا من خزانة ملابس، وما من حمام، رأيت في الركن مرحاضًا قبيحًا لا يمكن سوى لقزم أن يقرص عليه بارتياح، وجواره ستارة بلاستيكية شبه معتمة (لتوفير شبه خصوصية). وبدلًا من أضرار ترفع السرير وتخفضه، كانت توجد ذراع معدنية تلاشى طلاؤها الأبيض من كثرة الأيدي التي لمستَه. وبالطبع ما من شاشات حاسوبية تُظهر المؤشرات الحيوية، وما من تلفاز للمريض.

رأيت قنينة زجاجية واحدة، ربما تحتوي على السالين، معلقة من حامل معدني، وأنبوبًا يمتد منه إلى ظهر يد سَيدي اليسرى، حيث يختفي أسفل ضمادة كبيرة.

لكنها ليست كبيرة كالضمادة المحيطة بجانب رأسها الأيسر. قُص جزء من شعرها على هذا الجانب، فبدا وجهها مائلًا مؤسفًا. ترك الأطباء شقًا صغيرًا لعينها، فتحتها مع عينها الأخرى على الجانب السليم عندما سمعت وقع أقدامي. ورغم أنها كانت تحت تأثير المخدر، بدت على عينيها ومضة رعب اعتصرت قلبي.

ثم أدارت وجهها، ببطء، منهكة، إلى الجدار.

- سَيدي، عزيزتي، هذا أنا.

قالت دون أن تلتفت: «مرحبًا أنا».

لمسْتُ كتفها في الجزء العاري الذي لا يغطيه رداؤها، لكنها ابتعدت قليلاً.

- أرجوك لا تنظر إلي.

- سيدي، هذا لا يهم.

التفتت، ونظرت إلي بعينين حزينتين مشبعتين بالمورفين، إحدهما تحديق من ثقب في الضمادة، التي عليها بقعة حمراء مصفرة قبيحة، افترضت أنها دماء ومرهمٌ ما.

قالت: «بل يهم. هذا ليس كما حدث لبوبي جيل». حاولت أن تبتسم وتابعت: «تعرف كيف تبدو كرة البيسبول، بالغرز الحمراء الكثيرة، أليس كذلك؟ هكذا تبدو سيدي الآن. غرز ممتدة في كل الاتجاهات».

- سوف تتلاشى.

- إنك لا تفهم. هذا ليس جرحاً سطحياً. جوني شق خدي كاملاً حتى داخل فمي.

- لكنك على قيد الحياة، وأحبك.

قالت بصوتها الرتيب المتأثر بالمخدر: «قل هذا عندما تُنزع الضمادات. سأجعل عروس فرانكنشتاين تبدو مثل ليز تايلور». أمسكتُ بيدها. «قرأت ذات يوم...».

- لا أظنني مستعدة لنقاش أدبي يا جيك.

حاولتُ أن تستدير، لكنني تمسكتُ بيدها وقلت: «إنه مثل ياباني. "في عين المُحب، حتى ندوب الجدي جميلة كالغمازات". سأحب وجهك مهما بدا شكله، لأنه وجهك».

بكتُ، وظللت ممسكاً بها حتى هدأت. وظننت أنها نامت، حتى قالت: «أعرف أن ما حدث خطئي، تزوجته، لكن...».

- ليس خطأك يا سيدي، لم تكوني تعرفين.

- كنت أعرف أنه يعاني خطبًا مريبًا، ومع ذلك لم أترجع عن الزواج، أظن لأن أبي وأمي أرادا بشدة أن يتم الزواج. لم يأتيا بعد، ومسرورة لأنهما لم يأتيا. لأنني ألومهما أيضًا. هذا فظيع، أليس كذلك؟

- بما أنك توزعين اللوم، وفّري لي قليلًا أيضًا. رأيتُ من قبل تلك البليماوث التي كان جوني يقودها، مرتين على الأقل رؤية واضحة أكيدة، وربما مرتين أخريين بطرف عيني.

- لا داعي لإحساسك بالذنب من هذه الناحية. محقق شرطة الولاية وشرطي تكساس الجوّال اللذان طرحا علي أسئلة قالوا إنهم وجدوا صندوق سيارة جوني مليئًا بلوحات الترخيص، وعلى الأرجح كان يسرقها من أي نُزُل يمر به. وكان لديه كثير من الملصقات.

تذكرت الملصق الذي خدعني في كاندلوود في تلك الليلة. إلى الأمام أوكلاهوما سونرز. أخطأتُ عندما صرفتُ النظر عن رؤيتي المتكررة للسيارة ذات اللونين الأبيض والأحمر، وحسبتها حالة أخرى من حالات تناغم الماضي. كان ينبغي أن أفطن لها. لفطنتُ لها، إذا لم يكن نصف عقلي في دالاس مع لي أوزوالد والجنرال ووكر. وإذا كان اللوم أهمية، فثمة جزء يتحملة ديكي أيضًا، فهو قد رأى الرجل نفسه، ولاحظ الغمازتين العميقتين على جانبي رأسه.

قلت مع نفسي: انس الأمر، ما حدث قد حدث، وليس بالإمكان تداركه. في الحقيقة بالإمكان تداركه.

قالت: «جيك، هل تعرف الشرطة أنك لست... من تقول إنه أنت؟». أزحت شعرها إلى جانب وجهها الأيمن، حيث ما زال طويلًا. «إنني بخير من هذه الناحية».

أنا وديكي استجبنا الشرطيان أنفسهما اللذان استجوبا سيدي قبل أن يدخلها الأطباء إلى غرفة العمليات. محقق شرطة الولاية وجّه توبيخًا

للرجال الذين يكثرون من مشاهدة مسلسلات رعاة البقر على التلفاز، وأيديه الجوّال، ثم صافحنا وقال: «لو كنت في مكانكما لفعلتُ ما فعلتماه نفسه».

قلت لها: «ديكي يحاول جاهداً إبعادي عن المشهد. يريد أن يحرص على عدم انزعاج مجلس إدارة المدرسة بشأن عودتك العام القادم. أكاد لا أصدق أن تعرضك لإصابة على يد معنوه قد تؤدي إلى استبعادك بذريعة الفساد الأخلاقي، لكن ديكي يرى أن من الأفضل...».

- لن أعود، لا يمكنني مواجهة الفتية وأنا أبعد بهذا الشكل.

- سيدي، إذا عرفتِ عدد الذين جاؤوا هنا...

- هذا جميل، يسعدني جدًّا، أولئك الذين جاؤوا أنفسهم هم الذين لا أستطيع مواجهتهم. ألا تفهم؟ أظنني قادرة على التعامل مع الذين يضحكون ويسخرون. في جورجيا درّستُ مع امرأة لديها شفة أرنبية، وتعلّمتُ كثيرًا من طريقة تعاملها مع قسوة المراهقين. الآخرون اللطيفون هم مَنْ لا يمكنني التعامل معهم، ذوو النوايا الطيبة. ونظرات التعاطف... والذين لا يطيقون النظر إطلاقًا.

أخذتُ نفسًا عميقًا مرتجفًا، ثم زفرته بقوة: «كما إنني غاضبة. أعرف أن الحياة صعبة، أظن كل الناس يعرفون هذا، لكن لماذا ينبغي أن تكون قاسية أيضًا؟ لماذا ينبغي أن تعض؟».

ضممتُها بين ذراعي، وأحسست بجانب وجهها السليم ساخناً ونابضاً.

- لا أدري يا عزيزتي.

- لماذا لا نتاح لنا فرص ثانية؟

ظللت ممسكًا بها، وعندما انتظم تنفّسها، تركتها ونهضتُ بهدوء لأغادر. دون أن تفتح عينيها قالت: «أخبرتني أن هناك حدثًا كان عليك أن تشهده ليلة الأربعاء، لا أظنه كان انتحار جوني كلايتون، أليس كذلك؟».

- بلى.

- هل فاتك؟

فكرت بالكذب، لكن لم أكذب: «نعم».

عندئذٍ فتحت عينيها، لكن بصعوبة وتذبذب.

- هل ستجد فرصة ثانية؟

- لا أعرف. لا يهم.

هذا لم يكن صحيحًا. سوف يهم زوجة جون كينيدي وأطفاله، ويهم أشقاءه، وربما يهم مارتن لوثر كينغ، وقطعًا سوف يهم آلاف الشبان الأمريكيين الطلاب في المدارس الثانوية الذين، إذا لم يغيّر حدثٌ مسار التاريخ، سوف يُطلب منهم ارتداء الزي العسكري والسفر إلى الجانب الآخر من العالم، واقتعاد خازوق فيتنام الأخضر الكبير. أغمضت عينيها، فغادرتُ الغرفة.

3

لم أجد طلابًا حاليين في ديهولم الثانوية في الردهة عندما خرجتُ من المصعد، لكن وجدت اثنين من الخريجين. رأيت مايك كوسلو وبوبي جيل ألنوت جالسين على كرسيين بلاستيكيين وعلى حجريهما مجلتان مغلفتان. هبَّ مايك واقفًا وصافحني، وعانقتني بوبي جيل عناقًا قويًا. سألتني: «ما مدى سوء إصابتهما؟ أعني...». مررتُ أطراف أصابعها على ندبتها المتلاشية. «هل يمكن علاجها؟».

- لا أدري.

سألني مايك: «هل تحدثت مع د. إرتون؟». إرتون المشهور بأنه أفضل جراح تجميل في وسط تكساس، كان هو من جرّت على يديه أعجوبة شفاء بوبي جيل.

قلت: «إنه في المستشفى اليوم، في جولة على مرضاه. أنا وديكي وإيلين لدينا موعد معه بعد...» نظرت إلى ساعتى. «عشرين دقيقة. هل تودان الحضور؟».

قالت بوبي جيل: «من فضلك. أعرف أنه بمستطاعه معالجتها. إنه عبقرى».

- هياً إذن، فلنر ما يستطيع العبقرى فعله.
لا بد أن مايك قرأ ما يعتمل في وجهي، لأنه ضغط على ذراعى وقال:
«ربما لا تكون حالتها سيئة كما تظن يا أستاذ أمبرسون».

4

بل أسوأ.

مرر إلرتون الصور لنا صور لامعة بالأبيض والأسود. شهقت بوبي جيل وأشاحت بوجهها. ند عن ديكي صوت كأنه تعرض للكمة في بطنه. وقلّبت إيلين الصور رابطة الجأش، لكن وجهها بدا ممتقاً عدا عن كُرتى الروج الحمراوين على خديها.

في الصورتين الأوليين رأيت خد سيدي متهدلاً مشقوقاً إلى نصفين. وهذا رأيتة في ليلة الأربعاء وكنت مستعداً له. ما لم أكن مستعداً له كان ارتخاء جانب فمها كما يحدث مع المصابين بالسكتة الدماغية، وتغضن كتلة اللحم أسفل عينها اليسرى. فأكسب سيدي مظهر مهرجين جعلني أرغب في خبط رأسي على طاولة غرفة الاجتماعات الصغيرة التي أخلاها الطبيب من أجل اجتماعنا. أو حتى يمكنني (وهذا احتمال أفضل) أن أهرع إلى المشرحة حيث يوجد جوني كلايتون وأضربه مزيداً من الضرب.

قال إلرتون: «عندما يصل والدا هذه الشابة مساء اليوم، سأجعل حديثي مُراعياً ومفعماً بالأمل، لأن الوالدين يستحقان المراجعة والأمل».

أطرق عابسًا ثم قال: «لكن كنت أتوقع وصولهما في وقت أبكر، نظرًا إلى فداحة حالة السيدة كلايت...».

«الآنسة دنهل». تكلمت إيلين بقسوة هادئة: «تطلّقت قانونيًا من ذلك الوحش».

تابع الطبيب: «أجل، حسنًا، على أي حال، أنتم أصدقاءها، وأرى أنكم تستحقون الحقيقة مجردة». نظر مغمومًا إلى إحدى الصور ونقر على خد سيدي الممزق بظفر قصير نظيف: «هذا يمكن تحسينه، لكن يستحيل علاجه علاجًا تامًا بالتقنيات والوسائل المتاحة لدي الآن. بعد عام من الآن، عندما يلتئم النسيج تمامًا، ربما أستطيع تخفيف عدم التناظر إلى حدٍّ ما».

سالت الدموع على خدي بوبي جيل، وأمسكت بيد مايك.

تابع إلرتون: «الضرر الدائم الذي لحق بمظهرها أمر مؤسف، لكن لديها مشكلات أخرى أيضًا. قُطع العصب الوجهي. لذا ستواجه صعوبات في الأكل بجانب فمها الأيسر. ميلان العين الذي ترونه في هذه الصور سيدوم معها طوال حياتها، ومجرى الدموع قُطع جزئيًا. لكن بصرها ربما لا يتأثر. نأمل هذا».

تنهّد وبسط يديه، ثم تابع: «نظرًا لتقنيات واعدة مثل الجراحات الدقيقة والتجدد العصبي، ربما نقدر على تقديم علاج أفضل لمثل هذه الحالات بعد عشرين أو ثلاثين عامًا. في الوقت الراهن كل ما يمكنني قوله هو إنني سأبذل كل ما بوسعي لعلاج كل ضرر يمكن علاجه».

تكلم مايك لأول مرة، بنبرة مريرة: «أمر مؤسف أننا لا نعيش في عام 1990، أليس كذلك؟».

خرجنا صامتين محبطتين من المستشفى عصر ذلك اليوم. وجوار موقف السيارات لمست إيلين كُـم قميصي وقالت: «كان ينبغي أن أعمل بتحذيرك يا جورج. إنني آسفة جدًا».

قلت: «لست متأكدًا أن ذلك كان ليُحدث فرقًا. لكن إذا أردت أن تعوّضيني، فاطلبي من فريدي كينلان الاتصال بي، إنه وكيل العقارات الذي ساعدني عندما جئت إلى جودي أول مرة. أريد أن أكون قريبًا من سيّدي في هذا الصيف، وهذا يعني أنني أحتاج إلى منزل أستأجره».

قال ديكي: «لك أن تقيم معي، لدي غرف كثيرة».

التفتُ إليه: «هل أنت متأكد؟».

- ستسديني معروفًا.

- سأكون سعيدًا بدفع...

لوّح بيده مستبعدًا فكرتي: «لك أن تساهم في شراء حاجيات البقالة، لا بأس».

هو وإيلين كانا قد جاءا بسيارته. شاهدتهما يبتعدان، ثم سرت متثاقلاً نحو سيارتي، التي بدت لي عندئذٍ سيارة مشؤومة. لم أشعر بأي رغبة في العودة إلى ويست نيلي، حيث سأسمع بالتأكيد ليّ وهو يفرغ في مارينا إحباطه من إخفاقه في إصابة الجنرال ووكر.

«أستاذ أمبرسون!». كان مايك. والتفت فرأيت بوبي جيل واقفة على مبعدة عاقدة ذراعيها على صدرها، بدت كئيبة متكدرة.

- نعم مايك.

- مَنْ سيدفع فاتورة الآنسة دنهل للمستشفى؟ والعمليات الجراحية التي تحدث الطبيب عنها؟ هل لديها تأمين؟

- لن يغطي كل التكاليف.

أبعد ما يكون عن تغطية كل تكاليف علاج كهذا. فكرتُ بوالديها، لكن عدم مجيئهما حتى الآن أقلقني. لا يمكن أن يلوماها على ما فعله كلايتون... أليس كذلك؟ لم أر هذا ممكناً، لكنني جئت من عالم تسوده المساواة بين الرجال والنساء، في غالب الأحوال. لم يبدُ عام 1963 لي قط كبلاد أجنبية كما بدا لي في هذه اللحظة.

قلت: «سأساعد بقدر مستطاعي». لكن ما هو قدر مستطاعي؟ ما لدي من نقود يكفي لتغطية احتياجاتي لبضعة أشهر قادمة، لكنه لن يكفي لدفع تكاليف عدة عمليات جراحية لترميم الوجه. لم أرغب في العودة إلى فيث فاينانشال بجادة غرينفيل، لكن رأيت أنني سأعود إذا اضطررت. سيقام ديربي كنتاكي بعد أقل من شهر، ووفقاً لقسم المراهنات الرياضية في دفتر ملاحظات آل، سيفوز فريق شاتغاي، واحتمال فوزه ضئيل. إذا راهنت بألف دولار فسأربح سبعة أو ثمانية آلاف، وهذا مبلغ كاف لتغطية تكاليف إقامة سيدي بالمستشفى و-بأسعار 1963- على الأقل تكاليف بعض العمليات الجراحية اللاحقة.

قال مايك: «لديّ فكرة»، وألقى نظرة سريعة فوق كتفه، فابتسمتُ بوبي جيل له مشجّعة. «أقصد أنها فكرتنا أنا وبوبي جيل. فلتأت معنا إلى المقهى لعشر دقائق أو نحوها حتى نشرح لك الفكرة».

ذهبت. شربنا القهوة. واستمعت إلى فكرتهما. ووافقت. أحياناً عندما يتناغم الماضي مع نفسه، على الرجل الحكيم أن يتنحى ويغنيّ معه.

6

نشبت شجار حار في الشقة التي فوقني مساء ذلك اليوم. وساهمتِ الطفلة جُون بعويل لا ينقطع. لم أكلّف نفسي عناء التنصت، توقعت أن يكون معظم الزعيق بالروسية. ومن ثم، عند قرابة الثامنة، سادَ صمتٌ

غير معتاد. افترضتُ أنهم خلدوا إلى النوم قبل نحو ساعتين من موعد نومهم المعتاد، ووجدت في ذلك راحة.

كنت أفكر في الخلود إلى النوم أنا أيضًا عندما توقفت سيارة دي موهرنشيلدت الشبيهة بالقارب. انسلت جين برشاقة، وترجل جورج بسرعة وحماسة كدأبه دومًا، ثم فتح الباب الذي خلف باب السائق وأخرج دمية أرنب ضخمة. حملتُ إلى ما يجري عبر فرجة الستائر للحظة قبل أن أدرك: اليوم عيد القيامة.

اتجها نحو السلم الخارجي. سارت جين وتقافز جورج أمامها. وقع قدميه على السلم المتضعع هزَّ المبنى بأكمله.

سمعت أصوات دُعر فوق رأسي، مكتومة لكن بدا لي واضحًا أنها نبرات تساؤل. تسارع وقع أقدام على امتداد سقفي، فجعلتُ مصباح صالة المعيشة يرتعش. هل ظن أوزوالد أن شرطة دالاس جاءت لاعتقاله؟ أو ربما أحد عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي الذين كانوا يراقبونه عندما كان يعيش مع أسرته في شارع مرسيدس؟ تمنيت أن يقفز قلبه إلى حنجرته من الخوف، ويخنقه.

سمعت طرقات متوالية على الباب أعلى السلم، وهتف دي موهرنشيلدت مبتهجًا: «افتح يا لي! افتح أيها المُلحد!».

فُتح الباب. وضعتُ سماعة أذني لكن لم أسمع شيئًا. ثم حالما قررت تجريب الميكروفون، أضاء لي أو مارينا المصباح المزود بجهاز التنصت. إذن اشتغل مجددًا، على الأقل في الوقت الراهن.

كانت جين تقول: «... من أجل الرضيعة».

قالت مارينا: «أوه، شكر! شكر جزيلًا جين. لطف منك».

وقال دي موهرنشيلدت: «لا تقف هكذا يا رفيق، اجلب لنا شيئًا نشربه!». بدا من صوته كأنه تناول بضع كؤوس سلفًا.

قال لي: «ليس لدي شيء سوى الشاي». بدا نزعًا ناعسًا.

قال دي موهرنشيلدت: «لا بأس بالشاي. لدي قنينة هنا في جيبتي ستجعله مشروبًا جديرًا بالاحترام». كدت أراه يغمز.

تحدثت مارينا وجين بالروسية. ولي ودي موهرنشيلدت، بوقع أقدامهما الأثقل، تحركا نحو منطقة المطبخ، حيث عرفت أنني سأفقدتهما. كانت المرأتان تقفان قريبًا من المصباح، وسيطغى صوتهما على حوار الرجلين.

عندئذ قالت جين بالإنجليزية: «يا إلهي، هل ذلك سلاح؟».

توقف كل شيء، حتى قلبي، حسبما بدا لي.

ضحكت مارينا. ضحكة رنانة مصطنعة. «هو خسر العمل. ليس لدينا مال. وهذا الشخص المجنون يشتري بندقية. أقول: "ضعها في خزانة الملابس أيها المجنون الأحمق، حتى لا تزعج حملي"».

قال لي: «أريد التدريب على إصابة الأهداف، هذا كل شيء. كنت بارعًا في المارينز. لم أخطئ هدفًا قط».

لحظة صمت أخرى. بدت لي دهرًا. ثم دوت ضحكة دي موهرنشيلدت المججلة: «بحقك، لا تخدع مخادعًا! كيف أخطأته يا لي».

- لا أعرف ما تتحدث عنه بحق الجحيم.

- الجنرال ووكر يا فتى! كاد شخص ما أن ينثر دماغه الكارهة للزواج على جدران مكتبه في منزله بشارع تيرتل كريك. أتعني أنك لم تسمع بهذا؟

- لم أكن أقرأ الصحف في الآونة الأخيرة.

قالت جين: «حقًا؟ ألا أرى صحيفة تايمز هيرالد على ذلك المقعد؟».

- أعني أنني لا أقرأ الأخبار، تثير الكآبة. أكتفي بقراءة الصفحات الهزلية، وإعلانات العمل. "الأخ الأكبر" يقول إما أن أجد عملاً وإما أن تموت طففتي جوعاً.

سأله دي موهرنشيلدت: «إذن لم تكن صاحب الطلقة الخرقاء، هه؟». كان يغيطه، ويستدرجه.

لكن لماذا؟ هل لأن دي موهرنشيلدت ما كان ليصدق في أشد أحلامه جموحاً أن تافهها مثل أوزي الأرنب كان مُطلق النار في ليلة يوم الأربعاء الماضي؟ أم لأنه كان يعرف أن لي هو الفاعل؟ ربما لأن جين لاحظت البندقية؟ تمنيتُ بكل قلبي لو لم تكن المرأتان موجودتين. إذا أُتيحت لي فرصة الاستماع إلى لي وصديقه الغريب المريب وهما يتحدثان رجلاً لرجل، لربما وجدت إجابة عن أسئلتي. لذا ما زلت غير متأكد.

قال لي: «أتظنني مجنوناً إلى درجة إطلاق النار على شخص وأنا أعرف أن إدغار هوفر يراقبني؟». بدا كأنه يحاول الدخول في جو المزاح، لكنه لم يفلح.

قالت جين بصوت مهدئ: «لا أحد يظنك أطلقت النار على أي أحد يا لي. لكن عدني بأنك ستجد لبندقيتك مكاناً أكثر أماناً من خزانة الملابس عندما تبدأ طفلتك المشي».

ردت مارينا بالروسية. لكنني كنت ألمح الرضیعة في الباحة الجانبية من حين لآخر، وعرفتُ ما قالتها، قصدتُ أن الرضیعة بدأت تتعلم المشي. قال لي: «جونى ستستمتع بهدية جميلة، لكننا لا نحتفل بعيد القيامة، لأننا ملحدون».

ربما كان هو ملحدًا، لكن بحسب ملاحظات آل، فقد أقدمت مارينا -بمساعدة من مُعجَبها جورج بوهي- على تعميد جون سرًا في أيام "أزمة الصواريخ".

قال دي موهرنشيلدت: «ونحن أيضًا، لذا نحتفل بأرنب عيد القيامة». كان قد اقترب من المصباح، فكادت ضحكته الهادرة تصم أذني. تحدثوا لعشر دقائق، بالإنجليزية والروسية، ثم قالت جين: «سنترككم بسلام الآن، أظننا انتزعناكم من الفراش».

قال لي: «لا، لا، كنا مستيقظين. شكرًا على مروركما».

قال جورج: «سنحدث عما قريب يا لي، اتفقنا؟ تعال إلى النادي الريفي، سننظم نقابة للنُّدَل».

- بالتأكيد، بالتأكيد.

تحركوا نحو الباب.

قال دي موهرنشيلدت كلامًا آخر، لكن بصوت منخفض فلم أتبيّن سوى بضع كلمات، ربما كانت سوف أسايرك أو سوف أساندك، لكن استبعدتُ أن تكون هذه من العبارات الشائعة في الستينيات.

أعدتُ تشغيل الشريط قرابة ست مرات، لكن نظرًا إلى بطء التسجيل الشديد تعذر عليّ التأكّد. ظللت مضجعًا مستيقظًا مدة طويلة بعدما استغرقت أسرة أوزوالد في النوم. وكنت ما أزال مستيقظًا عند الثانية فجرًا، عندما بكت جُون مدة قصيرة وهددهتها أمها وأعادتها إلى عالم الأحلام. فكرت بسيّدي، النائمة نومًا مضطربًا بسبب المورفين في مستشفى باركلاند. الغرفة قبيحة والسرير ضيق، لكن لاستطعتُ أن أنام هناك، كنت متأكدًا.

فكرت بدي موهرنشيلدت، ذلك الممثل المسرحي المعتوه الذي مزق قميصه. ماذا قلت يا جورج؟ ماذا قلت عند نهاية كلامك؟ هل قلت أساندك؟ أم أسايرك؟ أم كلامًا مغايرًا تمامًا؟

وأخيرًا نمت. وحلمت بأنني في كرنفال مع سيدي. ذهبنا إلى صالة رماية حيث يقف ليّ وعقب بندقيته مستند إلى كتفه. وخلف النضد جورج دي موهرنشيلدت. أطلق ليّ النار ثلاث مرات ولم يصب أي هدف. قال دي موهرنشيلدت: «آسف يا بُني، ما من جوائز للذين يخطئون». ثم التفت نحوي وابتسم.

- تقدم يا بُني، ربما تكون أوفر حظًا. شخصٌ ما سيقتل الرئيس، لِمَ لا يكون أنت؟

استيقظت مع أول خيوط الفجر. وفوقي واصلت أسرة أوزوالد نومها.

7

عصر يوم الأحد الموافق عيد القيامة كنت قد عدت إلى ساحة ديابي، وجلست على مقعد في المتنزه، ناظرًا إلى مستودع الكتب المدرسية، متسائلًا عما علي فعله.

بعد عشرة أيام سيغادر ليّ دالاس ويذهب إلى نيو أورلينز، مسقط رأسه، وسيعمل في تشحيم الآلات بشركة قهوة ويستأجر شقة بشارع ماغزين، وستلحق به مارينا وجُون بعدما تقضيان نحو أسبوعين مع رُوْث باين وأطفالها في إرفينغ. لن أتبعهم. لأن سيدي أمامها رحلة تعافٍ طويلة ومستقبل مجهول.

هل كان بمستطاعي قتل ليّ بين يوم أحد عيد القيامة وبين يوم الرابع والعشرين؟ كان بمستطاعي على الأرجح. منذ أن فقد ليّ عمله في جاجرز تشيليز ستوفال، صار يقضي معظم وقته في الشقة أو يوزع منشورات "الإنصاف لكوبا" في وسط مدينة دالاس. ومن حين لآخر كان يذهب إلى المكتبة العامة حيث بدا أنه تخلى عن إيان راند وكارل ماركس وصار يقرأ روايات الغرب الأمريكي من تأليف زين غري.

إطلاق النار عليه في الشارع أو المكتبة بشارع يونغ سيعقبه اعتقاله فوراً، لكن ماذا لو فعلتها في شقة الطابق الأعلى عندما تكون مارينا في إرفينغ تساعد روث باين على تحسين لغتها الروسية؟ أطرق الباب، وحالما يفتحه أضع رصاصة في رأسه. قُضي الأمر. ما من مخاطرة بالخطأ في التصويب. المشكلة تكمن فيما سيحدث بعد قتله. سأضطر إلى الهروب. إذا لم أهرب فسأكون أول من تستجوبه الشرطة. فأنا الجار الذي يعيش بالطابق الأسفل.

يمكنني زعم أنني لم أكن موجوداً عند وقوع الجريمة، وربما يصدقون هذا لبعض الوقت، لكن كم سينقضي من الوقت قبل اكتشافهم أن جورج أمبرسون شارع ويست نيلي هو نفسه جورج أمبرسون الذي تصادف وجوده في مسرح الجريمة بجادة بي تري في جودي قبل وقت ليس بالطويل؟ هذا سيستدعي التحقق، والتحقق سيكشف سريعاً عن أن شهادة تدريس جورج أمبرسون مصدرها مؤسسة مزيفة في أوكلاهوما وأن مراجعه مزيفة. عندئذٍ سأعتقل على الأرجح. وسوف تستصدر الشرطة أمراً قضائياً لفتح صندوق أماناتي إذا عرفوا أن لدي صندوق أمانات، على الأرجح سيعرفون، لأن ريتشارد لينك، موظف المصرف، سيرى اسمي و/أو صورتني في الصحيفة ويُدلي بما يعرفه عني. ثم ماذا سيفهمون من مذكراتي؟ سيفهمون أنني لدي دافع لقتل أوزوالد، مهما بدا الدافع جنونياً.

كلّا. سيتعيّن علي أن أهرب إلى جحر الأرنب، وأتخلى عن الشيفروليه في مكانٍ ما في أوكلاهوما أو أركانساس، ثم أستقل الحافلة أو القطار. وإذا نجحتُ في العودة إلى 2011، فلن يمكنني استخدام جحر الأرنب أبداً دون أن أتسبب في إعادة الوضع في الماضي إلى ما كان عليه، وهذا سيترتب عليه أن أترك سيدي خلفي إلى الأبد، مشوهة ووحيدة. لقات مع نفسها: بالطبع هجرني. حدّثني كثيراً عن ندوب الجدي التي

يضاهي جمالها جمال الغمازات، لكن حالما سمع تقييم إلرتون، قبيحة الآن، قبيحة إلى الأبد - شدَّ رحاله.

ربما لن تلومني. وهذا كان أسوأ احتمال إطلاقاً.

لكن كلاً، كلاً، ثمة احتمال أسوأ. لنفترض أنني عدت إلى 2011، ماذا لو اكتشفت أن كينيدي اغتيل في 22 نوفمبر رغم كل شيء؟ كنت ما أزال غير متأكد أن أوزوالد كان وحده. مَنْ أنا لأقول إن عشرة آلاف من أصحاب نظريات المؤامرة كانوا مخطئين، لا سيما بعدما أسفر بحثي الدؤوب عن معلومات جديدة؟

ربما أدخل موقع ويكيبيديا وأكتشف أن مُطلق النار كان في غراسي نول، أو فوق سقف مبنى المحكمة بشارع هيوستن، مسلّحاً ببندقية أخرى بدلاً من مانلكر-كاركانو، أو مختبئاً في مجرى صرف صحي بشارع إلم وشاهد اقتراب كينيدي عبر منظار مقرب كما تزعم بعض نظريات المؤامرة.

كان دي موهرنشيoldt عميلاً من نوع ما لوكالة الاستخبارات المركزية، حتى آل تمبلتون أقر بهذا. رغم تأكّده إلى درجة كبيرة من أن أوزوالد تصرف وحده. كان آل مقتنعاً أن دي موهرنشيoldt كان مجرد عميل صغير، ينقل معلومات أمريكا الجنوبية والوسطى ليحافظ على مصالحه في مجال النفط. لكن ماذا لو كان مخطئاً؟ كانت وكالة الاستخبارات المركزية تمقت كينيدي منذ رفضه إرسال قوات أمريكية لدعم حلفائهم المحاصرين في خليج الخنازير، وتعامله الحذر مع أزمة الصواريخ زاد من مقتهم له، إذ أراد الجواسيس استغلال الأزمة ذريعة لإنهاء الحرب الباردة إلى الأبد، لأنهم كانوا متأكدين أن ضجة «فجوة الصواريخ» محض اختلاق. كان بإمكان المرء قراءة الكثير عن هذا في الصحف اليومية، أحياناً بين سطور القصص الإخبارية، وأحياناً صراحةً في مقالات الرأي.

لنفترض أن عناصر مارقة بعينها في وكالة الاستخبارات المركزية أقنعت جورج دي موهرنشيلدت بأداء مهمة أشد خطورة. ليس قتل الرئيس بنفسه، بل تجنيد عدة أفراد مضطربين قليلاً وراغبين في أداء المهمة. هل قد يوافق دي موهرنشيلدت على عرض كهذا؟ أظنه ربما يوافق. هو وجين كانا يعيشان حياة مترفة، لكن لم تكن لدي فكرة جيدة عن كيفية تغطيتهما نفقات السيارة والنادي الريفي والمنزل الضخم بشارع سيمبسون ستوارت. هل كان يمثل نقطة عازلة بين الرئيس المستهدف ووكالة منوط بها حماية الرئيس؟ مهمة خطيرة، لكن إذا اتضح أن المكسب المحتمل كبير بما يكفي، فمن الممكن إغراء أي رجل يعيش في مستوى مادي أعلى من مستوى دخله. ليس بالضرورة أن يكون المكسب مبلغاً نقدياً، وهنا يكمن جمال الفكرة. سيكتفي دي موهرنشيلدت بعقود التنقيب في فنزويلا وهايتي وجمهورية الدومينيكان. علاوة على أن مهمة كهذه قد تروق متباهياً مثل دي موهرنشيلدت، الذي يحب الإثارة، ولا يكثر بكينيدي.

بسبب جون كلايتون لم أستطع إبعاد شبهة تورط دي موهرنشيلدت في محاولة اغتيال ووكر. استُخدمت بندقية أوزوالد، أجل، لكن ماذا لو أن لي وجد نفسه عاجزاً عن إطلاق النار عندما حان الوقت؟ لم أستبعد هذا الاحتمال. أمكنني تخيل دي موهرنشيلدت وهو ينتزع البندقية من يدي لي المرتعشتين ويزمجر: أعطني إياها، سأفعلها بنفسِي.

هل كان من الممكن أن يرى دي موهرنشيلدت نفسه قادراً على النجاح في إصابة الهدف من خلف سلة القمامة التي اعتزم لي اتخاذها منصة قناص؟ ثمة سطر في دفتر ملاحظات جعلني أظن أن الإجابة نعم: فاز ببطولة سكيت للرمية في النادي الريفي عام 1961.

إذا قتلتُ أوزوالد ومات كينيدي على أي حال، فستذهب جهودي كلها
أدراج الرياح. وماذا بعد؟ أبدأ من جديد؟ أقتل فرانك دننغ مجدداً؟ أنقذ
كارولين بولين مجدداً؟ وأذهب إلى دالاس مجدداً؟
أقابل سيدي مجدداً؟

سيكون وجهها سليماً. وهذا أمر جيد. سأعرف شكل زوجها السابق
المجنون، بعدما يصبغ شعره وكل شيء، وهذه المرة سأوقفه قبل أن
يقترّب من سيدي. أمر جيد أيضاً. لكن مجرد التفكير في خوض كل ذلك
مجدداً أرهقني. كما استبعدتُ قدرتي على قتل لي بدم بارد، على الأقل
ليس بناءً على الأدلة الظرفية التي لدي. أما في حالة فرانك دننغ فقد
عرفتُ يقيناً. رأيتُ بنفسي.

إنّ... ما خطوتي التالية؟

كانت الساعة الرابعة والربع، وقررت أن خطوتي التالية ستكون زيارة
سيدي. تحركت نحو السيارة، حيث ركنتها في الشارع الرئيسي. وعند
تقاطع الشارع الرئيسي وشارع هيوستن، بعد مبنى المحكمة القديمة،
استشعرتُ أنني أراقب فاستدّرت. لم أر أحداً على الرصيف خلفي. كان
مستودع الكتب هو من يراقبني، بكل نوافذه المطلّة على شارع إلّم، حيث
سيصل الموكب الرئاسي بعد قرابة مئتي يوم من عيد القيامة.

8

وصلتُ إلى طابق غرفة سيدي في وقت تقديم العشاء: طعام صيني،
فنبشتُ رائحته في ذهني صورة جليّة لتدفق الدماء على يد جون كلايتون
وذراعه قبل سقوطه على السجادة، على وجهه لحسن الحظ.

عند تسجيل دخولي قالت رئيسة الممرضات: «مرحباً سيد
أمبرسون». كانت امرأة رمادية الشعر وترتدي زياً أبيض وتعتمر قبعة
بيضاء، وتعلّق ساعة جيب على صدرها العامر. كانت تنظر إلي من خلف

متراس من باقات الورد. «سمعتُ صياحًا كثيرًا هناك ليلة أمس. أخبرك لأنك خطيبها، صحيح؟».

قلت: «صحيح». قطعًا أردت أن أكون خطيبها، بصرف النظر عن حالة وجهها.

مالت الممرضة نحوي بين مزهريتين محمّلتين بورود كثيفة، فتخللت شعرها بضع زهور أقحوان. «اسمع، عادةً لا أثرثر مفشيّة خصوصيات مرضاي، وأطرد الممرضات الأصغر سنًا اللاتي يفعلن. لكن طريقة تعامل والديها معها لم تكن مقبولة. أظنني لا ألومهما كل اللوم على المجيء من جورجيا مع والدّي ذلك المعتوه، لكن...».

- مهلاً. هل تقولين لي إن دنهل وزوجته جاءا مع كلايتون وزوجته في سيارة واحدة؟

- أظنهم كانت تجمعهم علاقة طيبة في الماضي، لا بأس، لكن أن يقولوا لابنتهما ذلك في أثناء زيارتها بينما صديقاها بالطابق الأسفل يوقّعان أوراق خروج جثة ابنهما من المشرحة...

هزت رأسها وأردفت: «الأب لم يتفوه بكلمة، لكن تلك المرأة...». نظرت إلى ما حولها لتتأكد أننا ما زلنا وحدنا، فاطمأنت والتفتت إلي، وبدا وجهها الريفى مكفهراً من الغضب. تابعت: «... لم تصمت قط. سألت ابنتها سؤالاً واحداً عن حالها، ثم استرسلت في الكلام عن أسرة كلايتون. لبثتُ عزيزتك دنهل صامته، إلى أن عبّرت والدتها عن أسفها لاضطرارها إلى ارتياد كنيسة أخرى مجدداً، وعندئذٍ لم تتمالك الفتاة نفسها وصاحت بهما وطردهما».

قلت: «أحسنْتُ صنعاً».

- سمعتها تصيح: "أتريدان رؤية ما فعله بي ابن صديقيكما الطيبين؟" رباه! عندئذٍ ركضتُ، حاولتُ نزع الضمادات، وأمها... كانت مائلة إلى الأمام يا سيد أمبرسون، متشوقة، أرادت أن ترى.

استعجلتُ خروجهما، وطلبت من أحد الأطباء المقيمين إعطاء
الآنسة دنهل حقنة مهدئة. ثم حاول الأب، ذلك الفأر التافه، أن
يعتذر عما بدر من زوجته: "لم تكن تعرف أنها تزعج سيدي".
فقلت له: "حسنًا، ماذا عنك؟ هل أكلت القطة لسانك؟". وأتعرف
ما قالته المرأة قُبيل دخولهما إلى المصعد؟

هزرتُ رأسي. فتابعْتُ: «قالت: "لا ألومه، كيف ألومه؟ كان يلعب في
باحة منزلنا، وكان ألطف صبي". هل تصدق هذا؟».

أمكنني تصديق كلامها. إذ ظننت أنني قابلت السيدة دنهل سلفًا،
نسخة أخرى منها، في شارع ويست سفنث، وهي تطارد ابنها الأكبر
وتصيح بأعلى صوتها: توقف يا روبرت، لا تسرع هكذا، لم أكمل كلامي
مَعك.

قالت الممرضة: «ربما تجدها... شديدة الانفعال. أردت لك أن تعرف
أن ثمة سببًا وجيهاً لذلك».

9

لم أجدها شديدة الانفعال. لفضَّلتُ ذلك. إذا كان ثمة شيء اسمه
الاكتئاب الرائق، فهو كان حال سيدي في مساء يوم عيد القيامة ذاك.
كانت جالسة على كرسيها، وأمامها طبق طعام صيني لم يُمس. لاحظتُ
نقصان وزنها، فبدا جسدها الطويل عائمًا بداخل رداء المستشفى الذي
شدته حولها عندما رأتني.

لكنها ابتسمت، بجانب وجهها القادر على الابتسام، وأدارت لي خدها
السليم لأقبَّله.

- مرحبًا جورج... يجدر بي أن أخاطبك بهذا الاسم، أليس كذلك؟

- ربما. كيف حالك يا عزيزتي.

- يقولون إنني تحسنت، لكن أحس بوجهي كأنه غُمس في كيروسين وأُضرمْتُ فيه النار. لأن الأطباء يوقفون عني أدوية تخدير الألم تدريجيًا، حتى لا أدمنها.
- إذا أردت مزيدًا منها يمكنني تدبُّر ذلك.
- هزت رأسها: «تجعل ذهني مشوشًا، وأريد التفكير. كما تصعب علي السيطرة على انفعالاتي. دخلتُ في مشادة حادة مع أمي وأبي».
- لم يوجد سوى كرسي واحد، إلَّا إذا حسبنا مقعد المرحاض في الركن، فجلستُ على السرير.
- أخبرتني رئيسة الممرضات بما جرى، وبناءً على ما سمعته، لديك كل الحق في الانفجار غضبًا.
- ربما. لكن ما الفائدة؟ أمي لن تتغير أبدًا. بمقدورها التحدث ساعات عن معاناتها، حتى كادت تموت، عندما أنجبتني، لكنها لا تراعي مشاعر الآخرين. إنها قلة لباقة، وأيضًا قلة شيء آخر، ثمة كلمة تصفه، لا أتذكرها.
- تقصدين عدم القدرة على التعاطف؟
- نعم. وأمي ذات لسان سليط جدًّا، ألَهَبْتُ به ظهر أبي طوال سنوات، حتى لم يعد له رأي في الآونة الأخيرة إلَّا نادرًا.
- لست مضطرة إلى رؤيتهما مجددًا.
- تكلمتُ بصوت هادئ مجرد من أي انفعال ازداد انزعاجي منه: «أظنني مضطرة. أمي قالت إنهما سوف يرتبان غرفتي القديمة، وليس لي مكان آخر أذهب إليه».
- منزلك في جودي، وعملك أيضًا.
- تحدثنا عن هذا. سوف أقدم استقالتي.
- لا يا سيدي، لا، هذه فكرة سيئة جدًّا.

ابتسمتُ أفضل ابتسامةٍ قدرتُ عليها وقالت: «تتكلم مثل إيلين. لم تصدقك عندما قلتُ إن جوني كان يمثِّل خطرًا». فكرتُ بكلامها وأردفت: «وبالطبع أنا أيضًا لم أصدقك، ظللت مغفلة بشأنه دومًا، أليس كذلك؟».

- لديك منزل.

- صحيح. وأقساط رهن لا يمكنني سدادها. سأضطر إلى التخلي عنه.

- سأدفع الأقساط.

أخيرًا تأثرت. بدت مصدومة: «لا يمكنك تحمُّل دفعها!».

«بل يمكنني». كان هذا صحيحًا... مؤقتًا على الأقل. كما إن أمامي فرصة لجني مبالغ من ديريبي كنتاكي وشاتغاي. «سأغادر دالاس وأنتقل للإقامة مع ديكى. لن يطلب مني دفع إيجار، وهكذا سأوفر جزءًا من مبلغ أقساط منزلك».

ترقرقت دمعة في حافة عينها اليمنى، وقالت: «هذا ليس المغزى كله. لا أستطيع الاعتناء بنفسى. ليس بعد. ولن يُمكن الاعتناء بي إلا في المنزل، حيث ستأتي أُمى بمرضة لمساعدتي. لدي قليل من كبريائي. ليس كثيرًا، بل قليل».

- سأعتني بك.

حدقت إليَّ بعينين متسعيتين.

- ماذا؟

- سمعتني. وعندما تتعاملين معي يا سيدي، لك أن تزيحي كبرياءك جانبًا. حدث أنني أحببتك. وإذا أحببتني، فعليك التوقف عن كلامك الجنوني عن عودتك إلى الأفعى والدتك.

ابتسمتُ ابتسامة باهتة، ثم لبثت صامتة، مستغرقة في التفكير، ويدها في حجرها على رداثها المجعد.

- جئتُ إلى تكساس من أجل مهمةٍ ما، ليست ممارسة أمينة مكتبة مدرسية ساذجة إلى درجة عدم إدراكها الخطر المحدق بها.
- مهمتي في دالاس متوقفة مؤقتًا.
- هل يمكن إيقافها مؤقتًا؟
- قلت: «نعم»، وبهذه البساطة حُسم القرار. سيذهب لي إلى نيو أورلينز، وأنا سأعود إلى جودي. ما انفك الماضي ي صارعني، ورأيت أنه سيفوز بهذه الجولة. «تحتاجين إلى وقت يا سيدي، ولديّ وقت. يجدر بنا أن نقضيه معًا».
- قالت بصوت أقرب إلى الهمس: «كيف تريدني؟ لا يمكن، ليس وأنا أبدو بهذا الشكل الآن».
- لكنني أريدك.
- نظرت إلي بعينين تخشيان الأمل لكنهما مفعمتان به.
- لماذا؟
- لأن ارتباطي بك أفضل ما حدث لي في حياتي.
- ارتعشت شفثاها على الجانب السليم من وجهها. وسالت الدمعة على خدها، وتبعثها أخريات.
- إذا لم أضطر إلى العودة إلى سافنا... إذا لم أضطر إلى العيش معهما... معها... عندئذٍ ربما أكون... لا أدري... ربما أكون أفضل حالًا قليلًا.
- ضممتها بين ذراعي.
- ستكونين أفضل حالًا كثيرًا.
- اختلفت صوتها بدموعها: «جيك... هلاً أسديتني معروفًا قبل ذهابك؟».
- ماذا يا عزيزتي؟
- أبعد عني هذا الطبق، رائحته تثير غثياني.

في التاسع عشر من أبريل، أصرَّت الممرضة ذات الكتفين العريضتين والساعة المثبتة على صدرها، اسمها روندا مكغلي، أصرت على دفع كرسي سيدي المدولب ليس إلى المصعد فحسب، بل حتى إلى الرصيف، حيث كان ينتظرنا ديكي في سيارته فاتحًا باب الراكب.

قالت الممرضة مكغلي بعدما ساعدنا سيدي على ركوب السيارة: «لا أريد رؤيتك هنا مرة أخرى يا عزيزتي».

ابتسمت سيدي ساهمة وقالت كلامًا غير مفهوم. كانت، بصريح العبارة، منتشية بالمخدر أيما انتشاء. إذ جاء د. إرتون صباح ذلك اليوم ليفحص وجهها، وكانت عملية مؤلمة تطلَّب زيادة جرعة الأدوية المخدرة.

التفتت مكغلي نحوي: «ستحتاج الفتاة إلى رعاية محبة وعطف في الأشهر القليلة القادمة».

- سأبذل كل ما بوسعي.

انطلقنا بالسيارة، وبعدما ابتعدنا عشرة أميال جنوب دالاس، قال ديكي: «خذ منها ذلك الشيء اللعين واقذفه خارج النافذة. أنا مشغول بهذا الزحام».

كانت سيدي قد نامت وبين أصابعها سيجارة مشتعلة. ملت فوق المقعد ونزعت السيجارة. تأوهت سيدي وقالت: «أوه لا يا جوني، أرجوك لا».

تبادلْتُ نظرة مع ديكي، نظرة خاطفة، لكنها كانت كافية لأفهم أننا نفكر في الأمر نفسه: أماننا طريق طويل. طريق طويل.

انتقلتُ إلى منزل ديكي المشيد على الطراز الإسباني بشارع سام هيوستن، لكن صورياً فحسب، في الواقع انتقلتُ إلى منزل سيدي، رقم 135 بجادة بري تري. كنت أخشى ما قد نجده عندما ساعدناها على الدخول أول مرة، وأظن سيدي أيضاً كانت قلقة، بصرف النظر عن حالتها الذهنية. لكن إيلين وجو بيت من قسم الاقتصاد المنزلي استعاننا ببضع فتيات جديرات بالثقة أمضوا يوماً كاملاً قبل عودة سيدي في تنظيف وتلميع ومسح جميع آثار بذاءة كلايتون من الجدران. استُبدلت سجادة صالة المعيشة. وكانت الجديدة رمادية. والرمادي لا يعد لوناً، لكنه اختيار حكيم. الأشياء الرمادية لا ترتبط بذكريات كثيرة. واستُبدلت الملابس الممزقة أيضاً.

لم تقل سيدي كلمة عن السجادة الجديدة والملابس المختلفة. ولستُ متأكداً أنها لاحظت اختلافها.

أمضيت معظم أيامي معها، في المطبخ لها، والاعتناء بحديقتهما الصغيرة (لتدهورت إذا كنا في صيف تكساس)، وقراءة رواية المنزل الكئيب لها. كما انغمسنا في مشاهدة عدة مسلسلات في أوقات العصر: ذا سيكرت ستورم، يونغ د. مالون، فروم نيس روتس، والمفضلة لدينا ذا إدج أوف نايت.

غيّرتُ مفرق شعرها من منتصف رأسها إلى اليمين، لتغطي معظم ندوبها عندما تنزع الضمادات لاحقاً، فصارت تشبه فيرونكا ليك. لكنها لن تظل دون ضمادات مدة طويلة. إذ قرر إجراء أولى جراحاتها الترميمية في الخامس من أغسطس، سوف يجريها فريق من أربعة أطباء، وقال إرتون إن أربعة أطباء آخرين على الأقل ربما ينضمون إلى الفريق.

كنت أعود إلى منزل ديكي بعدما أتناول مع سيدي العشاء (نادراً ما كانت تأكل كما ينبغي)، لأن البلدات الصغيرة مليئة بأعين كبيرة متصلة بالسُّن ثرثارة، فكان من الأفضل أن ترى تلك الأعين الكبيرة سيارتي أمام منزل ديكي بعد مغيب الشمس. وكنت حالما يهبط الظلام أسير مسافة ميلين عائداً إلى منزل جودي، حيث أنام على الأريكة الجديدة التي تتحول إلى سرير حتى الخامسة صباحاً. وغالباً ما يكون نوماً متقطعاً، لأن الليالي التي لا توقظني فيها سيدي، صارخة من كابوس، كانت نادرة. يظل جوني كلايتون ميتاً بالنهار، وبعد هبوط الظلام يتربص بها بمسدسه ومديته.

أذهب إليها وأهدئها بقدر مستطاعي. أحياناً تخرج إلى الصالة معي وتدخل سيجارة ثم تجرر قدميها عائداً إلى الفراش، ودائماً تغطي بشعرها جانب وجهها المصاب. لا تسمح لي بتغيير ضماداتها، تغيرها بنفسها، في الحمام والباب مغلق.

ذات يوم بعد كابوس فظيع، دخلتُ غرفتها فوجدتها واقفة عارية جوار سريرها وتنشج. كانت قد نحلت نحولاً صادمًا. رأيتُ رداء نومها عند قدميها. ثم سمعتني فاستدارت، واضعة إحدى ذراعيها على ثدييها والأخرى على منفرجها، ومال شعرها إلى كتفها اليمنى، مكانه الطبيعي، فرأيت الندوب المتورمة، والقطب الكبيرة، واللحم المتهدل على عظمة خدها.

صاحت: «اخرج! لا تنظر إلي وأنا بهذه الحالة. لماذا لا تخرج؟!».

- سيدي، ما الأمر؟ لماذا نزعْتَ رداء نومك؟ ما الخطب؟

- بللتُ فراشي، سمعتُ عليّ أن أغيره، لذا أرجوك اخرج ودعني أرتدي ملابسِي!

تقدمتُ إلى طرف السرير وأخذت اللحاف المطوي وغطيت به جسدها. وبعدما عدلت طرف اللحاف على شكل ياقة غطت خدها، هدأت.

- اذهبي إلى الصلاة واحذري حتى لا تتعثري على ذلك الشيء.
- دخني سيجارة. سأغيّر الفراش.
- لا يا جيك، إنه قدر.
- أخذتُ بكتفيها.
- هذا كلام كلايتون، وهو ميت. إنه مجرد قطرات بول فحسب.
- هل أنت متأكد.
- نعم. لكن قبل أن تذهبي...
- أنزلتُ الياقة المرتجلة، فأجفَلتُ وأغمضتُ عينيها، لكنها ظلت واقفة، اعترها الضيق، لكنني رأيت هذا تحسُّناً. قَبَلْتُ كتلة اللحم المتدلّية جزئياً التي كانت خدّها ثم رفعتُ اللحاف مجدداً لأعطيها.
- سألتني دون أن تفتح عينيها: «كيف استطعت؟ إنه فظيع».
- كلاً. إنه مجرد جزء آخر منك أحبه يا سيدي. الآن اذهبي إلى الصلاة حتى أغيّر هذه الملاءات.

وبعدما انتهيت، عرضت عليها الاستلقاء معها على الفراش إلى أن تنام، فأجفَلتُ كما فعلتُ عندما أنزلتُ اللحاف، وهزت رأسها.

- لا أستطيع يا جيك. آسفة.

قلت مع نفسي: رويداً رويداً، وأنا أسير عبر البلدة إلى منزل ديكي عند بزوغ الفجر. رويداً رويداً.

13

في الرابع والعشرين من أبريل قلت لديكي إنني ذاهب إلى دالاس لقضاء شأن ما، وطلبت منه المكوث مع سيدي حتى عودتي قرابة الساعة التاسعة. وافقَ راغباً. وعند الخامسة عصر ذلك اليوم كنت جالساً قبالة موقف حافلات غرايهوند بشارع ساوث بولك، قريباً من تقاطع

الطريق السريع 77 والطريق الولائي 20. وكنت أقرأ (أظهار بقراءة) آخر روايات جيمس بوند، الجاسوس الذي أحببني.

وعند الخامسة والنصف، توقفت سيارة روث باين في موقف سيارات جوار الموقف، ترجل لي، وذهب إلى الخلف وفتح الباب. وخرجت مارينا وجون بين ذراعيها من المقعد الخلفي. ظلت روث باين خلف عجلة القيادة.

لم يكن لي يحمل سوى حقيبتين، كيس قماشي أخضر زيتوني وحقيبة بندقية مبطنة. حملهما إلى حافلة سينكروزر. أخذ السائق الحقيبة والبندقية ووضعهما في صندوق الأمتعة بعدما ألقى نظرة سريعة على تذكرة لي.

سار لي نحو باب الحافلة، ثم استدار وعانق زوجته، وقبلها على خديها ثم شفتيها. حمل الرضيعة ودغدغها تحت ذقنها، فضحكت، وضحك معها، لكنني لمحتُ دموعًا في عينيه. قبل جون على جبينها، وعانقها، ثم أعادها إلى مارينا وصعد سلم الحافلة ركضًا دون أن يلتفت. سارت مارينا إلى سيارة روث باين. مدت جون ذراعيها نحو المرأة، فأخذتها مبتسمة. لبثوا واقفين هنيهة يشاهدون صعود الركاب، ثم انطلقوا بسيارتهم.

ظللت حيث كنت حتى تحركت الحافلة عند 6:00 مساءً، في الموعد المحدد تمامًا. انعكس ضوء الشمس الدامية ناحية الغرب على نافذة الوجهة، ولوهلة حجبت الكلمات المكتوبة عليها. ثم لاحت لي مجددًا، ثلاث كلمات كانت تعني أن لي هارفي أوزوالد خرج من حياتي، ولو مؤقتًا:

نيو أورلينز إكسبرس

شاهدتها تصعد منحدر المدخل إلى الطريق الولائي 20، ثم سرت متجاوزًا مربعين سكنيين حيث ركنت سيارتي، وقُدت عائدًا إلى جودي.

التفكير الحدسي: مجددًا.

دفعت إيجار شقة شارع ويست نيلي لشهر مايو، رغم أنني لا أحتاج إلى الشقة وعلى الاقتصاد في نفقاتي، لم يكن لدي سبب واضح لدفع الإيجار سوى إحساس قوي بأنني ينبغي أن أحتفظ بقاعدة عمليات في دالاس.

قبل يومين من بدء ديربي كنتاكي، قدت سيارتي إلى جادة غرينفيل، معتزماً المراهنة بخمسمئة دولار على حلول شاتيغاي في المركز الأول أو الثاني، رأيت أن هذا الخيار لن يلفت الانتباه كثيراً مقارنة بالمراهنة على فوز الحصان بالمركز الأول فقط. توقفت على بُعد أربعة مربعات سكنية من فيث فاينانشال وأوصدت السيارة. سرت بخطوات حثيثة سريعاً في البداية، ومن ثم، مرة أخرى دون سبب واضح، بدأت خطواتي تتناقل.

وعلى بعد نصف مربع سكني من صالون المراهنات المتنكر، توقفت تماماً. مرة أخرى رأيت وكيل المراهنات، دون نظارته الشمسية اليوم، متكئاً إلى الأمام عند مدخل محله ويدخن سيجارة. بوقوفه تحت ضوء الشمس القوي بين ظلال المدخل، بدا الرجل كشخص في لوحة لإدوارد هوبر. يستحيل أن يكون قد رأي في ذلك اليوم، لأنه كان يحدق إلى سيارة مركونة على الجانب الآخر من الشارع، سيارة لإنكين بلون كريمي ولوحة أرقام خضراء، وفوق الأرقام مكتوب ولاية الشمس المشرقة. وهذا لم يعن أن رؤيتي لها حالة أخرى من حالات التناغم، وقطعاً لم يعن أن صاحبها إدوارد غوتيريز تامبا⁽¹⁾، وكيل المراهنات الذي كان يبتسم ويقول لي: ها قد جاء اليانكي من بلاد اليانكي، الذي أمر بإحراق منزلي الشاطئي.

والحالة هذه، استدرت وعدت أدراجي إلى سيارتي والدولارات الخمسمئة التي كنت أعتزم المراهنة بها ما زالت في جيبتي.

التفكير الحدسي.

(1) مدينة بولاية فلوريدا التي تلقب بولاية الشمس المشرقة. (المترجم)

الفصل الرابع والعشرون

1

نظرًا إلى وَلَعِ التاريخ بتكرار نفسه، فيما حولي على الأقل، لن تُفاجئوا بمعرفة أن خطة مايك كوسلو لدفع فواتير سيدي كانت إقامة جمبوري جوذي مرة أخرى. قال إنه بوسعه أن يطلب من المشاركين الأوائل إعادة أدوارهم، شريطة أن يقام العرض في منتصف الصيف، وقد أوفى بكلامه، كلهم تقريبًا وافقوا على المشاركة. حتى إيلين وافقت على إعادة أدائها لأغنيات كامبتاون ريسس، وكلينش ماونتن بريكداون على البانجو، رغم زعمها أن أصابعها ما زالت تؤلمها من مشاركتها السابقة. اخترنا الثاني عشر والثالث عشر من يوليو. لكن حامت بعض الشكوك حول الأمر برمته.

العائق الأول الذي يتعيّن علينا اجتيازه كان سيدي نفسها، التي ارتاعت من الفكرة، وأسمتها «تلقي الإحسان».

قلت: «هذا يبدو كلامًا سمعته من والدتك».

حملقت إليّ غاضبة لوهلة، ثم خفضت رأسها وبدأت تمسح شعرها على جانب وجهها المصاب.

- ماذا لو سمعته من أمي؟ أهذا يجعله خطأ؟

- رباه، دعيني أفكر. إنك تتحدثين عن درس حياة من المرأة التي كان شاغلها الأكبر، بعد تعرّض ابنتها لإصابة شوّهتها وكادت تقتلها، هو تغيير الكنيسة التي ترتادها.

قالت بصوت خافت: «إنه أمر مهين. إلقاء نفسك تحت رحمة البلدة أمر مهين».

- لم تفكري هكذا عندما أقمنا الفعالية من أجل بوبي جيل.

- إنك تضايقني بالإلحاح يا جيك، أرجوك لا تفعل هذا.

جلست جوارها وأمسكت يدها، فجذبتها بعيداً. أمسكتُ بها مرة أخرى. وهذه المرة سمحتُ لي.

- أعرف أن هذا ليس سهلاً عليك يا عزيزتي، لكن ثمة أوقاتاً للعتاء وأوقاتاً للتلقّي أيضاً. لا أعرف إذا ما ذُكر هذا في "سفر الجامعة"، لكنه صحيح. تأمينك الصحي أضحوكة. د. إلرتون سيعطينا من جزء...

- لم أطلب هذا قط.

- صمّتا يا سيّدي، أرجوك. اسمه عمل من أجل المصلحة العامة وهو يريد القيام به. لكن ثمة أطباء آخرين مشاركين. فواتير جراحاتك ستكون باهظة، ومواردي محدودة.

همست: «أكاد أتمنى لو أنه قتلني».

«إياك أن تقولِي هذا أبداً!». انكمشتُ من غضبي الظاهر في صوتي، وسالت دموعها، لكن لم تستطع البكاء سوى بعين واحدة. «عزيزتي، الناس يريدون مساعدتك، اسمحي لهم. أعرف أن أمك لها تأثير كبير عليك، شأنها شأن كل الأمهات تقريباً، لكن لا تسمحِي لها بفرض رأيها في هذا الأمر».

- أولئك الأطباء لا يمكنهم معالجة وجهي، لن يعود كما كان أبداً. إلرتون قال لي هذا.

- يمكنهم معالجة جزء كبير.

بدا ذلك أفضل قليلاً من يمكنهم معالجة جزء بسيط.

تنهت وقالت: «إنك أشجع مني يا جيك».

- وأنت شجاعة جدًا. هل توافقين؟

- "عرض سيدي دنهل الخيري". سيجن جنون أُمي إذا عرفت.

- أرى هذا سببًا إضافيًا للمضي قدمًا. سنرسل إليها بعض اللقطات.

ابتسمت، لكن لوهلة وجيزة. أشعلت سيجارة بأصابع مرتعشة قليلًا، ثم بدأت تسوي شعرها على جانب وجهها مجددًا.

- هل عليّ الحضور؟ حتى يروا ما ستُنْفَق عليه أموالهم؟ مثل خنزير معروض في مزاد؟

- لا بالطبع. لكن لا أظن أن أحدًا سيُغْمى عليه. معظم الناس هنا رأوا ما هو أسوأ.

بوصفنا أساتذة في منطقة زراعية، رأينا ما هو أسوأ بأنفسنا. بريتا كارلسون، على سبيل المثال، تعرضت لحروق بالغة في حريق منزلي. ودَفي هندريكسون، لديه يد يسرى تبدو كحافر بعدما انزلقت سلسلة محرك شاحنة من يد والده.

- لستُ مستعدة لأكون محط أنظار على هذا النحو، ولا أظنني سأقدر أبدًا.

تمنيت بكل قلبي ألا يتحقق ذلك. مجانين العالم، من أمثال جوني كلايتون وليّ هارفي أوزوالد، ينبغي ألا يُسمح لهم بتحقيق مُرادهم. وإذا لم يعوّض القَدْرُ الخرابَ الذي يُحدثونه، فعلى الناس العاديين أن يعوّضوه، عليهم أن يحاولوا على الأقل. لكن هذا لم يكن وقت إلقاء موعظة.

- هل سأساعدك إذا قلت إن د. إلرتون نفسه وافق على المشاركة في العرض؟

نسيْتُ شعرها لوهلة وحدثت إلي.

- يريد أن يكون الجزء الخلفي من "بيرثا".

"بيرثا" كانت فرساً صغيرة راقصة من القماش صنعها أطفال قسم الفنون بالمدرسة، تتجول في أثناء بعض الفقرات الهزلية، لكن أكثر ما يميزها حركة الذيل بخيط يجذبه النصف الخلفي من "فريق بيرثا". وسكان الريف، المعروفون بحس دعابتهم البسيط، يجدونها مضحكة. ضحكت سيدي. ورأيت أن الضحك يؤلمها، لكنها لم تستطع تمالك نفسها، ارتمت بظهرها على الأريكة واضعة يدها على جبهتها كأنها تريد منع انفجار دماغها. وقالت عندما استعادت قدرتها على الكلام: «حسناً! سأسمح لك بإقامة الفعالية لرؤية هذه الفقرة فحسب». ثم حدتني بنظرة ضيق: «لكنني سأراها في أثناء التدريبات. لن أصعد على المسرح حيث يحدق إلي جميع الحاضرين ويهمسون: "أوه انظروا إلى تلك الفتاة المسكينة". هل نحن متفقان على هذا؟».

قلت: «نعم، بالتأكيد». وقبلتها. هكذا تجاوزنا إحدى العقبات. والتالية ستكون إقناع أفضل جرّاح تجميل بالمجيء إلى جودي في حر يوليو والتمايل أسفل الجزء الخلفي من زي قماشي يزن ثلاثين رطلاً. لأنني في الحقيقة لم أطلب منه المشاركة بعد.

واتضح أن إقناعه لم يكن مشكلة. تهللت أسارير إرتون كطفل عندما عرضتُ عليه الفكرة. قال: «ولديّ خبرة عملية، زوجتي تنعني بالحيوان منذ سنوات».

2

تمثّلت العقبة الأخيرة في موقع الفعالية. في منتصف يونيو، قرابة الوقت الذي طُرد فيه لي من ميناء في نيو أولينز لمحاولته توزيع منشورات مؤيدة لكاسترو على بحارة سفينة يو إس إس واسب، جاء

ديكي إلى منزل سيدي. قبلها على خدّها السليم (كانت تشيح بالخد المصاب عندما يأتي أي أحد لزيارتها)، وسألني عن رغبتني في الخروج لتناول جعة باردة.

قالت سيدي: «اذهب، سأكون بخير».

قاد ديكي السيارة إلى حانة ذات مكيف هواء لا بأس به اسمها برايري شكن، على بُعد تسعة أميال غرب البلدة. كان الوقت منتصف العصر، ووجدنا المكان خاليًا عدا عن شاربين وحيدين عند المشرب. وكان صندوق الموسيقى مظلماً. ناولني ديكي دولارًا، وقال: «أنا أدفع، وأنت اجلب. ما رأيك؟».

ذهبت إلى المشرب وجلبت كوبَي جعة بكهورن.

قال ديكي: «إذا عرفت أنك ستجلب بكهورن لذهبتُ بنفسني. يا للهول، هذا المشروب بول حصان».

- يروقني. على أي حال، ظننتُ أنك لا تشرب إلا في المنزل. أتذكر أنك قلت: "عدد الوضيعين في الحانات المحلية كبير لا يناسب نوقي".

قال: «لا أريد جعة لعينة على أي حال». أسفر عن غضبه عندئذٍ وقد ابتعدنا عن سيدي: «أريد أن ألكم فريد ميلر في وجهه وأركل وجهه جيسكا كالتروب أيضًا».

عرفتُ الاسمين والوجهين، لكن لم أتحدث معهما، بما أنني موظف متواضع يتقاضى راتبًا. ميلر وكالتروب كانا اثنين من الثلاثة الذين يكونون مجلس إدارة مدرسة مقاطعة دنهولم. قلت: «لماذا تكتفي بهما؟ بما أنك في مزاج للعنف، أخبرني بما تريد فعله بدوايت راوسون، أليس هو ثالثهم؟».

- إنه رولينغز. سأصفح عنه، لأنه صوّت لصالحنا.

- لا أعرف ما نتحدث عنه.

- رفضوا السماح لنا باستخدام صالة المدرسة الرياضية لإقامة
الجمبوري. رغم أننا نتحدث عن منتصف الصيف والصالة خالية
عندئذ.

- هل تمزح؟

كانت سيدي قد قالت لي إن جهات بعينها في البلدة ربما تعاكسها،
ولم أصدقها. جيك إبنغ ما زال متشبثاً بأوهام القرن الحادي والعشرين.
- أتمنى لو كنت أمزح يا بُني. تذرّعوا بمخاوف متعلقة بتأمين
الحريق. ذكّرتهم بأنهم لم يقلقوا بشأن أي تأمين عندما كانت
الفعالية من أجل طالبة تعرضت لحادث، فقالت كالتروب،
تلك الشمطاء: "آه أجل يا ديكي، لكن ذلك كان في أثناء العام
الدراسي"... لديهم مخاوف بالطبع، غالباً بشأن إحدى أعضاء
هيئة التدريس شوّه وجهها على يد رجل مجنون كان زوجها.
يخشون أن يُذكر الخبر في الصحيفة، أو، لا سمح الرب، في إحدى
محطات دالاس التلفزيونية.

- فيم يهم هذا؟ إنه... رباه يا ديكي، إنه ليس من البلدة! كان من
جورجيا!

- لا يهتمهم هذا. يهتمم أنه مات هنا، ويخشون أن يؤثر هذا سلباً على
المدرسة، وعلى البلدة، وعليهم.

سمعتُ نفسي أصدر صوتاً كالثغاء، وهذا لا يليق برجل في ريعان
شبابه.

- هذا لا يبدو منطقيًا إطلاقاً!

- سوف يفصلونها إذا استطاعوا، لا شيء سوى التخلص من
الإحراج. وبما أنهم لا يستطيعون، فهم يأملون أن تستقيل قبل

أن ينظر الفتية إلى ما فعله كلايتون بوجهها. إليك نفاق وترهات سكان البلدات الصغيرة في أبهى صورة يا بُني. عندما كان فريد ميلر في العشرينات من عمره، كان يصول ويجول في مواخير نويفو لاريدو مرتين شهرياً، وأكثر إذا استطاع أن يحصل من أبيه على جزء من مصروفه مقدماً. وأتذكّر جيداً أن جِسْكا كالتروب، عندما كان اسمها جيسي تراب وتعيش في سويتووتر، كانت بدينة جداً عندما كانت في السادسة عشرة وثم صارت نحيلة جداً بعد تسعة أشهر. أفكر في أن أخبرهم بأن ذاكرتي حديدية، وأن بمستطاعي إحراجهم إحراجاً شديداً إذا أردت، بكل سهولة.

- لا يُعقل أنهم يلومون سيّدي على جنون زوجها السابق... هل يُعقل؟

- افتح عينيك يا جورج. أحياناً تتصرف كأنك وُلِدْتَ في حظيرة مزرعة، أو دولة ما يفكّر الناس فيها تفكيراً سوياً. في نظرهم الأمر متعلق بالجنس. في نظر أمثال فريد وجسيكا كل شيء متعلق بالجنس دوماً. وعندما يحدث أمر كهذا، فاللوم يقع على المرأة. لن يقولوا هذا صراحةً، لكن في قرارة أنفسهم يرون الرجال وحوشاً، والنساء اللاتي لا يستطعن ترويضهم لا يُلْمَن إلا أنفسهن. لن أسمح لهم بالإفلات بفعلتهم.

- لا بد لك من نسيان الأمر، ربما تتردّد التدايعيات على سيّدي، وهي هشة في الوقت الراهن، ربما تنهار تماماً.

قال: «أجل». وأخرج غليونه من جيب صدره. «أجل، أعرف ذلك. أنفُس عن غضبي فحسب. تحدثت إيلين بالأمس مع الذين يديرون قاعة الجمعية التعاونية. سيسعدون بالسماح لنا بإقامة العرض هناك. والمكان يتسع لخمسين شخصاً إضافياً، نظراً إلى وجود الشرفة، كما تعرف».

قلت وقد غمرني الارتياح: «حسنًا، ها قد انتصرت العقول الراجحة».

- ثمة مشكلة واحدة. طالبوا بأربعمئة دولار لليلتين. إذا تدبَّرتُ
مئتين، فهل يمكنك تدبُّر المئتين الأخرى؟ لن تستعيدها من
الدخل، فكلُّه لعلاج سيدي.

كنت أعرف جيدًا تفاصيل تكاليف سيدي العلاجية، وقد دفعتُ سلفًا
ثلاثمئة دولار لسداد تكلفة إقامة سيدي بالمستشفى التي عجز تأمينها
الصحي عن سدادها. ورغم تعاون إرتون، فالتكاليف الأخرى ستتراكم
سريعًا. أما أنا، فلم أصل إلى مرحلة الضائقة المالية، لكن رأيته قريبة.

- جورج... ما قولك؟

- مُناصفة كما قلت.

- إذن اشرب باقي جعتك المريعة، أريد العودة إلى البلدة.

3

في أثناء خروجنا من تلك الحانة البائسة، لفت نظري ملصقٌ على
النافذة، مكتوب أعلاه:

شاهدوا نِزال القرن على تلفاز الدائرة المغلقة!

بث مباشر من ماديسون سكوير غاردن!

ابن دالاس توم كِيس "المطرقة" في مواجهة دك تايفر!

صالة دالاس

الثلاثاء 29 أغسطس

التذاكر متوفرة هنا.

وأسفل الملصق صورتان متجاورتان للملاكمين عاريي الصدر
وقفازهما مرفوعان على النحو المعروف. أحدهما شاب مبتدئ، والآخر

أكبر سنًا بكثير، وبدا كأنما كُسِرَ أنفه بضع مرات. لكن استوقفني
الاسمان. رأيتهما أو سمعتهما في مكانٍ ما.

قال ديكي وهو يهز رأسه: «لا تفكر مجرد تفكير. إذا شاهدت قتال
كلاب بين بيتبول وكوكر سبانييل عجوز، فستجده أكثر إثارة من مباراة
هذين الاثنين».

- حَقًّا؟

- تومي كَيْسٍ لطالما كان ذا قلب شجاع، لكن الآن صار قلبًا أربعينيًا
في جسد أربعيني. لديه كرش من الجعة ويتحرك بالكاد. أما
تايجر يافع وسريع، سوف يكون بطلًا في غضون عامين إذا لم
يخفق منظمو النزالات. في الوقت الراهن يطعمونه وجبات خفيفة
مثل كَيْس.

بدت لي مثل مواجهة روكي بالبوا وأبولو كريد، لكن لِمَ لا؟ الحياة
تحاكي الفن أحيانًا.

قال ديكي: «تدفع لتشاهد تلفازًا في صالة! رباها! ماذا بعد؟».

- موجة المستقبل، على ما أظن.

- وستُبَاع كل التذاكر على الأرجح، في دالاس على الأقل، لكن هذا
لا يغير حقيقة أن توم كَيْسٍ يمثل موجة الماضي. تايجر سيمزقه
إربًا. هل أنت متأكد أنك موافق على اختيارنا قاعة الجمعية
التعاونية يا جورج؟

- نعم، قطعًا.

4

كان شهر يونيو غريبًا. من ناحية، كنت سعيدًا بالإشراف على
تدريبات المجموعة التي شاركت في الجُمُهوري الأول. ديجا فو من

نوعي المفضل. ومن ناحية أخرى، وجدتني أتساءل، مرارًا وتكرارًا، عما إذا كنت أرغب أساسًا في حذف لي هارفي أوزوالد من معادلة التاريخ. استبعدتُ احتمال افتقاري للشجاعة لفعلها، إذ قتلْتُ سلفًا رجلًا شرييرًا، بدم بارد، لكن الحقيقة التي لا سبيل لإنكارها هي أن أوزوالد كان في متناولي وتركته وشأنه. قلت لنفسي إن السبب هو مبدأ عدم اليقين، وليس أسرته، لكنني ظلت أرى مارينا مبتسمة ويديها على بطنها. ظلتُ أتساءل عما إذا لم يكن مجرد حقير بائس. ذكَّرت نفسي بأنه سيعود في أكتوبر. ثم سألت نفسي عن أثر عودته في سير الأمور. ستظل زوجته حبلى، وستظل نافذة عدم اليقين مفتوحة.

في الوقت الراهن، عليّ متابعة تعافي سيدي البطيء، وعليّ دفع فواتير، وملء استمارات تأمين (البيروقراطية مثيرة للحنق في 1963 كحالها في 2011)، كما علي الإشراف على تدريبات العرض، التي استطاع د. إلرتون حضور واحد منها فقط، لكنه كان سريع الفهم وتجاوب بسلسلة مع دوره. وبعد التدريب أخبرني أنه يريد الاستعانة بجراح آخر في العمليات الجراحية، متخصص في جراحات الوجه من مستشفى ماساتشوستس العام. وقلت له، بقلب منقبض، إن الاستعانة بجراح آخر تبدو فكرة عظيمة.

سألني: «هل يمكنكم تحمل التكليف؟ مارك أندرسن ليس زهيد الأجر».

قلت: «سنتدبّر أمرنا».

دعوت سيدي لحضور التدريبات عندما اقترب موعد العرض. رفضتُ بلطف لكن بحزم رغم وعدها السابق بحضور تدريب واحد على الأقل. لم تغادر المنزل إلا نادرًا، وعندما تغادره تكتفي بالخروج إلى حديقة باحتها الخلفية. لم تذهب إلى المدرسة، ولا البلدة، منذ الليلة التي شق فيها جون كلايتون وجهها ثم حلَّقه.

أَمْضَيْتَ جزءًا من صباح وعصر الثاني عشر من يوليو في قاعة الجمعية التعاونية، وأُجريت مراجعة أخيرة للجوانب التقنية. أخبرني مايك كوسلو، وقد تَقَمَّصَ دور المُنْتِجِ بسلاسة كما أدى دور الكوميديا التهريجية، بأن عرض ليلة السبت بيعت كل تذاكره، وعرض الليلة بيعت تسعون في المئة من تذاكره.

- سيمتلئ المكان بالقادمين بعد بدء العرض يا أستاذ أمبرسون، وأكد لك. وآمل ألا أتسبب أنا وبوبي جيل في إفساد العرض الثاني.
- لا تفسده.

كل ذلك كان جيدًا. ما لم يكن جيدًا هو أنني صادفتُ سيارة إيلين دوكرتي خارجة من جادة بي تري عند انعطافي إليها، ثم وجدت سيدي جالسة جوار نافذة صالة المعيشة بدموع على خدها السليم ومندبل في إحدى يديها.

سألتها: «ماذا؟ ماذا قالت لك؟».

فاجأتني بابتسامة، مائلة لكن لا تخلو من سحر. «لم تقل كلامًا يجافي الحقيقة. أرجوك لا تقلق. سأعد لك شطيرة ثم تخبرني عن سير الاستعدادات».

أخبرتها. وكنت قلقًا بالطبع، لكنني احتفظت لنفسني بمخاوفي، وكذلك بتعليقاتي عن تطفل مديري المدارس الثانوية. وفي ذلك المساء عند السادسة، تفقدت سيدي هندامي، أعادت عقد ربطة عنقي، ثم نفضت بضعة خيوط، سواء كانت حقيقية أم متخيَّلة، من كتفي معطفي الرياضي. «لَقُلْتُ لَكَ حَظًّا مَوْفَقًا، لكن أثق أنك لا تحتاج إلى الحظ».

كانت ترتدي بنطال جينز قديمًا وبلوزة فضفاضة أخفت، ولو قليلًا، نقصان وزنها. لا إرادياً تذكرُ الفستان الجميل الذي ارتدته في

جمبوري جودي الأول. فستان جميل في تلك الليلة ترتديه فتاة جميلة. كان ذلك عندئذٍ. واللييلة الفتاة، وهي ما زالت جميلة من جانب واحد، ستكون في المنزل عندما يرتفع الستار، ونشاهد إعادة العرض. سألتني: «ما الخطب؟».

- أتمنى حضورك هناك فحسب.

أُسِفْتُ لما قلته حالاً، لكن لا بأس. بهتت ابتسامتها، ثم عادت، مثلما تعتم الشمس عندما تمر خلف غيمة صغيرة. «أنت ستكون هناك، مما يعني أنني هناك أيضاً». نظرت إلي بوجَل بعينها على جانب وجهها السليم. «إذا أحببتني».

- أحبك حباً جمّاً.

- أجل، أظنك تحبني. وأحبك أيضاً. بلِّغ شكري للجميع.

- سأفعل. ألا تخشين المكوث هنا وحدك؟

قالت: «سأكون بخير». ولم تكن إجابة عن سؤالي، لكن أفضل ما استطاعت قوله في الوقت الراهن.

6

كان مايك محقّقاً بشأن الحضور المتأخّر. بعنا جميع تذاكر عرض ليلة الجمعة قبل ساعة من موعد البدء. أضاء دونالد بلنغهام، مدير مسرحنا، خشبة المسرح عند الثامنة تماماً. توقعت أن أُحْبَط بعد العرض الأول بخاتمته التي تضمنت تقاذف الفطائر (اعتزمنا تكرارها في ليلة السبت فقط، إذ أجمعنا على تنظيف خشبة المسرح، وصَفّي المقاعد الأماميين، مرة واحدة فقط)، لكن هذا العرض كان جيّداً بقدر الأول تقريباً. وشخصياً وجدت أن ذروة الكوميديا كانت تلك الفرس الراقصة،

في مرحلة ما، كان النصف الذي أمام د. إرتون بقيادة المدرب بورمان المتحمس إلى درجة الهياج - كاد أن يسقط بيرثا من خشبة المسرح.

ظن الجمهور أن تلك الثواني العشرين أو الثلاثين جزء من العرض وصفقوا بجذل، أما أنا، بما أنني مدرك لحقيقة ما يحدث، فقد تضاربت مشاعري على نحو لن يتكرر أبدًا على الأرجح، وقفت في الخلف على المسرح جوار دونالد بلنغهام الذي كاد أن يصاب بالشلل، وبينما ضحكت انتفض قلبي من الرعب.

جاءت لحظة تناغم الماضي عندما سار مايك وبوبي جيل إلى منتصف المسرح، يدًا بيد، وواجهت بوبي جيل الجمهور وقالت: «للآنسة دنهل مكانة خاصة عندي، بسبب عطفها ومحبتها. ساعدتني عندما احتجت إلى المساعدة، ورغبتني في تعلُّم ما نفعله الآن. نشكركم جميعًا على مجيئكم الليلة وإظهار محبتكم، أليس كذلك يا مايك؟».

قال: «بلى، أنتم الأفضل يا رفاق».

نظر إلى يسار المسرح. فأشرتُ إلى دونالد، الذي كان منحنيًا فوق مشغل أسطواناته وذراع الفونوغراف مرفوعة جاهزة. هذه المرة سيعرف والد دونالد يقينًا أن دونالد قد استعار إحدى أسطواناته، لأن الرجل كان بين الجمهور.

بدأت مقطوعة "إن ذا مود" لغلين ميلر، مع تصفيق إيقاعي من الجمهور، وعلى المسرح انطلق مايك كوسلو وبوبي جيل ألنوت في رقصة ليندي سريعة محمومة أشد عنفوانًا من كل رقصاتي سواء مع سيدي أو كرستي. وعندما رأيت مايك يضغط يد بوبي جيل، قائلاً لها بلمسته أن تستدير في الاتجاه المعاكس وتنزلق بين ساقيه، عُدتُ فجأة إلى ديري، إلى مشاهدة رقص بيبي-الليفي وريتشي-الديتشي.

قلت مع نفسي: كل شيء مترابط مُتَّسق، صدى مشابه للأصل إلى درجة تُعجز المرء عن تمييز الصوت الأصلي عن الصدى الشَّبحي.

للحظة كان كل شيء واضحًا، وعندما يحدث هذا يكاد المرء لا يلاحظ وجود العالم. ألا نعرف جميعنا هذا في قرارة أنفسنا؟ إنها آلية متوازنة من الصيحات والأصداة تتظاهر بأنها عجلات وتروس، ساعة أحلام تصدر تكّاتها خلف زجاج غامض نسميه الحياة. أما خلفه، وأسفله وحوله، فلا شيء سوى الفوضى والعواصف. رجال يحملون مطارق، ورجال يحملون مِدَى، ورجال يحملون أسلحة نارية. نساء يخربن ما لا يستطعن السيطرة عليه ويستسخرن ما لا يفهمنه. كَوْنٌ من الرعب والفقد محيطٌ بمسرح يضيؤه مصباح واحد حيث يرقص الفانون مُتحدّين الظلام.

مايك وبوبي جيل رقصا في زمنهما، وزمنهما كان 1963، حقبة قصات شعر البحارة والتلفازات الضخمة. رقصا يوم وعد الرئيس كينيدي بتوقيع معاهدة منع الاختبارات النووية وقال للصحفيين إنه «لا ينوي الزج بقواتنا المسلحة في وحل ضغائن جنوب شرق آسيا التاريخية». رقصا كما رقص بيبي وريتشي، كما رقصتُ أنا وسيدي، وكانا جميلين، أحببتهما ليس رغم هشاشتهما، بل من أجلها. وما زلتُ أحبهما.

ختما الرقصة ختامًا مثاليًا، رافعين أيديهما، لاهتين، وواجهها الجمهور، الذين نهضوا، وأمهلم مايك أربعين ثانية كاملة للتصفيق (من المذهل كيف تحوّل أضواء المسرح لاعب كرة قدم عنيفًا بطبعه إلى إنسان رقيق جميل)، ثم طالب بالصمت. صمتوا بعد مدة.

- مُخرجنا السيد جورج أمبرسون يود أن يقول بضع كلمات. أبداع وبذل مجهودًا كبيرًا في هذا العرض، لذا أمل أن تصفقوا له بحرارة.

سِرْتُ في خضم تصفيق جديد. صافحت مايك وقبّلت بوبي جيل على خدها سريعًا. غادرا المسرح مهرولين. رفعتُ يدي مطالبًا بالهدوء، وشرعتُ في إلقاء كلمة تدربتُ عليها بعناية، قلت لهم إن سيدي لم تستطع الحضور الليلة، وشكرتهم جميعًا نيابةً عنها. كل متحدّث

يخاطب جمهورًا يعرف كيفية التركيز على أشخاص بعينهم في الجمهور، ورَكَزْتُ على اثنين في الصف الثالث يبدوان صغيرين نَكِدَيْن، كانا فريد ميلر وجِسْكا كالتروب، عضوي مجلس إدارة المدرسة اللذين رفضا السماح لنا باستخدام الصالة الرياضية لأن اعتداء زوج سيدي السابق عليها أمر محرج ينبغي تجاهله بقدر المستطاع.

بعدما قلتُ نحو أربع جُمْل، قوطِعتُ بشهقات دهشة، أعقبها تصفيق متقطع في البداية لكن سرعان ما صار عاصفًا. نهض الجمهور مجددًا. لم تكن لدي فكرة عما يصفقون له إلى أن أحسست بيد ناعمة مترددة تمسك بمرفقي. التفتُ فرأيت سيدي واقفة جوارى مرتدية فستانها الأحمر. كانت قد رفعت شعرها وثبّته بمشبك لامع، فبدا وجهها بجانبه كاملاً. صُدمت برؤية أن الندوب، وقد كُشِف عنها كاملة، لم تبدُ مريعة بالقدر الذي كنت أخشاه. ربما ثمة حقيقة كونية في هذا الأمر، لكنني كنت مصعوقًا إلى درجة أعجزتني عن تبينها. وبالطبع ما زال من الصعب النظر إلى الندوب العميقة وآثار الغرز المتلاشية، وأيضًا الجزء المتهدل من خدها وعينها اليسرى المتسعة على نحو غير طبيعي، التي لا ترمش بالتزامن مع العين اليمنى.

لكن سيدي ابتسمت ابتسامتها الساحرة أحادية الجانب، فبدتُ في عينيّ مثل هيلين طروادة. عانقتها، فعانقتني ضاحكة باكية، وتحت فستانها أحسستُ بجسدها كله يرتعش كسلك مشدود إلى أقصى حد. وعندما واجهنا الجمهور رأيتهم جميعًا واقفين يهتفون، عدا ميلر وكالتروب، نظرا إلى ما حولهما، ورأيا أنهما الوحيدان اللذان ما زالا يقتعدان مؤخرتيهما، فنهضا على مضض.

قالت سيدي عندما هدؤوا: «شكرًا لكم، شكرًا لكم من صميم قلبي. وأود أن أزجي شكرًا خاصًا إلى إيلين دوكرتي، إذ قالت لي إنني إذا لم

أحضر وأنظر إلى وجوهكم جميعًا، فسوف أندم بقية حياتي. والشكر
أجزّله لـ...».

ترددت لوهلة وجيزة جدًا. وأنا متأكد أن الجمهور لم يلاحظ، فكنت
الوحيد الذي عرف أن سيّدي أوشكتُ على إخبار خمسمئة شخص
باسمي الحقيقي.

- ...لجورج أمبرسون. أحبك يا جورج.

فاهتزت جنبات المكان بالتصفيق، بالطبع. حتى في الأوقات العصبية
يكون إعلان الحب على الملأ مؤثرًا.

7

اصطحبت إيلين سيّدي، المرهقة، إلى المنزل عند العاشرة والنصف.
ثم أطفأتُ مع مايك أضواء الصالة عند منتصف الليل وسرنا إلى الزقاق
«هل ستأتي معنا إلى ما بعد الحفل يا أستاذ أمبرسون؟ قال آل إنه
سيُبقى المطعم مفتوحًا حتى الساعة الثانية، وقد جلب برميلي جعة.
ليست لديه رخصة لفعل ذلك، لكن لا أظن أن أحدًا سيعتقله».

قلت: «لستُ معكم، إنني مرهق. أراك مساء الغد يا مايك».

قدت سيارتي إلى منزل ديكي أولًا. وجدته جالسًا في شرفته الأمامية
مرتديًا منامته، ويدخن غليونه للمرة الأخيرة قبل النوم.

قال: «ليلة مميزة».

- أجل.

- تلك الشابة أظهرت جسارة عظيمة.

- بالفعل.

- هل ستساندها وتُحسن معاملتها يا بُني؟

- سأحاول.

أوماً وقال: «إنها تستحق ذلك، بعد ما مرت به، وأنت تبلي بلاء حسنًا حتى الآن». ألقى نظرة على سيارتي. «على الأرجح يمكنك الذهاب إليها بسيارتك الليلة وتركن سيارتك أمام الباب. بعدما حدث الليلة لا أظن أن أحدًا سيقول كلمة».

ربما كان محققًا، لكن رأيت أن الاحتراز خير من الندم وذهبت راجلاً، كما فعلت في ليال عديدة. كنت أحتاج إلى وقت حتى تهدأ مشاعري. ظللت أراها في وهج المصابيح الغامر، بفستانها الأحمر، وانحناء عنقها، والخذ الناعم... والآخر المُثَلَّم.

وصلت إلى جادة بي تري ودخلت المنزل، فوجدت السرير/الأريكة مطويًا، وقفتُ حائرًا، لا أدري ما ينبغي أن أفهمه من هذا التغيير. ثم نادتنني سيدي من غرفة النوم، باسمي الحقيقي، وبنبرة ناعمة.

كان المصباح مضاءً، ملقيًا ضوءًا هادئًا على كتفيها العاريتين وأحد جانبي وجهها، وبدت عيناها وضيئتين رصينتين قالت: «أظن أن مكانك الطبيعي هنا. أريدك هنا، هل تريد؟».

نزعت ملابسني واضجعت بجانبها. تحركت يدها تحت الأغطية، وداعبتني.

- هل أنت جائع؟ لدي كعكة إذا كنت جائعًا.

- آه سيدي، إنني أتضور جوعًا.

- أطفئ المصباح إذن.

8

تلك الليلة التي أمضيتها في فراش سيدي كانت أفضل ليلة في حياتي، ليس لأنها أغلقت باب جون كلايتون، بل لأنها فتحت بابنا مجددًا.

وبعدما فرغنا من ممارسة الحب، استغرقتُ في نوم عميق لأول مرة منذ أشهر. ثم استيقظت عند الثامنة صباحًا. رأيت الشمس قد ارتفعت في السماء، وزا آنجلز يغنّين ماي بويريند إز باك "عاد خليلي" على الراديو في المطبخ، وشممت رائحة لحم يُقلى. وتوقعت أن تنادينني سيدي إلى المائدة، لكن ليس بعد. ليس بعد.

وضعت يدي خلف رأسي ونظرت إلى السقف مستغرقة في التفكير، مذهولًا قليلًا من مدى غبائي، ومدى غفلتي شبة المتعمدة، منذ اليوم الذي تركت فيه لي يصعد على متن الحافلة المتجهة إلى نيو أورلينز دون أن أحرّك ساكنًا لإيقافه. هل كنت أحتاج إلى معرفة ما إذا كان جورج دي موهرنشيلدت متورطًا في محاولة اغتيال إدوين ووكر بأكثر من مجرد حثّ شابّ مضطرب على المحاولة؟ ثمة طريقة بسيطة لمعرفة الإجابة. دي موهرنشيلدت يعرفها، فرأيت أن أسأله.

9

تناولت سيدي الطعام بشهية أفضل لأول مرة منذ الليلة التي اقترح فيها كلايتون منزلها، وأنا أكلت بشهية مفتوحة. معًا التهمنا نصف دسّة بيض، بالإضافة إلى اللحم والخبز المحمص. وبعدما صارت الأطباق في حوض الغسل وأشعلت سيدي سيجارة مع كوب القهوة الثاني، قلت إنني أود أن أطرح عليها سؤالًا.

- إذا أردت أن تحدثني عن عرض الليلة، فلا أظنني قادرة على الذهاب مرتين.

- لا، أمرٌ آخر. لكن بما أنك ذكرت ذلك، ماذا قالت إيلين لك تحديدًا؟

- إن الوقت قد حان للتوقف عن رثاء نفسي والانضمام إلى الرفاق.

- كلمات قاسية.

مسحتُ شعرها على جانب وجهها الجريح. تلك الحركة اللاإرادية.

- السيدة إيلين ليست معروفة بلباقتها، جاءت مندفعة وقالت لي إن الوقت قد حان للكف عن الخمول. صدمتني بالطبع. لكنها كانت محقة.

توقفتُ عن مسح شعرها وفجأة دفعته إلى الخلف بعقب يدها، وتابعتُ: «هذا هو الشكل الذي سأبدو عليه من الآن فصاعدًا، مع بعض التحسُّن، لذا أظن أن علي اعتياد واقعي. سيُدي ستكتشف حقيقة ما يقوله الناس عن جمال الجوهر وعدم أهمية المظهر».

- هذا ما أريد التحدث معكِ بشأنه.

- حسنًا.

نفثت الدخان عبر منخريها.

- فلنفترض أن بوسعي اصطحابكِ إلى مكان يستطيع فيه الأطباء علاج الأضرار التي لحقت بوجهك، ليس علاجًا مثاليًا، لكن أفضل بكثير من العلاج الذي يمكن أن يقدمه لك إلرتون وفريقه. فهل ستذهبين؟ حتى إذا عرفت أنك لن تعودِي إلى هنا أبدًا؟

قطَّبتُ حاجبيها متسائلة: «هل نتحدث افتراضيًا؟».

- لا.

سحقتُ سيجارتها ببطء وروية، مستغرقة في التفكير.

- هل ما نتحدث عنه أشبه بذهاب ميمي إلى المكسيك من أجل علاج تجريبي للسرطان؟ لأنني لا أظن...

- أتحدث عن مكان في أمريكا يا عزيزتي.

- حسنًا، ما دمت تتحدث عن أمريكا، لا أفهم لماذا لا...

- إليك بقية الكلام: ربما أضطر أنا إلى الذهاب، معكِ أو وحدي.

جزعتُ: «ولن تعود أبدًا؟».

- أبدأ. كلانا لن نستطيع أن يعود، لأسباب يصعب شرحها. تظننني مجنوناً، أليس كذلك؟

بدت عيناها حائرتين، لكنها تكلمت دون تردد: «أعرف أنك لست مجنوناً».

- ربما أضطر إلى فعلٍ سيبدو سيئاً جداً في نظر رجال القانون. وهو ليس سيئاً، لكن لا أحد سيصدق هذا أبداً.

- هل هذا... جيك، هل لهذا علاقة بما أخبرتني به عن أدلاي ستيفنسون؟ وما قاله عن تجمُّد الجحيم؟

- على نحوٍ ما. لكن إليك النقطة المهمة. حتى إذا استطعت إنجاز مهمتي دون إلقاء القبض عليّ، وأظنني أستطيع، فهذا لا يغيّر وضعك، ستظل ندوب وجهك باقية بدرجة أو بأخرى. في هذا المكان الذي يمكنني اصطحابك إليه توجد إمكانات طبية لا يسع إرتون سوى أن يحلم بها.

قالت: «لكن لا يمكننا العودة أبداً». لم توجّه الكلام إلي، بل كانت تحاول حمل عقلها على استيعابه.

- لا يمكننا.

وبصرف النظر عن كل شيء، إذا عدنا إلى التاسع من سبتمبر 1958، فالنسخة الأصلية من سيدي دَنِهْل ستكون موجودة سلفاً. وهذا أمرٌ ملغز لا أريد التفكير به أبسط تفكير.

نهضت وذهبت إلى النافذة، وظلت واقفة ناظرة إلى الخارج مدة طويلة. انتظرتُ.

- جيك...

- نعم عزيزتي.

- هل تستطيع التنبؤ بالمستقبل؟ تستطيع، أليس كذلك؟

لذتُ بالصمت.

قالت بصوت خافت: «هل أتيتَ من المستقبل؟».

ظللْتُ صامتًا.

استدارت نحوي، فبدا وجهها شديد الشحوب. كررت سؤالها: «جيك، هل أتيتَ من المستقبل؟».

قلت: «نعم». وأحسست كأنما انزاحت عن صدري صخرة وزنها سبعون رطلاً، وفي الوقت نفسه اعتراني خوفٌ شديد، عليها وعلى نفسي، لكن خوفي عليها كان أشد.

- كم... كم يبعد هذا المستقبل؟

- عزيزتي، هل أنت متأكدة...

- نعم. كم يبعد؟

- قرابة ثمانية وأربعين عامًا.

- وهل أنا... مينة؟

- لا أعرف. لا أريد أن أعرف. نحن في الحاضر، ونحن هنا معًا.

فكرتُ بذلك. الجلد المحيط بالندوب صار شاحبًا جدًّا، وأردت الاقتراب منها، لكنني خشيت التحرك. ماذا لو صرختُ وركضت هاربة مني؟

- لماذا جئتُ؟

- لأمنع رجلًا من فعل أمرٍ ما. سأقتله إذا اضطررت، وإذا تأكدتُ أنه يستحق القتل. حتى الآن لم أستطع تبديد كل الشكوك.

- ماذا سيفعل؟

- بعد أربعة أشهر، إنني متأكد أنه سيقتل الرئيس، سيقتل جون كيند...

رأيتُ ركبتيَّها ترتجفان، لكنها استطاعت الوقوف مدة كافية حتى أمسك بها قبل أن تسقط.

10

حملتها إلى غرفة النوم وذهبتُ إلى الحمام لأبّل قطعة قماش بماء بارد، وعندما عدت رأيت عينيها مفتوحتين، نظرتُ إليّ بتعبيرات لم أستطع سبّر غورها.

- ما كان ينبغي لي إخبارك.

قالت: «ربما». لكنها لم تجفل عندما جلست جوارها على السرير، وتنهدتُ بمتعة وارتياح عندما بدأتُ أمسح وجهها بقطعة القماش الباردة، متحاشياً موضع الندوب، حيث ينعدم أي إحساس عدا عن ألم طفيف عميق. وبعدما انتهيت، نظرتُ إليّ حزينّة وقالت: «أخبرني بأمر واحد سيحدث، حتى أصدقك، بأي شيء مثل كلام أدلاي ستيفنسون عن تجمّد الجحيم».

قلت: «لا أستطيع. تخصصتُ في اللغة الإنجليزية، ليس التاريخ الأمريكي. درستُ تاريخ ولاية مِين في المدرسة الثانوية، كان إجبارياً، لكن أكاد لا أعرف شيئاً عن ولاية تكساس. لا أ...». أدركتُ أنني أعرف أمراً واحداً. كنتُ أعرف آخر شيء في قسم المراهنات بدفتر ملاحظات آل تمبلتون، لأنني تحققتُ منه مرتين. كتب: تحسّبا لاحتياجك إلى نقود في المرحلة الأخيرة.

- جيك...

- أعرف من سيفوز بنزال ملاكمة بماديسون سكوير غاردن في الشهر القادم. اسمه توم كيّس، سيفوز على ديك تايجر بالضربة القاضية في الجولة الخامسة. إذا لم يحدث هذا، فلك حرية

الاتصال بمستشفى المجانين. لكن هَلَّا احتفظنا بهذا الأمر بيننا
حتَّى ذاك؟ الأمر مهم.

- نعم. يمكنني الاحتفاظ بالسِر.

11

توقعت من ديكي أو إيلين أن يوقفاني بعد عرض الليلة الثانية،
تخيَّلتُهما متجهَّمين ويقولان لي إنهما تلقيا مكالمة من سيدي، وقالت
لهما إنني فقدت صوابي. لكن هذا لم يحدث، وعندما عدت إلى منزل
سيدي، وجدت ورقة على الطاولة مكتوبًا عليها: أيقظني إذا احتجت إلى
وجبة خفيفة في منتصف الليل.

لم يكن منتصف الليل قد حل بعد، ولم تكن سيدي نائمة. الدقائق
الأربعون التالية أو نحوها كانت جميلة. وبعدها، في الظلام، قالت: «ليس
علي أن أتخذ أي قرار الآن، أليس كذلك؟».

- بلى.

- وليس علينا أن نتحدث عن هذا الآن.

- أجل.

- ربما بعد مباراة الملاكمة، التي أخبرتني عنها.

- ربما.

- أصدقك يا جيك. هل هذا جنون مني؟ لا أدري. لكنني أصدقك.
وأحبك.

- أحبك أيضًا.

ومضتُ عيناها في الظلام، العين الشبيهة باللوز، المائلة لكن ما
تزال ترى، قالت: «لا أريد أن يصيبك مكروه، ولا أريدك أن تؤذي أحدًا

إلا إذا اضطررت اضطرارًا، ولا تؤذ أحدًا خطأ دون قصد أبدًا، أبدًا. هل تعِدني؟».

- نعم.

ذلك كان سهلًا. الحرص على عدم إيذاء أحد عن طريق الخطأ كان سبب بقاء لي أوزوالد على قيد الحياة.

- هل ستكون حذرًا؟

- نعم. سأكون حذرًا ج....

أسكتتني بقبلة.

- مهما كان المكان الذي جئت منه، فليس لي مستقبل دونك. والآن فلنخلد إلى النوم.

12

توقعتُ استئناف النقاش في الصباح. لم تكن لدي فكرة عن مقدار ما سأخبرها به، لكن في النهاية لم أضطر إلى إخبارها بشيء، لأنها لم تسأل. بل سألتني عن مقدار دخل "عرض سيدي دنهل الخيري". وعندما أخبرتها بأن المبلغ أكثر قليلًا من ثلاثة آلاف دولار، مع مبلغ صندوق التبرعات الذي وُضع في البهو، أطلقت ضحكة عالية. ثلاثة آلاف لن تسد جميع فواتيرها، لكن سماع ضحكتها يستحق مليونًا... وعدم سماعها تقول كلامًا مثل: ولماذا نكلّف أنفسنا العناء وبمستطاعنا العلاج في المستقبل؟ لأنني لم أكن متأكدًا تمامًا من رغبتها في الذهاب حتى إذا صدّقني، ولأنني لم أكن متأكدًا من رغبتني في اصطحابها.

أردت أن أكون معها، أجل، لأقرب مدة إلى الأبد يمكن أن يكون الناس فيها معًا. لكن هذه المدة ربما تكون عام 1963... وكل الأعوام التي قد يسمح الرب أو القدر لنا بعيشها معًا بعد عام 1963. ربما نكون

أفضل حالاً هنا. أمكنني تخيّل سيّدى تائهة في عام 2011، تنظر إلى كل بنطال ناصِل أسفل خط الخصر وشاشة حاسوب بانزعاج ورهبة. بالطبع لن أضربها أو أصيح بها، لن أفعل هذا بسيّدي أبداً، لكن رغم هذا ربما تصبح مارينا بروساكوفا معي، في مكان غريب ومنفّية من ديارها إلى الأبد.

13

كان يوجد شخص واحد في جودي ربما يعرف كيف يساعدني على استغلال الفقرة الأخيرة في قسم المراهنات الذي كتبه آل، فريدي كينلان، وكيل العقارات. كان يدير مراهنات بوكر صغيرة في منزله، وقد حضرتُ بعضاً منها. في أثناء عدد من تلك المباريات كان يتفاخر ببراعته في المراهنة في مجالين: كرة قدم المحترفين وبطولة ولاية تكساس لكرة السلة. قابلني في مكتبه لأن الطقس، حسبما قال، حار جداً لا يسمح له بلعب الغولف.

- عن ماذا نتحدث يا جورج؟ رهان متوسط الحجم؟ أم منزل أم قطعة أرض؟

- أفكر بالمراهنة بخمسمئة دولار.

صفّر، ومال متكئاً على ظهر كرسيه وشابك يديه فوق كرشه الصغير. لم تتجاوز الساعة التاسعة صباحاً، لكن مكيف الهواء كان يعمل بطاقته القصوى، رفرفت أمامه هوائه كتيبات عقارية.

- هذا مبلغ كبير، هلأ أخبرتني بتفاصيل الرهان؟

بما أنه كان يسديني معروفاً، أو على الأقل هذا ما كنت آمله، فقد أخبرته. وصّدم.

- يا للهول! لم لا تلقي بأموالك في مجرى صرف صحي؟

- يراودني إحساس فحسب، هذا كل شيء.

- جورج، اسمع كلام أبيك. قتال كَيْس وتايغر ليس فعالية رياضية، إنما بالونة اختبار لتقنية تلفاز للدائرة المغلقة. ربما تقام بضعة نزالات جيدة، لكن هذا النزال الرئيسي مزحة. سَيُعْطَى تايغر تعليمات بأن يتراخى مع العجوز حتى تصل المباراة إلى الجولة السابعة أو الثامنة، ثم يفقده الوعي. إلا إذا...

مال إلى الأمام، فأصدر كرسيه صريرًا قصيرًا مزعجًا من مكانٍ ما بالأسفل. وتابع: «إلا إذا كنتَ تعرف أمرًا». ومال متراجعًا مرة أخرى. «لكن كيف لك أن تعرف؟ إنك تعيش في جودي. لكن إذا عرفت أمرًا، فستشارك المعلومة مع صديقك، أليس كذلك؟».

قلت: «لا أعرف شيئًا». كذبتُ بوجهه (وسررت بكذبي). «إنه مجرد إحساس، لكن آخر مرة راودني فيها إحساس قوي كهذا، راهنت على فوز بايرتس على اليانكيز في بطولة العالم، وجنيتُ ثروة».

- عظيم، لكنك تعرف المقولة القديمة، حتى الساعة المعطلة تشير إلى الوقت الصحيح مرتين يوميًا.

- هل يمكنك مساعدتي أم لا يا فريدي؟

ابتسم لي ابتسامة مواساة تقول إن هذا المغفل وأمواله سيفترقان عما قريب. وقال: «هناك رجل في دالاس يقبل بترتيب أي رهان، اسمه أكيفا روث، يعمل في فيث فاينانشال بجادة غرينفيل، تولى إدارة العمل بعد والده قبل خمس أو ست سنوات». خفض صوته: «يقال إنه ذو صلات بالماфия». وخفض صوته إلى مستوى أقرب إلى الهمس: «كارلوس مارسيلو».

هذا ما كنت أخشاه تحديدًا، لأن هذا ما كان يقال عن إدواردو غوتيريز أيضًا. تذكرتُ مجددًا السيارة طراز لنكن ذات اللوحات التي تعود إلى فلوريدا المركونة قبالة فيث فاينانشال.

- يُستحسن ألا يراني أحد في مكان كذلك. ربما أعود إلى التدريس مجدداً، واثنان على الأقل من أعضاء مجلس إدارة المدرسة ممتعضان مني سلفاً.

قال: «لك أن تجرب فرانك فراتي، في فورت وورث. يدير مكتب رهن». أصدر كرسيه صريراً آخر عندما مال ليلقي على وجهي نظرة من كذب. «ماذا قلتُ فأزعجك؟ أم إنك اختنقت بشيء؟».

- لا، كل ما في الأمر هو أنني كنت أعرف شخصاً آخر اسمه فراتي، وأيضاً كان يدير مكتب رهن ويرتب الرهانات.

- على الأرجح جاء من عشيرة المدخرات والقروض نفسها في رومانيا. على أي حال، ربما يقبل ترتيب رهان بخمسمئة، لا سيما رهان مغفلين كالذي تتحدث عنه. لكن لن تحصل على النسبة التي تستحقها. وبالطبع لن تحصل عليها من روٲ أيضاً، لكن فرانك فراتي أفضل.

- لكن فرانك ليس لديه صلات بالماфия، صحيح؟

- لا أظن. لكن من يدرى؟ وكلاء المراهنات، حتى الذين يعملون بدوام جزئي، ليسوا معروفين بانتقاء شركائهم في العمل من الطبقة الراقية.

- ربما ينبغي أن أعمل بنصيحتك وأحتفظ بأموالي.

ارتاع كينلان: «لا، لا، لا، لا تفعل ذلك. راهن على فوز فريق ذا بيرز ببطولة إن إف سي. هكذا ستجني ثروة. أضمنها لك».

14

في الثاني والعشرين من يوليو، أخبرت سيدي بأنني أريد قضاء بعض شؤوني في دالاس، وقلت لها إنني طلبت من ديكي تفقد أحوالها.

قالت ما من داعٍ لهذا، وإنها ستكون بخير. كانت تستعيد ذاتها القديمة.
رويدًا رويدًا، لكنها تحرز تقدمًا.

لم تسألني عن طبيعة شؤوني.

توقفت أولاً عند مصرف فيرست كورن، حيث فتحت صندوق أماناتي
وراجعتُ دفتر ملاحظات آل ثلاث مرات حتى أتأكد من صحة ما أتذكره.
أجل، نوم كَيْس سيكون الفائز غير المتوقع، سيُسقط دك تايجر بالضربة
القاضية في الجولة الخامسة. لا بد أن آل قرأ عن النزال في موقع على
الإنترنت، لأنه كان قد غادر دالاس، والسستينيات المثيرة، قبل موعد النزال
بمدة طويلة.

سألني موظف المصرف وهو يرافقني إلى الباب: «هل تريد مساعدة
في أي أمر آخر يا سيد أمبرسون؟».

حسنًا، لك أن تبتهل ألا يكون صديقي القديم آل تمبلتون قد صدَّق
تُرَّهات قرأها على الإنترنت.

- ربما. هل تعرف أين قد أجد متجر أزياء تنكُّرية؟ يُفترض أن أكون
الساحر في حفل عيد ميلاد ابن أخي.

بعدما ألقى سكرتير السيد لينك نظرة خاطفة على صفحتاتي
الصفراء، أرشدني إلى عنوان في شارع يونغ، واشتريتُ ما أحتاج إليه.
وضعت مشترياتتي في شقة ويست نيلي. رأيت أن أستغل المنزل ما دمت
أدفع إيجاره. وتركت مسدسي أيضًا، وضعته على رف عال في خزانة
الملابس. وجهاز التنصت، الذي نزعته سابقًا من مصباح شقة الطابق
الأعلى، استقر في صندوق القفازات بسيارتي، ومعه جهاز التسجيل
الياباني الصغير. اعتزمت التخلص منهم في مكانٍ ما من المساحات
الجرداء في طريقي إلى جودي. لم أر فيها فائدة لي. شقة الطابق الأعلى
لم يستأجرها أحد آخر، فكان المنزل صامتًا مريبًا.

قبل مغادرة شارع نيلي، سرت حول الباحة الجانبية المسيجة، حيث التقطت مارينا، قبل ثلاثة أشهر، صورًا لليّ وهو يحمل بندقيته. لم أر شيئًا سوى تراب غير مستو وحشائش قليلة. ثم حالما استدرت لأغادر، رأيتُ شيئًا: أحمر لامعًا أسفل السلم الخارجي، كان لهاية أطفال. أخذتها ووضعتها في صندوق القفازات بالسيارة مع جهاز التنصت، لكن خلافًا لجهاز التنصت، احتفظت بها. ولا أعرف لماذا. مكتبة سرّ من قرأ

15

محطتي التالية كانت المنزل الكبير بشارع سمبسون ستوارت، حيث يعيش جورج دي موهرنشيلدت مع زوجته جين. وحالما رأيت المنزل استبعدت عقد لقائي فيه مع دي موهرنشيلدت، أولًا لأنني لن يمكنني معرفة مكان جين في المنزل، وهذا النقاش الذي أعتزم خوضه لا بد أن يكون بين رجلين فقط. وثانيًا لم يكن المنزل معزولًا بما يكفي. كلية بول كوين، الخاصة بالسود، كانت قريبة، ولا بد أن الصفوف الصفيفة قد بدأت، لم أر فتية، لكن رأيت كثيرين، بعضهم سائرون وبعضهم راكبو دراجاتهم. وهذا ليس أمرًا جيدًا للغرض الذي أتيت من أجله. من المحتمل أن يكون نقاشنا صاخبًا، ومن المحتمل ألا يكون نقاشًا بمعنى الكلمة إطلاقًا.

ولفت نظري شيء آخر، كان في مرجة منزل دي موهرنشيلدت الأمامية العريضة، حيث تنثر الرشاشات الماء في الهواء راسمة أقواس قزح صغيرة يمكن وضعها في الجيب. 1963 لم يكن عام انتخابات، لكن في بداية أبريل، قرابة الوقت الذي جرت فيه محاولة اغتيال الجنرال إدوين ووكر، مات ممثل المقاطعة الخامسة بأزمة قلبية. وستجرى جولة تصويت ثانية على مقعده في السادس من أغسطس.

رأيت لافتة مكتوبًا عليها: **انتخبوا جنكنز ممثلًا للمقاطعة الخامسة!**
روبرت "روبي" جنكنز، فارس دالاس الأبيض!

كان جنكنز فارسًا أبيض بالتأكيد، حسبما كُتب في الصحف، يميني تتطابق آراؤه مع آراء ووكر ومرشد ووكر الروحي ببيلي جيمس هارغس. دعم روبي جنكنز حقوق الولايات، وفصل المدارس مع المساواة بينها، وإعادة حصار "أزمة الصواريخ" حول كوبا. كوبا نفسها التي قال دي موهرنشيلدت عنها «تلك الجزيرة الجميلة». عززت اللافتة لدي إحساسًا قويًا راودني بشأن دي موهرنشيلدت سلفًا، إنه مجرد هاوٍ لا يتمسك، في قرارة نفسه، بأي أفكار أو مبادئ سياسية إطلاقًا، إنما يدعم أيًا كان من يُسلِّيه أو يضع الأموال في جيبه. وليّ أوزوالد لن يفيد من ناحية الأموال، فهو فقير معدم، لكن إيمانه الصارم بالاشتراكية علاوة على طموحاته الشخصية العظيمة جعلاه مُسلِّيًا في نظر دي موهرنشيلدت.

ثمة استنتاج واحد بدا لي واضحًا: لم تطئ قدمًا لي الفقيرتان المرجة أو تلتطّخا سجاد هذا المنزل. هذه كانت حياة دي موهرنشيلدت الأخرى... أو إحدى حيواته. راودني إحساس أنه لديه عدة حيوات، يحرص على عزلها عن بعضها أشد الحرص. لكن هذا لا يجيب عن سُؤالي المحوري: هل دفعه الملل إلى إشراك لي في مهمة اغتيال الوحش الفاشي إدوين ووكر؟ لم أعرفه بما يكفي لأصل إلى تخمين مدروس على الأقل.

لكنني سأعرف الإجابة. عقدتُ عزمي.

16

قرأت على نافذة مكتب رهن فرانك فراتي لافتة مكتوبًا عليها: **مرحبًا بكم في مركز الجيتارات، ورأيت كثيرًا منها معروضة: صوتية، وكهربائية، وذات اثني عشر وترًا، وواحدًا ذا لوحتي ملامس ذكّرني بجيتار رأيتَه في مقطع فيديو لفرقة موتلي كرو. وبالطبع كانت توجد**

في المحل جميع بقايا الحيوانات المنهارة، خواتم، ومشابك، وعقود، ومذاييع، وأجهزة كهربائية صغيرة. استقبلتني امرأة نحيلة، ليست بدينة، ترتدي بنطالاً وبلوزة شب أند شور، وليس فستاناً بنفسجياً وشبشباً، لكن وجهها المتحجر وجه المرأة نفسها التي قابلتها في ديري، وسمعتُ الكلمات نفسها تخرج من شفتَي: «أود مناقشة عرض عمل كبير له علاقة بالرياضة مع السيد فراتي».

- حقاً؟ دون تنكُّر ومساحيق تجميل، هل تنوي ترتيب رهان؟

- هل أنت شرطية؟

- نعم، أنا كاري مدير شرطة دالاس. ألم تعرفني من نظارتي ولغدي؟

- لا أرى أي نظارة أو لغد يا سيدتي.

- لأنني متنكرة. على ماذا تريد أن تراهن في منتصف الصيف يا رجل؟ ما من شيء تراهن عليه.

- نزال كيُس - تايغر.

- ستراهن على أيهما؟

- كيُس.

قلبت عينيها في محجريها، ثم التفتت وصاحت فوق كتفها: «يجدر بك أن تخرج إلى هنا يا أبي، لديك ضحية سهلة».

بدا فرانك فراتي أكبر سنّاً بكثير من شاز فراتي، لكن الشبه موجود رغم فارق السن. تجمعهما صلة قرابة بالتأكيد. إذا ذكرتُ أنني ذات يوم رتبتُ رهاناً مع شخص يُدعى فراتي في ديري بولاية مَيْن، لجرى بيننا نقاش لطيف بشأن مدى صغر العالم.

لكنني لم أذكرُ ذلك، إنما باشرتُ المفاوضات فوراً، سألتها عما إذا كان بإمكانني المراهنة بخمسمئة دولار على فوز توم كيُس بنزاله مع دك تايغر في مايسون سكوير غاردن.

قال فراتي: «نعم بالتأكيد، وبإمكانك أيضًا إقحام سِطام مُحمر من شدة الحرارة في مؤخرتك، لكن لماذا عساك أن ترغب في هذا؟».

أطلقت ابنته ضحكة قصيرة مرحة.

- ما النسبة التي قد أحصل عليها.

نظر إلى ابنته فرفعت يديها، إصبعين بيُسراها، وواحدة بيمنها.

- اثنان إلى واحد؟ هذا لا يُعقل!

- الحياة نفسها لا تُعقل يا صديقي. اذهب وشاهد مسرحية لأوجين

يونسكو إذا لم تصدقني، أقترح عليك مسرحية ضحايا الواجب.

حسنًا، على الأقل لم يخاطبني بـ ابن عمي كما فعل ابن عمه في

ديري.

- تعاون معي قليلًا يا سيد فراتي.

التقط جيتارًا صوتيًا ماركة إبيفون هَمِنْغبيرد وبدأ يدوزنه. كان

سريعًا على نحو مدهش.

- إذن قدّم لي عرضًا يمكّنني من التعاون معك، أو اذهب إلى دالاس،

هناك محل اسمه...

- أعرف محل دالاس. لكن أفضل فورت وورث، كنتُ أعيش هنا.

- رحيلك من تلك المدينة يظهر أنك عاقل، عكس رغبتك في المراهنة

على توم كيّس.

- ماذا عن فوز كيّس بضربة قاضية في جولة ما من الجولات السبع

الأولى؟

نظر إلى ابنته. وهذه المرة رفعت ثلاث أصابع بيُسراها.

- وفوز كيّس بضربة قاضية في إحدى الجولات الخمس الأولى؟

أجرتُ حسابًا في ذهنها، ثم رفعتُ إصبعًا رابعة. قررتُ ألا أضغط

أكثر من هذا. وكتبت اسمي في دفتره وأظهرت له رخصة قيادتي، واضعًا

إبهامي على عنواني في جودي كما فعلت عندما راهنت على فوز بايرتس في محل فيث فاينانشال قبل قرابة ثلاث سنوات. ثم أعطيته النقود، قرابة رُبع ما بقي لديّ من نقدية، ووضعت الإيصال في محفظتي. مبلغ ألفي دولار سيكفي لدفع مزيد من منصرفات سيدي وتغطية نفقاتي في الوقت المتبقي لي في تكساس. لم أرغب في سلب فراتي هذا كثيرًا، كما لم أرغب في سلب شاز فراتي كثيرًا، رغم أنه دفع بيل تيركوت لمراقبتي. قلت: «سأعود بعد يوم النزال. أريد نقودي جاهزة عندئذ».

أشعلت الابنة سيجارة وقالت: «حسنًا، لك أن تحلم».

سألتها: «هل يصادف أن اسمك مارجوري؟».

تجمّدت والسيجارة أمام وجهها والدخان ينساب من بين شففتيها. «كيف عرفت؟». ورأت تعابير وجهي فضحكت. «لا، اسمي وندا. أتمنى أن يكون حظك في المراهنات أفضل من حظك في تخمين الأسماء». عدت إلى سيارتي متمنيًا ذلك أيضًا.

الفصل الخامس والعشرون

1

لازمتُ سيدي صباح الخامس من أغسطس إلى أن وضعوها على نقالة ودفعوها إلى غرفة العمليات، حيث كان د. إلرتون ينتظرها، مع عدد من الأطباء الآخرين يكفي لتكوين فريق كرة سلة. كانت عيناها لامعتين بتأثير مخدر ما قبل العملية.

- تمنّ لي حظاً طيباً.

انحنيت وقبّلتها قائلاً: «فليحالفك كل حظ العالم».

انقضت ثلاث ساعات قبل إعادتها إلى غرفتها، الغرفة الصغيرة نفسها، بالصورة نفسها على الجدار، والمرحاض المريع نفسه. عادت مستغرقة في النوم وتشخر، وجانب وجهها الأيسر مغطى بضمادات جديدة. سمحت لي روندا مكغلي، الممرضة ذات الكتفين العريضتين، بالموث مع سيدي حتى تستعيد وعيها قليلاً، وهذا خرق كبير لقواعد المستشفى. كانوا يتشدّدون في ساعات الزيارة في عالم الماضي. إلّا إذا وجد المرء ممرضة متعاطفة معه.

أمسكتُ يد سيدي وسألتها: «كيف حالك؟».

- أشعر بآلام طفيفة، وبالنعاس.

- عودي إلى النوم إذن يا عزيزتي.

قالت: «المرّة القادمة ربما...» تلاشت كلماتها إلى صوت أقرب إلى الأزيز، وأغمضت عينيها، لكنها فتحتهما جاهدة. «... ستكون أفضل. في مكانك».

ثم غابت عن الوعي. ولم أستطع إيقاف عقلي عن التفكير فيما حاولت قوله.

عدت إلى مكتب الممرضات، وأخبرتني روندا بأن د. إلرتون ينتظرني في الكافتريا بالأسفل.

قال: «سنبقى هنا الليلة وغداً أيضاً على الأرجح. نريد أن نحرص على عدم إصابتها بأي عدوى».

- كيف سارت العملية؟

قال: «على نحو جيد حسبما يمكن توقعه، لكن الضرر الذي أحدثته كلايتون كان بالغاً. في انتظار تعافيتها سوف أجدول عملية جراحية ثانية في نوفمبر أو ديسمبر». أشعل سيجارة، ونفث الدخان، ثم تابع: «هذا الفريق الجراحي ممتاز، وسنبذل كل ما بوسعنا... لكن ثمة حدوداً لقدراتنا».

قلت: «أجل، أعرف». وكنت متأكداً أنني أعرف أمراً آخر أيضاً: لن تُجرى عمليات جراحية أخرى، هنا على الأقل. المرة التالية التي يقترب فيها مبضع جراح من سيدي، لن يكون مبضعاً، إنما ليزر. في مكاني.

2

بعض محاولات التوفير والاقتصاد تترد على المرء وتصيبه في مقتل. كنت قد طلبت فصل الهاتف من شقتي بشارع نيلي حتى أوفر ثمانية أو عشرة دولارات شهرياً، والآن احتجت إليه. لكن ثمة متجر يو-توت-إم

على بُعد أربعة مربعات سكنية فيه كابينة هاتف عمومي جوار ثلاجة كولا. وكنت قد كتبت رقم هاتف دي موهرنشيلدت على قصاصة ورق. وضعت دايم وأدخلت الرقم.

سمعت: «منزل دي موهرنشيلدت، في خدمتك». ليس صوت جين. ربما خادمة. من أين تأتي أموال موهرنشيلدت؟

- أود التحدث مع جورج من فضلك.

- يؤسفني أنه في المكتب سيدي.

أخرجتُ قلمًا من جيبِي.

- هَلَّا أعطيتني رقم المكتب؟

- نعم سيدي. 5-Chapel-6323

- شكرًا.

كتبت الرقم على ظاهر يدي.

- هل لي أن أخبره بالمتصل، إذا لم تستطع الوصول إليه يا سيدي؟

أنهيتُ المكالمة. اعترتني تلك البرودة مجددًا، ورَحَبْتُ بها. عندئذٍ كنت في أمس الحاجة إلى صفاء الذهن وبروده.

وضعت دايم آخر، وهذه المرة ردت علي سكرتيرة أخبرتني بأنني اتصلت بشركة سنتريكس. قلت لها إنني أريد التحدث مع السيد دي موهرنشيلدت، وبالطبع أرادت أن تعرف السبب.

- أخبريه إنني أريد التحدث معه في أمر له علاقة بجان كلود دوفالير ولي أوزوالد. أخبريه إنه أمر يَصُب في صالحه.

- ما اسمك سيدي؟

بَدَنْتَيْنِ لن يفي بالغرض هنا، فقلت: «جون لينون».

- انتظر من فضلك يا سيد لينون. سَأرى ما إذا كان بإمكانه التحدث معك.

لم أسمع موسيقى انتظار، وهذا تحسُّن عموماً. اتكأت على جدار الكابينة وحدّقت إلى لافتة مكتوب عليها، إذا دخنت، فشغّل المروحة من فضلك. لم أكن أدخن، لكن شغلت المروحة على أي حال. لم تساعدني كثيراً.

سمعت نقرة عالية جعلتني أجفل، وقالت السكرتيرة: «تم الاتصال». قال دي موهرنشيلدت بصوته المسرحي الهادر المرح: «مرحباً، مرحباً، لينون؟».

- مرحباً. هل هذا الخط آمن؟

- ماذا تع...؟ إنه آمن بالتأكيد. مهلاً لحظة، دعني أغلق الباب.

أغلق الباب وعاد متسائلاً: «ما الأمر؟».

- هايتي يا صديقي. وعقود التنقيب عن النفط.

- ماذا عن مسيو دوفالير وذلك الرجل أوزوالد؟

لم يبد في صوته أي قلق، مجرد فضول مرح. قلت: «تعرفهما معرفة شخصية، لم لا تسمّيهما بيبي دوك ولي؟».

- إنني مشغول جداً يا سيد لينون. إذا لم تخبرني بما تريد التحدث عنه، يؤسفني أنني سأ...

- بيبي دوك يمكنه الموافقة على عقود التنقيب في هايتي التي تسعى خلفها منذ خمس سنوات. تعرف هذا، إنه ذراع والده اليمنى، يدير قوات تونتون ماكوت، وهو من سيخلف والده. إنك تروقه، وتروقنا نحن أيضاً.

بدأ دي موهرنشيلدت يتخلّى عن نبرة كلامه المسرحية ويتكلم كرجل عادي: «عندما تقول نحن، هل تقصد...».

- تروقنا جميعاً يا دي موهرنشيلدت، لكننا قلقون بشأن علاقتك بأوزوالد.

- رباه، إنني أعرف الرجل بالكاد! لم أره منذ ستة أو ثمانية أشهر!
- رأيته يوم عيد القيامة. جلبت لابنته الصغيرة دمية أرنب.
- صمت مدة طويلة، ثم قال: «حسنًا، أظنني رأيته. ونسيت ذلك».
- هل نسيت أمر محاولة شخص ما إطلاق النار على إدوين ووكر؟
- ما علاقة ذلك بي؟ أو بعملنا؟

غضبه وحيرته كانا واضحين، فكِدْتُ أن أصدقه. كِدْتُ.
قلت: «بحقك، أنت اتهمت أوزوالد بمحاولة إطلاق النار».

- كنتُ أمزح، اللعنة!

أمهلته لحظة، ثم سألته: «هل تعرف الشركة التي أعمل لصالحها يا دي موهرنشييلت؟ إليك تلميح، ليست ستاندرد أويل».

صمت دي موهرنشييلت مدة وهو يقلِّب في ذهنه الترهات التي قلتها له، إلا أنها لم تكن كلها ترهات. كنت أعرف بأمر دمية الأرنب وتعليقه مستغربًا فشل لي في إصابة الهدف عندما لمحت زوجته البندقية. الاستنتاج كان واضحًا. شركتي كانت "الشركة". كنت أمل أن يكون السؤال الوحيد الذي يدور في عقل دي موهرنشييلت عندئذٍ هو ما مدى ما أعرفه عن تفاصيل حياته.

- هذا سوء تفاهم يا سيد لينون.
- آمل، من أجل مصلحتك، أن يكون سوء تفاهم، إذ يبدو لنا أنك كنت تحث لي بطريقة غير مباشرة حتى يُقَدِّم على محاولة الاغتيال، بأحاديثك الطويلة المتكررة عن مدى عنصرية ووكر، وتوقعك بأنه سوف يكون هتلر الأمريكي القادم.

- هذا غير صحيح إطلاقًا!

تجاهلته: «لكن هذا ليس أهم ما يقلقنا. أهم ما يقلقنا هو احتمال مرافقتك للسيد أوزوالد في مغامرته يوم العاشر من أبريل الماضي».

- يا إلهي! هذا جنون!
- إذا استطعت إثبات أنه جنون... إذا وعدت بالابتعاد مستقبلاً عن السيد أوزوالد المضطرب...
- إنه في نيو أولينز، رباه!
- قلت: «اصمت. نعرف مكانه وما يفعله، إنه يوزع منشورات "الإنصاف لكوبا"، وإذا لم يتوقف حالاً، فسينتهي به المطاف في السجن». سيُسَجَّن بالفعل، في غضون أسبوع. وسيظهر خاله دوتز، ذو الصلات بكارلوس مارسيلو، ويخرجه بكفالة. «سيعود إلى دالاس عما قريب، لكنك لن تقابله. لعبتك الصغيرة انتهت».
- أؤكد لك أنني لم...
- تلك العقود ما زالت متاحة لك، لكن شريطة أن تثبت أنك لم تكن مع أوزوالد في العاشر من أبريل. هل تستطيع إثبات ذلك؟
- قال متردداً: «أنا... دعني أفكر». صمت مدة طويلة، ثم قال: «نعم، نعم، أظنني أستطيع».
- فلنتقابل إذن.
- متى؟
- الليلة. عند التاسعة. ثمة آخرون أعلى مني يتابعون معي هذا الأمر، سيستأوون جداً إذا أمهلتك وقتاً تدبر فيه دليلاً على وجودك في مكان آخر وقتذاك.
- تعال إلى منزلي. سأرسل جين إلى صالة السينما مع صديقاتها.
- اخترت مكاناً آخر، لن تحتاج إلى إرشادات حتى تجده.
- أخبرته بالمكان الذي اخترته.
- سألني حائراً بصدق: «لماذا هناك؟».

قلت: «تعال فحسب. وإذا لم ترغب في إثارة غضب دوفالييه الأب، وابنه، عليك يا صديقي، فلتأتِ وحدك». وأنهيته المكاملة.

3

عدت إلى المستشفى عند السادسة تمامًا، وزُرت سيدي نصف ساعة. وجدتُها قد استعادت صفاء ذهنها، وزعمتُ أن الألم طفيف. عند السادسة والنصف قبّلت خدها السليم وقلت لها إنني مضطر إلى المغادرة. سألتني: «أهو عملك؟ عملك الحقيقي؟».

- نعم.

- لا أحد سيتعرض لأذى إلا عند الضرورة القصوى، صحيح؟

أومأت: «ولا أحد يتأذى عن طريق الخطأ أبدًا».

- كن حذرًا.

- كأنني أمشي على بيض.

حاولت أن تبتسم، فتحولت ابتسامتها إلى تعابير ألم إثر تقلُّص جروح جانب وجهها الأيسر. ثم نظرتُ فوق كتفي، التفتتُ فرأيت ديكي وإيلين عند الباب. كانا متأنِّقين، ديكي ببذلة صيفية وربطة عنق رفيعة وقبعة رعاة بقر، وإيلين بفستان حريري أحمر.

قالت إيلين: «يمكننا الانتظار، إذا أردتما».

- لا، ادخلا. كنت على وشك المغادرة. لكن لا تبقياً طويلاً، إنها مرهقة.

قبّلت سيدي مرتين. شفتان جافتان وجبهة رطبة. ثم قدت سيارتي عائداً إلى شارع ويست نيلي، وأخرجت الأشياء التي اشتريتها من متجر

الأزياء التنكرية. عملتُ ببطء وحذر أمام مرآة الحمام، مع الرجوع إلى الإرشادات كثيرًا، متمنيًا وجود سيدي معي لتساعدني.

لم أكن قلقًا من احتمال أن ينظر دي موهرنشيلدت إليّ ويقول: ألم أرك من قبل؟ أردت الحرص على ألا يميّز «جون لينون» لاحقًا. وفقًا لمدى صدقه، ربما أضطر إلى العودة إليه، وعندئذٍ أريد أن أفاجئه.

ألصقتُ الشارب أولًا. كان شاربًا كثيفًا، جعلني أبدو كخارج عن القانون في فيلم غرب أمريكي من إخراج جون فورد. ثم وضعتُ المكياج، على وجهي ويدي حتى أكتسب سُمرة مزارع. وكنت قد اشتريت أيضًا نظارة ذات إطار من قرون حيوان وعدستين غير ملونتين. فكرتُ لوهلة في صبغ شعري، لأحدثَ هذا توازيًا مع جون كلايتون لن أستطيع احتماله. فاعتمرت قبعة بسيبول خاصة بفريق سان أنتونيو بولتس. وعندما انتهيت، بالكاد تعرفت على نفسي في المرأة.

قلت للغريب المائل في المرأة: «لا أحد يتعرض لأذى إلا عند الضرورة القصوى، ولا أحد يتأذى عن طريق الخطأ أبدًا. اتفقنا؟».

أومأ الغريب، لكن العينين خلف النظارة المزيفة ظلتا باردتين. وقبل مغادرتي أخيرًا أخذت مسدسي من رف خزانة الملابس وأقحمته في جيبي.

4

وصلت إلى موقف السيارات المهجور عند نهاية شارع مرسيدس قبل عشرين دقيقة من الموعد، لكن وجدت دي موهرنشيلدت هناك سلفًا، رأيت سيارته الكاديلاك اللافتة مركونة جوار الجدار الخلفي لمستودع مونتغمري. إذن فقد كان متوترًا. ممتاز.

نظرت إلى ما حولي، متوقعًا رؤية فتيات القفز على الحبل، لكن الوقت متأخر بالطبع، وعلى الأرجح نائمات ويحلمن بشارلي شابلن في فرنسا، ليشاهد النساء يؤدين الرقصة.

ركنتُ سيارتي جوار يخت دي موهرنشيلدت. أنزلتُ زجاج نافذتي، وأخرجت يدي اليسرى، واستدعيته بإشارة بسبّابتي. لوهلة لبث دي موهرنشيلدت جالسًا في مكانه، كأنه غير متأكد مما عليه فعله، ثم خرج من سيارته، لم أر أثرًا لتبخّثه، بدا خائفًا متململاً. ورأيتُ هذا ممتازًا أيضًا. كان يحمل ملفًا بإحدى يديه، بدا من حجمه قليل المحتويات، تمنيتُ ألا يكون فارغًا ومجرد خدعة. وإذا اتضح أنه خدعة، فسنرقص، ولن تكون رقصة ليندي هوب.

فتح باب سيارتي ومال قائلاً: «اسمع، لن تطلق النار علي أو شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟».

قلت آملًا أن أبدو شاعرًا بالملل: «بلى. إذا كنتُ من مكتب التحقيقات الفدرالي فلربما عليك أن تقلق، لكنني لست كذلك وأنت تعرف هذا. تعاملت معنا من قبل». ابتهلتُ أن تكون ملاحظات آل صحيحة في هذا الشأن.

- هل السيارة مزودة بجهاز تنصت؟ هل تحمل أنت جهاز تنصت؟
- إذا توخيتَ الحذر بشأن ما تقوله، فلا شيء يدعوك للقلق، أليس كذلك؟ والآن اركب.

ركب وأغلق الباب قائلاً: «عقود التنقيب...».

- لك أن تناقش هذا الأمر في وقت آخر، مع أشخاص آخرين. النفط ليس تخصصي. تخصصي هو التعامل مع الذين يسلكون سلوكًا طائشًا، وعلاقتك بأوزوالد طائشة.

- كنتُ فضوليًّا فحسب، إنه رجل تمكن من الانشقاق والذهاب إلى روسيا، ثم الانشقاق عائداً إلى الولايات المتحدة. وهو قروي شبه متعلم، لكنه ماهر واسع الحيلة على نحو مدهش. كما...

تنحنح وتابع: «لديَّ صديق يريد مضاجعة زوجته».

أدركتُ أنه يتحدث عن بوهي، جورج آخر من بين كثيرين. لسعدتُ بالهروب من صدى الماضي. قلت: «نعرف ذلك. اهتمامي الوحيد هو التأكد من عدم تورطك في محاولة اغتيال ووكر».

- انظر إلى هذه. أخذتها من دفتر قصاصات زوجتي.

فتح الملف، وأخرج صفحة واحدة من صحيفة وناولني إياها. أضأت مصباح سقف السيارة، أملاً ألا يُظهر زيف سُمرتي. لكن من يكثرث؟ سيظنها دي موهرنشيلدت أمراً مخيفاً فحسب.

كانت الصفحة من صحيفة مورننغ نيوز بتاريخ 12 أبريل. عرفت القسم، أحوال البلدة، سكان دالاس يتابعونه باهتمام أكبر من اهتمامهم بأخبار الولايات المتحدة والأخبار العالمية. رأيت على الصفحة أسماء عديدة وصوراً كثيرة لرجال ونساء يرتدون ملابس سهرة. وكان دي موهرنشيلدت قد رسم دائرة بحبر أحمر في منتصف الصفحة، وفي الصورة المرافقة ظهر جورج وجين واضحين. كان يرتدي بدلة أنيقة ويبتسم ابتسامة واسعة تكشف عن أسنان كثيرة كمفاتيح بيانو، وكشفت جين عن جزء كبير من نهدِها، بدا شخص ثالث يحدق إليهما. وثلاثتهم كانوا يحملون كؤوس شامبانيا.

قلت: «هذا عدد يوم الجمعة، أُطلق النار على ووكر يوم الأربعاء».

- موضوعات أحوال البلدة هذه دائماً تتأخر يومين، لأنها تغطي الفعاليات المسائية، فهمت؟ إضافة إلى ذلك... لا تنظر إلى الصورة فحسب، اقرأ يا رجل. الكلام مكتوب بوضوح!

تحققتُ، لكن عرفت أنه يقول الحقيقة حالما رأيت اسم الرجل الآخر
بخط الطباعة اللافت. الصدى التناغمي كان عاليًا.

أمير النفط **جورج دي موهرنشيلدت** وزوجته **جين**
رفعاً كأُسًا (ربما عشرات الكؤوس!) في **نادي كارسل**
ليلة الأربعاء، محتفلين بعيد ميلاد السيدة السعيد.
كم بلغت من العمر؟ لم يفصح العاشقان، لكن في
نظرنا لا تبدو أنها تجاوزت الثالثة والعشرين (مرحى!).
استضافهما رفيع الشأن في النادي، **جاك روبي**، الذي
أرسل إليهما قنينة شمبانيا ثم انضم إليهما ليشرب
نخبًا. عيد ميلاد سعيد يا **جين**، تتمنى لك حياة مديدة!

قال: «الشامبانيا كانت رديئة، فعانيت صدامًا حتى الثالثة عصرًا،
لكن إذا اقتنعتَ فالأمر يستحق العناء».

اقتنعتُ. ودُهشتُ أيضًا، فسألته: «ما مدى معرفتك بروبي هذا؟».

تضايق دي موهرنشيلدت، وعبرَ عن توتره بشهيق سريع. «لا أعرفه
معرفة وثيقة، ولا أريد معرفته. إنه يهودي مجنون يقدم لرجال الشرطة
مشروبات مجانية حتى يشيحوا بأنظارهم عندما يستخدم قبضتيه، فهو
يحب العنف، ذات يوم سيقع في ورطة بسبب حدة مزاجه. جين تحب
راقصات التعري». هز كتفيه، كأنه يقول مَنْ يفهم النساء؟ «والآن هل
أ...». نظر إلى الأسفل، فرأى المسدس في قبضتي، فأمسك عن الكلام.
اتسعت عيناه. وخرج لسانه فلعق شفتيه، وأصدر صوتًا غريبًا عندما
سحبه إلى داخل فمه.

قلت: «هل اقتنعت؟ أهذا ما أردت أن تقوله؟». نخسته بفوهة
المسدس واستمتعتُ بشهيقته. القتل يغيّر المرء، وأؤكد لكم، ويجعله فظًا

خشناً، لكن دفاعاً عن نفسي، إذا كان ثمة شخص يستحق أن يخاف فهو هذا الرجل. مارغريت مسؤولة جزئياً عن الحال الذي وصل إليه ابنها الأصغر، وليّ نفسه يتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية، بأحلامه المشوهة عن العظمة، لكن دي موهرنشيدت أيضاً له دور. وهل كان دوره جزءاً من مؤامرة نُسجت خيوطها في أحشاء وكالة الاستخبارات المركزية؟ لا. كان يجد معاشرة البؤساء مُسليةً وكذلك الإحباط والغضب الذي يعتمل في شخصية ليّ المضطربة.

همس دي موهرنشيلدت: «أرجوك».

- اقتنعتُ، لكن اسمعني أيها المتبجح الثرثار، عليك ألا تقابل ليّ مجدداً أبداً، ولا تتحدث معه عبر الهاتف أبداً، ولا تذكر لزوجته كلمة مما دار بيننا، ولا لوالدته، ولا لجورج بوهي، ولا لأيّ من المهاجرين الآخرين. هل فهمت؟

- نعم، بالتأكيد. بدأت أمل منه على أي حال.

- ليس بقدر مللي منك. إذا اكتشفتُ أنك تحدثت مع ليّ، فسأقتلك. فهمت؟

- نعم. وعقود التنقيب؟

- سيتواصل معك شخص آخر. والآن اخرج من سيارتي.

فخرج، متعجبلاً. وعندما جلس خلف عجلة قيادة الكاديلاك، مددت يدي اليسرى مرة أخرى، وبدلاً من استدعائه، أشرت له نحو شارع مرسيدس، فذهب.

لبثت جالساً مدة أطول قليلاً، ناظراً إلى الورقة التي نسيها باستعجاله. دي موهرنشيلدت وزوجته وجاك روبي رافعين كؤوسهم. هل تشير هذه الصورة إلى مؤامرة؟ أصحاب نظريات المؤامرة الذين يرجّحون احتمالات مثل أن مُطلق النار خرجوا من مجاري الصرف الصحي واحتمال وجود شبيه لأوزوالد، لربما ظنوا هذا، لكنني كنتُ

أدرى. كان مجرد إيقاع تناغمي آخر. هذا هو عالم الماضي، حيث لكل شيء صداه.

أحسست بأنني أغلقت نافذة عدم اليقين الخاصة بآل تمبلتون إلى أقصى درجة ممكنة. سيعود أوزوالد إلى دالاس في الثالث من أكتوبر، وبحسب ملاحظات آل سيوظف عاملاً عادياً في مستودع الكتب المدرسية بتكساس في منتصف أكتوبر. إلا أن ذلك لن يحدث، فقد قررت أن أنهي حياته البائسة الخطرة بين يومي الثالث والسادس عشر.

5

سُمح لي باصطحاب سيدي من المستشفى في صباح السابع من أغسطس. ظلت صامتة في أثناء عودتنا إلى جودي، وأدركت أنها ما زالت متألمة، لكن يدها ظلت مسترخية على فخذي معظم وقت الرحلة. وعندما غادرنا الطريق السريع 77 عند لوحة دنهولم ليونز الإعلانية، قالت: «سأعود إلى المدرسة في سبتمبر».

- متأكدة؟

- نعم. إذا استطعت الوقوف أمام البلدة كلها، أظنني يمكنني تدبُّر أمري أمام مجموعة فتية في مكتبة المدرسة. كما أتوقع أن نحتاج إلى المال. ما لم يكن لديك مصدر دخل آخر لا أعرفه، فلا بد أنك على وشك الإفلاس، بسببي.

- أتوقع تلقّي مبلغ عند نهاية الشهر.

- نزال الملاكمة؟

أومأت.

- جيد. وعلى أي حال لن أضطر إلى سماع الهمسات والضحكات
إلا لمدة قصيرة. لأنني سأرافقك عندما تذهب... إذا كنت ما زلت
تريد ذلك.

- هذا كل ما أريده يا سيدي.

انعطفنا إلى الشارع الرئيسي. رأينا جيم نيدهام ينهي جولته بشاحنة
الحليب، وبيل غافري يضع خبزًا طازجًا تحت قماش رقيق أمام مخبزه.
ومن سيارة عابرة سمعنا جان ودين يغنيان قائلين إن في سيرف سيتي
هناك فتاتان لكل فتى.

- هل ستعجبني الحياة هناك يا جيك؟ أقصد في مكانك.

- آمل ذلك يا عزيزتي.

- هل سيكون شديد الاختلاف؟

ابتسمتُ.

- الناس يدفعون مبالغ أكبر مقابل الوقود، ويضغطون أزرارًا أكثر.
عدا عن هذا، فالمكان مشابه تقريبًا.

6

كان أغسطس الحار أقرب فترة إلى شهر عسل عشناها معًا. كانت
فترة جميلة. وقد تخلّيت عن التظاهر بإقامتي مع ديكي سيمونز، لكنني
ظللت أترك سيارتي أمام منزله في الليل.

تعافت سيدي سريعًا من جراحاتها الأخيرة، وبدأ عليها تحسُّن واضح،
رغم ارتخاء عينها والندوب على خدها حيث أصابها كلايتون بجرح غائر
امتد إلى داخل فمها. إلرتون وفريقه أدّوا عملًا جيدًا بالوسائل المتاحة
لديهم.

قرأنا الكتب جالسين متجاورين على الأريكة، والمروحة تدفع شعرنا إلى الخلف، قرأتُ رواية المجموعة لماري مكارثي، وقرأتُ جود المغمور لتوماس هاردي. وقضينا أوقاتاً طويلة في باحتها الخلفية في ظل شجرة الفستق الصيني الأثيرة لديها، وشربنا جالونات من القهوة المثلجة. بدأت سيدي تقلل من التدخين مجدداً. شاهدنا مسلسلات روهايد وبن كيسي وروت 66. وذات ليلة بدأت مشاهدة مغامرات إليري كوين الجديدة لكن طلبتُ منها تغيير القناة. قلت لها إنني لا أحب مسلسلات الغموض.

قبل موعد النوم وضعتُ بعناية مرهماً على وجهها الجريح، وحالما أويْنَا إلى الفراش... كان وقتاً طيباً. فلنكتفِ بهذا.

ذات يوم صادفت خارج متجر بقالة عضو مجلس إدارة المدرسة، النزيهة، جيسكا كالتروب، قالت إنها تود التكم معي للحظة عما أسمته «موضوعاً حساساً».

سألتها: «أي موضوع يا ترى؟ لأن لدي آيسكرام وأريد العودة إلى المنزل قبل أن يذوب».

ابتسمت لي ابتسامة باردة قادرة على إبقاء الآيسكرام متماسكاً لساعات.

- هل تقصد منزل جادة بي تري يا سيد أمبرسون؟ مع الآنسة دنهل
تعيسة الحظ؟

- وفيَمَ يعنيك هذا؟

ازدادت ابتسامتها برودة قليلاً.

- بوصفي عضو مجلس إدارة المدرسة، عليَّ الحرص على نزاهة أخلاق أساتذتنا. إذا كنت تعيش مع الآنسة دنهل، فهذا تجاوز لا يُستهان به في نظري. المراهقون سريعو التأثر، يقلدون ما يرونه من كبارهم.

- أظنن هذا؟ بعد نحو خمسة عشر عامًا في الصفوف الدراسية، أقول لك إنهم يراقبون سلوك البالغين ويسلكون عكسه تمامًا.

قالت: «أنا متأكدة أننا بوسعنا أن نخوض نقاشًا عميقًا بشأن رؤيتك لما يحدد سلوك المراهقين يا سيد أمبرسون، لكن هذا ليس موضوعنا، رغم أن موضوعنا غير مريح». لم يبد عليها أي شعور بعدم الارتياح. «إذا كنت تعيش خطيئة مع الأنسة دنهل....».

- خطيئة؟ هذه كلمة شائقة. قال يسوع: من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولًا بحجر. هل أنت دون أي خطيئة أيتها السيدة كالتروب؟

- هذا النقاش ليس عني.

- لكن يمكننا أن نجعله عنك. يمكنني أن أجعله عنك. مثلًا يمكنني أن أبدأ النبش في قصة الطفل غير الشرعي الذي أنجبته ذات يوم. أجفلتُ كأنها لُطِمتُ وتقهقرت خطوتين نحو جدار المتجر القرميدي. تقدمتُ خطوتين، وأكياس مشترياتي مضغوطة بين ذراعي.

- أجد كلامك صادمًا ومُهيئًا. إذا كنتَ ما تزال تدرّس، لـ...
- لفعلتِ بالطبع، لكنني لم أعد أدرّس، لذا عليك أن تصغي إلي. نما إلى علمي أنك أنجبتِ طفلًا عندما كنتِ في السادسة عشرة وتعيشين في سويتووتر رانش. لا أعرف ما إذا كان والد طفلك أحد زملائك في المدرسة، أم عامل مزرعة ما أم والدك نفسه...
- إنك مقزز!

صحيح. لكن أحيانًا يجد المرء متعة في ذلك.

قلت: «لا أهتم بوالده، لكنني أهتم بسيدي، وهي عاشتُ آلامًا وأحزانًا أشد مما عشتها طوال حياتك». عندئذٍ كانت ملتصقة بالجدار القرميدي، وتنظر إليّ رافعة رأسها وعيناها تشعان رعبًا. في زمانٍ ومكانٍ آخرين لربما أحسستُ بالشفقة عليها. ليس الآن. «إذا قلت كلمة واحدة عن

سيدي، كلمة واحدة لأي أحد، فسأجعل سُغلي الشاغل معرفة مكان طفلك الآن، وسأُنشر خبره في جميع أنحاء هذه البلدة. هل تفهميني؟».

- ابتعد عن طريقي! دعني أمر!

- هل تفهميني؟

- نعم! نعم!

تراجعتُ وقلت: «جيد. عيشي حياتك أيتها السيدة كالتروب، أظنها رتيبة كئيبة منذ أن كنتِ في السادسة عشرة، رغم انشغالك بدس أنفك في شؤون الناس - لكن عيشيها. ودعينا نعيش حياتنا».

سارتُ جانبياً ببطء بمحاذاة الجدار القرميدي، نحو موقف السيارات خلف المتجر، وظلت عيناها جاحظتين ولم تستطع إبعادهما عني.

ابتسمتُ لها بؤد: «قبل أن يطوي النسيان نقاشنا هذا، أريد أن أسديك نصيحة يا سيدتي، نصيحة نابغة من القلب. أحب سيدي، ويجدر بك ألا تعبثي مع رجل عاشق. إذا تدخلت في شؤوني، أو شؤون سيدي، فسأبذل كل ما بوسعي في سبيل جعلك أتعس متطفلة في تكساس. هذا وعدي الصادق لك».

ركضتُ نحو موقف السيارات، ركضت على نحو أخرق، كشخص لم تعتد ساقاه سوى المشي بتؤدة منذ مدة طويلة. بدت تجسيدا لسنّها بتنورتها البنية التي تبلغ منتصف ساقها وجوربها الذي بلون جلدها وحذاءها البني الممل. وبدأ شعرها ينحل من عقدته التي على شكل كعكة، لا بد أنها كانت تتركه منسدلاً ذات يوم، على النحو الذي يحبه الرجال، لكن ذلك كان منذ أمد بعيد.

هتفتُ خلفها: «طاب يومك!».

جاءت سيدي إلى المطبخ وأنا أفرغ الأشياء في وعاء الثلج.

- غبتَ مدة طويلة. بدأتُ أقلق.

- انشغلت بالكلام. تعرفين الحال في جودي، دومًا تجددين شخصًا

تتجاذبين أطراف الحديث معه.

ابتسمتُ. صارت تبتسم بسهولة نسبيًا.

- إنك رجل لطيف.

شكرتُ سيدي وقلت لها إنها فتاة لطيفة. تساءلت عما إذا كانت ستحدث كالتروب مع فريد ميلر، عضو مجلس إدارة المدرسة الآخر الذي يرى نفسه وصيًا على أخلاق سكان البلدة. استبعدتُ ذلك. فأنا لم أكشف لها عن معرفتي بطيش صباها فحسب، بل وأخفتها أيما خوف. نجح التخويف مع دي موهرنشيلدت، ونجح معها. إخافة الناس عمل قذر، لكن لا بد منه أحيانًا.

سارت سيدي عبر المطبخ وأحاطتني بذراعها. «ما رأيك في عطلة نهاية أسبوع في بيت ضيافة كاندلوود قبل بدء المدرسة؟ كالأيام الخوالي. أظن هذا الاقتراح جريئًا من سيدي، أليس كذلك؟».

عانقتها قائلاً: «حسنًا، هذا يتوقف على ما إذا كنا نتحدث عن عطلة نهاية أسبوع محمومة قذرة».

احمر وجهها خجلًا، باستثناء ما حول الندبة، حيث ظل الجلد أبيض لامعًا. قالت: «قذرة جدًا يا سنيور».

- يُستحسن أن نستعجل إذن.

في الواقع لم تكن عطلة نهاية أسبوع قدرة، إلا إذا كنتم تظنون، مثل جيسكا ومَن هم على شاكلتها، أن ممارسة الحب قدرة. صحيح أننا أمضينا معظم الوقت في الفراش، لكن أمضينا وقتًا طويلًا بالخارج أيضًا، لم تكل سيدي أو تمل من المشي، وكان هناك حقل شاسع مفتوح على جانب تل خلف كاندلوود، قضينا فيه معظم عصر يوم السبت. استطاعت سيدي معرفة أسماء بعض الأزهار: الزنجبيل الإسباني، والخشختش الشوكي، وشيء يطلق عليه اسم اليوكا. لكنها اكتفتُ بهز رأسها أمام أخريات، ثم انحنت لتشم أي أريج يمكن شمه. مشينا يدًا بيد والأعشاب الطويلة تداعب بنطالينا وفوقنا الغيوم سابحة في سماء تكساس. امتدت خطوط طويلة من الضوء والظل على الحقل. وهبت نسائم باردة في ذلك اليوم، ولم نلاحظ في الهواء روائح تكرير النفط. عند قمة التل استدرنا ونظرنا إلى الخلف، فلاحَ لنا بيت الضيافة صغيرًا ضئيلًا بين الشجيرات المتفرقة، وبدأ الطريق كشريط حريري.

اقتعدتُ سيدي الأرض، ضمت ركبتيها إلى صدرها، وشابكت ذراعيها حول ساقها. قعدتُ بجانبها.

- أريد أن أسألك عن أمر.

- حسنًا.

- ليس عن... كما تعرف، المكان الذي جئتُ منه... هذا موضوع أكبر مما أستطيع التفكير به الآن. أريد أن أسألك عن الرجل الذي جئت لتوقفه، الذي قلت إنه سيقتل الرئيس.

فكرتُ بكلامها.

- هذا موضوع حساس يا عزيزتي. أتذكركين أنني قلت لك إنني قريب من آلة ضخمة ذات أسنان حادة؟

- نعم...

- قلتُ إنني لن أسمح لك بالوقوف بجانبى وأنا أعافرها. ما أخبرتك به سلفاً أكثر مما قصدتُ، وعلى الأرجح أكثر مما ينبغي لي الإفصاح عنه. لأن الماضي لا يريد أن يُغيّر، يقاوم عندما أحاول، وكلما كُبر التغيير المحتمل، ازدادت المقاومة. لا أريد تعريضك لأي أذى.

قالت بصوت خافت: «تعرضتُ لأذى سلفاً».

- هل تسألينني عما إذا كان ذلك خطئي؟

وضعتُ يدها على خدي.

- لا يا عزيزي، لا.

- حسناً، ربما كان خطئي، جزئياً على الأقل. ثمة شيء اسمه أثر الفراشة...

كانت مئات الفراشات ترفرف فوق المنحدر أمامنا، كأنها تقدم شرحاً توضيحياً لما نقوله.

- أعرف أثر الفراشة، كتب راي برادبُري قصة عنه.

- حقاً؟

- عنوانها "صوت الرعد"، قصة جميلة ومزعجة جداً. لكن يا جيك، جوني كان مجنوناً قبل دخولك المشهد بمدة طويلة. كنتُ قد تركته قبل دخولك المشهد. وإذا لم تظهر أنت، لربما ظهر رجل آخر، وأنا متأكدة أنه لما كان لطيفاً مثلك، لكن ما أدراني؟ أليس كذلك؟ الزمن شجرة ذات فروع كثيرة.

- ماذا تريدان أن تعرفني عن الرجل يا سيدي؟

- سبب عدم اتصالك بالشرطة، مع إخفاء هويتك بالطبع، والإبلاغ عنه.

اقتلعتُ حفنةُ عشبٍ ورحتُ أمضغها بينما أفكر في ذلك. وخطر لي أولاً كلامُ قاله دي موهرنشيلدت في موقف سيارات مونتغمري: إنه قروي شبه متعلم، لكنه واسع الحيلة على نحو مدهش.

كان تقييماً جيداً. هرب لي من روسيا عندما ملّ منها، وسيكون واسع الحيلة بما يكفي أيضاً للهروب من مستودع الكتب بعد إطلاق النار على الرئيس رغم الاستجابة الفورية من الشرطة والخدمة السرية. ستكون استجابة فورية، بالطبع، فكثير من الناس سيرون المكان الذي يُطلق منه النار تحديداً.

سوف يُستجوب لي تحت تهديد السلاح في غرفة استراحة بالطابق الثاني حتى قبل وصول الموكب المسرع بالرئيس المحتضر إلى مستشفى باركلاند. ولاحقاً سوف يتذكر الشرطي الذي استجوبه أن الشاب كان عقلانياً ومُقنعاً. وحالما يشهد رئيس العمال روي ترولي لصاحبه بوصفه أحد موظفيه، سيُخلي الشرطي سبيل أوزي الأرنب ويهرع إلى الطابق الأعلى بحثاً عن مصدر الطلقات. كان من المحتمل تصديق أن لي، لولا مواجهته مع شرطي الدورية تيبِت، لربما لم يُقبَض عليه لأيام أو أسابيع.

- سيدي، رجال شرطة دالاس سوف يصدمون العالم بعدم كفاءتهم. سأكون مجنوناً إذا وثقت بهم. وربما لا يستجيبون لاتصال من مجهول.

- لم لا؟ لمَ قد لا يستجيبون؟

- الآن لأن الرجل ليس موجوداً في تكساس، ولا ينوي العودة. بل يخطط للانشقاق والهروب إلى كوبا.

- كوبا؟ لماذا كوبا بحق السماء؟

هززت رأسي.

- لا يهم، لأنه لن ينجح. وسوف يعود إلى دالاس، لكن دون أن تكون له أي خطة لقتل الرئيس. حتى إنه لا يعرف أن الرئيس قادم إلى دالاس. كينيدي نفسه لا يعرف، لأن الرحلة لم تُدرج في جدول أعماله بعد.

- لكن أنت تعرف.

- أجل.

- لأن كل هذا مكتوب في كتب التاريخ في الزمن الذي جئت منه.

- الخطوط العريضة، أجل. عرفتُ التفاصيل من صديقي الذي أرسلني إلى هنا. سوف أروي لك القصة الكاملة ذات يوم عندما ينتهي كل هذا، ليس الآن، ليس الآن والآلة ذات الأسنان تدور بطاقتها القصوى. إليك الأمر المهم: إذا استجوبت الشرطة الرجل في أي وقت قبل منتصف نوفمبر، فسيبدو بريئاً براءة تامة، لأنه سيكون بريئاً حقاً عندئذٍ.

مر فوقنا ظل غمامة ضخمة، فخفض درجة الحرارة قليلاً لوهلة. تابعتُ: «حسبما أعرفه، ربما لم يُحسم أمره تمامًا حتى لحظة ضغط الزناد».

قالت متعجبة: «تتكلم كأن ذلك حدث سلفاً».

- أجل، حدث في عالمي.

- ما الأمر المهم بشأن منتصف نوفمبر؟

- في السادس عشر، ستخبر صحيفة مورننغ نيوز سكان دالاس عن موكب كينيدي الذي سيُمر بالشارع الرئيسي. ولـ... الرجل سيقراً الخبر ويدرك أن السيارات ستُمر جوار المكان الذي يعمل فيه. على الأرجح سيعتقد أن حدث مرور موكب الرئيس رسالة من الرب، أو ربما من شبح كارل ماركس.

- أين سيكون مكان عمله؟

هززت رأسي مرة أخرى. لم يكن من مصلحتها أن تعرف هذه المعلومة. وبالطبع لم يكن من مصلحتها أن تعرف أيًا مما قلته لها، ورغم هذا (قلتُها من قبل، لكنها تستدعي التكرار)، من المريح أن أخبر شخصًا آخر ولو بجزء مما أعرفه.

قالت: «إذا تحدثت الشرطة معه، فربما يخيفونه على الأقل فلا يفعلها».

كانت محقة. لكنها مخاطرة مرعبة. خاطرتُ سلفًا بالحديث مع دي موهرنشيلدت، لكن دي موهرنشيلدت كان يريد عقود التنقيب عن النفط. كما إنني لم أخفه فحسب، بل كِدْتُ أن أفقده صوابه من الخوف. ورأيت أنه سيتكتم على ما دار بيني وبينه. أما لي...
أمسكت بيد سيدي.

- الآن أستطيع التنبؤ بالمكان الذي سيذهب هذا الرجل إليه كما أستطيع التنبؤ بوجهة قطار، لأنه لا يستطيع الخروج عن مساره. لكن حالما أظهر في المشهد، حالما أتدخل، فكل الاحتمالات واردة الحدوث.

- ماذا لو تحدثت معه بنفسك؟

برقتُ في ذهني صورة كابوسية. رأيتُ لي يقول لرجال الشرطة: الفكرة أدخلها في رأسي رجلُ اسمه جورج أمبرسون. لولاه لما خطرت لي قط.

- لا أظن أن حديثي معه قد يُفلح.

سألتني بصوت خافت ناعم: «هل ستضطر إلى قتله؟».

لم أرد. وعدم ردِّي كان ردًا في حد ذاته بالطبع.

- هل تعرف حقًا أن هذا سيحدث؟

- نعم.
- كما تعرف أن توم كُيس سيفوز بالنزال يوم التاسع والعشرين؟
- نعم.
- رغم أن كل من يعرف الملاكمة يقول إن تايجر سيقتله.
- ابتسمتُ.
- إذن تقرئين الصفحات الرياضية في الآونة الأخيرة.
- أجل، أقرأها.
- أخذتُ قطعة العشب من فمي ووضعتها في فمها، وتابعت: «لم أذهب قط إلى نزال ملاكمة، هل ستصطحبني؟».
- ليس عرضًا مباشرًا. سيعرض النزال على شاشة تلفاز ضخمة.
- أعرف. هل ستصطحبني؟

9

حضرت نساء جميلات كثيرات في صالة دالاس ليلة النزال، لكن سيدي نالت حصّة عادلة من نظرات الإعجاب. استعدّتي جيدًا للمناسبة، لكن المكياج، مهما بلغت المهارة في استخدامه، ما كان ليخفي ندبتها تمامًا. وكان لفستانها الدور الأكبر في حُسن مظهرها، بفتحة عنق منخفضة، وانساب بسلاسة مع شكل جسدها.

اللمسة البارة كانت قبعة فيدورا مبطنة أعطتها إياها إيلين دوكرتي، عندما أخبرتها سيدي بأنني طلبت منها مرافقتي إلى النزال. كادت القبعة أن تطابق قبعة إنغريد بيرغمان التي اعتمرتها في المشهد الأخير من فيلم كازابلانكا. بميلانها العفوي أظهرت وجه سيدي على نحو مثالي... وبالطبع كانت مائلة إلى اليسار، راسمةً مثلث ظل على خدّها المصاب. كانت القبعة أفضل من أي مكياج. عندما خرجتُ من

غرفة النوم مستطلعة رأيي، قلت لها إنها تبدو فاتنة حقًا. وأدركتُ من الارتياح الذي ارتسم على وجهها وبريق الحماسة في عينيها أنها عرفت أنني لم أجاملها لأرفع معنوياتها فحسب.

وجدنا زحامًا شديدًا في الشوارع المؤدية إلى دالاس، وبحلول وقت وصولنا إلى مقعدينا، كان النزال الثالث من أضل خمسة نزالات قد بدأ: رجل أسود ضخّم ورجل أبيض أضخم منه ينهالان ضربًا على بعضهما ببطء والجمهور يهتف. رأينا أربع شاشات هائلة فوق الأرضية اللامعة حيث يلعب فريق دالاس سبرز (بأداء سيئ) مباريات موسم كرة السلة. عُرضت الصورة بعدة أنظمة عرض خلفي. ورغم أن الألوان بدت معتكرة، بدائية، فالصور نفسها كانت واضحة رائعة. أثارت إعجاب سيدي. وفي الحقيقية أثارت إعجابي أيضًا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

سألتني: «هل أنت متوتر؟».

- نعم.

- رغم أنك...

- رغم ذلك. عندما راهنتُ على فوز بايرتس ببطولة العالم عام 1960، كنت أعرف فوزهم يقينًا. أما هنا فأعتمد اعتمادًا كاملاً على ما كتبه صديقي، الذي أخذ المعلومة من الإنترنت.

- وما هذا بحق السماء.

- خيال علمي. مثل راي برادبري.

- أوه... حسنًا.

وضعتُ أصابعها بين شفثيها وأطلقت صفييرًا: «أنت! بائع الجعة!». اقترب بائع الجعة، وكان يرتدي صدرية وقبعة رعاة بقر وحزامًا تقليديًا مرصعًا بالفضة، وباع لنا قنينتي لون ستار (زجاجيتين، ليستا

بلاستيكيتين) مع كوبين ورقيين فوق عنقيهما. أعطيته دولارًا وقلت له أن يحتفظ بالباقي.

أخذت سيدي قنينتها ولمست بها قنينتي، وقالت: «حظًا طيبًا».

- إذا احتجتُ إلى الحظ، فأنا في ورطة شائكة.

أشعلتُ سيجارة، فانضم دخانها إلى غلالة الضباب الأزرق المحيطة بالمصاييح. كنت جالسًا إلى يمين سيدي، ومن مكاني بدت مثالية.

نقرتُ على كتفها، وعندما التفتت قبلتها قبلة خفيفة على شفيتها المتباعدتين قليلًا. وقلت: «مهما يحدث، لدينا ذكرياتنا دومًا».

ابتسمتُ. «هنا في جودي بتكساس».

تصاعد تأوه من الجمهور، إذ أسقط الملاكُ الأسودُ الأبيض على مؤخرته.

10

بدأ النزال الرئيسي عند التاسعة والنصف. امتلأت الشاشات بلقطات مقربة لوجهي الملاكمين، وعندما رگزت الكاميرا على توم كيُس، انقبض قلبي، إذ رأيت خصلات بيضاء في شعره الأسود المجعد، وخداه أسفلهما لغدان، وجلد جذعه متهدل فوق سرواله القصير. والأسوأ من كل ذلك عيناه الحائرتان وحولهما جلد متهدل كثير الندوب. لم يبد الرجل متأكدًا تمامًا من مكانه وما يجري حوله. وهتف له معظم الجمهور، البالغ عدده قرابة ألف وخمسمئة، توم كيُس ابن البلدة رغم كل شيء، لكن سمعت هتافات استهجان أيضًا. بدا كيُس، وهو جالس ذابلًا على مقعده، ممسكًا الحبال بقفازيه، كأنه هُزم سلفًا. أما ديك تايفر، فقد كان واقفًا ويلاكم الهواء ويتقافز برشاقة بسرواله الأسود القصير.

مالت سيدي مقربة مني وهمست: «هذا لا يبدو جيدًا يا عزيزي».

"لا يبدو جيداً" كان أخف تعبير يصف الوضع. بدا كارثياً.

عند المقاعد الأمامية بالأسفل (حيث لا بد أن الشاشة تبدو كجرف تُسْقَط عليه صور ضبابية لأشخاص يتحركون)، رأيت أكيفا روّث يرافق حسناء، ترتدي نظارة داكنة ماركة غاربو وعلى كتفها شال من الفرو، إلى مقعد لكان جوار الحلبة، لو لم يكن النزال على شاشة. ومن المقعد الذي أمامنا التفت رجل بدين يدخن سيجاراً وقال: «مَن تشجعين أيتها الجميلة؟».

قالت سيّدي بشجاعة: «كَيْس!».

ضحك مدخن السيجار البدين.

- حسناً، إنك طيبة القلب. أتودين المراهنة بعشرة دولارات؟

- هل ستعطيني نسبة أربعة إلى واحد؟ إذا فاز كَيْس عليه بالضربة القاضية؟

- إذا فاز كَيْس على تايفر بالضربة القاضية؟ موافق يا سيّدي.

مد يده، فصافحته سيّدي، ثم التفتت إليّ بابتسامة تحدّ تتراقص عند طرف فمها الذي ما زال سليماً.

قلت: «قرار جريء».

قالت: «لا، إطلاقاً. تايفر سيسقط في الجولة الخامسة. يمكنني رؤية المستقبل».

11

ظهر مذيع الحلبة، مرتدياً بدلة أنيقة وعلى شعره رطل من مستحضرات التجميل، وسار متهادياً إلى منتصف الحلبة، وجذب ميكروفوناً معلقاً بسلك فضي، واستعرض إحصائيات الملاكمين بصوت ممطوط. ثم بدأ النشيد الوطني. فنزع الرجال قبعاتهم ووضعوا أيديهم

على قلوبهم. أحسست بنبضات قلبي قوية متسارعة، مئة وعشرون نبضة في الدقيقة على الأقل، وربما أكثر. كانت الصالة مكيفة الهواء، لكن العرق سال على مؤخر عنقي وبلل إبطي.

سارت فتاة ترتدي ملابس سباحة وتنتعل كعبًا عاليًا حول الحلبة، رافعة بطاقة مكتوب عليها الرقم 1.

رن الجرس. وجر جر توم كييس قدميه إلى منتصف الحلبة وعلى وجهه تعابير الاستسلام، ووثب ديك تايفر سعيدًا لملاقاته، موه بيميناه، ثم سد بيسراه لكمة جانبية مُحكمة أسقطت كييس ولم يمض على بدء النزال سوى اثنتي عشرة ثانية. تصاعدت من الجمهور، الحاضر هنا والآخر في ماديسون سكوير غاردن على بُعد ألفي ميل، صيحات اشمئزاز. واليد التي وضعها سيدي مسترخية على فخذي بدت كأنما نبتت لها مخالب.

قال مدخن السيجار البدين جدلاً: «ودّعي دولاراك العشرة يا جميلة».

آل، ماذا دهاك بحق الجحيم؟!

بينما عاد ديك تايفر إلى زاويته ووقف عندها لا مباليًا متقافزًا على أمشاط قدميه، بدأ الحكم العد وهو يرفع ذراعه اليمنى وينزلها على نحو درامي، عندما وصل إلى ثلاثة، تحرك كييس. وعند خمسة، اعتدل جالسًا، وعند سبعة جثا على ركبته. وعند تسعة نهض واقفًا ورفع قفازيه. وضع الحكم يديه حول وجه كييس وطرح عليه سؤالًا، وأجاب كييس. فأومأ الحكم، وأشار لتايفر، وانتحى جانبًا.

ربما كان تايفر يستعجل اللحاق بعشاء دسم في انتظاره بمطعم ساردي، إذ اندفع مهرولاً للقتال. لم يحاول كيس تفاديه، إذ فقد سرعته منذ أمد طويل، ربما في أثناء نزال في بلدة صغيرة ما، ربما مولين بولاية إلنوي، أو نيو هيفن بولاية كونيتيكت. لكنه استطاع حماية نفسه بذراعيه... والتشبث بخصمه. فعل هذا كثيرًا، ظل يسند رأسه إلى كتف

تايغر كأنه راقص تانغو مرهق، ويضرب ظهر تايغر ضربات واهنة. بدأ الجمهور يطلق صيحات الاستهجان. وعندما رن الجرس ترنح كيُس إلى مقعده مطأطئاً رأسه وقبضتاه متدلّيتان، تعالت صيحات الاستهجان.

علّق البدين: «إنه في حالة مزرية يا جميلة».

نظرت سيدي إلّي قلقة. «ما رأيك؟».

- أرى أنه نجح في تجاوز الجولة الأولى، على أي حال.

رأيت حقاً كان أنه ينبغي لأحد أن يقحم وتدّاً في توم كيُس، لأن أمره انتهى تقريباً حسبما بدا لي.

ظهرت الفتاة في الحلبة، وهذه المرة رفعت الرقم 2. رن الجرس، ومرة أخرى هاجم تايغر ودافع كيُس. واصل رجلّي الاقتراب من خصمه حتى يتشبث به متى ما سنحت له الفرصة، لكن لاحظت أنه تمكن من التصدي للكمة الجانبية التي دمّرتة في الجولة الأولى. انهال تايغر بيميناه على بطن الملاكم العجوز بلكمات متلاحقة كأنها أسطوانة محرك، لكن لا بد أن ذلك الجلد المتهدل كان يخفي تحته عضلات قوية، إذ لم يبدُ كيُس قد تأثر كثيراً. في مرحلة ما دفع تايغر كيُس بعيداً وأشار له بقفازيه أن هُلم، هُلم. هتف الجمهور. لكن كيُس اكتفى بالتحديق، فاندفع تايغر نحوه، وتشبث كيُس فوراً. تأوه الجمهور. ثم رن الجرس. تدمر مدخن السيجار: «لاستطاعت جدّتي تقديم عرض أفضل».

أشعلت سيدي سيجارتها الثالثة منذ بدء النزال وقالت: «ربما. لكنه ما زال واقفاً على قدميه، أليس كذلك؟».

قال مقهقها: «لن يظل واقفاً مدة طويلة. عندما تصيبه إحدى اللكمات الجانبية اليسارية، سيُقضى أمره».

شهدت الجولة الثالثة مزيداً من التشبث والمراوغات، لكن في الرابعة، تخلى كيُس عن حذره قليلاً، فانهال تايغر على رأسه بوابل من اللكمات،

ونفض الجمهور هادرًا. كانت خلية أكيفا روث معه، وروث نفسه ظل جالسًا، لكنه كلّف نفسه الإمساك بردف خليلته بيده اليمنى التي يظهر عليها الخاتم.

تهالك كئُس على الحبال، مسدّدًا بيميناه لكلمات، اخترقت إحداها ذراعَي تايفر، بدت لكمة واهنة، لكنني رأيت العرق يتطاير من شعر تايفر وهو يهز رأسه، وارتسمت على وجهه حيرة وتساؤل: من أين جاءت هذه اللكمة؟ ثم اندفع مهاجمًا مجددًا. بدأت الدماء تنز من جرح بجانب عين كيس اليسرى، وقبل أن يفاقم تايفر الضرر من تقاطُر إلى تدفق، رن الجرس.

قال مدخن السيجار البدين: «إذا ناولتني العشرة الآن يا جميلة، فستتمكنان من تفادي الزحام المروري لاحقًا».

قالت سيّدي: «أمنحك فرصة لإلغاء الرهان حتى توفر على نفسك أربعين دولارًا».

ضحك مدخن السيجار البدين: «جميلة ومرحة. إذا كان رفيقك الطويل هذا يسيء معاملتك، تعالي معي إلى المنزل».

في زاوية كيس كان مدربه يعمل جاهدًا على معالجة عينه المصابة، ضغط أنبوبًا صغيرًا فخرج منه كريم، ومسحه بأطراف أصابعه. بدا لي كالصمغ اللاصق كريزي غلو لكن استبعدت أن يكون قد اخترع عندئذٍ. ثم ربّت خد كيس بمنشفة رطبة. رن الجرس.

استأنف دك تايفر ضرباته العنيفة، لكلمات مستقيمة خاطفة بيميناه، وجانبية بيسراه. زاغ كيس من لكمة جانبية يسارية، وللمرة الأولى في النزال، سد تايفر بيميناه لكمة صاعدة نحو رأس العجوز. استطاع كيس التراجع بالكاد ونجح في تفادي كامل قوة اللكمة الموجهة إلى فكه، لكنها لامست خده، فجعلت وجهه كله يتشوه بتعابير رعب. تقهقر كيس مترنحًا. وواصل تايفر هجومه. نهض الجمهور مجددًا، وارتفع

زئيرهم متعطشين للدماء. نهضنا معهم، ولاحظت أن سيدي وضعت يديها على فمها.

حاصر تايفر كيُس عند زاوية محايدة وأمطره بلكمات بيميناه ويسراه. رأيت كيُس خائر القوة، ورأيت عينيه تخبُوان، وتوقعت أن تنطفئا إثر لكمة جانبية يسارية، أو يمينية ساحقة.

صرخ مدخن السيجار البدين: «اطرحه أرضاً! اقضِ عليه يا دكي! اقتلع رأسه!..».

وجّه تايفر لكمة منخفضة، تحت الحزام، ليس عمداً على الأرجح، لكن الحكم تدخل، وفي أثناء تحذيره تايفر من الضربات المنخفضة، تابعتُ كيُس لأرى كيف سيستغل مدة الاستجمام الوجيزة هذه، فرأيت تغيُّراً اعتري وجهه، تعابير أعرفها، رأيتها على وجه لي يوم وبَّخ مارينا بشأن سَحَاب تنوُّرتها، وظهرت على وجه مارينا عندما عادت إليه، متهمة إياه بأنه جلبها ورضيعتها إلى حظيرة خنازير ثم حرَّكت إصبعها حركة دائرة حول أذنها بإشارة تقول أنت مجنون.

فجأة لم يعد هذا مجرد يوم قبض أموال في نظر توم كيُس.

انتحى الحكم جانباً. واستأنف تايفر هجومه مجدداً، لكن هذه المرة تقدم كيس لملاقاته. وما جرى في الثواني العشرين التالية كان أشد مشهد عنفاً وإثارة رأيتُه في حياتي بوصفي فرداً في جمهور. وقف الاثنان وجهاً لوجه، وكالا لبعضهما اللكمات على الوجه والصدر والكتفين والبطن. ما من مراوغات ولا فنِّيات ولا حركات أقدام مدروسة. كانا ثورين في مَرعى. انكسر أنف كيُس وتدفقت منه الدماء. وشُقَّت شفة تايفر السفلى وسالت دماؤها من جانبي فكه، فبدا كمصاص دماء إثر تناوله وجبة كبيرة.

كل من في الصالة نهض صارخًا. وتقاظت سيدي في مكانها، سقطت قبعتها، كاشفةً عن ندوب خدها، لكنها لم تلاحظ. ولم يلاحظ أي أحد آخر. كانت الحرب العالمية الثالثة مستعرة على الشاشات العملاقة.

خفض كيُس رأسه ليتلقى قذيفة يمينية من تايغر، ثم رأيت تعابير الألم على وجه تايغر في أثناء توجيه لكمة أخرى، وتقهرق خطوة، وعندئذٍ أطلق كيُس لكمة صاعدة ماحقة، أدار تايغر رأسه، متفاديًا قوتها الكاملة، لكن واقي أسنانه طار من فمه وتدرج على أرضية الحلبة.

تقدم كيس مهاجمًا، موجَّهًا ضربات عشوائية بيمينه ويسراه، كانت ضربات غضب وقوة محضة. تراجع تايغر، وتعثّر بقدميه، وسقط. وقف كيس فوقه، وبدا غير متأكد مما عليه فعله، وربما غير مدرك لمكانه. ثم لمح بطرف عينه إشارات مدربه المهتاج، فسار مترنحًا إلى زاويته. وبدأ الحكم العد.

عندما وصل إلى أربعة، اعتدل تايغر جاثيًا على ركبته، وعند ستة نهض واقفًا على قدميه. وبعد العد الإجباري إلى ثمانية، استؤنف القتال. نظرتُ إلى الساعة الكبيرة في ركن الشاشة فرأيت أن الجولة ستنتهي بعد خمس عشرة ثانية.

ليست كافية، ليست وقتًا كافيًا.

تقدم كيُس ببطء. سدّد تايغر يساريته الجانبية المدمرة، وحرك كيُس رأسه جانبًا، وحالما مر القفاز أمام وجهه، صوّب لكمة بيمينه، وهذه المرة تشوهت معالم وجهه بك تايغر، وعندما سقط لم ينهض.

نظر البدين إلى بقايا سيجاره، ثم قذفه على الأرض قائلاً: «رباه!». صاحت سيدي مبتهجة: «أجل! رباه!». وعدلت قبعتها فوق رأسها بالميلان المناسب. «والآن ادفع!».

عندما وصلنا إلى جودي كان التاريخ قد تغير من 29 أغسطس إلى 30 أغسطس، لكن كلينا كان متحمسًا فعجزنا عن النوم. مارسنا الحب، ثم خرجنا إلى المطبخ وتناولنا فطيرة بملابسنا الداخلية. قلت: «حسنًا، ما رأيك؟».

- رأيي أنني لا أريد الذهاب إلى نزال ملاكمة مرة أخرى أبدًا. إنه توحُّش. وأنا كنت واقفة وأهتف مع بقية الجمهور. ولبضع ثوان، أو ربما دقيقة كاملة، أردتُ أن يقتل كيس ذلك المتراقص المتعجرف. ثم لم أستطع الانتظار حتى نعود وأقفز معك إلى الفراش. تلك لم تكن ممارسة حب يا جيك، بل رغبة حارقة. لذت بالصمت. أحيانًا ما من كلام يُقال.

مدت يدها فوق الطاولة، والتقطت فتاة خبز من ذقني، ووضعتها في فمها. ثم قالت: «قل لي إن دافعك ليس الكراهية».

- دافع ماذا؟

- رغبتك في إيقاف ذلك الرجل بنفسك.

رأيتني أفتح شفتي فرفعت يدها لتسكتني، وتابعَتْ: «سمعتُ كل ما قلته، كل أسبابك، لكن عليك أن تخبرني بأنها أسبابك الحقيقية، وليس ما رأيته في عيني كيُس عندما ضربه تايجر تحت الحزام. أستطيع أن أحبك إذا كنت رجلًا، وأستطيع أن أحبك إذا كنت بطلًا، على ما أظن، لكن لسبب ما يبدو لي هذا أكثر صعوبة، لكن لا أظنني أستطيع أن أحب شخصًا يريد تطبيق القانون بيديه».

تذكرتُ نظرات لي إلى زوجته عندما لا يكون غاضبًا منها. وتذكرت المحادثة التي سمعتها خلسة عندما كان يلعب مع ابنته الصغيرة في

الحمام. وتذكرت دموعه في موقف الحافلات، عندما حمل جون ودغدها تحت ذقنها قبل رحيله إلى نيو أورلينز.

قلت: «ليس الكراهية. أحس تجاهه ب...» حارثُ كلماتي. وظلّت سيدي تنتظر بقية الكلام. «بالأسف على إهدار حياته. لكن المرء يحس بالأسف تجاه كلب مسعور، وهذا لا يمنعه من قتله».

نظرتُ إلى أعماق عيني، وقالت: «أريدك مرة أخرى. لكن هذه المرة تنبغي أن تكون من أجل الحب، عرفت؟ ليس لأننا شاهدنا للتو رجلين يتقاتلان وفاز رجلنا».

قلت: «حسنًا، حسنًا. هذا تفكير جيد».

وكانت اللحظات التالية جيدة.

13

دخلت مكتب الرهن قرابة الظهر يوم الجمعة، وقالت ابنة فرانك فراتي: «ها قد أتى العرّاف ذو لكنة نيو إنغلاند». ابتسمت لي ابتسامة مشرقة، ثم التفتت وصاحت: «أبي! جاء رجل توم كيّس!».

خرج فراتي مجرّجًا قدميه، وقال: «مرحبًا أمبرسون. عظيم الشأن كالحياة ووسيم كالشيطان في ليلة سبت. أراهن أنك تحس بالانتعاش اليوم، أليس كذلك؟».

- بالطبع. لِمَ لا؟ نِلْتُ ضربة حظ.

- أنا من نال الضربة.

أخرج من جيب بنطاله الفضيّاض ظرفًا بُنيًّا أكبر قليلًا من الحجم القياسي، وقال: «ألفا دولار. لك أن تحسبها».

- لا بأس. أثق بك.

مد الظرف نحوي، ثم سحبه ونقر به ذقنه، ونظر إلي بعينه الزرقاوين الماكرتين نظرة تقييم.

- هل لديك اهتمام بإعادة المراهنة بهذا المبلغ؟ اقترب موسم كرة القدم. بطولة كبيرة.

- لا أعرف شيئًا عن كرة القدم، لا تهمني. ناولني الظرف.
ناولني إياه.

قلت: «سررت بالتعامل معك». وخرجت من المحل. شعرتُ بأعينهما تتبعني، وعندئذٍ داهمني إحساس ديجا فو بغيض، لم أستطع تحديد سببه. ركبْتُ سيارتي، أملًا ألا أعود أبدًا إلى تلك المنطقة من فوت وورث، أو إلى جادة غرينفيل في دالاس، أو أرتبُ رهانًا آخر مع وكيل مراهنات اسمه فراتي.

كانت أمنياتي الثلاث، وتحققت كلها.

14

محطتي التالية كانت المنزل رقم 214 بشارع ويست نيلي. كنت قد اتصلت بصاحب المنزل وأخبرته أن أغسطس سيكون آخر شهر لي، حاول إقناعي بالعدول عن الرحيل، قائلًا إن من الصعب العثور على مستأجرين جديدين مثلي. وهذا كان صحيحًا على الأرجح، فالشرطة لم تأت إلى منزلي قط، رغم زياراتهم الكثيرة إلى الحي، لا سيما في عطلات نهاية الأسبوع. لكن أظن أن سبب تمسُّكه بي هو وفرة الشقق وندرة المستأجرين، دالاس كانت تمر بإحدى فترات كسادها.

توقفت عند مصرف فيرست كورن في طريقي وأودعت ألفي فراتي في حسابي. وهذا كان من حُسن حظي. أدركتُ لاحقًا، متأخرًا جدًّا، أنني كنت لأفقد نقودي إذا حملتها معي إلى شارع نيلي.

خطتي كانت تفقد جميع أنحاء الشقة بحثًا عن أي شيء يخصني ربما تركته خلفي، مع التركيز على أماكن مثل تحت وسائد الأريكة، وتحت السرير، والجزء الخلفي من أدراج المكتب. وبالطبع قررتُ أخذ مسدسي. سوف أحتاج إليه للتعامل مع لي. عندئذٍ عقدتُ عزمي على قتله، في أقرب وقت ممكن بعد عودته إلى دالاس. وفي الوقت الراهن أردتُ ألا أترك خلفي أثرًا لجورج أمبرسون.

عند اقترابي من شارع نيلي، اشتد إحساسي بوجودي عاليًا في غرفة تتردد فيها الأصدااء الزمنية. ما فتئتُ أفكر بالرجلين اللذين اسمهما فراتي، أحدهما زوجته اسمها مارجوري، والآخر ابنته اسمها واندا.

مارجوري: بالكلام العادي الصريح، هل تتحدث عن رهان؟

واندا: دون تنكُّر ومساحيق تجميل، هل تنوي ترتيب رهان؟

مارجوري: أنا جيه إدغار هوفر يا بُني.
واندا: أنا كاري مدير شرطة دالاس.

وماذا إذن؟ كان أحد إيقاعات التناغم، من الآثار الجانبية للسفر عبر الزمن.

رغم ذلك بدأ جرس إنذار يرن في أعماق عقلي السحيقة، ثم طفا إلى السطح عندما انعطفت إلى شارع نيلي. التاريخ يعيد نفسه، الماضي يتناغم. هذا كان محور ذلك الإحساس... لكن ثمة شيئًا خفيًا لم أستطع تفسيره. وعند توقفي أمام المنزل الذي وضع فيه لي خطته الفاشلة

لاغتيال إدوين ووكر، أصغيتُ جيدًا إلى جرس الإنذار، إذ صار قريبًا، مدويًا.

حضر أكيفا روث النزال، لكن ليس وحده، كانت معه حسناء ترتدي نظارة شمسية ماركة غاربو وشال فرو. لم يكن طقس أغسطس يتطلب شالًا من الفرو في دالاس، لكن الصالة مكيفة الهواء. ربما أرادت أن تبدو لافتة فحسب.

إذا استبعدتُ النظارة الداكنة، والشال، فمن سأرى؟

للحظة في أثناء جلوسي في سيارتي، مستمعًا إلى صوت المحرك إذ بدأت حرارته تنخفض، ما زلت لم أستوعب. ثم أدركت أنني إذا استبدلت بشال الفرو بلوزة شب آند شور، فالنتيجة هي واندافراتي.

شاز فراتي ديري كان قد كلّف بيل تيركوت بمراقبتي. هذه الفكرة خطرت لي من قبل... لكنني صرفت النظر عنها. قرار خاطئ.

من الذي كلّفه فرانك فراتي فورت وورث بمراقبتي؟ لا بد أن يكون شخصًا يعرف أكيفا روث فيث فاينانشال. وروث خليل ابنة فرانك. فجأة أردتُ مسدسي، أردته فورًا.

نزلت من الشيفروليه وصعدت سلم الشرفة والمفاتيح في يدي، وكنت أحاول فرز مفتاح الباب الخارجي عندما انعطفت سيارة نقل مقفلة هادرة قادمة من جادة هاينز وتوقفت أمام المنزل رقم 214 وإطاراتها الأيسران على الرصيف.

نظرت إلى ما حولي، فلم أر أحدًا. كان الشارع مهجورًا. لا يجد المرء شخصًا عابرًا يُستنجد به عند الحاجة. ناهيك بشرطي.

أقحمت المفتاح في القفل وأدبرته، وعزمت على إغلاق الباب وإبقاء المعتدين -أيًا كانوا- بالخارج، ثم إبلاغ الشرطة عبر الهاتف. ولم أتذكر أن ما من هاتف في الشقة إلا بعدما دخلت وشممت هواءها الراكد الساخن.

ثم رأيت ثلاثة رجال ضخام يركضون عبر المرجة، أحدهم يحمل أنبوبًا قصيرًا بدا ملفوفًا بشيء.

بل أربعة. كان رابعهم أكيفا رؤث، ولم يأتِ راكضًا، إنما سار مبتسمًا بتؤدة على الممشى ويداه في جيبيه.

أغلقت الباب بعنف، وأدريت المزلاج. وما كدت أبتعد عنه حتى فُتح بعنف أشد. فركضت نحو غرفة النوم ولم أقطع سوى نصف المسافة.

15

سحبني اثنان من بلطجية رؤث إلى المطبخ. وكان الثالث هو حامل الأنبوب، الذي بدا معدنيًا مغلفًا بشريط داكن، رأيته عندما وضعه بهدوء على الطاولة حيث تناولت وجبات جيدة كثيرة. ثم ارتدى قفازين جلديين أصفرين.

ظهر رؤث عند الرواق، وهو ما يزال مبتسمًا ابتسامته الوداعة، وقال: «إدواردو غوتيريز مصاب بالزهري، وقد أثر المرض في دماغه، سيموت في غضون ثمانية عشر شهرًا. لكن أتدري أمرًا؟ إنه لا يكثرث. يعتقد أنه سيعود أميرًا عربيًا. ما رأيك؟».

الرد على أي كلام خارج الموضوع في حفلات الكوكتيل أو في وسائل المواصلات العامة أو صفوف التذاكر أمام صالة سينما ينطوي على مخاطرة ليست هينة، لكن من الصعب جدًا معرفة ما ينبغي للمرء قوله عندما يمسك به رجلان وعلى وشك تلقي الضرب من ثالث. لذا لذت بالصمت.

- ما حدث هو أن إدي غوتيريز صار مهووسًا بك. فزت برهانات ما كان ينبغي أن تفوز بها. وخسرت أحيانًا، لكن إدي لديه فكرة جنونية مفادها أنك كنت تخسر عمدًا. أتعرف؟ ثم فزت بمبلغ كبير من رهان الديربي، فرأى أنك، لا أدري، مستبصر يستطيع رؤية المستقبل. هل تعرف أنه أحرق منزلك؟

ظلمت صامتًا.

تابع روث: «ومن ثم، عندما بدأت تلك الديدان الصغيرة تنهش دماغه، بدأ يظن أنك ربما تكون غولًا أو شيطانًا. نشر تميمًا في جميع أنحاء الولايات الجنوبية والغربية والغرب الأوسط: "ابحثوا عن هذا المدعو أمبرسون، واقتضوا عليه. اقتلوه. الرجل غير طبيعي. أحسست بهذا لكنني لم أهتم. والآن انظروا إلى حالي، مريض وأحتضر. وهذا الرجل هو الجاني. إنه غول أو شيطان أو شيء ما". جنون، أليس كذلك؟».

ظلمت صامتًا.

- يا كارمو، لا أظن أن صديقي جورجي يسمع كلامي، أظنه بدأ يغفو. أيقظه.

تحرك الرجل الذي يرتدي القفاز الجلدي الأصفر، وهوى بلكمة توم كئس صاعدة على جانب وجهي الأيسر. انفجر الألم في رأسي، ولوهلة رأيت كل شيء في جانب عيني اليسرى مغلفًا بضباب أحمر.

قال روث: «حسنًا، تبدو مستيقظًا قليلًا الآن. أين توقفت؟ آه، أعرف. كنت أتحدث عن كيف أصبحت بُعبعًا لإدي غوتيريز. السبب هو الزهري، كلنا نعرف هذا. إذا لم تتسبب أنت في هوسه وفقدان صوابه، لكان السبب كلبًا ما في صالون حلاقة، أو فتاة أغرم بها في سينما سيارات عندما كان في السادسة عشرة. أحيانًا لا يتذكر عنوان منزله، ويضطر إلى الاتصال بشخص ما حتى يوصله. أمر محزن، أليس كذلك؟ السبب هو الديدان التي في رأسه. لكن جميع الناس يسايرون إدي، لأنه لطالما كان رجلًا طيبًا. كان يحب إلقاء النكات فيضحك الناس حتى ييكون. لم يصدق أحد أنك حقيقي. ثم يظهر بعبع إدي في دالاس، في مكتب رهن تابع لي. ثم ماذا يحدث؟ يراهن البعبع على فوز فريق بايرتس على اليانكيز، وهذا أمر يستبعده الجميع، وبسيناريو يستبعده الجميع».

قلت: «كان مجرد حظ. رهان نزوة لحظية».

- هذا غباء محض، والغباء لا بد من دفع ثمنه. كارمو، اكسر رضفة ركبة ابن العاهرة هذا.

قلت: «لا! لا، أرجوك لا تفعل هذا!».

ابتسم كارمو كأنني قلت كلامًا طريفًا، والتقط الأنبوب الملفوف من الطاولة، وهوى به على ركبتي اليسرى. سمعت صوتًا، كقرقرة أصابع عالية، وأحسست بألم مبرح. كتمتُ صرخة، وتهالكت مستندًا إلى الرجلين اللذين يمسكان بي، فجذباني وأوقفاني بخشونة.

ظل روث واقفًا عند الرواق، ويداه في جيبيه، مبتسمًا ابتسامته الوادعة. قال: «حسنًا، ستتورم ركبتك. لن تصدق حجم الورم. لكنك جررت هذا على نفسك. والآن إليك الحقائق يا سيديتي، ولا شيء سوى الحقائق». ضحك البلطجيان اللذان يمسكان بي. وتابع روث: «الحقائق هي أن لا أحد يرتدي ملابس كالتّي كنتَ ترتديها يوم دخلتَ محليّ يراهن كما راهنتَ، رهان النزوة اللحظية لمن يرتدي مثل ملابسك هو عشرة دولارات، عشرون على الأكثر. لكن فريق بايرتس فاز، وهذه أيضًا حقيقة. وبدأتُ أظن أن إيدي غوتيريز ربما يكون محقًا. لا أقصد أنك شيطان أو غول أو مستبصر، لا شيء من هذا القبيل، لكن ماذا عن احتمال أنك تعرف شخصًا يعرف شيئًا؟ مثل الترتيب المتعمّد لفوز بايرتس في المباراة السابعة؟».

- لا أحد يرتب البيسبول يا روث، منذ أن فعل فريق بلاك سوكس عام 1919. أنت تدير الرهانات، ولا بد أنك تعرف ذلك.

رفع حاجبيه قائلاً: «تعرف اسمي! ربما تكون مستبصرًا. لكنني لست متفرغًا اليوم كله».

ألقي نظرة على ساعته، كأنه يؤكد كلامه. كانت ساعة ضخمة، على الأرجح رولكس.

- حاولتُ رؤية عنوانك عندما جئتُ لأخذ النقود، لكنك وضعتَ إبهامك على عنوانك. لا بأس. كثيرون يفعلون هذا. قررت أن أتغاضى. هل

أرسل بعض الفتية إلى الشارع ليوسعوك ضربًا أو يقتلوك حتى يرتاح عقل إدي المضطرب؟ لأن رجلًا راهن رهانًا صعبًا وانتزع مني ألفًا ومئتي دولار؟ سحًا لذلك. ما لا يعرفه إدي لن يضره. وحتى إذا مُحيت من الوجود، فسيبدأ إدي التفكير في أمر آخر، ربما يقول إن هنري فوردي كان أني كرايست أو جنون من هذا القبيل. كارمو، إنه غير منتبه لما أقوله، مجددًا، وهذا يثير حنقي. انهال كارمو بالأنبوب على جذعي، أصابني أسفل ضلوعي بقوة تسبب الشلل. انفجر الألم، كان متقطعًا أولًا، ثم ابتلعه انفجار حراري، مثل كرة نار.

قال كارمو: «ضربة مؤلمة، أليس كذلك؟ في الموضع المناسب تمامًا».

قلت: «أظنك مزقت أحد أعضائي». سمعت صوت محرك بخاري، وأدركت أنه صوت لهاثي.

قال روث: «آمل ذلك. كنت قد تخلّيت عن ملاحقتك أيها الأبله، سحًا، تركتك وشأنك! ثم ظهرت في محل فرانك بفورت وورث لتراهن في نزال كيّس-تايغر. المفاجأة نفسها. رهان كبير بنسبة عالية على الطرف الأضعف، وهذه المرة تنبأت بالجولة اللعينة التي سيُحسم فيها النزال. لذا إليك ما سيحدث يا صديقي: ستخبرني كيف عرفت. وإذا أخبرتني، فسألتقط بضع صور لك وأنت بهذه الحالة وسيرضى إدي، لا يريد موتك، لأن كارلوس قال له لا. إدي رغم حالته لا يعمل بكلام أحد سوى كارلوس. لكن إذا رأى أنك أوسعت ضربًا... أوه، لكنك لم توسع ضربًا بما يكفي بعد. أوسعه ضربًا يا كارمو، ركّز على وجهه».

فانهال كارمو على وجهي بينما الآخرون يمسكان بي، كسر أنفي، وأغلق عيني اليسرى، وأسقط بضع أسنان، وجرح خدي جرحًا غائرًا. ظللت أقول لنفسي: سأفقد وعيي أو سيقتلونني، وفي كلتا الحالتين سيتلاشى الألم. لكنني لم أفقد وعيي، وبعد مدة توقف كارمو، لاهثًا،

وعلى قفازيه الجلديين الأصفرين قطرات دماء. رأيت أشعة الشمس تدخل عبر نوافذ المطبخ راسمة مستطيلات على مشمع الأرضية الباهت. قال روث: «هكذا أفضل. اجلب كاميرا بولارويد من السيارة يا كارمو، أسرع، أريد الانتهاء».

قبل مغادرته نزع كارمو قفازيه ووضعهما على الطاولة جوار الأنبوب الرصاصي، انحل جزء من الشريط، إذ تبلل بالدماء. نبض وجهي من الألم، وبطني كان أسوأ، حيث استمر انتشار الحرارة. استشعرت إصابة خطيرة في بطني.

- سأسألك مرة أخرى يا أمبرسون، كيف عرفت الترتيب؟ من أخبرك؟ أريد الحقيقة.

قلت: «كان مجرد تخمين». حاولت إقناع نفسي بأن صوتي بدا كصوت رجل مصاب بنزلة برد شديدة، لكن لم أقنع، بدا صوتي كصوت رجل أوسع ضربًا مبرحًا.

التقط الأنبوب ونقر به على يده الضخمة.

- من أخبرك أيها القميء؟

- لا أحد، غوتيريز كان محققًا. أنا شيطان، والشياطين يمكنهم رؤية المستقبل.

- فُرصك أوشكت على النفاد.

- واندأ أطول منك بكثير يا روث، ونحيلة جدًّا، عندما تعتليها لا بد أن تبدو كضفدع ضخم يحاول مضاجعة جذع شجرة مقطوع. أو ربما...

وجهه الوديح اكفهر غضبًا. كان تحوُّلاً فوريًّا تامًّا. هوى بالأنبوب على رأسي، فرفعت ذراعي اليسرى وسمعتها تنكسر كغصن بتولا أثقلته الثلوج. وهذه المرة عندما تهالكتُ تركني البلطجيان أسقط على الأرضية.

قال: «متحذلق لعين! كم أكره المتحذلقين!». بدا صوته قادمًا من مسافة بعيدة، أو ارتفاع شاهق، أو الاثنين. أخيرًا أوشكتُ على فقدان وعيي، ممتنًا غاية الامتنان. لكن كانت لدي بقايا رؤية فرأيت كارمو عندما عاد حاملاً كاميرا، كبيرة من النوع الذي تبرز عدسته بما يشبه حركة أكورديون.

قال روٲ: «اقلبوه، فلنصوِّر جانب وجهه السليم». ففعل البلطجيان، ناول كارمو الكاميرا لروٲ، وناول روٲ الأنبوب لكارمو. ثم رفع روٲ الكاميرا إلى وجهه وقال: «انظر إلى العدسة أيها الأحمق. هذه صورة لإدي غوتيريز...».

فلاش.

- ... وهذه لمجموعة صوري الخاصة، ليست لدي مجموعة لكن ربما أبدأ الجمع الآن...

فلاش.

- ...وهذه لك، حتى تتذكر أنه ينبغي لك أن تجيب عندما يطرح عليك أناسٌ خطيرون أسئلة.

فلاش.

جذب روٲ اللقطة الأخيرة من الكاميرا وألقاها نحوي، فسقطت أمام يدي اليسرى... فداس عليها بقدمه. سمعتُ قرقرة عظام. تأوهتُ وسحبت يدي المصابة إلى صدري. كُسرت إصبع واحدة على الأقل، وربما ثلاث.

- تذكر معالجة الصورة في غضون دقيقة، حتى لا تتشوه. إذا بقيتَ مستيقظًا.

سأله كارمو: «أتريد أن تسأله مرة أخرى الآن بعدما صار غضًا؟». قال: «أتمزح؟ انظر إليه، لم يعد يعرف حتى اسمه. سحقًا له». واستدار ليذهب، ثم عاد. «أيها القدر إليك ضربة أخيرة».

عندئذٍ ركلني على جانب رأسي بما بدا لي حذاءً ذا طرف فولاذي. تفجرت أضواء ساطعة في مجال رؤيتي، ثم أحسست بدماعي يرتطم بمؤخرة جمجمتي، ففقدت وعيي.

16

لا أظنني ظللت فاقدًا الوعي مدة طويلة، لأن مستطيلات أشعة الشمس على مشمع الأرضية بدت كأنها لم تتحرك. تذوقت في فمي مذاق نحاس رطب. وبصقت دماءً شبه متخثرة على الأرضية، مع شظية سن، ثم شرعت في مهمة الوقوف على قدمي. تعيّن عليّ التشبث بأحد كراسي المطبخ بيدي السليمة، ثم بالطاولة (كادت أن تسقط فوقي)، لكن إجمالاً وجدت المهمة أسهل مما توقعت. أحسست بساقي اليسرى خدرة، وببنطالي ضيقاً حيث تورمت ركبتي، كما وعد رؤث. لكن رأيت أن حالي كان من الممكن أن يكون أسوأ.

نظرت خارج النافذة لأتأكد من اختفاء سيارة النقل المقفلة، ثم بدأت أعرج في رحلة طويلة إلى غرفة النوم، وقلبي يخفق خفقات واهنة في صدري، وكل خفقة ينبض معها أنفي المكسور وجانب وجهي الأيسر المتورم، حيث بدا لي أن عظمة خدّي كُسرت. وشعرت بعنقي متخشباً وبصدى النبضات في مؤخر رأسي أيضاً.

ذكّرت نفسي وأنا أجرجر قدمي في غرفة النوم: كان من الممكن أن يكون حالي أسوأ. إنك واقف على قدميك، أليس كذلك؟ ما عليك سوى أن تجلب المسدس، وتضعه في صندوق القفازات، ثم تقود سيارتك إلى غرفة الطوارئ. لا بأس عليك. على الأرجح أفضل حالاً من يك تايجر صباح اليوم.

كنت قادراً على مواصلة قول ذلك لنفسي إلى أن رفعت يدي إلى رف خزانة الملابس، عندئذٍ أحسست بشيء يتقلّص في أحشائي... ثم يتدحرج. والحرارة التي مركزها خاصرتي اليسرى استعرت كجمرات

عندما يُصَب عليها بنزين. أوصلت أصابعي إلى عقب المسدس، وأدريته، وعقفت إصبعي داخل واقي الزناد، وجذبت المسدس من الرف، فسقط على الأرضية وارتد بعيدًا عني في غرفة النوم.

ليس ملقماً على الأرجح. انحنيت لألتقطه، فصرختُ ركبتي وخارت، سقطتُ على الأرضية، وارتجتُ أحشائي مجدداً. لكنني التقطت المسدس، وفتحت أسطوانة الرصاصات. وجدته ملقماً، لا تنقصه رصاصة. وضعته في جيبتي وحاولت أن أزحف لأعود إلى المطبخ، لكن ركبتي ألمتني ألماً ممضاً، وألم رأسي كان أشد، أحسست كأنما انتشرت فيه مجسات داكنة من تجويف فوق مؤخر عنقي.

وصلت إلى السرير زاحفاً على بطني، مستخدماً حركات سباحة، ثم حاولت رفع نفسي مجدداً، معتمداً على ذراعي اليمنى وساقَي اليمنى. أعاققتني ساقَي اليسرى التي لم أعد قادراً على ثنيها. كان لا بد لي من مغادرة الشقة فوراً.

لا بد أنني بدوت مثل تشيستر، نائب المأمور الأعرج في مسلسل غنسموك، وأنا أشق طريقي خارجاً من غرفة النوم، وأتجاوز المطبخ، إلى الباب الأمامي، المفتوح وشظايا الخشب حول قفله.

عبرتُ الشرفة، وأمسكت بالحاجز بقبضتي اليمنى، وسرت جانبياً كسلطعون هابطاً المشى. كانت أربع درجات سلم فقط، لكن صداعي اشتد كلما نزلت درجة. بدا لي أنني أفقد رؤيتي الجانبية، وهذا لم يكن أمراً جيداً. ثم حاولت أن أدير رأسي لأنظر إلى الشيفروليه، لكن عنقي لم يتعاون معي. وبصعوبة أدت جسدي كله، وعندما صارت السيارة أمام ناظرَي، أدركت أن القيادة ستكون مستحيلة. حتى فتح باب الراكب ووضع المسدس في صندوق القفازات سيكون مستحيلاً، لأن الانحناء سيفجر الألم والحرارة في خاصرتي مجدداً.

أخرجت المسدس من جيبتي وعدت إلى الشرفة، أمسكت بالحاجز، وأخفيت المسدس أسفل السلم. ثم اعتدلت واقفاً وسرت ببطء عبر

الممشى إلى الشارع. قلت لنفسى: خطوة، خطوة. خطوة صغيرة تلو خطوة.

ظهر صبيّان راكبان دراجتين، حاولتُ إخبارهما بأننى أحتاج إلى مساعدة، لكن لم يخرج من شفّتي المتورّمتين سوى أصوات غير مفهومة. تبادلنا نظرة، ثم انطلقا مبتعدين بسرعة.

استدّرت إلى اليمين (ركبتي المتورمة جعلت الاستدارة يسارًا أسوأ فكرة في العالم)، وبدأت أترنح نحو الرصيف. ظل مجال رؤيتي يزداد ضيقًا، وعندئذٍ بدا لي أنني أنظر عبر ثقب في باب أو عبر مدخل نفق. ولوهلة ذكّرني ذلك بالمدخنة التي رأيتهما في مصنع كتشنر للحديد والصلب في ديري.

قلت لنفسى: حاول الوصول إلى جادة هاينز، ستجد حركة سيارات في جادة هاينز. عليك أن تصل إلى الجادة على الأقل.

لكن هل كنت أتجه نحو جادة هاينز؟ أم أبعد عنها؟ لم أتذكر. تقلّص عالمي المرئي إلى دائرة قطرها نحو ست بوصات. كاد رأسي أن ينفلق من الصداع، وأحسست بحرائق غابات في أحشائي. عندما سقطتُ بدا لي أنني أسقط بالحركة البطيئة، وأحسست بالرصيف ليّناً كوسادة ريش.

لكن قبل أن أفقد وعيي أحسست بشيء ينكزني، شيء معدني صلب، ثم سمعت صوتًا مشروخًا فوقى على بُعد ثمانية أو عشرة أميال يقول: «أنت! أنت يا فتى! ما خطبك؟».

انقلبتُ، مستنفراً كل ما بقي لدي من قوة، فرأيت فوقى المرأة العجوز التي نعتتني بالجبن عندما رفضتُ التدخّل بين ليّ ومارينا في يوم مشادة سحّاب التنورة. لا بد أنه كان ذلك اليوم، لأن المرأة، بصرف النظر عن حرارة أغسطس، كانت ترتدي رداء النوم الوردي والسترة المبطنة. ربما لأنني ما زلت مشغولاً بالملاكمة ذكّرني شعرها المنتصب بدون كينغ بدلاً من إلسا لانشرتر. كانت قد نكزتني بإحدى سيقان مشايتها.

قالت: «يا إلهي! مَنْ ضربك؟».

كانت قصة طويلة لا قُدرة لي على سردها. بدأ الظلام يُطبّق عليّ، وكنت سعيدًا به لأن ألم رأسي كاد يقتلني. قلت مع نفسي: آل أصابه سرطان الرئة. وأنا أصابني أكيفا روث. وعلى أي حال، انتهت اللعبة. أوزي سيفوز.

ما دمتُ عاجزًا.

مستنفرًا كل قواي تكلمتُ مع الوجه البعيد فوقّي، الشيء الوحيد المتبقي الذي لم يبتلعه الظلام: «اتصلي بتسعة واحد واحد».

- وما هذا؟

لم تعرف الرقم بالطبع. لم يكن الرقم 911 معروفًا برقم الطوارئ وقتذاك. تشبّثتُ بوعيي مدة كافية لأحاول مرة أخرى: «الإسعاف». أظنني كررتها، لكنني لست متأكدًا. عندئذٍ سربلني الظلام.

17

ظللت أتساءل عما إذا سرق فتيةً سيارتي، أم بلطجية روث، ومتى سُرقت. على أي حال لم يسرقها لصوص أو يهشّموها. جلبها ديكي سيمونز من الموقف الخاص بقسم شرطة دالاس بعد أسبوع. وكانت في حال أفضل من حالي.

السفر عبر الزمن مليء بالمفارقات.

الفصل السادس والعشرون

في الأسابيع الأحد عشر التالية عشتُ حياتين مرة أخرى. الأولى حياة أكاد لا أعرف عنها شيئاً، حياة العالم الخارجي، والثانية حياة أعرفها تمام المعرفة، حياة بداخل رأسي، حيث حلمت كثيراً برجل البطاقة الصفراء.

في الحياة الخارجية، وقفت سيدة المشاية (اسمها ألبرتا هتشنسن. بحثت سيدي عنها وأهدتها باقة زهور) فوقني على الرصيف وصاحت حتى خرج أحد الجيران، ورأى الوضع، واتصل بسيارة الإسعاف التي أقلتني إلى مستشفى باركلاند. والطبيب الذي عالجني هناك كان مالكوم بيرى، وهو من سيعالج لاحقاً جون كينيدي ولي هارفى أوزوالد في أثناء احتضارهما. لكنه كان أوفر حظاً معي، رغم صعوبة المهمة.

تعرضت لكسور في الأسنان، وكسر في الأنف، وكسر في عظمة الخد، وتهتك في الركبة اليسرى، وكسر في الذراع اليسرى، وخلع في الأصابع، وإصابات في البطن. كما تعرضت لإصابة في الدماغ، وهي التي أثارت قلق بيرى أكثر من غيرها.

قيل لي إنني استيقظت وصحت عندما جس الطبيب بطني، لكنني لا أتذكر هذا. رُكبت لي قسطرة وتبولت دمًا فوراً. مؤشراتي الحيوية كانت مستقرة في البداية، ثم تدهورت. حُدثت فصيلة دمي، وأعطيت أربع وحدات دم كامل... أخبرتني سيدي لاحقاً أن كثيراً من سكان جودي تبرعوا لي بالدماء. اضطرت إلى إخباري بهذا عدة مرات، لأنني

ظللت أنسى. جرى تجهيزي لعملية بطن، لكن قبلها عُرضت على طبيب أعصاب، وخضعت لعملية بزل قطني لاختبار سائل الحبل الشوكي، إذ ما من أشعة مقطعية ولا تصوير بالرنين المغناطيسي في عالم الماضي. وقيل لي أيضًا إنني تحدثت مع ممرضتين من اللاتي جهّزني للبزل القطني، قلت لهما إن زوجتي تعاني إدمان الكحول. وقالت إحدهما إن ذلك أمر مؤسف وسألتني عن اسم زوجتي، فقلت لهما إنها كانت سمكة اسمها واندا وأطلقتُ ضحكة عالية. ثم فقدت وعيي مجددًا. وجدوا طحالي متمزقًا، وأزالوه.

وبينما كنت ما أزال فاقداً الوعي وطحالي في طريقه إلى حيثما تذهب الأعضاء التي لم تعد مفيدة لكنها ليست ضرورية جدًا - نُقلت إلى قسم العظام، وهناك وضعوا جبيرتين على ذراعي وساقَي المكسورتين. كثيرون وقَّعوا عليها في الأسابيع التالية، أحيانًا كنت أعرف الأسماء، وغالبًا ما لا أعرفها.

ظللت تحت التخدير ورأسي مثبت على سرير مائل ثلاثين درجة تحديدًا. حقنني الأطباء بالفينوباربيتال ليس لأنني كنت واعيًا (رغم أنني كنت أتمتم، حسبما قالت سيدي)، إنما لأن الأطباء كانوا يخشون أن أستعيد وعيي فجأة وأسبب لنفسي مزيدًا من الأضرار. كان بيرى والأطباء الآخرون (إلرتون أيضًا كان يأتي بانتظام لمتابعة تحسُّني) يعالجون جسدي المتضعع كأنه قنبلة لم تنفجر بعد.

إلى اليوم لست متأكدًا تمامًا من ماهية الهيماتوكريت والهيموغلبين، لكنهما تحسَّنا وفرِح الجميع بهذا. خضعتُ لبزل قطني بعد ثلاثة أيام. وهذه المرة ظهرت آثار دماء قديمة، وفي عمليات البزل القطني فالقديمة أفضل من الجديدة. أشارت إلى أنني تعرضت لأضرار دماغية حادة، لكن الأطباء صرفوا النظر عن إحداث ثقب في جمجمتي، لأنها

عملية محفوفة بمخاطر نظرًا إلى المعارك الكثيرة التي كان يخوضها جسدي في جبهات أخرى.

بيد أن الماضي عنيد ويحمي نفسه من أي تغيير. بعد خمسة أيام من إدخاله المستشفى، بدأ موضع استئصال الطحال يحمر وترتفع حرارته. وفي اليوم التالي انفتح الجرح واشتدت علي الحمى. لذا أعيدت حالتي، التي كانت قد خفض تقرير خطورتها من حرجة إلى خطرة بعد عملية البزل القطني الثانية، إلى حرجة. كُتب على سجلي الطبي أن د. بيرى حقنني بعقار مهدئ، وبالكاد كنت أعى ما حولي.

في السابع من سبتمبر، استيقظت لمدة وجيزة. أو هذا ما قيل لي. وكانت امرأة، جميلة رغم ندوب وجهها، ورجل عجوز يضع قبعة رعاة بقر على حجره، يجلسان جوار فراشي. سألتني المرأة: «هل تعرف اسمك؟».

قلت: «بدنّين. إذا سألتني مرة أخرى فسأقول لك الاسم نفسه».

أمضى السيد جيك جورج بدنّتين إبنغ-أمبرسون سبعة أسابيع في مستشفى باركلاند قبل نقله إلى مركز إعادة تأهيل، وهو مجمع سكني صغير للمرضى، في الجانب الشمالي من دالاس. في أثناء تلك الأسابيع السبعة حُقنت مضادات حيوية وريدية لعلاج الالتهاب الذي استوطن المكان الذي كان فيه طحالي. استُبدلت بجبيرة ذراعي المكسورة أخرى أصغر، كُتبت عليها أيضًا أسماء لم أعرفها. استُبدلت الجبيرة قبل وقت قصير من انتقاله إلى إيدن فالوز، مركز إعادة التأهيل. وفي وقت قريب من ذلك، بدأ مختص علاج طبيعي يحاول أن يعيد إلى ركبتي شيئًا من القدرة على الحركة. قيل لي إنني صرخت كثيرًا، لكنني لا أتذكر.

مالكوم بيرى وبقية العاملين في باركلاند أنقذوا حياتي، لا شك لدي في ذلك. وأعطوني أيضًا هدية غير مقصودة ولا مرغوبة لازمتني مدة حتى ما بعد انتقاله إلى إيدن فالوز، وهذه الهدية كانت التهابًا ثانويًا

سببته المضادات الحيوية التي ضُخَّت في جسدي لعلاج الالتهاب الأول. لدي ذكريات ضبابية عن التقيؤ وقضاء ما بدا لي أيامًا كاملة على مَبولة السرير. في وقتٍ ما أتذكر أنني قلت لنفسِي: علي أن أذهب إلى صيدلية ديري وأقابل السيد كين. أحتاج إلى كاوبكتيت. لكن مَنْ هو السيد كين؟ وأين ديري؟

سمحوا لي بالخروج من المستشفى عندما استعدتُ قدرتي على إبقاء الطعام في معدتي، لكن مكثتُ في إيدن فالوز قرابة أسبوعين قبل توقُّف الإسهال. وبحلول ذلك الوقت كان أكتوبر قد شارف على الانتهاء. جلبتُ سيدي (أتذكر اسمها في معظم الأوقات، ويفلت مني أحيانًا) لي فانوس يقطين ورقي احتفالًا بالهالوين. هذه الذكرى واضحة جدًا، لأنني صرخت عندما رأيته. كانت صرخات شخص نسي أمرًا شديد الأهمية.

سألتني: «ماذا؟ ما الأمر يا عزيزي؟ ما الخطب؟ كينيدي؟ تذكرتُ أمرًا عن كينيدي؟».

صَحْتُ بها: «سوف يقتلهم جميعًا بمطرقة! في ليلة الهالوين! علي أن أوقفه!».

أمسكتُ بيدي القلقتين وبدا الخوف على وجهها. «مَنْ؟ توقّف مَنْ؟». لكن عجزتُ عن التذكُّر، ونمت. كنت أنام كثيرًا، وليس بسبب إصابة رأسي التي تشفى ببطء فحسب. كنتُ مرهقًا، أكاد أن أكون شبَّاحًا لذاتي السابقة. في يوم الضرب كنتُ أزن مئة وخمسة وثمانين رطلًا، وعندما خرجتُ من المستشفى وأقمتُ في إيدن فالوز صرت أزن مئة وثمانية وثلاثين.

تلك كانت الحياة الخارجية لجيك إبنغ، رجلٌ ضُربَ ضربًا عنيفًا، ثم كاد أن يموت في المستشفى. أما حياتي الداخلية فقد كانت سوادًا، وأصواتًا، وومضات استيعاب كالبرق: تغشى بصري بسطوعها، وتختفي

تمامًا قبل أن تتيح لي إلقاء نظرة جيدة على المشهد. كنت تائهاً في معظم الأوقات، لكن من حين لآخر كنت أجد نفسي.

وجدت ذات يوم حرارتي مرتفعة جدًا، وبجانبني امرأة تطعمني رقائق ثلج رائعة المذاق. هذه كانت المرأة ذات الندبة، وتكون سيدي أحيانًا.

وجدت نفسي أقتعد المرحاض في ركن غرفة لا أدري كيف وصلت إليها، أفرغ ما بدا كجالونات من غائط مائي حارق، وخصرتي تستثير الحكة وتنبض بالألم، وركبتي تجأ. أتذكر أنني تمنيت أن يقتلني شخصٌ ما.

وجدت نفسي أحاول النهوض من الفراش، لأن عليَّ إنجاز مهمة في غاية الأهمية، وبدا لي أن العالم بأسره يعتمد عليَّ في أداء هذه المهمة. الرجل ذو قبعة رعاة البقر كان حاضرًا يومذاك، أمسك بي وساعدني على العودة إلى الفراش قبل أن أسقط على الأرضية. قال: «ليس بعد يا بُني، ما زلتَ ضعيفًا».

وجدت نفسي أتحدث، أو أحاول أن أتحدث، مع شرطيين يرتديان زيهما جاءا ليسألاني عن الضرب الذي تعرضت له. أحدهما شارة اسمه مكتوب عليها تيبِت. حاولتُ إخباره بأنه في خطر، وحاولت حثّه على تذكُّر الخامس من نوفمبر. كان الشهر الصحيح لكن اليوم الخطأ. عجزت عن تذكُّر التاريخ الصحيح وبدأت أخبط رأسي الغبي محبَطًا. تبادل الشرطيان النظرات، حائرَيْن. ثم استدعى لَيْس-تيبِت ممرضة، فجاءت الممرضة مع طبيب، وأعطاني الطبيب حقنة، وغبت عن الوعي. وجدت نفسي أستمع إلى سيدي وهي تقرأ لي، من كتاب جود المغمور أولًا، ثم من تِس آل دربرفيل. كنت أعرف هاتين القصتين، والاستماع إليهما مجددًا كان مريحًا. في وقتٍ ما في أثناء سماعي تِس، تذكرتُ شيئًا.

قلت: «أجبرتُ تِسكا كالتروب على تركنا وشأننا».

رفعتُ عينيها وسألتني: «هل تعني جِسْكا؟ جِسْكا كالتروب؟ كيف أجبرتها؟ هل تتذكر؟».

لكنني لم أتذكر. تلاشت الذكرى.

وجدت نفسي أنظر إلى سيدي وهي واقفة عند نافذة غرفتي، تحقق إلى المطر بالخارج وتبكي.

لكنني كنت تائهاً في معظم الأوقات.

الرجل ذو قبعة رعاة البقر كان ديكي، لكن ذات مرة ظننته جدّي، فخفتُ خوفاً شديداً، لأن غرامبي إبنغ مات، و...

إبنغ. هذا هو اسمي. قلت لنفسي: تشبث به. لكن في البداية لم أستطع.

عدة مرات جاءت عجوز ذات أحمر شفاه لزيارتي، أحياناً كنت أظن اسمها ميمي، وأحياناً إيلين، وذات مرة كنت شبه متأكد أنها إيرين راين، التي أدّت دور الجدة كلاميت في مسلسل ذا بيفرلي هيليليز. قلت لها إنني ألقىت هاتفني الجوال في بحيرة: «الآن ينام مع الأسماك. بالتأكيد أتمنى استعادته».

جاء شابٌ وفتاة. قالت سيدي: «انظر، إنهما مايك وبوبي جيل».

قلت: «مايك كولسلو».

قال الشاب: «اقتربت يا أستاذ». وابتسم، فسالت دمعة على خده.

ولاحقاً، عندما كان ديكي وسيدي يأتیان إلى إيدن فالوز، كانا يجلسان معي على الأريكة، وتمسك سيدي يدي وتساءلني: «ما اسمه يا جيك؟ لم تخبرني باسمه. كيف يمكننا إيقافه ونحن لا نعرف هويته ولا المكان الذي سيكون فيه؟».

قلت: «سوف أؤ...». حاولت جاهداً، حتى ألمتني مؤخرة رأسي، لكن حاولت رغم ذلك. «أوقفه».

قال ديكي: «لا يمكنك إيقاف بقّة فراش دون مساعدة منا».

لكن سيدي عزيزة عليّ وديكي عجوز. ما كان ينبغي لها أن تخبره. لا بأس، لأنه لم يصدّقها تمامًا.

قلت: «رجل البطاقة الصفراء سيوقفكما إذا تدخلتما. أنا الوحيد الذي لا يستطيع رجل البطاقة الصفراء إيقافه».

مالت سيدي إلى الأمام وأمسكت بيدي، وسألتني: «مَن هو رجل البطاقة الصفراء؟».

- لا أتذكر، لكنه لا يستطيع إيقافني لأنني لا أنتمي إلى هنا.

إلا أنه كان يوقفني فعلًا، أو ربما كان شيء آخر يوقفني. د. بيرري قال إن فقدان ذاكرتي مؤقت، وكان محققًا... لكن إلى حدّ ما. إذا حاولت جاهدًا تذكر الأمور ذات الأهمية القصوى، يؤلمني رأسي ألمًا ممضًا، وأتعثّر في مشيي، ويغيم بصري. الأسوأ من كل شيء كان نومي المفاجئ. سألت سيدي د. بيرري عما إذا كان السبب هو مرض النوم الانتيابي، وقال لها لا على الأرجح، لكنه بدا قلقًا.

سألها: «هل يستيقظ عندما تنادينه أو تهزّينه؟».

- دائمًا.

- هل غالبًا ما ينام فجأة عندما يكون مستاءً لأنه عاجز عن تذكر أمر؟

ردت سيدي بالإيجاب.

فقال الطبيب: «إذن أنا متأكد إنه عرض عابر، مؤقت مثل فقدان ذاكرته».

وأخيرًا، رويّدًا رويّدًا، بدأ عالمي الداخلي يندمج مع الخارجي. كنت جيكوب إبنغ، كنت أستاذًا، وبطريقة ما سافرت عبر الزمن إلى الماضي لإيقاف اغتيال الرئيس كينيدي. في البداية حاولت رفض الفكرة، لكن

كنت أعرف معلومات كثيرة جدًا عن السنوات السابقة لسفري إلى الماضي، وتلك المعلومات لم تكن رؤى أو خيالات، بل ذكريات. فرقة رولنغ ستونز، وجلسات سماع عزل كليبتون، وتصاعد الدخان من مركز التجارة العالمي. وكرستي، زوجتي السابقة المضطربة والمُتعبَة.

ذات ليلة بينما كنت مع سيدي نشاهد مسلسل كومبات، تذكرتُ ما فعلته بفرائك دِنَنَغ.

- سيدي، قتلْتُ رجلًا قبل مجيئي إلى تكساس. قتلته في مقبرة. كنت مضطرًا إلى قتله، لأنه كان سيقتل أسرته كلها.

نظرتُ إلي بعينين متسعيتين، فاغرةً فمهما.

قلت: «أغلقي التلفاز. الرجل الذي يؤدي دور الرقيب ساندرز، لا أتذكر اسمه، ستقطع رأسه شفرات طائرة مروحية. أرجوك يا سيدي، أغلقيه». أغلقته، ثم جثت أمامي.

- مَنْ سيقتل كينيدي؟ وأين سيكون عندما يقتله؟

حاولتُ باذلاً كل ما بوسعي، ولم يغشاني النوم، لكن عجزت عن التذكُّر. تذكرت أنني ذهبت من مين إلى فلوريدا، بسيارة فورد صنلاينز. سيارة رائعة. ثم ذهبت من فلوريدا إلى نيو أورلينز، وعندما غادرت نيو أورلينز، جئتُ إلى تكساس. تذكرت استماعي إلى أغنية إيرث آينجل عبر المذياع وأنا أعبر حدود الولاية، بسرعة سبعين ميلًا في الساعة على الطريق السريع رقم 20. تذكرت لافتة: تكساس ترحِّب بكم. ولوحة إعلانية مكتوبًا عليها مطعم سوني للمشويات، 27 ميلًا. بعدها ثمة فجوة في الفيلم. على الجانب الآخر بدأت تظهر ذكريات إقامتي وتدريسي في جودي، وذكريات أكثر إشراقًا عن رقص السوينغ مع سيدي والاضجاع في الفراش معها في بيت ضيافة كاندلود. أخبرتني سيدي أنني عشت أيضًا في فورت وورث ودالاس، لكن لم تعرف أين تحديدًا، لم تعرف سوى رقمي هاتف لم يعودا يعملان. أنا أيضًا لم أعرف

مكان إقامتي تحديداً، لكن بدا لي أن أحد المنزلين كان بشارع كاديلاك. راجعتُ سيدي خرائط الشوارع وقالت إن ما من شارع اسمه كاديلاك في أيٍّ من المدينتين.

استطعت تذكر أشياء كثيرة عندئذٍ، لكن ليس من بينها اسم القاتل، ولا المكان الذي سيكون فيه عندما يُقدّم على القتل. ولم لا؟ لأن الماضي يحجب عني هذه المعلومة. الماضي العنيد.

قلت: «القاتل لديه طفلة، أظن اسمها أبريل».

- جيك، سأسألك سؤالاً، ربما يُغضبك، لكن بما أن هذا الأمر بالغ الأهمية، ويتوقف عليه مصير العالم، حسبما قلته، فلا بد أن أسألك.

- اسألي.

لم أستطع تخيل أي سؤال قد يغضبني.

- هل تكذب علي؟

- لا.

كنت صادقاً، عندئذٍ.

- قلتُ لديكي إن علينا إبلاغ الشرطة. أعطاني مقالاً في صحيفة مورننغ نيوز، فحواه وجود مئتي تهديد بالقتل ومعلومة عن قتلة محتملين. يقول ديكي إن كلاً من اليمينيين في دالاس وفورت وورث واليساريين في سان أنتونيو يحاولون تخويف كينيدي حتى لا يأتي إلى تكساس، ويقول إن شرطة دالاس تحوّل جميع تهديدات القتل والبلاغات إلى مكتب التحقيقات الفدرالي، الذين لا يفعلون شيئاً. ويقول إن الشخص الوحيد الذي يبغضه جيه إدغار هوفر أكثر من بغضه جون كينيدي هو شقيقه بوب كينيدي.

لم أكرث كثيراً بمن يبغضهم جيه إدغار هوفر.

- هل تصدقيني؟

قالت متنهدة: «نعم. هل سيموت فيك مورو حقاً؟».

هذا كان اسمه كممثل، بالتأكيد.

- نعم.

- في أثناء تصوير مسلسل كومبات؟

- لا، فيلم آخر.

أجهشت بالبكاء.

- لا تمُت يا جيك، أرجوك. لا أريد شيئاً سوى أن تتحسن.

انتابتنى كوابيس كثيرة، تعددت مواقعها، أحياناً أجدني في شارع خالٍ يشبه الشارع الرئيسي في ليسبون فولز، وأحياناً أجدني في المقبرة حيث أرديت فرانك دننغ، وأحياناً في مطبخ منزل آندي كَلم، لاعب الكريبيج البار. لكن غالباً ما يكون الموقع مطعم آل تمبلتون. رأيتنا جالسين إلى طاولة معزولة، والصور المعلقة على "جدار مشاهير البلدة" تنظر إلينا. آل مريض، ويحتضر، لكن عينيه متقدتان.

قال آل: «رجل البطاقة الصفراء تجسيدٌ للماضي العنيد، تعرف هذا، أليس كذلك؟».

بلى، كنت أعرف. تابع آل: «ظن أنك ستموت من الضرب، لكنك لم تمُت. ثم ظن أنك ستموت من الالتهابات، لكنك لم تمُت. والآن يحجب ذكرياتك، المهمة، لأنه يعرف أن حجبها آخر أمل لديه في إيقافك».

- كيف؟ إنه ميت.

هز آل رأسه.

- لا، أنا الميت.

- مَنْ هو؟ ما هو؟ وكيف يمكنه العودة إلى الحياة؟ قطع حلقه بنفسه، واسودَّت البطاقة! رأيتُ هذا!

- لا أعرف يا صاح. كل ما أعرفه هو أنه لا يمكنه إيقافك إذا رفضت التوقف. عليك أن تستعيد تلك الذكريات.

صِحت: «ساعدني إذن!». وأمسكت بيديه الشبيهتين بالمخالب. «أخبرني باسم الرجل! أهو تشابمان؟ مانسون؟ هذان الاسمان مألوفان، لكن كليهما ليس صحيحًا. أنت أدخلتني في المهمة، لذا عليك أن تساعدني!».

وعند هذا الجزء من الحلم، يفتح آل شفثيه ليساعدني، لكن رجل البطاقة الصفراء يتدخل. إذا كنا في الشارع الرئيسي، يخرج من الواجهة الخضراء أو من محل كنك فروت. وإذا كنا في المقبرة، ينهض من قبر مفتوح كأنه زومبي جورج روميرو. وإذا كنا في المطعم، يُفَتِّح الباب بعنف، والبطاقة التي يضعها تحت رباط قبعته سوداء إلى درجة أنها تبدو كثقب مستطيل في العالم. أراه ميتًا متحللاً، ومعطفه الرث القديم ملطخ بالطحالب، ومحجرا عينية يُموران بكُرَتان من الديدان.

يصرخ رجل البطاقة الصفراء الذي صار رجل البطاقة السوداء: «لا يمكنه إخبارك بأي شيء لأن اليوم يوم مضاعفة الدفع!».

ألتفتُ إلى آل، فأراه قد صار هيكلًا عظميًا وبين أسنانه سيجارة. وعندئذٍ أستيقظ، مبللًا بالعرق. وأحاول استرجاع الذكريات، لكن لا أعثر عليها.

جلب ديكي لي الأخبار الصحفية التي تتناول زيارة كينيدي المرتقبة، أملًا أن يَسْتَحِثْ خبرٌ فيها ذاكرتي. بلا جدوى. وذات يوم، في أثناء اضجاعي على الأريكة (إثر استيقاظي من إحدى غفواتي المفاجئة)، سمعت ديكي وسيدي يتجادلان مجددًا بشأن إبلاغ الشرطة، قال ديكي إن أي اتصال من مجهول لن يُلتَفَتَ إليه، وإذا ذكرنا اسمًا فسنقع جميعنا في مأزق.

صاحت سيدي: «لا أكثر! أعرف أنك تظنه مجنونًا، لكن ماذا لو كان محققًا؟ كيف سيكون إحساسك إذا عاد كينيدي من دالاس إلى واشنطن في نعل؟».

- إذا تدخّلت الشرطة، فسيركّزون على جيك يا عزيزتي. وبحسب ما قلّته، فهو قد قتل رجلًا في نيو إنغلاند قبل مجيئه إلى هنا. سيدي، سيدي، ليتك لم تخبريه بذلك.

توقفا عن الجدال، لكنها لم تستسلم. حاولت إنعاش ذاكرتي بمفاجأتي، كما يُزعم أن بالإمكان معالجة فواق شخص بمفاجأته. لم تنجح.

سألتنني بحزن: «ماذا أنا فاعلة بك؟».

- لا أدري.

- جرّب نهجًا آخر، حاول أن تتسلل إلى ذكرياتك من طريق غير مباشر.

قلت: «جرّبت. أظن أن الرجل كان في الجيش أو المارينز». فركتُ مؤخّر عنقي حيث بدأ الألم يعود مجددًا. «لكن ربما كان في القوات البحرية. تَبًّا، لا أدري يا كرستي».

- سيدي يا جيك، أنا سيدي.

- ألم أقل ذلك؟

هزت رأسها وحاولت أن تبتسم.

في الثاني عشر من نوفمبر، يوم الثلاثاء التالي ليوم المحاربين القدامى، نشرت صحيفة مورننغ نيوز مقالة افتتاحية طويلة عن زيارة كينيدي المرتقبة وما تعنيه للمدينة. كُتِب: «معظم السكان يبدون مستعدين للترحيب بالرئيس الشاب بأذرع مفتوحة. الحماس في أوجّه. وبالطبع لن يضير أحدًا مرافقة زوجته الجميلة ذات الكاريزما له في زيارته».

«مزيد من الأحلام عن رجل البطاقة الصفراء ليلة أمس؟». سألتني سيدي عند عودتها. كانت قد أمضت العطلة في جودي، غالبًا لتسقي نباتاتها المنزلية ولـ «تظهر العَلم» بحسب تعبيرها.

هزرت رأسي قائلاً: «عزيزتي، إنك تقضين هنا وقتاً أطول بكثير مما تقضينه في جودي. كيف حال وظيفتك؟».

- إيلين حوّلتني للعمل بدوام جزئي. أتدبر أمري. وعندما أذهب معك... إذا ذهبنا... أظن سأرى ما سيحدث عندئذ.

ابتعدت نظراتها عني. وتشاغلّت بإشعال سيجارة. وفي أثناء مشاهدتي لها وهي تستغرق وقتاً طويلاً في ضرب عقب السيارة بطاولة القهوة ثم تعبت بالثقاب ساهمة، أدركتُ أمرًا محبطاً: سيدي أيضاً تراودها الشكوك. كنت قد تنبأتُ بنهاية سلمية لأزمة الصواريخ، وعرفت أن ذلك تايغر سيسقط في الجولة الخامسة... لكن ما زالت تراودها الشكوك. لم أَلُمها. إذا انعكست مواقفنا لراودتني الشكوك أيضاً. ثم أشرق وجهها وقالت: «لكن لدي بديلاً رائعاً سيحل محلي مؤقتاً، وأراهن أنك تستطيع تخمينه».

ابتسمتُ. «هل هو...». عجزت عن استحضار الاسم. استحضرته صورته، الوجه الذابل الأسمر من كثرة التعرض للشمس، وقبعة رعاة البقر، وربطة العنق الرفيعة لكن في صباح الثلاثاء ذاك لم أقترّب مجرد اقتراب من تذكر الاسم. بدأ رأسي يؤلمني بالخلف، حيث تلقيت الضربة. كينيدي قادم بعد عشرة أيام ولا أستطيع تذكر اسم ذلك الرجل العجوز.

- حاول يا جيك.

- أحاول، أحاول يا سيدي.

- مهلاً لحظة. لدي فكرة.

وضعتُ سيجارتها المشتعلة على طرف منفضة السجائر، ونهضت وسارت إلى الباب الأمامي، وأغلقت خلفها. ثم فتحته وتكلمت بصوت خشن عميق على نحو هزلي، قائلة ما يقوله الرجل العجوز كلما جاء زائراً: «كيف حالك اليوم يا بُني؟ هل تناولت طعاماً؟».

قلت: «ديكي، ديكي سيمونز. كان متزوجًا بميمي، لكنها ماتت في المكسيك. وأقمنا لها تجمُّعًا تذكاريًّا».

تلاشى الصداق. بهذه البساطة.

صفقت سيدي وركضت نحوي، ونِلْتُ قبلة عذبة طويلة.

ابتعدتُ وقالت: «أرأيت؟ يمكنك التذكُّر. لم يُفْت الأوان بعد. ما اسمه يا جيك؟ ما اسم الوغد المجنون؟».

لكنني عجزتُ عن التذكُّر.

في السادس عشر من نوفمبر، نشرت صحيفة تايمز هيرالد مسار موكب كينيدي، سيبدأ من مطار لوف فيلد وينتهي عند المركز التجاري، حيث يخاطب مجلس مواطني دالاس وضيوفهم المدعوين. كان موضوع خطابه المُعلن هو تهنئة مركز أبحاث الدراسات العليا وتهنئة دالاس على التقدم الذي أحرزته خلال العقد الماضي، لكن تايمز هيرالد أخطرت بسرور كل من لا يعرف سلفًا بأن الهدف الحقيقي سياسي بحت. تكساس صوتت لكينيدي عام 1960، لكن توقعات انتخابات عام 1964 لم تبدُ مطمئنة رغم وجود نائبه جونسون ابن المدينة معه. ما زال الساخرون يسمُّون نائب الرئيس "ليندون الفوز الكاسح"، في إشارة إلى ترشُّحه لمجلس الشيوخ عام 1948، وفوزه المشبوه بفارق سبعة وثمانين صوتًا. هذا كان تاريخًا قديمًا، لكن استمرار اللقب عبَّر عن المشاعر المختلطة لدى سكان تكساس ناحية نائب الرئيس. لذا كانت مهمة كينيدي، وجاكي أيضًا بالطبع، هي مساعدة "ليندون الفوز الكاسح" وحاكم تكساس جون كونالي على حشد التأييد.

قالت سيدي وهي تتعقب بإصبعها مسار الموكب: «انظر إلى هذا، مبانٍ كثيرة جدًّا محيطة بالشارع الرئيسي، وشارع هيوستن أيضًا. هناك مبانٍ عالية في كل أنحاء ذلك الجزء. هل سيكون الرجل في الشارع الرئيسي؟ لا بد أن يكون هناك، أليس كذلك؟».

- استمعتُ إليها بالكاد، لأنني لاحظتُ أمرًا آخر: «انظري يا سيدي، سوف يمر الموكب بمحاذاة جادة تيرتل كريك!». التمعت عيناها: «هل هذا هو المكان؟».
- هزرت رأسي متشككًا. ليس المكان على الأرجح، لكنني كنت أعرف شيئًا عن جادة تيرتل كريك، ولا بد أن يكون له صلة بالرجل الذي جنّت لإيقافه. وفي أثناء تفكيري بهذا، طفا شيءٌ إلى السطح.
- كان يريد أن يخبئ البندقية ويعود ليأخذها لاحقًا.
 - يخبئها أين؟
 - لا يهم، لأن هذا الجزء حدث سلفًا. هذا الجزء من الماضي.
- وضعتُ يدي على وجهي لأنني أحسست فجأة بشدة سطوع ضوء الغرفة.
- أخذت الصحيفة وقالت: «توقف عن التفكير بذلك الآن. استرخ حتى لا يصيبك الصداع فتحتاج إلى أحد تلك الأقراص التي تشوش ذهنك».
- أجل، أعرف.
 - تحتاج إلى قهوة. قهوة قوية.
- ذهبتُ إلى المطبخ لتعد القهوة. وعندما عادت وجدتني أشخر. نمت قرابة ثلاث ساعات، ولربما ظللت نائمًا مدة أطول، لكنها هزّتني فأيقظتني.
- ما آخر شيء تتذكره عن مجيئك إلى دالاس؟
 - لا أتذكره.
 - أين أقمت؟ فندق؟ نُزل؟ غرفة مستأجرة؟
- لوهلة تراءت لي ذكرى ضبابية عن فناء ونوافذ عديدة. وبوَاب؟ ربما. ثم تلاشت الذكرى. وعاودني الصداع مجددًا.
- لا أدري. كل ما أذكره هو عبوري حدود الولاية على الطريق السريع رقم 20 ورؤية لافتة إعلان آلة شواء، على بُعد أميال من دالاس.

قالت: «أعرف، لكن لسنا مضطرين إلى الذهاب كل تلك المسافة، لأنك إذا كنت تسير في الطريق رقم 20، فلا بد أنك لم تتركه». ألقت نظرة على ساعتها. «تأخر الوقت اليوم، لكن غداً سنخرج في جولة بالسيارة». قلت: «على الأرجح لن تنجح الفكرة». لكن رغم هذا راودني بصيص أمل.

باتت معي، وفي الصباح التالي غادرنا دالاس عبر الطريق الذي يسميه سكانها طريق هَنبِي السريع، اتجهنا شرقاً نحو لويزيانا. تولّت سيّدي قيادة سيارتي الشيفروليه، التي صارت بحالة جيدة بعد استبدال مفتاح الإشعال. تولى ديكي إصلاحها. قادت سيّدي حتى تيريل، ثم تركت الطريق السريع رقم 20 وانعطفت إلى موقف سيارات خاص بكنيسة صغيرة على جانب الطريق. بدا لي أن اسمها "دماء المُخلّص"، بحسب لوح إعلانات في مرجة باهتة. وأسفل الاسم، بحروف ليست مكتوبة بقلم وطلاء، إنما بورق لاصق أبيض، من المفترض أن تقول: هل قرأتم كلمات الرّب القدير اليوم؟ لكن بعض الحروف تساقطت: هل -رأتم كلمات ال-ب الق-ير -ليوم؟

نظرتُ إلي وَجِلَة. «أيمكنك القيادة في رحلة العودة؟».

كنت متأكداً من قدرتي، الطريق مستقيم، والشيفروليه ذات ناقل حركة آلي، فلن أحتاج إلى استخدام ساقي اليسرى المتخشّبة إطلاقاً. المانع الوحيد كان...

جلستُ خلف عجلة القيادة لأول مرة منذ أغسطس وأعدت المقعد إلى الخلف إلى أقصى حد ممكن.

- سيّدي...

- نعم.

- إذا غفوتُ، فأمسكي بعجلة القيادة وأوقفني المحرك.

ضحكتُ متوترة.

- صدقني، سأفعل.

تحققتُ من خلو الطريق من السيارات وتحركتُ، في البداية لم أجروُ على تجاوز سرعة خمسة وأربعين ميلاً في الساعة، لكننا كنا في ظهر يوم أحد، والطريق خالٍ. فاسترخيت.

- دع ذهرك خاليًا يا جيك، لا تحاول تذكُر أي شيء، اترك الذكريات تأتي من تلقاء نفسها.

- ليتني كنت أقود الصنلاينز.

- إذن تخيّل أن هذه هي الصنلاينز، ودعها تذهب حيث تشاء.

- حسنًا، لكن...

- دون لكن. اليوم جميل، وأنتَ قادم إلى مكان جديد، وليس عليك

القلق بشأن اغتيال كينيدي، لأن الحدث ما زال بعيدًا، بعد سنوات.

أجل، كان يومًا جميلًا. ولا، لم يداهمني النوم، رغم إرهاقي الشديد. لم أخرج مدة طويلة كهذه منذ أن ضُربت. ظل عقلي يعود إلى الكنيسة التي على جانب الطريق. كنيسة سُود على الأرجح، يؤدون الترانيم على نحو لن يقدر عليه البيض أبدًا، ويقرؤون كلمات ال-ب مع كثير من هتافات هاللويا وتمجيد يسوع.

اقتربنا من دخول دالاس، انعطفتُ يمينًا ويسارًا، على الأرجح يمينًا أكثر من يسارًا، لأن ذراعي اليسرى ما زالت ضعيفة والانعطاف ناحيتها مؤلم، رغم سلاسة عجلة القيادة. ثم تُهت في الشوارع الجانبية.

قلت مع نفسي: تُهت بالتأكيد. أحتاج إلى من يرشدني كما فعل ذلك الفتى في نيو أورلينز، عندما أرشدني إلى فندق مونستون.

إلا أنه لم يكن مونستون، بل مونتليون. والفندق الذي أقمت فيه عندما جئتُ إلى دالاس كان اسمه... كان اسمه...

لوهلة توقعت أن يفلت الاسم مني، كما يفلت اسم سيدي أحياناً، لكن عندئذٍ رأيت البوّاب، وكل تلك النوافذ المتلائة المطلة على شارع كوميرس، فتذكّرت.

كنت قد أقمت في فندق أدولفس. أجل. لأنه قريب من...
استعصى عليّ تذكّر المكان. ذلك الجزء ما زال محجوباً.

- عزيزي، هل أنت بخير؟

- نعم. لماذا تسألين؟

- لأنك قفرتَ حسبما بدا لي.

- ساقى تشنجت قليلاً.

- ألا يبدو لك أيّ مما تراه مألوفاً؟

- لا شيء.

تنهّدت.

- ها هي فكرة أخرى غير مجدية. ربما يجدر بنا أن نعود. أتريدني

أن أقود؟

- أفضل ذلك.

عرجتُ حول السيارة إلى مقعد الراكب قائلاً لنفسى: فندق أدولفس.

اكتب هذا الاسم عندما تصل إلى إيدن فالوز، حتى لا تنسى.

عندما عدنا إلى المسكن وسلام أبوابه المنحدرة، وسرير المستشفى،

والمقبضين على جانبي المرحاض، قالت سيدي لي إن عليّ الاستلقاء

قليلاً. «وتناول قرصاً من أقراصك».

ذهبتُ إلى غرفة النوم، ونزعت حذائي، ببطاء، واستلقيت على الفراش.

لكن لم أتناول القرص. أردت إبقاء ذهني صافياً. تعيّن عليّ إبقاؤه صافياً

منذ تلك اللحظة. كينيدي ودالاس لم يعد يفصلهما سوى خمسة أيام.

أقمت في فندق أدولفس لأنه قريب من شيء. ماذا؟

حسنًا، كان قريبًا من مسار الموكب الذي نُشر في الصحيفة، وهذا يقلل الخيارات إلى... رباه، ليس أكثر من أَلْفِي مبنى. ناهيك بكل تلك التماثيل، والنُصب التذكارية، والجدران التي قد يختبئ قناصٌ ما خلفها. كم عدد الأزقة على امتداد المسار؟ عشرات. كم عدد الجسور العلوية المطلة على مسار الموكب بجادة موكينغبيرد وشارع ليمون وجادة تيرتل كريك؟ وكم عددها في الشارع الرئيسي وشارع هيوستن؟ عليك أن تتذكّر اسمه أو المكان الذي سيطلق النار منه.

إذا عرفتُ إحدى هاتين المعلومتين، فسأعرف الأخرى. كنت متأكدًا. لكن عقلي ظل يعود إلى كنيسة الطريق رقم 20 حيث انعطفنا وعُدا أدراجنا. كنيسة "دماء المُخلّص" على طريق هَنِيبي السريع. كثيرون كانوا يرون كينيدي مُخلّصًا، آل تمبلتون كان أحدهم قطعًا، وهو... اتسعت عيناى وانقطعت أنفاسى.

رن الهاتف في الغرفة الأخرى وسمعتُ سيّدي تجيبه، خافضةً صوتها لأنها تظننى نائمًا.

كلمات ال-ب الق-ير

تذكّرت اليوم الذي رأيت فيه اسم سيدي الكامل وجزء منه محجوب، فقرأتُ «دورس دَن». هذا كان تناغمًا كبيرًا. أغمضت عيني وتخيّلْتُ لوح الكنيسة. ثم تخيلت وضع يدي على -ب الق-ير.

فبقيت: كلمات ال

ملاحظات آل. كان لدي دفتر ملاحظاته!

لكن أين؟ أين الدفتر؟

فتحت سيّدي باب غرفة النوم ونظرت إلي.

- جيك؟ هل أنت نائم؟

- لا، مضجع بصمت فحسب.

- هل تذكرت شيئًا؟

- لا. آسف.
- ما زال أمامنا وقت.
- أجل. أتذكر أشياء جديدة كل يوم.
- عزيزي، ديكي كان المتصل، قال إن هناك جرثومة منتشرة في المدرسة وإنه أصيب بها، وسألني عما إذا كان يمكنني الذهاب إلى المكتبة غدًا ويوم الثلاثاء، وربما الأربعاء أيضًا.
- اذهبي، إذا لم تذهبي فسيذهب متحاملًا على نفسه، وهو لم يعد شابًا.
- في عقلي ومضت كلمتان كلافتة نيون عند مدخل حانة. كلمات ال، كلمات ال، كلمات ال.
- جلست جواري على الفراش.
- هل أنت متأكد؟
- سأكون بخير. ولن أكون وحيدًا، ممرضات دالاس المتجولات سيأتين غدًا، أتذكرين؟
- ممرضات دالاس المتجولات مهمتهن الأساسية في حالتي هي التأكد من أنني لا أهذي، وهذا قد يشير إلى نزيف في دماغي.
- صحيح. عند التاسعة. كل هذا مكتوب في الرزنامة، إذا نسيت. ود. إرتون...
- سيأتي عند الغداء. أتذكر.
- جيد يا جيك. هذا جيد.
- قال إنه سيجلب شطائر ومخفوق حليب. يريد تسميني.
- تحتاج إلى تسمين.
- بالإضافة إلى علاج طبيعي يوم الأربعاء، تعذيب ساقي في الصباح، وتعذيب ذراعي في العصر.

- لا أود أن أتركك وقد اقترب... تعرف
- إذا خطر لي شيء، فسأتصل بك يا سيدي.
- أمسكتُ يدي وانحنت قريباً مني حتى شممتُ عطرها ورائحة تبغ طفيفة في أنفاسها.
- هل تعدني؟
- نعم. بالتأكيد.
- سأعود مساء الأربعاء على أبعد تقدير. إذا لم يستطع ديكي مغادرة منزله يوم الخميس، فما من خيار سوى أن تظل المكتبة مغلقة.
- سأكون بخير.
- قبلتني قبلة خفيفة، وسارت نحو باب الغرفة، ثم استدارت.
- أكاد أمل أن يكون ديكي محقاً وأن هذا الأمر كله مجرد وهم. لا أطيق فكرة أننا نعرف ورغم معرفتنا ربما لا نستطيع منع وقوع الكارثة، وأننا ربما نكون جالسين في صالة المعيشة نشاهد التلفاز عندما...
- سأتذكّر.
- حقاً يا جيك؟
- لا بد لي.
- أومأت، لكن رغم إغلاق الستائر رأيت الشكوك على وجهها.
- يمكننا تناول العشاء قبل ذهابي. أغمس عينيك ودع القرص يؤدي مفعوله، لك أن تنام قليلاً.
- أغمضت عيني، متأكداً أنني لن أنام، ولا بأس، لأنني أردتُ أن أفكر بكلمات آل. وبعد لحظات شممت رائحة طعام يُطهى، رائحة شهية. عندما خرجت من المستشفى في البداية، وأنا ما أزال أتقيأ أو أتغوط كل عشر دقائق، كل الروائح كانت تثير نفوري. والآن تحسّن الوضع.

غشيني نعاس. رأيت آل جالسًا قبالي عند إحدى طاولات المطعم المعزولة، وقبعته الورقية مائلة فوق حاجبه، وصور ذوي الشأن من أهل البلدة تنظر إلينا، لكن هاري دننغ لم يعد على الجدار. كنت قد أنقذته. وربما في المرة الثانية أنقذته من فيتنام أيضًا. ما من وسيلة للتأكد.

سألني آل: ما زال الرجل يعيقك، أليس كذلك يا صاح؟
بلى. ما زال.

لكنك صرت قريبًا الآن.

ليس بما يكفي. ليست لدي فكرة عن مكان احتفاضي بدفتر ملاحظاتك اللعين.

احتفظت به في مكان آمن. هل يساعدك هذا على تضيق نطاق البحث ولو قليلًا؟

هممتُ بقول لا، ثم فُكّرت: كلمات آل آمنة. في مأمن. لأن...

فتحت عيني، وللمرة الأولى منذ أسابيع تقريبًا ارتسمت على وجهي ابتسامة عريضة.

كان الدفتر في صندوق أمانات.

فُتح الباب، وقالت سيدي: «هل أنت جائع؟ أبقى الطعام دافئًا».

- هه؟

- جيك، إنك نائم منذ أكثر من ساعتين.

اعتدلتُ جالسًا وأنزلتُ ساقي برشاقة على الأرضية.

- فلنأكل إذن.

الفصل السابع والعشرون

1

(الأحد) 1963/11/17

أرادت سيدي غسل الأطباق بعد العشاء، لكن قلت لها أن تذهب لحزم حقيبتها. كانت حقيبة زرقاء صغيرة، ذات حواف دائرية.

- رُكبتك...

- رُكبتي يمكنها تحمّل بضعة أطباق. عليك أن تتحركي الآن إذا أردت أن تخلدي إلى النوم مبكرًا.

فرغتُ من غسل الأطباق بعد عشر دقائق، وكانت أطراف أصابعي مجمدة، ثم رأيت سيدي واقفة عند الباب، حاملة حقيبتها الصغيرة وشعرها مُمَوَّج حول وجهها، بدت لي في غاية الجمال.

- جيك... أخبرني بأمر جيد واحد عن المستقبل.

فوجئتُ عندما خطرت لي أشياء قليلة. الهواتف الجواله؟ لا. المفجّرون الانتحاريون؟ على الأرجح لا. ذوبان القمم الجليدية في القطبين؟ ربما في وقت آخر.

ثم ابتسمتُ وقلت: «سأخبرك بأمرين بسعر أمر واحد: الحرب الباردة انتهت، والرئيس رجل أسود».

لاحت ابتسامة على شفتيها، ثم تلاشت عندما رأت أنني لم أكن أمزح. تدلّى فكها.

- أ تقول لي إن هناك زنجياً في البيت الأبيض؟

- نعم. لكن في زمني يفضّل أولئك الناس تسميتهم بالإفريقيين الأمريكيين.

- هل أنت جاد؟

- نعم. جاد.

- يا إلهي!

- كثيرون جدّاً قالوا ذلك تحديداً في اليوم التالي للانتخابات.

- هل... يؤدي عملاً جيداً؟

- الآراء متباينة. رأيي أنه يبلي بلاء حسناً ضمن الحدود المتوقعة، نظراً إلى التعقيدات.

ضحكت ساهمة.

- أظنني سأقود سيارتي إلى جودي ذاهلة.

سارت هابطة المنحدر أمام الباب، ووضعت حقيبتها في الكوب الذي يمثّل صندوق سيارتها البيتّل الخلفي، ثم أرسلت لي قُبلة عبر الهواء. ثم فتحت باب السيارة، لكن لم أستطع تركها تذهب هكذا. كنت عاجزاً عن الركض، د. إلرتون قال إنني لن أركض قبل ثمانية أشهر، وربما عام، لكنني سرت وأنا أعرج بأقصى سرعة قدرت عليها.

- مهلاً يا سيدي، مهلاً لحظة!

كان السيد كينوبنسكي جالساً على مقربة أمام بابه على كرسيه المدولب، مرتدياً سترة وممسكاً بمذياع موتورولا الذي يعمل بالبطاريات في حجره. وعلى الرصيف كانت نورما ویتن تسير ببطء نحو صندوق البريد عند الزاوية، مستندة إلى عصوين خشبيتين بدتا كعصي تزلج. التفتت ولوّحت لنا، وحاولت أن تبتسم برفع جانب وجهها المصاب.

نظرت سيدي إلي متسائلة في ضوء الشفق.

قلت: «أريد إخبارك بأمر فحسب، أريد أن أخبرك بأن معرفتك أفضل ما حدث لي في حياتي».

ضحكت وعانقتني قائلة: «ومعرفتك أفضل ما حدث لي أيضًا».

قَبَلْتُها مدة طويلة، ولاستمرت القبلة مدة أطول إذا لم نسمع تصفيقًا جافًا من السيد كينوينسكي.

ابتعدت سيدي وأمسكت بمعصمي.

- ستتصل بي، أليس كذلك؟ أيقني... ما العبارة التي تقولها؟ على اطلاع.

- حسنًا.

لم أكن أنوي إبقاءها على اطلاع، لا هي ولا ديكي، ولا الشرطة أيضًا.

- لأنك لا تستطيع تنفيذ هذه المهمة وحدك يا جيك، ما زلت ضعيفًا.

قلت مع نفسي: يجدر بي ألا أكون ضعيفًا.

- أعرف ذلك. اتصل بي حتى أعرف أنك وصلتِ بسلام.

وعندما انعطفت سيارتها واختفت، قال كينوينسكي: «يجدر بك أن تحافظ عليها يا أمبرسون، إنها نادرة».

قلت له: «أعرف». ولبثتُ واقفًا عند المدخل ريثما أطمئن على عودة السيدة ويتن من صندوق البريد دون أن تسقط.

وصلتُ بسلام.

وعُدْتُ إلى الداخل.

2

أولًا أخذت حلقة مفاتيحي من فوق منضدة الزينة، وقَلَبْتُ المفاتيح، مستغربًا عدم لجوء سيدي إليها لتحاول أن تستحث ذاكرتي بها... لكن بالطبع لا يمكنها أن تفكر بكل شيء. كانوا اثني عشر مفتاحًا. لم تكن

لدي فكرة عن الأبواب التي تفتحها، لكن عرفت أن مفتاح شليغ يفتح باب منزلي في... ساباتوس؟ ربما، لكن لم أكن متأكدًا.

وجدتُ في الحلقة مفتاحًا صغيرًا، منقوشًا عليه ف ك والرقم 775. مفتاح صندوق أمانات بالتأكيد، لكن في أي مصرف؟ فيرست كوميرشال؟ بدا كاسم مصرف، لكنه ليس صحيحًا.

أغمضتُ عيني ونظرت إلى الظلام. وانتظرت، متأكدًا مما أريد استحضاره... ونجحت. رأيت دفتر شيكات بغلاف من جلد تمساح صناعي. رأيت نفسي أفتحه. وجدت المهمة سهلة إلى درجة فاجأني. رأيت أعلى الشيك الأول اسمي في عالم الماضي وآخر عنوان رسمي لي أيضًا.

214 شارع ويست نيلي، شقة رقم 1

دالاس - تكساس.

قلت مع نفسي: ذلك هو المكان الذي سُرقتُ منه سيارتي. وخطر لي أيضًا: أوزوالد. اسم القاتل أوزوالد الأرنب. كلاً. بالطبع كلاً. إنه رجل، ليس شخصية كرتونية. لكن اقتربت من اسمه.

قلت: «إنني قادم إليك أيها السيد أرنب. لم أتخل عنك».

3

رن الهاتف بعيد التاسعة والنصف. وصلت سيدي إلى المنزل بسلام. - أفترض أنك لم تتذكر شيئًا، أليس كذلك؟ أنا كحشرة مزعجة، أعرف.

- لا شيء. وأنت أبعد ما تكونين عن أي حشرة مزعجة.
- ولن يقترب منها أوزوالد الأرنب مجرد اقتراب، إذا نجحتُ في مسعاي.
- وكذلك زوجته، التي ربما يكون اسمها ماري، وابنته الصغيرة، التي كنت شبه متأكد أن اسمها أبريل.
- كنتَ تمازحني عندما قلت إن زنجياً سيكون في البيت الأبيض، أليس كذلك؟
- ابتسمتُ.
- انتظري قليلاً. سوف ترين بنفسك.

4

1963/11/18 (الاثنين)

- جاءت الممرضتان، العجوز المهيبة، والشابة الجميلة، عند التاسعة صباحاً. بدأتا عملهما. وعندما شعرت العجوز بأنني تململتُ وارتسمت على وجهي تعابير الألم وتأوهتُ بما يكفي، ناولتني ظرفاً ورقياً بداخله قُرصان، وقالت: «للألم».
- لا أظن...
 - ابتلعهما. إنهما مجاناً.
 - كانت امرأة قليلة الكلام.
 - ألقيت القرصين في فمي، وأزحتهما بلساني جانباً إلى خدي، وشربت الماء. ثم استأذنتُ لأدخل الحمام. وهناك بصقتهما.
 - وعندما عدت إلى المطبخ، قالت الممرضة العجوز: «تقدّم جيد. لا تتعجل».
 - بالتأكيد.
 - قُبِضَ عليهم؟

- عُذْرًا، مَنْ؟
- الأوغاد الذين ضربوك.
- ... ليس بعد.
- هل كنت تفعل شيئاً لا ينبغي لك فعله؟
- ابتسمت لها أعرض ابتسامة لدي، ابتسامة كانت كرسيتي تقول عنها إنها تجعلني أبداً كمدّيع برنامج مسابقات تحت تأثير الكوكايين. وقلت: «لا أتذكر».

5

- جاء د. إرتون لتناول الغداء معي، وجلب شطائر لحم مشوي ضخمة، وشرائح بطاطس مقلية يتقطر منها الدهن، ومخفوق الحليب الموعود. أكلتُ أكبر قدر استطعت أكله. بدأت أستعيد شهيتي.
- قال: «تحدث مايك عن فكرة إقامة عرض منوعات آخر، وهذه المرة العائدات من أجلك. وفي النهاية رجحت كفة الآراء الحكيمة، قُدرة أهل البلدة الصغيرة على العطاء محدودة». أشعل سيجارة، وألقى علبة الثقاب في منفضة على الطاولة، وأخذ نفساً عميقاً. «هل من خبر عن قبض الشرطة على المجرمين الذين تكالبوا عليك؟ ماذا سمعت؟».
- لا شيء. لكن أستبعد القبض عليهم. أفرغوا محفظتي، وسرقوا سيارتي، وتفرقوا.
- ماذا كنت تفعل في ذلك الجزء من دالاس، على أي حال؟ لا يمكنني وصفه بالحي الراقي.
- يبدو أنني كنت أعيش هناك.
- لا أتذكر. ربما ذهبت لزيارة شخصٍ ما.
- هل تنال قسطاً كافياً من الراحة؟ أم إنك تُجهد ركبتيك؟

- لا أجهد نفسي.

لكن رأيتُ أنني سأجهدها كثيرًا عما قريب.

- ما زلت تغفو فجأة؟

- تحسّنتُ قليلًا من هذه الناحية.

- عظيم. أرى أن...

رن الهاتف.

- هذه سيدي، تتصل دومًا في أثناء استراحة الغداء.

- لا بد لي من المغادرة الآن على أي حال. سررتُ برؤيتك تزداد وزنًا

يا جورج. بلّغ السيدة الجميلة تحياتي.

أبلغتها. سألتني عما إذا استعدت أي ذكريات ذات صلة بمهمتي.

وعرفتُ من انتقاء كلماتها أنها تتصل من مكتب المدرسة الرئيسي،

وسيتعيّن عليها الدفع للسيدة كولريدج مقابل المكالمات البعيدة. ولدى

السيدة كولريدج، أمانة خزانة المدرسة، أذنان طويلتان.

قلت لها لا، ما من ذكريات جديدة، لكنني سأخلد إلى قيلولة وآمل أن

أتذكر شيئًا عندما أستيقظ. وأضفت أنني أحبها (استلطفْتُ قول كلام

صديق). ثم سألتها عن حال ديكي، وتمنيت لها عصرًا طيبًا، وأنهيت

المكالمة. بيد أنني لم أخلد إلى قيلولة، بل أخذت مفاتيح سيارتي

وحقيقتي اليدوية وذهبت إلى وسط المدينة، أملًا ألا تكون حقيقتي

خالية عندما أعود.

قُدت ببطء وحذر، لكن ركبتني ظلت تؤلمني عندما دخلت مصرف

فيرست كورن وأبرزتُ مفتاح صندوق أماناتي.

خرج الموظف من مكتبه ليقابلني، فتذكرتُ اسمه فورًا: ريتشارد

لينك. اتسعت عيناه قلقًا عندما مشيت نحوه وأنا أعرج.

- ماذا حدث لك يا سيد أمبرسون؟

- حادث سيارة.

تمنيت ألا يكون قد قرأ صفحة قسم الجرائم بصحيفة مورننغ نيوز، أو نسيها. لم أقرأها بنفسي، لكنها نُشرت: تعرض جورج أمبرسون، من جودي، للضرب والسرقة، ثم عُثر عليه فاقدًا الوعي، أُدخل مستشفى باركلاند. أردفتُ: «لكنني أتعافى جيدًا».

- يسرني سماع هذا.

كانت صناديق الأمانات في القبو. هبطت درجات السلم بقفزات صعبة. وعندما وصلنا استخدمنا مفتاحينا، وحمل لينك الصندوق إلى إحدى المقصورات ووضعه على مكتب صغير يتسع للصندوق بالكاد، ثم أشار إلى زر على الجدار.

- استدع ملفين عندما تنتهي، سيساعدك.

شكرته، وبعدما ذهب جذبت ستارًا عند مدخل المقصورة. كنا قد فتحنا قفل الصندوق، لكنه ما زال مغلقًا. حدقت إليه بقلب خافق، إذ يقبع بداخله مستقبل جون كينيدي.

فتحته. رأيت بالأعلى رزمة نقود وأشياء متفرقة من شقة شارع نيلي، ودفتر شيكات مصرف فيرست كورن، وبالأسفل حزمة أوراق مربوطة برباط مطاطي، مكتوب على الورقة الأولى مكان القتل. ما من اسم مؤلف، لكنه عملي. وأسفله دفتر ملاحظات أزرق: كلمات آل. حملته بين يدي، وداخلني يقين فظيع بأنني عندما أفتحه سأجد صفحاته خالية، إذ مسحها رجل البطاقة الصفراء.

رباه، لا.

فتحته. فواجهتني صورة تحديق إلي، وجه نحيل ليس على قدر كبير من الوسامة، شفاته معقوفتان بابتسامة أعرفها جيدًا. ألم أرها بنفسي؟ ابتسامة كأنها تقول أعرف ما يجري وأنتم لا تعرفون، أيها البائسون.

7

تلاحقت الذكريات وأنا جالس في المقصورة، أشهق منقطع الأنفاس. آيفي وروزيت في شارع مرسيدس. اسم عائلتهما تمبلتون، مثل اسم آل.

فتيات القفز على الحبل: أبي يقود غواصة.

مايك الصامت (مايك المقدس) من محل ساتلايت للإلكترونيات.

جورج دي موهرنشيلدت يمزق قميصه مثل سوبرمان.

بيلي جيمس هارغس والجنرال إدوين ووكر.

مارينا أوزوالد، رهينة القاتل الجميلة، واقفة أمام باب منزلي، رقم

214 بشارع ويست نيلي: رجاء، اعذر، هل رأيت الزوج؟

مستودع الكتب المدرسية بتكساس.

الطابق السادس، النافذة الجنوبية الشرقية، ذات أفضل إطلالة على

ساحة ديالي وشارع إلم، حيث ينحني نحو الممر السفلي الثلاثي.

بدأت أرتجف. أمسكتُ بأعلى ذراعي بقبضتي وذراعي معقودتان

بشدة فوق صدري. أَلْمَتَنِي اليسرى التي كُسرت بالأنبوب، لكنني لم

أحفل بالألم. كنت سعيدًا.

وعندما انحسر ارتجافي أخيرًا، وضعت الكتاب غير المكتمل ودفتر

الملاحظات الأزرق الثمين، وكل شيء، في حقيبتَي اليدوية. ضغطت الزر

الذي يستدعي ملفين. ثم تحققت مجددًا من الجزء الخلفي من الصندوق،

فوجدت شيئين، أحدهما خاتم الزواج الرخيص الذي اشتريته من متجر

رهن لأدعم به قصتي المختلفة في محل ساتلايت للإلكترونيات، والآخر

لهاية الأطفال الحمراء الخاصة بابنة أوزوالد الصغيرة (جون، ليست

أبريل). وضعتُ اللهاية في حقيبتِي اليدوية، والخاتم في جيب بنطالي. اعتزمتُ التخلص منه في طريقي إلى المنزل. عندما يحين الوقت، إذا حان، ستنال سيدي خاتماً أجمل بكثير.

8

سمعتُ طرقاً على زجاج، ثم صوت: «... بخير؟ سيدي، هل أنت بخير؟».

فتحت عيني، زاهلاً غير مدرك لمكاني، ثم نظرت إلى يساري، فرأيت شرطياً يطرق على نافذة سيارتي الشيفروليه. وعندئذٍ استوعبت. في منتصف الطريق إلى إيدن فالوز، إثر إرهابي ونشوتي ورعبي في الوقت نفسه من أنني قد أغفو فجأة، أوقفتُ السيارة فوراً عند أقرب مكان يمكنني الوقوف فيه. حدث هذا نحو الساعة الثانية. والآن، وفقاً لميلان الشمس، لا بد أن الساعة قرابة الرابعة.

أنزلتُ زجاج نافذتي وقلت: «آسف، أحسست فجأة بنعاس شديد، ورأيت أن التوقف هو الخيار الآمن».

أوماً قائلاً: «أجل، أجل، شرب الكحول يفعل ذلك. كم كأساً شربت قبل ركوب السيارة؟».

- لم أشرب. تعرضت لإصابة في رأسي قبل بضعة أشهر.

أدرت رأسي حتى يرى المكان الذي لم ينم فيه الشعر.

كاد أن يقتنع، لكن رغم ذلك طلب مني أن أزفر في وجهه. فعلت، فافتنع.

قال: «دعني أرى بطاقتك».

أخرجت له رخصة قيادتي الصادرة من تكساس.

سألني: «هل تعتزم القيادة حتى جودي؟».

- لا يا سيدي، إلى شمال دالاس فحسب، أقيم في مركز إعادة تأهيل اسمه إيدن فالوز.

كنت أتعرِّق، وتمنيت أن يفترض الشرطي أن تعرِّقي، إذا لاحظته، سببه نومي في سيارة مغلقة في يوم دافئ في نوفمبر. وتمنيت أيضًا، والقلق ينهشني، ألا يطلب رؤية ما بداخل الحقيبة التي على المقعد بجانبني. في عام 2011 بوسعي أن أرفض طلبًا كهذا، قائلًا إن النوم في سيارتي ليس سببًا كافيًا للتفتيش. لكن في عام 1963، بمقدور الشرطي أن يبحث كما يشاء. ما كان ليجد مخدرات، بل نقود، ومسودة كتاب في عنوانه كلمة قتل، ودفتر ملاحظات مليء بأوهام غريبة عن دالاس وجون كينيدي. هل كان الشرطي ليصطحبني إلى أقرب مركز شرطة ليستجوبني؟ أم إلى مستشفى باركلاند لتقييم سلامتي العقلية؟ متى سينتهي كل هذا؟

لبث الشرطي واقفًا هنيهة، كان ذا وجه كبير مُحمر كما ينبغي أن يكون وجه الشرطي التقليدي، ثم أعاد إلي رخصتي قائلًا: «حسنًا يا أمبرسون، عد إلى مكانك فالوز ذاك، واقترح عليك ألا تقود سيارتك الليلة عندما تصل إلى هناك، تبدو شاحبًا، بصرف النظر عن غفوتك».

- هذا تحديدًا ما أعتزم فعله.

رأيته عبر مرآتي الخلفية وأنا أبتعد، كان يشاهدني، وشعرت بأنني سأنام مجددًا قبل أن أغيب عن بصره، وهذه المرة دون مقدمات، سأنحرف عن الطريق إلى الرصيف، وربما أدهس شخصين أو ثلاثة قبل أن أقحم نافذة عرض متجر أثاث.

عندما أوقفت السيارة أخيرًا أمام كوكي الصغير ذي المنحدر المفضي إلى الباب الأمامي، كان رأسي يؤلمني، وعيناي تدمعان، وركبتي تنبض... لكن ذكرياتي عن أوزوالد ظلت راسخة وجليّة. وضعت حقيبتي على طاولة المطبخ واتصلت بسيدي.

قالت: «حاولت الاتصال بك عندما عدتُ إلى المنزل، لكنك لم ترد. قلقْتُ عليك».

- كنت في المسكن المجاور، ألعب الكريبيج مع كينوينسكي. هذه الأكاذيب كانت ضرورية. تعيَّن عليَّ تذكُّر هذا. وكان لا بد لي من توخي الحرص الشديد عندما أكذب، لأن سيدي تعرفني جيدًا. قالت: «حسنًا، هذا جيد». ثم دون توقف أو تغيير نبرة الصوت: «ما اسمه؟ ما اسم الرجل؟».

لِي أوزوالد. كادت أن تنتزع مني الاسم على حين غرة.

- م... ما زلت لا أعرف.

- ترددت. سمعتُ تردُّدك.

انتظرتُ سماع الاتهام المباشر، ممسكًا بالهاتف بشدة ألمتني.

قالت: «هذه المرة كاد الاسم أن ينبثق في ذهنك، أليس كذلك؟». وافقتها بحذر: «أحسستُ بشيء».

تحدثنا خمس عشرة دقيقة وأنا أنظر إلى الحقيبة التي بداخلها دفتر ملاحظات آل. طلبتُ سيدي مني الاتصال بها لاحقًا مساءً ذلك اليوم، ووعدتها بالاتصال.

9

قررتُ أن أنتظر إلى ما بعد برنامج هنتلي-برنكلي حتى أفتح دفتر الملاحظات الأزرق مرة أخرى. لم أتوقع أن أجد فيه معلومات ذات قيمة عملية في المرحلة الحالية. ملاحظات آل الأخيرة بدت غير منظمة يشوبها الاستعجال. لم يتوقع قط أن تمتد مهمة أوزوالد مدة طويلة كهذه. وأنا أيضًا لم أتوقع هذا. الوصول إلى ذلك الساخط التافه كان أشبه بالقيادة في طريق تتناثر فيه جذوع أشجار ساقطة. وفي

نهاية المطاف ربما ينجح الماضي في حماية نفسه. بيد أنني نجحت في إيقاف دَنَنخ، وأمدّني نجاحي بالأمل. خطرت لي أجزاء من خطة ربما تمكّنتني من إيقاف أوزوالد دون زهابي إلى السجن أو الكرسي الكهربائي في هَنتسفيل. إذ لديّ أسباب وجيهة للبقاء حرّاً، أهمها كانت في جودي مساء اليوم، على الأرجح تُطعم ديكي سيمونز حساء دجاج. عملت بنظام دقيق على جمع أغراضِي من أنحاء شقتي المهيأة للمرضى. وعدا عن آلتِي الكاتبة لم أرغب في ترك أي أثر لجورج أمبرسون خلفي عندما أغادر. تمنيت ألا أغادر قبل يوم الأربعاء، لكن إذا قالت سيدي إن ديكي تحسّنت صحته وإنها ستعود ليلة الخميس، فسأضطر إلى الاستعجال. وأين سأختبئ إلى حين اكتمال مهمتي؟ سؤال وجيه جدّاً.

أعلن بوق عن بدء نشرة الأخبار، وظهر تشيت هَنتلي: «بعدما أمضى عطلة نهاية الأسبوع في فلوريدا، حيث شاهد اختبار إطلاق صاروخ بولاريس، وزار والده المريض، كان يوم الرئيس كينيدي حافلاً، إذ ألقى خمسة خطابات في ظرف تسع ساعات».

هبطت طائرة مروحية، تابعة للقوات البحرية، وهتف حشدٌ كان في انتظارها. ثم أظهرت اللقطة التالية كينيدي وهو يقترب من الحشد الواقف خلف حاجز غير متقن الصنع، أزاح شعره الأشعث جانباً بيد وعدّل ربطة عنقه باليد الأخرى. سار بخطوات واسعة أمام مفرزة رجال الخدمة السرية، الذين كانوا يهرولون لمجاراته. شاهدتُ، مدهوئاً، الرئيس وهو ينسل عبر ثغرة في الحاجز ويندفع إلى حشد الناس، مصافحاً إياهم يميناً وشمالاً. بدا العملاء الذين يرافقونه مرتاعين وهم يلحقون به.

تابع هَنتلي: «هكذا كان المشهد في تامبا، حيث صافح كينيدي الناس لقراءة عشر دقائق. إنه يثير قلق الرجال الذين يتمثل واجبهم في

حمائته، لكنكم ترون أن حشود الناس يحبّون ما يجري، وهو أيضًا يا ديفيد، رغم مزاعم تحفّظه ها هو يستمتع بما تتطلبه السياسة».

تحرك كينيدي نحو سيارته الليموزين، وهو ما يزال يصافح الناس وتعانقه سيدات من حين لآخر. كانت السيارة ذات سقف متحرك، مثل التي سيذهب على متنها من مطار لوف فيلد إلى مواعده مع رصاصه أوزوالد. وربما كانت السيارة نفسها. لوهلة أظهر المقطع الأبيض والأسود وجهًا مألوفًا بين الحشد. جلستُ على الأريكة وشاهدت رئيس الولايات المتحدة يصافح وكيل المراهنات الذي تعاملتُ معه في تامبا.

لم تكن لدي وسيلة لمعرفة ما إذا كان روث صادقًا بشأن الزهري أم كان يردد شائعة فحسب، لكن إدواردو غوتيريز نقص وزنه كثيرًا، وخف شعره، وبدت عيناه مشوشتين، كأنه لا يعرف مكانه أو حتى مَنْ هو. ومثل رجال الخدمة السرية المرافقين لكينيدي، كان الرجال المحيطون به يرتدون معاطف منتفخة رغم حر فلوريدا. كانت لقطة خاطفة، ثم انتقل المقطع إلى كينيدي وهو يبتعد في سيارته المفتوحة التي لا توفر له أي حماية، وظل يلوّح مبتسمًا ابتسامته الواسعة.

عاد المُخرج إلى هنتلي، الذي ظهر وجهه خشن الملامح مبتسمًا بدوره: «لم يخلُ اليوم من جوانب طريفة يا ديفيد. في أثناء دخول الرئيس قاعة فندق "إنترناشونال إن"، حيث ينتظر أعضاء غرفة التجارة بتامبا حديثه... حسنًا، استمع بنفسك».

أظهرت لقطة دخول كينيدي، ملوِّحًا للجمهور الواقف، وعندئذٍ يظهر عجوز يرتدي بنطالًا جلدًا تقليديًا وقبعة، وبدأ يعزف مقطوعة "تحية للرئيس" على أكورديون أكبر منه. دُهِش الرئيس، بردة فعل متأخرة، ثم رفع كلتي يديه بحركة تدل على إعجابه ودهشته. لأول مرة رأيته كما صرت أرى أوزوالد، رجل عادي حقيقي. في ردة فعله المتأخرة وحركته

رأيت شيئاً أجمل من حس دعاة: حُبُّ للأشياء التي تدهشنا بغرابتها في الحياة.

كان ديفيد برنكلي أيضاً مبتسماً: «إذا أُعيد انتخاب كينيدي، فربما يُدعى ذلك الرجل للعزف في حفل التنصيب. وفي هذه الأثناء، في جنيف...».

أغلقت التلفاز، وعدت إلى الأريكة وفتحت دفتر آل. وبينما أتصفح، ظلمت أرى ردة فعل الرئيس، وابتسامته. حس دعاة، وحس غرابة. لا يملكهما الرجل الواقف عند نافذة الطابق السادس بمبنى مستودع الكتب. أثبت أوزوالد هذا مراراً وتكراراً، ومثل هذا الرجل لا حق له في تغيير التاريخ.

10

أُحِبُّتُ باكتشاف أن خمساً من الصفحات الست الأخيرة في دفتر ملاحظات آل ترصد تحركات لي في نيو أورلينز وجهوده العقيمة للسفر إلى كوبا عبر المكسيك. الصفحة الأخيرة فقط ركزت على التحركات المفوضية إلى الاغتيال، وهذه الملاحظات الأخيرة كانت شكلية روتينية. لا شك في أن آل احتفظ بهذا الجزء من القصة في ذاكرته، وعلى الأرجح رأى أنني إذا لم أقض على أوزوالد بحلول الأسبوع الثالث من نوفمبر، فقد فات الأوان.

63/10/3: أعود إلى تكساس. هو ومارينا منفصلان "على نحو ما". هي تعيش في منزل روث باين، أيزورهم غالباً في عطلات نهاية الأسبوع. يُوظَّف أ في مستودع الكتب بمساعدة من روث، عبر أحد الجيران (بويل فريزير). تقول روث عن أ «شاب ممتاز».

أ يعيش في دالاس في أيام العمل. مسكن مشترك.

63/10/17: أُيبدأ العمل في مستودع الكتب. نقل الكتب، تفريغ الشاحنات... إلخ.

63/10/18: أُيبلغ الرابعة والعشرين من عمره. روث ومارينا تقيمان له حفلًا مفاجئًا. أُيشكرهما، ويكي.

63/10/20: تُولد الابنة الثانية، تُسمّى أودري ريتشل. روث تصطحب مارينا إلى المستشفى (باركلاند) بينما أُفي العمل. البندقية في مرأب باين، ملفوفة ببطانية.

أُيتلقّى زيارات متكررة من عميل مكتب التحقيقات الفدرالي جيمس هوستي. تزيد من ارتياحه.

63/11/21: أُيذهب إلى منزل باين. يتوسّل مارينا أن تعود إليه. م ترفض. القشة التي تقصم ظهره.

63/11/22: أُيترك كل أمواله على منضدة الزينة لمارينا، وخاتم الزواج أيضًا. يذهب من إرفنغ إلى مستودع الكتب مع بويل فريزير. يحمل معه شيئًا ملفوفًا بورق بُني. يسأله بويل عنه. يقول أله: «قضبان ستائر لشقتي الجديدة». على الأرجح كانت بندقية مان-كارك مفككة. يركن بويل السيارة في ساحة عامة على بُعد مربعين سكنيين من مستودع الكتب. مسيرة 3 دقائق.

11:50ص: أُيبنى مخبأ قنص عند الركن الجنوبي الشرقي على الطابق السادس، مستخدمًا صناديق ورق مقوى لحجبه عن العمال على الجانب الآخر، الذي يعملون على بناء طابق جديد. غداء. لا أحد هناك سواه. كل الناس يترقّبون مرور الرئيس.

11:55ص: أُيركّب البندقية ويلقّمها.

12:29م: الموكب يصل إلى ساحة ديالي.

12:30م: أُيطلق ثلاث طلقات. الثالثة تقتل جون كينيدي.

أهم معلومة كنت أريدها، موقع مسكن أوزوالد، لم تُذكر في ملاحظات آل. كبحثُ رغبتني في قذف دفتر الملاحظات على الجانب الآخر من الصالة. نهضتُ وارتديت معطفي، وخرجت. حل الظلام تقريبًا، لكن رأيت رُبع قمر صاعدًا في السماء، وعلى ضوءه رأيت كينوبنسكي جالسًا متهدلاً على كرسيه المدولب، ومذياعه الموتورلا على حجره.

سرت هابطًا المنحدر واتجهت نحو الرجل وأنا أعرج. «كينوبنسكي؟ هل أنت بخير؟».

لوهلة لم يرد أو حتى يتحرك، فأيقنت أنه ميت. ثم رفع رأسه وابتسم قائلاً: «أستمع إلى موسيقى يا بُني. يشغلون أغنيات سوينغ على محطة كيه أيه إم تي، تعيدني إلى الأيام الخوالي، عندما لم يكن أحد يضاهيني في رقصة الليندي. لكنك لن تصدق هذا بمجرد النظر إلي الآن. أليس القمر جميلًا؟».

كان جميلًا جدًا. نظرنا إليه مدة دون كلام، وفكرت بالمهمة التي عليّ إنجازها. لم أعرف المكان الذي سيقضي فيه لي ليلته اليوم، لكن عرفت مكان بندقيته: مرأب منزل باين، ملفوفة ببطانية. فلنفترض أنني ذهبت إلى هناك وأخذتها. ربما لا أضطر إلى اقتحام المرأب، فهذا عالم الماضي، حيث لا يوصد المرء منزله في غالب الأحيان، ناهيك بم رأبه.

لكن ماذا لو كان آل مخطئًا؟ فهو قد أخطأ بشأن مخبأ البندقية قبل محاولة اغتيال ووكر. وحتى إذا وجدتُها هناك...

سألني كينوبنسكي: «فيم تفكر يا بُني؟ تبدو مغمومًا. أمل ألا تكون متاعب نساء».

ليس بعد. «لا. هل تقدّم نصائح؟».

- نعم سيدي، أفعّل. إنها الأمر الوحيد الذي يفلح فيه العجائز عندما لا يعود بمقدورهم فعل شيء.

- فلنفترض أنك عرفت أن رجلاً سوف يُقَدِّم على فعل سيئ، عازماً عليه أشد العزم. إذا أوقفت رجلاً كهذا مرة، فلنقل أقنعتَه بالعدول عن الفكرة بالكلام، فهل ترى أنه سيحاول مجدداً أم سيتخلى إلى الأبد عما اعتزم فعله؟

- يصعب الجزم. هل تفكر في احتمال أن الذي تسبَّب في تشويه امرأتك سوف يعود ويحاول إكمال مهمته؟

- شيء من هذا القبيل.

قال دون نبرة سؤال: «رجل مجنون».

- أجل.

- الرجال العقلاء غالباً ما يتعظون بسهولة، أما المجانين فنادرًا ما يتغيَّرون. رأيت هذا كثيرًا في أيام الغرب الأمريكي، قبل ظهور المصابيح الكهربائية والهواتف. تحذِّرهم، فيعودون. تضربهم، فيردُّون الضربة غدراً، ينالون منك أولاً، ثم يتفرغون لهدفهم الأساسي. تزج بهم في سجن المقاطعة، فينتظرون خروجهم بفارغ الصبر. الخيار الأكثر أماناً مع المجانين هو سجنهم لمدة طويلة. أو قتلهم.

- هذا ما أراه أيضًا.

- لا تسمح له بالعودة وإفساد بقية جمالها، إذا كان هذا ما يهدف إليه. إذا كنت تهتم لأمرها بقدر ما يبدو لي، فعلى عاتقك مسؤولية. بالتأكيد. لكن كلايتون لم يعد مشكلة. عدت إلى شقتي الصغيرة، وأعددتُ قهوة قوية، وجلست واطعًا أمامي مفكرة ذات أوراق صفراء. ازدادت خطتي وضوحًا قليلًا، وأردت أن أبدأ رسم التفاصيل.

لكنني حرَّكتُ قلمي ساهمًا، ثم نمت دون أن أشعر.

وعندما استيقظت، وجدت الوقت قد اقترب من منتصف الليل، وآلمني خدِّي حيث كان ملتصقًا على غطاء طاولة المطبخ. ثم نظرت إلى ما على الورقة. لم أعرف ما إذا رسمته قبل نومي أم استيقظت قبل مدة ورسمته ولم أتذكر.

كان رسم سلاح. ليس بندقية مانلكر-كاركانو، بل مسدس، مسدسي، الذي ألقيته أسفل سلم شرفة المنزل رقم 214 بشارع ويست نيلي. على الأرجح ما زال هناك. تمنيت أنه ما زال هناك. سأحتاج إليه.

11

(الثلاثاء) 1963/11/19

اتصلت سيدي في الصباح وقالت إن ديكي تحسّن قليلًا، لكنها تريد الحرص على بقاءه في المنزل غدًا أيضًا: «لأنه سيحاول الذهاب إلى العمل، وربما ينتكس. لكنني سأحزم حقيبتني قبل خروجي إلى المدرسة صباح الغد وأتجه إليك حالما تنتهي الحصة السادسة».

تنتهي الحصة السادسة عند الواحدة وعشر دقائق. لذا علي مغادرة إيدن فالوز بحلول الرابعة عصرًا غدًا على أبعد تقدير. لكن ليتني عرفت إلى أين.

- أتشوق لرؤيتك.

- صوتك ثقيل وغريب قليلًا، هل تعاني صداغًا؟

قلت: «صداغ طفيف». كنت صادقًا.

- استلقِ وضع على عينيك قطعة قماش رطبة.

قلت: «سأفعل». ولن أفعل.

- هل خطر لك شيء؟

نعم، خطر لي أن أخذ بندقية لي ليس كافيًا، وأن إطلاق النار عليه في منزل باين خيار سيئ، ليس خوفًا من احتمال القبض علي فحسب، بل نظرًا لوجود أربعة أطفال في ذلك المنزل، مع وضع طفلي روث في الحسبان. ورغم هذا ربما حاولتُ إذا وجدت لي ماضيًا من محطة حافلات على مقربة، لكنه يغدو ويروح مع بويل فريزير بسيارته، الجار الذي ساعد على توظيفه بناءً على طلب روث باين.

قلت: «لا، ليس بعد».

- سنفكر في حلٍّ ما. صبرًا.

12

قدت سيارتي (ببطء أيضًا لكن بثقة متزايدة) عبر البلدة إلى ويست نيلي، متسائلًا عما سأفعله إذا وجدت ساكنًا جديدًا في شقة الطابق الأرضي. سأشتري مسدسًا جديدًا... لكن أردت مسدسي 38،، حتى دون سبب سوى أنني كنت لدي مثله في ديري، وتلك المهمة نجحت.

وفقًا لمذيع الأخبار فرانك بلير في برنامج *توداي*، واصل كينيدي رحلته إلى ميامي، حيث استقبله حشد كبير من ذوي الأصول الكوبية، بعضهم يحملون لافتات مكتوبًا عليها: عاش جون إف كينيدي، وآخرون رفعوا لافتات: كينيدي خائنٌ لقضيتنا. إذا لم يتغير شيء، فأمامه اثنتان وسبعون ساعة. وأوزوالد، الذي سيمتد عمره مدة أطول قليلًا، سيكون في مستودع الكتب، على الأرجح يضع صناديق في أحد مصاعد الشحن، وربما يكون في غرفة الاستراحة يشرب قهوة.

ربما أتمكن من الوصول إليه هناك. أسير نحوه وأرديه ببساطة. لكن سأحاصر وأطرح أرضًا. بعدما أقتله، إذا حالفني الحظ، وقبل أن أقتله إذا لم يحالفني. وفي كلتا الحالتين، المرة التالية التي أرى فيها سيدي دنهل، سأراها عبر زجاج مقوَّى وأسلاك شائكة. ماذا لو اضطررت إلى التضحية بنفسي، كما يقال عن الأبطال، في سبيل إيقاف أوزوالد؟ رأيت

أن بوسعي التضحية، لكن لم أرغب في اتخاذ الأمور هذا المنحى. أردت الاحتفاظ بسيدي وبالكعكة أيضًا.

رأيت آلة شواء في مرجة منزل ويست نيلي، وكرسياً هزازاً جديداً على الشرفة، لكن الستائر مغلقة، وما من سيارة عند المدخل. أوقفت سيارتي أمام الباب، قائلاً لنفسي إن الجرأة جميلة، وصعدت درجات السلم. وقفتُ حيث وقفتُ مارينا في العاشر من أبريل عندما جاءتني، وطرقتُ كما طرقتُ. إذا فتح أحدُ الباب، فسأكون فرانك أندرسون، أمشطُ الحي بتكليف من موسوعة بريتانیکا، وإذا عبّرت سيدة المنزل عن اهتمامها، فسأعدها بالعودة بعينة غذا.

لم يستجب أحدٌ للطرق. ربما تكون سيدة المنزل أيضًا تزاوّل عملاً. ربما ذهبت إلى مكان قريب، في زيارة لإحدى الجارات. ربما تكون في الحمام الذي كان حمامي قبل مدة ليست طويلة، نائمة إثر ثمالة. كان المنزل هادئاً، وهذا أمر مهم. وكان الرصيف خالياً. حتى السيدة ألبرتا هتشنسون حارسة الحي صاحبة المشاية، لم يبدُ لها أثر.

هبطت من الشرفة بمشيتي الجانبية العرجاء، وواصلت السير عبر الممشى، ثم استدردت كأنني نسيت شيئاً، وألقيت نظرة أسفل درجات السلم. رأيت 38. ما زال هناك، نصفه مدفون بأوراق الشجر وماسورته القصيرة ناتئة. جثوثٌ على ركبتَي السليمة والتقطته، ووضعته في جيب معطفي الرياضي. نظرتُ إلى ما حولي فلم أرَ أحداً ينظر إلي. عرجتُ إلى سيارتي، ووضعت المسدس في صندوق القفازات، وانطلقت مبتعداً.

13

وبدلاً من العودة إلى إيدن فالوز، ذهبت إلى وسط دالاس، وتوقفت عند متجر مستلزمات رياضية واشترت معدات تنظيف أسلحة وصندوق رصاص جديداً. آخر ما كنت أريده هو تعطلُ مسدسي أو انفجاره في وجهي.

محطتي التالية كانت فندق أدولفس. أخبرني البواب بعدم توفر أي غرفة حتى الأسبوع القادم، كل فندق في دالاس امتلأ عند اقتراب زيارة الرئيس، لكن مقابل دولار إكرامية، كان مسرورًا بالسماح لي بركن سيارتي في موقف الفندق، وقال: «لكن عليك أن تغادر قبل الساعة الرابعة، عندئذٍ يكثر النزلاء».

كان الوقت ظهرًا. لا يفصل الفندق عن ساحة ديالي سوى ثلاثة أو أربعة مربعات سكنية، لكنني تمهّلت في سيري، كنت مرهقًا، واشتد صداعي رغم تناولي مسحوق غودي. يقود سكان تكساس سياراتهم بأبواقها، وكل بوق كان ينهش دماغي. ظللت أستريح بين الفينة والأخرى، أتكى على المباني، وأقف على ساقي السليمة مثل بلشون. سألني سائق سيارة أجرة متوقف عما إذا كنت بخير، فطمأنته أنني بخير. كذبت. كنت بائسًا مكروبًا، رجلًا ذا ركبة معطوبة لا ينبغي له أن ينوء بحمل مستقبل العالم على عاتقه.

ارتميتُ على المقعد نفسه الذي جلست عليه عام 1960، بعد أيام من وصولي إلى دالاس. وشجرة الدردار التي ظللتني يومذاك وجدت فروعها جرداء اليوم. مددت ساقي النابضة بالألم، وأطلقت تنهيدة ارتياح، ثم ركزت انتباهي على مبني مستودع الكتب القرميدي القبيح. النوافذ المطلة على شارعِي هيوستن وإلم التمعت عاكسة شمس العصر. قالت: نعرف سرًا. سوف نصبح مشهورين، لا سيما النافذة التي عند الركن الشمالي الشرقي بالطابق السادس. سوف نصبح مشهورين، ولا يمكنك الوقوف في طريقنا. سربل المبني إحساس حقد سخيف. هل كنت وحدي من أحس بهذا؟ شاهدت عدة أشخاص يعبرون شارع إلم ويتجاوزون المبني على الجانب الآخر، واستبعدتُ أن أكون وحدي. كان لي داخل المبني عندئذٍ، وكنت متأكدًا أنه يفكر في أشياء كثيرة أفكر فيها. هل يمكنني فعل هذا؟ هل سأفعل هذا؟ هل هذا مصيري؟

قلت مع نفسي: روبرت لم يعد شقيقك، الآن أنا شقيقك يا لي، شقيقك في السلاح. لكنك لا تعرف.

هدر محرك في ساحة قطارات خلف المستودع، فطار سرب حمام،
حلّقن لحظات فوق لوحة هيرتز الإعلانية المثبتة على سقف المستودع،
ثم ابتعدن في اتجاه فورت وورث.

إذا قتلت لي قبل يوم الثاني والعشرين، سيعيش كينيدي، لكن حتمًا
سينتهي بي المطاف في سجن أو مصحة أمراض عقلية لعشرين أو
ثلاثين سنة. لكن ماذا لو قتلت يوم الثاني والعشرين في أثناء تركيبه
بندقيته؟

الانتظار حتى اللحظات الأخيرة من اللعبة ينطوي على مخاطر جمّة،
أحدها بذلت كل ما بوسعي لتفاديه، لكن رأيت أن بوسعي النجاح.
ورأيت أن خطتي الحالية هي أفضل فرصة متاحة لي على الأرجح. لكان
وضعي أكثر أمانًا مع شريك يساعدني على إدارة اللعبة، لكن ليس لدي
أحد سوى سيدي، ولم أرغب في توريطها. مغمومًا أدركت أنني لن أرغب
في توريطها حتى إذا كانت العواقب موت كينيدي أو دخولي السجن.
تعرضت سيدي لما يكفي من الأذى.

شرعت في سيري البطيء عائداً إلى الفندق وسيارتي. ألقيت نظرة
أخيرة على مستودع الكتب فوق كتفي، فرأيت أنه ينظر إلي، لم يراودني
شك في هذا. بالطبع سيكون مشهد النهاية هناك، كنت مغفلاً بتخيُّلي
احتمالاً آخر. كنت أقاد إلى ذلك المبنى القرميدي كثور في الممر الأخير
بمسلخ.

14

(الأربعاء) 1963/11/20

أجفلتُ مستيقظًا عند الفجر من حلم لم أتذكره، وقلبي يخفق بشدة.
إنها تعرف.

تعرف ماذا؟

تعرف أنك تكذب عليها بشأن كل الأشياء التي تزعم أنك لا تتذكرها.

قلت بصوت مبجوح من النوم: «لا».

أجل. حرصتُ على قول إنها ستغادر جودي بعد الحصة السادسة، لأنها لا تريدك أن تعرف أنها تخطط للمغادرة في وقت أبكر بكثير، لا تريدك أن تعرف إلى أن تصل إليك. بل ربما تكون في الطريق سلفًا. وستكون أنت في جلسة علاجك الصباحي، وعندئذٍ ستدخل عليك. لم أرغب في تصديق هذا، لكنه أمر محتوم.

إذن إلى أين سأذهب؟ في أثناء جلوسي على السرير في فجر يوم الأربعاء ذاك، بدت وجهتي أيضًا أمرًا محتومًا. كأنما ظل عقلي الباطن يعرف من البداية. للماضي صدى يتردد.

لكن أولًا أردت أداء مهمة بآلتي الكاتبة المستعملة، مهمة ثقيلة على نفسي.

15

20 نوفمبر 1963

عزيزتي سيدي..

كنت أكذب عليك في الآونة الأخيرة، ربما راودتك شكوك منذ مدة ليست قصيرة. أظنك تخططين للعودة مبكرًا اليوم، لذا لن تريني مجددًا إلى ما بعد زيارة كينيدي لدالاس بعد يوم غد.

إذا سارت الأمور كما أمل، فسنحظى بحياة مديدة سعيدة معًا في مكان مختلف، سيكون غريبًا عليك في البداية، لكن ستعتادين، سأساعدك. أحبك، لذا لن أسمح لك بأن تكوني جزءًا مما أفعله.

أرجوك ثقي بي، أرجوك تحلّي بالصبر، وأرجوك لا تُفاجئني إذا قرأت اسمي ورأيت صورتي في الصحف...

إذا سارت الأمور كما أريد، فهذا ما سيحدث على الأرجح. والأهم من كل شيء، لا تحاولي معرفة مكاني والوصول إليّ.

مع كل حُبي،

جيك

احرقى هذه الرسالة.

16

حزمت حياتي، حياة جورج أمبرسون، في صندوق سيارتي الشيفروليه ذات الجناح الخلفي، ثم تركت على الباب ملاحظة لمعالجي، وانطلقت بالسيارة شاعرًا بانقباض وحنين للديار. غادرت سيدي جودي في وقت أبكر مما ظننت، قبل الفجر. رحلتُ عن إيدن فالوز عند التاسعة. وأوقفتُ سيارتها جوار الرصيف عند التاسعة والربع، قرأتِ الملاحظة التي ألغيتُ بها جلسة العلاج، ودخلتُ بالمفتاح الذي أعطيته لها. بالداخل وجدتُ ظرفًا عليه اسمها مستندًا إلى الآلة الكاتبة، مزقته، وقرأت الرسالة. جلست على الأريكة قبالة التلفاز المظلم، وبكتُ. وكانت ما تزال تبكي عندما جاء المعالج... لكنها قد أحرقت الرسالة، كما طلبتُ منها.

17

وجدتُ شارع مرسيدس صامتًا تقريبًا تحت سماء غائمة. لم أر فتيات القفز على الحبل، على الأرجح في المدرسة، وربما يستمعن بتركيز إلى أستاذتهن وهي تخبرهن عن الزيارة الرئاسية المرتقبة. لكن لافئة للإيجار أعيدت مجددًا إلى حاجز الشرفة المتضعع، كما توقعت. وكُتِبَ على اللافتة رقم هاتف. قُدتُ إلى موقف سيارات مونتغمري وارد، واتصلت بالرقم من كابينة الهاتف المجاورة لرصيف التحميل. لم يداخلني شك

في أن الرجل الذي أجابني باقتضاب: «نعم، معك ميريت»، كان الرجل نفسه الذي أُجّر المنزل رقم 2707 للي ومارينا. ما زلت أتذكر قبعته ماركة ستيتسون وحذاءه المزخرف.

أخبرته بما أريد، فضحك غير مصدق: «لا أُوَجّر بالأسبوع. إنه منزل ممتاز يا صديقي».

قلت: «إنه مكب نفايات. رأيته من الداخل. أعرف».

- مهلاً لحظة، انتظ...-

- لا يا سيّدي، أنت انتظر. سأعطيك خمسين دولارًا مقابل المكوث في ذلك المكب لحين انقضاء عطلة نهاية الأسبوع. هذا ثمن إيجار شهر كامل تقريبًا، ولك أن تعيد تعليق لافتتك يوم الاثنين.

- لِمَ عساك أن...-

- لأن كينيدي قادم وكل فندق في دالاس وفورت وورث ممتلئ. أتيت من مكان بعيد لأراه، ولا أنوي التخييم في فير بارك أو ساحة ديالي.

سمعتُ نقرة وهسيس قداحة سجائر وميريت يفكر بالعرض.

قلت: «الوقت يَمُر».

- ما اسمك يا رجل؟

- جورج أمبرسون.

تمنيت لو أنني دخلت المنزل دون الاتصال بصاحبه. كدت أن أفعل، لكن آخر ما كنت أحتاج إليه هو زيارة من شرطة فورت وورث. استبعدتُ من سكان شارع يُفجّر فيه الدجاج أحيانًا احتفالًا بالأعياد أن يكثرثوا بمن يقيمون في منازل دون علم أصحابها، لكن توخي الحذر خير من الندم. لم أعد أسير حول بيت الورق، بل أعيش فيه.

- سأقابلك أمام المنزل بعد نصف ساعة، أو خمس وأربعين دقيقة.

- ستجدني بالداخل. معي مفتاح.

صمّت قليلاً، ثم سألتني: «أين وجدته؟».

لم أرغب في الوشاية بأيّفي، رغم أنها ما زالت بعيدة في موزيل، فقلت: «أخذته من لي، لي أوزوالد. أعطاني إياه حتى أدخل وأسقي نباتاته».

- ذلك الحقيق كان لديه نباتات؟

أنهيت المكالمة، وقُدت عائداً إلى المنزل رقم 2703. ووصل صاحب المنزل، ربما مدفوعاً بفضوله، بسيارته الكرايسلر بعد خمس عشرة دقيقة فقط. جاء معتمراً قبعته ومنتعلاً حذاءه الأبيض. كنت جالساً في الصالة، أستمع إلى جدالات أشباح الذين ما زالوا أحياء. تكلموا كثيراً.

أراد ميريت أن يعرف مني معلومات عن أوزوالد: هل هو شيوعي حقاً؟ قلت لا، إنه فتى طيب من لويزيانا يعمل في مكان سيكون مُطلّاً على موكب الرئيس يوم الجمعة. قلت إنني أمل أن يسمح لي لي بمشاركته موقعه الممتاز.

كاد ميريت أن يصيح: «كينيدي اللعين! هو الشيوعي بالتأكيد. يجب أن يطلق شخص النار على ذلك الوغد».

قلت وأنا أفتح الباب: «طاب يومك».

ذهب، لكنه لم يكن سعيداً بسلوكي، إذ اعتاد من مستأجريه الانكماش والمداهنة. استدار عند الممشى الخرساني المشقق وقال: «حافظ على المكان مرتّباً كما وجدته، سمعت؟».

التفتُ ونظرت إلى أنحاء صالة المعيشة بسجاداتها التي يتخللها الطحالب، والجص المشقق، والكرسي المكسور. قلت: «مهمة سهلة».

عاودتُ الجلوس وحاولت استعادة اتصالي بالأشباح: لي ومارينا، مارغريت ودي موهرنشيملت. لكن غشيتني غفوة مفاجئة، كما يحدث لي في الآونة الأخيرة. وعندما استيقظت، ظننت أن الأزوجة التي سمعتها صدى لحلم مُتلاش.

«شارلي شابلن سافر إلى فرنسا! ليشاهد النساء يؤدين الرقصة!».

ظللت أسمعها بعدما فتحت عيني. ذهبت إلى النافذة ونظرت إلى الخارج. بدت فتيات القفز على الحبل أطول وأكبر سنًا قليلًا، لكنهن أنفسهن بالتأكيد، الثلاثي الرهيب. التي في المنتصف بدا وجهها مرقطًا، لكن سنها أصغر بأربع سنوات على الأقل من سن حب الشباب. خَمَنْتُ أنها مصابة بالحصبة الألمانية.

«تحية للقبطان!».

تمتعت: «تحية للملكة!». وذهبت إلى الحمام لأغسل وجهي. تدفقت مياه صدئة من الصنبور، لكن باردة بما يكفي لإيقاظي تمامًا. كنت قد تخلّيت عن ساعتِي المعطلة، واشترت بدلًا منها ساعة تايمكس رخيصة. رأيته تشير إلى الثانية والنصف. لم أكن جائعًا، لكن كان لا بد أن أتناول شيئًا، ففُدت السيارة إلى حانة ومطعم مستر لي. وعند عودتي توقفت أمام صيدلية لأشتري صندوقًا آخر من مسحوق الصداغ. واشترت أيضًا كتابين من مؤلفات جون دي مكدونالد.

لم أجد فتيات القفز على الحبل. ووجدت شارع مرسيدس، الصاخب عادةً، هادئًا هدوءًا غريبًا. قلت مع نفسي: كمسرحية قبل رفع ستار المشهد الأخير. دخلت لأتناول وجبتي، لكن رغم أن لحم الأضلاع كان ذا نكهة مميزة وطريًا، في النهاية أُلقيت معظمه في القمامة.

18

حاولت أن أنام في غرفة النوم الرئيسية، لكن هناك كان شبها لي ومارينا نشطين جدًا. وبعد منتصف الليل بقليل ذهبت إلى غرفة النوم الأصغر. رأيت فتيات كريولا روزيت ما زلن على الجدران، وبطريقة ما أحسست براحة عند النظر إلى كنزاتهن المتطابقة (لا بد أن الأخضر الداكن كان لون روزيت المفضل) وأحذيتهم السوداء الكبيرة. خطر لي

أن أولئك الفتيات قد يرسمن ابتسامة على وجه سيدي، لا سيما التي ترتدي تاج ملكة جمال أمريكا.
قلت: «أحبك عزيزتي». ونمت.

19

(الخميس) 1963/11/21

لم تكن رغبتي في تناول الإفطار أقوى من رغبتي في تناول العشاء في الليلة السابقة، لكن بحلول الساعة الحادية عشرة صباحًا، انتابتنني رغبة عارمة في شرب القهوة، جالون أو نحوه بدا كافيًا. أخذت أحد كتابي الجديدين، كان عنوانه أغلق الباب الكبير. قدت السيارة إلى مطعم هابي إغ على طريق برادوك السريع. وجدت التلفاز خلف نضد البيع يعمل، وشاهدت قصة إخبارية عن وصول كينيدي الوشيك إلى سان أنتونيو، حيث سيستقبله ليندون وليدي بيرد جونسون، وسينضم إلى الحفل أيضًا الحاكم جون كونالي وزوجته نلي.

وفوق لقطات لكينيدي وزوجته وهما يسيران على مدرج قاعدة أندروز الجوية في واشنطن، متجهين إلى الطائرة الرئاسية ذات اللونين الأزرق والأبيض - ظهرت مراسلة بدت على وشك التبول في ملابسها وتحدثت عن «تسريحة شعر جاكلي الجديدة، وقبعة البيرييه السوداء، وفستانها المكون من قطعتين، من مصممها المفضل أوليغ كاسيني». كاسيني ربما يكون مصممها المفضل، لكنني كنت أعرف أنها تحتفظ بملابس أخرى في الطائرة، مصممها كوكو شنيل، بدلة صوفية وردية تزيئها ياقة سوداء، وبالطبع معه قبعة وردية صغيرة، وستناسب البدلة باقة الورود التي ستهدى إليها في مطار لوف، فيلد، لكنها لن تناسب الدماء التي ستتناثر على تنورتها وجوربيها وحذاءها.

عدت إلى شارع مرسيدس وقرأت كتابي. انتظرت من الماضي العنيد أن يسحقني كأنني ذبابة مزعجة، أن ينهار السقف فوقني أو تنخسف الأرض بالمنزل وما فيه. نظفت مسدسي، ولقمته، ثم أفرغته من الرصاص ونظفته مجدداً. كدت أتمنى أن تغشاني إحدى غفواتي المفاجئة، لساعدتني على قتل الوقت على الأقل. لكن هذا لم يحدث. مرّت الدقائق بطيئة، وتحولت على مضض إلى ساعات، كل ساعة تقرب كينيدي إلى تقاطع شارعي هيوستن وإلم.

قلت مع نفسي: ما من غفوات مفاجئة اليوم. ستكون غداً. عندما تحين اللحظة الحرجة سأغيب عن الوعي دون سابق إنذار. وعندما أفتح عيني سأجد الحادثة قد وقعت والماضي قد نجح في حماية نفسه.

هذا قد يحدث. كنت مدرّكاً لإمكانية حدوثه. وإذا حدث، فسيتمنّي علي اتخاذ قرار: إما أن أذهب إلى سيدي وأتزوجها، وإما أن أعود وأبدأ من جديد. إثر تفكير بسيط أدركت أن ما قرار علي اتخاذه، إذ ليست لدي القوة لأعود وأبدأ من جديد. بطريقة أو بأخرى، هذه هي النهاية. الرصاصة الأخيرة في بندقية الصياد.

في تلك الليلة اجتمع كينيدي وجونسون وكونالي وزوجاتهم في هيوستن وتناولوا العشاء معاً، وقد نظم العشاء جمعية المواطنين اللاتينيين الأمريكيين. جاء الطعام من المطبخ الأرجنتيني: سلطة روسية، ويخنة اسمها غيسو. ثم ألقت جاكلي كلمة ما بعد العشاء بالإسبانية. تناولت شطيرة برغر وشرائح بطاطس... أو بالأحرى حاولت. بعدما أخذت بضع قضمات، ذهبت هذه الوجبة أيضاً إلى سلة القمامة بالخلف.

كنت قد أكملت قراءة روايتي مكدونالد. فكرت بإخراج كتابي غير المكتمل من صندوق السيارة الخلفي، لكن مجرد التفكير بقراءته أثارت غثياني. فاكتفيت بالجلوس على الكرسي المكسور ذي الذراعين حتى هبط الظلام بالخارج. ثم ذهبت إلى غرفة النوم الصغيرة حيث

كانت روزيت تمبلتون وجُون أوزوالد تنامان. نزعْتَ حذائي واستلقيت بملابسي، وأسندت رأسي على وسادة جلبتها من كرسي صالة الجلوس، وكنت قد تركت الباب مفتوحًا ومصباح الصالة مضاءً، وبضوئه الخافت رأيت فتيات روزيت بكنزاتهن الخضراء. أدركت أن ليلتي ستجعل نهاري الطويل يبدو قصيرًا، توقعت أن أظل مضجعًا مستيقظًا، وقدمي تتدليان عند نهاية الفراش وتكادان تلامسان الأرضية، إلى أن تتسلل أول خيوط ضوء فجر الثاني والعشرين من نوفمبر عبر النافذة.

كانت ليلة طويلة فعلاً. أرَّقني التفكير في "ماذا لو" و"كان ينبغي"، وعذَّبني التفكير بسيدي، اشتد شوقي إليها حتى شعرتُ به مرضًا عضويًا. وفي وقتٍ ما، على الأرجح بعد منتصف الليل بمدة طويلة (كنت قد تخلّيت عن النظر إلى ساعتِي، حركة عقاربها البطيئة كانت تزيدني كآبة)، نمتُ نومًا عميقًا بلا أحلام. الرب وحده يعلم إلى متى كنت سأنام في الصباح التالي إذا لم أوقظ. أحسستُ بشخصٍ ما يهزُّني بلطف.

- هيا جيك، افتح عينيك.

فتحتهما، لكن عندما رأيت الجالس بجانبِي على الفراش، أيقنت أنني أحلم، ثم مددت يدي، ولامست ساق بنطال الجينز الباهت، وتحسست القماش براحة يدي. كان شعرها معقودًا أعلى رأسها، ووجهها خاليًا تقريبًا من المكياج، وبدا تشوُّهٌ خدها واضحًا. كانت سيدي. بحثتُ عني ووجدتني.

الفصل الثامن والعشرون

1

(الجمعة) 1963/11/22

اعتدلتُ جالسًا وعانقتها دون تفكير، وعانقتني بكل ما لديها من قوة. ثم قبَّلْتُها، متذوِّقًا حقيقة وجودها، مزيج روائح التبغ وعطر أيفون، وجدتُ مذاق أحمر الشفاه طفيفًا، إذ لعقت معظمه في خضم توترها. شممتُ الشامبو في شعرها، ومزيتُ عرقها، ورائحة العرق الدهني الناجم عن التوتر. وتحسستُ جسدها كله، وركبها ونهديها وندبة خدها. كانت موجودة.

سألتها: «كم الساعة؟». توقفت ساعتَي الموثوقة.

- الثامنة والربع.

- هل تمزحين؟ مُحال!

- إنها الثامنة والربع. ولست متفاجئة، حتى إذا تفاجأت أنت. منذ

متى تنام أي نوم سوى غفواتك المفاجئة القصيرة؟

كنت ما أزال أحاول استيعاب وجود سيدي في فورت وورث، في المنزل الذي عاش فيه لي ومارينا. كيف يُعقَل هذا؟ باسم الرب، كيف؟ وهذا لم يكن الأمر الأهم. كينيدي أيضًا في فورت وورث، وفي هذه اللحظة يلقي كلمة ما بعد الإفطار أمام أعضاء غرفة التجارة المحلية في فندق تكساس.

قالت: «حقيبتني في سيارتي. هل سنستقل البيتل إلى المكان الذي سنذهب إليه الآن أم الشيفروليه؟ البيتل ربما تكون أفضل، يسهل ركنها. ربما نضطر إلى دفع مبلغ كبير مقابل المساحة إذا لم نتحرك الآن. الانتهازيون خرجوا إلى الشوارع سلفاً ملوِّحين بأعلامهم. رأيتهم».

- سيدي...

هزرت رأسي محاولاً ترتيب أفكارى، والتقطت حذائى. اعتركت في رأسي أفكار كثيرة لم أستطع استجلاء أي فكرة منها.

- أنا هنا.

أجل. وهذه هي المشكلة.

- ينبغي ألا تذهبي معي، المهمة خطيرة. أظنني شرحتُ لك هذا، لكن ربما لم أكن واضحاً بما يكفي. عندما تحاولين تغيير الماضي، يقاومك، ويعضُّك، وسيمزقك إرباً إذا سنحتُ له فرصة.

- كنتَ واضحاً. لكنك لا تستطيع تنفيذ المهمة وحدك. واجه الواقع يا جيك، ازداد وزنك قليلاً، لكنك ما زلت هزيلًا. وتخرج عندما تمشي، عرجاً سيئاً بيئاً، وتضطر إلى التوقف لتريح ركبتيك كل مئتين أو ثلاثمئة خطوة. ماذا ستفعل إذا اضطررت إلى الهروب؟

لم أُرِد، لكنني كنت أستمع، وأعدت تشغيل ساعتى وضبطها في أثناء استماعي. تابعت: «وذلك ليس أسوأ ما في الأمر، أنت... مهلاً! ماذا تفعل؟». أمسكتُ بفخذها.

- أتأكد أنك حقيقية، ما زلت غير قادر على التصديق.

ستهبط الطائرة الرئاسية بمطار لوف فيلد بعد نحو ثلاث ساعات، وشخصٌ ما سيعطي جاكى كينيدي وروداً. عند وصولها إلى أماكن أخرى في تكساس أُعطيت ورود صفراء، لكن باقة دالاس ستكون حمراء.

- إنني حقيقية وهنا. اسمعني يا جيك، أسوأ ما في حالتك ليس ضعفك وإصابة ركبتك، بل نومك المفاجئ المتكرر. ألم تفكر بهذا؟

فكرتُ كثيرًا.

تابعتُ: «ما دام الماضي شريرًا، بحسب ما قلته، فماذا سيحدث إذا نجحتَ في الاقتراب من الرجل الذي تطارده قبل أن يضغط الزناد؟». الماضي ليس شريرًا بمعنى الكلمة، لكنني فهمت مقصد سيدي ولم أستطع مجادلتها.

- إنك لا تعرفين ما تورطين نفسك فيه.

- أعرف تمام المعرفة. وأنت نسيت أمرًا في غاية الأهمية...

أمسكتُ بيدي ونظرت إلى عيني، وتابعتُ: «لستُ فتاتك فحسب يا جيك... وإذا كنت ما زلت تراني كذلك...».

- هذا تحديدًا سبب ذعري من ظهورك هنا فجأة هكذا.

- تقول إن رجلًا سيطلق النار على الرئيس، ولدي ما يدعوني لتصديقك، بناءً على تنبؤاتك الأخرى التي تحققت. حتى ديكي شبه مقتنع، قال: "عرف أن كينيدي قادم قبل أن يعرف كينيدي نفسه، عرف حتى يوم زيارته وساعتها. وعرف أيضًا أن السيدة الأولى سترافق الرئيس". لكن تقول كل هذا كأنك الوحيد الذي يهتم. لستَ الوحيد. ديكي أيضًا يهتم، لكان هنا إذا لم يكن مريضًا يعاني حمى شديدة. وأنا أهتم. لم أصوتُ له، لكنني أمريكية، وهذا لا يجعله الرئيس فحسب، بل رئيسي. هل يبدو لك كلامي مبتذلًا؟

- لا.

قالت: «جيد». ولاحظتُ عينيها تضيقان. «لا أنوي السماح لمجنونٍ ما بقتل رئيسي، ولا أنوي النوم».

- سيدي...

- دعني أكمل كلامي. ليس أمامنا متسع من الوقت، لذا عليك أن تصغي جيدًا، هل تصغي؟

- نعم سيديتي.

- جيد. لن تتخلص مني. دعني أكرّر: لن تتخلص مني. سأذهب معك، وإذا لم تسمح لي بركوب سيارتك، فسأتبعك بسيارتي.

قلت: «يا يسوع المسيح!». ولم أعرف ما إذا كان كلامي تجديدًا أم ابتهالًا.

- إذا تزوجنا يومًا، فسأمتثل لما تقوله، ما دُمت تُحسّن معاملتي. هذا واجب الزوجة بحسب تنشئتي. (قلت مع نفسي: آه يا ابنة الستينيات!). إنني مستعدة لترك كل ما أعرفه خلفي والذهاب معك إلى المستقبل، لأنني أحبك ولأنني أصدق أن المستقبل الذي نتحدث عنه موجود. على الأرجح لن أفرض عليك رأيي مرة أخرى أبدًا، لكن لا بد لي الآن. عليك أن تشركني معك في المهمة، وإلا فلن تنجح في تنفيذها أبدًا.

فكرتُ برويّة. سألتُ نفسي عما إذا كانت صادقة فيما قالتها، فوجدت الإجابة واضحة كالندبة على وجهها.

عندئذٍ كانت سيدي تنظر إلى فتيات روزيت، ثم سألتني: «مَن تظن رسم هذه؟ إنها رسوم جيدة».

- روزيت رسمتها، روزيت تمبلتون، عادت إلى موزيل مع أمها بعدما تعرض والدها لحادث.

- ثم انتقلت إلى المنزل؟

- لا، انتقلت إلى المنزل الذي على الجانب الآخر من الشارع. انتقلت أسرة صغيرة لرجل اسمه أوزوالد إلى هنا.

- أهذا اسمه يا جيك؟ أوزوالد؟

- نعم. لي أوزوالد.

- هل سأذهب معك؟

- هل لدي خيار؟

ابتسمت ووضعت يدها على وجهي. إلى أن رأيت ابتسامة ارتياحها لم تكن لدي فكرة عن مدى خوفها عندما أيقظتني.

- لا يا عزيزي، لا أرى لك خيارًا.

2

وضعنا حقيبتها في صندوق الشيفروليه. إذا نجحنا في إيقاف أوزوالد (ولم نُعتقل)، فبوسعنا العودة إلى البيت لاحقًا لتقودها سيدي إلى جودي، حيث سيبدو وجودها طبيعيًا أمام منزلها. أما إذا لم تمض الأمور كما نشاء -إذا فشلنا أو نجحنا فوجدنا أنفسنا معرضين لخطر الاعتقال بتهمة قتل لي- فسنضطر إلى الهروب، بأقصى سرعة، إلى أبعد مكان، وبسيارة غير لافتة. الشيفروليه ذات الأسطوانات الثماني أفضل لهذا الغرض من الفلوكسواغن بيتل.

رأت المسدس عندما وضعته في الجيب الداخلي لمعطفي الرياضي، وقالت: «لا، ضعه في الجيب الخارجي».

رفعت حاجبي.

أوضحت: «حيث يمكنني إخراجه بسهولة إذا تعبت فجأة وقررت أن تغفو».

سرنا عبر الممشى، وكانت سيدي تحمل حقيبتها اليدوية فوق كتفها. تنبأت نشرة الأحوال الجوية بهطول أمطار، لكن بدا لي أنهم أخطؤوا، إذ بدأت السماء تصفو.

وقبل أن تتركب سيّدي السيارة من جانب باب الراكب، سمعنا صوتًا من خلفي: «هل هذه خليلتك يا سيّدي؟».

استدردت. فرأيت فتاة القفز على الحبل ذات حب الشباب، إلّا أنه لم يكن حب شباب، ولم يكن الحصبة الألمانية، ولم أضطر إلى سؤالها عن سبب عدم ذهابها إلى المدرسة. كانت مصابة بالجذري. قلت: «نعم، إنها خليلتي».

قالت: «جميلة، عدا عن ال...» أصدرت صوت غك بدا جميلاً على نحو غريب. «... على وجهها».

ابتسمت سيّدي. إعجابي بجرأتها ما انفك يزداد، لم تتزعزع قط في مثل هذه المواقف. سألتها: «ما اسمك يا عزيزتي؟».

قالت الفتاة: «سيّدي. سيّدي فان أوين. وما اسمك؟».

- حسنًا، لن تصدقي هذا، لكن اسمي سيّدي أيضًا.

رمقتها الفتاة بنظرة ارتياب معتادة في شارع مرسيدس.

- لا، ليس اسمك!

قالت سيّدي: «إنه اسمي حقًا. سيّدي دنهل». والتفتت إلي: «هذه مصادفة عجيبة، أليس كذلك يا جورج؟».

لم أتعجب. ولم يكن لدينا وقت للنقاش. قلت للفتاة: «أود أن أسألك عن أمر، أيتها الأنسة سيّدي فان أوين، تعرفين محطة الحافلات في شارع ونسكوت، أليس كذلك؟».

قالت: «بالطبع». وقلبت عينيها في محجريهما كأنها تسألني: إلى أي درجة تظنني غبية؟ «هل أصبتما من قبل بالجذري؟».

أومأت سيّدي.

قلت: «وأنا أيضًا. إذن نحن بأمان من هذه الناحية. هل تعرفين أي حافلة تذهب إلى وسط دالاس؟».

- رقم ثلاثة.
- وكم مرة تأتي؟
- أظن كل نصف ساعة، أو ربما كل خمس عشرة دقيقة. لماذا تريد الحافلة ولديكما سيارة؟ بل سيارتان.
- عرفتُ من تعابير سيدي الكبيرة أنها أيضًا لديها التساؤل نفسه.
- لدي أسبابي. وبالمناسبة، أبي يقود غواصة.
- ابتسمت سيدي فان أوين ابتسامة واسعة.
- هل تعرف هذه الأزوجة؟
- أعرفها منذ سنوات. اركبي يا سيدي، علينا أن نستعجل.
- نظرت إلى ساعتني، فوجدتها التاسعة إلا عشرين دقيقة.

3

- قالت سيدي: «أخبرني عن سبب اهتمامك بالحافلات».
- أولاً أخبريني كيف وجدتي.
 - عندما وصلتُ إلى إيدن فالوز ولم أجدك، أحرقَت الرسالة كما طلبت، ثم تفقدتُ جارك العجوز.
 - كينوبنسكي.
 - أجل. لم يعرف شيئًا. وبحلول ذلك الوقت كانت المعالجة جالسة على درجات سلم بابك، لم تكن سعيدة بمغادرتك، وقالت إنها بدلتُ مناوبة العمل مع دورين، حتى يذهب دورين لرؤية كينيدي اليوم.
 - اقتربنا من محطة الحافلات بشارع ونسكوت، فأبطأتُ السرعة حتى أرى ما إذا كان يوجد جدول بداخل المظلة الصغيرة جوار العمود، لكن لم يوجد. توقفت في مساحة على بُعد مئة ياردة أمام المحطة.

- ماذا تفعل؟

- أَسْتَخْرِجُ بوليصَة تأمين. إذا لم تأتِ الحافلة بحلول الساعة التاسعة، فسنواصل مسيرنا. أكملني قصتك.

- اتصلت بفنادق وسط دالاس، لكن لا أحد أراد أن يتكلم معي، جميعهم مشغولون. ثم اتصلت بديكي، فاتصل هو بالشرطة، وأخبرهم بأنه لديه معلومة موثوقة بأن شخصًا سيطلق النار على الرئيس.

كنت أراقب محطة الحافلة عبر المرأة الخلفية، لكن عندئذٍ نظرت إلى سيدي مصعوقًا. ورغم ذلك لم يسعني سوى الإعجاب بديكي. لم أعرف مقدار ما صدّقه مما قالته سيدي له، لكنه بذل كل ما بوسعه معرضًا نفسه للمتاعب.

- ماذا حدث؟ هل أخبر الشرطة باسمه؟

- لم تسنح له الفرصة. أنهوا المكالمة ولم يدعوه يكمل كلامه. أظنني عندئذٍ بدأت أصدق ما قلته بشأن حماية الماضي لنفسه. كل ما يجري الآن يبدو لك كأنك تعيش في كتاب تاريخ، أليس كذلك؟
- لم يعد كذلك.

ظهرت حافلة تسير ببطء، باللونين الأخضر والأصفر، ولافتة وجهتها مكتوب عليها: 3 الشارع الرئيسي دالاس 3. توقفت وفُتِح باباها الأمامي والخلفي بمفاصلهما الشبيهة بالأكورديون. ركب اثنان أو ثلاثة أشخاص، لكن كان من المحال أن يجدوا مقاعد. عندما تجاوزتنا الحافلة لم أر فيها مقعدًا خاليًا، ولمحتُ امرأة على قبعتها صف من أزرار تحمل صورة كينيدي، لوحت لي جذلة، ورغم أن أعيننا التقت لوهلة، أحسستُ بحماستها وبهجتها.

حرَّكتُ ناقل سرعة الشيفروليه وتبعَت الحافلة. رأيت على ظهر الحافلة صورة إعلانية لشركة كَليَرو لمنتجات التجميل، حجبها دخان

العادم جزئياً، وعلى الصورة فتاة تقول إنها إذا أتحت لها حياة واحدة، فستختار أن تعيشها شقراء. لوحت سيدي منزعة: «أوه! ابتعد عن الحافلة، الدخان نتن!».

قلت: «يا له من نقد غريب من فتاة تدخن علبة سجائر كل يوم». لكنها كانت محقة، رائحة الديزل كانت مريعة. أبطأت السيارة. لم أر داعياً لمتابعة الحافلات بعدما تأكدت أن سيدي القفز على الحبل كانت محقة بشأن الرقم، وعلى الأرجح محقة أيضاً بشأن المدة التي تفصل بين مرور الحافلات. ربما تمر كل نصف ساعة في الأيام العادية، لكن اليوم ليس عادياً.

- بكيْتُ أيضاً، لأنني ظننت أنك اختفيت ولن أراك أبداً، كنت خائفة عليك، وكرهتك أيضاً.

تفهمتُ ذلك وما زلتُ أرى أن تصرفي كان صحيحاً عندئذٍ، لذا آثرتُ الصمت.

- اتصلتُ بديكي مرة أخرى، وسألني عما إذا قلتُ أي كلام عن منزل سرِّي، ربما في دالاس لكن على الأرجح في فورت وورث. قلتُ له إنني لا أتذكر أنك ذكرتَ مكاناً محدداً. فقال إنك ربما تكون قد ذكرته عندما كنت في المستشفى، ومشوشاً. وطلبَ مني أن أعتمر عقلي، كأنني لم أفعل ذلك سلفاً. عدتُ إلى كينوبنسكي آملة أنك ربما قلتُ له شيئاً. حينها كان قد اقترب وقت العشاء، وبدأ الظلام يهبط. قال كينوبنسكي إنك لم تذكر له شيئاً، وعندئذٍ جاء ابنه حاملاً عشاء ودعاني للأكل معهما، ثم استرسل كينوبنسكي في الكلام، لديه قصص كثيرة عن أيامه الخوالي...

- أعرف. سمعت منه قرابة ثلاثين قصة على الأقل. معظمها عن الغرب الأمريكي والعنف.

أمامنا انعطفت الحافلة شرقًا إلى جادة فيكري، فألقيت إشارة وتبعتها، لكن بقيت على مبعدة حتى لا نستنشق الديزل.

- الاستماع إليه كان أفضل ما فعلته، إذ توقفت عن نهش دماغي قليلًا، وأحيانًا عندما يسترخي المرء تطفو المعلومات إلى سطح عقله من تلقاء نفسها. ثم في أثناء عودتي إلى شقتك الصغيرة، تذكرت فجأة قولك إنك أقمت مدة في منزل بشارع كاديلاك، لكنك مدرك أن اسم الشارع ليس صحيحًا تمامًا.

- يا إلهي. نسيْتُ ذلك.

- رأيتَه خيارِي الأخير، فاتصلت بديكي مجددًا، لم تكن لديه خرائط مفصلة للمدينة، لكنه تذكر وجود بعض الخرائط في مكتبة المدرسة. وذهب بسيارته، وهو يسعل بلا انقطاع على الأرجح، إذ ما يزال مريضًا، وعثر على الخرائط، ثم اتصل بي من المكتب. وجد جادة فورد في دالاس، ومنتزه كرايسلر، وعدة شوارع تحمل اسم دودج. لكن أيًا منها قصدتها عندما قلت كاديلاك، أتعرف ما أعنيه؟ ثم عثر ديكي على شارع مرسيدس في فورت وورث. فأردت الذهاب إليه حالًا، لكنه قال لي احتمال نجاحي في رؤية سيارتك سيكون أفضل إذا انتظرتُ حتى الصباح.

أمسكتُ بذراعي، فأحسست بيدها باردة. وتابعت: «كانت أطول ليلة في حياتي، أيها المثير للمتاعب. غفوتُ بالكاد».

- أنا أيضًا ظللت ساهرًا مدة طويلة، ولم يغشاني النوم إلا عند ساعات الفجر المبكرة. وإذا لم تأتِ لربما ظللت نائمًا حتى بعد وقوع الاغتيال اللعين.

لكانت نهاية باهتة كئيبة، أليس كذلك؟

- وجدتُ شارعَ مرسيدس طويلاً، ظللت أقود سيارتي، ثم رأيت نهاية الشارع، عند موقف سيارات جوار مبنى ضخم بدا كجانب خلفي لمتجر كبير.

- تخمين قريب. إنه مستودع مونتغمري وارد.

قالت: «لم أجد لك أثراً حتى هناك. لن أقدر على التعبير عن مدى إحباطي عندئذ. ومن ثم...». ابتسمت. وكانت ابتسامة مشرقة رغم الندبة. «رأيت الشيفروليه الحمراء ذات الجناحين السخيفين، كحاجبي امرأة، بدت لي باهرة كلافته نيون. صحت وضربت لوحة عدادات البيتل حتى أَلمتني يدي. والآن هأنس...».

سمعنا صوت انفجار خافت مكتوم من مقدمة الشيفروليه الأمامية اليمنى، وفجأة انحرفنا نحو عمود إنارة. وتوالت أصوات الارتطامات من أسفل السيارة. أدركتُ عجلة القيادة فوجدتها خفيفة وبالكاد تفاديت الاصطدام بالعمود مباشرة، لكن جانب سيدي احتك به، مصدراً صريراً شنيعاً، تقوَّس بابها إلى الداخل وجذبْتُها نحوي. توقفت السيارة مائلة نحو اليمين ومقدمتها معلقة فوق الرصيف. قلت مع نفسي: هذا ليس عطل إطار فارغ من الهواء فحسب، بل إصابة مميتة.

نظرت سيدي إلي مصدومة. ضحكتُ. كما ذكرتُ سابقاً، أحياناً لا يسع المرء فعل أي شيء.

قلت: «مرحباً بك في الماضي يا سيدي، هكذا نعيش هنا».

4

عجزتُ عن الخروج من السيارة من جانبها، إذ سيتطلب الباب أداة لفتحه عنوة. فخرجتُ من جانبي. قلة من الناس كانوا يشاهدون. تساءلت امرأة تدفع عربة رضيع: «رباه، ماذا حدث؟».

اتضح لي ما حدث حالما سرتُ إلى مقدمة السيارة، انخلعت العجلة الأمامية اليمنى، رأيَتها مستلقية على بُعد عشرين قدمًا خلفنا عند نهاية مجرى منحٍ على الأسفلت، والتمع طرف المحور المكسور تحت الشمس.

قلت لصاحبة عربة الرضيع: «انخلعت العجلة».

- أوه.

سألَتنِي سيدي بصوت خافت: «ماذا سنفعل؟».

- استخرجنا بوليصة تأمين سابقًا، والآن سنستخدمها. أقرب محطة حافلات.

- حقيبتِي.

قلت مع نفسي: أجل، ودفتر ملاحظات آل، وكتاباي، الرواية الرديئة التي لا تهمني والمذكرات التي تهمني. وما لدي من نقود. ألقيت نظرة على ساعتِي، فرأيَتها تشير إلى التاسعة والربع. في فندق تكساس ترتدي جاكِي بدلَتها الوردية، وبعد نحو ساعة من الأحاديث السياسية، سيتحرك الموكب إلى قاعدة كارسويل الجوية، حيث تنتظر الطائرة الكبيرة. وبالكاد سيجد الطيارون وقتًا لرفع عجلات الطائرة نظرًا إلى قصر إلى المسافة بين فورت وورث ودالاس.

حاولت أن أفكّر.

قالت صاحبة عربة الرضيع: «أتود استخدام هاتفي للاتصال بشخص ما؟ منزلي قريب في هذا الشارع». نظرتُ إلينا ولاحظت عرجي وندبة سيدي: «هل تأذيتما؟».

قلت ممسكًا بذراع سيدي: «نحن بخير. هلاً اتصلت بمحطة خدمة وطلبت منهم سحب السيارة؟ أعرف أنني أطلب منك الكثير، لكننا مستعجلان جدًّا».

قالت سيدي: «أخبرته أن تلك العجلة الأمامية متقلقلة». تكلمت ولكنه جورجيا ثقيلة: «حمدًا للرب أننا لم نكن على الطريق السريع».

قالت المرأة: «هناك محطة صيانة إيسو على بُعد مربعين سكنيين». أشارت نحو الشمال. «أظن بإمكانني التمشي مع الرضيع إلى هناك...».

قالت سيدي: «لأسديتنا خدمة عظيمة يا سيدتي!». فتحت حقيبتها اليدوية، وأخرجت محفظتها، وناولت المرأة عشرين دولارًا: «أعطيهم هذه تحت الحساب. نأسف لتكليفك هكذا، لكن إذا لم أر كينيدي فسأموت».

ابتسمت امرأة عربية الرضيع.

- رباه، هذا المبلغ كافٍ لسحب سيارتين. إذا كانت لديك ورقة في حقيبتك اليدوية، يمكنني أن أكتب لكما إيصالًا...

قلت: «لا بأس، نثق بك. لكن ربما يجدر بي أن أضع ملاحظة تحت ماسح الزجاج».

كانت سيدي تنظر إلي متسائلة... لكنها مدت إلي قلمًا ومفكرة صغيرة على غلافها رسم كرتوني لطفل أحول، مكتوب أسفل ابتسامته الملتوية: أيام المدرسة الجميلة.

كانت الرسالة التي كتبتها بالغة الأهمية، لكن ما من وقت لانتقاء الكلمات وصياغتها المناسبة، كتبتُ سريعًا وطويت الورقة تحت ماسح الزجاج. وبعد لحظات اختفينا عند منعطف.

5

- جيك؟ هل أنت بخير؟

- بخير. وأنت؟

- ارتطمتُ بالباب وعلى الأرجح سأجد كدمة على كتفي لاحقًا. عدا عن هذا، نعم بخير. إذا اصطدمنا بذلك العمود لتعرضنا لإصابات بالغة. لمن كانت تلك الرسالة؟

قلت: «لمن سيسحب الشيفروليه، أيًا يكن». تمنيت أن يفعل السيدُ أيًا يكن ما طلبتهُ في الرسالة. «ينبغي أن ننشغل بهذا الأمر عندما نعود». إذا عدنا.

كانت محطة الحافلات التالية عند منتصف المربع السكني المجاور، رأينا ثلاث نساء سوداوات، وامرأتين بيضاوين، ورجلاً لاتينيًا واقفين جوار العمود، مزيج عرقي متوازن يصلح ليكون فريق تمثيل مسلسل لواند أورد. انضمنا إليهم. جلست على المقعد تحت المظلة جوار امرأة سادسة، سيدة إفريقية أمريكية جسدها الضخم محشور في زي من قماش رايون أبيض يشي بأنها مدبرة منزل أثرياء بيض، وتضع على صدرها زرا مكتوبًا عليه دعمي الكامل لكينيدي في 64". سألتني: «ساقك مصابة يا سيدي؟».

- نعم.

كانت لدي أربعة ظروف من مسحوق الصداق في جيب معطفي الرياضي، أدخلت يدي متجاوزًا المسدس، وأخرجت اثنين ومزقت طرفيهما وسكبتُ المسحوق في فمي.

قالت: «تناول المسحوق على هذا النحو سيضعف كُليتيك».

- أعرف، لكن لا بد لي من التحامل على ساقَي مدة كافية حتى أرى الرئيس.

ابتسمت ابتسامة واسعة، وقالت: «سمعتُ هذا كثيرًا».

كانت سيدي واقفة على الرصيف وتنظر إلى الشارع بقلق مرتقبة ظهور حافلة تحمل الرقم ثلاثة.

قالت مدبرة المنزل: «الحافلات بطيئة اليوم، لكن ستأتي إحداها حالاً. يستحيل أن تفوتني رؤية كينيدي اليوم، كلاً!». .

حَلَّت التاسعة والنصف ولم تظهر حافلة بعد، لكن ألم ركبتي خَفَّ إلى نبض طفيف. بارك الرب في مسح غودي.

اقتربت سيدي مني: «جيك، ربما علينا أن...».

قالت مدبرة المنزل: «ها قد جاءت ثلاثة». ونهضت. كانت سيدة مهيبة، داكنة كالماهوغني، أطول من سيدي ببوصة على الأقل، وشعرها مستقيماً لامعاً. «مرحى! سأحظى بمكان هناك في ساحة ديالي. ولدي شطائر في حقيبتي. هل سيسمعني الرئيس عندما أزعق؟».

قلت: «بالتأكيد».

ضحكت: «أجل بالتأكيد! هو وجاكي!».

كانت الحافلة ممتلئة، لكن المنتظرين في المحطة تدافعوا راكبين على أي حال، أنا وسيدي كنا الأخيرين، وعندما رأنا السائق، الذي بدا مستعجلاً كسمسار في يوم جمعة سوداء، رفع لنا راحة يده قائلاً: «كفى! امتلأت! إنهم مكتظون كالسردين! انتظروا الحافلة التالية!».

ألقت سيدي عليَّ نظرة كَرْب، لكن قبل أن أنطق بكلمة، تدخلت السيدة الضحمة نيابة عنا: «لأ-آ، اسمح لهما بالركوب. الرجل ساقه مصابة، والسيدة تعاني ما تعاني، ترى ذلك بنفسك، كما إنها نحيلة، وهو أنحل منها. اسمح لهما بالركوب، وإلا فسأقذفك خارجاً وأقود الحافلة بنفسني. يمكنني القيادة. تعلمت القيادة بشاحنة أبي».

نظر سائق الحافلة إليها وهي شامخة فوقه، ثم قلب عينيه في محجريهما وأشار لنا بالركوب. وعندما مددت يدي لأضع النقود في الصندوق، غطَّى فتحة الصندوق بيده اللحيمة، وقال: «لا عليك، قف خلف الخط الأبيض، إذا استطعت». هز رأسه وتابع: «لا أدري لماذا لم

يضيفوا عشر حافلات إلى الخدمة اليوم». جذب المقبض، فأغلق البابين. أصدرت المكابح الهوائية ضجيجًا وتحركت الحافلة، ببطء لكن بثبات. لم تكتفِ ملاكي بصنيعها، بل بدأت تزعج رجلين عاملين، أحدهما أسود والآخر أبيض، جالسَيْن خلف السائق ووعاءا غدائهما على حجريهما: «هيا انهضنا وتخلينا عن مقعديكما لهذه السيدة وهذا السيد، الآن! ألا تريان أنه مصاب؟ ورغم هذا ذاهب لرؤية كينيدي!».

قلت: «سيدتي، ما من داع، لا بأس».

لم تعبا بي: «انهضنا، الآن، هل تربيتما في حظيرة؟».

نهضنا واخترقا بمرفقيهما كتلة الناس المحتشدين في الممر. حذج العامل الأسود مدبرة المنزل بنظرة امتعاض قائلًا: «نحن في عام ثلاثة وستين وما زلتُ أرغم على التخلي عن مقعدي للرجل الأبيض». قال صديقه الأبيض: «يا للمسكين!».

نظر الرجل الأسود إلى وجهي. لا أدري ما رآه، لكنه أشار إلى المقعدين الخاليين وقال: «اجلس قبل أن تسقط يا جاكسون».

جلستُ جوار النافذة. وتمتعتُ سيدي شاكراً وجلست بجانبني. سارت الحافلة ببطء ومشقة، كفيل عجوز قد تزداد سرعته بمرور الوقت. ظلت مدبرة المنزل واقفة جوارنا حامية، ممسكة برباط معلق من السقف وتؤرجح وركيها عند المنعطفات. تأرجحت أجزاء كبيرة منها. نظرتُ إلى ساعتَي مجدّدًا، وبدت عقاربها كأنها تقفز نحو العاشرة قفزًا، وسرعان ما ستتجاوزها.

مالت سيدي مقتربة، فدغدغ شعرها خدي وعنقي. «إلى أين نحن ذاهبان؟ وماذا سنفعل عندما نبلغ وجهتنا».

أردت أن ألتفت إليها، لكنني أبقيتُ ناظرِي على الشارع أمامنا، مترقبًا المتاعب، مترقبًا الكلمة التالية. عندئذٍ كنا في شارع ويست

دِفْجَن، ويسمى أيضًا بالطريق السريع رقم 180. قريبًا سنصل إلى أرلينغتون، معقل فريق تكساس رينجرز، الفريق الذي سوف يدعمه جورج دبليو بوش مستقبلاً. إذا مضت الأمور على ما يرام، فسنبلغ تخوم دالاس بحلول العاشرة والنصف، قبل ساعتين من تركيب أوزوالد بندقيته الإيطالية اللعينة. لكن عندما يحاول المرء تغيير الماضي، نادرًا ما تمضي الأمور على ما يرام.

6

مررنا بجنوب إرفينغ، حيث كانت زوجة ليّ عندئذٍ تقضي فترة نقاهة بعد ولادة طفلتها الثانية قبل شهر واحد. كانت حركة السير بطيئة، ونصف الركاب في حافلتنا المكتظة يدخنون. وبالخارج (حيث الهواء أنقى قليلاً) غصّت الشوارع بالسيارات المتجهة إلى دالاس. رأينا سيارة مكتوبًا على نافذتها الخلفية: نحبُّك يا جاكى. وأخرى مكتوبًا على نافذتها الخلفية أيضًا: اخرج من تكساس أيها الجرد الشيوعي. ارتجّت الحافلة وتمايلت. ورأينا مجموعات كبيرة من الناس واقفين عند المحطات، هزُّوا قبضاتهم نحونا عندما لم تتوقف حافلتنا المكتظة أو حتى تبطئ سرعتها.

عند العاشرة والربع وصلنا إلى جادة هاري هاينز، ومررنا بلافتة تشير إلى اتجاه لوف فيلد. وقع الحادث بعد ذلك بثلاث دقائق. كنت أمل ألا يقع، لكن ظللت أنتظره وأترقبه، وعندما تجاوزت شاحنة نفايات الإشارة الضوئية عند تقاطع هاينز وجادة إنوود، كنتُ مستعدًا نصف استعداد على الأقل. شهدتُ حادثًا كهذا من قبل، في طريقي إلى مقبرة لونغفيو في ديري.

أمسكتُ بعنق سيّدي ودفعتُ رأسها إلى الأسفل. «انخفضي!».

وبعد ثانية قُذِفنا على الحاجز الذي يفصل مقعد السائق عن مقاعد الركاب. تهشم الزجاج، وتلوى الحديد مصدراً صريراً. وحلّق الركاب الواقفون إلى الأمام وأطرافهم تتخبط وحقائبهم وقبعاتهم تتطاير حولهم. رأيت العامل الأبيض الذي قال يا للمسكين منكفئاً على صندوق الأجرة المنتصبه عند رأس الممر، أما مدبرة المنزل الضخمة فقد اختفت، دُفنت تحت ركام بشري.

رأيت أنف سيدي ينزف، وأسفل عينها اليمنى كدمة تنتفخ كعجينة خبز، والسائق متكئاً إلى جانب خلف عجلة القيادة. تشظى الزجاج الأمامي، واختفى مشهد الشارع، حل محله حديد يعلوه الصدا. وكانت رائحة الأسفلت الساخن الذي تحمله الشاحنة نتنة خانقة. أدتُ سيدي نحوي: «أأنت بخير؟ هل ذهرك صاف؟». - بخير، مصدومة فحسب. لولا يقظتك لما كنت بخير.

ندت تأوهات وصيحات ألم من كومة الناس في الجزء الأمامي من الحافلة. انتزع رجل ذو ذراع مكسورة نفسه من الركام البشري وهزّ السائق، فسقط من مقعده، ورأيتُ شظية زجاج كبيرة ناتئة من منتصف رأسه.

قال ذو الذراع المكسورة: «آه، رباها! أظنه مات!».

تحركت سيدي نحو الرجل الذي ارتطم بصندوق الأجرة وساعدته على العودة إلى مقعدينا، كان يتأوه ممتقع الوجه. أظنه ارتطم بمنفرجه أولاً عندما قُذِف نحو الصندوق. ساعدني صديقه الأسود على رفع مدبرة المنزل حتى تقف على قدميها، لكن إذا لم تكن بكامل وعيها وساعدتنا، لا أظننا كنا لنقدر على زحزحتها، كانت ثلاثمئة رطل من اللحم الأنثوي. نزفتُ كثيراً من صدغها، وزيّها الذي ترتديه لن يكون ذا نفع لها. سألتها عما إذا كانت بخير.

- أظنني بخير، لكن رأسي تعرض لخبطة قوية.

خلفنا كانت الحافلة في حالة فوضى. وقفتُ أمام سيدي وجعلتها تضع ذراعيها حول خصري. على الأرجح أنا كان ينبغي أن أمسك بها، نظرًا إلى حالة ركبتي، لكن الغريزة غريزة.

قلت للعامل الأسود: «علينا أن نخرج هؤلاء الناس من الحافلة، اجذب المقبض».

حاول، لكن المقبض لم يتحرك، وقال: «إنه عالق!».

رأيت ذلك هراء. رأيت أن الماضي يتعمد إبقاء الأبواب مغلقة. لم أكن قادرًا على مساعدة الرجل، إذ لديّ ذراع واحدة. ثم اندفعت مدبرة المنزل، وجزء من زيها مبلل بالدماء، بجانبني فكادت أن تسقطني، وأحسست بذراعي سيدي تفلتان، لكنها تشبثت بي مجددًا. كانت قبعة مدبرة المنزل مائلة، وتجمعت قطرات دماء على وشاحها. عدلتُ قبعتها، ثم أمسكت بمقبض الباب مع العامل الأسود، وقالت له: «ساعد إلى ثلاثة، ثم نجذب هذا الشيء اللعين، مستعد؟».

أومأ.

- واحد... اثنان... ثلاثة!

جذبًا... أو بالأحرى هي جذبتُ، بقوة مزقت فستانها أسفل ذراعها. فُتح البابان. وسمعنا من خلفنا هتافات واهنة.

قالت سيدي: «شكرًا لـ...». لكنني تحركت فلم تكمل تعبيرها عن امتنانها.

- أسرع، قبل أن نسحق تحت الأقدام. لا تفلتيني.

كنا أول النازلين من الحافلة. وجَّهتُ سيدي نحو دالاس قائلاً: «فلنذهب».

- جيك، هؤلاء الناس يحتاجون إلى مساعدة!

- وأنا متأكد أن المساعدة في الطريق. لا تنظري إلى الخلف، انظري أمامك، ترقبي المتاعب التالية أمامنا.
- مزيد من المتاعب؟ ألن تنتهي؟
- لا، سيبدل الماضي كل ما بوسعه.

7

- استغرقنا عشرين دقيقة حتى نتجاوز أربعة مربعات سكنية من موقع الحادث. أحسست بركبتي تتورم، وتنبض مع كل نبضة من نبضات قلبي. وصلنا إلى مقعد فطلبت سيدي مني الجلوس.
- ما من وقت.
 - اجلس يا رجل.

دفعتنني دفعة مفاجئة فارتميت على المقعد. رأيت على ظهره إعلاناً لمتعهدي جوائز. أومأت سيدي إيماءة مقتضبة، كما تفعل النساء عند انتهائهن من مهمة منزلية مزعجة، ثم تقدمت إلى شارع هاري هاينز وهي تفتح حقيبتها اليدوية وتنقب فيها. توقف نبض ركبتي مؤقتاً إثر بلوغ قلبي حنجرتي وتوقفه.

انحرفت سيارة حول سيدي مطلقة بوقها، لم تفصلها عن سيدي سوى أقل من قدم. لَوَّح السائق بقبضته وواصل سيره، ثم رفع إصبعه الوسطى ساخطاً. وعندما زعقتُ بسيدي طالباً منها الرجوع، لم تعرني حتى التفاتة، أخرجتُ محفظتها والسيارات تنطلق بجانبها وتعصف بشعرها فبدت ندبة وجهها. كانت هادئة تماماً. أخرجت من محفظتها ما أرادته، وألقته في حقيبتها، ثم رفعت ورقة نقدية عاليًا فوق رأسها. بدت كقائدة تشجيع في مدرسة ثانوية.

صاحت: «خمسون دولارًا! خمسون دولارًا مقابل توصيلنا إلى دالاس! الشارع الرئيسي! الشارع الرئيسي! لا بد أن نرى كينيدي! خمسون دولارًا!».

قلت مع نفسي: هذه المحاولة لن تنجح، سيُدي سيدهسها الماضي العنـ...

اقتربت سيارة ستودبيكر صدئة وتوقفت بصرير من إطاراتها أمام سيدي. أصدر محركها ضجيجًا مزعجًا، وأحد مصباحيها الأماميين لا وجود له. ترَجَّل عنها رجل يرتدي بنطالًا فضفاضًا وقميصًا ذا ربطة وتغطي أذنيه قبعة رعاة بقر خضراء مثبتة عليها ريشة هنود برباط. وكان مبتسمًا ابتسامة واسعة أظهرت على الأقل ست أسنان مفقودة. أَلقيْتُ عليه نظرة واحدة وقلت مع نفسي: ها قد أتت المتاعب.

قال راعي البقر صاحب الستودبيكر: «إنك مجنونة سيِّدتي».

- أتريد خمسين دولارًا أم لا؟ خذنا إلى دالاس فحسب.

ضَيَّقَ الرجل عينيه ناظرًا إلى الورقة النقدية، غير عابئ بأبواق السيارات وانحرافها حوله، مثل سيدي. نزع قبعته، وربَّت بها وركيه النحيلين، ثم وضعها على رأسه، وجذبها حتى لامست حافتها أذنيه.

- سيِّدتي، هذه ليست خمسين، بل عشرة.

- لدي باقي المبلغ في محفظتي.

- إذن لِمَ لا آخذه فحسب؟

وأمسك حقيبتها اليدوية الكبيرة. نزلتُ عن الرصيف، لكن توقعت أن ينتزع الرجل الحقيبة ويغادر قبل أن أصل إلى سيدي. وإذا وصلت إليها، فعلى الأرجح سيوسعني ضربًا. رغم هزاله كان يفوقني وزنًا، وذراعاه سليمتان.

تشبّث سيدي بحقيبتها. وإثر جذبها في اتجاهين متعاكسين، فُتحت الحقيبة كفم مذهول. مدت سيدي إحدى يديها داخل الحقيبة وأخرجت سكّين جزار بدت مألوفة، صوبتها نحو الرجل فشَقَّتْ ذراعه، بدأ الجرح من فوق رسغه وانتهى عند داخل مرفقه القذر. صرخ من الألم والمفاجأة، فأفلت الحقيبة، وتراجع محدّقًا إلى سيدي: «أيتها العاهرة المجنونة، جرحتني!».

اندفع نحو باب سيارته المفتوح، ومحركها ما يزال دائرًا. وتقدمت سيدي وهاجمته مجددًا، لكن مرت المديّة أمام وجهه. غطى شعرها عينيها، وبدت شفّتها خطأ داكنًا. تناثرت الدماء على حافة الشارع من جرح ذراع راعي البقر صاحب الستودبيكر. استمر سيل السيارات. وغير مصدق سمعتُ شخصًا يصيح: «لَقْنِيهِ دَرْسًا يَا سَيِّدَتِي!».

تقهقر صاحب الستودبيكر إلى الرصيف محدّقًا إلى المديّة طوال الوقت، ودون أن تنظر إليّ قالت سيدي: «تولّ أمره يا جيك». لوهلة لم أفهم ما قصدته، ثم تذكرت المسدس، فأخرجته من جيبِي وصوبته نحو الرجل. «هل ترى هذا؟ إنه ملقّم».

- إنك مجنون مثلها.

ضمّ ذراعه إلى صدره، فلطّخ قميصه بالدماء. هرولت سيدي حول السيارة إلى جانب باب الراكب وفتحته، ونظرتُ إليّ فوق السقف وأتت بحركة تنم عن نفاذ صبر. لما صدّقت يومًا أن حُبِّي لها يمكن أن يزيد، لكن في تلك اللحظة أدركت أنني كنت مخطئًا.

قلت للرجل: «كان ينبغي لك أن تأخذ النقود أو تواصل سيرك، والآن دعني أرى كيف تركض، حالًا وإلاّ أطلقت النار على ساقك فلا تركض أبدًا».

- إنك لقيط لعين.

- أجل، وأنت لص لعين على وشك تلقي رصاصة.

حرَّكْتُ مطرقة المسدس. ولم يختبرني راعي البقر، استدار وانطلق غربًا عبر جادة هاينز خافضًا رأسه ومحتضنًا ذراعه، ويكيل السباب مخلِّفًا أثر دماء.

هتفتُ خلفه: «لا تتوقف حتى تصل إلى لوف فيلد، تبعد ثلاثة أميال في هذا الاتجاه، وبلغَّ الرئيس تحياتي!».

- اركب يا جيك، فلنغادر قبل مجيء الشرطة.

جلستُ خلف عجلة قيادة الستودبيكر، متألِّمًا من رُكبتي المتورمة. كانت ذات ناقل سرعة عادي، وتعيَّن علي استخدام ساقي المصابة للضغط على القابض. أرجعت المقعد إلى أبعد حد ممكن، وسمعت خشخشة نفايات بالخلف، ثم تحركتُ.

قلت: «المدية، هل هي...».

قالت: «التي جرحني جوني بها، نعم. المأمور جونز أعادها إلي بعد الاستجواب، ظن أنها مديتي، وعلى الأرجح كان محقًّا. لكنها ليست من منزلي بشارع بي تري. إنني شبه متأكدة أن جوني جلبها معه من منزلنا في سافنا. أحملها معي في حقيبتني منذ ذلك الوقت. لأنني أردت شيئًا أحمي به نفسي، تحسُّبًا لـ...». اغرورقت عيناها. «وهذه المهمة يجدر بي أن أتحمَّس لها، أليس كذلك؟ إنها أخطر ما مررت به».

- ضعيتها في حقيبتك.

ضغطتُ على القابض، فراعني بتصلُّبه، وتمكنت بصعوبة من نقل السيارة إلى السرعة الثانية. كانت رائحة السيارة كرائحة قن دجاج لم يُنظَّف منذ قرابة عشر سنوات.

- ستلظُّ كل ما في الحقيبة بالدماء.

- لا يهم. لا يصح أن تتجولي ملوَّحة بمدية، لا سيما والرئيس قادم إلى البلدة. عزيزتي، تصرفك هناك كان شجاعًا جدًّا.

خبأتِ المدينة، ثم مسحت عينيها بقبضتيها، كطفلة صغيرة كُشِطت رُكبتها.

- كم الساعة الآن؟

- الحادية عشرة إلا عشر دقائق. سيهبط كينيدي في مطار لوف فيلد بعد أربعين دقيقة.

قالت: «كل شيء ضدننا، أليس كذلك؟».

نظرت إليها سريعًا وقلت: «الآن تفهمين».

8

وصلنا إلى شارع نورث بيرل قبل انفجار محرك الستودبيكر، تصاعد البخار من أسفل غطاء المحرك، وسمعتُ رنين شيء معدني يتدحرج على الطريق. صاحت سيدي من الإحباط، وضربت فخذها بقبضتها، وتلفظت ببضع كلمات نابية، بيد أن إحساسي كان أقرب إلى الارتياح، فعلى الأقل لن أضطر إلى مصارعة القابض مجددًا. حركتُ ناقل الحركة وتركت السيارة التي يتصاعد منها البخار تتدحرج إلى جانب الشارع. توقفتُ أمام زقاق مكتوب على أرضيته لا تغلق الطريق، لكن هذه الجنحة بدت تافهة بعد التهديد بسلاح مميت وسرقة سيارة.

ترجلت وعرجت إلى الرصيف، حيث وجدت سيدي واقفة سلفًا. سألتني: «كم الساعة الآن؟».

- الحادية عشرة وعشرون دقيقة.

- وكم يبعد المكان؟

- مستودع الكتب عند تقاطع شارعِي هيوستن وإلم. ثلاثة أميال. ربما أكثر.

وما كادت الكلمات تخرج من شفتي حتى سمعنا هدير محركات
نفثة من خلفنا، نظرنا إلى الأعلى فرأينا الطائرة الرئاسية في مسار
هبوطها.

دفعت سيدي شعرها إلى الخلف بإرهاق.

- ماذا سنفعل؟

- الآن سنمشي.

- ضع ذراعك حول كتفي، دعني أخفف عنك شيئاً من وزنك.

- لا أحتاج إلى مساعدة بهذا القدر يا عزيزتي.

لكن بعد مربع سكني واحد، احتجت إليها.

9

اقتربنا من تقاطع شارع نورث بيرل وجادة روس عند الحادية عشرة
والنصف، قرابة الوقت الذي ستتوقف فيه طائرة كينيدي جوار مستقبلية
من المسؤولين... ومعهم، بالطبع، امرأة تحمل باقة ورود حمراء. زاوية
الشارع أمامنا كانت تحتلها كاتدرائية سانتواريو دي غوادالوبي، وعلى
درجات سلمها، أسفل تمثال للقديسة باسطة ذراعيها، رأينا رجلاً جواره
عكاز خشبي على أحد جانبيه، وقدر مطبخ على جانبه الآخر، وعلى
القدر أسند لافتة مكتوباً عليها: معاق إعاقة بالغة! من فضلكم قدموا ما
استطعتم. كونوا سامريين. الرب يحبكم.

- أين عكازك يا جيك؟

- إيدن فالوز، في خزانة الملابس بغرفة النوم.

- نسيّت عكازك؟

النساء بارعات في الأسئلة المجازية، ألسن كذلك؟

- لم أكن أستخدمها كثيرًا في الآونة الأخيرة. أجدني بخير عندما أمشي مسافات قصيرة.

بدا كلامي أفضل قليلًا من الاعتراف بأن أهم ما شغل بالي عندئذ كان الابتعاد عن مجمع مركز إعادة التأهيل قبل وصول سيدي.

- حسنًا، تحتاج إلى عكاز الآن.

ركضتُ أمامي برشاقة تُحسد عليها وتحدثتُ مع المتسوّل الجالس على درجات سلم الكنيسة. وعندما عرجتُ ووصلت إليهما، كانت تساومه: «عكازتان كهاتين تكلفان تسعة دولارات، وأنت تريد خمسين مقابل واحدة؟».

قال بعقلانية: «أحتاج إلى واحدة على الأقل حتى أصل إلى منزلي، وصديقك يبدو كأنه يحتاج إلى واحدة ليصل إلى أي مكان».

- ماذا عن "الرب يحبكم" و"كونوا سامريين"؟

قال المتسول وهو يفرك ذقنه مستغرقًا في التفكير: «حسنًا، الرب يحبكم فعلًا، لكنني مجرد رجل معاق عجوز فقير، إذا لم يعجبك عرضي، كوني مُرائية وامضي في طريقك، هذا ما كنتُ لأفعله».

- بالتأكيد. ماذا لو اختطفتهما فحسب؟ أيها الجشع.

- ربما تستطيعين، لكن عندئذٍ لن يحبك الرب.

انفجر ضاحكًا. بدا مبتهجًا على نحو لافت نظرًا إلى وضعه. وبدأت أسنانه أفضل حالًا من راعي البقر صاحب الستوديو، لكن ليس كثيرًا.

قلت: «أعطيه النقود، أحتاج إلى واحدة فقط».

- سأعطيه النقود بالطبع، لكن أكره أن أستغل هكذا.

أشارت الساعة إلى الحادية عشرة وأربعين دقيقة.

لم يعبأ المتسول بي، كان ينظر إلى محفظة سيدي، وقال: «ثمة دماء عليها. هل جرحت نفسك في أثناء الحلاقة؟».

قالت: «لا تحاول أن تتظارف». وأخرجت الدولارات العشرة التي كانت تلوّح بها أمام السيارات، ومعها ورقتان من فئة عشرين دولارًا. وقالت وهي تناوله النقود: «خُذ. أفلستُ. هل أنت راضٍ الآن؟».

قال المتسول: «ساعدت رجلًا فقيرًا معاقًا، أنت من ينبغي أن يكون راضيًا».

صاحت سيدي: «لست راضية! وآمل أن تسقط عيناك اللعينتان من رأسك القبيح!».

ألقى المتسول علي نظرة رجل لرجل وقال: «يجدر بك اصطحابها إلى المنزل».

وضعت مسند العكاز تحت ذراعي اليمنى (من لم يتعرضوا لإصابات بالغة يظنون أن العكاز الواحد يستخدم على الجانب المصاب، لكن هذا ليس صحيحًا)، وأمسكتُ مرفق سيدي بيدي اليسرى. «هيا، الوقت يضيق».

10

سرنا في شارع نورث بيرل... أو بالأحرى، سيدي سارت وأنا عرجت. وجدتُ الحركة بالعكاز أفضل كثيرًا، لكن كان من المستحيل أن أصل به إلى تقاطع شارعي هيوستن وإلم قبل الثانية عشرة والنصف.

رأينا أمامنا سقالات، والرصيف أسفلها. جذبتُ سيدي لننتقل إلى الجانب الآخر من الشارع.

- جيك، ماذا تفعل بحق الس...-

- ستسقط فوقنا. ثقي بي.

- نحتاج إلى وسيلة نقل، حقًا نحتاج... جيك، لماذا توقفت؟

توقفتُ لأن الحياة أغنية والماضي يتناغم. عادةً لا تعني لحظات التناغم شيئاً (هذا ما كنت أظنه عندئذٍ)، لكن من حين إلى آخر بمستطاع زائر جسور إلى عالم المااضي أن يستغل إحدى تلك اللحظات. ابتهلتُ بكل قلبي أن تكون هذه إحداها.

عند زاوية شارعِي نورث بيرل وسان جاسينتو رأيت فوردي صنلاينر متحركة السقف موديل 1954، سيارتي كانت حمراء وهذه زرقاء داكنة، لكن رغم هذا... ربما...

هرعتُ إليها وحاولت فتح باب الراكب. موصد. بالطبع. أحياناً يجد المرء تسهيلات، لكن ما من هدايا مجانية.

- هل ستشغل المحرك دون مفتاح؟

لم تكن لدى فكرة عن كيفية فعل ذلك، وتوقعت أن يكون أصعب مما يبدو في مسلسل بوربون ستريت بيت. لكن عرفتُ كيف أرفع العكاز وأهوي بمسند الإبط على النافذة مراراً حتى تشققت وانبعجت إلى الداخل. لم يرنا أحد، لأن ما من أحد يسير على الرصيف. كل الحركة كانت ناحية الجنوب الشرقي. ومن هناك سمعنا هدير الحشد المجتمع في الشارع الرئيسي مترقباً وصول الرئيس كينيدي.

تشقق الزجاج المقوّى، وقلبتُ العكاز واستخدمت طرفه المطاطي لدفعه إلى الداخل. سيتعيّن على أحدنا الجلوس بالخلف، إذا نجحت هذه المحاولة. عندما كنت في ديري، كانت لدي نسخة من مفتاح الصنلاينر ملصقة بقاع صندوق القفازات، تحت الأوراق. ربما فعل صاحب هذه السيارة كما فعلت. ربما يبلغ التناغم الآن هذا الحد. احتمال ضئيل... لكن احتمال عثور سيّدي علي في شارع مرسيدس كان أكثر ضآلة. ضغطت على زر صندوق قفازات هذه الصنلاينر وتحسست داخله.

تناغم، أيها الماضي ابن الساقطة. أرجوك تناغم، ساعدني قليلاً هذه المرة فحسب.

- جيك، لماذا تظن أن...

صادفتُ أصابعي شيئاً، فأخرجتُ علبة أقراص سوكريتس، وعندما فتحتها لم أجد مفتاحاً واحداً، بل أربعة. لم أعرف ما تفتحه الثلاثة الأخرى، لكن لم يراودني شك بشأن المفتاح الذي أريده، لعثرتُ عليه في الظلام من شكله فحسب.

رباه، كم أحببتُ تلك السيارة!

قلت: «وجدته». وكِدتُ أسقط عندما عانقتني سيدي. «قودي أنت يا عزيزتي، سأجلس بالخلف لأريح ركبتني».

11

أدركت خطأ فكرة محاولة الذهاب عبر الشارع الرئيسي، إذ سيكون مغلقاً بالحواجز وسيارات الشرطة. قلت لسيدي: «اسلكي شارع باسيفيك إلى أبعد حد ممكن، ثم الشوارع الجانبية، وفليكن ضجيج الحشود يسارك دوماً».

- كم تبقى لنا من وقت؟

- نصف ساعة.

في الحقيقة كانت خمساً وعشرين دقيقة، لكن رأيتُ نصف ساعة تبدو مريحة نسبياً. كما لم أرغب في مجازفة سيدي في القيادة حتى لا نتعرض لحادث. ما زال أمامنا وقت، نظرياً على الأقل، لكن إذا تعرضنا لحادث آخر فقد انتهى أمرنا.

لم تجازف في القيادة، لكنها قادت بلا خوف. صادفنا شجرة ساقطة أغلقت أحد الشوارع (بطبيعة الحال)، فصعدتُ سيدي بالسيارة إلى الرصيف لتتجاوزها. ثم وصلنا إلى تقاطع شارعِي نورث ريكورد وهافرمل. ولم نستطع التقدم أكثر، لأن آخر مربعين سكنيين بشارع

هافرمل، عند تقاطعه مع شارع إلم، لم يعد لهما وجود، صار المكان موقف سيارات. لَوْحٌ لنا رجل يحمل علمًا برتقاليًا لنتقدم نحوه.

قال: «خمسـة دولارات. يمكنكم الوصول مشيًا إلى الشارع الرئيسي خلال دقيقتين، أمامكما متسع من الوقت». لكنه نظر إلى عكازي متشككًا في أثناء كلامه.

قالت سيدي لي: «أفلسْتُ حقًا، لم أكذب عندما قلت هذا سابقًا».

أخرجت محفظتي وأعطيت الرجل خمسـة، فقال: «اركنها خلف الكرايسلر، اركنها جيدًا ولا تشغل مساحة كبيرة».

ألقت سيدي له المفاتيح. «أنت اركنها جيدًا. هيا يا عزيزي».

زعم رجل موقف السيارات: «مهلاً، ليس في ذلك الاتجاه، إنكما تتجهان نحو شارع إلم! ينبغي أن تذهبا إلى الشارع الرئيسي! كينيدي قادم من هناك!».

هتفت سيدي: «نعرف ما نفعله!». تمنّيت أن تكون محقة. سرنا بين السيارات المكتظة، وسيدي أمامي. ترنحتُ وتخبّطُ بعكازي، محاولًا تجنّب المرايا الجانبية واللاحاق بسيدي. وعندئذٍ سمعتُ ضجيج محركات وعربات شحن في ساحة القطارات خلف مستودع الكتب.

- جيك، إننا نترك خلفنا أثرًا عَرَضه ميل.

قلت: «أعرف. لدي خطة». كانت مبالغة في التعبير، لكن بدت جيدة. خرجنا إلى شارع إلم، وأشرت إلى المبنى على الجانب الآخر من الشارع بعد مربعين سكنيين: «هناك، أوزوالد هناك».

نظرتُ إلى المكعّب القرميدي الأحمر ونوافذه المحدّقة، ثم التفتت إليّ بوجه مرتاع متسع العينين. ولاحظتُ، بما يشبه الفضول، قشعريرة تعترى عنقها: «جيك، إنه مريع!».

- أعرف.

- لكن... ما خطبه؟

- كل شيء. علينا أن نسرع يا سيدي، كاد الوقت ينفد منا.

12

عبرنا شارع إلم جانبيًا، وأنا أكاد أركض بعكازي. كان الجزء الأكبر من الحشد في الشارع الرئيسي، لكن كثيرين تجمعوا في ساحة ديالي وعلى جانبي شارع إلم أمام مستودع الكتب. واحتشدوا أيضًا في الرصيف حتى الممر السفلي الثلاثي. رأينا فتيات على أكتاف أصدقائهم، وأطفالًا عما قريب ربما يصرخون مذعورين ويلطخون وجوههم بالأيس كريم. رأيت رجلًا يبيع آيس كريم وامرأة بتسريحة شعر متنقخة تبيع صورًا لجاك وجاكي بملابس سهرة.

عندما وصلنا إلى ظل مبنى المستودع، كنت أتصبب عرقًا، وإبطي يئن من ضغط مسند العكاز المستمر، وركبتي اليسرى مشتعلة. رفعت بصري فرأيت موظفي المستودع متكئين بارزين من بعض النوافذ، ولم أر أحدًا في نافذة الركن الجنوبي الشرقي من الطابق السادس، لكن لي هناك بالطبع.

نظرت إلى ساعتني، فرأيتها تشير إلى الثانية عشرة وعشرين دقيقة. أمكننا تتبّع تقدّم الموكب بارتفاع هدير الناس جنوب الشارع الرئيسي. حاولت سيدي فتح الباب، ثم ألقت علي نظرة كَرْب. «موصد!».

رأيت بالداخل رجلًا أسود يعتمر قبعة مسطحة ذات حافة أمامية قصيرة مائلة على رأسه، كان يدخل سيجارة. أكثر آل من الملاحظات الهامشية في دفتره، وفي الصفحات الأخيرة كتب بخط سيئ أسماء عدد من زملاء لي في العمل، لم أحاول حفظ الأسماء، إذ لم أر فائدة منها، وجوار أحد تلك الأسماء، كنت متأكدًا أنه اسم الرجل ذي القبعة، كتب آل: أول المشتبه بهم (على الأرجح لأنه أسود). كان اسمًا غير معتاد، لكن

عجزتُ عن تذكُّره، إما لأنَّ ضَرْبَ روث وبلطجيته بَخْرَه من ذاكرتي (مع
ذكريات أخرى)، وإما لأنني لم أولِه انتباهًا كافيًا أساسًا.

أو لأن الماضي عنيد فحسب. لكن فيم يهتم التفسير؟ لم أتذكر الاسم.
انهالت سيدي على الباب طرْقًا، وظل الرجل الأسود صاحب القبعة
ينظر إليها لا مبالٍ، أخذ نفسًا من سيارته ولَوَّح لها بظاهر يده: اذهبي
يا سيدتي، اذهبي.

- جيك، فكّر بشيء، أرجوك!

الثانية عشرة وواحد وعشرون دقيقة.

اسم غير معتاد، أجل، لكن لماذا بدا لي غير معتاد؟ فوجئتُ بأنني
أعرف السبب.

قلت: «لأنه اسم فتاة».

التفتت سيدي نحوي، وكان خذأها محمّرّين عدا عن الندبة، التي
ظلت بيضاء. «ماذا؟».

فجأة بدأتُ أطرق على الباب الزجاجي، وصحت: «بوني! بوني راي!
أدخِلنا! نعرف لِي! لِي! لِي! أوزوالدا!».

عرف الاسم وعَبَّرَ البهو بخطوات متتدة تثير الحنق. قال: «لم أعرف
أن ذلك الهزيل ابن الساقطة لديه أصدقاء». فتح بوني راي ويليامز الباب
وانتحي جانبًا ونحن نهرع إلى الداخل، وتابع: «على الأرجح ستجدونه
في غرفة الاستراحة، مترقبًا وصول الرئيس مع بقية الـ...».

قلت: «اسمعني، لستُ صديقه، وهو ليس في غرفة الاستراحة، بل في
الطابق السادس. ويعتزم إطلاق النار على الرئيس كينيدي».

ضحك الرجل الضخم جدًّا، وألقى سيارته على الأرضية وسحقها
بحذاء عمله.

- ذلك التافه ليست لديه الجرأة لقتل قطعة، لا يفعل شيئاً سوى الجلوس في ركن وقراءة الكتب.
- أؤكد لك...
- إنني صاعد إلى الطابق الثاني. إذا أردتما مرافقتي، فمرحباً بكما، لكن لا مزيد من الترهات عن ليلا، هذا هو الاسم الذي نطلقه عليه، ليلا. يطلق النار على الرئيس! رباها!
- ألقى بيده في الهواء وابتعد متثدداً.
- قلت له مع نفسي: مكانك الطبيعي في ديري يا بوني راى، إنهم متخصصون في عدم رؤية ما هو ماثل أمامهم.
- قلت لسيدي: «السلم».
- المصعد سيكون...
- سيكون نهاية أي فرصة نجاح ربما تكون لدينا.
- سيعلق بين طابقين. السلم.
- أمسكت بيدها وجذبتها نحو السلم. وجدناه ضيقاً يمينه قوائم خشبيه، ويساره حاجز حديدي صديء. التفتت سيدي نحوي عند بداية السلم، وقالت: «أعطني المسدس».
- لا.
- لن تصل قبل فوات الأوان. أنا سأصل. أعطني المسدس.
- كدتُ أن أعطيها إياه. لم أرفض لأنني شعرت بأنني الأحق بالاحتفاظ به، فعندئذٍ وقد حلت اللحظة الفارقة الفعلية، لم يهمني من يوقف أوزوالد ما دام أحدٌ ما سيوقفه. لكننا كنا على بُعد خطوة من آلة الماضي الهادِرة، ولم تسمح لي نفسي بترك سيدي تخاطر بأن تخطو تلك الخطوة الأخيرة أمامي فتمزقها تروس الآلة وشفراتها إرباً.

ابتسمت، ثم انحنيت وقبّلتها، وقلت: «فلنتسابق». وشرعت في صعود السلم. ثم هتفت فوق كتفي: «إذا غفوت فجأة، فهو لك!».

13

سمعت بوني راي ويليامز يقول بنبرة استنكار: «أنتما مجنونان». ثم وقع أقدام سيدي وهي تتبعني. اتكأت على جانبي الأيمن، وصرت أقفز على العكاز، وأمسكت بالحاجز بيُسراي. تأرجح المسدس في جيبي مرتطمًا بوركِي. وجأرت ركبتي بالشكوى. تجاهلتها.

عندما وصلت إلى بَسْطَة الطابق الثاني، أُلقيت نظرة سريعة على ساعتِي، فرأيتها تشير إلى الثانية عشرة وخمس وعشرين دقيقة. لا، ست وعشرين. سمعت هدير الحشود ما زال يقترب، كموجة عاتية على وشك التَكسُّر على الشاطئ. تجاوز الموكب تقاطعات الشارع الرئيسي مع شوارع إرفاي وأكارد وفيلد، وفي غضون دقيقتين، أو ثلاث على الأكثر، سيصل إلى شارع هيوستن، وينعطف يمينًا، ويتجاوز محكمة دالاس القديمة بسرعة خمسة عشر ميلًا في الساعة. ومن هذه اللحظة سيكون رئيس الولايات المتحدة هدفًا متاحًا. عبر منظار 4x المركب على بندقية مانلكر-كاركانو، سيبدو كينيدي وكونالي وزوجتهما كبارًا كممثلين على شاشة سينما سيارات ليسبون. لكن لي سينتظر مدة أطول قليلًا. إذ أراد فرصة للهروب، فهو ليس مُسَيِّرة انتحارية. إذا أطلق النار قبل اللحظة المناسبة، فسيرى رجال الأمن عند مقدمة الموكب شرر البندقية ويطلقون النار. لذا سينتظر حتى تنعطف سيارة الرئيس يسارًا إلى شارع إل. ليس قناصًا فحسب، بل وضع يطلق النار من الخلف.

ما زالت أمامي ثلاث دقائق.

أو ربما دقيقتان ونصف.

اندفعت صاعدًا السلم بين الطابقين الثاني والثالث، متجاهلاً ألم ركبتي، مرغماً نفسي على التقدم كعداء ماراثون اقترب من نهاية سباق طويل. كنت كذلك بالطبع.

من أسفلنا سمعتُ بوني راي يزعم قائلاً كلامًا تخللته عبارات "رجل مجنون" و"يقول إن ليلاً سيطلق النار".

إلى أن بلغت منتصف السلم المؤدي إلى الطابق الثالث، ظللت أشعر بضربات سيدي على ظهري كأنها فارسة تستحث حصانها، ثم تراجعت قليلاً، سمعتُ لهاثها، فقلت مع نفسي، تسرفين في التدخين يا عزيزتي. لم تعد ركبتي تؤلمني، دُفن الألم مؤقتاً إثر فورة أدرينالين. أبقيت ساقي اليسرى مستقيمة بقدر مستطاعي، تاركًا العكاز يؤدي المهمة.

انعطفتُ وصعدتُ إلى الطابق الرابع. وعندئذٍ أنا أيضاً كنت ألهث، وبدت درجات السلم شديدة الانحدار، مثل جبل. صار مسند عكاز المتسول دبقاً بالعرق. نبض رأسي، وطننتُ أذناي بصوت هتافات الحشود بالأسفل. فُتحت عين مخيلتي على اتساعها فرأيت الموكب المقترب: سيارة التأمين، ثم ليموزين الرئيس وعلى جانبيها دراجات هارلي ديفيدسون وعلى متنها رجال شرطة دالاس، معتمرين خوذات بيضاء ذات أربطة متصلة عن الذقن ويضعون نظارات شمسية.

انعطفت مجدداً. وظل العكاز ينزلق على الأرضية ثم يستعيد ثباته، وعلا صوت ارتطامه بدرجات السلم. ثم شممت رائحة نشارة الخشب المنبعثة من أعمال الصيانة بالطابق السادس: عمال يستبدلون ألواحاً خشبية. لكن ليس في الجانب الذي يوجد فيه لي. حظي لي وحده بالجانب الجنوبي الشرقي.

وصلت إلى بسطة الطابق الخامس وانعطفت انعطافة أخيرة، لاهثاً، وقميصي مبلل وملتصق بصدري الجائش، وسال إلى عيني عرق لاسع جعلني أرمش مراراً حتى أبعده.

وجدت ثلاثة صناديق ورق مقوى مطبوعاً عليها الطريق إلى كل مكان وكتب قراءة الصفين الرابع والخامس تعترض طريقي إلى الطابق السادس. وقفت على ساقي اليمنى وضربت أحد الصناديق بالعكاز فسقط متدحرجاً. ثم سمعت سيدي خلفي، بين الطابقين الرابع والخامس. إذن اتخذتُ القرار الصحيح عندما احتفظت بالمسدس، على ما يبدو، لكن مَنْ يدري؟ نظراً إلى تجربتي، فإن معرفتي بأنني المسؤول الأول عن تغيير المستقبل جعلتني أركض بسرعة.

حشرت نفسي في الفجوة التي أحدثتها في الصناديق، فاضطرت إلى تحميل وزني كاملاً على ساقي اليسرى لوهلة، فارتجت من الألم، تأوّهت وتشبّثت بالحاجز حتى لا أنكب على درجات السلم. نظرت إلى ساعتني، فأشارت لي إلى الثانية عشرة وثمانين وعشرين دقيقة، لكن ماذا لو كانت متأخرة؟ ارتفع صخب الحشود.

ما زالت سيدي على بسطة الطابق الخامس، وسمعتها: «جيك... حباً في الرب أسرع...».

اقتربت من صعود درجات السلم الأخيرة، وبدأت جلبه الحشود تتلاشى إلى صمت. وعند بلوغي أعلى السلم، لم أعد أسمع سوى لهائي الأقرب إلى الفحيح ودقات قلبي العنيفة.

14

الطابق السادس من مستودع الكتب المدرسية كان مربّعاً معتماً تتخلله جُزر من صناديق الكتب المرصوفة، ومصابيحه العلوية مضاءة حيث يجري استبدال ألواح الأرضية، ومطفأة على الجانب الذي يخطط لي هارفي أوزوالد لصناعة التاريخ منه بعد مئة ثانية أو أقل. كانت تطل على شارع إلم سبع نوافذ، الخمس التي في المنتصف جميعها ضخمة وشبه دائرية، والاثنتان اللتان عند الطرفين مربعتان. كان الطابق

السادس معتمًا حول باب السلم ومضًا إضاءة باهتة في المنطقة المطلة على شارع إلم. بسبب غبار الخشب السابح في الهواء، بدت أشعة الشمس المائلة الداخلة عبر النوافذ شديدة الوضوح. لكن الضوء الداخل عبر النافذة التي عند الركن الجنوبي الشرقي حُجب بمتراس من صناديق الكتب. كان عش القناص عند أبعد نقطة من مكاني، بزاوية مائلة تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي.

وخلف المتراس، تحت الشمس رأيت رجلًا مسلحًا يقف عند النافذة، منحنيًا ناظرًا إلى الخارج، والنسيم يحرك شعره وياقة قميصه. بدأ يرفع بندقيته.

انطلقت راکضًا متعثرًا حول الصناديق المرصوفة، وأقحمت يدي في جيب معطفي لأخرج المسدس.
صحت: «لي! توقف يا بن العاهرة!».

أدار رأسه نحوي ونظر إلي، بعينين متسعيتين، فاغرا فمه. للحظة كان لي الرجل العادي، الذي ضحك ولعب مع جُون في الحمام، الذي كان يعانق زوجته ويقبلها أحيانًا. ثم تمعّجت شفتاه الرفيعتان فاستحالت تكشيرة كشفت عن أسنانه العليا. عندما حدث هذا تغير إلى شيء وحشي. لا أظنكم ستصدقون هذا، لكن أقسم إنه صحيح. لم يُعد بشرًا وصار شبحًا شيطانيًا سيقض مضجع أمريكا من اليوم فصاعدًا، ويلقي عليها بظلال قاتمة.

إذا سمحتُ له.

تصاعدت جلبة الحشود مجددًا، آلاف الناس يصفقون ويهتفون ويصرخون حتى تكاد تنشق حلوقهم. سمعتهم، وسمعهم لي أيضًا، وأدرك ما يعنيه تصاعد الجلبة: إما الآن وإما أن تفوته الفرصة. استدار عائدًا إلى النافذة وأسند عقب البندقية إلى كتفه.

كان لدي المسدس، المسدس نفسه الذي قتلت به فرانك دننغ، ليس آخر يشبهه فحسب، في تلك اللحظة كان المسدس نفسه. هذا رأيي الآن كما كان عندئذ. حاولت مطرقة المسدس أن تعلق في بطانة الجيب، لكنني سحبت المسدس بقوة فسمعت صوت تمزُّق قماش.

أطلقت النار. ارتفعت الرصاصة وفجّرت شظايا الخشب من أعلى إطار النافذة، لكنها كانت كافية لإنقاذ حياة جون كينيدي. أجفل أوزوالد من صوت الطلقة، فطاشت الرصاصة التي يبلغ وزنها عشرة جرامات الخارجة من بندقية مانليكر-كاركانو، وهشمت نافذة في محكمة المقاطعة.

سمعتُ صرخات وصيحات حيرة من أسفلنا، التفت لي نحوي مجدداً، واكتسى وجهه بقناع من الغضب والكراهية والإحباط. رفع بندقيته مجدداً، وهذه المرة لم يصوّبها نحو رئيس الولايات المتحدة، حرّك المزلاج، فأطلقت النار عليه مجدداً. كنت قد قطعت ثلاثة أرباع المسافة، على بُعد أقل من خمسة وعشرين قدماً، إلا أنني أخطأت مجدداً. لم أر سوى ارتعاش طرف قميصه.

ارتطم عكازي بصناديق، فترنحتُ إلى اليسار، ورفعت يدي التي تحمل المسدس محاولاً استعادة توازني، لكن عجزت. لوهلة وجيزة تذكرت يوم التقائي سيدي، عندما وقعتُ حرفياً بين ذراعي. عرفت ما سيحدث. التاريخ لا يعيد نفسه، إنما يتناغم، وعادة ما يُصدر موسيقى الشيطان. هذه المرة أنا من تعثّر، وهذا اختلاف جوهري.

لم أعد أسمع وقع قدميها على السلم... لكن ما زلت أسمع خطواتها السريعة.

صحت: «سيدي، انخفضي!». لكن صوتي طغت عليه طلقة بندقية أوزوالد.

سمعت الرصاصة تمر فوقِي. وسمعت صرخة سيدي.

ثم سمعت مزيدًا من الطلقات، هذه المرة من الخارج. واصلت سيارة الرئيس سيرها، اتجهت نحو الممر السفلي الثلاثي بسرعة رهيبة، والأشخاص الأربعة بداخلها خفضوا رؤوسهم وأمسكوا ببعضهم. لكن سيارة الحراسة توقفت على الجانب البعيد من شارع إلم قرب ساحة ديالي، ورجال الشرطة راكبو الدراجات النارية توقفوا في منتصف الشارع، قرابة أربعين شخصًا على الأقل رصدوا موقع إطلاق النار، وأشاروا إلى نافذة الطابق السادس، حيث ظهر رجل نحيل يرتدي قميصًا أزرق.

سمعتُ صوت ضربات متلاحقة مكتومة، كصوت برَد يتساقط على طين، كانت الرصاصات القادمة من الخارج التي أخطأت النافذة وأصابت القرميد فوق النافذة أو على جانبيها، لكن كثيرًا منها لم يخطئ، رأيت قميص لي ينتفخ كأنما هبَّت ريحٌ بداخله، ريح حمراء أحدثت ثقبًا في القماش: رصاصة فوق حلمة صدره اليمنى، وأخرى اخترقت عظمة القص، وثالثة حيث ينبغي أن تكون سرّته، ورابعة شقّت عنقه. تراقص كدمية في الضوء الذي يتخلله غبار الخشب، وتلك التكشيرة لم تبرح وجهه قط. أوكد لكم أنه لم يكن بشرًا في تلك اللحظة، بل شيئًا آخر، أيًا يكن ما يستحوذ علينا عندما نسلم آذاننا لوساوس أسوأ شياطيننا.

أصاب رصاصة أحد مصابيح السقف، فتهشم الزجاج، وتأرجح المصباح، ثم مزقت رصاصة أخرى أعلى رأس القاتل الذي لم يقتل، كما مزقت إحدى رصاصات لي أعلى رأس كينيدي في العالم الذي جئت منه. تهالك على متراس صناديقه، فأسقطها على الأرضية.

سمعت صيحات من الأسفل. زعق شخص: «سقط رجل، رأيته يسقط!».». .

ثم سمعت وقع أقدام تصعد السلم ركضًا. قذفتُ مسدسي نحو جثة لي. كان لديّ من الحضور الذهني ما يكفي لأدرك أنني سأعرض لضرب

مبرح، وربما أُقْتَلَ على أيدي الرجال الصاعدين إذا وجدوني أحمل مسدسًا. هممتُ بالنهوض، لكن ركبتني لم تعد قادرة على حملي، وعلى الأرجح كان هذا أفضل. ربما لم أكن مرئيًا من شارع إلم، لكن إذا رأوني فربما يفتحون النار علي. لذا زحفت إلى سيدي الممددة على الأرضية، معتمدًا على يدي وساحبًا ساقي اليسرى خلفي كمرساة سفينة.

وجدت الجزء الأمامي من بلوزتها مبللًا بالدماء، لكن رأيت ثقب الرصاصة، في منتصف صدرها تمامًا، فوق منحنى نهدتها. ومزيد من الدماء سالت من فمها، كانت تختنق بها. أدخلت ذراعي تحتها ورفعتها، لم تبعد عينيها عن عيني قط، بدتا مشرقتين في العتمة.

قالت بصوت مبجوح: «جيك».

- لا، يا عزيزتي، لا تتكلمي.

لكنها لم تكترث. متى اكترثت بما أقوله؟

- جيك، الرئيس!

- بأمان.

في الحقيقة لم أره سالمًا في أثناء ابتعاد سيارته، لكن رأيت لي يجفل عندما أطلق رصاصته الوحيدة نحو الشارع، وكان ذلك كافيًا لي. ولقلتُ لسيدي إن الرئيس بأمان مهما حدث.

أُغْمِضْتُ عيناها، ثم فُتِحَتَا. عندئذٍ اقترب وقع الأقدام الصاعدة، تجاوزت الطابق الخامس. وبعيدًا بالأسفل تعالت صيحات الحشود المتحمسة المرتبكة.

- جيك...

- ماذا يا عزيزتي؟

ابتسمتُ.

- لكم رقصنا!

عندما وصل بوني راي والآخرين، كنت جالسًا على الأرضية ممسكًا بسيدي، تجاوزوني راكضين، لم أعرف عددهم، ربما أربعة، أو ثمانية، أو عشرة، لم أكلّف نفسي النظر إليهم. ظللتُ ممسكًا بها، أهدهد رأسها على صدري، تاركًا دماءها تبلل قميصي. ماتت حبيبتي سيدي. سقطت في براثن الآلة رغم كل شيء.

لم أكن يومًا رجلًا يمكن وصفه بأنه كثير البكاء، لكن الطبيعي هو أن يبكي كل رجل فقد للتو المرأة التي يحبها، أليس كذلك؟ بلى، لكنني لم أبك.

لأنني كنت أعرف ما عليّ فعله.

الجزء السادس

رجل البطاقة الخضراء



الفصل التاسع والعشرون

1

لم أُعتقل اعتقَالَ بمعنى الكلمة، إنما اصطُجِبْتُ إلى مركز شرطة دالاس بسيارة دورية، وقُبيل وصولنا ظهر أناسٌ، بعضهم صحفيون ومعظمهم مواطنون عاديون، وراحوا يخطبون على النوافذ ويحدّقون إلى الداخل. تساءلتُ، ساهمًا، عما إذا سأُسحب من السيارة وأُشنق دون محاكمة لأنني حاولت قتل الرئيس. لم أكرث. كنتُ مشغولًا بقميصي الملطخ بالدماء، إذ أردتُ نزعَه، وأردت أيضًا ارتدائه إلى الأبد. كانت دماء سيدي.

لم يسألني أيُّ من الشرطيين الجالسين في المقعدين الأماميين أي سؤال. افترضت أنهما أُمرا بالصمت. لكن حتى إذا سألاني لما أجبتهما. كنت أفكر. واستطعت أن أفكر بسبب البرود الذي اعتراني مجددًا. اتخذتُ منه درعًا. بمستطاعي معالجة هذا الوضع. سأعالجه. لكن لا بد لي من الكلام مع أشخاص أولًا.

2

أدخلوني حجرة بيضاء كالجليد، فيها طاولة وثلاثة كراسي صلبة، اقتعدتُ أحدها. وسمعت من الخارج رنين هواتف ونقرات آلات كاتبة، وأنا سأ يغدون ويروحون متحدّثين بأصوات عالية، أحيانًا يصيحون، وأحيانًا يضحكون، ضحكات شابها شيء من الهستريا، كما يضحك

الرجال عندما يدركون أنهم نجوا بأعجوبة. ربما ضحك إدوين ووكر هكذا في ليلة العاشر من أبريل، وهو يتحدث مع الصحفيين وينفض شظايا الزجاج من شعره.

الشرطيان اللذان اصطحباني من مستودع الكتب فتَّشاني وأخذَا أغراضي. سألتهما عما إذا كان بإمكانني أخذ آخر ظرفي مسحوق غودي، فتشاورا، ثم فتحا الظرفين وأفرغاهما على الطاولة، التي نُحِتت على سطحها حروف وشوَّهت بحروق السجائر. رطَّب أحدهما إصبعًا وتذوق المسحوق، وأومأ قائلاً: «أتريد ماء؟».

قلت: «لا». غرقت المسحوق وصببته في فمي. كان مُراً، لكن مرارته ناسَبَتني.

غادر أحد الشرطيين، وطلب الآخر قميصي الملطخ بالدماء، فخلعته على مضض وناولته إياه. ثم أشرت إليه وقلت: «أعرف أنه يُعد دليلاً، لكن تعامل معه باحترام، الدماء التي عليه من امرأة أحببتها. ربما لا يعني لك هذا شيئاً، لكنها أيضاً دماء امرأة ساعدت على منع قتل الرئيس كينيدي، وهذا ينبغي أن يعني لك شيئاً».

- لا نريده سوى لتحديد فصيلة الدم.

- حسناً. لكن ينبغي أن يُدرَج في قائمة أغراضي الشخصية، أريد استعادته.

- بالتأكيد.

عاد الشرطي الذي غادر قبل قليل حاملاً قميصاً أبيض عادياً، بدا كالقميص الذي كان يرتديه أوزوالد، أو بالأحرى ما كان ليرتديه، عندما التُقِطت له صورة بُعيد اعتقاله في صالة سينما تكساس.

وصلتُ إلى حجرة الاستجواب البيضاء الصغيرة عند الواحدة وعشرين دقيقة، وبعد نحو ساعة (لا أعرف مقدار الوقت تحديدًا لأن ما من ساعة حائطية في الحجرة وساعتي اليدوية التايميكس الجديدة أخذت مع أغراضي الشخصية الأخرى)، جاء الشرطيان نفسيهما ومعهما شخص آخر، أعرفه منذ مدة، د. مالكوم بيرى، جاء حاملًا حقيبة أطباء أرياف سوداء ضخمة، نظرت إليه مدهوشًا قليلًا. جاء ليزورني في مركز الشرطة لأنه لم يكن عليه أن يكون في مستشفى باركلاند، يلتقط شظايا الرصاصة والعظام من دماغ جون كينيدي. بدأ نهر التاريخ يغيّر مجراه.

- مرحبًا دكتور بيرى.

أومأ قائلاً: «أمبرسون». خاطبني بجورج عند آخر لقاء بيننا. إذا كانت لدي أي شكوك في الاشتباه بي، لأكدتها مخاطبة د. بيرى الرسمية، لكن لم تكن لدي شكوك. كنت هناك، وكنت أعرف ما يوشك على الحدوث. لا بد أن بوني راى وليامز أخبرهم بهذا.

- يبدو لي أنك أصبت رُكبتك مرة أخرى.

- أجل، للأسف.

- دعني ألقى نظرة.

حاول رفع ساق بنطالي الأيسر ولم يستطع، كان المفصل متورمًا جدًا. وعندما أخرج مقصًا من حقيبته، تقدم الشرطيان وسحبا مسدسيهما، لكن أبقياهما مصوبين نحو الأرضية وإصبعاهما على مبعدة من الزناد. نظر د. بيرى إليهما مدهوشًا قليلًا، ثم قطع ساق بنطالي بمحاذاة الخياطة. نظر، ولمس، ثم أخرج إبرة حَقَن تحت الجلد وسحب بها السوائل. كرزتُ أسناني وانتظرت انتهاءه. ثم نَقَب في حقيبته، وأخرج ضمادة مطاطية وأحكم ربطها حول الركبة، فأراحتني قليلًا.

- يمكنني أن أعطيك شيئاً يخفف الألم، إذا لم يعترض هذان الشرطيان.

لم يعترضاً، لكن أنا اعترضت. أهم ساعة في حياتي، وحياة سيدي، كانت أمامي مباشرة، لم أرغب في مخدر يشوش دماغي في هذا الوقت الحرج.

سألته: «هل لديك مسحوق غودي؟».

جعد بيرى أنفه كأنه اشتم رائحة كريهة.

- لدي باير أسبرين وإمبرين، إمبرين أقوى قليلاً.

- أعطني إياه إذن. د. بيرى...

رفع رأسه من حقيبته.

- أنا وسيدي لم نقترف خطأ. ضحّت بحياتها من أجل بلادها...

ولضحيتُ أنا أيضاً، لكن لم تسنح لي الفرصة.

- في هذه الحالة، اسمح لي بأن أكون أول من يشكرك، نيابة عن البلاد كلها.

- الرئيس. أين هو الآن؟ هل تعرف؟

نظر د. بيرى إلى الشرطيين، رافعاً حاجبيه متسائلاً، فتبادلا نظرة،

ثم قال أحدهما: «ذهب إلى أوستن، ليلقي خطاب عشاء، وفقاً لجدول جولته. لا أعرف ما إذا كان هذا يجعله شجاعاً أم غيباً».

قلت مع نفسي: ربما ستتحطم الطائرة الرئاسية، فنقتل كينيدي وكل

من على متنها. ربما سيتعرض لأزمة قلبية أو سكتة دماغية مميتة. ربما

سيحاول جبان آخر تفجير رأسه الوسيم. هل يعمل الماضي العنيد ضد

الأشياء التي تُغيّر كما يعمل ضد عوامل التغيير؟ لم أعرف. كما لم أكرث

كثيراً. أنجزتُ مهمتي. وما سيحدث لكينيدي من هذه المرحلة فصاعداً

ليس بوسعي تغييره.

قال بيرى بصوت خافت: «سمعت أن جاكى ليست معه. أرسلها إلى مزرعة نائب الرئيس في جونسون سيتى، وسيلحق بها في عطلة نهاية الأسبوع كما هو مخطط له. إذا كان ما تقوله صحيحًا يا جورج...».

«هذا يكفي يا دكتور». قاطعه أحد الشرطيين.

لكن د. بيرى، وهو أيضًا صاحب نصيب من عجرة الأطباء، تجاهله: «إذا كان ما تقوله صحيحًا، فأرى في مستقبلك رحلة إلى واشنطن، وعلى الأرجح ستُقلد ميدالية في حديقة الورود بالبيت الأبيض».

بعدما غادر الطبيب، تُركت وحدي مجددًا، لكن لم أكن وحدي تمامًا، كانت سيدي معي. قبيل رحيلها من هذا العالم قالت: لكم رقصنا! أغمضت عيني ورأيتها في صف مع الفتيات الأخريات، يحركن أكتافهن ويؤديين رقصة مادسون. في هذه الذكرى كانت تضحك، وكان شعرها متطايرًا، ووجهها مثاليًا. وسائل 2011 الجراحية ستعالج كثيرًا مما فعله جون كلايتون بوجهها، لكن رأيت أن لدي وسيلة أفضل، إذا سنحت لي فرصة استخدامها.

4

تُركت وحدي ساعتين مع آلامى قبل أن يُفتح باب حجرة الاستجواب مجددًا. دخل رجلان. أحدهما ذو وجه كلب من فصيلة باسيت هاوند ويعتمر قبعة ستيتسون عرّف بنفسه أنه النقيب ويل فرتز من شرطة دالاس، وكان يحمل معه حقيبة يدوية، لكنها ليست حقيبتي، لذا لا بأس. والآخر ذو لغد ثقيل ووجه شخص مُسرف في الشراب وشعر داكن قصير لامع بدهان الشعر، وعيناه ثاقبتان فضوليتان، وقلقتان قليلًا. من جيب سترة بدلتة الداخلي أخرج بطاقة هوية مطوية وفتحها قائلًا: «جيمس هوستي يا سيد أمبرسون، من مكتب التحقيقات الفدرالي».

قلت له مع نفسي: لديك سبب وجيه للقلق، كنتَ المسؤول عن مراقبة ليّ أليس كذلك أيها العميل هوستي؟

قال ويل فِرتز: «نود أن نطرح عليك بضعة أسئلة يا أمبرسون».

- أجل، وأود الخروج من هنا، مَنْ ينقذ رئيس الولايات المتحدة الأمريكية لا يعامل كالمجرمين.

قال العميل هوستي: «مهلاً، مهلاً، أرسلنا إليك طبيباً، أليس كذلك؟ وليس أي طبيب، إنما طبيبك».

قلت: «اطرح أسئلتك».

وتأهبتُ للرقص.

5

فتح فِرتز حقيبه وأخرج كيساً بلاستيكيّاً مخصّصاً للأدلة، وبداخله مسدسي 38. قال: «وجدنا هذا ملقى على متراس الصناديق الذي نصبه أوزوالد يا أمبرسون، أظنّه كان مسدسه؟».

- لا، هذا خاص بالشرطة، إنه مسدسي. مسدس ليّ 38. أيضاً، لكنه من طراز فيكتور. إذا لم يكن على جثته، فعلى الأرجح ستجدونه أينما كان يعيش.

تبادل فِرتز وهوستي نظرة دهشة، ثم نظرا إليّ.

قال فِرتز: «إذن تقر بأنك كنت تعرف أوزوالد».

- أجل، لكن ليست معرفة وثيقة. لم أعرف أين كان يعيش، وإلاّ لذهبتُ إليه.

قال هوستي: «كان لديه غرفة بشارع بيكلي، باسم أوّ إتش ليّ، ويبدو أنه كان لديه أسماء مستعارة أخرى. منها أليك هيدل، الذي استخدمه في معاملاته بالبريد».

سألت: «زوجته وطفلة لم تكونا معه؟».

ابتسم هوستي، فامتد لغده نصف ميل في كلا الاتجاهين، وقال: «مَن يطرح الأسئلة هنا يا أمبرسون؟».

قلت: «كلانا. خاطرتُ بحياتي لأنقذ الرئيس، وخطيبتني ضحّت بحياتها، لذا أرى أن من حقي طرح أسئلة».

ثم انتظرت مدى حدة ردة فعلهما. إذا احتدّا معي، فسأعرف أنهما يظناني ضالعا. لم يحتدّا، لكن أرادا أن يتأكدا. لم يحسما أمرهما.

استخدم فريتز إصبعه القصيرة السميكة ليدير الكيس الذي بداخله مسدسي، وقال: «سأخبرك ما كان ليحدث يا أمبرسون. لا أقول إن هذا ما حدث، لكن عليك أن تقنعنا».

قلت: «أجل. هل اتصلتما بوالدي سيدي؟ يعيشان في سافنا. ينبغي لكما أن تتصلا بديكون سيمونز وإيلين دوكرتي أيضاً، في جودي. كانا كأبوين بديلين لها». فكرتُ بهذا وتابعت: «بل لكلينا. كنت أنوي أن أطلب من ديكي أن يكون إشبيني في زفافنا».

لم يحفل فريتز بكلامي: «ما كان ليحدث هو أنك وفتاتك كنتما ضالعين مع أوزوالد، وربما خانتكما شجاعتكما في النهاية».

نظرية المؤامرة الأشهر على الإطلاق، لا يخلو منها أي منزل.

قال هوستي: «ربما أدركت في اللحظات الأخيرة أنكم على وشك إطلاق النار على الرجل الأقوى نفوذاً في العالم، فحظيت بلحظة صفاء ذهني، لذا أوقفته. إذا كان هذا ما جرى، فستكون عقوبتك مخففة».

أجل. مخففة، أربعون، أو ربما خمسون سنة في ليفنورث بدلاً من الإعدام على كرسي تكساس الكهربائي.

- إذن لماذا لم نكن هناك معه أيها العميل هوستي؟ بدلاً من طرق الباب بعنف حتى يُسمَح لنا بالدخول؟

هز هوستي كتفيه بما معناه: أنت قُل لي.

تابعت: «وإذا كنت أخطط معه للاغتيال، لرأيتني معه، لأنني أعرف أنك كنت تراقبه جزئياً على الأقل». ملت إلى الأمام وأردفت: «لماذا لم توقفه أنت يا هوستي؟ هذه كانت مهمتك».

أجفل متراجعا كأنني رفعت قبضتي نحوه، واحمرّ لغده.

لبضع لحظات تصلّب حزني فاعترتني قسوة مع شيء من المتعة، وتابعت: «كان مكتب التحقيقات الفدرالي يراقبه لأنه انشق إلى روسيا، ثم انشق عائداً إلى الولايات المتحدة، ثم حاول أن ينشق إلى كوبا. كان يوزع منشورات مؤيدة لفيدل في أركان الشوارع منذ شهور قبل فيلم رُعبه اليوم».

زمجر هوستي: «كيف تعرف كل هذا؟».

- أخبرني هو. ثم ماذا حدث؟ الرئيس الذي استنفد جميع الأفكار للإطاحة بكاسترو اعتزم المجيء إلى دالاس. وهكذا حظي لي، وهو يعمل في مستودع الكتب، بمقعد ممتاز لمشاهدة الموكب. عرفت كل هذا ولم تفعل شيئاً.

حدّق فرتز إلى هوستي مرتاعاً. وإنني متأكد أن هوستي ندم على وجود شرطي دالاس معه في الحجرة، لكن ماذا عساه أن يفعل؟ كان مركز فرتز.

قال هوستي متبرّماً: «لم نعهده تهديداً».

- حسناً، هذا كان خطأ قطعاً. ماذا كتب لي في الورقة التي أعطتها لك يا هوستي؟ أعرف أنه ذهب إلى مكتبك وغادر عندما قيل له إنك غير موجود، لكنه رفض إخباري بما كتبه لك. اكتفى بابتسامته الساخرة تلك. إننا نتحدث عن الرجل الذي قتل المرأة التي أحببتها، لذا أظنني أستحق أن أعرف. هل قال إنه سيُقدّم على فعل سيلفت أنظار العالم كله؟ أراهن أن هذا ما قاله.

- لم يكن أمرًا كهذا!

- أرني الورقة إذن. أتحدّك.

- أي مراسلات من السيد أوزوالد تخص مكتب التحقيقات الفدرالي.

- لا أظنك قادرًا على أن تريني الورقة، أراهن أنها استحالت رمادًا في مرحاض مكتبك، امتثالًا لأوامر السيد هوفر.

إذا لم تُحرق، فستُحرق. ذكر آل هذا في دفتر ملاحظاته.

قال فريتز: «ما دمتَ تقول إنك بريء، فأخبرنا بكيفية معرفتك بأوزوالد وسبب حملك مسدسًا».

أردف هوستي: «وتفسيرًا لوجود سكين جزار ملطخة بالدماء مع السيدة التي كانت ترافقك».

استشطت غضبًا عندئذٍ، فصحت: «السيدة كلها كانت ملطخة بالدماء! ملابسها، وحذاءها، وحقيبتها! ابن الساقطة أصابها في صدرها، أم إنك لم تلاحظ؟».

قال فريتز: «اهدأ يا أمبرسون، لا أحد يوجه إليك أي تهمة...». ضمنيًا: بعد.

أخذت نفسًا عميقًا، وقلت: «هل تحدثتما مع د. بيرري؟ أرسلتماه ليفحصني ويعتني بركبتي، لذا لا بد أنكما تحدثتما إليه، مما يعني أنكما تعرفان أنني تعرضت لضرب كاد يودي بحياتي في أغسطس الماضي. الرجل الذي أمر بضربي، وشارك فيه، وكيل مراهنات اسمه أكيفا رووث. لا أظنه كان ينوي إيذائي إلى تلك الدرجة، لكنني على الأرجح استفزته فغضب. لا أتذكر. ثمة أحداث كثيرة لا أتذكرها منذ لك اليوم».

- لماذا لم تبلغ عن هذه الحادثة بعد وقوعها.

- لأنني كنت في غيبوبة، أيها المحقق فريتز، وعندما أفقت منها لم أتذكر. ثم عندما تذكرت، جزءًا من الأحداث على الأقل، تذكرتُ قول

روث إنه كانت تربطه صلة بوكيل مراهنات في تامبا سبق لي التعامل معه، زعيم مافيا من نيو أورلينز اسمه كارلوس مارسيلو. وهذا جعل ذهابي إلى الشرطة محفوفًا بالمخاطر.

- هل تقول إن قسم شرطة دالاس فاسد؟

لم أعرف ما إذا كان غضب فرتز حقيقياً أم مصطنعاً، ولم أكرث.

- أقول إنني أشاهد مسلسل *ذا أنتتشابلز* وأعرف أن المافيا لا تستلطف الوشاة. اشتريتُ مسدساً لحماية نفسي، فهذا حقي بموجب "التعديل الثاني"⁽¹⁾، وكنت أحمله معي.

أشرت إلى كيس الأدلة وأردفت: «هذا المسدس».

سألني هوستي: «من أين اشتريته؟».

- لا أتذكر.

قال فرتز: «فقدان ذاكرتك ملائم لك، أليس كذلك؟ كحيلة في مسلسل *ذا سيكرت ستورم* أو *آز نا وورد تيرنز*».

أعدتُ كلامي: «تحدثا مع بيرى. وألقيا نظرة أخرى على رُكبتى، فاقمتُ إصابتهما بصعود ستة طوابق ركضاً لإنقاذ الرئيس. وهذا ما سأقوله للصحافة، وسأقول لهم أيضاً إن مكافأتي على أداء واجبي بوصفي مواطناً أمريكياً كانت الاستجواب في حجرة ضيقة ساخنة دون حتى كأس ماء».

سألني فرتز: «أتريد كأس ماء؟». وفهمت أن هذا الاستجواب سيمضي على ما يرام، إذا لم أرتكب هفوة. أفلت الرئيس من الاغتيال بأعجوبة. وهذان الرجلان، ناهيكم بمدير شرطة دالاس جيسي كاري، سيكونون

(1) التعديل الثاني لدستور الولايات المتحدة، يكفل للمواطنين امتلاك الأسلحة وحملها. (المترجم)

تحت ضغط رهيب حتى يقدّموا بطلاً. وبما أن سيدي ماتت، فليس لديهم
سواي.

قلت: «لا، لكن زجاجة كوكا كولا ستكون لفطة لطيفة جداً».

6

وفي أثناء انتظاري الكولا، تذكرت قول سيدي: «إننا نترك خلفنا أثراً
عرضه ميل. صحيح. لكن ربما يمكنني استغلال ذلك لمصلحتي، إذا
عمل سائق شاحنة سحب بعينه من محطة فورت وورث إيسو بما طلبته
منه في الرسالة التي سيجدها تحت ماسح زجاج الشيفروليه.
أشعل فرتز سيجارة ودفع اللعبة ناحيتي. هززت رأسي، فاستعادها.
وقال: «أخبرنا، كيف تعرفت عليه».

أخبرتني أنني التقيت لي بشارع مرسيدس، وصارت بيننا معرفة،
استمعت إلى هذره عن شرور أمريكا الإمبريالية الفاشية وأعجوبة الدولة
الاشتراكية التي ستظهر في كوبا. قال إن كوبا هي النموذج المثالي،
وروسيا سيطر عليها البيروقراطيون العقيمون، ولهذا غادرها. في كوبا
هناك العم فيدل. لم يقل لي صراحة إن العم فيدل يمشي على الماء، لكنه
ألمح إلى ذلك.

قلت: «ظننته مجنوناً، لكن استلطفْتُ أسرته». هذه كانت حقيقة.
استلطفْتُ أسرته حقاً، ورأيت أنه مجنون حقاً.

سألني فرتز: «بدايةً كيف ذهب معلّم مهني مثلك ليعيش في ذلك
الجزء الوضيع من فوت وورث؟».

- كنت أحاول كتابة رواية. اكتشفت أنني لا أستطيع كتابتها وأنا
أدرّس بمدرسة. وجدت شارع مرسيدس قذراً، لكنه رخيص. رأيت
أن الكتاب سيستغرق عامًا على الأقل، فلم أجد خيارًا سوى الاعتماد

على مدخراتي. وعندما ضقت ذرعًا بالحي حاولت التظاهر بأنني مبدع بوهيمي.

- هل تضمنت مدخراتك النقود التي جنيتها من وكلاء المراهقات؟
- ألجأ إلى حقي بموجب "التعديل الخامس"⁽¹⁾.

ضحك ويل فرتز.

سألني هوستي: «إذن قابلت أوزوالد ونمت بينكما صداقة؟».

- صداقة نسبية. لا يصادق المرء المجانين. أنا لا أفعل.

- تابع.

انتقل لي وأسرتي إلى منزل آخر، وأنا بقيت. وفجأة ذات يوم، تلقيت مكالمة منه وقال لي إنه ومارينا يعيشان بشارع إلزبيث في دالاس، وقال إن الحي أفضل والإيجارات رخيصة والمنازل كثيرة. قلت لفرتز وهوستي إنني سئمتُ شارع مرسيدس بحلول ذلك الوقت، لذا ذهبت إلى دالاس، وتناولت غداءً مع لي في مطعم ولوورث ثم تمشينا في أنحاء الحي. استأجرت شقة الطابق الأرضي بالمنزل رقم 214 بشارع ويست نيلي، وعندما أُخِلِّيت شقة الطابق العلوي، أخطرتُ لي، كنوع من رد الجميل.

قلت: «لم تحب زوجته منزل شارع إلزبيث، ومبنى شارع ويست نيلي كان قريبًا، وأفضل. لذا انتقلوا إليه».

لم تكن لدي فكرة عن مدى الاهتمام الذي سيتحققان به من صحة هذه القصة، والترتيب الزمني لأحداثها، وما قد تخبرهما مارينا به. لم أكن أحتاج إلى شيء سوى الوقت. وأي قصة قد تتسم بمصداقية ولو ظاهرية ستتيح لي الوقت، لا سيما وأن العميل هوستي لديه سبب وجيه

(1) التعديل الخامس لدستور الولايات المتحدة، أحد بنوده تكفل للفرد الحق في التزام الصمت وعدم الرد عن الأسئلة التي قد تُدِينه. (المترجم)

لمعاملتي بلطف. إذا قلتُ ما أعرفه عن علاقته بأوزوالد، فربما يقضي بقية مسيرته المهنية في زمهرير فارجو.

- ثم حدث أمرٌ شَد انتباهي. في أبريل الماضي، قريبًا من عيد القيامة. كنت جالسًا إلى طاولة المطبخ، أعمل على كتابي، عندما توقفت سيارة فخمة، أظنها كاديلاك، وترجل منها شخصان، رجل وامرأة، متأنقان، ومعهما دُمية لجُوني، وهي...

قال فرتز: «نعرف مَنْ هي جُون أوزوالد».

- صعدا السلم، وسمعت الرجل، يتكلم بلكنة ألمانية وصوت هادر عميق، سمعته يقول: "كيف أخطأته يا لي".

مال هوستي إلى الأمام، وعيناه متسعتان إلى أقصى حد في وجهه اللхим. «ماذا؟».

- سمعَتني. بعدها اطلَّعتُ على الصحيفة، واكتشفت أن شخصًا ما حاول إطلاق النار على جنرال متقاعد قبل أربعة أو خمسة أيام. يميني متطرف. من طينة الذين يكرههم لي.

- وماذا فعلت؟

- لا شيء. كنت أعرف أنه لديه مسدس، أراني إياه ذات يوم، لكن ذُكر في الصحيفة أن الرجل الذي أطلق النار على ووكر استخدم بندقية. علاوة على ذلك، عندئذٍ كنت مشغول البال بخطيبتني. سألتني عن سبب حملها سكينًا في حقيبتها، والإجابة بسيطة: كانت خائفة. فهي أيضًا تعرضت لاعتداء من قبل، لكن ليس على يد روث، إنما على يد زوجها السابق، ألحق بها تشوُّهًا فظيعةً.

قال هوستي: «رأينا النذبة، نأسف لفقدك يا أمبرسون».

قلت مع نفسي: لا تبدوَان آسفين بما يكفي. وقلت: «شكرًا. السكين التي كانت تحملها هي نفسها التي أصابها بها زوجها السابق، جُون

كلايتون. صارت تحملها معها حيثما ذهبت». تذكّرت قولها: تحسّباً. تذكّرت قولها: هذه المهمة يجدر بي أن أتحمّس لها.

وضعت يدي على وجهي لحظات. انتظرا. ثم أنزلتهما إلى ججري وتابعتُ بصوت رتيب. مجرد سرد للوقائع.

- احتفظتُ بمنزل ويست نيلي، لكن أمضيت معظم الصيف في جودي للاعتناء بسيدي. كنت قد تخلّيت عن فكرة الكتاب، وبدأت أفكر في العودة إلى مدرسة دنهولم. ثم صادفتُ أكيفا روّث وبلطجيته، وأدخلت المستشفى. وبعدما أخرجوني ذهبتُ إلى مركز إعادة تأهيل اسمه إيدن فالوز.

قال فريتز: «أعرفه. مكان يوفر السكن وبعض المساعدة».

- أجل، وسيدي كانت مساعدي الأساسية. اعتنيتُ بها بعدما جرحها زوجها، واعتنت بي بعدما ضربني روّث وعصابته. دورة أخذ وعطاء. تحدّث... لا أدري... تناغمًا ما.

قال هوستي بوقار: «كل شيء يحدث لسبب». ولوهلة أحسست برغبة في الاندفاع فوق الطاولة ولكم وجهه اللحيم، لكن ليس لأنه كان مخطئًا، ففي رأيي المتواضع، كل شيء يحدث لسبب فعلاً، لكن هل تروقنا الأسباب؟ نادرًا.

«قريبًا من نهاية أكتوبر، سمح د. بيرى لي بقيادة السيارة مسافات قصيرة». هذه كانت كذبة محضة، لكن ربما لا يتحققان منها بالرجوع إلى بيرى إلّا بعد مدة... ولاحقًا إذا رأياني بطلًا أمريكيًا، فربما لا يتحققان أبدًا. «ذهبت إلى دالاس يوم الثلاثاء في ذلك الأسبوع لزيارة شقة ويست نيلي، قررت الذهاب دون تخطيط سابق، أردت أن أرى ما إذا كانت زيارة المنزل ستساعدني على استرجاع بعض ذكرياتي».

ذهبت حقًا إلى ويست نيلي، لكن لأجلب المسدس من تحت سلم الشرفة.

- وبعدها، قررت تناول غدائي في ولوورث كما كنت أفعل في الأيام الخوالي، وهناك وجدت لي، يتناول تونة مع خبز الجاودار. جلست وسألته عن أحواله، وعندئذٍ أخبرني بأن مكتب التحقيقات الفدرالي يضايقه هو وزوجته. قال: "سأعلم أولئك اللقطاء ألا يعبثوا معي يا جورج. إذا شاهدت التلفاز عصر الجمعة، فربما ترى شيئاً".

قال فرتز: «رباه! هل ربطت ذلك بزيارة الرئيس؟».

قلت: «ليس في البداية. عادةً لا أتابع تحركات كينيدي باهتمام، فأنا جمهوري». كذبتان بسعر واحدة. «كما انتقل لي سريعاً إلى موضوعه المفضل».

قال هوستي: «كوبا».

- صحيح. كوبا ويحيا فيدل. حتى إنه لم يسألني عن سبب عرجي، كان مستغرقاً دوماً فيما يجول برأسه، أتعرف؟ لكن هكذا كان حاله. اشتريت له بودنج كاسترد وسألته عن مكان عمله، فقال لي مستودع الكتب بشارع إلم، قالها مبتسماً ابتسامة عريضة، كأنما تفريغ الشاحنات ونقل الصناديق أرقى عمل في العالم. لم أعبأ كثيراً بمعظم هذره، وذهبت، لأن ساقبي كانت تؤلمني وانتابني صداع. قدت سيارتي إلى إيدن فالوز وأخذت قيلولة. وعندما استيقظت، تذكرت قول الرجل الألماني "كيف أخطأته". شغلت التلفاز، ووجدتهم يتحدثون عن زيارة الرئيس. وعندئذٍ بدأت أقلق. هرعت وبحثت في كومة الصحف بصالة المعيشة، وعثرت على مسار الموكب، ووجدته يمر جوار مستودع الكتب. نهشني القلق طوال يوم الأربعاء. (عندئذٍ كانا يميلان فوق الطاولة، يترقبان كل كلمة أقولها. كان هوستي يدوّن ملاحظات دون أن ينظر إلى دفتره. وتساءلت عما إذا كان سيقدر على قراءتها لاحقاً). ظللت أقول لنفسني: ربما كان جاداً، ثم أقول: كلا، لي يجعجع دوماً

دون طحين. ظللت أترجح هكذا. وصباح الأمس اتصلت بسيدي، أخبرتها بالقصة كاملة، وسألتها عن رأيها. اتصلتُ بديكي، ديكي سيمونز، الرجل الذي قلت لكما إنه مثل أب لها، ثم عاودت الاتصال بي، وقالت إنني ينبغي أن أبلغ الشرطة.

قال فرتز: «لا أقصد زيادة ألامك يا بُني، لكن إذا اتصلت بالشرطة لظلت خطيبتك على قيد الحياة».

- مهلاً، لم تسمع القصة كاملةً بعد. (أنا أيضاً لم أسمعها بالطبع، كنت أخلق أجزاء كبيرة منها في أثناء كلامي). قلت لها ولديكي ألا نتصل بالشرطة، فإذا اتضح أن لي بريء، فسنكون قد قضينا على حياته. لا بد أن تفهما أن الرجل كان يتدبّر معيشته بالكاد. شارع مرسيدس كان مكب نفايات، وويست نيلي أفضل منه قليلاً، لكن ذلك لم يزعجني كثيراً، فأنا أعزب، وأعمل على كتاب، ولدي نقود بسيطة في المصرف. أمّا لي... فلهذه زوجة جميلة وطفلتان، ولدت الثانية قبل وقت قصير، وبالكاد كان يتدبّر معيشتهم. لم يكن رجلاً سيئاً...

إثر كلامي الأخير أحسست برغبة ملحة في لمس أنفي لأتأكد أنه لم يطل.

- ... لكنه كان شديد الاضطراب. أفكاره الجنونية صعبت عليه الاحتفاظ بأي وظيفة. قال إنه كلما يبدأ عملاً جديداً، يتدخل مكتب التحقيقات الفدرالي ويفسد عليه الأمور. قال إن هذا حدث عندما عمل في محل الطباعة.

قال هوستي: «هذا هراء. إنه يلوم كل الناس على مشكلات يسببها نفسه. لكننا متفوقون على بعض الأشياء يا أمبرسون. كان شديد الاضطراب، وشعرت بالأسف حيال زوجته وطفليته، بالأسف الشديد».

- حقًا؟ هنيئًا لك. على أي حال، بدأ عملاً جديدًا ولم أرغب في أن يفقده لأنه يثرثر كثيرًا فحسب... فالترثرة تخصصه. أخبرت سيدي بأنني ذاهب إلى مستودع الكتب غدًا، أي اليوم، لأتفقد لي، فقالت إنها سترافقني، لكنني رفضت، وقلت لها إنها ستعرض نفسها لخطر إذا اتضح أن لي فقد صوابه ويعتزم ارتكاب فعلية ما.

سألني فرتز: «هل بدا فاقداً صوابه عندما تناولت معه الغداء؟».

قلت: «لا، كان هادئًا، لكن هذا حاله دومًا». ملت نحوه وتابعت: «أريد منك أن تصغي إلى هذا الجزء بانتباه أيها المحقق فرتز. أدركت أن سيدي عازمة على مرافقتي مهما قلت لها. فخرجت دون إخبارها، لحمايتها. تحسبًا».

همست سيدي التي تعيش في رأسي: وهذه مهمة يجدر بي أن أتحسب لها. وستظل حيّة في مخيلتي إلى أن أراها بشحمها ولحمها مجددًا. أقسمت على هذا، مهما كلفني.

- فكرت في قضاء الليلة في فندق، لكن جميع الفنادق كانت ممتلئة. ثم فكرت بشارع مرسيدس. كنت قد سلّمت مفتاح المنزل رقم 2706، حيث كنت أعيش، لكن ما زال معي مفتاح 2703 على الجانب الآخر من الشارع، حيث كان لي يعيش. أعطاني إياه حتى أسقي نباتاته.

قال هوستي: «كان لديه نباتات؟».

ظللت مرگزا انتباهي على ويل فرتز: «ذعرت سيدي عندما اكتشفت مغادرتي إيدن فالوز. ذعر ديكي أيضًا، فاتصل بالشرطة. ليس مرة، بل عدة مرات، وفي كل مرة ظل الشرطي الذي يتلقى المكالمات يقول له أن يكف عن الترهات، وينهي المكالمات. لا أعرف ما إذا اهتم أحد بتسجيل تلك المكالمات، لكن ديكي سيخبرك، ما من سبب يدفعه للكذب».

عندئذٍ حان دور احمرار وجه فرتز: «إذا عرفت عدد تهديدات القتل التي تلقى...».

- بالتأكيد. لكن لا تقل لي إننا إذا كنا قد اتصلنا بالشرطة لظلت سيدي على قيد الحياة، إياك أن تقول لي هذا، اتفقنا؟
لاذ بالصمت.

سألني هوستي: «كيف وجدتك سيدي؟».

لم أكن مضطراً إلى الكذب لأجيب عن هذا السؤال، ولم أكذب. لكن بعدها قد يسألانني عن رحلتي من شارع مرسيدس في فورت وورث إلى مستودع الكتب في دالاس. وهذا الجزء من قصتي شائك. لم أقلق بشأن راعي البقر صاحب الستودبيكر، لم تجرحه سيدي إلا لأنه حاول سرقة محفظتها، والسيارة كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة سلفاً، وشعرتُ بأن راعي البقر ربما لا يبلغ عن سرقتها. وبالطبع سرقنا سيارة أخرى، لكن نظرًا إلى استعجالنا وأهمية ما كنا بصدد، فبال تأكيد ستتغاضى الشرطة عما فعلناه. إذا حاولوا فستصلبهم الصحافة. بيد أنني كنت قلقاً بشأن الشيفروليه الحمراء، ذات جناحي حاجبي امرأة. بمستطاعنا تبرير وجود حقيبتَي سفر في الصندوق الخلفي، إذ قضينا عطلات نهاية أسبوع في بيت ضيافة كاندلوود من قبل. لكن إذا ألقى رجال الشرطة نظرة على دفتر ملاحظات آل... لم أرغب في مجرد التفكير في هذا الاحتمال.

سمعنا طرقاً صورياً على باب حجرة الاستجواب، وأطل أحد الشرطيين الذين جلبوني برأسه. عندما كان يقود السيارة، وبينما كان هو ورفيقه يتفقدان أغراض الشخصية، بدا متحجر الوجه شديد البأس، شرطياً حتى النخاع كالذين يظهرون في أفلام الجريمة. لكن الآن بدا غير واثق بنفسه وجاحظ العينين من الحماسة، فلاحظتُ أن سنَّه لا تتجاوز الثالثة والعشرين، وما زال يعاني بقايا حب الشباب. وخلفه رأيت أناساً كثيرين

-بعضهم يرتدون أزياء قوات نظامية- يشترطون بأعناقهم لينظروا إلي.
التفت فرتز بنفاد صبر إلى القادم غير المرغوب.

قال الشرطي: «أسف على المقاطعة يا سادة. السيد أمبرسون
مطلوب لمكالمة هاتفية».

عاد الاحمرار إلى لخد هوستي: «إننا نجري استجوابًا هنا. لا نكثر
حتى إذا كان المتصل رئيس الولايات المتحدة».

ازدرد الشرطي ريقه، فارتفعت تفاحة آدم في حلقه وانخفضت كقرد
يتقاذف على غصن. ثم قال: «اممم... المتصل رئيس الولايات المتحدة
فعلاً».

اتضح أنهما يكثران.

7

اصطحباني إلى نهاية الرواق حيث مكتب المدير كاري، وأسندني
فرتز وهوستي، كل منهما على جانب. وهكذا خففا عليّ ستين أو سبعين
رطلاً من وزني، بالكاد عرجت. كان هناك مراسلون، وكاميرات تلفاز،
ومصابيح ضخمة لا بد أنها رفعت درجة الحرارة إلى مئة درجة. وأولئك
الناس، الأقرب إلى البابارتزي، ليس من الطبيعي أن يكونوا بداخل مركز
شرطة في أعقاب محاولة اغتيال، لكنني لم أُفاجأ. ففي خط زمني آخر،
احتشدوا بعد اعتقال أوزوالد ولم يطردهم أحد، وبحسب علمي لم يقترح
أحد إبعادهم مجرد اقتراح.

شق هوستي وفرتز طريقهما عبر الحشد بصرامة. وأمطرنا ثلاثتنا
بالأسئلة، فصاح هوستي: «سيدلي أمبرسون بتصريح بعد أن تأخذ
السلطات إفادته كاملة!».

صاح أحدهم: «متى؟».

- غداً، أو بعد غد، أو ربما بعد أسبوع!

ارتفعت تأوهات تذمّر، فابتسم هوستي، وأردف: «ربما بعد شهر. الآن ينتظره الرئيس كينيدي على الهاتف، لذا تراجعوا، أفسحوا لنا مجاًلاً!».

تراجعوا مفسحين لنا مجاًلاً، كطيور مذعورة.

جهاز التبريد الوحيد في مكتب المدير كاري كان مروحة على رف كتب، لكنني أحسست بالهواء المتحرك هبةً من السماء بعد الوقت الذي قضيته في حجرة الاستجواب ومروري بميكرويف الرواق. رأيت سماعة هاتف سوداء ضخمة على أوراق سجل، وبجانبتها ملف مطبوع عليه لي هـ أوزوالد. ملف صغير.

التقطت السماعة: «مرحباً».

لكنة نيو إنغلاند المشوبة بخُنة بعثت قشعريرة على ظهري. صوت رجل لكان ممدداً الآن على طاولة مشرحة، لولاي أنا وسيدي: «السيد أمبرسون؟ معك جاك كينيدي... أنا وزوجتي مدينان لك... بحياتينا... وسمعتُ أيضاً أنك فقدت شخصاً عزيزاً عليك».

- اسمها سيدي دنهل سيدي الرئيس. أوزوالد أطلق عليها النار.

- يؤسفني جداً... فقدك... يا سيد أمبرسون. هل لي أن أخاطبك...
بجورج؟

- كما تشاء.

قلت مع نفسي: إنني لا أجري هذه المحادثة، إنها حلم.

- بلادها مدينة لها بالشكر، ولك بالعزاء. اسمح لي... بأن أكون أول من يشرك ويعزّيك.

- شكراً لك سيدي الرئيس.

غصّ حلقي، وبالكاد تكلمتُ بصوت أعلى من الهمس. رأيتُ عينيها، وتذكّرتُ بريقهما وهي تحتضر بين ذراعي. جيك، لكم رقصنا. هل يهتم

الرؤساء بمثل هذه الأشياء؟ هل يعرفونها؟ أفضل الرؤساء ربما يعرفونها ويهتمون بها. ربما لهذا يخدمون.

- ثمة... شخص آخر يريد أن يشكرك يا جورج. زوجتي ليست هنا الآن، لكنها... تعتزم الاتصال بك الليلة.

- سيدي الرئيس، لست متأكدًا أين سأكون الليلة.

- ستجده. إنها... شديدة العزيمة عندما تريد التعبير عن شكرها. والآن أخبرني يا جورج، كيف حالك؟

قلت له إنني بخير، ولم أكن بالطبع. وعدني بأنه سيراني في البيت الأبيض عما قريب، وشكرته. لكن استبعدتُ أي زيارة إلى البيت الأبيض. طوال وقت المحادثة الشبيهة بالحلم وهواء المروحة يهب على وجهي المتعرق وزجاج الجزء العلوي من باب مكتب المدير كاري يعكس ضوء التلغزات الغرائبي بالخارج - ظلت كلمتان تنبضان في دماغي.

أنا بأمان. أنا بأمان. أنا بأمان.

هاتفني رئيس الولايات المتحدة من أوستن ليشكرني على إنقاذ حياته، وأنا بأمان. بمستطاعي فعل ما علي فعله.

8

بعد خمس دقائق من نهاية محادثتي السريالية مع جون فترجيرالد كينيدي، هرع فرتز وهوستي بي هابطين السلم الخلفي إلى المرأب حيث كان جاك روبي ليطلق النار على أوزوالد، عندئذٍ كان المرأب مزدحمًا في انتظار نقل القاتل إلى سجن المقاطعة، والآن بدا خاليًا إلى درجة أننا سمعنا صدى وقع أقدامنا. اصطحبني مراقبي إلى فندق أدولفس، ولم أُفاجأ عندما وجدت نفسي في الغرفة نفسها التي نزلت فيها عندما جئت إلى دالاس أول مرة. "الدنيا دَوَّارة"، كما يقولون، ورغم أنني لم أتمكن

من اكتشاف كبار الحكماء الغامضين الذين «يقولون»، فهم محقون عندما يتعلق الأمر بالسفر عبر الزمن.

أخبرني فرتز بأن رجال الشرطة المتمركزين في الرواق وبالأسفل، في البهو، من أجل حمايتي فحسب، ولإبعاد الصحفيين. (أجل). ثم صافحني، وعندما صافحني العميل هوستي أيضاً، شعرت بقصاصة ورق مربعة مطوية تنتقل من راحة يده إلى يدي. وقال: «لك أن تتنازل قسطاً من الراحة، تستحقها».

وعندما غادرا، فتحت قصاصة الورق الصغيرة، فوجدتها صفحة من دفتر ملاحظات، كتب هوستي عليها ثلاث جُمْل، على الأرجح بينما كنت أتحدث مع جاك كينيدي عبر الهاتف.

هاتفك مزود بجهاز تنصت. أراك عند التاسعة صباحاً. أحرق هذه الورقة وتخلص من رمادها.

أحرقته رسالته كما أحرقته سيدي رسالتي، ثم التقطت سماعة الهاتف وفككت جزء الميكروفون، وبالدخل رأيت أسطوانة زرقاء ليست أكبر من بطارية جافة صغيرة، موصلة بأسلاك. ابتسمت عندما رأيت أن عليها كتابة باللغة اليابانية، ذكّرني بصديقي القديم مايك الصامت. نزعته جهاز التنصت ووضعت في جيبِي، وأعدت تركيب غطاء الميكروفون، واتصلت بالرقم 0. صممت عاملة الهاتف مدة طويلة بعدما قلت اسمي، وحالما هممت بإنهاء المكالمة ومعاودة الاتصال، بدأت تصيح وتعبّر عن شكرها لإنقاذِي الرئيس. وقالت إنني إذا أردتُ أي شيء، منها أو من العاملين في الفندق، فما علي سوى الاتصال بها، قالت إن اسمها ماري، ومستعدة لفعل أي شيء لتشكرني.

قلت: «لك أن تبدئي بإيصالي إلى هاتف في جودي». وأعطيتها رقم ديكِي.

- بالتأكيد سيد أمبرسون. باركك الرب سيدي. أوصلك برقمك الآن.

رن الهاتف مرتين، ثم أجاب ديكى. كان صوته ثقیلاً أجش، كأنما تفاقمت نزلة برده: «إذا كنت صحفياً آخر...».

- لا يا ديكى، هذا أنا، جورج... جيك.

قال بحزن: «أوه، جيك». وأجهش بالبكاء. انتظرت، ممسكاً بالسماعة بشدة ألمت يدي. نبض صدغاي. كان اليوم في نهايته، لكن الضوء الداخل عبر النوافذ ما زال ساطعاً. وتناهدت إلى مسامعي من بعيد دمدمة رعد. وأخيراً قال: «هل أنت بخير؟».

- نعم، لكن سيدي...

- أعرف، من الأخبار. سمعتُ عندما كنت في طريقي إلى فورت وورث.

إذن المرأة صاحبة عربة الرضيع وسائق شاحنة السحب من محطة إيسو فعلاً ما كنت أمل أن يفعلاه. حمداً للرب. لم يبد ذلك مهماً وأنا جالس أستمع إلى هذا العجوز مفطور القلب وهو يحاول السيطرة على دموعه.

- ديكى... هل تلومني؟ سأفهم إذا لمتني.

- لا، إيلي أيضاً لا تلومك. لم تكن سيدي تتراجع عندما تعقد عزمها على فعل شيء. وإذا كنت في شارع مرسيدس بفورت وورث، فأنا من دلّها عليك.

- كنت هناك.

- هل أطلق الوغد النار عليها؟ يقولون في نشرات الأخبار إنه فعل.

- نعم. كان يقصد إطلاق النار علي، لكن ساقى المصابة... تعثرتُ بصندوق أو شيء ما وسقطت، وكانت سيدي خلفي مباشرة.

تماسك صوته قليلاً: «رباه. لكنها ماتت في سبيل ما هو صائب. هذا ما سأعزي نفسي به، وما ينبغي أن تعزي نفسك به أيضاً».

- دونها لما تمكنتُ من الوصول أبداً. ليتك رأيتها... ليتك رأيت مدى عزميتها... ومدى شجاعتها.

قال: «رباه»، خرجت الكلمة تنهيدة، وبدأ الرجل عجوزاً جداً. «إذن كل ما قلتَه صحيح، وكل ما قالته سيُدي عنك. أنت حقاً من المستقبل، صحيح؟».

لكم سررت عندئذٍ لأن جهاز التنصت في جيبِي! استبعدتُ أنهم وجدوا وقتاً لزرع أجهزة تنصت أخرى في الغرفة نفسها، لكن رغم هذا أحطت السماعة بقوس كفي وخفضت صوتي: «لا تقل كلمة عن ذلك للشرطة أو الصحفيين».

بدا ممتعضاً من كلامي نفسه: «يا للهول، لا بالطبع! لما شممت رائحة الحرية أبداً».

- هل ذهبتَ وجلبت أمتعنا من صندوق الشيفروليه؟ حتى بعد...

- بالتأكيد. عرفتُ أنه أمر مهم، فحالما سمعتُ بما حدث أدركتُ أنك ستكون في دائرة الشبهات.

- أظنني صرتُ بمأمن، لكن أريد منك فتح حقيبتَي اليدوية و... هل لديك محرقة قمامة؟

- نعم، خلف المرأب.

- ستجد دفتر ملاحظات أزرق في الحقيبة، ضعه في المحرقة وأحرقه. هلاً فعلتَ هذا من أجلي؟

ومن أجل سيدي. كلانا يعتمد عليك.

- نعم، سأفعل. يؤسفني فقدك يا جيك.

- ويؤسفني فقدك أيضاً، أنت وإيلي.

انفجر: «هذه ليست مقايضة عادلة! لا يهمني أنه الرئيس، هذه مقايضة غير عادلة!».

- ليست عادلة بالتأكيد. لكن يا ديكي... الأمر لا يخص الرئيس وحده، لحدثت تداعيات كثيرة إذا كان قد مات.
- أظنني لا بد لي من الأخذ بكلامك في هذا الشأن، لكنه أمرٌ صعب.
- أعرف.

هل سيقومون تجمُّعًا تذكاريًا لسَيدي في المدرسة الثانوية كما أقاموه لميمي؟ بالتأكيد. سترسل شبكات التلفزيون مصوريها، ولن توجد مُقلة جافة في أمريكا. لكن عندما ينتهي العرض، ستظل سيدي ميتة. إلا إذا غيِّرْتُ هذا الواقع. وهذا يعني أن أخوض مجددًا كل ما خضته، لكنني مستعد لذلك من أجل سيدي. حتى إذا ألقت علي نظرة واحدة في الحفل الذي سنلتقي فيه ورأتني عجوزًا لا أناسبها (سأبدل كل ما بوسعي لأغير رأيها في هذا الشأن). وثمة جانب إيجابي: الآن بعدما عرفت أن لي كان مُطلق النار الوحيد، فلن أضطر إلى الانتظار مدة طويلة قبل أن أتخلص منه.

- جيك؟ هل ما زلت معي؟
- نعم. وتذكَّر أن تسمِّيني جورج عندما تتحدث عني، اتفقنا؟
- لا تقلق، ربما أكون عجوزًا، لكن دماغي ما زال يعمل جيدًا. هل سأراك مجددًا؟

قلت مع نفسي: ليس إذا قال العميل هوستي ما أريد سماعه.

- إذا لم ترني، فلأن الأمور تمضي نحو الأفضل.
- حسنًا. جيك... جورج... هل قالت... هل قالت أي كلام في النهاية؟ ما كنت لأخبره بكلماتها الأخيرة، فهذا أمر خاص، لكن رأيت أن أخبره بشيء، فيخبر به إيلي، وتذيعه بين جميع أصدقاء سيدي في جودي. أصدقاؤها كثيرون.

- سألتني عما إذا كان الرئيس بأمان، وعندما قلت لها إنه بأمان أغمضت عينيها ورحلت.

بدأ ديكي يبكي مجدداً. وكان وجهي ينبض. لأراحتني الدموع، لكن عيني كانتا جافتين كالصخر.

قلت: «وداعاً، وداعاً صديقي».

وضعتُ السماعة برفق، ولبثتُ جالساً مدة، ناظراً إلى شفق غروب دالاس عبر النافذة. ثمة مقولة قديمة: سماء حمراء في الليل، بهجة البحار... لكن سمعت دمدمة رعد أخرى. وبعد خمس دقائق أخرى، عندما تمايلت نفسي، التقطت سماعة هاتفي الذي نزعْتُ منه جهاز التنصت، واتصلت بالرقم 0 مجدداً. قلت لماري إنني سأنام، وطلبتُ منها مكالمة إيقاف عند الثامنة، وطلبت منها أيضاً ألا يتصل أحدٌ بهاتفي حتذاك.

قالت متحمسة: «أوه، حُسم ذلك سلفاً، لن يتصل أحدٌ بهاتف غرفتك، هذه أوامر مدير الشرطة». خفضت صوتها قليلاً: «هل كان مجنوناً يا سيد أمبرسون؟ أعرف أنه لا بد أن يكون، لكن هل بدا مجنوناً؟».

تذكرتُ العينين المغبونتين والتكشيرة الشيطانية، وقلت: «نعم، بدا مجنوناً قطعاً. الثامنة يا ماري، لا شيء حتى الثامنة».

أنهيتُ المكالمة قبل أن تقول كلاماً آخر. ثم نزعْتُ حذائي (التحرُّر من الأيسر كان عملية بطيئة مؤلمة)، واضجعت على الفراش، ووضعت ذراعي فوق عيني. رأيت سيدي ترقص رقصة ماديسون، رأيتها تقول لي تفضل بالدخول يا سيدي، هل تحب الكعك؟ رأيتها بين ذراعي، وعيناها البرأقتان شاخصتان نحوي.

فكرت بجُحر الأرنب، وتذكرت أن كل دخول عبره يعيد الوضع إلى ما كان عليه سابقاً.

وأخيراً نمت.

سمعت طرُق هوستي عند التاسعة تمامًا. فتحت الباب، ودخل متمهلاً، حاملاً حقيبة يدوية بيد (لكنها ليست حقيبتني، ما زلت أجد راحة في هذا)، وباليدين الأخرى قنينة شمبانيا، من النوع الجيد، مويت إي شاندون، معقود حول عنقها شريط بالأحمر والأبيض والأزرق. بدا الرجل مرهقاً جداً.

مكتبة

t.me/soramnqraa

قال: «أمبرسون».

رددت: «هوستي».

أغلق الباب، ثم أشار إلى الهاتف، فأخرجتُ جهاز التنصت من جيبتي ورفعته. أوماً.

سألته: «ما من آخرين معك؟».

- لا. جهاز التنصت زرعه شرطة دالاس. والآن القضية صارت قضيتنا، الأوامر صادرة من هوفر مباشرة. إذا سألك أي أحد عن جهاز التنصت، فقل إنك وجدته بنفسك.

- حسناً.

رفع قنينة الشمبانيا.

- مقدّمة من إدارة الفندق، أصرُّوا علي أن أجلبها إليك. أتود أن تشرب نخب رئيس الولايات المتحدة؟

نظرًا إلى أن جميلتي سيدي مسجاة على طاولة في مشرحة المقاطعة، لم أرغب في شرب نخب أي شيء. نجحتُ، ووجدت مذاق النجاح كالرماد في فمي.

- لا.

- أنا أيضًا لكنني سعيد جدًا بأنه حي. أتود أن تعرف سرًّا؟

- بالتأكيد.

- صَوْتُ له. ربما أكون العميل الوحيد في مكتب التحقيقات الفدرالي الذي صَوْتُ له.

لم أَرُد.

اقتعد هوستي أحد كرسيين ذَوِي ذراعين في الغرفة، وأطلق تنهيدة ارتياح طويلة. وضع حقيبته بين قدميه، ثم أدار القنينة حتى يقرأ الديباجة: «1958. متذوقو النبيذ ربما يعرفون ما إذا كان عامًا جيدًا، لكنني أفضل الجعة».

- أنا أيضًا.

- إذن ربما تستمتع بجعة "لون ستار" التي تنتظر بك بالأسفل، هناك صندوق كامل، ورسالة مؤطرة تُعدك بصندوق شهريًا لبقية حياتك. ومزيد من الشمبانيا أيضًا، رأيت اثنتي عشرة قنينة على الأقل، أرسلها أناس من غرفة التجارة بدالاس ومجلس السياحة. لديك تلفاز ملون ماركة زِنِيث ما زال في صندوقه، وخاتم ذهبي عليه صورة للرئيس من كالواي فاين للمجوهرات، ووعده مكتوب بثلاث بدلات جديدة من "دالاس للملابس الرجالية"، وأشياء كثيرة أخرى، بما فيها مفتاح المدينة. خصصت الإدارة غرفة على الطابق الأول لغنائمك، وأخمن أنهم سيضطرون إلى تخصيص غرفة أخرى بحلول الفجر. والطعام! الناس يجلبون فطائر وكعكات ولحمًا مشويًا، ودجاجًا مشويًا، وكميات طعام مكسيكي تكفي لإصابتك بالإسهال خمس سنوات. نأمرهم بالابتعاد، لكنهم يكرهون الذهاب، وأكد لك. وبالخارج أمام مدخل الفندق نساء... حسنًا، فلنقل إن جاك كينيدي نفسه سيحسدك، وهو زير نساء أسطوري. لن تصدق ما لدى مديرنا في ملفاته عن الحياة الجنسية لذلك الرجل.

- قُدرتني على التصديق ربما تفاجئك.

- دالاس تحبك يا أمبرسون، بل البلاد كلها تحبك.

ضحك، وتحولت الضحكة إلى سعال، وعندما انحسر، أشعل سيجارة، ثم نظر إلى ساعته، وتابع: «ابتداءً من التاسعة وسبع دقائق بتوقيت المنطقة الزمنية الوسطى مساء الثاني والعشرين من نوفمبر 1963، أنت فتى أمريكا المدلل».

- ماذا عنك يا هوستي؟ هل تحبني؟ وهل يحبني المدير هوفر؟

وضع سيجارته جانباً على طرف منفضة السجائر بعد نفس واحد، ثم مال إلى الأمام وصوب إلي نظرة ثاقبة، كانت عيناه عميقتين في تلافيف لحم وجهه، ومرهقتين، ورغم هذا برأقتان فطنتان.

- انظر إلي يا أمبرسون، إلى عيني مباشرة، ثم أخبرني بما إذا كنت

متورطاً مع أوزوالد، فلتقل الحقيقة، لأنني أستطيع تمييز الكذب.

نظرًا إلى فشله الذريع في التعامل مع أوزوالد، لم أصدّق قدرته على تمييز الكذب، لكن رأيت أنه يصدق ما يقوله. فبادلته التحديق وقلت: «لم أكن متورطاً معه».

لبث صامتاً وهلة، ثم تنهّد، وتراجع في كرسيه، والتقط سيجارته قائلاً: «لا، لم تكن». نفث الدخان من منخريه. «لصالح مَنْ تعمل إذن؟ وكالة الاستخبارات المركزية؟ الروس؟ أنا عن نفسي أستبعد هذا، لكن المدير يرى أن الروس قد يحرقون غطاء عميل متخفٍّ من أجل إيقاف اغتيال ربما يشعل أزمة دولية، أو حتى حرباً عالمية ثالثة. لا سيما عندما يعرف الناس أن أوزوالد قضى وقتاً في روسيا».

قلت: «لا أعمل لصالح أي أحد. إنني مجرد رجل عادي يا هوستي».

أشار بسيجارته إلي وقال: «مهلاً إذن». فتح حقيبته وأخرج ملفاً أصغر من ملف أوزوالد الذي لمحته في مكتب كاري. لكن هذا سيكون

ملفي، وسيصير سميكا... لكن ليس بسرعة كما قد يحدث بالاستعانة بالحواسيب في القرن الحادي والعشرين. تابع: «قبل دالاس، كنت في فلوريدا، في بلدة سَنَسِت بوينت».

- أجل.

- عملت أستاذًا بديلاً في نظام ساراسوتا المدرسي.

- صحيح.

- وقبل ذلك، نعتقد أنك أمضيت وقتاً في... ديرين؟ ديرين بولاية مين؟

- ديرين.

- حيث كنتَ تفعل ماذا تحديداً؟

- حيث بدأت العمل على كتابي.

- امم... وقبل ذلك؟

- هنا وهناك، في كل مكان.

- ما مقدار ما تعرفه عن تعاملاتي مع أوزوالد يا أمبرسون؟
لذت بالصمت.

- لا داعي للتحفظ. لا أحد سوانا هنا.

- أعرف ما يكفي لإيقاعك في متاعب، أنت ومديرك.

- إلّا إذا...؟

- دعني أصوغ كلامي على هذا النحو: مقدار المتاعب التي قد أسببها لك ستتناسب طردياً مع مقدار المتاعب التي قد تسببها لي.

- إذن عندما نتحدث عن المتاعب، هل يجوز لي قول إنك مستعد لاختلاق ما لا تعرفه يقيناً... فتُلحِق بنا ضرراً؟

لزمْتُ الصمت.

قال كأنه يحدث نفسه: «لا يفاجئني أنك كنت تؤلف كتابًا. كان يجدر بك أن تواصل كتابته يا أمبرسون، على الأرجح لصار من أكثر الكتب مبيعًا، لأنك بارع جدًا في اختلاق القصص، أقر لك بهذا. قصتك كانت مقنعة إلى حد بعيد عصر اليوم. وتعرف أشياء ليس من شأنك أن تعرفها، وهذا ما يجعلنا نظن أنك لست مواطنًا عاديًا إطلاقًا. بربك، مَنْ دفعك إلى المهمة؟ أنغلثون من وكالة الاستخبارات المركزية؟ هم، أليس كذلك؟ ذلك الوغد الماكر مُحِب زراعة الورود».

قلت: «إنني وحدي. وعلى الأرجح لا أعرف معلومات بالكثرة التي تظنها، لكن أجل، أعرف ما يكفي لإظهار مكتب التحقيقات الفدرالي بمظهر سيئ. مثلًا أعرف أن ليّ جاءك أنت مباشرة وأخبرك بأنه سيطلق النار على كينيدي».

سحق هوستي سيجارته بعنف حتى تطاير شررها على شكل نافورة، تساقط بعضه على ظاهر يده، لكن لم يبدُ أنه شعر بشيء. وقال: «هذه كذبة صفيقة!».

- أعرف. وسأقولها دون أن يطرف لي جفن، إذا أرغمتني عليها. هل بدأت تراودكم فكرة التخلص مني يا هوستي؟
- اعفني من أمور كتب الرسوم الهزلية هذه. لا نقتل الناس.
- قل هذا للأخوين ديمم اللذين اغتيلوا هناك في فيتنام.
- نظر إليّ كما ينظر المرء إلى فأر كان يبدو وديعًا لكنه عضّه فجأة، وبأسنان كبيرة.
- كيف تعرف أن أمريكا لها أي علاقة بما حدث للأخوين ديمم؟ أيا دينا نظيفة وفقًا لما أقرّوه في الصحف.
- فلنلتزم بموضوعنا. الأمر المهم، في الوقت الراهن، هو أن شعبيتي تحوّل دون قتلي، أم إنني مخطئ؟

- لا أحد يريد قتلك يا أمبرسون. ولا أحد يريد الطعن في قصتك.
- أطلق ضحكة تفتقر للمرح، وأردف: «إذا بدأنا التمهيص، فقد يتداعى كل شيء. قصتك قد تكون واهية هشة».
- الرومانسية المرتجلة كانت تخصصه.
- هه؟
- إتش. إتش. مونرو، معروف أيضًا باسم ساكي. القصة عنوانها "النافذة المفتوحة"، ابحث عنها، ستجدها مفيدة جدًا إذا أردت القراءة عن فن ارتجال الترهات.
- نظر إلي لحظات، وبدت عيناه الماكرتان الصغيرتان قلقتين، وقال: «لا أفهمك إطلاقًا، وهذا يقلقني».
- مجددًا تناهت إلى مسامعي دمدمة رعد، من الغرب ناحية مدلاند، حيث تعمل آلات ضخ آبار النفط دون توقف ولهب الغاز يعتم النجوم. سألته: «ماذا تريد مني؟».
- أظننا إذا تعقبنا خلفيتك أبعد من ديرين أو ديرين، مهما تكن، فسوف نجد... لن نجد شيئًا، كأنك انبثقت من العدم.
- كان كلامه قريبًا من الحقيقة فكاد يحبس أنفاسي.
- تابع: «نريد منك أن تعود إلى العدم الذي جئت منه. كالعادة صحف الفضائح ستطفح بالتخمينات الجامحة ونظريات المؤامرة، لكن يمكننا أن نضمن لك أن تخرج من كل هذا دون أن يخدش صورتك خادش. إذا كنت تهتم بمثل هذه الأمور. وستدعم مارينا أوزوالد قصتك بكل تفاصيلها».
- إذن أفهم أنكم تحدثتم معها سلفًا.

- صحيح. تعرف مارينا أنها سترحلّ إذا لم تتعاون معنا. رجال الصحافة لم يلقوا عليك نظرة جيدة، صورك التي ستظهر في صحف الغد ستكون ضبابية.

عرفت أنه محق، إذ ظهرتُ أمام الكاميرات في أثناء مشينا سريعاً عبر الرواق إلى مكتب المدير كاري. وفرتز وهوستي، كلاهما ضخم، كانا يسندانني من تحت ذراعي، فحجبا زوايا التصوير المناسبة. كما خفضتُ رأسي لأن إضاءة المصابيح كانت ساطعة. هناك صور كثيرة لي في جودي، وحتى لقطة بورترية في الكتاب السنوي من العام الذي درّستُ فيه بدوام كامل، لكن في هذه الحقبة السابقة لتقنية الصور الرقمية وحتى الفاكس، لن يستطيع أحد أن يجد الصور وينشرها قبل الثلاثاء أو الأربعاء القادم.

قال هوستي: «إليك قصة. تحب القصص، أليس كذلك؟ قصص مثل "النافذة المفتوحة"؟».

- أنا أستاذ لغة إنجليزية. أحب القصص.

- هذا الرجل، جورج أمبرسون، دفعه حزنه الشديد على فقد خليلته... خطيبته.

- خطيبته، أجل، هكذا أفضل. يبلغ به الحزن كل مبلغ، حتى يتخلّى عن كل شيء ويختفي، غير راغب في ضجة الإعلام، وزاهداً في ميدالية الرئيس، وكل أشكال الاحتفاء. لا يريد شيئاً سوى الابتعاد والحزن على فقدته وحده... الأمريكيون يحبون مثل هذه القصص، يشاهدونها على التلفاز طوال الوقت، وبدلاً من "النافذة المفتوحة"، يسمونها "البطل المتواضع"، وها هو عميل مكتب التحقيقات الفدرالي مستعد لتأكيد كل كلمة وردت في القصة، بل وقراءة تصريح تركه البطل. ما رأيك؟

رأيت ذلك هبة من السماء، لكن أبقى تعابير وجهي جامدة.

- لا بد أنكم متأكدون تمامًا من قدرتي على الاختفاء.

- متأكدون.

- وأنت صادق حقًا عندما تقول لي إنني لن أختفي في قاع نهر

ترينتي وفقًا لأوامر المدير؟

- ما من شيء من هذا القبيل.

ابتسم ابتسامة قصد منها أن يطمئنني، لكنها ذكّرتني بعبارة قديمة من أيام مراهقتي: لا تقلقي، لن تحبلي، أصبت بالتهاب الغدة النكفية في طفولتي.

- لأنني ربما أكون قد احتفظت بتأمين صغير لنفسي، أيها العميل هوستي.

ارتعاشة أحد جفنيه كانت العلامة الوحيدة لانزعاجه من الفكرة.

- نعرف أنك قادر على الاختفاء لأننا نرى... فلنقل إنك تستطيع طلب مساعدة، حالما تبتعد عن دالاس.

- لن تعقدوا مؤتمرًا صحفيًا؟

- هذا آخر ما نريده.

فتح حقيبته مرة أخرى، وأخرج منها مفكرة، مررها نحوي مع قلم من جيب صدره، وقال: «اكتب لي رسالة يا أمبرسون. أنا وفرتز سنجدها صباح الغد عندما نأتي لاصطحابك، لكن لك أن تعنونها: "إلى من يهمه الأمر". اجعلها جيدة، بل عبقرية. يمكنك فعل ذلك، صحيح؟».

قلت: «بالطبع، الرومانسية المرتجلة تخصصي».

ابتسم ابتسامة فاترة والتقط قنينة الشمبانيا، وقال: «ربما أجرب قليلًا من هذه بينما أنت ترتجل رومانسيك. لا أظنك ستشرب، ستكون مشغولًا الليلة».

كتبْتُ مترويًا، لكن لم أستغرق مدة طويلة. في حالة كهذه (في تاريخ العالم كله ما من حالة كهذه تحديدًا)، رأيت أن الاختصار أفضل. وضعت نصب عيني فكرة "البطل المتواضع" التي قالها هوستي. كنت سعيدًا بأن سنحت لي فرصة النوم بضع ساعات. غفواتي السابقة كانت تتخللها أحلام مشؤومة، لكن هذه المرة كان ذهني صافيًا نسبيًا.

عندما انتهيت، كان هوستي يشرب كأسه الثالثة، وكان قد أخرج عددًا من الأشياء من حقيبته ووضعها على منضدة القهوة.ناولته المفكرة، وبدأ يقرأ ما كتبته. بالخارج دمدم الرعد مجددًا، وأضاء البرق سماء الليل لوهلة، لكن بدا لي أن العاصفة ما زالت بعيدة.

في أثناء قراءته، ألقيت نظرة على الأشياء التي على منضدة القهوة، رأيت ساعتني ماركة تايمكس، الشيء الوحيد الذي، لسبب ما، لم يُعد إليّ مع بقية أغراضي الشخصية عندما غادرتُ مركز الشرطة. ورأيت نظارة ذات إطار من القرون، التقطتها وجربتها، فوجدت عدستها من زجاج عادي. ورأيت مفتاحًا، و ظرفًا يحتوي على ما بدا كألف دولار من فئات عشرين وخمسين، وغطاء شعر، وزياً أبيض من قطعتين، بنطال ورداء، بدا القماش القطني رقيقًا واهيًا، مثل قصّتي، بحسب زعم هوستي آنفًا. قال هوستي وهو يضع المفكرة على المنضدة: «هذه الرسالة جيدة، تبدو حزينًا، مثل ريتشارد كيמبال في مسلسل ذا فيوجتيف، الهارب. هل شاهدته؟».

كنت قد شاهدت نسخة الفيلم من بطولة تومي لي جونز، لكن الوقت لم يكن مناسبًا لذكر الموضوع.

- لا.

- ستكون هاربًا بالطبع، لكن من الصحافة وعامة الأمريكيين فحسب، الذين سيرغبون في معرفة كل شيء عنك، من نوع العصير الذي تشربه في الصباح إلى مقاس ملابسك الداخلية. ستكون موضع اهتمام الناس يا أمبرسون، لكن لا شأن للشرطة بك. لم تطلق النار على خليلتك، ولا حتى على أوزوالد.

- حاولت. إذا لم أخطئ إصابته لظلت على قيد الحياة.

- لا تلم نفسك كثيرًا من هذه الناحية. المساحة كبيرة هناك بالأعلى، ومسدس 38. ليس دقيقًا من المسافات البعيدة.

صحيح. ينبغي ألا يفصلني عن الهدف أكثر من خمس عشرة ياردة. هذا ما قيل لي، أكثر من مرة. لكن لم أقل هذا له. رأيت أن مدة معرفتي القصيرة بالعمل الخاص جيمس هوستي أوشكت على الانتهاء. ولم أطق صبرًا.

قال: «لا شبهة عليك. ما عليك سوى الذهاب إلى مكان ما حيث يمكن لجماعتك أن يصطحبوك ويحلّقوا بك إلى العدم. أيمكنك تدبّر ذلك؟».

العدم في حالتي كانت جُحر أرنب سيقفز بي أربعين عامًا إلى المستقبل، إذا افترضت أنني سأجد جحر الأرنب ما زال في مكانه.

- أظنني سأكون بخير.

- هكذا أفضل. لأنك إذا حاولت إيذاءنا، فسيرتد الأذى عليك مضاعفًا. السيد هوفر... فلنكتفِ بقول إن مديرنا ليس رجلًا متسامحًا.

- أخبرني كيف سأغادر الفندق.

- سترتدي زي المطبخ هذا، والنظارة، وغطاء الشعر. المفتاح يتيح لك استخدام مصعد العمال. سيأخذك إلى الجناح B-1. ثم سر

مباشرة عبر المطبخ واخرج عبر الباب الخلفي. هل تتابعني؟

- نعم.

- هناك ستجد سيارة تابعة لمكتب التحقيقات الفدرالي، اركب على المقعد الخلفي، ولا تتكلم مع السائق، هذه ليست خدمة ليموزين. ستذهب إلى موقف الحافلات، وعندئذ سيقدم السائق لك إحدى ثلاث تذاكر: تامبا عند الحادية عشرة وأربعين دقيقة، أو ليتل روك عند الحادية عشرة وخمسين دقيقة، أو ألباكركي عند الثانية عشرة وعشرين دقيقة. لا أريد معرفة أي وجهة ستختار. وما عليك معرفة سوى أن علاقتنا ستنتهي هناك في الموقف. مسؤولية التواري عن الأنظار تقع على عاتقك وحدك، أنت ومن تعمل لصالحهم، بالطبع.

- بالطبع.

رن الهاتف، فقال هوستي: «إذا وجدت المتصل مراسلاً متحذلقاً ما وجد طريقة للاتصال، فتخلص منه. وإذا قلت كلمة عن وجودي هنا، فسأقطع حلقك».

ظننت أنه يمزح، لكنني لم أكن متأكداً تماماً. التقطت السماعة: «لا أعرفك، لكنني مرهق جداً الآن، لذا...».

سمعتُ من الطرف الآخر صوت امرأة هامساً مبوحاً قليلاً تقول إنها لن تشغلني مدة طويلة. فحركتُ شفتي لهوستي قائلاً جاكى كينيدي. أوماً وصببً لنفسه مزيداً من الشمبانيا. استدرتُ، كأني عندما أولي هوستي ظهري قد أحرمه من سماع المحادثة.

قلت: «السيدة كينيدي، ما من داع لاتصالك، لكن تشرفني محادثتك». قالت: «أريد أن أشكرك على ما فعلته، أعرف أن زوجي شكرك سلفاً نيابةً عنا، لكن... سيد أمبرسون...». بكت السيدة الأولى. «أريد أن أشكرك نيابةً عن طفلينا، اللذين استطاعا أن يتمنياً ليلة طيبة لوالديهما ووالدهما عبر الهاتف الليلة».

كارولين وجون-جون. لم أفكر بهما قط حتى هذه اللحظة.

- على الرحب والسعة سيّدتي.
 - سمعتُ أن الشابة التي ماتت كانت زوجتك المستقبلية.
 - صحيح.
 - لا بد أنك كسير القلب، تقبّل تعازيَّ، أعرف أنها ليست كافية، لكن ليس بوسعي تقديم شيء سواها.
 - شكرًا لك.
 - إذا كان بمستطاعي تغيير ما وقع... إذا استطعت بأي طريقة إعادة الزمن...
 - قلت مع نفسي: لا، هذه مهمتي يا سيّدتي جاكى.
 - أتفهّم ذلك. شكرًا لك.
- حدثنا مدة أطول قليلًا. هذه المكالمة كانت أصعب من مكالمة كينيدي في مركز الشرطة، لأنني شعرت بالأولى كأنها حلم، وهذه وجدتها واقعية، والسبب الأهم أظنه بقايا الخوف الذي استشعرته في صوت جاكين كينيدي. بدت أنها استوعبت حقًا مدى اقترابهم من الموت. لم أشعر بهذا الإدراك عند الرجل نفسه، بدا كأنه يظن أنه محظوظ أو تحت الرعاية الإلهية، وحتى خالد. أتذكر أنني عند نهاية المحادثة طلبت من جاكى الحرص على عدم ركوب زوجها سيارات مفتوحة طوال مدة رئاسته.
- أكدت لي أنها ستحرص على ذلك، ثم شكرتني مرة أخرى، وتقبّلتُ شكرها مرة أخرى، ثم أنهيت المكالمة. وعندما استدرتُ، رأيت أنني في الغرفة وحدي. غادر هوستي في أثناء محادثتي مع جاكين كينيدي. تاركًا خلفه عقبي سجائر في المنفضة، ونصف كأس شمبانيا، ورسالة أخرى مكتوبة على عجالة، بجانب المفكرة التي كتبت عليها رسالة "إلى من يهمه الأمر".

كتب عليها: تخلص من جهاز التنصت قبل وصولك إلى موقف الحافلات. وفي السطر التالي: حظًا طيبًا يا أمبرسون. يؤسفني جدًا فقدك. هـ.

ربما كان أسفًا، لكن الأسف رخيص، أليس كذلك؟ الأسف رخيص جدًا.

11

ارتديت زي الطباخين التنكري وهبطت إلى الجناح B-1 عبر مصعد رائحته كرائحة حساء الدجاج وصلصة الشواء وويسكي جاك دانيل. وعندما فُتح الباب، سرت سريعًا عبر مطبخ مشبع بالبخر والروائح. لا أظن أن أحدًا أعارني التفاته.

خرجتُ إلى زقاق فيه سگيران ينبشان سلة قمامة، ولم ينظروا إليّ أيضًا، لكنهما رفعوا بصريهما لوهلة عندما أضاء السماء برقٌ خاطف. رأيت سيارة فورد سيدان عادية المظهر واقفة ومحركها دائر عند مدخل الزقاق. ركبت على المقعد الخلفي وانطلقنا. لم يقل الرجل الجالس خلف عجلة القيادة سوى جملة واحدة قبل أن يتوقف عند موقف غرايهاوند: «يبدو أنها ستمطر».

عرض عليّ التذاكر الثلاث كأنها أوراق لعب بوكر يحملها شخص تعيس الحظ. أخذتُ تذكرة ليتل روك. وتعيّن عليّ الانتظار نحو ساعة. ذهبت إلى متجر هدايا، واشتريت حقيبة سفر رخيصة. إذا سار كل شيء على ما يرام، فسيكون لدي شيء أضعه فيها، لن أحتاج إلى أشياء كثيرة، إذ لدي جميع أنواع الملابس بمنزلي في ساباتوس، ورغم أن ذلك المنزل يبعد قرابة خمسين عامًا في المستقبل، فقد تمنيت أن أكون هناك في غضون أسبوع. وهذه مفارقة لأحبّها أينشتاين، لم يخطر لي قط، وعقلي

منهك أضناه الحزن، أن المنزل، مع وضع أثر الفراشة في الحسبان، قد لا يعود منزلي عندئذٍ، إذا وجدته أساسًا.

واشتريت أيضًا صحيفة، عددًا إضافيًا من سلايمز هيرالد، رأيت فيها صورة واحدة، ربما التقطها مصور محترف، لكن على الأرجح التقطها شخص عابر محظوظ، أظهرت الصورة كينيدي منحنيًا فوق المرأة التي تحدثت معها قبل وقت ليس بالطويل، المرأة التي لم تكن بدلتها الوردية ملطخة بدماء عندما خلعتها أخيرًا مساء اليوم.

كُتِبَ في وصف الصورة: جون إف كينيدي يحمي زوجته بجسده في أثناء ابتعاد السيارة الرئاسية عن كارثة وطنية وشيكة. وفوق الصورة عنوان رئيسي بخط كبير، على جانبيه مساحة كبيرة لأنه كلمة واحدة فقط:

أنقذ!

انتقلت إلى الصفحة الثانية فواجهتني صورة أخرى، صورة لسَيِّدي، بدت يافعة على نحو لا يصدّق، وجميلة على نحو لا يصدّق، ومبتسمة. قالت ابتسامتها: حياتي بأكملها أمامي.

جلستُ على أحد الكراسي الخشبية المائلة بينما المسافرون في وقت متأخر من الليل يهرعون حولي والرضع يبكون والعمال يضحكون ورجال الأعمال يلفتون الانتباه ومكبرات الصوت تعلن وصول الحافلات ومغادرتها. بعناية طويت الصحيفة حول حواف الصورة حتى أنزعها من الصفحة دون تمزيق وجه سيدي، وبعدما أنجزت المهمة، نظرت إلى الصورة مدة طويلة، ثم طويتها ووضعتها في محفظتي. وألقيت بقية الصحيفة. إذ ما من شيء فيها أردت قراءته.

طُلب من المسافرين المتجهين إلى ليتل روك الصعود على متن الحافلة عند الحادية عشرة وعشرين دقيقة، فانضمت إلى الحشد حول الباب المقصود. عدا عن ارتداء نظارة مزيفة لم أحاول إخفاء وجهي،

لكن لم ينظر إليَّ أحدٌ بأي اهتمام خاص، كنت مجرد خلية في مجرى دماء، ما من خلية أهم من الأخرى.

وأنا أشاهد الذين حضروا نهاية اليوم قلت مع نفسي: غيَّرتُ حياتكم اليوم. لكن الفكرة لم يرافقها إحساس بالانتصار أو التعجب، بدت مجردة من أي شحنة عاطفية، سواء موجبة أو سالبة.

ركبت الحافلة وجلست قريبًا من المؤخرة، رأيت أمامي رجالًا كثيرين يرتدون أزياء عسكرية، على الأرجح في طريقهم إلى قاعدة ليتل روك الجوية. لولا ما فعلناه اليوم لمات بعضهم في فيتنام، ولعاد آخرون إلى الديار مبتوري الأطراف. والآن؟ مَنْ يدري؟

تحركت الحافلة. وبعدما غادرنا دالاس صار الرعد أعنف والبرق أشد، لكن لم تهطل الأمطار بعد. وعند وصولنا إلى سَلْفَر سبرِنغز، صارت العاصفة المتوعدة خلفنا، ولاحت النجوم بألوفها المؤلفة، لامعة وباردة كالجليد. نظرت إليها مدة، ثم اتكأتُ على ظهر مقعدي وأغمضت عيني، واستمعتُ إلى صوت الإطارات على الطريق الخارجي رقم 30.

غَنَّتْ الإطارات: سَيِّدي، سَيِّدي، سَيِّدي، سَيِّدي.

وفي وقتٍ ما بعد الثانية فجرًا، نمت أخيرًا.

12

في ليتل روك اشتريت تذكرة حافلة الظهر المتجهة إلى بترسبرغ، دون توقف سوى مرة واحدة في إندينابوليس. تناولت الإفطار في مطعم موقف الحافلات، قرب رجل عجوز يتناول طعامه واضعًا مذياع محمول على الطاولة أمامه، مذياع ضخم مغطى بدوائر لامعة. ما زالت القصة الرئيسية هي محاولة الاغتيال، بالطبع... وسيدي. صارت سيدي ذات شأن عظيم. قُرر أن تُقام لها جنازة رسمية، ومراسم دفن في مقبرة أرلِنغتون الوطنية. وثمة تكهنات بأن جون كينيدي نفسه سيلقي كلمة

رثاء. وفي تطورات ذات صلة، كان من المقرر أن يظهر جورج أمبرسون، خطيب الأنسة دنهل، وهو أيضًا من جودي، تكساس، أمام الصحافة عند العاشرة صباحًا. لكن المؤتمر الصحفي أُجِّل إلى وقت متأخر من العصر، دون إبداء أسباب. لم يدّخر هوستي جهدًا في سبيل إتاحة الفرصة لي للابتعاد. أمرٌ جيد لي، وله أيضًا بالطبع، ولمديره المهيّب.

سمعت مذياع العجوز: «الرئيس ومنقذاه البطلان ليسوا الخبر الوحيد القادم من تكساس صباح اليوم». فتسمّرتُ وكوب القهوة مُعلّق بين الطبق وبين شفّتي. شعرت بمذاق مُر في فمي صرت أعرفه، ربما يسميه عالم نفس برِسك فو، الإحساس الذي يراود الناس أحيانًا بأن شيئًا رائعًا على وشك الحدوث، لكنني أطلق عليه اسمًا أكثر تواضعًا: تناغم.

«عند ذروة العاصفة الرعدية عند الواحدة فجّرًا، هب إعصار عنيف على فورت وورث، مدمرًا مستودع مونتغمري وارْد وقرابة عشرة منازل. تأكد موت شخصين، وأربعة مفقودون».

لم أشك في أن المنزلين رقم 2703 و2706 بشارع مرسيدس ضمن المنازل المدمرة، محتتهما ريحٌ غاضبة كأنهما متغيّران خطأ في معادلة.

الفصل الثلاثون

1

نزلت من الحافلة عند موقف جادة مينوت في أوبرن، بولاية مَين، بُعيد الظهر يوم السادس والعشرين من نوفمبر. وبعد سفر أكثر من ثمانين ساعة دون توقف تقريبًا، ودون راحة سوى فترات نوم قصيرة متقطعة، شعرتُ بأنني شيءٌ من نسج خيالي. كان الجو باردًا. وبدأت السماء الرمادية تتنحّح وتلفظ الثلوج من حين لآخر. كنت قد اشتريت بضعة بناطيل جينز وقميصي عمل أزرقين قطنيين بدلًا من زي المطبخ، لكن هذه الملابس لم تكن كافية، كنت قد نسيت طقس مَين في المدة التي أمضيتها في تكساس، لكن جسدي تذكّر سريعًا وبدأ يرتجف. قررت أن يكون محل لوي للملابس الرجالية محطتي الأولى، ووجدتُ معطفاً مبطنًا بجلد أغنام يناسب حجمي وأخذته إلى البائع. وضع نسخه من صحيفة لويستون صن جانبًا ليخدمني، فرأيتُ صورتي (أجل، صورة الكتاب السنوي الخاص بمدرسة دنهولم الثانوية الموحدة) على الصفحة الأولى. تساءل العنوان الرئيسي: أين جورج أمبرسون؟ أتم البائع عملية البيع وكتب لي إيصالًا. نقرتُ على صورتي وقلت له: «ماذا ترى في أمر هذا الرجل؟».

نظر البائع إلي وهز كتفيه قائلاً: «لا يريد ضجة وسائل الإعلام، ولا ألومه. أحب زوجتي حبًّا شديدًا، وإذا ماتت فجأة، لما أردتُ أن يتلقت

الناس صورًا لي وتُنشر في الصحف أو يُعرض وجهي الباكي على التلفاز، هل كنتَ لتفعل هذا؟».

- لا، لا أظن.

- إذا كنتُ ذلك الرجل، لما ظهرتُ حتى عام 1970، بعدما يتلاشى الصخب. ماذا عن قبعة جميلة ترافق ذلك المعطف؟ لدي قبعات صوفية ناعمة وصلتني بالأمس. غطاء الأذنين جيد وسميك.

فاشتريت قبعة ترافق معطفي الجديد. ثم عرجت مسافة مربعين سكينيين عائدًا إلى موقف الحافلات، مؤرجحًا حقيبتني بذراعي السليمة. جزءٌ مني أراد العودة إلى ليسبون فولز في التو واللحظة لأتأكد من أن جُحر الأرنب ما زال موجودًا. لكن إذا وجدته فسأستخدمه، سأعجز عن المقاومة. وبعد خمس سنوات في عالم الماضي، أدرك الجزء العقلاني مني أنني غير مستعد لصدمة معرفة التغيرات التي حدثت في عالم المستقبل. كنت أحتاج إلى راحة أولًا. راحة حقيقية، وليس نومًا متقطعًا في مقعد حافلة على متنها أطفال ينوحون ورجال ثملون يضحكون.

وجدت أربع أو خمس سيارات أجرة واقفة عند الرصيف. عندئذٍ ازدادت الثلوج المتساقطة. ركبت السيارة الأولى، واستمتعت بدفء سخان السيارة. التفت السائق، كان رجلًا بدينًا يعتمر قبعة في مقدمتها شارة مكتوب عليها سائق مُجاز. كان غريبًا تمامًا، لكن عرفت أنه عندما يشغل المذياع سيكون مضبوطًا على إذاعة دبليو جيه أيه بي، وعندما يخرج علبة سجائره من جيب صدره ستكون ماركة لاكي سترايكس. صدى متناغم.

- إلى أين سيدي؟

طلبتُ منه توصيلي إلى نزل تاماراك، عند الطريق رقم 196.

- حالًا.

شغل المذياع، فسمعت فرقة ذا ميراكلز تغني ميكيز مَنكي.

تنهّد متضايقًا وهو يخرج علبة سجائره، وقال: «يا لهذه الحفلات الراقصة الحديثة! لا فائدة منها سوى تعليم الصبية كيف يتمايلون ويتلون».

قلت: «الرقص حياة».

2

وجدتُ موظفة استقبال مختلفة، لكنها أعطتني الغرفة نفسها. بالطبع. ازداد مبلغ استئجار الغرفة قليلًا، والتلفاز القديم حل محله آخر جديد، لكن وجدت اللافتة نفسها مستندة إلى أذني الأرنب فوقه: "لا تستخدم ورق القصدير". والإشارة ما زالت على سوئها. ما من أخبار، مسلسلات فحسب.

أغلقتَه. وعلقتُ لافتة الرجاء عدم الإزعاج على الباب، وأغلقت الستائر، ثم نزعت ملابسِي واستلقيت على الفراش، حيث نمت اثنتي عشرة ساعة، عدا عن لحظات سرت فيها مترنحًا شبه نائم إلى الحمام لأفرغ مثانتي. وعندما استيقظت، وجدت الوقت منتصف الليل، وقد انقطعت الكهرباء، وبالخارج تهب رياح شمالية غربية قوية، وفي السماء صعد هلال لامع. جلبتُ بطانية إضافية من الخزانة ونمت خمس ساعات أخرى.

وعندما استيقظت مرة أخرى، أضاء الفجر نُزل تَامَارَك بألوان جلية كأنه صورة في مجلة ناشونال جيوغرافيك. رأيت الصقيع يكسو السيارات الواقفة أمام الغرف، وكنت أرى أنفاسي. جربت استخدام الهاتف، متوقعًا ألا يجيب أحد، لكن أجابني فورًا شابٌ في مكتب الاستقبال، رغم أن صوته ما زال ناعسًا. قال إن الهواتف تعمل بالطبع، وإنه سيسعد بطلب سيارة أجرة لي. إلى أين أريد الذهاب؟

قلت له ليسبون فولز، تقاطع شارعي لويستون والشارع الرئيسي.

سألني: «فروت؟».

غبتُ مدة طويلة إلى درجة أنني لوهلة لم أعرف ما كان يتحدث عنه، ثم تذكرت: «صحيح. كذبك فروت».

قلت لنفسِي: إنني عائد إلى الديار. فليكن الرب في عوني، إنني عائد إلى الديار.

إلا أن ذلك كان خطأ. عام 2011 ليس ديارِي، ولن أمكث هناك سوى مدة قصيرة. (بافتراض أنني سأستطيع الوصول إلى هناك). ربما دقائق فحسب. جوذي صارت ديارِي. أو ستكون ديارِي عندما تصل سيدي إليها، سيدي العذراء، سيدي بساقيها الطويلتين وشعرها الطويل وميلها للتعثر بأي شيء في طريقها... لكن في اللحظة الحرجة، سقطتُ أنا. سيدي، بوجهها الخالي من الندبة.

هي كانت ديارِي.

3

سيارة الأجرة في ذلك الصباح كانت تقودها امرأة قوية البنية في الخمسينات من عمرها، ترتدي معطفاً جلدياً أسود قديماً وتعتمر قبعة فريق ريد سوكس بدلاً من المكتوب عليها سائق مُجاز. وعند انعطافنا يساراً إلى الطريق رقم 196، متجهين إلى فولز، قالت: «هل سمعت الخبر؟ أراهن أنك لم تسمعه، الكهرباء مقطوعة في هذه النواحي، أليس كذلك؟».

سألتها: «أي خبر؟». لكن يقيناً مربعاً رسخ في عظامي: كينيدي مات. لم أعرف ما إذا مات بحادث، أم أزمة قلبية، أم برصاصة قاتل مأجور، لكنه مات. الماضي عنيد وكينيدي مات.

قالت: «وقع زلزال في لوس أنجلوس. الناس يقولون منذ سنوات إن كاليفورنيا ستسقط في المحيط، وربما يتضح أنهم محقون في النهاية». هزت رأسها، وتابعت: «لن أقول إن ما حدث سببه أسلوب حياتهم

المنحل، حياة نجوم السينما وما إلى ذلك، لكنني معمدانية ملتزمة، ولن أقول إنه ليس السبب».

عندئذٍ مررنا بسيما سيارات ليسبون. وقرأت على لوحاتها الإعلان: مغلق.. نهاية الموسم. نراكم مع مزيد من الأفلام في 1964!

- ما مدى سوء الزلزال؟

- يُقال إن سبعة آلاف ماتوا، لكن عندما تسمع رقمًا كهذا، تأكد أنه سيرتفع. معظم الجسور اللعينة سقطت، وتشققت الطرق السريعة، ونشبت الحرائق في كل مكان. يبدو أن جزءًا من المدينة يعيش فيه الزوج احترق حتى سُوي بالأرض. حي اسمه وارتنس⁽¹⁾! أي اسم هذا يُطلق على منطقة سكنية؟ حتى لو كانت منطقة يعيش فيها السود! وارتنس!

لم أرُد. كنت أفكر براغز، الجرو الذي كان لدينا عندما كنت في التاسعة، وما زلت أعيش في وسكونسن. سُمح لي باللعب معه في الباحة الخلفية في صباحات أيام المدرسة حتى تأتي الحافلة. كنت أعلمه الجلوس وجلب الأشياء والتدحرج، وما إلى ذلك. كان يتعلم، جرو ذكي! أحببته كثيرًا.

وعندما تأتي الحافلة من المفترض أن أغلق بوابة الباحة الخلفية قبل أن أركض إلى الحافلة. وكان راغز يستلقي دومًا على منحدر باب المطبخ الخارجي، وكانت أُمي تناديه وتطعمه الإفطار بعد عودتها من محطة القطار المحلية التي تصطحب أبي إليها. كنت أتذكر دومًا إغلاق البوابة، أو على الأقل لا أتذكر أنني نسيت إغلاقها يومًا، لكن ذات يوم عندما عدت من المدرسة، أخبرتني أُمي بموت راغز. كان في الشارع ودهسته شاحنة توصيل. لم توبخني أُمي بلسانها قط، ولا مرة، لكنها وبختني بعينها. لأنها أيضًا أحببت راغز.

(1) تعني "بُثور". (المترجم)

قلت داعم العينين: «أغلقته بالداخل كما أفعل دومًا». وأظنني أغلقته. ربما لأنني أغلقه دومًا. وفي مساء ذلك اليوم، أنا وأبي دفنًا راغز في الباحة الخلفية. قال أبي: هذا ليس قانونيًا على الأرجح، لكنني لن أخبر أحدًا إذا لم تخبر أحدًا.

اضجعت مستيقظًا مدة طويلة جدًا في تلك الليلة، أرّقني ما أعجز عن تذكره وأرعبني ما يُحتمل أنني فعلته. ناهيكم بتأنيب الضمير. أنبني ضميري مدة طويلة، سنة أو أكثر. إذا استطعت أن أتذكر، بطريقة أو بأخرى، فأنا متأكد أن وخزات ضميري لانقطعت سريعًا. لكن لم أستطع. هل أغلقت البوابة؟ أم لم أغلقها؟ مرارًا عُدت بعقلي إلى الصباح الأخير في حياة جروي ولم أستطع تذكر شيء بوضوح سوى إمساكي بقيده الجلدي وصياحي: «اجلبه يا راغز، اجلبه!».

هكذا كان حالي وأنا أستقل سيارة الأجرة إلى فولز، في البداية حاولت أن أقول لنفسي إن الزلزال وقع بنهاية نوفمبر 1963 حتى في الخط الزمني الآخر، معلومة غير مؤكدة، مثل محاولة اغتيال إدوين ووكر. وكما قلت لآل تمبلتون، تخصصت في اللغة الإنجليزية، لا التاريخ.

لم أقنع. إذا وقع زلزال كهذا في أمريكا التي عشت فيها قبل دخولي جُحر الأرنب، لعرفت. وقعت كوارث أكبر بكثير. تسونامي المحيط الهندي سنة 2004 قتل أكثر من مئتي ألف. لكن سبعة آلاف رقم كبير في أمريكا، أكثر من ضعف عدد الذين ماتوا في أحداث 11 سبتمبر.

ثم سألت نفسي كيف يمكن لما فعلته في دالاس أن يسبب ما زعمت هذه المرأة حدوثه في لوس أنجلوس. الإجابة الوحيدة التي توصلت إليها كانت أثر الفراشة، لكن كيف يمكن أن يبدأ بهذه السرعة؟ مُحال. قطعًا لا. ما من سلسلة أسباب ونتائج معقولة بين الحدثين.

ورغم هذا سمعتُ صوتًا في أعماق عقلي يهمس: أنت فعلت ذلك. تسببت في موت راغز إما بترك بوابة الباحة الخلفية مفتوحة وإما

بعدم إغلاقها بإحكام... وأنت سببتَ هذا، أنت وآل تشدقتما بأحاديث كثيرة، تنم عن نُبل، عن إنقاذ آلاف الحيوانات في فيتنام، لكن هذه هي مساهمتك الحقيقية الأولى في "التاريخ الجديد": سبعة آلاف ميت في لوس أنجلوس.

مُحال. حتى إذا...

قال آل: "ولا ضير من المحاولة في الواقع، إذا ساءت الأوضاع، يمكنك إلغاء كل ما فعلته، بسهولة مسح كلمة بذئئة من سبورة".

قالت سائقتي: «سَيدي، وصلنا». التفتت نازرة إلي بفضول. «وصلنا قبل ثلاث دقائق. لم يَحْ موعِد التسوق. متأكد أن هذا هو المكان الذي تقصده؟».

لم أعرف سوى أن هذا هو المكان الذي عليّ أن أكون فيه. دفعت المبلغ المكتوب على العداد، وأضفت إكرامية سخية (كانت نقود مكتب التحقيقات الفدرالي)، وتمنيت للسائقة يومًا طيبًا، وخرجتُ من السيارة.

4

وجدتُ ليسبون فولز ننته كعهدي بها دومًا، لكن على الأقل فيها كهرباء، رأيت المصباح الوامض عند التقاطع يومض وهو يتأرجح مع الرياح الشمالية الغربية. كان محل كنك فروت مظلمًا، والنافذة الأمامية ما زالت خالية من التفاح والبرتقال والموز الذي سيُعرض عليها في وقت لاحق. ثم رأيت على باب الواجهة الخضراء لافتة: سنفتح عند 10:00 ص، وسيارات قليلة تسير في الشارع الرئيسي، ومشاة قليلون يهرعون على الرصيف وياقاتهم مرفوعة. لكن على الجانب الآخر من الشارع كان مصنع ورمبو يعمل بطاقته القصوى، سمعتُ ضجيج آلات النسيج: شات - هووش، شات - هووش، رغم وقوفي على مبعدة. ثم سمعت صوتًا آخر، شخصًا يناديني، لكن ليس بأيّ من اسمي:

- جيمل! أنت، جيمل!

التفت نحو المصنع قائلاً لنفسه: لقد عاد. رجل البطاقة الصفراء عاد من الموت، كما عاد الرئيس كينيدي.

إلا أنه لم يكن رجل البطاقة الصفراء كما لم يكن سائق سيارة الأجرة الذي أفلّني من موقف الحافلات هو السائق نفسه الذي أوصلني من ليسبون فولز إلى نُزل تامارك عام 1958، لكن السائقين كانا يشبهان بعضهما إلى حد بعيد، لأن الماضي يتناغم، والرجل الذي على الجانب الآخر من الشارع يشبه الذي طلب مني دولارًا لأن اليوم يوم مضاعفة المبلغ في الواجهة الخضراء. هذا الرجل أصغر سنًا من رجل البطاقة الصفراء، ومعطفه الأسود جديد ونظيف نسبيًا... لكنه المعطف نفسه تقريبًا.

- جيمل! هنا!

استدعاني بإشارة. هبت ريح رفرف معها ذيل معطفه، وحرّكت لافتة معلقة من سلسلة إلى يسار الرجل كما تأرجح المصباح الوامض. لكن رغم ذلك استطعت قراءة اللافتة: ممنوع تجاوز هذا الحد قبل صيانة أنبوب المجاري.

قلت مع نفسي: خمس سنوات، وما زال أنبوب المجاري مكسورًا.

- جيمل! لا ترغمني على المجيء إليك والنيل منك!

لأمكنه الوصول إلي على الأرجح. سلفه الانتحاري كان قادرًا على الوصول إلى الواجهة الخضراء. لكن كنت متأكدًا أنني إذا عرجت مبتعدًا في شارع لويستون بسرعة كافية، فستعجز هذه النسخة من رجل البطاقة الصفراء عن الوصول إلي، ربما يستطيع اللحاق بي إلى سوبرماركت ريد آند وايت، حيث كان آل يشترى اللحم، لكن إذا ذهبت بعيدًا إلى تايّتس شيفرون، أو الفيل الأبيض المبتهج، فلن يلحق بي. فهو عالق جوار جحر الأرنب. إذا لم يكن عالقًا لرأيتّه في دالاس. عرفت هذا

يقينًا كما أعرف أن الجاذبية الأرضية هي ما يمنع الناس من السباحة في الفضاء الخارجي.

وكانه يؤكد معرفتي هذه، صاح: «جيملا، أرجوك!». رغبته الشديدة التي رأيتها على وجهه كانت كالريح، خفيفة لكنها بطريقة مستمرة لا تستسلم.

نظرتُ يمينًا ويسارًا فلم أر سيارات، وعبرت الشارع إلى حيث يقف الرجل، وعند اقترابي منه لاحظت اختلافين آخرين، مثل سلفه، كان يعتمر قبعة فيدورا، لكنها نظيفة، ومثل سلفه أيضًا، من رباط قبعته تنتأ بطاقة ملونة كأنها تصريح مرور مراسل صحفي، إلا أن هذه البطاقة لم تكن صفراء، ولا برتقالية، ولا سوداء. كانت خضراء.

5

قال: «حمداً للرب». أخذ إحدى يدي بيديه الاثنتين وضغط عليها، فأحسست براحة يده باردة كالهواء الذي حولنا. سحبتُ يدي منه، لكن بلطف. لم أستشعر منه خطرًا. لا شيء سوى ذلك اليأس والإصرار. لكن هذا في حد ذاته قد يكون خطرًا، اليأس والإصرار قد يكونان سلاحًا حادًا كالمديّة التي جرح بها جون كلايتون وجه سيّدي.

سألته: «من أنت؟ ولماذا تدعوني بجيملا؟ جيم لادو بعيد جدًا من هنا يا سيّدي».

قال رجل البطاقة الخضراء: «لا أعرف من هو جيم لادو. لقد بقيتُ بعيدًا عن وترّك بقدر م...».

صمت، وتشوه وجهه. وارتفعت يداه إلى صدغيه وضغطتا عليهما، كأنه يريد أن يُبقي دماغه داخل رأسه. لكن البطاقة المثبتة بالرباط هي التي استرعت معظم انتباهي، اللون لم يكن ثابتًا، لوهلة تلوّى وترقرق،

فذكّرني بشاشات توقّف الحواسيب عندما لا تُمسّ لأكثر من خمس عشرة دقيقة أو نحوها. تحول اللون من الأخضر إلى أصفر شاحب. ومن ثم، بينما الرجل يخفض يديه ببطء، عاد اللون إلى الأخضر، لكنه لم يبدو لي مشرقاً كما لاحظته في البداية.

قال صاحب المعطف الأسود: «بقيتُ بعيداً عن وَتَرَكَ بقدر مستطاعي، لكن ابتعادي لم يكن ممكناً تماماً. كما صارت الأوتار كثيرة جداً الآن. كثرت المتاعب بسبب صديقك الطباخ».

قلت: «لا أفهم أيّاً من هذا». لكن لم أكن صادقاً، استطعت على الأقل أن أفهم البطاقة التي يحملها الرجل (وسلفه السكّير). كانت أشبه بالشارات التي يرتديها العاملون في مفاعلات الطاقة النووية، لكن بدلاً من قياس الإشعاع، هذه البطاقات تقيس... ماذا؟ السلامة العقلية؟ خضراء: أنت سليم. صفراء: بدأت تفقد صوابك. برتقالية: اتصل بأصحاب المعاطف البيضاء. وعندما تصبح سوداء...

نظر رجل البطاقة الخضراء بحذر. من الجانب الآخر من الشارع بدا كأنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره، لكن بعدما وصلت إليه بدا قريباً من الخامسة والأربعين، وعندما دققتُ النظر إلى عينيه، بدا لي أقدم من الدهر نفسه ومختلاً عقلياً.

سألته: «هل أنت حارسٌ ما؟ هل تحرس جُحر الأرنب؟».

ابتسم... أو بالأحرى حاول أن يبتسم، وقال: «هذا هو الاسم الذي اختاره صديقك». أخرج من جيبه علبة سجائر، علبة دون ماركة عليها، وهذا شيءٌ لم أره قط، لا هنا في عالم الماضي، ولا في عالم المستقبل. سألته: «هل هو المنفذ الوحيد؟».

أخرج قداحة، وأحاطها بكفه ليقبها الريح، ثم أشعل طرف سيجارته. وجدتُ رائحتها جميلة، أقرب إلى رائحة الماريجوانا من التبغ. لكنها لم

تكن ماريجوانا. لم يحدثني الرجل عن ماهيتها، لكن أظنها طبيّة من نوعٍ ما. ربما لا تختلف عن مسحوق غودي للصداع.

- توجد منافذ قليلة. تخيّل كأس جعة زنجبيل تُركت بالخارج ونُسيّت.

- حسنًا...

- بعد يومين أو ثلاثة، تختفي كل الغازات تقريبًا، لكن ما تزال بضع فقاعات باقية. وما تسمّيه جحر الأرنب ليس جُحرًا أو منفذًا إطلاقًا، إنما فقاعة. أما الحراسة... لا، لكانت أمرًا جيدًا، لكن ثمة قليلًا جدًّا مما يمكننا فعله ولا يفاقم الأمور. هذه هي مشكلة السفر عبر الزمن يا جيملا.

- اسمي جيك.

- حسنًا. ما نفعله، يا جيك، هو المراقبة، وأحيانًا التحذير، كما حاول كايل تحذير صديقك الطباخ.

إذن الرجل المجنون كان لديه اسم. اسم عادي تمامًا. كايل! هذا صعبٌ علي الأمر لأنه جعله أكثر واقعية.

- لم يحاول تحذير آل قط! لم يقل كلامًا سوى طلب دولار ليشتري به نبيذًا رخيصًا!

أخذ رجل البطاقة نفسًا من سيجارته ونظر إلى الأرضية الخرسانية المشققة، عابسًا كأنه يقرأ كلامًا مكتوبًا عليها. سمعتُ آلات النسج بالمصنع: شات - هوش، شات - هوش. قال: «حذّره في البداية، بطريقته الخاصة. صديقك كان متحمسًا جدًّا بالعالم الجديد الذي عثر عليه فلم ينتبه للتحذير. وبحلول ذلك الوقت كان كايل يترنح. وهذه... كيف أعبرُ لك؟ من مخاطر المهنة. ما نفعله يضعنا تحت ضغط عقلي هائل. أتعرف لماذا؟».

هزرت رأسي، فتابع: «فكر قليلًا. كم عدد رحلات الاستكشاف والتسوق التي قام بها صديقك الطباخ قبل أن تخطر له فكرة الذهاب إلى دالاس لإيقاف أوزوالد؟ خمسون؟ مئة؟ مئتان؟».

حاولت تذكر مدة وجود مطعم آل في فناء المصنع، ولم أستطع، فقلت: «ربما أكثر من ذلك».

- وماذا قال لك؟ كل رحلة تكون الرحلة الأولى؟

- نعم. تعيد الوضع كاملاً إلى ما كان عليه.

ضحك بضجر.

- بالطبع هذا ما قاله لك. الناس يصدقون ما يرونه. ورغم هذا، كان ينبغي أن يكون أكثر دراية، وأنت أيضاً. كل رحلة تنشئ وتراً خاصاً بها، وعندما ينشأ عدد كاف من الأوتار، تتشابك دوماً. هل خطر لصديقك يوماً كيف يستطيع شراء اللحم نفسه مراراً؟ أو لماذا لا تختفي الأشياء التي يجلبها من عام 1958 عندما يذهب في الرحلة التالية؟

- سألته عن ذلك، ولم يكن يعرف، فصرف تفكيره عن الأمر.

ظهرت بوادر ابتسامة على وجهه، لكنها تحولت إلى تعابير ألم. وبدأ اللون الأخضر يبهت مرة أخرى من البطاقة المثبتة على قبعته. أخذ نفساً عميقاً من سيجارته زكية الرائحة، فعاد اللون واستقر.

- أجل، تجاهل ما نراه واضحاً أمامنا. كلنا نفعل ذلك. كان كايل، حتى بعدما بدأ رُشده يتزعزع، يعرف أن تردده على متجر المشروبات الكحولية ذاك يفاقم حالته، لكنه لم يتوقف. لا ألومه، لا بد أن النبيذ خفف آلامه، لا سيما في أيامه الأخيرة. لكان الوضع أفضل إذا لم يكن قادراً على الوصول إلى متجر المشروبات الكحولية، أي إذا كان المتجر خارج الدائرة، لكنه داخلها. لكن من يستطيع الجزم؟ لا لوم هنا يا جيك، ولا تجريم.

استحسنْتُ سماع ذلك، لكن لا لشيء سوى أنه يعني أن بمقدورنا النقاش في هذا الموضوع الجنوني كرجلين شبه عقلانيين. ولم تكن مشاعره تهمني كثيرًا، على أي حال. ما زلت عاقداً العزم على فعل ما يجب علي فعله.

- ما اسمك؟

- زاك لانغ. من سياتل.

- سياتل متى؟

- هذا سؤال لا صلة له بنقاشنا الحالي.

- وجودك هنا يؤلمك، أليس كذلك؟

- بلى. رُشدي أيضًا لن يدوم طويلًا، إذا لم أُعد. والآثار الباقية ستلازمي إلى الأبد. معدلات الانتحار عالية بين قومنا يا جيك، عالية جدًا. لأن البشر، نحن بشر، لسنا مخلوقات خارقة أو فضائية، إذا خطرت لك هذه الفكرة - لم يُخلَقوا بقدرة على استيعاب أوتار واقع متعددة. الأمر ليس كاستخدام مخيلتك. ليس كذلك إطلاقًا. نخضع لتدريب، بالطبع، لكن رغم ذلك نحس بالأوتار المتعددة تنهش أدمغتنا، كأنها أحماض كيميائية.

- إذن كل رحلة لا تعيد الوضع كاملاً إلى ما كان عليه؟

- نعم ولا. كل رحلة تخلّف بقايا. كلما ذهب صديقك الطباخ...

- كان اسمه آل.

- أجل، أظنني عرفت اسمه، لكن ذاكرتي بدأت تتداعى. أعاني ما يشبه ألزهايمر، لكنه ليس ألزهايمر. لأن الدماغ لا يستطيع التوقف عن محاولة التوفيق بين كل نُسخ الواقع. الأوتار تشكّل للمستقبل صورًا متعددة، بعضها واضح، ومعظمها ضبابي. لهذا على الأرجح ظن كايل أن اسمك جيمل. لا بد أنه سمعه في أحد الأوتار.

قلت مع نفسي: لم يسمعه، بل رآه في رؤية ما على لوحة إعلانية في تكساس. ربما رآه من خلال عيني.

- لا تعرف إلى أي درجة أنت محظوظ يا جيك. السفر عبر الزمن بسيط من وجهة نظرك.

قلت مع نفسي: ليس بسيطاً إلى درجة أنت محظوظ.

- حدثت مفارقات، كثيرة ومتنوعة، أليس كذلك؟

قال: «لا، "مفارقات" ليست الكلمة الصحيحة. إنها بقايا، ألم أقل لك هذا للتو؟». صدقاً لم يبدو متأكداً. «إنها تعوق الآلة، وفي النهاية، في مرحلة ما، ستتوقف الآلة ببساطة».

تذكرت انفجار محرك الستودبيكر التي سرقها مع سيدي.

قال زاك لانغ: «شراء اللحم مراراً في عام 1958 ليس أمراً سيئاً جداً، يسبب متاعب لاحقاً، لكن مقدور عليها. ثم بدأت التغييرات الكبيرة، إنقاذ كينيدي كان أكبرها على الإطلاق».

حاولت أن أتكلم فلم أستطع.

سألني: «هل بدأت تفهم؟».

ليس تماماً، لكن رأيت الخطوط العريضة، فأخافتني أيما خوف. المستقبل مُعلّق بأوتار، كأنه دمية. رباها!

قلت: «الزلازل... أنا سببته. عندما أنقذت كينيدي، أنا... ماذا؟ مزقتُ تسلسل الزمكان؟». كان ينبغي أن يبدو ما قلته سخيّاً، لكنه لم يبدو كذلك. وبدأ رأسي ينبض.

قال بهدوء: «يجدر بك أن تعود الآن يا جيك، يجدر بك أن تعود وترى ما فعلته تحديداً، نتيجة عملك الشاق رغم حُسن نيّتك».

انعقد لساني. كنت قلقًا من العودة، والآن صرت خائفًا أيضًا. هل من عبارة مُنذرة أكثر من يجدر بك أن ترى ما فعلته تحديدًا؟ لم تخطر لي أي عبارة.

- اذهب، ألقِ نظرة، وامكث قليلًا، لا تتأخر. إذا لم يُصحَّح هذا الوضع عاجلاً، فستقع كارثة.

- ما حجمها؟

قال بهدوء: «قد تدمر كل شيء».

تساءلت: «العالم؟ المجموعة الشمسية؟». اضطرت إلى وضع يدي على جانب سقيفة التجفيف لأظل واقفاً. «المجرة؟ الكون؟».

قال: «بل أكبر من ذلك». صمّت ليتأكد من استيعابي. ترققت البطاقة تحت رباط قبعته، اصفرّت، ثم اخضرّت. أردف: «الواقع نفسه».

6

مشيت نحو السلسلة. اللافتة المكتوب عليها ممنوع تجاوز هذا الحد قبل صيانة أنبوب المجاري أصدرت صريراً إثر تأرجحها مع الريح. التفت ناظراً إلى زاك لانغ، ذلك المسافر من زمن مجهول، نظر إلي بوجه جامد خال من التعابير، وذيل معطفه يرفرف حول ساقيه.

- لانغ! التناغمات... أنا سببتُها كلها، أليس كذلك؟

ربما أوماً. لست متأكداً.

الماضي قاوم التغيير لأنه مُدمر للمستقبل. التغيير أنشأ...

تذكرتُ إعلاناً قديماً لأشرطة صوتية من شركة ميموريكس، يصوّر كأساً بلورية تتشظى بالذبذبات الصوتية، بالدرجات النغمية فحسب.

- وإثر كل تغيير نجحتُ في إحداثه، ازدادت تلك التناغمات، وهذا

هو الخطر الحقيقي، أليس كذلك؟ تلك التناغمات اللعينة!

لم يرد. ربما كان يعرف ونسي، ربما لم يعرف قط.

كما فعلت قبل خمس سنوات، قبل أن يتخلل الشيب شعري، قلت
لنفسي: مهلاً، تمهّل فحسب.

انحنيت أسفل السلسلة، فشهقتُ ركبتَي اليسرى، ثم اعتدلتُ واقفاً
لحظة وجانب سقيفة التجفيف الأخضر العالي إلى يساري. وهذه
المرّة ما من كتلة خرسانة تحدّد موضع السلم الخفي. كم كان يبعدُ عن
السلسلة؟ لم أتذكر.

سرت ببطء، ببطء شديد، وحذائي يحتك بالأرضية الخرسانية
المشققة. سمعتُ آلات النسيج: شات - هوش، شات - هوش... ومن
ثم، حالما خطوت الخطوة السادسة، والسابعة، تغير الصوت إلى: /بّت-
عدت، /بّت-عدت. تقدمت خطوة أخرى، ثم أخرى. وتوقعت أن أصل إلى
نهاية سقيفة التجفيف والفناء خلفه. اختفى الجُر. فُقئت الفقاعة.

تقدمت خطوة أخرى، ورغم عدم وجود حاجز على جانبي السلم،
لوهلة رأيت حذائي في مكانين، رأيتَه على الأرضية الخرسانية، وأيضاً
على بساط أخضر متسخ. تقدمت خطوة أخرى، فرأيت نفسي في
مكانين، معظم جسدي يقف بجانب سقيفة تجفيف مصنع ورَمبو في
أواخر نوفمبر 1963، لكن جزءاً مني في مكان آخر، ليس مستودع مؤن
مطعم آل.

ماذا لو لم أخرج في مَين، ولا حتى كوكب الأرض، بل في بُعد آخر
غريب؟ مكان ما سماؤه حمراء جنوبية وهواؤه قد يسمّم رثتي ويوقف
قلبي؟

التفت إلى الخلف مجدداً، فرأيت لانغ واقفاً في مكانه ومعطفه
يرفرف مع الريح، وما زال وجهه جامداً. بدا الوجه الجامد كأنه يقول:
أنت وشأنك، لا يمكنني إرغامك على فعل أي شيء.

صحيح، لكن ما لم أذهب عبر جحر الأرنب إلى عالم المستقبل، فلن أقدر على العودة إلى عالم الماضي، وستظل سيدي ميتة إلى الأبد. أغمضت عيني وتقدمت خطوة أخرى، فجأة شممت رائحة أمونيا طفيفة ورائحة أخرى أشد نتانة. بعدما يقطع المرء مسافة طويلة جالسًا عند مؤخرات حافلات شركة غرايهاوند، لا يخطئ تلك الرائحة الثانية. كانت رائحة مرحاض يحتاج إلى أكثر من منعش هواء لجعله يُطاق قليلًا.

مغمضًا عيني تقدمت خطوة أخرى، وسمعت صوت الفرقة الغريبة بداخل رأسي. فتحت عيني. وجدت نفسي في حمام صغير قذر. ما من مرحاض، نُزِع من مكانه، وبدا موضعه كظل من القذارة. ورأيت آثار بول قديم باهت اللون في الزاوية، والنمل يسير عليه جيئةً وذهابًا. الركن الذي خرجت إليه كان محجوبًا بصناديق ورق مقوى مليئة بقناني وعلب فارغة، ذكّرني بمتراس لي.

دفعْتُ صندوقين جانبًا وتقدمت إلى الحجرة الصغيرة. تحركت نحو الباب، لكن عُدت ورتّبت الصناديق، ليس من الحكمة التسبّب في تعثر شخص ما فيسقط في جحر الأرنب دون قصد. ثم خرجت عائداً إلى 2011.

7

كنت قد دخلت جحر الأرنب بعد هبوط الظلام في المرة الأخيرة، لذا بالطبع خرجت إلى الظلام الآن، لأنه لم تمض سوى دقيقتين. لكن حدثت فيهما تغيرات كثيرة، استشعرتها رغم الظلام. في وقتٍ ما من الأعوام الثمانية والأربعين الماضية احترق المصنع، لم تبق سوى بضعة جدران مسودة، ومدخنة ساقطة (ذكّرني، حتمًا، بالتي رأيته في موقع مصنع كتشنر للحديد والصلب في ديري) وعدة أكوام أنقاض. لم أر أثرًا لمحل

يور مين سنغري وإل. إل. بين إكسبرس والمتاجر الراقية الأخرى. لم أجد سوى مصنع مهدم على ضفة نهر أندروسكوغن. ولا شيء آخر.

ليلة يونيو التي غادرتُ فيها لأبدأ مهمة إنقاذ كينيدي التي دامت خمس سنوات، كان الطقس معتدلاً قليلاً، والآن وجدتُ حرّاً لاهباً. نزعت معطفي المبطن بجلد الخراف الذي اشتريته في أوبرن وألقيته في الحمام كرية الرائحة. وعندما أغلقت الباب مجدداً، رأيت لافتة عليه: الحمام خارج الخدمة! لا يوجد مرحاض! أنبوب المجاري مكسور!

رؤساء شبان وسيمون ماتوا ورؤساء شبان وسيمون عاشوا، نساء شبابات جميلات عشن ثم متن، لكن كسر أنبوب مجاري أسفل فناء مصنع ورمبو القديم أبدى على ما يبدو.

السلسلة أيضاً ما زالت موجودة. سرت نحوها بمحاذاة المبنى الذي حل محل سقيفة التجفيف، وعندما انحنيت أسفل السلسلة وانعطفت إلى واجهة المبنى، رأيته متجرباً بقالة مهجوراً اسمه كويك-فلاش، نوافذه مهشمة وجميع أرففه نُزعت، ليس فيه شيء سوى مصباح طوارئ واحد، بطاريته على وشك النفاد تطن كذبابة تحتضر متخبطة على زجاج نافذة في الشتاء. ورأيت على بقايا الأرضية كتابات غرافيتي، بالكاد قرأتها بالضوء الشحيح: اخرج من المدينة أيها الباكستاني اللقيط.

سرت عبر أرضية الفناء الخرسانية المشققة. لم أر المساحة التي كان عمال المصنع يركنون فيها سياراتهم ذات يوم، لم يشيّد عليها شيء، صارت مجرد مستطيل تتناثر فيه قنارٍ زجاجية مهشمة وكُتل من الأسفلت، وحشائش هنا وهناك، معلق عليها واقيات ذكرية مستعملة بدت كرايات الزينة القديمة في الحفلات. رنوت ببصري إلى النجوم فلم أرَ أي نجمة، رأيت السماء مغطاة بطبقة سحب منخفضة، رقيقة بما يكفي لتسرّب ضوء قمر شاحب. المصباح الوامض عند تقاطع الشارع الرئيسي مع الطريق رقم 196 (الذي كان يعرف ذات يوم باسم طريق

لويستون القديم) حلَّت محله في وقت ما إشارة مرورية، مظلمة الآن، لكن لا بأس، ما من حركة سيارات من أي اتجاه.

اختفى محل كنبك فروت، وحلَّت محله أساسات قبو. وقبالاته، حيث كان محل الواجهة الخضراء في 1958 وحيث ينبغي أن يكون مصرفاً في 2011، رأيت محلاً اسمه "تعاونية مقاطعة مَين للطعام"، لكن نوافذه أيضاً مهشمة، وأي بضائع ربما كانت بداخله لم يعد لها وجود منذ مدة طويلة، بدا المكان خَرِباً مثل كويك-فلاش.

عندما وصلت إلى منتصف التقاطع، تسمَّرتُ في مكاني إثر سماعي صوت تصدُّع مائي. الشيء الوحيد الذي تخيلته يصدر صوتاً كذلك كان طائرة جليدية تذوب رغم اختراقها حاجز الصوت. ارتعشت الأرض تحت قدمي لوهلة وجيزة، وانطلقت صافرة إنذار سيارة، ثم انقطعت. نبحت كلاب، ثم صمتت تبعاً.

قلت مع نفسي: زلزال في لوس أنجلوس. سبعة آلاف ميت.

ظهرت مصابيح مركبة أمامية على مبعدة في الطريق 196، فهرولت إلى الرصيف البعيد. ثم رأيت أن المركبة حافلة صغيرة مربعة، على نافذة وجهتها المضاءة مكتوب: خط دائري. ذكَّرتني بشيء ما، لا أعرف لماذا. افترضته تناغماً ما. على سقف الحافلة رأيت عدة أجهزة تدور بدت كأجهزة تهوية وتبريد. ربما توربينات رياح. هل يمكن؟ لم أسمع صوت محرك احتراق داخلي، بل سمعت هدير محرك كهربائي خافت. شاهدت الحافلة حتى اختفى ضوء مصباحها الخلفي الواحد.

حسناً، محركات الوقود تختفي تدريجياً في هذه النسخة من المستقبل، هذا الوتر، بحسب تسمية زاك لانغ. وهذا أمر جيد، أليس كذلك؟

ربما. لكن أحسست بالهواء في رئتي ثقيلًا، مِيتًا على نحوٍ ما، وفيه رائحة ذكّرني برائحة لعبة قطاري في طفولتي، عندما كنت أسرعه جدًّا، وكان أبي يقول: حان وقت إطفائه ليستريح قليلًا.

وجدت في الشارع الرئيسي بضعة محلات تجارية بدت متداعية قليلًا لكنها تعمل، لكن غالبيتها خرائب. الرصيف مشقق والقمامة متناثرة عليه. رأيت ست سيارات مركونة، وكل واحدة إما هجينة تعمل بالوقود والكهرباء، وإما مزودة بالأجهزة التي تدور على السقف. إحداها كانت هوندا زيفر، وأخرى تاكورو سبِرت، وأخرى فورد بريز. بدت السيارات قديمة، واثنان منها تعرضتا لتخريب. وكلها على زجاجها الأمامي ملصقات وردية، عليها كتابة بأحرف سوداء كبيرة يمكن قراءتها رغم العتمة: مقاطعة مَين. أ. إذا كان لديك هذا الملصق، فعليك إبراز بطاقة التموين دومًا.

على الجانب الآخر من الشارع رأيت عصابة فتية يتسكعون ويضحكون، ويتحدثون. هتفت لهم: «أنتم! هل ما زالت المكتبة مفتوحة؟».

نظروا إلي، ورأيت وميض سيجارة... إلّا أن الرائحة التي انجرفت إلي كانت رائحة حشيش بالتأكيد. صاح أحدهم بي: «سحقًا لك!».

استدار آخر، وأنزل بنطاله وأظهر لي عجزته قائلاً: «إذا وجدت أي كتب هناك، فهي لك!».

ضحكوا جميعًا ومضوا في طريقهم يتكلمون بأصوات منخفضة ويلتفتون ناظرين إلي.

لم أتضايق من بذاءتهم، لم تكن المرة الأولى، لكن لم ترُقني نظراتهم، ولم ترُقني همساتهم. ربما يتآمرون. لم يصدّق جيك إبنغ ذلك، لكن جورج أمبرسون صدّقه، جورج مرًّا بالكثير، وكان جورج هو من انحنى والتقط كُتلتين خرسانيتين بحجم قبضة اليد، وأقحمهما في جيبيه

الأمامين، استجلاًباً للحظ الحسن فحسب. رأى جيك ذلك سخيّاً، لكنه لم يعترض.

وبعد مربع سكني، بدا لي أن المنطقة التجارية انتهت فجأة. رأيت امرأة عجوزاً تهرع بجواري وتنظر متوترة إلى الفتية، الذين صاروا على مبعدة قليلاً على الجانب الآخر من الشارع الرئيسي. كانت المرأة تضع على وجهها منديلاً وما بدا كجهاز تنفّس كالذي يستخدمه المصابون بالانسداد الرئوي المزمن أو الانتفاخ الرئوي.

- سيّدتي، هل تعرفين ما إذا سأجد المكتبة...

- دعني وشأني!

رأيت عينيها كبيرتين خائفتين. أطلّ القمر لوهلة وجيزة بين فُرجة في الغيوم، فرأيت وجه المرأة مغطى بقروح، بدت القرحة التي تحت عينيها اليمنى كأنها نهشت اللحم حتى العظم. تابعت: «لدي ورقة تجيز لي الخروج، عليهم ختم "المجلس"، لذا دعني وشأني! إنني ذاهبة لزيارة أختي! أولئك الفتية مشاغبون، وسيبدؤون جموحهم حالاً. إذا لمستني، فسأضغط جهازتي وسيأتي شرطي!».

لسببٍ ما استبعدتُ ذلك.

- سيّدتي، لا أريد سوى معرفة ما إذا كانت المكتبة...

- مغلقة منذ سنوات وكل الكتب اختفت! صارت مكاناً لعقد "اجتماعات الكراهية". قلت لك دعني وشأني، وإلا فسأستدعي شرطياً.

هرعت مبتعدة وهي تنظر إلى الخلف بين الفينة والأخرى لتتأكد أنني لا أتبعها. تركتها تبتعد قليلاً حتى تشعر بالأمان، ثم واصلت سيرتي شمالاً في الشارع الرئيسي. تعافّت ركبتي قليلاً من إجهاد صعود سلم مستودع الكتب، لكن ما زلت أعرج، وسأظل أعرج لبعض الوقت. لاحظت إضاءة خلف ستائر مغلقة في منازل قليلة، لكنني تأكدت أن

الإضاءة ليس مصدرها "محطة كهرباء وسط مَين"، بل كانت فوانيس كولمان، وبعضها مصابيح كيروسين. معظم المنازل مظلمة، وبعضها حطام متفحم. رأيت صليب النازيين المعقوف على جدار أحد المنازل، والكلمتين جرذ يهودي على جدار آخر متداعٍ.

أولئك الفتية مشاغبون، وسيبدؤون جموحهم حالاً.

و... هل حقاً قالت "اجتماعات كراهية"؟

أمام أحد المنازل القليلة التي بدت بحالة جيدة، كان قصرًا مقارنةً بمعظم المنازل، رأيت مرتبط خيول طويلًا، كما في أفلام رعاة البقر. مربوطة عندها خيول فعلاً. عندما أضاءت السماء لوهلة خاطفة أخرى رأيت روث خيول، بعضه جديد. ورأيت بوابة المدخل الخارجي مغلقة. عندئذٍ توارى القمر، فلم أستطع قراءة اللافتة المعلقة على السياج، لكن لم أكن بحاجة إلى قراءتها لأعرف أن المكتوب عليها ممنوع الاقتراب.

ثم، أمامي سمعت شخصًا يلفظ كلمة واحدة بوضوح: «وغدا!».

لم يبدُ صوت شخص شاب، كأولئك الفتية الجامحين، وكان الصوت قادمًا من الجانب الذي أسير فيه. بدا الرجل حانقًا، كما بدا كأنه يتكلم مع نفسه. سرت نحو صوته.

صاح صاحب الصوت حانقًا: «داعر! حقير!».

كان على بُعد مربع سكني تقريبًا. وقبل أن أصل إليه، سمعت صوتًا معدنيًا عاليًا ورجلاً يصيح: «أذهبوا أيها الأوغاد أبناء العاهرات قبل أن أسحب مسدسي!».

قبول كلامه بضحكات ساخرة، ضحكات الفتية الجامحين الذين يدخلون الحشيش، الصوت الذي رد عليه قطعًا كان صوت الفتى الذي أظهر لي عجيزته: «ليس لديك مسدس سوى الذي بداخل بنطالك، وأراهن أن ماسورته مرتخية!».

مزيد من الضحكات. وتبعها صوت ارتطام شيء معدني عال.
وعندما زعق بهم الرجل مجددًا، شابَّ صوته خوفٌ وتردُّد: «أيها
الأوغاد، كسرتم أحد القضبان. لا، لا، ابقوا على جانبكم اللعين!». انفرجت الغيوم، وأطل القمر، بضوئه العابر رأيت رجلًا عجوزًا يقتعد
كرسيًا مدولبًا، في منتصف تقاطع الشارع الرئيسي مع شارع غودارد،
إذا لم يتغير اسم الشارع. إحدى عجلات كرسيه علقت في حفرة، فمال
الكرسي إلى اليسار. سار الفتية عابرين الشارع نحوه. الفتى الذي قال
لي سحقًا لك كان يحمل مقلعًا يدويًا به حجر كبير. وهذا فسَّر لي
الأصوات المعدنية.

- هل لديك أي نقود جديدة، أو حتى قديمة، أو أطعمة معلبة؟
- لا! إذا لم يكن لديكم من الذوق ما يكفي لإخراجي من هذا الوضع،
فعلى الأقل ابتعدوا ودعوني وشأني!
لكنهم كانوا جامحين، ولن يدعوه وشأنه بالطبع، بل سينهبون كل ما
معه، وربما يضربونه ويقلبون كرسيه أيضًا.
جيك وجورج اتَّحدا معًا، وكلاهما ثار غضبًا.

انشغل الفتية الجامحون بالعجوز الغريب، فلم يروني أعبر الشارع
نحوهم بزاوية مائلة، كما عبرت مساحة الطابق السادس في مبنى
مستودع الكتب المدرسية. ذراعي اليسرى ما زالت لم تتعاف تمامًا، لكن
يمنيائي كانت بخير، ثلاثة أشهر من العلاج الطبيعي، أولًا في باركلاند ثم
في إيدن فالوز. وما زلت محتفظًا بشيء من دقتي التي جعلتني الضارب
الثالث في فريق البيسبول في المدرسة الثانوية. قذفت كتلة الخرسانة
الأولى من مسافة ثلاثين قدمًا فأصبت الذي أظهر عجزته في منتصف
صدره، صرخ من الألم والدهشة، والتفت جميع الفتية نحوي، كانوا
خمسة، وعندئذٍ رأيت أن وجوههم مشوَّهة وخائفة كما كان وجه المرأة.

صاحب المقلع، "السيد سحًا لك"، كان الأسوأ من بينهم، ما من شيء سوى ثقب حيث ينبغي أن يكون أنفه.

نقلت كتلة الخرسانة الثانية من يساري إلى يمناي، وقذفتها نحو أطول الفتية، الذي كان يرتدي بنطالًا فضفاضًا ضخمًا رباط خصره مرفوع حتى صدره، رفع ذراعه ليصد كتلة الخرسانة، فأسقط سيجارة الحشيش التي كان يحملها. ألقى على وجهي نظرة سريعة، ثم استدار على عقبه وولّى هاربًا، وتبعه صاحب العجيزة. بقي ثلاثة.

زعق العجوز الجالس على الكرسي المدولب: «أوسعهم ضربًا يا بُني! يستحقون ذلك! بحق المسيح!».

كنت متأكدًا أنهم يستحقون ذلك، لكنهم يفوقونني عددًا وذخيرتي نفدت. عندما يتعامل المرء مع مراهقين، فالطريقة الوحيدة الممكنة للتغلب عليهم في مثل هذه المواقف، هي عدم إظهار أي خوف، وإظهار الغضب الشديد المتواصل. هذا ما فعلته. أمسكتُ بيدي اليمنى بـ "السيد سحًا لك" من تلايب قميصه المهترئ وخطفت المقلع منه بيدي اليسرى. حدّق إلي بعينين متسعتين، ولم يقاوم.

قلت: «أيها الوضع الجبان!» قرّبتُ وجهي من وجهه... متجاهلاً الأنف غير الموجود. انبعثت منه رائحة العرق والحشيش والقذارة الشديدة. «أي وضاعة وجُبن هذا الذي يدفعكم للاعتداء على رجل يقتعد كرسيًا مدولبًا؟».

- مَنْ أَنَا...؟

- شارلي شابلن اللعين! سافرتُ إلى فرنسا لأشاهد النساء يؤدين الرقصة! الآن اغرب عن وجهي.

- أعد إلي...

عرفتُ ما يريده وضربتُ به منتصف جبهته، فسال محتوى إحدى البثور، ولا بد أنها ألمته ألماً شديداً، إذ دمعت عيناه. فأثار هذا تقززى وشفقتى، لكن لم أظهر أياً منهما.

- لن تحصل على شيء أيها الوضع الجبان، عدا عن فرصة لتغرب عن وجهي قبل أن أنتزع خصيتك وأقحمهما في الثقب حيث كان أنفك. فرصة واحدة. استغلها.

أخذت نفساً عميقاً، وصرخت في وجهه صرخة يرافقها رذاذ لعابي: «اركض!».

شاهدتهم يبتعدون، شاعرين بالخزي والبهجة بالقدر نفسه. جيك القديم كان بارعاً في إخماد ضجيج أروقة المدرسة أيام الجمعة قبل العطلات، لكن تلك كانت أقصى حدود مهاراته. أما جيك الجديد، فجورج جزء منه، وجورج مرّاً بالكثير.

من خلفي سمعت نوبة سعال عنيفة، ذكّرني بآل تمبلتون، وعندما توقف السعال قال الرجل العجوز: «يا رجل، كنت مستعداً لفعل أي شيء من أجل رؤية أولئك الوضيعين يفرّون كذلك. لا أعرفك، لكن لدي قنينة ويسكي غلينفيدش صغيرة متبقية في مستودع مؤني، النوع الجيد، سأتقاسمها معك إذا دفعتنى إلى خارج هذه الحفرة اللعينة في الشارع ودحرجتنى إلى المنزل».

كان القمر قد توارى مجدداً، وعند ظهوره من خلال الغيوم المهترئة، رأيت وجه الرجل، لديه لحية بيضاء طويلة وكانيو لا محشورة في أنفه، لكن حتى بعد خمس سنوات لم أجد صعوبة إطلاقاً في التعرف على الرجل الذي أدخلني هذه الفوضى. قلت: «مرحباً هاري».

الجزء الحادي والثلاثون

1

ما زال يعيش بشارع غودارد. دفعته صاعداً المنحدر المؤدي إلى الشرفة، فأخرج حلقة مفاتيح ضخمة تثير الرهبة بكثرة مفاتيحها. كان يحتاج إليها. الباب الأمامي وحده كان عليه أكثر من أربعة أقفال.

- هل تستأجر المنزل أم تملكه؟

- أوه، كله ملكي.

- هنيئاً لك.

سابقاً كان يستأجر.

- ما زلت لم تخبرني كيف تعرف اسمي.

- أولاً فلنتناول ذلك المشروب، إنني في أمس الحاجة إليه.

فُتح الباب كاشفاً عن صالون يشغل النصف الأمامي من المنزل. طلب هاري مني التمهّل، وأشعل فانوس كولمان، وبضوئه رأيت أثاثاً من النوع الذي يُسمّى «قديم لكن صالح للاستعمال». رأيت سجادة جميلة على الأرضية، ولم أرَ شهادة ثانوية عامة على أيّ من الجدران (وبالطبع ما من موضوع عنوانه "اليوم الذي تغيرت فيه حياتي"). لكن رأيت عدداً كبيراً من رموز الكاثوليكية وكثيراً من الصور. ودون دهشة تعرفت على بعض الأشخاص الظاهرين في الصور. كنت قد التقيتهم بالطبع.

- هلاً أوصدت الباب خلفك؟

أغلقت الباب حاجبًا عنا الظلام وليسبون فولز المضطربة، وجذبت المزلاجين.

- القفل المُسنَّن أيضًا، من فضلك.

أدريته فسمعت رنينًا ثقيلًا. وفي هذه الأثناء دحرج هاري كرسيه في أنحاء الصالون وأضاء مصابيح كيروسين ذات مداخن طويلة تذكَرُ رؤيتها في منزل جدّتي. كانت إضاءتها أفضل للمكان مقارنة بفانوس كولمان، وعندما أطفأتُ وهجه الأبيض، أوما هاري دَنَنُغَ مستحسنًا.

- ما اسمك سيّدي؟ تعرف اسمي سلفًا.

- جيك إبنغ. لا أظنك تتذكر هذا الاسم، أليس كذلك؟

أطرق مفكرًا، ثم هز رأسه.

- هل ينبغي أن أتذكره؟

- على الأرجح لا.

مد يده، فارتعشت ارتعاشًا طفيفًا قد يكون من أعراض الشلل المبكرة.

صافحته مسرورًا. مرحبًا صديقي الجديد. مرحبًا صديقي القديم.

قال: «حسنًا، الآن وقد فرغنا من ذلك، لنا أن نشرب مرتاحين. سأجلب الويسكي». ذهب إلى المطبخ، مدحرجًا كرسيه بذراعين مرتعشتين قليلًا لكن ما تزالان قويتين. الكرسي به محرك صغير، لكن إما أنه لا يعمل، وإما أن هاري يحافظ على بطاريته. نظر إلي فوق كتفه وقال: «لست خطرًا، أليس كذلك؟ أعني لست خطرًا علي، صحيح؟».

ابتسمت قائلاً: «ليس عليك يا هاري، أنا ملاكك الطيب».

قال: «هذا غريب... لكن في هذه الأيام ما الذي ليس غريبًا؟».

دخل المطبخ، وأضاء مصباحًا آخر. ضوء برتقالي مُصَفَّر دافئ. هنا كل شيء بدا دافئًا مُريحًا. لكن هناك بالخارج... في العالم...

2

سألته عندما حملنا كأسينا: «سنشرب نخب ماذا؟».

- نخب زمن أفضل من هذا. هل يناسبك هذا يا سيد إبنغ؟

- يناسبني تمامًا. وخاطبني بجيك.

لامسنا كأسينا. شربنا. لم أستطع تذكُّر آخر مرة شربتُ فيها مشروبًا أقوى من جعة "لون ستار". بدا لي الويسكي كعسل ساخن.

سألته: «ما من كهرباء؟». ونظرتُ إلى المصابيح حولي، وقد خفض هاري إضاءتها جميعًا، على الأرجح لتوفير الوقود.

سألني عابسًا: «لستَ من المدينة، أليس كذلك؟».

سؤال سمعته من قبل، من فرانك أنسييتي، في محل كنك فروت، عند رحلتي الأولى إلى الماضي. عندئذٍ كذبتُ. ولم أرغب في الكذب الآن.

- لا أعرف كيف أجيب عن هذا السؤال يا هاري.

هز كتفيه بلا مبالاة. وقال: «من المفترض أن تأتينا الكهرباء ثلاثة أيام في الأسبوع، واليوم يفترض أن يكون أحد تلك الأيام، لكنها انقطعت عند السادسة مساءً. أصدِّق وجود إدارة كفاء لكهرباء المقاطعة كما أصدِّق وجود بابا نويل».

عند تفكيري بهذا، تذكرت الملصقات التي رأيتها على السيارات، فسألته: «منذ متى أصبحت مَين جزءًا من كندا؟».

نظر إلي كأنه يشكُّ في قواي العقلية، لكن رأيت أنه مستمتع أيضًا، بإحساسه بأنني غريب ومألوف في آنٍ واحد. تساءلت متى كانت آخر محادثة حقيقية أجراها مع شخص ما. قال: «منذ عام 2005. هل تعرضتَ لضربة على رأسك أو شيء من هذا القبيل؟».

قلت: «في الحقيقة، نعم». ذهبتُ إلى كرسيه المدولب، وجثوت على الركبة التي ما تزال تنحني طواعية دون ألم، وأريته الموضع في مؤخرة رأسي حيث لم ينمُ الشعر. «تعرضت لضرب عنيف قبل بضعة أشهر...».

- أجل، رأيك تعرج عندما هاجمتَ أولئك الفتية.

- ... والآن ثمة أشياء كثيرة لا أتذكرها.

فجأة اهتزت الأرضية تحتنا، وارتعشت ألسنة لهب مصابيح الكيروسين، وخشخشَت الصور المعلقة على الجدران، ورأيت تمثالاً ارتفاعه قدمان ليسوع باسطاً ذراعيه يتزحزح نحو إطار المدفأة. بدا كرجل يفكر في الانتحار، لم أُلَمِّه، نظرًا إلى الوضع الراهن الذي لاحظته. وعندما توقفت الاهتزازات، قال هاري كأنه يذكر حقيقة مُسلِّمًا بها: «"البوبر" تتذكرها، صحيح؟».

قلت: «لا». نهضت وذهبت إلى المدفأة، ودفعت يسوع لأعيدهِ إلى جوار أمه المقدسة.

- شكرًا. فقدت نصف الحواريين بسقوطهم من الرف في غرفة نومي، وأحزن على كل واحد منها. البوبر هي ارتعاشات الأرض. تحدث كثيرًا، لكن معظم الزلازل الكبيرة تقع في الغرب الأوسط وكاليفورنيا، وأوروبا والصين أيضًا بالطبع.

- الناس يربطون أحذيتهم في أيدهو، أليس كذلك؟

كنت ما أزال واقفًا عند المدفأة، ثم رحت أنظر إلى الصور المؤطرة.

- لم تبلغ الأمور هذه الدرجة من السوء بعد، لكن... تعرف أن أربعا من الجزر اليابانية اختفت، صحيح؟

نظرت إليه مرتاعًا: «لا!».

قال: «ثلاث منها كانت صغيرة، لكن هوكايدو أيضًا اختفت، هبطت في المحيط اللعين كأنها على متن مصعد. يُقال إن الكارثة لها علاقة

بقشرة الأرض». وأردف كأنه يقول حقيقة مفروغاً منها: «يُقال إذا لم تتوقف الارتعاشات، فستمزق الكوكب بحلول عام 2080 تقريباً، عندئذٍ سيكون للنظام الشمسي حزاماً نيازك اثنان».

شربت بقية كأس الويسكي بجرعة واحدة، فتشوَّش بصري لوهلة عندما دمعت عيناى بالكحول القوي، وبعدما اتَّضحت رؤيتي، أشرت إلى صورة يبدو فيها هاري في الخمسين من عمره، يقتعد كرسيه المدولب، لكنه سليم وبصحة جيدة، على الأقل نصف جسده الأعلى، وبدا بنطاله فضفاضاً حول ساقيه الضامرتين. وجواره امرأة ترتدي فستاناً وردياً نَكرني ببدة جاكى كينيدي يوم 63/11/22. أتذكر أن أمي قالت لي ألاَّ أُصِف امرأة ليست جميلة بأنها «عادية الوجه»، حثَّنتني على قول «طيِّبة الوجه». هذه المرأة في الصورة كانت طيبة الوجه.

- زوجتك؟

- نعم. التَّقَطَّت تلك الصورة في ذكرى زواجنا الخامسة والعشرين. ماتت بعدها بعامين. الموت كثير في أيامنا هذه. السياسيون سيقولون لك إن السبب هو القنابل النووية، أُلقيت ثمانى وعشرون أو تسع وعشرون قنبلة منذ "جسيم هانوي" سنة 69. يُقسِّمون حتى تزرَق وجوههم، لكن كل الناس يعرفون أن البثور والسرطانات لم يشتد تفشُّيها في هذه الأنحاء إلى أن أصيب مفاعل فيرمونت يانكي بمتلازمة الصين⁽¹⁾. حدث ذلك بعد سنوات من الاحتجاجات بشأن المكان. قالوا: "لن تقع أي زلازل كبيرة في فيرمونت، ليس هنا في مملكة الرب، لا شيء سوى الاهتزازات والارتعاشات الطفيفة". أجل، انظر إلى ما حدث.

- هل تقول إن مفاعلاً نووياً انفجر في فيرمونت؟

(1) مصطلح يصف سيناريو خيالياً لانصهار مفاعل نووي وتسرب محتوياته في الأرض حتى تصل إلى الجانب الآخر من العالم، أي الصين. (المترجم)

- وانتشر إشعاعه في جميع أنحاء نيو إنغلاند وجنوب كيبيك.

- متى؟

- جيك، هل تمازحني؟

- قطعًا لا.

- التاسع عشر من يونيو 1999.

- يؤسفني رحيل زوجتك.

- شكرًا لك يا بُني. كانت امرأة صالحة، طيبة، لم تستحق ما جرى لها.

مسح عينيه بذراعه ببطء، وتابع: «انقضى زمن طويل منذ أن تحدثت عنها، لكن انقضى زمن طويل منذ أن وجدت شخصًا أتحدث معه. هل أصب لك مزيدًا من عصير البهجة هذا؟».

أشرت له بإصبعي أن يصب لي القليل. لم أخطط للمكوث مدة طويلة، كان علي استيعاب كل هذا التاريخ الزائف، هذه القتامة، على عجلة. أمامي مهام كثيرة، ليس أقلها إعادة امرأتي إلى الحياة. وهذا يعني خوض محادثة أخرى مع رجل البطاقة الخضراء، لم أرغب في أن أكون ثملًا عندما أصل إليه، لكن جرعة بسيطة لن تضر أحدًا. كنت أحتاج إليها، أحسست بعواطف مجمدة، وهذا أمر جيد على الأرجح، لأن عقلي كان يترنح.

سألتها: «هل أصبت بالشلل في أثناء "هجوم تيت"». وقلت مع نفسي: بالتأكيد، لكن الشلل أهون، في المرة السابقة مت.

بدا الجمود على وجهه لحظة، ثم قال: «أظنني شللت في أثناء "هجوم تيت" فعلاً. أتذكر أننا كنا نسميه معمعة سايغون 1967. المروحية التي كنت على متنها تحطمت، كنت محظوظًا، معظم من كانوا معي ماتوا، بعضهم كانوا دبلوماسيين، وبعضهم أطفال».

- هجوم تيت عام 67، ليس 68.
- صحيح. لم تكن قد وُلدتَ عندئذٍ، لكن لا بد أنك قرأت عن الحادثة في كتب التاريخ.
- تركته يصب لي قليلًا من الويسكي في كأسِي، ما يكفي لتغطية قعرها، وقلت: «أعرف أن الرئيس كينيدي كاد أن يُغتال في نوفمبر 1963، ولا أعرف شيئًا بعد هذا التاريخ».
- هز رأسه قائلاً: «هذه أغرب حالة فقدان ذاكرة أسمع بها».
- هل أُعيد انتخاب كينيدي؟
- أمام جولدووتر؟ بالتأكيد!
- وهل أبقى جونسون نائبًا له؟
- بالطبع. كان كينيدي يحتاج إلى أصوات ولاية تكساس، وحصل عليها. الحاكم كونالي بذل كل ما بوسعه في تلك الانتخابات، رغم امتعاضه من سياسات كينيدي. بسبب ما كاد أن يحدث في دالاس ذلك اليوم. هل أنت متأكد أنك لا تعرف هذا؟ لم تدرس أيًا من هذا في المدرسة؟
- أنت عشتَ كل ذلك يا هاري، فأخبرني.
- لا أمانع. اجلس يا بُني، دع النظر إلى تلك الصور، ما دُمتَ لا تعرف كيف أُعيد انتخاب كينيدي عام 64، فبالأكيد لن تعرف أيًا من أفراد أسرتي.
- قلت مع نفسي: آه يا هاري.

3

عندما كنت طفلًا صغيرًا، في الرابعة أو الثالثة، روى لي أحد أعمامي، وكان ثملًا، قصة "ذات الرداء الأحمر"، ليست القصة المعروفة في كتب

الحكايات الخيالية، إنما النسخة المصنَّفة للكبار، مليئة بالصراخ والدماء وأصوات وقّع فأس الخطّاب. ذكرى سماعي هذه القصة ما زالت جليّة حتى اليوم، لكن لم تبق منها سوى تفاصيل قليلة: أنياب الذئب اللامعة عند زمجرته، وإعادة ولادة الجدّة ملطخة بالدماء من بطن الذئب الغائر. هذه هي طريقتي في قول إنكم إذا توقّعتم "موجز تاريخ العالم كما رواه هاري دَننغ لجيك إينغ"، فانسوا الأمر. ليس لأنني أود تفادي رعب اكتشاف مدى السوء الذي وصل إليه الوضع، بل لأنني كنت أستعجل العودة لتصحيح الوضع.

لكن إليكم أبرز الأحداث. البحث عن جورج أمبرسون في جميع أنحاء العالم، مثلاً، لم أبتهج لذلك، إذ تلاشى جورج من الوجود، لكن في السنوات الثماني وأربعين منذ محاولة الاغتيال في دالاس، صار أمبرسون شخصية شبه أسطورية. مُخلّص، أم جزء من المؤامرة؟ عقد الناس مؤتمرات لمناقشة هذه الموضوع، وفي أثناء استماعي لهاري وهو يروي هذا الجزء، استحال علي عدم استحضار نظريات المؤامرة التي تكاثرت حول نسخة لي التي نجحت في الاغتيال. فكما نعرف، يا أعزائي الطلاب، الماضي يتناغم.

كان من المتوقع أن يفوز كينيدي على باري جولدووتر فوزًا كاسحًا عام 64، لكنه فاز بأقل من أربعين صوتًا من المجمع الانتخابي، هامش فوز بسيط لم يره أحد جديرًا بالاحترام سوى أنصار الحزب الديمقراطي المتعصبين. وفي وقت مبكر من فترة رئاسته الثانية، أغضب كينيدي كلاً من اليمينيين الذين صوتوا له والمؤسسة العسكرية بإعلانه أن فيتنام الشمالية «أقل خطراً على ديمقراطيتنا من عدم المساواة العرقية في مدارسنا ومدننا». لم يسحب كل القوات الأمريكية من فيتنام، لكن حصر انتشارها في سايجون وحلقة حولها أُطلق عليها اسم... ويا للمفاجأة! المنطقة الخضراء. وبدلاً من إرسال جنود بأعداد كبيرة، أرسلت إدارة كينيدي الثانية مبالغ كبيرة من المال، على الطريقة الأمريكية.

الإصلاحات العظيمة في مجال الحقوق المدنية في الستينيات لم تحدث قط. كينيدي لم يكن مثل ليندون بي جونسون، وبوصفه نائب رئيس كان جونسون عاجزًا عن مساعدة رئيسه. استمرت مفاوضات الجمهوريين والديمقراطيين الجنوبيين مئة وعشرة أيام، حتى إن أحدهم مات في أثناء جلسة وعده اليمينيون بطلًا. وعندما استسلم كينيدي أخيرًا، أدلى بتعليق عفوي ارتجالي سيظل يؤرقه حتى موته عام 1983: «أمريكا البيضاء ملأت منزلها بالحطب، والآن سيشتعل».

ثم اندلعت موجات الشغب ذات الدوافع العرقية. وبينما كان كينيدي مشغولًا بها، اجتاحت الجيوش الفيتنامية الشمالية سايجون، وأصيب الرجل الذي جرّني إلى كل هذا بالشلل في حادثة تحطّم مروحية على سطح حاملة طائرات أمريكية. وبدأ الرأي العام ينقلب على كينيدي.

اغتيال مارتن لوتر كنج في شيكاغو بعد شهر من سقوط سايجون، واتضح أن قاتله عميل مارق من مكتب التحقيقات الفدرالي اسمه دوايت هوللي، وقبل أن يُقتل هو نفسه، زعم أنه نفَّذ العملية بأمر من هوفر. اشتعلت شيكاغو. وكذلك مدن أمريكية أخرى.

انتخب جورج والاس رئيسًا، وبحلول ذلك الوقت بدأت الزلازل تشتد، عجز والاس إزاءها، فاكتفى بقصف شيكاغو حتى يُخضعها. قال هاري إن ذلك كان في يونيو 1969. وبعد سنة، عرض الرئيس والاس على هو تشي منه خيارين لا ثالث لهما: إما أن يجعل سايجون مدينة حرة مثل برلين، وإما أن يرى هانوي مدينة مئة مثل هيروشيما. رفض العم هو. إذا كان يظن أن تهديد والاس أجوف، فقد أخطأ الظن. صارت هانوي سحابة مُشعّة في التاسع من أغسطس 1969، بعد أربعة وعشرين عامًا من إلقاء هاري ترومان الرجل البدني⁽¹⁾ على ناغازاكي. نائب الرئيس

(1) لقب القنبلة النووية التي ألقيت على ناغازاكي في الحرب العالمية الثانية عام 1945. (المترجم)

كيرتس لوماي تولى الإشراف على المهمة شخصيًا. ثم قال والاس في خطاب للأمة إن ما فعله كان إرادة الرب. معظم الأمريكيين أيدوا القرار، وارتفعت شعبية والاس. لكن واحدًا على الأقل لم يؤيد ما حدث، كان اسمه آرثر بريمر، وفي الخامس عشر من مايو 1972، أُردي والاس قتيلاً في أثناء فعالية ضمن فعاليات حملة إعادة انتخابه بمركز تسوق في لوريل بولاية ماريلاند.

- ما نوع المسدس؟

- أظنه كان مسدس 38.

بالطبع. ربما كان خاصًا بالشرطة، لكن على الأرجح كان موديل فيكتوري، المسدس نفسه الذي أنهى حياة الشرطي تيبِت في وتر زماني آخر.

عندئذ بدأت أفقد تركيزي، وعبارة: لا بد أن أصحح هذا الوضع، لا بد أن أصحح هذا الوضع، لا بد أن أصحح هذا الوضع، بدأت تتردد مدوياً في رأسي.

تولّى هوبرت همفري الرئاسة عام 72. اشتدت الزلازل عنفًا. وارتفعت معدلات الانتحار في العالم كله. ازدهرت الأصوليات بأشكالها كافة. واستعر الإرهاب إثر انتعاش المتطرفين الدينيين. احتربت الهند وباكستان، وتصاعدت مزيد من سحب عش الغراب. بمومباي لم تصبح مومباي قط. أصبحت رمادًا مُشعًا.

وكذلك كراتشي. لم تتوقف الأعمال العدائية بين البلدين إلا عندما هددت روسيا والصين والولايات المتحدة بقصف كلتا الدولتين حتى تعودا إلى العصر الحجري.

في عام 1976 خسر همفري أمام ريغان خسارة مذلة، لم يفز همفري حتى بولايته مسقط رأسه مينيسوتا.

انتحر ألفا شخص انتحارًا جماعيًا في جونستاون بدولة غويانا.

في نوفمبر 1979، اجتاح طلاب إيرانيون السفارة الأمريكية في طهران ولم يتخذوا سناً وستين رهينة، بل مئتين. تدرجت الرؤوس على شاشة التلفاز الإيراني. وكان ريغان قد تعلم من جيم هانوي ما يكفي لاحتفاظه بأسلحته النووية في مخابئها، لكنه أرسل عددًا كبيرًا من الجنود. وبقية الرهائن ذُبحوا، بالطبع. ثم ظهرت جماعة إرهابية جديدة اسمها القاعدة، وبدأت تزرع القنابل في الشوارع في كل مكان. قال هاري: «كان الرجل يعرف إلقاء الخطابات الطويلة المملة لكنه كان جاهلاً بالإرهاب المتطرف».

التأم شمل فرقة البيتلز وأحيوا "حفل سلام". لكن انتحاريًا بين الحشد فجر سترته فقتل ثلاثمئة متفرج. وأُصيب بول مكارتني بالعمى. اشتعل الشرق الأوسط بعدها بوقت قصير.

انهارت روسيا.

وبدأت جماعة ما، على الأرجح من المنفيين الروس شديدي التعصب، تباع الأسلحة النووية للجماعات الإرهابية، بما فيها القاعدة.

قال هاري بصوته الأجش: «بحلول عام 1994، صارت حقول النفط هناك كأسطح زجاجية سوداء، من النوع الذي يتوهج في الظلام، لكن منذ ذلك الوقت أحرق الإرهاب نفسه بنفسه تقريبًا. فجر شخص ما قنبلة نووية في حقيبة بميامي قبل عامين، لكنها لم تكن فعالة، ستناقضي ستون أو ثمانون سنة قبل أن يحتفل أي أحد في الشاطئ الجنوبي، وبالطبع سيكون خليج المكسيك حساء كائنات بحرية ميتة، لكن عشرة آلاف شخص فقط ماتوا بالتسمم الإشعاعي. عندئذ لم يكن ما يجري في ميامي مشكلتنا، إذ صوتت ولاية مَين للانضمام إلى كندا، وإدارة كلنتون كانت سعيدة بالتخلص منا».

- بيل كلنتون هو الرئيس؟

- رباه، لا. كان اختياره في ترشيحات انتخابات 2004 مؤكّداً، لكنه مات بأزمة قلبية عند عقد المؤتمر. وحلّت زوجته محله. هي الرئيسة.

- هل تؤدي عملاً جيداً؟

لَوْح هاري بيده قائلًا: «لا بأس بها... لكن يتعذر إصدار تشريعات خاصة بالزلازل، وهي ما سيقضي علينا في النهاية».

من الأعلى سمعت صوت التصدُّع المائي مجددًا، فرفعت بصري، لكن هاري لم يحرك ساكنًا. سألته: «ما هذا؟».

قال: «يبدو أن لا أحد يعرف يا بُني. العلماء يتجادلون، لكن في هذه الحالة أظن أن الوعّاظ هم أصحاب الرأي السديد، يقولون إنه الرب يتأهب لهدم كل ما بنّته يداه، كما هدم شمسون معبد الفلسطينيين». شرب باقي كأسه، واكتسى خدّاه بحُمرة طفيفة... اللذان كانا، حسبما رأيت، خاليين من بثور الإشعاع. «في هذا الموضوع أظنهم ربما يكونون على صواب». قلت: «يا للهول».

نظر إليّ بهدوء: «هل سمعتَ ما يكفي من التاريخ يا بُني؟».

ما يكفيني حياةً كاملة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

4

قلت: «لا بد لي من الذهاب. هل ستكون بخير؟».

قال: «بخير إلى أن يصيبني مكروه. مثل جميع الناس». دقق النظر إليّ وسألني: «من أين ظهرتَ يا جيك؟ ولماذا أشعر بأنني أعرفك؟».

- ربما لأنّ كلّ منا يعرف ملاكه الطيب.

- هراء.

أردتُ أن أذهب. عمومًا توقعت أن تكون حياتي بعد العودة التالية أبسط بكثير. لكن أولًا، لأن هذا رجل طيب عانى معاناة شديدة في حياته الثلاث، اقتربت من المدفأة مرة أخرى وأخذت من الجدار إحدى الصور المؤطرة.

قال هاري نَزَقًا: «انتبه، هذه عائلتي».

قلت: «أعرف». وضعت الصورة بين يديه المعروقتين، صورة بالأبيض والأسود، بدت مكبرة من لقطة بكاميرا كوداك. «هل التقط والدك هذه الصورة؟ أسألك لأنه الوحيد غير الظاهر في الصورة».

ألقي علي نظرة فضول، ثم خفض عينيه إلى الصورة، وقال: «لا، هذه التقطتها جارة لنا في صيف 1958. أبي وأمي كانا منفصلين عندئذ».

تساءلت عما إذا كانت الجارة هي التي رأيتها تدخن وتغسل سيارة العائلة وترش الكلب بالماء. بطريقة ما تأكدت أنها هي. ومن غور سحيق في عقلي، كصوت منبعث من بئر عميقة، سمعت أصوات فتيات القفز على الحبل: «أبي يقود غواصة!».

تابع: «كان يعاني إدمان الكحول، وهذا لم يكن خطبًا جليلاً عندئذ، كثير من الرجال كانوا يسرفون في الشراب ويعيشون مع زوجاتهم تحت سقف واحد، لكن أبي كان يميل للعنف عندما يثمل».

قلت: «أراهن أنه كان كذلك».

نظر إلي مرة أخرى، نظرة أشد حدة، ثم ابتسم. معظم أسنانه تساقطت، لكن ابتسامته ظلت لطيفة بما يكفي. «لا أظنك تعرف ما تتحدث عنه، كم تبلغ من العمر يا جيك؟».

قلت: «أربعين». لكن بالتأكيد بدوت أكبر سنًا في تلك الليلة.

- مما يعني أنك وُلدت عام 1971.

في الحقيقة وُلدت في 1976، لكن لما استطعت إخباره بهذا دون مناقشة السنوات الخمس التي سقطت في جُحر الأرنب، كما سقطت أليس في بلد العجائب. قلت: «تخمين قريب. هذه الصورة التُقطت في منزل شارع كوسوث». ينطقها سكان ديري كوسوت.

نقرتُ على صورة إيلين الواقفة إلى يسار أمها، متذكِّراً النسخة البالغة منها التي تحدثتُ معها عبر الهاتف، فلنسمَّها إيلين 2.0 وتذكرتُ أيضاً إيلين دوكرتي، بالطبع، النسخة التناغمية التي عرفتُها في جودي. قلت: «لا يمكنني التأكد من هذه الصورة، لكنها كانت صهباء، أليس كذلك؟ نسخة مصغرة من لوسيل بول».

ظل هاري صامتاً، فاغراً فمه.

تابعت: «هل دخلتُ مجال الكوميديا؟ أم مجالاً آخر؟ الإذاعة أم التلفاز؟».

قال بصوت واهن: «تقدم برنامجاً موسيقياً في محطة سي بي سي التابعة لمقاطعة مين. لكن كيف...».

قلت مبتسماً: «هذا تروي... وأرثر، الملقب بـ "توغا"... وهذا أنت، والدتك تحيطك بذراعها، على نحو طبيعي تماماً». ليتهم استمروا على ذلك الحال، ليتهم!

- أنا... أنت...

- والدك قُتل، أليس كذلك؟

قال: «بلى». مالت الكانيولا في أنفه، فاستعدلها بيده ببطء كأنه رجل يحلم وعيناه مفتوحتان. وأردف: «أطلق عليه النار في مقبرة لونغفيو وهو يضع الزهور على قبري والديه، بعد بضعة أشهر من التقاط هذه الصورة. اعتقلت الشرطة رجلاً اسمه بيل تيركوت واتهمته بقتله...».

أوه، لم أتوقع هذا.

«... لكن استطاع إثبات وجوده في مكان آخر وقت وقوع الجريمة، فاضطروا إلى إطلاق سراحه. القاتل لم يُقبَض عليه قط». أمسك إحدى يدي وتابع: «سيدي... بُني... جيك... أعرف أن سؤالي هذا جنوني، لكن... هل أنت قاتل أبي؟».

أخذت الصورة منه وأعدتها إلى الجدار قائلاً: «لا تكن سخيًا. لم أُولد قبل عام 1971، أتتذكر؟».

5

سرتُ ببطء متجهاً جنوباً عبر الشارع الرئيسي، عائداً إلى المصنع المهدم ومتجر كويك-فلاش المهجور المنتصب أمامه. سرتُ خافضاً رأسي، متحاشياً البحث عن عديم الأنف وكاشف عجيزته وبقية الفرقة المرحلة. توقعت إذا ما زالوا في الجوار، فسيفسحون لي الطريق. حسبوني مجنوناً، وعلى الأرجح كنت مجنوناً.

كلنا مجانين هنا. هذا ما قاله القط شيشاير لأليس، ثم اختفى. عدا عن الابتسامة. ظلت الابتسامة مدة، حسبما أتذكر.

ازداد فهمي عندئذٍ. لم أفهم كل شيء، حتى رجال البطاقات لا أظنهم يفهمون كل شيء (وبعدما يقضون وقتاً في الخدمة، يكادون لا يفهمون شيئاً)، لكن هذا لم يساعدني على اتخاذ القرار الذي عليّ اتخاذه.

عند انحنائي أسفل السلسلة، انفجر شيء في مكان بعيد، لم أجفل عند سماعه. تخيلتُ الانفجارات صارت كثيرة ومألوفة. عندما يبدأ الناس فقدان الأمل، فالانفجارات حتمية.

دخلت الحمام الذي كان عند الجزء الخلفي من متجر البقالة وكدت أتعثر بسُترتي الجلدية، ركلتها جانباً، إذ لن أحتاج إليها حيث أنا ذاهب، وسرت ببطء فوق الصناديق المرصوفة التي تشبه متراس لي.

تناغمات لعينة.

حرَّكتُ بعض الصناديق حتى أصل إلى الركن، ثم أعدتها إلى مكانها خلفي. تقدمت خطوة تلو خطوة، متذكراً مرة أخرى إحساس المرء عند أعلى سلم في ظلام دامس. لكن هذه المرة لم أحس بدرجات سلم، بل ذلك الازدواج الغريب فحسب. تقدمت، ورأيت نصف جسدي السفلي يرتعش كأنه من ضوء، ثم أغمضت عيني.

خطوة أخرى، ثم أخرى، ثم شعرت بدفع على ساقي، وبعد خطوتين حوّل ضوء الشمس ما خلف جُفني من اللون الأسود إلى الأحمر. خطوت خطوة أخرى فسمعت الفرقعة بداخل رأسي، ثم سمعت شات - هوش، شات - هوش آلات النسيج.

فتحت عيني. نتانة الحمام القذر المهجور حلت محلها نتانة مصنع نسيج يعمل بطاقته القصوى في عام لم توجد فيه "وكالة حماية البيئة" بعد. وأسفل قدمي رأيت أرضية خرسانية مشققة بدلاً من بساط متقشر. إلى يساري سلال معدنية ضخمة مليئة بمخلفات الأقمشة ومغطاة بخيش، وإلى يميني سقيفة التجفيف.

الساعة الحادية عشرة وثمانية وخمسون دقيقة صباح التاسع من سبتمبر 1958. هاري دنغ صبي صغير، وكارولين بولين في الحصة الخامسة بمدرسة ليسبون الثانوية، ربما تستمع إلى الأستاذ، وربما تراودها أحلام يقظة عن فتى ما أو تتخيل خروجها للصيد مع والدها بعد شهرين. سيدي دنهل، لم تتزوج بعد بصاحب المكنسة، وتعيش في جورجيا. لي هارفي أوزوالد في بحر الصين الجنوبي مع وحدته من قوات المارينز. وجون كينيدي سيناتور من ولاية ماساتشوستس، يحلم أحلاماً رئاسية.

عُدت.

سرت نحو السلسلة وانحنيت تحتها. وعلى الجانب الآخر وقفتُ ساكنًا لحظة، مستعيدًا في ذهني ما سأفعله. ثم سرت إلى نهاية سقيفة التجفيف، وانعطفت، فرأيت رجل البطاقة الخضراء متكئًا على السقيفة. إلا أن بطاقة زاك لانغ لم تعد خضراء، صار لونها أصفر معتكرًا، مزيج غير متجانس بين الأخضر والأصفر، ورأيت معطفه الثقيل الذي لا يناسب الطقس مغبرًا، وقبعته بدت رثة ومنهزمة على نحوٍ ما. وخذاه الحليقان سابقًا كستهما لحية نابثة... بعض شعيراتها بيضاء. وعيناه محتقنتان بالدماء. لم يبدأ معاقرة الكحول بعد، على الأقل لم أشم أي رائحة، لكن توقعت أن يبدأ عما قريب، فالواجهة الخضراء ضمن حدود دائرة عملياته، ومتابعة كل تلك الأوتار الزمنية بذهنه أمر مؤلم بلا ريب. متابعة عدة أزمنة في الماضي أمر عسير بما يكفي، لكن عندما يضاف إليها عدة أزمنة في المستقبل... للجأ أي أحد إلى الشراب، إذا وجده في متناوله.

كنت قد أمضيت ساعة في 2011، ربما أكثر قليلًا. كم انقضى من وقت حيث كان رجل البطاقة الخضراء؟ لم أعرف. لم أرغب في أن أعرف. قال: «حمداً للرب!». كما قال المرة الماضية. لكن عندما تقدم نحوي ليصافحني بكلتا يديه، تراجعُ، إذ صارت أظفاره طويلة ومسودة بالأوساخ، وارتعشت أصابعه، كانت يدا رجل على حافة الإدمان، وكذلك المعطف والقبعة والبطاقة المثبتة بطرف القبعة.

قال: «تعرف ما عليك فعله».

- أعرف ما تريد مني فعله.

- إرادتي لا علاقة لها بالأمر. عليك أن تعود مرة أخيرة، إذا صار كل شيء على ما يرام، فستخرج في المطعم، عما قريب لن يعود في

مكانه، وعندما يحدث ذلك، ستنفجر الفقاعة التي تسببت في كل هذا الجنون. استمرار وجودها كل هذه المدة معجزة. عليك أن تغلق الدائرة.

مد يده نحوي مجددًا، وهذه المرة لم أترجع فحسب، بل استدردت وركضت نحو موقف السيارات، فركض خلفي. اقترب مني بسبب ركبتى المصابة، سمعته خلفي مباشرة وأنا أتجاوز البليماوث فيوري، نسخة مطابقة للسيارة التي رأيتها وصرفت النظر عنها ذات ليلة في فناء بيت ضيافة كاندلود. ثم وصلت إلى تقاطع الشارع الرئيسي مع شارع لويستون القديم، وعلى الجانب الآخر رأيت المراهق الصعلوك مستندًا بحذائه إلى جدار كنك فروت.

ركضت عابرًا السكة الحديدية، قلقًا من خذلان ساقى المصابة، لكن لانغ هو من تعثر وسقط، سمعته يصيح صيحة يأس ووحدة، فأحسست بالشفقة عليه. الرجل عمله عسير. لكن لم أسمح لشفقتي بإبطائي. إملاءات الحب لا تعرف الرحمة.

ظهرت حافلة لويستون إكسبرس، واندفعت عابرًا التقاطع فأطلق السائق بوقه بعنف. تذكرت حافلة أخرى، مكتظة بأناس زاهبين لرؤية الرئيس، وزوجة الرئيس بالطبع، ذات البدلة الوردية، والورود بينهما على مقعد السيارة، ليست صفراء، بل حمراء.

- جيملًا، عد إلى هنا!

أجل، كنتُ الجيملًا، الوحش الذي رأيته روزيت تمبلتون في كابوسها. عرجت متجاوزًا كنك فروت، مبتعدًا كثيرًا عن رجل البطاقة الترابية المُصفرة. رأيت أنني سأفوز بهذا السباق. كنت جيك إبنغ، الأستاذ بمدرسة ثانوية، وكنت جورج أمبرسون، الروائي الطموح، وكنتُ الجيملًا، الذي يعرض العالم بأكمله للخطر بكل خطوة يخطوها. رغم ذلك واصلت الركض.

فكرت بسيدي، وتذكرت طولها ولطفها وجمالها، وواصلت الركض. سيدي كثيرة التعرض للحوادث، التي ستتعثّر برجل اسمه جون كلايتون، وإثر تعثرها بها سيصيبها بأكثر من مجرد كدمات على ساقها. لا بأس بالتضحية بالعالم في سبيل الحب... قالها شاعرٌ ما.

توقفت جوار تايّتس شيفرون، لاهثاً. ورأيت قبالة الشارع البيتّنك مالك "الفيل الأبيض المبتهج" يدخن غليونته وينظر إليّ. وقف رجل البطاقة الترايبية المصفرة عند مدخل زقاق خلف كنبك فروت. بدا أنه بلغ حدود دائرته.

رفع يديه نحوي، ثم خر على ركبتيه وشابك يديه أمامه، فبدا أشد إثارة للشفقة.

- أرجوك لا تفعل هذا! لا بد أنك تعرف الثمن!

كنت أعرفه، وهرعت مبتعداً رغم ذلك. وجدت كابينة هاتف عند تقاطع شارع خلف كنيسة سان جوزيف، أغلقت نفسي بداخلها، وفتحت دليل الهاتف، وأدخلتُ دايم.

وعندما جاءت سيارة الأجرة، كان السائق يدخن سجائر لافي ومذايعه مضبوط على محطة ديليو جيه أيه بي. التاريخ يعيد نفسه.

ملاحظات أخيرة

1958/9/30

أقمت بالوحدة السكنية رقم 7 بنزل تاماراك.

دفعْتُ بنقود أخرجْتُها من محفظة جلد نعام أعطاني إياها صاحبٌ قديم. نقود بقيت معي، كما بقي اللحم الذي اشتُرِي من سوبرماركت ريد أند وايت والقمصان التي اشتُرِيت من محل ماسون للملابس الرجالية. إذا كانت كل رحلة تعيد الوضع إلى ما كان عليه، فهذه الأشياء ينبغي ألا تبقى، لكن كل رحلة لا تعيد الوضع إلى ما كان عليه تمامًا، والأشياء تبقى. النقود ليست من آل، لكن على الأقل سمح لي العميل هوستي بالهروب، وهذا قد يكون أمرًا جيدًا للعالم. أو ربما لا يكون. لا أدري.

غداً سيكون اليوم الأول من أكتوبر. في ديري أطفال دننغ متشوقون للهاوين ويفكرون في أزيائهم. إيلين، الصهباء الظريفة المرحّة، تخطط للخروج بزي الأميرة سمر فول وِنترسبرينغ، لكن لن تخرج. إذا ذهبْتُ إلى ديري اليوم، فيمكنني أن أقتل فرانك دننغ وأخلّصها من التفكير في الهاوين، لكنني لن أذهب. ولن أذهب إلى دُرم لإنقاذ كارولين بولين من رصاصة آندي كَلَم الطائشة. يبقى السؤال، هل سأذهب إلى جودي؟ لا يمكنني إنقاذ كينيدي، هذا أمرٌ مفروغ منه، لكن هل يمكن أن يكون التاريخ المستقبلي للعالم هُشاً إلى درجة لا تسمح لأستاذي مدرسة

ثانوية باللقاء والوقوع في الحب؟ والزواج، والرقص على ألحان أغاني
لفرقة البيتلز مثل «أود أن أمسك بيدك» وعيش حياة عادية؟
لا أعرف، لا أعرف.

ربما لا ترغب سيدي في أي علاقة بي. لم نعد في الخامسة والثلاثين
والثامنة والعشرين من عُمرينا، هذه المرة سأكون في الثانية أو الثالثة
والأربعين، وهي في سنّها السابقة نفسها. حتى إن مظهري يجعل سني
أكبر من ذلك. لكنني أومن بالحب، كما تعرفون، الحب له مفعول السحر.
لا أومن بأنه مُقدَّر، لكن أومن بأن الدم ينجذب للدم والعقل ينجذب
للعقل والقلب للقلب.

سيدي ترقص رقصة ماديسون، ضاحكة، وخذاها محمراً.

سيدي تطلب مني لعق شفّتيها مرة أخرى.

سيدي تسألني عما إذا كنت أريد الدخول لتناول كعكة.

رجل واحد وامرأة واحدة. أهذا مطلب كبير؟

لا أدري، لا أدري.

ربما تتساءلون، ماذا فعلت هنا بعد وصولي وقد نَحِيتُ جناحي
الملاك الطيب جانباً؟ كتبتُ. لدي قلم حبر، أعطاني إياه مايك وبوبي
جيل، تتذكرونهما. ذهبت إلى مركز تسوق، واشترت عشر عبوات حبر.
حبر أسود يناسب مزاجي. واشترت أيضاً قرابة عشرين مفكّرة. كل
المشتريات كلّفتني سبعة عشر دولاراً وتسعة عشر سنتاً. هل ستتسبب
هذه المشتريات في إضلام العام وخرابه؟ ماذا سيحدث للبائع الذي تغير
مساره بلقائنا الوجيه؟

لا أعرف، لكن أعرف هذا: ذات يوم أتحتُ للاعب كرة قدم بمدرسة
ثانوية فرصةً للتألّق في مجال التمثيل، وتعرضت خليلته للتشويه. لكم

أن تقولوا إنني لم أكن مسؤولاً عن ذلك، لكننا نعرف الحقيقة، أليس كذلك؟ الفراشة تفرد جناحها.

لثلاثة أسابيع ظللت أكتب يوميًا، اثنتي عشرة ساعة في بعض الأيام، وأربع عشرة في أيام أخرى. لم ينقطع صريف قلمي. وألمتني يدي، فوضعتها في ماء بارد، ثم كتبت المزيد. في بعض الليالي كنت أذهب إلى سينما سيارات ليسبون، حيث يقدمون أسعارًا خاصة لمن ليس لديهم حجز تذاكر سابق: ثلاثون سنتًا. جلست على أحد المقاعد القابلة للطي أمام الكافتريا وجوار ملعب أطفال. شاهدت ذا لونغ هوت سمر مجددًا، وشاهدت ذا بريدج أون ذا ريفر كواي وساوث باسفيك. وفيلمَي الرعب ذا فلاي، وذا بلوب. وتساءلت عما أغَيَّرَه. إذا أبعدتُ حشرة من أمام وجهي أتساءل عما سيتغيَّر بعد عشر سنوات، أو عشرين، أو أربعين.

لا أعرف، لا أعرف.

إليكم أمر آخر أعرفه: الماضي عنيد للسبب نفسه الذي يجعل صدفة السلحفاة صلبة: اللحم الحي بالداخل غض وعاجز عن الدفاع عن نفسه. وأمر آخر. الخيارات والاحتمالات المتعددة في حياتنا اليومية هي الموسيقى التي نرقص على إيقاعها. إنها كأوتار جيتار. نحرك أصابعنا عليها، فنسمع صوتًا جميلًا، نغمة. ثم نبدأ إضافة الأوتار، عشرة أوتار، مئة وتر، ألف، مليون. لأنها تتضاعف! هاري لم يعرف ماهية أصوات التصدُّع المائية، لكنني متأكد إلى حدٍّ ما أنني أعرفها، إنها أصوات أنغام كثيرة جدًا صادرة من أوتار كثيرة جدًا.

إذا غَنَيْنَا نغمة "دو" بصوت عالٍ بما يكفي يمكن أن نشظِّي كرة بلورية. وإذا شَغَلْنَا نغمات بعينها عبر جهاز ستريو عالٍ بما يكفي يمكن أن نشظِّي زجاج نافذة. وعلى هذا النحو، من وجهة نظري على الأقل، إذا أضفنا عددًا كبيرًا من الأوتار إلى آلة الزمن، يمكننا أن نشظِّي الواقع.

لكن كل انتقال إلى الماضي لا يعيد الوضع كاملاً إلى ما كان عليه سابقاً، إنما يكاد أن يكون كاملاً. يترك بقايا بالطبع. هذا ما قاله رجل البطاقة الترايبية المصفرة، وأصدقه. لكن إذا لم أحدث أي تغييرات كبيرة... إذا لم أفعل شيئاً سوى الذهاب إلى جودي ومقابلة سيدي للمرة الأولى مجدداً... إذا حدث أن وقعنا في الحب...

أريد حدوث ذلك، ولحدث على الأرجح إذا حاولت. الدم ينجذب إلى الدم. سترغب في إنجاب أطفال. وأنا أيضاً. أقول لنفسني إن إنجاب طفل واحد لن يحدث أي فرق، أو لن يحدث فرقاً كبيراً. أو حتى طفلين، أو ثلاثة. (هذه كانت حقبة العائلات الكبيرة). سنعيش بهدوء، ولن نحدث أي أثر.

إلا أن كل طفل يحدث أثراً.

حتى أنفاسنا تحدث أثراً.

قال رجل البطاقة الترايبية المصفرة: عليك أن تعود مرة أخيرة. عليك أن تغلق الدائرة. رغبتك لا محل لها هنا.

هل يُعقل أنني أفكر بتعريض العالم -وربما الواقع نفسه- للخطر من أجل المرأة التي أحب؟ هذا يجعل جنون لي تافهاً.

الرجل صاحب البطاقة المثبتة تحت حافة قبعته ينتظرني بجانب سقيفة التجفيف. أستشعر وجوده هناك. ربما لا يبث مويجات أفكار، لكنني أشعر بأنه يفعل. عُد إلى هنا. ليس بالضرورة أن تكون الجيمل. لم يُفت الأوان على أن تكون جيك مجدداً، وتكون الرجل الطيب، الملاك الطيب. دعك من إنقاذ الرئيس، أنقذ العالم، أنقذه قبل فوات الأوان.

نعم.

سأنقذه.

على الأرجح سأنقذه.

غداً.

غداً لن يكون الأوان قد فات، أليس كذلك؟

1958/10/1

ما زلت في نزل تاماراك، وما زلت أكتب.

شكوكي بشأن كلايتون كانت أشد ما يؤرقني. هو من شغل تفكيرني وأنا أفك قلبي وأرغب فيه آخر عبوات الحبر، وهو من يشغل تفكيرني الآن. إذا تأكدت أن سيدي ستكون آمنة من ناحيته، أظنني قد أقدر على التخلي. إذا سحبْتُ نفسي من المعادلة، فهل سيذهب جون كلايتون إلى منزل سيدي بجادة بي تري؟ ربما رؤيته لنا معاً هي ما أفقدته صوابه تماماً. لكنه كان قد تعقبها إلى تكساس قبل أن يعلم بأمر علاقتنا، وإذا تعقبها مرة أخرى، فهذه المرة ربما يقتلها بدلاً من الاكتفاء بجرح خدها. وقطعاً أنا وديكي لن نكون حاضرين لإيقافه.

أو ربما كان يعلم بأمر علاقتنا. ربما راسلت سيدي صديقة لها في سافنا، وربما أخبرت صديقتها صديقة أخرى، وهكذا وصل خبر أن سيدي تقضي وقتها مع رجل -لا يعرف استخدامات أخرى للمكنسة- إلى زوجها السابق. إذا لم يحدث أيُّ من ذلك لأنني لم أكن موجوداً، فستكون سيدي بخير.

خياران أحلاهما مُر.

لا أدري، لا أدري.

الطقس صار خريفيّاً.

1958/10/6

ذهبت إلى سينما السيارات ليلة أمس. كانت آخر عطلة نهاية أسبوع يعرضون فيها أفلاماً. يوم الاثنين سيعلّقون اللافتة التي تقول: مغلق.. نهاية الموسم، ويضيفون ما معناه: متعة مضاعفة في 1959! برنامج

العرض الأخير اشتمل على كرتون بني باغز وفيلمَي رعب آخرين، ماكبر وزا تِنغَلر. اقتعدتُ كرسِيَّي القابل للطَي المعتاد وشاهدت ماكبر دون أن أشاهده فعلاً. كنت أشعر بالبرد. وكانت لدي نقود كافية لشراء معطف، لكن عندئذٍ صرت أخشى شراء أي شيء. ظلت أفكر بالتغييرات التي قد أسببها.

وعندما انتهى الفيلم الأول، ذهبت إلى الكافتريا، أردت قهوة ساخنة (قائلاً لنفسِي: هذه لا يمكن أن تُحدث تغييرًا كبيرًا، وقائلاً لنفسِي أيضًا: وما أدراك؟). وعندما خرجتُ لم أجد سوى طفلة واحدة في ملعب الأطفال الذي عادة ما يكون ممتلئًا في أوقات الاستراحة قبل شهر فقط. كانت ترتدي سترة جينز وبنطالًا أحمر، وتقفز على حبل. بدت شبيهة بروزيت تمبلتون.

سمعتها تهزج: «مشيت في الطريق، الطريق موحل. جُرحت إصبع قدمي، نزت إصبع قدمي. كلكم هنا؟ أحسبوا اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة! حُبِّي الحقيقي فراشة!».

لم أستطع البقاء. صرت أرتجف بشدة.

ربما بمستطاع الشعراء قتل العالم في سبيل الحب، لكن الناس العاديين أمثالي لا يستطيعون. قررت أن أعود غدًا، إذا وجدت جُحر الأرنب في مكانه. لكن قبل أن أذهب...

القهوة لم تكن الشيء الوحيد الذي اشتريته من الكافتريا.

1958/10/7

الصندوق المزود بقفل الذي اشتريته من محل ويسترن أوتو على السرير، مفتوح. والمجرفة في خزانة الملابس (ليست لدي فكرة عما ظنَّته الخادمة بشأنها). كاد الحبر أن ينفد من القلم، لكن لا بأس، بقيت لي صفحتان أو ثلاث. سأضع أوراق الكتاب في الصندوق، ثم أدفنه جوار البركة التي ألقيت فيها هاتفَي الجوال. سأدفنه عميقًا في التراب

الداكن الناعم. يومًا ما ربما يعثر عليه شخصٌ ما. ربما تعثر عليه أنت. إذا وُجدَ مستقبل، ووُجِدَتَ أنت. هذا أمر سأكتشفه عما قريب.

أقول لنفسي (بخشية وأمل) إن الأسابيع الثلاثة التي أمضيتها في نزل تاماراك لا يمكن أن تتغير الكثير. آل أمضى أربع سنوات في الماضي وعاد إلى حاضرٍ سليم... لكنني أعترف بأنني تساءلت عن احتمال صلته بمجزرة مركز التجارة العالمي أو زلزال اليابان الكبير. أقول لنفسي ما من صلة... لكن ما زلت أتساءل.

ويجدر بي إخباركم أيضًا بأنني لم أعد أرى عام 2011 حاضرًا. فيليب نولان⁽¹⁾ كان رجلًا بلا وطن، وأنا رجل بلا إطار زمني. أظنني سأكون هكذا دومًا. حتى إذا ما زال عام 2011 موجودًا ولم يتأثر كثيرًا، فسوف أظل فيه غريبًا زائرًا.

بجانبني على المكتب بطاقة بريدية عليها صورة سيارات واقفة أمام شاشة كبيرة، نوع البطاقات الوحيد الذي يبيعونه في كافتريا سينما سيارات ليسبون. كتبتُ الرسالة، وكتبت العنوان: السيد ديكون سيمونز، مدرسة جودي الثانوية، جودي، تكساس. هممتُ بكتابة مدرسة دنهولم الثانوية الموحدة، لكن التسمية لن تتغير قبل السنة التالية أو التي تليها. كتبت في الرسالة:

عزيزي ديكى، عندما تصل أمانة المكتبة الجديدة، انتبه لها، ستحتاج الفتاة إلى ملاك طيب، تحديدًا في أبريل 1963. أرجوك صدّقني.

(1) شخصية خيالية في قصة قصيرة عن ضابط شاب، يُتَّهم بالخيانة، ويُعلن في أثناء محاكمته أنه يكره بلاده ويتمنى ألا يراها أو يسمع عنها أبدًا، فيحكم القاضي عليه بأن يُنفى في سفن البحرية الأمريكية وألا تطأ قدميه أرض بلاده أو يسمع عنها شيئًا أبدًا. القصة اسمها "رجل بلا وطن" The Man without a Country، مؤلفها إدوارد هيل، نُشرت عام 1863. (المترجم)

أسمعُ رجل البطاقة الترابية المصفرة يهمس: لا يا جيك، إذا كان من المفترض أن يقتلها جون كلايتون ولا يفعل، فستحدث تغييرات... وكما رأيتَ بنفسك، التغييرات لا تكون للأفضل أبدًا. مهما كانت نياتك طيبة. أقول له: لكنها سيدي! إنها سيدي، وأنا أحبها! كيف أقف مكتوف الأيدي وثمة احتمال أن كلايتون سيقتلها؟ ورغم أنني لم أكن يومًا رجلًا يمكن وصفه بأنه كثير البكاء، تسيل دموعي، تؤلمني، تحرقني.

الرد عنيد كالماضي نفسه: أغلق الدائرة.

أمزق البطاقة البريدية، وأضعها في منفضة السجائر بالغرفة، وأضرم فيها النار. ما من إنذار حريق يُخبر العالم بما فعلته. لا شيء سوى نشيجي المبحوح. أحس كأنني قتلتها بيدي. قريبًا سأدفن الصندوق وأوراقه بداخله، ثم سأعود إلى ليسبون فولز، حيث سيسعد رجل البطاقة الترابية برؤيتي أيما سعادة. لن أطلب سيارة أجرة، بل أعتمد مشي المسافة كلها، تحت النجوم. أظنني أريد أن أودع. القلوب لا تنفطر حقًا. ليته تنفطر!

الآن لن أذهب إلى أي مكان سوى فراشي، حيث سأضع وجهي المبلل على الوسادة وأبتهل لرب لا أومن به تمامًا أن يرسل إلى سيدي ملاكًا طيبًا حتى تعيش، وتحب، وترقص.

وداعًا سيدي.

لم تعرفيني قط، لكنني أحبك يا عزيزتي.

مواطنة القرن (2012)

1

أتخيّل أن موطن الفاتبرغر الشهير قد اختفى، وحل محله إل. إل. بين إكسبرس، لكنني غير متأكد، فهذا أمر لم أكلّف نفسي عناء التحقق منه عبر الإنترنت. كل ما أعرفه هو أنه كان موجودًا عندما عدتُ من مغامراتي، والعالم من حوله أيضًا. حتى الآن، على الأقل.

لا أعرف أمر بين إكسبرس لأن ذلك كان آخر يوم لي في ليسبون فولز. عدت إلى منزلي في ساباتوس، ونمتُ نومًا كافيًا، ثم حُزمت حقيبتَي سفر وقطعتي وقُدت سيارتي جنوبًا. توقفت للتزود بالوقود في بلدة صغيرة بولاية ماساتشوستس اسمها ويستبروه، ورأيت أنها جيدة بما يكفي لرجل دون تطلعات أو أهداف محددة في حياته.

أمضيت الليلة الأولى في نُزل ويستبروه هامبتون، وجدتُ فيه واي-فاي، واتصلت بالإنترنت، وقلبي يخفق بشدة راسمًا بُقعًا في مجال بصري، وراست موقع صحيفة دالاس مورننغ نيوز الإلكتروني. وبعدما أدخلتُ رقم بطاقتي الائتمانية (عملية تطلّبتُ عدة محاولات بسبب ارتعاش أصابعي)، تمكّنتُ من الاطّلاع على أرشيف الصحيفة. وجدت قصة المعتدي المجهول الذي حاول إطلاق النار على إدوين ووكر في عدد 11 أبريل 1963، لكن لم أجد خبرًا عن سيدي في عدد 12 أبريل، ولا في الأسبوع التالي، ولا الذي يليه. واصلت البحث.

2

مريض عقلي يعتدي على زوجته السابقة، ثم ينتحر

بقلم: إرني كالفرت

(جودي) ديكون "ديكي" سيمونز البالغ من العمر 77 عامًا وإيلين دوكرتي مديرة مدرسة دنهولم الثانوية الموحدة وصلا متأخرين في ليلة يوم الأحد فلم يستطيعا إنقاذ سيدي دنهل من إصابة بالغة، لكن لكان مصير أمينة المكتبة ذات الربيع الثامن والعشرين أسوأ لولا تدخل سيمونز ودوكرتي.

وفقًا لدوغلاس ريمز، مأمور بلدة جودي: «إذا لم يصل ديكي وإيلي عندئذٍ لقتلت الأنسة دنهل على الأرجح».

ذهب الأستاذان حاملين كسرولة تونة. كلاهما لم يرغب في الحديث عن تدخلهما البطولي. لم يقل سيمونز سوى: «ليتني استطعت الوصول في وقت أبكر».

ووفقًا للمأمور ريمز، تغلب سيمونز على الشاب جون كلايتون، القادم من سافنا، جورجيا، بعدما ألقت السيدة دوكرتي الكسرولة عليه، لتشتت انتباهه. انتزع سيمونز منه مسدسًا صغيرًا. وعندئذٍ أخرج كلايتون المديرة وجرح بها وجه زوجته ثم شق بها حلقه. حاول سيمونز ودوكرتي إيقاف النزيف، لكن بلا جدوى. أعلن موت كلايتون في موقع الجريمة.

أخبرت السيدة دوكرتي المأمور ريمز بأن كلايتون ربما كان يترصد زوجته السابقة منذ شهور، وأساتذة دنهولم المتحدة أخطروا بأن زوج الأنسة دنهل السابق ربما يكون خطرًا، والأنسة دنهل نفسها أعطتهم صورة لكلايتون، لكن المديرة دوكرتي قالت إنه غير مظهره.

نُقلت الأنسة دنهل بسيارة إسعاف إلى مستشفى باركلاند التذكاري في دالاس، حيث قيل إن حالتها مستقرة.

3

لم أكن يومًا رجلًا كثير البكاء، لكنني عوّضْتُ بكاء كل السنوات الماضية في تلك الليلة، بكيت حتى نمت، ولأول مرة منذ زمن طويل نمت نومًا عميقًا مريحًا.

عاشت.

بقيت على قيد الحياة.

ستظل الندبة على وجهها طوال حياتها، بالتأكيد، لكنها بقيت على قيد الحياة.

أجل، أجل، على قيد الحياة.

4

العالم ما زال موجودًا، وما زال يتناغم... أو ربما أنا من جعله يتناغم. عندما نسبَّب التناغم بأنفسنا، أظننا نسميه عادة. التحقْتُ بالعمل مدرسًا بديلًا بمدارس ويستبروه، ثم عملت بدوام كامل. لم يفاجئني أن مدير المدرسة الثانوية المحلية مهووس بكرة القدم اسمه بورمان... اسم مدرِّب نفسه عرفته في مكان آخر ذات يوم. بقيت على تواصل مع أصدقائي القدامى في ليسبون فولز لبعض الوقت، ثم انقطعت عنهم. هكذا الحياة.

تفقدتُ أرشيف صحيفة مورننغ نيوز الصادرة في دالاس مرة أخرى، وعثرت على عنوان صغير في عدد 29 مايو 1963: أمينة مكتبة جودي تغادر المستشفى. كان خبرًا موجزًا شحيح المعلومات، لم يُذكر

شيء عن حالتها ولا خططها المستقبلية، ولم تُرفق صورة لها. الفقرات المدفونة في الصفحة رقم 20، بين إعلانات الأثاث المخفّض وفرص عمل البيع بالتنقل من باب إلى باب، لا ترافقها صور أبدًا. من أبرز بديهيات الحياة. مثلما لا يرن الهاتف أبدًا إلا عندما يكون المرء في الحمام.

في العام التالي لعودتي إلى عالم الحاضر، أثرت تحاشي بعض موضوعات البحث والمواقع الإلكترونية. راودتني الرغبة بالطبع. لكن الإنترنت سيف ذو حدين. مقابل كل معلومة يعثر عليها المرء فيجد فيها عزاءً وراحة -مثل اكتشاف أن المرأة التي أحبّها نجت من زوجها السابق المجنون- ثمة معلومتان تكذّرانه وتؤلّمانه. كل من يبحث عن خبر عن شخص بعينه ربما يكتشف أن ذلك الشخص مات بحادث، أو بسرطان الرئة نتيجةً للتدخين، أو انتحر، على الأرجح بمزيج من الكحول والأقراص المنومة.

تخيّلْتُ سيّدي وحدها، لا أحد معها يوقظها ويدخلها إلى حمام بارد. لم أرغب في معرفة هذا إذا حدث.

استخدمت الإنترنت لتحضير دروسي، واستخدمته للاطلاع على قوائم الأفلام، ولمشاهدة الفيديوهات الرائجة مرة أو مرتين أسبوعيًا. لم أستخدمه للبحث عن خبر عن سيّدي. لاشتد الإغراء إذا كانت لجودي صحيفة، لكن لم تكن لجودي صحيفة خاصة بها في الماضي وبالتأكيد لم يُصدروا صحيفة الآن، في هذا الزمن الذي يشهد اختناق الصحافة المطبوعة إثر هيمنة الإنترنت. إضافة إلى ذلك، ثمة مقولة قديمة: لا تتلصّص عبر الثقوب، حتى لا ترى ما لا يُرضيك. وهل وُجد في التاريخ البشري ثقب أكبر من الإنترنت؟

نجتُ من كلايتون. قلت لنفسي إن من الأفضل أن تتوقف معرفتي بأحوال سيّدي عند هذا الحد.

لربما توقفت عند ذلك الحد، إذا لم تحضر طالبة منقولة صف اللغة الإنجليزية المتقدم الذي أدرّسه. حدث هذا في أبريل 2012، ربما 10 أبريل، في الذكرى التاسعة والأربعين لمحاولة اغتيال إدوين ووكر. كان اسم الطالبة إيرين توليفر، انتقلت أسرتها إلى ويستبروه من كيلين، تكساس.

عرفتُ كيلين، البلدة التي اشتريت منها واقيات ذكرية، من صيدلي ذي ابتسامة شخص عالم ببواطن الأمور، نصحني: "لا تفعل أمرًا مخالفًا للقانون يا بُني". كيلين حيث أمضيت مع سيّدي كثيرًا من الليالي الجميلة في بيت ضيافة كاندللود.

كيلين التي تصدر فيها صحيفة اسمها *نا ويكلي جازيت*.

في أثناء أسبوع إيرين الثاني من الدروس، بحلول ذلك الوقت كانت قد كسبت عدة صديقات وسحرت عدة فتية وتناقلن جيدًا في بيئتها الجديدة، سألتها عما إذا كانت *نا ويكلي جازيت* ما زالت تصدر. أشرق وجهها وسألتني: «هل ذهبت إلى كيلين يا أستاذ إبنغ؟».

قلت: «ذهبت قبل مدة طويلة». وقولي هذا لما تسبّب في ارتعاش إبرة جهاز كشف الكذب ولو ارتعاش طفيفة.

- ما زالت تصدر. كانت أُمّي تقول إنها لا تشتريها إلا لتغلّف بها السمك.

- هل ما زالت تشتمل على عمود "أحوال جودي"؟

قالت ضاحكة: «تشتمل على عمود "أحوال" لكل بلدة صغيرة جنوب دالاس. أراهن أنك ستجدها على الإنترنت إذا احتجت إليها. كل شيء موجود على الإنترنت».

كانت محقة تمامًا بشأن ذلك، وصمدتُ أسبوعًا واحدًا تحديدًا. أحيانًا تتعذر مقاومة إغراء الثقب.

6

ما اعتزمتُ فعله كان بسيطًا: أدخل الأرشيف (مفترضًا أن ذا ويكلي جازيت لديها أرشيف) وأبحث عن اسم سيدي. كنت مدرّكًا أنني لا يجدر بي فعل ذلك، لكن إيرين توليفر دون قصد منها حرّكت بداخلي مشاعر كادت أن تهمد، فعرفتُ أنني لن يهدأ لي بال حتى أتُحقق. اتضح لي أن الأرشيف لم يكن ضروريًا. لم أَعثر على ما أبحث عنه في عمود "أحوال جودي"، بل في الصفحة الأولى من العدد الحالي.

كان العنوان الرئيسي: جودي تختار "مواطن القرن" في احتفالات يوليو المئوية. والصورة المرفقة أسفل العنوان... صارت في الثمانين من عمرها الآن، لكن بعض الوجوه لا تُنسى. ربما اقترح المُصوّر عليها إدارة رأسها لإخفاء جانب وجهها الأيسر، لكن سيدي واجهت الكاميرا مباشرة. ولمَ لا؟ صارت الندبة قديمة، والجرح سبَّبه رجلٌ أُودِعَ قبره قبل سنوات عديدة. رأيتُ أن الندبة أضفت سمة مميزة لوجهها، لكنني متحيّز بالطبع. في عين المُحب، حتى ندوب الجدري تبدو جميلة كالغُمَازات.

وفي نهاية يونيو، بعد انتهاء العام الدراسي، حُزمتُ حقيبة سفر ومرة أخرى اتجهت إلى تكساس.

7

عند الغسق في أمسية صيفية في بلدة جودي بولاية تكساس، صارت البلدة أكبر مما كانت في عام 1963، لكن ليس كثيرًا، وجدتُ مصنع صناديق في جزء البلدة الذي كانت تعيش فيه سيدي دنهل بجادة بي تري، وصالون الحلاقة اختفى، ومحطة خدمة سيتيز سيرفس حيث كنت

أزود سيارتي الصنلاينر بالوقود صارت محل سفن إلفن، ورأيت محل سبواي حيث كان آل ستيفنز يبيع البرونغبرغر وشرائح بطاطس بتوابل مسكيت.

انتهت الخطابات التي تحتفي بمئوية جودي، والكلمة التي ألقتها المرأة التي اختارتها الجمعية التاريخية ومجلس البلدة مواطنة القرن كانت موجزة ولطيفة، أما كلمة العمدة فكانت مطولة لكن زاحرة بالمعلومات. عرفت أن سيدي نالت منصب العمدة لفترة انتخابية واحدة، وأربع فترات بالمجلس التشريعي لولاية تكساس، لكن هذه كانت أقل إسهاماتها. قدّمت أعمالاً خيرية، وبذلت جهوداً متواصلة لتطوير جودة التعليم في مدرسة دنهولم الثانوية الموحدة، وأمضت عطلة السنة متطوعة في نيو أورلينز في أعقاب إعصار كاترينا. وشاركت في برنامج مكتبة ولاية تكساس للطلاب المكفوفين، وفي مبادرة لتحسين الخدمات الطبية لقدامى المحاربين، وبذلت جهوداً (مستمرة حتى في الثمانين من عمرها) لتقديم خدمات حكومية أفضل لذوي الأمراض العقلية من الفقراء. في عام 1996 عُرضت عليها فرصة الترشح للكونغرس، لكنها رفضت، قائلة إن أمامها عملاً كثيراً في مجتمعها المحلي.

لم تتزوج مرة أخرى. ولم تغادر جودي قط. ما زالت طويلة، جسدها لم تحنه هشاشة العظام. وما زالت جميلة. شعرها الأبيض الطويل ينساب على ظهرها إلى خصرها تقريباً.

انتهت فقرة الخطابات، وأُغلق الشارع الرئيسي. عُُلِّقت لافتتان عند طرفي منطقة المحلات التجارية للإعلان عن:

حفل راقص في الشارع. من السابعة مساء حتى منتصف الليل!

كلُّكم مدعوون!

سيدي محاطة بالمهنيين، بعضهم أظنني ما زلت أتذكرهم. أسير إلى منصّة مُنسّق الموسيقى أمام ما كان محل ويسترن أوتو والآن

صار اسمه والغرينز. الرجل الذي يقلّب الأسطوانات الكبيرة والأقراص المدمجة يبدو في الستينات من عمره، ذو شعر رمادي خفيف وكرش كبير، لكنني قادر على تمييز النظارة المربعة ذات الإطار الوردي في أي مكان.

أقول: «مرحبًا دونالد، أراك ما زلت محتفظًا بأسطوانتك».

يرفع دونالد يدها بصره ويبتسم قائلاً: «لا أذهب إلى حفل دونها أبدًا. هل أعرفك؟».

أقول: «لا. أمي تعرفك. حضرتُ حفلًا في بداية الستينيات كنت أنت مُنسّق الموسيقى فيه. قالت إنك جلبت أسطوانات والدك دون إذن منه». يبتسم ويسألني: «أجل، عانيتُ متاعب صعبة بسبب ذلك. مَنْ هي والدتك؟».

أقول: «أندريا روبرتسون». اخترت الاسم عشوائيًا. أندريا كانت أفضل طلابي في مادة الأدب الأمريكي.

يقول: «أجل، أتذكرها». لكن ابتسامته الغامضة تقول إنه لا يتذكرها.

- لا أظنك لديك أيّ من تلك الأسطوانات القديمة، صحيح؟

- ليست لدي بالطبع، ضاعت منذ زمن بعيد. لكن لدي جميع أغاني

الفرق الكبيرة في قرص مدمج. هل لديك طلب؟

- نعم، لكنه خاص نوعًا ما.

يضحك قائلاً: «أليست كلها خاصة؟».

أخبره بما أريده، ويوافق راغبًا في إرضاء الناس كعهدي به دومًا. وعندما أستدير عائداً إلى نهاية المربع السكني حيث توجد المرأة التي جئت لرؤيتها بمعية العمدة جوار أوعية الشراب، يهتف دونالد لي: «لم تقل لي اسمك».

أقول له فوق كتفي: «أمبرسون، جورج أمبرسون».

- وتريد بدء الأغنية عند الثامنة وخمس عشرة دقيقة؟
- دون أي تأخير أو تقديم. الزمن مهم يا دونالد، فلنأمل أن يتعاون معنا.
- وبعد خمس دقائق، يشغل دونالد بلنغهام أغنية آت ذا هوب، فيملأ الراقصون الشارع عند غروب شمس تكساس.

8

- عند الثامنة وعشر دقائق، يشغل دونالد لحناً بطيئاً لآلان جاكسون، حتى البالغون يمكنهم الرقص على إيقاعه. تُترك سيدي وحدها لأول مرة منذ انتهاء الخطابات، فأقترب منها، وقلبي يخفق بشدة تهز جسدي كله.
- الآنسة دنهل؟

تلتفت إلي، مبتسمة ناظرة إلى الأعلى قليلاً، إنها طويلة، لكنني أطول.

- نعم؟

- اسمي جورج أمبرسون، أود إخبارك بمدى إعجابي بك وبكل أعمالك العظيمة.
- تبدو ابتسامتها مشوشة قليلاً.

- شكراً لك سيدي. لا أعرفك، لكن اسمك يبدو مألوفاً. هل أنت من جودي؟

لم أعد قادراً على السفر عبر الزمن، وقطعاً لا يمكنني قراءة العقول، لكن رغم هذا أعرف ما يجول في عقلها: أسمع هذا الاسم في أحلامي.

أقول: «لست من جودي». وقبل أن تسألني مزيداً من الأسئلة عن نفسي، أتابع: «هل لي أن أسألك عما أثار اهتمامك بالخدمة العامة؟».

عندئذٍ أرى ابتسامتها شبحاً عند طرفي شفيتها.

- ولماذا تريد أن تعرف؟

- هل كان الاغتيال؟ اغتيال كينيدي؟

- لماذا... أظنه كان الدافع، بطريقةٍ ما. أود أن أقول إنني كنت لأوسع أنشطتي إلى العالم الأكبر على أي حال، لكن أظن أن البداية كانت من الاغتيال، إذ خُلف في هذا الجزء من تكساس...

ترتفع يدها اليسرى لا إرادياً نحو خدها، وتنخفض. تتابع: «... ندبة عميقة. أمبرسون، من أين أعرفك؟ لأنني متأكدة أنني أعرفك».

- هل لي أن أسألك سؤالاً آخر؟

تنظر إلي بحيرة متزايدة. ألقى نظرة سريعة على ساعتني. الثامنة وأربع عشرة دقيقة. اقترب الوقت. إلّا إذا نسي دونالد، بالطبع... لكن لا أظنه سينسى. أظن ثمة أغنية قديمة، من الخمسينيات ربما، تقول ما معناه إن بعض الأشياء مُقدَّر لها أن تحدث.

أسأله: «حفل سيدي هوكنز الراقص، في عام 1961. من الذي طلبت منه مساعدتك على الإشراف عندما أصيبت والدته المدربة بورمان بكسر في وركها؟ هل تتذكرين؟».

يفغر فمها، ثم يُغلق ببطء. العمدة وزوجته يقتربان منا، ويرياننا مستغرقين في نقاش، فيبتعدان. نصير كأننا معزولان في كبسولة صغيرة خاصة بنا. جيك وسيدي فحسب. كما كانا ذات يوم.

تقول: «دوغ هاغرتي. أحسست كأنني أشرف على الحفل مع أبله القرية. يا أمبرسون...».

لكن قبل أن تكمل كلامها، يرتفع صوت دونالد يلنغهام عبر ثمانية مكبرات صوت عالية، في الوقت المحدد تماماً: «حسناً يا أهل جودي، إليكم إحدى روائع الماضي، أفضل الأغاني حسب الطلب!».

ثم تبدأ، مقدمة سلسلة بالآت نفخ نحاسية تعزفها فرقة عفى الزمن عليها.

باه - داه - داه... باه - داه - دا - دي - دم...

تقول سيدي: «رباه! "إن ذا مُود"، كنت أرقص رقصة الليندي على إيقاع هذه الأغنية».

أمد لها يدي قائلاً: «هيا، فلنرقص».

تضحك وتهز رأسها.

- يؤسفني أن أيام رقصي وَلَّتْ منذ أمد بعيد يا أمبرسون.

- لكنك ما زلت قادرة على رقصة الفالس. وأرجوك خاطبيني بجورج.

في الشارع يبدأ الأزواج حركات جيتربُغ، قلة منهم يحاولون أداء رقصة ليندي هوب، لكن لا أحد منهم يستطيع أداءها كما كنا نؤديها أنا وسيدي في الماضي، لم يقترب أحد من مستوانا مجرد اقتراب.

تمسك بيدي كأنها امرأة في حلم. إنها في حلم حقاً، وأنا كذلك. ومثل كل الأحلام الجميلة، سيكون هذا قصيراً... لكن قصر الأحلام هو ما يجعلها جميلة، أليس كذلك؟ هذا ما أراه. فعندما يذهب الزمن تستحيل استعادته.

إضاءة الحفلات معلقة فوق الشارع، صفراء وحمراء وخضراء. سيدي تتعثر بكرسي شخص ما، لكنني مستعد لهذا وأمسك بذراعها بسهولة.

تقول: «أسفة. إنني خرقاء».

- لطالما كنت يا سيدي، وهذه إحدى صفاتك المُحبَّبة لدي.

وقبل أن تستفسر عما قلته، أضع ذراعي حول خصرها، وتضع ذراعها حول خصري وهي ما تزال رافعة بصرها إلي. تتراقص الأضواء منزلقة على خديها، وتبرق عيناها. تتشابك أصابعنا بسلاسة. يعتريني ارتياح التخفُّف من عبء السنوات المتراكمة بيننا كارتياح نزع معطف ثقيل ضيق. في تلك اللحظة يحدوني أمل واحد يطغى على ما سواه:

ألا يكون انشغالها قد منعها من الارتباط برجل صالح واحد على الأقل،
رجل خلّصها إلى الأبد من مكنسة جون كلايتون اللعينة.
تتكلم بصوت خافت تكاد الموسيقى أن تحجبه، لكنني أسمعها، كما
سمعتها دوماً: «من أنت يا جورج؟».

- شخص كنت تعرفينه في حياة أخرى يا عزيزتي.
ثم تأسرنا الموسيقى، الموسيقى تطوي السنوات، ونرقص.

2 يناير 2009 – 18 ديسمبر 2010

سarasوتا، فلوريدا

لوفيل، مَين

تعقيب

انقضى نحو نصف قرن منذ مقتل جون كينيدي في دالاس، لكن ثمة سؤالين ظلا دون إجابة حاسمة: هل كان ليّ أوزوالد حقًا هو من أطلق النار؟ وإذا كان هو، فهل اتخذ القرار وحده؟ لا شيء مما كتبته في 63/11/22 يجيب عن هذين السؤالين، لأن السفر عبر الزمن ليس سوى خيال شائق. لكن في حال أنكم مثلي يراودكم الفضول بشأن سبب استمرار طرح هذين السؤالين، يمكنني أن أقدم لكم ردًا مُقنعًا من كلمتين: كارين كارلين. وهي ليست مجرد هامش في سجلات التاريخ، بل هامش لهامش. ورغم هذا...

كان جاك روبي يملك ناديًا ليليًا اسمه كارسل، وكارلين، (اسمها المسرحي "ليتل لين") كانت ترقص فيه. في الليلة التالية ليوم الاغتيال، تلقى روبي مكالمة من الآنسة كارلين، التي كانت ينقصها خمسة وعشرون دولارًا من مبلغ إيجار ديسمبر وفي أمس الحاجة إلى قرض حتى لا تُطرَد إلى الشارع. هل سيساعدها؟

كان جاك روبي مشغولًا بشؤون أخرى، فلم يُسمع كارلين كلامًا طيبًا، كدأبه دومًا مع معظم من حوله. كان مصدومًا من مقتل رئيسه المبجل في مدينته، وتحدث مرارًا مع أصدقائه وأقاربه عن مدى أسفه لحال السيدة كينيدي وأطفالها، وأعرب عن امتعاضه من اضطراب جاكلي إلى العودة إلى دالاس لحضور محاكمة أوزوالد. قال إن الأرملة ستصبح فُرجة للبلاد بأسرها، وإن حُزنها سيُسْتَغَل لبيع صحف الفضائح. إلا إذا تعرض ليّ أوزوالد للموت، بالطبع.

كل مَنْ في قسم شرطة دالاس كانت تربطه معرفة بجاك، بدرجة أو بأخرى. هو و"زوجته" شيبا -الشبيهة بكلاب فصيلة الدّشهند- كانا يترددان كثيرًا على قسم شرطة دالاس، حيث كان روبي يوزع تذاكر دخول مجانية إلى أُنديته، وعندما يذهب رجال الشرطة إليه يقدم لهم مشروبات مجانية. لذا لم يستغرب أحد وجوده في القسم يوم السبت، الثالث والعشرون من نوفمبر. عندما ظهر أوزوالد أمام الإعلام، مُدّعيًا البراءة وعلى عينه كدمة سوداء، كان روبي حاضراً، ومعه مسدس (أجل، مسدس 38. آخر، لكن هذا كولد كوبرا)، وكان عازماً على إطلاق النار على أوزوالد به. لكن المكان كان مكتظاً، وأُبعد روبي إلى الخلف، ثم اقتيد أوزوالد إلى مكان آخر.

فاستسلم جاك روبي.

وفي وقت متأخر من صباح يوم الأحد، ذهب إلى مكتب وسترن يونيون، على بُعد نحو مربع سكني من قسم شرطة دالاس، وأرسل إلى "ليتل لين" خمسة وعشرين دولارًا. ثم عاد متسكّعًا نحو قسم الشرطة. كان قد افترض أن أوزوالد نُقل سلفاً إلى سجن مقاطعة دالاس، وفوجئ برؤية حشد أمام قسم الشرطة، رأى صحفيين، وعربات قنوات إخبارية، ومتفرجين عابرين. لم تتم عملية النقل في الوقت المحدد لها.

كان روبي يحمل مسدسه، وتسلسل إلى مرأب قسم الشرطة. لم يعترض طريقه أحد، حتى إن بعض رجال الشرطة ألقوا عليه التحية، ورد عليهم التحية. كان أوزوالد ما يزال في الطوابق الأعلى، في آخر لحظة قبل النقل كان قد طلب من سجانیه أن يسمحوا له بارتداء سترة، لأن قميصه فيه ثقب. وتغيير المسار لأخذ السترة استغرق أقل من ثلاث دقائق، لكنها كانت كافية. الحياة تتغير في طرفة عين. أطلق روبي النار على أوزوالد في بطنه. وفي أثناء تكالب عدد كبير من رجال الشرطة عليه، صاح: «مهلاً يا رفاق، أنا جاك روبي! كلکم تعرفونني!».

مات قاتل كينيدي في مستشفى باركلاند بعد ذلك بوقت قصير، دون أن يُدلي بتصريح رسمي. بسبب راقصة تعرّ تحتاج إلى خمسة وعشرين

دولارًا والحرص على المظهر بطلب ارتداء سترة، لم يُحاكَمْ أوزوالد على جريمته، ولم تسنح له فرصة حقيقية للاعتراف. آخر ما قاله في هذا الجزء من أحداث 22/11/63 كان: «أنا ساذج». والجدالات بشأن صدق قوله لم تنقطع قط.

في بداية الرواية، يقدر آل صديق جيك إبنغ أن احتمال أن يكون أوزوالد قد أطلق النار وحده نسبته خمسة وتسعون في المئة. وعندما قرأتُ كتبًا ومقالات عن الموضوع إذا وُضعتُ فوق بعضها قد يبلغ ارتفاعها طولي، أقدر النسبة بثمانية وتسعين في المئة، وربما تسعة وتسعين. لأن جميع السرديات، بما فيها التي كتبها أصحاب نظريات المؤامرة، تروي القصة الأمريكية البسيطة نفسها: شخص خطير باحث عن الشهرة حالفه الحظ بأن وجد نفسه في المكان المناسب. هل كان احتمال حدوث ذلك احتمالاً ضئيلاً؟ نعم. وكذلك احتمال الفوز باليانصيب، لكن شخصاً يفوز به كل يوم.

أهم المصادر التي استفدتُ من قراءتها استعداداً لكتابة هذه الرواية كانت أُغْلِقَت القضية لجيرالد بوزنر، وأسطورة لإدوارد جاي إيبستين (قصة جنونية كروايات روبرت لودلم) وحكاية أوزوالد لنورمان ميلر، ومرأب السيدة باين لتوماس مالون. يقدم الكتاب الأخير تحليلًا عبقرياً لحجج أصحاب نظريات المؤامرة وحاجتهم إلى إيجاد ترتيب منطقي في حدث يكاد أن يكون عشوائياً. وكتاب ميلر أيضاً مميز، يقول إنه بدأ مشروعه (الذي تضمّن مقابلات طويلة مع الروس الذين عرفوا لي ومارينا في منسك) معتقداً أن أوزوالد كان ضحية مؤامرة، لكن في النهاية صار يعتقد، متردداً قليلاً، أن أعضاء "لجنة وارن" العواجيز المُمْلَين كانوا محقّين: أوزوالد تصرّف وحده.

من الصعب جداً على شخص عقلاني أن يرى خلاف ذلك. التفسير البسيط غالباً ما يكون هو الصحيح.

كما أعجبتُ، وتأثرت، بقراءتي الثانية لكتاب ويليم مانشستر، موت رئيس. جانبُه الصواب تماماً في بعض الأشياء، مع ميله للميلودراما

واللغة المُنمَّقة أحيانًا (مثلًا وصفه مارينا أوزوالد بأنها «ذات عيني وَشَق»)، وتحليله لدوافع أوزوالد سطحي وعدائي. لكن كتابه الضخم، الذي نُشر بعد أربع سنوات فقط من ذلك اليوم الرهيب في دالاس، هو الأقرب إلى وقت الاغتيال، كُتِبَ ومعظم من لهم صلة بالأحداث ما زالوا أحياء وذكرياتهم ما تزال جليَّة. كلهم تحدثوا إلى مانشستر، إذ كان مُسلِّحًا بموافقة جاكليين كينيدي المشروطة على مشروعه، وكان وصفه لردود الفعل بعد الاغتيال بأسلوب مبالغ فيه، لكن سرده لأحداث يوم 11/22 جليٌّ يبعث القشعريرة، كلقطات فيديو زابرودر مجسَّدة بالكلمات.

في الحقيقة لم يتحدث إليه كل الناس. مارينا أوزوالد لم تتحدث إليه، وتعامل مانشستر القاسي معها لاحقًا ربما يكون له صلة بذلك. كانت مارينا (وهي ما تزال حية في وقت كتابة هذه السطور) تضع نصب عينيها فرصة مواتية في أعقاب فِعلة زوجها الجبان، ومَن عساه أن يلومها؟ من يريدون قراءة روايتها الكاملة سيجدونها في كتاب مارينا ولي، لبرسلا جونسون مكميلان. لا أثق بما تقوله مارينا في الكتاب (إلا إذا دعمته مصادر أخرى)، لكنني، على مضض، أحييها على مهارات البقاء التي تتحلَّى بها.

حاولتُ كتابة هذا الكتاب عام 1972، لكن تخليت عن المشروع لأن البحث الذي يتطلبه بدا عسيرًا على رجل يعمل مُدرِّسًا بدوام كامل. وثمة سبب آخر. حتى بعد تسع سنوات من الواقعة، كان الجرح ما يزال نازفًا. يسعدني أنني أرجأت المشروع. وعندما قررت البدء أخيرًا، لجأت، بطبيعة الحال، إلى صديقي القديم رَس دور ليساعدني على البحث، وقد وفَّر لي نظام دعم رائع عند كتابة كتاب طويل آخر، تحت القبة *Under the Dome*، ومرة أخرى ارتقى إلى مستوى التحدي. أكتبُ هذا التعقيب محاطًا بأكوام من مواد البحث، أتمنأ الفديوهات التي صورها رَس في أثناء رحلاتنا المتكررة (والمرهقة) إلى دالاس، ورسائل بريد يبلغ ارتفاعها قدمًا وصلَّتني ردًّا على استفساراتي عن كل شيء، من بطولة

العالم للبيسبول عام 1958 إلى تقنيات أجهزة التنصت في منتصف القرن العشرين. وكان رس هو من توصل إلى موقع منزل إدوين ووكر، الذي صادف وقوعه في مسار موكب 11/22 (الماضي يتناغم)، ووجد رس أيضًا، بعد البحث في كثير من سجلات دالاس، العنوان المحتمل لمنزل الرجل الغريب المريب جورج دي موهرنشيoldt في عام 1963. وبالمناسبة، أين كان دي موهرنشيoldt في ليلة 10 أبريل 1963؟ على الأرجح في نادي كارسل، لكن إذا كان لديه إثبات لوجوده في مكان آخر في وقت وقوع محاولة اغتيال الجنرال، فلم أعثر عليه.

أكره أن أضجركم بكلمة استلام جائزة أوسكار، أنزعج عندما يفعل الكتّاب هذا، لكن رغم هذا لا بد لي من رفع القبة لأناس آخرين. أولهم غاري ماك، أمين "متحف الطابق السادس" بدالاس، أجاب عن مليارات الأسئلة، أحيانًا مرتين أو ثلاث مرات قبل أن ترسخ المعلومة في رأسي البليد. جولة مستودع الكتب المدرسية بتكساس كانت مهمة ضرورية ثقيلة، خففها غاري بسرعة بديهته ومعرفته الموسوعية.

والشكر واجب أيضًا لنيكولا لونغفورد، المدير التنفيذي لمتحف الطابق السادس، وميغان براينت، مديرة المقتنيات والملكية الفكرية. ولبراين كولنز وريتشل هويل اللذين يعملان في قسم التاريخ بمكتبة دالاس العامة وأتاحا لي الاطلاع على أفلام قديمة (بعضها مضحك جدًا) تصوّر مظهر المدينة بين عامي 1960 و63. ولسوزان رتشاردز من جمعية دالاس التاريخية، وأيمي برمفيلد وديفيد رينولدز، وموظفي فندق أدولفس. ولمارتن نوبلز مواطن دالاس القديم الذي قاد بنا، أنا ورس، السيارة في أنحاء المدينة، واصطحبنا إلى صالة سينما تكساس، المغلقة حاليًا، حيث أُلقي القبض على أوزوالد، وإلى منزل إدوين ووكر السابق، وإلى جادة غرينفيل (لم تعد تعج بالحانات والمواخير كما كانت ذات يوم)، وإلى شارع مرسيدس، حيث لم يعد المنزل رقم 2703 موجودًا، وفي الحقيقة عصف به إعصار... لكن ليس في عام 1963.

وأرفع القبة أيضًا لمايك مكيشرن، "مايك الصامت"، الذي تبرع باسمه لأغراض خيرية.

وأود أن أشكر دورس كيرنز غودوين وزوجها، المساعد العسكري السابق لكينيدي، دك غودوين، على تجاوبهما مع أسئلتني بشأن أسوأ السيناريوهات إذا لم يمُت كينيدي. تولَّى جورج والاس الرئاسة كان فكرتهما... لكن عند تفكيري بالأمر ازددت اقتناعًا بمعقولية الاحتمال. ابني، الروائي جو هيل، نبَّهني إلى عدد من تداعيات السفر عبر الزمن لم أكن قد وضعتها في حُسباني، وأتى بفكرة نهاية جديدة وأفضل. أنت رائع يا جو.

وأود أن أشكر زوجتي، قارئتي الأولى وناقديتي الصارمة والموضوعية. وهي داعمة متحمسة لكينيدي، رأته شخصيًا قبل مدة ليست بالطويلة من موته، ولم تنس رؤيته قط. وبما أن تابيتا معارضة طوال حياتها (لا يفاجئني هذا وينبغي ألا يفاجئكم) فهي في صف أصحاب نظريات المؤامرة.

هل أخطأت في بعض الأشياء في هذا الكتاب؟ بالتأكيد. هل غيَّرتُ بعض الأشياء لتناسب مسار قصَّتي؟ بالطبع. على سبيل المثال، صحيح أن لي ومارينا ذهبا إلى حفل ترحيب أقامه جورج بوهي وحضره معظم المهاجرين الروس في المنطقة، وصحيح أن لي كان يمقت ويزدري أولئك البرجوازيين من الطبقة الوسطى الذين أداروا ظهورهم لروسيا الأم، لكن الحفل أقيم بعد ثلاثة أسابيع من اليوم المذكور في كتابي. وصحيح أن لي ومارينا والرضيعة جُون كانوا يعيشون بالطابق الأعلى في المنزل رقم 214 بشارع ويست نيلي، لكن ليست لدي فكرة عمن كان يعيش بشقة الطابق الأسفل، إذا عاش فيها أحد. لكنه المنزل الذي زرته، واستخسرت عدم استخدام تفاصيله في قصتي. كان مكانًا بائسًا. بيد أنني التزمت بالحقائق في معظم ما كتبت.

بعض الناس سيحتجّون قائلين إنني قسوتُ على مدينة دالاس، لكنني أخالفهم الرأي، في الحقيقة السرد بضمير المتكلم، جيك إينغ، جعلني أترفّق في وصف المدينة كما كانت في عام 1963. كانت دالاس مكاناً بغيضاً في يوم هبوط كينيدي بمطار لوف فيلد. رُفعت أعلام الولايات المتحدة مقلوبة، ورفعت أعلام الكونغرس معتدلة. وبعض الجماهير رفعوا لافتات مكتوباً عليها: ساعدوا كينيدي على سحق الديمقراطية. وقبل وقت ليس بالطويل من ذلك اليوم في نوفمبر، تعرض أدلاي ستيفنسون وليدي بيرد جونسون لحمامات بواق من مُصوّتي دالاس. والذين بصقوا على السيدة جونسون كانوا ربات بيوت من الطبقة الوسطى.

الوضع أفضل اليوم، لكن ما زالت تُرى لافتات في الشارع الرئيسي مكتوب عليها: ممنوع الدخول إلى الحانة بالمسدسات. هذا مجرد تعقيب، ليس مقالة افتتاحية، لكنني متمسك برأيي في هذا الموضوع، تحديداً نظراً إلى المناخ السياسي في بلادي. إذا أردتم معرفة ما يمكن أن يُفضي إليه التطرف السياسي، ف شاهدوا فيلم زابرودر، وركّزوا على الإطار رقم 313، عنده ينفجر رأس كينيدي.

وقبل أن أختم، أود أن أشكر شخصاً آخر، الراحل جاك فيني، أحد أعظم كتّاب القصة القصيرة والفنتازيا في أمريكا. إلى جانب سارقو الأجساد *Body Snatchers* كتب رواية مراراً وتكراراً *Time and Again*، التي أعدها، في رأيي المتواضع، أعظم قصة سفر عبر الزمن. كنت أنوي إهداء هذا الكتاب إليه، لكن في يونيو الماضي استقبلتُ عائلتنا حفيدة جديدة، لذا يذهب الإهداء إلى زيلدا.

إنني متأكد أنك ستفهم يا جاك.

ستيغن كينج

مكتبة

t.me/soramnqraa

للاطلاع على إصدارات أخرى للكاتب:

يمكنك زيارة صفحة الكاتب
على موقع عصير الكتب



11.22.63

في الثاني والعشرين من نوفمبر 1963 دَوَّتْ ثلاث طلقات في دالاس، قتلت الرئيس كينيدي، وتغيّر العالم. ماذا لو أمكن تغيير ذلك؟ في هذه الرواية الرائعة، نجد ستيفن كينج يبدع في استيعاب الأحوال الاجتماعية والسياسية والثقافية السائدة في جيله استيعاباً شاملاً غير مسبوق، ويصطبغ القراء في رحلة مذهلة إلى الماضي ويستكشف معهم إمكانيّة تغييره.

تبدأ القصة بـجيك إينغ، مُعلِّم لغة إنجليزية في ليسبون فولز بولاية مين، يكسب أموالاً إضافية من تدريس صفوف معادلة شهادة الثانوية الأمريكية العامة، يكلّف طلابه بكتابة مقالات عن حدث غيّر حياتهم، وتصدمه إحدى المقالات، قصة مروعة وقعت أحداثها في ليلة قبل أكثر من خمسين عامًا عندما جاء والد هاري دَينغ إلى المنزل وقتل والدته وشقيقته وشقيقه بمطرقة ثقيلة. تمثل قراءة المقال لحظة فارقة لجيك، فتتغيّر حياته، مثلما تغيّرت حياة هاري وتغيّر التاريخ الأمريكي سنة 1963. كل شيء تغيّر في طرفة عين. وبعد وقت ليس بالطويل من قراءة جيك للمقال، يقابل صديقه آل، الذي يملك مطعمًا محليًا، ويفشي آل له سر أن مستودع المؤن في مطعمه.. منقذ إلى الماضي، إلى يوم بعينه في سنة 1958. ويختار آل جيك لتولي المهمة التي أصبحت شغله الشاغل، مهمة منع اغتيال كينيدي.



غلاف: محمود هشام

مكتبة

t.me/soramnqraa



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb